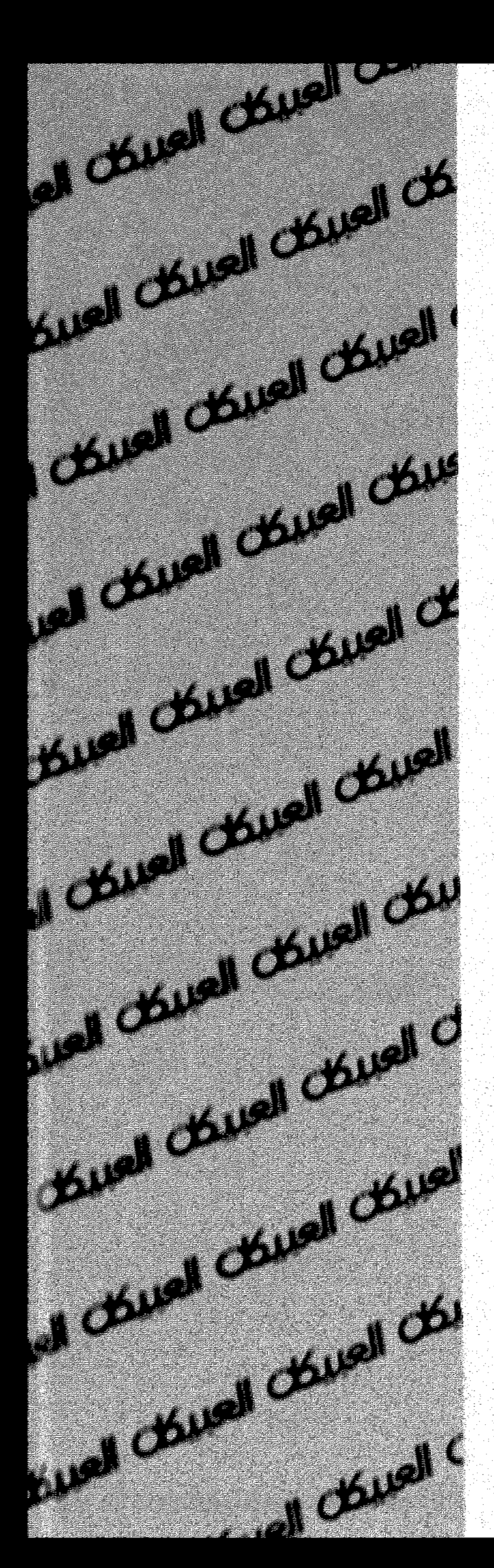
أنطوني سامبسون

مانديلا

السيرة الموثّقة

مكتبة العبيكان



إن حياة نلسون مانديلا، من منظوريها الشخصي والعالمي ملحمة من ملاحم القرن العشرين، ومن أعظمها إلهاماً. لقد كان مانديلا، قبل عشرين سنة، نسياً منسياً في سجن على جزيرة «روبين». أما اليوم، وقد غادر موقع الرئاسة في جنوب إفريقية، فهو محطُّ الإعجاب والتقدير كواحد من أعظم قادة الأرض.

لقد فتح مانديلا لمؤلف هذا الكتاب سبيلاً غير مسبوق إلى رسائله التي أرسلها من سجنه، والتي لم تنشر من قبل، إلى جانب كتابات أخرى لم تنشر من قبل أيضاً؛ من ضمنها سيرته الذاتية التي بقيت مكتومة، وبذلك مكّن مانديلا مؤلف الكتاب من تدوين أشمل وأوسع عمل يبحث في حياته حتى هذا اليوم. لقد عرف «أنطوني سامبسون» مانديلا منذ بداية خمسينات القرن العشرين، وقد قام بمئات من المقابلات الشخصية مع زملاء لمانديلا، وأصدقائه، وأفراد أسرته، كما قابل سجّانيه، وأفارقة ووزراء سابقين، وهو أول شخص يطلعُ على أرشيف السجن في جنوب إفريقية، وعلى الوثائق الدبلوماسية فيها، وفي بريطانية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

ونتيجة لذلك، فإن الكتاب يسلّط أضواءه على كل منعطف في خيارات مانديلا المناقبية والشخصية في حياته الخاصة والعامة. لقد دفع مانديلا ثمنا مأساويا لصراعه من أجل الحرية ضد نظام التمييز العنصري، مما أوقع العداء مع زوجه «ويني» وأبعده عن أولاده. أما السجن، الذي كان له ما يشبه معهدا جامعيا، فقد حوّل مانديلا من «ثائر فج» إلى رجل دولة من الطراز الأول كرّس نفسه للوفاق.

يلقي الكتاب أضواء كثيرة ببصيرة نافذة على قصة مانديلا. إنه يبيّن كيف عامله دبلوماسيو بريطانيا وأمريكا بازدراء واستخفاف عندما دخل السجن؛ وكيف أدرك الحاجة لمؤسسة حرة في بيان له كتمه الشيوعيون وعتموا عليه؛ وكيف هدّده واتهمه زملاء له بأنه يبيع قضيته للحكومة العنصرية خلال سنوات سجنه الأخيرة؛ وكيف شجّع الجناحُ اليميني البريطاني زعيم قبائل الزولو «بوثليزي» في حربه ضد المجلس الوطني الإفريقي؛ وكيف وضع مانديلا ثقته في ب. و. بوتا بينما تجده لم يثق بـ ف. و. دي كلارك.

لم يكتم المؤلف مشاعر مانديلا الشخصية، وعناده، وولاءاته الثابتة، وانفصاله عن نشأته كأمير وعدم احتفائه بها. والقصة الإنسانية التي تبزغ من هذه السيرة الإبداعية الموثّقة إنما هي متمّمة لسيرة مانديلا الذاتية الشهيرة، ولسوف تأسر قلوب قرائها.

Originally Published in English by Harper Collins Publishers Ltd under the title:

Mandela: The Authorised Biography

طريق الملك فهد، ص.ب. 6672، الرياض 11452
المملكة العربية السعودية
Obeikan Publishers, North King Fahd Road,
P.O.Box 6672, Riyadh 11452, Saudi Arabia
الطبعة العربية الأولى 1421 هـ ـ 2001م
ISBN 9960-20-829-X

© مكتبة العبيكان، 1421 هـ ـ 2001

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سامبسون، أنطوني
مانديلا: السيرة الموثّقة تعريب: هالة النابلسي وغادة الشهابي
952 ص، 17 × 24 سم
ردمك: 9960-20-829-X
1 ـ مانديلا، نيلسون ـ 2 ـ جنوب إفريقية (الأحوال السياسية)
ب ـ العنوان
ديوي 923,1968 21 ـ 4431

رقم الإيداع: 21 ـ 4431
ردمك: 9960-20-829-X

ماندیلا

السيرة الموثّقة

أنطوني سامبسون

تعريب:
هالة النابلسي و غادة الشهابي

مكتبة العبيكان

كتب للمؤلف

DRUM: A VENTURE INTO THE NEW AFRICA
THE TREASON CAGE
COMMONSENSE ABOUT AFRICA
ANATOMY OF BRITAIN
ANATOMY OF BRITAIN TODAY
MACMILLAN: A STUDY IN AMBIGUITY
THE NEW EUROPEANS
THE NEW ANATOMY OF BRITAIN
THE SOVEREIGN STATE
THE SEVEN SISTERS
THE ARMS BAZAAR
THE MONEY LENDERS
THE CHANGING ANATOMY OF BRITAIN
EMPIRES OF THE SKY
BLACK AND GOLD
THE MIDAS TOUCH
THE ESSENTIAL ANATOMY OF BRITAIN
THE OXFORD BOOK OF AGES (with Sally Sampson)
COMPANY MAN
THE SCHOLAR GYPSY

المحتويـات

صور إيضاحية

بين صفحتي 224 و225

الروندافيل البسيط المسقوف بالقش الذي كان منزل مانديلا اليافع منذ عمر تسع سنوات (صورة منسوخة. الشكر لمكتبة صور مركز ميبوي).

الزعيم جونغينتابا داليندييو الوصي على مانديلا خلال معظم أيام شبابه.

مانديلا في عمر التاسعة عشر (صورة منسوخة. الشكر لمكتبة صور مركز ميبوي).

في سنة 1944 تزوج مانديلا في جوهانسبورغ من إيڤلين ميز (صورة منسوخة. الشكر لمكتبة صور ميبوي).

مانديلا في مكاتب مانديلا وتامبو (تصوير جورجين شادبرغ) جوهانسبورغ السوداء في الخمسينات كانت تزخر بالطاقة الإبداعية (تصوير جورجين شادبرغ).

مانديلا مستغرق في الاحتجاجات ضد حكومة الأبارثيد، مع سيسولو وجي. بي. ماركس وروث فيرست (تصوير جورجين شادبرغ).

في حملة التحدي سنة 1952 كان مانديلا يعمل جنباً إلى جنب مع المحافظ الدكتور موروكا والشيوعي الدكتور دادو (تصوير جورجين شادبرغ).

كان مانديلا يمارس الملاكمة بانتظام مع أبطال الملاكمة مثل جيري مولوي (تصوير بوب غوساني لصالح مجلة درام أرشيف تاريخ إفريقية لـ بيلي ـ مكتبة الصور).

المتهمون في قضية الخيانة التي بدأت سنة 1957.

زفاف مانديلا لعروسه الثانية ويني في سنة 1958.

ويني ومانديلا وابنتهما الثانية زيندزي، أُخذت الصورة في سنة 1961 (تصوير آلف كومالو).

مانديلا في قضية الخيانة سنة 1958 (تصوير جورجين شادبرغ).

مانديلا يحرق جواز مروره في الفوضى التي أعقبت مجزرة شاربفيل سنة 1960 (تصوير IDAF/Sipa Press/Rex Features).

بين صفحتي 480 و481

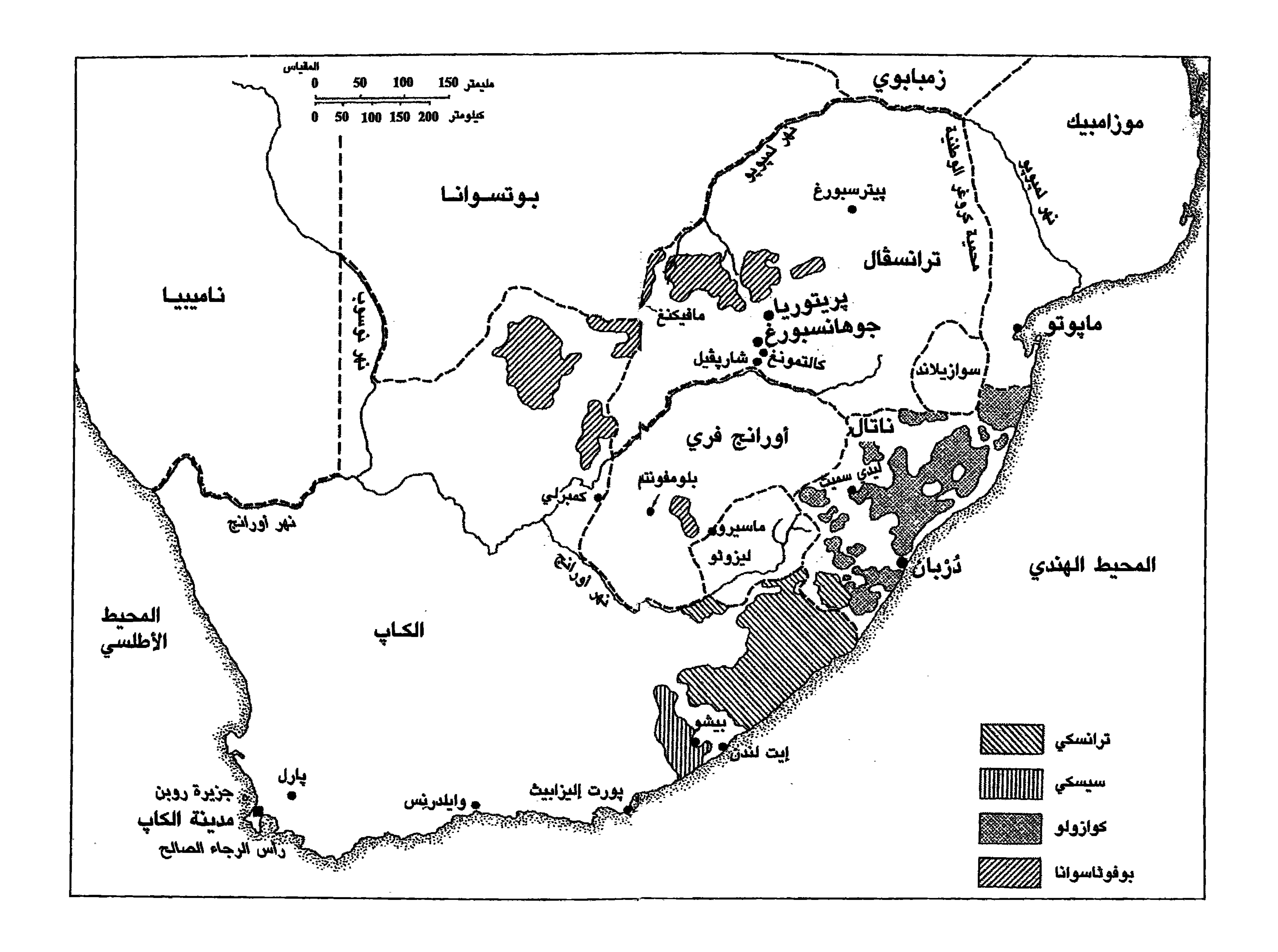
مانديلا يقابل أوليڤر تامبو المنفي في مؤتمر في أثيوبية سنة 1962 (صورة منسوخة، الشكر لمركز ميبوي ـ مكتبة الصور).

في القيادة العسكرية في الجزائر، التقى مانديلا وروبرت ريشا بالقادة الثوريين واستمع إلى نصائحهم حول حرب العصابات.
مانديلا في لندن في حزيران (يونيو) 1962 (تصوير ماري بنسون).
الرجال الثمانية الذين صدر بحقهم حكم بالسجن المؤبد في قضية ريفونية سنة 1964 (صورة منسوخة. الشكر لمركز ميبوي ـ مكتبة الصور).
أتت والدة مانديلا إلى بريتورية سنة 1964 لتحضر محاكمة ابنها، وشاهدته وهو يتلقى الحكم بالسجن مدى الحياة. وبعد ذلك بأربع سنوات زارته في جزيرة روبين، وماتت بعد ذلك ببضعة أسابيع (تصوير آلف كومالو).
سجناء من ضمنهم مانديلا في باحة السجن في جزيرة روبين سنة 1965 (تصوير جوهان كوز ـ سيبا بريس ـ ريكس فيتشرز).
مانديلا وسيسولو في جزيرة روبين (صورة منسوخة. الشكر لمركز ميبوي ـ مكتبة الصور).
قيصر ماتانزيما، ابن أخت مانديلا الذي كان بطله في وقت مبكر، يزور ويني في سويتو (تصوير آلف كومالو).
مانديلا في الحديقة في جزيرة روبين سنة 1977 مع القائد الناميبي تويفو جا تويفو وجاستيس مبانزا (تصوير رويترز ـ بوبرفوتو).
صور مانديلا:
زير النساء الوسيم مع زوجه الشابة الجميلة ويني (صورة منسوخة. الشكر لمركز ميبوي ـ مكتبة الصور).
«كزبرة الثعلبي السوداء» الملتحي (صورة منسوخة ـ الشكر لمركز ميبوي ـ مكتبة الصور).
الأمير الكزوسي يرتدي الزي القبلي لمحاكمته في سنة 1962.
تمثال نصفي (أوسع من الحياة) لمانديلا في الضفة الجنوبية للندن يكشف الستارة عنها أوليڤر تامبو سنة 1985 (تصوير جوليان إيدلشتاين ـ مكتبة الصور).
مانديلا يخرج من السجن وقد وضع يده بيد ويني (تصوير آرغوس ـ آ ـ إفريقية ـ مكتبة الصور).
أول لقاء بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة في أيار (مايو) سنة 1990 (تصوير بيني غول Picture NET Africa/ ـ مكتبة الصور).

بين صفحتي 704 و705

مانديلا وديكليرك في مؤتمر السلم الوطني في جوهانسبورغ في أيلول (سبتمبر) سنة 1991،

يبتسمان. . . (تصوير رودجر بوش /I. Africa/ ـ مكتبة الصور). . . ويحملقان (تصوير رودجر بوش /I-Africa/ ـ مكتبة الصور).
زعيم الزولو بوثيليزي يرفض مصافحة مانديلا وديكليرك في نهاية المؤتمر. (تصوير لويز غوب /I. Africa/ مكتبة الصور).
مانديلا وأرملة هيندريك فير وورد في الرابعة والتسعين من عمرها (تصوير هينر فرانكينفيلد / Picture NET Africa/ ـ مكتبة الصور).
مانديلا يزور تمثال فيروورد (تصوير رويترز /Popperfoto).
مانديلا وبيرسي يوتار، الذي ساعد كمدَّع عام في سجنه لمدة سبع وعشرين سنة (تصوير لويز غوب /I. Africa/ ـ مكتبة الصور).
مانديلا وبي. دبليو. بوثا (تصوير بي إيه نيوز).
مانديلا يقدم كأس العالم للركبي لسنة 1995 لفرانسوا بينار كابتن فريق سبرينغبول (تصوير بي إيه نيوز).
مانديلا ويني مع المحاميين إسماعيل أيوب وجورج بيزوس أثناء محاكمة ويني سنة 1991 لاختطاف ستومبي سيبي (تصوير مكتبة الصور).
مانديلا يصطحب الرئيس كلينتون ليريه زنزانته القديمة في جزيرة روبين (تصوير بي إيه نيوز).
مانديلا والملكة أثناء زيارته الرسمية لبريطانية سنة 1996 (تصوير لويز بوللر ـ أسوشيتد برس).
مانديلا مع ديانا أميرة ويلز (تصوير بي إيه نيوز).
مانديلا مع مجموعة من أحفاده (تصوير سيفيوي مهلامبي ـ سيغما).
مانديلا مع غراكا ماتشيل (تصوير أسوشيتد برس).
ثابومبيكي يخلف مانديلا في رئاسة المؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) سنة 1997 (تصوير بي إيه نيوز).
حفل عيد ميلاد مانديلا الثمانين في تموز (يوليو) سنة 1998 أصبح أيضاً حفل زواجه من غراسا (تصوير سيغما).


المقياس
0 50 100 150 مليمتر
0 50 100 150 200 كيلومتر
زمبابوي
موزامبيك
بوتسوانا
ناميبيا
بيترسبورغ
ترانسڤال
بريتوريا
جوهانسبورغ
مافيكنغ
كالتمونغ
شارپڤيل
سوازيلاند
مابوتو
أورانج فري
ناتال
ليدي سميث
بلومفونتين
كمبرلي
ماسيرو
ليزوتو
دُربان
المحيط الهندي
نهر أورانج
المحيط
الأطلسي
الكاب
بيشو
إيت لندن
پارل
جزيرة روبن
مدينة الكاب
رأس الرجاء الصالح
وايلدرنس
پورت إليزابيث
ترانسكي
سيسكي
كوازولو
بوفوثاسوانا

المقدمة

إني أُدرك الفرصة والمسؤولية غير العاديتين اللتين أخذتهما على عاتقي في تأليف هذا الكتاب. وعندما كتبت للرئيس مانديلا في سنة 1995 لأقترح عليه أن يسمح لي بكتابة سيرته الذاتية، دعاني لتناول طعام الإفطار في بيته في جوهانسبرغ، وأخبرني عن رغبته في أن أقومَ بكتابتها نظراً لصداقتنا الطويلة، واشترط مازحاً أن لا أذكر أننا تعارفنا أولاً في حانة غير مرخصة. وذكّرني أنه قرأ كتابي «التحليل البنيوي لبريطانيا» Anatomy of Britain يوم كان ينتظر إجراء محاكمته في سنة 1962. وقد وعدني بأن يبحث معي في أمور دقيقة حرجة، محاولاً أن يضمن دقة الوقائع والأحداث، وأن يُطلعني على رسائل ووثائق تتعلق بهذا الموضوع، على أن يترك لي حرية الحكم والنقد. وأضاف أن التعلُّم من الأخطاء هامّ جداً، وألَحَّ قائلاً: «أنا لستُ ملاكاً».

لقد كان من حسن حظي أني عرفت مانديلا قبلاً في جوهانسبرغ سنة 1951، ثم شاهدته في مواقف مصيرية عدة؛ خلال السنوات العشر التالية قبل سجنه. وقد التقيت به أولاً بعد حضوري إلى جنوب إفريقية لتحرير مجلة السود «درم» Drum، التي فتحت جميع الأبواب المؤدية إلى العالم الصاخب المثير للكتّاب والموسيقيين والسياسيين السود في جوهانسبرغ، حيث كان مانديلا يتحرك، إذ أعطاني موقعاً متقدماً لأشهد منه المعارضة السوداء المتصاعدة ضد الحكومة العنصرية التي وَصَلَت إلى السلطة سنة 1948.

لقد حضرت مؤتمر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي ANC الذي أيّد حملة التحدي في سنة 1952؛ وكنت أُراقب مانديلا وهو يقوم بتنظيم المتطوعين

الأوائل وتعبئة المقاومة في سنة 1954 لمقاومة تدمير حي «صوفيا تاون»، ذلك الحي الفقير المتعدد الأعراق، حيث قضيت عدداً من أُمسياتي السعيدة. ولطالما رأيتهُ في سنة 1957 في «محاكمة الخيانة» التي أَلَّفْتُ عنها كتاباً في وقتٍ لاحق؛ وفي سنة 1960، قُمتُ بتغطية أحداث «شارپڤيل» Sharpeville كمراسل لصحيفة «الأوبزيرڤر»، وأَجريتُ مقابلةً مع مانديلا في «سويتو» Soweto عقب المذبحة مباشرةً. وكانت آخر مرة رأيته فيها، وكانت مؤلمة مؤثرة، سنة 1964، عندما كنت أُتابع محاكمة «ريڤونيا» Rivonia في پريتوريا Pretoria، مما أَعطاني الفرصة لرؤية الخطاب الأَخير الذي كان يُعِدُّهُ في ذلك الوقت.

ولم أتمكن كصحافي من رؤية مانديلا خلال سنوات سجنه التي بلغت سبعاً وعشرين سنة، لكني زرت جنوب إفريقية السوداء ثانية، وبقيت على اتصال بالمنفيين في لندن وأَماكنَ أُخرىٰ. وفي أَواسط الثمانينات، عندما كان الصراع يتفاقم، كنت رأيت أُوليڤر تامبو رئيس حزب «المؤتمر الوطني الإفريقي A.N.C.» عدة مرات في لندن، وهيّأت له لقاءات مع رجال الأعمال، وكنت كثيراً ما أَتحدث إلى ويني مانديلا هاتفياً. لقد عدت إِلى جوهانسبرغ بسبب أَزمتَيْ 1985 و1986. وكنت أُعِدُّ كتاباً يتناول سياسة السود وأعمالهم بعنوان «السود والذهب»، وذلك قبل أن تمنعني حكومة جنوب إفريقية من العودة في سنة 1986. ثم رُفِعَ الحظر عني بشكل مؤقت في الوقت المناسب تماماً لعودتي قبل إطلاق سراح مانديلا من السجن في شباط (فبراير) من سنة 1990. وفي الفترة التالية كنت أَقوم بزيارته مرتين في كل أُسبوع في بيته في سويتو، وقد قابلته مراراً خلال السنوات الأَربع التالية في كُلٍّ من لندن ـ حيث طلب مني أَن أَقوم بتقديمه في لقاءات جمع التبرعات ـ وفي جوهانسبرغ، التي ترددت إِليها مراراً، حيث كنت أُتابع انتخابات نيسان (أبريل) من سنة 1994.

لقد قمت بعدة رحلات في أَنحاء جنوب إفريقية مع زوجتي سالي مُذ بدأت كتابي هذا، في محاولة مني لجمع أطراف أُحجية حياة مانديلا المتنوعة،

حيث كان يتعمق في نفسي مشهد التغيير السريع الذي نعيشه. ولقد رأَيت الرئيس مانديلا في مواقع متباينة: في مكاتبه وفي مسكنه في كل من بريتوريا وكيب تاون، وفي بيته الخاص في (هوتن) في جزيرة (روبن)، وفي ولائم ومؤتمرات، وفي البرلمان في (كيب تاون)، وفي هيئة الأُمم المتحدة بنيويورك، وبمناسبات رسمية في (لندن). وسافرت إلى (غريت بلايس) حيث نشأ مانديلا في (ترانسكي)، وذهبت إلى بيته الجديد في (كونو) وتحدثت إلى عشرات من أصدقائه وزملائه القدامى، كما تحدثت إلى مناوئيه في الماضي، سواء كان منهم السجَّان أو الموظف أو الزعيم السياسي ومنهم الرئيس السابق ف.و. ديكليرك في كيب تاون، ووزير الخارجية السابق بِك بوتا في (ترانسڤال).

لقد أَعطت سيرة مانديلا الذاتية المؤثرة التي نُشِرَت في سنة 1994 بعنوان «المسيرة الطويلة إلى الحرية» سجلات ذاتية لتطوره السياسي لا تقدر بثمن. وقد تلقيتُ من معاونه (ريتشارد ستنغل) إرشادات سخية، فقد أفدت من مقابلاته المسجلة مع مانديلا. كما سُمِحَ لي بالاطلاع على المذكرات غير المنشورة التي كتبها مانديلا في السِّجن. ورأَيتُ المخطوطة الأَصلية التي كتبها بخط يده. أما السيرة الذاتية لمانديلا التي نُشِرَتْ عندما أصبح رئيساً، ومع نهجه في التحفظ السياسي والتواضع، فإنها تترك مجالاً واسعاً لصورة متعددة الوجوه تصفه من خلال رؤية الآخرين له وتُبَيِّنُ كيف تعامل مع الأَصدقاء ومع الأَعداء، ووضعت حياته في إطار عالمي.

كنت، في تأليفي هذا الكتاب، أُحاول أن أَعرض الحقائق القاسية لحياة مانديلا، الطويلة والمحفوفة بالمخاطر، كما بدت له ولأَصدقائه في زمنها، مجردةً من بريق الأُسطورة والرومانسية، متقصياً تعاظُمَ صورة مانديلا المتألقة عندما كان سجيناً، والتي اكتسبت تأثيرها وقوَّتها الخاصة في شتى أَنحاء المعمورة، كما حاولتُ أَن أَعرِض كيف استطاع السجين أَن يَربط الرَّمز بالواقع.

لقد أوليتُ سنين سجن مانديلا الطويلة اهتماماً خاصاً، وساعدني على

ذلك مقابلات شاملة أُجريت معه، والرسائل والوثائق التي لم تُنشر، فقصّة سجن مانديلا لها قيمة فريدة عند كاتب السيَرة، إذ تُوَفِّرُ، بما فيها من زخم إنساني واختبارات للشخصية، مسرحية صادقة حميمة أكثر مما هي مهرجاناً تاريخياً واسع المدى؛ حيث أصبحت علاقات مانديلا بأصدقائه وسجانيه مسرحية درامية عالمية ذات مغزى وأَهمية تجاوزت السياسة الإفريقية. إن سنين سجن مانديلا تُصَوَّر غالباً كفجوة طويلة في مجرى حياته السياسية، غير أني أراها مفتاحاً لتطور شخصيته بتحوله من ناشط عنيد إلى رجل دولة عالي المستوى، كثير التأمل، ذاتي الانضباط.

وأُحاول أَيضاً أن أَضع حياة مانديلا في إطار عالمي أوسع، مستقياً معلوماتي من رسائله ومن مصادِرَ دبلوماسية واستخباراتية لم تُنشَر بعد. وتقصَّيت أَثر سوء الفَهم وسوء التصرف اللذين تعامل بهما العالم الغربي مع الأَزمة المتفاقمة في جنوب إفريقية في الستينات والسبعينات، وكيف خُدِعَ وضُلِّل في كل ما له علاقة بمانديلا ورفاقه، من خلال الهواجس التي استبدت به، ومن خلال حملات الحرب الباردة. وكيف غاب تقريباً عن شاشات رادار العالم، وكيف ساهمت حكومات وأَفراد بعودته منتصراً. وحاولت أن أقتفي المفاهيم المتغيّرة والمتناقضة عن جنوب إفريقية في العالم الخارجي، والتي تحمل في طياتها أولاً تنبؤات رهيبة تنذر بحمام دم وشيك، كما تنطوي على نموذج للمفاوضات والتسويات التي خاضها مانديلا في قلب الأحداث.

إنني مدين للرئيس مانديلا ذاته في إِنجاز هذا العمل الطموح، فقد كان كريماً جواداً بوقته الثمين. ولم يقتصر ذلك على إِفساحه المجال لي لإجراء مقابلات شخصية معه فحسب، بل قام أيضاً بقراءة المسودات المعدّة لطباعة هذا العمل. فقد قام بتصويب عدد من الوقائع والتفاصيل، مع احترامه للاتفاق بيننا على عدم التدخل بآرائي واجتهاداتي الخاصة. فقد أَضافت تعليقاته الحيوية على النص أكثر مما أنقصت من المسودة الأساسية. لقد كانت تجربة نادرة أن

أحظى بمثل هذا التفاعل مع شخصيّة تاريخية فَذَّة، والذي آمل أن يعوضني عن أي عقبات تقف في وجه كاتب سيرة معاصر.

وإني مدين أيضاً لأصدقاء مانديلا المقرَّبين، وكان بعضهم من أصدقائي منذ أوائل الخمسينات. فكان «أحمد كاثرادا» ـ زميل مانديلا في السجن مدة خمس وعشرين سنة ـ موجهي الأول ومصدر معلوماتي الرئيس خلال هذا العمل، ففتح أمامي الأبواب التي ما كانت لتفتح لولاه، وأعطاني ـ بكل تواضع ونكران للذات ـ كثيراً من وقته، كما أَذِنَ لي برؤية رسائله القيّمة التي ستنشر قريباً. ومنحني «والتر سيزولو» Walter Sisulu الذي طالما أَجريتُ معه مقابلات في الخمسينات والستينات، وقتاً طويلاً بصبر وأناة وتأمل، مضيفاً رؤيته الخاصة لخلفيات السياسة والفكر على مدى خمسين سنة. أما «ماك ماهاراج» MacMaharaj فقد اطَّلعَ على مسودات هذا الكتاب، وأضاف معرفته الفريدة بالأحداث والوقائع داخل السجن وخارجه. وأعطاني البروفيسور «جاكس جيرويل» JakesGerwel سكرتير مجلس الوزراء أفكاراً ومفاهيم كثيرة عن مانديلا وحكومته. وساهمت «نادين غورديمر» Nadine Gordimer، وهي أقدم وأعز صديقة لي بين البيض في جنوب إفريقية، والتي كنت أَمكُثُ معها عادةً في جوهانسبرغ، بملاحظاتها المتميزة كصديقة مقرَّبة من الرئيس وكشاهدة على كثير من الأحداث التاريخية. وشاركني «فرانك فيراري» Frank Ferrari الأمريكي صاحب السلطة الأكثر شهرة في جنوب إفريقية كثيراً من الخبرات وأضاف آراءه. وهناك سياسي آخر متمرس في فترة الخمسينيات هو الدكتور «ناثاتو موتلانا» Nathato Motlana الذي كان دائم الاستعداد للمساعدة ولأن يُدلي بدلوِهِ في تقديم المعلومات، والطريف من ذكرياته وآرائه. وأطلعتني «أديلايد تامبو» Adelaide Tambo، وهي أرملة «أوليڤر تامبو» Oliver Tambo، الذي كان صديقاً لي في لندن وجوهانسبرغ، على ذكريات ورسائل أَلقت ضوءاً جديداً على الصداقة بين عائلة مانديلا وعائلة «تامبو». أما «جورج بيزوس»

GeorgeBizos، كبير محامي مانديلا الذي التقيت به أول مرة في محاكمة «ريڤونيا» والذي كنت أراه في كل زيارة كنت أَقوم بها إِلى جنوب إفريقية، فقد كان لا يضن عليَّ بحكمته وذكرياته المفعمة بالحيوية بحكم موقعه في الخطوط الأولىٰ.

وشارك الزملاء القدامى الذين كانوا يعملون في مجلة «دْرَمْ» Drum والذين شاهدوا بأُم العين التغييرات غير العادية التي حدثت في جنوب إفريقية خلال خمسين عاماً، فقدموا لي ما لديهم من ذكريات وآراء، ومنهم «جيم بايلي» Jim Bailey صاحب مجلة «درم» السابق، «وإسكيا مفلل» Es'kia Mphahlele المحرر الأدبي السابق، و«يورغن شادبرغ» Jürgen Schadeberg المصوِّر الرائد ومحرر التصوير، و«پيتر ماغوبن» Peter Magubane خَلَفَه المتميّز، و«آرثر مايمان» Arthur Maimane الكاتب المتعدد المواهب، الذي اجتذَبْتُهُ إلى عالم الصحافة سنة 1951، و«إِزمي ماتشِكيزا» Esme Matshikiza أَرملة المؤلف الموسيقي والصحافي الراحل اللامع «تود ماتشِكيزا» Todd Matshikiza، وابنهما «جون ماتشِكيزا» John Matshikiza، و«سلفستر ستاين» Sylvester Stein، المحرر الذي خَلَفَني مباشرة في تحرير المجلة في سنة 1995.

أما الكاتبان السابقان لسيرة مانديلا ـ وكلاهما من أصدقاء العمر للرئيس مانديلا ـ فقد تميزا بالإيثار الرائع ولم يدخرا وسعاً في إمدادي بكل نصيحة أو وثيقة لديهما: وهما «ماري بنسون» Mary Benson الرائدة المتمرسة للحملة ضد سياسة التمييز العنصري في لندن، وكانت لها رؤية فريدة في «حزب المؤتمر الوطني الإفريقي» وعائلة مانديلا على مدى أربعين سنة؛ «فاطمة مير» ـ التي شاهدت مانديلا خلال فترات وتجارب حرجة منذ الخمسينيات، وقد أمدتني بالكثير من النصائح الغالية والوثائق النفيسة. وأَتاحت لي سماحةُ صديقي القديم «جومينيل» Joe Menell الاطلاعَ على نسخ طبق الأَصل للمقابلات الشمولية التي أَعدها لِفيلمِهِ الوثائقي عن مانديلا. وأنا مُمتن لـ «مايكل هولرويد»

Michael Holroyd و«آرثر شليزنغر» Arthur Schlesinger اللذين أسدَيا لي النصح السخي حول المشاكل الصعبة التي يواجهها كاتب السير عادة.

ومن بين أصدقائي الكثيرين الجدد الذين ساعدوني أودُ أن أَخصَّ بامتناني «غيل غيرهارت» Gail Gerhart التي تتمتع بمعرفة واسعة لا يضاهيها فيها أَحد، وهي محررة المجلدات الخمسة لكتاب عن تاريخ سياسة السود في جنوب إفريقية عنوانه: «من الاعتراض إلى التحدي» From Protest to Challange، وهو كتاب لا يَستَغني عنه دارسٌ لهذا الموضوع. فهي لم تبخل بالنصائح والمصادر والمراجع واللقاءات والوثائق غير المنشورة. كما أَتوجه بالشكر والامتنان «لإقبال مير» محامي الرئيس مانديلا في لندن؛ لما قام به من الإعداد لإخراج الكتاب ولاقتراحاته البنّاءة. وأُقدِّر مساعدة «إسماعيل أيوب» محامي الدفاع عن الرئيس في جوهانسبرغ. ولقد تعلَّمتُ الكثير من «غاي بيرغر» Guy Berger وزملائه في جامعة «رودس» Rhodes التي استمتعت فيها بإقامة مثمرة للغاية.

كما تلقيت مساعدات رائعة من أُمناء المكتبات والأَرشيف في جنوب إفريقية، فقد وضعوا تحت تصرفي وثائق لم تعرض من قبل. أذكر من هذه المكتبات مكتبة «برنثرست» Brenthurst بمجموعتها الفريدة في جوهانسبرغ، ومكتبة «كُلِن» Cullen في جامعة «ويتواترزراند» Witwatersrand، وأَرشيف حزب المؤتمر الوطني الإفريقي في «شل هاوس» Shell House وجوهانسبرغ وفي جامعة «فورت هير» Fort Hare أيضاً، ومكتبة «كوري» Cory القيمة في جامعة «رودس» في «غراهامزتاون» Grahamstown، ومكتبة «هاري أُوپنهايمر» Harry Oppenheimer في جامعة «كيب تاون»، وأَرشيف «مايباي» Mayibuye في جامعة «وسترن كيب» Western Cape، والمقتطفات الباهرة من صحيفتي «جوهانسبرغ ستار» و«كيب تايمز» Cape Times. وقد سُمِحَ لي بالاطلاع على أرشيف الحكومة الذي يجب أن يكون في مَنْأًىٰ من التداول. لقد أفادَ مساعدي

في البحث في لندن من مكتبات «مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية» و«معهد دراسات الكومنولث»، وفي واشنطن أَفدت كثيراً من أرشيف «الأمن القومي».

ولقد أَضحت مهمّتي كلّها أكثر يُسراً بفضل مساعدي في البحث الدكتور «جيمس ساندرز» James Sanders، الذي يتحلّى بسَعَة الحيلة والحيوية، فقد واظب على تعقب الوثائق واقتفاء أثرها، والتحقق من المصادر، وإيجاد سُبُل جديدة للتحقيق كشفت معلومات جديدة لافتة للنظر في أَرشيف لندن وواشنطن وبريتوريا، فتعَمَّقَتْ مساهمته إلى ما هو أَبعد من البحث. فأَنا مدين بالكثير لفكره الخلاّق ولعقليته في البحث، بما وَفَّرَتاه لي من الأَفكار والأَسئلة والحلول للمشاكل الصعبة، مما جعلني أكثر استمتاعاً بمشروعي وأقلّ عزلة.

وتمتَّعت خلال دوامة إعداد الكتاب للنشر بالتعاون والدعم الرائعين من فريق التحرير لدى «هارپر كولينز». فقد جاءت فكرة الكتاب ابتداءً من «ستيوارت پروفيت» Stuart Profitt، الذي لولاه لما أُعِدَّ الكتاب. لكن، وبعد مغادرته «هارپر كولينز» في سنة 1998، وجدت الدعم التام من رئيس مجلس الإدارة «إِيدي بِل» Eddie Bell، والمحررين اللذين طالت معاناتهما معي «ريتشارد جونسون» Richard Johnson و«روبرت لاسي» Robert Lacey، ومديرة الدعاية «هيلين إِليس» Helen Ellis، حيث التزموا التزاماً رائعاً بهذا المشروع. كما أفدت أيضاً من تشجيع «تشارلز إِليوت» Charles Elliott، المحرر في دار «ألفرد أ. كنوپف» Alfred A. Knopf وخبرته الطويلة، وتشارلز هو المحرر الأَمريكي لكتاباتي. وأَتوجه بالشكر لـ «جوناثان بال» Jonathan Ball ناشر كتاباتي في جنوب إفريقية، لمعونته وحماسه. أَما مُنسِّق فهارس كتاباتي «دوغلاس ماثيوس» Douglas Mathews فقد أَضافَ سَعَة علمه إلى عملي، كما فعل بكتبي السابقة. كما أني وجدت الدعم المخلص من وكيل أَعمالي «مايكل سيسونز» Michael Sissons وهكذا كان شأنه دائماً، فقد واكب مسيرتي خلال أَكثر من عشرين كتاب من مؤلفاتي. وما كان لي أن أُنجزَ هذا العمل دون

مُساعِدَتي «كارلا شِيمِلْد» Carla Shimeld التي عملت بكل تصميم ورباطة جأش حتى حوّلت الفوضى إلى نظام واضح المعالم. وفوق ذلك كله فقد زادت مُتعَتي وفهمي الإنساني للموضوع بوجود زوجتي «سالي» إلى جانبي أثناء كثير من أسفاري ومقابلاتي.

إنني مدين لأُناس كثيرين لإيضاحاتهم وتصويباتهم، لكنني آخذ على عاتقي المسؤولية كاملةً عن أي خطأ باق؛ وسأكون ممتنّاً لكل تصويب واقتراح يَرِدُ إليَّ من القُرّاء، وسوف أستدرك ذلك في طبعات مقبلة.

وأَودُ أن أَشكرَ جميع الأَشخاص التالية أَسماؤهم في جنوب إفريقية، والذين ساهموا بالمقابلات والمداولات معي أو أولئك الذين ساهموا مع مساعدي «جيمس ساندرز» JamesSanders، وقد أَشرتُ إليهم بنجمة (*).

روك أجولو Rok Ajuluu، ونيڤيل ألكسندر Neville Alexander، وتشارلز أنسون Charles Anson، وقادِر أسمال Kader Asmal، وإسماعيل أيوب Ismail Ayob، وبريل بيكر Beryl Baker، وفيكيله بام Fikile Bam، ونييل بارنارد Niël Barnard، وجون باترسباي John Battersby، وديڤيد بريسفورد David Beresford، وغاي بيرغر Guy Berger، وهايمان برنارد Hyman Bernadt، وجورج بيزوس George Bizos، وتوني بلوم Tony Bloom، وألِيكس بورين Alex Boraine، وبيتر بوثا Pieter Botha، وپيك بوثا Pik Botha، وپي. دبليو بوثا P.W. Botha، والأخضر الإبراهيمي Lakhtar Brahimi، وكريستو براند Christo Brand وجولس برود Jules Browde، وغوردون بروس(*) Gordon Bruce، وبريان بَنْتينغ Brian Bunting، وبوذِليزي مانغوسُوذو Buthelezi Mangosuthu، وأَمينة كاتشاليا Amina Cachalia، وآندرو كان Andrew Cahn ولولي كاللينيكوس Luli Callinicos، وآرثر شاسكالسُن Arthur Chaskalson، وفرانك تشيكين Frank Chikane، وكولين كولمان Colin Coleman، وكيث كولمان Keith Coleman، وجيرِمي كرونين

Jeremy Cronin وإدي دانيلز Eddie Daniels، وأپولون ديڤدسون Apollon Davidson، وإف. دبليو. دي كليرك F.W. de Klerk وإب ديميس Ebbe Demmissê، وروبن دينيستون Robin Denniston، وهِلينَة دولني Helena Dolny، وجون دوغارد John Dugard، وبارند دو پلِسيس Barend du Plessis، وتيم دوپلِسيس Tim du Plessis، ودِك إندهوفن Dick Endhoven، وإيڤان فالون Ivan Fallon، وباري فاينبرغ Barry Feinberg، وإلسِه فيشر Else Fischer، وميڤ فورت Maeve Fort، وأمينة فْرِنْسِة Amina Frense، ومارك جڤِسِر Mark Gevisser، وآنغس جيبسون Angus Gibson، وفرين غينوالا Frene Ginwala، وپيپا غرين Pippa Green، وجيمس غريغوري James Gregory، ولويزا غب Louisa Gubb، وأَدريان هادلاند Adrian Hadland، وأنطون هاربر Anton Harber، وتوني هيرد Tony Heard، وريكا هودجسون Rica Hodgson، وبانتو هولوميسا Bantu Holomisa، وإيڤِلين هولتزهاوزن Evelyn Holtzhausen، وجون هوراك John Horak، وڤيرنا هَنْت Verna Hunt، وكارلاين هانتر - غولت Charlayne Hunter-Gault، وزبيدة جعفر Zubeida Jaffer، وجويل جوفه Joel Joffe، وآر. دبليو. جونسون R.W. Johnson، وشَوْن جونسون Shaun Johnson، وپاللو جوردان Pallo Jordan، وروني واليانور كاسرِلز Ronnie and Eleanor Kasrils، ومارك كاتْزِنِلِنْبوغِن Mark Katzenellenbogen، وليزا كي ومارتن كينغستون Martin Kingston، وهورست كلايْنشمِت Horst Kleinschmidt، ومافيس كنايْب Mavis Knipe، وولفي كودِش Wolfie Kodesh، وآلف كومالو Alf Kumalo، وتِرّور ليكوتا Terror Lekota، وهْيُو لِوين Hugh Lewin، وتوم لودج Tom Lodge، وريموند لُوُ Raymond Louw، وإينوس مابوزا Enos Mabuza، وغراكا مَشِلْ Graca Machel، ووِيني ماديكيزيلا - مانديلا Winnie Madikizela-Mandela، وپيتر ماغوبين Peter Magubane، وسترايكر ماغْوايَر Stryker Maguire، وآرثر

مايْمِن Arthur Maimane، وإيڤلين مانديلا Evelyn Mandela، وماكي مانديلا Maki Mandela، وپاركس مانكالانا Parks Mankahlana، وبربارة ماسيكيلا Barbara Masekela، وناثانيال ماسيمولا Nathaniel Masemola، وكايزر ماتانزيما Kaiser Matanzima، ودون ماتّيرا Don Mattera، وجو ماثيوز Joe Mathews، وغوڤان مبِكي Govan Mbeki، وثابو مبِكي Thabo Mbeki، وإقبال مير Iqbal Meer، وأيرِن مِنِلّ Irene Menell، ورولوف ميّير Roelof Meyer، وريموند ملابا Raymond Mhlaba، وعبد المنطي Abdul Minty، وجو موغوتسي Joe Mogotsi، وإسماعيل محمد Ismail Mohammed، وپوپو موليفه Popo Molefe، وإريك مولوبي Eric Molobi، وروني مومويا Ronnie Momoepa، روث موپاتي Ruth Mompati، ومرفي ومارتا مورويبه Murphy and Martha Morobe، وشون مورّو Shaun Morrow، ومندي مِسيمانغ Mendi Msimang، وماري مسادانا Mary Mxadana، وبيَّرز نوده Beyers Naude، وجويل نيتشيتنغه Jool Netshitenghe، وليونيل نغاكانة Lionel Ngakane، وكارل نيهاوس Carl Niehaus، ووايزمان نخولو Wiseman Nkhuhlu، وكايزر نياتسومبا Kaizer Nyatsumba، وأندريه أودندال Andre Odendaal، وكلويه أوكيفه Chloe O'Keefe، وماري أوليڤيه Marie Olivier، ودولله عمر Dullah Omar، وهاري أوپنهايمر Harry Oppenheimer، وطوني أورَيلي Tony O'Reilly، وعزيز پاهاد Aziz Pahad، وإيسوپ پاهاد Essop Pahad، وصوفي پدر Sophie Pedder، وبنيامين پوغْرَنْد Benjamin Pogrund، وسيريل رامافوسا Cyril Ramaphosa، وناريسا رَمضاني Narissa Ramdani، ومامفيلا رامفيليه Mamphela Ramphele، ودوللي راذبيه Dolly Rathebe، وبرايان روسترون Bryan Rostron، وأنتوني رويل Anthony Rowell، وجون رُد John Rudd، وألبي ساخز Albie Sachs، وبيتر ساراف Peter Saraf، وراكس سيخوا Raks Seakhoa، وجيرمي سيكينغز Jeremy Seekings، ورونالد

سيغال Ronald Segal، ومايكل سيفرت Michael Seifert، ووالي سيروت Wally Serote وتوكيو سِكْسول Tokyo Sexwale، ولازار سيدِلْسْكي Lazar Sidelsky، ومايك سيلوما Mike Siluma، وألبر تينا سيسولو Alber Tina Sisulu، وإلينور سيسولو Elinor Sisulu، وزويلاخة سيزولو Zwelakhe Sisulu، وجيليان سلوڤو Gillian Slovo، ومُنغو سوغوت Mungo Soggott، وروجر ساوثال Roger Southall، وأليستر سباركس Allister Sparks، وتيم ستاپِلْتون Tim Stapleton، وهندريك ستَين Hendrik Steyn، وجون ساذرلاند John Sutherland، وهِلين سُزْمان Helen Suzman، وتوني ترو Tony Trew، وبِن تورُك Ben Turok، ودِزْموند توتو Desmond Tutu، وفيليب ڤان نيكِرْك Philip van Niekerk، وزوليزا ڤاپي Xolisa Vapi، وبِن ڤيرستِير Ben Verster، وإستير واو Esther Waugh، وإنيد ويبستِر Enid Webster، وليون ويسيلز Leon Wessels، والجنرال يوهان ويليمز General Johan Willemse، وموغْسين وليامز Moegsien Williams، وجاكوب زوما Jacob Zuma.

والآتية أسماءهم في مدينة «لندن» وأماكن أُخرى:

هِربِرت آدم Heribert Adam، وديڤيد آستور David Astor، وماري بنسون Mary Benson، ورستي وهيلدا بيرنستاين Rusty and Hida Bernstein، وبيتي بوثرويد Betty Boothroyd، ولورد كامويس Lord Camoys، وشيريل كارولَسْ Cheryl Carolus، والليدي ليندا تشوكر Lady (Lynda) Chalker، وجون كولڤن John Colvin، وإيتيل دي كيسر Ethel de Keyser، وديڤيد دينكينز David Dinkins وجون دوبلداي John Doubleday، وريتشارد دودِن Richard Dowden، وماركوس إدواردز Marcus Edwards، وإليانور إمِري(*) Eleanor Emery، وسير باتريك فيروِذر Sir Patrick Fairweather، ومايكل غاڤشون Michael Gavshon، وديِنِس غولدبرغ Dennis Goldberg، وديِنِس هيلي Dennis Healey، وسير إدوارد هيث Sir Edward Heath، ودينيس هربشتاين

Denis Herbstein، وإريك هوبسبوم Eric Hobsbawm، وجورج هاوسر(*) George Houser، وتريفور هَدْلِستون Trevor Huddleston، ولورد بوب هيوز Lord (Bob) Hughes، وپول وأديلايد جوزيف Paul and Adelaide Joseph، وغلينيس كينوك Glenys Kinnock، وبرايان لاپّينغ Brian Lapping، وكولين ليغوم Colin Legum، ومارتن ليتون Martin Leighton(*)، وفريدا ليڤسون Freda Levson، وأنتوني لويس Anthony Lewis، وجون لونغريغ(*) John Longrigg، وتريڤور ماكدونالد Trevor Macdonald، وسير كيت ماكماهون Sir Kit McMahon، وشولا ماركس Shula Marks، وجاك موريّون Jacques Moreillon، وليونيل موريسون Lionel Morrison، والليدي إمَّا نيكولسون Lady (Emma) Nicholson، وروبرت أوكشُت Robert Oakeshott، وتوماس پاكينهام Thomas Pakenham، وناد پيليه Nad Pillay، وڤِللا پيليه Vella Pillay، وإلِن پوتر Elaine Potter، وسير تشارلز پويل Sir Charles Powell، ولورد رِنْوِيك Lord Renwick، وجون سنو Jon Snow، والليدي (ماري) سومز Lady (Mary) Soames، وجورج سوروس George Soros، وريتشارد ستِنْغِل Richrd Stengel، وجون تِيْلور John Taylor، ونورين تِيْلور Noreen Taylor، ومايكل تيري Michael Terry، وستانلي أويس Stanley Uys، وراندولف ڤينِه Randolph Vigne، وپِرْ واستبيرغ Per Wastberg، وبرَيان وَيدْليك(*) Brian Widlake، ودونالد وُودز Donald Woods، وآن يِتْسْ Ann Yates، وآندرو يونغ Andrew Young، ومايكل يونغ Michael Young.

توطئة

البطل الأخير

تُحضَّر قاعة «وستمنستر» في لندن، القلب القديم لمباني البرلمان، لتكريم رئيس دولة زائر، في مراسم تشريفات تقام فقط مرة أو مرتين في مدىٰ العُمر. آخر ضيف من هذا المستوى كان الجنرال ديغول في سنة 1960؛ والضيف هذه المرة، في تموز (يوليو) 1996، هو الرئيس نلسون مانديلا. والمقارنة متكافئة، فكل من الرجلين كان فذّاً عزَّ مثيلُه، كان ينظر إليهما كمنقذين لبلديهما. لكن تحوّل مانديلا كان أكثر غرابة من تحوّل ديغول. فقد اعتبره كثير من السياسيين المتابعين له، في الماضي، عدواً لهم لا يجوز السماح له أن يقود بلده. ورماه كثير من نواب البرلمان المحافظين بالإرهاب. أما رئيسة الوزراء السابقة الليدي ثاتشر، التي تجلس قريباً من مقدمة الحفل، فقد قالت قبل تسع سنوات، إن كل من يعتقد أن حزب المؤتمر الإفريقي الوطني سيشكل حكومة يوماً ما في جنوب إفريقية فهو يعيش في أرض الأحلام. والآن تحققت أرض الأحلام في قاعة وستمنستر. لكن الطقوس في هذه القاعة التي تعود بتاريخها إلى القرون الوسطى أضفت الشرعية على كثير من تحولات الوَلاء الحرجة والمُربكة خلال القرون، منذ ريتشارد الثاني حتى هنري الرابع في سنة 1400، ومن تشارلز الأول حتى أُوليفر كرومويل في سنة 1649، كلٌّ على حدّ سواء. لكن تلك الاتهامات وأضدادها تتلاشى الآن في صخب أصوات الأبواق.

إنه أشبه بمشهد أُوبرالي مهيب يحف به حرس من فرقة أَكَلَةِ لحم البقر[1]، مصطفاً على جانبي السلالم المؤدية إلى القاعة، وحرس آخرون اعتمروا خوذاتهم في مُؤخرة القاعة. ويحضر رئيس مجلس اللوردات، اللورد ماكاي صاحب كلاشفيرن Lord Mackay of Clashfern بزيه الرسمي. وأخيراً، يظهر نلسون مانديلا بقامته الطويلة النحيلة ويمشي مرتعشاً إلى أسفل السلَّم الكبير، مُمسكاً بيد رئيسة مجلس العموم بيتي بوثرويد Betty Boothroyd. التي قالت فيما بعد؛ إنها دقائق خمس، كانت أعظم ما انطبع في ذاكرتها مدىٰ حياتها. وهذا نبيل من حزب العمال كان يجلس أمامي، وقد أذن لدمعه أن يَنْسَكِب على خديه. وعزفت جوقة الحرس (من سلاح المشاة) موسيقى «نكوسي سيكليل إِأفريكا» 'Nkosi Sikelel iAfrika'، وهي ترتيلة أَنشدها الثوّار السود في جنوب إفريقية لعشرات السنين. ويلقي رئيس مجلس اللوردات كلمة متواضعة، مُستَذكِراً كيف شَهِدَتْ هذه القاعة تطور الديمقراطية البطيء منذ الوثيقة العظمى Magna Carta سنة 1215، وكيف شارك أَبناء ورعايا بريطانيون وجنوب إفريقيون الحق الديمقراطي بالإدلاء بأصواتهم في الانتخابات على حد سواء، صوت واحد لكل منهم. ثم يُقدِّم بحرارة الثائرَ السابق، الذي يبدو الآن كأنه سيدٌ إنكليزي كريم من الطراز القديم.

ويتحدث مانديلا بِتُؤدَة، وبنبرته المؤدبة المعتادة. ورغم أن معظم الحضور لا يستطيعون سماعه بسبب تَرَدد الصَّدى، فقد كان خطاباً قاسياً لا يُعجِب الليدي تاتشر Lady Thatcher، كما تصرِّح فيما بعد. فهو ينظر إلى مئتي سنة خَلَت؛ إلى الوقت الذي استعمرت فيه بريطانيا أولاً جنوبَ إفريقية واستولت على أرض أجداده. وذكَّرَ المستمعين كيف تقدم حزب مؤتمر جنوب إفريقية منذ ثمانين سنة بعريضة إلى مجلس العموم البريطاني، يَحتَجُّ فيها على

(1) فرقة أَكَلَة لحم البقر Beefeaters، فرقة من فِرَق الحرس الملكي البريطاني (المترجم).

تركه الأمور لرحمة الحُكّام البيض من اتحاد جنوب إفريقية الجديد. أما الآن فإنه يأتي كصديق لبريطانيا، إلى بلد حلفائه القدامى من أَمثال وليام ولبرفورس William Wilberforce وفينر بروكواي Fenner Brockway ورئيس الأَساقفة تريفور هَدلستون Trevor Huddleston. ويتابع مشيراً إلى الرعب الذي خَلَّفَه التمييز العِرقي، سواء في جنوب إفريقية أو في ألمانيا النازية - «وكيف فسحنا المجال لهذه الأمور أن تَحدث؟» والمذابح المروِّعة والبؤس المنتشر في أنحاء من إفريقية؛ ثم يختم قوله بالتطلع إلى المستقبل لإغلاق الدائرة، إلى بريطانيا وجنوب إفريقية يداً بيَد لبناء إفريقية إنسانية.

هذا هو مانديلا رجل التاريخ الأخير في سلسلة القادة الثوار في آسية وإفريقية الذين حاربوا لنيل حريتهم، وسُجِنوا وأُهينوا، ثم اعتُرِفَ بهم رؤساء دول في آخر الأمر. لقد كان الأفريكان[2] المتعصبونمن ألدّ الأعداء الذين انعدمت الرحمة في قلوبهم، بينما يقف هو اليوم موقفاً شهماً، مختلفاً عن أسلافه، معطياً الأمل لشعبه وللآخرين ليرأبوا صَدْعَ خلافاتهم العِرقية. لقد أصبح بطلاً عالمياً في نهاية القرن العشرين. في زمن أولئك الذين يقومون بإحصاء أصوات الناخبين، والحكماء الذين يقدمون على تشغيل آليات الإداراة، وجماعات التركيز التي وجهت جهودها لخدمة قضية ما، إنه يستحضر عصر جيل سابق من المحررين الثوّار وقادة الحروب. أما في منظار المحافظين التقليديين فإنه يُثير ذِكرى رجال عِظام جسدوا دولهم فتمثلت فيهم. وأما في منظار اليسار المُحْبَط بقضايا خاسرة، فهو يعطي أملاً جديداً في أن الحق لا يضيع وأنه مطلب يمكن تحقيقه. إن السنين الثلاثين التي قضاها في السجن قد حَجَبَتْه عن طغيان النزعة الماديَّة والاستهلاكية اللتين اجتاحتا العالم الغربي.

وفي الوقت الذي يمضي فيه مانديلا في مراسم الأُبَّهَة المعدّة لزيارة رئيس

(2) السكان البيض المنحدرون من المستعمرين الهولنديين القدامى بصورة خاصة، في جنوب إفريقية. (المراجع).

دولة، يبعَثُ الحياة من جديد في الملكية البريطانيّة التي تحاصرها مشكلاتها الخاصّة. ويذهب بعض الحُضور مباشرة من قاعة وستمنستر إلى فندق دورشستر Dorchester، حيث يقيم مانديلا مأدبة للملكة. ويصل مانديلا مع الملكة ويبدو للجميع أكثر أبهة وأكثر ارتياحاً منها وهو يتبختر بين المدعوين. وفي نهاية الغداء يلقي كلمة أخرى قصيرة، مذكِّراً الملكة أنه مُجرَّد صبي ريفي، شاكراً لها فتحها جميع أبواب المجتمع البريطاني له ولإذنها له بالسَّير في حديقتها في الصباح الباكر. كان ارتياح الملكة برفقته جلياً أثناء تجاذبهما أطراف الحديث. وفسَّرَ أحد أفراد البلاط ذلك قائلاً: «إنها تُشاركه الكثير، فكلاهما أمضى وقتاً طويلاً في السجن».

وفي المساء، قُدِّمَ «مانديلا» آخر للجيل الشاب: نجم الوسط الفني الأول وصديق نجوم الفن الشعبي. إنه ضيف الأمير تشارلز، الذي جاء مع معظم أفراد العائلة المالكة، جاؤوا لحضور حفلة موسيقية يشهدها خمسة آلاف متفرج في ألبرت هول Albert Hall. لقد أَثنى مانديلا دائماً على الموسيقيين لدورهم في مواجهة العرقية، ونضالهم من أجل إطلاقه من سجنه؛ وها هم الآن قد تجمعوا ليعبِّروا له عن إعجابهم واحترامهم، مبتدئين بفرقة «فيل كولينز» Phil Collins الكبيرة، ومنتهين بخاتمة الانتصار التي قادها عازف البوق الجنوب إفريقي «هيو ماسيكيلا» Hugh Masekela. يصفق الحضور ويتمايلون طرباً. وفي المقصورة الملكية، انتصب مانديلا على قدميه، مُغَيِّراً المسار، متمايلاً ومحركاً ذراعيه برشاقة ومَرَح. أما الأمير تشارلز فقد أخذ يحرّك قدميه، وقد خانته البراعة، بينما أخذت الملكة تُصفِّق بحذَر، حتى الأمير فيليب أخذ يتمايل قليلاً. وهكذا ظهر مانديلا إلى جانبهم، وكأنه ملك الأحلام الذي يحفظ الإيقاع، ويتمايل ويرقص مع رعيَّته.

وفي الصباح التالي كان هناك «مانديلا» آخر: بطل المظلومين والمستضعفين، رئيس الشعب الذي يمكنه أن يجمع شمل كل الأعراق. يجول

مانديلا مع الأمير تشارلز في حي بريكستون Brixton المتعدد الأعراق والذي يقع جنوب لندن، حيث استقبله وحيَّاه حشد كبير من اللندنيين السود والبيض. يتجه من هناك إلى ساحة «الطرف الأغر» Trafalgar Square، التي يحتلّ أحد جوانبها مبنى مجلس جنوب إفريقية، القلعة القديمة للتمييز العنصري التي صارت الآن رمزاً للتحرُّر. لقد أُغلِقَت الساحة في وجه حركة المرور، واكتظت بالناس الذين يرتدون قمصاناً طُبِعَت عليها صورة مانديلا والأعلام الخفّاقة. وبينما يسير مانديلا ببطء خلال الحشد، وقف الأطفال ينظرون إليه بإعجاب، ويمدون أيديهم ليلامسوه. وعندما يظهر على شُرفَة مبنى مجلس جنوب إفريقية، يبدو كأنه البابا يبارك الجماهير أكثر من كونه سياسياً يُحَيِّيهم: «أود أن أضع كل واحد منكم في جيبي»، قالها مانديلا متحدثاً عن الحب دونما ارتباك، ويضيف: «أنا لست مُتَشَنِّجاً ولا خائِفاً من الحب، فالحبُّ عظيم الإلهام».

لماذا يجذب شَيخ سياسي إفريقي هذا التعاطف والحب الفريد ـ ليس في بريطانيا فحسب، بل في أوروبا وأمريكا وآسيا ـ في زمن يتزايد فيه عدم الثِّقة بالسياسيين في كل مكان أكثر من أي وقت مضى؟ لا أستطيع إلا أن أتساءل وأعجب؛ ماذا حَلَّ بالمحامي الشاب الصّلب، والفخور الثائر، الذي عرفته في جوهانسبرغ في الخمسينيات، والذي كان ينظر بريبة إلىٰ عالم البيض العدائي، والذي كان يلقي الخطب العنيفة الصاخبة، يشجُب فيها الإمبرياليين البريطانيين؟ ماذا غيَّرَ ابتسامة ذلك الشاب المشرقة إلى كشرة مُرَحِّبة تنم عن الدفء الأصيل.

ثم ينتقل من «الطرف الأغر» إلى فندق «دورشستر»، حيثُ أُتيحت لي ثَمَّةَ فرصة لحديث مقتضب ومنفرد معه. إنه في مِزاج عالٍ ونَشِط، فهو سعيد غاية السعادة باستقبال الملكة والجماهير له في بركستون. ويعود بذاكرته إلى زيارته الأولى للندن سنة 1962 عندما كان ثائراً غَرّاً منغمساً في نضاله قبل شهرين من سجنه مدَّة سبع وعشرين سنة. سألته لماذا تغيَّرت هذا التغيّر الكبير؟ فأجاب ضاحكاً: «ربما لأني كنت عندئذٍ في موقف دفاعي». الآن، يبدو مانديلا في

راحة تامة متساهلاً مع الجميع ومع ذاته؛ لكنه يوضح كعادته، أنه لا يرغب في الحديث عن شعوره.

ليس من السهل لكاتب سِيَر أن يصوِّرَ نلسون مانديلا من وراء أيقونة: إن ذلك يشبه محاولة تصور شكل شخص ما من الجانب المعاكس للأضواء، فالأُسطورة قوية إلى درجة قد تُعشي الحقيقة وتحيطها بضباب، وتحولُ كلَّ شيء إلى أعمال عروض مسرحية تجتذب مجلة هِللو Hello! تماماً كما تجتذب جريدة نيويورك تايمز New York Times. إنها أُسطورة تبهر الصغار والكبار على حَدّ سواء، فقد صارت قصته كحكاية الأسطورة والخرافة المفضلة في العالم: لقد أُطلق سراح السجين من الزنزانة المعتمة، لقد تبيَّن أن الفقير هو الأمير، إنه الغول الذي تبيَّن أنه هو الساحر. حتى السياسيون الذين يحسنون الظن بالدوافع البشرية مسحوا عَبَراتهم في حضور مانديلا، فربما رأوا فيه قديساً دنيوياً جعل مهنتهم تبدو للناس طاهرة، وارتقىٰ فوق إخفاقاتهم. لقد حذرني بعضهم قائلاً: «لا أُريد أن أراه يُذكَرُ بسوء».

ليس من الواقع تصوير مانديلا قديساً، وهو لم يدَّعِ ذلك قَطُّ: «أنا لستُ ملاكاً»؛ إذ لا يستطيع قديس أن ينجو بنفسه وقد عاش في غابة السياسة خمسين سنة، ثم يحقق هذا التحول الدنيوي. فلمانديلا نصيبه من الضعف الإنساني، وفيه العِناد والكبرياء والبساطة والسذاجة والاندفاع والتَّصوّر، ووراء سلطته وقيادته الأخلاقيتين كان يخفي دائماً سياسياً متكاملاً. لقد قال أحد زملائه المقربين: «لم أعرف مطلقاً ما إذا كنتُ أتعامل مع قديس أو مع شخصية ماكيڤيللية». وقد ارتكزت منجزاته العظيمة على براعته واتقانه السياسة بمعانيها العريضة الواسعة، وعلى فهمه كيف يتحرك ويقنع الناس بتغيير مواقفهم ونهجهم. فهو عازم دائماً على أن يتولّى القيادة من خطها الأمامي، شأن غاندي أو تشرشل، من خلال ضربه المثل بنفسه ومن خلال حضوره، فقد تعلّم في وقت مبكّر كيف يبني صورته وكيف يفهمها.

يبقى مانديلا إفريقياً صرفاً بكل ما يتمتع به من موقع دولي: فقد بَزَغَ في إفريقية سيداً للسياسة أكثر من أي مكان آخر. وبعد أسبوع من زيارته لبريطانيا أقام مانديلا حفل عيد ميلاد على أرض قصر الرئاسة في پريتوريا لقدماء المناضلين. ملء عربات من الضيوف بمن فيهم الجدَّات والأجداد تجمعوا في السُرادِق. وظهر مانديلا في أحد أطراف السرادق مشرفاً عليهم متألقاً بقميص فضفاض زاهي الألوان، وقد خَفَرَهُ حرسه الخاص جيئة وذهاباً وراء ظهره المكشوف. لقد أشاع مانديلا البهجة في المكان كما يفعل أي مرشَّح للرئاسة، فقد كان يستمتع ويصخب ويمرح مع الحضور ويكتشف الوجوه البعيدة، يتذكر الأَسماء، ويَنشُر المودَّة والارتياح ويَمدُّ يديه الكبيرتين، يدي المُلاكِم، ليصافح الضيوف. ويخصُّ كلَّ ضيف بنظرةٍ حميمة وابتسامة خاصة ويحسن الإصغاء ويبدي اهتماماً بما يستمع إليه: ـ «فهمتُ، فهمتُ» ـ ثم يتركهم فتتَّقِد نفوسهم بالفخر والسعادة. ثم يتوسط السُرادِق ليرحب بالخاصَّة من ضيوفه، فيعانقهم، ومنهم وزراؤه وبعض الأصدقاء من البيض مثل هيلين سُوزمان Helen Suzman ونادين غورديمر Nadine Gordimer. ويجلس بين صديقين في الخمسينات من العمر واقفين هما والتر سيسولو Walter Sisulu وأحمد كاثرادا Ahmed Kathrada. لكنه يبقى السياسيّ الألمعي، فهو لا يريك إلا فارقاً بسيطاً بين شخصيته السياسية وشخصيته الخاصة، ويواصل الجميع بطراز واحد من السلوك الحميم.

ولمانديلا برنامجه الخاص ببناء الأمة، فهو يشرحه بكلمة يرتجلها، من غير مظاهر مُتَكَلّفة، ودون حضور صحفيين ينقلون الوقائع. لقد دعىٰ ضيوفه، على حد قوله، لأن كلاً منهم قد ساهم بقسط في التحوّلات السلمية في جنوب إفريقة؛ وليذَكِّرَهم من أين أتوا. ويقول مانديلا: «إن تاريخ أبطال التحرير يُظهِر لنا أَنهم عندما يصلون إلى السُّلطة يتعاملون مع الجماعات ذات السلطة والنفوذ؛ ويَتَناسَوْنَ أن أفقر الفقراء هم من ولآهم السلطة. وغالباً ما يفقدون حِسَّهُم

البدهي، وينقلبون على أبناء جلدتهم». هنا يلعب مانديلا لعبته السياسية الأخيرة وبأعلى رهان: ليوحِّدَ شعب جنوب إفريقية اليائس. ويقول في وقت لاحق «إنني مستعد لأن أعمل أي شيء يشدُّ أبناء هذا البلد إلى بعضهم بعضاً ويُقارِبُ بينهم».

وتعزف الفِرقة الموسيقى في بدء الحفل، ويستعرض العجوز الجالس إلى الطاولة الرئيسة المَشْهَد. وكان بين الموسيقيين والمغنيين نجوم من الخمسينات والستينات مثل دوللي راثبه Dolly Rathebe وثاندي كلاسِنس Thandi Klaasens الذين يعيدون لمانديلا ذكريات صباه في جوهانسبرغ. ويتنوّع انتماء الضيوف إلى كُلِّ مرحلة من مراحل عمله السياسي الطويل: فمنهم رجال القبائل الذين ما زالوا يرون فيه الحاكم التقليدي؛ وشيوعيون بيض وهنود شاركوه نضاله في الخمسينيات والستينيات، وسجناء سابقون في جزيرة «روبن» Robben Island كسّروا معه الحجر الكلسي في مقلع الحجارة؛ ورجال أعمال بيض ما برحوا يدينونه كإرهابي حتى التسعينيات ثم رحبوا به في مآدبهم. لقد وسّع مانديلا آفاقه السياسية مع كل فريق. وتنقَّل بينهم جميعاً دون تَكَلُّف، مُتَحَوِّلاً بسهولة من اللهجة العامية إلى لغة المال الاصطلاحية. غير أنه، وبرباطة جأش، يُظهر نفسه فجأة «مانديلا» آخر، بشفاهٍ مقلوبة للأسفل ونظرة محدِّقة كئيبة تنمّ عن عزلته اللامتناهية. كأنما المشهد حوله مُجرَّد عرض مسرحي. ووراء كل نزعته الاجتماعية نجد مانديلا صامداً في كتمانه لا يُخْتَرَق، كأنه يحمي خفايا أعماقه البعيدة التي تبدو أعمق من غيره من السياسيين.

وبعد مضي أيام على الحفل، وبينما هو في مكتبه الرئاسي المُعْتِم الكئيب في داخل مباني الاتحاد في پريتوريا، يَسْتَرجِع مانديلا بهدوء الأسبوعين المُرهِقَيْن، فيتذكر بسعادة دفء الاستقبال والحماس اللذين لقيهما في زيارته لبريطانيا، لكنك تجده أكثرَ قُرباً عندما يَشْرَع بالحديث عن السنين الطويلة التي قضاها في سجنه. ويتذكر ثانية كيف أيقن وهو في السجن أن السجانين قد

يكونوا طيبين أو سيئين، شأنهم شأن الناس جميعاً. قال مُحدِّثاً نَفْسَه: «إنها مأساة أن تضيع زَهْرَة أيام حياتك، لكنَّك تَعَلَّمْتَ الكَثير، وكان لَدَيْكَ الوقت لِتُفَكِّر، ولِتَنْأىٰ بِنَفْسِكَ عن نَفْسِك، وتنظر إليها من بُعْد، وترىٰ تناقُضات ذاتِك».

إنّ مانديلا ـ كما يبدو ـ ما زال يحتفظ بزنزانته في داخل نفسه، لتحميه من العالم الخارجي، وتضبط عواطفه، وتوفر له عزلة الفيلسوف. إنها فترة السجن التي جعلته يُطوِّر فن السياسة الصَّقيلة الحاذِقَة: كيف ينتمي لِشَتَّىٰ أصناف الناس، كيف يُقنِع ويُداهِن، كيف يحول سجانيه إلى تابعين، وكيف يصبح في نهاية الأمر سيداً في سجنه. إنه ما بَرِحَ يردد قصيدة و.ي هينلي W.E. Henly التي تعود للعصر الفيكتوري «أنا سيّدُ قدري أنا قبطان روحي».

أحاول في هذا الكتاب أن أَنْفُذَ في داخل أيقونة مانديلا لأعرض الحقائق المؤلمة لرحلته الطويلة المحفوفة بالمغامرات، مُجَرَّدَةً من وهج الأسطورة؛ ولأكشف كيف ينتمي هذا الرجل ذو الخصوصية القُصوىٰ إلى هذه الأسطورة الأكثر شيوعاً. إني أحاول أن أجوسَ خلالَ سنيّ سجنه عندما كان مُحْتَجِباً عن وهج السياسة العامة مدة ثلاثين سنة تقريباً، فاكتسب منها استقلال الرأي وصلابة العود أمام المحن المقبلة. كما أحاول أن أقتفي أثر الرجل الثابت وراء جميع الماندیلات التي تقمّصها في حياته العملية المذهلة المترامية الأطراف. إنه ابن شيخ قبيلة إفريقي حافظ على كثير من قِيَمِه الريفيّة بينما هو يمتطي صَهْوَة مسرح الأحداث العالمية.

الجزء الأول

1918 ـ 1934

1

ابـن القـريـة

1918 ـ 1934

قليلة هي أجزاء جنوب إفريقية التي تبعد عن الحياة المدنية وراء ترانسكي، التي تقع على مسافة 600 ميل جنوب جوهانسبورغ. إنها واحدة من أجمل مناطق البلاد وأكثرها فقراً. فالآفاق الشاسعة من التلال المتموجة والعشب الأخضر الشاحب والأكواخ الدائرية المسقوفة بالقش، والرعيان يسوقون قطعانهم بينها، تقدم صورة من العهد القديم عن الحياة الريفية الأزلية بأبهى صورها. إلا أن هذا الجمال سطحي فحسب، فالأرض تضيق بالسكان بشكل يائس، والتربة الرقيقة متآكلة لدرجة لا يمكنها الإبقاء على أكثر من مجموعات مبعثرة من الأبقار. والأغنام العجفاء ورقاع متفرقة مزروعة بالذرة.

في هذا المكان ولد نيلسون مانديلا وترعرع، وهنا بنى البيت الذي يرجع إليه في أعياد الميلاد والإجازات، والذي ينوي أن يتقاعد فيه. إنه بيت ريفي كبير من طابق واحد سَقْفُه من القرميد الأحمر، له أقواس على النسق الإسباني، مجاور للطريق العامة «إن 2» التي تصل دوربان بكيب تاون، على بعد بضعة أميال إلى الجنوب من أُمتاتا أكبر قرى ترانسكي.

يقع البيت في نهاية شارعٍ تحفُّ بجانبيه أشجار السَّرْو، ويحيط به سُورٌ وحديقة غناء تعزله عن الريف المفتوح. تَصَوَّر مانديلا البيتَ في آخر سَنة قضاها في سجنه، ووضع مخططه الطابقي على نمط بيت الحارس في مجمع السجن الذي كان نزيلاً فيه. لقد اختار الموقع المطل على وطنه الأم في «كونو»،

اعتقاداً منه بأن «الإنسان يجب أن يموت قرب المكان الذي ولد فيه».

يقع مسقط رأس مانديلا الحقيقي على بعد بضعة أميال إلى الجنوب في قرية مڤيزو الصغيرة، على ضفة نهر باشي المتعرج، حيث ورث والده الزعامة. (مجموعة أكواخ العائلة، أو ما يسمى «كرال»، لم تعد موجودة: ففي سنة 1988، عندما كان مانديلا في السجن، طلب من محامٍ محلي البحث عنها، لكنه لم يجد لها أي أثر). [1] وُلِد روليهلاهلا مانديلا في مڤيزو في 18 تموز (يوليو) 1918 في وقت، على ما ذكر فيما بعد، كانت فيه الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها، وكانت الثورة البلشفية في روسيا ترسخ دعائمهما، وكان المؤتمر القومي الإفريقي الذي أُسِّسَ للتو آنذاك يرسل وفداً مفوضاً إلى لندن ليطالب بحقوق أبناء جنوب إفريقية السود. وكانت مستعمرة الكاب البريطانية، التي تضم «محمية ترانسكي الوطنية» قد ضُمَّت إلى اتحاد جنوب إفريقية في سنة 1910. وبعد ثلاث سنوات طَرَد «قانون الأرض الوطنية» مئات الآلاف من المزارعين السود؛ هاجر معظمهم إلى ترانسكي، المنطقة الكبيرة الوحيدة التي يستطيع الإفريقيون امتلاك الأرض فيها، وقد أنجبت ترانسكي من القادة السود أكثر من أي منطقة أخرى في جنوب إفريقية، وفي ظل تلك الظروف ترعرعوا فيها.

تعرض هندراي مانديلا والد روليهلاهلا، للطرد أيضاً. ففي السنة التي أعقبت ولادة ابنه استدعاه القاضي المحلي الأبيض لِيَرُدَّ على شكوى أحد رجال القبيلة حول ثور. رفض هندراي القدوم، فاتُّهِم بالعصيان، وطُرِد من منصبه كشيخ للقبيلة، مما أفقده معظم أبقاره وأرضه ودخله. وانتقلت العائلة من «كرال» الأجداد في مڤيزو إلى قرية كونو المجاورة، حيث سيقضي مانديلا الصبي سنوات قليلة قادمة. ورغم انحسار ثروتهم المفاجىء فقد تمكنوا من البقاء متماسكين معاً دون صعوبة كبيرة. اقتسموا الغذاء والمتع البسيطة مع أبناء العم والأصدقاء، ولم يشعر مانديلا بالوحدة أبداً. وفي سنواته التالية سيتذكر

بنشوة تلك الروح الجماعية والإحساس بالمسؤولية المشتركة، قبل أن يبدأ التأثير الغربي بِذَرِّ روح التنافس والفردية.

كان هندراي مانديلا أباً صارماً، يميزه عنادٌ، يشُكُّ ابنُه في أنَّه قد ورثَ مِثلَهُ عنه. كان أمياً، وثنياً، له عدد من الزوجات. و كان طويل القامة، مهاب الجانب، أكثر سمرة من ابنه، ولا يشعر بالنقص أمام البيض. كان يعيش في عالم ريفي منغلق على نفسه، له عاداته وطقوسه الخاصة. كانت له أربع زوجات وكانت زوجه نوسكيني فاني، والدة مانديلا هي الثالثة. وكان لكل زوج كرالٌ خاصٌ بها يحقق لها كفاية ذاتية بشكل أو بآخر، بما له من حقول ومواش وخضار.[2] كان هندراي يتنقل بين الكرالات المختلفة، زائراً زوجاته اللاتي كُنَّ على وفاق في ما بينهن، وكان يحتفظ ببعض المشروب البيتي في كوخه، بالإضافة إلى زجاجة براندي يحتفظ بها في الخزانة، وقد تدوم ثلاثة أشهر أو أربعة. وكان يحترم عادات القبيلة؛ فعندما يولد طفل كان يذبح عنزة وينصب قرنيها في البيت.[3]

لم يعتنق هندراي المسيحية أبداً وإنما كان له بعض الأصدقاء المسيحيين، ومنهم القس تينيسون ماكيواني، من قادة المجتمع المثقفين، وهو من النخبة في ترانسكي (أصبح أولاده فيما بعد أعضاء بارزين في المجلس الوطني الإفريقي).[4] كما كان على علاقة جيدة بالأخوين جورج وبين مبيكيلا، اللذين ينتميان إلى المجموعة القبلية المنفصلة التي تدعى أمامفنغو أو «الفينغوز». وبقي أفراد هذه المجموعة منعزلين عن قبائل «الكزوسا»، وكانوا أكثر تأثراً بالبعثات التبشيرية والعادات الغربية، فأصبح كثير منهم مدرسين أو رجال دين أو رجال شرطة. جعل الأخوان مبيكيلا والدة مانديلا تعتنق المذهب الميثودي. ثم بدأت ترتدي ثياباً غربية بدل الزي الكزوسي. فقد عمَّدت ابنها وفق المذهب الميثودي. وبعد ذلك أقنع الأخوان الأبوينَ بأن يُرسِلا مانديلا إلى المدرسة التبشيرية المحلية، فكان أولَ من أُرسِل إليها من أبناء العائلة.

تتذكر شقيقتا مانديلا، ميبل وليبي، بنشوة حياتهما الريفية البسيطة في كونو، التي تدور حول الأكواخ الدائرية الثلاثة المحاطة بالأعمدة في كرال والدتهم: كوخ للنوم، وآخر للطبخ، وثالث لتخزين الطعام. كانت الأم هي التي بنت الأكواخ من آجر صنع من الطين، وكذلك الموقد وهو عبارة عن حفرة في الأرض. لم يكن هناك أَسِرَّة ولا طاولات، وإنما حصير فقط. كانت الأسقف مصنوعة من العشب المجدول بالحبال.[5] كانوا يقتاتون بالذرة التي كانت تخزن في حفر في الكرال. كان الصبيان يمضون نهارهم في رعي الماشية، فيما تقوم البنات ونساء الأُسرَة بتحضير الطعام مجتمعات في أحد البيوت. كُنَّ يَطْحَنَّ الذرة بالرَّحى، ويَطبِخْنَها بالحليب الحامض في قدور معدنية سوداء ذات ثلاث أرجل. كانت الأُسرة تتناول وجبتها الرئيسية مجتمعة في المساء، والكلُّ يجلسون على الأرض، ويأكلون من طبق واحد.

كان لوالد مانديلا ثلاثة أبناء من زوجات أخريات، غير أنهم كانوا قد غادروا المنزل في وقت مبكر. كان مانديلا الغلام يتمتع بحرية أكبر بكثير مما حظيت به أخواته. وكان قريباً من أُمِّه ولكنه كان يقيم غالباً مع إحدى زوجات أبيه التي كانت تشعره بالأمان والحب ذاته الذي تشعره به نوسيكيني فاني. كان في جميع مراحل حياته يشعر بالراحة مع النساء خاصة النساء القويات القادرات على إقامة علاقات صداقة مجزية، الأمر الذي يمكن أن يربط بأيام طفولته. وعاش مانديلا في حضن أسرته الكبيرة من أبناء العم وزوجات الأب والأشقاء والشقيقات (ليس في لغات البانتون كلمات تعني أخت من أب أو زوج أب)، لذلك كان مانديلا يدعو زوجات أبيه بلفظة «أمهاتي» وقد قال يوماً : «كانت لدي أمهات تدعمنني كثيراً ويعتبرنني ابنهن، وليس ابن الزوج أو نصف ابن، كما تقولون بلغة البيض ، كن أمهات بالمعنى الصحيح للكلمة». هذه السعادة التي أحاطت به كابن تحبه أربع أمهات جعلت طفولته زاخرة بالأمان. يتحدث أحياناً بحنين عن تعدد الزوجات في ذلك الزمان، وهو يرفضه في ظروفه

الحالية، ويقول «إنه غير مبرر لدي، وهو شيء لا أشجعهَ». [6]

كثيراً ما يحن مانديلا، في رسائله ومذكراته، إلى الأيام التي عاشها صبياً ريفياً، وكتب من سجنه بحماسة عن روعة التلال والجداول، وعن متعة السباحة في البرك وشرب الحليب من ضرع البقرة أو أكل الذرة مشوية على الفحم. أدرك كثير من قادة العالم سياسات القوة في العواصم، ولعبوا على أوتار جذورهم الريفية، مثل لويد جورج، عندما قام بزيارة قريته في ويلز، أو ليندون جونسون في حنينه إلى مزرعته في تكساس. إلا أن الرئيس مانديلا كان أكثر إصراراً في تسمية نفسه «ابن القرية»، ولسبب أقوى، وهو أن الأمان والبساطة اللذين ميَّزا نشأته الريفية لعِبا دوراً حاسماً في تكوين ثقته السياسية.

لقد شَدَّت في عَضُدِه معرفتُه بأجداده. فقد كان والده حفيد نغوبنغكوكا، ملك شعب التمبو الذي توفي في سنة 1832، قبل أن يتمكن البريطانيون من فرض سلطتهم على تمبولاند، الجزء الجنوبي في ترانسكي. وقد احتفظت عائلة تمبو المالكة، رغم فقرها وتبعيتها كما يتصورها البيض، بهيبة خاصة في ترانسكي، حيث كانت تحظى بإخلاص الشعب واحترامه. ولم يكن مانديلا من أفراد الدرجة الأولى في العائلة المالكة، بل كان دائماً يؤكد أن ليس له أي حق في الوصول إلى العرش. [7] كان مجرد واحد من عشرات الأحفاد للملك نغوبنغكوكا، وتحدَّر هو من فرع صغير. غير أن والده كان صديقاً صدوقاً ومحل ثقة الملك دالينديبو الذي تولى عرش تمبو، وبعده ابنه الملك جونغيليزوي. كان هندراي أشبه برئيس وزراء، وكان مانديلا الفتى يحظى باحترام جماعته.

لقد تَحَدَّر من أسرة ملكية، حسب اعتقادهم، ولكن في ظل قوة محتلة. فمنذ أيام نغوبنغكوكا كانت سلطاتهم محددة أولاً، من قبل الحكومة البريطانية، ثم من بعد 1910 باتحاد جنوب إفريقية الجديد، وكان ملوك ترانسكي مشتتين بين واجباتهم تجاه شعبهم وبين متطلبات القوة الدخيلة. ولكن مهما تمسّك

أفراد العائلة المالكة في تمبو بكبريائهم واحترامهم فقد كانوا دائماً يشعرون أن شركاءهم الجدد، البريطانيين والأفارقة، قد حرموهم سلطتهم وثروتهم. وعندما بدأ مانديلا الشاب يسافر إلى ما وراء حدود منطقة بيته كان يرى أن المدن في الكاب الشرقي - مثل بورت شيبستون وكينغ ويليامز تاون، وبورت إليزابيث، وآليس - قد أعطيت أسماء أبطال بريطانيين وليس كزوسيين، وأن الرجال البيض كانوا الأسياد الحقيقيين. وسمي كثير من الأطفال من جيل مانديلا الذين تلقوا تعليمهم على أيدي البعثات التبشيرية، بأسماء أبطال ملكيين بريطانيين مثل ديلنغتون وكيتشينر وآديلايد أو فكتوريا. وفي السابعة من عمره حصل مانديلا على اسم جديد يسبق روليهلاهلا، إذ قال معلمه: «من الآن فصاعداً سيصبح اسمك نيلسون». كانت أمه تلفظ اسمه نليسيلي فيما كان الآخرون ينادونه فيما بعد داليبونغا، وهو الاسم الذي ختن به. كان أصدقاؤه من أبناء المدينة ينادونه «نيلسون» أو «نيل»، إلى أن أعرب عن تفضيله اسم قبيلته «ماديبا» الذي اعتمدته الدولة كلها.

وفي سنة 1927، عندما كان مانديلا في الخامسة من عمره، ازداد قرباً من الملكية. كان والده يعاني من مرض رئوي، و كان عندئذ يقيم في منزل والدة مانديلا، وكان صديقه جونخينتابا الوصي على عرش شعب تمبو يزرن، حين سمعت مابيل شقيقة مانديلا والدها يقول له: «سيدي ، سوف أترك ابني اليتيم بين يديك لِتُعَلِّمه، وإني أراه يتقدم ولديه طموح. عَلِّمه أن يحترمك». أجاب الوصي: «سآخذ روليهلاهلا وأعَلِّمه». ومات هندراي بعد ذلك بفترة قصيرة، وحُمِل جثمانه على نقالة إلى منزل زوجه الأولى، وذبحت بقرة في هذه المناسبة، لكن مراسم دفنه وجنازته كانت مسيحية، قام بمراسمها الأخوة مبيكيلا ودفن في المقبرة المحلية.[8]

واصطحبت والدة مانديلا ابنها في رحلة طويلة على الأقدام من كونو إلى القصر الكبير في مكيكيز ويني حيث كان الوصي يترأس شعبه كقائم بأعمال

الملك، لأن الوريث ساباتا كان أصغر من أن يستطيع إدارة شؤون البلاد. كان جونخينتابا، الذي كان زعيماً لقبيلة ماديبا أيضاً، مديناً لوالد مانديلا الذي رشحه وصياً على العرش، مما يفسر سبب موافقته على تبني مانديلا كما لو كان ابنه. إلا أن عادات الأسرة الكبيرة في المناطق الريفية كانت أقوى بكثير مما هي في المدن، الأمر الذي لم يصرف مانديلا عن الولاء لها واحترامها. فقد كتب من سجنه: «إنها تقدم الطعام لكل من تحدر من جد واحد وتجمع شملهم كأسرة واحدة».(9)

القصر الكبير في مكيكيزويني لا يكاد يمت بأي شبه للصورة الأوروبية لقصر ملكي. وما زال الوصول إليه عسيراً إلى يومنا هذا، ولا تصل إليه سيَّارة. حيث يتفرع عن الطريق الرئيسي شعب ترابي ضيق ووعر يتعرج خلال المناطق الريفية، يهبط في مجاري أنهار جافة ثم يصعد عبر ضفاف صخرية، ويمر قرب تجمعات من الأكواخ و «الروندافيلات» كما يمر قرب محطة مهجورة للسكة الحديدية.

أخيراً تظهر مستوطنة صغيرة عبارة عن بيتين يقابلان مجموعة من الروندافيلات تفصل بينهم حديقة تكسوها الأعشاب، وبناء مدرسة وراءه بعض الأكواخ. يخرج من أحد هذه البيوت رجل وقور جميل المظهر ويقدم نفسه كزعيم محلي، حفيد جونخينتابا، فهو ما زال يشرف على المجموعة المحلية. ويشير إلى الروندافيل البسيط حيث كان الرئيس مانديلا يعيش عندما كان غلاماً. على جدار أحد البيوت صورة فوتوغرافية لوجه جونخينتابا السمح بشارب مشذب. وإلى جواره مانديلا الشاب يعلو وجهه تعبير وقور. وبالقرب منها صورة يبدو فيها وجهه الباسم على إحدى الشاخصات الانتخابية سنة 1994.

قد يبدو القصر الكبير لعين الزائر الغربي اليوم صغيراً ونائياً، ولكنه كان بالنسبة لمانديلا الشاب في سنة 1927 مركز العالم، وكانت فترة مكيكيزويني هي سنوات تكوينه واكتسب منها سمات ملكية ستؤثر على حياته كلها. ولن ينسى

أبداً اللحظة التي رأى فيها الوصي لأول مرة يصل في سيارة مذهلة وشعبه يرحب به بهتافات «آه . . جونخينتابا». هذا المشهد الذي سيتكرر بعد سبعين سنة عندما قوبل الرئيس مانديلا بهتافات «آه . . داليبونغا». كانت مكيكزويني أكثر ازدهاراً يومها، وكانت تحقق الاكتفاء الذاتي تقريباً. وكان زعيمها وصياً على العرش، يلتف حوله رجال القبائل من جميع أرجاء تمبولاند للاستنارة برأيه.

لم يكن مع الصبي في عامه التاسع سوى حقيبة من القصدير، وكان يرتدي قميصاً قديماً وبنطالاً كاكياً قصيراً قُصَّ من بنطال أبيه القديم المخصص لركوب الخيل، وثبِّت حول جسمه بحبل بدل الحزام. يذكر ابن عمه نتومبيزودوا، الذي يكبره بأربع سنوات، أنه كان خجولاً ووحيداً لا ينبس ببنت شفة، وسرعان ما رحب به جونخينتابا وزوجه نو انكلاند.[10] شارك مانديلا ابنهما جَسْتيس روندافيلا صغيراً أبيض يضم سريرين وطاولة ومصباحاً زيتياً. وعومل مانديلا معاملة فرد من العائلة، مع نومافو ابنة جونجينتابا، ثم مع نزيكسو الأخ الأكبر لساباتا ولي عهد المملكة. رأى نفسه عضواً في أسرة مالكة، تعيش حياة أفخم بكثير من حياة كونو، غير أنه لم يكن يشعر بالانتماء التام إلى تلك الأسرة، الأمر الذي ربما يكون قد شحذ مطامحه.

أصبح الوصي، جونخينتابا، الذي يعرف باسم دافيد دالينديبو، يمثل شخص الوالد بالنسبة لمانديلا. كان رجلاً وسيماً، دائم الأناقة، وكان مانديلا يكوي له بنطاله بحب، مما خلف لديه احتراماً للثياب طيلة حياته. كان جونجينتابا ميثودياً ملتزماً ـ رغم أنه كان يستمتع بالشراب ـ وكان يصلي كل يوم في الكنيسة القريبة التي يديرها أحد أقربائه وهو الكاهن ماتيولو. كان ابنه جَسْتيس، الذي يكبر مانديلا بأربع سنوات، مثلاً يُقتَدىٰ به في العقد التالي، كان مثال الشجاعة والأناقة، وكان رجلاً رياضياً، شديد التأنق وكان زير نساء. كان جَسْتيس ماهراً في كل شيء، متفوقاً في الرياضة الجماعية كالكريكيت،

وكرة القدم، والركبي. فيما أثبت مانديلا، الأقل تناسقاً مقدرته في أنماط الرياضة الفردية الخشنة كالملاكمة، وجري المسافات الطويلة. يظهر جَسْتيس في إحدى الصور شاباً مقاتلاً واثقاً بنفسه، حاد النظرة، فيما يبدو مانديلا أقل عنفواناً، ويتوق إلى اكتساب الثقة التي يبديها جَسْتيس. فقد كان جَسْتيس ولياً لعهد الزعامة، فيما كان مانديلا يعتمد على عطاءات الوصي.

أحب مانديلا مباهج الريف في مكيكيزويني، التي كانت أكثر وفرة في تلك الأيام مما هي الآن، ومن ضمنها ركوب الخيل والرقص على أنغام الأغنيات القبلية التي كانت تشدو بها فتيات كزوسا. (كان يفكر وهو في السجن كم كان حاله الذي صار إليه مختلفاً عن مباهج عاشها في ميريام ماكيبا أو أيرثا كيت أو مارغو فونتين). غير أن مانديلا كان أيضاً أكثر جدية وتفانياً في العمل من الصبية الآخرين. كان يجهد في مدرسة البعثة المحلية، حيث بدأ يتعلم الإنكليزية من كتاب Chamber's English Reader ويكتب على لوح اردوازي، وينطق الكلمات بعناية بلكنة محلية بطيئة لم يتخل عنها أبداً.

لم يكن للبيض أي حضور يذكر في مكيكيزويني إلا بعض العابرين. وتذكر ميبل شقيقة مانديلا أنها ذهلت عندما التقى هو وأصدقاءه في المدرسة برجل أبيض بحاجة إلى المساعدة لعطل طرأ على دراجته النارية، وكان مانديلا قادراً على التحدث إليه بالإنكليزية.[11] كانت ميبل تخاف مانديلا كثيراً. لم يكن يحب أن يستفزه أحد، وإذا ما استثير فإن رد فعله مباشرة. . . لم يكن لديه وقت يضيعه في التفاهات. لقد كانت تتوافر فيه مواصفات القيادة.[12]

ويعود جزء مهم من ثقافة مانديلا إلى مراقبه الوصي، كان مأخوذاً بممارسة جونجينتابا لشخصية الملك في اجتماعات القبيلة الدورية التي كان شعب تمبو يسافر عشرات الأميال على الأقدام أو على ظهور الخيل لحضورها. كان مانديلا يحب الفرجة على رجال القبائل، سواء منهم العمال أو أصحاب الأرض، إذ يشتكون للوصي بشكل صريح قد يبلغ حد العنف أحياناً، وكان

الوصي يستمع ساعات بهدوء وصمت، إلى أن يحاول أخيراً عند الغروب الخروج بإجماع من الآراء المتناقضة. سيتذكر مانديلا فيما بعد في سجنه:

> إن إحدى علامات الزعيم الكبير هي المقدرة على الإبقاء على وحدة جميع قطاعات الشعب، التقليديون منهم، والإصلاحيون والمحافظون والتحرريون، حول القضايا الرئيسية حيث تتعارض الآراء بحدة أحياناً. كان بلاط مكيكيزويني قوياً بشكل ملحوظ، وكان الوصي قادراً على حمل عبء الرعية كلها لأن البلاط كان يضم ممثلين لجميع الآراء.[13]

وعندما أصبح مانديلا رئيساً، سعى إلى الوصول إلى نوع مماثل من الإجماع في الحكومة، كان يذكر دائماً نصيحة جونجينتابا بأن القائد يجب أن يكون كالراعي، يقود قطيعه من الخلف بالإقناع الماهر. كان يقول «إذا شَرَدَت دابَّة أو اثنتان إذهب وَأَعِدْهُما إلى القطيع. هذا درس مهم في السياسة».[14]

شب مانديلا على الفكرة الإفريقية للأخوَّة الإنسانية أو «أوبونتو» بما يعني نوعاً من التعاطف والمسؤولية الجماعية. وكثيراً ما كان يستشهد بالمثل «أو مونتو نغومنتو نغابانتو» أي ما معناه «الإنسان إنسان بفضل الناس الآخرين» أو «لا يمكنك أن تفعل شيئاً دون دعم الآخرين» وهذا المفهوم شائع أيضاً بين الجماعات الريفية الأخرى في جميع أرجاء العالم، ولكن الإفريقيين يحددون معناه بشكل خاص كنقيض للفردية والأرق لدى البيض، ولقد لازم مفهوم الـ «أوبونتو» السياسة السوداء على مر العقود التالية. وقد قال الأسقف توتو في سنة 1986 إن هذا المفهوم يعني «اللطف، والتعاطف، وكرم الضيافة، والانفتاح على الآخرين، والحساسية، ومساعدة الآخرين والإحساس بأنك مرتبط بهم برباط الحياة».[15]

كان مانديلا يرى الـ «أوبونتو» جزءاً من فلسفة عامة لخدمة البشر، ويذكر أنه كان مستعداً لأن يرى أفضل ما في الآخرين منذ سني شبابه الأولى. وكانت هذه صفة موروثة عنده: «الأشخاص الذين نشأوا مثلنا في بيئة قروية يعتادون

التفاعل مع الناس في سن مبكرة». غير أنه سَلَّمَ بأنه «قد يكون مزيجاً من الغريزة والتخطيط المقصود». ومهما كان من أمر، فإن تلك السمة ستصبح مبدأ يسود حياته السياسية كلها. «الناس كائنات بشرية، أنتجهم المجتمع الذي يعيشون فيه. إنك تشجع الناس حين تركز على مواطن الخير فيهم».[16]

تعزز إعجاب مانديلا بالتقاليد القبلية والديموقراطية إثر معرفته بالتاريخ الكزوسي من خلال زيارته الزعماء الكبار ورؤساء القبائل. وكثير منهم كان أمياً، إلا أنهم كانوا يجيدون الحكاية، فيروون ملاحم عن معارك ماضية مثل الشعراء الصعاليك الذين ينسجون على منوال هوميروس. وقد سرد أفضل رواة القصة الزعيم جوي، وهو مثل مانديلا سليل الملك العظيم نغوبنغكوكا، كيف دَمَّرَ قدوم البيض وحدة شعب كزوسا وسلامه. فقد فَرَّقوا بينهم، وطردوهم وهزئوا بال «أبوبونتو».[17] ولطالما استعاد مانديلا صورة ذلك المجتمع القبلي الإفريقي المثالي. فقد تحدث عنه في خطاب طويل سنة 1962، قبيل دخوله السجن:

> لقد عاش شعبنا من قبل بسلام، تحت حكم ديموقراطي مارسه ملوكه وزعماؤه (آمافاكاتي)، وتنقلوا بحريَّة وثقة في أعلى البلاد وأدناها، دون عائق ولا مُذِلّ. كان البلد لنا وقتها، باسمنا نحن ومن حقنا. كنا نشغل الأرض والغابات والأنهار، كنا نستخلص الثروة المعدنية الكافية من باطن التربة، وجميع ثروات هذا البلد الجميل، لقد أرسينا أسس حكومتنا الخاصة وأدرناها، كنا نسيطر على جيوشنا وننظم تجارتنا ومبيعاتنا.

كان ذلك، في نظره، العصر الذهبي، بلا طبقات ولا استغلال ولا تفاوت، حيث كان المجلس القبلي مثال الديموقراطية:

> كان المجلس ديموقراطياً لدرجة أن جميع أعضاء القبيلة كان بإمكانهم المشاركة في نقاشاته. الزعيم والتابع، المقاتل والطبيب، كلهم يشاركون ويسعون إلى التأثير في قرارته. كان هيئة ذات وزن ونفوذ لا يمكن اتخاذ أي خطوة مهمة في القبيلة دون الرجوع إليها».[18]

كان تاريخ الكزوسيين حياً عندما كان مانديلا طفلاً، ويذكر المسنون جداً ذلك الزمن الذي كانوا فيه لا يقهرون. وبقي كبرياء ترانسكي واستقلالها وقبائلها التي تتحدث بلغة الكزوسا ـ التمبو والبُوندوس والفينغوس والكزوس أنفسهم ـ رغم ذلك الغزو وما نجم عنه من التبعية في القرن السابق. تزاوج بعض الكزوسيين مع قبائل أخرى، من ضمنها الخوي خوي (الذين لقبهم المستعمرون البيض بالهوتنتيين) مما تمخض عن تشكيلة واسعة من الملامح: حيث يقال أن وجه مانديلا المتميز، بعينيه الضيقتين وعظام خديه القوية، يعود إلى اختلاطه بدماء الخوي خوي.[19] ولكن الكزوسيين احتفظوا بثقافتهم ولغتهم الخاصتين. وقد فوجىء كثير من المستعمرين البيض إذ قابلوهم لأول مرة في أواخر القرن الثامن عشر ببنيتهم، ولون بشرتهم الفاتح ووجوههم الحساسة، ونظامهم الديموقراطي في النقاش والحكم. وقد كتب المبشر ويليام هولدن سنة 1866 «إنهم لا يقلون عن أي محام بريطاني في مناقشة المسائل التي تتعلق بعاداتهم وقوانينهم». وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر قال الحاكم البريطاني هاري سميث إن الملك هينتسا الكزوسي «هو نسخة طبق الأصل عن العزيز المسكين جورج الرابع».[20] ولكن بعد مضي مائة عام وتسعة حروب كزوسية، جرَّدت القوات البريطانية المتقدمة شرقاً من الكاب الكزوسيين بالتدريج من استقلالهم ومن أرضهم، وبحلول سنة 1835 كان هاري سميث قد عبر نهر كي ليبدأ عملية إخضاع ترانسكي. وبحلول سنة 1848 كان قد فرض نظامه الإنكليزي على زعماء الكزوسا، وأخبرهم أن أرضهم «سَتُقَسَّم إلى مقاطعات، وبلدات، وقُرى تحمل أسماء بريطانية. وستتعلمون جميعاً الإنكليزية في المدارس التي سأشيدها لكم. . ربما لن تبقوا عراة وهمجيين بعد الآن، ولكنكم ستبقون كذلك ما لم تعملوا وتنشطوا».[21] وفي الحرب الكزوسية الثامنة سنة 1850 تمكن الجيش البريطاني ـ بعد نكسات أصابت منه ما أصابت، وأعمال قتالية من كلا الجانبين ـ من إخراج زعماء الكزوسا من

معاقلهم الجبلية وأحكم احتلاله لـ «كفراريا البريطانية»، التي لقبت فيما بعد بالسيسكي.

لم يُصب زعماء التمبو الذين كانوا يحكمون الجزء الجنوبي من ترانسكي بأذى يذكر في الحروب الأولى، ولكنهم أُخضعوا فيما بعد وأُرسلوا إلى سجن جزيرة روبن الرهيب قبالة شاطىء كيب تاون، الذي أصبح سَيِّء السمعة في التراث الشعبي الكزوسي.

بعد هذا الإذلال والإفقار أكمل الكزوسيون سنة 1856 دمارهم الذاتي. إذ قالت لهم عرافة شابة هي نونغكاوس أن يقتلوا مواشيهم ويستعدوا للبعث والنشور. مما أدى إلى موت أكثر من نصف سكان سيسكسي جوعاً. ومع نهاية حرب الكزوسا التاسعة سنة 1878 كانت العائلتان الرئيسيتان من الكزوسا، وهما النغيكا والغساليكا قد أُخضعتا وأُجبرتا على نزوح جديد عبر نهر كي. وكان الزعماء المتعاقبون يرسلون تباعاً إلى جزيرة روبن، تنفيذاً لأوامر السير جورج غراي حاكم الكاب، الذي قصد من ذلك، على حد قوله: «إخضاع كل زعيم ذي شأن، وإذلاله إذا أظهر عناداً».[22]

ولم تقع بوندولاند، في الجزء الشمالي من ترانسكي، تحت إدارة الكاب حتى سنة 1894. ولكن بعد ظهور اتحاد جنوب إفريقية إلى الوجود سنة 1910 واجه الكزوسيون قيوداً ممتزايدة فرضها عليهم القضاة البيض.

رأى مانديلا أن البيض استولوا على مؤسسة زعامة القبيلة واستخدموها لقمع تطلعات أفراد القبيلة جميعاً. وبهذا دمروا الزعامة أو كادوا.[23] ولقد ذاع صيت الزولو في أواخر القرن التاسع عشر، وهم القوة القبلية الرئيسية الأخرى في الشمال، ذاع بين أوساط البيض والأجانب بأنهم مقاتلون أكثر شراسة من الكزوسيين، وبخاصَّة شاكا ملك الزولو المقاتل الذي انطلق ليهزم القبائل الجنوبية ويوحدها في العشرينات من القرن التاسع عشر. استحوذ الزولو على

إعجاب كثير من رجال الكنيسة البريطانيين، ومنهم الأسقف جون ويليام كولينسو من ناتال. غير أنهم اكتسبوا شهرة عسكرية فريدة في كانون الثاني من سنة 1879 عندما خاض البريطانيون حرباً ضد سيتيوايو خليفة شاكا، الذي استطاع جيشه تدمير قوة بريطانية قوامها 1200 رجل تدميراً كاملاً في معركة ايساندهلوانا. وأرسل البريطانيون تعزيزات، وكان في عداد هذه التعزيزات الأمير الإمبراطوري ابن لويس نابليون، الذي أُوقع في كمين وطعن بحراب المقاتلين الزولو حتى الموت. وقال ديزرائيلي: «إن الزولو شعب متميز جداً. إنهم يهزمون جنرالاتنا، ويحولون أساقفتنا عن دينهم. لقد قضوا على سلالة أوروبية عظيمة.»[24] وأخيراً انتقم البريطانيون للذل الذي حل بهم في معركة اساندهلوانا في تموز (يوليو) عندما سحقوا سيتيوايو في معركة أولوندي وأخضعوا الزولو، غير أن الروح النضالية التي اشتهر بها الزولو لم تَذِلّ أبداً.

ضعفت الروح القتالية عند زعماء الكزوسا وبدوا أقل عناداً من الزولو، وبدوا بعد سلسلة الحروب التي خاضوها ضد البريطانيين مهزومين محطمي المعنويات. وربما ساعد على ذلك انتشار تعاطي الخمر بينهم. ولكن تراثاً أخر كان ينمو من مآسي حروب الكزوسا، تراث المدارس التبشيرية والثقافة المسيحية، التي سرعان ما أنجبت نخبة كزوسية جديدة من الشبان والشابات على درجة عالية من الانضباط والتعليم. وفي الوقت الذي كانوا يعتنقون فيه الأفكار الغربية كانوا يتطلعون إلى استعادة حقوق شعبهم وكرامته. كانت التقاليد الليبرالية البريطاني ترسخ دعائمها في الكاب مع انتشار المحطات التبشيرية والسماح للسود بالتصويت. كان الكزوسيون الشباب المتعلمون يستغلون تقبل الزوار البيض الأوائل للنقاش القانوني والتحليل والحوار وأدى هذا الاتجاه ببعضهم، مع مرور الوقت، إلى الحملات السياسية للمعارضة السوداء في الستينات من القرن العشرين ـ التي سميت في بعض الأحيان بالحرب الكزوسية العاشرة ـ لكنه أوصلهم مثل أجدادهم، إلى جزيرة روبن، ولكن قدر لهم في ما

بعد أن يكسبوا معركتهم، ليس بالقوة العسكرية، وإنما من خلال مهاراتهم في الجدل والمحاكمة العقلية.

لقد حافظ الكزوسيون، مثل غيرهم من الشعوب المقهورة كالاسكتلنديين وهنود أمريكا، محافظة شفهية على تراثهم التاريخي الذي تجاهله أمام العالم الخارجي. قال ماثيوز البروفسور الإفريقي الذي دَرَّس مانديلا: «إنه يستحيل أن نقبل تقييم الأوروبي للإفريقيين من أجدادنا على أرضنا».[25] كان مانديلا، رغم تعليمه الغربي، يقدر المؤرخين الرواة ويعتبرهم أبطالاً. وبقيت الحكايات المروية عن الكزوسيين التي سمعها من الكبار مصدر إلهام له: «كنت أعرف أن مجتمعنا أنجب أبطالاً سوداً وهذا كان يشعرني بالفخر. لم أعرف كيف أنقل هذا الفخر إلى الآخرين ولكني حفظت هذه المادة الأولية داخلي عندما التحقت بالكلية».[26] وفي الوقت الذي يعتبر معظم المؤرخين البيض ثوار الكزوسا شيئاً من الماضي البعيد، غشّاه وطغى عليه المنطق المتجبّر للغزو الغربي والتكنولوجيا الغربية، رأى مانديلا، مثله كمثل كزوسيين مثقفين آخرين، في احتلال البيض فترة مستقطعة من التاريخ الحديث، ولم يكن لينسى أبداً أن جده الأكبر كان يحكم إقليماً بأكمله قبل ولادته هو بقرن من الزمن.

2

صَبِيّ المهمّات

1934 ـ 1940

عندما بلغ مانديلا السادسة عشر من عمره، سنة 1934، ذهب مع خمسة وعشرين صبياً من قبيلة تمبو بقيادة جَسْتيس، ابن الوصي، إلى وادٍ ناءٍ على ضفاف نهر باشي، الموقع التقليدي لختان ملوك المستقبل من التمبو. ولا يمكن لأي من الكزوسا الريفيين أن يتبوّأ موقع القيادة دون هذه الطقوس. ويتذكر مانديلا بحيوية الاحتفال الذي أعلن بلوغ الرجولة: الأيام التي مضت قبل الاحتفال مع باقي الصِّبْيَة في «المسكن المنعزل»؛ كانوا يومها يغنون ويرقصون مع نسوة من تلك المنطقة في الليلة التي سبقت الاحتفال؛ كانوا يَسْتَحِمُّون في النهر عند الفجر؛ ويعرضون في دُثُرِهِم أمام الشيوخ والوصي ذاته، الذي كان يراقبهم ليرىٰ أنهم يتصرفون بشجاعة.

طلع عليهم الخاتن العجوز ومعه رمحه الحاد. وكان الواحد من الصِّبْيَة إذا حان دوره في الختان صاح رفاقه جميعاً «أنا رَجُل»![1] كان مانديلا متوتراً وقَلِقاً. إنه يذكر اللحظة التي ختن فيها ويصفها؛ كأن رصاصاً مصهوراً كان ينساب في عروقه. وللحظات نسي كلماته، بينما كان يضغط برأسه على العشب قبل أن يصيح هو أيضاً: «أنا رَجُل»! لكنه كان يعي أنه لم يكن شجاعاً بطبيعته: «لم أكن صريحاً وقوياً مثلما كان بقيّة الصِّبْيَة».[2]

وعندما انفضَّ الجمع وانقضىٰ الاحتفال، بعد أن دفنوا ختانهم، طلوا وجوههم بمادة (مَغْرَة) بيضاء ثم غسلوها في النهر، كان مانديلا فخوراً بحاله

الجديد كَرَجُل، وقد اتَّخَذَ اسماً جديداً ـ داليبونغا، ويعني مؤسس المجلس ـ ويستطيع أن يمشي شامخاً ويواجه تحديات الحياة. ما زال يشعر في قرارة ذاته أنه جزء من قبيلة فخورة. وقد صدمته كلمات الزعيم مليغكيلي إلى صِبْيَة القبيلة، أنهم لن يكونوا حقيقة رجالاً لأنهم شعب مهزوم مُسْتَرَقّ في وطنِه.[3] أدرك مانديلا بعد عشر سنين أن الزعيم كان رائداً لسياسيين شجعان مثل الفْرِدْ كزوما ويوسف دادوو وجيمس فيليبس ومايكل هارْمِل. وفي خلال ذلك، أخذ مانديلا عُجْبٌ عظيم برجولته التي اقترنت بالختان وبما تنطوي عليه من شموخ وسموّ؛ ففي الجامعة صُدِم بعلمه أن أحد زملائه لم يكن قد ختن بعد. لكنه بعد أن انغمس في السياسة فيما بعد، قال ذات مرة في جوهانسبورغ: «عندما بدأت أخرج من طوق التَحَيُّز الذي عشته في صباي قَبِلْتُ بالمبدأ القائل إن الناس جميعاً سواسية».[4]

كان على مانديلا أن يقدم على نقلة اجتماعية جذرية في غمرة النظام المدرسي التبشيري الصارم. لقد كان الوصي عازماً على أن يقدم له الثقافة اللائقة، كمرشح لأن يكون المستشار لساباتا، ملك المستقبل. لذلك فقد أرسله إلى المؤسسة الميثودية الكبرىٰ في كلارْكْبري. عبر نهر باشي، حيث تَعَلَّم هو وابنه جَسْتيس، وقد يعلّم ساباتا. ولِكلاركبري رنين خاص عند عائلة تمبو الملكية: فقد أُسِّسَت سنة 1825، في عهد الملك نغوبنغكوكا جد مانديلا الأكبر، الذي قابل رائد الميثوديين وليام شو ووعده أن يقدم له أرضاً ليقيم عليها بعثته.[5] وقد أنشأ البعثة الكاهن ريتشار هادّي، على بعد أميال من قصر الملك الكبير، وقد سميت باسم عالم لاهوت بريطاني معروف، هو الدكتور آدم كلارك.

لقد كان الميثوديون أكثر المبشرين مغامرة وأعظمهم نفوذاً، حيث تغلغلوا خلال الكاب الشرقي في ذات الوقت الذي دخله الجيش البريطاني ـ تارة باتفاق مع الجيش وتارة أخرىٰ بدون اتفاق. أما غالبية المواطنين الكزوسا فإنهم

يعتبرون بعثات التبشير عملاء للحكومة البريطانية، التي استعملتهم لِذَرِّ الخلاف بين الزعماء المتصارعين ولتجريدهم من سلاحهم: فقد كتب الكاتب التروتسكي نوزيغو ماجيكي سنة 1952 أن الإرسالية الويزليانية كانت دائماً على أتم الاستعداد للتعاون مع الحكومة، وكانوا قادرين على محاصرة الملك العظيم هِنتسا، بتأليب بقية زعماء القبائل عليه.[6] لكن معلّمو البعثات التبشيرية كانوا يعارضون إدارة البيض، وقد لعبوا دوراً محايداً في تطوير شعب الكزوسا. فقد سجّلت مدارس البعثات التبشيرية في سنة 1935 في جميع أنحاء جنوب إفريقية 342181 تلميذاً، وكما يقول المؤرخ ليونارد تومبسون: «لقد دخلوا في كل مجموعة إفريقية نائية».[7]

قد يحتفظ مانديلا باحترام لتعاليم البعثات التبشيرية، بينما ينتقد نهجها وصلاتها بالإمبريالية. «لقد مارست بريطانيا نفوذاً هائلاً على جيلنا، على أقل تقدير، لأن البريطانيون المتحرّرين وإرساليات التبشير هم الذين باشروا الثقافة في هذا البلد».[8] وفي كلمة ألقاها في جامعة أُكسفورد بعد مضي ستين سنة على أيام دراسته يوضح قائلاً: «لم تُبدِ حكومة بلادنا حتى وقت قريب جداً، أيَّ اهتمام مهما كان في تعليم السود. لقد أنشأت المؤسساتُ الدينية المدارسَ، وجهّزتها، ووظّفت المعلمين ودفعت لهم أُجورهم؛ لذلك فإن الدين يجري في دمنا. ولولا المؤسسات التبشيرية لما كان روبيرت موغابي ولا سيرتسي خاما، ولا أوليفر تمبو.[9] وفي السجن سيناقش التروتسكيين الذين يستشهدون بهجمات الماجيكي على البعثات التبشرية، ويرحب بالكهنة الذين حملوا التشجيع والأخبار من الخارج.[10] وسيكتب لبعض أساتذته في البعثة القديمة ليستعيد الذكريات وليشكرهم. وفي السجن أصبح أكثر وعياً بالنفوذ السياسي لكل من زعماء القبائل والمبشرين فكتب: «كنت دائماً أعتقد أن من الخطورة بمكان الاستخفاف بنفوذ كلٍّ منهما على الناس. ولهذا السبب كنت دائماً أحثُّ على الحذر في التعامل معهما».[11]

عند قبول مانديلا في الجامعة سنة 1934 كانت كلاركبوري قد أصبحت أكبر مركز تعليمي في تيمبولاند، وتفتخر بعراقتها في التدريس، ومعظم أساتذتها من المبشرين البريطانيين. وتوسعت، فغدت مجموعة مهيبة من الأبنية الحجرية الراسخة، تضم كلية لإعداد المعلمين، ومدرسة ثانوية، وأماكن تدريب على دورات عملية، وفيها سَكَن للصبيان وآخر للبنات، وباحات للرياضة ولعب التنس. كانت مستوطنة متكاملة تحتل أحد السفوح المنعزلة في منطقة إنغكوبو، ولها جاليتها الخاصة الناشطة. وأصبحت إنجازاتها السابقة بالغة الأهمية إثر إدخال تعليم البانتو سنة 1935، عندما خسرت أموالها وأصبحت يباباً، ليس فيها سوى مدرسة صغيرة وكنيسة ميثودية تنبي عن استمرارها. وهي اليوم صورة مأساوية لأبنية متداعية، وسقوف منهارة وقاعات للدراسة متآكلة، أحرقها الطلاب المتظاهرون ضد الحكومة البانتوستانية الترانسكية. ومازال هناك بعض ما يُذَكِّر بمجدها الغابر، ويتضمن لوحة تذكارية نقش عليها اسم مدرسة دالينديبو التبشيرية بنيت سنة 1929. وقد أعيد بناء بعض المباني، لتكون مدرسة محدثة، ويقول مدير المدرسة إنها ستقوم بتدريب الكزوسين على إحداث فرص عمل، بدل البحث عن تلك الفرص، وإن مانديلا يحث السكان المحليين على أن يدركوا أن الجاليات الصغيرة تستطيع أن تنجب قادة كبار. ومازال مانديلا يزور كلاركبوري ويتحدث ويكتب عنها بحرارة، وقد اختارها لتكون الموقع الذي يطلق منه نسخة جديدة من سيرته الذاتية.[12]

كانت كلاركبوري سنة 1934 في قمة إنجازها تقريباً. كان يديرها تربوي رائع هو الأب سيسيل هاريس، الذي كان وثيق الصلة بالجماعات الكزوسية المحلية وزعمائها. نِبَّهَ الوصيُّ مانديلا كي يعامل هاريس بما يليق به من الاحترام لأنه «تمبووي القلب»، وصافحه مانديلا باحترام، كانت أول يد بيضاء يصافحها. وأدار هاريس كلاركبوري بقبضة حديدية، كان أشبه بقائد عسكري منه بمدير مدرسة.[13] كانت له طبيعة أرستقراطية، يمشي مشية جندي، كما

كان في الحرب العالمية الأولى. يذكر مانديلا أنه كان صارماً جداً في تعامله مع الطلاب. «كان قاسياً دون طيش». [14] غير أن مانديلا لمس جانباً أكثر إنسانية ووداً في هاريس وزوجه عندما عمل في حديقتهما. وبعد سنوات، عندما كان في السجن، استقصى عنوان مافيس نيبي ابنة هاريس، التي كانت طفلة يوم كان هو في كلاركبوري. «صعقت» الابنة إذ وصلتها رسالة من سجين مشهور. [15] وذكرها مانديلا كيف كانت والدتها تقدم له كعكة بالزبدة أو خبزاً بالمربى، كانت بالنسبة لصبي في السادسة عشر أشبه باحتفال ملكي. وطلب منها بعض المعلومات عن أسرة دليندييو : «في عمرنا يصبح الإنسان بالغ الاهتمام بالحقائق والوقائع التي لم نولها ما تستحقه من الاهتمام يوم كنا شباباً». [16]

كان مانديلا يتوقع معاملة محترمة من الطلاب الآخرين لأنه سليل أسرة ملكية وقد أسس جده المدرسة. غير أنه كان موضع هزء إحدى الطالبات للكنته الريفية وبطئه في الصف ولأنه يمشي بحذائه الجديد مثل «حصان بمهماز». [17] وجد نفسه بين جماعة تحترم الذكاء والموهبة أكثر من الوضع العائلي الموروث. فقد استعاد رباطة جأشه بعد الصدمة الأولى، واستطاع بفضل ذاكرته القوية الحصول على شهادة جونيورسيرتيفيكيت (الدراسة المتوسطة) خلال سنتين. كما أقام علاقات صداقة دائمة مع أونوربرزك بالا الذي أصبح فيما بعد طبيباً انضم إلى صفوف المعارضة في ترانسكي، وكان يراسل مانديلا في سجنه. وآرثر داماني الذي اصبح صحفياً في صحيفة الغارديان الراديكالية. ودخل مانديلا السجن في بريتوريا سنة 1960، وسيدني سيديو ابن أحد المدرسين في كلاركبوري الذي أصبح موسيقاراً بارزاً، وروبين مفيكان الذي اصبح نقابياً في بورت إليزابيث، مما أدى به، كمانديلا، في نهاية المطاف إلى جزيرة روبين. [18]

كان مانديلا ينتقد الإدارة في كلاركبوري وبخاصَّةٍ الطعام الذي كان في حدوده الدنيا وأحياناً لا يؤكل. إلا أنه الكلية الأولى التي تخرج منها فتحت

عينيه على قيمة المعرفة العلمية، وفتحت أمامه أبواب عالم أوسع بكثير من تمبولاند، بما فيها من طلاب من الجنسين من جوهانسبورغ وماوراءها، لأن كلاركبوري ، على خلاف المدارس البريطانية العامة، كان التعليم في كلاكبوري مختلطاً. وحتى والحال كذلك، فقد كان يشعر أن انتماءه التمبوي مآله إلى خدمة عائلته الملكية، واستمر على يقينه بأن «جذوري هي قدري».[19]

بعد سنتين في كلاركبوري، أُرسل مانديلا إلى هيلدتاون، وهي مؤسسة ميثودية أكبر، حيث سار أيضاً على طريق جَسْتيس ابن الوصي. كانت هيلدتاون بعيدة مثل كلاركبوري، ولكي يصل الطالب إليها عليه السير عشرة أميال من فورت بوفورت على طريق ترابي يتعرج عبر الوادي قاطعين جداول وجداول، إلى أن يصلوا إلى أبنية جميلة على الطراز الفيكتوري ذات أسقف حمراء متموجة، تشرف على وادٍ شديد الأخدار، واليوم لم يبق من المدرسة سوى أطلال، كما هي كلاركبوري. وقد أعيد بناء المبنى المركزي الجميل مع برج ساعته الرائع، وبتمويل من شركة كوكا كولا افتتحت مدرسة ثانوية عامة، غير أن معظم قاعات الدرس والبيوت ليست إلا هياكل خاوية على عروشها كسرت نوافذها وصدِأت سقوفها ونمى العشب في حدائقها، لا يسكنها سوى أشباح الجماعة القديمة على سفح الجبل.

كان لهيلدتاون، التي تصغر كلاركبوري بثلاثين سنة، تاريخ أعمق رجعاً. فقد أسست سنة 1855 بعد أن أخضع السير هاري سميث قبائل الكزوسا المحاصرين في وسط مناطق المعارك. كانت موقعاً بريطانياً متميزاً اسفل الجرف الكبير لجبال آماتولا حيث لجأ الكزوسيون المهزومون، وتحيط بها نقاط حدودية عسكرية قديمة ـ فورت بوفورت، وفورت هاري، وفورت براون ـ وكانت تتبع المذهب الميثودي بصرامة، وقد سمي الموقع باسم جيمس هيلد البريطاني الوليزياني الميثودي الذي كان عضواً في البرلمان البريطاني، غير أنها بنيت أيضاً لتكون تجربة عملية في تدريب المسيحيين الفينغو على الحِرَفِ

والصناعة. لقد فشلت تلك التجربة الأولى، غير أن الكلية وسعت مجالها واستيعابها لتصبح كلية لتدريب المعلمين ومدرسة ثانوية مهمة. وفي الثلاثينيات من القرن العشرين كانت تضم أكثر من ثمانمئة طالب داخلي.[20] وكانت قريبة من المراكز التعليمية التبشيرية مثل لوفديل وسانت ماثيو وفورت هاري، وشكلت مجتمعة أكبر حشد للطلاب السود ذوي التعليم العالي في جنوب إفريقية.

قدَّمَت هليدتاون، مثلها مثل كلاركبوري، تعليماً بريطانياً متشدداً مع بضعة تنازلات لصالح الثقافة الكزوسية. وكثيراً ما كانت الطقوس التبشيرية والإمبريالية تندمج ببعضها، وبخاصَّة في أيام الآحاد، عندما كان طلاب المدرسة الصبيان والبنات يسيرون في صفوف منفصلة إلى الكنسية بقمصانهم البيضاء، وستراتهم السوداء وربطات العنق الكستناوية المذهبة. يرفعون راية يونيون جاك(*) وينشدون جميعاً «ليحفظ الله الملك» و«نكوسي سيكيليل إيافريكا» بصحبة فرقة المدرسة للموسيقى النحاسية وتحت أنظار الزوار المعجبين الذين كانوا يأتون من كل حدب وصوب.[21] كان الكاهن آرثر ويلنغتون مديراً للمدرسة منذ سنة 1927 ـ الذي طالما استمتع مانديلا بتقليده ـ وهو بطل إنكليزي محافظ كان يفخر بتحدره من نَسْلِ بطل ووترلو. غرس ويلنغتون الأدب والتاريخ البريطاني في أذهان تلاميذه بمساعدة طاقم جلَّه إنكليزي، وقام بالدعاية للمدرسة بدعوة بريطانيين بارزين لزيارتها، منهم اللورد كلاريندُن، الحاكم العام لجنوب إفريقية، الذي أرسى، قبيل وصول مانديلا، حجر الأساس لمهاجع جديدة وقاعة للطعام.[22] كان ويلنيغتون مستبداً نشيطاً ـ رغم أنه كان يتهم نفسه بالكسل ـ يدعي أنه يدير أكبر مؤسسة تعليمية جنوب الصحراء الكبرى (في الحقيقة كانت لوفِديل أكبر منها).[23] منع شرب الكحول

(*) يونيون جاك هو اسم العلم البريطاني (المترجم).

في هيلدتاون. وكان طاقم العاملين معه يسمونه «البطة»، ويعتبرونه رجل دولة تبشيري. كتب جاك دوغارد، الذي كان يدير مدرسة تدريب المعلمين بعد سنة 1932 «بعد فترة من تولي ويلينغتون تحولت البعثة العتيقة إلى مركز تعليمي مرموق»[24].

لم تترك ميثودية هيلدتاون وكلاركبوري أثراً دينياً عميقاً في مانديلا. فما كان له أن يصبح مؤمناً حقيقياً، رغم أن كثيراً من أصدقائه في الفترة اللاحقة ومنهم زوجه الحالية قد تلقوا تعليمهم لدى الميثوديين. إلا أنه كان يتأثر دائماً بجو المدرسة البيوريتاني (التطهري المتزمت)، والنظام الصارم والتدريب الذهني، والتركيز الويزلياني على تجريد الأفكار إلى جوهرها الأصلي، وتفادي التكلف والنزاع. كان دائماً يشجب الإفراط في الشراب أو الشتم، كما أن الاعتماد على الذات الذي تعلمه في هذه المدرسة الداخلية زاده تماسكاً وصلابة في ما بعد.

لم يكن مانديلا مستغرقاً في الميثودية فحسب وإنما في تاريخ وجغرافية بريطانيا، إذ يذكر وهو في سجنه بعد خمسين عاماً: «عندما كنت يافعاً في الريف كنت أعرف عن لندن وغلاسكو بقدر معرفتي بكيب تاون وجوهانسبورغ» وذلك في معرض مراسلاته مع عمدة غلاسكو، حيث ذكر أبطالاً اسكوتلنديين مثل ويليام والاس William Wallace وروبرت البروس Robert the Bruce وايرل آرغايل Eart of Argyll[25] إلا أنه كان يرفض أن يصبح «الإنكليزي الأسود»، وكان يفخر بشكل كبير بتراثه الكزوسي، بتشجيع من أستاذ التاريخ ويفر نيوانا Weaver Newana الذي كان شخصاً محبوباً، وكان يضيف تاريخه المحكي إلى قصص الحرب الكزوسية في عام 1938. وشعر بنشوة كبيرة عندما قام الشاعر الكزوسي الشهير كروني مكواي Krune Mkwayi بزيارة للكلية، بلباسه التقليدي (الكاروس) Kaross المصنوع من جلد الحيوان، حاملاً رمحين، ليلقى قصائده الجياشة في مديح الكزوسيين.

أقام مانديلا صداقات متينة مع العديد من الفتيان الكزوسيين الذين انضموا فيما بعد إلى المؤتمر الوطني الإفريقي ANC، ومنهم جيمي نجونغوي Jimmy Njongwe، الذي ذاق معه الجوع والمعاناة في جوهانسبورغ، والذي أصبح طبيباً ثم منظماً رئيسياً لحملة التحدي Defiance Campaign[26] في ما بعد. كما أقام صداقات خارج قبيلته مع الناطقين بالسوثو Sotho مثل زكريا موليتي Zachariah Molete، الذي رافقه في ضاحية آليكساندرا Alexandra في جوهانسبورغ، وأستاذ علم الحيوان فرانك ليبنتليل Frank Lebentlele.[27] كما تأثر مانديلا تأثراً عميقاً بصاحب بيته الكاهن سيث موكيتيمي Seth mokitimi الذي يتحدث بالسوثو أيضاً، وأصبح فيما بعد أول رئيس أسود للكنسية الميثودية. وقد أدخل موكيتيمي إصلاحات تعطي الطلاب حرية أكثر وطعاماً أفضل.[28]

انعزل الأساتذة البيض في هيلدتاون Healdtown عن الأساتذة السود، وكانوا يتناولون طعامهم لوحدهم، حتى أن واحدا منهم اضطر إلى الاستقالة عندما اشتكى الأساتذة الآخرون من أنه يصادق السود. وقد كتب فيليس نتانتالا Phyllis Ntantala الذي كان تلميذاً حتى عام 1935، والذي انضم ابنه بالو جوردان Pallo Jordan إلى حكومة مانديلا[29]، كتب «أي مكان عنصري كانت هيلد تاون ومازالت». إلا أن قلة من الأساتذة البيض الأصغر سناً بدأوا بمصادقة زملائهم، وبعض الطلاب.[30]

وكانت المدرسة مختلطة، مثلها مثل كلاركبوري Clarkebury إلا أن البنات والصبيان كانوا يفصلون عن بعضهم بصرامة خارج غرف الصف، كما كانوا يعرضون للفصل إذا تبادلوا الحديث. ولكن بحلول عام 1935 كان الكاهن موكيتيمي قد رسخ عادة إقامة حفلات عشاء مختلطة أيام الآحاد. حيث كان الصبيان والبنات يجلسون سوية ويرتدون أفضل ثيابهم. وكان الطلاب الأكثر حذلقة وغنى يحبون التباهي، حيث كتب فيليس نتانتالا «كانوا يذهبون إلى

حفلات العشاء تلك مجهدين من شدة التأنق».[31] ولكن بالنسبة للقادمين من بيوت أكثر بساطة كانت آداب المائدة الأوروبية التي تعتمد على الشوكة والسكين متعبة. ويقول مانديلا في هذا الصدد: «كنا نغادر المائدة جائعين ومكتئبين».[32]

لم يكن الدوق وطاقمه الأبيض يعرفون أنهم يعلمون قادة المستقبل من السود. كانوا يستاؤون من احتجاجات الطلبة وإضراباتهم، التي تبدأ عادة بسبب الطعام الرديء، ولكنها كانت، فيما يعتقدون، تمت إلى نزاعات بين القبائل، أو بين الريف والمدينة. شهد عام 1937 احتجاجات سياسية أكثر خطورة عندما أقدمت نصّت قوانين هيرتزوغ الجديدة Hertzog Bills التي أصدرتها الحكومة على إستبعاد السود من قوائم الناخبين العاديين وأبطلت سندات التمليك التي بحوزة الفينغو Fingo المحليين، الذين ذهلوا لتقاعس أفراد البعثة التبشيرية عن الدفاع عن مصالحهم.[33] ولم يكن مانديلا آنذاك يلمّ إلماماً كافياً بالجوانب السياسية من حياة المواطنين السود. وفي هيلدتاون سمع لأول مرة بالمؤتمر الوطني الإفريقي الذي أسس في عام 1912. وكان ملك تمبو Tembu قد دفع ثلاثين بقرة ليسجل قبيلته في المؤتمر. ولكنه، بالنسبة لمانديلا، كان شيئاً غامضاً من الماضي السحيق.[34] كان أساتذة البعثة يعزون أي احتجاجات سياسية إلى «محرضين» تحركهم الشيوعية، وكان بعضهم يرى أنهم يدرسون نخبة صغيرة مختلفة تماماً عن السود العاديين. ولقد قال لهم أحد المسؤولين الحكوميين بشيء من الحسد إنهم يتعاملون مع قشرة من التربة الخصبة على السطح، فيما يتعامل هو مع الصخر الصلد العصي على التغيير.[35]

كان مانديلا ممزقاً بين وجهين للتواجد البريطاني في جنوب إفريقية: الإخضاع العسكري الوحشي للكزوسيين، والتأثير التنويري للتعليم الإنكليزي الليبرالي. هذا التناقض لخص في قصيدة «أمير بريطانيا» The prince of Britain التي كتبها شاعر مانديلا المفضل مكواي احتفاءً بزيارة أمير ويلز للسيسكي Ciskei في عام 1925:

أرسلتم لنا الحقيقة، وأنكرتم علينا الحقيقة،

أرسلتم لنا الحياة، وحرمتمونا الحياة،

أرسلتم لنا النور، وها نحن في الظلام

نرتجف وقد دهمنا الليل في شمس الظهيرة المشرقة[36]

تخرج مانديلا من هيلدتاون في عام 1938، ثم ذهب في العام التالي إلى الجامعة في فورت هير Fort Hare التي تبعد بضعة أميال عن هيلد تاون وميلاً واحداً عن المدرسة التبشيرية الكبرى في لوفديل Lovedale التي كانت مرتبطة بها. أحضر له الوصي بزة من ثلاث قطع، وقال نتومبيزودوا Ntombizdwa ابن عم مانديلا: «لقد ظننّا أنه سيكون أكثر الشباب أناقة في فورت هير».[37]

كانت «جامعة جنوب إفريقيا الأهلية» في فورت هير جامعة صغيرة للسود، وكانت الوحيدة من نوعها في جنوب إفريقيا، إلا أنها كانت تربة خصبة للثورة التي تلت. وفي عام 1939 لم تكن قد تجاوزت بعد عامها الثالث والعشرين، حيث أنشئت في منتصف الحرب العالمية الأولى، وافتتحها لويس بوثا Louis Botha، رئيس الوزراء بنفسه. اعتقد ألكسندر كير Ahexander Kerr أول رئيس للجامعة، بأن بوثا اعتبرها استرضاء، أو إيماءة للسود في وقت الحرب، عندما كان البيض يخشون «متاعب أهلية». ولكن بعد أن شددت الحكومات البيضاء مواقفها من السود في العشرينات من القرن العشرين كان وجودها الشاذ أكثر إثارة للانتباه.[38] لم يقلق رئيس الوزراء التالي الجنرال جان سموتس Jan Smuts كثيراً من كوامن الثورة الدفينة فيها، ونظر إلى فورت هير ضمن إطار سياسة الوصاية. وعندما خاطب خريجي الجامعة عام 1938، في العام الذي سبق قدوم مانديلا، قال «لقد أتى الأوروبيون إلى هنا كحملة الثقافة الأعلى، وكانوا بشكل أو بآخر عرقاً تبشيرياً، ولكن إذا كان لشعوب جنوب إفريقية الأصليين أن يعرفوا الخلاص فإن عليهم أن يأتي في النهاية من لدنهم».[39]

كانت انطلاقة الجامعة متواضعة جداً، حيث كان فيها عند إنشائها عشرون طالباً يحضرون لامتحان القبول (وقد رسب المرشحون الأربعة الأوائل).[40] وعندما وصل مانديلا كان عدد الطلاب أقل من مئتين (ستة وسبعون منهم كانوا من الناطقين بالكزوسية)، من ضمنهم عشرة هنود وستة عشر من الملونين.[41] إلا أن تأثير فورت هير كان أكبر بكثير من عدد طلابها. فقد أصبحت، بدعم من المدارس المحيطة بها، قبلة النخبة المثقفة من سود جنوب إفريقيا. وكان طلابها من الأرستقراطيين والنخبويين، أي أنها جمعت بين الأُسر الملكية والأُسر التبشيرية. ولم يكن مؤسسوها من المبشرين البيض فقط وإنما دعاة الثقافة السود من أسر تبشيرية رائدة، منها أسرة جابافو Jabaus وماكيوين makiwanes وبوكوي Bokwes ويرتبطون جميعاً بصلة النسب. كان المدرِّس الكبير جون تينغو جابافو John Tengo Jabavu رئيس تحرير جريدة Imvo إيمفو الناطقة بلسان السود، من مشجعي فورت هير وكان ابنه جيلي Jili أول أستاذ أسود فيها، وتزوج ابنة الكاهن تينسون ماكيوين Tennyson Makiwane. وفيما بعد انضم أستاذ آخر إلى جيلي جابافو هو ز. ك ماتثيوز Z. K. Matthews ابن أحد المشتغلين بالتعدين في كيمبرلي Kimberley الذي أصبح أول خريجي فورت هير. وأطلق على نفسه اسم «عينة جديدة في حديقة حيوان الجنس البشري الإفريقي».[42] تزوج ماتثيوز من فريدا بوكوي Friede Bokwe أخت صديقته في الكلية روزبيري بوكوي Rosebery Bokwe، من أسرة تبشيرية بارزة أخرى.

هذه النخبة الصغيرة تلقت تعليماً جيداً لأن فورت هير قبلت نساء بين طلابها منذ البداية. ولقد احتج المدير أول الأمر، إلا أن الأعضاء الإفريقيين أعربوا عن «عدم جدوى تعليم شبانهم إذا لم تكن زوجاتهم قادرات على تقديم الصحبة والاهتمامات المشتركة التي لا تستطيع أن تقدمها سوى المرأة المتعلمة»[43] في أواخر الثلاثينات، عندما وصل مانديلا، لم يكن في فورت هير سوى بضع طالبات، كن يقمن في نزل منفصل في بيت زراعي قديم. كانت

الحاجة إليهن كبيرة، وكن غالباً أكثر مهارة من الرجال، مما سبب صدمة لمانديلا، إلا أنه كان يعرف أن هناك نساء قويات بين أسلافه الكزوسيين، ومنهم والدته التي أسست عشيرته. وقال فيما بعد: «شغلت النساء مناصب القادة والملوك في بعض الأوقات الأكثر حرجاً في تاريخنا».[44]

واستطاعت أجيال الطلبة من فورت هير ولوفديل، ومعظمهم مرتبط مع الأسر المرموقة في ترانسكي، أن تنشئ شبكات عائلية رائعة، غالباً ما كانت ذات قيم مسيحية قوية، وانضباط ذاتي. لا تقرب الخمرة إلا قليلاً، تشبه الشبكات البريطانية الفيكتورية الأولى مثل طائفة كلافامClapham. وقد قالت نوني Noni ابنة جيلي جابافو، التي أمضت بضع سنوات في بريطانيا في وصف شبكة أسرتها الواسعة بأنها تنطلق من فورت هير ولوفديل، وتذكرها بالروابط المدرسية الإنكليزية القديمة.[45] لكن تلك الشبكة ستتقطع أواصرها بشكل مأساوي أثناء سنوات التفرقة العنصرية وذلك بسبب التمييز السياسي والنفي. إلا أن الطبقة الوسطى المهنية السوداء، بما لها من نفوذ تبشيري، لن تدمر أبداً أو تهمش، كما حدث في أجزاء أخرى من إفريقيا مثل غانا أو أوغندا. حتى أن بعض ابنائها، ومنهم بالو جوردان، ابن فيليس نتانتالا وإيه سي جوردان A. C. Jordan، واستيلا سيغكاو Stella Sigcau، ابنة ملك بوندولاند الشرقيةEast Pondoland سينضمون إلى حكومة نيلسون مانديلا عام 1994.

لم يكن مانديلا يوماً في قلب هذه النخبة المثقفة، إلا أنها كانت تضم كثيراً من أصدقائه وأقربائه. وكان دائماً يكن الاحترام لـ ز. ك. ماثيوز، الذي كانت تربطه به أواصر القربى. كان الأستاذ الضخم القوي البنية الذي درس أجيالاً من الطلاب السود في فورت هير يثير حنق كثير من الثوار لاعتداله السياسي، إلا أنه كان يؤثر فيهم عادة بقوة إقناعه ونقاشه الهادئ.

ازداد مانديلا إعجاباً بماثيوز بعد أن وضع ميثاق الحرية للمجلس الوطني الإفريقي في الخمسينات وقد كتب لأرملة ماثيوز بعد وفاته في عام 1970 «هناك

أشخاص داخل وخارج الحركة ينتقدون موقفه الحذر، ولكني لا أستطيع الآن أن أجزم بأنهم لم يكونوا متهورين».

كانت فورت هير التي التحق بها مانديلا في عام 1939 معهداً صغيراً متراكباً يتألف من أبنية محيطة بساحة رباعية الزوايا من الأبنية الإيطالية البسيطة تحيط بها بيوت سكن الطلاب. كانت ما تزال خاضعة لسيطرة مديرها الأول ألكسندر كير، الاسكتلندي الصارم الذي كان يتفادى الجدل العام ولكنه كان ملتزماً بتطوير وتحسين المستويات الأكاديمية للجامعة دون تحيز للون. حيث قال ز. ك. ماثيوز إنه «كان يتعامل مع كل طالب كما هو، ولم يكن لّلون دخل في العلاقة». كان كير مدرساً متحمساً للغة الإنكليزية، يُشَرّب طلابه حب آدابها، وخاصة شكسبير، الذي كان يدرسه بحيوية، جعلته وثيق الصلة بإفريقيا المعاصرة.[46] ولطالما تذكر مانديلا أبيات من قصيدة تينسون «ذكرى » التي كان كير يلقيها بلكنته الاسكتلندية:

يا نبي الله القوي، أيها الحب الخالد،
نحن، الذين لم نر وجهك،
نعانق، بالإيمان، والإيمان وحده
اليقين حيث لا نستطيع إثباته..[47]

الثقافة صارمة ولكن التحررية (الليبرالية) التي كان يتمتع بها كير والأستاذان الإفريقيان جابافو وماتثيوز شدت عضد الطلاب في المراحل التالية من ثورتهم. بالإضافة إلى الطلاب الملونين والهنود كانت فورت هير تضم قلة من البيض المحليين، ولكن الإفريقيين كانوا الأكثرية، وفيما بعد قام أكاديمي أمريكي ـ إفريقي هو رالف بانش Ralph Bunche ـ الذي أصبح فيما بعد نائب الأمين العام للأمم المتحدة، وفاز بجائزة نوبل، قام بزيارة لفورت هير في عام 1938، وقال «إن الطالب المحلي الجيد يعادل أي طالب هندي أو ملون».[48]

كان مانديلا فخوراً لكونه في فورت هير، وكان الوصي سعيداً لانتساب

أحد أبناء عشيرته إلى تلك الكلية الذائعة الصيت. وكان الأساتذة يقولون لتلاميذهم إنهم سيصبحون قادة شعبهم، وعندما وصل مانديلا كطالب مستجد في الحادية والعشرين من عمره أرهبته الثقة والثقافة الرفيعة لدى متقدميه. بقي صديقه جاستيس في هيلدتاون، إلا أن مانديلا وجد حليفاً جديداً صدوقاً في شخص قيصر ماتانزيما Kaiser Matanzima ابن أخته من أسرة تمبو الملكية. فمثل مانديلا كان قيصر الذي عرف باسم كي دي .K.D يتحدر من الملك نغوبنغكوكا Ngubengcuka، ولكن من الخط الأعلى مقاماً، من «البيت الكبير»، وكان مستقبله مقرراً كملك أو زعيم ذي سلطة عليا. كان ابن أخت مانديلا إلا أنه كان أكبر سناً وأكثر ثقة كقائد ومثقف. مما سيجعله أول زعيم يحمل شهادة عالية[49] أصبح المعلم الناصح لمانديلا وشجعه أثناء قيامه بدوره في المستقبل كمستشار ملكي. وفيما بعد سيصبح كل منهما خصماً سياسياً للآخر. إلا أنهما كانا خير صديقين في فورت هير. كانا يعيشان في بيت الطلبة الميثودي. ويذهبان إلى الكنيسة معاً، ويلعبان كرة القدم، ويذهبان للرقص، ولا يشربان الكحول. كانا طويلي القامة، يتحليان بعادات الريف، يحبان الثياب والزهو. يقول قيصر «كنا شابين على درجة كبيرة من الوسامة جعلتنا محط أنظار كل النساء». [50] وحتى الاسمان اللذان أطلقا عليهما عند ختانهما في القبيلة كانا كاسمين لتوأمين داليبونغا Dalibunga وداليوونغا Daliwonga. وبعد ستين سنه، كان قيصر يستعيد ذكرى تلك الصداقة الشابة وهو في قصره الكبير في ترانسكي ويقول: «كنا متلازمين دائماً. وعندما كان أحدهم يجدني وحيداً كان يسأل: أين نيلسون؟.. كنا نشعر بدفء الود والألفة»، حتى أن مانديلا هو الذي وجد لقيصر زوجاً هي أغرينث Agrineth ابنة الزعيم سانغوني Chief Sangoni، الأمر الذي كان بالغ الأهمية بما أن قيصر حنث بقسم رفض تعدد الزوجات. [51] وبالرغم من خلافاتهما السياسية التالية لم يكن مانديلا يوماً لينكر إعجابه المبكر بماتانزيما Matanzima. حيث كتب لفاطمة مير Fatima Meer

من سجنه عام 1985 : «قد لا تصدقين إذا قلت لك إنه كان مرة الأقرب إلى قلبي».[52]

بالرغم من أن مانديلا كان أقل عظمة من كي دي إلا أنه كان يعتبر أميراً شاباً، وكان للأسر المالكة موقع خاص حتى في المحيط الثقافي في فورت هير، يوحي بالاحترام والتحفظ. قال جو ماثيوز، ابن الأستاذ الذي سيتبع مانديلا إلى فورت هير : «كان الأمراء الكزوسيون يعتقدون أن العالم ملكهم. كان بعضهم يركل رجال القبيلة ليبعدهم عن طريقه، من منطلق أن كل من هو سواهم غير ذي شأن. الأرستقراطيون لا يستطيعون أن يصدقوا أنك ستخالفهم، مثل النساء في محلات هارودز في بريطانيا اللاتي يتجاهلن الجميع ويقلن بصوت مرتفع : سآخذ قليلاً من ذاك».[53]

لم يتصرف مانديلا يوماً بمثل ذلك الغرور وكان دائماً يحترم عامة الناس الذين كانوا أمهر منه مثل أوليفر تمبو، لكنه اعتاد أن يعامله الناس معاملة الأمراء.

تفتح مانديلا في فورت هير. وأحب موقع الجامعة الجميل على ضفاف نهر تيومي Tyume، أسفل جبال آماتولا Amatola Hills وسيستعيد فيما بعد ذكريات الرحلة على خط سكة القطار المتعرج جانب الجبل، والمشهد الرائع من الشجيرات الخضراء والجداول المتدفقة بعد أمطار الصيف، المرج الفسيح والهواء النقي.[54] وتفوق في سباق الضاحية والملاكمة، وكان أبطال هذا السباق من الرياضيين أكثر مما كانوا من المثقفين. وفيما بعد، عندما كان في سجنه، كتب يسأل عن منافسه في سباقات الأميال سوسيثنز موغوكونغ Sosthenes Mokgokong[55] كان يستمتع بالرقص في قاعات الرقص بالمشاركة في المسرح حتى أنه مرة أدى دور جون ويلكزبوث John Wilkes Booth قاتل إبراهام لينكولن. وقد أقام صداقات كثيرة من مختلف المشارب في هذا المكان الذي يجمع السود من كافة أرجاء البلاد. كان نوني جابافو يستعيد في ذاكرته

حين يقول: «كنت ترى القبائل تنصهر في أمة جديدة. وما كان عليك سوى أن تستمع إلى النداءات والصيحات. وكانت لكناتهم الإنكليزية المتعددة تشعرك بالمدى الواسع لجنوب إفريقيا».[56]

كان بعض أصدقاء مانديلا ناشطين في السياسة منذ ذلك الوقت المبكر مثل بول ماهاباني Paul Mahabane الذي كان يقضي أيام العطل معه، وهو ابن رئيس سابق للمؤتمر الوطني الإفريقي ANC ونتسو موخيهلي Ntsu Mokhehle، العالم الفذ، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لحزب مؤتمر باسوتولاند Basutoland Congress Party، ونياثي خونغيزا Ngathi Khongisa الذي حرك الطلاب بمهلجمته سموتس رئيس الوزراء Smuts كونه عنصرياً وتمنى علناً لو أن ألمانيا النازية تهزم بريطانيا كي يستطيع الإفريقيون الإطاحة بالهيمنة الأوروبية. انضم لينكولن مكينتاني Lincoln Mkentane، وهو سليل أسرة ترانسكية كبيرة أخرى إلى المؤتمر الوطني الإفريقي وسجن، وكان أوليفر تمبو، المثقف المتميز في العلوم والأدب ماهراً في المناظرات السياسية[57] إلا أن مانديلا نفسه لم يكن ناضجاً سياسياً إذ ذاك. لم يكن قريباً من تمبو، وكان يشعر بالحرج إزاء النزعة الثورية لأصدقاء مثل ماهاباني كان طموحه الأول هو أن يصبح مترجماً في البلاط، وهي مهنة محترمة في المناطق الريفية تثير الأمل بالحصول على النفوذ والحظوة: «لم أستطع أن أقاوم بريق العمل الوظيفي».[58] وقد درس الترجمة في فورت هير، بالإضافة إلى الحقوق والإدارة المحلية والسياسة واللغة الإنكليزية. كان يعتبر الشهادة جواز مرور ليس إلى القيادة السياسية، وإنما إلى منصب في الجماعة يخوله أن يعيل أسرته.

معظم الطلاب لم تكن لديهم ميول سياسية أيضاً. وكانوا يتوقعون أن يصبحوا موظفين أو على الأغلب مدرسين، مما أثار قلق مجلس إدارة الجامعة الذي أفاد في عام 1940[59] بأنه «لا يمكن أن نتوقع أن مهنة التدريس ستستوعب جميع الخريجين». ومر وقت كانت فيه فورت هير أكثر ثورية. ففي أوائل عقد

الثلاثينات من القرن العشرين كان الشيوعي الشاب ايدي روكس Eddie Ruox قد نصب خيمة على التل قرب الجامعة، ونظّم دورات في الماركسية ـ اللندنية سحرت الطلاب الإفريقيين ومنهم غوفان مبيكي الشاب Govan Mbeki، فيما كان الأمريكي الأسود ماكس ييرغان Max yergan يدرس مبيكي عن المادية الجدلية.[60] أما في أيام مانديلا فقد كان الشغل الشاغل لمعظم الطلاب هو مستقبلهم المهني، وكانت الخيمة الحمراء قد خبا بريقها عقب تحالف استالين مع هتلر في آب (أغسطس) 1939. وبعيد وصول مانديلا إلى فورت هير أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، وأعلن رئيس الوزراء جان سموتز Jan Smuts فوراً عن دخول جنوب إفريقيا الحرب إلى جانب بريطانية. وعندما أتى سموتز ليتحدث إلى الطلاب في فورت هير صفقوا له كلهم تقريباً ـ بما فيهم مانديلا، الذي سره أن سموتز يتحدث الإنكليزية بلكنة ركيكة كلكنته هو.[61] وقد دعم مانديلا بحماسة موقف بريطانيا ضد هتلر، وظل مأخوذاً بونستون تشرشل Winston Charchill وبعد حوالي خمسين سنة سيحدث ماري سوميز Mary Soames ابنة تشريشل كيف كان يستمع إلى خطبه الإذاعية في فورت هير إبان الحرب. ويتذكر كيف نجا تشرشل من الأفارقة أثناء حرب البوير Boer War[62] ولكن يذكر مانديلا أنه عندما كان في الثانية والعشرين «لم تكن الحرب ولا السياسة هاجسه».[63]

بدت فرص النجاح مشرقة في مستقبل مانديلا كموظف، إلا أن نزعته الثورية أطاحت بتلك الآمال. ولم يكن الأمر وقتها يتعلق بالسياسية، ولكن بقضية أكثر إلحاحاً هي قضية الطعام المنفر. كانت الوجبات في فورت هير تتسم بالبساطة والتقشف، وشعر الطلاب الإفريقيون بالغبن عندما اكتشفوا بأن الطلاب البيض في جامعة رودوس، التي زاروها لإجراء مباريات رياضية ومناظرات، كانوا يغذون بشكل أفضل بكثير.[64] وفي عامه الثاني انتخب مانديلا لعضوية مجلس تمثيل الطلبة، إلا أن ربع الطلاب الذين يحق لهم الانتخاب فقط أدلوا

بأصواتهم. إذ قاطعت الأغلبية الانتخابات وطالبت بتحسينات في النظام الغذائي للكلية ومزيد من السلطات للمجلس. قدم مانديلا وخمسة آخرون من الممثلين المنتخبين استقالتهم، وأصدر المدير الماكر الدكتور كير Dr. Kerr أوامره بإجراء انتخابات جديدة، تجري وقت العشاء، حيث يكون جميع الطلاب حاضرين. ولكن مرة أخرى لم يدل سوى ربع الطلاب بأصواتهم. وانتخبوا الممثلين الستة أنفسهم.

واتفق الخمسة الآخرون على البقاء في المجلس إلا أن مانديلا شعر أنه لا يستطيع أن يتجاهل آراء الأغلبية، فاستقال مرة أخرى. وشجعه في موقفه قيصر ماتانزيما الذي سبق أن كان في المجلس.

استدعى الدكتور كير مانديلا، وحذره بتعاطف لا يخلو من صرامة من أنه إذا استمر في المقاومة فإنه سيطرد. لم ينم مانديلا ليلته تلك، إذ كان ممزقاً بين طموحه وواجبه تجاه أخوته الطلاب. وقال فيما بعد «كنت مذعوراً. كنت أخاف / كي دي/ أكثر من خوفي من الدكتور كير».[65] وأكد في اليوم التالي أنه لن يمتثل. فأعطاه كير فرصة أخيرة ليعيد التفكير، وطلب منه أن يعود إلى دراسته. رفض مانديلا، من زاوية اعتقاده بأن كير ينتهك حقوق الطلاب، وطرد إثر ذلك. وعاد مانديلا إلى القصر الكبير حيث قال له الوصي، الغاضب لأنه أضاع مستقبله، أن عليه أن يعتذر ويعود إلى فورت هير، إلا أن عناد مانديلا كان في أوجه. وقال ابن عمه نتومبيزودوا Ntombizodwa «إنه عنيد جداً ولن يعود أبداً».[66]

وسرعان ما ألقى الوصي مفاجأة مذهلة أوصلت علاقتهما إلى الأوج. إذ تملكته فكرة أنه لن يعيش طويلاً. ورتب لزواج ابنيه جاستيس ومانديلا واستقرارهما كل مع أسرته. روّع مانديلا فالفتاة التي اختيرت له كانت أقرب إلى السمنة ولم يشعر بميل إليها، كما كان يعرف أنها تحب جاستيس «ربما كانت تشعر بأني عبء عليها كما كنت أشعر أنها عبء عليّ».[67]

كانت تلك نقطة القطيعة. كان مانديلا يعرف أنه مدين بالكثير للوصي، الذي تبناه كما لو كان ابنه ومول تعليمه، وهو الآن مريض وبحاجة إلى الدعم. إلا أنه كان مصمماً على التمسك بحريته. فقرر الهرب سريعاً مع جاستيس ليجرب حظه في جوهانسبورغ.

وقد كتب فيما بعد أن «الحياة تعرف كيف تفرض قراراتها على المترددين». هذا كان خياره هو، الذي أنهى بشكل قاطع آماله القبلية ومستقبله الجامعي: «فجأة تداعت جميع أحلامي الجميلة، والفوز الذي كان يناديني تبخر كالثلج تحت شمس الصيف» إلا أن قراره كانت له تبعات أكبر مما كان يتخيل إذ ذاك. حيث فكر بعد أربعة عقود وهو في سجنه لو أنه لم يتحد مدير فورت هير «لربما نجوت من جميع العواصف التي عصفت بي وحملتني من مكان لآخر على مدى السنوات الثلاثين الماضية» فقد وجد نفسه في خضم بحر يزخر بالأخطار. إلا أنه بدأ يفتح أمامه ببطء آفاقاً أوسع. استطاع من خلالها أن «يرى تاريخ وتراث شعبه ضمن إطار التاريخ والتراث الثقافي للجنس البشري كله». [68]

3

المدينة الكبيرة

1941 ـ 1945

غادر مانديلا في نيسان (أبريل) 1941 القصر الكبير متجهاً إلى جوهانسبورغ مع جاستيس وكان وقتها في الثانية والعشرين. كان واحداً من آلاف السود القرويين الذين يصلون كل عام إلى مدينة الذهب، معظمهم يلتفون ببطانيات أو بثياب رثة، يأملون أن يجدوا عملاً كعمال مناجم أو خدم أو شغيلة. كان منظرهم مألوفاً بالنسبة للبيض في جوهانسبورغ ترسخ ذكراهم الأفلام والروايات المعاصرة من Jim Comes to jo-bury to cry, the Belvoed country.[1] وكان وصولهم مثالاً حياً للنقلة من فقر الريف إلى تكلف العاصمة، وخاصة الصورة المتكررة لقبلي حائر يحملق ذاهلاً في ناطحات السحاب، والسيارات السريعة والأنوار البراقة لمدينة الرجل الأبيض، إلا أنها صورة مضللة: فالإفريقيون القرويون القادمون من بيوت أصيلة ذات جذور قد يشعرون بأمان أكبر وطموح أوضح في غابة المدينة من سكان المدن ممن ليست لهم جذور، وأخذوا فوضى المدينة على أنها من المسلمات. وقلة من البيض أدركوا أن هؤلاء الريفيين البسطاء يضمون شباباً طموحين على مستوى عال من التعليم ولديهم عاداتهم الأصيلة، وسيثبتون مقدرتهم على هزيمة تفوق البيض في سنوات معدودة.

لم تكن جوهانسبورغ قد تجاوزت عامها الخامس والخمسين، إلا أنها كانت واحدة من المدن الرئيسية في إفريقيا، فيها مركز تجاري متكامل يضم

فنادق كبيرة وكاتدرائية من الحجر، ولها ضواح غنية تنتشر نحو الشمال وتتصل بها سلسلة غير منتظمة من القرى السوداء إلى الجنوب الغربي.

كانت الحرب العالمية الثانية تحرك اقتصاداً ناشطاً في جنوب إفريقية، كما في سواها من المراكز الصناعية عبر العالم. فقد أدى تخفيض الاستيراد إلى تنشيط الإنتاج المحلي، كما أصبحت الحاجة ملحة لإحلال قوة عمل سوداء محل العمال البيض الذين كان كثير منهم يحارب وراء البحار. وفي الإحصاء الرسمي للسكان ما بين عامي 1936و1946 ازداد عدد السكان السود في مدن جنوب إفريقية بمعدل حوالي 50٪. من 1.142.000 إلى 1.689.000. وعندما اكتسح الجفاف المناطق القبلية الريفية تحول النزوح إلى جوهانسبورغ إلى فيضان، وتخلت الحكومة لمدة عامين عن ضبط حركة السكان عن طريق فرض قوانين تقيد التنقل. أدى هذا التدافع إلى ظهور بلدات عشوائية فقيرة من الأكواخ على أطراف المدينة، إلا أنه أوجد أيضاً آمالاً وفرصاً جديدة للشباب السود الطموحين، وأثار تطلعات سياسية جديدة شجعتها الحرب.

كانت حكومة جنوب إفريقية بحاجة إلى دعم السود أيام الحرب، وقد جندت القوات المسلحة 120.000 إفريقي وملون كسائقين وخدم وحراس كانوا مسلحين بالرماح، بدل البنادق، ولكنهم كانوا يشعرون أنهم يشاركون في القتال ضد النازية والعنصرية. وفي منتصف الحرب بدأت الحكومة بالتراخي في تطبيق سياستها التقليدية بالعزل العرقي (التمييز العنصري) التي حصرت السود في قراهم ومدارسهم وحافلاتهم الخاصة. وفي خطاب رئيسي أدلى به رئيس الوزراء سموتس Smuts في شباط / فبراير 1942 تحدث عن الفشل الذريع الذي آلت إليه الآمال الكبيرة التي علقها البيض على العزل العرقي، إذ تحرك العالم في الاتجاه المعاكس: «لقد ذهبت العزلة وآتت التفرقة العنصرية ثماراً رديئة». ومنيت محاولة مقاومة التوجه نحو المدن بالفشل: «كما لو كان المرء يحسر ماء المحيط بمكنسة».

إلا أن هجرة الإفريقيين إلى المدن كانت تثير حفيظة الوطنيين الأفارقة، الذين شعروا بخطر المنافسة السوداء، فحملوا بشكل أكثر شراسة على ـ الخطر الأسود ـ، وطالبوا بفصل عرقي أكثر تطرفاً أسموه ـ الأبارثيد ـ Apartheid أي «الفصل التام» لم يجرؤ سموتز على تقديم تنازلات للسود قد تدفع بالناخبين البيض إلى المعسكر الوطني. فكتب إلى أحد الأصدقاء في حزيران ـ يونيو 1943: «ماذا يفيد هذا البلد إذا رفع الظلم عن الفريق الخاسر لتسلم المجموعة بأكملها، بما فيها هذا الفريق، إلى تجار الحطام؟». [2]

توجه مانديلا وجاستيس إلى مناجم الذهب أولاً للبحث عن عمل. وكانت المناجم، التي تشكل لب اقتصاد جوهانسبورغ، تخضع للفصل العرقي بشكل صارم، حيث حصر العمال السود، الذين يشكلون أغلبية القوة العاملة، في مجمعات وأماكن إقامة مطوقة مفصولة عن بقية المدينة.. وحافظت شركات التعدين على علاقات وثيقة مع زعماء المناطق الريفية، الذين كانوا يساعدون على تأمين اليد العاملة الرخيصة، ويؤكدون هرمية السلطة ويعززون الانقسامات داخل المناجم مما أدى إلى ترسيخ الانضباط وتعزيز التبعية. وكان الوصي قد أرسل كتاباً قبل بضعة أشهر ملتمساً توفير عمل لجاستيس ككاتب في مناجم التاج Crown Mines، وهو أحد أكبر المناجم وأقدمها. وأقنع جاستيس رئيس العمال بإعطاء مانديلا عملاً أكثر تواضعاً كشرطي منجم، مع وعد بعمل مكتبي بعد ثلاثة أشهر. [3] عمل مانديلا بعض الوقت حارساً ليلياً، يعتمر خوذة، ويحمل صفارة وهراوة ـ صورة مثالية للموظف المخلص ـ يحرس مدخل المجمع الذي علقت عليه ملاحظة تقول «السكان المحليون يعبرون من هنا» وقد عدلت إحدى هذه الملاحظات فأصبحت «السكان المحليون يعبرون كثيراً من هنا». [4] في ذلك الوقت كان عمال المناجم يتميزون من الغيظ حيال أوضاعهم وأجورهم، وقد تفجّر هذا الغضب فيما بعد في إضراب المناجم عام 1946[5]. ويبقى مانديلا بعيداً عن السياسة، ولكنه سيبقى دائماً فخوراً لكونه من عمال المناجم، كما قال فيما بعد للاتحاد. [6]

كان مانديلا يشعر بالأهمية في كونو Qunu إلا أن جوهانسبورغ لم توله أي أهمية. وسرعان ما وجد نفسه يواجه مشكلة لأنه تباهى بأنه هرب من البيت وخدع الوصي. فأمر هو وجاستيس بالعودة إلى البيت، وطردا من المنجم. واضطر مانديلا، الذي لم تكن لديه أي رغبة بالعودة إلى الريف، إلى البحث الحثيث عن عمل. فأرسله أحد أبناء عمه لمقابلة سمسار أراض أسود هو وولتر سيسولو Walter Sisulu، الذي كان يملك مكتباً - قبل أن تصبح جوهانسبورغ معزولة عرقياً تماما كما أصبحت فيما بعد - في بيركلي آركيد Berkeley Arcade في وسط المدينة.

كان سيسولو رجلاً قصيراً نشيطاً في الثامنة والعشرين من العمر، فاتح البشرة، أسنانه مفرقة، يضع نظارة على عينيه وقد اعتاد أن يمضغ شفته، لم يكن ذا شخصية آسرة، ولكن كانت لدية ثقة داخلية غير عادية كان يسميها «ثقة خارقة» وسيكون له الأثر السياسي الأكثر أهمية في حياة مانديلا.[7]

وكان يتّسم بمرونة غير عادية، فهو، مثل مانديلا، أتى من منطقة فقيرة في الترانسكي - هي مقاطعة إنغكوبو Engcobo - لكنه لم يكن في موقع مانديلا. فقد كان والده قاضياً أبيض اسمه فيكتور ديكينسون Victor Dickinson، أحب والدته في إنغكوبو، ولكنه تركها مع طفلين.[8] كانت والدة وولتر تتحدث باحترام عن أبيه ولكن وولتر كان يدرك أن أباه لم يقم بواجبه تجاه أسرته.[9] قامت والدة وولتر وخاله رئيس العمال بتربيته على خشيه الله واحترام البيض. كان يحب قراءة الإنجيل ويتعاطف مع المضطهدين مثل داود وموسى، إلا أنه تمرد على تحفظ أساتذته المبشرين وأسرته، التي حذرته بالقول مرة: «لا أظن أنه سيسمح لك بالعمل لدى الرجل الأبيض».

ترك سيسولو المدرسة في سن السادسة عشرة وأصبح راعي بقر ثم جرب حظه في جوهانسبورغ. حيث اشتغل أربعة أشهر ينقب الصخر على عمق ميل تحت الأرض في أحد مناجم الذهب، ويستشيط غضباً لوحشية النظام. وبعد أن

اشتغل في مطبخ في شرق لندن عاد إلى جوهانسبورغ وقد تحول اهتمامه إلى نقابات العمال. وعاش مع أمه، التي أصبحت تعمل غسّالة لدى ربّات البيوت البيض، وطرد من عدة معامل لسلاطة لسانه وعصيانه الأوامر. واستجار من الإذلال بتعلم تاريخ الكزوسيين من أحد أحفاد هينتسا Hintsa الزعيم الكبير الذي ترك أثراً كبيراً لدى مانديلا أيضاً. ولكنه في الوقت نفسه وسع نظرته لتشمل وحدة إفريقية أوسع.. وبعد أن عمل سنتين في أحد المصارف أسس وكالة لبيع الأراضي مع خمسة من أصدقائه السود، وكان يأمل أن يستطيع بذلك الاستقلال عن البيض (بعد سنتين استولت شركة بيضاء على الوكالة).[10]

كان والد سيسولو الأبيض فيكتور ديكنسون قد أصبح قاضياً في المحكمة العليا في جوهانسبورغ. وكان سيسولو يراه أحياناً هناك دون أن يلحظه. كما أنه كان رئيس جمعية إعمار، وعندما بدأت وكالة سيسولو تواجه صعوبات ذهب إليه طالباً العون. لم يكشف سيسولو صلة القرابة بينهما فقد أراد أن يعطي والده فرصة «ليتذكر أن له ابناً مثل هذا»، إلا أنه لم يبد ما ينم عن معرفته به. وتذكر سيسولو أنه كان مهذباً وحنوناً، ولكنه لم يعرض عليه أي مساعدة مادية[11] كانت مقابلة مؤثرة. ما يزال سيسولو متحفظاً عليها. هل عرف ديكينسون أن ابنه سيكون واحداً من كبار قادة جنوب إفريقيا؟

أعجب مانديلا كثيراً بإتقان سيسولو عادات أهل المدينة، كما أعجب برطانته الإنكليزية، وقال لا شك أنه جامعي. كما أعجب سيسولو بالروح القيادية لمانديلا، ولقد قال فيما بعد: «عندما دخل مكتبي شعرت أنه رجل لديه إمكانيات كبيرة، وأنه لا شك سيكون له دور مهم».[12]

وكانت تلك بداية شراكة ستكون بالغة الأهمية بالنسبة لمستقبل مانديلا السياسي.

رأى مانديلا في سيسولو تفوقاً ثقافياً، كان معلماً له عقل تحليلي. لن يكون منافساً له أبداً. فهو سيكون صانع الملك ولكنه لن يكون ملكاً أبداً، كان

المدرب وليس الملاكم. وقد وفّر لمانديلا وبمحض الصدفة السعيدة أول دعامة حاسمة في عجلة حياة المدينة التي عاشها مانديلا. وقد كتب مانديلا فيما بعد «كان أصعب وقت في حياتي». [13]

كان طموح مانديلا الحقيقي هو أن يكون محامياً، فاصطحبه سيسولو لمقابلة لازار سايدلسكي Lazar Sidelsky من مؤسسة وتيكين، سايدلسكي وايدلمان Witkin, Sidelsky & Eidelman التي كان لها عملاء سود إضافة إلى العملاء البيض. كان سايدلسكي محامياً يهودياً شاباً نشيطاً لا يقرأ السياسة ولكنه يؤمن بمعاملة السود معاملة لائقة، وكان يتهم مؤسسات قانونية كبيرة بأنها«تمتص دماء زبائنها من السود». كان يظهر الاحترام لسيسولو الذي كان يأتيه بالإفريقيين الذين يريدون رهن عقاراتهم، ويذكر أنه كان «شخصاً ماكراً، مفسداً قليلاً ولكنه ذكي».

وافق سايدلسكي على توظيف مانديلا كاتباً بعقد، دون أن يكلف ضريبة، وسرعان ما لمس إمكانياته: «كان مانديلا حي الضمير، لا يعرف المخادعة، مرتباً بشخصه وعقله «فاهتم سايدلسكي بالشاب واقرضه 50 جنيهاً ـ وذلك مبلغ كبير ـ وأعطاه بزة قديمة، سيرتديها خمس سنوات». وحث مانديلا على الابتعاد عن السياسة، وقال له: «تستطيع أن تخدم شعبك بشكل أفضل إذا استطعت أن تثبت أن هناك محامياً واحداً أسود شريفاً وناجحاً».

لم ينس مانديلا يوماً أن سايدلسكي كان، كما كتب عنه، «أول رجل أبيض عاملني معاملة البشر، وهو الذي دربني كي أخدم بلدي». وبعد بضع سنوات عندما عرف مانديلا الغنى لفترة وجيزة وكان يقود سيارة ألودزموبيل Oldsmobile رأى سايدلسكي، الذي ساءت أحواله، ينتظر على موقف الباص، فأوصله إلى بيته. احتار سايدلساي في أمر مانديلا الذي رفض أن يتجاوز عتبة المطبخ. وفي اليوم التالي أرسل مانديلا إليه حوالة مصرفية تسدد الـ 50 جنيهاً. وبعد أربعين سنة زار سايدلسكي وابنته مانديلا في السجن، وذكره، مازحاً،

بنصيحته بالابتعاد عن السياسة قائلاً: «لم تأخذ بنصيحتي، انظر أين انتهى بك الأمر». [14]

لكن السياسة كانت تحدق بمانديلا من كل جانب. كان يشترك في مكتب واحد مع محام أبيض اسمه نات بريغمان Nat Bregman، وهو أحد أبناء عم سايدلسكي، قال عنه فيما بعد «إنه شيوعي جذل خَليّ من الهموم». وبريغمان، الذي كان يعمل جزيئاً كممثل كوميدي، استمتع بصحبة مانديلا، الذي اعتبره متحفظاً حسن الفهم والتقدير. [15]

فاصطحب مانديلا إلى محاضرات شيوعية وأحزاب متعددة الأعراق حيث اجتمع بأشخاص بيض يساريين ودودين، منهم الكاتب الشيوعي الشاب مايكل هارميل Michael Harmel. ذهل مانديلا بما يتمتع به هارميل من ذكاء وبساطة في العيش - فقد كان يرفض أن يرتدي ربطة عنق - وأصبح فيما بعد صديقاً حميماً.

في مكتب المحاماة حذر سايدلسكي مانديلا من شيوعي أسود هو غور راديبي Gaur Radebe، كان يعمل في الشركة، وهو رجل قوي البنية ألمعي، أكبر من مانديلا بعشرة أعوام، يتقن خمس لغات، وكان يساعد في تأسيس نقابة جديدة لعمال المناجم الإفريقيين. [16]

لم يخف آراءه المناهضة في المكتب، وقد قال أحد الزملاء لمانديلا: «ابتعد عن غور، سيسمم عقلك. فهو يجلس كل يوم في ذلك المكتب يخطط لثورة عالمية» لكن راديبي صادق مانديلا، وقال لرئيسه الأبيض إنه زعيم حق: «لقد تجشمتم عناء القدوم من أوروبا لتأخذوا أرضنا وتستبعدوننا، انظر إلى نفسك تجلس كالسيد فيما زعيمي يدور حولك منفذاً أوامرك. سيأتي يوم نمسك بكم جميعاً ونلقي بكم في البحر» كانت البرودة والثقة التي يناقش راديبي البيض بها تبهر مانديلا. [17]

حثه راديبي على الانضمام إلى الشيوعيين، إلا أن مانديلا كان يعمل كثيراً

في المساء استعداداً لامتحاناته في الحقوق، وبعد عشرين عاماً كان الرجلان قد تبادلا مواقعهما تقريباً حيث انضم رادیبي، بعد أن فصل من الحزب الشيوعي في عام 1942 لنشاطه في ترتيب القروض، وانضم إلى المؤتمر الإفريقي العام المناوئ للشيوعية، فيما كان مانديلا يدافع عن الشيوعيين ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي.[18]

كان مانديلا يعيش إذ ذاك في أحد أحياء الفقراء السود في منزل يشاركه إياه قس هو الأب مابوتو Reverend Mabutho، في المنزل رقم 46 في الشارع الثامن في الكساندرا، وهي ناحية فوضوية تبعد ستة أميال شمالي المدينة، لا تصلها الكهرباء، ويسمونها: المدينة المظلمة، كانت الكساندرا خليطاً غير منتظم من بيوت القرميد والأكواخ المؤقتة التي تغص بسيل عارم من عمال زمن الحرب القادمين من الريف. كان مكاناً غير صحي يعلو فيه الضجيج وتكثر فيه الكلاب الجائعة في تناقص كامل مع القصور البيضاء المنعزلة وراء أسوارها. ولكن ألكساندر كان لها حيوية القرية وإحساس بالجماعة لا تعرفه تلك القصور، «كانت مرجلاً تتقد فيه آمال السود ومواهبهم. ومرآة تعكس إحباطاتهم»، كما كتب الناشط السياسي مايكل دينغاكي Michael Dingake.[19] خلطت ألكساندر الكزوسيين والزولو والسوثوثيين Sothos في معمعة الزحام من أجل البقاء في حياة المدينة، ودهش مانديلا إذ وجد نفسه يلاحق فتاة سوازية Swazi. أصبح أكثر اهتماماً بالقبائل الأخرى، وسمع عن أمجاد الزولو الغابرة من أحد أصحاب الأملاك واسمه جون منغوما Jone Mngoma، الذي روى له حكايات طويلة عن بطولة شاكا Shaka ملك الزولو وسرد أحداثاً لم ترد أبداً في كتب تاريخ البيض.[20]

في ألكساندر كان مانديلا من الأشخاص الأكثر فقراً، كان يضطر أحياناً إلى السير اثني عشر ميلاً في اليوم ليوفر أجرة الباص من وإلى المكتب في مركز المدينة. ويذكر كم كان يشعر بالذل عندما تلاحظ الفتيات ثيابه المهلهلة، وكان

ينظر بحسد إلى الشبان الأمريكيين الأكثر تألقاً، وهم يجذبون النساء بما يرتدونه من بزات صارخة وقبعات عريضة وساعات لماعة، غالباً ما تكون مسروقة. لكنه بقي على أسلوبه الإنكليزي الرصين.[21] وساعده أصدقاء يعيشون في المنزل نفسه. وشعر فيما بعد بالذنب لأنه «لم يفكر يوماً أن يرد جميلهم».[22]

وسرعان ما وجد طريقه كإفريقي ريفي، قادر على إعالة نفسه، ولم يعد بحاجة إلى دعم الوصي الذي كان منه في مقام الأب الذي أصبح الآن ضعيفاً جداً. وقد زاره الوصي في أواخر عام 1941 ولم يعاتبه لعصيانه السابق. وبعد ستة أشهر، عندما مات الرجل الكبير ذهب مانديلا ليحضر جنازته في ترانسكي، وندم لأنه لم يكن أكثر امتناناً للطف الذي أغدقه عليه الوصي في السابق. كما تمنى لو أنه انتهز الفرصة ليسأله عن سر تفوق البيض وعن حركة التحرر[23] إلا أنه الآن كان قد تجاوز مرحلة الكزوسية البحتة، لكنه مازال ممزقاً بين التزاماته القبلية والفرص التي تلوِّح له بها المدينة الكبيرة.

أكمل مانديلا دراسته الجامعية بالمراسلة، لكنه سرعان ما أدرك أنها ليست مفتاح النجاح: «لم يكن لأي شيء تعلمته في الجامعة أي علاقة ببيئتي الجديدة» وعاد إلى فورت هير ليتسلم شهادته. كان يرتدي بزة جديدة اشتراها بقرض من سيسولو. وحثه ابن أخته قيصر ماتانزيما Kaiser Matanzima، الذي كان يسعى إذ ذاك ليصبح زعيماً، على العودة على ترانسكي كمحام، لكن مانديلا كان يزداد اهتماماً بالساحة الوطنية.

وسرعان ما غادر ألكساندرا. ولتوفير المال عاش فترة قصيرة في مجمع وينيلا Wenela للتعدين (Witwatersrad Native Labour Association) الذي كان يقدم مساكن خاصة لزعماء القبائل الزائرين. وهناك اجتمع بكبار رجال القبائل، ومن ضمنهم وصي ملكة باسوتولاند Queen Regent of Baustoland ثم انتقل إلى أورلاندو Orlando (وهي الآن جزء من سويتو Soweto، وهي ضاحية مستقلة خططت في عام 1930 لتكون قرية نموذجية من أجل «الطبقة

الأفضل من السكان المحليين» كانت أورلاند تمتد على أرض زراعية تظللها أبراج عملاقة لمحطة طاقة. وهي عبارة عن مجموعة أزقّة ضيّقة تضم منازل من غرفتين بلا أرضيات ولا سقوف تصل بينها ممرات ترابية وعرة كانت أكثر نظافة ولكن أقل ألفة من ألكساندر: كان مانديلا يحب أن يقول إنه لم يكن لديه منزل في ألكساندر وإنما كان له مسكن، أما في أورلاندو فكان له منزل، وليس مسكناً. لكنه أصبح قريباً من وولتر سيسولو الذي كان يعيش مع والدته في بيت يضج بالسياسة، وكان قدر أورلاندو أن تحدد مسار جنوب إفريقية السوداء كلها.

كان على مانديلا أن يتابع دراسته ليحصل على إجازة في الحقوق هذه المرة. وفي أوائل عام 1934 انتسب إلى جامعة ويتووترسراند Witwatersrand التي كانت ترتفع بأعمدتها المهيبة على هضبة إلى الشمال من جوهانسبورغ. كانت جامعه ويتز Wits، خلاف جامعات الأفريكان، تسمح لقلة من الطلاب السود بالدارسة فيها إلى جانب البيض، بالرغم من أنه لم يكن يسمح لهم باستخدام باحات الرياضة، والتنس وحوض السباحة. كان بعض المحاضرين البيض يشجبون بشدة وجود الطلاب السود، ومنهم البروفيسور هاهلو Hahlo المحامي اليهودي الألماني الذي كان يعتبر الحقوق ـ القانون ـ من العلوم الاجتماعية لا يملك السود ولا النساء الإمكانية الذهنية والخبرة التي تمكنهم من دراستها.[24] إلا أن محاضرين آخرين في القانون مثل جوليوس ليوين Julius Lewin وريكس ويلش Rex Welsh، كانوا ليبراليين كرماء، كما أن عدداً كبيراً من الطلاب البيض عادوا من الحرب يحملون الكراهية للتفرقة العنصرية. وكان بينهم العديد من الشيوعيين، ومنهم جو سلوفو Joe Slovo وزوجه روث فيرست Ruth First، وطوني أودود Tony O'Dowd وهارولد وولبي Harold Wolpe. تذكر روث فيرست، التي أصبحت فيما بعد صديقة حميمة وزميلة لمانديلا، إن مانديلا كان «وسيماً، فخوراً بنفسه، يتمتع بعزة نفس وحساسية زائدة، حتى أنه

كان متكبراً، إلا أنه تعرض طبعاً لجميع الإهانات». [25] أما الانطباع الذي خلفه لدى جوسلوفو فكان أنه «رجل أسود على قدر كبير من الكبرياء وضبط النفس، ولديه إحساس واضح بأنه أسود وحساس جداً لفكرة أنك عندما تعمل مع رجل أبيض، فإنه هو المسيطر». [26]

أما إسماعيل مير Ismail Meer الذي كان صديق روث المقرب، فقد رأى أن مانديلا «قليل الثقة بنفسه»، وبعيد عن أجواء الطلاب السياسية «كان الطالب الأفضل هنداماً، ولم يكن ليبدي أي استعداد للمشاركة في النشاطات السياسية في الحرم الجامعي. فقد كان بالغ الحذر». [27] أما ناثان لوتشوف Nathan Lochoff فقد قال في مانديلا إن له جواً من الكرامة المحببة، وهو خجول قليلاً، وليس ميالاً إلى الحسم أبداً».

وقدّر لمانديلا أن يمضي ستة أعوام في ويتز، من 1943 إلى 1949 دون تميز كبير. كانت له ذاكرة ممتازة، ولكنه كان مضطراً لحشر دراسته بين عمله ككاتب متعاقد والتزاماته السياسية. كان البروفيسور هاهلو بالغ القسوة أحياناً «هل تسمي هذه مقالة؟» «ألا تعرف ما أتوسمه فيك؟» قال مانديلا لأحد أصدقائه البيض وهو جولس براودي Jules Browde «إنه يتمنّى أن يضطر هاهلو في أحد الأيام إلى الكتابة على ضوء زيت البارافين في سوويتو Soweto». [28] وعندما رسب في آخر الفصل الدراسي طلب من البروفيسور هاهلو السماح له بإعادة الامتحان في بعض الأوراق، قائلاً إنه كان في معظم الأيام يصل إلى بيته في أورلاندو بعد الثامنة مساء مرهقاً وجائعاً بشكل لا يسمح له بالتركيز على دراسته.. «ولو أني قمت بعملي في ظروف أفضل، لحصلت على نتائج أفضل». [29] لكن هاهلو، المتمسك بالأنظمة بصرامة، رفض طلبه، واضطر مانديلا إلى مغادرة ويتز دون الحصول على شهادة البكالوريوس في القانون. وبالرغم من مسوغاته إلا أنه كان يشعر بالفشل. [30]

عانى مانديلا كثيراً من الإذلال في ويتز. فقد جلس مرة إلى طاولة في مكتبة الحقوق، وإذا بأحد الطلاب البيض يتركها.. كما ذهب مرة إلى مقهى مع بعض الطلاب البيض فأبقوهم خارجاً لأن بينهم شخص كِفيري (ممن يتحدثون بلغة البانتو في جنوب إفريقية ـ المورد). احتج واحد منهم، وهو جوليوس ولفسون Julius Wulfsohn إلا أن مانديلا وضع يده على كتفه وقال ببساطة. «هوِّن عليك»[31] وعندما ركب حافلة كهربائية مخصَّصة للبيض فقط مع اثنين من الهنود قال مفتش الحافلة عنه إنه رفيقهم الكفيري، وقاضاهم أمام المحكمة.[32] لكن مانديلا لم يحمل ضغينة. وبعد خمسين عاماً، عندما أصبح رئيساً للجمهورية، دعا جميع الطلاب الذين كانوا عام 1946 إلى اجتماع في ويتز. وقال لهم «أنا ما أنا عليه الآن بفضل الأشخاص الذين احترموني وساعدوني، وكذلك بفضل أولئك الذين لم يحترموني وأساءوا معاملتي».[33]

في أورلاندو كان مانديلا يعتبر إنساناً لاهياً، وزير نساء. وقال فيما بعد «لا يد لي في أن النساء يلحظن وجودي، وما كنت لأحتج أو أرفض».[34] كان يمضي معظم وقته مع وولتر سيسولو ووالدته (ما Ma) في بيتهما الصغير في أورلاندو. وفي عام 1944 تزوج وولتر من ألبرتينا ثيثيوي AlbertinaThethiwe وهي ممرضة شابة من ترانسكي تلقت تعليماً كاثوليكياً. إلا أنها سرعان ما أصبحت دعامة المسكن، كما كان سيسولو يصفها. كانت قوية بما يكفي ليجعلها أماً وسياسية. وفي الوقت نفسه توفر لزوجها أرضاً صلبة.[35] أضمرت ألبرتينا نوعاً من الحماية تجاه الشاب القروي الوسيم. فقالت عنه إنه «كان واضحاً من شكل هندامه أنه من الريف» وخشيت أن تفلح العصابات الإجرامية spoilers في ألكساندرا في تجنيده واستغلال عدوانيته.[36]

لكن سرعان ما بدأ مانديلا يستقر، ففي دفء جو بيت سيسولو التقى بإفيلين ميز Evelyn Mase، ابنة عم وولتر، التي تصغر مانديلا بأربع سنوات، وكانت قد وصلت مؤخراً من ترانسكي، لتعمل في التمريض ـ وهي المهنة

الأكثر احتراماً بالنسبة للنساء الإفريقيات ـ وكانت تعمل في المستشفى العام في جوهانسبورغ مع ألبرتينا.

ووصفها جارهم أزكيا مفاهليلي Eskia Mphahlele فيما بعد بأنها فتاة متواضعة، ذات عينين ناعستين وابتسامة لطيفة خجول.[37] سرعان ما مال مانديلا لإيفلين وبعد بضعة أشهر عرض عليها الزواج. وتزوجا ببساطة في عام 1944 في محكمة المفوض الأهلي. دون أن تقرع أجراس الكنيسة أو يقام حفل زواج.

عاشا في البداية في غرفة واحدة في بيت صغير في أورلاندو لشقيق أيفلين سام ميز Sam Mase، ثم انتقلا فيما بعد إلى بيت زوج أختها مغودلوا Mgudlwa الذي كان يعمل كاتباً في أحد المناجم.

تذكر إيفلين أن «كل من كان يعرفنا كان يقول إننا زوجان مثاليان»[38] كانت تحب الأعمال المنزلية وتقضي الوقت دائماً بين تلميع الأثاث والعناية بالحديقة والطبخ، كما كانت تعنى بمانديلا أيما عناية. قال مانديلا[39]: «كانت سيدة هادئة تحسن التصرف، وقد كرست نفسها لأسرتها ولزوجها».

كانت متدينة نشأت في بيئة أكثر تديناً من بيئته. وتذكر أنها لم تكن تراه كسياسي وإنما كطالب[40] وقد لاحظت ليبي أخت مانديلا الصغرى التي أتت لتسكن معهما أن «إيفلين لم تكن تريد أن تسمع شيئاً عن السياسة»[41] إلا أنها كانت تؤيد وتدعم زوجها الطموح. وقد كتب فيليس نتانتالا Phyllis Ntantala الذي كان صديقاً للاثنين «خلال السنوات التي قضاها مع إيفلين نما مانديلا سياسياً وتفتح وأصبح الشخصية الوطنية التي هو عليها اليوم».[42]

بعد سنة من زواجهما أنجبت إيفلين ابنهما ثيمبي Thembi. وانتقلا بشكل مؤقت للسكن في المنزل رقم 719 شرقي أورلاندو، ومنه انتقلا إلى المنزل 8115 في أورلاندو، وهو واحد من مئات البيوت المتماثلة المؤلفة من ثلاث غرف وتشبه علب الكبريت، وليس فيها كهرباء ولا مرحاض داخل المنزل. كان

الزوار كثراً من ضمنهم ماتانزيما Matanzima ابن أخو نلسون. كانوا يأتون للإقامة في البيت الصغير، وغالباً ما كانوا ينامون على الأرض. في السنة التالية أنجبت إيفلين ابنة هي ماكازيوي Makaziwe التي ماتت بعد تسعة أشهر.

كانت إيفلين غالباً تلقى المساعدة من والدة نيلسون، التي أتت من ترانسكي. وتعايشت المرأتان بشكل جيد. كما كان مانديلا يساعد في التسوق وحمام الطفلين، حتى أنه أحياناً كان يتولى مهمة الطبخ. تذكر أديلايد Adelaide زوجة أوليفر تامبو Oliver Tambo أن «كثيراً من الزوجات كن يحسدن إيفلين على رجلها الذي كان ملتزماً بالعائلة ويشتري الطعام من المدينة ويحمله إلى البيت».[43] كان شخصاً منظماً جداً له عادات ثابتة، قالت إيفلين إنه كان «ينهض مع انبلاج الفجر، ويمارس رياضة الجري بضعة أميال. ثم يتناول إفطاراً خفيفاً ويمضي اليوم خارج المنزل».[44]

خلال أربع سنوات في جوهانسبورغ كان مانديلا قد ابتعد كثيراً عن الحياة الريفية الهادئة في ترانسكي. لقد استطاع العيش في الأماكن المزدحمة، واشتغل في مكتب للمحاماة، ودرس في الجامعة وتزوج. كان ما يزال يشعر شعور ابن الريف أمام الأفارقة وأبناء المدن الذين يتحدثون الإنكليزية بطلاقة إلا أنه كان يستمد الأمان من قيمه الريفية ونشأته. وكان يشعر أنه من سلالة ملكية. قال سيسولو «في كل ما كان يقوم به كان دائماً يفكر أنه سيصبح زعيماً وشخصاً مهماً من سلالة ملكية وعندما انخرط في العمل السياسي الجاد كان ذلك التصور لا يفارقه».[45]

لكن مانديلا كان ينجّر إلى خضم السياسة، مما سيعطي هدفاً وإطاراً أوسع لحياته الريفية. وقد لاقى كرجل أسود في مدينة الرجل الأبيض صعوبات وإحباطات وإذلالاً لا يليق بأرستقراطي متكبر، مما كرس لديه الإحساس بأنه رجل أسود بكل معنى الكلمة وبأنه واحد من ملايين يحملون نفس الشعور. وبدأ الآن ينظر إلى نفسه في مرآة أكثر قسوة، وسرعان ما أصبح وطنياً إفريقياً

طموحاً، يحمل عداء وغضباً لن يستطيع السيطرة عليهما لوقت طويل.

كان غور راديبي، الزميل المناضل لمانديلا في المكتب، هو أول من أدخله عالم السياسة في بلدة ألكساندرا. ففي آب (أغسطس) 1943 ساعد راديبي في تنظيم مقاطعة لاستخدام الباصات الموصلة إلى المدينة ـ وكانت تلك ثالث مقاطعة خلال ثلاث سنوات ـ وذلك بعد رفع أجرة الركوب من خمسة بنسات إلى ستة بنسات. انضم مانديلا إلى المقاطعة وإلى مسيرة شارك فيها 10.000 أسود وبقيت الباصات فارغة لمدة تسعة أيام إلى أن أعيدت أجرة الركوب إلى السعر السابق. وكان ذلك درساً مشجعاً في قوة المقاطعة[46]

كما كان ذلك أول تماس مباشر لمانديلا بالمؤتمر الوطني الإفريقي، الهيئة السياسية السوداء الرئيسية، التي كانت الآن قد بدأت تستفيق من نوم طويل. وكان المؤتمر الوطني الإفريقي قد أسس في عام 1912 من قبل محام من الزولو Zulu هو الدكتور بيكسلي كاسيمي Pixley Kaseme، كرد مباشر على إحداث اتحاد جنوب إفريقية في عام 1910، الذي ضم الأفارقة والبريطانيين في اتحاد واحد، قال سيمي في خطاب الافتتاح «ليس لنا فيه صوت في وضع القوانين ولا دور لنا في الإدارة» كان الرئيس الأول للمؤتمر الوطني الإفريقي هو الدكتور جون دوبي Dr. John Dube، وهو مثقف زولي، وكان الأمين العام هو سول بلاتجي Sol plaatje، وهو مترجم وكاتب من كيمبرلي Kimberley، فيما سلم سيمي عمل الخازن[47] Treasurer. وعندما رأى قادة المؤتمر الوطني الإفريقي نشوء أسوأ ما كانوا يخشونه من فوقية البيض نظموا وفوداً ومظاهرات واحتجاجات، إلا أنهم كانوا يخشون العمل الجماعي، أو المجابهة. كان المؤتمر الوطني الإفريقي هيئة رسمية وقورة تضم أعضاء كثيرين من أسر ملكية، ممثلة في مجلس الزعماء ـ وهو يشبه مجلس اللوردات ـ كان مانديلا يعتبره «حبيس أشكال إمبريالية من التنظيم». [48] وكان من السهل شراؤه بمركز حكومية غير فاعلة، وعندما حرم الإفريقيون في مقاطعة الكيب من حق الانتخاب في عام

1936. وافق قادة المؤتمر على الانضمام إلى «مجلس الممثلين الأهلي»، الذي كان يفترض فيه أن يقدم النصح ولمشورة للحكومة. على أنهم سرعان ما اكتشفوا أنه لم يكن أكثر من «هاتف لعبة»[49] كما أسماه واحد منهم وهو بول موساكا Paul Mosaka وفي أواخر الثلاثينات بدأ المؤتمر الوطني الإفريقي يدخل في سبات وفوضى تنظيمية، وطغت على أصوات الاحتجاج فيه العناصر الشيوعية والتروتسكية، وفقد مصداقيته إذ عّول على وعود من البيض كان من السهل عليهم نقضها.

في عام 1940 كان المؤتمر الوطني الإفريقي قد انتخب رئيساً أكثر نشاطاً هو ألفريد زوما Alfred Xuma، وهو طبيب صغير البنية كثير المشاغل متزوج من أمريكية سوداء، وقد كان في صباه راعي ماشية في إنغكوبو Engcobo مثله مثل سيسولو، وهو الآن يعيش في بيت مريح على تخوم صوفيا تاون Sophia twon، وهي ضاحية متعددة الأعراق قرب جوهانسبورغ. وسرعان ما أعاد الدكتور زوما الحياة إلى الجسم الخامد. «لم تكن العضوية موضع فخر، ولم يكن هناك أية سجلات، وكانت الخزينة فارغة» كما قال.[50] فقام بجولة في البلاد وأنعش الفروع ومارس سيطرة شخصية على الترانسفال Transvaal واستقطب من صفوف السكان هناك كثيراً من الأعضاء الجدد. لقد جلب روحاً وحدوية جديدة إلى المؤتمر، وقضئ على انقساماته القبلية وتخلى عن مجلس الزعماء[51]، ولكن ظل قوامه بشكل رئيسي من أبناء الطبقة الوسطى والعمر المتوسط، ولم يكن له أتباع كثيرون إذ لم يسمح بدخوله لغير الإفريقيين. كان زوما شديد الحرص على كرامته وكان فخوراً بأصدقائه البيض، بما فيهم المسؤولون الحكوميون. وكان يهاب ديماغوجية القادة الشباب وميلهم إلى القتال خاصة بعد أن ثبتوا أقدامهم.

في منزل سيسولو في أورلاندو عام 1943 التقى مانديلا لأول مرة بالزولي الشاب المتحمس أنطون لمبيدي Anton Lembede الذي كان في التاسعة

والعشرين إذ ذاك، وقد تخلى لتوه عن مهنة التدريس ليعمل في مكتب محاماة للدكتور سيمي، الذي أسهم في تأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان لمبيدي ابن العامل الزراعي كاثوليكياً متديناً، أثار التردي الأخلاقي المتفشّي في البلدات الإفريقية ذعره، فصمم على أن يعبئوا أنفسهم دون الاعتماد على البيض أو الهنود. واعتقد أن البريطانيين كانوا يعملون عملاً منظماً بهدف تثبيط ومحو جميع الاتجاهات الوطنية بين أتباعهم الغرباء، وأنهم كانوا يختارون من النخبة الشابة السوداء أعضاء يجعلون منهم أدوات في أيديهم. وتلك تهمة شعر مانديلا بأنها قد تطاله.[52]

كان للمبيدي لمسة شعبية قوية، قال: «زوج من الأحذية يساوي جميع أعمال شكسبير»[53]، إلا أنه كان مثقفاً أيضاً، متعمقاً بالأدب الإنكليزي (بما فيه شكسبير). ويثير حماسته قادة أمريكيون سود أمثال ماركوس غارفي Marcus Garvey ودبليو إي بي دوبوا W. E. B. du Bois. قال لمبيدي «إن روحي تتوق إلى مجد إفريقية الضائع. ولكنني سأعمل جاهداً من أجل ولادة إفريقية جديدة، حرة عظيمة بين بلدان العالم».[54]

أدرك مانديلا أن لمبيدي لم يكن علمياً، وكان مطنباً، وفي بعض الأحيان يشت عن الموضوع الأصلي، لكنه كان معجباً بحماسته في الخطابة ورؤيته التي أعادت إلى الأذهان الأبطال الكزوسيين القدامى.[55]

أصبح لمبيدي قائداً لجماعة صغيرة من الشباب السود، من ضمنهم سيسولو ومانديلا، أرادت أن تشكل رابطة شباب داخل المؤتمر الوطني الإفريقي. كان هدفهم هو الضغط على المنظمة باتجاه عمل جماعي من النوع الذي لاقى نجاحاً كبيراً في ألكساندرا لدى مقاطعة الحافلات. وفي الوقت الذي كانوا فيه يدعمون المؤتمر الوطني الإفريقي فقد كانوا يشجبون تخبط زوما. كما شعروا بتحدي الحزب الديموقراطي الإفريقي الجديد. بقيادة بول موزاكا Paul Mosaka الذي انشق عن المؤتمر وأصبح بإمكانه (كما أراد) أن «يصول ويجول

في البلاد». [56] وشجعتهم المثالية الأنغلو ـ أمريكية التي تجلت في الحرب ضد هتلر، وخاصة الراديكالية التي أظهرها ميثاق الأطلسي Atlantic charter، الذي وقعه تشرشل وروزافلت في آب (أغسطس) 1941. هذا الميثاق ألزم الموقعين «باحترام حقوق جميع الأفراد في اختيار شكل الحكومة التي سيعيشون في ظلها». وسرعان ما بدأ تشرشل بعد ذلك بالتراجع عن المضامين المعادية للاستعمار في الميثاق، وقال لليو آميري Leo Amery وزير الدولة الهندي إنه لم يكن يعني بكلمة «الشعوب» أن تتضمن أهالي نيجيرية وإفريقية الشرقية، هذا إن لم نذكر العرب الذين قد يطردون اليهود من فلسطين. [57] إلا أن مانديلا وأصدقاءه أخذوا الميثاق بمعناه الظاهري وأعجبوا بتشرشل من أجل ذلك، فيما بدا أن سموتز Smuts يدعم تطبيقه في إفريقية، خاصة بعد الانتصارات اليابانية في الباسيفيكي في أواخر عام 1941، عندما خشي أن تغزو اليابان إفريقية بدعم من السود. (كان هناك ما يبرر خوف سموتز وهو أن وولتر سيسولو ـ مثل آخرين سواه ـ كان يعجب باليابانيين لكونهم شعباً ملوناً ناجحاً، وصرح بسعادته عندما هدد اليابانيون جنوب إفريقية). [58] شكَّل المؤتمر الوطني الإفريقي لجنة برئاسة البروفيسور زد. كي. ماثيوز Z. K. Matthews لتفسير ميثاق الأطلسي. فقدمت اللجنة وثيقة سميت «مطالب الإفريقيين باختيار حكومتهم. وقالت الوثيقة إن الامتحان الحاسم للميثاق هو في تطبيقها على القارة الإفريقية». [59]

كان مانديلا وهو في الخامسة والعشرين، ملتزماً بسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، وفي عام 1943 انضم إلى وفد برئاسة لمبيدي من أجل طرح فكرة رابطة الشباب أمام الدكتور كزوما في مكتبة بيته في صوفياتاون. كانت مواجهة تاريخية لكنها شائكة. أعجب مانديلا بكزوما لإعادته المؤتمر الوطني الإفريقي إلى الحياة، وتأثر بأصدقائه الدوليين مثل تشيكيدي خاما Tshekedi Khama من بيتشوانالاند والملك سوبهوزا Sobhuza من سوازيلاند. [60] إلا أنه لم يحب أسلوب زوما الإنكليزي المتسم بالغرور، وهوسه بالوفود والبرقيات. كان زوما

من جهته بحاجة ماسة إلى دعم المثقفين الشباب. وكانت زيارة «أطفال الحضانة»، كما كان يسميهم، تشبع غروره. إلا أنه حذرهم من أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن مستعداً لتصرف جماعي.[61] إلا أن مانديلا وسيسولو وسواهما واصلوا مساعيهم لتشكيل لجنة مؤقتة، تعمل على إعداد بيان رسمي بالأهداف في مكتب المؤتمر الداكن في روزنبرغ أركيد Rosenberg Arcade في وسط مدينة جوهانسبورغ.[62]

في نيسان (أبريل) 1944 انطلقت لجنة الشباب رسمياً في مركز بانتو الاجتماعي للرجال Bantu Men's Social Center في جوهانسبورغ، حيث كان لمبيدي رئيساً وسيسولو وتامبو ومانديلا في اللجنة التنفيذية. افتتح البيان المفعم بالحيوية والنشاط بتحديد لمبيدي الفارق بين مفاهيم البيض والسود:

> «الرجل الأبيض يَعدُّ الكون آله عملاقة تنطلق بقوة عبر الزمان والمكان نحو دمارها النهائي. والأفراد ضمنها ليسوا سوى كائنات حية لها حياتها الخاصة التي تؤدي إلى موت خاص..
>
> أما الإفريقي فهو يَعدُّ العالم وحدة واحدة، كياناً عضوياً، يتوجه باضطراد نحو مزيد من الانسجام والوحدة، والأفراد فيه يشكلون أوجهاً مستقلة لكل واحد..»

ومضى البيان ليرفض أي ادعاء بأن الرجل الأبيض كان يساعد في تحضير الإفريقيين، وليؤكد أن الإفريقي «يقترع الآن كي يحدد مستقبله بجهوده الخاصة» وأقر البيان المؤتمر الوطني الإفريقي، مع بعض التحفظات، ووعد بدعم لجنة الشباب الجديدة كونها «خزينة الأدمغة ومولد الطاقة للروح الوطنية الإفريقية». وجاء في نشرة إعلانية أصدرتها اللجنة المؤقتة في أيلول(سبتمر)، أن «ساعة الشباب قد دقت» واختتمت النشرة بأبيات من مسرحية يوليوس قيصر Julius Caesar.

> «الخطأ... ليس في طالعنا
>
> وإنما في أنفسنا، أننا تابعون»[63]

يذكر مانديلا أن هذه كانت المرة الأولى التي طرحت فيها فكرة القومية الإفريقية بشكل واضح. إلا أن الخط السياسي مازال متردداً. هل كانوا فعلاً يهدفون إلى رمي الرجل الأبيض في البحر، كما يقول الراديكاليون؟ أخيراً ساد رأي أكثر اعتدالاً، كان مانديلا من أنصاره، وهو أن للجماعات العرقية الأخرى أن تبقى في جنوب إفريقية، ولكن يجب التخلي عن فوقية البيض.[64]

منظمة سياسية أخرى حصدت أيضاً بعض الدعم من عقابيل زمن الحرب. إذ بدأ الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي، الذي التقاه مانديلا أول مرة في ويتز Wits، بدأ الآن لأول مرة يكسب شعبية بين صفوف الإفريقيين بعد عشرين سنة من الاضطراب.

تأسس الحزب في عام 1920، بقيادة مجموعة صغيرة من المهاجرين اليهود والبريطانيين المنشقين عن كنيسة بريطانية. وعمل بموجب القوانين الصارمة للكومينتيرن Comintern في موسكو. وقد أثارت جنوب إفريقية، بموارد التعدين العالية الكثافة فيها، اهتمام كثير من المنظرين الماركسيين، ومنهم لينين Lenin، لكونها سيرة امبريالية اقتصادية ورأسمالية احتكارية، لكن عند التطبيق خلط كثير من قادة الشيوعيين بين النزاعات الطبقية والعرقية. في البداية لم يظهر الشيوعيون كبير اهتمام باستقطاب قادة أو أعضاء سود. حتى أنهم في عام 1922 دعموا بشكل فعلي حزب العمل الأبيض الصرف في إضراب المنجم، تحت شعار «اتحدوا من أجل جنوب إفريقية بيضاء»، وقطع الشيوعيون علاقاتهم مع حزب العمل الأبيض عندما انضم إلى ائتلاف تهكمي مع حكومة الوطنيين الأفارقة بعد ذلك بعامين، لكنه نفر كثيراً من الأعضاء البيض في عام 1962 عندما قبل مبدأ الكوميتيرن الجديد «جمهورية سوداء».

وبحلول عقد الثلاثين كان الشيوعيون يُنَسِّبون مزيداً من الأعضاء السود، كان بينهم شابان نشيطان بارعان هما جي بي ماركس J.B. Marks وموسى كوتاني Moses Kotane اللذين تلقيا تدريبهما في معهد لينين Lenin Institute

في موسكو وعادوا للمساعدة في تنظيم نقابات للسود. لم يكن للشيوعيين حظوة كبيرة لدى المؤتمر الوطني الإفريقي الذي مازال واقعاً تحت تأثير الزعماء التقليديين. وفي عام 1939 عارض الحزب الشيوعي الحرب انطلاقاً من ولائه للحلف بين هتلر وستالين. ولكن بعد أن أقدم هتلر على غزو روسيا في حزيران (يونيو) 1941 وأصبح حليفاً لبريطانية، أصبح الشيوعيون مقبولين أكثر، كما ازداد اهتمامهم بالدفاع عن حقوق السود. وبحلول عام 1945، وبمساعدة مخصصات إضافية لورق الصحف وصل توزيع الصحيفتين الجنوب إفريقيتين المتأثرتين بالشيوعية، وهما الغارديان Guardian وإنكلولوليكو Inkululeko إلى 67.000 نسخة.[65] تأثر مانديلا بأصدقاء بيض مثل نات بريغمان ومايكل هارميل، وبالتعددية العرقية للشيوعيين، الذين وضعوا السود بمحاذاة البيض على قدم المساواة. وكتب مانديلا فيما بعد أن الشيوعيين فقط هم الذين كانوا مستعدين لمعاملة الإفريقيين معاملة البشر الأنداد، وهم الذين كانوا مستعدين ليأكلوا معنا، ويتحدثوا معنا، ويعيشوا معنا ويعملوا معنا. إنهم الجماعة السياسية الوحيدة التي كانت مستعدة للعمل مع الإفريقيين لتحصيل الحقوق السياسية والموقع الاجتماعي.[66]

اعتقد الأمين العام للمؤتمر الوطني الإفريقي من 1936 إلى 1949، القس جيمس كالاتا James Calata، أن «الشيوعيين ليس لهم تأثير يستحق القلق» ورأى أن الحياة الوطنية الإفريقية مازالت مبنية على نظام الارتباط، الذي يشد العزو إلى الأسرة، والعشيرة والقبيلة «والشيوعية؛ التي هي نظام مادي بحت، لا تستطيع أن تحول قلوب الإفريقيين نحوها إلى أن يشعر ذلك الإفريقي بالذات أنها هي الطريق الوحيد للخلاص من الاضطهاد».[67]

إلا أن الوطنيين الشباب في لجنة الشباب في المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يناصبون الشيوعيين عداء لدوداً، إذ رأوا فيهم تأثيرات غريبة تفسد القومية الإفريقية، واعتبروهم مروجي طريقة أجنبية.[68] وقد هاجمهم لمبيدي بضراوة،

وفض اجتماعاً شيوعياً في أورلاندو بتقريع مطول ومتوعد لدرجة أن أنكلولوليكو علق قائلاً: «إن هتلر قد يخسر الحرب في أوروبا لأنه وجد تابعاً في جنوب إفريقية». [69]

وعلى الرغم من أن لمانديلا أصدقاء شيوعيين إلا أنه وتامبو شاطرا لمبيدي شكوكه، ورفع الثلاثة اقتراحاً بأن «أعضاء المنظمات السياسية، يجب أن يستقيلوا من المؤتمر الوطني الإفريقي». ورفض المؤتمر الوطني الاقتراح، إلا أن حملة لجنة الشباب ضد الشيوعيين استمرت.

كان النزاع جزءاً من تنافس أكبر بين القومية والشيوعية ضمن حركات التحرير في إفريقية وآسيا التي ستشتعل بعد الحرب العالمية الثانية. كان الوطنيون يستطيعون الاعتماد على الكبرياء التاريخي لشعوبهم ومنحها تقديراً جديداً للذات. فيما الشيوعيون، الذين يدعمهم الاتحاد السوفيتي المنتصر، كانوا قادرين على تقديم التنظيم والتمويل، والنقد الثقافي للإمبريالية. لكن جنوب إفريقية كانت ساحة معركة إيديولوجية خاصة. فقد عانى الإفريقيون من السيطرة والإذلال، مما أعطى دفعاً لوطنيتهم. لكن الأقلية البيضاء في البلاد كانت كبيرة إلى حد لا يمكن معه إعادتها إلى أوطانها، على نحو ما كان ينادي به في مناطق أخرى من إفريقية. قال غوفان مبيكي «لقد تحدثوا عن الاستقلال. ونحن تحدثنا عن الحرية، والفارق كبير». [70] كان الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية الحزب الوحيد الذي ضم جميع الأعراق، وكان على وشك أن يصبح، متعدد الأعراق أكثر من أي حزب شيوعي آخر[71] هذان القطبان المغناطيسيان: الوطنية والشيوعية، تجاذبا مانديلا كل من جهة.

4

الأفارقة ضد الإفريقيين

1949 - 1946

سرعان ما تداعت آمال مانديلا وأصدقائه بعالم أكثر اعتدالاً بعد الحرب. ولم يكن السبب نظام الأبارثيد Apartheid بل حكومة الحزب الموحد بزعامة جان سموتز Jan Smuts، الذي كان حليف تشرشل المخلص في الحرب، والذي كان يلقى دعم رجال الأعمال في جنوب إفريقية الناطقين بالإنكليزية. في عام 1946، بعد أشهر فقط من انتصار الحلفاء النهائي على اليابان، أقدم سموتز على خطوتين دفعتا كلاً من الإفريقيين والهنود نحو مزيد من الميل للقتال، والعمل جنباً إلى جنب.

الخطوة الأولى كانت ضد إضراب قامت به نقابة عمال المناجم الإفريقيين الحديثة العهد، التي كان محركها الرئيسي ورئيسها الأول غور راديبي صديق مانديلا.. خلف راديبي في عام 1942 جي بي ماركس الشيوعي الإفريقي الصلب الذي تلقى علومه في موسكو وقاد إضراب 70.000 من عمال المناجم السود في آب (أغسطس) 1946، مطالباً بزيادة الأجور وتحسين الأوضاع والطعام. أجبرت شركات التعدين، بدعم من الحكومة، العمال على العودة إلى المناجم بالهراوات، فقتل تسعة وجرح المئات. وبعد عشرة أيام وجهت إلى خمسين من القادة تهمة التحريض على الإضراب وثبتت التهمة على العديد منهم، وعوقبوا بالسجن أو الغرامة.[1]

رأى معظم البيض في هذه الإجراءات الصارمة رداً ضرورياً على الخطر

الشيوعي، الذي عاد إلى الظهور الآن بعد هدنة زمن الحرب. فطار سموتز إلى لندن «ولم يكن قلقه غير مبرر». فيما هاجمت الراند ديلي ميل Rand Daily Mail» الخطابات الهوجاء والمطالب المضحكة «لقادة النقابة، ومنهم جي بي ماركس.[2] وجه المحافظون ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي، وبينهم الدكتور زوما، اللوم إلى الشيوعيين لأنهم حرضوا على اختبار مبكر للقوة، لكن رابطة الشباب انتقدت كزوما لأنه لم يدع إلى إضراب عام تضامناً.[3] وبدا القمع الوحشي مبرراً لتحذير لمبيدي من أن السود لا يستطيعون أن يتوقعوا من البيض الرحمة.

أثارت شجاعة وتضامن المضربين مشاعر مانديلا، خاصة وأنه يعرف بعضهم، وقام بزيارتهم مع جي بي ماركس وقد ناقش مانديلا ماركس في الشيوعية وفوجئ بمرحه وتواضعه ورأى ماركس في مانديلا وطنياً متطرفاً إلى أبعد الحدود، لكنه اعتقد أنه سيتجاوز تلك المرحلة.[4]

سخرت إجراءات قمع إضراب المنجم بالوفود الصبورة ـ للحرس القديم ـ في المؤتمر الوطني الإفريقي الذين وضعوا ثقتهم في سموتز. وفيما كان عمال المناجم يضربون بالهراوات كان المجلس الأهلي للممثلين يناقش بهدوء مطالب السود مع الحكومة في بريتورية. وفض أعضاؤه الاجتماع احتجاجاً، لكنهم لم يقاطعوا المجلس مقاطعة حقيقة.

إلا أن سموتز أدرك أنه أثار حفيظة مثقفين معتدلين من نوعية البروفيسور ماثيوز. وفي العام التالي حاول استرضاء وفد من أعضاء المجلس برئاسة ماثيوز.[5] تحدث سموتز بطريقته الأبوية المألوفة: «هذا الطفل الصغير الذي هو جنوب إفريقية يكبر، والملابس القديمة لم تعد تليق بالصبي الذي يكبر». وأبدى أسفه الشديد لموقفهم المستاء، وقدم لهم عظمة على شكل مجلس أكبر، كله من السود وكله منتخب، ونقابات قانونية للسود، ولكن ليس في المناجم.. كان ماثيوز ميالاً إلى الشك، وقال: إن السود قد فقدوا ثقتهم

بالمجلس. وفيما بعد قال للصحافة: إن الجبل قد تمخض فولد فأراً، وإن الجماهير الجائعة بحاجة إلى أكثر من مجرد عظمة تمضغها.[6] لكن المجلس التمثيلي الأهلي لم يحل نفسه (وسرعان ما ستحله أول حكومة وطنية).

تأثر نلسون مانديلا تأثراً لا يمحى بخطوة سموتز الحادة الثانية، ضد الهنود في جنوب إفريقية. فقد كان للهنود الـ30.000 الذين وصلوا إلى ناتال Natal في بدايات 1860 عمالاً متعاقدين أولاً، ثم تجاراً، كان لهم تاريخهم الخاص الحافل بالتمييز ـ التفرقة العنصرية ـ والاحتجاج. وكان أول من تحدث عن الاحتجاج السلمي عام 1911 هو موهانداس غاندي Mohandas Gandhi، الذي ابتكر نوعاً خاصاً من المقاومة السلبية عندما كان محامياً في جنوب إفريقية، وقاد آلاف الهنود بشكل غير قانوني من ناتال إلى ترانسفال Transvaal. حاول الإفريقيون والملونون الاحتجاج بشكل مماثل عامي 1919 و 1939، لكن باءت محاولتهم بالفشل. فالهنود، الذين أصبح بعضهم تجاراً أغنياء، عزلوا أنفسهم عن السود، أملاً بمعاملة أفضل بعد الحرب. لكن عام 1946 طرحت حكومة سموتز مشروع قانون امتلاك الأرض الآسيوية، «قانون الغيتو الهندي»، الذي حظر بيع مزيد من الأراضي للهنود، في الوقت الذي قدمت الحكومة استرضاء على شكل ممثلين بيض في (البرلمان) وهيئة استشارية.

طار صواب الهنود. وأمضوا سنتين في حملة مقاومة سلبية تذكر بمقاومة غاندي منذ خمسة وثلاثين عاماً، فاحتلوا أرضاً مخصصة للبيض. أودع ألفان من المحتجين السجن، وبينهم قائدا الحملة الدكتور مونتي نايكرر Dr. Monty Naicker والدكتور يوسف دادو Dr. yusuf Dadoo.[7]

كان مانديلا يزداد قرباً من الهنود، وأعجب بتقدمهم من إلقاء الخطابات وصياغة المقررات إلى التحرك الجماعي، على عكس القصور الذاتي للمؤتمر الوطني الإفريقي. وصعق بالتضامن والتضحية اللذين أبداهما المحتجون الذين

كانوا مزيجاً من الهنود المناهضين والمحافظين. وأعجب بكل من نايكر ودادو.[8] وفي جوهانسبورغ أصبح الآن يجتمع بكثير من الهنود، وكان يتصرف معهم بتبسّط لا تكلف فيه. وأصبحت إحدى الشقق في وسط مدينة جوهانسبورغ، في خولفاد هاوس رقم 13 Kholvad House في شارع السوق، Market street مكاناً مهماً للقاء الأجناس. فهناك التقى مانديلا بإسماعيل مير وروث فيرست ويوسف كاتشاليا وسواهم من الهنود والشيوعيين البيض، في جو مريح. كما أمضى أوقاتاً طويلة في بيت أمينة باهاد Amina Pahad (التي انضم ولداها عزيز Aziz وأيسوب Essop فيما بعد إلى حكومة مانديلا)، حيث كانوا جميعاً يأكلون الكاري والأرز بأصابعهم . مما ذكره بطفولته في قصر جونجنيتابا الكبيرف.[9] وبعد بضعة نقاشات مبكرة عمل مانديلا عملاً وثيقاً مع أحمد كاثرادا Ahmed Kathrada وهو شيوعي هندي شاب سيمضي معه خمساً وعشرين سنة في السجن.

من خلال أصدقائه الهنود أصبح مانديلا أكثر اهتماماً بالهند نفسها، التي كانت يوم ذاك على مشارف الاستقلال، كما ازداد اهتمامه بإنجازات غاندي وتلميذه جواهر لال نهرو.

يذكر مانديلا: «عندما كنا في بداية النضال لم يكن في تجارب قياديينا، غير المدونة، ما يكفي ليدفعنا، إلا أن أشخاصاً مثل غاندي ونهرو سجلوا تجربتهم. لذلك كان لا بد لنا أن نتطلع إليهم كأنموذج، وكان تأثيرهم كبيراً جداً». كان مانديلا أكثر تأثراً بنهرو، الذي لم يكن سلامياً، أكثر مما تأثر بغاندي؛ فعندما كان أي مهراجا يحاول أن يوقفه كان نهرو يزيحه جانباً. كان من ذلك النوع من الرجال، وأحببناه لأن سلوكه أرشدنا إلى سبيل التعامل مع مضطهدينا. فيما كانت لغاندي روح من الفولاذ، إلا أنها كانت تتجلى بطريقة لطيفة وناعمة، وكان يفضل المعاناة بتواضع على رد الإساءة.[10]

علم المقاومون السلبيون الهنود في جنوب إفريقية عامي 1946 و1947

مانديلا وسواه من السياسيين الإفريقيين درساً مهماً. ولم ينضم إليهم سوى قلة من غير الهنود (من ضمنهم الراهب البريطاني الراديكالي مايكل سكوت Michael Scott)، إلا أنهم سرعان ما استقطبوا دعم المؤتمر الوطني الإفريقي. وعام 1947 انضم الدكتور كزوما رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي إلى نايكر ودادو في ما سمي «حلف الأطباء» «Doctors Pact»، الذي وعد بالتعاون بين المؤتمر الوطني الإفريقي والمجلسين الهنديين. ورسخ كزوما الائتلاف بظهوره في الجلسة الأولى للأمم المتحدة في نيويورك بصحبة ممثل الهند، هـ. آ. نايدو H. A. Naidoo، للاحتجاج على قانون الغيتو Ghetto Act، ومن هنا انطلقت حملات الأمم المتحدة ضد العنصرية. وسيرى مانديلا في هذا الحلف منطلقاً لجميع أشكال التعاون اللاحقة بين الأعراق. وتفاءل كثير من الهنود بإمكانية التعاون العرقي.[11] وقد قال قادر أسمل Kader Asmal الذي أصبح فيما بعد وزيراً لشؤون المياه في حكومة مانديلا[12]: «كان هذا الحلف هو الذي جعلني أشعر أنا وجيلي بمعنى أن تكون جنوب إفريقي».

ولكن في ذلك الوقت كان مانديلا يعارض التعاون السياسي الوثيق مع الهنود. لقناعته بأن المجلسين المنفصلين فقط هما القادران على تعبئة الجماهير، وخشي أن يهيمن الهنود أو الحزب الشيوعي على المؤتمر الوطني الإفريقي أو يسخرانه لخدمة أهدافهما مما (يهمّش) القومية الإفريقية.[13]

كانت جذوة الهوية والمعاناة الإفريقية الخاصة مازالت متقدة داخله، وشعر أنه مستهدف شخصياً وسياسياً، من قبل الهنود الأكثر تأهيلاً وحنكة.

وانتهت المكاشفتان عام 1946 إلى هزيمة، وقضي على نقابة عمال المناجم الإفريقيين التي لن تقوم لها قائمة حتى عقد الستين. وعزل الهنود بشكل متزايد في أحيائهم الخاصة.[14] خلفت النكسات أثراً عميقاً في نفس مانديلا وسواه من السياسيين السود الشباب. كما ضعفت الثقة بوفود الحرس القديم

والوساطة الممثلة في مجلس الممثلين الأهلي، وبدت مؤشرات ولادة قيادة أكثر شجاعة بين أوساط الهنود والشيوعيين.

قدم استقلال الهند في آب (أغسطس) 1947 مثلاً طموحاً للنضال في جنوب إفريقية، كما في بقية أرجاء القارة، إذ أظهر كيف يمكن لحركة جماهيرية منظمة وموحدة أن تهزم سلطة حاكمة وطيدة الأركان. وكان أول رئيس وزراء هندي، نهرو، يحث الهنود على التعاون مع الإفريقيين في جنوب إفريقية منذ عام 1927، وسرعان ما سيثبت أنه حليف حميم لكلا المجلسين مما جعل الهند أول بلد يفرض عقوبات ضد جنوب إفريقية[15]، وسيشعر مانديلا بالامتنان دائماً لنهرو من أجل ذلك. سيصبح نفوذ الشيوعيين الهنود هاجساً يقض مضجع حكومتي جنوب إفريقية وبريطانية، إلا أن نهرو استطاع، دون أن يكون شيوعياً، أن يقدم رسالة أوسع لمانديلا وسواه، بأن يتطلعوا وراء القومية المحلية والعرقية. وقد اقتبس مانديلا عن نهرو قوله «إن القومية جيدة في مكانها إلا أنها صديق لا يمكن الاعتماد عليه كما أنها مؤرخ غير أمين . إنها تعمينا عن كثير من الأحداث وأحياناً تشوه الحقيقة، خاصة فيما يتعلق بنا وببلدنا».[16]

في هذه الأثناء كانت رابطة الشباب في المؤتمر الوطني الإفريقي تعدل نزعتها القومية وفي تموز (يوليو) 1947 توفي مؤسسها اللامع أنطون لمبيدي فجأة عن عمر يناهز ثلاثة وثلاثين عاماً، بعد ساعات قليلة من حديث مع مانديلا.[17] ذعر مانديلا! لكن خلف لمبيدي بيتر مدا Peter Mda أثبت أنه مفكر سياسي أكثر وضوحاً ونفوذاً (على الرغم من أن مانديلا سيجده فيما بعد بالغ الحذر).[18] كان مدا متحدثاً ساحراً، مفرداته غنية، صغير الرأس ويضحك بصخب. كان ابن صانع أحذية كزوسي. تلقى تعليمه على أيدي الكاثوليك، وبما أنه عمل في مهنتي التدريس والمحاماة فقد اكتسب تدريباً ثقافياً وعملياً.[19]

أصبح مانديلا نفسه أمين سر لرابطة الشباب، مسؤولاً عن التنظيم السياسي وتأسيس الفروع.[20] وبرفقة مدا نسب مزيداً من الأعضاء خارج

ترانسفال وناتال والكيب. وحاول أن يخترق المدارس الإفريقية، فزار مدرسة سانت بيتر في جوهانسبورغ - حيث كان أوليفر تامبو يعلم - في محاولة التوجه إلى الطلاب. لكن مدير المدرسة دي أتش دارلينغ D. H. Darling (كما قال لتامبو فيما بعد) شعر أنه لا يستطيع السماح بتحويل المدرسة إلى منبر.[21] وقد أحرز مدا نجاحاً أفضل في فورت هير. حيث أقنع محاضراً شاباً في علم الإنسان هو غودفري بيتجي Godfrey Pitje بتأسيس فرع لرابطة الشباب كي «نغرقهم في تطلعنا الوطني». وليعمل مع الهيئة التنفيذية في جوهانسبورغ «التي أمينها العام إن آر دي مانديلا المحترم، بي أيه، N. R. D. Mandela طالب حقوق».[22]

انتقد زد. كي ماتثيوز أستاذ بيتجي، التعقلية النظرية لرابطة الشباب، إلا أنه لم يمنعها من العمل في فورت هير. وأصبحت الجامعة أغنى وأخصب تربة لرابطة الشباب، تجتذب جيلاً جديداً من الطلاب المناهضين، الذين كان منهم روبرت سوبوكوي Robert Sobukwe، وجو ماثيوز Joe Matthews وتي تي ليتلاكا T. T. Letlaka، إلى المؤتمر الوطني الإفريقي.[23]

أصر مدا أنه ليس ضد الرجل الأبيض لكونه كذلك، وإنما هو ضد هيمنة البيض. إلا أنه حذر الإفريقيين ألا يتوقعوا أن ينحاز البيض إلى صفهم «في الوقت الذي يعطيهم حاجزً اللون الأفقي نمط حياة مميزة»[24]، فكتب بياناً جديدا لرابطة الشباب أقل فصاحة وأكثر تحليلاً من بيان لمبيدي، أقره مانديلا. عرف البيان القومية الإفريقية بأنها «موقف مناهض لشعب مقهور يبحث عن قاعدة صلبة يشهد منها صراعاً طويلاً وحاداً لا هوادة فيه من أجل حريته الوطنية». وحذر الإفريقيين من مغبة «الاقتداء بالأوروبيين سواء كمصدر للاقتباس أو للعون في نضالهم السياسي». لكن البيان كان أكثر استرخاء حيال الهنود، قائلاً: «إنهم جماعة مضطهدة لم تأت إلى إفريقية غازية مستغِلة، وإنما مستغَلة».[25]

على الرغم من صداقاته مع الهنود إلا أن مانديلا بقي قلقاً من هيمنة

الهنود على المؤتمر الوطني الإفريقي في ترانسفال[26] ووصل التوتر ذروته بعد حملة «التصويت للجميع» التي شنت في أيار (مايو) 1948 في مجلس الشعب في جوهانسبورغ التي افتتحها مايكل سكوت مطالباً بالتصويت للجميع. كان فرع الترانسفال للمؤتمر الوطني الإفريقي منقسماً. حيث اشتكى مانديلا من أن مجلس الشعب تجاوز منظمات قائمة، فيما أصر وولتر سيسولو على أن الإفريقيين يجب أن يجدوا حلفاء أنى استطاعوا.[27] ذهب مانديلا وتامبو إلى اجتماع للكونغرس الهندي مع سيسولو، واستشاطا غضباً ـ عندما أيد أراء الهنود ـ لدرجة أنهما لم يتحدثا معه بعد اللقاء، وذهبوا كل في طريق.[28] إلا أنهما أصبحا بالتدريج أقل شكاً بأصدقاء شيوعيين أمثال جي بي ماركس وموسى كوتاني. وقال تامبو: «إذا كان موسى يمثل الحزب لا أعتقد أنني سأختلف معه».[29]

انضم مانديلا إلى الهيئة التنفيذية الوطنية الترانسفالية لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي Transvaal National Executive of the ANC، عام 1947، وأصبح مخلصاً لها أيما إخلاص. وقد تودد إليه رئيسها كونستانتين راموهانو Constantine Ramohanoe. الذي علمه كيف يبقى على اتصال مع الجذور.[30] لكن راموهانو أراد التعاون مع الهنود والشيوعيين، في خطوة عارضتها الأغلبية، بما فيهم مانديلا. وعندما تحداهم باتخاذ بيانه الخاص تحرك مانديلا، وتلاه أوليفر تامبو للإحاطة به، مما أدى إلى اجتماع عاصف ورحيل راموهانو. كان مانديلا دائماً يعتقد أن «الإخلاص لمنظمة ما يأتي قبل الإخلاص لفرد».[31] وبقى على ذلك القانون الصارم على مدى السنوات الخمسين التي تلت، كما سيتعلم المنشقون من حسابهم. ولما كان قد أخضع إرادته الخاصة للحركة، فقد كان مصمماً على أن الآخرين أيضاً يجب أن يفعلوا.

التقى مانديلا بكثير من المثقفين الذين كانوا على قدر بالغ من التحفظ حيال حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، خاصة في كيب تاون، حيث أنشأ

التروتسكيون «حركة الوحدة» التي ضمت كثيراً من الإفريقيين الرواد والأكاديميين الملونين الذين أصروا على عدم التعاون مع العدو. وعام 1948 زار كيب تاون للمرة للأولى، وبقي هناك ثلاثة أشهر . وصعد جبل تيبل Table Mountin بالمركبة المزودة بأقراس Cable car وأرسل نظره نحو جزيرة روبين[32] Robben Island ودعي لزيارة أيه سي جوردان A. C. Jordan وهو محاضر جامعي بارز في حركة الوحدة، ألف كتاباً لقي إعجاباً كبيراً لدى أصدقائه التمبوويين Tembu (غضب أرواح الجدود)، وتأثر بذكائه. مع جوردان كان إسحق تاباتا Isaac Tabata مؤسس حركة الوحدة ومن دعاتها، الذي تحدث حديثاً لامعاً عن تاريخ جنوب إفريقية، إلا أنه انتقد مانديلا بشدة لانضمامه إلى المؤتمر الوطني الإفريقي، قائلاً: «أنا متأكد أنك فعلت ذلك لمجرد أن والدك كان من الأعضاء». [33] (والواقع أن والد مانديلا كان من أعضاء القبيلة الجماعية) شعر مانديلا بالرهبة تجاه تاباتا: «وجدت صعوبة في التكيف مع وجهات نظره.. ولم أشأ أن أستمر في الجدال مع ذلك الشخص لأنه كان بكل بساطة يبتلعني». [34] وقد صدم مانديلا لأن تاباتا بدا أكثر عداء للمؤتمر الإفريقي منه للحكومة.[35] وفيما بعد كتب تاباتا إليه رسالة مطولة حذره فيها من متواطئي المؤتمر الوطني الإفريقي وحثه على بناء تصرفاته على مبادئ، وعلى «السباحة عكس التيار». [36]

لكن مانديلا ظن أن إصرار التروتسكيين على عدم التعاون لم يكن أكثر من عذر يتذرعون به لعدم قيامهم بأي شيء.. وجعلته كيب تاون أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى بأن المؤتمر الوطني الإفريقي هو القادر على تعبئة شعبه من أجل التحرك الجماهيري المؤثر.[37]

ومهما بلغ تحرره من وهم حكومة سموتز فإن مانديلا ـ مثل كثير من أصدقائه ـ مازال يعلق بعض الأمل على ليبرالية الائتلاف الأطلسي بعد الحرب، وعلى الأمم المتحدة والحكومة العمالية في بريطانية. وفي نيسان(أبريل) 1947

قام الملك جورج السادس مع ملكته والأميرتين الشابتين إليزابيث ومارغريت بزيارة رسمية دامت شهرين لجنوب إفريقية بهدف دعم الروابط بين البلدين. إلا أن المندوب السامي البريطاني في جنوب إفريقية، السير إيفيلين بارينغ Sir Evelyn Baring. كان محقاً بتحذيره لندن من أن الوطنيين الأفارقة سيهاجمون الزيارة، من زاوية كونها رمزاً للقيد الإمبراطوري الذي تعهدوا بأنفسهم أن يكسروه.[38]

كانت اتصالات الملك بالإفريقيين أثناء الجولة محددة جداً من قبل حكومة سموتز. ولم يسمح له بمصافحة الأيدي السوداء في الاحتفالات الرسمية، إلا أن حشوداً من المتفرجين السود حيت الزوار الملكيين[39]، ولم يستطع الدكتور كزوما، رئيس حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، أن يقاوم إغراء السفر إلى زولولاند Zululand لرؤية الملك.[40] أثارت الاحتفالات الإفريقية حفيظة صحيفة الغارديان اليسارية في كيب تاون، فقالت في مقال افتتاحي: «إذا كانت سوية وأسلوب نضال الشعب من أجل الحرية من الممكن خفضها بهذه الأساليب الإقطاعية الاستعراضية فإن من الصعوبة البالغة استعادة الموقع الذي ضاع».[41]

أما مانديلا، بما له من جذور من الزعامة فقد اعتقد بأن الأسرة المالكة البريطانية جديرة بالاحترام كمؤسسة عريقة. ولاحظ الاحترام الذي أبداه الزعماء الكزوسيون لجورج السادس. وقد وصف أحد الشعراء الكزوسيين كيف قام الزعيم فيليل سانديل Velile Sandile / بطعن الأرض/ أمام الملك. ويذكر مانديلا إنه في الواقع كان منبطحاً يعفر وجهه بالتراب. «ولكنني لا أستطيع أن ألومه. لأني ربما كنت سأفعل الشيء ذاته».[42]

كان سموتز قد بدأ يفقد جل شعبيته بين أوساط الجنوب إفريقيين، خاصة الأفارقة منهم، قبل الانتخابات العامة في أيار(مايو) 1948 وقد حرص على عدم إثارة ذعر الناخب الأبيض بتقديمه تنازلات للسود، إلا أن الحزب الوطني

الأفريقاني بقيادة الدكتور دانييل مالان Daniel Malan الذي تمسك بمبدأ الأبارثيد الذي يعتنقه، وتحذيراته من / الخطر الأسود/ و/ التهديد الأحمر/ كان يكسب دعماً مع تزايد ظهور الإفريقيين في المدن. رأى المؤتمر الوطني الإفريقي في الانتخابات البيضاء خياراً بين شرين، فيما أدعى الدكتور كزوما أن الأبارثيد ليس أمراً جديداً وإنما هو مجرد نمو طبيعي ومنطقي للسياسة الأهلية الوحدوية.[43]

وكان الإفريقيون السود المثقفون في أورلاندو يحتقرون الأفارقة الفجين الذين كان منهم معظم أنصار مالان. إذ قال أيسمي ماتشيكيزا Esme Matshikiza صديق مانديلا «نحن لا نعرف الأفارقة إلا سائقي ترام ومفتشي تذاكر ورجال شرطة ونعتقد أنهم غير قادرين على إدارة البلد. كما أننا لا نعلم ما الذي درسه قادتهم في ألمانية النازية».[44]

فاز حزب الدكتور مالان (الحزب الوطني) في الانتخابات. بأغلبية ثمانية فقط، لكنها كانت كافية لأن تحكم البلد لأول مرة من قبل الوطنيين الأفارقة دون مزيد من دعم المعتدلين الناطقين بالإنكليزية. وأهين سموتز، وعندما توفي بعد ذلك بسنتين بجّله العالم الخارجي كرجل دولة وقائد حرب، إلا أنه شجب في بلده لتجاهله كلاً من الأفارقة والإفريقيين، وذلك تحذير لمن خلفه بأن رجل الدولة يجب ألا ينسى أن يبقى سياسياً.

سرعان ما غيرت حكومة مالان الجديدة شخصية وتطلع دولة جنوب إفريقية. وكان الأفارقة، من سلالة المستوطنين الهولنديين الكالفينيين في القرن السابع عشر، قد أبقوا على حضارة مستقلة عن الناطقين بالإنكليزية، ولم تتأثر كثيراً بالليبرالية الأوروبية التالية. وقد أدى اضطهادهم من قبل الامبرياليين البريطانيين، الذي وصل ذروته إبان حرب البوار في بداية القرن، إلى ظهور قومية قوية، لها ديانتها وأساطيرها الخاصة، وداروا استياءهم من البريطانيين. وعندما أحدث اتحاد جنوب إفريقية عام 1910 كان البريطانيون يأملون الاحتفاظ

بأغلبية تتحدث الإنكليزية، ولطفوا بالتدريج استياء الأفارقة، إلا أن أعداد الأفارقة تضاعفت فيما غذي فقرهم النسبي ـ وكونهم الضحية باستمرار ـ، نزعتهم القومية. كان الأفارقة (كما قال لهم رئيس الوزراء البريطاني هاورلد ماكميلان Harold Macmillan في عام 1960) أول الوطنيين الإفريقيين، لحاجتهم الخاصة لأن يثبتوا وجودهم ويدافعوا عن ثقافتهم. ومن هنا فإنهم لا شك مقدمون على نزاع مع الوطنيين الإفريقيين السود الذين هددوهم في فرص العمل وفي التفوق[45] وعندما تطلع مانديلا فيما بعد إلى الوراء، إلى أربعين سنة من التنافس قال: «ربما قضى التاريخ أن يدفع شعبنا هذا الثمن الفادح لأنه أورثنا قوميتين تتحكمان بتاريخ جنوب إفريقية في القرن العشرين.. لأن كلا القوميتين طالبتا بقطعة الأرض نفسها ـ وطننا المشترك، جنوب إفريقية ـ ولم يكن للنزاع بين الجهتين أن يكون إلا وحشياً». [46]

لم تخف الحكومة الأفريقانية الجديدة نيتها بالمضي في فصل العرقين وبناء دولة أفريقانية. وقال الدكتور مالان لأول مرة منذ الوحدة، تكون جنوب إفريقية لنا.

أما السير أفلين بارينغ فكانت لديه بضعة تهيؤات: كانت رسائله إلى لندن تقارن القومية الأفريقانية بالنازية، وقالت زوجه إنه اصبح يكره الوزراء الأفارقة لدرجة أنه ما كان يستطيع أن يخفي ذلك التعبير عن وجهه. [47] ولكن في البداية لم يبد معظم السياسيين والمعلقين البريطانيين قلقاً كبيراً لدى تغيير الحكومة. وقد كتبت مجلة الإيكونوميست أن «أغلبية الدكتور مالان أصغر من أن تسمح له بأن يفعل شيئاً يذكر». [48] وكانت الحكومة العمالية في لندن، الغارقة في أزماتها الاقتصادية، بحاجة إلى يورانيوم جنوب إفريقية، كما كانت حريصة على عدم إثارة حفيظة حكومة مالان فتدفعها إلى الاستيلاء على المحميات البريطانية الثلاث: سوازيلاند Swaziland وباسوتولاند Basutoland وبيتشوانالاند Bechuanaland على حدودها. رحب كثير من الإفريقيين، ومنهم أوليفر تامبو،

بفوز حزب مالان، عدو غيرغامض سيوحد السود ضده، إلا أن مانديلا كان «مصعوقاً ومذهولاً». [49]

وبعد اثني عشر سنة مازال يتحدث عن أن الضغط الأسود المتزايد قد يؤدي بالتدريج إلى إجبار الحكومات البيضاء على توسيع التصويت، مما يؤدي بالتالي إلى تصويت / اقتراع/ عام.[50] لكن ذلك التوقع بدا أقل احتمالاً الآن. ومثل جميع السياسيين السود تقريباً استهان بشكل خطير بالإصرار الأفريقاني على فرض فصل تام، وقمع المقاومة السوداء، على عكس الاتجاه السائد في أماكن أخرى من إفريقية وأمريكة. ولم يتوقع أحد تقريباً أن حكومات الحزب الوطني المتتابعة على مدى الأربعين عاماً التالية ستسن قوانين تمنع القيادة السوداء، وتسجن القادة، أو تجبرهم على المغادرة إلى المنفى.

في وجه هذا الخطر الجديد، لم يبد الإفريقيون سرعة في التوحد. وفي كانون الأول(ديسمبر) 1948 عقد المؤتمر الوطني الإفريقي اجتماعاً مع الهيئة المنافسة له وهي الميثاق الإفريقي العام، الذي يسيطر عليه التروتسكيون، ومنهم اسحق تاباتا مناوئ مانديلا. حث فيه الدكتور كزوما السود على «توحيد صوتهم» وحذر جي بي ماركس من أن «الشعب يسحق فيما نتماحك راضين حول مصاعب تقنية» وأصر بيتر مدا أن قاعدة الوحدة يجب أن تكون القومية الإفريقية. إلا أن تاباتا نادى بالوحدة بين جميع غير الأوربيين من منطلق عدم التواطؤ، الأمر الذي لن يوافق عليه المؤتمر الوطني الإفريقي.[51] لم يصل الاجتماع إلى شيء، واستمرت المناقشات في اجتماع آخر عقد بعد أربعة أشهر.

ظهرت الحاجة إلى الوحدة بشكل أكثر حدة مع الاضطرابات التي شهدتها دوربان Durban في كانون الثاني(يناير) 1949، عندما هاجم الزولو الغاضبون الهنود وتدخلت الشرطة والجيش مما أسفر عن 142 قتيلاً. وسمع مانديلا من أصدقائه الهنود أن البيض شجعوا أعمال الشغب بنقل الزولو إلى الموقع.[52]

اعتقد مانديلا أن إراقة الدماء وضعت «حلف الأطباء» على المحك، وتأثر

إذ رأى الدكتور نايكر يلعب دوراً حاسماً في الإسراع بإعادة السلام والإعراب عن حسن النية. وبعد ثلاثين سنة كتب كان عام 1949 تجربة لا تنسى بالنسبة للأشخاص الذين وقفوا حياتهم على رعاية الانسجام بين الأعراق ». [53]

أرجع الدكتور كزوما أعمال الشغب إلى سياسات التفرقة التي تتبعها الحكومة، وحذر من «قانون الغاب». وانتشر الغضب الأسود إلى منطقة جوهانسبورغ حيث أمل بعض القادة الإفريقيين والهنود أن يطالب المجلسان معاً بالهدوء. وذهب أحمد كاثرادا بصحبة صحفي هو هنري نكزومالو Henry Nxumalo إلى بيت مانديلا في أورلاندو لمحاولة إقناعه بدعم بيان مشترك. إلا أن مانديلا، الذي مازال متوجساً لتأثر المؤتمر الوطني الإفريقي بالهنود، أصر على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتحرك بمفرده. [54]

في منتصف عام 1949 كانت حكومة الدكتور مالان تستعد لدعم الأبارثيد بقوانين جائرة تنص على أن يصنف كل شخص عرقياً وأن تعيش الأعراق في أماكن منفصلة من المدن، وأن تمنع الزيجات بين الأعراق.

شعر مثيرو الفتنة في رابطة الشباب، ومنهم مانديلا، أنهم يستفزون للرد. ونادى رئيسهم بيتر مدا بـ/ برنامج عمل/ يعتمد على تنظيم احتجاجات جماعية ضد الحكومة.

كانت رابطة الشباب تكتسب مزيداً من الدعم في المؤتمر الوطني الإفريقي عموماً، وكانت قدرتها على تحمل حذر كزوما آخذة بالنفاد، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1949، قبل بضعة أسابيع من المؤتمر السنوي للمؤتمر الوطني الإفريقي، ذهب مدا مع سيسولو ومانديلا وتامبو لمقابلة كزوما في صوفياتاون. قالوا إن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتبنى سياسة التحرك الجماعي والمقاومة السلبية مثل غاندي في الهند، أو الهنود في جنوب إفريقية قبل ثلاث سنوات. أجاب كزوما أن الوقت مازال مبكراً جداً، وأن التحرك لن يفلح في أكثر من تحريض الحكومة لتسحق المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد

حذره أبناء رابطة الشباب أنه إذا لم يدعمهم فإنهم سيصوتون ضد توليه منصب الرئاسة في المؤتمر. فأجاب كزوما غاضباً بأنهم شباب متعجرفون، وطلب منهم المغادرة.[55]

بحث الشباب عن رئيس بديل فتوجهوا أولاً إلى البروفيسور ماثيوز، الذي عدَّهم - بخطابتهم الجياشة - سذجاً غير ناضجين، وخذلهم.[56] فقاموا بخيار أهوج إذ التفتوا إلى الدكتور جيمس موركس، وهو طبيب إفريقي محترم وغني ورث أرضاً صغيرة في أورنج فري ستيت Orange Free state في المكان الذي شهد منذ قرن ترحيب جده الأكبر الزعيم موروكا بالأفريقاني فورتريكرز Voortrekkers الذي خانه وقتها. وكان موروكا مهذباً وأنيقاً، ومثل الدكتور كزوما، كان لديه كثير من الأصدقاء والمرضى البيض. كان شجاعاً في معارضته / قوانين هيرتزوغ/ عام 1936، إلا أنه بعد ذلك انجذب نحو التروتسكيين، وأصبح رئيساً لميثاق كل إفريقية المنافس للمؤتمر الوطني الإفريقي. والآن؛ يثير الدهشة قوله لرابطة الشباب إنه يدعم برنامج عملهم الراديكالي، ووافق على الوقوف في وجه كزوما، بالرغم من أنه لم يكن عضواً في المؤتمر الوطني الإفريقي - الذي كان دائماً يسميه «المجلس الوطني الإفريقي».[57]

افتتحت رابطة الشباب في المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمرها الخاص يوم 15 كانون الأول (ديسمبر) 1949، قبيل المؤتمر الرئيسي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في بلومفونتين Bloemfontein بصلاة متواضعة:

> «أنت يا أبانا الذي في السماوات ترفعنا دائماً من أغوار البذاءة وحمأة الجهل. أنت ترفع ستار الظلمة عن هذا العرق الذي يسمى إفريقية السوداء»[58]

خرجت المجموعة المصغرة في رابطة الشباب - بزعامة مدا وسيسولو ومانديلا وتامبو - من المؤتمر / صناع ملوك/ ، بالرغم من أن مانديلا لم يستطع الحضور. كانت هناك بعض الخلافات: حيث بقي مدا وطنياً إفريقياً صلباً،

وكذلك مانديلا. أما سيسولو فكان أكثر انفتاحاً على الجماعات العرقية الأخرى، فيما بقي تامبو دبلوماسياً.[59] ولكنهم جميعاً طالبوا بالتحرك الجماعي.

طغى على أخبار المؤتمر الرئيسي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في صحافة جنوب إفريقية حدث أكثر إثارة وهو قيام رئيس الوزراء ميلان بافتتاح مبنى الفورتريكر الكبير خارج بريتورية، الذي يخلد معاناة الهجرة الكبرى The Great Trek، أمام جمهور من 100.000 أفريقاني. قال مالان: «لقد آن الأوان؛ إن شعاعاً من السماء ينصب على الناووس» (التابوت الحجري).

بذل الدكتور كزوما أقصى جهده لتحدي هذا الاحتفال ، بخطاب في ساحة السوق في ضاحية بلومفونتين حذر فيه من أن حركة الفورتريكر ستذكر الأجيال القادمة بالكفاح العرقي بين الأوربيين والإفريقيين. ولم تشر الصحافة البيضاء إلى الخطاب إلا قليلاً.

وفي خطابه الرئاسي أمام مؤتمر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي حاول كزوما جمع الدعم، وأكد أن الإفريقيين متحدون ضد الأبارثيد.[60] إلا أنه رفض بحزم سياسة رابطة الشباب بمقاطعة مؤسسات الأبارثيد. لم يلق خطابه كبير استحسان، وعندها أثار ديليزا مجي Diliza Mji، وهو طالب طب شاب جريء من رابطة الشباب، التصويت على حجب الثقة. قال مجي: إن «الصدمة هزت القاعة. إذ لم يسبق في تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي أن انتقد رئيساً».[61]

عند ذلك التفت صانعو الملوك إلى موروكا، الذي أعرب عن دعمه، فانتخبه المؤتمر رئيساً. وبقي كزوما في المكتب التنفيذي إلى أن استقال يوم 13 آذار (مارس) 1950، متذمراً من أن رابطة الشباب قد خانته. إلا أن سيسولو ومانديلا وتامبو كتبوا رداً قوياً في البانتو وورلد Bantu World: «نحن كأمة لنا في أي وقت أن نناشد أياً منا ليقود النضال».[62]

كما انتخب حزب المؤتمر الوطني الإفريقي لجنة تنفيذية وطنية أكثر

راديكالية، من ضمنها أعضاء رابطة الشباب بيتر مدا وأوليفر تامبو وغودفري بيتجي الناشط الشاب من فورت هير.

كان مانديلا نفسه قد اختير عضواً في اللجنة التنفيذية الوطنية قبل ذلك بشهرين، للمكان الذي خلفه كزوما، والأكثر أهمية هو أن الكونغرس اختار أميناً عاماً جديداً. حيث تنحى رجل الدين من الرعيل الأول جيمس كالاتا James Calatla معتبراً برنامج العمل بالغ الراديكالية، وانتخب مكانه وولتر سيسولو بتصويت واحد.[63]

كان سيسولو الشخص المناسب في الوقت المناسب. وخلاف موروكا، كان ملتزما التزاماً تاماً بالمؤتمر الوطني الإفريقي وسياسته الجدية قال: «بمجرد أن قرروا انتخابي كان شعاري / ليس لدي ما أعيش من أجله سوى السياسة، لذلك لا أستطيع أن أضع برنامج عمل لست قادراً على تطبيقه بنفسي/ وهذا تطلب مني ثقة بالمستقبل لولاها لكنت ضعفت في بعض المواقع . لكن الثقة دعمتني».

كان لمانديلا وجهة نظر أضيق من سيسولو. قال سيسولو فيما بعد: «عندما أصبحت أميناً عاماً كان واجبي هو توحيد الناس. أما نلسون ومدا فكانا ما يزالان يفكران ضمن إطار ترويج رابطة الشباب».[64] لكن مانديلا رأى أن برنامج العمل سيحول مواقف وأساليب الكونغرس.

حيث قال فيما بعد: «لم يعد المؤتمر الوطني الإفريقي الآن يعتمد على مجرد تغيير طريقة تفكير السلطات. وإنما صار بصدد ممارسة الضغط وصولاً إلى إجبار السلطات على ضمان مطالبه.[65] صار الآن في قلب حركة جديدة نحو المجابهة مع الوطنيين الأفارقة». وقالت فريدا ماتثيوز زوج البروفيسور الرصين في فورت هير «كان الآن في قلب حركة جديدة نحو المجابهة مع الوطنيين الأفارقة. صار الناس متحمسين رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً. أخيراً سيكون هناك عمل».[66]

5

الوطنيون في مواجهة الشيوعيين

1950 ـ 1951

كانت الأحياء الإفريقية في جوهانسبورغ مفتاح العمل السياسي. كانت كالمغناطيس تجتذب جميع السود في جنوب إفريقية، فهي تمثل انفتاحهم على عالم غربي جديد من الأفلام، والجاز والسوينغ والرياضة. هنا تعرض القرويون السود، المشبعون بالإنجيل وشكسبير على أيدي أساتذة البعثات، لتأثيرات أوسع وحوافز حرضت تفجر المواهب الإبداعية في الموسيقى والكتابة والدراما. تأقلم الإفريقيون المتعلمون مع حياة المدينة باستعداد أكثر من الأفارقة الذين مازالت ثقافتهم مزروعة في الريف.

هذه النهضة الثقافية لـ «الإفريقي الجديد» تشبه نهضة حي هارليم Harlem في نيويورك في عقد العشري من القرن العشرين، التي عكست النوع نفسه من التعبير المشبوب العاطفة على الحدود الفاصلة بين الثقافتين. ولكن جوهانسبورغ كانت لديها الثقة الأوسع لأغلبية سوداء وراءها قارة بأكملها.(1)

بالنسبة للبيض القلائل الذي عبروا الخط كانت جوهانسبورغ السوداء في عقد الخمسين، بحفلاتها التي تمتد طوال الليل، وحاناتها غير المرخصة، وحلقات الجاز، كانت تقدم نقيضاً كاملاً للحياة الاجتماعية الرسمية التي تميز الضواحي الشمالية الأنيقة، حيث يقوم خدم إفريقيون يرتدون قفازات بيضاء على خدمة حفلات العشاء الكبيرة.

كان لسوويتو Soweto حيوية وأصالة متفجرة تشع من سير الكتاب السود

الشباب في ذلك الوقت مثل كان تيمبا Can Themba ونات ناكاسا Nat Nakasa وحزقيا مفهليل Eskia Mphahlele، وبلوك موديسان Bloke Modisane، وكيسي موتسيسي Casey Motsisi وبيتر براهامز Peter Abrahams أو القصص القصيرة للروائية الشابة البيضاء نادين غورديمر Nadine Gordimer .[2]

احتشد السياسيون والمثقفون مع عمال المعامل والأساتذة ورجال العصابات، كل كان يشعر أنه جزء من العالم الغربي ما بعد الحرب، الذي تعرفوا عليه بواسطة المجلات والأفلام السينمائية والإعلانات. وسحرهم استعراض مواهب أبطال الرياضة الأمريكيين السود والنجوم الشعبيين أو منظمي الحملات الانتخابية، بوحي من المثالية الدولية للأمم المتحدة الجديدة و«أسرة الإنسان». عكست أحاديث الجاز والموضة والرقص والنار السريعة في جوهانسبورغ مزيجاً من الإيقاعات والتعابير الغربية والإفريقية بأسلوبها الأصلي، وأصبحت مؤلفات موسيقية مثل كويلاكويلا بني ويستل Kwela-Kwela Penny whistle أو أغنية ويمومويه Wimoweh ألحاناً مألوفة تتردد في أمريكة وبريطانية .[3]

إلا أن هذه الثقافة النابضة بالحياة والنشاط لم تلق اهتماماً يذكر بين أوساط البيض في جوهانسبورغ. كان العرقان يمتزجان في مركز المدينة كل يوم كسادة وخدم. ويفترقان كل مساء حيث يستقل البيض سياراتهم ويتجهون شمالاً، بينما يركب السود باصاتهم إلى الجنوب وراء نفايات المناجم. كان البيض لا يرون في السود سوى الخدم والعمال أو القرويين القبليين، الذين يلمون بالقراءة ويعتمدون على وصاية البيض، وبدا أن السماح لهم بترسيخ قوتهم السياسية أمر غير مسؤول، إن لم يكن خطيراً. لكن وراء حاجز اللون كانت النواحي القذرة والمزدحمة وراء مراكز المدن الجنوب إفريقية تضج بالطاقة والطموح.

وقد كتب المؤرخ الجنوب إفريقي الكبير سي دبليو دي كيويت C. W. de Kiewiet عام 1956 أن «التفاؤل الأكثر صدقاً في جنوب إفريقية هو في التجمعات المدنية المزدحمة، والزاخرة بالأمراض والجرائم. إنها تمثل قبول الرجل الأسود للحياة الجديدة لعالم الغرب، واستعداده لتحمل الترويض والتمهن القاسيين على أساليبها.[4]

كان الريفيون الإفريقيون محافظين عموماً، يسلب الغرب ألبابهم، ويتأثرون كثيراً بالكنائس المسيحية، وكلهم تفاؤل بالمستقبل. وقد كتب الكاتب الزولي الشاب لويس نكوسي Lewis Nkosi يصف ما أسماه «العقد الخرافي» في عقد الخمسين. «كان وقتاً من الأمل والاحتمالات غير المحدودة. ولم يبد من المبالغة في شيء أن تتوقع إذ ذاك أن الحكومة الوطنية سرعان ما تتداعى».[5] «كانت تلك أفضل الأوقات، وأكثرها سوءاً» كما أحب الكاتب كان ثيمبا Can Themba أن يقتبس من ديكنز Dickens.[6]

وببطء شديد أدرك السود، أنهم يحشرون في رذيلة. وأن هذا سرعان ما يصبح أكثر الأوقات سوءاً. ففي السنوات القليلة القادمة ستطبق حكومات الأبارثيد، بدعم من مقاتلين باردين غربيين Western Cold Warriors سياسات بدت مصمّمة على دفعهم باتجاه سياسات ثورية، والبحث عن أصدقاء بين الشيوعيين وفي الشرق.

كان نلسون مانديلا الأسود في جوهانسبورغ نموذجاً واستثناء في آن. فقد كان يتحرك بثقة متزايدة بين معاصريه في غرب أورلاندو، معقل السود الأكثر غنى. كان يحب عالم الموسيقى والرقص، وكان قريباً من أبطال موسيقى النواحي مثل الأخوين مانهاتان Manhattan Brotherss بيتر ريزانت Peter Rezant من فرقة الشحارير المرحة، والملحن والكاتب ماتشيكيزا Todd Matshikiza. وقد بدأ يكسب المال كمحام متمرن، وتقمص أسلوب عظماء الشأن في النواحي، يقود سيارته من طراز أولدزموبيل ويأكل في المطاعم القليلة

في المدينة التي تسمح بدخول الإفريقيين: الحوت الأزرق The Lagoon، مور ريتسيل Moretsele ثم مؤخراً الكابتن Kaptain المطعم الشرقي الذي مازال في شارع كورت Kort street. وكان يشتري حاجياته من دكان مجاور يبيع الأطعمة المعلبة. فوجئ جوماتثيوز Joe Matthews الابن الرفيع الثقافة لبروفيسور فورت هير بأن يجد أحد أبناء الريف من الترانسكي يتمتع بذلك الذوق الرفيع.[7] فقد كان مانديلا يعني بثيابه أيما عناية مثل الزعيم جونجيتابا الذي كان يكوي بنطاله وهو صغير. وقد التقى جورج بيزوس George Bizos صديق مانديلا الذي دافع عنه فيما بعد إبان محاكمته، التقاه مرة قرب نادي راند Rand Club في وسط جوهانسبورغ، يقوم بالبروفة النهائية عند الخياط العصري ألفرد كاهن Alfred Kahn (الذي كان يخيط أيضاً لزعيم المال المليونير هاري أوبنهايمر Haarry Oppenheimer) وذهل بيزوس لرؤية كاهن يثني ركبته ليأخذ مقاس ساق الرجل الأسود من الناحية الأنسية. وقد أعجب أحمد كاثرادا بسترة تحمل شعاراً إفريقياً خاصاً صنعها كاهن لمانديلا لدرجة أنه أوصى بصناعة واحدة لنفسه، لكنه ذعر لما رأى صحيفة الحساب (الفاتورة).[8]

كان مانديلا يشعر بثقة الثري المتبطل، بحضوره القوي وفتنته وابتسامته العريضة. إلا أنه بقي على كبرياء تليق بأرستقراطي أكثر مما تليق بواحد من العامة. وحتى نثاتو موتلانا Nthato Motlana، الذي أصبح طبيبه الخاص، وجد أسلوب مانديلا ملكياً، وشعر أن عليه انتقاء كلماته بحذر عندما يكون برفقته.[9] بدا مانديلا مختلفاً كل الاختلاف عن أبناء المدن الذين يتحدثون بسرعة والذين نشأوا في جوهانسبورغ وحافظ على أسلوبه الرسمي في كل من الكزوسية والإنكليزية. وكان غالباً يتناول غداءه في المركز الاجتماعي للرجال في بانتو، حيث يلتقي السود المحترمون من أبناء الطبقة الوسطى. وكان يحوي ملاعب تنس، وكرة المضرب، ويقيم الحفلات الموسيقية والرقص، والاتصالات بالأمريكيين من خلال راي فيليبس Ray Phillips الأبرشاني الذي

كان يدير مركز جان هوفمير الاجتماعي في الطابق العلويJan Hofmeyr Sou'al centre. [10]

ابتعد مانديلا عن جلسات الشراب التي شوشت كثيراً من معاصريه، ولم يغامر بدخول الحانات الرخيصة الفظة مثل /تسع وتسعون خطوة/ أو /ظهر القمر/. ولكني اجتمعت به في عام 1951 في مكان للشراب يفضله المؤتمر الوطني الإفريقي، وهو دكان للطباعة في شارع كوميشينور Commissioner street في وسط جوهانسبورغ كان آندي أندرسون Andy Anderson مالكه الملون الفالستافي Falataffian يحضر زجاجات الجعة والبراندي من وراء آلات الطباعة بعد أوقات الدوام، ويحضر دجاجاً مقلياً من مطعم صيني للوجبات الجاهزة، فيما قادة حزب المؤتمر الوطني الإفريقي يناقشون الحملات والمنشورات القادمة. ويقي مانديلا بوقاره ورزانته بالمقارنة بزملائه الأقل تحفظاً. وقال فيما بعد إنه لا يقر بالمشروب القوي. [11]

كان مانديلا صاحب بنية جسدية مرموقة، يحرص على الحفاظ عليها وكان ملاكماً من الوزن الثقيل، طوله ستة أقدام وإنشين، يقضي تسعين دقيقة أيام العطل الأسبوعية في قاعة الألعاب في أورلاندو حيث كان يتدرب منذ عام 1950. كانت تنقصه القوة والسرعة ليكون بطلاً. لكنه تخلى عن مهاراته في الملاكمة: المراوغة، والتراجع، والرقص، والدوران، ورأى في الرياضة وسيلة لتنمية القيادة والثقة. أصبح الملاكمون رمزاً لقوة السود ومنجزاتهم، في جنوب إفريقية كما في أمريكة. كان جو لويس Joe Louis بطل العالم الأمريكي في الوزن الثقيل من عام 1937 إلى عام 1949، بطل مانديلا أيام نشأته، وكان السويتيون يفخرون كثيراً بأبطالهم المحليين مثل جيري مولوي Jerry Moloi وجيك تولي JakeTuli الذي أصبح بطل الإمبراطورية البريطانية لوزن الذبابة. وسيتذكر مانديلا دائماً في الأيام القادمة المباريات الكبيرة. كان يحب أن يستعيد المباراة الأخيرة لبطل الوزن الثقيل كينغ كونغ King Kong الذي بدأ بالسخرية

بخصمه سايمون (غريب) متيمكولو Simon' Greb' Mtimkulu. انتظر غريب حتى الجولة الثالثة ثم سدد ضربة بيسراه وفوق اليمين وضربة بولو للجسم. وانتهت المباراة.[12]

كان مانديلا يرى الملاكمة ـ من زاوية السياسة ـ كسباق كان في الأصل متكافئاً وأعمى الألوان، يستطيع الإفريقيون الانتصار فيه على التمييز العنصري. كان أحياناً يتحدث عن مسيرته السياسية بتعابير الملاكمة، ففي عام 1955 شعر أنه كان في فئة الوزن الثقيل الخفيف.[13] وأسهمت استعراضية المقاتل وتفرده، بالإضافة إلى قوته الجسدية، في أسلوب مانديلا السياسي كفرد مناهض يدرك جيداً أهمية الأداء.

إلا أن السياسة هي التي أصبحت الآن لعبته الرئيسية. كانت رابطة الشباب تتفجر توقاً إلى التحرك، وكان مانديلا يفكر في كيفية تحقيق ذلك. فشرح لمجلة الرابطة «أفريكان لود ستار African lodestar» أن المنظمة يجب أن تبقى على اتصال حيوي بالسود العاديين: «لدينا أيديولوجية قوية قادرة على شد اهتمام الجماهير. وواجبنا الآن هو أن نطبق تلك الأيديولوجية بشكل كامل عليهم».[14] لكن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن مجهزاً بما يلائم التنظيم الجذري. وكان بطيء الاستجابة. فبعد عام من مؤتمر كانون الأول (ديسمبر) 1949، قال سيسولو من موقعه كأمين عام: «الجماهير تسير بشكل متقدم كثيراً على القيادة» وتذمر من «الإهمال العام للواجب من قبل مسؤولي المنظمة، وقلة الإيمان بالنضال ونقص أجهزة الدعاية مثل الصحافة» وأصر أنه «إذا كان للكونغرس أن يكون قوة تحرير الشعب الإفريقي في هذا البلد، فلا بد له من ترتيب آلته».[15]

مازالت مصادر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي تعاني من نقص كبير، كما تعب الحزب، كمنظمة إفريقية صافية، من البحث عن العون لدى الأعراق الأخرى. حيث كان الكونغرس الهندي يدار بشكل أكثر كفاءة وكذلك كان الشيوعيون. لكن الوضع سرعان ما تغير عندما صممت الحكومة على جعل

الحزب الشيوعي حزباً غير قانوني، فأصدرت قانوناً عام 1950 حظر العمل الشيوعي. وحصرت «الشيوعية النموذجية» بشكل أوسع بكثير مما رسمته السياسة الماركسية. فأصبح من الناحية العملية يعني مجرد التساوي بين الأعراق.

كانت الحكومة تستغل مخاوف البيض من مؤامرة شيوعية عالمية حتى قبل أن يبدأ السناتور جوزيف ماكارثي حملة مطاردة السحرة في أمريكة. وما من شك في أن القانون نجح في كبح نشاطات بعض الأعداء الألداء للحكومة، إلا أنه سرعان ما قارب بين كثير من الشيوعيين الممنوعين وبين الناشطين الشباب في حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، ومن ضمنهم مانديلا، ودفعهم معاً باتجاه عمل مشترك.

كان الحظر تهديداً حقيقياً لحرية التعبير، وفي آذار (مارس) 1950 تواطأ الحزب الشيوعي في جوهانسبورغ مع المؤتمر الوطني الإفريقي الترانسفالي والكونغرس الهندي من أجل تنظيم «ميثاق الدفاع عن حرية الحديث» الذي جلب 10.000 شخص إلى ساحة السوق Marker square. كما اقترحوا إضراباً ليوم واحد يوم أول أيار (مايو) احتجاجاً على منع القادة الشيوعيين. وسرعان ما أدرك سيسولو أن الخطر الذي يتهدد الشيوعيين يتهدد جميع قوى المعارضة، لكن مانديلا وكثيرين غيره من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الإفريقي لم يثقوا بالمبادرة الشيوعية، التي سبقت الاحتجاج الذي كانوا يخططون لتنفيذه. وهاجمت جريدة الأفريكان لود ستار استغلال العمال السود من قبل منظرين أجانب، قائلة: «إن نبتة الشيوعية الدخيلة لا تستطيع أن تنمو وتزدهر على التراب الإفريقي».[16] وأمضى جو سلوفو Joe Slovo المحامي الشيوعي الشاب من ليثوانيا ساعات طويلة يناقش مع مانديلا خطة الحزب للإضراب، ورأى أن مانديلا يحاول حلَّ نزاعه الداخلي «بين التراث العاطفي الذي خلفته تجارب العنصرية المؤلمة، وبين التكتيكات الرمادية الباردة التي تقتضيها السياسة».[17]

كان مانديلا ما يزال مناهضاً حاداً للشيوعية، ولجأ هو وأعضاء آخرون في رابطة الشباب إلى تشويش الاجتماعات الشيوعية التي تعد للاحتفال بأول أيار (مايو)، بالإكثار من الأسئلة التي كانت تؤدي أحياناً إلى فض تلك الاجتماعات. في نيوكلير New clare، إحدى ضواحي جوهانسبورغ قام مانديلا بجر القائد الهندي يوسف كاشاليا Yuseuf Cachalia من فوق المنصة.[18] وقال راستي بيرنشتاين Rusty Bernstein مهندس العمارة الشيوعي الذي التقى مانديلا أول مرة هناك: «لا يمكن أن تخطئه، لأنه كان طويلاً جداً» ويتذكر أن مانديلا «بدا مشوشاً وزعيماً لمثيري الشغب.. لقد وقف بعيداً عن مجموعة الساخرين، يضايق أعضاء رابطة الشباب بمجرد حضوره الطاغي، وبالسلطة الهادئة التي بدا أنه يمارسها عليهم».[19]

يستطيع مانديلا أن يكون مثير شغب حاد. ففي إحدى الاجتماعات ألقى الشيوعي الإفريقي جي بي ماركس خطاباً منطقياً واضحاً يشرح فيه كيف يمكن الإحاطة بفوقية البيض، وقد قوطع الخطاب عدة مرات بالتصفيق. لكن مانديلا، الذي كانت لديه تعليمات من رؤسائه في رابطة الشباب بفض الاجتماع، توجه بزهو نحو ماركس وأصر على مخاطبة الجمهور قائلاً: «يوجد ثوران في هذا الكرال. ثور أسود وثور أبيض، يقول جي بي ماركس إن الثور الأبيض يجب أن يحكم الكرال. وأنا أقول إن الثور الأسود يجب أن يحكم. فماذا تقولون؟». التفت الأشخاص الذين كانوا منذ دقيقة يستحسنون ماركس وقالوا: «الثور الأسود، الثور الأسود!» واستمتع مانديلا برواية تلك القصة بعد أربعين سنة.[20]

كان احتجاج الأول من أيار (مايو) ناجحاً، بالرغم من معارضة رابطة الشباب، إذ لزم نصف العمال السود على الأقل في جوهانسبورغ منازلهم. ذلك المساء عاش مانديلا لحظة حقيقية. إذ كان يسير إلى بيته في أورلاندو بصحبة سيسولو، يرقبان مسيرة احتجاج سلمية تحت ضوء القمر، عندما لحظا وجود

بعض رجال الشرطة على مبعدة خمس مائة ياردة. بدأت الشرطة تطلق النار باتجاههم. وانطلق ضباط على صهوات الخيل داخل الحشد وأعملوا فيه هراواتهم.

لجأ مانديلا وسيسولو إلى مهاجع مخصصة للممرضات، حيث كانوا يسمعون صوت الرصاص يضرب الجدران. كانت حصيلة تلك الليلة مقتل ثمانية عشر من السود في أورلاندو وثلاث ضواح أخرى في الريف Reef.[21]

استشاط مانديلا غضباً، ويذكر فيما بعد أن «ذلك اليوم كان نقطة تحول في حياتي، إذ أدركت بالخبرة المباشرة مدى وحشية الشرطة، كما تأثرت بشكل كبير بدعم العمال الإفريقيين لنداء الأول من أيار(مايو)».[22]

بدأ مانديلا الآن يكشف عن براغماتية أساسية ستجعله معلماً في فن السياسة. فحذر في جريدة أفريكان لود ستار من أن قانون حظر الحزب الشيوعي لم يكن في الحقيقة يستهدف الحزب الشيوعي (الذي كان حزباً ليس بذي شأن كبير وليس له أتباع كثر)، وإنما كان يستهدف حزب المؤتمر الوطني الإفريقي.[23] وفي اجتماع في الكونغرس نادي بالعمل المشترك ودعمه تامبو. وسرعان ما اقترحت لجنة مشتركة «يوم حداد» بإضراب الاعتكاف في المنازل يوم 16 حزيران (يونيو)، احتجاجاً على إطلاق النار والقانون الجديد.[24] طلب سيسولو من مانديلا تجهيز مكتب صغير سريع لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في جوهانسبورغ حيث كان القادة الإفريقيون والهنود والبيض يغدون ويروحون. صار مانديلا الآن في الأوج، شخصية مهمة في احتجاج وطني رئيسي، يعمل جنباً إلى جنب مع ناشطين من أعراق أخرى.

كان يوم الحداد هبوطاً مفاجئاً، وكانت الاستجابة ضئيلة جداً في الترانسفال، وقالت الراند ديلي ميل إن الحدث كان إخفاقاً ذريعاً بنسبة 95٪.[25] يتذكر مانديلا فيما بعد أن: «الإضراب السياسي أكثر مغامرة من الإضراب الاقتصادي»[26] وانتقد بعض الزملاء الخسارة غير الضرورية في الأرواح.

ووصف الكاتب الأسود بلوك موديسان Bloke Modisane، الذي كان وقتها في رابطة الشباب، الأهوال التي ارتكبتها الشرطة في صوفيا تاون: «كانت البنادق والمدافع الرشاشة تفرقع الموت وتبصقه على أي شيء يتحرك! أي شيء أسود».

دان موديسان الاحتجاج من زاوية كونه «مغامرة سياسة أخرى.. وإذا كان المرء لا بد ميتاً فإنه يستحق التكرم عليه بتفسير».[27] مرر قمع القانون الشيوعي في المجلس النيابي بدعم من معارضة الحزب الوحدوي الناطق بالإنكليزية. لكن الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية لم يكن أبداً تلك المنظمة الحصينة التي صورتها الحكومة. وصوتت اللجنة المركزية في كيب تاون على حل الحزب، بمعارضة اثنين فقط.[28] وفي جوهانسبورغ، حيث كان الحزب أقوى من أي مكان آخر، اجتمع الأعضاء في منزل وسط المدينة مقابل عيادة يوسف دادو. ودهشوا لسماع موسى كوتان يعلن القرار الذي اتخذ في كيب تاون. قال جو سلوفو «صعق كثير منا».[29] وقال راستي بيرنشتاين «كنا واثقين بأن هذه ليست القصة الحقيقية»[30]، وانتظروا على مدى الأشهر التالية تعليمات سرية، لكنها لم تأت. فقاموا عل التدريج بتأليف جماعات صغيرة منفصلة، اتحدت مع بعضها بمنتهى الحذر. فالطريق بعيدة لا تطالها ذراع موسكو الطويلة ولا الكومينيترن. هل كان المنع نعمة خفية بالنسبة للشيوعيين؟

كتب مؤرخا الحزب جاك وراي سيمونز Jack and Ray Simons: «في ساعة حل الحزب امتزج النضال الطبقي بالنضال من أجل التحرر الوطني».[31] وبعد أربعين سنة قال بريان بانتينغ Brian Bunting: «كان للقانون فعل السحر في التقريب ما بين المؤتمر الوطني الإفريقي والشيوعيين. فحوله من هيئة بمثابة حفرة في زاوية إلى منظمة وطنية».[32] وما من شك في أن الشيوعيين اضطروا لإعادة النظر في مواقفهم من المؤتمر الوطني الإفريقي، الذين كانوا يميلون إلى اعتباره من البرجوازية الصغيرة غير المعنية. وقال راستي: إن رابطة الشباب

وهبت الحزب «فهماً للعرق والوطنية لم يكن لدى الشيوعيين في بلدان أخرى... الهدية الفريدة التي قدمها الحزب للنضال هي التعددية العرقية والنزعة الدولية».[33]

عام 1950 انتخب مانديلا، بما كان لديه من شكوك حيال الهنود والشيوعيين، رئيساً لرابطة الشباب خلفاً لبيتر مدا، الذي استقال إثر معاناته من متاعب قلبية وقرحات هضمية.[34] وبقي يرى في نقاشاته مع سيسولو أن يرفض الإفريقيون التعاون مع التجار وأصحاب (الدكاكين) الهنود، الذين يعتبرونهم مستغلين لهم. وعندما اجتمعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي في حزيران (يونيو) 1951 قال ثانية إن الإفريقيين يجب أن يمضوا بمفردهم، وذلك نقيض الأغلبية في اللجنة إلا أنه في قرارة نفسه كان يغير آراءه. وفي حزيران (يونيو) 1951 قاد سيارة فولكسفاغن بالية إلى ناتال برفقة آخرين من رابطة الشباب هما هو ماثيوز وديليزا مجي Diliza Mji وعلى الطريق نوقش التواطؤ مع الشيوعيين المحظورين. وكم دهشا عندما اخترق مانديلا ما أسماه مواقفهما الوطنية والعاطفية وطلب منهما أن ينظرا إلى المنجزات الحقيقية لشيوعيي جنوب إفريقية، الذين شعر كثير منهم بشعور السود وضحوا بكل شيء من أجل قضيتهم. وفيما بعد قال ماثيوز: «أعتقد أن ذلك الحوار قلب التوجه الكامل داخل رابطة الشباب نحو الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي».[35]

انجذب مانديلا نحو الشيوعيين لالتزامهم الشخصي وتخطيطهم العملي أكثر من انجذابه نحو أيديولوجيتهم وقال لي فيما بعد: «عندما كنت أجتمع بشيوعيين مثل إسماعيل مير وجي ان سينغ J. N. Singh في الجامعة لم يكونوا أبداً ليتحدثوا عن الأفكار وإنما عن البرامج السياسية. أنت ترتبط بالناس كما هم يرتبطون بك. لقد تأثرت بأن رجلاً مثل دادو، طبيب من أدنبرة، كان يعيش حياة بسيطة، ويرتدي قميصاً كاكياً، وحذاء ضخماً ومعطفاً من معاطف الجيش».[36]

إلا أن مانديلا كان قديراً، يفكر بشكل جدي بالنظرية السياسية، فهو لم

يكن يعتبر نفسه مثقفاً مثل تامبو، أو حتى سيسولو، ولكنه كان يقرأ بنهم وبتركيز أدهش أصدقاءه، فيؤشر على مقاطع، ويدون ملاحظات، ويجري مقارنات. وقد تفوق في شهادة الـ بي أيه (إجازة في الفنون) في مواد السياسة والإدارة الأهلية. وقرأ لكثير من الفلاسفة الغربيين ومنهم هاورلد لاسكي Harold Laski وبرتراند راسل Betrand Russel وبرنارد شو Bernard shaw، بالإضافة إلى ليبراليين جنوب إفريقيين مثل إدغار بروكس Edgar Brookes وجوليوس ليوين Julius Lewin كما قرأ مطبوعات معهد العلاقات العرقية في جوهانسبورغ التي رآها بالغة الأهمية، وبحث عن روايات عملية أكثر لنضالات التحرر، فقرأ أعمال وطنيين سود مثل نامدي أزيكيوي Namdi Azikiwe من نيجيرية، وكوام نكروما Kwamw Nkrumah من غانة، وجورج بادمور George Padmore من جامايكا، وبعد حملة المقاومة السلبية الهندية قرأ غاندي ونهرو.

وجد مانديلا أن الكتابات الماركسية تعطيه إدراكاً أوسع. ولم يمض شوطاً بعيداً مع / رأس المال/ أو / الأعمال المختارة لماركس وأنغلز/ ، لكنه تأثر بالبيان الشيوعي The Communist Manifesto وبالسير الذاتية لماركسيين جنوب إفريقيين مثل بول بانتينغ Paul Bunting وبيل أندروز Bill Andrews. وصدمه دعم الاتحاد السوفياتي لحركات التحرر في كافة أرجاء العالم، وبالمنطق الحثيث للمادية الجدلية الذي شعر أنه يكتسح الخرافات والمعتقدات الموروثة الراسخة في طفولته. مثل «منارة قوية في ليلة مظلمة، تسمح للمسافر أن يرى كل ما حوله، وأن يحدد النقاط الخطرة والطريق إلى الأمام». وأحس بغصة لاذعة إذ تخلى عن المعتقدات المسيحية التي غذت طفولته مثل قصة القديس بطرس إذ أنكر المسيح ثلاث مرات. ولكنه سيفكر فيما بعد وهو في سجنه بأن القديسين الحقيقيين في القتال ضد القسوة والحرب ليسوا بالضرورة أولئك الذي حفظوا الكتاب المقدس، أو الذين يلبسون ثياب الكهنوت.[37]

ما من شك في أن مانديلا لم يكن قديساً، ولن يكون لديه في يوم من

الأيام معتقد ديني قوي. ولكنه كان قد بدأ يظهر نفسه كسياسي أبعد نظرا من جميع معاصريه. فقد تعلم كيف يكبح غرائزه الوطنية الفجة، ليسمع نداء عقله قبل قلبه، وليوسع رؤيته للنضال، وأدرك أن المؤتمر الوطني الإفريقي بحاجة إلى حلفاء، وأن الهنود والشيوعيين هم الحلفاء الوحيدون المتاحون. فانتهز الآن فرصة الانضمام إليهم في أول حملة مقاومة رئيسة في تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي.

6

التحدي

1952

في كانون الأول (يناير) 1951 عقد حزب المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمره السنوي الخامس والثلاثين في الضاحية السوداء خارج بلومفونتين Bloemfontein معقل الأفارقة الحار الذي يغلبه النعاس. سيثبت هذا الحدث أنه نقطة انعطاف تاريخية، ولكنه لم يلق أي اهتمام من البيض أو من العالم في حينه.

بدأ المؤتمر متأخراً ساعتين عن وقت انعقاده بثلاثمائة وفد يزحفون على القاعة الحارة كالتنور. جهزت طاولة صحافة من أجل الصحافيين الخمسة الحاضرين، وكان بينهم روث فيرست من صحيفة نيوايدج Neweage اليسارية، ومحررين محليين من جريدة فريند البلومفونتية وهنري كزومالو Henry Nxumalo وأنا من مجلة درام Drum. رفض معظم الوفود أن تؤخذ صورهم. وعلى المنصة كان رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي الدكتور موروكا Moroka المحافظ اللبق، وقربه جلس شخص متنسك صغير الحجم له وجه ذاو. كان ذاك مانيلال غاندي Manilal Gandhi، ابن المهاتما Mahatma الذي يعيش في مستوطنة أبيه القديمة في ناتال وكان يعتبر نفسه راعياً للروح النقية للمقاومة السلبية.

بدا كل من موروكا وغاندي بعيدين جداً عن مهيجي رابطة الشباب، وبينهم نلسون مانديلا المتكبر في عامه الثالث والثلاثين.

بدا اجتماع الأيام الثلاثة طويل النَفَس وقليل الأهمية، ثم في اليوم الأخير قدم الأمين العام وولتر سيسولو تقريره حول برنامج مشترك من المقاومة السلبية أو «العصيان المدني». الذي يهدف إلى التحدي المتعمد للقوانين العنصرية للحكومة الوطنية والتحريض على السجن. كانت الخطة مبنية تقريباً على الحملة الهندية في دوربان عام 1946 . سيطلب المؤتمر الوطني الإفريقي من الحكومة إلغاء «ستة قوانين جائرة»، وهي تلك التي تفرض جوازات المرور، وتحدد رأس المال، وقانون مناطق المجموعة Group Areas Act، وقانون سلطات البانتو Bantu Authorities act، وفي حال رفضت الحكومة فإنهم سيمضون في «حملة التحدي». [1]

دعم الدكتور موروكا الخطة بخطاب مفوه بشكل لافت، ضاعفه المفسرون، يؤكد أن المؤتمر الوطني الإفريقي مستعد للعمل مع الأوروبيين والهنود والملونين شريطة الموافقة على شروط متكافئة.[2]

كان مانديلا قد ألزم نفسه نهائياً هنا بالتعاون مع البراغماتية الراسخة. فقد بدأ في المؤتمر بالإلحاح ثانية على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يمضي بمفرده، دون الهنود، إلا أنه سرعان ما أحس أن الأغلبية تفضل التعاون، وفي حديثه كرئيس لرابطة الشباب التف التفافة كاملة بقناعة ظاهرية، كما لو أنه لم يكن يعتقد عكس ذلك أبداً. [3]. ونادى بجبهة لا أوروبية ضد الفاشية التي قال إنها تهرب إلى جنوب إفريقية من وراء ستار الخوف من الشيوعية. يجب أن يكون الإفريقيون رأس حربة النضال المنظم، لكن الهنود والملونين حلفاؤهم المعتمدون.[4]

تجلى التأثير الهندي في فكرة المقاومة السلبية، لكن كان هناك كثير من النقاش حول طبيعتها. احتج مانيلال غاندي أن قادة المؤتمر لا يتحلون «بروح التضحية الحقيقية»، وأكد أن المقاومة السلبية مسألة صفاء خلقي أكثر مما هي

سلاح سياسي.[5] وشاركه قلقه هنود جنوب إفريقيون أكبر سناً تأثروا بالماهاتما. وكان السياسي القديم الورع نانا سيتا Nana Sita، الذي ساعد في تنظيم حملة دوربان عام 1946، قد التقى غاندي إذ كان طفلاً في بريتورية. وكان يوسف كاتشاليا وشقيقه مولفي Maulvi قد انجذبا إلى طرائق غاندي عندما كانا يعيشان في الهند. لكن معظم القادة الشوعيين كانوا يأخذون على المهاتما قلة اهتمامه بالقضية الإفريقية عندما كان في جنوب إفريقية.. كتب جو سلوفو: إن غاندي لم يظهر ما يدل على أنه «استوعب الدرس الأزلي بأن الحرية لا تجزأ».[6] ورأى الشيوعيون في المقاومة السلبية محض وسيلة لتعبئة الجماهير أكثر مما هي - قوة روحية -[7] ورأى بعض أعضاء رابطة الشباب أن الحملة برمتها يعوزها العنف. وقال بيتر مدا فيما بعد إن حملة التحدي كانت ضد الثورية. بمعنى أنها كانت مقاومة سلبية: «أي لا يمكنك أن ترد الضربة».[8]

كان مانديلا أكثر براغماتية. كان حتماً دون غاندي زهداً. وقد قالت صديقته فاطمة مير: «قال بعض الهنود إنه مثل غاندي». فقلت لهم: «غاندي خلع عنه ثيابه. أما نيلسون فيهوى ثيابه».[9] أعجب مانديلا بغاندي «كواحد من رواد حركة التحرير الجنوب إفريقية»، وصدم صدمة عميقة عند اغتياله في شباط (فبراير) 1948. إلا أنه لم يكن يشاطره الرأي حول الجانب النقائي من الصراع. وقال فيما بعد: «لم أكن أعتبر اللاعنف على طريقة غاندي مبدأ ثابتاً وإنما هو تكيتك يستخدم حسب مقتضى الحال».[10]

كانت الآمال التي علقها على حملة التحدي كبيرة حتماً، فقد كان يعتقد أنها ستكون ناجعة لدرجة أن تضع المؤتمر الوطني الإفريقي في موقع يجعل الحكومة تذعن أو تلقى خارجاً من قبل الناخبين.[11] لكنه أيضاً، مثل الشيوعيين، كان يرى في التحرك سبيلاً إلى تثقيف الجماهير، وبداية لمواجهة أكثر ضراوة. وقال جو سلوفو: إنه لم تكن لديه أية أوهام حول قلب الطبقة الحاكمة دون نضال ثوري قاس.[12]

مضت المخططات قدماً بسرعة في كانون الثاني(يناير) 1952، بدفق من النشاط مختلف تماماً عن أسلوب المؤتمر الوطني الإفريقي المتمهل عادة، انضم مانديلا إلى لجنة من أربعة أشخاص، مع زد. كي. ماثيوز، إسماعيل مير، وجي. إن. سينغ، وضعت مسودة رسالة إلى رئيس الوزراء الدكتور مالان، تطالب بإلغاء القوانين الستة الجائرة.[13] ذهب مانديلا بالوثيقة إلى الدكتور موروكا في أورانج فري ستيت كي يوقعها. وعندما استلم سكرتير رئيس الوزراء الرسالة أجاب بأن الخلافات بين الأعراق «دائمة وليست من صنع الإنسان»، وأن القوانين الجديدة لا تنم عن قمع أو إذلال، إنما هي للحماية.[14] كرر موروكا وسيسولو مطالبهما وتعهدا «بمتابعة الحملة بطريقة سلمية».[15]

سرعان ما أصبح مانديلا يبدو قائداً قادماً لشعبه. ففي 31 أيار(مايو) 1952 اجتمع المكتب التنفيذي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في بورت إليزابيث Port Elizabeth وأعلن أن الحملة ستبدأ يوم 26 حزيران (يونيو). وأقيم حفل لوداع البروفيسور ماثيوز، الذي كان بصدد المغادرة إلى أمريكة لمدة عام، ويذكر جو بن ماثيوز قول مانديلا إنه هو(مانديلا) سيكون أول رئيس أسود لجنوب إفريقية.[16] كان يضع نفسه بوضوح في الصف الأول في منظمة المؤتمر الوطني الإفريقي، عارضاً خدماته كرئيس متطوع للحملة، مسؤول عن تنسيب الوطنيين مما سيركز الأنظار حوله، في دور شبه عسكري، في طول البلاد وعرضها وفي /يوم المتطوعين/ قبل أربعة أيام من بدء الحملة، انطلق مانديلا إلى دوربان ليكون المتحدث الرئيسي أمام جمهور قوامه 101.000 شخص، وكان ذلك أكبر جمهور خاطبه. لم يكن خطاباً شعبياً، فهو لم يملك يوماً ناصية الخطابة العاطفية التي يجيدها بعض معاصريه مثل روبرت سوبوكوي Robert Sobukwe أو غور راديبي – إلا أنه وجد العملية منعشة وتثير البهجة وقوبل بالتصفيق الحاد. قال لمستمعيه إنهم يصنعون التاريخ، وهذا سيكون أقوى عمل تقوم به الجماهير المضطهدة، والآن إذ وحدت الأعراق جهودها «نستطيع

القول إن الوحدة بين الشعب غير الأوروبي في هذا البلد قد أصبحت حقيقة ملموسة». [17]

عندما شنت حملة التحدي يوم 26 حزيران (يونيو) انطلق مانديلا إلى بوكسبورغ Boksburg، وهي بلدة مناجم قرب جوهانسبورغ، بصحبة يوسف كاتشاليا وولتر سيسولو، بعد أن أخره حوار مع القاضي الأبيض المحلي الذي كان يعرفه. حدثه الرجل بلباقة، شك مانديلا بأنها «تعود إلى حقيقة أننا نتحرك من موقع قوة». [18] وفي بوكسبورغ احتشد اثنان وخمسون متطوعاً أمام البوابات الكبيرة للضاحية الإفريقية، ثم دخلوا الضاحية دون الإذن المطلوب للدخول، بقيادة نانا سيتا بردائه الغاندي الأبيض، محاطاً بمئات من الأنصار كانوا يربطون أذرعهم بألوان المؤتمر الوطني الإفريقي الأسود، رمز الشعب. والأخضر، رمز الأرض. والأصفر، رمز ذهب البلاد، ويشخصون بالإبهام تحية الكونغرس، وينشدون بأمل أغنية «افتح الباب يا مالان، فنحن بالباب».

تفرج مانديلا بهدوء، من بعيد، ولكن كان في أسلوبه ما يرمز إلى علاقته بالنضال: المتفرد الفخور الذي كان في الوقت نفسه ملتزماً تماماً. قام رجال الشرطة، الذين كانوا في الانتظار باعتقال المتطوعين، وحملوهم في كومة واحدة على متن حاملة جنود وذهبوا بهم إلى الزنزانات.

سرعان ما سيذوق مانديلا طعم السجن بنفسه لأول مرة. ففي تلك الليلة عقد المؤتمر الوطني الإفريقي اجتماعاً في قاعة غارمنت للعمال Garment Worker's Hall في جوهانسبورغ وفرض منع التجول في الحادية عشرة ليلاً، وعندما خرج جمهور من الإفريقيين في مسيرة إلى الشارع كانت الشرطة بانتظارهم، يقفون متكاتفين يحدقون من تحت خوذهم بالسود الناحلين ويستعدون لشحنهم في شاحنات الشرطة. كان مانديلا وكاتشاليا هناك بصفة مراقبين إلا أن الشرطة أصرت على اعتقالهما أيضاً، وهكذا أمضى مانديلا ليلتين في السجن في ساحة مارشال Marhal square محشوراً مع زملائه المحتجين.

أثارت ظروف الاحتجاز ذعره، ولن ينسى أبداً كيف دُفع أحد السجناء أسفل الدرج وانكسر كاحله، وأمضى الليل يصيح من شدة الألم.[19]

كما سرعان ما أدرك أن اثنين من رفاق السجن كانا مخبرين وضعتهما الشرطة بينهم.

حدد اليوم الأول طبيعة حملة التحدي، ففي خمسة الأشهر التالية أودع 8000 شخص السجن في جميع أرجاء البلاد لمدة أسبوع إلى ثلاثة أسابيع لسيرهم داخل الضواحي أو مداخل السكك الحديدية أو العربات المخصصة للبيض، أو لخروجهم أثناء منع التجول، متوخين السلم دائماً. كان التنظيم إنجاز مانديلا: فقبل وأثناء الحملة سافر عبر الترانسفال وناتال والكيب، يجمع الأنصار ويشرح أحياناً من بيت إلى بيت، دون أن يلقى تغطية إخبارية تذكر من الإذاعة أو الصحف التي يملكها البيض. وتعلم بشكل مباشر صعوبة ترويض الناشطين المحليين المندفعين بما ينسجم مع النظام المركزي. وأدرك أن «لا فائدة من اتخاذ أية خطة تعارضها الجماهير لأن فرضها يصبح مستحيلاً».[20] واللافت أن أكبر نجاح حققته الحملة لم يكن في منطقة جوهانسبورغ حيث كان الشيوعيون الأقوى وإنما في الكيب الشرقية، التي جاءت بنصف المتطوعين. فأوضاع المعامل في بورت إليزابيث فجرت موجة من الاستياء.[21]

لقد بدا مانديلا كتلة تفاؤل، كما أظهر في مقال نشرته مجلة درام في عدد آب (أغسطس) 1952:

> «بالرغم من أننا نحتاج سنوات من العمل، لكننا مستعدون لمتابعة الحملة إلى أن تلغى القوانين الستة الجائرة التي اختيرت للمرحلة الحالية. ولن نتوقف حتى إذا حصل ذلك. فإن النضال من أجل الحرية والاستقلال الوطني للشعب غير الأوروبي سيستمر إلى أن يرى مجلس التخطيط الوطني ذلك مناسباً».[22]

أعطت الحملة السود إحساساً جديداً بالثقة بقوتهم الذاتية. كما كانت

تحقق نجاحاً ـ كما نوه مانديلا ـ في مسح وصمة العار التي تلحق بمن أمضى في السجن حكماً. وكتب فيما بعد: «بعد حملة التحدي أصبح السجن وسام شرف بين الإفريقيين» ولكن الحكومة إذ أخذت على حين غرة، سرعان ما بدأت تستعد للانتقام، بدعم من المعارضة البيضاء الرئيسية. أرسل الحزب الموحد United Party، الذي يمثل معظم الناخبين الناطقين بالإنكليزية، اثنين من أعضاء المجلس النيابي يطلبان من المؤتمر الوطني الإفريقي التخلي عن الحملة ودعمهم في الانتخابات القادمة.[23] فطلب المؤتمر الوطني الإفريقي منهما طي قوانين العبور إذا عاد حزبهم إلى السلطة، وعندما رفضا ذلك انهارت المحادثات.[24] وقام اثنان من القادة الليبراليين، هما السيناتور ويليام بالينجر William Ballinger وجي. دي. رينالت جونز J. D. Rheinallt Jones بتحذير مانديلا وغيره من أن حملة التحدي ستطيح بالدعم الأبيض، كما اشتكى المعهد الليبرالي للعلاقات العرقية؛ ويذكر مانديلا أنهم: «جاءوا إلينا وقالوا: أيها السادة إننا لا نعتقد أن هذه هي الطريقة المثلى للتعبير عن آلامكم. نرجوكم أن ترجعوا عنها، وعندما رفضنا هاجمونا». ولكن مانديلا دهش بعض الشيء للصحافة الليبرالية البيضاء. فنوه أن الراند ديلي ميل أعطت الحملة دعاية بقدر ما أعطتها مجلة نيو إيدج NewAge (العصر الجديد) الأسبوعية اليسارية (الغارديان سابقاً).[25] أعطت حملة التحدي الحكومة ذريعة لفرض قوانين أكثر شدة. وكانت أقل تهيباً من البريطانيين عندما واجهتهم معارضة غاندي السلبية في الهند.

أُخذ مانديلا ورفاقه على حين غرة. وقد حذر أحد السياسيين السود الشباب. وهو نابوث موكغاتيل Naboth Mokgatle اجتماعاً لرابطة الشباب، وضمنهم مانديلا، من أن تصرفاتهم «تشبه إلقاء أشياء في آلة، ثم السماح للمالك بأن يفككها وينظفها ويسنها ويعيد تركيبها ثانية قبل إلقاء شيء آخر فيها. إلا أن نصيحتي كانت عبثاً».[26]

في تموز (يوليو) أغارت الشرطة على منازل ومكاتب القادة الإفريقيين والهنود، وجمعت أكواماً من الوثائق. كانوا ما زالوا هواة نسبياً، وأميل إلى اللطف: فعندما فتشوا مكاتب الكونغرس الهندي في الترانسفال، قدمت لهم أمينة كاتشاليا زوجة يوسف الشاي والشطائر ووجهت اهتمامهم نحو وثائق غير مهمة فيما كان أحمد كاثرادا يزيل الدليل القاطع من رفوف أخرى.[27] وسيتذكر مانديلا بود حديث الشرطة معه باللغة الكزوسية أثناء تناول الشاي. لكن الغارات كانت مقدمة لخطوات أكثر خطورة. فقد تسلم مانديلا يوم 30 تموز (يوليو) مذكرة لتوقيفه بتهمة مخالفة قانون حظر الشيوعية، كما أعتقل عشرون آخرون من قادة حملة التحدي في كافة أرجاء البلاد.[28]

أخلي سبيل القادة الواحد والعشرين بكفالة، وقدموا للمحاكمة في أيلول (سبتمبر) في المحكمة العليا في جوهانسبورغ، أمام القاضي فرانز رامبف Franz Rumpff. تجمع حشد متعدد الأعراق في قاعة المحكمة. لكن تضامن المتهمين أضعف بشكل ملفت من قبل الدكتور موروكا، الذي ذعر من التهم الموجهة إليه واستأجر محامياً منفصلاً (خاصاً) ليطالب ببراءته. حاول مانديلا أن يقنعه بتغيير رأيه قبل أن تبدأ المحاكمة بيوم واحد، لكن موروكا تذمر من أنه لم يستشر حول الارتباط بالشيوعيين، برغم عدم احتجاجه على ذلك في الماضي. وعندما مثل أمام القاضي رامبف قال إنه لا يؤمن بالمساواة بين الأسود والأبيض ثم بدأ يشير إلى الشيوعيين بين المتهمين الآخرين، ومن ضمنهم سيسولو ودادو، إلى أن أوقفه القاضي.[29]

رأى مانديلا في انشقاق موروكا «ضربة قاصمة يصعب نسيانها» لقد ارتكب الخطيئة التي لا تغتفر؛ بأن قدم مصالحه الخاصة على مصلحة المنظمة والشعب، إلا أنه كان يعرف أيضاً شجاعة موروكا السابقة وأنه، كرجل غني، لديه الكثير ليخسره، أكثر مما لدى القائمين على الحملة، الأكثر فقراً، كما كان لديه كثير من الأصدقاء الأفارقة. سامحه مانديلا فيما بعد، كما سامح كثيرين

ممن خانوه. وكتب بشكل دافئ عن موروكا في السيرة الذاتية التي كتبت في السجن، وطلب منه فيما بعد أن يكون عراباً لابنته الأولى زيني Zeni.[30] لكن الآخرين كانوا أقل تسامحاً.

أُعجب مانديلا برجاحة عقل القاضي رامبف، وكما هو متوقع فقد وجد القادة مذنبين، لكن الحكم، بالسجن تسعة أشهر مع الأشغال الشاقة علق لسنتين، كان مخففاً نسبياً. وأكد أنهم مذنبون «بالشيوعية المثالية» التي قال إنها: «مختلفة تماماً عن الشيوعية المعروفة».[31]

كان تعريف الحكومة للشيوعية معكوساً تماماً إلا أنه ساعد في الحصول على دعم غير الشيوعيين في أماكن أخرى، خاصة في أمريكة، حيث كانت الحرب الباردة تكتسب حرارة.

وعام 1952 ألقى مانديلا لمحة خاطفة على حماسة مقاتلي الحرب البادرة عندما اجتمع بالدكتور ماكس ييرغان Dr. Max Yerygan الشخصية السياسية الأمريكية السوداء الذي زار جنوب إفريقية في حمأة حملة التحدي. كان ييرغان قد أمضى في السابق العديد من السنوات في الكيب الشرقية، حيث أدخل عدداً من الشباب السود، ومنهم غوفان مبيكي Govan Mbeki في الشيوعية.[32] ولكن لدى عودته إلى أمريكة أصبح معادياً شرساً للشيوعية! كما يكشف الآن. وقد تحدث في جوهانسبورغ في اجتماع للمركز الاجتماعي لرجال بانتو، حضره سياسيون ومثقفون سود من ضمنهم مانديلا، وختم ييرغان حديثه ـ فيما يذكر مانديلا فيما بعد ـ «بهجوم مركز على الشيوعية، قوبل بحماسة عارمة من ذلك الجمهور النخبي». لكن عندها قام بارني نغاكاني، Barney Ngakane، صديق مانديلا وجاره في أورولاندو بصد الهجوم منوهاً بصمت ييرغان المدوي حول حملة التحدي وحول النفوذ الخبيث (المستشري) للمصالح التجارية الأمريكية، وقال مانديلا إنه «تحدى المتحدث الضيف للحديث عن اتحادات

المنتجين والودائع والشركات المتعددة الجنسيات في أمريكة التي تسبب كل هذه التعاسة والشقاء في كافة أرجاء العالم، وأحبط محاولة ييرغان لجرنا إلى الحرب الباردة» . [33]

عند اعتقال مانديلا وسواه من القادة في أواخر تموز (يوليو)، كانت الحكومة مصممة على إخماد حملة التحدي التي وصلت إلى مرحلة اعتقد مانديلا أنها «لا بد أن تقمع من قبل الحكومة أو أن تفرض سياستها على البلاد». [34] كان سلاح الحكومة الرئيسي هو منع قادة الحملة من تبوء مناصب في المؤتمر الوطني الإفريقي أو حضور اجتماعات. وفي أيار (مايو) منع الشيوعي جي. بي. ماركس أن يكون رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال، فأوصى أن يخلفه مانديلا. كان مانديلا يلقى معارضة من (ديماغوجي) وطني اسمه سيبربير مارويبنغ Seprepere Marupeng، قائد جماعة مناهضة تدعى بافابجيا Bafabegiya (أولئك الذين ماتوا وهم يرفضون) فوجئ مانديلا بما له من سمعة كزير نساء! عندما سألت إحدى المناهضات، وكانت شابة جميلة: «كيف يمكنني أن أنتقد مانديلا وقد نسي قبعته في منزلي» [35]! إلا أنه انتخب في كانون الأول (ديسمبر)، بإجماع كبير ليشغل المنصب القيادي. كان نصره قصير الأمد. ففي كانون الأول(ديسمبر) منع، هو وواحد وخمسون من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، من حضور أي اجتماع، أو من التحدث إلى أكثر من شخص واحد على حدة، لمدة ستة أشهر، ومنع من مغادرة جوهانسبورغ بلا إذن. أصبح موقعه المعلن في التركيبة الهرمية للمؤتمر الوطني الإفريقي غير قانوني، إلا أن مركزه رسخ كقائد فرد ورجل تصرف.

كانت حملة التحدي قد بدأت تتلاشى الآن. وفي تشرين الأول (أكتوبر) تلقت نكسة أخرى عندما أدى اندلاع التظاهرات في بورت اليزابيث وإيست لندن (ثم بعد ذلك في كيمبرلي) إلى وفاة العديد من الأبرياء، بينهم راهبة، وسارع المؤتمر الوطني الإفريقي لتقديم التعازي لعلائلات البيض والسود على

حد سواء، الذين عانوا من هذه «العودة السيئة الطالع والمتهورة والقصيرة النظر لقانون الغاب»، واتهم الحكومة بتعمد إرسال محرضين عملاء (الأمر الذي لا يمكن إثباته). لكن أعمال الشغب أساءت لصورة المحتجين غير العنيفة، وأعطت الحكومة مسوغاً جديداً للحظر.[36]

بحلول كانون الأول (ديسمبر) كان قانون السلامة العامة وقانون تعديل القوانين الجنائية قد نصا على عقوبات أشد لأجل الخرق المتعمد للقانون، مع التلويح بعقوبة تصل إلى ثلاث سنوات في السجن مع الجلد. ومرة ثانية أخذ المؤتمر الوطني الإفريقي على حين غرة. واعترف مانديلا فيما بعد[37] «لم نكن أبداً لنتصور عقوبات قاسية كهذه، وأصبح انحسار مد التحدي أمراً لا مناص منه» كما قال في العام التالي: «وأجبرنا على التريث والاستعداد للوضع الجديد».[38]

لفترة قصيرة بدا الأمر كأن الحملة تستقطب دعماً أوسع. وفي أوائل كانون الأول (ديسمبر) دخل الأتون ضابط شاب برتبة كولونيل سابق، هو باتريك دانكان Patrick Dancan ابن حاكم عام سابق لجنوب إفريقية. كان دانكان مثالياً شجاعاً، بحماسة صبيانية للبطل جون بوتشان John Buchan، وكان معادياً شرساً للشيوعية، إلا أنه كان معجباً بغاندي. أقنعه مانديلا ويوسف كاتشاليا بالانضمام إلى الحملة ليشق الطريق لبيض آخرين. قال كاتشاليا «أتى مصادفة، عطاء من السماء، فحال دون أن تصبح الحملة عرقية».[39]

دخل دانكان بصحبة مانيلال غاندي ـ الذي أقنعه بالانضمام إليه ـ وبضعة أشخاص بيض أخرين ناحية جيرميستون Germistan قرب جوهانسبورغ دون أذونات، وأوقفوا جميعاً. مع بريق الدعاية التي تلت ذلك تحمس كثير من السود لشجاعة دانكان، وعندما أودع السجن أتى كل من مانديلا وكاتشاليا ودادو ليتمنوا له حظاً طيباً. لكن لم ينضم بيض آخرون إلى دانكان، كما أملوا، وأثبت أنه حليف مربك. وقال في قاعة المحكمة إنه غير مذنب، ثم فشل في دفع الاتهام عن نفسه، لكنه لم ينفذ فترة الأسابيع الستة التي حكم بها كاملة. وبعد

إخلاء سبيله أصبح قلقاً حيال النفوذ الشيوعي داخل المؤتمر الوطني الإفريقي. وانضم فيما بعد إلى الحزب الليبرالي الجديد، ثم إلى الكونغرس الإفريقي العام، الذي أصبح المنافس الأكثر خطورة للمؤتمر الوطني الإفريقي.[40] إلا أن مانديلا سيذكر دائماً شجاعته باحترام.

بحلول نهاية 1952 كانت حملة التحدي قد انتهت. بعد أن كانت أعجوبة دامت ستة أشهر. ومازال السياسيون والمؤرخون في خلاف حول نجاحها أو فشلها. أقر مانديلا بأنها لم تنتشر كثيراً وراء المدن والقرى الكبيرة، ما عدا في الكيب الشرقي.[41] إلا أنه ادعى أنها كانت نجاحاً خارقاً، فقد زاد الإقبال على عضوية حزب المؤتمر الوطني الإفريقي من 4000 إلى 16000 في الترانسفال، فيما وصل في الكيب إلى 100000.[42]

وقد أظهر المؤتمر الوطني الإفريقي مقدرة في التنظيم الوطني، قليل من المراقبين من شك فيها، ويعود جل الفضل في هذه المقدرة لمانديلا. مما أعطاه ذخراً معنوياً وحرره، وقد كتب فيما بعد: «ربما كنت أشعر ببعض الشك يسكنني أو الشعور بالنقص.. لكنني كنت أستطيع السير منتصب القامة، أحدق نظري في الجميع بكبرياء وكرامة أستمدها من أني لم أنحن للاضطهاد والخوف».[43]

كما غيرت حملة التحدي شخصية المؤتمر الوطني الإفريقي أيما تغيير، فأبعدت القادة المحافظين والأكثر اعتدالاً مثل الدكتور موروكا الذي طرد. وبحث «صناع الملوك» الشباب. ومنهم مانديلا، عن رئيس أكثر صموداً، ووجدوه في شخصية ألبرت لوثولي Albert Luthuli، وهو من زعماء الزولو في الثالثة والخمسين من العمر، كان لوثولي شخصاً ضخماً يتحدث ببطء ويبتسم بكثرة. وهو أستاذ سابق وخطيب ميثودي في مركز البعثة في غروتفيل Groutville في ناتال، بدا محافظاً تماماً. إلا أنه تقدم، كما قال «على خط اللين إلى الصلابة».[44] اصبح لوثولي رئيسا للمؤتمر الوطني الإفريقي في ناتال عام

1951، ودعم حملة التحدي بالرغم من ضغط الحكومة، التي طردته من موقع الزعامة (القبلية) فرد بتصريح مسيحي مؤثر سماه «الطريق إلى الحرية يمر عبر الصليب».[45]

كان لوثولي يكن احتراماً بالغاً لغاندي، ويعجب باعتدال حزب العمل البريطاني، لكنه لم يكن يخشى العمل مع الشيوعيين. إذ قال لي لدى انتخابه رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1952 «إن الوطنية المتطرفة أشد خطراً من الشيوعية، وهي خطر حقيقي».[46]

وخلال السنين الخمس عشرة التالية ـ وهي أطول فترة رئاسة في تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي ـ كثيراً ما كان يمنع ويلزم بالبقاء في منزله في ناتال وكان أحياناً يعتبر مجرد رئيس صوري لكن مانديلا كان دائماً يعتبره قائده، وبطلاً في النضال.

أتت حملة التحدي وذهبت دون أثر عميق في مواقف الجنوب إفريقيين البيض أو في الرأي العام الخارجي، ما عدا بعض المحتجين اليساريين. وراقب الدبلوماسيون البريطانيون في بريتورية الأحداث بشيء من الشك، وصوروا الإفريقيين كمخالب للهنود والشيوعيين. حيث جاء في برقية أرسلت إلى لندن في أيار (مايو) 1952 أن السكان المحليين ليس لديهم سوى «تنظيم سياسي بدائي بلا قادة فاعلين». كان خوف الدبلوماسيين الأساسي هو اندلاع «حرب أهلية بين العرقين الأبيضين»، قد تدخل فيهما العناصر الأهلية[47] وانزعج المندوب السامي السير جون لو روجتيل SirJohn Rouetel، من «حدة وبذاءة» الانتقاد الأمريكي، لحكومة الابارثيد، ومن قرار اتخذه حزب العمل، الذي كان في المعارضة إذ ذاك، بإدانتها. وأصر أن على البريطانيين أن «يتركوا الجنوب إفريقيين يخوضون معاركهم»، وبخاصة وأن الحزب المتحد الأكثر ليبرالية كان «يشد عوده». قبل السير جون آراء رئيس الفرع الخاص في جنوب إفريقية الكولونيل دو بلوي Colonel du plooy، بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يموله

الكونغرس الهندي وأن «قيادته برمتها من القادة الشيوعيين» وأرسل هذه «المعلومة الاستخباراتية» في برقية رديئة المعلومات بشكل ملحوظ إلى لندن في تشرين الثاني (نوفمبر). وألقى باللائمة جزئياً في الاضطرابات التي شهدتها بورت إليزابيث على الشيوعيين الهنود الذين كانوا بحاجة إلى حدث استعراضي ينعش اهتمام الأمم المتحدة بجنوب إفريقية.(48)

ونستون تشرشل، الذي عاد مؤخراً إلى السلطة في بريطانية رئيساً للوزراء من المحافظين، كانت له وجهة نظره الواثقة الخاصة، التي عبر عنها يوم 16 تشرين الأول (أكتوبر). وهي أن «لا شيء يمكنه أن يعين الدكتور مالان في انتخاباته الوشيكة أكثر من الهنود والكافيريين Kaffirs الذين يشقون طريقهم عنوة إلى الحجرات وغرف الانتظار المخصصة للبيض. وستعارض الأغلبية العظمى من السكان البيض في جنوب إفريقية هذا التدخل. وهكذا فإن ما يفعله المتآمرون الشيوعيون والهنود هو في الحقيقة مساعدة مالان. وسيكونون على درجة عالية من الغباء إذا لم يدركوا هذا الأمر».(49)

قلة من الدبلوماسيين الغربيين كانوا أكثر تبصراً. فقد أخبر المندوب السامي الكندي ماك ديرموت T. W. L. Mac Dermot أوتوا في شباط (فبراير) 1953 أن «المؤتمر الوطني الإفريقي أكبر بكثير من حزب سياسي. إنه يمثل الأغلبية العظمى للإفريقيين الأقحاح في الاتحاد، إنه بمثابة مجلس نيابي يمثل أمة. أمة بلا دولة ربما. ولكن الإفريقيين يزداد تفكيرهم بأنهم أمة يوماً بعد يوم».(50)

7

محام وثوري

1952 ـ 1954

في الظاهر كان نيلسون مانديلا وهو في أوائل عقد الثلاثين من عمره يعيش حياة أسرية مستقرة في بيت من بيوت علب الكبريت في أورلاندو. وكانت زوجه إيفيلين تدير المسكن بالتزام أعجب كثيراً من أصدقائه. حيث كتب فيليس نتانتالا فيما بعد: «لولا تشجيع إيفيلين وتأكيدها أنها ستكون دائماً موجودة لتبقى النار متقدة في المسكن، لما استطاع مانديلا النجاح».[1] كانت دائماً وراء الستار تطبخ وتعنى بالمنزل النظيف وتبقي على نمط الحياة البسيط. وعندما قام كانون جون كولينز canon John Collins نصير مانديلا الإنكليزي بزيارته عام 1954 أحضر له مانديلا حوضاً من الماء ليغسل يديه ودله على دورة المياه خارج المنزل وهي عبارة عن سقيفة متداعية تحتوي على دلو. صدم كولينز لأن إيفيلين لم تشاركهما وجبة الغداء![2]

إلا أنه لم يكن بيتاً سعيداً، وكان أقل استقراراً من منزلي سيسولو وتامبو. فقد كانت إيفيلن غير راضية عن عمل مانديلا السياسي. وأدرك أن دينها «لا يدعم النشاط السياسي».[3] وقالت إنها عندما تزوجته اعتقدت أنه طالب وليس بسياسي. وبالرغم من أنها أحياناً ترتدي زي المؤتمر الوطني الإفريقي الموحد، إلا أنها قالت: «كنت أحاول أن أرضيه فحسب»[4]، وكانت تتعمق في الدين بقدر تعمق زوجها في السياسية. كانت من شهود يهوه الملتزمين. تمضي معظم وقتها في قراءة الإنجيل. وقد قال صديقهما الكاتب إيزكيا مفاهيليل Es'kia

Mphahelel إن تدين إيفيلين كان هرباً من الضغط السياسي، وشعر بأن آل مانديلا زوجين غير متوافقين «ليس لزواجهما أن يفلح»[5]، وما من شك في أن التوتر كان ينعكس على جو البيت، وأول من شعر به كان ليبي أخت مانديلا الصغرى، التي كانت تلزم البيت أحياناً وتعتبر أخاها أباً لها. وتذكر أن إيفيلين «لم تكن تحب حديث السياسة». ولم تكن ليبي تفهم لماذا يختبئ الناس دائماً، أو يخرجون ليعودوا في الصباح الباكر: «كنت أشعر بالمرارة لفقدان السعادة»[6].

خارج المنزل كان مانديلا يشد في اتجاهات مختلفة، لكل منها صفة مناقضة. فهو من جهة كان يتدرب كمحام، معني كل يوم بالآلة القانونية المنظمة للدولة. ومن جهة أخرى كان عالقاً في السياسات الثورية، وكان قد بدأ يرى العنف نتاجاً صحياً للمجابهة. وثبت أن احترامه للقانون كان مفتاح بقائه، إلا أنه كان مر الطعم. قال جورج بيزوس George Bizos صديق مانديلا المحامي الأبيض: «لم يكن يفكر أبداً في أنه سيمضي مواجهاً اتهامات بجرائم كبيرة وأخرى سواها، أطول مما يمضيه في تمثيل الآخرين»[7].

تقدمت مهنة مانديلا القانونية فيما كان يقوم بكل نشاطاته السياسية. وبعد أن ترك ويتكين وسايدلسكاي وايديلمان witkin, sidelsky & Eidelman، عمل مع ثلاث شركات بيضاء: أولاً مع تير بلانش ويريفيش Ter blanche & Briggish، ثم لدى هيلمان ومايكل Helman & Michel، ثم لدى هـ.م.باسنر H. M. Basner وهو سيناتور سابق يساري أصبح في إمرته محامياً كامل المواصفات. وعام 1952 أسس أول شركة محاماة إفريقية في البلاد مع أوليفر تامبو رفيق رابطة الشباب الذي عرفه مذ كانا طالبين زميلين في فورت هير.

ستثبت الأيام أن هذه الشركة تاريخية، تثير الدهشة أكثر من علاقة مانديلا السياسية مع سيسولو. كان تامبو أيضاً من منطقة الترانسكي الريفية، وله وشوم قبلية على خديه. وكان والده، كوالد مانديلا، مزواجاً، ومثل مانديلا طرد هو

أيضاً من فورت هير. في الأشياء الأخرى كان نقيض مانديلا؛ فقد كان هادئاً ورجل علم ودين، من أسرة فلاحية لم تكن تتوقع الخدمة من الآخرين. لكن تامبو كان يتمتع بذهن متفتح أثار إعجاب أساتذته ورفاقه الطلاب. أتى تامبو إلى جوهانسبورغ مدرساً للرياضيات في مدرسة سانت بيتر، حيث سيس كثيراً من الفتيان، إلى أن أقنعه ولتر سيسولو بأن يصبح محامياً. كان مانديلا يحترم في تامبو نضجه وذهنه المتقد، وكثيراً ما كان يستمع إلى نصحه.

افتتحت شركة مانديلا وتامبو في آب (أغسطس) 1952 في بناء قديم ملفت للنظر اسمه بيت المستشار Chancellor House، مقابل محاكم القضاة في قلب جوهانسبورغ ولا يبعد سوى مسافة بسيطة عن الحصن الكبير للشركة الأنغلو أمريكية، مركز الرأسمالية في جنوب إفريقية، كتبت كلمتا مانديلا وتامبو بأحرف كبيرة على النوافذ، مما أثار حفيظة المحامين البيض المحافظين. وكانت المكاتب في البناء نفسه حيث قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي التي يديرها سيسولو، وكان ذلك البناء جزءاً من معقل منشقين في أبنية يملكها هنود بينها مطعم كابيتان Kapetan وبيت كولفاد Kholvad House مكان تجمع الهنود الراديكاليين. وسرعان ما أصبح شاغلو منزل المستشار السود تحت تهديد قانون مناطق المجموعات The Group Areas Act الذي يخص مراكز مدن جنوب إفريقية بالبيض فقط. إلا أن مانديلا وتامبو بقيا هناك خلافاً للأنظمة حتى عام 1961، عندما أصبحا تحت المراقبة الدائمة.[8]

أصبحت الشركة مكتب المحاماة الرسمي للمؤتمر الوطني الإفريقي، وكثر الطلب عليها لتمثل عملاء سوداً آخرين ينوؤون بالشكاوى والمطالب. يقول جو موغوتسي Joe Mogotsi الذي كان يغني مع الأخوة مانهاتان «كنا نعتمد على مانديلا وتامبو إذا اعتقلنا لأداء حفلة في المدينة، دون أن نحمل إذناً».[9] كان لهما كثير من العملاء الريفيين. يذكر تامبو «كي نصل إلى مكاتبنا كل صباح كنا، نيلسون وأنا، نجتاز محنة اختراق صفوف الناس الصابرين الذين لا تتسع لهم

المقاعد في غرفة الانتظار فيفيضون إلى الممرات.. وكنا نقابل أسبوعياً وفود الفلاحين الشيب الذين لوحهم طقس الريف وأتوا يخبروننا عن عدد الأجيال التي تعاقبت على العمل في قطعة أرض صغيرة يطردون منها الآن.. وكانت كل قضية في المحكمة، وكل زيارة إلى السجون لاستجواب الموكلين تذكرنا بالذل والمعاناة اللذين يحرقان شعبنا». [10] وسرعان ما أتى لمساعدتهما ميندي مسيمانغ Mendi Msimang، وهو زولي شاب ناشط كان يساعد سيسولو، كما أتى غودفري بيتجي Godfery Pitji من رابطة الشباب الذي كان شاهداً على زواج تامبو. [11] ولما كان بيتجي فتى قروياً متواضعاً فقد شعر بأنه عامي مقارنة بمانديلا. وقال فيما بعد: «لم يكن الإذعان صعباً. وإنما كان الأمر الطبيعي بالنسبة لابن الزعيم». [12] كان مانديلا يحب أن يظهر بمظهر الآمر، إلا أنه كان قادراً أيضاً على الاستماع لمن يعمل بإمرته. وعندما كان يملي رسائل على سكرتيرته الماهرة روث مومباتي Ruth Mompati ـ التي أصبحت صديقة حميمة، ثم سفيرة إلى سويسرة فيما بعد ـ كانت أحياناً تقترح تصحيحاً كان في البداية يتجاهله إلا أنه سرعان ما يقبل به بعد حين. [13]

كانت مواهب الشريكين تكمل بعضها؛ فقد كان مانديلا يمضي معظم وقته في المحكمة، وهو يناقش بأسلوب حماسي، أو يكتب خطابات سياسية طويلة حتى فترات متأخرة من الليل. فيما كان تامبو المفكر الهادئ يلزم المكتب ويقوم بمعظم الأعمال الورقية، متلهياً بامتصاص غليونه المطفأ. في قاعة المحكمة كان تامبو يتصرف بهدوء وبلا مقاطعة، معتمداً على معلوماته الحقوقية. إلا أن مانديلا اكتسب أسلوباً مسرحياً جازماً يتميز بإيماءات شاملة. كان يشعر الآخرين بحضوره بمجرد دخوله إلى المحكمة، مما جعل القضاة والمدعين العامين يتذمرون من أنه معتز بنفسه لدرجة الغرور. [14] قال غودفري بيتجي «كل ما كان يحتاجه هو أن يتلفت حوله ويرفع بصره ليبدأ ما يشبه البريق حوله»، لكن بيتجي كان يهتز طرباً إذ يسمع مانديلا يعامل القضاة العنصريين

باحتقار، ويراه يتجاوز قيود الأبارثيد. ومرة عندما اندفع مانديلا بجرأة عبر بوابة «للبيض فقط» تؤدي إلى قاعة المحكمة قال له موظف أبيض داكن الوجه: «هذه البوابة للبيض». فأجاب مانديلا: «ماذا تفعل أنت هنا إذاً؟».[15]

كثيراً ما كان مانديلا يدافع عن موكلين في الترانسفال، حيث كانت الحشود تتجمهر لترى هذا المحامي الأسود الأسطوري، دون أن يفهموا القانون بالضرورة. وعندما حقق إخلاء سبيل أول موكل كان متهماً بالسحر، اعتقد أن بعض المشاهدين أرجعوا نجاحه إلى قوة السحر، أكثر مما هي قوة القانون.[16] وكثيراً ما كان يعطي تعليمات أساسية لمحامين بيض ليبراليين مثل جورج بيزوس George Bizos للترافع في قضايا مهمة. وكانوا يثيرون استغراب ضابط القضاء المحلي إذ يخاطبون الشهود السود بلقب «سيد» أو «سيدة» بدل «جيم» أو «مارثا».

كثيراً ما كان مانديلا وتامبو يجدان نفسيهما في خضم معركة خاسرة أمام «السلطات القبلية» الجديدة، التي كانت تقوم بالتدريج ببسط سلطات الحكومة وفرض أدلة الاتهام والغرامات. لكن مع زيادة الوعي السياسي بين أوساط السود الريفيين والتقائهم بمزيد من العمال في المدن. أصبحوا أكثر وعياً بحقوقهم القانونية. فحظرت الحكومة الاجتماع لأكثر من عشرة أشخاص، وعندما كانت الشرطة تفرق أو تعتقل المتفرجين كانوا يهيبون بأقاربهم أن «اتصلوا بمانديلا وتامبو».[17]

أصبح مانديلا متهماً بين العديد من المحامين البيض بعد تلقيه مذكرة توقيف لمساعدته في تنظيم حملة التحدي. وعام 1954 طالبت جمعية المحامين برفع اسمه من قائمة المحامين. وفي قضية تاريخية دافع عنه محاميان محترمان أبيضان هما ولتر بولاك Walter Pollak Qc وبلين فرانكلين Blen Franklin، اللذين قالا: إن القانون يعطي مانديلا الحق في القتال من أجل معتقداته السياسية. دعم القاضي رامسبوتوم Ramsbottom وجهة نظرهما وأمر جمعية

المحامين أن تدفع التكاليف. اغتبط مانديلا لعدد المحامين ـ وبينهم وطنيون أفارقة ـ الذين هبوا لدعمه: «حتى في جنوب إفريقية العنصرية يستطيع التضامن المهني أحياناً أن يتخطى حاجز اللون». [18]

وبعد أربعين سنة؛ عندما خاطب جمعية المحامين ذكرهم: «ها أنا هنا ومازال اسمي في اللائحة»[19]، إلا أن مداه المهني سرعان ما حد منه بالحظر الذي فرض عليه لنشاطه السياسي. وعندما طلب السماح له بالظهور في قضية في بريتورية عام 1955، قال رئيس الشرطة لوزير العدل: «مانديلا ليس أهلاً للثقة، ويجب التعامل مع زياراته لبريتورية وفيرنيا ينيغ Vereeniging بمنتهى الحذر». [20]

ومع بزوغ نجم مانديلا السياسي أصبح يستقطب مزيداً من التحفظ. ففي تشرين الثاني (نوفمبر) 1955 كان يدافع عن موكل أسود أمام قاض أفريقاني سريع الغضب اسمه ويليام دورميهل William Dormehl، الذي طلب من مانديلا فوراً إبراز شهادة المحاماة، فلم يستطع فأجل دورميهل الدعوى. وعندما أحضر مانديلا الشهادة فيما بعد ويدأ دفاعه، أخذ دورميهل يقاطع «أسئلته التي لا صلة لها» مرفقاً مقاطعاته بصيحات «هيه.. أنت»، وأخيراً قال: «هيه.. أنت.. اجلس». وأصر مانديلا أن تسجل جميع ملاحظات القاضي، وأخيراً صرح بأنه لا يستطيع الدفاع عن موكله في هذه الظروف، وأعيدت القضية إلى محكمة دنيا، وذهب مانديلا غاضباً لرؤية جورج بيزوس الذي نصحه بتقديم التماس لدى المحكمة العليا. عرضت القضية أمام القاضي كوارتوس دو ويت Quartusde wet الذي استشاط غضباً لتصرف دورميهل، قائلاً: «الجميع يعرفون أن مانديلا محامي»، وأمر دو ويت القاضي بأن يعزل نفسه عن القضية، قائلاً: «هذا النوع من التصرفات هو الذي يسيء إلى سمعة إدارة العدل في بلدنا». [21]

بعد أربعين سنة عندما أصبح مانديلا رئيساً قال: «كان القانون يستخدم في

جنوب إفريقية لا كأداة لتوفير الحماية للمواطن، وإنما كوسيلة رئيسية لإخضاعه. وعندما كنت طالباً شاباً في الحقوق كان أحد طموحاتي أن أسخر تدريبي المهني لأرجح كفة العدل ولو قليلاً لصالح المواطن». [22] كان يفاجأ بين وقت و آخر بعدالة القضاة، ولكنه في الوقت نفسه كان يدرك محدودية المحاكم في رعاية الحريات المدنية. كما كتب فيما بعد: «في بلدنا حيث هناك قوانين عنصرية، حيث جميع القضاة والحكام من البيض تفوح منهم روائح التفرقة العنصرية الكريهة، فإن تطبيق هذه القوانين محدود جداً. ورأى الحكومة تملأ المحاكم بأنصارها، لكنه أدرك أن جنوب إفريقية ما تزال تنتج قضاة كباراً. قد يكونون مواطنين أفارقة أيضاً، ولكن يملكون من الشجاعة ما يكفي ليقفوا في وجه الحكومة. وفي السجن سيذكر بمتعة كيف قال القاضي بلاكويل المحترم Judge Blackwell لرئيس الشرطة السرية في الراند: «هذا البلد لم يصبح دولة بوليسية بعد!». [23]

وسيبقى مانديلا مشتتاً بين احترامه لحكم القانون وتصميمه على الإطاحة بالنظام العنصري. ووجد نفسه يوماً بعد يوم على الجانب المتلقي من الآلة القانونية، وقد صنف سياسياً خطيراً مضطراً لأن يعمل في الظل. ولمدة عشر سنوات، منذ عام 1925 إلى أن سجن. كان محظوراً عليه شغل أي منصب منتخب، كما كان ممنوعاً من إلقاء خطابات عامة لم يكن له أي منصب رسمي في المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان عليه الاعتماد على شخصيته وصورته، لكنها كانت صورة قد بدأت تلتمع بشدة.

تمتع مانديلا بفترة قصيرة من الحرية عندما انتهت فترة الأشهر الستة التي منع فيها من حضور الاجتماعات أو مغادرة جوهانسبورغ وذلك في حزيران (يونيو) 1953، وذهب في رحلة إلى أورانج فري ستيت ليظهر كمحام في المحكمة في قرية فيليير الصغيرة Villiers. أعطاه المنظر الطبيعي الريفي الفسيح إحساساً بالحرية، حتى أنه شعر بصلة قوية تربطه بالجنرال دو ويت بطل حرب

البوار الأفريقانية، الذي حارب البريطانيين في تلك البلاد.[24] إلا أنه كان فجراً كاذباً. ففي فيليبير حكم عليه بمنع آخر قيد حركته ضمن حدود جوهانسبورغ ثانية، وطلب منه الاستقالة من جميع المنظمات، بما فيها المؤتمر الوطني الإفريقي، لمدة سنتين. كانت تلك بداية مرحلة الملاحقة في حياته، حيث يذكر بعد تسع سنوات: «وجدت نفسي محدوداً ومعزولاً عن جميع رفاقي الرجال، عن الناس الذين يفكرون مثلي ويحملون معتقداتي. وجدت نفسي ملاحقاً من قبل ضباط في فرع أمن الشرطة أنّى ذهبت. أي بتعبير آخر وجدت نفسي أعامل معاملة مجرم، مجرم غير مدان».[25]

عرف مانديلا أن كثرة الممنوعات ستضعف المؤتمر الوطني الإفريقي إذ تحد من اتصالات القادة ونشاطاتهم، وتشجع «زحف شرور الطائفية والإقليمية»[26]، ولدى توقعه أن يمنع المؤتمر الوطني الإفريقي برمته، وضع خطة تمكن القادة من الاتصال السري والسريع ببعضهم وبالاتباع بواسطة شبكة سرية من الخلايا.[27] وسميت الخطة «خطة ـ M» بدل أن تسمى خطة مانديلا، كي لا يعرف أنه يشارك في أعمال المؤتمر الوطني الإفريقي بشكل مخالف للقانون. كان الهدف الرئيسي للخطة هو إعلام وتعبئة وتنسيب الأعضاء، ولكن يمكن أيضاً استخدامها لتكوين نقابات عمالية دون اجتماعات عامة.[28] وكما حث مانديلا كونغرس الترانسفال في أيلول (سبتمبر) 1953: «إذا كان محظوراً عليكم الاجتماع علناً، عليكم بالاجتماع فوق آلاتكم في المعامل، وفي القطارات والحافلات في طريقكم إلى البيت. يجب أن تكون اجتماعاتكم في قراكم وأكواخكم، يجب أن تجعلوا كل بيت، كل كوخ وكل بناء من الطين يعيش فيه شعبكم فرعاً من حركة النقابات العمالية، ويجب ألا تستسلموا أبداً».[29]

طبقت الخطة M في الكيب الشرقية، حيث كانت روح التحدي الأقوى. هذا أثلج صدر مانديلا، طالما أن الخطة قد نظمت من قبل الإفريقيين.

ويمساعدة قليلة من الهنود أو البيض.[30] لكن طرأ كثير من المشاكل في مناطق أخرى. إذ رفض القادة المحليون الأقوياء السيطرة المركزية، ولم يكن لديهم منظمين يتلقون أجوراً لتطبيق الخطة، وغالباً ما كانوا لا يؤمنون بأن المؤتمر الوطني الإفريقي سيحظر فعلاً. في كانون الأول (ديسمبر) 1955 أفاد التنفيذي الوطني National Executive أنهم «لم ينجحوا بعد في الخروج من نطاق الاجتماعات الجماهيرية وهذا النوع من الهياج».[31] ولم تطبق النسخة المعدلة من الخطة قبل عام 1961 بعد أن حظر المؤتمر الوطني الإفريقي.[32]

أتى تحدي مانديلا السياسي المفتوح التالي في عام 1953 في بلدة صوفيا تاون المتعددة الأعراق، قرب جوهانسبورغ مركز البيض. كانت «نقطة سوداء» صممت الحكومة على نقلها من حافة سويتو. كانت صوفيا تاون منطقة فقيرة مزدحمة تضم خمسين باحة خلفية تفوح منها رائحة الجعة التفهة، لكنها كانت إحدى مناطق جنوب إفريقية الأكثر تحرراً من الأحقاد القومية، ذات حيوية طاغية، وجمال وحشي، خلدها الشعراء والمصورون والرسام الاسود جيرارد سيكوتو Gerard sekoto والأكثر أهمية من الناحية السياسية هي أنها كانت الجزء الوحيد من جوهانسبورغ حيث يستطيع السود حيازة الأملاك الحرة، الأمر الذي لم تكن الحكومة تقبل به. وعندما كان السكان السود يجبرون على مغادرة بيوتهم مقابل تعويض تافه، كان مانديلا يشجب الإخلاء القسري لكونه «احتيالاً محسوباً ومتعمداً».[33] كان للمؤتمر الوطني الإفريقي أنصار أقوياء في صوفيا تاون، يتزعمهم اثنان من المهيجين هما روبرت ريشا Robert Resha وبيتر ثايت Peter Nthite، كما كان بينهم تسوتسيز tsotsis أو قطاع طرق، بين وقت وآخر. وشعر التنفيذي الوطني أنه مجبر على مقاومة عمليات الإخلاء، في الوقت الذي يبقي على سياسة اللاعنف التي ينتهجها. وكان التحدي قاسياً.

بعد انتهاء الحظر المفروض على مانديلا في حزيران (يونيو) 1953 ترأس اجتماعاً في سينما أودين Odin Cinema في صوفيا تاون، برفقة القائد الهندي

يوسف كاتشاليا، الذي اعتقلته الشرطة من على المنبر. ونجح مانديلا في تهدئة الجمهور بمساعدة أناشيد المؤتمر الوطني الإفريقي. لكن بدأ يفقد صبره حيال أساليب اللاعنف. وإذ خطب في جمهور غاضب في ساحة الحرية بعد ذلك مباشرة، انساق وراء خطاباته وقال للجمهور إن عليه أن يستعد لاستخدام العنف قريباً. وأشار إلى رجال الشرطة الذين يطوقونهم وأنشد أحد أناشيد المؤتمر الوطني الإفريقي التي جاء فيها: «هاك عدونا!»، فتلقى تأنيباً قاسياً من قبل التنفيذي الوطني في حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، وقبل التأنيب لكنه شعر في أعماقه بأن «اللاعنف ليس الجواب». [34]

رغم ذلك تابع محتجو صوفيا تاون احتجاجهم بطريقة سلمية، وألقيت مئات الخطابات من قبل قادة محليين تحاشوا بحذر الخطابة العنيفة. وفيما بعد خلص تقرير للمؤتمر الوطني الإفريقي إلى أن «إلقاء حجر صغير واحد على الشرطة كان سيؤدي إلى مذبحة في صوفيا تاون». [35] وكانوا يلقون الدعم من راهب إنكليزي بارز هو الأب تريفور هادلستون Trevor Haddleston الذي كان يدير كنيسة المسيح الملك Christ the King، التي تسيطر على صوفيا تاون، ومدرسة سانت بيتر القريبة التابعة للبعثة في روزنتفيل. كان هادلستون الصديق والمعلم الخاص لأوليفر تامبو، وقد تأثر بحملة التحدي لدرجة جعلته ينضم إلى المؤتمر الوطني الإفريقي في نضاله. وقد قال لجمهور أسود مأخوذ في قاعة التجارة Trade Hall في شباط (فبراير) 1953: «على مدى قرون عديدة والكنيسة تأمرنا بأنه إذا انساقت الحكومة وراء الطغيان فإن القوانين تفقد سلطتها على الأفراد». لم يقلق هادلستون حيال العمل مع الشيوعيين. وقال لي: «أنا أعتقد بأن الشيوعية لا تشكل خطراً كبيراً في جنوب إفريقية». [36] ورأى من واجبه كمسيحي أن يحمي أبرشيته في صوفيا تاون بكل إنسانيتها التي أحبها. [37]

أدرك مانديلا أن هادلستون، مثل أصدقائه الشيوعيين البيض، كان يشعر بشعور الشعب وأنه سيصبح صديقه وسنده مدى العمر. وقال هادلستون فيما بعد

إنه لم يجد أية صعوبة في مناقشة الدين مع مانديلا، الذي كان يعتبره ممن يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، لم يكن ملحداً: «كان يعتقد أن الله سر غامض، ويقبل أولئك الذين يبنون حياتهم على الإيمان بالله. ويؤمن بنعمة الإرادة الحرة وحرية الاختيار، وكان ذلك الإيمان أرسخ في نفسه من أي معتقد سياسي». (38)

واصل المؤتمر الوطني الإفريقي غليانه ضد دمار صوفيا تاون بشعارات مثل «لن نتزحزح» و«من فوق جثثنا» وسرعان ما تبين مانديلا أن ذلك كان خطأ فادحاً. فكتب في سجنه فيما بعد: «الشعار مثل الرصاصة. يعتمد تأثيرها على ملاءمتها لفوهة البندقية»(39)، إلا أن تلك الرصاصات لم تكن لتنفذ. أعطت صحافة العالم تغطية واسعة لاحداث الناحية الفقيرة بتوقعات عالية لحدوث حمام من الدم أو حتى ثورة. حيث كتب دون ماتيرا Don Mattera، وهو شاعر وزعيم عصابة يعيش في صوفيا تاون. «كنا جميعاً نعتقد أن الثورة قادمة حتماً». (40) كان مانديلا وتامبو يأتيان يومياً إلى الناحية لينسقا القيادة ويمثلا المالكين المشردين. لكن مانديلا لم يستطع تقديم وسائل سلمية للحيلولة دون الإخلاء. وقد كتب فيما بعد «لم نعتقد في أي وقت خلال هذه الحملة أن بإمكاننا التغلب على الحكومة». (41)

كان الجو العام ما زال مشحوناً بالتوقعات عندما زرت صوفيا تاون يوم 9 شباط (فبراير) 1954، اليوم المحدد للإخلاء. وفي الفجر كانت الناحية تردد صدى صوت التسوتسيس (قطاع الطرق) الذين يضربون أعمدة البرق، صيحة المعركة في صوفيا تاون.. لكن الحكومة فرضت منعاً كليا للاجتماعات، وكان 200 من عناصر الشرطة يجوبون الشوارع بسيارات وشاحنات ثقيلة. وسرعان ما بدأت الشاحنات تحمل المفروشات وأولئك الساكنين الذين كان يسعدهم الرحيل. كان قادة المؤتمر الوطني الإفريقي يتطلعون بقلوب مفعمة بالغم، فيما

اكتفت الجماهير بالتحديق. وبحلول المساء كانت الشرطة تبدو بحالة من الملل والثقة.[42]

تعلم مانديلا درساً قاتماً، ألا ينعش الآمال بالثورة قبل الأوان «فصوفيا تاون لم تمت على وقع أصوات إطلاق النار وإنما على قعقعة الشاحنات والمطارق الثقيلة» واقتنع أنه في المستقبل «لا بديل لنا عن المقاومة المسلحة العنيفة». وبدا أحياناً يتحرق شوقاً لمجابهة يستطيع أن يثبت نفسه من خلالها[43]، لكن كان يكبحه سيسولو الأكثر تماساً مع الشباب المناهض ويذكر بأنهم «كانوا يأتون إلى اجتماعاتنا تستحوذ عليهم فكرة واحدة هي أن أعلن الثورة».

سيسولو لم يعلنها، كما أنه نصح من جهة غير متوقعة بعدم اللجوء إلى العنف. ففي عام 1935 تلقى دعوة هو والناشط الشاب في المؤتمر الوطني الإفريقي دوما نوكوي Duma Nokwe إلى مهرجان للشباب الشيوعي في بوخارست Bucharest في رومانيا، بمبادرة من أحمد كاثرادا، فشقا طريقهما بالرشوة على طائرة العال الإسرائيلية وقاما بأول اتصال لهما مع الشيوعيين الأوروبيين. أقنع مانديلا سيسولو بأن عليه ان يقوم سراً بزيارة الصين، ليناقش إن كان بإمكانها تزويد المؤتمر الوطني الإفريقي بالسلاح. فاجأ المضيفون الصينيون سيسولو بتحذيره من مغبة النضال المسلح. وقالوا له: «انظر هذا طريق خطر. لا تقدموا على هذا الحل قبل أن تكونوا مستعدين له. لأنكم إذا هزمتم مرة لن تقوم لكم قائمة».[44] عاد سيسولو مقتنعاً بالنصيحة، التي قبلها مانديلا، إلا أن زيارته بلا تفويض للصين صدمت قادة المؤتمر الوطني الإفريقي مثل لوثولي وماتثيوز، اللذين طالبا باعتذار. كان مانديلا محتفظاً بقناعته بأن «النضال المسلح ضروري جداً»، ولكنه سيدرك فيما بعد أنه كان مندفعاً يفكر مثل ثوري متهور.[45]

كان مانديلا حتى ذلك الحين فيه شيء من الجموح، كقنبلة طائشة بلا

المؤتمر الوطني الإفريقي، وكانت لخطاباته لمسات تضرم الحماسة، ستجلب المتاعب من قبل الحكومة. وفي عام1935 كتب أول خطاب رئيسي له بصفته رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال. وتلي بالنيابة عنه في المؤتمر السنوي في أيلول (سبتمبر) لأنه كان ممنوعاً من الحضور. جاء في الخطاب: «الشعب اليوم يتحدث بلغة العمل. وهناك استفاقة جبارة بين الرجال والنساء في بلدنا». وتذكر أمجاد حملة التحدي، عندما تحول البلد كله إلى ساحات معارك، انهمكت قوى التحرير في نزاع خالد الذكر ضد القوى الرجعية والشر.

ورفرف علمنا في كل ساحة معركة: «واضطر مانديلا فيما بعد إلى أن يبيّن للقضاة أنه كان يكتب بشكل مجازي». [46]

وانطلق الخطاب ليربط نضال جنوب إفريقية بسواه في إفريقية، حيث كان المعادون للإمبريالية يكتسبون قوة: «القارة برمتها تغلي استياء وقد اندلعت الثورات في ساحل الذهب ونيجيرية وتونس وكينية، وروديسية وجنوب إفريقية». وشرح كيف «أثارت المذبحة التي ارتكبتها بريطانية بحق الشعب الكيني احتجاجاً عالمياً. حيث يحرق الأطفال أحياء، وتغتصب النساء، ويعذبن، ويجلدن ويسكب الماء الغالي على أثدائهن لانتزاع الاعترافات منهن». وأنهى خطابه بمقولة لنهرو، أصبحت عنوان الخطاب: «السير نحو الحرية ليس سهلاً»: «بإمكانكم أن تروا أن الطريق إلى الحرية ليست سهلة في أي مكان، ولا بد لكثير منا أن يعبر وادي أطياف الموت مراراً قبل الوصول إلى القمم التي نتطلع إليها». [47]

كان مانديلا أكثر تأثراً بنهرو مما كان يحب أن يعترف، وقال بعد أربع وأربعين سنة: «لقد اقتبست كثيراً من كتابات نهرو دون أن أنسبها إليه، وكان ذلك عملاً سخيفاً. لكن عندما يكون داخلك نقص في الآراء، فإنك تميل لأن تفعل ذلك»[48]، كما كان قد بدأ يميل إلى الخطابة الماركسية المعادية للاستعمار.

وبعد بضعة أشهر، عندما رفع الحظر عنه ثانية لفترة بسيطة ألقى خطاباً في مجلس السلم اليساري تهجم فيه بشكل مروع على الجشع الإمبريالي. «في توقها المجنون إلى الأسواق والأرباح لن تتوانى هذه القوى الإمبرالية عن قطع أعناق بعضها، وتخريب السلام، وإغراق ملايين الأشخاص الأبرياء بالدم وجلب الشقاء والمعاناة الهائلة للبشرية». وقال إنه لا يشاطر البرجوازيين إيمانهم بالتنمية المستمرة وإنما يتكهن بانقطاع في الاستمرارية «قفزة من مرحلة إلى أخرى»

في 13 كانون الأول(ديسمبر) 1953 تحدث مانديلا ساعة ونصف ساعة في اجتماع كبير في سوويتو. وقام أحد رجال الشرطة هو السيرجنت التحري هيلبرغ Helberg بتسجيل خطابه (بشكل غير دقيق لحسن الحظ) واستخدمه فيما بعد دليلاً على الخيانة. حذر مانديلا الحشد الهائل قائلاً: «علينا أن نلجأ إلى طرق جديدة في نضالنا. لم يعد الكلام من على المنابر كافياً. يجب القيام بمزيد من العمل وراء الستار أو حتى تحت الأرض». ومضى يقول لهم: «لن تريقوا الدماء هدراً. سنقيم صرحاً لكم قرب شاكا Shaka».[49]

ما من شك في أن خطاباته أصبحت أشبه بالخطابات الحربية، وأصبح التنافس الآن علنياً بين مانديلا الثوري ومانديلا المحامي. لكن وراء هذه الاستعراضية في المحاكم ومن فوق المنابر، مازالت هناك شكوك حول جديته كقائد. ومثل سواه من السياسيين المولعين بالقتال وهم خارج المنصب، مثل ثيودور روزفلت في عقد التسعين من القرن التاسع عشر ووينستون تشرشل في عقد الثلاثين من القرن العشرين، كثيراً ما كان يبدو مفسداً يريد القتال دون أن يكون وراءه تنظيم حقيقي أو خطة.

8

معنى الحرية

1953 ـ 1956

برغم تطور مانديلا السياسي إلا أنه احتفظ بقوميته الإفريقية الأساسية، وفخره بشعبه وتاريخه، وتصميمه على استعادة حقوقهم. ولكنه كان يبحث عن الحلفاء أنى ثقفهم: بين أوساط الليبراليين البيض، والغانديين الهنود، ورجال الدين المسيحي. وكان أكثر أصدقائه فعالية والتزاماً هم الشيوعيون الذين أعادوا تنظيم أنفسهم عام 1953 في الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي، اسم يؤكد انتماءهم المحلي وقاعدتهم الوطنية. كان الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي فريداً في تعدده العرقي، وبقي مختلفاً تماماً عن أحزاب البيض الأخرى، وعن الأحزاب الشيوعية في أمكنة أخرى، وكان يضم بعض الأعضاء غير الثوريين إطلاقاً، لكن بسبب تعريف بريتورية الخاص «للشيوعية المثالية»، التي ابتكرت على خلفية تصعيد الحرب البادرة، يمكن أن يوصف الجميع بأنهم ثوريون خطرون يستولون على المؤتمر الوطني الإفريقي، مما يبعد الأنصار المحتملين الآخرين.

سيصور (بعبع) الشيوعية بصورة أكثر تهديداً في المرحلة التالية من حملة المؤتمر الوطني الإفريقي، في التحضير لما سيسمى «ميثاق الحرية» سيجد ليبراليو جنوب إفريقية، وكثير من الغربيين المتعاطفين معهم، في الميثاق مؤامرة شيوعية صرفة تهدف إلى تحقيق نفوذ خفي من خلال جبهة شعبيه تقوم بتظاهرات مدروسة بحذر، وتستخدم قادة المؤتمر الوطني الإفريقي مخالب

ساذجة لتمرير دعاية الشيوعيين. لكن ذلك الرأي شوهته مرآة الحرب الباردة المبكرة. لم يكن فحوى الميثاق موجهاً ضد الرأسماليين أو الديموقراطيات الغربية، وإنما ضد الوطنيين ذوي الأفق الضيق، أفارقة كانوا أم إفريقيين. وقد كان الميثاق خرقاً تاريخياً بالنسبة لمانديلا ومعظم رفاقه. إذ ألزم المؤتمر الوطني الإفريقي بنبذ العنصرية وتوسيع قاعدة النضال، وسيصبح ذلك الميثاق بيانه الأساسي على مدى السنوات الأربعين التالية.

لم يكن صاحب ميثاق الحرية شيوعياً ولا مناهضاً يحب القتال، وإنما كان رجل الدولة المسن المحافظ من حزب المؤتمر الوطني الإفريقي زد. كي. ماثيوز معلم مانديلا في فورت هير. أجبر ماثيوز على العودة إلى جنوب إفريقية بعد سنة أمضاها في الولايات المتحدة في أيار (مايو) 1953، عندما رفضت الحكومة تجديد جواز سفره عاد بشعور أكثر راديكالية. فقد أصبح الآن أقل إعجاباً بالبطل الأمريكي الأسود العتيد بوكر تي.واشنغتون من مناوئه الراديكالي الدكتور دبليو ي. ب. دوبوا، مؤسس الرابطة الوطنية لتطوير الملونين.[1] وعندما وصل ماثيوز المطار صادر الفرع الخاص Special Branch كتباً لمؤلفين منهم أرنولد توينبي، وصورة فوتوغرافية لصديق زد. كي المغني والممثل الشيوعي بول روبسون Paul Robeson[2] وجد ماتثيوز آمال شعبه قد تداعت كثيراً. وقد كان فوز الوطنيين الانتخابي الثاني في العام السابق أكبر مما بدا، ونوه بأن ذلك لأن «أحزاب المعارضة هي مجرد صور باهتة من حزب الحكومة فيما يتعلق بسياستها تجاه اللون».[3]

أول ما ناقش ماتيثوز فكرة جمع جميع الأعراق لمناقشة إمكانية وضع دستور متعدد الأعراق كان على الغداء مع أولاده في بيته.[4] التقطت الفكرة جماعات أخرى، وفي آب (أغسطس) 1953 قام ماتثيوز بصفته رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في الكيب بطرح الفكرة رسمياً أمام المؤتمر السنوي: «ألم يحن الوقت بعد كي يفكر المؤتمر الوطني الإفريقي بمسألة الدعوة إلى عقد

مؤتمر وطني، مجلس للشعب، يمثل الشعب كله في هذا البلد بغض النظر عن العرق أو اللون، لوضع ميثاق الحرية من أجل جنوب إفريقية ديموقراطية في المستقبل؟». [5]

وتذكر فيما بعد: «لم أكن أدرك تماماً عندما تفوهت بهذه الكلمات أنني أرسي حجر الأساس لتهمة الخيانة»[6] علق مانديلا في سجنه بعد عشرين عاماً: إن الأمر كان يدعو إلى السخرية فماثيوز الذي كان ينتقد لموقف المتفرج هو الذي عبر عن الفكرة الحيوية التي أصبحت «الفلك الذي تدور فيه آمالنا». [7] رحب مانديلا بالمؤتمر المقترح كونه استعراضاً علنياً للقوة وقارنه بتأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي عام 1912. واكتسب الاقتراح أهمية كبيرة، وبخاصة في ضوء الشك في أن المؤتمر الوطني الإفريقي سرعان ما يحظر جملة وتفصيلاً. [8]

أقرت الفكرة في المؤتمر السنوي التالي للمؤتمر الوطني الإفريقي في كوينزتاون في كانون الأول (ديسمبر)1953. كان أكثر ثقة وإعداداً من مؤتمر بلومفونتين قبل ذلك بسنتين الذي شن حملة التحدي. كان التوتر واضحاً بين الخطباء الماركسيين، الذين نظروا إلى النضال من منطلق طبقي، وبين الطرح المسيحي للرئيس ألبرت لوثولي الذي أصر عل أن «الدافع والتوق إلى الحرية يعودان إلى ـ استياء مقدس ـ » وهو بالتالي من منبت مقدس، لا يمكن أبداً أن يسكت إنسانياً على الدوام. [9] أراد بعض الوطنيين طرد سيسولو لتواطئه مع أعراق أخرى، لكن أغلبية الوفود كانت مقتنعة بالحاجة إلى التعاون: وأشار لوثولي إلى المثال الخطير للقومية الأفريقانية الضيقة وأصر على أن تكون القومية الإفريقية ديموقراطية تقدمية أوسع. وتمت الموافقة على الحاجة إلى ميثاق الحرية، وكلف المؤتمر التنفيذيين باتخاذ التحضيرات الفورية لمجلس للشعب يضم فيلق متطوعي الحرية الوطنية.

في آذار (مارس) 1954 ساعد سيسولو ومانديلا في تنظيم اجتماع مع

بعض حلفاء المؤتمر الوطني الإفريقي في تونغات Tongaat، قرب منطقة بيت لوثولي، التي حصرت حركته ضمنها الآن.[10] وأُلِّف مجلس عمل قومي من ثمانية أعضاء للتحضير لمؤتمر الشعب.

اثنان فقط من أعضاء المجلس (لوثولي وسيسولو) كانا من المؤتمر الوطني الإفريقي. الذي سارع الوطنيون إلى تأطيره كمؤشر للهيمنة الخارجية. كان بين الستة الآخرين اثنان من الكونغرس الهندي الجنوب إفريقي واثنان من منظمة الشعب الملون الجنوب إفريقية المؤسسة حديثاً، واثنان من الهيئة الجديدة من أنصار المؤتمر الوطني الإفريقي البيض، كونغرس الديموقراطيين الذي كان جله من الشيوعيين، الذين أدى إشراكهم إلى إثارة شكوك وتناقضات جديدة.

انكبت اللجنة المركزية لمنظمة الشعب الملون في جنوب إفريقية، والتي ضمت جو سلوفو وراستي بيرنشتاين، على تنظيم مؤتمر الشعب، فعقدت كثيراً من الاجتماعات السرية.[11] ذعر أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي الأكثر وطنية، والمتعمقون بالشؤون الإفريقية من النفوذ الشيوعي، لكن مانديلا قدر الجهد الكبير والالتزام التام الذي أبداه أصدقاء مثل برام فيشر Bram Ficher ومايكل هارميل Michael Harmel اللذين طوردا واضطهدا بقدر ما طورد واضطهد السود، واللذين تطلعا إلى ما كان يتوق هو إلى تحقيقه بالإطاحة بالهيمنة البيضاء.[12] ولم يعد يعتقد أن الشيوعيين مناوئين بالضرورة للكنيسة، كما لاحظ أن كثيراً من الشيوعيين السود كانوا مسيحيين قلباً وقالباً.[13] وعندما أتى كانون كولينز Canon Colline إلى جوهانسبورغ من لندن عام 1954، أكد له مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي ليس شيوعياً، بالرغم من أن الحكومة كانت تدفعه في ذلك الاتجاه «لم يكن في الوقت متسع لأن يكون هناك إمكانية تعاون حقيقي بين السود والبيض».[14]

دعا المؤتمر الوطني الإفريقي منظمة بيضاء أخرى شكلت حديثاً إضافة

إلى كونغرس الديموقراطيين للمشاركة في رعاية مؤتمر الشعب، وكان الحزب الليبرالي قد أسس عشية الانتخابات العامة في نيسان (أبريل) 1953 عندما زاد الوطنيون أغلبيتهم، لمواجهة قوى العنصرية. وكان بين قادتها مثقفون أكاديميون محترمون بينهم الروائي آلان باتون Alan Paton، وكانت ممولة جزئياً من قبل هاري أوبنهايمر Harry Opnerheimer رئيس الشركة الأنغلو أمريكية العملاقة.. كان الليبراليون معارضين تماماً للأبارتيد إلا أنهم لم يطالبوا بحق الانتخاب للجميع، وكانوا يناصبون الشيوعيين العداء. وقد كتب باتون فيما بعد: «بين الشيوعيين والليبراليين تنافر جذري».[15]

ابتعد معظم الليبراليين عن المؤتمر الوطني الإفريقي وأصدقائه الشيوعيين، إلا أن بعض قادة المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يصادقون أعضاء أفراداً في الحزب الجديد. حيث كان الرئيس لوثولي على اتصال، كما نوه مانديلا، بأكثر الليبراليين ليبرالية، ورحب بالحزب كحليف في وجه غلبة تفوق البيض. مانديلا أيضاً كان له أصدقاء ليبراليون، خاصة باتريك دانكان Patrick Dancan الذي انضم إلى حملة التحدي. إلا أنه كان ينتقد الحزب الليبرالي. وكان قد بدأ يستشعر الحاجة إلى العنف، واعتقد بأن الليبراليين سيقفون في وجهه. كما أنه كان يضيق ذرعاً برفض الليبراليين دعم حق الاقتراع للجميع.

في حزيران (يونيو) 1953 كتب مانديلا مقالاً بعنوان «ضوء كاشف للحزب الليبرالي»، نشر في الدورية الشهرية الجديدة (التحرير) «ليبريشين» التي كان مايكل هارميل رئيس تحريرها، ومانديلا نفسه في هيئة التحرير. هاجم مانديلا إصرار الليبراليين على «الوسائل الديموقراطية والدستورية» ورفضهم دعم «صوت واحد لكل راشد». ورآهم جزءاً من الطبقة الحاكمة الأوروبية التي قال إنها «تكره وتخشى فكرة الديموقراطية الثورية في جنوب إفريقية بقدر ما يخشاها ويكرهها المالانيون والأوبنهايمريون»[16]، وتوقع فراقاً واضحاً في السبل بين أولئك الذين ألزموا أنفسهم بالبرنامج الثوري وأولئك الذين لم يفعلوا، بين

أصدقاء وأعداء الكونغرس. وسأل؛ كما سيسأل مراراً أخر «على أي جانب أنتم أيها السادة؟»[17].

أجاب الليبراليون عن طريق البروفيسور توم برايس Tom Price الذي صب احتقاره على «عبارات مانديلا الوردية التي ولدت مع ثورة أوكتوبر»، فكان ذلك هجوماً أسف مؤرخ الحزب الليبرالي راندولف فيغن Randolph Vigne لأنه «لم يفد في شيء سوى أ نه رسم خطوط المعركة بين الليبراليين والكونغرسيين الجدد بالأسود والأبيض». رحب الليبراليون في البداية بفرصة المساهمة في رعاية مؤتمر الشعب إلا أنهم سرعان ما اقتعنوا بأنهم يدفعون إلى شرك «جبهة شعبية» تتخذ قراراتها مسبقاً عناصر شيوعية. كما اعتقدوا أن الكونغرس (المؤتمر) سيكون «شأناً صغيراً جداً»، وقرروا الانسحاب قبل أن يعقد، مما أشعر كثيراً من الأعضاء بالندم فيما بعد. فقد خلص المؤرخ دافيد إيفيرات David Everatt إلى «أن ذلك القرار كان واحداً من أكثر القرارات إساءة للحزب»[18].

واستمرت التحضيرات دون الليبراليين، ولكن بكثير من الشحن من قبل الشيوعيين البيض في كونغرس الديمقراطيين وعقدت جماعات في طول البلاد وعرضها مئات الاجتماعات، وقدمت مسوداتها ومقترحاتها التي ستجمع في ميثاق حرية كبير ليطرح أمام الكونغرس. ما من شك في أن الاستجابة كانت حيوية، تلحظ مفاهيم متفاوتة للحرية؛ من ضمنها حرية أن يكون للرجل عشر زوجات! وفيما بعد قال جو سلوفو إن «عشرات الآلاف من القصاصات الورقية أتت كالفيضان: مزيج من أوراق الكتابة الناعمة، وصفحات مزقت من كتب التمارين المدرسية ملطخة بالحبر، وقطع من الورق المقوى وقصاصات من أكياس الورق البنية والبيضاء، وحتى الهوامش غير المطبوعة من الصحف»[19]! شك بعضهم بأن هذا الفيض من الديمقراطية لم يكن غنياً بقدر ما بدا. ولاحظ سيدني كينتريدج Sydney Kentridge الذي سيصبح فيما بعد مستشار مانديلا، أن كثيراً من الطلبات كتبت بالخط نفسه، وشك بأن تدبيراً (تكنيكاً) شيوعياً سرياً

ينشط وراء ذلك بغرض إبعاد الجماهير عن قادتهم السابقين.[20] إلا أن ميثاق الحرية الذي انبثق أخيراً كان بعيداً كل البعد عن كونه بياناً شيوعياً. وبعد مضي فترة طويلة بقي مانديلا على قناعته بأنها «وثيقة ولدت من قلب الشعب. ولم تكن شيئاً فرض من الأعلى. ولهذا فهي مازالت سارية حتى اليوم».[21] ودهش بمدى تقدم الجماهير على السياسيين في مجالات عديدة. «تبين الناس أن القوة السياسية ضرورية ولكنهم أدركوا أيضاً أنها ستكون بلا معنى دون قوة اقتصادية. كما صدم أيضاً بعزوهم إلى الوطنية الفائقة، وقبولهم بمبدأ أن جنوب إفريقية ملك لكل شعبها».[22]

وراء الكواليس عمل مانديلا وثيقاً جداً مع وولتر سيسولو، الذي كان الآن ملاحقاً من قبل الشرطة. وقال زد. كي. ماتثيوز للمؤتمر الوطني الإفريقي في الكيب في حزيران (يونيو) إن سيسولو يعمل وراء / الستار الحديدي/ في الترانسكي مثل كزبرة الثعلب القرمزية(*) ـ وذلك قبل أن يرث مانديلا ذلك اللقب ـ: «إنهم يبحثون عنه هنا، ويبحثون عنه هناك، يبحثون عنه في كل مكان».[23] وسرعان ما أمسكته الشرطة في منزله في أورلاندو في تموز (يوليو) 1954. كنت معه بالمصادفة، كان يتحدث بلهجته التحليلية المعهودة عن المنع والاعتقال عندما دخل إثنان إفرقانيان من الشرطة السرية. كانا لطيفين بشكل غير متوقع: «ها قد وجدناك أخيراً. لدينا رسالتين من وزير العدل لك». أجاب سيسولو «كنت أترقب وصولكم.. اثنان فقط؟ هذا لن يؤثر في شيء كما تعلمان فالنضال سيستمر!». ابتسم التحريان وقالا: «لتحيا إذاً إفريقية».[24]

في اليوم التالي اعتقل سيسولو وصدر بحقه فيما بعد حكم بالسجن لمدة ثلاثة أشهر لحضوره اجتماعاً ضم خمسة أشخاص. لكنه بقي القوة المحركة وراء المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي آب (أغسطس) 1954 ذكر أنه قبل خمس سنوات وعد كأمين عام لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي «سأكون تحت

(*) عشبه ذات أزهار قرمزية تنطبق حين تسوء الأحوال الجوية (المترجمة).

تصرفكم بشكل كامل». وشرح كيف أدى الحظر المربك إلى إبعاد معظم أعضاء التنفيذي الوطني، ومنهم مانديلا، لكنه أكد أن الحركة تزداد قوة: «إن الحكومة قد اهتزت، لقد انقضى الزمن الذي كان بإمكانها حكم البلد وكأننا، نحن الشعب، ليس لنا وجود».[25] والواقع أن سيسولو كان ما يزال بنظر زملائه أميناً عاماً للمؤتمر الوطني الإفريقي، ومانديلا شريكه الحميم.

وضع المسودة الأولى لميثاق الحرية المهندس الشيوعي راستي بيرنشتاين، الذي أضاف مقدمة وخاتمة بلهجة خطابيه اعتبرها فيما بعد مفرطة في التفتح.[26] وفي أوائل حزيران (يونيو) عرضت المسودة على مجموعة تخطيط صغيرة، من ضمنها مانديلا، الذي أجرى بعض التعديلات. كان معنى الميثاق سيصبح ساحة معركة على مدى الخمس والثلاثين سنة القادمة، في حين بقي مخللاً في التاريخ، وقد سجن واضعوه أو نفوا إلى الخارج. وكان يدان أحياناً كوثيقة ماركسية، أبرز ما تعد به هو أن «الثروة المعدنية تحت الأرض، وصناعة المصارف والاحتكارات، ستؤول ملكيتها إلى الشعب كله». لكن الحقيقة هي أن الميثاق كان مصمماً ليعطي كل شيء للجميع: رأى مانديلا أنه جبل من طلبات العامة، المنبثقة من حياتهم اليومية.[27] وكان ينادي بمبادئ أكثر مما ينادي بسياسات، بأسلوب حماسي كأنه مزمار سياسي. قال مايكل هارمل، المؤرخ الماركسي لمنظمة الشعب الملون في جنوب إفريقية، وله بعض الحق، إن الميثاق يتبع ما درجت عليه العادة من إعلان حقوق الثورة، الفرنسية والأمريكية، كما يعكس شيئاً من إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة.[28]

استهل ميثاق الحرية بالكلمات التالية:

> نحن، شعب جنوب إفريقية، نعلن لبلدنا ولكل العالم:
>
> أن جنوب إفريقية ملك لكل من يعيش فيها، أسود كان أم أبيض، وأن ليس لأية حكومة أن تدعي السلطة بحق، ما لم تعتمد على إرادة الشعب.[29]

حدد مؤتمر الشعب يوم 26 حزيران (يونيو) 1955 (وقد رسخ الآن احتفالاً سنوياً بعيد الحرية) وعقد المؤتمر في ملعب رياضي خاص في كليبتاون KlipTown قرب سويتو. احتشد ثلاثة آلاف من وفود جميع أرجاء البلاد في المشهد المبهج، الذي بدا أشبه بعيد ديربي Derby Day (يوم سباق الخيل) من تظاهرة مناهضة. وكان بين الوفود قرويون سود متعبون وعمال مكاتب بربطات عنق زاهية، ومحامون هنود ناعمون مع زوجاتهم اللاتي يرتدين الساري، وجدات سود يترنحن في تنانير واسعة بألوان المؤتمر الوطني الإفريقي.[30] كان التأثير الشيوعي واضحاً بدلالة الأكشاك التي توزع كتيبات يسارية ورسالة أخوية من تشو إن لاي في بيكين، لكن الاجتماع بحد ذاته كانت له طبيعة مرتاحة وحميمة تميز اجتماعات الكونغرس التقليدية، بحضور عناصر مسيحية بينها الأب هادلستون، الذي منح وسام شرف خاص من المؤتمر الوطني الإفريقي.

وقد منع مانديلا، مثل معظم المنظمين، من الحضور واستطاع أن يرقبه من بعيد فقط، وكان قد توجه بسيارته إلى كليبتاون برفقه سيسولو، وتجول حول الجمع متنكراً، ووقف بعض الوقت قرب رجل ملتح من الترانسكي، معجباً بالتزام الناس.[31] بدا مثيراً للدهشة أن اجتماع كليبتاون نفسه لم يمنع، وسرعان ما اتضح السبب في ذلك. . .

راقب مانديلا المؤتمر وتابع سيره البطيء، في اليوم الأول تلي ميثاق الحرية بثلاث لغات، وتمت الموافقة عليه بصيحات /إفريقية/ من الجماهير. وفي اليوم الثاني قوبلت كل فقرة من الميثاق بالهتاف والتصفيق، إلى أن وصلوا إلى كلمات «سيعم السلام والصداقة». عند تلك النقطة قوطع الاجتماع فجأة باندفاع رجال الشرطة وعناصر الأمن بين الحشود مسلحين بالبنادق. وأمسك ضابط أفريقاني مكبر الصوت وأعلن أنهم يحققون في قضية خيانة عظمى، ويبحثون عن وثائق مخربة. سجلت الشرطة أسماء جميع الحضور قبل أن تسمح لهم بالمغادرة، حيث انسحبوا بسلام فيما كانت فرقة موسيقية تعزف بأبواق

مبعوجة وطبول مكسرة أغاني إفريقية، شعر مانديلا برغبة شديدة في الانضمام إليهم، إلا أنه راجع نفسه، وعاد أدراجه إلى جوهانسبورغ ليحضر اجتماعاً طارئاً لقيادة المؤتمر الوطني الإفريقي. كان مرضياً أن تدرك الشرطة أهمية المؤتمر. لكن مانديلا عرف أن الغارة كانت «مؤشراً بانعطاف حاد جديد.»[32]

سرعان ما اكتسب ميثاق الحرية زخماً مستقلاً. ولما لم يكن قد أقر بشكل كامل في مؤتمر الشعب، كان وضعه مقلقلاً. حيث رأى راستي بيرنشتاين أن الميثاق قد «خرج عن سيطرة المؤتمر وبسبب قلة التبصر فقد اتخذ منحى حراً خاصاً به».[33] أسهبت الصحف البيضاء في تغطية أخبار الاجتماع وتدخل الشرطة فيه إلا أنها لم تنشر الميثاق نفسه. لكن نص الميثاق سرعان ما تردد صداه داخل المؤتمر الوطني الإفريقي وتحداه نقاد أقوياء.[34]

ناقش المؤتمر السنوي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1955 الميثاق في جو عاصف، فيما منع معظم مهندسيه من الحضور. وتشكت التنفيذية الوطنية من أن كثيراً من فروع المؤتمر الوطني الإفريقي «أظهرت تراجعاً تاماً في النشاط، كما لو أن بعضهم ندم على ولادة هذه الفكرة النبيلة والعظيمة».[35] وشعر لوثولي نفسه بعدم الارتياح، كما قال لآرثر ليتيلي Arthur Letele زميله في المؤتمر، لكنه أدان الميثاق وطرح فكرة «القومية الإفريقية الشاملة» التي تضم جميع الجنوب إفريقيين. قاوم كثير من الوطنيين، الذين أطلقوا الآن على أنفسهم اسم «أنصار إفريقية»، التعاون مع الأعراق الأخرى. وكتب رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي السابق ألفريد زوما رسالة تشكى فيها من «ميول معينة» داخل المؤتمر. التي اعتقد أنها «فقدت هويتها كحركة تحرر وطنية ذات سياسة خاصة بها مختلفة عن القيادة الإفريقية»، وأكد أستاذ مانديلا السابق بيتر مدا القومية الأصلية لرابطة الشباب في مقالة في مجلته «الإفريقي» جاء فيها: «لمسنا منذ البداية الحاجة الملحة لتخليص المؤتمر

الوطني الإفريقي من الهيمنة الأجنبية». وقال: «لم يترك أي رجل أبيض بصمته علينا».[36]

وأجّل المؤتمر السنوي عملياً إقرار ميثاق الحرية إلى مؤتمر خاص يعقد في إورلاندو في نيسان (أبريل) 1956. وهناك أثار عاصفة جديدة. تذمر أنصار إفريقية من أن المؤتمر يزخر بـ «الميثاقيين» وهاجموا فكرة أن الأرض ملك للجميع، بشكل واضح في عبارة «جنوب إفريقية ملك لكل من يعيش فيها» التي اقترحت الملكية العامة. وكان لدى لوثولي وفرع ناتال مخاوف خاصة حول التعابير الاقتصادية في الميثاق، إلا أنهم تجاوزوها لصالح الوحدة، إذ لم يشاؤوا شد عضد أنصار إفريقية.[37]

كان لوثولي يقاوم الضغط للابتعاد عن الحلفاء اليساريين وفي ذلك العام اقترحت ماري لويز هوبر صديقته البيضاء الغريبة الأطوار في كاليفورنيا، التي كانت تجمع التبرعات للمؤتمر الوطني الإفريقي في أمريكة، أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يغير محامييه الرسميين، مانديلا وتامبو، لأن سمعتهما كيساريين تنفر المتبرعين. أجاب لوثولي أنه في الوقت الذي لا يحب الشيوعيين «فإنه ليس تصرفاً يخلو من الحكمة فحسب وإنما يعني أن نضيع خدمات أي من محامينا المخلصين والمجربين لمجرد اتجاههم اليساري».[38]

أقر ميثاق الحرية أخيراً من قبل المؤتمر. وكان إنجازاً كبيراً أن يتبنى المؤتمر الوطني الإفريقي بياناً غير عرقي في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الأفريقانية تفرض سلطتها العنصرية الشاملة.[39]

كتب مانديلا فيما بعد: «للمرة الأولى في تاريخ بلدنا شجبت القوى الديموقراطية بغض النظر عن العرق والقناعة الإيديولوجية والانتماء الحزبي والمعتقد الديني، ونبذت العنصرية بكل أشكالها».[40] إلا أن الميثاق أقر مقابل انشقاق ضار، سيقسم المؤتمر الوطني الإفريقي إلى قسمين بعد عامين من ذلك.

أعطى نيلسون مانديلا تفسيره الخاص لميثاق الحرية، الذي ستصبح له أهمية كبيرة فيما بعد، في مقال مهم في مجلة التحرير «ليبريشين» في حزيران (يونيو) سنة 1956، في الذكرى السنوية الأولى لمؤتمر الشعب. لم يكن ذلك رأيه وحده: فجميع المقالات في مجلة «ليبريشين» تراجعها هيئة التحرير كلها، وقد طلب من مانديلا أن «يصحح الافتراض بأن ميثاق الحرية كان وليد دولة اشتراكية». [41] رسخ المقال التفسير الماركسي للميثاق، الذي قال مانديلا إنه «وثيقة ثورية لأن التغييرات التي يصورها لا يمكن تحقيقها دون كسر التركيبة الاقتصادية والسياسية لجنوب إفريقية الحالية». وركز على الحاجة إلى الملكية العامة قائلاً: «الميثاق يسدد ضربة قاضية لشركات مناجم الذهب المالية الاحتكارية التي نهبت البلد على مدى قرون واستعبدت شعبه». [42]

لكنه رحب في مقطع حاسم بالفرصة التي ستتاح للتوسع في الاستثمار الحر قائلاً «إن فك هذه الشركات الاحتكارية وإخضاعها للديموقراطية سيفتح مجالات جديدة لظهور طبقة برجوازية غير أوربية غنية. ولأول مرة في تاريخ هذا البلد ستتاح للبرجوازية غير الأوربية فرصة ملكية اسمها الخاص وستزدهر المطاحن والمصانع والتجارة الصحيحة والاستثمار الحر كما لم تزدهر من قبل أبداً». [43]

بقي صدى هاتين الجملتين يتردد في المحاكمات والنقاشات الغاضبة في جزيرة روبن. وقد حذفت ـ كما نوه التروتسكيون بمتعة ـ من مقالة «الليبريشين» عندما ظهرت في كتابات وخطابات مانديلا، التي حررتها روث فيرست في لندن وأعيدت طباعتها مرات عديدة. [44] لكن مانديلا واصل التعبير عن اعتقاده بان «الاستثمار الخاص سيشهد في ظل المؤتمر الوطني الإفريقي ازدهاراً لم يعرفه من قبل»، سيكون له أهمية عملية جداً بعد أربعين عاماً.

(همشت) النقاشات حول الأنظمة الاقتصادية في المستقبل لصالح النشاطات الأكثر فورية للحكومة الأفريقانية. وفي منتصف الخمسينات كان

الوطنيون يبسطون سياسة الأبارتيد بسرعة أكبر بكثير و أعمق مما توقع مانديلا ورفاقه في البداية عام 1954. تقاعد الدكتور مالان عن عمر يناهز الثمانين، ليخلفه كرئيس للوزارة هانز ستريجدوم، المدافع الضاري عن الهيمنة البيضاء، دون مهارة ثقافية تذكر. إلا أن مفهوماً أكبر طموحاً «للأبارتيد الكبير». كان قيد الإعداد من قبل الدكتور هندريك فيروورد Hendrik Verwoerd وزير الشؤون الأهلية، الذي سيصبح رئيساً للوزراء عام 1958.

كان فيروورد، بوجهه البريء وصوته الرقيق، حالماً ليست لديه أية شكوك حول الصوابية الأخلاقية لمخططه للفصل الكامل بين السود والبيض، مخطط جذب اهتمام المثقفين الأفارقة وسواهم كحل نهائي لمشكلة العلاقات العرقية. لكن لا يمكن تحقيقه إلا ببرنامج هندسة اجتماعية قاس ومتطرف، وترحيلات جماعية أشبه بتصرفات الحكومات الشيوعية في أوروبا الشرقية منها بأي نموذج للمشاريع الحرة في الغرب. وفي الوقت الذي كانت الحكومات الأفريقانية تصور نفسها نصيراً للمشاريع الحرة، كانت تباشر تدخلاً حكومياً لا سابق له يعتدي باستمرار على الحياة اليومية للإفريقيين. وبدت النواحي السوداء الجديدة، بآلاف البيوت المتماثلة التي لا تزينها الدكاكين أو التجارة، كمجسمات ساخرة للسكن الشعبي للبروليتاريا المحتشدة.

أمضى مانديلا وقتاً طويلاً يحلل ويفند مؤامرة فيروورد المقززة ـ على حد تعبيره ـ.[45] ورأى أن فيروورد يتبع الأفكار العريضة لاشتراكية هتلر الوطنية ومبادئه العرقية، التي خطط لأن يحكم بموجبها المستعمرات الألمانية في إفريقية. وفي حزيران (يونيو) 1957 كتب مانديلا: «لقد أصبحت الفاشية حقيقة حية في بلادنا. وأصبح التغلب عليها المهمة الأساسية لكامل الشعب في جنوب إفريقية».[46] ولكن كان لدى فيروورد ما يدعوه إلى الاعتقاد بأنه سيكسب دعم قادة القبائل، وذلك عن طريق تشجيع تنافساتهم وخلافاتهم. وأتيحت له فرصة خاصة ليفعل ذلك في الأماكن البلدية حيث الزعماء يخشون على نفوذهم

الإقليمي ومزاياهم. قلة فقط من الزعماء، مثل ألبرت لوثولي، كانت مستعدة لأن تستقيل من زعامتها على أن تخدم كقوة أجنبية. وكما في أوروبا إبان الحرب، كان لا بد من شجاعة كبيرة لمقاومة إغراء العمالة لنظام بتلك القوة.

رأى مانديلا الآن أنه ينتمي بحزم إلى جوهانسبورغ، التي صاغت خطه السياسي ومواقفه الراشدة. إلا أنه أبقى على علاقاته بالريف، كما أن أصوله الملكية ونشأته قد أعطياه إحساساً أعمق بالتفاعل مع أرض وطنه أكثر من أي من زملائه. إذ كتب فيما بعد: «إن أربع عشرة سنة من الحياة المزدحمة في أكبر مدن جنوب إفريقية لن تقتل روح الفلاح فيَّ». وفي أيلول (سبتمبر) 1955 نفذت فترة منعه من السفر فقرر أن يزور الترانسكي ثانية.

وإذ قاد سيارته عبر ناتال استمتع مرة أخرى بالمشهد الطبيعي الواسع، ويقربه من الطبيعة، وشعر بلذة تنعكس من خلال كتاباته. تذكر ارتباطات الأرض التاريخية، والمعارك القديمة من أجلها أولاً بين الزولو والبريطانيين، ثم بين الأفارقة والبريطانيين. وتساءل: «هل هو الأفريقاني نفسه الذي قاتل بكل تلك الضراوة من أجل حريته، هو الذي أصبح ذلك الطاغية الذي يضطهدنا؟». [47] وفي دوربان أقام عند صديقيه الهنديين إسماعيل وفاطمة مير، وزار لوثولو وهو تحت الحظر في غروتفيل. ولدى وصوله إلى بيت الأسرة في الترانسكي رأى والدته ثانية، بشعور مختلط من الحنين والتقصير. ودعاها لتأتي وتقيم معه في جوهانسبورغ، لكنها اختارت أن توالي حياتها وحيدة، تبعد عشرين ميلاً عن أي طبيب، فلاحة بسيطة ما زالت تحرث الحقول وتتحمل الظروف القاسية. [48] في السجن كان دائماً مشغول البال بها، لكنها شجعته على الدفاع عن معتقداته، وعاد فأكد لنفسه أن نضاله يعطي شعبه معنى جديداً للحياة. [49]

كان هدفه الرئيسي من زيارته الترانسكي سياسياً. فقد كانت الحكومة مصممة الآن على بسط الأبارثيد بواسطة قانون سلطات البانتو الجديد، الذي

يرفع سوية الزعماء محلياً لكنه يتبعهم بحكامهم البيض في بريتوريا. وترانسكي كانت حقل التجربة. رفض البانغا Bunga ـ مجلس زعماء الترانسكي ـ القانون الجديد عام 1952، إلا أن الحكومة أغرتهم بسلطات مالية وقضائية أكبر، وعام 1955 صوت البانغا على القبول به. انزعج مانديلا، لكنه كان واقعياً، فقد فهم بوضوح، بموجب أرضية الزعامة التي عاشها، مدى إغراء التواطؤ. وفي تموز (يوليو) 1955 كتب مقالاً أثار جدلاً كبيراً لمجلة / فايتينغ توك/ Fighting Talk بعنوان /إغواء البانغا لقبول الأبارثيد / Bluffing the Bunga into Apartheid وأشار إلى أن الحكومة ستدفع لكل زعيم أو رئيس، وتطرده إذا لم يستجب، كما طرد الزعيم لوثولي عام 1952. كان ذلك جزءاً من «إغواء متعمد» لخداع القادة القبليين السذج إلى الاعتقاد أن لهم صوتاً في حكومتهم. لكن مانديلا أدرك ضعف دعاية المؤتمر الوطني الإفريقي في مواجهة تأثير الزعماء على الناس، وحث المؤتمر الوطني الإفريقي على إعادة النظر في قراءة مقاطعة الانتخابات الترانسكية القادمة: «ألا يجب أن تستخدم هذه الهيئات كمنابر لفضح سياسات الحكومة الوطنية وجذب الناس نحو حركة التحرير؟». [50]

نظر مانديلا إلى النزاع من زاوية شخصية جداً. فقد كان قيصر ماتانزيما ابن أخته الذي كان بطلاً في فورت هير، قد أصبح الآن الزعيم الأكبر لأراضي تيمبولاند الغربية الشاسعة، وقد ساعد في إقناع البانغا بقبول القانون الجديد. كان بين الرجلين اللذين خلقا للزعامة، وكلاهما محام جدير بالثقة، أمور كثيرة مشتركة، وود عائلي دائم. إلا أن ولاءاتهما الآن كانت مختلفة تماماً، ووجدا نفسيهما على طرفي نقيض في نظار كلاسيكي بين المتواطئ والمقاوم. لم يعد مانديلا يؤمن بمبدأ الوراثة الذي أفاد منه ماتانزيما، فيما كان ماتانزيما يرى مانديلا جوهانسبورغياً «بعيداً عن أهل وطنه».

أثناء زيارته للترانسكي تجادل مانديلا مع ماتانزيما طوال الليل، متحاشياً بحذر التعميمات النظرية. وحذره من أن الحكومة تهدف إلى تفريق السود

للسيادة عليهم، وقال إن المقاومة ستتفادى مذابح قادمة. أجاب ماتانزيما بأن الزعماء سيزدادون قوة في ظل نظام الأبارثيد، وأن سياسة التعددية العرقية ستزيد الانشقاق العرقي، مما يؤدي إلى إراقة الدماء والمرارة. ورأى نفسه كأنه في خضم معركة.

يذكر ماتانزيما بعد أربعين سنة «كان موقفي موقف المصالحة مع الأفارقة. فالأسود والأبيض يجب أن يلتقيا في الترانسكي».[51] حزن مانديلا للجمود. وكتب فيما بعد في السجن: «كنت أتمنى أن أقاتل جنباً إلى جنب معه. وأشاركه أكاليل الغار». لكن ماتانزيما كان وقتها منحازاً بشدة إلى جانب أعداء المؤتمر الوطني الإفريقي.

تابع مانديلا جولته في البلاد. فذهب إلى بورت إليزابيث حيث التقى لأول مرة غوفان مبيكي الناشط الماركسي الذي كان ينظم المؤتمر الوطني الإفريقي في الكيب الشرقية. ثم زار منظم الحملة الإنكليزي كريستوفر جيل Christopher Gell الذي كان يعيش برئة حديدية، كان يوجه منها النصيحة الخالصة للمؤتمر الوطني الإفريقي والانتقادات الحادة للأبارثيد في رسالته الإخبارية ـ تقرير أشعة إكس من إفريقية ـ لم ينس مانديلا أبداً هذا الحليف غير العادي. وعندما مات جيل قام المؤتمر الوطني الإفريقي بتنظيم جنازته، التي كان النادبون السود فيها أكثر من البيض.

تابع مانديلا رحلته إلى كيب تاون، مسحوراً بطريق الحديقة المشهور Garden Route، وتوقف في كلاركسون Clarkson ليستمتع بالمنظر الرائع ويرقب إمكانية اختباء المقاتلين الفدائيين في الغابات: «كان رأسي مليئاً بالأفكار الخطيرة». وفي كيب تاون لم ير التروتسكيين الذين تناقش معهم منذ سبع سنين، ولكنه تحرك بين أوساط الشيوعيين ورجال الدين. وزار مكاتب النيو أيدج New Age ـ العصر الحديث ـ حيث وجد الشرطة تقوم بالتفتيش وتضع يدها على أوراق، وذلك نذير شؤم قادم. بقي مانديلا أسبوعين في ناحية لانغا

Langa السوداء مع ميثوديين ناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي، وتجول بسيارته حول الكيب لينظم الفروع (برغم أنه كان يرتاح أيام الآحاد). وقبل أن يغادر الميثوديين ركع وصلى ليحفظه الله في رحلة العودة.

عاد مانديلا إلى أسرته في أورلاندو وهو يشعر بالنشاط والحيوية، وبأنه ازداد معرفة بحقائق الريف. وحذر رفاقه من أن المؤتمر ضعيف جداً في الترانسكي حيث يجابهه الزعماء المحافظون والشرطة السرية القوية، وحث على «مقاطعة من الداخل». كان النقاش عاجلاً، في الوقت الذي اندفعت الحكومة قدماً بتطبيق «الأبارثيد الكبير». وكانت لجنة حكومية، برئاسة البروفيسور اف.آر. توملينسون F. R. Tomlinson ليس فيها أي أسود قد وضعت مخططاً طموحاً لتأليف سلسلة من الكيانات المنفصلة، (البانتوستان) Bantustans يتطور فيها الإفريقيون وفق خطوطهم الخاصة، بإدارتهم الذاتية وصناعاتهم.

قبلت الحكومة معظم الخطة فيما رفضت مقترحاتها الأكثر ليبرالية، واستعدت لتقسيم جنوب إفريقية إلى (بانتوستانات) منفصلة، أولها الترانسكي. وحذر مانديلا من أن (البانتوستانات) لن يكون لديها تصور حقيقي لتطوير سياساتها، فيما هي تقدم خدمات من اليد العاملة الرخيصة للمخدمين البيض.[52]

كانت خطط الأبارثيد تنتشر في كل مكان، كما كانت الحكومة مصممة على فرض فصل تام في المدارس .وأعطى قانون تعليم البانتو الذي صدر في نيسان (أبريل) 1953 بريتورية سيطرة على جميع مدارس البعثات، وصولاً إلى فرض مبدأ (حسب تعبير فيروورد الشهير) «لا مكان للبانتو بين أوساط مجموعة الأوروبيين خارج مستوى بعض أنواع الخدمة». وكما قال فيروورد للمجلس النيابي «الظروف العرقية لا يمكنها أن تتحسن إذا أعطي نوع خاطئ من التعليم للأهالي. إنهم لا يستطيعون التطور إذا كانت نتيجة تعليم الأهالي هي تخريج

أناس محبطين، لديهم - نتيجة للتعليم الذي تلقوه - آمال في الحياة لا تسمح العلاقات في جنوب إفريقية بتحقيقها فوراً». [53]

كان مانديلا مجرد واحد من الأهالي المحبطين. فإزاء كل ما كان يتشكى منه في الماضي حول إمبريالية البعثات فإنه كان دائم التقدير لأساتذته، وسيصبح أكثر امتناناً لهم فيما بعد. وحزن عندما وافق الميثوديون على تسليم مدارسهم للحكومة: «لا بد أن فيروورد قد رقص»[54]، كما سلمت معظم المدارس الانغليكانية، لكن الكاثوليك الروم أبقوا على مدارسهم دون مساعدة الدولة. [55] خشي مانديلا أن يؤدي نظام التعليم القبلي الجديد، المبني على الفصل الإقليمي، إلى مزيد من الإساءة للوحدة الوطنية للمؤتمر الوطني الإفريقي: «إن الشعب الإفريقي يجزأ إلى وحدات قبلية صغيرة، معزولة عن بعضها بعضاً، للحيلولة دون نمو الشعور الوطني فيما بينهم، ولترسيخ مستقبل قبلي معزول وضيق». [56]

فجر قانون تعليم البانتو موضوعاً شائكاً هو مدارس الأبارثيد. كان مانديلا واقعياً أكثر من معظم أعضاء المجلس التنفيذي الوطني للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي أراد المقاطعة الدائمة. فحذر من أنهم لن يستطيعوا متابعتها، ولن يتمكنوا من تقديم بديل فاعل. ويجب ألا يعدوا بما لا يستطيعون تنفيذه. إلا أن رأيه لم يؤخذ به، وناشد المؤتمر الوطني الإفريقي إبقاء الأطفال بعيداً، وحاول إحداث مدارس تابعة له. إلا أن مدارس المؤتمر الوطني الإفريقي كانت تخضع لانتهاكات الشرطة، وأصبح الأهالي تواقين إلى أي نوع من التعليم. واضطر المؤتمر الوطني الإفريقي إلى التخلي عن المقاطعة. وسيحكم المؤرخون على خطتهم بقسوة؛ إذ كتب فرانك ويلش Frank Welsh عام 1998 «بين جميع الحملات التي قام بها المؤتمر الوطني الإفريقي، كانت الحملة المناهضة لتعليم البانتو الأفقر تخطيطاً، والأكثر فوضى، وقد اعتبرها معظم الإفريقيين الأكثر بلبلة». [57] وبرر تحذير مانديلا. إذ كتب: «كانت مسؤولية كبيرة، أن تختار

أهون الشرين إما أن تقاتل حتى النهاية المرة، حتى إذا انقلب معظم الأطفال إلى الشوارع، وبين حل وسط يستطيع على الأقل أن يبقيهم في غرف الدرس» .[58]

سرعان ما اتبع الأبارثيد في المدارس بالأبارثيد في الجامعات. إذ ضغطت الحكومة التعليم العالي في القالب نفسه. وسيؤدي تطبيق قانون التعليم الجامعي لعام 1959 إلى سلب استقلال جامعات مانديلا القديمة فورت هير وويتز، ويفرض فصلاً صارماً ويزيح السلم الذي أوصله ورفاقه إلى عالم أوسع، ويقطع اتصالات الطلاب السود بالأعراق الأخرى. مما هدد نظام الحكومة. وقد كتب مانديلا في «الليبريشين» عام 1957: «إن الصداقة والانسجام العرقي يشكلان خطراً مباشراً على كامل سياسة الأبارثيد والباسكاب (هيمنة البيض)» .[59]

راقب مانديلا طرق شبابه الواعد تغلق وراءه. إذ قطعت المدارس والجامعات عن التأثير الواسع للثقافة الليبرالية الإنكليزية التي قولبت مواقفه الخاصة. كانت الحكومة تظهر المدى الكامل لوحشية سياستها، في الوقت الذي يُفرّق الشعب لتحبط معارضته. مازال مانديلا على اعتقاده بأن البنى الجديدة يجب أن تقاوم من الداخل، لكن كان لا بد من انتظار عشرين سنة ليثبت أنه على صواب، على أيدي أطفال المدارس في سويتو. في هذه الأثناء كانت مدارسه القديمة قد خفضت أولاً، ثم دمرت من قبل الأبارثيد. وعندما عاد جاك دوغارد Jack Dugard، المدير السابق لمدرسة إعداد المدرسين في هيلد تاون إلى هناك عام 1967 وجد أن جميع طاقم العاملين من الأفارقة، ما عدا واحد، وكلهم مهووس بسلامته الشخصية، فيما غرف الصف كلها أكلتها النيران. فسأل: «كيف يمكن للتعليم أن يتقدم في جو كهذا ؟» .[60] حظي مانديلا برؤية مستقبلية خاصة بفضل وصله جذوره الريفية. ففي شباط (فبراير) 1956 قام برحلة وجيزة إلى الترانسكي بصحبة سيسولو، لشراء قطعة أرض في أمتاتا Umtata، انطلاقاً من مبدئه أن الإنسان يجب أن يملك أرضاً قرب مسقط رأسه.[61]

وبعد عودته إلى جوهانسبورغ منع للمرة الثالثة، مما حرمه من مغادرة

المدينة خمس سنوات أخرى. وخلص إلى أن «الشرطة تعتقد أنها منحتني حبلاً بطول يكفي لتجوالي»، إلا أنه هذه المرة كان أكثر تحدياً، وأكثر احتقاراً للمنع. وقد كتب في السجن: «كنت مصمماً على أن ضلوعي في النضال ومدى نشاطي السياسي لن يقررهما أحد سواي». [62] وأجبره المنع على أن يصبح أكثر اعتماداً على النفس، وأكثر بعداً عن أية آلة حزبية. لكن في الوقت نفسه كان اضطهاد الحكومة يجبر المؤتمر الوطني الإفريقي وحلفائه على مزيد من التقارب.

كان مانديلا يتقدم على مسار تصادمي واضح مع الحكومة التي كانت تراقبه بحذر . وبعد الحكم عليه بالحظر كتب إلى وزير العدل يوم 13 نيسان (أبريل) يسأله عن الأسباب ، وبعد ثلاثة أشهر تلقى رداً طويلاً (ما زال محفوظاً في أرشيف الدائرة) يفيد أنه حط من شأن البيض وحرض السود على عصيان القوانين وتأسيس حكومة سوداء، وذكره بخطاباته الحماسية التي ألقاها خلال ست سنوات خلت. وفي 22 حزيران (يونيو) 1950 قال: «لقد مضت قرابة ثلاثمئة سنة منذ أتى الأوربيون إلى هذا البلد. مات أبطال وجميلات إفريقية. لقد سرق بلدنا واستعبد». وعن المؤتمر الوطني الإفريقي قال يوم 12آذار (مارس) 1952 : «إنه المنظمة التي ستكون الحكومة المستقبلية في هذا البلد». ويوم 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1952 قال: «إذا وقف الجميع معاً، سيأتي وقت نسدد فيه دم أولئك الذين قتلوا». وقال يوم 7 آذار (مارس) 1953: «إننا في موقع أفضل إزاء الشعب الأفريقاني مما كنا ومما كانوا عندما حاربوا الإمبرياليين البريطانيين». ويوم 7 آذار (مارس) 1954 قال: «أعرف بثقة تعادل ثقتي بأن الشمس ستبزغ من الشرق أن صداماً كبيراً سيأتي غداً وأن جميع قوى الرجعية ستتداعى أمام قوات التحرير». [63]

كان محقاً بالنسبة للصدام، لكنه أخطأ فيما يتعلق بالتداعي.

9

الخيانة وويني

1956 ـ 1957

بعد مؤتمر الشعب في حزيران (يونيو) 1955 والغارات التي تلته، هددت الحكومة باعتقالات واتهامات جماعية. وفي نيسان (أبريل) 1956 قال وزير العدل سي.آر. سوارت C. R. Swart للمجلس النيابي: إن الشرطة تحقق في قضية خطيرة تتعلق بالخيانة العظمى، وإن حوالي 200 شخص سيعتقلون. لكن مسؤولي المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يميلون إلى استبعاد الفورية. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1956 قال رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال أي بي موراتسيل E. P, Moretsele لمؤتمره: «إن القضية كلها هي مجرد بهلوانيات انتخابية لكسب الأصوات. ومن المحتمل أن ينفذ الوطنيون تهديدهم، إلا أنهم لن يتعجلوا ذلك، لأن الانتخابات ستجري بعد سنتين من الآن».[1]

لم يكن في الأمر عجلة. وبعد شهر، في وقت مبكر من صباح 5 كانون الأول (ديسمبر) 1956 أفاق مانديلا على صوت قرع عال على الباب ووجد ثلاثة رجال شرطة بيض بالباب يحملون أمراً بتفتيش المنزل واعتقاله بتهمة الخيانة العظمى. وفي الأيام العشرة التي تلت ذلك أوقف 155 قائداً آخرين من جميع الأعراق ضمن ائتلاف الكونغرس بالتهمة نفسها.

لم يفاجأ مانديلا تماماً، إلا أنه لم يكن مستعداً لمحاكمة مديدة تشل نشاطه السياسي وممارسته مهنة المحاماة لمدة خمس سنوات. كان معظم المشاركين البارزين في مؤتمر الشعب في السجن الآن، باستثناءات مفاجئة،

منها الدكتور دادو ويوسف كاتشاليا وجي. بي. ماركس وغوفان مبيكي. أما تريفور هادلستون، رجل الدين الذي كرمه الكونغرس والذي كان سيضفي على المتهمين احتراماً مسيحياً خاصاً فقد استدعي إلى بريطانية من قبل رؤسائه، والليبراليون ـ الذي ظلوا بعيداً عن الكونغرس ـ لم يكونوا بين المعتقلين، وبالتالي فإن جميع البيض في المحاكمة كانوا شيوعيين، مما دعم مصداقية ادعاءات الحكومة بوجود مؤامرة ماركسية. كما أعطى الشيوعيين سمعة طيبة جديدة بين الإفريقيين لكونهم رفاقاً في الشهادة شاركوهم تضحياتهم من أجل القضية.

أتت الاعتقالات الجماعية لتحدد نهاية «الحرب الكلامية»، وفي الليلة التي سبقت الاعتقالات كان الكاتب والصحفي الأسود من جوهانسبورغ كان ثيمبي Can Thembe يقوم ـ على حد تعبيره ـ بجولته الاعتيادية على الحانات غير المرخصة يمد أنفه الإخباري. فصادف في إحداها مجموعة سكارى بينهم ثلاثة من كبار الناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي هم روبرت ريشا وتينيسون ماكيواني وليونيل موريسون، كانوا يتهمون سكيراً آخر بأنه يعيش حياة فاسقة. وقرروا إجراء محاكمة صورية يكون ريشا فيها مستشار الدفاع وماكيواني مدعياً عاماً. وانضم إليهما ثيمبي في موقع القاضي، وبعد التماسات حارة وجد المتهم مذنباً. صباح اليوم التالي اعتقل الثلاثة بتهمة الخيانة العظمى. وعندما وصف ثيمبي مشهد الحانة في العدد التالي من مجلة درام الذي نشر فيما كان المتهمون يستعدون للدفاع، استشاط مانديلا غضباً منه لإظهاره رفاقه في الكونغرس على تلك الصورة العابثة.[2]

لم يكن في الاعتقالات أي عبث، وقد لجأ مانديلا إلى المزاح مع الضابط الذي اعتقله وهو الشرطي التحري روسو لكن الشرطي حذره «أنت تلعب بالنار». فأجاب مانديلا: «اللعب بالنار هو لعبتي».[3] كانت الشرطة مصممة على إذلال السجناء الذين حشروا جميعاً في سجن القلعة الأسطوري

على تل يطل على جوهانسبورغ وأمروا جميعاً، بما فيهم شخصيات مرموقة مثل لوثولي وزد. كي ماثيوز وجيمس كالاتا، أن يخلعوا كل ثيابهم في الباحة الخارجية المربعة حيث انتظروا لمدة ساعة ليأتي طبيب أبيض ويستجوبهم، وقفوا خجلين لا ينظر أحدهم إلى الآخر، وقد كشفوا بطونهم وحاولوا تغطية أعضائهم الخاصة. أما مانديلا، الذي يثق بجمال بنيته، فقد تذكر المثل القائل «إن الثياب تصنع الرجل»، وفكر إذا كان الجسم الجميل ضرورياً للقيادة فإن قلة من السجناء سيكونون جديرين بها «حفنة فقط كان لها بنية شاكا أو موشوشو المتناسقة أيام شبابهما»، لف زميله الناتالي ماسابالالا (مارتين) إينغوا Masabalala (Martin) Yengwa نفسه بملاءة وغنى أغنية مديح زولية تقليدية تكريماً لشاكا. واستمع السجناء الآخرون بحبور. وصاح الزعيم لوثولي بالزولية «هذا هو شاكا فعلاً!»، وبدأ ينشد وانضم إلى الرقص مع الآخرون، برغم أن معظمهم لم يكن زولياً في الحقيقة. فكّر مانديلا: «كنا جميعاً وطنيين يربط بعضنا إلى بعض حبنا لتاريخنا». (4)

سرعان ما وجد السجناء تعويضاً لتوقيفهم. ومثل معظم الآخرين كان مانديلا قد منع لفترة طويلة من حضور الاجتماعات والسفر، والآن أتيحت له فرصه نادرة لتبادل وجهات النظر مع أصدقاء من مدن أخرى. وسرعان ما نظم السجناء محاضرات حول الأزمة الراهنة وتاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي. وكانوا هم أنفسهم بمثابة تاريخ حي للكونغرس، يجمع محاربين قدماء مثل كاتالا وماثيوز إلى جانب ناشطين شباب من صوفيا تاون مثل روبرت ريشا وبيتر نتيثي Peter Ntithe، وأعضاء من عائلات المؤتمر الوطني الإفريقي القدامى مثل تينيسون ماكيواني. (5)

بعد أسبوعين في السجن، نقل السجناء إلى محكمة مؤقتة جهزت من أجل تلك المحاكمة . كانت دريل هول القديمة the old Drill Hall في وسط جوهانسبورغ أثراً عسكرياً مقيتاً وعراً له سقف من الحديد المموج نصف مغطى

بالخيش وواجهة عتيقة الطراز تشرف على حديقة لاستعراض الجند. نقل مانديلا والسجناء الآخرون إلى هناك في شاحنات للشرطة ترافقها حاملات جنود، وكانت جماهير المتعاطفين تنتظرهم خارج القاعة، فيما راقبهم آخرون في الداخل يدخلون في قاعة المحكمة المقفرة. وصف كان ثيمبا المشهد كما يلي: صعد المتهمون على دفعات كل دفعة تضم عشرين شخصاً، بعضهم كان مشرقاً وبعضهم كان مكفهر الوجه، بعضم مذهول، وبعضهم مذعور، وبعضهم يأكله الحنق والغضب، وعندما صعد نيلسون مانديلا، المحامي، حدّب كتفيه وبدا يجيش بغضب مكبوت.[6]

كان القاضي اف. سي. ايه. ويسيل F.C.A. Wessel إفريقانياً أنيقاً شعره رمادي، من بلومفونتين. بدأ يتحدث، وسرعان ما اتضح أن كلماته لا تسمع بلا مكبرات صوت، فأجلت الجلسة إلى اليوم التالي، وعندما عاد السجناء، وضعوا داخل قفص سلكي ضخم بني في قاعة المحكمة، فاعترض محامو الدفاع فوراً، ففك القفص.

في النهاية بدأ النائب العام بقراءة الاتهام المؤلف من 18.000 كلمة. وقد بنيت تهمة الخيانة العظمى على خطابات وبيانات أدلى بها المتهمون على مدى السنوات الأربع الماضية منذ تشرين الأول (أوكتوبر) 1952، عندما كانت حملة التحدي في أوجها، واستمرت أثناء احتجاجات صوفيا تاون، ومؤتمر الشعب وميثاق الحرية، الذي كان المستند الرئيسي للاتهام. قال الادعاء إن المتهمين تآمروا على الإطاحة بالحكومة بالقوة واستبدالها بدولة شيوعية. ولكن كان عليهم إثبات نوايا العنف.

فكر مانديلا كم من المرات ترددت تهمة الخيانة في التاريخ القصير لجنوب إفريقية. ففي كلا الحربين العالميتين ثار بعض الأفارقة ضد الحرب مع ألمانية، وحملوا السلاح إلى جانب عدو الحكومة، وحوكموا بتهمة الخيانة. تمهل الأفارقة في الحكم بإعدام الأشخاص الذين ينتمون إليهم، وعندما تولت

حكومة الدكتور مالان السلطة أطلقت سراح جميع من اتهم بالخيانة إبان الحرب العالمية الثانية، وخاصة النازي الفاسد روبي ليبراندت Robey Leibbrandt. لكن مانديلا كان يعرف أن الوطنيين سيكونون أشد قسوة تجاه أعدائهم السود. ولم يعتقد أن الحكومة تؤمن فعلاً بأن المتهمين مذنبون بالخيانة. فميثاق الحرية، أولاً وأخيراً، أعلن عن مبادئ مقبولة في جميع أرجاء العالم المتمدن. واعتقد أن المحاكمة كلها كانت مكيدة، وأن الحكومة أرادت أن تجمد عمل قادة الكونغرس بضع سنين.[7]

وسرعان ما أدرك أن المحاكمة ستطول فترة أطول بكثير مما كان يتوقع. ففي اليوم الرابع أخلي سبيل 156 سجيناً بكفالة 25 جنيهاً للسود و250 جنيهاً للبيض (حتى الخيانة لم تكن مصابة بعمى الألوان، حسب تعبير مانديلا). وأن يضمن الأموال الأنصار.[8] وأجلت المحاكمة إلى كانون الثاني (يناير) 1957، وسمح للمتهمين بالعودة إلى بيوتهم. ولكن كان واضحاً أن حياتهم ستبقى مقلقلة لفترة طويلة من الزمن.

الاستجوابات المبدئية، التي بدأت في كانون الثاني (يناير) 1957، كانت تهدف فقط لإثبات ما إذا كان هناك قضية تستحق أن تطرح للمحاكمة أمام القضاء الأعلى. إلا أن هذه العملية ستطول على مدى تسعة أشهر وثلاثة ملايين كلمة، قبل أن يستجوب أي من الشهود أو يستنطق. وبعد دراما الاعتقالات الصاخبة سرعان ما تحولت التحقيقات الأولية إلى مزيج غريب/ مخيف من الضجر والدعابة والتهديد والوعيد. واستمر ذلك الطقس يوماً إثر يوم تحت سقف من الصفيح خلال الصيف القائظ. كل صباح كان ويسيل، القاضي الدمث، يدخل ويلامس بخفة زاوية طاولته إذ يمر، ويتابع المدعي فان نيكيرك Van Niekerk الأشعث الشعر، الذي أطلق عليه جو سلوفو اسم لي آبنر Li Abner، يتابع اتهامه بلهجة رتيبة.[9] وتمكن معظم المتهمين من الحفاظ على حسن الإدراك، وعندما أَمَرَّ كاثرادا رسماً كرتونياً عارياً يمثل آندي كاب Andy

Capp الشوفيني المغطى بثوب الكاهن في صحيفة الديلي ميرور اللندنية إلى أحد الرفاق أجاب بأنه لم يستطع أن يدرك علاقته بالماركسية ـ اللينينية، فقال كاثرادا إنها قد تساعد الناس في فهم أغلبية البروليتاريا Lumpenproletariat .(10)

سرعان ما اختفت أخبار المحاكمة من عناوين الصحف، ونسي الجوهانسبورغيون البيض الخطر المفترض الذي يتهدد بقاءهم الذي كانت تقلب أوجه النظر فيه. وإذ راقبت الأمر يوماً إثر يوم كان علي أن أذكر نفسي دائماً بالأهمية الحقيقية للمحاكمة، فيما كان رجال الشرطة الأفارقة والبيض يكشفون مدى جهلهم وعجزهم. كان محامي الدفاع الرئيسي فيرنون بيرانجيه Vernon Berrange الذي كان في السابق سائق سيارة سباق وطياراً مقاتلاً، كان حاداً واستعراضياً في أسئلته وأسقط معظم الأدلة التي قدمها جواسيس وشرطة تحرٍ يكادون لا يعرفون القراءة. وإذ كتب من سجنه، تذكر مانديلا أن المتهمين كانوا يطلقون على المحامي اسم إيزانغوما Isangoma (العرّاف).(11) وحقق بيرانجيه ضربته الكبرى عندما استجوب الشاهد الخبير لدى الدولة في الشيوعية البروفيسور موراي Murray، واستشهد بمقطع إدانة موراي كونه «شيوعياً من عظام الرقبة» وتبين أن موراي نفسه هو الذي كتبه.

أخفت الطبيعة التهريجية لأدلة الاتهام، الخطر الحقيقي للمحاكمة، فقد حذر القاضي المتهمين المقهقهين في إحدى النقاط: «هذه الإجراءات ليست مضحكة كما قد يبدو».(12) وكان مانديلا قلقاً حيال طيش بعض المتهمين الشباب: عندما رفع ليونيل موريسون Lionel Morrison وآخرون مظلة ليحتموا تحتها من السقف الذي يقطر ماءً، عنفهم بشدة.(13) كان يدرك تماماً مدى الخطورة، ويعرف أن إهانة الشرطة ستزيد الحكومة إصراراً على تجميد المؤتمر الوطني الإفريقي.

استبشر مانديلا خيراً بمقاطعة للحافلات في ألكساندرا، بدأت بعد أسبوع من الاعتقالات بتهمة الخيانة، ـ بعد أربع عشرة سنة على المقاطعة التي تركت أثراً لا ينسى لديه عندما كان يعيش في ألكساندرا عام 1943 ـ مرة أخرى عاد المرتحلون يسيرون اثني عشر ميلاً في اليوم بدل أن يدفعوا قرشاً واحداً زيادة للحافلات. قال لوثولي إن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن له يد في تنظيم المقاطعة، ويمكنها فقط القول إنها «ساعدت في خلق جو من المقاومة يمكن خلاله أن يحدث شيء كهذا».[14] إلا أن المقاطعة ألقت منظمين محليين جدداً خارج قاعة المحكمة، بينهم اثنان من الناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي هما توماس نكوبي Thomas Nkobi وألفرد نزو Alfred Nzo، اللذان أصبحا من القادة البارزين فيما بعد. أخيراً اضطرت الحكومة إلى الاستسلام للمقاطعين فأقرت قانوناً خاصاً يفرض على أصحاب العمل دعم أجرة الحافلة. وكان أول قانون يسنّه المجلس النيابي خلال أربعة وسبعين عاماً من عمر الاتحاد، نتيجة لضغط إفريقي. وذكّر مانديلا أن المقاطعة يمكن أن تكون أداة قوية، لكنها حركة تنظيمية «تكتيك» وليست خطة شاملة «استراتيجية». وكتب في «الليبريشين» في العام التالي: «المقاطعة ليست بحال من الأحوال مسألة مبدأ، وإنما هي سلاح تكتيكي».[15]

بقي مانديلا أبعد عن الأضواء، في قاعة المحكمة من لوثولي أو ماتثيوز أو سيسولو. فلم يظهر أبداً في التغطية الصحفية التي نشرتها صحيفة نيو إيدج اليسارية، التي كانت المؤرخ الرئيس لأحداث المحاكمة يوماً بيوم، فقد بدا منعزلاً عن الآخرين، بقامته الطويلة وثيابه النظيفة، يحمل حقيبة أوراق ويتحدث بترو بطيء، كان مايزال يحتفظ بشيء من أسلوب الزعيم المتباهي الذي علق وسط زحام المدينة الجلف. وقد رأت ماري بنسون Mary Benson، كاتبة سيرة مانديلا فيما بعد، التي عملت معه في صندوق الدفاع عن قضية الخيانة، رأت

فيه شاباً بارعاً ماهراً ماكراً مبتذلاً بعض الشيء ولم تعره اهتماماً كبيراً، ولم تحمله على محمل الجد.[16] لكن محامي الدفاع لاحظوا أن له سلطة هادئة على زملائه الذين كانوا كثيراً ما يطلبون رأيه القانوني، كما أن إفادته ستكشف مدى عمق تفكيره بالالتزام بالقضية.[17]

استمع زد .كي. ماثيوز، بذهنه القانوني المتقد إلى المحاكمة بازدراء متنام. وقد كتب لزوجه فريدا Frieda «يبدو أن هؤلاء الأشخاص يعتقدون أني انا العقل المخطط لحملة المؤتمر الوطني الإفريقي، والجميع يفعلون ما أريد. كم هم مخطئون!». راقب رجال الشرطة شبه الأميين يدلون بأدلتهم غير المترابطة بلغة إنكليزية ركيكة، ويقدمون وثائق يفترض أنها دائنة مثل تقويم عام 1956 أو ورقة كتب عليها «حساء باللحم». ورأى كيف ترتبط كراهية الأفارقة للسود باستيائهم من الاحتقار الإنكليزي: «مذهل مدى رفض الأفارقة موقف الإنكليز الفوقي. إنهم يعذبوننا أيضاً لأنهم يعتقدون أننا بعنا أنفسنا للإنكليز». لكنه خشي أن يصبح كره الإفريقي للأوروبي خلال عشر سنوات أسوأ من كره الرجل الأبيض للأسود.[18]

اقتربت محاكمة الخيانة الطويلة ما بين مختلف الفئات العرقية داخل قاعة المحكمة. قال لوثولي «ما كنّا لنبتكر طريقة أكثر فعالية لضمان ترابط المعارضة وتوسيع مداها».[19] وقال بول جوزيف Paul Joseph، وهو هندي كان عاملاً في مصنع من بيئه متواضعة أصبح صديقاً لمانديلا: «لم نكن ندرك كم من الأشياء المشتركة تجمعنا، لقد أوجدت المحاكمة ترابطاً لم يكن موجوداً من قبل».[20] وجد الإفريقيون أنفسهم مضغوطين في مكان واحد مع البيض والهنود والملونين، ممثلين بنسب تقارب نسب توزيع سكان البلاد. وكان كثير منهم يدافع عن نوع من الشركة المتعددة الأعراق. بغض النظر عن الدوافع الدعائية التي أدت بالحكومة إلى محاكمة المتهمين وأصبح بإمكانهم الآن نشر دعايتهم المضادة بأن الحركة كانت حركة متحدة غير عرقية أصلاً.

ويومياً في أثناء ساعة الغداء كان المتهمون يقتسمون شطائرهم ويبتكرون تسال، من ضمنها ـ كورال دريل هول ـ The drill Hall Choir، ويطرحون وجهات نظرهم ويناقشون مشاكلهم. وعندما يذهبون إلى بيوتهم في المساء كان الناس يشعرون أنهم أبطال وليسوا خونة، تقدم إليهم المشاريب بلا مقابل في الحانات، ويقيم البيض والهنود الذين يتمنون لهم الخير الحفلات التي كانت توسع الاتصالات والصداقات بين الأعراق الأخرى. أقام برام فيشر وزوجه عشاء للقادة السود، ومنهم لوثولي ومانديلا، حيث اجتمعا بأصدقاء محامين. وأقام جو سلوفو وروث فيرست حفلات شرب فيها الإفريقيون والهنود والبيض ورقصوا وتعانقوا، خارج قيود اللون، وتضاحكوا حول احتمال أن يشنقوا بتهمة الخيانة، وبدوا غير مبالين بالجواسيس،حتى أنهم رحبوابعميل السي آي أيه. عندما كنت أكتب كتاباً عن المحاكمة / قفص الخيانة/ ضمنته لمحة عن حياة كل من لوثولي وسيسولو وتامبو، لكني لم أتطرق إلى مانديلا، ظناً مني أنه أبعد من أن يصبح قائداً في المستقبل وأنه سيكون أقل ظهوراً.

CIA المحلي ميلارد شيرلي Millard Shirley، وهو أمريكي جذاب واجتماعي كان يؤلف ـ ظاهرياً ـ كتاباً بعنوان (والدتي كانت مبشرة) إلا أنه كان دائم الحضور في أنشطة المؤتمر الوطني الإفريقي.[21] لكن شجاعة ـ الخونة ـ كانت حقيقية. ربما كان بعض المتهمين لامبالين أو متكلفين ـ كالطاووس ـ، على حد تعبير الإفريقيين. لكن الشجاعة والخطر كانا حقيقيين. وفي السجن فيما بعد يذكر مانديلا أن إيلين هيلمان Ellen Hellman، إحدى ممولات المتهمين البيض الليبراليين، وهي رئيسة معهد العلاقات العرقية، وصلت إلى قاعة المحكمة لتناقش موضوع جمع التبرعات. فبدأ يطريها لأناقة ثيابها، إلا أنها قاطعته قائلة: «سيد مانديلا، كل ما أريد هو ان تقول لي ببساطة، ماذا تريد، ماذا تريد؟».[22]

كان هناك بعض الاهتمام أيضاً من رجال أعمال جنوب إفريقية الليبراليين. فدعي لوثولي وقلة آخرون، لم يكن مانديلا بينهم، لمقابلة هاري أوبنهايمر

Harry Oppenheimer من الشركة الأنغلو ـ أمريكية، وقال لهم بأدب إن مطالبتهم بحق الاقتراع للجميع فيها شطط، وإن المقاطعة تذهب بدعم البيض، فأجابوا بأنهم لا يستطيعون إخفاء مطالبهم الحقيقية، مهما بدت غير مستساغة بالنسبة للبيض.[23] وأعطى أوبنهايمر سراً 40.000 جنيه لصندوق الدفاع في قضية الخيانة.[24]

وصلت معونة عملية من الخارج من بريطانيين وسواهم من المتعاطفين عبر صندوق الدفاع، الذي بادر به كانون كولينز في لندن والأسقف ريفز Bishop Reeves في جوهانسبورغ، لتغطية النفقات القانونية وسواها. أشرفت على الصندوق في البداية هيلاري فليغ Hihary Flegg ثم ماري بنسون Mary Benson ثم فريدا ليفسون Freda Levson، اللواتي أصبحت تربطهن أواصر الصداقة مع مانديلا.[25] كما تحمس مانديلا بظهور مراقبين من كثير من المحاكم الغربية، وبينهم جيرالد غاردنير Gerald Gardiner المحامي البريطاني الذي أصبح فيما بعد رئيس مجلس اللوردات والرئيس الأعلى للقضاء في بريطانية، وبالتضامن الأمريكي الذي تضمن زيارة قام بها جورج هوزر George Hauser ممثل اللجنة الأمريكية من أجل إفريقية، وهدايا من سامي ديفز الابن Sammy Daveis Junior.[26]

إلا أن الدبلوماسيين البريطانيين والأمريكيين في بريتورية استمروا في تفادي الاجتماع بالمعارضة السوداء، خشية إزعاج الحكومة الأفريقانية. ودعا السفير بايرود Byroade البيض فقط إلى الاحتفال بعيد الاستقلال في السفارة الأمريكية في تموز (يوليو) 1957، خلاف الضيافة المفتوحة للقنصل العام السوفيتي.[27] كما أن السفراء البريطانيين المتعاقبين لم يدعوا السود إلى حفلات ميلاد ملكتهم، ولم يجروا أي اتصال مباشر مع أي من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان دبلوماسيوهم يعتمدون على أقوال الصحفيين في رسائلهم، التي لم تكن تشير لمانديلا.[28] وفي لندن كانت جنوب إفريقية تابعة لوزارة

الدومينيون (الدول المستقلة عن الكومنويلث ـ المترجمة) التي كانت تربطها علاقة عائلية حميمة مع دول الكومنويلث الأبيض التي كانت حليفة للبريطانيين في الحرب العالمية الثانية، وكانت أكثر اهتماماً بإبقاء الخطوط مفتوحة مع الوطنيين الأفارقة أكثر من المشاغبين الإفريقيين، أما رئيس الوزراء المحافظ هارولد ماكميلان Harold Mackmillan فلم يكن قد تعاطى بعد مع مشاكل إفريقية.[29]

أثناء قضية الخيانة كان مانديلا يعيش حالة انتقالية غريبة، بين الوضع الطبيعي والخطر، إلا أن حياته تعرضت لمزيد من البلبلة بسبب قصة غرام عنيف مثيرة. فعندما بدأت المحاكمة كان يعيش حياة عازب. فقد انفضّ زواجه من إيفيلن باتهامات متبادلة بين الطرفين. حيث تذكر إيفيلن بمرارة كيف كان مانديلا يمضي ليالي بعيداً دون أي تفسير، وادعت أنه مرة كاد يخنقها. وقد أنكر مانديلا بحزم هذه التهمة.[30] وأصبحت هوة الغربة بينهما أوسع إذ أصبح زوجها أكثر ضلوعاً في السياسة. وبعد أن أوقف لاول مرة بتهمة الخيانة وخرج من السجن بكفالة عاد إلى المنزل ليجد إيفيلن قد ذهبت والبيت فارغ، حتى من الستائر! كان على مانديلا أن يحاول طمأنة ولديه ماكغاتو Makgatho وماكازيوي Makaziwe (ماكي) ـ Maki اللذين كانا مضطربين اضطراباً عميقاً.[31]

تساءل أصدقاء مانديلا إن كان سيتزوج ثانية، وكثيراً ما كان يشاهد بصحبة نساء مؤهلات ومرغوبات. كانت إحدى رفيقاته روث مومباتي Ruth Mompati السكرتيرة الكفء لديه في مكتب المحاماة. وكانت لديه صديقة أخرى هي ليليان نغوي Lilian Ngoyi القائدة القومية المرحة لرابطة النساء في المؤتمر الوطني الإفريقي، التي كانت متهمة مثله بقضية الخيانة. وكانت هيلين جوزيف Helen Joseph المقربة من كليهما، تعتقد أنهما سينجحان تماماً كزوجين.[32]

إلا أن التي أوقعت مانديلا لم تكن سياسية محنكة، ولم تكن أياً من النساء اللواتي كانت إيفيلن تخاصمه بسببهن. وإنما كانت قادمة جديدة، باحثة

اجتماعية شابة جميلة في الثانية والعشرين تصغر مانديلا بست عشرة سنة.[33] أتت ويني نومزامو ماديكيزيلا Winnie Nomzamo Madikizela من بوندولاند، وهي جزء من الترانسكي، حيث كان والدها كولومبوس ماديكيزيلا Columbus Madikizela مدير مدرسة (كما كانت المنطقة مسقط رأس بطلها تامبو حيث تقول الآن «أنا في الحقيقة خلقت لأوليفر تامبو»)[34]3. كانت عشيرة ويني، النغوتيانا Ngutyana واحدة من أقوى العشائر في بوندولاند. وقد كان جدها الأكبر ماديكيزيلا زعيماً قبلياً شرساً في ناتال إلى أن هرب من جيش الزولو التابع لشاكا ليستقر قرب بيزانا Bizana أما جدها الزعيم مازينغي Mazingi التاجر الثري المتزوج تسعاً وعشرين زوجاً، فقد اعتنق المثودية. وكانت أمها التي يعتقد أنها تحمل دماً أبيض متدينة جداً وكان لديها تسعة أولاد قبل أن تموت عندما كانت ويني في التاسعة، وبعد ذلك نشأها والدها نشأة ميثودية متشددة، وبقي بعيداً بشكل مربك تاركاً لجدتي ويني القويتين ممارسة التأثير الأكبر عليها. علمتها والدة أبيها ماخولو Makhulu أساليب أجدادها، أما والدة أمها /غراني/ Granny فكانت ميثودية صارمة تخيط ثيابها الغربية الطراز بنفسها، قالت صديقة عمر ويني، فاطمة مير، إنها «أخذت عن ماخولو سطوتها الآمرة، واخذت عن جدتها/ غراني/ حبها للثياب الجميلة وهوسها بالنظافة».[35]

في طفولتها كانت ويني قوية الإرادة، متمردة وأحياناً عنيفة، ومرة صنعت برجمية فيها صفيح ومسمار لتضرب بها أختها على فمها فاصابتها بجرح اضطر الطبيب أن يخيطه ولم تنس ويني أبداً الضرب المبرح الذي نالها من أمها لذلك. وقالت فيما بعد: «كانت مسألة البقاء للأقوى. كنت مضطرة لقتال أخوتي وأخواتي، ولم يكن لي أبداً ثياب خاصة بي. كان هناك كثير من القتال الجسماني. وعندما أصبحت أكبر سناً صرت أخجل عندما أتذكر تلك الأمور».[36] وتفوقت ويني في المدرسة ولم تقرب السياسة وعندما ثار رفاقها

في المدرسة تعاطفاً مع حملة التحدي التزمت هي بدراستها.[37]

في عام 1953 قدمت ويني إلى جوهانسبورغ لتنخرط في العمل الاجتماعي، كانت تعيش في نزل يد المساعدة Helping Hand hostel في شارع جيب Jeppe street وتدرس في مدرسة جان هوفمير Jan Hofmeyr للعمل الاجتماعي، فوق مركز بانتو الاجتماعي للرجال Bantu Men's social centre. كانت تتجول بصحبة طالبتين شابتين جذابتين هما مارشيا بوملا فينكا Marcia Pumla Finca وهاريب خونجيسا Harriet Khongisa، إضافة إلى إيلين كوزوايو Ellen Kuzwayo وهي طالبة أكبر أصبحت كاتبة في ما بعد، حاولت أن تحميهن من الرجال الوحوش.[38] كانت ويني طالبة متفوقة، وبعد سنتين أصبحت أول عاملة اجتماعية في مستشفى باراغوانات Baragwanath Hospital. كانت اجتماعية، ومفعمة بالحيوية، تسحرها الثياب والأحذية (التي لم ترتدها إلى أن أصبحت في المدرسة الثانوية) وقالت فيما بعد: «كان علي أن أصبح ابنة مدينة، وأن اكتسب بريقاً قبل أن أتطور إلى شخصية».[39]

في جوهانسبورغ ذهبت ويني إلى بضعة اجتماعات لحركة الوحدة التروتسكية التي ينتمي شقيقها إليها. لكنها بقيت بعيدة عن السياسة. وفي أحد الأيام عندما زارت إحدى المحاكم مع صديقة لها رأت مانديلا يدخل بقامته الجسيمة لمتابعة قضية، فيما همست الجموع باسمه. وبعد ذلك بمدة بسيطة عرفتها عليه في دكان لبيع الأطعمة المعلبة آديلايد تسوكودو Adelaide Tsukudu، وهي ممرضة في مشفى باراغواناث كان زواجها من أوليفر تامبو وشيكاً. أصرت أديلايد أنها «لم تلعب دور كيوبيد وأن ويني لم تخرب الزواج، وإنما هو كان يتداعى».[40] كان واضحاً أن مانديلا افتتن بويني، وبقي نظره معلقاً بها، وفي اليوم التالي دعاها إلى الغداء، بحجة سؤالها المساعدة في جمع أموال لصندوق الدفاع في قضية الخيانة. مر صديقه جو ماتثيوز بها وتناولوا طعام الغداء في مطعم آزاد الهندي Azad.[41]

أمضى مانديلا أقصى قدر ممكن من الوقت مع ويني بين دريل هول ومكتب المحاماة العائد له «كنت أخطب ودها وأسيسها». [42] واستطاع أن ينتزعها من منافس تبين أنه مناوئه وابن أخته قيصر ماتانزيما، وعرفها على أصدقائه السياسيين، بما فيهم الهنود والبيض. وفي خضم محنة محاكمة الخيانة لم يكونوا متأكدين ما الذي ستأتي به ابنة الاثنين وعشرين ربيعاً بوجهها البريء وحديثها الحيوي، وإعجابها الشديد بالثياب، وعينيها الواسعتين العطوفتين، التي كانت تبدو وكأنها قادمة من عالم آخر. قالت آديلايد زوج بول جوزيف «كانت فاتنة لكنها خجولة جداً»، فيما قالت أمينة زوج يوسف كاتشاليا إنها «كانت بريئة جداً وساذجة». كان مانديلا يصطحب ويني إلى منزل راستي بيرنشتاين أيام الآحاد حيث كانت تجلس في غرفة ابنة بيرنشتاين تقرأ مجلات الأزياء. وقال بيرنشتاين: «كانت بعيدة تماماً عن الدائرة السياسية. لكن نيلسون لم يكن يعبأ بذلك». [43] اتخذت ويني من أصدقاء مانديلا السياسيين أصدقاء لها: فأقامت مع إسماعيل وفاطمة مير في دوربان، وألهت ليليان نغوي Lilian Ngoyi، وعَدَّتْ هيلين جوزيف Helen Joseph أماً، ورأت في تامبو شخص الأب. [44] وروعها حضور مانديلا السلطوي وجو الزعامة الموروثة الذي يحيط به «فلم يكن ليستمع لامرأة.. كما أن طريقة مشيته، وكيف يفرض نفسه تظهره بمظهر الزعيم الحقيقي».

لم يعرض مانديلا الزواج رسمياً، لكن ويني وجدت نفسها مدفوعة نحو الزواج. وقلقت أسرتها من المخاطر. وتقول الآن : «كان والدي معارضاً للزواج جملة وتفصيلاً . كما بكت أخواتي ورجونني ألا أتزوج من رجل مسن كهذا»، وحذرنها من أن مانديلا سينتهي إلى السجن، وأنها ستكون «مجرد أداة تبقي البيت مفتوحاً وتزوره». [45]

لكنهما كانا عاشقين. كان مانديلا قد طلق إيفيلين، وفي حزيران (يونيو) 1958 كان هو وويني زوجين، بعد سنة على لقائهما. سمح لمانديلا برفع الحظر

عن السفر لمدة ستة أيام ليذهب إلى الترانكسي من أجل احتفالات العرس، أولاً في بيت الأجداد ماديكيزيلا، ثم في دار البلدية في بيزانا، بصحبة اصدقاء منهم روث موباتي والشيوعي الأبيض مايكل هارميل. ألقى والد ويني خطاباً حذرها فيه أنها إذا أرادت أن تكون سعيدة مع أهل زوجها فإن عليها أن تفعل ما يفعلون «إذا كان زوجك عرافاً عليك أن تصبحي ساحرة».[46] وكان مانديلا يدعوها بلفظة ساحرة في رسائله، تحبباً.

عاد مانديلا إلى ضغوط قضية الخيانة، وقدمت زوجه الشابة الجميلة نقيضاً غريباً جداً للضجر القاتم والالتزام الذي يميز قاعة المحكمة. وكان ظهوره المؤثر مع ويني، وكلاهما يبتسم ابتسامة كبيرة، يمت إلى عالم الاستعراض استعراض Shwobis، أكثر من كونه سياسياً، واكتسبت صورته بعداً جديداً، ليس المحامي والثوري فحسب وإنما العاشق مع شريك يعبده. كان واضحاً أن كلاً منهما مفتون بالآخر، ويشعران أن هناك مسرحية يجري التركيز عليها. كما في متعة عاطفية تعود لأيام الحرب. بما فيها من أزمات وأخطار يواجهانها. وخلال سنواته الطويلة في السجن كان مانديلا يترنم لذكر الأوقات التي كانا يخطفانها معاً، ويذكران حياتهما السابقة: «أتذكرين الطعام اللذيذ الذي كنت تحضرينه للعشاء؟ المعكرونة السباغيتي مع اللحم المفروم من لحام متواضع في الناحية! عندما كنت أدخل البيت من قاعة الرياضة في المساء كان لعابي يسيل لتلك الرائحة».[47] إلا أن زواجه من فتاة مشبوبة العاطفة، لها متطلباتها، وجميع التعقيدات الناجمة عن وجود ثلاثة أطفال لزوجها / منفرين / لم تكن مقومات بيت مستقر اعتبره كثير من أصدقائه السياسيين أمراً مسلماً به. والتر سيسولو ما زالت لديه ألبرتينا / كعمود فقري/ تدعم دخله البسيط وتشاركه جميع التزاماته السياسية. «كنت أستطيع الاعتماد عليها، ولم تكن تتذمر... لقد أمسكت زمام الأموربطريقة مذهلة مما أمدني بشجاعة رائعة».[48] كانت حياة مانديلا مع ويني أكثر إثارة، ولكن أكثر تشتتاً، وأقل تبصراً، في حين سرعان ما

أدركت مدى سيطرة السياسية على حياته، وتذكر «أنه لم يبد ما يشير إلى أن لي حقاً خاصاً في وقته. لم يكن هناك أبداً ما يمكنني أن أدعوه حياة أسرية، حياة عروس شابة تجلس مع زوجها. لم يكن لأحد أن ينتزع نيلسون من الناس، فقد كان النضال والأمة يحتلان الموقع الأول».[49]

سرعان ما أفسحت ويني المجال لنمو غريزتها وطموحها السياسي الخاص، «سرعان ما أكتشفت بأية سرعة سأفقد هويتي الخاصة في ظل الشخصية الطاغية، فأنت بكل بساطة تخفق وتجد نفسك ذيلاً له، بلا اسم ولا تفرد ما عدا ما يليق بمانديلا... فنذرت أن أياً من هذا لن ينطبق علي».[50]

ولاحظت صديقتها الأكبر عمراً أيلين كوزوايو Ellen Kuzwayo أنها تنزلق بعيداً عن العمل الاجتماعي الروتيني.[51] وبدأت تحضر اجتماعات كانت فيها صديقتاها البيضاوين هيلين جوزيف وهيلدا بيرنشتاين تعلمان النساء السود كيف يتحدثن أحاديث عامة. إلا أنها سرعان ما انفجرت قائلة: «لا أعتقد أننا بحاجة لمن يعلمنا كيف نتحدث. من معاناتنا نستطيع أن نحدث الناس بما نشعر». وبدأت تجد صوتها الخاص، بفصاحة في التعبير وحماسة أذهلت أساتذتها. وبدأت حملة بغريزتها الشعبية القوية، متجاوزة الأحاديث التقليدية لقادة المؤتمر الوطني الإفريقي. وقالت صديقتها الهندية آديلايد جوزيف: «لم تكن تكترث لكونها في دائرة الضوء. كانت تريد أن تكون هناك مع عامة الناس».[52]

سرعان ما انجرفت ويني في نضال المرأة، الذي كان يزداد أهمية عشية حملة التحدي. وأظهر قوته عندما قررت الحكومة أن تجبر النساء على حمل جواز المرور الكريه الذي يحد من حركة الإفريقيين، والذي كان حتى ذلك الحين وقفاً على الرجال. شكل المؤتمر الوطني الإفريقي اتحاد نساء جنوب إفريقية، الذي اندمج مع رابطة النساء التي نظمت في آب (أغسطس) 1956 مسيرة ضمت 20.000 امرأة اتجهت نحو أبنية الاتحاد في بريتورية لتقديم التماس إلى رئيس الوزراء هانز ستريجدوم Hans Strijdom. وصلت السائرات ينشدن

شعارهن المناهض «ستريجدوم أنت عبثت بالنساء. لقد ضربت صخرة».[53]

انضمت ويني إلى فرع أورلاندو من رابطة النساء وسرعان ما بدأت تثبت وجودها. قال مانديلا لصديقه المحامي جورج بيزوس يوماً: «لقد تزوجت المتاعب!». فقد تكشف أن ويني اتهمت بتحريض النساء الأخريات على عدم حمل الجوازات. وعندما طلب منها إبراز جوازها، صاحت بأنها لن تحمل جوازاً، وعندما أتى شرطي إلى بيتها يحمل استدعاء تهجمت عليه. فسأل بيزوس مانديلا «هل تزوجت امرأة أم زميلاً مشاغباً؟». وفيما بعد قالت ويني إن الشرطي دخل غرفة نومها حيث كانت ترتدي ثيابها لتذهب إلى السجن. لما أمرته بالخروج أمسك بها، فضربته بمرفقها على ذقنه فأوقعته أرضاً، فاتهمها بمهاجمته، تولى بيزوس القضية، وأدلت ويني بإفادتها بثقة ووضوح أثارا دهشة القاضي الأفريقاني الذي اخلى سبيلها.[54]

بعد أربعة أشهر على زواجها، في تشرين الأول (أوكتوبر) 1958، كانت ويني حاملاً، لكنها صدمت مانديلا بإعلانها أنها ستنضم إلى احتجاج جماعي في جوهانسبورغ، وتجاهلت جهوده لثنيها عن عزمها، فاعتقلت وسجنت مع ألف امرأة أخرى، وعملت على رفع معنوياتهن في السجن وصادقت سجانتين أفريقانيتين. ورتب مانديلا أمر كفالة لها، إلى جانب أخريات. كانت ويني قد انطلقت في حملتها السياسية المشبوبة. وفيما بعد، سيلوم مانديلا نفسه لانغماسه بمشاكله بشكل منعه من إعطائها الدعم والنصح في مواجهة جميع إحباطاتها. وقد كتب لها: «كنت وقتها أعيش حياة لم يكن لدي فيها وقت حتى للتفكير».[55]

لم يستطع بعض أصدقاء مانديلا القدامى أن يفهموا لماذا اختار ويني: واعتقدوا بأن منصبه القيادي قد تشتت بهذه «الإمرأة الجديدة» العدوانية، التي أتت من خارج أي عرف من أعراف المؤتمر الوطني الإفريقي، وأنه قد تزوج مشاكل كثيرة.[56] لكن كان واضحاً أن هناك كهربائية سياسية بقدر ما هناك

كهربائية جنسية بينهما، كما بين بيرون وزوجه في الأرجنتين أو ـ فيما بعد ـ بين كلينتون وزوجه الأمريكيين. أتى حسم وبني المندفع بعنف وخطابتها التي تعجب الحشود لتكمل حملات مانديلا الأكثر تحفظاً، مثل لحن أكثر صخباً يرافق طبقة صوته المنخفضة الثابتة. وفي المناسبات الاجتماعية كانا، بما لهما من حضور ساحر وثياب أنيقة، نموذجاً لزوجين في أواخر عقد الخمسين من القرن العشرين، يعطيان طبعاً مميزاً من الألق الأمريكي لسياستهما إذ يدخلان صالة الرقص، ودائرة الضوء تتركز عليهما. سرعان ما بدأت ويني تأخذ طابعها المسرحي الخاص وسرعان ما ستظهر مثل أمازونية الثورة .

10

مناضل متألق

1957 ـ 1959

في الوقت الذي كانت قضية الخيانة تسير ببطء شديد، عاش مانديلا أكبر أزمة سياسية عرفها المؤتمر الوطني الإفريقي خلال خمس وأربعين سنة من وجوده. وستؤدي في النهاية إلى تفكك المنظمة، وإلى تهديد موقف مانديلا بأخطر مما أدرك إذ ذاك. فقد خضع المؤتمر الوطني الإفريقي، منذ مؤتمر الشعب. لهجوم من الوطنيين الإفريقيين المتنفجين (المتكبرين ـ غير المختلطين بمن يحسبونهم دونهم منزلة أو ثروة ـ المترجمة) أو أنصار إفريقية الذين يعارضون ميثاق الحرية، لافتراضه أن الأرض ملك للجميع، والذين يهيبون بالإفريقيين لاتخاذ تصرف مناهض ووقف التعاون مع الشيوعيين أو الأعراق الأخرى. أسبغت قضية الخيانة شهرة على قادة المؤتمر الوطني الإفريقي واعترافاً كاسحاً بهم، إلا أنها أيضاً ركزت الاهتمام على تواطئهم مع الهنود والبيض، مما أثار حفيظة / أنصار إفريقية/ أكثر فأكثر.

كان مانديلا في موقع يخوله فهم نفاد صبر أنصار إفريقية وتحفظهم. إذ كانت هناك أشياء مشتركة بينهم وبين أعضاء رابطة الشباب منذ عقد مضى، وكان بينهم بعض حلفائه. لو كانت الظروف مختلفة لكان قائدهم. لكنه الآن، بالتزامه بقومية أوسع ومتعددة الأعراق متحالفة مع الشيوعيين، فقد عدَّ الثوار خطراً واضحاً يتهدد وحدة المؤتمر الوطني الإفريقي، التي رآها بالغة الأهمية بالنسبة للنضال، وازداد استياء لأنهم كانوا يستغلون قضية الخيانة ليكسبوا دعم الجذور.

كان الجانبان محددين ضمن ألوان أيديولوجية واضحة: الوطنيون ضد الشيوعيين، والمتنفج ضد الشامل. كان هناك في الحقيقة كثير من التداخل والضبابية، لكن وراء المواجهة كان هناك استياء شخصي طويل الأمد وتيارات متعارضة أصبحت أوضح عند استعادتها، جعلت المصالحة مستحيلة.

بقيت قضية الخيانة تشوش مانديلا ورفاقه المتهمين في جدل قانوني لا نهاية له. وبالرغم من أن الحكومة لم تظهر ما يشير إلى أنها تسقط القضية فقد أقدم المدعي العام في كانون الأول (ديسمبر) 1957 ـ بعد مضي حوالي سنة على الاستجوابات الأولى ـ على إسقاط الاتهامات الموجهة ضد واحد وستين من المتهمين، والعجيب أن لوثولي وتامبو كانا بينهم. وبقي مانديلا؛ بسجله الحافل بالخطابات المناهضة، بين الخمسة والتسعين الباقين. طلب الدفاع أن تسقط القضية برمتها. لكن عين مدع عام جديد هو وزير العدل السابق أوزوالد بيرو Oswald Pirow، وهو معاد حاد للشيوعية، وكان من كبار أنصار النازية إبان الحرب، وادعى بأن دليلاً جديداً قد ظهر عن مؤامرة خطيرة، مما يعني بأن البلد كان يعيش على حافة بركان.

وعندما توصل القاضي السيد ويسيل إلى نتيجة مفادها أن هناك أدلة خيانة كافية لنقل القضية إلى محكمة الترانسفال العليا في بريتورية، أدرك مانديلا أنه أصبح أكثر من واثق بأن القضية كلها ستتداعى، وأنه هو ورفاقه المتهمين قد يودعون السجن.[1] لكن وراء كل ما جرى في المحاكمة من عبث: المدعي العام الطويل النفس، والمخبرون العاجزون، والتعريفات المضحكة للشيوعية، مازال هناك هدف الحكومة الأصلي وهو تجميد عمل المتهمين وإدانتهم من خلال التشريع القائم.

أدى انشغال قادة المؤتمر الوطني الإفريقي بمجريات المحاكمة يوماً بيوم إلى فوضى شديدة في تنظيمهم مما أفسح المجال أمام مناوئيهم، الذين لم يكونوا رهن المحاكمة. وقد حاول القادة تجميع الدعم بحملة عنوانها «نقف مع

قادتنا»، لكن لم يتح لهم فرصة إلقاء الخطابات أو جمع الأنصار. وأقدم أنصار إفريقية، الذين كانوا أقرب إلى الأرض، على اتهام القادة بالفوقية واتباع أساليب غير ديموقراطية. ومعاملة مسألة العضوية كما لو أن الأعضاء «قطيع له حق الانتخاب». [2]

كانت أقوى قاعدة لأنصار إفريقية في سويتو موطن مانديلا، حيث كان يقودهم بوتلاكوكيتشينر لوبالو PotlakoKitchener Leballo الشعبي المندفع. كان مانديلا، وهو محاميه، يَعُدُّ لوبالو ورقة متطرقة (متهورة). لا شك في شجاعته، لكنه غير ناضج، مثل كثير من أتباعه. [3] وكان قد عمل لصالح مكتب الخدمات الإعلامية للولايات المتحدة في جوهانسبورغ بإمرة الأمريكي دافيد دوبوا David Dubois حيث كان يسمح له بتصوير أوراقه. [4] وقد ادعى جو سلوفو أن الكونغرس الإفريقي العام Pan African Congress، الذي انبثق عام 1959 حزباً لأنصار إفريقية، قد أسس في اجتماع في مكاتب الخدمات الإعلامية للولايات المتحدة. [5] شجعت علاقات لوبالو الأمريكية الادعاءات القائلة إن السي آي ايه كانت تدعم أنصار إفريقية، الأمر الذي لم يؤكد بأي دليل قاطع.

ومن بيت لوبالو في سويتو صدرت مجلة الإفريقي the Africanist، زاخرة بالنقد الساخر والقدح ضد القيادة اليسارية للمؤتمر الوطني الإفريقي. كان لدى أنصار إفريقية، مثلهم مثل الوطنيين في كل مكان، مدى أوسع لاستخدام لغة عاطفية أكثر مما لدى متعددي الأعراق. وكان ذمهم «للغرباء»، «والموظفين الشرقيين» و«باعة الطريقة الغربية» أكثر حيوية من العبارات الجاهزة المعادية للاستعمار والماركسية التي كان مانديلا ورفاقه يفضلونها، وأصدروا نسخة أفضل للصحفيين البيض الذين فعلوا ما بوسعهم من أجل الدعاية للمجلة. وكان الناطقون باسمهم أكثر بهرجة وتلاعباً بالألفاظ. كما أن جوسياس مادزونيا رئيس مجلس المؤتمر الوطني الإفريقي كان قبلاً بائعاً متجولاً يرتدي معطفاً طويلاً في الطقس الأكثر حرارة وكان موضع ثقة في مقدرته على الخطابات الرنانة. وبيتر

رابوروكو Peter Raboroko الناطق الرسمي باسمهم فيما يتعلق بالتعليم، كان متحدثاً بارعاً أصبح صحفياً جدلياً ذكياً. وزيف موثوبينغ Zeph Mothopeng الذي كان مدرساً ملتزماً قبل أن يطرد لمعارضته تعليم البانتو، كان مثقفاً بدا في البداية نظرياً جافاً، لكنه أثبت أنه مقدام في إدارة الحملات مما سيوصله إلى السجن في جزيرة روبين. هاجم أنصار إفريقية، وبعضهم من رابطة الشباب القدامى، مانديلا وحلفاءه لاقترابهم أكثر من البيض والشيوعيين، وابتعادهم عن أبناء شعبهم. وكان مانديلا حتماً يتحرك الآن في دوائر مختلفة. إذ قال وكيله في مكتب المحاماة غودفري بيتيجي: «إنه لم يكن خجلاً من الاعتراف بأنه قد تغير». وكان مانديلا يقول في المكتب: «اسمعوا يا شباب، ليس لكم أن تلوموني في هذا. فقد بدأت أنظر إلى الأشياء بشكل مختلف».[6]

رأى دعاة إفريقية جماعة مانديلا تقع ضحية إغراء الشيوعيين البيض، أمثال سلوفو، في ضواحيهم المريحة، بينما كانوا هم رجالاً من الشعب يشربون في الحانات الرخيصة في الأحياء. وقد وصف بيتر رابوروكو، الذي كان زميل تامبو في المدرسة، وصف فيما بعد كيف

«قُذِفَ مانديلا وأصدقاؤه من بيئة المجتمع الإفريقي إلى هذا.. ليرفعوا الكلفة مع النساء البيض، وتصرفات من ذلك القبيل، أصبح الوهيج صارخاً بالنسبة إليهم»، وعندما شجب مانديلا رابوروكو لكونه من «مثقفي الحانات الرخصية (الشيبين)» اعتبر شجبه مديحاً وقال: «ستصبح سمعتي السياسية في الحضيض عندما يعرف الناس بأني شوهدت برفقتك». وعندما تحدث رابوروكو عن الجماهير قال مانديلا: «أنت تقصد رواد الشيبين؟». أجاب رابوروكو: «أجل.. بالمناسبة أنا لست محظوظاً مثلك، فأنت تحتسي شرابك في بيوت أنيقة في هيوتون الدنيا Lower Houghton وباركتاون Parktwon. أما أنا فعلي أن أرضى بالشرب مع الناس في الشيبين (الحانات الرخيصة)».[7]

في الحقيقة كان مانديلا يقضي معظم أمسياته وهو يعمل، ولا يقرب

الكحول. وقال فيما بعد: «كنت أذهب بين وقت وآخر إلى الشيبين بدافع الفضول لكني حتى الآن لا أعرف ماذا يحدث في النوادي الليلية». [8]

كان أنصار إفريقية يكتمون غيظهم حيال قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي بجوار مانديلا في أورلاندو، لكن وصل التوتر مداه في اجتماع خاص للمؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال في أورلاندو في شباط (فبراير) 1958. قاد لوبالو الهجوم ضد التنفيذي المحلي الذي أضعفه غياب قادة ممنوعين مثل مانديلا وسيسولو. وانفض الاجتماع بفوضى، واضطر التنفيذي الوطني للمؤتمر الوطني الإفريقي إلى استخدام قوى الطوارئ للاستيلاء على فرع الترانسفال. وبعد شهرين واجه المؤتمر الوطني الإفريقي إذلالاً عندما حاول تنظيم احتجاج / بملازمة المنازل/ رداً على انتخابات عامة للبيض فقط في نيسان (أبريل). كانت الخطوة التي عارضها أنصار إفريقية إخفاقاً تاماً. قال دوما نوكوي Duma Nokwe الأمين العام المساعد للمؤتمر الوطني الإفريقي إنها «مخيبة بحدة، ومذلة وتدعو إلى الكآبة». [9] لم يستطع قادة المؤتمر الوطني الإفريقي تحمل التحدي السافر لأنصار إفريقية، وقاموا في اجتماع سري، بطرد لوبالو من المنظمة.

أتى الانفصام الأخير في تشرين الثاني (نوفمبر) 1958، عندما دعى المؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال إلى مؤتمر أزمة. افتتح لوثولي، الذي حذر ثانية من الرد على الأفارقة بـ «قومية إفريقية ضيقة بشكل خطير» واعتبر أنصار إفريقية مانديلا وتامبو في مقدمة أعدائهم. وحاول تامبو، الذي مازال أميناً عاماً للمؤتمر الوطني الإفريقي، أن يهدئ الفصائل المتنافسة إذ تشاحنت حول الثبوتيات والوفود، في وقت كان فيه السفاحون من أنصار إفريقية يواجهون السفاحين المخلصين. وتفادياً لهزيمة في التصويت انسحب أنصار إفريقية من القاعة، وأرسلوا رسالة إلى القيادة يعلنون فيها انشقاقهم ليصبحوا «حماة سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي كما صيغت في عام 1912». [10]

هل كان من الممكن تفادي الانشقاق؟ كان هناك وسيط محتمل هو نتاثوموتلانا Ntatho Motlana، طبيب أسرة مانديلا، وهو رجل شيطاني، يتحدث بسرعة، وقد عمل معه في رابطة الشباب وفي حملة التحدي. كان موتلانا ظاهرة نادرة في أورلاندو، إذ كان مقاولاً يؤمن بالرأسمالية، يذكر مانديلا أنه كان «رجل أعمال حاد. كان ماكراً منذ البداية».[11] كان موتلانا لا يثق بالشيوعيين البيض، وكان يحفظ أواصر الود مع روبرت سوبوكوي من أنصار إفريقية، الذي كان أحد مرضاه. وكان يعقد اجتماعات في غرفة عملياته الجراحية. لكنه كان ضد الانشقاق، وكان يعتقد أن المنشقين يعيدون النضال من أجل التحرر أشواطاً إلى الوراء في كافة أرجاء إفريقية: «قلت لهم ألا يهربوا من البيض، وأن يبقوا في المؤتمر الوطني الإفريقي ويحاربوهم من هناك».[12]

حذر موتلانا مانديلا من أن أعضاء رابطة الشباب يتذمرون من النفوذ الشيوعي، ويهددون بمغادرة المجلس الوطني الإفريقي، لكن مانديلا طمأنه قائلاً: «لا تقلق يا نتاثو. فالمؤتمر الوطني الإفريقي سيحكم البلاد».[13]

استرجع مانديلا ذلك فيما بعد، وشعر بأن المؤتمر الوطني الإفريقي تسرع في رفض أنصار إفريقية: «كانت هناك حالات أعتقد أنه كان بإمكاننا فيها أن نتمسك بالصبر والتحمل.. لقد أبعدنا كثيراً من الناس». لكنه ربما رأى الانشقاق حتمياً في أعقاب ميثاق الحرية. «لا أعتقد أن تفاديه كان أمراً في أيدينا».[14] افترق مانديلا الآن عن بعض أصدقائه السياسيين القدامى، ومنهم معلمه الأول غور راديبي، الذي أصبح الآن حاد العداء للشيوعية. وبقي بيتر مدا، مصدر إلهامه في رابطة الشباب، من أنصار إفريقية، الذي كان مقتنعاً بأن مانديلا كان عضواً في الحزب الشيوعي، سراً، لكنه مازال يشعر تجاهه «بصداقة من القلب وليست من العقل».[15] كان مانديلا أقل دفئاً في تذكره مدا، إذ قال: «لم يجر بيني وبينه أي لقاء ذي معنى أبداً كشخصية عامة». وكتب من السجن: «لقد رسمت صورة لرجل حشى عظامه بكثير من النخاع، مفكر بلسان يستطيع أن

يجرح ويداوي في آن». وكان يرى مدا مختلفاً عنه اختلاف الحرب عن السلام: «كان مدا شاباً يركز على الحرب وأنا كنت أشد الاهتمام نحو السلام».(16)

في نيسان (أبريل) 1959 شكل أنصار إفريقية حزبهم الخاص، المؤتمر الإفريقي العام (P.A.C) في مؤتمر وطني في أورلاندو. عقد المؤتمر يوم العطلة الوطنية احتفالاً بأول مستوطنة دائمة بيضاء في جنوب إفريقية على يد جان فان ريبيك Jan Van Riebeck من شركة الهند الشرقية الهولندية في عام 1662 – مما أعطى المؤتمر الإفريقي العام فكرة عما يتعين عليه أن يفعله، بالاحتجاج على «العمل العدواني ضد أبناء وبنات إفريقية الذي حرم الشعب الإفريقي من أرضه وأخضعه للهيمنة البيضاء».(17) أحب المؤتمر الإفريقي العام أن يقارن نفسه بالوطنيين الإفريقيين في أجزاء أخرى من القارة، الذين كانوا الآن يتقدمون بثقة نحو الاستقلال. و«الشخصية الإفريقية» الجديدة التي أعلنها كوامي نكروما Kwame Nkrumak في غانة كانت أكثر انسجاماً مع ما ينادي به المؤتمر الوطني الإفريقي العام مما هي مع التعددية العرقية للمؤتمر الوطني الإفريقي.

لمنصب الرئيس لم يقع اختيار وفود المؤتمر الإفريقي العام على ديماغوجي متحمس مثل مادزونيا Madzunya أو لوبالو Leballo، وإنما على شخص أكثر تبصراً هو روبرت سوبوكوي Robert Sobukwe، المحاضر في اللغات الإفريقية في جامعة ويتووترسراند Witwatersrand. والذي يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر. كان سوبو كوي أصغر من مانديلا بستة أعوام. وكان مثله طويل القامة، وسيماً، قويّ البنية، إلا أنه كان من أصل أكثر تواضعاً جمع ثقافته إلى بساطة الفلاح. نشأ سوبوكوي في كارو Karoo، المنطقة نصف الصحراوية في الكيب، ابناً لعامل في أحد المتاجر. وتبناه الميثوديون وذهب إلى مدرسة هيلد تاون Heald twon وفورت هير حيث أحرز نجاحاً أكاديمياً أكبر بكثير مما فعل مانديلا، وأصبح عضواً مناهضاً في رابطة الشباب، يحارب المبشرين بشكل ضارٍ. ويحث على تنامي قوة إفريقية: «فكما اكتسبت الحضارة

الرومانية المتداعية حياة جديدة من البرابرة، كذلك فإن ما يسمى بالحضارة الغربية المتآكلة وجدت حياة أحدث وأكثر نقاء في إفريقية». عام 1949 أصبح سوبوكوي أميناً عاماً لرابطة الشباب، يدعم بحماسة برنامج عمل مانديلا ورفاقه. وقد انشغل عدة سنوات بالتعليم والاهتمامات الثقافية (ومنها ترجمة ماكبث إلى لغة الزولو)، لكن قبل مؤتمر الشعب مباشرة، ولدى صدمته بما رآه نفوذاً متزايداً للشيوعيين وغير الإفريقيين، ارتد على أعقابه نحو سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي.[18] كان يعتقد أن البيض، لا يمكن أبداً أن يشعروا أن قضية السود قضيتهم لأن «جماعة في موقع الحظوة لا تتخلى أبداً عن ذلك الموقع طواعية»[19] وتذمر، مثل سواه من أنصار إفريقية، من النشاطات المتعددة الأعراق لقادة المؤتمر الوطني الإفريقي، الذين اتهمهم «بالرقص مع نساء من البيض في الأحزاب متعددة الأعراق في جوهانسبورغ بدلاً من العمل على تحرير إفريقية من الهيمنة البيضاء».[20]

وقد لقي ظهور المؤتمر الوطني الإفريقي العام بزعامة خطيب مفوه ومثقف معاد للشيوعية الترحاب من قبل المحافظين في أوروبا وأمريكة كونه بشارة نقيض للمؤتمر الوطني الإفريقي.

اعتقد مانديلا أن وزارة الخارجية الأمريكية «رحبت بولادته ليكون خنجراً في قلب اليسار الإفريقي».[21] فيما لم يستطع الدبلوماسيون البريطانيون الحسم حول أي الشرين أهون بالنسبة للغرب، الشيوعية أم العنصرية. فقد امتدح المفوض السامي البريطاني موقف لوثولي المتين (الصامد) والمعتدل نسبياً حول التسامح العرقي.[22] إلا أن البريطانيين أكنوا احتراماً مبالغاً فيه للمؤتمر الوطني الإفريقي العام، وذلك بتأثير من شرطة جنوب إفريقية. حيث قدم مفوض الشرطة يوم 17 آب (أغسطس) تقريراً مطولاً إلى المفوض السامي البريطاني يشرح فيه أن أنصار إفريقية يعتبرون منظمتهم واحدة من منظمات عديدة مماثلة في القارة الإفريقية، وكلها ملتزمة بتحرير إفريقية من «الإمبريالية» و«هيمنة

البيض» مما سيؤدي بالتالي إلى تأسيس ما يسمى «الولايات المتحدة الإفريقية». [23] هذا فيما بقي البريطانيون والأمريكيون يرون في حكومة الأبارثيد حليفاً ضد الشيوعية العالمية . وفي وزارة الخارجية الأمريكية قال جوزيف ساترثويت Joseph Satterthwaite الخبير بالشؤون الإفريقية في تشرين الأول (أوكتوبر) 1958: «عندما تكون الرهانات منخفضة يصبحون أصدقاء خلصاً». [24]

ومازال مانديلا يأمل أن يعود الفصيلان في المؤتمر الوطني الإفريقي ويتحدا. فقد كان محامياً لسوبوكوي، ولوبالو في آن، «وكان يعتبره خطيباً مفوهاً وصاحب فكر نير». [25] لكن مانديلا ضاق ذرعاً بإحساس سوبوكوي الفج بالقومية السوداء ـ التي تخلى هو عنها منذ عقد ـ وبما يتجمع حول نصير إفريقية هذا من سياسيين مطبلين ومزمرين يسوون أحقاداً قديمة. وكان قلقاً بشكل خاص حيال رفض سوبوكوي لحقوق الأقليات، التي لخصت في البيان الإفريقي: «الشعب الإفريقي لن يتحمل وجود جماعات وطنية أخرى ضمن إطار الأمة الواحدة». وكان مانديلا يقول دائماً إن الأقليات القبيلة والعرقية ـ ومن ضمنها البيض ـ يجب ضمان حقوقها. واعتقد أن سوبوكوي يتهرب من الموضوع.» [26]

إلا أن مانديلا لمن يدرك حجم الخطر الذي مثله سوبوكوي بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي، ولم يدرك مدى استقطاب الوطنية التي ينادي بها المؤتمر الوطني الإفريقي العام المثقفين السود الشباب. وهاهو الآن يواجه أول تحد سياسي خطير، وعندما يستعيد ذكرى تلك الأيام بعد أربعين عاماً يرى في سوبوكوي أكبر منافس له. [27]

نقلت محاكمة قضية الخيانة، إلى معقل الأفارقة في بريتورية، التي تبعد ساعة بالسيارة عن جوهانسبورغ، حيث كان المؤتمر الوطني الإفريقي يلقى دعماً ضعيفاً جداً، والسكان البيض أكثر عداء. جلس ثلاثة قضاة في قاعة المحكمة المزخرفة ـ التي كانت كنيساً يهودياً قبل أن تحول إلى محكمة ـ برئاسة

جاستيس رامبف Justice Rumpff نفسه الذي حاكم كثيراً من المتهمين إبان حملة التحدي. كان مانديلا يكن الاحترام لرامبف، ولكنه كان يعتقد أنه يريد الإدانة: «كان يريد أن يرسلنا إلى السجن، لكنه كان قاضياً لامعاً لدرجة لا تسمح له بارتكاب عمل مخزٍ». (28)

مازال فريق الدفاع يضم فيرنون بيرانجيه «جهاز كشف الكذب البشري»، لكنه صار الآن مدعماً باثنين من كبار المحامين، إسرائيل ميزلس Israel Maisels وبرام فيشر Bram Fisher، الذي أصبح أحد أوثق أصدقاء مانديلا، وكان بطلاً بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي. كان أفريقانياً حقاً، ابن قاض حاكم لأورانج فري ستيت، أحمر الوجه ربيله، له أسلوب منفتح يميز الفلاحين. كان في بداياته وطنياً أفريقانياً، لكن بعد أن تلقى علومه في اكسفورد وقام بزيارة الاتحاد السوفيتي انضم إلى الحزب الشيوعي، وتأثر بـ جي. بي. ماركس، وموسى كوتاني، ويوسف دادو. تأثر مانديلا أيما تأثر بالتزام فيشر الرزين المضحي بنفسه «فتعانقنا عناق الأخوة». (29) وكرس فيشر كل طاقاته لتنظيم دفاع قانوني وسياسي في آن، وشدت مهاراته كثيراً من المتهمين نحو القانون.

توقفت المحاكمة وبدأت، بجدل دقيق، في آب (أغسطس) 1958 انطلق بيرانجيه في نقاش قانوني يفند الصياغة الغامضة للاتهام. وفي تشرين الأول (أوكتوبر) سحب الادعاء فجأة اتهاماته جملة وتفصيلاً، لكن بعد شهر عاد باتهام أكثر دقة، ترك واحداً وستين من المتهمين ليحاكموا لاحقاً، ووجه الاتهام ضد ثلاثين شخصاً فقط ساد الاعتقاد أنهم مذنبون خاصة في التحريض على الثورة أو العنف. وكان مانديلا بين هؤلاء.

حدد موعد لبدء المحاكمة ثانية في بريتورية في شباط (فبراير) 1959. وفي الليلة التي سبقت المحاكمة ذهب مانديلا لحضور الحفلة الأولى للعرض الموسيقي الأسود كينغ كونغ، وهو من تأليف صديقه تود ماتشيكيزا Todd Matshikiza ويروي قصة ملاكم الوزن الثقيل من صوفيا تاون، الذي كان

مانديلا يعرفه، والذي قتل صديقته، كان الافتتاح في القاعة الرئيسية في جامعة ويتز، وهي المدرج الوحيد في جوهانسبورغ الذي يسمح بدخول السود والبيض معاً (بالرغم من فصلهم بعدد من الصفوف). قدم العرض، الذي نقل فيما بعد إلى لندن، الطاقة الإبداعية كلها في الأحياء السوداء، مع حشد ضخم من ضمنه صديق مانديلا ناثان مدليدل Nathan Mdledle وهو من الأخوة مانهاتان، الذي قام بدور كينغ كونغ. طرب مانديلا للأداء، وعانق بعده تود ماتشيكيزا وزوجه إزما Esme وقال إنه تأثر بشكل خاص بأغنية «أوقات تعيسة، أوقات رديئة» Bad Times، sad Times بلازمتها «ماذا فعل هؤلاء الرجال كي يستحقوا الدمار» التي ذكرته بالمحاكمة التي ستبدأ في اليوم التالي.[30]

عقدت المحكمة، وأجلت، ثم بدأت ثانية، وأصبحت حياة مانديلا لاتعرف الاستقرار. وعمله ومهنته في المحاماة أكثر صعوبة. وطوقت نشاطات معظم قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، إما بالمحاكمة أو بالحظر. ولم يعد الرئيس لوثولي رهن المحاكمة، ولكن في حزيران (يونيو) 1959 حددت حركته لمدة خمس سنوات أخرى في مسقط رأسه ناتال. أصبح لوثولي الآن شخصية عالمية مشهورة. حيث أخبرت الدبلوماسية البريطانية اليانور إيميري لندن بأن الحظر قد أزاح «أكثر قادة المؤتمر الوطني الإفريقي ثباتاً واعتدالاً»، وتوقعت أن يؤدي ذلك إلى مزيد من التطرف، وربما حظراً عاماً على المؤتمر الوطني الإفريقي برمته.[31] فيما نشرت صحيفة النيويورك تايمز عرضاً لشخصية لوثولي، قائلة: إن حكومة جنوب إفريقية قد اختارت «عدواً قيماً» وأن السفير الأمريكي الجديد فيليب كرو Philip Crowe ـ الذي يفوق اسلافه حنكة وثقافة بشكل كبير ـ ذهب لزيارة لوثولي في غروتفيل Groutville بعد فرض الحظر عليه بثلاثة أشهر.[32] إلا أن الدبلوماسيين الغربيين والوا ابتعادهم عن طريق قادة المؤتمر الوطني الإفريقي الأكثر ميلاً إلى القتال، مثل مانديلا.

أخضع مانديلا لضغط أكبر بكثير أثناء المحاكمة، إلا أنه بقي ناشطاً جداً

وراء الستار. كان يستطيع أن يرى تامبو يومياً في مكتب المحاماة الذي يديرانه، كما كان وثيق الصلة بسيسولو سواء في قاعة المحكمة أم في أورلاندو. بقي سيسولو صاحب نفوذ كبير، وقد قال فيما بعد: «كنت في نظر الجميع لم أزل أميناً عاماً، لأني كنت أقوم بالعمل بالرغم من أن أوليفر تامبو أو دوما نوكوي هما اللذان كانا يشغلان المنصب رسمياً. كنت أتحاور مع نيلسون يومياً، فيما أعتقد». [33]

لكن المؤتمر الوطني الإفريقي بقي ضعيف التنظيم كامل عقد الخمسين. كما وصفه أصر / القادة المحظورون/ في صحيفة «البيريشين» بصراحة مؤلمة عام 1955 :

> «هناك عجز وعدم كفاءة كبيرين على مستويات متفاوته في قيادة المؤتمر. عدم المقدرة على فهم الحالات المحلية وعدم الكفاءة في التعامل مع الأمور البسيطة، مثل الشكاوى الصغيرة، والإجابة عن الرسائل، وزيارة الفروع. كما أن الثقة معدومة بالآخر، والعمل الجماعي في اللجان مفقود. إضافة إلى الفردية والتوق إلى السلطة، مما أدى إلى تخريب قرارات المؤتمر وتوجيهاته، والتجريح والنقد غير المبدئي». [34]

كان مانديلا يعي العجز، لكنه كان حساساً حيال نقد المؤتمر الوطني الإفريقي، وبخاصة من قبل البيض. وقد كتب الصحفي مارتن ليتون Martin Leighton مقالاً في الراند ديلي ميل يصف غياب التنظيم الحقيقي في المؤتمر الوطني الإفريقي، حيث لا يوجد سجلات أو قوائم بأسماء الأعضاء، فيما كان مسؤولوه ينكمشون مقارنة بالإفريقيين في البلاد المتاخمة. استشاط مانديلا غضباً، وعندما زاره ليتون شعر وكأنه يمسك بخناقه، وليس مرد ذلك إلى كذب المقالة، ولكن كما قال فيما بعد. إن «النقد الذي يؤذيني هو النقد الصحيح». [35]

كان فرع الترانسفال للمؤتمر الوطني الإفريقي هو الفرع الأكثر أهمية وفي

الوقت نفسه الأكثر عجزاً. حيث تذمر تنفيذيو الترانسفال في تشرين الثاني (نوفمبر) 1956 من «عدم وجود وعي بالحاجة إلى اليقظة والحذر في نشاطات الفرع. وهناك قدر كبير من البلادة وعدم الكفاءة في أسلوبنا في العمل». وكلما ازداد عدد القادة الممنوعين أصبحت المشكلة أكثر إلحاحاً، ففي كانون الأول (ديسمبر) 1958 أفاد التنفيذي الوطني بأن «هدفنا يجب أن يكون جعل المؤتمر هيئة قادرة على البقاء في وجه أي هجوم أو عدوان يشن عليه، مهما كان حاداً»، وطالبوا بحملة كفاءة فورية. لكن بعد سنة كان الأمين العام الجديد دوما نوكوي، الذي خلف تامبو، يتحسر لأن مشاكل التنظيم «قد أصبحت الآن سنوية جريئة لدرجة القحة». وحذر من أن «فكرة أن منظمة ضخمة كمنظمتنا بكل ما تتحمله من مهام ومسؤوليات، يمكن أن تدار بلا تفرغ تام فكرة مضحكة».[36] وأراد أن توضع الخطة M ـ وهي شبكة المقاومة الطارئة التي طرحها مانديلا منذ ثمان سنوات ـ في التنفيذ دون أي تأخير كي «تتحمل الهجوم الشرس وتتغلب عليه». لكن التحسن في دفاعات المؤتمر الوطني الإفريقي كان طفيفاً فيما لم تبد الشرطة الأمنية عدواً لا يرحم. وعندما كان شرطيان أفريقانيان يتقنان الحديث بالكزوسية يقومان بزيارة لمكاتب المؤتمر الوطني الإفريقي، يذكر مانديلا، أن الشاي كان يقدم لهما، ويطلب إليهما الجلوس كي يتمكنا من تدوين ملاحظاتهما، لأنهما كانا مهذبين جداً».[37]

بعد تأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي العام في نيسان (أبريل) 1959 اضطر المؤتمر الوطني الإفريقي إلى اتخاذ موقف أكثر ميلاً للقتال. وعلق آمالاً كبيرة على المقاطعة الاقتصادية، التي كان يراها سلاحاً سياسياً رئيسياً، كان لديه احتمالات غير محدودة.[38] وبدا أن مقاطعة منتجات الشركات أو المتاجر المؤيدة للأبارثيد خير جواب عن الحظر المفروض على أشكال الاحتجاج الأخرى. أراد لوثولي أن يمارس الضغط على الشركات الضعيفة فقال: «لا تفعلوا شيئاً، فقط توقفوا عن الشراء»[39] «لتضربوهم على المعدة» على حد

تعبير مانديلا.[40] في أيار (مايو) 1959، وبتشجيع من مقاطعة ناجحة لسجائر رامبرانت، التي كانت خاضعة لسيطرة أنطوان روبرت Anton Rupert ملك التنباك الوطني الأفريقاني، أعلن المؤتمر الوطني الإفريقي عن مقاطعة البطاطا احتجاجاً على المعاملة غير الإنسانية للعمال الزراعيين. في البداية حقق الإضراب نجاحاً مدهشاً، ورأى فيه مانديلا بداية نمط جديد من المقاومة.[41]

كان مانديلا يحذر من بطش الحكومة الجديدة برئاسة الدكتور هندريك فيرورد Dr. Hendrik Verwoerd الذي أصبح رئيساً للوزراء في أيلول (سبتمبر) 1958، عقب وفاة ستريجدوم Strijdom. لكنه كان واثقاً من أن نظام فيرورد «ببرنامجه المقيت من الطرد الجماعي والاضطهاد السياسي وإرهاب الشرطة» لن يدوم طويلاً: «إنها آخر مقامرة يائسة لحكم مستبد فاشستي مكروه ومحكوم عليه بالإخفاق، وسرعان ما سيخرج من على خشبة مسرح التاريخ، لحسن الحظ».[42]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي يخضع لضغط متنام ليتخذ تحركاً جماعياً يتحدى قوانين العبور بإضرام النار في تلك الجوازات المكروهة، التي اعتبرت أداة أساسية من أدوات اضطهاد السود. من الناحية النظرية كانت تلك الخطوة ستجعل النظام كله غير قابل للعمل، لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان حذراً جداً حيال فشل الحملات السابقة. وفي المؤتمر السنوي في كانون الأول (ديسمبر) 1958. قال التنفيذي الوطني إن مقاومة الجوازات تتصاعد، إلا أنهم لزموا جانب الحذر: «إذا اعتقدنا أننا بتسديد ضربة واحدة نستطيع أن نلحق هزيمة بالنظام فإن النتيجة ستكون التحرر من الوهم. من ناحية أخرى لا نستطيع أن نجلس وننتظر إلى أن يصبح الجميع مستعدين لدخول ساحة المعركة.. لقد بدأ النضال من أجل إلغاء قوانين / الجوازات. ولا مجال للعودة إنما/ إلى الأمام أبداً/ ».[43]

كان دوما نوكوي، الأمين العام الجديد للمؤتمر الوطني الإفريقي شخصاً

حيوياً ومكتنزاً من خريجي جامعة ويتز أصبح أول محام أسود في المحاكم العليا في جنوب إفريقية. كان تحت حماية تامبو الذي علمه في مدرسة سانت بيتر، كما كان ملاكماً، له عدوانية المصارع التي كان تامبو دائماً يضطر إلى كبحها.[44] لقد صاغته حملة التحدي وقضايا الخيانة وأصبح شيوعياً ملتزماً في الوقت الذي يتمتع فيه بحياة جيدة وشراب. ومن موقعه كأمين عام صمم على إعادة تنظيم المؤتمر الوطني الإفريقي. وبعمله وثيقاً مع سيسولو ومانديلا وتامبو، حضر خطة مفصلة لتطرح على المؤتمر السنوي للمؤتمر الوطني الإفريقي للموافقة عليها في كانون الأول (ديسمبر) 1959. اقترحت الخطة أولاً تمديد المقاطعة الاقتصادية، ثم شن حملة معادية لجوازات المرور، على أن تبدأ في 31 آذار (مارس) 1960، وهي الذكرى السنوية لأول مظاهرة ذات شأن ضد قوانين الجوازات يوم 26 حزيران (يونيو).

لكن رعد المؤتمر الوطني الإفريقي سرقه المؤتمر الإفريقي العام، الذي كان تواقاً لعمل فوري. فبعد أسبوع من المؤتمر الوطني الإفريقي عام1959 تداعى تنفيذيو المؤتمر الإفريقي العام إلى أول مؤتمر وطني لهم. وكان اقتراحهم الرئيسي معتدلاً بشكل لافت وهو: /حملة وضع/ للإصرار على أن يحصل الإفريقيون على معاملة كريمة في المحال التجارية وأماكن العمل، بشكل يمكنهم من تأكيد شخصيتهم الخاصة والتخلص من عقلية العبيد.[45] سرعان ما لحق ذلك سوبوكوي الذي طرح حملته الخاصة بمحاربة قوانين الجوازات. كان اقتراحاً فجاً، لم يقدر بشكل واقعي المخاطر التي ينطوي عليها، إلا أنه سرعان ما حصل على الموافقة الجماعية. قال سوبوكوي إن المؤتمر الوطني الإفريقي «سيعبر الآن الروبيكون التاريخي الخاص به».[46]

اعتقد قادة المؤتمر الوطني الإفريقي أن المؤتمر الإفريقي العام يلعب دور المفسد. بمحاولته الحط من شأن مبادراتهم وسبقهم إليها. حيث كتب جو

سلوفو: «إن ما بادر المؤتمر الإفريقي العام به كان نسخة سيئة التنظيم وليست بمستوى حملة التحدي عام 1952»[47].

وأُحبط مانديلا لرؤية منافسه سوبوكوي في موقع «الخطيب المفوه والمفكر اللامع» يلعب دور (الديماغوجي) متجاهلاً تحذيرات الفشل التاريخية. إلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يستطع تحمل مغبة تجاهل الحماسة العامة التي أطلقها سوبوكوي. وبعد أربعة أشهر أثبتت خطته المتعجلة أنها الحافز الذي بدل المشهد الجنوب إفريقي برمته. ودفع مانديلا نحو دور ثورة أشد ميلاً للقتال.

11

الثورة التي لم تكن

1960

حمل وعد الاستقلال في دول إفريقية أخرى تفاؤلاً جديداً إلى المؤتمر الوطني الإفريقي كما إلى المؤتمر الإفريقي العام. كتب مانديلا في صحيفة «ليبريشين» في آذار (مارس) 1958 ضمن هجوم شرس على الإمبريالية الأمريكية «إن شعب إفريقية استيقظ، ومستقبل هذه القارة ليس في أيدي أنظمة الحكم الرديئة السمعة التي تحالفت مع الإمبريالية الأمريكية. وإنما هو في أيدي عامة الناس الذين يعملون من خلال حركاتهم الجماعية».(1)

جاء في تقرير المؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1959 «شهد العام الماضي، جيشاناً غير مسبوق في إفريقية، وأصبح الحكم الذاتي نداء الجماهير في طول القارة وعرضها». .(2) أصبحت كلمة /إفريقية/ نداء موحداً، وصار الأطفال يسمون كوامي Kwame أو جومو Jomo تيمناً بنيكروما Nkrumah وكينياتا Kenyatta. وأصبحت هيمنة البيض في جنوب إفريقية نغمة نشازاً لا تنسجم مع بقية القارة، كما أصبحت أكثر ضعفاً. رأى الصحفيون والدبلوماسيون أن عام 1960 سيكون / عام إفريقية/ .

حيث ستستقل سلسلة من المستعمرات البريطانية والفرنسية، وبدأت القوى الإمبريالية السابقة تخطب ود القادة الجدد للحفاظ على العلاقات التجارية والانضمام إلى الحرب الباردة ضد الشيوعية.

في بريطانية بدأ رئيس الوزراء المحافظ هارولد ماكميلان Harold

Macmillan يدرك أهمية إفريقية السوداء، التي كان يشبهها بفرس نهر كسول بدأ فجأة يحث على الحركة.[3] كان معنياً بالمستوطنين البيض المتصلبين في جنوب إفريقية والثمن السياسي لعلاقات بريطانية بحكومة الأبارثيد في جنوب إفريقية. وبعد فوزه في الانتخابات في تشرين الأول (أكتوبر) 1959 خطط للقيام بجولة في إفريقية تتوج بزيارة كيب تاون.

خشي قادة جنوب إفريقية السود والليبراليون أن يصفح ماكميلان عن الأبارثيد فأقدم أربعة منهم، ألبرت لوثولي، وآلان باتون Alan Paton، ومونتي نيكر Monty Naicker وجوردن نغوبان Jordan Ngubane على توقيع رسالة مفتوحة إلى ماكميلان قبل أن ينطلق، نشرت في جريدة «لأوبزرفر» اللندنية، التي كانت تعرف في وقتها باسم صديق الرجل الأسود. حذرت الرسالة ماكميلان من أن الأبارثيد سيء ومجحف، ورجته ألا يقول «كلمة واحدة يمكن ان تفسر مديحاً لذلك النظام».[4] وافق ماكميلان، سراً، على كل كلمة جاءت في الرسالة، وحملها محمل الجد لدرجة أنه سأل المسؤولين لديه فيما إذا كانوا يعتقدون أن موقعي الرسالة سيرضون بالخطاب الذي كان يعده لجنوب إفريقية.[5]

بدأ ماكميلان جولته في غانة، حيث امتدح رئيس الوزراء كوامي نيكروما Kwame Nkrumah وذكر لأول مرة /رياح التغيير/ (برغم أن الصحافة لم تلحظ تلك العبارة).

وتابع جولته عن طريق نيجيرية وروديسية ونياسالاند إلى جنوب إفريقية. وفي كيب تاون أقام لدى الدكتور فيروورد، وسرعان ما شعر بعناده الشديد: «ليس لأي شيء يقوله المرء أو يطرحه أن يترك أصغر أثر في آراء هذا الرجل المصمم».[6] ذعر ماكميلان، كما قال لسكرتيره الصحفي هارولد أيفانز Harold Evans، للجنون الذي «يرفع الفصل العرقي إلى مستوى المبادئ». وقال: «إذا لم يجعلوا من الفصل العرقي إيديولوجيا فإنهم سينجحون حتماً في

الوصول إلى النتائج التي يسعون إليها بالحد الأدنى من التنازل. فالفوارق الاقتصادية بين الأسود والأبيض ستكون كافية بحد ذاتها لتحقيق الفصل العملي. وما من شك في أنهم سيضطرون إلى قبول الإفريقي الموهوب حقاً». [7]

أثناء ترحاله عبر إفريقية كان ماكميلان يراجع الخطاب الذي سيلقيه في كيب تاون، وكان باستمرار يطلب إعادة صياغته من قبل العاملين معه ومنهم اثنان من اللغويين الأكثر تهذيباً وعمقاً في بطانته: الموسوعي دافيد هانت David Hunt من مكتب الكومنويلث، والمندوب السامي النشيط السير جون مود Sir John Maud (وقال أحد أذكياء جنوب إفريقيا «مع مود يجب أن تأخذ اللطف باللطف»). كان ماكميلان متوتر الأعصاب قبل أن يدخل إلى المجلس النيابي في كيب تاون لدرجة أنه اضطر إلى الذهاب إلى الحمام ليتقيأ. وكان خطابه ضربة معلم، بأسلوب المسح التاريخي الذي اعتمده والذي سلب لأول وهلة لب نواب المجلس الأفريقانيين. إذ امتدح وطنيتهم كأوائل القوميين الإفريقيين، قبل أن يفصل القول: «بأن هناك بعض الأوجه في سياستكم تجعل من المستحيل بالنسبة لبريطانية أن تدعم جنوب إفريقية في الكومنويلث». [8] ولم يفهم مضمون حديثه قبل أن تتناوله الصحافة البريطانية بالتحليل. قالت صحيفة دي بيرغر Die Burger، وهي الصحيفة الأفريقانية الرائدة: «لم يعد بإمكان بريطانية أن تتحمل صحبة بلادنا بينما بعض شؤوننا تذروها الرياح». [9]

طلب ماكميلان الاجتماع بكبار السياسيين السود، إلا أن برنامجه كان محبوكاً بشدة من قبل حكومة فيروورد، والمندوب السامي، كما رأينا، لم يكن يعرف عن قادة مثل مانديلا سوى النذر اليسير. وفي حفلة الحديقة المخصصة للبيض فقط، التي أقامها السير جون مود، حث باتريك دانكان Patrick Duncan ماكميلان على رؤية القادة السود، لكنه لم يلق لديه أذناً صاغية. [10]

والواقع أن ماكميلان قرر أن خطابه في كيب تاون ترك أثراً كافياً للتسامح معه إذا لم يلتق بقيادة المؤتمر الوطني الإفريقي. [11] كان ألبرت لوثولي سيقول

لماكميلان ـ كما قال فيما بعد ـ إن الإفريقيين سيكونون أفضل حالاً لو أن جنوب إفريقية كانت خارج الكومنويلث، وإن: «ذلك كان سيعطي بريطانية نفوذاً أكبر، ويجعل الأفارقة أكثر عزلة»، إلا أنه فوجئ مفاجأة حميدة بخطاب ماكميلان وقال: «إنه أعطى الشعب الإفريقي بعض الإلهام والأمل».[12]

مانديلا أيضاً اعتبر الخطاب «رائعاً» برغم عدم ثقته بالإمبريالية البريطانية، ولن ينسى أبداً شجاعة ماكميلان إذ حذر ـ وهو في عرين الأسد ـ حكم القلة البيض العنيد الأعمى عرقياً من مغبة رياح التغيير. وبعد ست وثلاثين سنة في قاعة وستمينستر Westminster Hall سيدلي مانديلا بخطاب على نمط خطاب ماكميلان، بالمسح التاريخي نفسه، وسيذكّر برسم كاريكاتوري في صحيفة جنوب إفريقية يصور ماكميلان بعد الخطاب مع تعليق من مسرحية يوليوس قيصر Julius Caesar.

آه ! سامحني أيها القطعة النازفة من التراب

لأني ضعيف ولين مع أولئك الجزارين[13]

سرعان ما أثبتت / رياح تغيير/ ماكميلان أنها دون ما يقتضيه الواقع. فبعد ستة أسابيع فقط اضطر لأن يفسر أنه لم يكن يقصد: «إثارة زوبعة تطيح بالحضارة النامية كلها. يجب أن نتجنب ذلك مهما كلف الأمر».[14] وحتى عندما كان يجوب إفريقية كانت الحكومة البلجيكية تتهيأ، بأقل قدر من التحضير، لإعطاء الاستقلال بعد أربعة أشهر للكونغو، الذي سرعان ما سيغرق في حرب أهلية وفوضى تحمل معها الحرب الباردة إلى قلب القارة وتنشر الرعب في أوصال جنوب إفريقية البيضاء. وقد شجعت سرعة انسحاب الإمبريالية المؤتمر الإفريقي العام على التعهد بالإطاحة بالهيمنة البيضاء على جنوب إفريقية بحلول عام 1963. استاء مانديلا من ادعائهم بأن الأفارقة سيتخلون عن السلطة بالسهولة التي تتخلى بها القوى الاستعمارية، وكتب فيما بعد من سجنه: «لم يبد أن لدى المؤتمر الإفريقي العام أية خطط لتهيئة الناس

لتلك اللحظة التاريخية. التي افترضوا أنها ستتحقق بمجرد الذهاب إلى السجن والانتظار هناك إلى أن يسقط الناتس Nats من تلقاء أنفسهم». [15]

أصبح الكونغرسان المتنافسان الآن في خلاف حاد - مثل كثير من حركات التحرر في إفريقية - ينتقد بعضهما بعضاً بقدر ما ينتقدان عدوهما المشترك. وفيما كان المؤتمر الوطني الإفريقي يحضر لتظاهرته ضد أذونات المرور يوم 31 آذار (مارس) 1960. كان سوبوكوي والمؤتمر الإفريقي العام يتقدمون بحملتهم الخاصة المناوئة للأذونات بتخطيط أقل بكثير. اعتقد سوبوكوي أن القيادة التلقائية، الجريئة، ستعبئ الجماهير بشكل آلي، وأعلن في 18 آذار (مارس) فجأة أنه خلال ثلاثة أيام، قبل عشرة أيام من الموعد المقرر لمظاهرة المؤتمر الوطني الإفريقي «في كل مدينة وبلدة وقرية، يجب أن يترك الرجال أذوناتهم في البيت، ويسلموا أنفسهم لمخافر الشرطة كي تلقي القبض عليهم، دون أن يطلبوا لأنفسهم كفالة أو دفاعاً أو غرامة». وفي وقت لاحق دعا المؤتمر الوطني الإفريقي للانضمام إليهم، إلا أن نوكوي امتنع متبصراً، لأن الخطة «لم يكن لديها مقومات معقولة للنجاح». [16] وكان مانديلا متشككاً بالقدر نفسه إذ اعتقد أن المؤتمر الإفريقي العام كان مجرد «قيادة تبحث عن أتباع»، وأنه يستبق خطط المؤتمر الوطني الإفريقي بانتهازية سمجة. [17]

في21 آذار (مارس) سلم سوبوكوي و150 شخصاً آخرون أنفسهم بلا أذونات إلى مركز شرطة أورلاندو، حيث لم يكن للمؤتمر الإفريقي العام أتباع كثر، كما كان الأمر في معظم أنحاء جنوب إفريقية. لكنه كان أكثر قوة في الأحياء السوداء من كيب تاون وفي شاربفيل Sharpeville قرب فيرينايغن Vereeniging في الترانسفال، حيث كان المؤتمر الوطني الإفريقي ضعيف التنظيم منذ زمن طويل. [18] وفي كيب تاون قدم 1500 شخص أنفسهم للسلطات، في حين تجمعت حشود هائلة احتجاجاً إلى أن أطلقتهم الشرطة، بعد مقتل اثنين . في شاربفيل أحاطت جمهرة قوامها 10.000 شخص مخفر

الشرطة، مما أفقد الشرطة صوابها فأطلقت النار وألقت سبعة وستين قتيلاً.

هذه المجزرة في شاربفيل، خلاف أية مواجهة سابقة في جنوب إفريقية، تردد صداها فوراً في كافة أرجاء العالم. وفي واشنطن قال الرئيس أيزنهاور Eisenhower، الذي يواجه مشاكله العرقية الخاصة عام الانتخابات؛ إنه لن يجلس في موقع الحكم في «مشكلة سياسية واجتماعية صعبة على بعد ستة آلاف ميل». إلا أن وزارة الخارجية الأمريكية انتقدت بريتورية بشكل غير مسبوق وأعربت عن أملها في أن يتمكن السود في جنوب إفريقية من الحصول على «إنصاف لمظالمهم المشروعة بوسائل سلمية».[19] وفي الأمم المتحدة ألقى مجلس الأمن باللائمة على الحكومة في إطلاق النار، في حين امتنعت بريطانية وفرنسة عن التصويت.[20] وفي جنوب إفريقية تداعى سوق الأوراق النقدية، واصطف البيض في طوابير ليشتروا البنادق أو ليتقدموا بطلبات للهجرة.

انقلب المشهد السياسي للسود بين عشية وضحاها. إذ تلقى سوبوكوي والمؤتمر الإفريقي العام دفعاً عظيماً. وعلّق مانديلا فيما بعد أن ذلك «لم يكن بسبب ما كانوا يقولونه ـ الذي كان فجاً تماماً ـ وإنما بسبب المجزرة».[21] لكن موجة الغضب الجماهيري بدت في البداية إثباتاً لإيمان سوبوكوي بالعمل العفوي. فقد وجدت خطابة المؤتمر الإفريقي العام الوطنية آذاناً صاغية لدى السود حركت أحاسيسهم بشكل أكثر حيوية من بيانات المؤتمر الوطني الإفريقي الأكثر حذراً. وقد قال أحد الصحفيين الإفريقيين «إن لسوبوكوي حيوية، يا رجل، إنه واقعي جداً.. جداً.. جداً». وكان كثير من السود ينشدون علناً نشيد المؤتمر الإفريقي العام:

نحن السود

نطالب بأرضنا

التي أخذت عنوة

ويجب أن يخرجوا منها[22]

قبل مانديلا أن يكون قادة المؤتمر الإفريقي العام قد أظهروا شجاعة، وسرعان ما تبين أن المؤتمر الوطني الإفريقي «يجب أن يقوم بتعديلات سريعة»[23] فأمضى، بعد شاربفيل، ليلة كاملة يناقش سراً سبل الرد مع سيسولو ونوكوي وسلوفو. وقرروا أن على قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، بدءاً من رئيسه ألبرت لوثولي، أن يحرقوا بشكل علني أذوناتهم. كما عليهم أن يعلنوا عن يوم حداد، يلزم فيه العمال بيوتهم احتجاجاً على المجزرة. وشكلوا لجنة فرعية تعمل من منزل سلوفو لتحضر للإضراب، فيما ذهب نوكوي إلى بريتورية ليرتب موضوع حرق أذونات لوثولي.[24]

ساورت الشكوك كثيراً من الشيوعيين، ومنهم راستي بيرنشتاين حيال إحراق الأذونات، الذي خافوا أن يؤدي إلى الطرد والإقصاء والنفي، لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان قد اتخذ قراره، وحاول الشيوعيون المساعدة.[25]

بدت البنية الحديدية للأبارثيد تتداعى على مدى عشرة أيام بعد شاربفيل. وفي 26 آذار (مارس) صور لوثولي يحمل البقايا المتفحمة لإذنه. وبعد ذلك بيومين لبت الأغلبية العظمى من العمال السود نداء المؤتمر الوطني الإفريقي للاعتصام بالبيوت، فيما حرق مانديلا ونوكوي تصريحيهما أمام الكاميرات والصحفيين، وتبعهما في ذلك بضع مئات آخرون. وفكر مانديلا أنه لا يمكن سوى «المنظمة جماهيرية حقيقية أن تنسق مثل هذه النشاطات».[26] وأهم ما في الأمر هو أن الحكومة بدت مشلولة، وأعلن مأمور الشرطة يوم 25 آذار (مارس) أنه سيعلق اعتقال من لا يحمل إذناً.

بدا المؤتمر الوطني الإفريقي الآن وكأنه يسرق الأضواء، وعندما تحدثت مع مانديلا في أورلاندو يوم 29 آذار (مارس) كان يستبعد اعتماد المؤتمر الإفريقي العام على الرد العفوي «لا بد أن يكون لديكم الآلية والتنظيم»، وكان شديد الحساسية حول دور المؤتمر الإفريقي العام في المبادرة بالاحتجاج،

مصراً على أن المقاطعة التي فرضها المؤتمر الوطني الإفريقي على البطاطا كانت مقدمة حاسمة لحرق الأذونات، وبدا واثقاً من أن مبادرة المؤتمر الوطني الإفريقي ستنجح. وكان معه دوما نوكوي، وقد ألقى جسمه القصير مسترخياً في كرسي مريح. وكان مبتهجاً لأن ألف إذن قد أحرقت حتى الآن، وقال: «لم نحلم أبداً أن هذا سيحصل بهذه السرعة. سنشويهم.. - إن البلاد الآن في مرحلة ما قبل الثو.. - وأوقف نفسه عن قول / الثورة/ - وقال: في حالة تسبق حدوث تغيرات أساسية»[27].

هل كانت ثورة؟ كانت واحدة من تلك الفواصل القصيرة في تاريخ أمة بدا فيها أن أي شيء ممكن. في الحانات الرخيصة (الشيبين) كان هناك حماسة مفاجئة: «هناك شرخ في الجدار الأبيض، فالشرطة غاية في التهذيب، وهذا مؤلم: حتى أن شرطياً ناداني بلفظة مينير Meneer (ياسيد): لقد جعلوا جلدنا سميكاً لدرجة أننا لم نعد نشعر بالوخز». وحتى الإذاعة التي تملكها الدولة أذاعت لحناً ثورياً قديماً، هربه إلى داخل «الاستوديو» موظف أسود مناهض: «انهض يا شعبي. واتحد. الخطأ خطأنا. جميع الدول تدوسنا بأقدامها»[28].

بحلول 30 آذار (مارس) كانت المبادرة تعود ثانية إلى المؤتمر الإفريقي العام في كيب تاون، معقلهم حيث شل المدينة إضراب عام. وبدأت الشرطة تهاجم الحارات بضراوة لتخرقه. فرد العمال السود بمسيرة بدت عفوية ضمت حوالي 30.000 شخص في مركز المدينة، بقيادة طالب في الثالثة والعشرين يلبس بنطالاً قصيراً هو فيليب غوسانا Philip Kgosana، الذي اقتدى بنموذج سوبوكوي. وعندما وصلوا إلى المدينة بدا لساعة من الزمن أنه يمسك مستقبل البلد بين يديه لكنه خدع بوعد مقابلة مع وزير العدل ففرق الحشد. لكنه اعتقل بدل ذلك وأوقف تسعة أشهر[29].

ويتابع المؤرخون جدلهم حول ما إذا كانت المسيرة عجلت الثورة: ما من شك في أنه لولا خداع الحشود لكانت الشرطة قامت بمجزرة أسوأ من

مجزرة شاربفيل، كان حرياً بها أن تحرض انفجاراً أسود أكثر خطراً.[30]

وعلى تلك الحال، سارعت الحكومة إلى استغلال الوضع، فأعلنت حالة الطوارئ في اليوم نفسه وأوقفت ما يربو على 2000 شخص. كان مانديلا قد تلقى سراً معلومات مسبقة من قبل صديق في الشرطة السرية، وحذر رفاقاً له من ضمنهم أحمد كاثرادا، الذي أخبر بدوره بيرنشتاين، الذي حذر أصدقاءه الشيوعيين من مغبة النوم في بيوتهم.[31] واتخذ قرار بأن يختبئ بضعة ناشطين - مثل هارميل وكوتاني ودادو - فيما يستسلم مانديلا والبقية للاعتقال.[32]

اعتقل مانديلا ونقل إلى سجن نيولاندز قرب صوفيا تاون حيث أمضى الليل في وضع مرعب، وصفه في اليوم التالي لهيلين جوزيف التي سجنت إفرادياً «احتجز خمسون معتقلاً لآخر الليل، بعد اعتقالهم في الساعة الواحدة صباحاً، في باحة مكشوفة بلا سقف ينيرها مصباح كهربائي واحد. كانت صغيرة لدرجة أنهم لم يستطيعوا سوى الوقوف. ولم يقدم لهم أي طعام أو بطانيات. وفي الصباح أخذوا إلى زنزانة مساحتها حوالي 8 أقدام مربعة، ليس فيها تمديدات صحية سوى فتحة بالوعة في الأرض تغسل بالماء حسب رغبة الشرطي المسؤول، ولم يأت الطعام، أو حتى مياه الشرب، قبل الساعة الثالثة بعد الظهر، بعد اثنتي عشرة ساعة من إحضار الرجال إلى الزنزانة».[33]

كانت الحكومة الآن تتحرك بسرعة لتمنع مزيداً من الاحتجاج. حيث أقدمت يوم 8 نيسان (أبريل)، بمساعدة الحزب المتحد المعارض، على مرّ قانون المنظمات غير القانونية الجديد وبموجبه أصبح المؤتمر الوطني الإفريقي، بعد ثمانية وأربعين عاماً، حزباً غير قانوني، أسوة بالمؤتمر الإفريقي العام. وسيبقيان كذلك على مدى الثلاثين سنة القادمة.

كانت أحياء السود في فوضى سياسية، إذ لم يكن أحد يعلم من في السجن، ومن نجا، وتركز جو الأزمة يوم 9 نيسان (أبريل)، عندما أطلقت النار على الدكتور فيروورد وجرح من قبل مزارع أبيض اسمه دافيد برات من في

معرض زراعي في جوهانسبورغ بقيت جنوب إفريقية بضعة أيام في سجن سياسي، كان فيها فيروورد خارج ساحة العمل ووزارته مشتتة. وقد ألقى أحد الوزراء، وهو بول سوير Paul Sauer خطاباً يوم 19 نيسان (أبريل) قال فيه إن شاربفيل قد أغلقت كتاب التاريخ القديم لجنوب إفريقية، وإن على البلد أن يعيد النظر في علاقاته العرقية بجدية وأمانة.[34] إلا أن روح المصالحة هذه سرعان ما انقضت واستعاد فيروورد عافيته بالتدريج وملك زمام الأمور، وصار أكثر عناداً من أي وقت مضى. وفرضت الشرطة قوتها بوحشية أكثر. وخبت نار أذونات المرور الأسطورية؛ إذ تذكر الناس أنهم لا يستطيعون الحصول على منحة أو معاش تقاعدي أو أي مدخرات من صندوق توفير البريد أو تقديم طلب بيت للسكن دون إذن مرور. بدؤوا يصطفون أرتالاً للحصول على أذونات بديلة لتلك التي أحرقوها. وبحلول نهاية شهر نيسان (أبريل)، أي بعد شهر من شاربفيل، بدا الحديث عن ثورة وشيكة سابقاً لأوانه. وقد قال الصحفي كان ثيمبا Can themba «هذه ليست ثورة». كان الشباب يتحدثون عن تحول رياح التغيير إلى إعصار. لكن يبدو أنه لم يخطر على بالهم أنه قد يكون مجرد نسمة عابرة.[35] أثبت تخفيف قوانين الأذونات أنه (تكتيكي) بحت، بقصد التحضير لإجراءات صارمة أكثر منهجية. ولم تبد بريتورية أي مؤشر ينبي بالخضوع لضغط ماكميلان أو أي قائد غربي آخر، وسرعان ما بدأت الحكومة تضع خططاً لتدريب الشرطة، بمساعدة من الخارج، على أساليب مراقبة وتعذيب أكثر نجاعة وبطشاً.

كشفت عقابيل شاربفيل غياب الواقعية لدى كل من المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام. وكانت أوجه الشبه قليلة بين جنوب إفريقية وبقية القارة. حيث كانت الحكومات الاستعمارية عبارة عن حكام راغبين عن الحكم. ولم تلق حركات التحرير صعوبات كبيرة في سبيلها إلى الحرية. وما من شك في أن نضال الجنوب إفريقيين ضد الأفريقانيين سيكون أقسى من الانتصارات في الشمال. في هذا الجو غير العادي تابع القضاة الثلاثة في

بريتورية قضية الخيانة، كانوا يستمعون بهدوء إلى الأدلة حول أحداث خمس سنوات خلت. في كل يوم كان المتهمون الثلاثون ينقلون إلى قاعة المحكمة من السجن. كان يسمح لمانديلا بالخروج أيام العطلة الأسبوعية ليزور مكاتب مانديلا وتامبو، التي تردت أوضاعها بسبب المحاكمات. كان يرافقه شرطي أفريقاني ودود هو السيرجنت كروجر Sergeant Kruger، الذي كان يثق بأنه لن يهرب. ولكن أثناء الأسبوع كان عليه أن يمضي الليل في السجن والنهار في المحكمة، يواجه المرحلة الأكثر حساسية في قضية الخيانة.[36] كانت الحكومة قد أعطت الآن المحاكمة أهمية مضافة، كبديل للتحري عن أسباب مجزرة شاربفيل، الذي كانت المعارضة تطالب به. وكما قال الدكتور فيروورد يوم 20 أيار (مايو): «المحاكمة نفسها تحمل طابع التحري في أسباب الإزعاجات».[37]

كان محامو الدفاع، برئاسة برام فيشر Bram fischer ساخطين بسبب القيود التي فرضتها حالة الطوارئ، وقالوا إن العدالة لا يمكن تحقيقها في ظروف غير طبيعية كتلك، في وقت كان فيه موكلوهم في السجن، وغالباً ما تصعب استشارتهم. فاقترحوا (استراتيجية) جريئة، وافق عليها مانديلا: «وذلك بأن ينسحبوا من القضية إلى أن ترفع حالة الطوارئ، مما يترك المتهمين الثلاثين يدافعون عن أنفسهم. كانت مناورة مثيرة للجدل، إلا أنها كانت كفيلة بإعطاء المتهمين فرصة لاستعراض ذكائهم أمام القضاة، مخاطبتهم مباشرة. كثيراً ما كانت نقاشات السجناء الطويلة في السجن تثير دهشة سجانيهم. فعندما قام مانديلا بزيارة هيلين جوزيف ليناقش معها الإجراءات؛ لاحظ أن بعض السجانات النساء انجذبن إلى النقاش، كما تأثرن بالتزام السجناء السياسي. وضع سحب فريق الدفاع مسؤولية خاصة على كاهل مانديلا ودوما نوكوي، المحاميان الوحيدان بين الثلاثين. فأصبح عليهما الآن مساعدة الآخرين في تحضير قضاياهم. إلا أن بعضهم تشكى من غياب التمثيل اللائق. وأكد لهم مانديلا أنهم يطرحون نقاشاً أخلاقياً قوياً.[38]

في آب (أغسطس)1960، بعد خمسة أشهر من القيود، رفعت حالة الطوارئ وعاد المحامون إلى قاعة المحكمة. جاء الآن دور مانديلا للإدلاء بشهادته ـ الأمر الذي لقي ترحاباً لديه، إذ أنه كان ممنوعاً من الكلام في أي مكان آخر ـ وعين المحامي الشاب سيدني كينتريدج Sydney Kentridge للدفاع عن مانديلا، وتحضيره للإدلاء بشهادته ومتابعة استجوابه، أخفى أسلوب كينتريدج المتواضع عقلانية لا تلين، ستحمله إلى قمة مهنته في جنوب إفريقية وبريطانية على حد سواء، وسيصبح مشهوراً بعد أن استخلص من شهود من الشرطة الأهوال الكاملة لتعذيب ستيف بيكو Steve Biko ووفاته أثناء الاستجواب. في قاعة المحكمة في قضية الخيانة، سرعان ما أصبح كينتريدج شديد الإعجاب بمانديلا. ويذكر أنه «في ذلك الوقت أيقنت لأول مرة أنه قائد طبيعي للرجال. كان حازماً، دمثاً، يعتمد دائماً على الفكر والعقل. وتبدت ثقافته السياسية الحقيقية من إجاباته عن الأسئلة، لم يكن لديه برنامج عمل خفي، الأمر الذي أصبح واضحاً في إفادته، تحت الاستجواب المكثف»[39].

ما من شك في أن شهادة مانديلا كشفت عن سياسي أعمق فكراً مما ظهر من قبل. وتحت ضغط استجوابه والأزمة السياسية العاصفة، واجه التحدي بسيطرة كاملة. وفي تصريحه شرح بدقة تطوره السياسي وفلسفته، فيما كان يؤكد أنها ليست بالضرورة فلسفة الكونغرس. واعتقد أن ذلك كان أقوى خطاب ألقاه.[40] تحدث عن إيمانه المبكر بالقومية الإفريقية ثم تحوله إلى التعددية العرقية. ورسخ تأكيده على اللاعنف، ورفضه مبدأ الثورة بمعنى / قفزات جبارة/. وشرح تصوره لتوصل المؤتمر الوطني الإفريقي إلى حق الانتخاب العام من خلال تنازلات تدريجية في التصويت المقيد، مما يؤدي في النهاية إلى الديموقراطية الشعبية. وقال إنه شخصياً يفضل مجتمعاً غير طبقي، مثل المجتمعات التي يعتقد أنها موجودة في هنغاريا والصين وروسيا، إلا أنه سلم بأن الإفريقيين سيكون لديهم، لفترة طويلة من الزمن، طبقات مختلفة من عمال

وفلاحين وأصحاب مخازن ومثقفين. وأعرب عن معارضته الحادة للإمبريالية: «من خلال خبرتي الشخصية مع الإمبريالية، يبدو أن هناك القليل القليل الذي يمكن أن يقال عنها.. لقد انطلقت عبر العالم، تخضع الشعوب وتستغلها، تحمل الموت والدمار إلى ملايين الناس». كما قال إنه يعارض الرأسمالية، لكنه ادعى عدم معرفته عن ارتباطها بالإمبريالية. وأصر على أن المؤتمر الوطني الإفريقي ليس له أي توجه حيال الإمبريالية، وأن بنود ميثاق الحرية، بغض النظر عن الإطاحة بالاحتكارات التعدينية، لم تتطرق إلى الرأسمالية وتركتها / سليمة معافاة/ .

أعرب مانديلا عن اعتقاده أن حكومة جنوب إفريقية تتحرك باتجاه الفاشية، وهو ما يمكن أن يعبر عنه بالعبارة الكزوسية / اندلوفو آيباتوا/ indlovu ayipatwa - فيل لا يمكن لمسه، وتوقع المؤتمر الوطني الإفريقي ردود فعل أكثر ضراوة: «فالحكومة لن تتردد في تذبيح مئات الإفريقيين». لكن مانديلا مازال يبدو متفائلاً - حتى بعد شاربفيل - بأن «الحكومة الوطنية أضعف مما كانت عندما بدأنا». وكان يأمل أن تدرك الحكومة أن سياساتها غير مجدية، بالضغط الداخلي والخارجي: «فالبلدان التي كانت تدعم السياسات العرقية في جنوب إفريقية قد انقلبت ضدها».[41]

هيلين جوزيف، التي أدلت بشهادتها بشكل عصبي، استمدت الحماسة من ثقة مانديلا الهادئة. فهو قليلاً ما كان يثار لدرجة الغضب، ولاحظت، مثلاً، عندما اقترح القاضي رامبف أن إعطاء حق التصويت لأشخاص غير متعلمين يشبه إعطاء ذلك الحق للأطفال. وتساءل رامبف: «ما الفرق بين أن يكون لديك أطفال لا يعرفون شيئاً، أو كبار لا يعرفون شيئاً؟». كان مانديلا غاضباً بهدوء، خاصة وأن والده كان أمياً، كما أن اثنين من الرجال المسنين بين المتهمين لم يذهبا أبداً إلى المدرسة.[42] «كما واجه متاعب عندما جوبه ببعض الوثائق والخطابات لزملاء أكثر ميلاً إلى القتال. ماذا عن تصريح روبرت ريشا

للمتطوعين أنهم إذا طلب منهم أن يقتلوا فإن عليهم أن يقتلوا ؟ قال مانديلا إنه كان «مثالاً سيئاً فقد كان يتعلق فقط بموضوع الانضباط». وماذا عن زميله المتهم ثيمبايل نديمبا Thembile Ndimba الذي قال: «إذا أتت التعليمات للمتطوعين بأن يقتلوا فإن عليهم أن يقتلوا؟» قال مانديلا إنها كانت «طريقة غير حميدة لإعطاء مثال عن الانضباط»، لكنها ليست سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي. وعندما أطلعوه على إشارة لـ «الاستيلاء على السلطة» من عام 1951 أجاب «لست أرى أي لجوء للقوة أو العنف في هذه العبارة». ولدى سؤاله عن محاضرات أعدها راستي بيرنشتاين فحواها رسالة ماركسية واضحة، قال: «لسوء الحظ أن الطريقة التي عولجت بها ربما أعطت انطباعاً بأنها تحمل بعض السلطة من المؤتمر الوطني الإفريقي».

لكن مانديلا كان قادراً على إثبات أن لا هو ولا أحد سواه من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي نادى بالعنف في أي وقت خلال العقد الماضي، وأنه في الوقت الذي رفض فيه انتقاد الشيوعيين، لم يلتزم بالحزب.

كينتريدج: هل أصبحت شيوعياً؟

> مانديلا: الحقيقة أني لا أعرف إن كنت قد أصبحت شيوعياً. إذا كنت تقصد بكلمة شيوعي عضو في الحزب الشيوعي وشخص يؤمن بنظرية ماركس وانغلز ولينين وستالين، ويلتزم بشكل صارم بنظام الحزب، فأنا لم أصبح شيوعياً.(43)

وعندما سأله كينتريدج على حدة لماذا لم يهاجم ستالين بعد أن شجبه خروتشوف عام 1956، أجاب: «لم يكن ذلك من مهامنا السياسية. إن ما فعله ستالين لم يكن موجهاً ضدنا». ونوه كينتريدج بأن مانديلا رأى في الشيوعيين أعداء أعدائه، وبالتالي فهم أصدقاؤه، ولكن بعد مزيد من الاحتكاك بهم كان متأكداً من أنه ليس ستالينياً ولا عضواً في الحزب الشيوعي.(44)

سيصر بعض زملاء مانديلا فيما بعد على أنه في تلك الفترة لم يكن

يختلف عن الشيوعيين، أو أنه ربما كان عضواً سرياً في الحزب الشيوعي. إذ قال بين تورروك Ben Turok، الذي كان عضواً في اللجنة المركزية: «إذا لم يكن في الحزب فإن ذلك كان تكتيكاً»[45]، فيما قال راستي بيرنشتاين ببساطة: «بحلول عيد الستين كان صعباً أن أعرف من في الحزب ومن ليس فيه»[46]. وستستمر الحكومة على اتهام مانديلا بعضوية الحزب، الأمر الذي كان أعداء الشيوعية في الخارج سيتبنونه بسرعة. وحتى في عام 1966، بعد أربع سنوات في جزيرة روبين، ستخبره وزارة العدل بأن أسمه يدرج كعضو في الحزب. فيكتب مجيباً «بأنه ينكر بشدة أنه كان عضواً في الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية بعد 1960 أو في أي وقت آخر». وطلب أن يرى شهادة خطية بقسم وتفاصيل من أي مؤتمر شيوعي كان قد حضره. بعد أربعة أشهر أخبرته الوزارة بأنه تقرر ألا يوضع اسمه في اللائحة «في هذه المرحلة»[47]، والحقيقة أنه كما قال صديقه الشيوعي إسماعيل مير فيما بعد «إن أدق تفتيش لأي نظام أمني حسن التنظيم لم يجد أن مانديلا كان عضواً في الحزب الشيوعي»[48].

إلا أن التعلق الجنوب إفريقي الخاص بالشيوعية حرَّف السؤال. كان كثير من شيوعيي جنوب إفريقية والمتعاطفين معهم، مثل مانديلا، (براغماتيين) في دعمهم: حتى أن مانديلا سيقول فيما بعد إنه كان يستخدم الشيوعيين أكثر مما كانوا يستخدمونه[49] وستثبت الأحداث التالية ضحالة التزامه بعقيدتهم الأساسية. ولكن في أوائل عقد الستين أظهر الشيوعيون قدراً من الشجاعة تجاوز ما بدر عن حكومة الأبارثيد من بطش، وكانت شجاعتهم محط إعجاب، مثل الشيوعيين الفرنسيين إبان حرب المقاومة ضد النازيين.

وما من شك في أن منع المؤتمر الوطني الإفريقي دفعه بشكل أقوى نحو الحزب الشيوعي، وأجبر الاثنين على العمل السري. وبعد أن رفعت حالة الطوارئ في آب (أغسطس) وأخلي سبيل معظم السجناء تمكن قادة المؤتمر الوطني الإفريقي من الاجتماع سراً ليضعوا خطة للعمل كمنظمة محظورة. أدرك

مانديلا أن الحظر جعل من الضرورة بمكان إعادة تنظيم جدية للمؤتمر الوطني الإفريقي وتشذيب البنية كلها، بحل رابطة الشباب ورابطة المرأة والتركيز على مجموعة داخلية صغيرة.

وكتب من السجن «أصبحت السياسة بالنسبة لأي عضو عامل خطيرة جداً، ونوعاً من النشاط موقوفاً على النواة الأصلية فقط». (50) لدى عمله في مناخ من اللاشرعية، أدرك الحاجة إلى طرح نفسي جديد هادئ. (51) فعندما حظر الحزب الشيوعي عام 1950، حذر بأن الحكومة تستهدف المؤتمر الوطني الإفريقي بقدر ما تستهدف الشيوعيين: «الآن أصبح العدو يستخدم السلاح نفسه». (52)

على الرغم من جميع التحذيرات المبكرة واقتراحات مانديلا بالنسبة للخطة M فقد أخذ الحظر المؤتمر الوطني الإفريقي، والمؤتمر الإفريقي العام، على حين غرة. وقد كتب المؤرخان توم كاريس Tom Karis وغوين كارتر Gwen Carter إن «مجرد البقاء في وجه مجازر الشرطة أصبح إنجازاً كبيراً بالنسبة لكلا المؤتمرين». وبعد رفع حالة الطوارئ مباشرة شكل المؤتمر الوطني الإفريقي لجنة طوارئ كانت قادرة على العمل إلى أن أصبحت المنظمة غير مشروعة ثانية، ونشرت بياناً ترفض فيه الإذعان للحظر. (53) لكن بعد وقف ألفي شخص وتقييد المؤتمر الوطني الإفريقي بشدة.

أما الحزب الشيوعي، الذي سبق أن حظر لمدة عشر سنين، فقد أصبح أكثر انسجاماً مع العمل السري، وقد لجأ بعض كبار الناشطين، ومنهم صديقا مانديلا موسى كوتاني ومايكل هارميل إلى التواري عن الأنظار. وأثناء سريان حالة الطوارئ أعلن كوتاني وقلة آخرون أن الحزب عاد إلى العمل، وكان قادراً على إصدار بعض الدعاية من خلال جريدته السرية «الشيوعي الإفريقي» التي طبعت لأول مرة في تشرين الأول (أكتوبر) 1959؛ هذا / الظهور/ للحزب انتقد من قبل كثير من الأعضاء الذين لم يؤخذ رأيهم، ولكنه في الحقيقة (كما يقول

بيرنشتاين) جعل العلاقات مع المؤتمر الوطني الإفريقي أكثر بساطة، وأطاح بالمخاوف المتعلقة ببرامج العمل السرية.[54]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي يعاني من ضعف في التنظيم لا يخوله العمل في الخفاء، بتطبيق أجزاء بسيطة من الخطة M للإبقاء على التنظيم بين العامة. كان قادته بحاجة إلى الشيوعيين لمساعدتهم على العمل من وراء ستار.

اتخذ التنفيذي في المؤتمر الوطني الإفريقي احتياطاً واحداً أثبت أنه بالغ الأهمية، ففي حزيران (يونيو) 1959 قرروا أنه في حال الأزمة فإن على أوليفر تامبو مغادرة البلاد فوراً عبر بيتشوانا لاند Bechuana land، وتأسيس مكتب غانة. وبعد ستة أيام على شاربفيل، يوم 27 آذار (مارس) 1960 غادر تامبو إحدى ضواحي جوهانسبورغ، وكان في وداعه أصدقاء مثل أحمد كاثرادا، ليعبر به الحدود بالسيارة رونالد سيغال Ronald Segal رئيس تحرير/ إفريقية الجنوب/ . وتابع طريقه عبر دار السلام إلى لندن[55]، وعلى مدى السنوات الثلاثين التالية استطاعت قيادة تامبو والثقة المتبادلة بينه وبين مانديلا في السجن، أن تكون الأساس الذي ارتكز عليه بقاء المؤتمر الوطني الإفريقي. في ذلك الوقت لم يتبين مانديلا المدى الذي ستصله أهمية الجناح الخارجي للمنظمة.[56]

أصبح مانديلا الآن يأخذ الأمور على مسؤوليته أكثر مما سبق، بعد أن فصل عن شريكه الذي كانت حكمته غالية جداً بالنسبة إليه. وترك وحيداً لمتابعة المهمة الشاقة في مكتب محاماة مانديلا وتامبو. وتابع ممارسة المحاماة بمفرده، يعمل من شقة كاثرادا في خولفادهاوس رقم 13، حيث بقي الزبائن يتواردون إلى أن بدأ كاثرادا ـ الذي حدث حركته في المطبخ ـ بالتذمر بعد طول معاناة.[57] بعد ذلك بوقت قصير توارى مانديلا عن الأنظار، واضطر إلى ترك مهنة المحاماة إلى الأبد.





«الروندافيل» البسيط المسقوف بالقش الذي كان منزل مانديلا اليافع منذ عمر تسع سنوات.

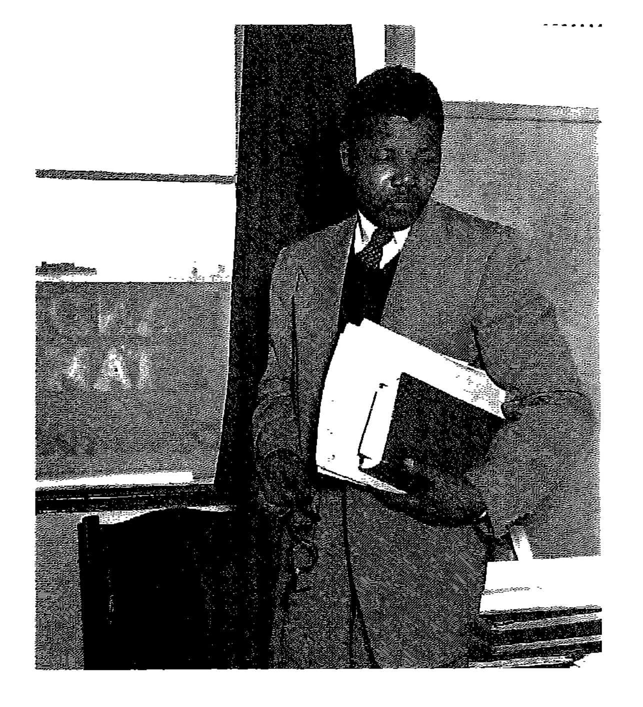
الزعيم جونجينتابا داليندييو الوصي على مانديلا خلال معظم أيام شبابه.



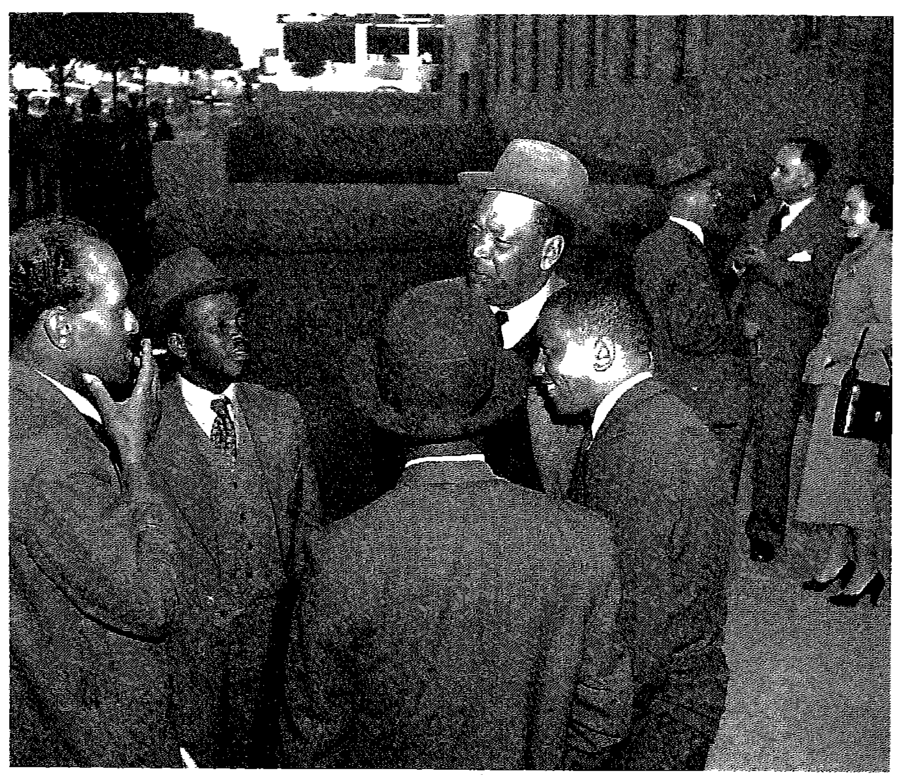
مانديلا في عمر التاسعة عشر.



في سنة 1944 تزوج مانديلا في جوهانسبورغ من إيفلين ميز.



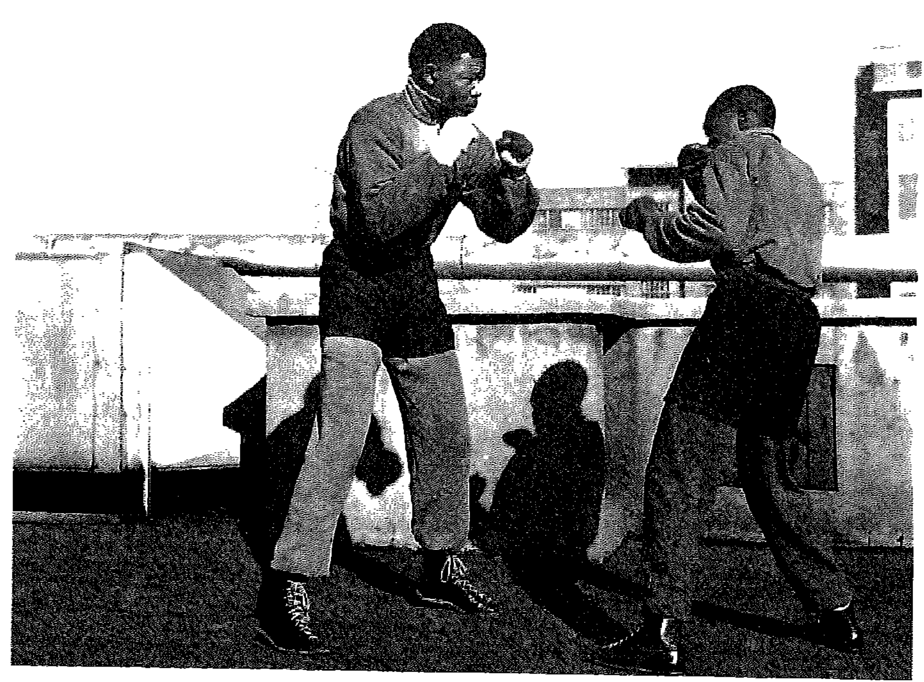
مانديلا في مكاتب مانديلا وتامبو.



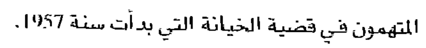
مانديلا مستغرق في الاحتجاجات ضد حكومة الأبارثيد، مع سيسولو وجي. بي. ماركس وروث فيرست.

في حملة التحدي سنة 1952 كان مانديلا يعمل جنباً إلى جنب مع المحافظ الدكتور موروكا والشيوعي الدكتور دادو.





كان مانديلا يمارس الملاكمة بانتظام مع أبطال الملاكمة مثل جيري مولوي.



المتهمون في قضية الخيانة التي بدأت سنة 1957.



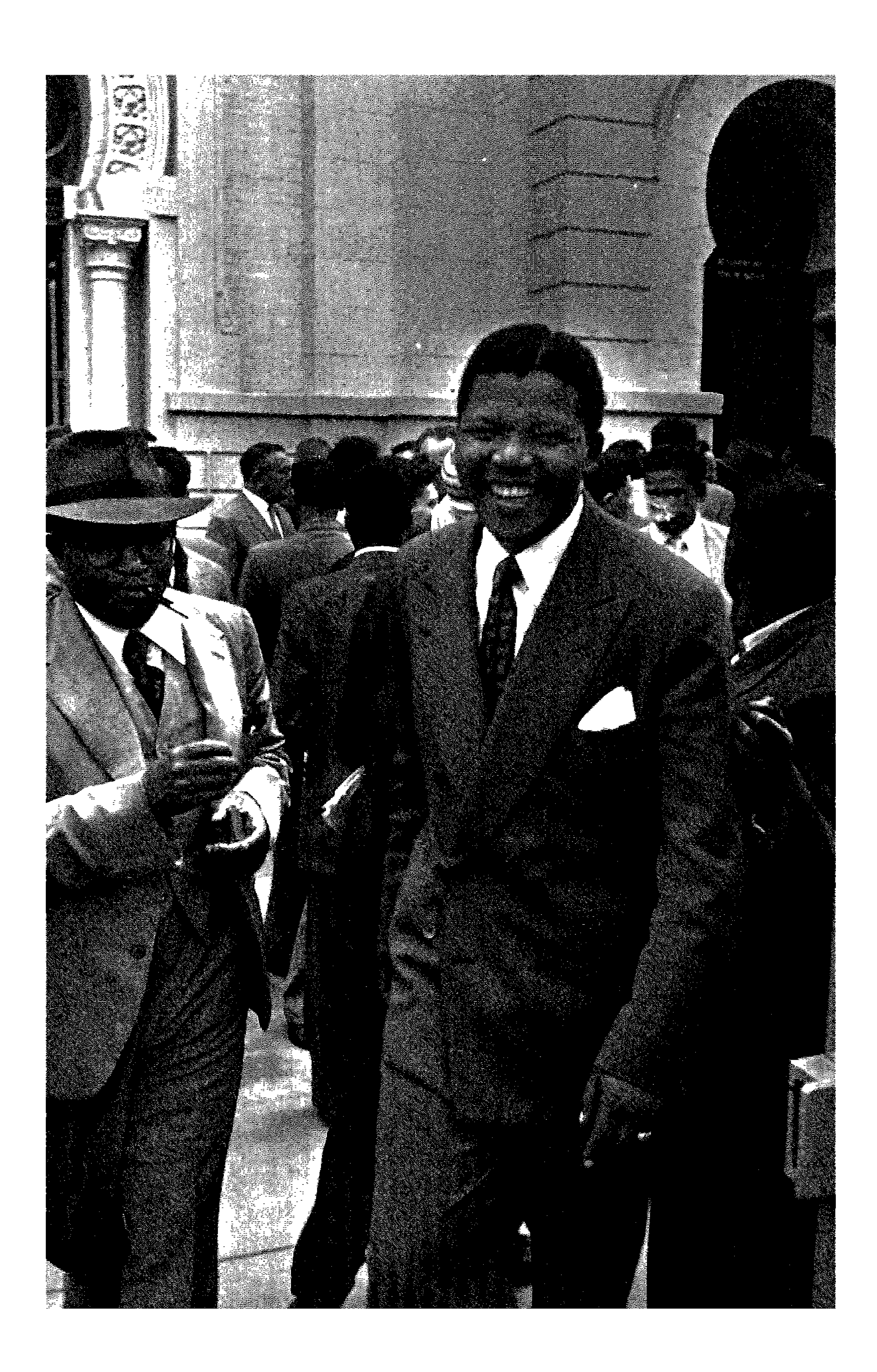
زفاف مانديلا لعروسه الثانيةويني في سنة 1958.

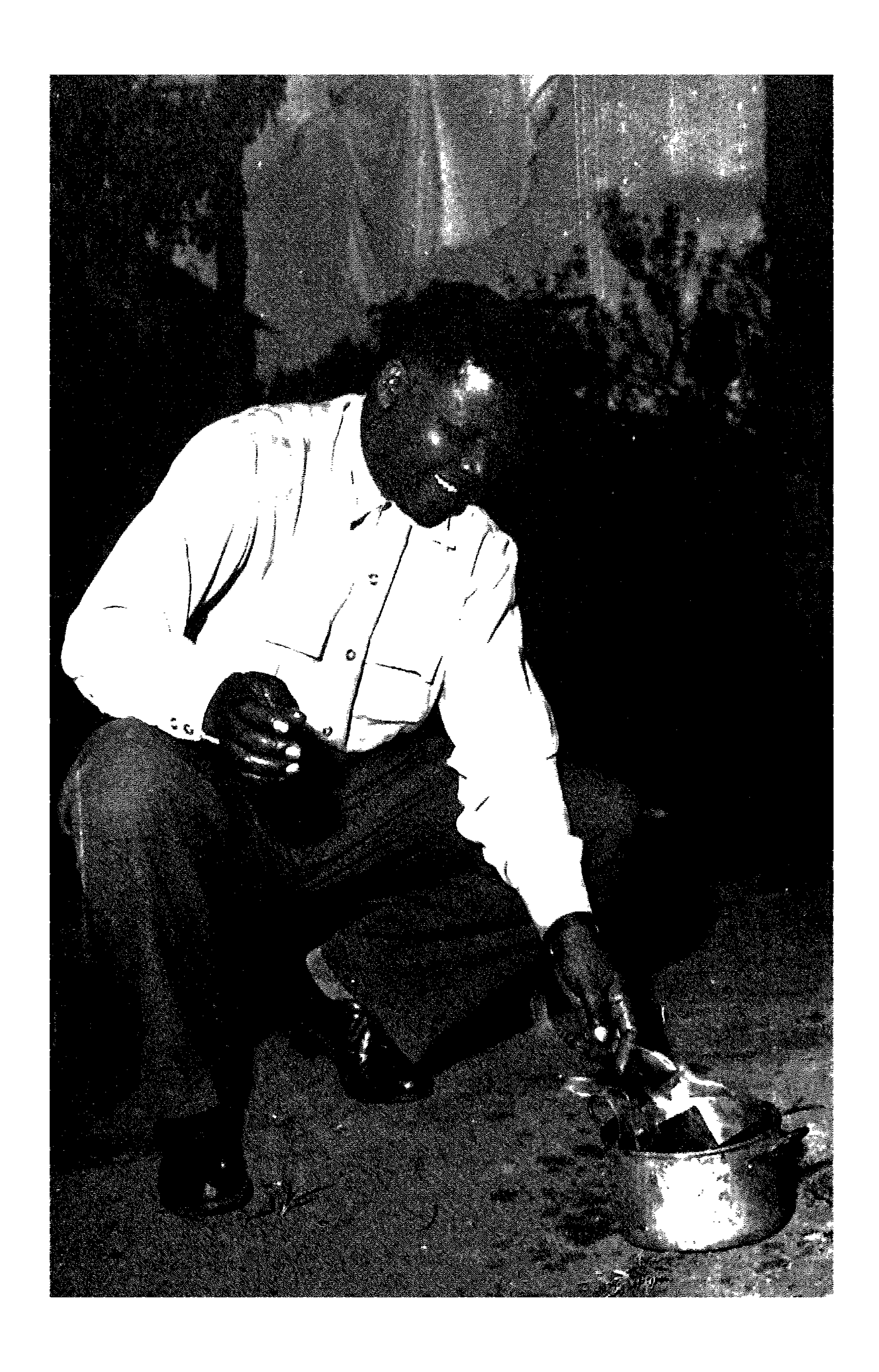


ويني ومانديلا وابنتهما الثانية زيندزي، أُخذت الصورة في سنة 1961.

مانديلا في قضية الخيانة سنة 1958.

مانديلا يحرق جواز مروره في الفوضى التي أعقبت مجزرة شاربفيل سنة 1960.





بقي عام 1960 عام أزمة. ففي تشرين الأول (أكتوبر) قامت الحكومة بالاستفتاء الأبيض الذي وعد به فيروورد حول مسألة تحول جنوب إفريقية إلى جمهورية. وتمت الموافقة بأغلبية ضئيلة كانت مدهشة ـ 850.000 صوت مقابل 775.000 ـ إلا أنها كانت بحاجة إلى أغلبية بسيطة فقط. لم يكن مانديلا متحمساً حيال تحول البلاد إلى جمهورية. واعتقد أن ذلك لن يضيف أي وزن لسيادة جنوب إفريقية، ورأى للموضوع بعداً عاطفياً فقط بالنسبة للوطنيين الأفارقة، الذين يتطلعون بحنين إلى جمهورياتهم (شبه الإقطاعية) في القرن التاسع عشر، قبل أن يحط البريطانيون من شأنها. وأمل أن النظام الجمهوري، بإزالته أحزانهم، /سيحل البراغي/ التي تشد المثقفين الأفارقة بعضهم إلى بعض. إلا أنه لم يستطع أن يقبل باستفتاء لا يحق التصويت فيه لغير البيض.

وعلى الرغم من استعراض القوة الذي أظهرته الحكومة بعد شاربفيل، كان مانديلا مصمماً على الانطلاق في احتجاج سلمي آخر، إضراب أو /ملازمة المنازل/. فما زال، مثل معظم قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، يحتفظ بتفاؤل مدهش. ربما أنه تحدث عن تقدم جنوب إفريقية باتجاه الفاشية وتحولها إلى دولة بوليسية، إلا أنه هو ورفاقه كانوا غير مستعدين لذلك التحول عندما حصل.[58] حيث كتب كاريس وكارتر «يصعب تقدير مدى إحساس القادة الإفريقيين وسواهم من المناوئين الراديكاليين للحكومة. بأن اتجاه الأحداث يجري لصالحهم».[59]

12

العنف

1961

بنهاية عام 1960 كانت حياة مانديلا المتعددة المجالات في جوهانسبورغ قد بدأت تضيق باضطراد. فقد تداعت مهنته كمحام، وكثير من أصدقائه باتوا في المنفى، والشبكة الاجتماعية في أورلاندو انحلت عملياً. ونوه بأن أسرته كانت مدمرة مادياً.[1] وكانت حياته الأسرية مع ويني تقاطع باستمرار بمهام سياسية. وعندما وضعت ابنتهما الثانية زيندزي، في آخر العام وصل إلى البيت متأخراً ولم يستطع أن يكون معها في الوقت المناسب. والآن تقول ويني: «نادراً ما كنت أجلس معه كزوج. والحق يقال أقسم أني لم أكن أعرفه أبداً».[2]

كانت حياة مانديلا السياسية تتحرك نحو السرية، وكان يقدم صورة أكثر ميلاً إلى الخفاء: فلم يعد الشاب المنفتح للحياة بوجهه الحليق وشعره المفروق من الوسط وإنما أصبح له شارب كث ولحية سوداء قصيرة لدرجة أن عينيه أصبحتا تحملقان من خلال ذقنه الكثيفة وحاجبيه الكثين. إلا أنه كان في الوقت نفسه يقوم بمحاولة أخرى للتنظيم السلمي مع أحزاب أخرى. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1960 اجتمعت مجموعة من 36 من القادة الإفريقيين في مؤتمر استشاري في أورلاندو والتزموا برفع شعار / مؤتمر إفريقية للجميع/ الذي بدوره طالب بميثاق وطني لكل الأعراق. بدا غير واقعي بشكل غريب في ضوء رد الحكومة الوحشي في شاربفيل. قال العالم السياسي توم لودج Tom Lodge فيما بعد: «لقد أظهر المؤتمر مدى عدم الاستعداد الثقافي الذي كانت عليه قيادة

ائتلاف الكونغرس عام 1961 كي تنطلق في نضال ثوري». [3] لكن الماركسي مايكل هارميل قال عنه: «كان في الأصل طلباً للثورة». [4]

أغارت الشرطة على الاجتماع في أورلاندو وصادرت جميع الأوراق، لكن الخطط نفذت عبر لجنة كان مانديلا أمين سرها. وسافر مانديلا وسيسولو، بين جلسات المراحل الأخيرة من قضية الخيانة، سراً حول البلاد لإجراء التحضيرات للمؤتمر، حتى إنهما وصلا إلى باسوتولاند Basutoland، حيث لجأ العديد من ناشطي المؤتمر الوطني الإفريقي، ومنهم جو ماتثيوز. في البداية عملوا مع بعض الليبراليين، وأيضاً مع المؤتمر الإفريقي العام إذ شجعهم تأسيس / جبهة موحدة/ للمؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام، في الخارج. لكن التواطؤ سرعان ما تداعى واتهم الليبراليون المؤتمر الوطني الإفريقي والشيوعيين بالسيطرة، فيما قرر المؤتمر الإفريقي العام أن عليهم سحق المؤتمر؛ لأنهم شكوا - بين أشياء أخرى - أن هناك «مخططات جارية لترسيخ مانديلا بطلاً مقابل سوبوكوي»[5]، وهكذا تابع مانديلا والمؤتمر الوطني الإفريقي بدعم من الشيوعيين فقط. وأصبح تعاونهم أقوى، في مجموعة متماسكة يتبادل أفرادها الثقة فيما بينهم.

كانت الحكومة تراقب بعين حذرة، فقبل خمسة أيام من انعقاد المؤتمر قامت الشرطة باعتقال عشرة من المنظمين وأرسلت في طلب دوما نوكوي. إلا أن اللجنة تمكنت من توزيع منشورات «تطالب الشعب الإفريقي في جنوب إفريقية بالاستعداد» لمؤتمر إفريقية للجميع، ليعقد قرب بيتر ماريتزبورغ Pieter Maritzburg في ناتال يوم 22 آذار (مارس).

كان مانديلا بحاجة إلى تمويل لترتيب النقل إلى المؤتمر، وطلب بجرأة مقابلة هاري أوبنهايمر رئيس الشركة الأنغلو أمريكية. كان أوبنهايمر رجل الأعمال الأول والوحيد الذي قابله مانديلا قبل أن يسجن. لقد تأثر مانديلا بالحركات العمالية، وقال فيما بعد: «في وقت تميز بالعداء السافر لرجال

الأعمال». استقبله أوبنهايمر بأدب شديد، كما كان يستقبل الجميع تقريباً. وتذكر مانديلا: «عندما أتينا إلى مكتبه هب واقفاً وكأننا الرئيس أو رئيس مجلس الوزراء في بلد ما»، طلب مانديلا مبلغاً محدداً «لا يعتبر شيئاً بقيمته اليوم» وقال أوبنهايمر إنه مبلغ كبير من المال. وسأل بأي نفع سيعود عليه. وسأل أسئلة عن المؤتمر الوطني الإفريقي، وبدا كأنه يقلل من شأن قوته. وسأل مانديلا: «أنّى لي أن أعرف أنني متى أعطيتكم مساعدة فإن المؤتمر الإفريقي العام لن يقصيكم؟». [6] يذكر أوبنهايمر فيما بعد: «مانديلا خاطبني بصراحة كما في اجتماع، بعبارات رسمية. كنت جاهلاً بشأن المؤتمر الوطني الإفريقي لكنني تأثرت بإحساس مانديلا بالقوة». [7] ولم يحصل مانديلا على المال الذي يريد. وفي 22 آذار (مارس) أظهر مؤتمر ماريتزبورغ دعماً ملحوظاً للمؤتمر الوطني الإفريقي بعد سنة من حظره، كان هناك 1400 وفد من 145 جماعة مختلفة في جميع أرجاء جنوب إفريقية، ومن ضمنها رابطة كرة القدم لجنوبي الترانسفال، وكنيست صهيون لكن المؤتمر الوطني الإفريقي هيمن بشكل واضح، بشعاراته وخطباته و أغانيه، ومنها «انشر بشارة الخلاص أيها الزعيم لوثولي». قالت النيويورك تايمز عن الحدث: «أكبر اجتماع سياسي للإفريقيين يعقد في جنوب إفريقية». وأفردت له الراند ديلي ميل عنواناً رئيساً «الإفريقيون يصرون على مؤتمر قومي». [8]

وفيما يبدو مصادفة، انتهى الحظر المفروض على مانديلا قبل الاجتماع بقليل ـ الأمر الذي يبدو أن الشرطة لم تلاحظه ـ وأجلت قضية الخيانة لمدة أسبوع. وهكذا تمكن مانديلا من أن يقفز كالجني من القمقم، بلحيته وبذلته ذات القطع الثلاث ليعطي المؤتمر قمة مؤثرة، وليقدم أول خطاب علني له منذ عام 1952. [9] التهب الجمهور حماسة، ولوحوا بقبضاتهم في الهواء كما لو أنها بنادق وهم يرفعون أصواتهم بالشعار الجديد /أماندلا نغاويثو!/ بمعنى /القوة للشعب/ ـ الذي كان مقتبساً من الأغنية الأقل ميلاً إلى القتال /مايبوي/ (عودي

يا إفريقية)[10]ـ نادى مانديلا ثانية بالوحدة الإفريقية: «يجب أن يشعر الإفريقيون ويتصرفوا ويتحدثوا بلسان واحد.. يجب أن نخرج من هذا المؤتمر بكامل التحضيرات لميثاق وطني كامل التمثيل ومتعدد الأعراق». [11]

أعطى الصحفيون الحاضرون تقديرات مختلفة بشكل كبير لتأثير مانديلا. حيث كتبت (النيو أيدج) العصر الحديث عنه: «كل جملة كانت تقابل إما بالهتاف أو بصيحات / الخزي/ ». وقد كتب أندرو ويلسون Andrew Wilson في الأوبزرفر: «تصفيق صاخب». [12] ويذكر ويلسون فيما بعد: «كنت مدركاً أن هذا هو الشخص الذي تتركز حوله آمال الجميع بالنسبة للمستقبل». [13] ووصف بنجامين بوغراند Benjamin Pogrund مانديلا في صحيفة كونتاكت Contact بأنه: «ملتح بطريقة وطنية جديدة، مثل نجم الاستعراض». [14] وقال فيما بعد «إن الشيوعيين قد بالغوا في تأثير الخطاب وإن مانديلا تحدث بشكل ممل وغير واضح، وكانت لهجته ضعيفة». [15] لكن ألق ظهوره من مخبئه أعطى صورته سحراً جديداً . لقد كان في ماريتزبورغ، فيما يذكر صديقه الشيوعي دينيس غولد برغ Dennis Goldberg قائلاً: «إن الرومانسية المغرقة التي يتسم بها النشاط السري عادة، والتي أبداها في أحد المؤتمرات في ماريتزبورغ هي التي جعلت منه قائداً». [16]

كما شعر مانديلا نفسه بمزيد من الثقة مبعثه بجلد عامة الناس بجلد الناس العاديين. فراقب بزهو شيخاً يلبس سترة قديمة وقميصاً كاكياً وبنطالاً لركوب الخيل يتحدث عن حملته ضد سلطات البانتو ويقول: «سأعود من هنا منتعشاً وكلي ثقة». وكان مانديلا واثقاً بأن الوفود كانت مستعدة «لكفاح عنيد ومديد، يشمل عامة الناس في المدينة والقرية». [17]

طالب المؤتمر الحكومة بأن تدعو إلى ميثاق وطني. وإذا رفضت فإن المؤتمر الوطني الإفريقي سينظم اعتصامات في البيوت متعددة الأعراق. تبدأ يوم 31 أيار (مايو) ـ اليوم الذي ستصبح فيه جنوب إفريقية جمهورية ـ والذي سيكون

مانديلا المنسق الرئيسي فيه (في حين كانت الإضرابات في أماكن العمل خارجة عن القانون، فإن الاعتصام في المنازل لم يكن كذلك). اختفى مانديلا من القاعة التي كانت محشوة برجال الأمن فجأة كما ظهر. ولن يظهر على منبر عام في جنوب إفريقية ثانية قبل تسع وعشرين سنة.

عاد مانديلا إلى بريتورية من أجل قضية الخيانة، التي ما زال أمامها عدة أسابيع قبل إصدار الحكم النهائي. ولكن يوم 29 آذار (مارس) قاطع القاضي رامبف المحاكمة ليعلن أن ثلاثة قضاة قد توصلوا إلى رأي جماعي بالبراءة وقال: «يستحيل على هذه المحاكمة أن تخلص إلى أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد اقترف أو تبنى سياسة الإطاحة بالدولة عن طريق العنف». واتفق القضاة على أن الادعاء قد فشل في إثبات أن أياً من المؤتمر الوطني الإفريقي أو ميثاق الحرية كانا شيوعيين، ونوهوا بمقالة مانديلا في حزيران (يونيو) 1956 في مجلة «ليبريشين» التي تكهنت بتقدم برجوازية غير أوروبية في ظل ميثاق الحرية».[18]

احتفل المتهمون الثلاثون بالبراءة ببهجة، والتقطت كاميرا سينمائية هربت إلى داخل قاعة المحكمة مشاهد ضبابية للمتهمين يحملون محاميّ الدفاع على أكتافهم، وصورة لمانديلا مبتسماً يرتدي بزّة أنيقة ويشق طريقه بين الحشد. قال مانديلا فيما بعد إنه كان متأثراً لأن القضاة ترفعوا فوق تحاملهم ليقدموا قراراً عادلاً، وصدم ثانية لأن مفاجأة الناس قد تكشف عن بعض الطيبة. لكن الابتهاج كان فوق الواقعية وسط الحظر والاضطهاد. كان مانديلا يعرف أن الحكومة لن تعترف بآلام المؤتمر الوطني الإفريقي المشروعة، وأنها سرعان ما تصبح أكثر بطشاً، وتبتكر قوانين جديدة تتجاوز المحاكم.[19]

قرر مانديلا أنه سيلجأ إلى الخفاء. وقد لاحظت ويني أنه كان يفكر صامتاً لعدة أسابيع، دون أن يستمع إليها.[20] كما اقتنع وولتر سيسولو بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يكون له قائد واحد في الخفاء يمكنه أن يكون أكثر نشاطاً من لوثولي، المحظور الآن في ناتال. وأن ذلك القائد يجب أن يكون

مانديلا. رأى سيسولو بوضوح الحاجة إلى شهيد: «عندما قررنا أنه يجب أن يعمل في الخفاء كنت أعرف أنه الآن يطأ عتبة موقع الرئاسة.. كانت لدينا قيادة في الخارج ولكن كان لا بد أن يكون لنا قائد في السجن».[21]

قبل صدور حكم البراءة في قضية الخيانة وصل مانديلا إلى البيت في أورلاندو برفقة سيسولو ونوكوي وجو موديس، وقال لويني: «حبيبتي جهزي لي بعض الثياب في حقيبة مع بعض الصابون والعطور. سأذهب بعيداً لوقت طويل». رتبت الأشياء وهي تبكي، وطلبت من آلهة إفريقية أن تحفظه، ورجته أن يخص أسرته ببضع دقائق بين وقت وآخر وقالت: «وبخني لأني ذكرته بواجباته».[22]

قرر زملاء مانديلا أن عليه أن يبقى متخفياً لينظم الاحتجاج المخطط يوم 31 أيار (مايو). لكن عليه ألا يعرض نفسه للاعتقال، في الوقت الذي كان يحتاج إلى الترويج للإضراب على أوسع مدى ممكن. والمفارقة أنه، من مخبئه أصبح ناطقاً رسمياً رئيساً باسم شعبه. وسيصبح أكثر شهرة في الظل مما كان في أي وقت مضى في ضوء النهار الساطع.

كان مانديلا بحاجة لإقناع الليبراليين البيض والأنصار بدعم المؤتمر الوطني الإفريقي، ومجابهة دعاية المؤتمر الإفريقي العام، وعلى مدى شهرين كان يظهر فجأة من مخبئه ليتحدث إلى رؤساء التحرير البيض، محاولاً تهدئة مخاوفهم، وبخاصة حيال النفوذ الشيوعي في المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي جوهانسبورغ تناقش مع لورانس غاندار Laurence Gandar رئيس تحرير الراند ديلي ميل المتعاطف البعيد عن الأضواء. وفي بورت إليزابيث قام بزيارة لجون سائرلاند John Sutherland رئيس تحرير الأيفينينغ بوست Evening Post الهادئ والليبرالي، الذي كان قلقاً على سلامة مانديلا، لأن مكاتب الجريدة كانت قبالة مخفر الشرطة. شكر مانديلا سائرلاند بحرارة لدعمه السابق قبل أن ينضم بسرعة إلى غوفان مبيكي الذي كان ينتظر خارجاً، وابتهج كثيراً عندما

أبرزت / البوست/ حملة الاعتصام في البيوت. وفي كيب تاون تحدث لمدة ساعتين مع فيكتور نورتون Victor Norton رئيس تحرير كيب تايمز المحنك. ونورتون، الذي التقى بكثير من قادة العالم، قال فيما بعد لمحرره السياسي طوني ديليوس Tony Delius إنه لم يجتمع أبداً برجل يترك انطباعاً أعمق من مانديلا.[23] كما حدث المندوب السامي البريطاني عن زائره المتميز وقال للدبلوماسي البريطاني بيتر فوستر Peter Foster: إن قلة من الجنوب إفريقيين البيض كانت لديهم «أية فكرة عن منزلة الإفريقيين الذين يضطرون إلى التعامل معهم». ويئس نورتون من بقاء المبادرة بأيدي البيض لوقت طويل، ولكن لم يظهر أي شيء عن مانديلا وإضرابه المنتظر في جريدة كيب تايمز.[24]

في جوهانسبورغ رأى مانديلا حليفه القديم إبان حملة التحدي، باتريك دانكان، الذي أصبح الآن رئيس تحرير المجلة نصف الشهرية كونتاكت Contact الذي كان ينتقد بضراوة قادة المؤتمر الوطني الإفريقي لتأثرهم بالشيوعية، ومشاريعهم بالاعتكاف في البيوت. أخيراً قال مانديلا: «أتعتقد أنني غبي لدرجة أني لا أستطيع إدارة منظمة دون أن أتأثر بالناس الذين تعاملنا معهم؟».[25] ولكن في لقاء ثان في كيب تاون، قال راندولف فيغن Randolph vigne، الذي كان حاضراً: إن الرجلين تحدثا حديث الأصدقاء القدامى الذين لم يختلفوا أبداً. هذه المرة اعترف دانكان بأن قضية الخيانة أظهرت بوضوح أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن شيوعياً، ووعد بتصحيح تقاريره السابقة ويدعم الميثاق الوطني ـ وهذا ما فعله في تحول جريء في العدد التالي من كونتاكت[26] ـ. وفيما بعد قال لبيتر فوستر إنه تأثر بذكاء مانديلا وثقته بنفسه، بالرغم من أنه لم يخف تعاطفه مع اليسار».[27]

التأثير الشيوعي ما زال يربك الدبلوماسيين الأجانب. حيث كتب فوستر إلى لندن في كانون الثاني (يناير) 1961: «يجب أن أعترف بأننا لا نعرف إلا النذر اليسير عما يزمع عليه شيوعيو جنوب إفريقية». وأضاف عن الحكومة: «لا

تمرر معلومات مفصلة إلينا (حتى إذا كانت لديهم)».[28] وفيما بعد ألقى باللائمة على الحكومة لمنعها معتدلين أمثال لوثولي، مما يشجع النشاطات التآمرية / للشيوعيين الجدد/ المناهضين. وقال إن «مانديلا برغم أنه أكثر ميلاً إلى الشيوعية من نوكوي، فهو ينتمي إلى مجموعة القادة الشباب ذوي الثقافة العالية في المؤتمر الوطني الإفريقي الذين بدأوا الآن يسيطرون بشكل فعلي».[29]

كانت الحكومة البريطانية الآن تعيد النظر في علاقاتها مع جنوب إفريقية التي تركت الكومنويلث في آذار (مارس) 1961. وبعد الاقتراع على الجمهورية، تقدم فيروورد بطلب للبقاء داخل الكومنويلث، وبذل ماكميلان قصارى جهده لإقناع الأعضاء السود الجدد وكندا، - التي كان رئيس وزرائها جون دايفنبيكر معادياً بشكل خاص للأبارثيد - بالسماح لجنوب إفريقية بالبقاء. إلا أن فيروورد استمر في رفضه قبول مندوب سامٍ أسود في بريتورية، وتلك كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وفي النهاية سحب طلبه. اكتأب ماكميلان، وكتب إلى السير جون مود قائلاً: «رياح التغيير قد عصفت بنا، حالياً، ولكن السلام سيأتي ذات يوم، ربما بعد كثير من الأسى والمحن».[30] لكن أوليفر تامبو في لندن رأى في إقصاء جنوب إفريقية انتصاراً، وسيقول فيما بعد إن جنوب إفريقية السوداء لم تترك الكومنويلث أبداً.[31]

بقي مانديلا يعلق الأمل على ضغط الكومينويلث بتأثير من الأعضاء الإفريقيين والأسيويين الجدد. واستمد الشجاعة من المعارضة للأبارثيد، خاصة من قبل ديفينبيكر. السفارة البريطانية، أصبحت الآن تشعر بأنها غير ملزمة باسترضاء حكومة الأبارثيد حالياً بعد أن أصبحت جنوب إفريقية خارج نطاق أسرة الكومنويلث. وبحلول حزيران (يونيو) كان السفير السير جون مود يقترح أن السفارة يجب أن «تحتاط» لاحتمال قيام جمهورية سوداء في المستقبل بإجراء اتصالات سرية مع سياسيين سود، على الرغم من أن هذه

الاتصالات لم تصل إلى شيء يذكر[32]، كما قررت الحكومة البريطانية استخدام استخباراتها للقيام بكل جهد يلزم لاختراق الحصن الأبيض في بريتورية، الذي كانوا يعرفون أنه صعب ودقيق. وهذا ما ثبت، فبعد أربع سنوات أخضع أحد كبار عملاء (إم 16)، الذي يعمل بصفة مسؤول في السفارة، «لاستجواب قاس» حول اتصالاته بالمعارضة البيضاء، وبعد ذلك بوقت قصير أعلن «شخصاً غير مرغوب فيه». لكن المخابرات البريطانية (إم 16) قررت أن إجراء اتصالات مع قادة المعارضة السوداء سيكون فيه مجازفة كبيرة، وربما يؤدي إلى تعذيبهم أو قتلهم.[33]

كان مانديلا في هذا الوقت يؤكِّد إضراب اعتصام في البيوت لثلاثة أيام يبدأ يوم 31 أيار (مايو). وكتبت لجنة العمل التابعة له إلى الدكتور فيروورد تشرح مطالبتها بميثاق وطني، وفيما بعد قال فيروورد للمجلس النيابي: «لقد وصلت رسالة موقعة من قبل ان. آر. مانديلا» بلهجة متعالية، ولم يرسل أي رد عليها.[34] كما كتب مانديلا إلى السير دوفيلير غراف Sir de Villiers Graaff قائد الحزب الموحد، الذي صوت على منع المؤتمر الوطني الإفريقي عام 1960. وحذر غراف من أن الجنوب إفريقيين يجب أن يختاروا بين «معالجة الأمر بالمناقشة أم بالمناوشة» وسأله: «أين يا سيدي يقف الحزب الموحد؟.. إذا فشل كبار رجال الدولة في قيادة هذه اللحظة، فإن ما هو أسوأ قادم لا شك». والأغلب أن غراف لم يعر الرسالة أي اهتمام ولم يتطرق لذكر مانديلا في مذكراته التي نشرت بعد ثلاثين عاماً.[35]

قبل شهر من عيد الجمهورية ذهب مانديلا إلى دوربان ليناقش الاحتجاج مع تنفيذيي المؤتمر الوطني الإفريقي المحظور وحلفائهم. ناقشت بعض الوفود بحدة أن الاعتصام في المنازل لم يعد كافياً في مواجهة غضب الشعب وعنف الدولة، وفضلوا الإضراب العام. وكان واضحاً أن العد العكسي لعيد الجمهورية سيكون فترة اختبار لانضباط المؤتمر الوطني الإفريقي. وحذر لوثولي النيويورك

تايمز من أن العنف يمكن أن يُحَرَض بسهولة: «فالشرطة تتصرف أحياناً بطريقة تعطي انطباعاً بأنها ستطلق النار على الناس». [36]

وكان مانديلا، وهو يجوب البلاد، مدركاً تماماً نفاد صبر أفراد الشعب، ولا سيما بعد أن أثار مشاعرهم المؤتمر الإفريقي العام. وقد سمع كثيراً من الشكاوى ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي بدعوى أنه من غير الصحيح سياسياً التأكيد على اللاعنف، في حين «يعتمد العدو على استخدام القوة المطلقة». [37] أما اليسار الأقصى فكان أكثر نقداً. حيث قال المؤرخ الماركسي باروخ هيرسون Baruch Hirson الذي سيسجن فيما بعد تسع سنوات بتهمة التخريب: «اعتقدنا أن هذا كان مطلباً مستحيلاً نفرضه على العمال». [38]

لكن مانديلا واصل توكيد أهمية اللاعنف في رسائل مؤثرة من مخبئه. وقبل عشرة أيام على عيد الجمهورية اتصل هاتفياً بصحيفة صنداي اكسبرس في جوهانسبورغ من هاتف حصالة: «إننا ننفي بشدة أن العنف سيندلع أو أن فترة الاعتكاف ستمدد ثلاثة أيام». [39] كانت حملته تكسبه دعماً محدوداً من قبل المحررين الناطقين بالإنكليزية، الذين كانوا معارضين لجمهورية أفريقانية. [40] يوم 12 أيار (مايو) قدمت صحيفة ستار الصادرة في جوهانسبورغ نبذة عن شخصية مانديلا لأول مرة، إلى جانب صورة فوتوغرافية يبدو فيها باسماً ومشرقاً. «لقد أخذ موقع الناطق الرسمي باسم الأهالي المحليين» بالرغم من تأكيده أن «القيادة الأهلية قيادة جماعية». [41] كما كان قد بدأ يظهر في الصحف البريطانية «محامياً كبيراً، غير متمرس بالأسفار لكنه واسع القراءة. أنيق الثياب ويتحدث ببطء»، كما وصفته المانشستر غارديان الصادرة يوم 27 أيار (مايو)، ثم بعد يومين قالت إنه «رجل ضخم وسيم ملتح صوته عميق مدوٍ». [42]

في هذه الأثناء، كانت الحكومة تحضر لاستعراض مرعب للقوة، إذ أخذت تحشد قواتها المسلحة، وتلغي الإجازات وتقوم باعتقالات جماعية. وصبيحة الإضراب جابت دبابات ساراسن Sarasen الأحياء وحومت طائرات

الهيليكوبتر فوق الرؤوس، وتمركزت القوات عند التقاطعات. قال مانديلا عنها: «أكبر قوة تشهدها جنوب إفريقية وقت السلم». ومما أثار غضب المؤتمر الوطني الإفريقي أن المؤتمر الإفريقي العام كان يساعد الحكومة بأن يناشد الجميع العودة إلى العمل.[43] وكانت الصحافة الناطقة بالإنكليزية أكثر قلقاً الآن. حيث كتبت الستار قبل يومين من الإضراب: «الاثنين القادم سيكون شبه طبيعي في جوهانسبورغ مثل أي اثنين آخر».[44] «اعتقد مانديلا أن الصحافة والإذاعة لعبا دوراً معيباً جداً بإذاعة كل تحذير ضد الإضراب قبل الأوان، والطعن بنجاحه في أول أيامه».[45] سارعت الراند ديلي ميل بنشر طبعة جديدة تحت عنوان رئيسي يقول: «يجب العودة إلى العمل، كل شيء هادئ». وعندما اتصل مانديلا هاتفياً بصديقه في «الميل» بنجامين بوغراند، بدأ بوغراند بالاعتذار لأن المقال اشترك فيه مساعد تحرير، إلى أن قاطعه مانديلا قائلاً: «لا بأس يا بينجي. أعرف أن الخطأ ليس خطأك». والواقع أن بوغراند عندما راجع الموضوع وجد أن «العنوان والتقرير كان فيهما أخطاء مميتة بسبب السرعة والصحافة غير المتقنة».[46]

كان مانديلا ولجنة العمل السري التابعة له في المخبأ، وغير قادرين على مراقبة الأضراب بأنفسهم، مما أرهف إحساسهم حيال عناوين الصحف التي يرونها. واتخذوا قراراً مؤلماً بإنهاء الإضراب بعد اليوم الأول. وقد كتب راستي بيرنشتاين «كان قراراً شجاعاً لكن خلف إحباطاً شديداً داخل الحركة».[47]

في الحقيقة كانت مقاطعة القطارات والحافلات أنجح مما أدرك المؤتمر الوطني الإفريقي. وسيكشف الدليل الرسمي في محاكمة ريفونية بعد ثلاث سنوات مدى فعاليته. وقد نوه توم لودج، المختص بالعلوم السياسية، فيما بعد أن درجة المشاركة كانت «عالية بشكل مدهش».[48] ولكن في ذلك الوقت استطاع الدكتور فيروورد أن يدعي مقنعاً أن رفع الإضراب كان انتصاراً، مما أعطى مانديلا إدراكاً عميقاً لقوة الصحافة. وكان درساً لن ينساه أبداً.

رحب بعض البيض الليبراليين بهزيمة الإضراب لكونها تقدم فرصة للقوميين، وقد كتب آليستر سباركس Allister Sparks في الراند ديلي ميل «إن أفضل طريقة تستغل بها قوى المعارضة فرصة التنفس هذه، هي أن تبدأ بتنظيم ميثاق وطني متعدد الأعراق بلا تأخير». (49) لكن معظم البيض شعروا الآن بأنهم قادرون على تجاهل الخطر الأسود.

كان مانديلا قد اقتنع الآن بأن سياسة الاحتجاج السلمي لم تعد تجدي، وأدرك أن عليه الانتقال إلى مرحلة جديدة من النضال.. وكانت روث فيرست قد رتبت مقابلة يوم الإضراب يجريها مع مانديلا الصحفي البريطاني برايان وايدليك Brian Widlake من أخبار التلفزيون المستقل Independent Televion News وذلك لأول مرة، وتبين فيما بعد أنها الأخيرة لحوالي ثلاثين سنة. اقتيد وايدليك إلى منزل قرب بحيرة زو Zoo Lake للبروفيسور جوليوس ليوين Julius Lewin من جامعة ويتووترسراند Witwatersrand University حيث صوّر مانديلا - ووراءه جدار قرميدي اعتبر رمزاً مناسباً - لمدة عشرين دقيقة، بث منها ثلاث دقائق. (50) كان الجو متوتراً، ولم يكن ظهور مانديلا التلفزيوني الأول مؤثراً: «فقد بدا كالح الوجه ومتعباً ومكتئباً بشكل واضح» كما نوه راستي بيرنشتاين. (51) لم تترك المقابلة أثراً محركاً في بريطانية، إلا أن ما قاله مانديلا سيكون بالغ الأهمية بالنسبة لمستقبل جنوب إفريقية. إذ صرح: «إذا كان رد الحكومة هو أن تسحق بالقوة المطلقة مظاهراتنا غير العنيفة، فإننا سنضطر إلى إعادة النظر بشكل جدي في (تكتيكنا). وأرى أننا في الفصل النهائي من مسألة سياسة اللاعنف». (52) نقد تنفيذي المؤتمر الوطني الإفريقي، فيما بعد، مانديلا لتحديه سياسة اللاعنف، لكنه كان يعتقد «أن الإنسان في بعض الأحيان يجب أن يطرح علنا فكرة تدفع منظمة متأنية في الاتجاه الذي تريده أنت». (53)

في الأيام القليلة القادمة واصل مانديلا ظهوره المفاجئ من مخبئه ليقوم بمهمة الناطق الرسمي الرئيسي للمؤتمر الوطني الإفريقي. لكن الصحفيين لم

يؤخذوا بأسلوبه الصلب. وقد اصطحبت روث فيرست ـ وسيطه المعتاد ـ ستانلي يوز Stanly uys من جريدة صنداي تايمز الجوهانسبورغية ليرى مانديلا في هيلبراو Hillbrow في مقابلة لمدة نصف ساعة. رأى فيه يوز رجلاً متوتراً جداً، وعندما اجتمعا ثانية بعد ثلاثين سنة ذكره مانديلا: «لم أترك لديك أثراً يذكر».[54]

كما رافقت روث باترك دونوفان Patrick Donovan من الأوبزرفر وروبرت أوكشوت Robert Oakeshott من الفايننشال تايمز، إضافة إلى ماري بنسون Mary Benson، إلى شقة في ضاحية يوفيل Yeoville البيضاء، حيث وجدوا مانديلا يرتدي قميصاً مخططاً وبنطالاً رمادياً. صدمت بنسون بالجو المريح المحيط بمانديلا ويضحكه، لكن أوكشوت اعتبر حديثه الرسمي دون المناسبة. قال مانديلا: إن الضربة حققت نجاحاً هائلاً، وإن اللاعنف هو السياسة الواقعية الوحيدة في وجه دولة صناعية جداً، في حين أنكر أنها سياسة اعتدال: «إن شعورنا تجاه الإمبريالية حاد جداً. أنا أكرهها!». لكن لدى خروجهم عاد ثانية فقال: «إننا نغلق فصلاً حول مسألة سياسة اللاعنف هذه».[55] وكتب دونوفان في الأوبزرفر يوم 4 حزيران (يونيو) أن (تكتيك) المؤتمر الوطني الإفريقي الأخير «لم يفد في أكثر من أن يقدم للحكومة نصراً مجلجلاً».[56] في هذا الوقت فقط ـ يوم 7 حزيران (يونيو) ـ فتحت وزارة الخارجية في لندن ملفاً لمانديلا.[57]

في الحقيقة كان مانديلا يناقش مع رفاقه التخلي عن اللاعنف منذ أوائل 1960، عندما قمعت الحكومة بوحشية حملات إحراق الأذونات. وطالما كانت قضية الخيانة مستمرة، فقد اضطر جميع المتهمين إلى الإصرار علناً على أنهم يدعمون اللاعنف كمبدأ، لكن كثيراً منهم، ومن ضمنهم مانديلا، بدءوا يرون فيها تكتيكاً) آن أوان التخلي عنه.[58] كان مانديلا دائماً أضيق صدراً باللاعنف من سيسولو أو تامبو، كما أظهر في صوفيا تاون عام 1953. لكن الآن أصبح

عامة الناس يتبعونه بنفاد صبر لم يستطع، كسياسي يستجيب للرأي العام، أن يتجاهله.

معظم الساحة السياسة كانت تطالب بإلحاح بأعمال العنف، غالباً بيأس وجموح، مثل الهجمات التي شنها الثوار والقتلة في روسيا أواخر القرن التاسع عشر. وفي بوندولاند Pondoland موطن تامبو في الكيب الشرقي، استولت حركة فلاحية اسمها إنتابا (الجبل) على مناطق كاملة بواسطة أساليب حرب العصابات قبل أن تسحقهم الحكومة. والآن أصر غوفان مبيكي الذي التقى بقادة الحركة في الغابات، على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يكون له استراتيجية (خطة شاملة) «تعبئ سكان المدن والريف على حد سواء».[59] وسارع المؤتمر الإفريقي العام إلى الخروج بشق إرهابي في الكيب سمي بوكو (وحيد) كان يقوم باغتيال البيض انتقاماً للقمع الوحشي، وقامت جماعة من الليبراليين البيض بتنظيم حركة المقاومة الإفريقية، التي كانت تهدف إلى تفجير الأبنية. كما كان الحزب الشيوعي يشكل وحداته نصف المسلحة لقطع خطوط الطاقة. حتى إن أعضاء في حركة الوحدة في الكيب كانوا يحضرون لحركة التخريب الخاصة بهم، والمسماة نادي يوتشين تشان Yuchin chan تيمناً بتسمية ماو لحرب العصابات. وقد كتب واحد منهم فيما بعد، هو نيفيل ألكساندر Neville Alexander كنا كلنا، على اختلاف منظماتنا السياسية أو اتجاهاتنا، مدفوعين طوعاً أو كرهاً، عبر هذا الخط الفاصل، باتجاه النضال المسلح من خلفية اللاعنف، دون أي تحضير مسبق.[60]

كثيراً ما سينقد مانديلا المؤتمر الوطني الإفريقي للتهور وعدم الخبرة في النضال المسلح، لكنهم كانوا مضطرين إلى التحرك بسرعة، لمسايرة نوبة الغضب الجماهيري وإحباط البديل، الذي هو الأعمال الوحشية التي لا يمكن السيطرة عليها. وقد كتب مانديلا فيما بعد «كان العنف سيبدأ سواء بادرنا به أم

لا. وإذا لم نأخذ بزمام المبادرة الآن، فإننا ستتأخر عن الركب ونصبح تابعين في حركة لم نسيطر عليها». [61]

يذكر راستي بيرنشتاين أن المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي كانا يتحدثان عن العنف بطريقة غير منهجية ودون اجتماعات رسمية. [62] وقال جو سلوفو «عندما تفكر في طريق جديد فإنه لا يأتي في لمحة واحدة يدركها الجميع في آن. إنها عملية، ومانديلا يلعب دوراً بالغ الأهمية في هذا السياق». [63] كان الشيوعيون أكثر استعداداً للدفاع عن العنف من المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي كان، في ظل رئيسه ألبرت لوثولي، ملتزماً باللاعنف. لكن النقاشات تجاوزت خطوط الحزب، وأبدى كثير من القادة الشيوعيين قلقهم حيال كبح الميول القتالية السوداء. [64]

وبعد شهرين من عيد الجمهورية، قدم مانديلا إلى اللجنة الفاعلة في المؤتمر الوطني الإفريقي اقتراحه التاريخي أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتخلى عن اللاعنف ويشكل جناحه العسكري الخاص.

كان نقاشه مقنعاً وقد استشهد بالمثل الإفريقي «إن الهجوم الوحشي المفترس لا يرد بالأيدي فقط»، ومما أثار دهشته أن موسى كوتان، الشيوعي القديم الأسود الذي كان مقرباً من لوثولي، عارضه فما زال كوتان يرى مجالاً لأساليب اللاعنف، وحذر من أن العنف سيحرض المجازر. اتفق سيسولو سراً مع مانديلا على أن لا بديل للعنف، لكنهما لزما الصمت، ثم رتبا فيما بعد موعداً لمانديلا كي يتحدث سراً مع كوتان، الذي أقنعه مانديلا بقبول الكفاح المسلح.

ثم نقل النقاش الحاسم إلى ستانغر Stanger في ناتال، في اجتماعين مؤثرين برئاسة لوثولي الذي أعرب فوراً عن مخاوفه المسيحية من مغبة العنف. إلا أنه وافق، بعد تأنٍّ، على أنه يجب أن يكون هناك حملة عسكرية بقيادتها المستقلة الخاصة، وتكون منفصلة عن المؤتمر الوطني الإفريقي، على الرغم

من أنه في النهاية مسؤول عنها. جرى الاجتماع الثاني الذي جمع المؤتمر الوطني الإفريقي إلى حلفائه الهنود والبيض والملونين ليلاً، وقد قوبلت خطة مانديلا بإحداث جناح عسكري بالمعارضة من قبل كثير من الهنود، الذين مازال العديد منهم متأثرين بغاندي. جي إن سينغ أحد أصدقاء مانديلا المقربين كرر اعتقاده بأن اللاعنف يخذلهم. ولكن «نحن خذلنا لم يكن هو الذي خذلهم». [65] فيما حذر أصدقاء آخرون، منهم مونتي نايكر ويوسف كاتشاليا، متكهنين بأن الأساليب العنيفة ستسيء إلى العمل الأكثر إلحاحاً، وهو التنظيم السياسي. وسيعترف مانديلا فيما بعد بأن المؤتمر الوطني الإفريقي ارتكب فعلاً الغلطة عينها: لقد أفرغوا المنظمات السياسية من الرجال المتحمسين وذوي الخبرة، وأكّدوا اهتمامهم بالتنظيم الجديد، وأهملوا «العمل الطبيعي، والمهم هو متابعة التنظيم السياسي الصرف». [66]

كان كثير من الهنود الأصغر سناً قد رفضوا المقاومة السلبية، كما كان مانديلا وسيسولو يحظيان بدعم الشيوعيين البيض، بما فيهم سلوفو وبيرنشتاين. وقال سيسولو فيما بعد: «كان لديهم طرح واقعي يقول بإمكانك أن تعقّل كل شيء، ولم يكن لديهم طرح حزبي آلي وإنما كانوا يعتمدون على الناس». [67] وما من شك في أن الحزب لعب دوراً رئيسياً في إيجاد قوة عسكرية، لكن الفكرة لم تأت من موسكو، إذ قال خبير روسي في الشؤون الإفريقية هو أبولون دافيدسون Apollon Davidson: «لقد طرح الأمر كحقيقة. لقد كانت موسكو أحياناً أكثر اعتدالاً من الجماعات التي تدعمها، في فلسطين، والجزائر وجنوب إفريقية». [68] وكان للمؤتمر الوطني الإفريقي سيطرة متنامية على الجناح العسكري. يقول سلوفو إنه بعد عام 1963 أصبح خاضعاً بشكل كامل تقريباً لقادة المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، فيما «كان ضلوع الحزب غير ظاهر».

في الصباح الباكر كان الكونغرسان قد اتفقا على أن يشكل مانديلا منظمة عسكرية جديدة أطلق عليها اسم إم خونتو وي سيزوي umkhonto we (M.K)

sizwe أو /سهم الأمة/ كان بإمكانه أن يختار طاقم العاملين معه وستبقى أم. كي بعيدة كل البعد عن المؤتمر الوطني الإفريقي، تفادياً لتهديد الوضع القانوني للمؤتمر الوطني الإفريقي (على الرغم من أنه خلال ثمانية عشر شهراً أصبح الارتباط بين إم كي والمؤتمر الوطني الإفريقي معروفاً للجميع عندما أعلنه مثير الفتن روبرت ريشا). [69] وكان ذلك فجراً أسطوريا لمرحلة جديدة من الكفاح.

بقي لوثولي في موقف محير. فقد كان قلقاً حيال الكفاح العنيف، إلا أنه لم يكن سلمياً. وسيذكر مانديلا دائماً قوله لستانجز «إذا ظن أحد أنني سلمي فليذهب ويأخذ دجاجاتي، عندها سيعرف كم هو مخطئ». وسيتشكى لوثولي فيما بعد من أنه لم يستشر بشكل لائق، لكنه تعمد الفتور. [70] فهو لم يوافق على القرار أبداً، إلا أنه لم يهاجمه. وقد كتب سلوفو «برغم التزامه المسيحي العميق باللاعنف إلا أنه لم يمنع أو يشجب المنحى الجديد، وألقى اللائمة فيه على تعنت النظام أكثر مما ألقاها على عاتق أولئك الذين اوجدوا سهم الأمة (إم.كي)».

لكن مانديلا صار الآن ملتزماً التزاماً تاماً بالكفاح المسلح كقائد عام لـ إم كي. وألقى بنفسه في دوره العسكري الجديد بمنتهى الحماسة. فقد تحول إلى جندي بين عشية وضحاها. كالفدائيين الأفريقانيين في حرب البوار مثل جان سموتز Jan smtus أو دينيس ريتز Deneys Reitz، اللذين قرأ عنهما كثيراً. وكان في ذلك انفصال كامل عن تراث المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد كتب سلوفو فيما بعد: «إن القرار بأن على مانديلا أن يصبح هارباً، وبالتالي يعيش حياة الثوري المحترف»، كان خطأً فاصلاً رئيساً في تاريخنا. لقد كان مؤشراً باتخاذ أسلوب - مختلف نوعياً - من العمل السري هيأ الجو للانكفاء الكامل عن اللاعنف أو / التقيد الحرفي بالقانون/ الذي حدث بعد ذلك مباشرة». [71]

وقال مانديلا في بيان صحفي أصدره من مخبئه يوم 26 حزيران (يونيو)، الذي أصبح الآن / عيد الحرية/ : «إننا ننوي أن نجعل عمل الحكومة

مستحيلاً»، ولم يشرح كيف سيكون ذلك، ولكنه حذر من «أشكال أخرى من الضغط الجماهيري لإجبار المهووسين العرقيين الذين يحكمون بلدنا الحبيب على التنحي وإفساح المجال لحكومة ديمقراطية للشعب ومن الشعب ومن أجل الشعب». وأصدرت مذكرة بالقبض عليه. لكنه ما كان ليسلم نفسه، لأنه في الأوضاع الحالية «يعتبر السعي وراء الاستشهاد الرخيص بتسليم نفسي للشرطة أمراً ساذجاً وإجرامياً» وتابع: «لقد اخترت هذا المسار الأخير، وهو أصعب وينطوي على مخاطر وصعاب أكثر من الجلوس في السجن. لقد اضطررت لأن أفصل نفسي عن زوجتي وأطفالي الأعزاء، وعن أمي وأخواتي لأعيش حياة الخارج على القانون فوق أرضي، كما اضطررت لإغلاق مكتبي، والتخلي عن مهنتي، والعيش بفقر وشقاء».[72] وقال بعد سنة إنه اضطر «إلى وداع الأيام القديمة الجيدة يوم كنت، بعد يوم متعب في المكتب، أستطيع الانضمام إلى أسرتي حول مائدة العشاء، واستبدل تلك الحياة بحياة رجل ملاحق باستمرار من قبل الشرطة».[73]

في الأسابيع القليلة الأولى كان يختبئ في بيوت العديد من الأسر الهندية في جوهانسبورغ، ويخرج لحضور اجتماعات سرية مع تنفيذيي المؤتمر الوطني الإفريقي، بما فيهم كاثرادا ودوما نوكوي وألفرد نزو وهارولد ولب، ومعظمهم كان محظوراً عليه الاجتماع بأكثر من شخصين. وكانت هناك جماعة صغيرة معنية بالبحث عن بيوت آمنة وكان بينهم كاثرادا الذي كان يجد مضيفين هنود، وولفي كوديش Wolfie Kodesh، وهو صحفي أبيض متحمس يكتب في النيو أيدج.

كانت حياة مقلقلة. ففي إحدى الليالي وجد كوديش شقة قرب بيته في يوفيل Yeoville كانت شاغرة مؤقتاً. اجتمع هناك عشرة أعضاء من التنفيذي، بينهم مانديلا، في ثياب التنكر المفضلة لديه كسائق. ولكن عندما وصل سيسولو لاحظ كوديش رجلين مسنين في الممر يمعنان النظر فيه، وسمع أحدهما يقول:

«اذهب واتصل بالهاتف». سارع كوديش إلى تحذير الجميع بأن يتفرقوا، لكنهم لم يعرفوا أين يخبئون مانديلا، فاقترح كوديش أن يخبئه في شقته في الشارع الغربي رقم 53. وقال كوديش: «لن يخطر على بال الشرطة أن رجلاً أسود سيكون في منطقة بيضاء مثل تلك المنطقة. حيث سيظهر كالبرغوث في اللبن». وبقي مانديلا هناك لمدة شهرين، القائد الطويل القامة رياضيها، مع الصحفي القصير القوي الممتلئ الجسم، ثنائي فريد، يذكر كوديش ليلة مانديلا الأولى هناك «أصر على النوم على سرير المعسكر، برغم كل احتجاجاتي. واستيقظت في الرابعة والنصف صباحاً على صوت صرير سرير المعسكر، ووجدت مانديلا يرتدي بذلة الرياضة. وقال إنه سيخرج ليمارس رياضة الجري، ولكني رفضت إعطاءه المفتاح، فركض في مكانه لمدة ساعة. وكان يكرر ذلك كل صباح، وانضممت إليه فيما بعد، وأخذت أتحسن بالتدريج إلى أن أصبحت أجري معه لمدة ساعة كاملة».

كان الخروج خطيراً بالنسبة لمانديلا، لذلك بدأ يقرأ بنهم، من كتب كانت على الرفوف عند كوديش، أو تلك التي يحضرها كاثرادا من المكتبة العامة. قال له كوديش: إن كلوزويتز Clausewitz كان بالنسبة للحرب مثل شكسبير بالنسبة للأدب. فراح مانديلا يلتهم كتاب كلوزويتز /حول الحرب/. قال كوديش: «لم أر شخصاً يركز مثله. كان يسطر، ويسجل ملاحظات كما لو أنه يحضر لامتحان رسمي». [74] قرأ مانديلا قراءة متنوعة، حتى أعمال الشاعر الافريقاني أنغريد جونكر Ingrid Jonker (الذي استشهد بأشعاره في خطاب القسم بعد أربعين سنة).

ولكن اهتمامه الأكبر كان بالكتب التي تعنى بالكفاح من اجل التحرير: ماوتسي تونغ MaoTse-Tung وإدغار سنو Edgar snow عن الصين، ومنياحيم بيغين Menachem Begin عن إسرائيل، وكتاب لويس تاروك Louis Taruc/ ولد من الشعب/ عن ثورة الفدائيين في الفيليبين وكتاب دينيز ريتز Deneys Reitz

عن حرب البوار / كوماندو/ .[75] كان يقرأ بعناية واهتمام، كما اكتشف ماك ماهاراج Mac Maharaj، الذي وجد له بعض الكتب في لندن، عندما كانا مسجونين فيما بعد في جزيرة روبين.

في ذلك الوقت بدا كثير من الثوريين حول العالم منتصرين: ماو في الصين، وبن بيلا في الجزائر، وكاسترو في كوبا. تمعن مانديلا في دراسة الثورات في إفريقية: في إثيوبية، وكينيا والكاميرون، وخاصة في الجزائر، التي اعتبرها المؤتمر الوطني الإفريقي موازية لنضالهم. لكن الثورة الكوبية هي التي أمدته بالأفكار هو وكثير من رفاقه. كانت نموذجاً خطيراً، نصراً استثنائياً، وقد أثار حميتهم أن كاسترو وتشي غيفارا، مع عشرة فقط من الناجين من سفينتهم الغرانما، جندوا جيشاً من العصابات قوامه 10.000 خلال ثمانية عشر شهراً، وساروا نحو هافانا في كانون الثاني (يناير) 1959.[76] أبدى مانديلا اهتماماً خاصاً بالقصة كما سردها بلادس روكا Blas Roca أمين عام الحزب الشيوعي الكوبي، الذي قال: إن كاسترو، وليس الحزب، هو الذي أدرك أن لحظة الثورة قد أتت. وسيبقى مانديلا دائماً معجباً بكاسترو.

وجد مانديلا صعوبة في التكيف مع حياة الوحدة في شقة وولفي كوديش. ويذكر وهو في السجن «فجأة وجدت أن لدي كثيراً من الخصوصية، وافتقدت الأسرة والشركة وصالة الرياضة حيث كنت أسترخي تماماً. كان أسلوب حياتي الجديد يتطلب كثيراً من النظام للحفاظ على وتيرته».[77]

كان يفتقد ويني بخاصة، ولاحظ كوديش أن مانديلا عندما كان يتحدث عنها وعن الأطفال كان يتخلى عن أسلوبه العسكري، وتفيض عيناه بالدموع. فساعد في ترتيب عدة زيارات لويني، كانت دائماً تتطلب حذراً كبيراً لأن بيتها في سويتو كان مراقباً على الدوام من فوق تل قريب. مما يضطره إلى قيادتها عبر طرقات غير مباشرة، وتغيير السيارة على الطريق، وبتوقيت دقيق جداً: فإذا تأخرت السيارة ألغيت الزيارة. أحياناً كانت تلتقي بمانديلا في بيت آمن في

مكان آخر. كانا دائماً يجدان أصدقاء للحركة يقدمون على تلك المخاطرة، ولكنهما اتفقا على ألا يسببا لهم القلق. وقد اجتمعا مرة في بيت في بارك تاون يملكه ناشر أبيض متعاطف لكنه عصبي. وعندما دخل إلى الغرفة بعصبية اهتزت لها كؤوس الشراب على الصينية، سارع كوديش إلى ذكر ارتباط بموعد آخر، وأخذ مانديلا بعيداً.

ازداد قلق كوديش على سلامة مانديلا إذ بدأت الصحف تتحدث عن اختفائه، وتطلق عليه اسم /كزبرة الثعلب السوداء/ ، وحذره من أن «كل الشرطة يحملون صور كزبرة الثعلب السوداء، ألا تخشى أن يمسكوا بك؟». أجاب مانديلا: «أنا لا أفكر في الأمر، وإنما أهتم لعملي».[78] لكن أمرين أثارا ذعرهما. فقد سمع مانديلا بعض الخدم يتحدثون عن لبن رائب تركه على حافة النافذة. وهذا طعام يحبه الإفريقيون، مما يعني أن هناك رجلاً أسود يعيش في بناء البيض.[79] وأخيراً، ذهب كوديش ليرى مسؤول النظافة الزولي الذي يقطن في أعلى البناء، والذي قيل له إن الغريب الأسود كان طالباً ينتظر منحة مالية ليسافر إلى ما وراء البحار. ولحظ على سرير الرجل قصاصة من صحيفة. كانت «مقالاً عن كزبرة الثعلب السوداء» مرفقاً بصورة لنيلسون، برغم أنه بلا لحية. «فقلت لنفسي: هذا سيِّئ، إنه يعرف بمن أعتني. وقلت لنيلسون: احزم أمتعتك، ستذهب، لقد رأى جميع الصور». واصطحب كوديش مانديلا إلى بيت في ضاحية نوروود Norwood قرب جوهانسبورغ، يملكه طبيب ودود، حيث أقام في جناح الخدم، مدعياً أنه البستاني.[80]

كان مانديلا يحشد جماعة صغيرة من الخبراء للانطلاق في حملة تخريب باسم إم. كي /سهم الأمة/. وكان لدى الحزب الشيوعي مجموعته الخاصة من الأخصائيين لتنفيذ مخططاته التخريبية، وكان واضحاً أن المجموعتين يحتاج بعضهما بعضاً، فاندمجتا. كان مانديلا دائماً يصر محقاً على أن الإم. كي أسسها إفريقيون، لكنها بحاجة إلى خبرة ومهارات (تكتيكية) لا يستطيع المؤتمر

الوطني الإفريقي وحده أن يقدمها. .[81] فجند جو سلوفو الذي كان يثق به ويحوز إعجابه، ليخدم في القيادة العليا. وقال مانديلا فيما بعد: «إن كلمة الاستسلام لم تكن من المفردات التي يعرفها. كان مقداماً دائماً وأبداً».[82] كما امتدح سلوفو بدوره مانديلا بطريقته الخاصة: «نما حبي وإعجابي به. لم يكن في نيلسون أي ضعف أو كياسة تنم عن إحساس بالتفوق. وكان قد قام بخطوات جبارة في المجال الأيديولوجي منذ أن تجابهنا، في ممرات الجامعة أوائل عقد الخمسين، حول دور الحزب في النضال. وعلمه ذكاؤه الحاد أن يتمسك بالطبقية قاعدة للقمع الوطني. لكن ألم الحياة ـ التي كانت غطرسة البيض تهيمن على كل لحظة من لحظات اليقظة فيها ـ ترك ندوباً واضحة».

جلب سلوفو مجموعة صغيرة من الخبراء الشيوعيين، ومن ضمنهم جاك هودجسون Jack Hodgson، ودينيس غولدبيرغ Dennis Goldberg، اللذين كانا ملمين بالمتفجرات جراء خبرتهما في شمال إفريقية إبان الحرب العالمية الثانية، وآرثر غولدريتش Arther Goldreich، الذي حارب البريطانيين في فلسطين أواخر عقد الأربعين. وتبين أن خبرتهم كانت بعيدة عن الإتقان بشكل مذهل. وقد كتب سلوفو فيما بعد: «لم يكن لدينا مسدس واحد، وكانت معرفتنا (بالتكنيك) في هذه المرحلة المبكرة من النضال ابتدائية لأقصى حد».[83] وقد مارس الخبراء مهاراتهم بشكل متسرع جداً. وفي صباح أحد الأيام، عندما خرج كوديش إلى مبان آجرية خارج جوهانسبورغ لتجربة القذائف مع جاك هودجسون، أصر مانديلا على الحضور، في المباني الآجرية رأى كوديش رجلاً أسود كان واضحاً أنه عرف مانديلا، وأراد أن يحبط التدريب لكن مانديلا ذهب ليتحدث إلى الرجل، ثم عاد أدراجه وقال لهم: تابعوا. انفجرت القنبلة كما ينبغي، مخلفة غمامة من التربة الفوقية، كما لو أنها قنبلة نووية مصغرة. فكّر كوديش أنهم عندما عادوا أدراجهم كان مانديلا مبتهجاً، يهنئ الجميع.[84]

في تشرين الأول (أوكتوبر) 1961 وجد مانديلا مخبأ جديداً في مزرعة ليليسليف Lillesleaf Farm، وهي عبارة عن منزل منعزل مع بعض الأكواخ في ريفونيه Rivonia، التي كانت وقتها ضاحية شبه ريفية تزرع فيها الخضار لتباع في الأسواق، وفيها بعض الأكواخ خارج حدود مدينة جوهانسبورغ. كان الحزب الشيوعي قد اشترى المزرعة سراً، ومومه ملكيتها باسم آرثر غولدريتش، الذي استقر فيها مع أسرته ليظهر واجهة محترمة ونمط حياة تتضمن ركوب الخيل أيام السبت، بدا المكان مخبأً أميناً لمانديلا عندما اصطحبه صديقه مايكل هارميل إلى هناك، وكان ـ كما شهد فيما بعد في المحكمة ـ «مكاناً نموذجياً بالنسبة لرجل حياته حياة خارج على القانون. حتى ذلك الوقت كنت مضطراً للبقاء في الداخل أثناء ساعات النهار ولم أكن لأجرؤ على الخروج إلا تحت جنح الظلام. ولكن في ليليسليف استطعت أن أعيش عيشة مختلفة، وأن أعمل بكفاءة أكثر». [85]

وفيما بعد كتب من سجنه أنه شعر بالسعادة في ليليسليف لأن «المكان كله ذكرني بأسعد أيام حياتي، أيام الطفولة». [86] استخدمت ليليسليف مخبأ لأعضاء الحزب الشيوعي بالإضافة إلى مانديلا، برغم أنه هو وعائلة غولدريتش كانوا يعيشون هناك فعلاً. حيث شغل غرفة صغيرة في البناء الخارجي، وكان يعرف باسم دافيد موتساماي David Motsamayi. وقال للمحكمة فيما بعد: «إن المزرعة لم تكن مقر القيادة الفعلي / لسهم الأمة/ ولا المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن راستي بيرنشتاين، الذي كان يأتي زائراً، خشي أن المكان بدا وكأنه يتحول إلى مقر قيادة شبه رسمي لسهم الأمة. [87] من ليليسليف كان مانديلا يخرج أحياناً متنكراً في الأمسيات ليلتقي بقادة المؤتمر الوطني الإفريقي وسواهم. كان أحياناً يلبس ثوب ميكانيكي، وأحياناً بذلة حارس ليلي بمعطف رمادي طويل بأقراط كبيرة، ومرة تنكر بزي كاهن يقود جنازة كاذبة من الناشطين المتنكرين. كان يستمتع بالإحساس المسرحي: ففي تشرين الأول (أوكتوبر)

اجتمعت مجموعة من الناشطين الهنود في منزل في فورد سبورغ Fordsburg ودخل رجل يلبس ثياباً قذرة لمحطة خدمة كالتكس Caltex، ولم يعرفوا أنه مانديلا قبل أن يقول: «اجلسوا يا رفاق».[88]، وكان أحمد كاثرادا واحداً من مجموعة صغيرة كلفت بالتأكد من أن مانديلا يبدو / رجلاً جديداً/. وأقنعوه بالتخلي عن ثيابه الأنيقة، لكنه بقي محتفظاً بغروره، ولم يستطيعوا إقناعه بحلق لحيته التي أصبحت جزءاً من نمطه الثوري».[89]

ساور القلق كثيراً من أصدقاء مانديلا حيال قلة حذره. وقد كتب بيرنشتاين «ربما كان الرجل الأكثر مطاردة في البلاد في ذلك الوقت، وكان يقدم على مجازفات كبيرة. لكن ذاك كان أسلوبه. كان شخصاً يقود من الجبهة. ولم يطلب يوماً من أحد مخاطرة لم يكن هو مستعداً للقيام بها بنفسه». وقلق بيرنشتاين بسبب توسع دائرة الأعوان والسائقين والزوار الذين يعرفون بمخبأ مانديلا في ليليسليف، وأن مسؤولية الأمن كانت مقتسمة بشكل خطر بين الحزب الشيوعي ومانديلا نفسه. وتذكر بيرنشتاين: «كنا بطيئين في تقدير ما تنطوي عليه الأحداث من أخطار».[90]

زارت ويني مانديلا عدة مرات في ليليسليف، حيث كانت تحمل إليه الخضار ثم تذهب بعد ذلك لزيارة صديقيهما الهنديين بول وأديلايد جوزيف. قال بول: «كنت أرى السيارة ملطخة بالطين، وكان واضحاً أنها قادمة من منطقة زراعية، وكنا نعرف أن بيتنا خاضع لمراقبة دائمة. كانوا كلهم مهملين إهمالاً مرعباً. لكنها كانت الأيام الأولى للحركة السرية، بكل ما يحيط بها من ألق». وفي أحد الأيام فوجئ آل جوزيف عندما اصطحبهما ولتر سيسولو بالسيارة إلى غرفة صغيرة في فورد سبورغ، قرب وسط جوهانسبورغ «دخلنا لنجد نيلسون هناك. عانقنا، وتحدث في أمور عائلية، وبعد قليل قال: / أنا سعيد لأني رأيتكما / وذاك كل ما في الأمر». وبعد سنوات علما بأنه قلق لسماعه قصة كاذبة بأن زواجهما على وشك التداعي، وأراد أن يقدم بعض المساعدة.[91]

الحياة في الظل مصدر توتر لكثير من المتآمرين. وقد قال دينيس غولدبرغ الذي كان يعمل في الخفاء في كيب تاون «أظن أن الناس الذين يعملون في الخفاء يعتقدون أنهم لا يطالون وبالتالي يصبح التوتر كبيراً لديهم لدرجة أنهم يرتكبون أخطاء في لاوعيهم ليضعوا حداً لذلك.. مثل الخروج من الصقيع». رأى غولدبرغ /مرحلة كزبرة الثعلب/ مرحلة متقلقلة تقلقلاً عميقاً في حياة مانديلا: «فهناك جانب كئيب لأن يكون الإنسان قائداً (رومانتيكياً). يجعلك تقدم على مخاطرة تلو أخرى، لأنك يجب أن تحافظ على تلك السمعة، وعندما تعمل في الخفاء فإنك تعلق بين الاختفاء في حفرة في الأرض وسحب الغطاء فوقك لأنك وقتها تكون في مأمن، وبين الخروج للقيام بمزيد من العمليات الأكثر جرأة».[92]

أيام الاختباء ارتحل مانديلا في طول جنوب إفريقية وعرضها، دون قلق يذكر. وقد قاد السيارة مرة إلى دوربان ليقيم عند آل مير، فصدمت فاطمة إذ تلقت اتصالاً هاتفياً من صديق سألها: «هل وصل نيلسون؟». وعندما أقام لمدة أسبوعين في مزرعة سكر في تونغات Tongaat قرب منزل لوثولي، ادعى بأنه خبير زراعي، إلى أن سأله أحد العمال في المزرعة «ماذا يريد لوثولي؟».[93] لكنه كان مصمماً على مداومة اتصاله بعامة الناس، الذين تأكد تثبيتهم له. وفي منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) دعيت ماري بنسون Mary Benson للقائه خارج جوهانسبورغ. كان يرتدي معطف السائق الأبيض، وقد قام للتو بجولة في ناتال والكيب. وقال لها: «لا يمكنك أن تستوعبي تماماً ما لم تبقي هناك /مع/ الناس». وحدثها مازحاً كيف نجا بجلده مؤخراً، وترنم بذكر الأيام الخوالي، ثم أوصلها بالسيارة إلى منزل أختها، وكان يقود سيارة قديمة غريبة الشكل تبقبق باستمرار حتى تقف.[94]

في الوقت الذي كانت قيادة إم. كي تخطط لأعمال التخريب، لم يشعر الجنوب إفريقيين البيض بما يوحي بالخطر بعد قمع إضراب الاعتصام في

البيوت. وكسب الحزب الوطني الحاكم دعم الناخبين البيض بالوعود التي قدمها حول اتخاذ إجراءات أكثر شدة ضد المحرضين. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1961 حدثت أول نوبة تخريب، عندما قطع أحد الأبراج الكهربائية وحرق مكتب حكومي، وتبين أن ذلك كان من فعل اللجنة الوطنية للتحرير، وهي فرع من الحزب الليبرالي الذي تطور فيما بعد إلى حركة المقاومة الإفريقية (ARM).[95] أعلنت إم. كي عدم مسؤوليتها عن أعمال التخريب هذه، التي اعتبرتها «تميل مزاجياً نحو أعمال الجرأة البطولية» لكنهم، في مجالسهم الخاصة، وافقوا على تنسيق أعمالهم.[96] لم تفلح أعمال التخريب سوى في زيادة صمود معظم البيض، وفي الانتخابات التي تلت ذلك حقق الوطنيون أكبر فوز لهم. حيث أعطاهم الناخبون ـ لأول مرة ـ أغلبية عظمى واضحة.[97]

وافق 16 كانون الأول (ديسمبر) عيد دينغان Dingan's Day في ذكرى المجزرة الأفريقانية للزولو عام 1838 ولكنه أصبح الآن يختزل احتجاجات الإفريقيين. وهنا نفذت إم. كي أول أعمال التخريب، بانفجارات في جوهانسبورغ وبورث إليزابيث ودوربان تسببت تلك الأعمال بضجة وحماسة وطنية، على الرغم من أن المخربين لم يكونوا أكفاء تماماً: حيث قتل واحد منهم، وهو بطرس موليف Petrus Molife ونسفت ذراع واحد آخر، وحاول جو سلوفو تفجير دريل هول Drill Hall في جوهانسبورغ لكنه اضطر إلى الانسحاب بعد أن اكتشفه سيرجنت في الجيش.[98] لكن مخربي إم. كي نجحوا في الهجوم على مكاتب الحكومة و محول كهربائي.

في الليلة السابقة كان متطوعو المؤتمر الوطني الإفريقي قد وزعوا منشورات ولصقوا ملصقات تعلن عن تأسيس إم. كي وتشرح الحاجة إلى أساليب جديدة إضافة إلى المنظمات التقليدية. «يأتي وقت في حياة أية أمة لا يبقى فيه سوى خيارين: الاستسلام أو القتال». وقالوا إن إم. كي أملت أن تعيد الحكومة إلى جادة الصواب «قبل أن تبلغ الأمور مرحلة الحرب الأهلية

اليائسة». [99] وبحلول الصباح كانت الشرطة قد مزقت معظم الملصقات ولهذا فإن الرسالة لم تصل إلى سوى عدد قليل من الناس. وفيما بعد كتب أحد المتآمرين «خلافاً لنوايانا فإن التخريب لم يخلف سوى موجة صغيرة من القلق لدى الحكومة أو في البلاد عامة». [100] لكن مانديلا ورفاقه كانوا في البداية مبتهجين إذ اعتقدوا أن الجنوب إفريقيين البيض سيدركون الآن أنهم يجلسون على قمة بركان، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي لديه «سهم ماضٍ سيحمل النضال إلى قلب القوة البيضاء». [101] وقد كتب مانديلا فيما بعد من السجن «لقد كنا تياهين بنجاحاتنا الأولى. وحتى أولئك الذين شكوا في البداية في حكمة الخط الجديد انجرفوا أيضاً مع موجة الحماسة». [102]

أثبت توقيت الانفجارات أنه محرج بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي، كما اعترف مانديلا، فقبل ستة أيام فقط كان رئيس الحزب ألبرت لوثولي قد منح جائزة نوبل للسلام في أوسلو. لكنهم تأكدوا أن لوثولي قد عاد سالماً إلى الوطن قبل أن يحصل التخريب، ولم يكن المؤتمر الوطني الإفريقي مرتبطاً رسمياً بسهم الأمة (إم. كي) لكن لوثولي بقي قلقاً حيال اتجاه العنف. وكان قد قال لدبلوماسي كندي منذ شهرين: إن الأعضاء الأصغر سناً في المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يفكرون بالعنف. إلا أنه رأى أن محاولة الإطاحة بالحكومة عن طريق القوة ستكون / حماقة انتحارية/ . [103]

أعطت جائزة نوبل التي منحت للوثولي، قبولاً دولياً لنضال المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان مانديلا (غاية في السعادة) عندما سمع بأخبار الجائزة من إذاعة ريفونيه Rivonia. [104]

لكن وزارة الخارجية البريطانية بقيت حذرة حيال الاتصال بلوثولي. وعندما توقف في لندن في طريقه إلى النرويج رأى أحد المسؤولين أن الاجتماع به «سيقابل باستياء شديد من قبل حكومة جنوب إفريقية وأنه لن يقدم ولن يؤخر بالنسبة لدعم قضية الزعيم لوثولي في جنوب إفريقية». [105]

في الحقيقة لم يكن هناك تناقض ظاهر بين انفجارات إم. كي والضغوط السلمية التي مازال المؤتمر الوطني الإفريقي يمارسها. وبقيت القيادة العليا لـ إم. كي متفائلة بأن أعمال تخريب متتالية سيكون لها فعل / طلقة عبر الأقواس/ لتعيد جنوب إفريقية البيضاء إلى وعيها.[106] لكن بعيد الانفجارات الأولى بدأت إم. كي تخفف من توكيدها أعمال التخريب وتفكر أكثر بحرب العصابات. وقد قال بيرنشتاين، الذي كان معنياً بالأمر: «لم يكن هناك قرار رسمي. وإنما تطورت الأمور تلقائياً من فكرة أن التخريب سيؤدي بطريقة أو بأخرى إلى / مرحلة تالية/ ».[107] وبدأت القيادة العليا تهيِّئ لسفر القادة المهمين إلى الخارج للتدرب، يتبعهم المتطوعون الشباب.

كان مانديلا قد أصبح الآن قائداً عاماً لقوة مقاتلة واعدة. و له سلطة ومكانة قائد ثوري يجابه نظاماً عسكرياً لا يحظى بشعبية، في عصر الثورات حيث بدت قوات الاضطهاد في تراجع في كامل إفريقية. لقد ترك جميع أدواره السابقة: من ملاكم، وثري متبطل، ومحام، ورب أسرة ـ وتقمص دوره الجديد قائداً لحركة فدائية سرية. كان تحولاً مفاجئاً وبلا تحضير، من سياسي متعدد الأوجه إلى جندي ملتزم. لقد كتب لمانديلا أن يكون جندياً هاوياً لم يعمر طويلاً إذا قارناه بالثوريين الصينيين والكوبيين. وبقي قبل كل شيء السياسي الذي رأى الحاجة إلى مؤشرات رمزية تقود شعبه إلى نوع جديد من المواجهة».

13

الاندفاع الأخير

1962

أصبحت إفريقية السوداء تحتل رقعة أكبر على الخارطة، تعد بتأثير جديد على العالم، ودعمٍ قوي للإخوة الإفريقيين في الجنوب. أوائل عام 1962، وبعد أول تفجر لأعمالِ التخريب، قرر أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي وجوب السعي من أجل الحصول على مساعدة من بقية القارة لتقديم المال والتدريب العسكري، وطلبوا من مانديلا أن يجري اتصالات، وأن يتحدث في لقاء قمة إفريقي في إثيوبية في شباط (فبراير) ليشرح حملة المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي عمر الثالثة والأربعين، لم يسبق لمانديلا السفر خارج جنوب إفريقية، فوافق بحماسة كبيرة. إلا أن رحلته الإفريقية ـ كما كشف في مذكراته الشخصية ـ كانت مليئة بالنكسات وكانت أصعب بكثير مما توقع هو وزملاؤه.

كان الوقت غير مناسب للسفر عبر القارة. فالدول المستقلة حديثاً كانت تخرج إلى الوجود بتواتر سريع، وكلها آمال بدور إفريقي موحد في العالم. وكان السادة السابقون الإمبرياليون يعرضون عليها المساعدة والصداقة لإبقائها في الفلك الغربي، فيما كان الاتحاد السوفيتي والصين يتنافسان لإغرائها بالاتجاه نحو الشرق.

وكان الأمريكيون، إبان حكم الرئيس كينيدي، يزدادون اهتماماً، خشية أن تتحول الحرب الباردة في إفريقية إلى حرب عرقية، وأن ترص الدول

الإفريقية صفوفها ضد ما أسموه / معقل البيض/ - جنوب إفريقية وأنغولا وموزامبيق إفريقية الوسطى - وفي تموز (يوليو) 1962 أرسل تقرير سري إلى كبار صناع السياسة في إدارة كينيدي، ومن ضمنهم ريتشارد هيلمز Richard Helms في السي آي إيه، يقترح أن يقوم الرئيس بزيارة مبكرة إلى إفريقية، وحذر التقرير من أن معقل البيض «لا يكن الحب للتاريخ والنظرية السياسية الأمريكية»، وأن الكتلة الشيوعية ستواصل الصيد في المياه الإفريقية العكرة «كان الجنوب إفريقيون السود يعتبرون لاعبين مهمين، لكن لا يمكن إدراك كنههم». فقادتهم كانت لهم نزوات مع العنف، وأحياناً مع الشيوعية.[1]

سيجد مانديلا رأيه الشخصي بإفريقية يبدو فجأة للعيان قبل أن يغلق تماماً أمامه. وقد ذهب قبل مغادرته إلى ناتال ليرى لوثولي رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي وجد معنوياته عالية. وافق لوثولي على رحلة مانديلا، وطلب أن يستشار في عمليات المؤتمر الوطني الإفريقي. بعد ذلك أمضى مانديلا يومين في جوهانسبورغ، حيث اجتمع بأصدقاء قدامى من ضمنهم وولتر سيسولو ودوما نوكوي. وغضب لأن أحد الزملاء الهنود لم يأت إلى الاجتماع لأنه كان «يسكر». وفيما بعد في بيتشوانا لاند غضب أكثر عندما اعتقل زميل آخر لأنه كان يقود سيارته في حالة سكر. وكتب في مذكراته «ذاك عمل يعتبر خيانة وينم عن عدم إحساس مذهل بالمسؤولية»[2]، لكنه بقي سعيداً بالرحلة.

في 10 كانون الثاني (يناير) 1962 ودع ويني وأُخذ بالسيارة عبر الحدود إلى بيتشوانا لاند (بوتسوانا الآن)، التي كانت وقتها ما تزال محمية بريطانية. هوى تلك البلاد من النظرة الأولى، وكتب فيما بعد أنه رأى إفريقية بحالتها البرية، رأى لبؤة تعبر الطريق.[3] وفكر أنه بعد غياب جوهانسبورغ اصبح في «مركز كوزموبزليتاني آخر حيث بقاء الأقوى هو القانون الأعلى وحيث النباتات المتشابكة تخفي جميع أنواع المخاطر».[4]

كانت بيتشوانا لاند كثيراً ما تستخدم كطريق نجاة للناشطين السود، الذين

بدت السلطات البريطانية متسامحة معهم، وكانوا سعداء بإيواء مانديلا الذي (قيل) «إن شرطة جنوب إفريقية تبحث عنه منذ أشهر». لكن المفوضية العليا كانت تراقبه من كثب. وأخبرت لندن أنه وصل بلدة لوباتسي Lobatsi الحدودية يوم 12 كانون الثاني (يناير)، و«معروف أنه يملك مبالغ تقدر بـ600 جنيه».[5]

وتلقى مانديلا «صدمة حياته» في لوباتسي عندما اكتشف أن ضابط الهجرة كان أيضاً رئيس الأمن. وقد ساوره الشك عندما تعرف عليه الرجل وعرض عليه بيتاً آمناً كي لا تختطفه شرطة جنوب إفريقية، لكنه اطمأن عندما عرف أنه ساعد أوليفر تامبو أيضاً قبل سنتين.[6] وكان هناك سبب يدعو إلى الحذر والاحتراس فقد تلقت المخابرات البريطانية خبر عدة زيارات سرية للفرع الخاص بجنوب إفريقية منذ نيسان (أبريل) 1960، ومن ضمنها بعض «اللاجئين السياسيين» الذين كانوا في الحقيقة عملاء جنوب إفريقيين.[7] كما جندت الشرطة المحلية كثيراً من الأفريقانيين وتبادلت المعلومات مع الجنوب إفريقيين، حسب ما أفاد جون لونغريغ John Longrigg من السفارة البريطانية في بريتورية.[8]

من بيتشوانا لاند وضع مانديلا مع صديقه جو ماتثيوز على متن طائرة مستأجرة أقلتهما إلى دار السلام في تانزانية. كانت المخابرات البريطانية تتبع ماتثيوز الذي صار الآن يعمل من باسوتولاند، وكانوا يعتقدون أنه «ربما كان منظراً شيوعياً يعمل متخفياً وراء المؤتمر الوطني الإفريقي»، لكنهم لم يعلموا من الذي استأجر الطائرة.[9] وعلى الطريق نجحت الطائرة بصعوبة في تفادي الارتطام بجبل. وتلك الحادثة اختبرت ضبط مانديلا لنفسه إلى أقصى حد، و(ذكر أنها أوقفت جو ماتثيوز عن الكلام).[10]

في دار السلام سلطت الأنوار على مانديلا. دهشت فريني غينوالا Frene Ginwala، ممثلة حزب المؤتمر الوطني الإفريقي التي كانت تعمل كوكيلة سفر للرفاق الهاربين عندما استقبلته. وكان تامبو قد أخبرها بوصول مانديلا مرتدياً بذلة، وأنه يجب أن /يوارى/ بين التانزانيين. لكنه أتى معتمراً قبعة

باسوتوBasuto، وبذلة سفاري صيد وحذاء موسكيتو. علقت غينوالا «ويفترض أن أخفيه!». [11]

ازدهر مانديلا في تانزانية التي حصلت على استقلالها قبل شهر. وابتهج بأسلوب جوليوس نيريري، كرجل من الشعب، بسيارته الصغيرة وبيته المتواضع، وتفقد ببعض الحسد مقر قيادة حزب نيريري، حزب الاتحاد الوطني الإفريقي التانغانياكي، الذي يتألف من ثلاثة طوابق ولديه طاقم من المسؤولين المتفرغين. لكنه حزن عندما نصحه نيريري بتأجيل الكفاح المسلح والتنسيق مع سوبوكوي والمؤتمر الإفريقي العام، فرد بأفكار معاكسة لما يعتقده نيريري، بأن الاشتراكية طبيعية في إفريقية. وبوضوح ملفت لم يشارك نيريري الرأي بأن الإفريقيين شعب رعوي متنقل ليس فيه تقسيمات طبقية. وأصر مانديلا على أنه قبل وصول الرجل الأبيض بزمن طويل كان الإفريقيون قد طوروا التعدين وعلم المعادن، الذي قدم فائضاً اجتماعياً ومول صروحاً من النيل إلى زيمبابوي. [12]

من تانزانية طار مانديلا لمدة قصيرة إلى إفريقية الغربية، حيث اجتمع بتامبو، الذي أصبح الآن ملتحياً مرسل الشعر، وكان ينظم مكاتب حزب المؤتمر الوطني الإفريقي في غانة. [13] ثم طار إلى إثيوبية لحضور مؤتمر الحرية الإفريقي في أديس أبابا. الذي نظمه هيلا سيلاسي، ذلك الحاكم الأسطوري الذي حرك مشاعر مانديلا عندما كان يافعاً في السابعة عشرة إذ سمع لأول مرة كيف وقف صامداً في وجه قوات موسوليني النازية. لم يكن سيلاسي اشتراكياً ولا ديمقراطياً لكنه كان يحكم الدولة الإفريقية التي كانت دائماً مستقلة، وصار الآن ينصح ويشجع بدهاء قادة الدول الجديدة الأخرى. كتب مانديلا: «هذا هو البلد الذي كان يحكم من قبل الإفريقيين، على الرغم من أنه لم يكن لديه مؤسسات ديمقراطية. كل بنية رأيتها هناك كانت نتيجة مبادرة ومهارات إفريقية». وتأثر مانديلا بألق الملك الصغير في لباسه الشعبي، وهو يستمع بصلابة وينحني

للجمهور بإيماءة من رأسه، وقد سره أن يرى خبراء عسكريين يتلقون الأوسمة وينحنون مثل أي شخص آخر.[14]

كان دخول مانديلا إلى المؤتمر مؤثراً، حيث تخلى عن اسمه المستعار /دافيد/ وألقى خطاباً أعده بعناية وفق نصيحة تامبو وروبرت ريشا. وصف مانديلا الاضطهاد الوحشي الذي يتعرض له السود في جنوب إفريقية في «أرض تحكم بالبندقية». وشكر الدول الإفريقية الأخرى لاستمرارها بالمقاطعة والعقوبات. لكنه أصر على أن شعبه يجب ألا يبحث عن خلاصه وراء الحدود «لأن نقطة ارتكاز الكفاح من أجل الحرية والديمقراطية في جنوب إفريقية، موجودة داخل جنوب إفريقية نفسها». وتحدث عن هشاشة الحكومة وتنامي المناهضة فقال: «الرأس الذي يلبس التاج لا يعرف النوم المريح». وعن مستقبل حملة التخريب التي بدأت في الشهر السابق. وقال مانديلا: «يجب أن تسدد ضربات قاسية وخاطفة بكامل ثقل جماهير الشعب»، إلا أنه لم يتخل كلياً عن اللاعنف في الاحتجاج: «إن أيام العصيان المدني، والإضرابات والتظاهرات الحاشدة لم تنته، وسنلجأ إليها مرة إثر مرة».[15] وسيعود متسللاً إلى جنوب إفريقية بما أمكن من السرعة، وقد قال لجريدة جوهانسبورغ ستار إن الأشهر العشرة الأخيرة من حياة التخفي كانت «الفترة الأكثر إلهاماً في حياتي ففي كل مكان كنت أستمد الإلهام من المشاعر الدافئة.. ومقدار الثقة التي وجدتها بين الجماهير الإفريقية».[16]

كان الخطاب الأكثر أهمية في حياة مانديلا المهنية حتى ذلك الوقت، ولكن لم تنقل منه الصحف في جنوب إفريقية ما يذكر. وفي لندن كتبت الأوبزرفر أنه وجه «تحذيراً خطيراً من أن الوضع في جنوب إفريقية متفجر». وفي مقابلة مع المانشتسر غارديان نفى أي ارتباط بسهم الأمة (إم. كي)، لكنه قال إنه يعتقد أنها رفعت معنويات الشعب، وأعطت قوة لأنواع أخرى من الاحتجاج: «هذه المنظمة تستطيع أن ترد الصاع صاعين انتقاماً للهجمات التي

تشنها الحكومة على الناس الأبرياء». [17] والواقع أن حديث مانديلا ضمن بوضوح الارتباط بين المؤتمر الوطني الإفريقي وإم. كي، مثيراً غضب قادة المؤتمر الوطني الإفريقي في البلاد الذين يريدون أن يبقى الفصل القانوني بين المنظمتين. [18]

كان مانديلا قلقاً حيال التوترات بين القادة الإفريقيين، خاصة العداء تجاه «وفود الإخوة العرب». وكان الإفريقيون في شرق ووسط إفريقية يرفضون إدخال الشمال إفريقيين في منظمتهم «حركة الحرية الإفريقية شرقي ووسط إفريقية بافميكا PAFMECA/ حتى الجزائريين، الذين كانوا يخرجون للتو من حربهم ضد فرنسة. وعندما احتج مانديلا نبح في وجهه أحد الوفود «في شمال إفريقية هناك إفريقيون ليسوا إفريقيين»، فأَمَرَّ إليه تامبو ملاحظة تقول / اخرس / لكن مانديلا سرعان ما نجح في إدخال الشمال إفريقيين وكسب امتنانهم. كما ساعد في إقامة روابط بين الجنوب إفريقيين السود والشمال. واتسعت حركة الحرية الإفريقية لشرق ووسط إفريقية لتشمل جنوب إفريقية، وغير اسمها إلى / بافميكسا PAFMECSA/ وبعد سنة ستزداد توسعاً لتشمل غرب وشمال إفريقية وتصبح منظمة الوحدة الإفريقية (OAU).

مازال مانديلا قلقاً بسبب مفهوم الانفصال (اللاوحدة) في جنوب إفريقية السوداء، وحيال تنافس المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام. وقد سبق خطابه أمام المؤتمر متحدث أكثر فصاحة هو بيتر مولوتسي Peter Molotsi من المؤتمر الإفريقي العام، الذي تحدث عن الأبهة التي كانت عليها إفريقية «وعن روعة حضارة آزانيا Azania الغابرة، وهو الاسم الذي أعطاه المؤتمر الإفريقي العام لجنوب إفريقية». [19] وفوجئ مانديلا إذ وجد صديقه القديم مايكل سكوت - الذي انضم مرة إلى الجاثمين (احتجاجاً) في سويتو - في المؤتمر، إلى جانب مؤتمر إفريقية العام فيما يبدو، لكنه لم يبد أنه على علاقة جيدة مع وفد المؤتمر الإفريقي العام، لذلك جالسه مانديلا وعرفه على قادة

سود.[20] كان المؤتمر الإفريقي العام ينشر قصصاً حقودة ضد المؤتمر الوطني الإفريقي في الدول الإفريقية، مطلقاً عليه اسم / جيش كزوسا القبلي/ وأنه / مخترق من قبل الشيوعيين البيض/ . كان مانديلا يحاول إظهار جبهة موحدة، كما كان يحاول تفادي إثارة عداء المؤتمر الإفريقي العام. وتحدث مع الشاب فيليب كوسانا Philip Kgosana بطل مسيرة كيب تاون للشباب التي نظمها المؤتمر الإفريقي العام عام 1960 «في لقاء مع طلبة الجامعة ولكنه فشل في إقناعه بالانضمام إليه».[21]

سرعان ما تبين مانديلا أن تحالف المؤتمر الوطني الإفريقي مع البيض والهنود باعد المسافة بينهم وبين القومية السوداء في بقية القارة. كانت نضالية المؤتمر الإفريقي العام قد خلبت لب إفريقية، الأمر الذي لم يستطعه المؤتمر الوطني الإفريقي. ووصلت الأخبار إلى تنفيذي المؤتمر الوطني الإفريقي في جوهانسبورغ بأن مانديلا يواجه بعض المصاعب في أديس أبابا. وارتبكوا إذ تبينوا أن المؤتمر الإفريقي العام فاز بدعم خارجي أكبر مما كانوا يظنون. فكتب بيرنشتاين أن «مصداقيه المؤتمر الإفريقي العام في إفريقية لم تكن تتناسب مع أداء قادته السياسي التافه في الداخل وإنما مع خطاباتهم الراديكالية. لقد وقفوا في صف واحد مع الموضوع الإفريقي العام الذي يتعلق بوضع / الزنوج/ وحولوه إلى سلاح ضد برنامج المؤتمر الوطني الإفريقي غير العرقي».[22]

هنا أظهر مانديلا (براغماتيته) وحساسيته السياسية. وفي تقرير مهم للمؤتمر الوطني الإفريقي تحدث عن «الشعور المنتشر المعادي للاستعمار والمعارضة الشديدة لأي شيء يبدو شركة بين الأبيض والأسود». كان الاعتقاد السائد هو أن المؤتمر الوطني الإفريقي «منظمة يهيمن عليها الحزب الشيوعي»، بينما انطلق المؤتمر الإفريقي العام بمزايا هائلة بسبب أيديولوجيته، و«المعارضة التي أحسن استغلالها للبيض والشراكة». خشي مانديلا أن تكون جائزة نوبل التي منحت للوثولي «قد خلفت انطباعاً بأن لوثولي قد تم شراؤه من قبل

البيض»، وأن سيرته الذاتية / دعوا شعبي ينطلق/ ، التي ساهم في كتابتها الكاهن الأبيض الأب تشارلز هوبر Charles Hooper، وامتدحها آلان باتون Alan Paton، أيضاً جعلته يبدو (أضحوكة البيض)، وذكر مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي «قد ساعد في ترسيخ الانطباع بأن النفوذ الأبيض متنام بالتعاون مع البيض في المستوى الأعلى، ولكن ليس بين أوساط العامة». جميع هذه الأشياء جعلت المؤتمر الإفريقي العام يبدو الأمل الوحيد للشعب الإفريقي، ويجب التذكير بأن مجرد الادعاء بأنك أضحوكة ديماغوجي كافٍ لأن يجرد المؤتمر الوطني الإفريقي من مصداقيته. وأن طبيعة الاتهام الذي نوجهه للمؤتمر الإفريقي العام يجعل منهم أبطالاً بشكل أو بآخر. إذ لا يضير أي سياسي إفريقي في إفريقية أن يقال «إنه عنصري أو معاد للبيض». [23] لم يكن مانديلا يطالب بالعودة إلى المجد الإفريقي الأسود السابق، وإنما بنوع جديد من المجتمع المتعدد الأعراق لا مثيل له في إفريقية كلها. ولأول مرة كان يواجه القوة الكاملة للقومية الإفريقية والعداء للشيوعية.

حرص مانديلا في بقية جولته على الحديث عن منجزات المؤتمر الإفريقي العام وسياساته بالإضافة إلى منجزات وسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، كي لا يفاجأ الإفريقيون عندما يلتقون بالمؤتمر الإفريقي العام فيما بعد. حتى أن وزير الدفاع التونسي تذمر «إذا كان كل ما تقوله عن سوبوكوي حقيقياً، ماذا تفعل أنت هنا إذا؟». [24] كان مانديلا يلاقي صعوبة دائماً في تبرير الإفريقيين المعتادين على نضال مباشر وسافر ضد الإمبريالية البيضاء. واعتقد أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان بطيئاً جداً في مجابهة الدعاية المعادية للشيوعية التي يشنها المؤتمر الإفريقي العام «لقد كان شبابنا معتدلين بعض الشيء في مهاجمتهم.. إن أمامنا كثيراً من العمل قبل أن نستطيع القول إننا قد سمرناهم. . هناك كثيرون يقولون إنهم نشطاء لكنهم المنظمة الوحيدة في جنوب إفريقية التي تواكب بقية إفريقية». [25]

أكدت بقية جولة مانديلا الإفريقية شكوكه وقلقه. ففي القاهرة تذمر رسميون مصريون من أن صحيفة نيو أيدج الأسبوعية اليسارية التي تصدر في جوهانسبورغ انتقدت الرئيس عبد الناصر لمهاجمته الشيوعيين. أكد لهم مانديلا أن صحيفة النيو أيدج لا تمثل بالضرورة سياسية المؤتمر الوطني الإفريقي ووعد بأن يعالج الموضوع لدى عودته.[26] وتابع طيرانه إلى تونس حيث عرض عليه الرئيس بورقيبة التدريب و5000 جنيه استرليني ثمن أسلحة. ثم انطلق إلى المغرب، مركز حركات التحرير الإفريقية، بما فيها الموزامبيقية والأنغولية، وقبل هذا وذاك الجزائرية.

كانت الحرب الجزائرية مع فرنسة قد انتهت للتو بعد ثمانية أعوام من النزاع المتصعد وموت نصف مليون. كانت الجزائر تحذيراً مرعباً من مصير محتمل لجنوب إفريقية، بجيشها الأحمر في مواجهة مستوطنين بيض أعمق جذوراً وأفضل عتاداً. استقبل مانديلا من قبل الدكتور مصطفاي، رئيس البعثة الجزائرية في المغرب، الذي شرح له بحكمة أن المحاربين الفدائيين يحتاجون إلى قاعدة عسكرية قوية خارج البلاد، ومكاتب في الخارج لتعبئة الدعم الدبلوماسي الدولي.[27]

في وجدة قرب الحدود الجزائرية راقب مانديلا الفدائيين يقومون بعرض احتفالاً بعودة قائدهم أحمد بن بيلا، الذي أطلق من سجنه في الجزيرة وسرعان ما سيصبح أول رئيس للجزائر المستقلة. وشرح ابن بيلا، بخطاب قصير، أن حرية الجزائريين لا معنى لها طالما أن إفريقية ما زالت بين براثن الإمبريالية.[28] دهش مانديلا باحتشاد الجماهير، وكتب في مذاكرته أنها «حماسة محيرة[29]، ومع ابن بيلا راقب جيشاً ولد في أتون المعركة الحقيقية»، أثر فيه أكثر من أي عرض عسكري في إثيوبية. وكتب من السجن بعد أربعة عشر عاماً «شعرت بالثقة وقتها، كما أشعر الآن، بأن وحداتنا، التي تعمل من أرض صديقة، بمجرد أن تطأ أقدامها ترابنا، فإنها ستزداد عدداً وستنمو قوتها الضاربة بسرعة

تضع فيروورد في مواجهة جميع المتاعب التي كانت تعذب شانغ كاي شك Chiang kai-shek، ونغوديم Ngo Diem ودوغول De Gaulle وباتيستا Batista والبريطانيين». [30] وبقي عظيم التأثر بالثوريين الجزائريين وبنصيحة القائد العسكري الجزائري هواري بو مدين (الذي سيحل محل ابن بيلا في عام 1965 عقب الانقلاب)، وقال لنفيل آلكساندر Neville Alexander فيما بعد في السجن، إنه بعد أن تحدث معه تبين عدم جدوى محاولة الإطاحة بنظام الأبارثيد: لا بد للمؤتمر الوطني الإفريقي من إجبارهم على الجلوس إلى طاولة المفاوضات - هذا النقاش كان بالنسبة للتروتسكي آلكساندر «قماشة حمراء أمام ثور». [31]

من المغرب قام مانديلا بزيارات طائرة إلى الدول السوداء الجديدة في إفريقية الغربية. وفي مالي حذره وزير الدفاع ماديرا كيتا Madeira Keita من مغبة «عمل عاجل قد يكون وقعه كارثياً». وأضاع فرصة رؤية الرئيس السينيغالي سيكوتوري Sekou Toure، لكنه لم يجتمع بالسير ميلتون مارغاس Milton Margas رئيس وزراء سيراليون ورئيس ليبريا توبمان Tuabman. وكانت الزيارة الأكثر إحباطاً هي عودته إلى غانة، حيث اجتمع ثانية بتامبو وحاول رؤية الرئيس كوامي نيكروما آملاً أن يتمكن من مجابهة القبضة القوية للمؤتمر الإفريقي العام. وقد لقي وتامبو تشجيعاً من بعض الوزراء، إلا أن وزير الخارجية آكو آجي AkoAjei أسمعهما محاضرة حول كون المؤتمر الوطني الإفريقي منظمة قبلية، وقال إنهما لن يتمكنا من مقابلة الرئيس. أدرك مانديلا أن نيكروما لم يقل له الحقيقة حول المؤتمر الوطني الإفريقي، واضطر إلى الاكتفاء بتسليم مذكرة. حتى أن الغانيين لم يدفعوا حسابه في الفندق. لكنه حظي بوقت للاسترخاء وأمضى عدة أمسيات بصحبة هيلاري فليغ Hilary Flegg التي أدارت صندوق الدفاع في قضية الخيانة في جوهانسبورغ. [32]

من غانة استقل مانديلا الطائرة إلى لندن في زيارة لمدة عشرة أيام. كان

لديه إذن بالسفر من طانجانيكا Tanganyika، لكنه أمضى وقتاً عصيباً مع ضابط الهجرة الذي سأله عن الغرض من زيارته. قال مانديلا إنه يؤلف كتاباً عن تطور الفكر السياسي في إفريقية وأراد زيارة المتاحف والمكتبات. وسرعان ما أدرك أن معلومات الضابط كانت أكثر دقة وأنه على دراية بارتباطه بتامبو (الذي كان يقف في نسق آخر) لكنه في النهاية سمح له بالدخول.

في لندن لم يحاول مانديلا أن يرى أحداً من أعضاء حكومة ماكميلان، وقال فيما بعد: «كنت ثورياً فجاً». [33] كان هدفه الأول هو مزيد من الحديث مع تامبو الذي كتبت زوجه أديلايد لمانديلا تحذره من أن مرض الربو يزداد سوءاً على تامبو بسبب ضغط العمل. وقد منعه من الذهاب إلى الأمم المتحدة في نيويورك. كان تامبو قد عومل بجفاء من قبل وزارة الخارجية في لندن. التي كانت قلقة حيال ارتباطات المؤتمر الوطني الإفريقي بالشيوعية، وكانت الوزارة تولي مزيداً من الاهتمام للمؤتمر الإفريقي العام. [34] وفيما بعد رد المؤتمر الوطني الإفريقي بإرسال روبرت ريشا المتحمس في صوفيا تاون الذي قال سيسولو إنه «يتحدث لغة المؤتمر الإفريقي العام» [35]

استمد تامبو شجاعة كبيرة من حماسة مانديلا والتزامه التام بالنضال. تذكر أديلايد تامبو أنه «مهما كانت الحالة خطيرة فإنه كان دائماً في مستوى المسؤولية، كما لو أنه كان يعرف أن عليه إبقاء الروح المعنوية للشعب عالية». [36]

كما تابع مانديلا اتصالاته البريطانية فقد أقامت ماري بنسون حفلة عشاء لتامبو في شقتها الصغيرة في سانت جون وود St. John's wood. لكنها دهشت عندما رأته يدخل بصحبة مانديلا، مرتدياً بزة نظيفة، وراح يجوب ألواح الأرضية التي تصر لوقع خطواته جيئة وذهابا وهو يتحدث بحماسة حتى الواحدة والنصف صباحاً عن الإحساس بالحرية خلال جولته الإفريقية. فكتبت في دفتر مذكراتها «إنN رائع». [37]

ورتبت له لقاء مع دينيس هيلي Denis Healey السياسي العمالي الذي كان صديقاً لها من أيام الجيش في مصر الذي وجده مانديلا مفيداً جداً. يذكر مانديلا عنه: «حدثني أنه اشتهر في الجامعة بأنه كان ماركسياً، لذلك فهو لا يخاف أن يتحدث معي. فأنا أقبل السياسة».[38]

رتب تامبو لزيارة دافيد أستور، رئيس تحرير الأوبزرفر، الذي كان معه مايكل سكوت Michael scott وكولين ليغوم Colin Legum الخبير في الشؤون الإفريقية لدى الصحيفة. دخل مانديلا الغرفة يتحدث بصوت عال ومشرق: «أتيت لأشكركم لكل ما فعلت صحيفتكم من أجل شعبنا » برغم أنه في الحقيقة كان قلقاً بشأن الأخبار الموالية التي تنشرها الأوبزرفر عن المؤتمر الإفريقي العام.[39] وكتب مانديلا فيما بعد في مذكراته: «كانت المناقشات ودية جداً وكل يدلي بملاحظات ملهمة وتدعو إلى الاعتزاز».[40] صدم أستور بحضور مانديلا الهائل وثقته في تمثيل شعبه، ورتب له لقاء مع قائدي العمال والليبراليين هيو غيت سكيل Hugh Gaitskell وجو غريموند Joe Grimond (الذي كان واضحاً أنه لم يسمع به من قبل) نصحه آستور أن يقيم في واشنطن بدل أن يعود إلى جنوب إفريقية ويعتقل. لكن مانديلا أصر على البقاء قرب شعبه.[41]

وشرح لكولين ليغوم أنه سيوصل حملة المؤتمر الوطني الإفريقي إلى كل جبهة ممكنة، حتى رجال الكنيسة والليبراليين، ولكن الأولوية كانت للكفاح المسلح. ولم يكن يتوق إلى مناقشته مع لوثولي لدى عودته.[42]

أتيح لمانديلا في لندن بعض الوقت للفسحة والاسترخاء: فاصطحبته ماري بنسون إلى مجلس النواب وإلى ويستمينيستر آبي - حيث التقطت له بضع صور - برفقة فريدا ليفسون (التي تولت صندوق الدفاع في قضية الخيانة لبعض الوقت) وزوجها ليون، الذي تناول معه طعام الغداء في تشيلسي.[43] وقام بزيارة مفاجئة لصديقه الأورلاندي القديم تود ماتشيكيزا، مؤلف كينغ كونغ، الذي كان يعيش في المنفى في شقة صغيرة في بريمروزهيل Primrose Hill مع

زوجه إسمه Esme. وكانا يجلسان هناك منتصف الليل عندما وصل تامبو، مصطحباً مانديلا، كان مانديلا بادي الارتياح بينما ظهر تامبو متوتراً. تذكر إسمه «لن أنسى أبداً منظره تلك الليلة. شعرت فعلاً أنه ملهم روحاني، لا يمت إلى عالم المادة بصلة. وبنظره الواسع العظيم لم ير حتى السرير المجعد».

وصف كيف أن شرطة جنوب إفريقية مصممة على الإمساك به. فسألته إسمه: «لماذا تعود إذاً؟ يجب أن تبقى هنا». فأجاب: «القائد يبقى مع شعبه».[44] في وجه جميع الأخطار، كان مصمماً على تحدي العدو في الداخل، بالرغم من احتمال اعتقاله. كان يبدو مستعداً للشهادة.

في لندن بدا مانديلا سيد نفسه، كان بالغ الثقة بسلطته الشخصية، ومصمماً على دفع المؤتمر الوطني الإفريقي نحو موقع إفريقي أكثر. كان اللقاء الأكثر إيلاماً مع يوسف دادو، صديقه الشيوعي القديم الذي صار الآن يعمل في لندن. رآه مع الاقتصادي فيلا بيلاي Vella Pillay الذي أصبح صلة الوصل بين الشيوعيين داخل جنوب إفريقية وخارجها. وكان مانديلا وتامبو قد سمعا تذمراً في طول إفريقية وعرضها من أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يبد إفريقياً عندما مثله في الخارج شيوعيون بيض أو هنود. والآن قال مانديلا لدادو وبيلاي إن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يظهر نفسه كقوة مستقلة، وأن لا يمثل في المؤتمرات الدولية، إلا من قبل إفريقيين. يذكر بيلاي: «كان الوضع صعباً جداً، ومتوتراً جداً، فقد كان مانديلا صلباً، ولم يبد عليه أنه يصغي إلينا. وقد أصبحت خطاباته في إفريقية أقرب إلى لهجة المؤتمر الإفريقي العام، لكن ربما كانت تلك مرحلة ضرورية».[45] احتج دادو بأن مانديلا كان يغير سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن مانديلا أصر على أن التغيير في الصورة فقط. «وأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يظهر إفريقياً حقيقياً. لقد ضاع بين منظمات ضبابية تمثل الجميع».[46]

عاد مانديلا إلى إثيوبية في حزيران (يونيو) في مهمة أكثر تنظيماً وهي

البدء بدورة تدريب عسكري مدتها ستة أشهر لتحضيره ليكون قائداً لسهم الأمة /إم. كي/.

وعلى تل خارج أديس أبابا أمسك لأول مرة في حياته ببندقية أوتوماتيكية ومسدس. وفي 29 حزيران (يونيو) سجل في مذكراته: «الدرس الأول في التدمير / القنابل المدمرة». (47) أطلق مدفعية الهاون، وصنع قنابل، وذهب في مسيرات متعبة عبر غابات، وتعلم قتال العصابات مستمتعاً بالتحدي الجسمي والانضباط العسكري. وباسترجاع ذكرى تلك الأيام تبدو محاولة التحول المفاجئ إلى قائد حرب عصابات (رومانتيكية) ولا علاقة لها بالواقع في مواجهة جيش جنوب إفريقية الحديث الجيد التنظيم. ولكنه كان منسجماً مع الجو الثوري المندفع الذي ساد إفريقية أوائل عقد الستين.

في جنوب إفريقية أصبحت الحكومة أكثر تصميماً على قمع المعارضة السوداء، وتتبع مانديلا. تذمرت ويني من أن الشرطة، فتشت أو زارت بيتها، كل يوم تقريباً خلال الأسابيع الثلاثة من شهر حزيران (يونيو)، تسأل أين مانديلا. (48) وفي تموز (يوليو) أقر البرلمان مشروع قانون التخريب، الذي سمح للمحاكم بإنزال عقوبة الإعدام بالمخربين لأعمال تخريب صغيرة. كانت الشرطة تزداد كفاءة، ولم تعد تضيع وقتاً طويلاً في غارات المشروب أو الأذونات. وقد قال لي سيسولو أوائل تموز (يوليو) «إن الناس يواجهون ترسانة عسكرية محكمة. ويجب أن يحضروا أنفسهم للدفاع عن النفس. والحديث عن اللاعنف لم يعد يليق بهذا الزمن» كان المؤتمر الإفريقي العام يعد بثورة مبكرة، مع حملة رئيسة في العام التالي، وقال لي نائب رئيسهم زيف موثوبينغ Zeph Mothopeng في سويتو: «لقد قلنا للناس أن يتوقعوا التحرك عام 1960، ووفينا بوعدنا، والآن نقول أن يتوقعوه في 1963». (49) كانت القيادة العليا لـ إم. كي تتحرق شوقاً أيضاً إلى عمل أكثر جرأة، ومن مخبئهم في ريفونيه كانوا يدفعون خططاً أكثر طموحاً. كانوا بحاجة ماسة إلى عودة مانديلا إلى جنوب إفريقية،

ومنتصف تموز (يوليو) تسلم برقية تطلب منه العودة فوراً لتولي القيادة.

غادر مانديلا إثيوبية يحمل هدية هي مسدس حديث ومائتي طلقة، وعاد بالطائرة عن طريق الخرطوم ودار السلام، وقد امتلأ حماسة إذ وجد عشرين مجنداً في سهم الأمة إم. كي على الطريق من جنوب إفريقية إلى إثيوبية. للتدريب.[50] وعندما وصل إلى بيتشوانا لاند حذره القاضي البريطاني من أن الشرطة الجنوب إفريقية تعرف بعودته الوشيكة. وكان كاثرادا وسيسولو هناك قبل أسبوعين لاتخاذ الترتيبات، واستقبله سيسيل ويليامز Cecil Williams، وهو شيوعي أبيض مدير مسرح أتى بسيارته الأوستين ديستمينيستر الجديدة من جوهانسبورغ ليصطحبه.[51] وانطلقا ليلاً عبر الحدود المفتوحة، ومانديلا مازال في لباسه (الكاكي) الذي كان يلبسه في أثناء التدريب في إثيوبية. ووصلا مزرعة ليليسليف في ريفونيه فجر 24 تموز (يوليو)، حيث أقام مانديلا في البيت المسقوف بالقش.

في اليوم التالي أتت ويني والأولاد لرؤيته في اجتماع أسروي وجيز. وغادرت تتنازعها هواجس الشر، في ذلك المساء وصلت معظم اللجنة العاملة في المؤتمر الوطني الإفريقي إلى ليليسليف، وبينهم سيسولو وكوتان ومبيكي وماركس ونوكوي ودان ثلوم، وهو ناشط آخر في المؤتمر الوطني الإفريقي، لمناقشة حاسمة حول (الاستراتيجية). وتحدث مانديلا عن الدعم المالي والعسكري الذي قدمه له القادة الإفريقيون، ووصف مخاوفهم حيال ارتباطات المؤتمر الوطني الإفريقي بالهنود والبيض. ونادى بإعادة تنظيم تحالف الكونغرس بشكل يعطي المؤتمر الوطني الإفريقي قيادة أوضح، كما اتفق هو وتامبو في لندن. وافق سيسولو على أن (تكتيكهم) يجب أن يعدل، لكنه حذر: «يجب ألا ننسى حساسية الجماعات الأقلية الأخرى». فأجاب نوكوي متحمساً: «نحن أسرى خطايانا. لقد سمحنا لأنفسنا بالانجراف. أعتقد أن التعاون قد مضى شوطاً أطول من اللازم». قال مانديلا: «إن ما ينقصنا هو

المبادرة. يجب أن نغير مواقفنا ونجهد أنفسنا. يجب أن يفهم أصدقاؤنا أن المؤتمر الوطني الإفريقي هو ربان النضال». [52]

أراد مانديلا الذهاب فوراً إلى ناتال ليحدث لوثولي بالمشكلة، خاصة وأن المؤتمر الإفريقي العام كان ينشر شائعات بأن مانديلا قد أصبح من أنصار إفريقية، وأنه انضم إلى المؤتمر الإفريقي العام. اقترح كاثرادا ومبيكي وسواهما تأجيل الزيارة إلى أن يتأكدوا أن الدرب آمن، لكن الاقتراح رفض. [53] وهكذا في الليلة التالية غادر مانديلا ليليسليف إلى دوربان مع سيسيل ويليامز، متنكراً بزي سائق ويليامز وكانا ـ باستهتار ـ يستخدمان السيارة الجديدة الرائعة نفسها التي لاقاه ويليامز بها في بيتشوانا لاند، وكان مانديلا يحمل مسدسه.

في دوربان رأى إسماعيل وفاطمة مير، والتقى مونتي نيكر من الكونغرس الهندي. وحاول إقناعهم بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتحرك إلى المقدمة، وذكر لفاطمة كيف أن أحد القادة الإفريقيين، عندما سمع أن ميثاق الحرية كتبه أناس بيض، مزقه من على الجدار. [54] لكن الهنود لم يقتنعوا. بعد ذلك قاد السيارة إلى غروتفيل ليطرح القضية أمام لوثولي. اعترض رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي على إضعاف الجبهة غير العرقية للمنظمة بناء على طلب قادة أجانب. قال مانديلا إن الوضع خطير. وإن عليهم أن يتأكدوا من أن الدول السوداء لم تحول دعمها للمؤتمر الإفريقي العام. لكن لوثولي أراد أن يناقش الأمر باستفاضة أكثر مع الأصدقاء. [55]

عند ذلك رتب مانديلا لمقابلة مخربي سهم الأمة (إم. كي) من القيادة الإقليمية في منزل آمن في دوربان. بدا مؤثراً في أسلوبه العسكري الجديد، بلحية وقميص وبنطال (كاكيين)، وحياهم بالطريقة العربية «سلام» اعتقد روني كاسريلز، وهو أحد المخربين بأنه قائد بكل معنى الكلمة لكنه متوتر جداً ومتجهّم: لم يبتسم أبداً. [56] بينما تأثر بيلي نير، وهو من المجموعة أيضاً كثيراً بسلطة مانديلا على المسائل العسكرية: «كان مبهجاً ذا خبرة رائعة». [57] وحتى

برونو متولو، الذي سيخون مانديلا فيما بعد كشاهد رسمي، تأثر: «لم يكن بحاجة إلى التباهي ليثبت أنه قائد. كان ذلك واضحاً للجميع. كان صادقاً في كل ما يجب عمله، وطلب أن ينفذ بطريقة بسيطة».[58] في وقت متأخر من المساء انضم مانديلا، بلا تبصر، إلى جماعة كبيرة في بيت جي. آر. نايدو G. R. Naidoo المصور الصحفي المضياف من صحيفة درام، وكان في الجمع كثير من الضيوف غير المألوفين. لم يبد الاكتراث على مانديلا، الذي كان يرتدي (الكاكي)، لكن أصدقاءه شعروا بالقلق. كان يبدو كأنه يطلب أن يعتقل.

بعد ظهر اليوم التالي، الأحد 5 آب (أغسطس) انطلق مانديلا برداء السائق الأبيض عائداً إلى جوهانسبورغ مع سيسيل ويليامز، وكانا يناقشان التخريب على الطريق. وبمجرد عبورهم هوويك Howick وراء بيتر ماريتزبورغ Pieter maritzburg، أدركتهما سيارة شرطة، مع سيارتين أخريين خلفها، وأشارت إليهما بالتوقف. سارع مانديلا إلى إخفاء مسدسه ودفتر ملاحظاته بين المقعدين الأماميين. واستجوبه سيرجنت في الشرطة كان يعرف تماماً محدثه. فكر مانديلا لحظة بالقفز وراء السد ومحاولة الهرب، ولكنه لم يكن يعرف المنطقة. اقتادته الشرطة هو وويليامز إلى بيتر ماريتزبورغ وسجناهما كل في زنزانه منفصلة.[59] عرف مانديلا أن هذا آخر عهده بالعمل السري، بعد سبعة عشر شهراً فقط من خطابه الأوجي في البلدة نفسها (بعد ثلاثين سنة عاد، كرئيس، ليتلقى / حرية هوويك/ ، وقال إن زيارة الموضع الذي اعتقل فيه جعلته يشعر بالشوق للحصول على / الحرية/).[60]

من الذي أدلى بالمعلومات للشرطة؟ السؤال ما زال مطروحاً. فالشرطة، بعد تعتيم يومين على خبر القبض على مانديلا نشرت معلومات مضللة عن الضربة الموفقة. وفي 8 آب (أغسطس) وصفت الراند ديلي ميل كيف أطبقت دورية على منزل كان مانديلا يختبئ فيه. وبعد أربعة أيام كتبت الجوهانسبورغ صنداي تايمز: «وقع مانديلا ضحية الخيانة. وأصابع الاتهام تشير إلى الحمر».

ونشرت الصحيفة «رواية مشوقة تزخر بالتآمر والخيانة». [61] استشم جو سلوفو «رائحة يهوذا بين صفوفنا لم نتمكن من تحديد هويته»، لكن كان هناك أيضاً متهمون أجانب. [62]

وبعد أربع وعشرين سنة نشرت النيويورك تايمز خبراً مفاده أن عميلاً متقاعداً تفاخر بأن السي آي إيه زودت مخابرات جنوب إفريقية بالتفاصيل الكاملة لتحركات مانديلا. [63] وهذا قابل للتصديق: فالأمريكيون بحاجة إلى تعاون بريتورية العسكري، كما هم بحاجة إلى اليورانيوم الموجود في جنوب إفريقية، ويمكنهم أن يقدموا معلومات موثوقة بالمقابل. لكن الادعاء لا يمكن إثباته. ربما أن الجنوب إفريقيين تتبعوا مانديلا من خلال موظفين أفارقة في شرطة بيتشوانا لاند. وربما رأوا سيارة سيسيل ويليامز الرائعة عندما التقطته في بيتشوانا لاند، وعندما ذهبت إلى ريفونيه ودوربان. [64] بغض النظر عمن أدلى بالمعلومات فإن مانديلا لم يتوخ الحذر في دوربان، وقد ترك وراءه آثاراً كثيرة تدل عليه. ولم يظهر مانديلا أي اهتمام بمعرفة المجرم فيما بعد: «لم أر أي دليل موثوق يشير إلى الحقيقة». [65]

بعد فترة بسيطة من الإنكار واجه مانديلا ورطته ببسالة . فقد اقتيد إلى جوهانسبورغ واحتجز في مخفر للشرطة. كان سيسولو في زنزانة أخرى، وحدثه عن اعتقاله. في اليوم التالي مثل أمام محكمة القضاة، حيث شجعه أن يلاحظ الاستياء البادي على القاضي والمحامين. قال وولف كوديش، الذي كان حاضراً يراقب: «حدّق مانديلا في القاضي الذي كان مثبتاً مثل نمس ينظر إلى ثعبان. ولم يتمكن القاضي من استعادة قوته قبل مرور دقيقتين». [66]

كانت لحظة حقيقية بالنسبة لمانديلا، الذي شعر أنه يكتسب قوة معنوية جديدة «كنت رمز العدالة في محكمة الطاغية، ممثل المثل العليا في الحرية والقانون والديمقراطية في مجتمع يهين تلك القيم». [67] ولاستغلال سلطته لأقصى حد ممكن قرر الدفاع عن نفسه، معتمداً على جو سلوفو كمستشار

قانوني. وقد اتهم رسمياً بالتحريض على الإضراب وبمغادرة البلاد بلا جواز سفر، وأراحه أنه لم يتهم بالتخريب. وأجلت جلسة الاستماع إلى تشرين الأول (أوكتوبر) بانتظار المحاكمة في الحصن /Fort/ ، حافظ مانديلا على تفاؤل باد وطلب من رجل الدين آرثر بلاكسال Arthur Blaxall، الذي زاره ثلاث مرات، أن يحضر له بعض كتب القواعد الأفريقانية، وكان يبدي تقديراً لبلاكسال إذ يختتم زياراته بصلاة.[68]

وعندما سمع أن صديقته الإنكليزية القديمة هيلين جوزيف قد وضعت تحت الإقامة الجبرية في منزلها ـ وهي الشخص الأول الذي واجه هذه المحنة المربكة ـ كتب إليها يشجب «النظام القاسي الجبان»، لكنه كان واثقاً بأن شجاعتها لن تخونها، بما أن «جميع الدلائل تشير حتماً إلى قرب هزيمة جميع الأنظمة التي تعتمد على القوة والعنف».[69]

بانتظار المحاكمة سمح لمانديلا بكتابة رسائل وقراءة كتب، وكان قد بدأ برنامجاً تعليمياً سيتابعه ويوقفه على مدى العقود الثلاثة التالية. وبمساعدة كتب زوده بها دافيد آستور بدأ يدرس بالمراسلة للحصول على شهادة / بكالوريوس في الحقوق/ LLB من جامعة لندن، التي ستمكنه من ممارسة المهنة كمحام في المحاكم العليا. كما تمكن آستور من إرسال كتب سياسية إليه بواسطة السفير البريطاني سير جون مود، وأكد لمفوض السجون فيكتور فيرستر Victor Verster أن الكتب ليست مؤيدة للشيوعية: «وستملأ عقل مانديلا ببديل غربي». وكان بين الكتب الستة الأولى تاريخ إفريقية الوجيز a short Histiry of Africa تأليف رولاند أوليفر Roland Oliver وجي. دي. فيدج J. D. Fage، وكتاب تاريخ أوروبا History of Europe، وكتاب التركيب البنيوي لبريطانية anatomy of Britain تأليف أنطوني سامبسون Antaony Sampson. كتب مانديلا كتابة ودودة جداً للسير جون مود (GCB.CBE) وكان ذلك أول اتصال له مع دبلوماسي بريطاني، شاكراً الصديق المجهول للهدية القيمة.[70]

وفيما بعد كتب اللورد دانروسيل Dunrossil زميل مود، الذي كان دائماً محترساً من المؤتمر الوطني الإفريقي، إلى وزارة الخارجية البريطانية قائلاً: «في المدى البعيد ربما نحصل على بعض النية الطيبة من مانديلا لأننا ساعدناه».[71]

لم يكن اعتقال مانديلا مفاجأة للمؤتمر الوطني الإفريقي حتى انه هو نفسه كان يتوقع ذلك منذ عودته من الخارج. لكن السرعة التي تم بها الاعتقال كان لها فعل الصدمة. وقد كتبت ويني لصديقتها أديلايد تامبو في لندن في أيلول (سبتمبر): «كانت هذه ضربة قاصمة توقيتها خاطئ. كنا نعرف أن هذه الضربة قادمة ولكنها أتت مبكرة قليلاً».

وقد استمدت ويني الشجاعة من الدعم الذي لقيه مانديلا في لندن «كل يوم نبحث بشوق في صحفنا لنرى ما الذي ستفعله بعد ذلك». وأدركت أن نيلسون سيمضي بعض السنوات في السجن، وقد حثها برام فيشر وآخرون على مغادرة البلاد للدراسة في الخارج، الأمر الذي كانت تقاومه.[72] كان القلق يساور بعض أصدقاء ويني حيال بعض صداقاتها غير الحميدة، وأرادوا إبعادها عن الطريق.[73]

وفي الوقت الذي كان مانديلا في /الحصن/ وزع المؤتمر الوطني الإفريقي الذي يعمل في الخفاء منشورات تقول: «مانديلا في السجن، والشعب مربط بالسلاسل». وتنادي باجتماع جماهيري قبل أن يقدم للمحاكمة. أظهرت المنشوارت مانديلا بصورته الجديدة كخارج على القانون لا يعرف المساومة، والمحارب المتفرد الذي يرمز إلى وحدة الشعب: «نيلسون روليهلاهلا مانديلا هو القائد المقاتل السري للنضال من أجل الحرية. إنه يشق طريق الحرية بالتضحية والإقدام والشجاعة. أساليب النضال السياسي الجديدة».[74] وحيته صحيفة إفريكان كوميونيست / الشيوعي الإفريقي/ في تشرين الأول (أكتوبر) 1962 قائلة:

ظهر في جنوب إفريقية قائد من نوع جديد القائد الذي رفض الاستسلام بخنوع لإرهاب فيرورد، أو الخضوع للاعتقال أو الهرب من البلاد، واختار حياة الخارج على القانون، عاش النضال. وطورد وعمل في الخفاء وبرغم ذلك بقي مع شعبه. إن بروز مانديلا في موقع الصدارة في جنوب إفريقية كان عن طريق الكفاح الموحد للشعب ووحدة جميع الإفريقيين، ووحدة جميع الجماعات الوطنية، ووحدة الشيوعيين وغير الشيوعيين في القتال من أجل الحرية. لقد عاش حياته في ذلك الجو[75]

ابتكر جو سلوفو وزملاء آخرون خطتين مختلفين لإخراج مانديلا من / الحصن/ : الأولى تقضي بالهرب من قاعة المحكمة بمفتاح منسوخ، متنكراً بشعر مستعار ولحية كاذبة، الخطة الثانية قضت رشوة الكولونيل المسؤول في السجن، الذي عرض السماح له بالهروب مقابل 6.000 جنيه. ولكن عندما حان وقت مثول مانديلا أمام المحكمة نقلت المحاكمة إلى بريتورية، مما أبطل الخطتين.[76]

وفي سجن بريتورية التقى مانديلا ثانية وبشكل خاطف بسيسولو الذي حكم عليه بست سنوات في السجن لتحريضه على إضراب. وبدعم من مانديلا طلب الإفراج عنه بكفالة فيما هو ينتظر الاستئناف، ثم زاد الكفالة فجأة زيادة كبيرة كي يتابع التخطيط للتخريب. أما مانديلا نفسه فلم يطلب الكفالة: كانت سياسته أن يجسد التحدي.

كان الآن يلعب دوراً أكثر توهجاً، جاعلاً من محكمة القضاء الأعلى مسرحاً له. وأتى إلى افتتاح محاكمته يوم 22 تشرين الاول (أكتوبر) 1962 يرتدي (كاروس كزوسي) من جلد النمر، «أحمل على ظهري تاريخ وثقافة وتراث شعبي». بدأ بقمة التحدي قائلاً إنه سيقوم بالدفاع عن نفسه، وطلب إزاحة القاضي بسبب استحالة المحاكمة العادلة: كان يواجه قاضياً أبيض محاطاً بمدع عام أبيض، وأتباع من البيض بيض.[77] لم يحاول مناقشة الدليل الذي قدمه

حوالي مئة من الشهود الذين شهدوا على تحريضه وعلى مغادرته البلاد بلا جواز سفر.

وقد لاحظ اللورد دانروسيل الذي كان يشهد المحاكمة لصالح السفارة البريطانية، أن مانديلا كان «خارج ممارسة مهنة المحاماة بشكل لا لبس فيه». وأحياناً كان يحتاج مساعدة المدعي العام في استجوابه.[78] ولكن عندما شهد سكرتير فيروورد السيد بارنارد Mr. Barnard عن رسالة مانديلا إلى رئيس الوزراء قبل ثمانية عشر شهراً يطالب فيها بميثاق وطني، استجوبه مانديلا بحماسة، قائلاً: «إن من غير اللائق ألا يجيب فيروورد عن رسالة تطرح مواضيع بتلك الأهمية». قال بارنارد: «إن رسالة مانديلا كانت عدائية وفظة، ولم تكن صياغتها تطلب تعاون فيروورد الودي». أنكر مانديلا ذلك، ولكن بعد أربعة عشر عاماً في السجن كتب: «ربما كان في ادعائه بعض الحق».

وعندما انتهى مانديلا من نقاشه، اقترب منه المدعي العام السيد بوش وقال له على انفراد «لأول مرة في حياتي العملية أكره ما أنا فاعل. ويؤلمني أن علي أن أطلب من المحكمة إيداعك السجن».

شد مانديلا على يده، وأكد له أنه سيتذكر كلماته دائماً. ولكنه كان يخفي مفاجأة! فقد قال للقاضي إنه سيطلب العدد نفسه من الشهود الذي يطلبه الادعاء، لكنه في الحقيقة لم يحضر أي شاهد لمعرفته بأنه مذنب في القضية المنسوبة إليه. وبدل الشهود حضر طلباً فصيحاً لتخفيف الحكم. كان في الحقيقة خطاباً سياسياً دام ساعة كاملة.

ذلك الصباح كانت قاعة المحكمة مطوقة بالشرطة، ومحشوة بالإفريقيين وبينهم ويني ترتدي ثوباً قبلياً على طراز بوندو Pondo. دخل مانديلا القاعة رافعاً قبضته. وهو يصيح /أماندلا!/ فقوبلت صيحته برد عالٍ /نغاويثو!/ كان خطابه تبريراً شخصياً لتحديه القانون، مبتدئاً بتطوره السياسي الخاص. بدأ بوصف الحياة البيتية الهادئة في مجتمع القبيلة التي سمع عنها كثيراً عندما كان

طفلاً، حياة «ليس فيها طبقات، ولا غني ولا فقير ولا استغلال للإنسان من قبل الإنسان». «وخلص إلى أن ذلك المجتمع كان فيه كثير من البدائية وعدم الأمان». لكنه قال عنه: «كان يضم بذور الديمقراطية الثورية التي لا تسمح باستبعاد أحد أو استغلاله». كانت النسخة الأولى من الخطاب تتضمن: «أنا ورفاقي نقاتل من أجل مجتمع كهذا في بلادنا». إلا أنه عدلها إلى عبارة أكثر حذراً «هذا هو التاريخ الذي ما زال حتى اليوم يلهمني ورفاقي في نضالنا السياسي». ثم ناقش النزاع بين الضمير والقانون، مستشهداً بالفيلسوف البريطاني برتراند راسل Bertrand Russel الذي حكم عليه بالسجن لاحتجاجه ضد الأسلحة النووية، وأعاد إلى الأذهان كيف كانت التظاهرات السلمية في جنوب إفريقية تقابل بالعنف من جانب الحكومة. وختم حديثه بلهجة لا تنازل فيها «الأجيال القادمة ستقول إني كنت بريئاً وإن المجرمين الذين يجب أن يقفوا أمام هذه المحكمة هم أعضاء الحكومة».[79]

كان بياناً سياسياً متحدياً، ومنذ ذلك الحين يستشهد به المؤرخون، لكنه في ذلك الوقت خضع لرقابة الصحف في جنوب إفريقية. وقد حذر وزير العدل جون فورستر John Vorster أن الخطابات من قبل أشخاص ممنوعين أمام المحكمة يجب ألا تسمح لهم «بخلق منبر». وبالتالي فقد حذفت الجوهانسبورغ ستار عبارات مانديلا الأكثر جرأة.

يوم 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1962 أدلى القاضي بحكمه: السجن ثلاث سنوات للتحريض، إضافة إلى سنتين لمغادرة البلاد بلا جواز سفر. ونوه مانديلا بأن ما مجموعه خمس سنوات كان أقسى عقوبة فرضت حتى تاريخه في جنوب إفريقية، من أجل مخالفة سياسية. لكنها لم تكن غير مسبوقة في إفريقية. فقبل ثمانية أعوام حكم على القائد الكيني جومو كينياتا Jomo Kenyatta بالسجن سبعة أعوام (من قبل قاضٍ تلقى رشوة من الحاكم السير إيفلين بارينغ Sir Evelyn Baring) وهو الآن على وشك أن يصبح رئيساً لوزراء كينيا

المستقلة.[80] وجد مانديلا بعض العزاء من ملاحظة أن الحكم صدر بحقه في ذكرى ولادة أول دولة اشتراكية في روسيا، دعمت حركات التحرر في كافة أرجاء العالم، وأن محاكمته تزامنت مع الأزمة حول كوبا، عندما واجه كاسترو كينيدي بالصواريخ السوفياتية. وقبل هذا وذاك شجعه أن الجمعية العمومية للأمم المتحدة صوتت، قبل إصدار الحكم عليه مباشرة، على فرض العقوبات على جنوب إفريقية لأول مرة.[81]

إلا أن الحكومات الغربية بقيت غامضة تماماً في مواقفها تجاه مانديلا والمعارضة السوداء، وتقدم السجلات المحفوظة في لندن وواشنطن حالة تستحق الدرس لمحدودية الدبلوماسيين في مواجهة حكومة أجنبية خطيرة لكنها قيمة. وبعد أن تركت جنوب إفريقية الكومنويلث، والبريطانيون يخشون دعم الجواد الخاسر ـ الأبيض أكثر منه الأسود ـ وفي حزيران (يونيو) 1962 عندما كان مانديلا مطارداً زار السفير السير جون مود لندن لإجراء محادثات مع مسؤولي وزارة الخارجية. وكان هو يعتبر فيروورد /كريهاً بود/ ، لكنه كان يعتقد أن فيروورد كان يرى بريطانية الصديق الثابت الوحيد لجنوب إفريقية، وكان من أنصار /اللعب على حبلين/ باتخاذ موقف «مؤيد وودي» تجاه بريتورية لحماية المصالح البريطانية، في الوقت الذي يدرك أن استمرار قوة الحكومة الوطنية لم يكن في مصلحة بريطانية. ولم يكن لسياسة التغطية التي يطبقها مود (بإجراء اتصالات سرية مع السياسيين السود) كبير أثر. فقد لاحظ المسؤولون في لندن أن أياً من غير البيض لم يدع إلى الحفلة التي أقامتها السفارة بمناسبة عيد ميلاد الملكة، في العام السابق. وفسر مود الأمر، تفسيراً غير قابل للتصديق، قائلاً: «لم يكن هناك كثير من غير الأوروبيين المناسبين في منطقة كيب تاون». ووعد بأن يكون لحفلة العام التالي «نكهة أكثر تعددية عرقية»، وقام ببداية مترددة باستقباله مجموعة مختلطة من الفتيات المرشدات ـ الكشافة ـ.[82]

وكانت حكومة جنوب إفريقية تراقب عن كثب. وعندما أقام مود فعلاً

حفلاً متعدد الأعراق في حزيران (يونيو) 1963 تلقى توبيخاً شديداً لمدة نصف ساعة من قبل الدكتور فيروورد في مقابلته الوداعية.[83]

ادعى مود بأن الدبلوماسيين الامريكيين أكثر حذراً من البريطانيين في مجال تطوير اتصالاتهم بالسود، ولكن الحقيقة هي أنهم كانوا أكثر مخاطرة لبعض الوقت، كما كانوا في أجزاء أخرى من العالم.[84]

في كانون الثاني (يناير) 1959 قال السكرتير الأول الأمريكي في كيب تاون للبريطانيين إنه يستقبل كثيراً من السود في منزله، وإن مكتب المعلومات الأمريكي في جوهانسبورغ فيه غرفة مطالعة فريدة متعددة الأعراق (ولم يذكر ارتباطها، عبر آلة تصوير المستندات بال PAC)، كانت الإدارة الأمريكية أيام كينيدي أكثر قلقاً حيال أخطار الأبارثيد، وكانت تفكر جدياً بفرض عقوبات، مما أثار فزع البريطانيين. وكانت وزارة الخارجية الأمريكية تحث على مزيد من الاتصالات بالإفريقيين في حال كانت الثورة السوداء قادمة.[85] وبحلول عام 1963 كانت سفارة الولايات المتحدة تعلن بصخب عن حفلة متعددة الأعراق بمناسبة عيد الاستقلال يوم 4 تموز (يوليو). قالت السفارة البريطانية في واشنطن إن ذلك كان بهدف إرضاء مشاكلهم العرقية المحلية الخاصة.[86]

كان السفير الأمريكي جوزيف ساترثويت Joseph satherthwaite ـ الذي كان مسؤولاً سابقاً عن السياسة الإفريقية في واشنطن ـ يتابع من كثب علاقة مانديلا بالشيوعيين. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1962 حدث وزارة الخارجية الأمريكية عن زيارة مانديلا لدوربان قبل اعتقاله مباشرة. عندما ابتعد بالمؤتمر الوطني الإفريقي عن حلفائه البيض والهنود. قال ساتر ثويت، دون أن يقدم أي دليل على ادعائه: «إن جميع الأعضاء العاديين في المؤتمر الوطني الإفريقي لم يعرفوا أن هذا (التكتيك) الجديد قد أملته منظمة الشعب الملون في جنوب

إفريقية (SACP) واعتقدوا أن مانديلا يبتعد عن هيمنة الشيوعيين البيض على ائتلاف الكونغرس». [87] والحقيقة هي أن سفارته لم يكن لديها ارتباط مباشر مع مانديلا.

كان البريطانيون دائماً أكثر حرصاً على عدم إزعاج بريتورية، لكن في تشرين الثاني (نوفمبر) 1962، بعد الحكم على مانديلا، قاموا بمخاطرة محسوبة. كما أبلغت السفارة لندن بالسماح لدبلوماسي مستثمر صغير هو ماركوس أدواردز Marcus Edwards (هو قاض الآن) بالاجتماع بالسياسيين السود الشباب. وذلك لتناول الشراب مع بعض صحفيي المؤتمر الإفريقي العام، وبينهم دافيد سيبكو David sibeko، وهو قائد مستقبلي سيقتل، فأكدوا له أنهم ليسوا «عصبة من المؤخرات السوداء» وقالوا إن المؤتمر الإفريقي العام سيقفز قريباً إلى العمل. بعد أسبوع تحدث إدواردز عن لقائه مزيداً من أعضاء المؤتمر الإفريقي العام، الذين كانوا مشاكسين، يضحكون ويصيحون، لكنهم أظهروا «جديتهم وتطرفهم». وقال إنهم جميعاً بحاجة إلى « رجل واحد، صوت واحد، وحزب واحد». [88]

وقد قام دبلوماسي بريطاني آخر، مغفل الاسم باتصالات سرية مع المؤتمر الوطني الإفريقي بواسطة جو ماتثيوز في باسوتو لاند. أوضح ماثيوز أن التزام مانديلا بالعنف قد رفع مكانته خارج جنوب إفريقية و(أشار إلى شعار مانديلا في عروته) قائلاً: «إن اعتقال مانديلا زود المؤتمر الوطني الإفريقي بشهيد». وقال: «إنه هو ورفاقه في المؤتمر الوطني الإفريقي لم يشعروا بالتعاطف مع /الإفريقية الشاملة/ واحتقروا الوزراء ذوي التعليم السيِّئ والأصوات الحادة في جنوب إفريقية». أما الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي فقد قال ماثيوز (برغم أنه من الأعضاء البارزين): «إنه فشل في أن يصبح حركة جماهيرية لأن السود اعتبروه جسماً غريباً، ولم يستطيعوا تقبله عاطفياً». خلص

الدبلوماسي إلى أنه يصعب تصديق أن ماثيوز كان «رجل موسكو الثابت على المبدأ».[89]

استساغت وزارة الخارجية في لندن هذه المقبلات من الأخبار السارة فطلبت بإصرار المزيد من المعلومات حول المعارضة السوداء.[90] لكن السفارة رفضت القيام بمزيد من / المخاطرات المحسوبة/ التي شعرت أنها ستشجع / السود الطائشين/ على التفاخر بارتباطهم بالبريطانيين. وقد كتبت الدبلوماسية هيلاري يونغ Hilary Young: «من المتوقع أن تعترض حكومة جنوب إفريقية بعنف، إذا وجدت أن أعضاء من طاقم العاملين لدى السفير يجرون اتصالات بمنظمات محظورة مثل المؤتمر الإفريقي العام والمؤتمر الوطني الإفريقي خاصة وأن الهدف المعلن لتلك المنظمات هو الإطاحة بالحكومة الحالية». وخلصت يونغ إلى أن «هناك نزاعاً أساسياً بين هدفنا في المدى القصير بالحفاظ على علاقات ود وصداقة مع الحكومة الحالية وهدفنا في المدى البعيد تطوير علاقات صداقة مع هؤلاء الناس الذين قد يخلفونهم».[91] والواقع أن المدى البعيد أهمل، ولم تقم الحكومة البريطانية بأي اتصال مع القادة السود الكبار قبل أن يودعوا السجن. وقد قال لي مانديلا بعد أن أصبح رئيساً: «لا أذكر أني ذهبت إلى السفارة البريطانية أو الأمريكية. ولا أذكر أنهم كانوا يعرفون بوجودي».[92]

انتهت مهنة مانديلا الوجيزة كقائد حرب عصابات ورجل دولة إفريقي بالسرعة التي بدأت بها، دون أن يتلقى أية تعزيزات عسكرية واضحة أو أي دعم دبلوماسي من الغرب. وسينتقد فيما بعد لعدم براعته، وتصرفاته المسرحية، وعجزه عن تنظيم قوة عسكرية جدية. وسيقبل بعضاً من هذا النقد. لكن الطريقة الوحيدة لتقديم تهديد خطير لجنوب إفريقية البيضاء كان ممكناً من خلال حملة إرهاب مدنية، كما في الجزائر، تتسبب في غارات مرعبة وخسارة في الأرواح،

الأمر الذي لم يكن هو ولا سهم الأمة (إم. كي) ليقبلا التفكير فيه. ولم يتصور أبداً أن الكفاح المسلح بحد ذاته، دون عقوبات أو ضغوط أخرى، قد أجبر جنوب إفريقية البيضاء على تغيير سياساتها، لكن تقديمه نفسه بلبوس القائد العسكري ثم المضحى به كان بحد ذاته رسالة سياسية واضحة، رسخته كالقائد المبذول الذي تحدى النظام، ولوحق وعمل في الخفاء ولكن بين ظهراني شعبه».

14

الجريمة والعقاب

1963 ـ 1964

توراى مانديلا عن عيون العامة في السجن مخلفاً صوراً حية وراءه: كزبرة الثعلب السوداء التي ضللت الشرطة، والقائد العسكري الذي ناصر نضال الشعب، والقائد القبلي بلباسه الكامل ينادي بهويته الإفريقية. لم يكن بحاجة إلى التلفزيون ـ الذي لم تسمح الحكومة بدخوله إلى جنوب إفريقية قبل عام 1976 ـ ليستحوذ على خيال الشعب. ومن السجن يستطيع أن يصبح كما وصف نهرو غاندي: «تعبيراً رمزياً عن رغبات الشعب المختلطة»،[1] فقد اعتمدت قيادته على النمط الشخصي أكثر مما اعتمدت على التنظيم. لم يكن له مركز رسمي في المؤتمر الوطني الإفريقي، فقد كان الكفاح المسلح الذي ترأسه في مرحلة الطفولة، عندما أصبح هو معزولاً عن الجميع. لكنه توقع أن يعود إلى الظهور بعد خمس سنوات على الأكثر. ولم تكن لديه أية فكرة بأنه سيبقى في السجن ما يربو على ربع قرن.

بدأ مانديلا تنفيذ الحكم الذي صدر بحقه في سجن بريتورية، الذي كان يعرفه جيداً، لكن أوضاعه صارت أقسى الآن، لم يعد يسمح له بقراءة الكتب، ولم يسمح له إلا بعدد قليل جداً من الزوار. وثارت كرامته إذ أجبر على ارتداء بنطال قصير، وعندما احتج كان الخيار البديل الذي منحه هو السجن الانفرادي. الذي عانى منه بضعة أسابيع مزقته خلالها الصراعات النفسية بسبب وحدة الاتهامات المضادة، إلى أن قرر أنه يفضل الرفقة على البنطال، وسمح له بالانضمام إلى السجناء السياسيين أثناء النهار.[2]

وكان بينهم منافسه القديم في المؤتمر الإفريقي العام روبرت سوبوكوي، الذي أودع السجن منذ شاربفيل، والذي وجد نفسه في الظل بعد أن خطفت صورة مانديلا البطولية الأضواء. كانا أحياناً يجلسان متجاورين يخيطان حقائب البريد القذرة المليئة بالحشرات. كانا يتعايشان بشكل جيد، وينادي أحدهما الآخر باسمه القبلي /ماديبا/ و/هلاثي/، ويتناقشان في كل شيء حتى في كون شو كاتباً مسرحياً أفضل من شكسبير.[3] انتقد مانديلا سوبوكوي لأنه نادى بالحرية في عام 1963 الأمر الذي لم يكن بالإمكان تحقيقه، كما انتقده لعدم إعطائه الأفريقانيين حق قدرهم. وعندما كانت بعض الطائرات الحربية تئز فوقهم كان يذكر سوبوكوي بقوتهم العسكرية. وحثه على قراءة كتاب دينيز ريتز /الفدائي/ عن حرب البوار كي يفهم مقدرتهم على التحمل. وتأثر بقوى الإقناع لدى سوبوكوي، لكنه وجده دائماً نزقاً سريع الغضب يذعن بشكل يدعو للدهشة للسجانين، رفض في البداية الانضمام إلى مانديلا في الاحتجاج على أوضاعهم، ووصل حد الاعتراف بحق الدولة في سجنهم، لكنه في النهاية وافق على تقديم شكوى مشتركة. في ذلك الوقت كان سوبوكوي يعتبر أكثر خطورة من مانديلا. وعندما انتهت فترة سجنه عام 1963 أوقف فوراً بموجب قانون خاص، عرف بـ/ملحق سوبوكوي/ وأبقي في جزيرة روبين ستة أعوام أخرى، منعزلاً بشكل كامل عن بقية السجناء. مما أسهم في تشويشه.[4] (*)

بعد ستة أشهر في بريتورية قيل لمانديلا بغتة أن يجمع حاجياته لأنه سينقل إلى جزيرة روبين. قيدت يداه إلى أيدي ثلاثة سجناء سياسيين آخرين، ودفعوا داخل عربة نقل بلا نوافذ وليس فيها سوى دلو. واقتيدوا بالسيارة أثناء

(*) عندما زرت سوبوكوي سنة 1978 يوم كان تحت الإقامة الجبرية في كمبرلي، وجدته متسامحاً ولمّاحاً لسياسات جنوب إفريقية، كما وجدت عنده هواجس، فكان على قناعة أن جسمه قد زرعت فيه الشرطة جهاز تنصت.

الليل إلى كيب تاون. واصطحبوا، وهم مازالوا في الأغلال، إلى قارب قديم أجبروا على الوقوف في عنبره تحت كوة كان السجانون يبولون عليهم عبرها. وبعد بضع ساعات وصلوا إلى جزيرة السجن الأسطوري، معادل آلكاتراز Alcatraz الجنوب إفريقي.

تبعد جزيرة روبين ثمانية أميال فقط عن البر الرئيسي، يفصلها عنه بحر هائج بارد يحول دون الهرب. يبلغ طول الجزيرة ميلين، ولها ساحل جميل وشاطئ رملي، تملؤه الطيور البرية ومن ضمنها طيور البطريق الصغيرة، وهناك بعض الأبنية الجميلة على جانبي شارع القرية، منها المدرسة. واليوم أصبحت الجزيرة قبلة سياح مشهورة. لكن محاسنها كانت محدودة بالنسبة للسجناء السياسيين في حجراتهم الإفرادية المحاطة بأقصى قدر ممكن من الحراسة.

كان مانديلا واعياً، بما له من معرفة بالتاريخ الترانسكي، أن الجزيرة كانت سجناً لجنرالات الكزوسا الذين وقعوا في قبضة البريطانيين في القرن التاسع عشر. كان الشعور بالاستمرارية طاغياً، وكان مانديلا ينوه أحياناً بأسلاف مثل ماكانا الأعسر Makannathe Left-Handed الذي مات في الجزيرة بعد أن كاد يهزم البريطانيين في غراهامستاون Grahamstown عام 1819. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجزيرة مستعمرة للمجذومين، ومشفى مجانين قبل أن تصبح سجناً عسكرياً في عام 1936، وبعد شاريفيل أعيد استخدامها كسجن يأوي أمواج السجناء السياسيين من حركات مختلفة، إضافة إلى المجرمين العاديين.[5] منذ عام 1962 أصبحت خاضعة لنظام أكثر قمعاً مصمم لإذلال وتحطيم السجناء، وسجانين ساديين هما الأخوين كلينهانز Kleynhans اللذين اكتسبا سمعة خاصة بالاعتداء. وخلال العامين من 1962 إلى 1964، جاء في تقرير للأكاديمي نيفيل ألكساندر Neville Alexander الذي سجن في جزيرة روبين عام 1962، إفادة عن اعتداءات وحشية على السجناء السياسيين أسبوعية وأحياناً يومية.[6]

هذه المرة سيبقى مانديلا بضعة أسابيع فقط على الجزيرة، لكنها كانت كافية لتترك بصمتها، وترسخ مبدأ سيطبقه في جميع سنوات سجنه، وهو أن تصرف السجان يقرره موقف السجين منه. وسيذكر دائماً أول مواجهة له مع أحد الأخوين كلينهانز، الذي صاح: «أنا رئيسكم هنا!» وقال له ولثلاثة سجناء آخرين أن يركضوا إلى زنزانتهم كما يركض القطيع. أصر مانديلا على السير في المقدمة، وتعمد الإبطاء في مشيته، فيما كان كلينهانز يصرخ « سنقتلكم!».

وعندما وصلوا إلى زنزانتهم التي كانت غارقة بالماء، ظهر ضابطان آخران؛ صاح أحدهما بالسجين الأكثر تواضعاً أن شعره طويل جداً، فتدخل مانديلا قائلاً: «اسمع، إن طول شعرنا تحدده الأنظمة». وعندما اقترب الضابط كأنما ليضربه. شعر مانديلا بالرعب، لكنه تمكن أن يقول متظاهراً بشجاعته المميزة: «إذا وضعت يدك علي سآخذك إلى أعلى محكمة في الأرض، وعندما أنتهي منك ستكون أفقر من فأر في كنيسة». استمر المسؤول في تهديده، لكن مانديلا أصبح أكثر جرأة عندما رأى أنه كان يرتجف.[7] هنا غادر الضابط الأعلى رتبة - الذي تبين أنه رئيس السجن - غادر الزنزانة بهدوء، وسرعان ما تبعه الضابط الآخر

فيما بعد أخذ السجناء الأربعة إلى زنزانة أوسع، حيث سمع مانديلا بعد العشاء نقراً على النافذة. وأحدهم يهمس: «نيلسون تعال إلى هنا». كان سجاناً ملوناً يحمل أخباراً من ويني وعرض أن يجلب له التبغ والشطائر، الأمر الذي صار يفعله كل ليلة تقريباً. وبذلك اطمأن مانديلا إلى أنه حتى في جزيرة روبين المرعبة، فإن السجانين يختلفون عن بعضهم مثلهم مثل باقي المخلوقات البشرية.[8]

بعد بضعة أسابيع على الجزيرة قيل لمانديلا أن يحزم أمتعته ثانية، وأعيد إلى الحجز الإفرادي في بريتورية. لم يكن هناك أي تفسير فيما قالت الحكومة للصحافة - كذباً - إنه قد نقل لحمايته من مغبة هجوم سجناء المؤتمر الوطني

الإفريقي عليه.[9] ولـم يستغرق وقتاً طويلاً ليعرف هو السبب، في أوائل تموز (يوليو).

سمع مانديلا أن أحد محامي المؤتمر الوطني الإفريقي، هارولد وولب قد اعتقل، ثم حيّاه في ممر السجن توماس ماشفان Thonas Mashefane، الذي كان كبير العمال في مزرعة ليليسليف. وبعد بضعة أيام، في مكتب السجن، وجد نفسه وجهاً لوجه مع قادة المؤتمر الوطني الإفريقي الذين كانوا يختبئون في ريفونيا. خلال الأشهر الثمانية من سجن مانديلا بدأت حكومة فيروورد باتخاذ إجراءات صارمة أكثر فعالية ضد المقاومة السوداء، خاصة بعد أن بدأ بوكو Poqo الفرع الإرهابي السري من المؤتمر الإفريقي العام باغتيال البيض أولا في الترانسكي ثم بارل paarl قرب كيب تاون. وفي الأول من أيار (مايو) 1963 أصدرت الحكومة تشريعها الأكثر قسوة حتى الآن، بدعم من الحزب المتحد أيضاً، وقد تضمن «قانون التسعين يوماً» الرديء السمعة، الذي سمح للشرطة باعتقال أي شخص لمدة ثلاثة أشهر في سجن انفرادي، دون الاتصال بالآخرين وبلا محاكمة، مما أطلق يد شرطة الأمن في الاستجواب والتعذيب.[10]

وبعد عشرة أيام تمت الاعتقالات الأولى بموجب القانون. وهذه لم تكن تستهدف بوكو بقدر ما كانت تسعى لاكتشاف مخبأ قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، ومن ضمنهم سيسولو وكاثرادا وغوفان مبيكي، الذين خرجوا من إقامتهم الجبرية واختفوا. قالت هيلدا بيرنشتاين التي سرعان ما اعتقل زوجها «لم نقدر من أين وكيف سيباشرون، وهنا أظهرنا جهلنا».[11]

كان قادة المؤتمر الوطني الإفريقي وحلفاؤهم مازالوا يدخلون ويخرجون في ريفونية متنكرين، ويناقشون خطط أعمال التخريب وحرب العصابات التي ستشن بمساعدة مجندين مختارين من سهم الأمة (إم. كي)، تم تهريبهم خارج البلاد كي يتدربوا في الجزائر وإثيوبية والاتحاد السوفيتي.[12] وبقيت القيادة العليا لسهم الأمة (إم. كي) متحدية، وفي 26 حزيران (يونيو) قام سيسولو بأول

إذاعة من / راديو الحرية/ من مخبأ خفي، واعداً مستمعيه أنه سيبقى في الخفاء في جنوب إفريقية وبذلك تحدى الشرطة لتقتفي أثره.

وصف برونو متولو Bruno Mtolo المخرب من دوربان الذي سرعان ما سيشي برفاقه، كيف رأى ذات مرة القادة مجتمعين في البيت المسقوف بالقش في مزرعة ليليسليف: سيسولو بشاربه الرفيع، يرتدي كنزة خضراء وبنطال جينز، منهمكاً في صياغة منشور على الآلة الكاتبة، وكاثرادا بقميص بسيط وصندل، بشعره الخرنوبي، وغوفان مبيكي يرتدي بذلة عامل زرقاء.[13] كانوا يضعون خطة طامحة جداً سميت / عملية ماي بوي/ التي وضع صياغتها الأولى جو سلوفو وغوفان مبيكي. بدأت الوثيقة هكذا: «لقد خلعت الدولة البيضاء عن نفسها كل ادعاء بأنها تحكم بآلية ديمقراطية، ولما كانت مدججة بالسلاح فقد طرحت أمام الشعب خياراً واحداً، وهو الإطاحة بها بالقوة والعنف».[14] وتابعت الوثيقة لتقترح تأسيس جماعات حرب عصابات في كامل جنوب إفريقية، يدعمها غزو مسلح قوامه قوات أجنبية تأتي بالغواصات والطائرات.

كان مخططاً مستهتراً وبعيداً عن الواقع وكان أنصاره ومؤيدوه الرئيسيون في القيادة العليا لسهم الأمة (إم. كي) هم مبيكي وسلوفو وآرثر غولدريتش. أبدى سيسولو وآخرون تحفظات قوية، وكانت الخطة قيد المناقشة في تموز (يوليو). أما لوثولي الذي مازال معترفاً به رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي، فقد كان معتكفاً في ناتال، مسقط رأسه، بعيداً عن كل من جماعة ريفونية والمؤتمر الوطني الإفريقي في الخارج، وقد كتبت ويني مانديلا إلى أديلايد تامبو في لندن بعد زيارتها لوثولي: «إنه يجهل كل شيء عن النشاطات في الخارج. وهذا أكثر ما يقض مضجعه».[15]

لكن بعض أعضاء القيادة العليا لسهم الأمة (إم. كي) كانوا يتوقون إلى العمل، خاصة بعد أن أعلمهم مانديلا بعروض التدريب العسكري الأجنبية. حتى أن جو سلوفو أراد أن يستقل الطائرة إلى دار السلام لمناقشة الأمر مع

أوليفر تامبو والمؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى. وقبل رفاقه، على أساس أن صياغة الوثيقة النهائية لم يتم الاتفاق عليها بعد.[16] لكن لدى وصول سلوفو إلى تانزانية كان المخطط كله قد كشف، بكل اندفاعه. وأقر سلوفو فيما بعد: «كان لدينا رأي حسن الوقع عما يمكن لإفريقية المستقلة السوداء أن تفعله وما لا يمكن أن تفعله. ربما كانت الخطة أكثر من كونها غير واقعية».[17]

في أوائل تموز (يوليو) 1963 كانت استجوابات الشرطة قد بدأت تتمخض عن معلومات. فقد كشف واحد من الأشخاص الكثر الذين اعتقلوا ـ ما زال المؤتمر الوطني الإفريقي يجهل من هو ـ عن أن سيسولو واصدقاءه كانوا أحيانا يختبئون في ريفونية. ثم أدلى شخص آخر بمزيد من المعلومات الدقيقة عن المزرعة. واستطاع الضابط المحقق الشاب الذكي الملازم فان وايك Van Wyk أن يحدد موقع مزرعة ليليسليف. ويوم 11 تموز (يوليو) وصلت شاحنة مغلقة تابعة لشركة تنظيف على الناشف. وانطلق منها جمهرة من رجال الشرطة والكلاب وأحاطت بأبنية المزرعة. قفز كل من سيسولو ومبيكي وكاثرادا من نافذة خلفية، لكن سرعان ما ألقي القبض عليهم مع الآخرين. وجمعت الشرطة مئات الوثائق، كان بينها أوراق عن عملية ماي بوي، وأمسكوا مخرباً آخر هو دينيس غولدبيرغ في البيت الرئيسي.[18]

هذه هي الأخبار التي سمعها مانديلا من زملائه في سجن بريتورية. ولم يكن قد ذهب بنفسه إلى ريفونية منذ العام السابق، قبيل اعتقاله بقليل. لذلك ما كان له أن يقر عملية ماي بوي. لكنه كان قائد سهم الأمة (إم. كي) وقد ترك عشرات الوثائق المكتوبة بخط يده في ليليسليف لأنه شعر ـ مثل كثير من الثوريين الآخرين ـ بأنه مضطر لتدوين أفكاره. وقد طلب من جو سلوفو تدمير هذه الأوراق، لكنها كانت في مكانها تنتظر لتصبح دليل جريمة.[19] وكان مانديلا حتماً هدفاً رئيسياً لأية جهة ادعاء، وربما يواجه عقوبة الإعدام بموجب

مشروع قانون التخريب الذي صدر في تموز (يوليو) 1962. وأصبح مانديلا المتهم الأول.

أدرك جميع القادة المسجونين أن هذه المحاكمة ستكون قضية تاريخية أكثر خطورة من قضية الخيانة، التي طعن بالتهمة الأصلية فيها. كان متآمرو ريفونية مذنبين بشكل لا لبس فيه بالتخطيط للتخريب، إذ لم يكن لحرب العصابات، وعرفوا أن عليهم حشد أفضل فريق دفاع ممكن. تطلع مانديلا ثانية إلى برام فيشر للمشورة، بما لديه من مهارة قانونية والتزام. فقد كان فيشر نفسه ينضم إلى جماعة ريفونية بين وقت وآخر، كما يعرف مانديلا وبقية المتهمين، برغم أن العامة لم تكن تعرف. وأثناء المحاكمة كان قد بدأ يخطط لكي يعمل في الخفاء.

حافظ فيشر - المحامي - على هدوئه المهني وصدم بالسوية الساذجة والمتهورة لعملية ماي بوي. التي قال عنها، فيما بعد أثناء محاكمته هو، إنها «تفكير طفولي لا يمت للواقع بصلة، نتاج خيال مغامر». لكنه كان مصمماً على إعداد أفضل دفاع ممكن عن المتآمرين وحشد مجموعة من المحامين الكبار الذين لا يقهرون، أصبحوا جميعاً رفاقاً مقربين من مانديلا. وكان بينهم فيرنون بيرانجيه Vernon Berrange «المتنبئ» الذي أقنعه فيشر بالعودة من لندن، ومحام شاب لامع هو أرثر تشاسكالسون Arthur Chaskalson الذي لم يكن ملتزماً أبداً لكنه كان معجباً بفيشر فعرض خدماته. وأحضر تشاسكالسون بدوره صديقاً جامعياً هو جويل جوف Joel Joffe الذي كان يخطط للهجرة إلى أستراليا.[20] وافق جوف وهو رجل نحيل، ينكر ذاته، له وجه طويل، على أن يصبح المحامي الرئيسي، وقد أطلق عليه مانديلا والآخرون «الجنرال القابع وراء الستار». وهناك شخص آخر جند لهذه المهمة وسيصبح موضع ثقة مانديلا هو جورج بيزوس George Bizos، وهو يوناني ضخم كثيف الشعر له أسلوب فلاحي، وقد هاجر من اليونان إذ كان صبياً هرباً من النازيين، والتقى بمانديلا

لأول مرة في جامعة ريتز، وقد قدم ليتخصص بالقضايا السياسية، حيث كسب ثقة فيشر.

كان جويل جوف قد التقى مانديلا في مناسبات اجتماعية، حيث كان مانديلا يبدو أصغر بخمس عشرة سنة مما هو فعلاً. والآن، وهو في لباس السجن المؤلف من بنطال قصير وقميص (كاكي) وجده جوف «نحيلاً دون الوزن الطبيعي بشكل مؤسف». وكان وجهه غائر الخدين، شاحباً بلون أصفر سقيم وقد تدلت بشرة وجهه كأكياس تحت عينيه «لكن جوف رآه ما زال هادئاً ومرحاً واثقاً بنفسه، وبدت معنوياته عالية كما كانت دائماً».[21] قال جورج بيزوس: «لم يكن طبيعياً السلام الذي كان يشعر به مع نفسه».[22] كان مانديلا ما يزال محتجزاً بشكل إفرادي، كسجين مدان في أسفل السافلين. قال إنه كان «يعيش في جو الحكم بالإعدام. وقد أتى أحد كبار السجانين إلى زنزانته ليلاً وأوقظه ليقول له: ستنام نوماً طويلا جداً».[23] وعندما اجتمع مانديلا بمحاميه حذره فيشر من أن الادعاء سيطلب له الحكم بالإعدام. قال مانديلا: «لقد عشنا في ظلال المشانق».[24]

افتتحت المحاكمة في بريتورية في تشرين الأول (أكتوبر) 1963 وسط نوبة من الهياج الشعبي أثارتها الصحف، التي تحدثت عن مؤامرات ثورية سربتها الشرطة. وأحيطت المحكمة العليا / قصر العدل/ من الداخل والخارج برجال شرطة بثياب رسمية وعادية. يدققون بعناية في هويات المتفرجين.

وعندما ظهر مانديلا في قاعة المحكمة خارجاً من الزنزانات السحيقة، صدم بعض الأصدقاء لهزاله وشحوبه. وقد تساءلت هيلدا بيرنشتاين «بأي سهولة ألبسوا هذا الرجل الفخور الرفيع الثقافة لباس وهيئة الإفريقي كما يريده البيض / صبي/ ؟.[25] لكنه أشرق بابتسامته وضم قبضة يده اليمنى وزمجر / آماندلا !/ فرد عليه جمهور السود في القاعة / نغاويثو !/ ». مما أرسل الرعب في اوصال جيش رجال الأمن.[26]

كان القاضي إفريقانياً محترماً وصارماً، هو كوارتوس دو ويت Quartus de Wet. لكن المدعي العام بيرسي يوتار Percy Yutar الذي كان رجلاً صغير الحجم له أسلوب مسرحي مضخم، كان محامياً يهودياً يمينياً، قريباً من الحكومة، كان يستمتع بمجابهة الأعداء السود واليهود. وسيدعي فيما بعد أنه رفض توجيه تهمة الخيانة العظمى لمانديلا قائلاً: «لقد مارست التعقل والحذر واتهمته بالتخريب فقط».[27] لكنه كان مدعياً عاماً لا يعرف الرحمة.

كان فريق الدفاع مقتنعاً منذ البداية، حسب تعبير جويل جوف أن «قلب وجوهر هذه القضية لم يكن في قاعة المحكمة هذه وإنما في العالم خارجاً».[28] وما من شك في أن الحكومات الغربية كانت تراقب هذه القضية باهتمام. لقد أصبح الغربيون الآن أكثر وعياً بقيادة مانديلا، وأكثر قلقاً من العقابيل المحتملة للحكم بإعدامه، لكنهم حافظوا على ضبط النفس بسبب ارتباطاتهم الدبلوماسية واستثماراتهم. كانت الحكومة البريطانية الأكثر قدرة على التأثير في حكومة فيروورد، إلا أنها كانت أيضاً الأكثر خوفاً من إزعاجها.

وقد كتب السير جون مود، السفير البريطاني متملقاً في رسالته الوداعية في نيسان (أبريل) 1963 أنه كان يخشى أن يخرج المؤتمر الوطني الإفريقي الجيد الانضباط من الساحة ليترك المكان للمؤتمر الإفريقي العام الأكثر عنفاً وسذاجة. واعتقد أن المقاومة السوداء، بمساعدة من الدول الإفريقية الجديدة، ربما تتطورإلى «حركة فدائية منظمة تحظى بدعم أغلبية الرأي العام العالمي». وحذر لندن أن الأمر «سيصبح أكثر صعوبة في حال الاستمرار بمعاملة جنوب إفريقية على أنها أقرب إلى الحليف وفي الوقت نفسه لا يمكن المساس بها». واقترح بإصرار أن «المسيحية تشكل خطراً أكبر بكثير من الشيوعية بالنسبة لسيادة البيض».

لكن بقي غير محدد وغامضاً، وخلص إلى «أن علينا أن نعيد النظر بدقة وبتواتر قريب في خط توازن مصالحنا».[29]

السفير الجديد السير هيو ستيفنسون Sir Hugh Stephenson كان أكثر تحفظاً وأقل تأثيراً من مود. وقد حذره وزير الخارجية اللورد هوم Lord Home مسبقاً من مغبة تعريض مصالح بريطانية الاقتصادية والدفاعية للأذى، لكنه نصحه ألا يظهر ما يدل على التغاضي عن الأبارثيد، مما قد يضر بالعلاقات مع إفريقية والأمم المتحدة. ونصحه هوم أن يضع في حسبانه أن جنوب إفريقية قد تنتقل إلى أيدي الوطنين الإفريقيين «في المستقبل المنظور»، وأمر بتطبيق سياسة مود في «إعادة التأمين» من خلال «اتصالات شخصية سرية مع أهل الفكر غير الأوروبيين».[30] لكن السير هيو لم يكن رجل المبادرات: فهو موظف مدني سابق في الهند كان مغرماً بشراب الجين، ولم يستطع يوماً أن يدرك الحقائق في إفريقية، ولم يكن يميز بين كيب تاون، والقاهرة وبيتشوانا لاند وبالوتشستان. كان يخاف إثارة حفيظة الأفارقة. وقبل أن يقدم أوراق اعتماده لرئيس الدولة أقنع بأن يشير إلى «آراء تختلف وجهات نظر حكومتي اختلافاً جذرياً عن حكومتكم حولها». ولكن عندما اعترضت وزارة الخارجية الجنوب إفريقية سحب تلك الكلمات.[31]

بعد أن بدأت المحاكمة الأولية في قضية ريفونية أقرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة يوم 11 تشرين الأول (أكتوبر) القرار المؤثر رقم 1881، الذي دعت فيه جميع الدول ما عدا جنوب إفريقية إلى إطلاق سراح السجناء السياسيين.[32] فقال فيشر لبيزوس «لن يجرؤوا على شنقهم بعد هذا!».[33] لكن السفارة البريطانية كانت ما تزال مترددة في ممارسة أي ضغط. ونصحت وزارة الخارجية السير هيو ستيفنسون بأن يحذر بريتورية من قوة الرأي العام البريطاني. أبدى السير هيو بعض المقاومة إلا أنه حدث وزير الخارجية الدكتور موللر أخيراً عن قلق بريطانية، في الوقت الذي أكد للندن أنه «كانت لدي شكوكي دائماً حول قيمة هذه الطروحات». كما استشهد بأقوال جون أرنولد، المحامي البريطاني الذي يمثل اللجنة الدولية للمحكمين في المحاكمة، وأخبره

أن المتهم الرئيسي كان «إما شيوعياً أو متأثراً بالشيوعية تأثراً كبيراً»، وأنه «مذنب كأبشع ما يكون الإجرام». .[34] ولم يذكر تحفظات أرنولد الخطيرة حول المحاكمة».[35]

أفسد النائب العام بيرسي يوتار الاتهام الأول، الذي أبطله القاضي نزقاً، ولم تبدأ المحاكمة الكاملة قبل 3 كانون الأول (ديسمبر) في بريتورية. وبقي مانديلا متحدياً. وعندما سئل كيف سيدافع عن نفسه؟ أجاب ببساطة: «لست أنا، وإنما الحكومة هي التي يجب أن تقف في قفص الاتهام. أنا أقول إني لست مذنباً».[36] عندها قدم يوتار، الواثق من أدائه، الاتهام المعدل، الذي تضمن تهمة رئيسة حساسة:

> إن المتهم أقدم قاصداً وبنية خبيثة على التآمر والتحضير لأعمال عنف ودمار في كافة أرجاء البلاد، استهدفت مكاتب ومنازل مسؤولين إداريين، كما استهدفت جميع خطوط وطرق الاتصال. وكان الهدف من وراء ذلك إدخال جمهورية جنوب إفريقية في حالة من الفوضى والاضطراب تتفاقم، حسب مخططاتهم، بتشغيل آلاف الوحدات المقاتلة الفدائية المدربة المنتشرة في كافة أرجاء البلاد حيث يمكنها ذلك.

واختتم اتهامه اختتاماً مسرحياً قائلاً: «إنهم قد خططوا حملتهم كي يكون العام الحالي 1963 عام تحريرهم مما يسمونه نير هيمنة الرجل الأبيض».

خيم الوجوم على فريق الدفاع بينما كان يوتار يكشف حيثيات الاتهامات. وتساءل جوف «هل هناك أي أمل في أن ينجو أي من المتهمين من عقوبة الإعدام؟». ونادى يوتار سلسلة من الشهود، كثير منهم دحضوا في الاستجواب، وصفوا بدقة تحركات مانديلا والآخرين. والأسوأ هو أن يوتار كان باستطاعته الاعتماد على مئات الوثائق التي جمعتها الشرطة من ليليسليف وأماكن أخرى، والتي أعطت تفاصيل عمليات المؤتمر الوطني الإفريقي السرية. وسرعان ما أصبح محامو الدفاع في حالة رعب من تعاظم الأوراق المكتوبة

بخط اليد حول / أفكار/ في مختلف المواضيع، التي شعر المتهم أنه مضطر إلى حفظها في ريفونية. حتى أن غوفان مبيكي الذي كان منسقاً في ريفونية، وطلب من الآخرين إحراق أوراقهم السرية احتفظ هو بأوراقه.[37] وقد كانت إحدى الكراسات المكتوبة حول حملة مناهضة أذونات المرور معنونة: / سري للغاية/ وقد اختتمت بتوجيه: «هذه الوثيقة يجب ألا تقع في يد غريبة. اقرأها وافهم مضمونها ثم أتلفها بحضور رفيقين آخرين على الأقل «ولكنها كانت متروكة هناك كي تلتقطها الشرطة.

أعطت عملية إخفاء الوثائق فكرة حسية عن تصور وعجز المؤتمر الوطني الإفريقي المحظور. حيث كان «أوت» (أوليفر تامبو) يتبادل الرسائل برموز مبسطة مع «رعد» (دوما نوكوي)، دوما تعني / رعد/ أو / كن مشهوراً/ باللغة الكزوسية / كانا يناقشان خطط نقل مقاتلي الحرية جواً ـ يشيرون إليهم بكلمة / الطرود/ أو / طلاب الجامعة/ ـ من بوتسوانا، لكن اختلط الأمر على المراقبين بسبب الرموز، وأصيبوا بالإحباط لسوء الأداء ميدانياً. فقد جاء في رسالة من لوساكا أن «السبعة عشر طرداً التي أرسلتها صودر منها اثني عشر من قبل الضرائب، وسبعة أمسكوا». وكان هناك دائماً بعض اللبس حول المال «لقد استلمنا أموالاً من دول معنية. هل بإمكانكم أن تعلمونا أي دول قدمت المساعدة حتى الآن منذ عودة ماديبا (مانديلا) إلى الوطن؟».[38]

أظهرت وثائق ريفونية هوة كبيرة بين مفهوم الكفاح المسلح وتنفيذه، وغياب ما أسماه لينين / تثبيت القرارات/ . وكانت أكثر الوثائق إساءة مكتوبة بخط يد مانديلا، يذكر جورج بيزوس أنه: «احتفظ بكل ورقة تورط في جريمة في ريفونية. كانت غلطة شنيعة. لقد قدموا الوثائق إلى الشرطة على طبق. ولم يقل يوماً إن الخطأ خطأ أي شخص آخر فقد كان شهماً جداً». .[39] لكن الوثائق أعطت أيضاً صورة رائعة عن فكر مانديلا. كان هناك خطط الهرب من سجن بريتورية مكتوبة بخط يده، تظهر خطاً منقطاً من زنزانته عبر باحة الرياضة. «لا

حاجة بي إلى ذكر الآثار المدمرة سياسياً لأية محاولة انقلابية». وكان هناك ملاحظات عن حركات ثورية أخرى. وعن أساليب حرب العصابات «الفدائيون لا يشنون حرباً تقليدية ولا يخوضون معارك حاسمة».

وكان هناك أقوال مأخوذة من كتاب عن إيرغان، الجماعة الإرهابية الإسرائيلية: «العالم لا يحزن على الضحايا. إنه يحترم فقط أولئك الذين يقاتلون.. المقدرة على التضحية هي مقياس الثورة وأبو النصر.. إن القتال السري هو دولة حقيقية مصغرة». وكان هناك ملاحظات عن هوكبالاهاب Hukbalahap الجيش الثوري الفيليبيني: «يجب أن يقتنع الشعب أن مصيره في يده».

كما كانت هناك أقوال في السياسة والقيادة، بعضها مأخوذ من السيرة الذاتية للجنرال كريستيان دو ويت قائد فدائيي حرب البوار اللامع: «أفضل أن أقف بين شعبي على كوم من الروث، على أن أعيش في قصر غرباء». وكانت هناك مقاطع من سيرة الجنرال جي. إم. هيرتزوغ J. M. Hertzog بقلم أوزوالدبيرو Oswald Pirow: «أصبح هيرتزوغ رجل دولة أكثر مما هو سياسي». وكانت هناك ملاحظات عن فريدريك الكبير Frederick the Great: «كان في جيشه بغلين خاضا أربعين حملة، ولكنهما بقيا بغلين «وكانت هناك مقتطفات حلوة من المارشال مونتغومري Field Maershal Montgomeny «الحرب الكاملة تحتاج لياقة كاملة». وحتى مقتطفات من أقوال الرئيس ترومان Truman «القائد هو الرجل القادر على جعل الآخرين يقومون بما لا يريدون القيام به، وهم راضون».

لكن الملاحظات الأكثر إدانة كانت/ 62/ صفحة عن الشيوعية كتبت على دفتر بخط مانديلا. وكانت في أربعة أجزاء، تتضمن قسماً من / أسس اللينينية / لستالين. وكان الأكثر إحراجاً هو الجزء الأول، الذي يعتمد بشكل كبير على كتيب الشيوعي الصيني ليوتشاوتشي Liu Shao-chi حول «كيف تكون شيوعياً جيداً». لكنه يتضمن تعليق مانديلا: «في ظل حكومة للحزب الشيوعي تصبح

جنوب إفريقية أرضاً للبن والعسل.. لن يكون هناك بطالة، أو فقر، أو مرض». [40] ووجد محامو الدفاع حرجاً كبيراً في ذلك، لكن مانديلا برره بأن تذكر أنه كان ينسخ وثيقة صينية، بمثابة جزء من نقاش ليظهر كم أن الكتابة الماركسية طنانة. [41] وأكد راستي بيرنشتاين فيما بعد أنه أعار مانديلا الكتب، مثلما أعار كثيرين غيره. [42] وأظهرت ملاحظات مانديلا المنسوخة التي وجدت في ريفونية أنه كان لا يتعب من نسخ الوثائق من جميع الأقوال وجميع المصادر.

الشاهد الرئيسي للادعاء كان يرمز إليه «بالسيد إكس»، لكنه في الحقيقة كان برونو متولو، المخرب الماكر الذي كان في اجتماع مانديلا في دوربان قبيل اعتقاله والذي زار ريفونية. وقد تكشف الآن أنه مخبر للدولة. وقد كتب مانديلا فيما بعد: «لم أستطع أن أصدق عيني عندما رأيته يعتلي منصة الشاهد». [43] كان متولو، صاحب الذاكرة الممتازة، أول شاهد ربط مانديلا ربطاً مباشراً بسهم الأمة /إم. كي/ بأن أدلى بإفادته عما قاله مانديلا للمخربين في اجتماعهم في دوربان: كيف أن القادة الإفريقيين وعدوه بتقديم التدريب العسكري والأموال، وكيف ستمتد الحملة في جنوب إفريقية إلى حرب العصابات، وأن الشيوعيين يجب ألا يبوحوا بمعتقداتهم الحقيقية لقلة شعبيتهم في إفريقية.. وأصر متولو على أن المؤتمر الوطني الإفريقي خاضع لسيطرة الشيوعيين خضوعاً كاملاً. [44]

كانت شهادة مدمرة. وقد كتب مانديلا في السجن «عندما سلمت ملاحظاتي أدركت أن الدولة ستتمكن من تأمين دليل ضدي. وشهادة متولو جعلت ذلك حتمياً». [45] ما كان مانديلا لينكر قيادة سهم الأمة /إم. كي/، ولا حديثه مع المخربين في دوربان، وإنما سينكر فقط أن الشيوعيين كتموا معتقداتهم. وحذره محامو الدفاع من أن اعترافه ربما يكلفه حياته، لكن مانديلا قال لهم إن عليه أن يتحمل مسؤولية القيادة، وإنه أراد أن تعرف الحقيقة. وقال إنه كان مضطراً لأن «يوضح للبلاد وللعالم أين تقف أوم خونتو، ولماذا، وأن

يوضح أهدافه وسياسته، ليميز الحقائق الكاملة عن أنصاف الحقائق، وعن التحريف في قضية الدولة. وإذا كان بذلك يعرض حياته للخطر، فليكن «صار الآن واضح التصميم على أن يمثل النضال في شخصه».

وجد محاموه أنفسهم في موقف يصعب الدفاع عنه. وعندما استجوب بيرانجيه متولو استطاع أن يحدث بعض الثغرات في دليله؛ مثل ذِكْر أن مانديلا قال في دوربان إن الشيوعيين الذين يذهبون إلى الخارج لصالح سهم الأمة (إم. كي) يجب ألا يحاولوا الترويج لقضية الحزب أو نشر الدعاية للشيوعية، مما قد يسيء إلى (إم. كي). لكن القاضي ما زال يبدو متأثراً بشهادة متولو. وفي هذه الأثناء، علق جويل جوف: «اعترف متهمنا الرئيسي، نيلسون مانديلا بحمل الثقل الرئيس للاتهام».

كانت المناقشات بين المتهمين ومحاميهم حساسة ولكنها كانت محكومة بالظروف. فقد بنى آمر السجن غرفة خاصة، كان المتهمون يصطفون فيها مقابل حاجز مشبك، يواجهون عبره محاميهم وهم يجلسون على مقاعد عالية مثل رواد بار الحليب، وعندما وصل المحامون أول مرة، وقف مانديلا باسماً وقال: «ماذا تشربون اليوم أيها السادة؟ (شوكولاته أم بوظة بالصودا؟)».[46] أصبح المحامون يعرفون المتهم معرفة حميمة، ويشعرون بالقوة الكاملة لشخصية مانديلا. وذهل جورج بيزوس لرفض مانديلا رعب السجانين. ففي أحد الأيام اشتكى إلى الضابط المسؤول عن المكتب المخلع الأوصال الذي كان عليه أن يستخدمه لكتابه ملاحظات لمحاميه. طار صواب أوكامب: «أنت لم تعد محامياً، أنت سجين!.. لا يحق لك إعطاء الأوامر». فأجاب مانديلا ببرود: «هل انتهيت أيها الكولونيل؟ سأعود إذن إلى عملي مع المحامين». وفي اليوم التالي وصلت طاولة رائعة.[47]

لاحظ جويل جوف أن مانديلا وسيسولو كانا الأكثر تعرضاً للخطر، وكان احتمال شنقهما خمسين بالمائة. لكنه وجد أن شجاعته لم تهتز أبداً. رأى جوف

أن «الأمر كان مختلفاً تماماً عن الشجاعة في ميدان المعركة، حيث يمكنك أن تكون شجاعاً بلا تفكير. ظهر نيلسون مانديلا بمظهر القائد الطبيعي. وأعتقد أن لديه جميع مقومات القادة: من شخصية آسرة، ومقدرة، وموقع، وهدوء، ودبلوماسية، وبراعة وقوة إقناع. عندما التقيته أول مرة وجدته جذاباً ومشوقاً. ولدى انتهاء القضية كنت أعتبره رجلاً عظيماً حقاً. وبدأت ألاحظ كيف أن شخصيته وحضوره لم يؤثرا في مجموعة المتهمين فحسب، وإنما على السجن وطاقم العاملين في السجن أنفسهم».

كان المتهمون الرئيسون قد اعترفوا بضلوعهم في أعمال التخريب والتخطيط لسهم الأمة (إم. كي) وكانوا مصممين على تقديم تبرير سياسي لذلك، إلا أن التهمة الأكثر خطورة ـ التي قال النائب العام بيرسي يوتار إنها حجر الزاوية في القضية ـ هي أنهم وافقوا على عملية ماي بوي التي تنادي بحرب عصابات تعم البلاد بمساعدة أسلحة وقوات أجنبية. شرح مانديلا وسيسولو لمحامي الدفاع أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن قد وافق على الخطة عندما أغارت الشرطة على ريفونية، على الرغم من أنها ربما كانت خطة ضرورية إذا فشلت جميع الوسائل الأخرى. لكن غوفان مبيكي، أكبر المتهمين وأكثرهم تمسكاً بعقيدته، أصر على أن عملية ماي بوي كانت أساس جميع نشاطات سهم الأمة (إم. كي). وقد وافق عليها المؤتمر الوطني الإفريقي أسوة بسهم الأمة (إم. كي). وكان إصراره حرياً بأن يدفعه هو وأصدقاءه إلى المشانق. وقد قال جوف فيما بعد: «لو أنه ثبت أنهم قد باشروا ثورة مسلحة لكان من الصعوبة بمكان بالنسبة للقاضي ـ بموجب قانون التخريب ـ ألا يحكم عليهم بالإعدام».

لكن مانديلا كان منشغلاً الآن بنقاشه السياسي. فقد كان مصمماً ـ كما في محاكمته السابقة ـ على إلقاء خطاب نهائي عن مثله السياسية، الأمر الذي لا يمكنه أن يفعله إلا بتصريح من المحكمة. وهذا لا يمكن استجوابه أو دحضه، لذلك فإنه يكون أقل ثقلاً بالنسبة للقاضي. ولكنه لم يشأ أن يبدو معرضاً

للاستجواب كي يعود ليؤكد قناعاته الأساسية. مثل فيلم موغول سام غولوين يقول: «هذه مبادئي أيها السادة، وإذا لم تعجبكم فلدي سواها». [48] أمضى مانديلا أمسيات كثيرة في زنزانته في إعداد الخطاب بمساعدة زملائه ومحاميه وآخرين. لقد تأثر بالخطابات الثورية العظيمة السابقة. مثل خطاب كاسترو «التاريخ سيغفر لي». وأراد بشكل خاص أن يترك أثراً قوياً فيما وراء البحار. [49]

فكتب بخطه بياناً بليغاً يشرح بوضوح تطوره السياسي. لكن المحامين أبدوا قلقهم حيال صراحته المتحدية، التي ربما تدفع القاضي إلى شنق مانديلا، خاصة وأنه ينتهي بكلمات «إنه مثل أعلى وأنا مستعد للموت(*) من أجله». [50] ورفض مانديلا شطب هذه الكلمات، لكنه في النهاية وافق على إضافة «إذا دعت الحاجة». [52]

بدأت قضية الدفاع بخطاب مانديلا الطويل من قفص الاتهام، الذي لا يمكن مقاطعته، مما أثار سخط يوتار الذي كان يعد العدة لأيام من الاستجواب. ولمدة أربع ساعات تحدث مانديلا عن معتقداته وآرائه السياسية عائداً بذاكرته إلى خلفيته القبلية وبدايات الشعور القومي، وتحوله إلى التعددية العرقية. واعترف بأنه كان قائداً لسهم الأمة (إم. كي) وأنه خطط للتخريب، لكنه أصر ثانية على أن اللاعنف أثبت عجزه في الحيلولة دون انجراف البلاد في حرب أهلية. وقال إن التخريب قدم أفضل أمل لعلاقات عرقية في المستقبل.

وشبه تعاونه مع الشيوعيين بتعاون تشرشل مع ستالين. إلا أنه أعطى تفسيراً شخصياً أكثر، فذكر أن الشيوعيين كانوا الجماعة السياسية الوحيدة التي

(*) أتيح لي النظر بتمعن في الخطاب عندما زرت المحكمة كي أغطي المحاكمة لصالح جريدة الأوبزرفر. وعندما صعد مانديلا من الزنزانات السحيقة، ابتسم لي فوجدت نفسي أرد تحيته برفع قبضتي مما أثار ذعر الشرطة المحيطة فأخذت للاستجواب قبل أن يسمح لي بالعودة. وفي آخر النهار طلب مني مانديلا، بواسطة محاميه أن أراجع مسودة الخطاب الذي كان يعده، وأن أعلق على صداه في الرأي العام وراء البحار، فأمضيت المساء كله وأنا أراجع الخطاب مع المحامين، ولم أستطع أن أقترح سوى تعديلات طفيفة. معظمها لم تحز القبول[51].

كانت مستعدة لمعاملة الإفريقيين معاملة بشر مساوين لهم. واعترف بأنه تأثر بالفكر الماركسي، لكنه أنكر كونه شيوعياً، وامتدح النظامين النيابيين البريطاني والأمريكي، اللذين يعتبرهما الشيوعيون رجعيين. وأكد على غياب الكرامة والحقوق الإنسانية بالنسبة للإفريقيين، وتدمير حياة الأسرة السوداء «الأمر الذي كان يحطم القيم الأخلاقية ويثير العنف». يريد الافريقيون حصة عادلة من جنوب إفريقية كلها «إنهم يريدون الأمن، وحصة في المجتمع». وقال إن المؤتمر الوطني الإفريقي معني بـ «صراع من أجل الحياة».

وختم حديثه بدفاعه / اعتذاره/ الخاص: «خلال حياتي كرست نفسي لكفاح الشعب الافريقي. وقد حاربت الهيمنة البيضاء، وحاربت الهيمنة السوداء. كنت دائماً أرفع عالياً أنموذج المجتمع الديمقراطي الحر حيث الجميع يعطون بانسجام وتعادل في الفرص». توقف قليلاً ونظر إلى القاضي وقال: «إنه مثل أعلى أتمنى أن أعيش من أجله وأن أحققه» ثم خفض صوته وقال مختتماً حديثة: «لكن إذا اقتضى الأمر، فإنه مثل أنا مستعد لأموت من أجله».[53] ساد الصمت ثلاثين ثانية. صمت بدا لمانديلا دقائق كثيرة. بالنسبة لجويل جوف بدا كالصمت الذي يعقب مسرحية قبل التصفيق الشديد ـ لكن بلا تصفيق ـ.[54]

كان الخطاب الأكثر تأثيراً في حياة مانديلا السياسية كلها. فقد صوره بوضوح قائداً، ليس للمؤتمر الوطني الإفريقي فحسب، وإنما للمعارضة المتعددة الأعراق للأبارتيد. لقد تراجعت العبارات المعادية للاستعمار في خطاباته السابقة تراجعت لصالح تحليل شخصي أكثر عمقاً بما لا يقاس. ترددت كلماته حول العالم، وكانت بمثابة بيان للذين يشنون حملات معادية للأبارتيد في كل مكان. حتى إن بعض الدبلوماسيين الغربيين بدأوا يغيرون رأيهم حول كون مانديلا خاضعاً لسيطرة الشيوعيين. وقد علق جون ويلسون John Wilson في وزراة الخارجية بأن «الأسباب التي طرحها للتواطؤ مع الشيوعيين يصعب كثيراً الإجابة عنها». أما جون أور John Ure من دائرة الابحاث الإعلامية (التي

تستخدمها المخابرات البريطانية لتزويدها بالدعاية المعادية للشيوعية). فقد شعر أن بريطانية تفقد مركزها لدى الجنوب إفريقيين السود ثمناً لسياساتها الحذرة. وقال عن مانديلا: «سيصبح شخصية ذات شعبية في جميع أرجاء القارة سواء أراد ذلك أم لم يرد». ويجدر بالمخابرات (أصدقائنا) أن تسجل اعترافاته بالتواطؤ مع الشيوعيين. وتستطيع بريطانية أن تروج بعض الدعاية عن الرسالة القائلة: «مانديلا وصحبه لا يحبون الشيوعية حقاً، لذلك لا بد لهم من توخي الحذر في مسايرتها».[55]

ثبتت أقدام المتهمين بالدعم المتزايد من الخارج. ليس من دول إفريقية فحسب، وإنما من بريطانية، الأمر الذي فاجأ مانديلا. ففي منتصف المحاكمة انتخب مانديلا رئيساً لاتحاد طلبة جامعة لندن. قال جوف عنها «معهد لم يحضر فيه أبداً! ومن قبل أناس لم يكن يعرفهم!».[56]

كانت الحكومة البريطانية الآن مدفوعة نحو التدخل لمنع شنق مانديلا. وقد كتب دافيد أستور في (الأوبزرفر) إلى وزير الخارجية آر. إيه باتلر قائلاً: إن مانديلا كان «واحداً من أكثر القادة الإفريقيين تأثيراً».[57] كان باتلر متعاطفاً لكنه خشي أن أية محاولة بريطانية للتدخل قد تبوء بالفشل.[58] وقد حذر ليون بريتان Leon Brittan رئيس جماعة باو Bow المحافظة من أن مانديلا إذا مات فإنه سيصبح شهيداً. مما يجعل حل مشاكل جنوب إفريقية أكثر صعوبة.[59] وقد قام وفد من الحركة المعادية للأبارثيد، كان فيه النائب العمالية باربرا كاستل Barbara Castle ورئيس مجلس اللوردات القادم لورد غاردينر Lrod Gardiner بزيارة لوزارة الخارجية ولكن قيل له إن أي احتجاج أو شكوى ربما تضر بتوقعات مانديلا.[60] وفي 7 أيار (مايو) 1963 عرض رئيس الوزراء أليك دوغلاس هيوم إرسال رسالة خاصة إلى فيروورد حول المحاكمة. لكن السير هيو ستيفنسون أوصى «بعدم ممارسة أية ضغوط أخرى». وخلافاً لبعض التقارير المنشورة لم يكن هناك دليل على أن الرسالة قد أرسلت؟[61] وعندما راجع سفير

جنوب إفريقية ووزارة الخارجية البريطانية ذاك الشهر، قيل له إن الحكومة تتعرض لضغوط أقل الآن بصدد اتخاذ خط أقوى ضد جنوب إفريقية، على الرغم من أن الأحكام بالإعدام ستفجر الأمور من جديد.[62] وأبلغت السفارة البريطانية في بريتورية لندن بأن الميجور جنرال هندريك فاندين بيرغ Major General Hendrick Vanden Bergh رئيس الفرع الخاص في جنوب إفريقية (الذي سيصبح فيما بعد رئيس الشرطة السرية Boss) لم يكن يتوقع أحكاماً بالإعدام، وأن يوتار لن يطلب لهم تلك الأحكام.[63] وفي مطلع حزيران (يونيو)، وقبل أسبوع واحد من صدور الحكم أَعلم القنصل البريطاني ليزليماينفورد Leslie Minford ـ المعروف بارتباطاته مع جهاز المخابرات ـ وهو في حالة سُكر، جورج بيزوت قائلاً: «جورج لن يكون هناك حكم بالإعدام».[64]

بعد خطاب مانديلا، كان على وولتر سيسولو أن يواجه اقسى استجواب من قبل يوتار. وقد أثار قلق محاميه مسبقاً لأنهم لم يستطيعوا مساعدته، لكنهم كانوا يعرفون أن سيسولو، برغم قلة تعليمه الرسمي، كان يتمتع بذكاء قوي. حيث قال بيزوس: «إنه يتمتع ببراعة مذهلة؛ إذ يسأل سؤالاً بسيطاً ويطلب إجابة، وتأتي الإجابة لتتحدث عن نفسها وتحل المشكلة».[65] والواقع أن سيسولو صمد خمسة أيام من المساءلة أمام يوتار، وأمام كثير من اعتراضات القاضي، ببرود ودهاء، ورفض أن يجرِّم أياً من المتآمرين الآخرين. فكر جوف: «الحكم على رجل كهذا بالموت، لن يكون سهلاً بالنسبة لأي قاض».[66]

بعيد أن أدلى سيسولو بشهادته دعا القنصل البريطاني زوجه ألبرتينا مع ضيوف سود آخرين إلى حفلة عيد ميلاد الملكة في جوهانسبورغ. ولدى وصولهم خرج خمسة من طاقم الإطعام البيض. تشجع سجناء ريفونية بالدعوة البريطانية ـ وهي الأولى لأي شخص له ارتباط مفتوح مع المؤتمر الوطني الإفريقي ـ لكن ناطقاً باسم القنصلية أوضح أن ألبرتينا قد دعيت لكونها «شخصية معروفة بأعمالها الاجتماعية ونشاطاتها الخيرية».[67]

اعتلى منصة الشهادة بعد سيسولو كاثرادا وريموند مهلابا، متآمران آخران من ريفونية كان الاتهام ضدهما أضعف بكثير، ثم راستي بيرنشتاين، الذي كان دليل اتهامه أضعف من الجميع. تلاه غوفان مبيكي الذي كان في وسط المؤامرة دون أي ظل من الشك، لكنه لم يدافع عن عملية ماي بوي في المحكمة، ولم يدل بأي شيء لم يكن بين الأدلة أصلاً. وتبعه دينيس غولدبيرغ والياس موتزوليدي وأندرو ملانجيني وهم أيضاً من متآمري ريفونية. ثم بعد ذلك ألقى بيرسي يوتار خطابه الأخير ـ متضمناً اتهامات مبالغاً فيها، بعضها أبطله القاضي، لكنها مازالت تقدم ذخيرة قاتلة ـ وذلك قبل أن يدلي تشاسكالسون وفيشر بدفاعهما الأخير.

أجل القاضي كوارتس دو ويت القضية لمدة ثلاثة أسابيع ليدرس الاتهام الذي نطق به يوم 11 حزيران (يونيو). وقيل إن المتهمين لم يقروا عملية ماي بوي: «لم يثبت أن الخطة قد قطعت أية مسافة وراء مرحلة التحضير، وأنا أصر على هذا الرأي». لكنه رأى أن المؤتمر الوطني الإفريقي «منظمة تهيمن عليها الشيوعية»، مستشهداً برواية مانديلا لآراء قادة إفريقيين آخرين. ووجد جميع المتهمين، باستثناء بيرنشتاين، مذنبين بتهمة التخريب.[68] غضب مانديلا لأن كاثرادا ومهلابا لم يخل سبيلهما أيضاً، لكنه لم يفاجأ بإدانته. وشكه الوحيد كان حول نص الحكم، الذي سيقدم في اليوم التالي. كان مستعداً للموت، وفكر في كلمات شكسبير في مسرحية القياس للقياس Measure for Measure:

كن ثابتاً للموت، فالموت أو الحياة

سيكون عندها الأحلى[69]

وقرر ـ إن حكم بالإعدام ـ أن يدلي بتصريح متحدٍ، كتب لصياغته بعض الملاحظات الوجيزة:

1. تصريح من قفص الاتهام.

2. لقد عنيت كل كلمة قلتها.

3. لقد أريق دم كثير من الأبطال في هذا البلد طلبا للمعاملة بما ينسجم مع المقاييس الحضارية.

4. *.

5. إذا كان لزاماً أن أموت دعوني أعلن للجميع أني سأواجه مصيري كرجل.[70]

كان مانديلا ومبيكي وسيسولو قد قرروا جميعاً في المحاكمة أنه مهما يكن الحكم فإنهم لن يطلبوا الرحمة. بما أن هذه كانت قضية سياسية، فإن طلب الرحمة سيكون هبوطاً مفاجئاً من الرفيع إلى التافه. وأرادوا أن تصل الرسالة. وقد قال مانديلا: «ليس هناك أية تضحية تكبر على النضال من أجل الحرية». وكان مقتنعاً بأن محكمة الاسترحام لن تغير الحكم في كل الأحوال.[71]

فزع محامو الدفاع من رفض السجناء طلب الرحمة، كما ذهلوا لشجاعتهم. وقد كتب برام فيشر إلى صديق شاب في المنفى بعد أن وصف مناقشة السجناء: «كان القرار غير قابل للطعن. أريدك أن تعرف أي رجال شجعان يجب أن تكونوا أنت ورفاقك كي تخلفوهم».[72] لكن بعد الحكم تقدم المحامون بطلب التخفيف، الذي دعم في الصباح التالي من قبل الروائي الليبرالي آلان باتون، الذي أكد على أهمية خلاص قادة المؤتمر الوطني الإفريقي وأهمية الرأفة والاعتدال بالنسبة للسلام في المستقبل، على رغم مخاوفه حيال الشيوعية. وكتب باتون فيما بعد: «لم يكن لدي أدنى شك في أن برام فيشر كان /يستخدمني/ ولم يكن لدي أي اعتراض أن استخدم من أجل غرض من هذا النوع».[73]

وعندما أتى دو ويت لينطق بالحكم، تشجع مانديلا إذ لاحظ أن «التوتر لم يكن ظاهراً على المتهمين في القفص وإنما على القاضي نفسه».[74]

(*) الفقرة 4 تتألف من خمس كلمات لم يتمكن مانديلا نفسه من قراءتها أو تذكرها.

1. Statement from the dock
2. If I meant everything I said
3. The blood of many patriots in this country have been shed for demanding treatment in conformity with civilised standards
4. That army is being organised
5. If I must die, let me declare for all to know that I will meet my fate like a man

ملاحظات دونها منديلا للبيان الذي كان ينوي إلقاءه من قفص الاتهام في المحكمة لو كان صدر حكم الإعدام عليه.

قال القاضي إنه قرر ألا يفرض العقوبة القصوى ـ وتنفست قاعة المحكمة الصعداء ـ لكن هذه هي المرونة القصوى التي يستطيع إظهارها. ثم حكم على ثمانية منهم بالسجن مدى الحياة. فابتسم مانديلا، وشعر سيسولو براحة كما لو أنهم أطلقوا سراحه.[75]

ساد الاضطراب قاعة المحكمة إذ اندفع المشاهدون خارجين بالخبر. ولم يستطع مانديلا أن يومئ لويني أو لأمه التي كانت قد غدت محنية الظهر مذهولة، قبل أن تندفع الشرطة نحوه هو والسجناء الأخرين لتأخذهم إلى الزنزانات في الأسفل. وبعد نصف ساعة اقتادوهم في عربة مغلقة تابعة للشرطة ـ متفادين الجمهرة التي استطاعت فقط أن ترى يد مانديلا تحييهم عبر القضبان ـ إلى سجن بريتورية المحلي، حيث صُفِقَت البوابات وراءهم.[76]

عكس رد فعل الصحافة على الحكم الهوة بين الرأي العام في جنوب

إفريقية البيضاء والغرب. ففي لندن اتخذت الصحف اليمينية موقفاً ناقداً من حكومة بريتورية بقدر الصحف اليسارية. حيث عنونت الديلي تلغراف مقالها الافتتاحي: «جنوب إفريقية في المحكمة». وقالت الغارديان: «جنوب إفريقية في قفص الاتهام». والتايمز «قانون الحصار».[77]

لكن افتتاحية جوهانسبورغ صنداي تايمز حذرت السود من أن الحكم أظهر أن «الجواب لمشكلتهم ليس في العنف والانقلابات»، بينما حملت الصفحة الأولى عنوان: «ريفونية: القصة من الداخل». ووصفت بأنها «قصة تآمر، وخيانة، وخبل، وإضاعة أموال، وغدر وعمل تحري لامع». كما كشف الميجور جنرال فاندين بيرغ.[78] جريدة الستار أعربت عن فرحها لأن المتآمرين لن يشنقوا، ولكنها تشعر بالارتياح لأنهم أبعدوا عن الطريق: «كانت مؤامراتهم متهورة إلى أقصى درجة، وكانت ستتمخض عن نتائج وخيمة بالنسبة لكثيرين، كما هي بالنسبة إليهم، لولا أنها خنقت في مهدها. ولديهم ما يدفعهم إلى الشكر لأنها انتهت على ذلك الشكل، وذلك ما نشعر به جميعاً».[79]

فكرت حكومتا بريطانية وأمريكة بممارسة الضغط على جنوب إفريقية لتخفف الأحكام، لكن السفير الأمريكي وافق مع السير هيو ستيفنسون، الذي رأى أن أي تدخل سيولد «رد فعل معاكس قوي بشكل كبير».[80] ووجدت وزارة الخارجية البريطانية أن النقاش «ليس مقنعاً تماماً». وتطلعت إلى بعض الدعم الأمريكي. فيما أراد وزير الخارجية راب بتلر من ستيفنسون أن يقابل وزير الخارجية الجنوب إفريقي الدكتور موللر «للتعبير عن آراء تؤيد إسقاط القضية. إلا أن شيئاً من هذا الحديث لم يسجل».[81]

في الحقيقة ساعد رفض مانديلا الاستئناف ضد الحكم في تخليص الدبلوماسيين من موقف حرج. وسرعان ما تلاشى الاهتمام الدولي. وحرصت السفارة البريطانية على متابعة علاقة ودية مع بريتورية التي كانت بحلول تموز (يوليو) (فيما لحظ الجنوب إفريقيين) تجد الأمريكيين والبريطانيين أكثر تعاطفاً

معها.[82] صار البريطانيون الآن يتوقعون في سرهم أن مانديلا سيطلق سراحه ليلعب دوراً مفيداً، مثل سواه من / خريجي السجون/ في أماكن أخرى من إفريقية أو الهند. وقال ستيفنسون لراب باتلر في أيلول (سبتمبر) «بإمكاننا أن نكون شاكرين جداً لأن القاضي لم يحكم بالإعدام. لأن ذلك يعني أن قائداً من وزن نيلسون مانديلا، بعد أن يزداد رصيده الشعبي إثر قضاء فترة في السجن، سيكون جاهزاً للحوار بين السود والبيض الذي لا بد أن يحدث في جنوب إفريقية». لكن ستيفنسون حذر أيضاً من أن قادة سوداً آخرين سيظهرون، «ربما لن يشاركوا في كراهية العنف وسواها من القيم الحضارية التي كانت ركناً في خطاب السيد مانديلا».[83]

مضحك أن مانديلا كان يمتدح كمخلص محتمل يستحق دعم الغرب، من قبل دبلوماسيين لم يحاولوا الالتقاء به، في الوقت الذي أصبح بعيداً عن منالهم تماماً. كانت بريتورية واثقة بأنه خلال بضع سنوات سيكون قد تلاشى بعيداً عن الأنظار والقلوب، ويصبح المؤتمر الوطني الإفريقي منسياً ومتروكاً. هذه التوقعات سرعان ما أصبحت وشيكة الحدوث.

لقد دخل مانديلا السجن بكل مجد قائد فُقد، ضمن هالة من الشهادة. صحيح أنه لم يكن يستطيع الادعاء بأنه قائد عسكري كبير، أو مخطط ثوري. وفت في عضد المؤتمر الوطني الإفريقي الحظر تلو الآخر، كما كان أداؤه طائشاً، كما ثبت في ريفونية، في حين كانت سهم الأمة (إم. كي) بعيدة عن كونها قوة مقاتلة منضبطة. في العقد الماضي لم تبد قيادة مانديلا تصعد هرماً منتظماً، بقدر ما كانت صوراً متتالية لرجل في موقع الحركة، يقود من الجبهة، زعيماً لمتحدين متطوعين، كان المناهض الذي يلقي خطابات وهو متهم بالخيانة، كزبرة الثعلب السوداء الملتحية وهي تعمل في الخفاء، البطل القبلي بهندامه الكامل «يحمل إفريقية على ظهره»، قائد حرب العصابات في حلة (كاكية)، ويحمل مسدساً. لطالما بدت هذه الصور نظرية أكثر مما هي واقعية،

لكن الرمز، المثل الأعلى، والثياب والأداء كانت تجليات مؤثرة لشعبه، كما كانت لتشرشل أو لغاندي. وبمقدرته على عكس إحساس الشعب وتجسيد تطلعاته، أصبح مانديلا سياسياً كبيراً في زمانه.

لقد خرج من محاكمتين أكثر قوة وعمقاً من أي وقت تصور أصدقاؤه المقربون أنه ممكن. لقد همدت الخيلاء والعدوانية اللتان كانتا في البداية، والاستعراضية التي عبرت عن نفسها في أدوار مختلفة، وتكثفت في التزام واضح وحيد، ولم يكن لأحد أن يزرع الشك في مدى تضحيته. لقد كان اندفاعه نحو القيادة في مستوى التحدي، وبدا، كما قال جورج بيزوس، في سلام مع نفسه.

المحنة الكبرى لم تأت بعد فكل ميادين قتاله قد تقلصت الآن إلى خشبة مسرح صغيرة، ستقدم خطاً أكثر حميمية في شخصيته.

الجزء الثاني

1990 - 1964

15

سيد قدري

1964 ـ 1971

كان الحكم على مانديلا بالسجن المؤبد اختباراً لتصميمه أكثر خطورة من سنتيه السابقتين في السجون جنوب إفريقية. لقد أصبح الآن مقطوعاً عن العالم وهو في أوجه، في سن السادسة والأربعين، وبلا نهاية تلوح في الأفق. إنه لم يكن يوماً زاهداً مثل غاندي أو لينين، وفي رسائله كان دائماً يحن إلى مباهج سويتو أو الترانسكي، كان يحن إلى الطعام، والطبيعة والنساء والموسيقى. والآن تنكمش الطبيعة المشرقة والشخصيات، في المسرح الخاوي والوحيد المحصور في زنزانته وفي الباحة العامة.

لكن هناك عزاء قوي في أنه لم يكن وحيداً. فقد كان معه بعض أصدقائه الخلص الذين كان بعضهم يدعم معنويات وعزم بعض، ويطورون عمقاً أكبر وفهماً للذات. في عصر يميل معظم سياسييه إلى نسيان مثالياتهم المبكرة، سعياً وراء السلطة، كان مانديلا مجبراً على التعمق في سبر مبادئه وأفكاره. وفي عالم السجن المصغر المجرد من جميع زخارف السياسة ـ من منابر وأبواق، وصحف وحشود، وبزات أنيقة ـ محشوراً مع زملائه كل يوم، كان قادراً، على حد تعبيره، على الابتعاد عن نفسه، ليرى نفسه كما يراه الآخرون.[1] تعلم أن يضبط مزاجه وإرادته القوية، وأن يجمع تفكيره ويقنع، وأن يمد نفوذه وسلطته ليس على السجناء الآخرين فحسب وإنما على السجانين.

بين السجناء السود وحراسهم البيض كان ميزان النفوذ يتغير باستمرار

داخل العالم المغلق. لكن، بالتدريج، رسخ السجناء نفوذهم ومانديلا قائدهم، بما لديهم من دافع وتكاتف أكثر من السجانين. كانت هناك تشابهات كثيرة مع سجناء سياسيين آخرين من القرن العشرين ـ غاندي في الهند، أو بعض أعضاء الجيش الجمهوري الأيرلندي ـ لكن الرسائل، وسجلات السجن وذكريات سجناء جزيرة روبين على مدى العشرين سنة التالية تقدم سجلاً فريداً للسياسة النفسية في سجن يستطيع السجناء فيه في النهاية السيطرة على حراسهم.

بقي السجناء السبعة عدة أيام في سجن بريتورية المحلي، وما زالوا مبتهجين للنجاة من حكم الإعدام. وفي الواحدة من صباح 12 حزيران (يونيو) 1964 قيل لهم أن يحزموا أمتعتهم لأنهم سينطلقون فوراً إلى جزيرة روبين.

كبلت أيدي الستة الآخرين بالأصفاد وربطت أرجلهم بالحديد مثل العبيد، أما مانديلا فلم يقيد.[2] ودفعوا داخل شاحنة تابعة للشرطة واقتيدوا إلى المطار العسكري. ورحلوا بطائرة عسكرية قديمة غير مدفأة من طراز داكوتا، حطت بعد الفجر مباشرة على مدرج جزيرة باردة تعصف بها الرياح يحيط به حرس مسلح.

أصبحت جزيرة روبين مكاناً أكثر همجية عما كان عندما حل به مانديلا منذ سنتين. وقد جهز ليستقبل كثيراً من سجناء الأمد الطويل، وأعيد تنظيمه وفق مبادئ الأبارثيد الصارمة. حيث كان جميع السجانين من البيض، المصممين على فرض تفوقهم العرقي. وكانت هناك بعض /الممارسات/ الوحشية ـ كما كان السجانون يسمون هجماتهم ـ فقد قاموا مؤخراً بالتهجم على السجناء السياسيين بالضرب، الذي أسفر عن إصابة أحد ناشطي المؤتمر الوطني الإفريقي، وهو أندرو ماغوندو Andrew Magondo بجراح خطيرة.[3]

بدأ مانديلا ثانية بمجابهة. كانت هذه المرة حول مسألة الثياب، التي كان يراها دائماً جزءاً من كرامته لن يتخلى عنه. وزود السبعة ببنطلونات (كاكية) قصيرة متماثلة ـ وهو الزي الموحد /للولد المحلي/ ـ باستثناء كاثرادا الذي

منحوه بنطلوناً طويلاً، لكونه هندياً. احتج مانديلا على البنطلون القصير، وبعد بضعة أيام وجد بنطلوناً طويلاً ملقى في زنزانته فكتب: «لم أفرح بأية بزة من ثلاث قطع فرحي بذاك البنطال». ولكن عندما حرم البنطلون الطويل على بقية السجناء احتج ثانية، وتركهم يأخذون بنطلونه. ولم يرتدوا جميعاً بنطلونات طويلة إلا بعد مرور ثلاث سنوات.[4]

عومل مانديلا بحرص أكثر من الآخرين. وشك أن سلطات السجن وضعت في اعتبارها أصدقاءه المهمين وارتباطاته الملكية.[5] فلم يقيد وهو على متن الطائرة، ولدى وصوله إلى الجزيرة، خصص بطعام حمية بسبب وضعه الصحي. وسمح له بمتابعة دراسته بالمراسلة للحصول على درجة الإجازة في الحقوق من جامعة لندن. وكانت تصله كتب الحقوق عن طريق السفارة البريطانية، حيث كان دافيد أستور يرتب ذلك في لندن. وقد كتب إلى السفير: «سأفعل كل ما بوسعي لأبرر ثقته بي».[6] وسرعان ما أعطي مانديلا طاولة وكرسياً في زنزانته على الرغم من أنه لم يكن مسموحاً له ببعض الكتب الحساسة.[7] ولدى منحه كل هذه المزايا شعر بالحاجة إلى البقاء قريباً من زملائه أكثر من ذي قبل.

وبعد بضعة أيام في بناء السجن القديم. نقل الرجال السبعة في 24 حزيران (يونيو) ـ اليوم الذي يسبق يوم الاحتجاج التقليدي في المؤتمر الوطني الإفريقي ـ وأخذوا بالسيارة إلى بناء جديد فارغ قد أنجز بناؤه حديثاً. مثلث جديد بني حول باحة صخرية، ثلاثة أطراف منها تضم زنزانات صغيرة، والجهة الرابعة عبارة عن جدار عال يسير على ممر ضيق أعلاه سجان يحمل بندقية. أعطوا جميعاً زنزانات متماثلة على أحد الجوانب المسمى قسم العزل أو القسم ب. كانت زنزانة مانديلا تبلغ ثمان أقدام طولاً بسبع أقدام عرضاً، لها نافذة صغيرة ثبتت عليها قضبان، تشرف على الباحة، وكانت الزنزانة مجهزة بحصير من القش وثلاث بطانيات رقيقة. هذه الزنزانة ستكون بيته لمدة ثمانية عشر عاماً.

في البداية توقع السجناء ومحاموهم أنهم سيبقون في السجن عشرة أعوام كحد أقصى.[8] وعلى الطريق إلى جزيرة روبين من بريتورية. أكد لهم الضابط المحقق الشاب الودود الملازم فان وايك أن الرأي العام العالمي سيخرجهم من السجن خلال خمس سنوات: «ستكون البنات بانتظاركم».[9]

وقد ذكر مانديلا أن بعض السجناء كانوا يسألون جادين إن كانوا سيمضون عيد الميلاد هناك[10]! لكنهم سرعان ما اضطروا إلى مواجهة حقيقة أنهم سيبقون في جزيرة روبين فترة طويلة. وأن حياتهم ستكون «كئيبة بلا خلاص».[11] كان هناك وجه من الوحشية لم يكن يعرفه من قبل. حيث قال فيما بعد: «لن تعرف مدى قسوة الإنسان على الإنسان حتى تمكث في أحد سجون جنوب إفريقية مع سجانين بيض وسجناء سود»[12]، فقد حرموا من المذياع أو الصحف. وفي البداية لم يكن مسموحاً لهم بكتابة أو تلقي أكثر من رسالة واحدة لا يتجاوز عدد كلماتها الخمسمئة، كل ستة أشهر. كان مسموحاً لهم بمراسلة دائرة أسرتهم المباشرة، وقد طمس الرقيب بعض فقرات من رسالة ويني الأولى لمانديلا. وكانت المقاطع المراقبة من الرسائل ترسل إلى مأمور السجون لتعطي فكرة عن خلفية السجين السياسية، بينما بعض الرسائل من السجناء التي تحتوي ما يفترض أنه معلومات سياسية فقد كانت تحتبس وتفحص ثم تودع سجلات السجن، مما يعكس عناد وتفاهة المراقبة.[13]

بقي السجناء السياسيون واثقين ثقة فائقة بقوة قضيتهم وأفكارهم، على نقيض كامل لسجناء القانون العادي في الزنزانات الأخرى. وقد قال مانديلا بعد إطلاق سراحه: «الأمر الذي كان مهماً هو حقيقة أن الأفكار التي أرسلنا بسببها إلى جزيرة روبين لن تموت أبداً. ولذلك كنا قادرين على اجتياز بعض التجارب الأكثر قسوة التي يستطيع الكائن البشري أن يخلفها وراءه. خاصة في أحد سجون جنوب إفريقية حيث يختار السجانون من بين الذين كانوا دائماً يعاملون السود كما لو أنهم خرق بالية».[14] يذكر سيسولو: «لم نفقد الثقة أبداً. وإذا

أعدنا التفكير في تجربة ريفونية وجدنا أن الأفكار السياسية التي رفعناها يمكن متابعتها سواء كنا أحياء أو أمواتاً. كنا مؤمنين بالأفكار». [15] وقال كاثرادا: «إذا دخلت السجن بروح سلبية فإن كل دقيقة تصبح سعيراً. لم يكن أحد ليتصور أن مانديلا سيصبح رئيساً، ولكننا كنا نعرف أننا سنفوز». [16] وعلى الرغم من النكسات، كان مانديلا مقتنعاً، كما كتب في عام 1975: «إنني خلال مدة حياتي سأخرج إلى ضوء الشمس وسأمشي ثابت الخطوة». [17] وقال ماك ماهاراج: «إن الإنسان يستطيع التكيف مع أبشع الظروف إذا شعر أنه ليس وحده. وإذا شعر أنه يتمتع بالدعم فيما يفعله». [18] وكان ماهاراج قد وصل إلى جزيرة روبين في أوائل عام 1965.

بعد أسبوعين في الجزيرة حظي السجناء باتصال قصير مثير للشجون مع البر الرئيس عندما سمح لمحاميهم برام فيشر وجويل جوف بزيارتهم، ليسألاهم ثانية إذا كانوا يرغبون بالاستئناف. وقد رفضوا جميعاً. إذ اعتقدوا أن محاكمة ثانية ستكون هبوطاً مفاجئاً. فيما كان مانديلا واثقاً من أن الاستئناف لن ينجح في كل الأحوال. [19] وقد كان سعيداً لرؤية فيشر ثانية، لكنه وقع في حيرة، إذ عندما سأل فيشر عن زوجه مولي أشاح بوجهه. وبعد مغادرة المحاميين قيل له إن مولي قد قتلت بحادث سيارة. وسمح له بكتابة رسالة تعزية، لكن السجن لم يودعها البريد. [20] بعد ذلك بفترة قصيرة لجأ فيشر - إسمه الحركي شورتي (القصير) - إلى العمل في الخفاء، وعندما قام جورج بيزوس، محامي مانديلا الآخر، بزيارة الجزيرة، أشار له مانديلا بإحدى يديه مستفسراً فيما ترك يده الأخرى منخفضة بمعنى «ماذا حدث لشورتي/ القصير؟». [21]

كان نمط حياة السجناء اليومي قاسياً بشكل متعمد، كجزء من عقابهم. حيث كانوا يوقظون في الخامسة والنصف لينظفوا زنزاناتهم ويغتسلوا ويحلقوا بالماء البارد وبدلو معدني. وكانوا يتناولون إفطارهم في الباحة، من برميل مملوء

بحساء الذرة، كان مانديلا غالباً ما يجده غير صالح للأكل، ويقدمون معه شراباً من الذرة المشوية المنقوعة في ماء ساخن. وكان أحد السجانين يقوم بالتفتيش، وكان عليهم أن يرفعوا قبعاتهم له. ثم يعملوا حتى منتصف النهار في الباحة الباردة في منتصف الشتاء، حيث يجلسون في صفوف يضربون الصخر بالمطارق لتحويله إلى حصى! فيما السجانون يراقبونهم. كان عقاباً حرياً به (كما كتب نيفيل ألكساندر في تقريره) أن يدفع أكثر الرجال رباطة جأش إلى حالة من الغضب.. إذ يضطر إلى الجلوس تحت الشمس بلا حراك (لمدة أشهر في البداية) دون السماح له بالحديث مع جاره، وكان ذلك هو الجحيم على الأرض.[22]

في منتصف النهار كانوا يتناولون مزيداً من أكواز الذرة المسلوقة. ثم يعملون حتى الرابعة، حيث يغتسلون لمدة نصف ساعة بالماء البارد في حمام، وهناك يستطيعون تبادل بضع كلمات. ثم يتناولون العشاء، من الذرة أيضاً، أحياناً مع خضار ذابلة أو قطعة لحم، في زنزاناتهم. في الثانية يقوم سجان الليل بدورية في الممرات ليتأكد من أنهم لا يقرؤون أو يكتبون، على الرغم من أنهم كانوا يستطيعون أن يهمس بعضهم لبعض أحياناً، وسرعان ما سمح للسجناء الذين يتابعون دراستهم بالقراءة حتى وقت متأخر. كانت كل زنزانة مزودة بمصباح كهربائي وحيد من فئة أربعين واط، حيث يترك السجناء مع أسرتهم العارية وأفكارهم الموحشة حتى الصباح.

في كانون الثاني (يناير) 1965 بدؤوا عملاً أكثر مشقة في مقلع الكلس، الذي سيكون مركز حياة مانديلا اليومية في السنوات القليلة القادمة. هناك كان عليهم أن يعزقوا الصخر ليصلوا إلى طبقات الكلس، الذي كانوا بعد ذلك يستخرجونه بمعول ورفش. كان المكان، موقع عمل، لا يرحم، لا مهرب فيه أو وقاية من برد الشتاء أو الحر القائظ في منتصف الصيف. وقد قال السجان جميس غريغوري James Gregory: «كنت أحمد الله دائماً لأني لم أكن مجبراً

على دخول تلك الحفرة، لقد كانت فرناً حقيقياً. في الصيف كانت الجدران تصد أية نسمة مرطبة تتسلل من المحيط. لم يقتصر الأمر على أنهم كانوا يحرقون من الأعلى بأشعة الشمس، وإنما أيضاً داخل المقلع حيث كانت أشعة الشمس ترتد عن الحجر الأبيض، وتنعكس على عيونهم وتحرقها». [23] منعت عنهم النظارات الشمسية لثلاث سنوات. وكثير منهم تعرضت أجفانهم للأذى. منع كاثرادا من استخدام نظارات الشمس، لأنه بموجب رسالة من مفوض السجون، كان ينتمي إلى ذلك الصنف من الناس الذي يريد أن يكون فوق رفاقه باستخدامه نظارة شمس وحمله مظلة مطوية وحقيبة أوراق. [24] وبعد ثلاث سنوات سمح لهم بنظارات شمسية إذا دفعوا ثمنها. ولم تشف عينا مانديلا أبداً، وحتى بعد إجراء عملية لهما كان يقرأ بصعوبة.

كان مانديلا يفضل الجهد والهواء الطلق والإطلالات على الطبيعة في المقلع أكثر من الباحة المحصورة. وسرعان ما أصبح بإمكان السجناء العمل بوتيرتهم الخاصة لمدة قصيرة بمساعدة أغاني عمل إفريقية أصبحت نضالاً سياسياً. وعام 1965 انضم إليهم في المقلع ثلاثمئة مجرم، بدأوا يضايقونهم - بموافقة السجانين حتماً - بأغنية عمل ساخرة. / بيفوناني أي ريفونية/ (ماذا كنت تريد في ريفونية؟) رد السجناء السياسيون بأغاني العمل الخاصة بهم، التي أصبحت أكثر جرأة. وكان بينها أغنية كزوسية تقول: «عمل الرجل الأبيض لا يكتمل أبداً: أمسك ركبتيك»، بمعنى توخ البطء، لكن أحد السجانين، وهو جوردان، كان يفهم الكزوسية، فمنع الغناء. [25]

كان مانديلا في عالم صغير جداً ومغلق. فالسجناء السياسيون الثلاثون الغرباء في قسم العزل لم يكونوا ليتصل بعضهم ببعض إلا عندما يغتسلون، أو يتناولون وجبات الطعام، أو في المقلع. لكنهم كانوا معزولين عن بقية السجن. وتقلصت الأبهة المتغيرة لحياتهم مع أسرهم وزملائهم وجماعاتهم إلى مشهد مصغر من مسرحية طال عرضها، وتعاد.. قال مانديلا، الذي كان دائم

الإحساس بأنه على مسرح: «كان الجمهور الوحيد هو نحن ومضطهدينا». [26] وقال إيدي دانيال: «كنا عالماً من ثلاثين شخصاً». [27]

في قلب هذا العالم كان هناك الرجال السبعة القادمون من ريفونية، الذين يعرفون بعضهم بعضاً منذ عشرة أو عشرين عاماً، ومن ضمنهم مانديلا وصديقاه موضع ثقته سيسولو وكاثرادا، وكان سيسولو يكبره بستة أعوام، وما يزال معلم مانديلا الرئيس. وقد قال فيكيل بام، وهو واحد من السجناء الشباب: «كان نيلسون يعرف أن سيسولو في الحقيقة هو الذي قولبه بأكثر من طريقة. لا أعرف واحداً لا يقبل وولتر كقائد». [28] كتب مانديلا في السجن عن مدى إعجابه برؤية سيسولو الواضحة وحكمته وسهولة مناله وانفتاحه على الأفكار الجديدة، وبساطته وحبه للطبيعة. وقد شارك مانديلا سيسولو في بعض عاداته مثل عبارة «ما تسميه..» وقد ساعد سيسولو في تعليم مانديلا كيف يرى الجانب الأفضل في كل شخص ـ الأمر الذي قد يثير غضب المزيد من زملائه الميالين إلى القتال ـ ولكن في أي وضع خطير كان سيسولو في المقدمة. [29] قال بام عنه: «كان حملاً في البيت، ولكن وقت المطاردة كان ليثاً. كان ليناً في شخصه، لكنه لم يكن ليناً أبداً مع المبدأ». [30]

كاثرادا، أصغر السبعة بفارق كبير، والهندي الوحيد بينهم، كان صامداً بالقدر نفسه، وكان غيرياً وهادئ النفس ربما بسبب سالفته الإسلامية. كان شيوعياً منذ أيام الدراسة، لكنه كان يسخر من العقديين (الدوغماتيين)، وكان مانديلا يستمتع بحضور بديهته المذهل، كان دائماً مخلصاً لمانديلا وكان يناديه / مدالا/ (أي الكبير)، بدافع الاحترام، لكنه، مثل سيسولو، كان يشعر أنه حر في النقد وكان مانديلا يعتبرهما مرآتين يستطيع من خلالهما أنه يرى نفسه بصدق. [31]

غوفان مبيكي كان الأكبر سناً والأفضل ثقافة. كان ضخم الجثة له ابتسامة بريئة وصوت واعظ رنان. ولما كان ابن مزارع مسيحي فقد تلقى تعليمه في

المدارس التبشيرية وسمي باسم أول مدير للوفديل، ويليام غوفان.[32] ومثل مانديلا ذهب إلى هيلدتاون وفورت هير، أصبح بعدها صاحب حانوت، ومدرساً، وصحفياً، ومنظراً سياسياً، وجد في الماركسية ديناً جديداً، وهضم التاريخ والسياسة الاقتصادية بنكهة ماركسية قوية. كان عناده قادراً على إحراج زملائه، كما فعل عندما ألزمهم بعملية ماي بوي، وكان أسلوبه التدريسي مناقضاً لطرح مانديلا المتسائل. وقد قال سيسولو: «كانت النزعة القتالية لديه نظرية، في الوقت الذي كنا مضطرين للواقعية في تقييم وضعنا».[33]

كان ريموند مهلابا قريباً من مبيكي، وكان من الكيب الشرقي، ابن رجل شرطة، ومن أوائل الذين انضموا بشجاعة إلى حملة التحدي. كان مانديلا يحب طرحه الواقعي لكونه / ابن الأرض/[34] كان أكثر تمهلاً من مبيكي وسواه في المشاركة في نقاش سياسي، وأصبح مانديلا يقدر طرحه التصالحي. فقد كان متأثراً بتعليمه التبشيري، وقد سر كاثرادا مرة عندما سمع مهلابا يفقد أعصابه مع أحد السجانين ويناديه: «أنت أيها الـ. الفاشي». وقال كاثرادا: «أبناء البعثات التبشرية هؤلاء يفضلون العنف على الكلام البذيء».[35]

كان السجينان الريفونيان الآخران أندرو بلانجيني والياس موتسوليدي، من نقابات الطبقة العاملة قد ضحيا بأسباب عيشهما من أجل النضال. وكانا أقل التصاقاً بمؤامرات ريفونية، وتوقعا أن يخلى سبيلهما. وكلاهما ينتمي إلى بيئة فقيرة جداً، وقد ثقفا نفسيهما. وقد تحمل مانديلا بعض المشقة لأجل المساعدة في تعليم أطفال الياس.

أما الأعضاء الآخرون في المؤتمر الوطني الإفريقي المودعون في قسم إفرادي فقد حوكموا في محاكم أخرى. وكان بينهم دينيس بروتوس Dennis Brutus وهو شاعر من بورت اليزابيث، واثنان من المحاربين القدماء في قضية الخيانة هما جورج بيك George Peake وهو من مروجي حملة الملونين من كيب تاون، وبيلي نير Billy Nair وهو مخرب هندي شجاع من دوربان. كان نير

قد أمضى أربعة أشهر في الجزيرة، وقد جعلته المعاملة الرديئة عدوانيا جداً. وعندما انضم إلى قسم العزل صادقه مانديلا وأقنعه بأن يهدأ. تأثر نير بأسلوب مانديلا الرزين، لكنه وجده دائماً متكتماً تكتماً يدعو إلى الجنون بشأن حياته الخاصة.[36]

أوائل عام 1965 وصلت مجموعة من المقاتلين الفدائيين إلى قسم العزل. وقد أصدرت الأحكام بحقهم في أعقاب ما سمي «محاكمات ريفونية الصغيرة». وكان بينهم ويلتون مكواي Wilton Mkayi، وهو نقابي من بورت اليزابيث ترأس حربة الأمة (إم. كي) بعد اعتقالات ريفونية. ولالو تشيبا Laloo Chiba وهو خياط سابق سيثبت أن لديه مهارات لا تقدر بثمن في نسخ الوثائق بخط دقيق جداً، وماك ماهاراج، وهو هندي رفيع الثقافة من دوربان أصبح واحداً من حلفاء مانديلا الموثوقين. كان شخصاً نحيلاً له لحية عنز كبيرة، وقد تلقى تعليمه في مدرسة لندن للاقتصاد بالإضافة إلى جامعة ناتال، كان ماهاراج يجمع حدة الذهن إلى الشجاعة الكبيرة. وقد قاوم التعذيب القاسي . وفي جزيرة روبين سيعيش فترة من اليأس عام 1970 عندما كان في الخامسة والثلاثين، لكنه استعاد صحته المعنوية ليبدأ بالتآمر من أجل مخططات جديدة للهرب.[37]

اختلط أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي مع سجناء من أحزاب سياسية أخرى، مما أتاح لمانديلا فرصة فريدة لمعرفتهم معرفة أفضل. وكان قراراً غير عادي ذلك الذي اتخذته الحكومة باحتجاز جميع السجناء السياسيين في الجزيرة. وقد قال لي فيما بعد الجنرال ويليمز Willemse، أحد الضباط المسؤولين في جزيرة روبين: «إن بعض الناس قالوا إن من الأفضل توزيع السجناء على 165 سجناً في البلاد. ولكن سيكون هناك تأثير سلبي بنشر نفوذهم. وكان من الأفضل أن يبقوا تحت المراقبة».[38] وقال سجين من المؤتمر الإفريقي العام وهو ديكغانغ موسكيني: «اعتقدوا أننا مادة سامة جداً حتمت وضعنا في قارورة واحدة. وكان لذلك فعل السحر».[39]

اعتقد مانديلا أن تلك كانت من أكبر أخطاء الحكومة، لأنها سمحت للأحزاب المنافسة أن تجد أرضية مشتركة. لم تكن موجودة خارج السجن.[40] وسرعان ما أصبحت جزيرة روبين مخبراً سياسياً أو ورشة.

في البداية كان سجناء المؤتمر الإفريقي العام، وهو الهيئة المنافسة الرئيسة للمؤتمر الوطني الإفريقي، هم الأغلبية. وقد احتجز رئيسهم المؤسس روبرت سوبوكوي في بيت منفصل في الجزيرة حتى عام 1969 ـ عزلة قاسية أسهمت في إفقاده الإحساس بالزمان والمكان فيما بعد ـ لكن الآخرين كان الاحتكاك بهم ممكناً أكثر فأكثر. بدأ كثير من أعضاء المؤتمر الإفريقي العام بشجب حاد لسجناء المؤتمر الوطني الإفريقي، وكان بينهم هنود وملونون. وقد قال كويدي مكاليبي الذي وصل عام 1966: «كنا نرى الأمور فقط من زاوية لون بشرة الفرد. ثم أتينا إلى جزيرة روبين. كان الوضع غريباً! لأننا الآن لأول مرة، ربطنا في حزمة واحدة مع المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي كنا نعتقد صادقين بأنهم جميعاً ماركسيون. الأمر الذي جعلنا نكون في موقف المغالي في التعصب». ولن ينسى مكاليبي أبداً تماسه الأول مع سيسولو، إذ قال سيسولو: «أنا من منطقتك نفسها، ومانديلا أيضاً من منطقتك. ومانديلا يحب أن يتحدث معك. أنا أعرف موقفك، ولكن هذا ليس المكان المناسب لنعرب عن تبايننا».[41]

وجد مانديلا معظم سجناء المؤتمر الإفريقي العام يفتقدون الشعور بالأمان «معادين للشيوعية ومعادين للهنود عداءً لا يعرف الخجل».[42] اعتقد كاثرادا أنهم «بلا لون، ومتعصبون، ضيقو الأفق وعنصريون»، ولديهم «مركبات نقص كبيرة جداً».[43] لكن مانديلا كان مصمماً على إقامة حوار وأن يجهز أرضية للوحدة فيما بعد خارجاً. فأجرى محادثات مع زيف موثوبنغ Zeph Mothopeng وهو أستاذ سابق ثابت في مبادئه، كان من مؤسسي المؤتمر الإفريقي العام، لكن لم تترك المحادثات أثراً كبيراً قبل أن يغادر موثوبنغ

الجزيرة عام 1967. وأحرز مانديلا نجاحاً أكثر مع خلف موثوبنغ كلارنس ماكويتو Clarence Makwetu الذي أصبح رئيساً للمؤتمر الإفريقي العام فيما بعد، والذي وجده أكثر توازناً ومنطقاً، لكن الحوار تداعى بعد أن غادر ماكويتو وخلفه جون بوكيلا John Pokela.[44] كان معظم سجناء المؤتمر الإفريقي العام يفضلون الاحتفاظ بخلافاتهم مع سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن كثيرين أصبحوا يحترمون آراءهم وقيادتهم.

واجه مانديلا نقاشات ثقافية مجردة أكثر مع التروتسكيين من حركة الوحدة، مناوئيه القدامى. وكان أكثرهم وضوحاً هو نيفيل ألكساندر Neville Alexander، وهو أكاديمي ملون من جامعة كيب تاون يحمل درجة الدكتوراه من توبينجن في ألمانية، الذي تعلم منه مانديلا الكثير.[45]

بقي ألكساندر بعيداً عن الاحتجاج النشط إلى أن تهور بالانضمام إلى جماعة صغيرة متطرفة من المتآمرين هم نادي يوتشي تشان وحكم عليه بتهمة الإفساد وحيازة منشورات عن أعمال التخريب، وأرسل مع خمسة آخرين إلى جزيرة روبين عام 1964. كتب كاثرادا لأحد الأصدقاء عام 1972: «شباب يوتشي تشان المساكين (جميعهم) لم يستفيقوا على حقيقة السياسة إلا مع صدمة اعتقالهم وسجنهم. وبعامة كان طرحهم فجاً ومثالياً».[46]

كان ألكساندر رجلاً صغير الحجم، شاباً وسريع الغضب، كما وصف نفسه فيما بعد، وكان اختلافه الجذري عن مانديلا الأكبر سناً والذي يتحدث ببطء ملفت الانتباه. شعر مانديلا أن ألكساندر متضايق من طوله، «وأنه أحياناً كان يريد أن يرميه بحصاة»، ولكنه اكتشف أنه يستطيع نزع سلاحه بابتسامة.

بدأ ألكساندر برأي وضيع عن المؤتمر الوطني الإفريقي لكونه كياناً عرقياً عزل نفسه عن الحركات الهندية والملونة. لكنه رحب بفرصة الحوار مع مانديلا نفسه. وخلال سنة تحاورا حوار رجل لرجل، لمدة تربو على ثلاثين ساعة حول المسألة القومية: هل جنوب إفريقية أمة؟ كان ألكساندر يعتقد (مثل بقية أعضاء

حركته) بعدم وجود شعور قومي، أو وحدة وطنية في جنوب إفريقية: «كنا نكرس وقتنا لبناء أمة».[47] أصر مانديلا على أن الشعب الإفريقي أمة، بينما الآخرون أقليات أو جماعات وطنية. وعندما طلب ألكساندر من مانديلا أن يحدد أوصاف الشخص الملون مثله هو، أجاب بأن الملونين هم نتاج وحدة أبيض وأسود. أجاب ألكساندر بأن هذا رأي بيولوجي عرقي، وأن لا داعي لمتابعة نقاشهما. يذكر مانديلا أن «نيفيل أعطى وجهة نظر الأحزاب السياسية غير العرقية وأنا قلت إن ذلك كان مبكراً بالنسبة للأشخاص العاديين. انظر إلى ما يحدث في الاجتماعات السياسية، إنهم يبقون متقوقعين ضمن جماعاتهم الخاصة. دعونا نتابع الإصرار على مجتمع متعدد الأعراق، وإن كان ذلك يستغرق وقتاً».[48] أصبحت نقاشات السجن أكثر موضوعية في عقد الثمانين، عندما أنشأ الدعاة من جميع الأعراق جبهة واحدة ضد الأبارثيد. وفي عقد التسعين سيقترب بعضهم من بعض أكثر في حكومة جنوب إفريقية الجديدة، فقد تحدث الرئيس مانديلا بلغة / بناء الأمة/ .

في الجزيرة سرعان ما راجع ألكساندر رأيه بمانديلا. واعترف فيما بعد: «في الأشهر القليلة الأولى كنا كريهين حقاً. ولولا نضج وزعامة نيلسون وولتر وغوفان وآخرين لكان الوضع مرعباً في ذلك السجن.. كنا سنصبح مهمشين تماماً، ومنبوذين من قبل الجميع». رأى ألكساندر في مانديلا حيواناً سياسياً، وليس فيلسوفاً، لكنه كان مأخوذاً برهافة حسه ومهاراته في النقاش. ولاحظ أن مانديلا كان أحياناً يبدي ضعفاً في نقاش، يعود فيما بعد ليحوله لمصلحته، مثل الهجوم المخادع في الملاكمة: «يظن الشخص الآخر أنك ضعيف، ولكن في الحقيقة إن إقرارك بضعفك ما هو إلا قوة» و«في معرض الانتباه الحيوي المنظم والحقيقي لمنطق أي نقاش». كان ألكساندر يعتقد بأن مانديلا في النهاية كان «متقدماً أشواطاً على أي واحد فينا».

تجادلوا بروح رياضية حتى تموز (يوليو) 1967، عندما علموا أن ألبرت

لوثولي، رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي، قد مات. قال ألكساندر: إن لوثولي قد خان رفاقه إذ قاوم الكفاح المسلح وقبل جائزة نوبل للسلام: «من الصعب أن تتحدث في الحرب والسلام في الوقت نفسه».[49] وعندما أقام سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي قداساً لذكراه في جزيرة روبين، تهجم ألكساندر على لوثولي تهجماً لاذعاً. فأعرب مانديلا عن استيائه لأن ألكساندر لم يبد أي أسف «حتى أسفاً لا مبالياً لوفاة الرجل».[50] اعترف ألكساندر فيما بعد أنه تسبب في إزعاج لا حاجة إليه، لكنه تألم كثيراً لتعنيف مانديلا له في سيرته الذاتية لعام 1995 لأنه كان رئيساً وقتها، وإذا أعرب عن استيائه من أحد فإنه يصبح كالشيطان.[51]

كان معظم زملاء مانديلا، آلياً، يعتبرونه قائدهم كما قادهم من مخبئه، وكانوا يدلون أي زائر على زنزانته لكونه ممثلهم. وقد قال غوفان مبيكي «لم يكن يرفض أن يسأل، نحن جعلناه الناطق باسمنا عندما أتينا إلى السجن».[52]

بالنسبة لبعض السجناء كان مانديلا ما زال يبدو محتاراً بين دوريه السابقين دور الزعيم التقليدي، ودور القائد الديمقراطي. وقد قال فيكيل بام «كان يميزه ذلك الغرور الذي ينبثق تلقائياً من أصوله في الزعامة. وكان سيسولو هو الذي خلصه من تبعات ذلك».[53] إلا أن زملاء مانديلا المقربين رأوا في استقلاله برأيه جزءاً من سعيه وراء الوحدة والإجماع. قال سيسولو: «لقد حاول أن يكون بناء، وأن يأخذ موقفاً يعتقد أنه أكثر ملاءمة لقائد المؤتمر الوطني الإفريقي فتفادى التعبير عن مشاعره وفضل أن تكون صورته متوازنة».

كان قادة المؤتمر الوطني الإفريقي أوثق ارتباطاً من الآخرين. وقد قال سيسولو: «لقد أنشأنا فريقاً متيناً جداً. لأننا كنا يعرف بعضنا بعضاً معرفة جيدة، ونعرف فيم يفكر الآخر».[54] وسرعان ما أعادوا ترتيب بنيتهم الخاصة في الجزيرة، فعينوا / جهازاً أعلى/ من أربعة سجناء ليكون الهيئة الحاكمة، وجميعهم كانوا في التنفيذي الوطني السابق للمؤتمر الوطني الإفريقي وهم:

مانديلا، سيسولو، مبيكي ومهلابا. وقرر الجهاز الأعلى سياسة تجاه سلطات السجن ونظاماً داخل قسم العزل. وهرّبوا قراراتهم إلى المساجين الآخرين بواسطة لجنة الاتصالات بزعامة كاثرادا وعضوية مايكل دينغاك Michael Dingake جو كابي Joe Gqabi التي اتبعت طرقاً حاذقة لتهريب الرسائل إلى السجناء السياسيين في أبنية أخرى.

كانت معنويات سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي تعتمد اعتماداً كبيراً على سماع أنباء طيبة من الخارج، كانت في البداية نادرة. ولكن في عام 1967 وصل مزيد من الفدائيين إلى الجزيرة يحملون قصصاً مثيرة يحكونها عن كونهم قد قاتلوا فعلاً في جنوب روديسية أعضاء في /كتيبة لوثولي/ التي كانت تحاول العبور إلى جنوب إفريقية. وانضم جاستيس مبانزا Justice Mpanza أحد قادة حربة الأمة (إم. كي) إلى قسم العزل، وشعر مانديلا، أول قائد أعلى، بالفخر إذ سمع روايته عن شجاعة القوات وتدريبها، على الرغم من أن الغارة قد فشلت.[55] وفي الزنزانات الجماعية كان سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي يهتزون طرباً، وكتب أزديس نايدو: «تدافعنا نحوهم، نستحلب منهم أدق تفاصيل المعارك، وتدريبهم، وأي نوع من الأسلحة استخدموا».

ثم غنوا معاً أغنية /الجنود/ على إيقاع أغنية مركب الموز BananaBoat:

أعطه بازوكا وقنبلة يدوية

وخذ البلاد على طريقة كاسترو.[56]

إلا أن سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي توخوا الحذر خشية استعداء الجماعات الأخرى. وعندما اعترض أعضاء من الأحزاب الأخرى على تمثيل /الجهاز الأعلى/ لهم، شكلوا لجنة أوسع سموها أولوندي Ulundi. معنية بمعالجة الأمور العامة، ولها رؤساء بالتناوب، من ضمنهم فيكيل بام الذي كان صلة وصل مفيدة بين مانديلا وحركة الوحدة.[57] لكن /الجهاز الأعلى/ بقي القوة السياسية الرئيسة.[58] في البداية كان أعضاؤها جميعهم ممن يتحدثون

الكزوسية، الأمر الذي كان يضايق الآخرين، الذين كانوا يتذمرون أحياناً من أن لغة الكزوسا تشجع المديح من قبل مانديلا أو مبيكي، حتى إذا تحدثوا بالإنكليزية التي أعطوها شخصية الكزوسية. وقد لاحظ نيفيل ألكساندر أن قصص مانديلا التي بدت جافة بالإنكليزية كانت أكثر حيوية بالكزوسية.[59] لكن مانديلا كان يقضي وقتاً مع أشخاص لا يتحدثون بالكزوسية مثل كاثرادا وإيدي دانييلز، وأضاف / الجهاز الأعلى/ فيما بعد عضواً متناوباً إضافياً ـ تضمن بالتتالي كاثرادا ولالو تشيبا وام. دي. ناديو ـ الذي وسع أفقه.[60]

لم يكن أصدقاء مانديلا كلهم سياسيين. فقد كان أحد أقرب أصدقائه ايدي دانييلز وهو ملون فاتح البشرة وهادئ من كيب تاون كان في الماضي يبحر على شاحنات الصيد. وقد كان ينتمي إلى الحزب الليبرالي لكنه انضم فيما بعد إلى جماعة بيضاء في فرعها العنيف /حركة المقاومة الإفريقية/ ، كانت تقوم بأعمال تخريب، حكم عليه بسببها بالسجن خمسة عشر عاماً، كان الليبرالي الوحيد في الجزيرة، معزولاً وليس موضع ثقة من قبل الرفاق الأكثر عداء للبيض، على الرغم أنه لم يكن مسيساً تماماً. في يومه الثاني التقى برجل ضخم يرتدي بنطلوناً قصيراً وقميصاً (كاكياً) وصندلاً، أبهجه أن عرف فيه شخص مانديلا. وعندما قال: «نادني نيلسون». كانت تلك أول كلمات ودودة يسمعها في السجن. بعد ذلك اخذ مانديلا على عاتقه مهمة إعلام دانييلز شخصياً عن اجتماعاته بزائرين، كي لا يشعر بالعزلة. وسرعان ما دعم دانييلز كل من مانديلا وسيسولو: «عندما كنت أشعر بالتشوش كنت أستطيع معانقتهما فأشعر بقوتهما تنتقل إلي.. لم نكن نستطيع أن نرى المستقبل، فقد كان معتماً. لكن مانديلا كان دائماً يراه».

وذات مرة عندما كان دانييلز مريضاً لا يستطيع حراكاً أتى مانديلا إلى زنزانته وأفرغ المبولة. وعندما اكتشف أحد السجانين أن دانييلز يكتب مذكراته واستدعاه للمثول أمام السلطات في الصباح التالي، أمضى دانييلز الليل يرتعد

خوفاً، ولكن بعد الفطور وجد مانديلا جالساً في زنزانته، ليعزز ثقته: «داني.. أعرف أن بإمكانك التعامل مع هذا الموقف». ويذكر أن دانييلز «شعر أن معنوياته قد ارتفعت، ارتفعت تماماً».[61] بالمقابل كان دائماً يحاول مساعدة مانديلا وسيسولو، قال سيسولو فيما بعد «لقد كان طيباً للغاية. كم كان ذلك محرجاً».[62] أصبح دانييلز وثيق الصلة بمانديلا الذي كان يدعوه داليبونغا. وكان مانديلا يشاركه رسائله التي تأتي من البيت، ويترجمها له إلى الكزوسية، ويتحدث عن أمور بسيطة. كما علم دانييلز أغنية «بوني ماري الأرجيلية» التي وجدها في كتاب، والتي ما زال دانييلز يحب أن يغنيها:

إنه صوتك يا ماري اللطيفة

وابتسامتك الفائزة الحلوة

من جعل العالم جنة

بوني ماري الأرجيلية

وعلمه قصيدة / انفيكتوس/ من العصر الفيكتوري للشاعر دبليو. اي. هنلي:

لا يهم كم البوابة مستقيمة

وكم القائمة تطفح بالعقاب

أنا سيد قدري

أنا قبطان روحي[63]

قال مانديلا فيما بعد: «عندما تقرأ مثل هذه الكلمات تشعر بالشجاعة. إنها تملؤك بالحياة».[64] وكتب في مذكراته في السجن «هناك حقيقة عميقة في فكرة أن / الإنسان يصنع نفسه/ ، وهي حقيقة مرتبطة بتاريخ البشرية، وهي التي صاغت تاريخنا».[65]

كان لمانديلا هذه العلاقات مع كثير من السجناء الثلاثين في بناء العزل. المشكلة الأكبر كانت في التعامل مع السجانين الذين يسيطرون على حياتهم اليومية والذين كانت لديهم القدرة على اضطهادهم. كانوا من طينة غير واعدة:

من الأفريقانيين الشباب عادة، كثير منهم من بيوت فقيرة أو مخربة، وهم دون السجناء تعليماً وثقة بالنفس، الأمر الذي يجعلهم أكثر امتعاضاً وتشبثاً بالأنظمة. وقد نقل كاثرادا عن تولستوي قوله: «حراس السجون لديهم أنظمة مكان القلوب». وكان للحرس خوفهم وتنافساتهم وحاجاتهم، فهم يعيشون في سجنهم الخاص على الجزيرة الجرداء.[66] ومن هنا كانت إمكانية التواصل معهم.

كان مانديلا قد لاحظ من فترات سجنه الأولى أن بإمكانه التأثير في السجانين بمزيد من التوكيد والحزم والاحترام والمعرفة القانونية، وأن بإمكانه الحفاظ على كرامته في المحيط الأكثر إهانة. وعندما قام محاميه جورج بيزوس بزيارة مبكرة للجزيرة في تشرين الأول (أكتوبر) 1964، لم يسمح له بالاقتراب من مبنى السجن. وإنما وصلت شاحنة قفز منها ثمانية حراس يتبعهم مانديلا، يرتدي بنطالاً قصيراً وحذاء بلا جوارب، ودفع ليسير نحوه والحرس يحيطون به. لكن مانديلا مشى منتصب القامة وقد عقد يديه وراء ظهره، وحدد سرعة السير التي تلائمه، وعندما اقترب، تقدم بيزوس لمعانقته، فقال مانديلا: «دعني أقدمك يا جورج لحرس الشرف الخاص بي». وعرفه عليهم بالأسماء. لخصت الحادثة علاقات مانديلا بسجانيه منذ البداية. فهو سيحترمهم على أنهم بشر، مثلهم مثل أي شخص آخر، لكن لم ينصع أبداً، كان تأكداً من أن السجناء سيحددون وتيرتهم في العمل، ولم يكن أبداً ليناديي الحراس بلفظة / باس/ كما كانوا يطلبون. وقد حاول السجناء ألا يقولوا / باس/ : لكن بعضهم كان يرضي غروره بإضافة / تارد/ بعدها همساً لتصبح / باستارد/ أي ابن حرام. أما مانديلا فقد رفض ببساطة استخدام الكلمة أصلاً.[67]

لاحظ مانديلا وجود هوة كبيرة في خدمة السجن بين القمة والقاع. وكان مسؤول السجون في بريتورية الجنرال ستاين Steyn مهذباً ودمثاً وعلى خلق، وقد سافر إلى الخارج. وكان يرتدي بزات وأحذية أنيقة، وقبعة على الطراز

الحديث، كان يرفعها فعلاً للسجناء. وقد قال السجين مايكل دينغاك «إن سلوكه الحضاري ربما يذهل السجناء الأكثر اعتياداً على الإساءة من الضباط الصغار». [68] لكن زيارات الجنرال للجزيرة كانت نادرة. وسرعان ما أدرك مانديلا أنه كان يتغاضى عن الإزعاجات والإساءة. كان مانديلا يستشيط غضباً من كبار الضباط أكثر من السجانين العاديين. وكان صديقه الأصغر سناً فيكيل بام يعتقد أن ذلك بسبب إحساسه بالفوقية. [69] لكن مانديلا كانت لديه أسبابه؛ فقد لحظ أن «سجاناً عادياً ـ وليس سيرجنت ـ قد يكون أهم بالنسبة إلينا من مفوض السجون، أو حتى وزير العدل.. عندما تكون على علاقة جيدة مع سجاني قسمك يصعب على رؤسائهم أن يعاملوك بخشونة». [70] وعندما وصل مانديلا الجزيرة، لاحظ نيفيل ألكساندر، «أنه أصبح يعتقد أن السجانين ليسوا كلهم أشراراً». ففي إقامته الأولى القصيرة عام 1963 صادف مانديلا سجانين متوحشين مثل الأخوين كلينهانز الساديين، لكنه صادف أيضاً آخرين كانوا على استعداد لمعارضة النظام وإظهار بعض الإنسانية.

وأدرك الآن أن هناك تفاوتاً حاداً بين السجانين، بين أولئك الذين يعاملون السجناء معاملة إنسانية وأولئك الذي كانوا مصممين على أنهم /لن يقاوموا أبداً تفوق البيض/. وكان قد بدأ يعتقد أن «كوننا في موقع أخلاقي أفضل قد يمكننا من تحويل بعض السجانين». [71] لم يقتنع ألكساندر بذلك الطرح تماماً، لكن مانديلا كان يتعلم كيف يتعامل مع السجانين الأفارقة الشباب الذين لا يشعرون بالاطمئنان. وقال لي عام 1996 «لقد استرحت في السجن عندما أدركت أن السجانين ليسوا جميعاً من صنف واحد.. بعض السجانين كانوا يريدون بقائي في السجن إلى الأبد، لكن آخرين أرادوا أن يبقوا معي في الداخل. وقد احتجت إلى بعض الوقت كي أميز». ورأى فرصة سياسية في محاولة الحوار معهم وإقناعهم. وكان دائماً يأمل بهدايتهم. «سرعان ما أدركت أن الأفريقاني إذا تغير فإنه يتغير كلياً ويصبح صديقاً حقيقياً». [72] وبدأ يشرح سياسة المؤتمر الوطني

الإفريقي لمسؤولي السجن الزائرين، مما ساعد في تطوير مهاراته في النقاش. رأى سيسولو في هذه النقاشات مقدمة لنقاشاته فيما بعد مع الحكومة: «إن التفاوض نفسه هو عملية تبدأ من هذا المصدر».[73]

في كانون الأول (ديسمبر) 1966 وصل سجان جديد هو جيمس غريغوري James Gregory إلى الجزيرة. وكان قد أمضى طفولته بين الزولو، ويتحدث الزولو والكزوسا بطلاقة، وسيصبح مشهوراً فيما بعد من خلال كتابه الرائج جداً «وداعاً يا بافانا Goodbye, Bafana»، الذي كان يصف محادثاته مع سجينه.[74] في الحقيقة لم يعرف مانديلا غريغوري جيداً، لكن، كما قال هو: «هو كان يعرفنا، لأنه كان مسؤولاً عن مراجعة بريدنا القادم والمغادر».[75] قدم غريغوري نفسه في كتابه كصبي ريفي ساذج فوجئ إذ وجد السجناء أفضل منه بمراحل في مجال الثقافة، «وسرعان ما رأى في مانديلا قائداً حقيقياً، مثال الرجل المهذب».[76] لكن السجانين الذين أصبحوا أصدقاء حقيقيين للسجناء، مثل كريستو براند Christo Brand، كانوا يشكون بغريغوري، وكان السجناء يشعرون دائماً بأن غريغوري يتجسس عليهم، فيسترق السمع أثناء الزيارات، ويراقب البريد، وذلك جزء من نظام الاستخبارات في فرع الأمن.[77][*]

احتفظ مانديلا بهدوئه مع السجانين. وقال للآخرين إن الرد بأسلوبهم نفسه يعني النزول إلى مستواهم. وراقب الرفاق القدامى، الذين يعرفون انعصابه السابق، بذهول كيف كان يكبح نفسه أمام التحرشات المهينة. ونادراً ما كان ينفجر غضباً. وفي أحد الأيام عام 1968 كان السجناء يحتجون للكابتن هويسامين Captain Huysamen، وهو أحد أكثر الضباط عناداً، أن السجانين يخربون دراستهم باحتجازهم المواد. رد هويسامين بإهانة، فانفجر مانديلا الذي

(*) كتاب غريغوري، الذي نشر عام 1995 تضمن روايات حميمة عن علاقات مانديلا الأسرية التي ترامت إليه. وقد قرر الرئيس مانديلا ـ كما صار وقتها ـ ألا يطلب إنذاراً قضائياً، لكن دائرة السجون أعلنت رسمياً عن عدم علاقتها بالكتاب.

كان يقف في المؤخرة. كان نيفيل ألكساندر يقف قربه: كان دائماً يرى مانديلا كامل السيطرة على نفسه واعتقد أنه أصيب بثورة هياج: «كان الأمر مذهلاً وصاعقاً للجميع لأنهم لم يروه أبداً يفقد السيطرة على أعصابه أمام الملأ». وعندما هدأ مانديلا، قال ألكساندر: «كان ذلك ثقيلاً بعض الشيء». إلا أن مانديلا أجاب:

«لا، لا، كان ذلك مقصوداً». وقد آتى ثماره بلا شك، فانصرف هويسامين وذيله بين ساقيه.

تذكر ألكساندر أن مانديلا «عندما يهتاج اهتياجاً شديداً أو يفقد هدوءه فإنه يصبح شخصاً مرعباً، لكن ليس متعذر الضبط».[78]

وقد فقد مانديلا السيطرة على أعصابه حقيقة بعد سبعة أعوام مع الليفتنانت برينز Prins، مدير السجن المتكبر، عام 1975. كان برينز قد رفض السماح لويني بزيارته لسبب كاذب وهو أنه لا يريد أن يراها. وعندما ناقشه مانديلا أجاب برينز بأن ويني كانت تبحث عن الدعاية فحسب، وأضاف بعض الإهانات، استشاط مانديلا غضباً، وتقدم نحوه وكاد يضربه، إلا أنه ضبط نفسه وأطلق شلالاً من الشتائم، قال لبرينز والشرر يتطاير من عينيه: إنه خسيس، وبلا شرف. فوجئ كاثرادا! الذي كان يراقب المشهد هو ودانييلز، لسماع مانديلا يشتم.[79] وعندما انضم مانديلا إلى رفاقه في القسم ب كان يلهث، وهمس أحدهم: إنه بحاجة إلى مهدئ.[80] سرعان ما شعر مانديلا بالخجل لأنه فقد السيطرة على نفسه، الأمر الذي اعتبره انتصاراً لبرينز، ودفع الثمن، ففي اليوم التالي اتهم بتهديد مدير السجن، إلا أنه رد الاتهام - بأسلوب قانوني عقلاني جداً - باتهام مضاد ضد برينز ورؤسائه بسوء التصرف، وبالتالي أسقط الاتهام.[81] قلة من الزوار الأجانب سمح لهم بدخول هذا العالم المنغلق على ذاته. لكن بعيد وصول سجناء ريفونية قام بزيارتهم رجل إنكليزي قيل إنه خبير بالسجون.. وأدركوا أن هذه كانت مناسبة خاصة عندما وزعت عليهم قطع من

قماش الجيرسيه لخياطتها، بدلاً من تكسير الحجارة المعتاد. وبمجرد مغادرة الزائر، يقول أندور ملانجيني: «أحضرت حجارة وصخور كبيرة إلى الباحة على عربات بعجلات». [82]

وتبين فيما بعد أن الرجل الإنكليزي هو برنارد نيومان Bernard Newman، كاتب مختص بأدب الرحلات ومحاضر في التجسس، وكان يؤلف كتاب /رحلة في جنوب إفريقية/ ، وأصبحت تربطه بالشرطة علاقات صداقة، لذلك رتبوا له زيارة جزيرة روبين.

وقد تحدث إلى مانديلا في زنزانته التي وجدها /مضيئة ومهواة/ : لكن مانديلا تذمر من كونها «باردة ورطبة»، وأنه لا يسمح له بأكثر من حمام واحد في الأسبوع، وأن الطعام يسبب له آلاماً في المعدة. اقتنع نيومان من الحاكم الكولونيل ويسيل Wessels أن /متاعب التكيف/ ستعالج. وكتب مقالاً في صحيفة التايمز اللندنية، وقال فيما بعد للصحفيين: إن الأوضاع هنا أفضل منها في كثير من السجون التي زارها في روسية وبريطانية. [83]

بعد ستة أسابيع، يوم 31 آب(أغسطس)، أتى صحفي لزيارة مانديلا، يفترض أنه من الديلي تلغراف اللندنية، وقبل الزيارة أسندت إليه مهمة خياطة الثياب بدل تكسير الحجارة، فكتب إلى الضابط المسؤول عنه: «في الحالتين أدنت الأوضاع في هذا السجن من ألفها إلى يائها. وبالرغم من ذلك نشرت تقارير صحفية تفيد بأني ألقى معاملة مرضية». . [84] وفيما بعد، في آذار (مارس) 1965 شكا إلى مسؤول السجون أنه قال لأحد الصحفيين إن جزيرة روبين كانت «تتطور لتصبح سجناً نموذجياً»، بينما الطعام لم يكن يؤمن القيمة الغذائية الكافية: «وقد تداعت حالتي الصحية بشكل كبير وملحوظ». وعلق الضابط المسؤول «إنه يأخذ وضعية القائد لرفاقه السجناء وهو بهذا يروج هذه الآلام المتخيلة». [85]

في الشهر التالي، نيسان (أبريل) 1965 نشرت صحيفة صنداي تايمز اللندنية نصف صفحة عن «قلعة جنوب إفريقية» مع صورة فوتوغرافية للسجناء

تظهر فيها مطارقهم ـ مانديلا بجوار بيلي نير وكاثرادا ومبيكي ـ بالإضافة إلى صورة أخرى لمانديلا يرتدي بنطالاً قصيراً ويخيط القماش. وجاء في العنوان: إن مانديلا احتج بحدة عندما كان على مرمى السمع ـ بحسب العنوان ـ مشيراً إلى بنطلونه (الكاكي) القصير المجعد وهو يقول: «جميع طرق الوسائل الوحشية لتدمير كرامتنا» تسللت بعض نسخ من الصحيفة بالبريد الجوي عبر حاجز الرقابة في جنوب إفريقية، ولكن سرعان ما جمعتها الشرطة قائلة: «إن قول مانديلا عبارة عن ديناميت وقد طمسناه بالأسود على جميع النسخ الباقية». (86)

زائر محير آخر عام 1964 كان محامياً أمريكياً اسمه هيندينغ Hending، يفترض أنه يمثل نقابة المحامين الأمريكيين. اجتمع السجناء في الباحة للقائه، بآمال كبيرة، لكنهم صدموا إذ رأوا أمامهم شخصاً فظاً، أشعث الشعر، نصف مخمور، كان يبصق طوال الوقت.

اختير مانديلا ليكون ناطقاً باسمهم، لكنه عندما تشكى من أوضاع السجناء والأشغال الشاقة، كان هيندينغ يقاطعه باستمرار، وأخيراً انفجر مانديلا غضباً: «لا، أنت لا تستمع!». هنا قال هيندينغ: «إن هناك سجوناً أمريكية أسوأ من هذا بكثير، وربما كان هؤلاء السجناء يستحقون الحكم بالإعدام في كل الأحوال». (87)

لم يكن لدى مانديلا ما يدعوه إلى الشعور بالامتنان لنقابات المحامين، لكنه كان يعرف كيف يستخدم القانون. فبعد سنتين من العمل في مقلع الكلس تنامى إليه أن جمعية محامي الترانسفال تنوي شطب اسمه من جداولها بسبب أفكاره ومعتقداته ـ بعد مرور أربعة عشر عاماً على محاولتهم الأولى في أعقاب حملة التحدي ـ فطلب حق الدفاع عن نفسه، وأن يذهب إلى بريتورية وأن يتاح له مراجعة كتب القانون. وبعد أشهر من المراسلات، رفضت سلطات السجون إعطاءه الإذن. فاعتقد مانديلا أن الحكومة خافت من الدعاية التي سيلقاها إذ

يظهر أمام المحكمة، لأنها كانت تريده أن ينسى.[88] وبالتالي سحبت نقابة المحامين طلبها.

لكن الحكومة كانت تواصل إزعاج مانديلا في السجن. ففي تموز (يوليو) 1966 سلمه (سيرجنت) رسالة باليد من وزارة العدل تقول فيها: إن اسمه ورد في قائمة أسماء أعضاء وأنصار الحزب الشيوعي، بلغة قانون حظر الشيوعية لعام 1950. أجاب مانديلا: «أنكر بإصرار أنني كنت عضواً في الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية منذ 1960 أو في أي وقت آخر»، ثم طرح اثني عشر سؤالاً يطلب فيها تفاصيل عن أية شهادة خطية تحت القسم استند إليها في توجيه هذه الاتهامات، وعن أية اجتماعات يفترض أنه حضرها. وبعد أربعة أشهر قيل له إن اسمه لن يدرج في القائمة.[89](*)

لكن وزارة العدل وبعد تأخير طويل، عادت بادعاء مختلف: إن مانديلا خالف قانون حظر الحزب الشيوعي أثناء حملة التحدي عام 1952. أجاب مانديلا في كانون الأول (ديسمبر) 1969 بأن الحملة« لم يكن لها علاقة لا من قريب ولا من بعيد بالشيوعية» وبأن الحكومة تحاول أن تجعل منه كبش فداء. وقد برئ في رسالة سرية أرسلت في تموز (يوليو) 1970 إلى مفوض الشرطة من قبل دي. بي. ويلكوكس D.P. Wilcocks المصفي الرسمي للحزب الشيوعي، حفظت في أرشيف السجن:

> أعتقد أنه في ضوء الأدلة المتاحة لا يمكن القول إن مانديلا كان مسؤولاً أو يشغل منصباً أو عضواً أو نصيراً ناشطاً في الحزب الشيوعي لجنوب

(*) في الحقيقة ليس في سجلات وزارة العدل أي دليل حقيقي على أن مانديلا كان عضواً في الحزب: كان هناك فقط تصريح لفريد كارنيسون Fred Garneson، المدير السابق للغارديان بأنه حضر مرة اجتماعاً للجنة المركزية كان مانديلا حاضراً فيه، وتصريح لبيت بيليفد Piet Beyleld (وهو شيوعي سابق لا يعتمد عليه أصبح شاهداً لصالح الدولة) أن مانديلا حضر مرة المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي في جنوب أفريقية.[90]

إفريقية. وإلى أن يظهر أي دليل جديد في هذا الخصوص تُعدُّ القضية مغلقة[91]

كانت الجزيرة حالة تستحق الدرس بالنسبة للمنظمات الإنسانية. فبعد سنة من وصول سجناء ريفونية تحسن نظامهم الغذائي فجأة، وبعد ذلك بفترة وجيزة قام الصليب الأحمر بزيارتهم. والتقى مانديلا بالممثل الإقليمي هانز سين Hans Sen الذي كان خياراً غريباً لكونه كاثوليكياً سويسرياً هاجر إلى روديسية وأصبح الآن متحرراً من الوهم في عمله. وقد قال لصديقه الكاتب دوريس ليسينغ Doris Lessing «إن معرفة ما يجري في كافة الأمكنة كاف لأن يجعل أي إنسان يكره الإنسانية». [92] أعطى مانديلا سين قائمة بطلبات السجناء؛ تتضمن طعاماً أفضل، وزيارات ورسائل أكثر، وبنطلونات طويلة، وجوارب وثياباً داخلية. وعندما علق سين بأن الخبز كان رديئاً بالنسبة لأسنان الأشخاص السود، شك مانديلا بأن يحمل هذا مواقف عنصرية. كان هناك بعض التحسينات؛ من ضمنها البنطلونات الطويلة، لكن النظام الغذائي سرعان ما عاد إلى طبيعته، وكان تقرير تال للصليب الأحمر حول جزيرة روبين إيجابياً لدرجة أن بريتورية نشرته في الأمم المتحدة. [93] واحتاج السويسري إلى سنوات ليدرك الصعاب والأهمية السياسية للسجن.

الزائر الأكبر أثراً كان من داخل جنوب إفريقية، وهو هيلين سوزمان Helen Suzman العضو الوحيد للحزب التقدمي الليبرالي في المجلس النيابي، التي أصرت على الزيارة بعد سماعها قصصاً عن الأوضاع التعيسة.

رحب السجناء بها، وبالرائحة النادرة للعطر في زنزاناتهم. أبلغوها أن السجناء الثلاثين يواجهون ما يربو على تسعين تهمة في السجن. ودلوها على زنزانة مانديلا الذي تحدث جهاراً عن الطعام والثياب الرديئين. وعن عدم توافر الصحف والكتب، وعن سجان متوحش (اسمه فان رينسبورغ Van Rensbarg ويلقب بالحقيبة «suitcase») يحمل وشم صليب معقوف، فيما كان آمر السجن

ومفوض السجون يستمعان. وتذكر سوزمان أن «مانديلا تجاهل وجودهما كلياً، كان له حضور آسر على كل من السجناء والسجانين، دون أدنى شك».[94]

كان مانديلا مقتنعاً بأن سوزمان كانت إلى جانب السجناء أصلاً. وكتب: «كان منظراً غريباً ورائعاً أن ترى هذه المرأة الشجاعة تطل داخل زنزاناتنا وتتجول في باحتنا».[95]

ولدى عودتها كتبت سوزمان عن الأوضاع غير الإنسانية. وذكرت فيما بعد أن «الأوضاع كانت رديئة في السجن إذ ذاك. إن السجانين يعتقدون أن الظروف يجب أن تكون بالقسوة الممكنة، لمزيد من العقاب. كان بعض السجانين نازيين فعلاً».[96]

وبعد ذلك بفترة وجيزة نقل فان رينسبورغ، وبدأت الأمور تتحسن. وقد رأى السجناء في زيارة سوزمان منعطفاً. حيث كتب نيفيل ألكساندر: «لا أحد يعرف ما قد يحدث».[97] ستقوم سوزمان بزيارة مانديلا سبع مرات أخرى في السجن، وتفتح معه حوارات مشوقة. لم يكونا أبداً ليتفقا حول العنف. ففي زيارتها الثانية عام 1969، قال مانديلا: إن سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يطلق سراحهم، تماماً كما أطلق سراح الثائر الأفريقاني روبي ليبراندت Robey Leibbrandt أخيراً برغم خيانته أثناء الحرب العالمية الثانية. قالت سوزمان: إن ثورة ليبراندت قد هزمت، فيما لا يزال نضال المؤتمر الوطني الإفريقي مستمراً. وسألته: «هل أنت مستعد للقول إنك ستتخلى عن العنف؟» «ولم يكن مانديلا يستطيع ذلك. وبهذا لم تستطع سوزمان المطالبة بإطلاق سراحه».[98] لكن السجناء سيشعرون بالامتنان لها دائماً لمساعدتها العملية. وقد كتبت لي بعد ثلاثين عاماً: «لم يكن لدي أدنى فكرة عن أن هذا سيكون له تأثير طويل الأمد على الصداقة مع الشباب الذين التقيتهم هناك. لقد بقي أصدقائي السجناء أوفياء في إخلاصهم برغم التزامي غير الصحيح سياسياً بالليبرالية».[99]

في أيلول (سبتمبر) 1970 أتى لزيارة مانديلا دينيس هيلي Denis Healey

السياسي العمالي البريطاني المناضل الذي التقاه قبل ثماني سنوات في لندن. عام 1967، إذ كان وزيراً للدفاع، حاول هيلي متابعة بيع بعض الأسلحة لجنوب إفريقية مظهراً بذلك، كما اعترف فيما بعد، «لا مبالاة كبيرة بكراهية الأبارثيد سواء في حزبي أو في الكومنويلث». والآن في أعقاب هزيمة حكومة هارولد ويلسون العمالية، كان هيلي يعارض مخططات إدارة إدوارد هيث المحافظة بالبدء ببيع الأسلحة، على حسب تعبيره: «لأكفر عن جريمتي». صدم هيلي بتحول مانديلا منذ عام 1962، فبدلاً من الرجل الملتحي الأسود الذي التقاه في لندن، كان مانديلا «حليق اللحية والرأس شاحباً»، لكن معنوياته كانت عالية، كان حسن الاطلاع لدرجة مدهشة على ما يجري في العالم الخارجي، «وسلطته الأخلاقية، حتى على سجانيه كانت بلا حدود».[100]

بعد ثلاثة أعوام ونصف بدأت الظروف بالتحسن، وأصبحت معاملة السجناء حضارية دون توتر[101]، فقد سمح لهم بارتداء البنطلونات الطويلة والقمصان الصوفية في الشتاء، وأصبح بإمكانهم الحديث في المقلع وفي الباحة. كانوا أحياناً يتلقون البيض والفواكه، لكن مانديلا لم ير من التغييرات التي وعد بها الصليب الأحمر ما يذكر. فالنظام الغذائي ما زال في حدوده الدنيا، ولم تكن الصحف متاحة، ولم يسمح لهم بوسائل الاستجمام التي يسمح بها لكبار السجناء. ومازال العمل منهكاً، وما زال السجناء يتعرضون لاعتداء السجانين. في تشرين الثاني (نوفمبر) 1970، بعد أن زار فيليب زوغر ممثل الصليب الأحمر الجزيرة، تذمر مانديلا من «متابعة تكسير الصخر والكلس دون هدف»، كما نوه بأن انقطاع السجين عن أخبار العالم الخارجي «يجمده في الموضع الذي كان فيه عندما أودع السجن».[102]

بحلول هذا الوقت كان مانديلا قد أصبح بوضوح الناطق باسم السجناء السياسيين من جميع الأحزاب. وقد حذره المفوض، الجنرال ستين الأنيق، من مغبة التحدث باسم الآخرين الذين ـ كما قال ـ يستطيعون الشكوى كل بنفسه.

وقال: «يا نيلسون تذكر أنك أنت سجين ليس إلا!».[103] لكن مانديلا رفض قبول هذا المنع. وفي كانون الثاني (يناير) 1970 كتب رسالة شكوى طويلة إلى ستين باسم جميع السجناء. أتت الرسالة مثل تقرير رسمي من رئيس الدائرة، بدأت الرسالة: «لقد قبلنا دائماً أن الحزم والقصاص أدوات ضرورية للحفاظ على القانون والنظام في السجن، لكننا نؤمن بأن الكائنات البشرية يمكن التأثير بها بالسلوك النموذجي من قبل المسؤولين أكثر من استخدام القوة الوحشية». وتابع مانديلا ليشتكي من الاعتداء على السجناء، والأشغال الشاقة في مجموعته:

> أكثر من خمس سنوات مضت ونحن نجبر على أداء أعمال شاقة، وغير إبداعية تستنفد طاقتنا. وفي بعض الحالات تؤثر سلباً على صحتنا، خلال هذه الفترة حكمتم علينا بعمل (روتيني) هو إما تكسير الحجارة أو نقرها أو جرفها، وحرمتمونا فرص أي نوع من التدريب المهني، أو أي عمل قد يشجع ويطور احترامنا لذاتنا، والمثابرة والإحساس بالمسؤولية لدى السجين، ولم تبذل أية جهود لمساعدتنا على العيش بطريقة محترمة وذات معنى عندما يخلى سبيلنا.

وختم رسالته بتحذير خطير:

> أشعر أن التوتر يزداد حدة والصبر يعيل بسياسة دائرة واضح أنها غير معنية بخيرنا وصلاحنا، وأحثكم على التصرف بسرعة واتخاذ الإجراءات المناسبة لمعالجة الوضع قبل أن تخرج الأمور عن نطاق السيطرة.[104]

ردت بريتورية بأن زادت الأمور سوءاً، فعَينت أواخر عام 1970 قائد وحدة جديداً هو الكولونيل بيت بادينهورست Piet Badenhorst، الذي وصل إلى الجزيرة مع ما اشتهر به من وحشية، وبصحبته بعض السجانين الجدد السفاكين. لاحظ مانديلا أن بادينهورست كان الأكثر فجاجة بين جميع قادة الوحدات، يدير جزيرة روبين كما لو كانت تحت الأحكام العرفية. بدا ذلك جزءاً من تغيير مقصود في السياسية، لقد قيل لمانديلا إن معاملة السجناء

السياسيين تقرر جماعياً من قبل سلطات السجن وفرع الأمن، الذي كان يزداد قوة منذ إنشاء فرع أمن سري موسع BOSS عام 1969.[105] وقد كتب أحمد كاثرادا إلى صديقته سيلفيا نيم: Sylvia Neame «لقد باشروا نوعاً من حكم الإرهاب. إنهم لا يعرفون سوى الانتقام والعقاب. «أصبح الحرس الآن يترقبون أي عذر لاضطهاد السجناء وحرمانهم من وجبات الطعام ومنعهم من قراءة أي شيء - حتى لو كان شكسبير - لا يمت لدراستهم بصلة».[106]

وسرعان ما أوقفهم بادينهورست عن دراسة أي شيء، لأنهم - كما قال - كسالى.. وخلاف أسلافه فقد رفض بادينهورست حتى الكلام مع مانديلا، وعندما كان يراه في المقلع كان يصيح به باللغة الأفريقانية: «مانديلا.. أخرج إصبعك من استك».[107]

آخر أيار (مايو) 1971 وصل حكم الإرهاب إلى ذروة امتحنت كل ما لدى مانديلا من ضبط النفس. كانت عشية الذكرى السنوية العاشرة لقيام الجمهورية (وآخر ضربة انقلابية للمؤتمر الوطني الإفريقي) وكان السجانون قد روجوا شائعات بأن بعض الأحكام ستخفض بمناسبة الاحتفالات. لكن الجو في بناء العزل أصبح متوتراً منذ وصول مجموعة من السجناء الناميبيين من منظمة الشعب الإفريقي الجنوب غربي (سوابو)، وعلى رأسهم مؤسس المنظمة تويفو جا تويفو Toivo ja Toivo، الذي بدأ إضراباً عن الطعام انضم إليه فيه بقية السجناء. ويوم الجمعة 28 أيار (مايو) اندفعت مجموعة من السجانين السكارى داخل الزنزانات، وكان بينهم كبير السجانين السادي السيئ السمعة كارستنس Carstens، المشهور باسم / الشيطان/ (الذي أظهر، على حد تعبير ألكساندر، ضراوة ضيق تفكير الزوج الخاضع لسيطرة زوجته).[108] وطلبوا من الجميع التعري، وأبقوهم مرفوعي الأيدي نصف ساعة في البرد القارس، بينما قاموا بتفتيش كل زنزانة. انهار غوفان مبيكي وأخذ إلى المشفى في كيب تاون. وبكى فيكيل بام لشعوره بالإحباط. وكانوا يسمعون السجانين يضربون السجناء في

الزنزانات المجاورة، يضربونهم ويلوون خصياتهم. وعندما قاوم تويفو ضرب وألقي أرضاً، ثم أجبر على تنظيف زنزانته المضرجة بالدماء.[109]

يذكر كاثرادا أن ذلك كان «أسوأ يوم أذكره. كان مرعباً، ولن أنساه ما حييت».[110] وقال سيسولو: «شعرت بالغضب والمرارة. كان ذلك أفظع غزو لخصوصيتنا».[111] ولم يعرف السجناء السبب أبداً، لكنهم شكوا في أن السجانين قد أزعجتهم بعض الأخبار السياسية السيئة، مما كان دائماً يجعلهم (كما كتب أحد السجناء) «خطيرين مثل عقارب محاصرة».[112]

قال ماك ماهاراج: «الوحشية كانت دائماً ترتبط بحدث خارجي، سواء الفدائيون، أو الروكبي، أو متاعب الحدود، أي شيء يهدد رأي السجانين ببلدهم».[113]

بقي مانديلا هادئاً، وكان أيدي دانييلز واثقاً أن حضوره السلطوي أنقذه وآخرين من هجمات كثيرة.[114] كان مانديلا مصمماً على الوقوف في وجه طغيان بادينهورست، وهرب رسالة إلى أصدقاء له في الخارج ليضغطوا من أجل صرفه. وبعد ذلك بوقت قصير قاد مانديلا وفداً من السجناء لمقابلة بادينهورست، مهددين بالإضراب ما لم تحسن ظروفهم. فوجدوه استرضائياً لدرجة مذهلة، وبعد شهر وصل ثلاثة قضاة إلى الجزيرة مع مفوض السجون. وعندما طلبوا رؤية مانديلا بمفرده أصر بجرأة على ضرورة حضور بادينهورست، ثم وصف الضرب الوحشي الذي تعرض له أحد السجناء مؤخراً. انفجر بادينهورست قائلاً: «إذا تحدثت عن أشياء لم ترها فإنك ستدخل نفسك في مشاكل»، فقال مانديلا للقضاة بهدوء: «إذا كان بإمكانه أن يهددني هنا، في حضوركم، فلكم أن تتصوروا ما يفعله في غيابكم». اعترض القاضي الأدنى مرتبة مايكل كوربيت Michael Corbett بحدة أثناء شهادة مانديلا حول تصرف بادينهورست، مما ترك أثراً واضحاً.[115] وبعد ثلاثين سنة ذكر الرئيس مانديلا كوربيت، الذي أصبح رئيس المحكمة العليا، في مقاطعته، وعلق: «تلك

الشجاعة والاستقلالية كانت نادرة». [116] وبعد ثلاثة أشهر من زيارة القضاة نقل بادينهورست هو وعصبته الوحشية من السجانين. وقبل أن يغادر قال بادينهورست لمانديلا: «أريد أن أتمنى لكم حظاً طيباً». أخذ مانديلا على حين غرة، لكنه أجاب بأمنيات طيبة مماثلة. وشعر أن قناعته تأكدت بأن الرجال الأشرار أيضاً يمكن أن يتغيروا: «لقد تصرف بادينهورست تصرفاً وحشياً لأنه كان يجزى لتصرفه الوحشي». [117]

لم يكن مانديلا السجين الوحيد الذي يرى السجانين عبيداً للنظام. إذ قال نيفيل ألكساندر: «هؤلاء الأشخاص ينقلبون رأساً على عقب عندما يتلقون أوامر مختلفة. والوحوش الحقيقيون يصبحون حمائم وملائكة سلام». [118]

لكن مانديلا مضى أبعد من الجميع في اعتقاده بأن السجانين يستحقون الشفقة بدل الكراهية، ونسي أبشع التماديات، حتى أن كاثرادا لم يستطع أن يسايره في بعض تحمله. فقد كان مانديلا قادراً على رؤية ما وراء مظاهر الوحشية، من أحاسيس بعدم الثقة، والتشوهات النفسية لدى السجانين، وكان يرى السجن عالماً مصغراً لجنوب إفريقية في المستقبل، حيث المصالحة والتسامح من ضرورات البقاء.

16

قوي يملؤه العزم والتصميم

1971 ـ 1976

سرعان ما اكتسبت جزيرة روبين سمعة في العالم الخارجي لكونها / فوهة جحيم/ ـ عنوان كتاب ألفه موسى دلاميني ـ وهو من سجناء المؤتمر الإفريقي العام، وقد أمضى هناك سنتين حتى عام 1969.[1] لكن بحلول عقد السبعين لم تعد الظروف جهنمية، على الرغم من أنها بقيت قاتمة. وجزيرة روبين، مثل الباستيل، أو قلعة بيتر وبول في سانت بطرسبرغ[2]، أصبحت في الخارج رمزاً قوياً لطغيان نظام جنوب إفريقية. لكن الأسطورة أصبحت مرعبة أكثر من الحقيقة.

كان ميزان القوة قد بدأ يتغير. ففي كانون الأول (ديسمبر) 1971 حل رئيس جديد للسجن هو الكولونيل ويلي ويليمزي Willie Willemse محل بادينهورست المكروه، ويليمزي، بشاربه المقصوص وأسلوبه الراقي، كان يعطي أوامره بحال أكثر استرضاء. فقد قال له مفوض السجون الجنرال ستين؛ إن عليه أن ينهج أسلوباً أكثر تفتحاً لأن الحكومة (كما فهم ويليمزي) كانت مضطرة لأن تحسب حساب المشهد السياسي في الداخل والخارج. وقال بعد خمس وعشرين سنة: «طلب إلي أن أغير الجو. ففتحت بابي للجميع. كان من الأفضل معالجة الشكاوى في السجن، خير من أن تأخذ طريقها نحو الأعلى. قلت لهم إن علينا أن نكون أصحاب مهنة، كمهنة الطب.. كنت أدرك أنهم قادة سياسيون. ولم يكونوا أشخاصاً جبناء».[3]

كان بإمكان ويليمزي التحول فجأة من الوقار إلى القسوة. لكن معظم السجناء كانوا يحترمونه. وقد قال نيفيل ألكساندر: «لقد لاحظنا جميعاً أنه شخص رفيع المستوى». [4] وسرعان ما أقتنع زوار الصليب الأحمر، كما قالوا لمقر قيادتهم في جنيف، أن ويليمزي كان «يبذل قصارى جهده ليبقى على علاقة محترمة مع النزلاء المكلف برعايتهم. وقد حل كثيراً من المشاكل». [5]

أدرك ويليمزي أنه لا يستطيع السيطرة على السجناء دون تعاونهم. وخاصة مانديلا. فقد كان مانديلا يقول: «إن النزلاء، وليس السلطات، كان يبدو أنهم يديرون السجن». [6]

كان السجناء قد توقفوا عملياً عن العمل، مع انخفاض عدد السجانين الذين يراقبونهم. وقد كتب كاثرادا عام 1971: «إننا نذهب إلى المقلع ولا نفعل شيئاً». [7] فلجأ ويليمزي إلى مانديلا للمساعدة في فرض بعض النظام في المقلع. وأقنع مانديلا رفاقه السجناء بمتابعة العمل ولكن على وتيرتهم ووطد ويليمزي علاقته الخاصة مع مانديلا، فهو أيضاً نشأ في الترانسكي، ويستطيع أن يتحدث عن الريف الجميل والأطعمة الكزوسية، وكان مانديلا يجيبه بالأفريقانية ويحدثه عن تاريخ الأفارقة. ويذكر ويليمزي: «مانديلا كان له وضع خاص. فقد كان محنكاً في سياسة التغيير. ولم أشعر أبداً أنه كان ينتظر الانتقام. ولم ألحظ مرارة لدى أي منهم، إلا أن مانديلا لعب دوراً في إقناعهم». [8]

كان الصليب الأحمر في جنيف يلعب دوراً سرياً الآن في تحسين أوضاع السجناء. وفي عام 1972 عين الصليب الأحمر مندوباً عاماً جديداً في إفريقية هو جاك موريون Jacques Moreillon، الذي قام بثلاث زيارات للجزيرة خلال ثلاث سنوات. وحرص على الابتعاد عن المدافعين السياسيين مثل هيلين سوزمان، لكنه تابع الضغط لوضع حد لعمل المقلع ولمزيد من الحرية للدراسة (وقد استطاع تحقيق الأمرين) وإمكانية معرفة الأخبار «الذي لم يسمح به حتى أيلول (سبتمبر) 1980». وفي العام 1974 ناقش مع وزير العدل جيمي كروغر

Jimmy Kruger أن السجناء السياسيين يجب أن يعاملوا كنزلاء عاديين ما لم يكن هناك أسباب أمنية ضاغطة: وأية قسوة في الأوضاع ستعتبر عقوبة إضافية إلى ما حكم به القاضي.

كانت تقارير موريون الناقدة لكن الخالية من التعبير تلخص من قبل رئيس الصليب الأحمر في جنيف ثم ترسل إلى بريتورية. وكانت استجابة الحكومة بطيئة: وفي إحدى النقاط، لدى استيائه من جمود الحكومة، شعر موريون بميل إلى اللجوء إلى الردع الأقصى بوقف زيارات الصليب الأحمر جملة وتفصيلاً، مما يحرض الاستياء على المستوى الدولي. إلا أن مانديلا أقنعه بعكس ذلك، بنصيحة سيذكرها دائماً: «إن الخير الذي تجلبه أقل أهمية من السوء الذي تمنعه». صعق موريون بإحساس مانديلا بالتفوق على سجانيه، وبوضعه الخاص في الجزيرة: فقد كان السجناء يطلبون مصافحة موريون لأنه صافح مانديلا. وصدم إذ اكتشف أن سجاناً بالغ القسوة كان يراقب رسائل ويني، ويشوه معناها عمداً، بقصد التعذيب الفكري، لكن مانديلا كان يكتفي بالقول: «أشعر بالأسف من أجله، فهو آخر عينة من سلالة تنقرض، وهو لا يعرف ذلك».(9)

عام 1972 ـ قبل زيارة الصليب الأحمر بقليل ـ كان كل سجين قد منح طقمين جديدين من الملابس الداخلية. وبحلول عام 1973 أصبح الماء الساخن متوفراً للغسل والحمام. برغم أنه كان يقطع أحياناً على سبيل العقاب. وبحلول عام 1975 سمح للسجناء أن يجهزوا ملعب كرة مضرب في الباحة. أصبح مانديلا الآن مصنفاً كسجين من الفئة آ، وسمح له بثلاث رسائل وزيارتين في الشهر ـ ولكن لم يسمح له «بزيارة تماس» يستطيع فيها أن يلمس زائريه، برغم أنه كان يحق له ذلك رسمياً. وبأوامر من الطبيب سمح له أيضاً بسرير خاص وبعض الحليب ونظام حمية خاصة بلا ملح بسبب ارتفاع ضغطه الشرياني.(10)

وبعد مزيد من ضغط الصليب الأحمر، سمح للسجناء بفترات من العمل البديل، بعيداً عن مقلع الكلس. فكانوا يأخذونهم إلى شاطئ البحر ليجمعوا

الأعشاب البحرية، التي كانت تشحن بالبواخر إلى اليابان، كأسمدة. كان العمل شاقاً والأطلسي يكون أحياناً بالغ البرودة في الشتاء، لكن مانديلا رحب بمنظر البحر والطيور البحرية المنقضة. وكانوا يتناولون غذاءهم مما يصطادون من بلح البحر والبطلينوس وكانوا يصطادون أذن البحر وجراد البحر أحياناً لتكون مرقاً لطعامهم البحري، الذي كان السجانون يشاركون فيه. بعيداً عن أبنية السجن كانت جزيرة روبين ذات جمال طبيعي لم تلمسه يد الحضارة، وكأنها محمية طبيعية لم يخربها البشر، كان دينيس هيلي يقول عنها: «جنة عدن مصغرة»، وأصبح مانديلا مأخوذاً بالطيور البرية.[11]

بدأ الجو السياسي في الجزيرة يتغير مع وصول سجانين شباباً، بعضهم لم يتجاوز السابعة عشرة، كان التأثير عليهم أسهل. وحاول السجناء السياسيون جهدهم تعليمهم «كان واجباً متعباً لا يخلو من أعباء فرضت على جميع السجناء لضرورة البقاء بكرامة» كما قال ألكساندر. لكن كان هناك تعويضات: «النقاشات الصبورة والدقيقة والمؤلمة غالباً التي تدعو إليها هذه الحاجة هي إحدى أكبر الأحداث الإنسانية في هذه الجزيرة، فهنا تمكن كثير من السجناء (السود) والسجانين (البيض) للمرة الأولى ـ وربما الأخيرة ـ أن يتبادلوا الآراء حول سبل الحياة في جنوب إفريقية».[12]

رأى كاثرادا السجانين الشباب مهملين بحاجة إلى إعادة تأهيل، فكتب عام 1971: «إذا أمضوا سنواتهم الانطباعية في العمل مع سجناء سياسيين فأنا متأكد أن ذلك سيكون له أثر صحي على مستقبلهم. والمفارقة هي أن السجن هو المكان الذي تقام فيه أوثق أواصر الأخوة بين معارضي وأنصار الأبارثيد، فقد أكلنا من طعامهم، وأكلوا من طعامنا، ونفخوا في الآلات الموسيقية نفسها التي /لوثتها/ شفاه سوداء، لقد ناقشوا أكثر الأمور خصوصية، وسألوا النصح، ولو أن شخصاً أعمى سمع تلك الأحاديث الخاصة لصعب عليه أن يصدق أنها بين سجين وسجان».[13]

كان مانديلا يزداد تبجيلاً من قبل معظم العاملين في السجن وعندما زار جورج بيزوس الجزيرة الآن تناول طعام الغداء مع مانديلا من جراد البحر وأطايب أخرى في نادي الضباط، وقام على خدمتهما سجناء يرتدون قفازات بيضاء.[14] كان مانديلا نجماً يشد السجانين القادمين الجدد «الذين كانوا قلقين للقائه لأنهم قد قرؤوا عنه» كما قال بيلي نير، «ومع مرور السنين كنا نستقبل السجانين لمشاركته وجبات الطعام، ولعب كرة المضرب، أو كرة الطاولة بعيداً عن أعين رؤسائهم. كنا نترك مانديلا جالساً مع أحد السجانين في زنزانته، يحضر الشاي ويقدم البسكويت ويجري نقاشات طويلة، يتحدث باللغة الأفريقانية، بركاكة، وكان يكسب ولاء هؤلاء الأشخاص».[15]

كان مانديلا يولي اهتماماً خاصاً لعقلية الأفارقة. وحث بقية السجناء على الحديث مع السجانين بالأفريقانية، على كراهيتهم لها. ليتعمقوا في فهم نفسيتهم وثقافتهم.[16] وقد قال ماهاراج: «أدركت أهمية تعلم تاريخ الأفارقة، وقراءة الأدب الأفريقاني، ومحاولة فهم هؤلاء الناس العاديين.. كيف يلقنون أفكارهم السياسية، وكيف يتجاوبون معها.. إنهم كلهم يحملون سداً فارغاً في عقولهم. ولم يكن بوسعهم أن يروا في الرجل الأسود إنساناً».[17] كان ماهاراج في البداية رافضاً الأفارقة بحدة، لكنه أدرك أن «عليك أن تفهم عقل الآمر الخصم. ولن تتمكن من فهمه ما لم تفهم أدبه ولغته».[18] وقد درس مانديلا نفسه الإفريقانية دراسة منظمة، فقرأ كثيراً من الكتب الإفريقانية وتحدث الإفريقانية جيداً، على رغم من أن كاثرادا كان يقول إن لفظه كان «رديئاً جداً».[19]

واكتسب فهماً للإفريقانية سيحسده عليه زملاء في المنفى فيما بعد. فقد قال قائد سهم الأمة (إم. كي) روني كاسريلز Ronnie Kasrils لقد تعلم مانديلا في زنزانته عن الإفريقانيين أكثر منا نحن الذين كنا نحاربهم. وعرف أن بإمكانه التفاوض معهم».[20]

كان تكيف مانديلا مع السجانين يقلق القادمين الجدد المناهضين مثل

سوني فينكاتراثنام Sonny Venkatrathnam، وهو تروتسكي من دروبان اعتقل بتهمة التخريب وعذب بوحشية قبل أن يصل إلى الجزيرة. وكان يعيب على مانديلا تفاوضه مع سلطات السجن «نيلسون يفعل كل هذا، كيف وصلنا هذا الدرك من القذارة (خـ...)؟». لقد رأى مانديلا من بعيد، بما أنه كان في قسم آخر، لكنه سمع الكثير عن تصرفه. لم يكن ينظر إلى مانديلا نظرته إلى ثوري، وإنما إلى مسيحي وطني: «لقد خرجت شخصاً مختلفاً تماماً، أنظر إلى الأمور من منظار فلسفي بحت».. ما أذهلني في نيلسون وسيسولو وآخرين يقضون حكماً بالسجن المؤبد كان الهدوء ورباطة الجأش اللذين يميزان حياتهم في السجن. لم يخرجوا من الحلبة ولم تظهر عليهم المرارة. وعلموني كيف أضحك مما عانيناه من عذاب «في البداية أقسم فينكاتراثنام على الانتقام من الشرطي الذي عذبه»، والآن لم يعد لدي ما أعانيه من ذلك الموضوع.. وقلت / هذا الشخص أقل إنسانية مني، فلماذا أهتم لأمثاله؟/ .. أعتقد أني شخص هادئ نسبياً الآن». [21]

كان السجناء الثلاثون المحشورون في قسم العزل يواجهون توتراتهم الخاصة. فقد كتب كاثرادا بعد سبع سنوات في السجن: «لا بد أن الحياة مع الوجوه نفسها يوماً إثر يوم تركت آثاراً نفسية سلبية علينا. فنحن يضغط بعضنا على أعصاب بعض، وقد استهلكنا منذ زمن بعيد كل نقاش يتعلق بخبراتنا في الخارج. كل النكات رويت، وحتى الشائعات أصبحت مكررة». [22]. لكن مانديلا احتفظ بفضوله حيال الآخرين. وقد لاحظ فيكيل بام أنه «كان يتعلم طوال الوقت. كان دائماً يخرج ويسبر أغوار الناس. لقد علم نفسه في باحاتنا الخلفية». [23] كان مانديلا يستمتع بسماع قصص حياة الناس. وقد كتب عام 1975: «قليلة هي الأشياء التي تثير اهتمامي هنا أكثر من الاستماع إلى سيرة رجل، والعوامل التي أثرت في أفكاره وأعماله، والمعارك غير المعروفة التي خاضها وكسبها». وكان دائماً يبدي سروره عندما تأتي أنماط جديدة. [24]

كان لمانديلا ضغوطه ونكساته. فقد أتت صديقته القديمة فاطمة مير ـ التي

كتبت سيرته فيما بعد ـ لزيارته في وقت كان ملزماً بالبقاء في زنزانته على سبيل العقوبة، بدا رهيباً، هزيلاً، ومرهقاً من العمل في باحة السجن. كنت أعرف مانديلا شخصاً ضخماً قوي البنية. لكنه الآن صار مثل وجه يعكسه زجاج نافذة، أو فراشة مسحوقة في متحف.. جلس هناك يبدو شاحباً وهزيلاً، قلت: لقد أصبحت نحيلاً، فقال: «لكنك أنت أصبحت سمينة». [25]

حاولت السلطات أن تعكس للعالم صورة ودية للأوضاع في جزيرة روبين. فعام 1973 وصل الجزيرة صحفي أسترالي، هو دافيد (ويسكرز) ماك نيكول من مجلة البولتين الإخبارية المحافظة وكتب مادة براقة عن مانديلا في زنزانته «نظيفة جداً، مثلها مثل كل شيء في جزيرة روبين. بدا له مانديلا في منتصف العقد الرابع من العمر (كان عندها في الرابعة والخمسين)، بشرة ملساء، حاضر البديهة، عينان مرحتان، ويدان لا يظهر عليهما أي أثر للعمل الشاق».

اشتكى مانديلا نقص الأخبار من الخارج.. والرقابة الصارمة ـ حيث قصت عشرون مقالة من عدد واحد من مجلة ريدرز دايجست ـ لكنه بدا متفائلاً: «أستطيع القول إني لم أشعر ولو لدقيقة واحدة بالكآبة، لأني أعرف أن قضيتي ستنتصر، أنا راض عن الطريقة التي تسير بها الأمور». [26]

صوَّر ماك نيكول مانديلا على أنه معني بوضعه الشخصي ويكره أن يعامل معاملة من هو أقل شأناً من الهنود والملونين (نيفيل ألكساندر وهو ملون، اتهم ماك نيكول بأنه قد شوه «صورة شخص هو الأقل ترفعاً والأكثر تواضعاً في أي من سجون جنوب إفريقية»). [27]

ذعر جميع السجناء من التقرير. وقد قال ماك ماهاراج: «لا شك أنه رأى السجن بعيون مختلفة عن عيوننا». وبعد زيارته أصر السجناء على ضرورة إخطارهم مسبقاً عن زيارات الصحفيين، وأن يسمح لهم باختيار الناطق باسمهم. [28]

ما زال السجناء يحلمون بالهرب، برغم أن رجلاً واحداً فقط، أوتشوماو Autshumao، عرف باسم / هنري الذي قفز عن الشاطئ/ استطاع الهرب من جزيرة روبين، في القرن السابع عشر، وكان عليهم توخي الحذر المضاعف لأنهم في بعض الأحيان كانوا يشكون في أن الحكومة تريد أن تحرض عملية مطاردة. فقد لاحظ بعض السجناء عام 1967 أن السجانين كانوا يوجهون بنادقهم نحوهم بينما كانوا يعملون في المقلع، كأنما ليحرضوهم. وكان هناك مخطط متهور للهرب كشف أمره قبل أن يصبح تنفيذه ممكناً. أطلق فكرة المخطط في عام 1969 غوردون بروس Gordon Bruce وهو مثالي يساري أصبح صديقاً لمانديلا من خلال النادي الدولي في جوهانسبورغ عام 1950.[29] وقد ابتكر خطة طويلة الأمد لتخليص مانديلا من الجزيرة برشوة أحد السجانين ليتركه يخرج. عند ذلك يأخذه بروس في قارب سريع إلى كيب تاون متنكراً بشكل أحد رجال الضفادع، ثم يأخذه بالسيارة إلى مهبط طائرات حيث تقوم إحدى الطيارات المشهورات، وهي شيلا سكوت بالطيران به، واقترح بروس أن يقحم مانديلا بعد ذلك في حملة من أجل السلام العالمي، مركزها جنوب إفريقية.[30] أعلن بروس في جريدة التايمز اللندنية عن الحاجة إلى «منظم كفء، مستعد لتنفيذ عمل غير عادي». ولكن أحد المتقدمين كان غوردون وينتر Gordon Winter وهو مخبر يعمل لصالح مخابرات جنوب إفريقية Boss، التي خططت لاختراق مؤامرة الهروب وقتل مانديلا عندما يركب الطائرة.[31] لكن المخابرات البريطانية (وفقاً لكل من وينتر وبروس) أعلمت بالمخطط من قبل السير روبرت بيرلي Sir Robert Birley الذي كان مديراً سابقاً في إتون Eton ـ التي كانت تقوم بالتدريس وقتها في جنوب إفريقية ـ والذي جعله بروس موضع ثقته، وألغيت الخطة كلها. وبعد إطلاق سراح مانديلا، بقي على صداقته مع بروس، وعام 1992 وصل دون إخطار سابق للمشاركة في الاحتفال بعيد ميلاده السبعين.[32]

عام 1974 اكتشف ماك ماهاراج طريقاً ممكناً للهرب بعد أن زار طبيب أسنان في كيب تاون تبين أنه مرتبط بقرابة مع زوجة أحد أنصار المؤتمر الوطني الإفريقي السريين، الذي أصر على أن يرفع السجانون الحديد عن ساق ماهاراج ومغادرة غرفة العمليات. بعد ذلك بمدة قصيرة رتب أمر ذهاب مانديلا إلى طبيب الأسنان نفسه برفقة ويلتون مكواي Wilton Mkwayi وماهاراج الذي تسلح بسكين وجدها في الشاحنة، أزيلت قيود الحديد من الأرجل، وغادر السجانون، واستعد ماهاراج للقفز من النافذة إلى شارع جانبي إلا أنه لاحظ أن الطريق خال من العابرين وشك فجأة في أن الشرطة تكمن بانتظار إطلاق النار عليهم عندما يخرجون. وافق مانديلا على التخلي عن الخطة. وتأكد ماهاراج فيما بعد أنه كان كميناً أعدته الشرطة لهم. وقال: «ركلت نفسي لأني كنت سأعرض مانديلا للقتل».[33]

كان هناك بعض التغيير لكسر وتيرة حياة السجن، مثل الصلوات كل أحد التي يؤديها قساوسة من مختلف الطوائف. وبعد العام الثالث أخذوا يلقون عظاتهم في الباحة التي كانت تضيف ميزة الهواء الطلق، وكلما طال نَفَس الوعاظ كان السجناء يحبونهم أكثر.[34] كان مانديلا يستمع إليهم جميعاً، وقال مازحاً، فيما بعد «بدأت حركتي المسكونية في السجن».[35] كان الواعظ المسلم محبوباً، فيما يذكر مانديلا، لأنه في أيام محددة «كان يأتي ليس بالقرآن فقط وإنما بأدعية ومدائح (biyani, Samosas) وأشياء جميلة أخرى (وقد صفق السجانون عندما أعلن أربعة وعشرون سجيناً إسلامهم فجأة) انتهز مانديلا الفرصة ليتعرف على الدين الذي أثر في كثير من أصدقائه. حتى إنه حصل على إذن بزيارة ضريح مسلم في الجزيرة أقيم تخليداً لذكرى أحد أبطال الإسلام في جنوب إفريقية، هو الشيخ منتورة الذي كان منفياً إلى الجزيرة عام 1744، ومات هناك. أعجب مانديلا بالضريح أيما إعجاب، خاصة لوحاته الجدارية، وأصر على أن يخلع الحارس نعليه قبل أن يدخل.[36] كما وطد مانديلا عرى الصداقة

مع القسيس الألماني الإصلاحي، المحترم أندريه شيفللر Reverend Andre Scheffler، وهو رجل نحيل بارز الحنجرة بدأ بالسخرية من المحاربين من أجل الحرية، ولكنه عندما حذر السجناء من تحميل الرجل الأبيض كل الرزايا، وافقه مانديلا الرأي. وبعد أن تحدث شيفللر عن موسى إذ خرج بالإسرائيليين من مصر، أخبرته السلطات أنه لم يعد مقبولاً، فأعطاه مانديلا هدية (غوافة) لزوجته.[37]

شعر مانديلا بالخيبة تجاه الكاهن جونز الواعظ الميثودي، الذي كان باستمرار يصر على التقبل، دون أن يقترح أن البيض يجب أن يقبلوا بوجود السود.[38] لكن الأنغليكاني، الكاهن هيوز كان / محبوب الجميع/ على حد تعبير مايكل دينغاك.[39]

وقد كتب كاثرادا في رسالة لم تخضع للرقابة: «أي رجل ممتع هو الكاهن هيوز، وأي إحساس بالمرح.[40] كان هيوز الويلزي، يحب غناء السجناء، الذي يذكره بالوطن. كان يدخل أخبار العالم الخارجي في عظاته، وكان يبهج مانديلا إذ يقتبس أقوال تشرشل: «سنحارب على الشواطئ».[41] كان هناك بعض التوتر أحياناً بين السجانين ورجال الدين، وقد احتج أحد الحرس الأكثر فظاظة على تقديم الخمرة في المناولة. وقد قال كويدي مكاليبي: «لقد رأيت ما كنت أعتقد أنه الشيء الأكثر قداسة في المسيحية يكسر الآن».[42]

كان إيمان مانديلا نفسه موضع تكهن كبير. فقد كانت كثير من مبادئه الأساسية ـ مقدرته على أن يرى ما هو أفضل لدى الآخرين، وإيمانه بكرامة الإنسان، وتسامحه ـ أموراً مستقاة من الدين. حتى إن بعض الزوار مثل فريدا ماتثيوز كانت تجده كالمسيح تماماً.[43] وكان يظهر مزيداً من التعاطف مع الكنائس.

كان يحب أن يتحدث عن الكهنة العطوفين أمثال تريفور هادلستون Trevor Haddleston ويدافع عن مبشرين مثل نوسيفو ماجيكي Nosipho

Majeke مؤلف كتاب/ دور المبشرين في الفتح/ وقد سأل صديقه الشاب بام: «هل هذا هو رأينا فعلاً بالمبشرين؟»، وكان كثيراً ما يذكر في رسائله أساتذته المبشرين.[44] لكن لم يكن مؤمناً رسمياً مثل أوليفر تامبو، إذ لم يكن يستشهد بالإنجيل، أو يناقش في الفقه. وكان اهتمامه بقداس الأحد سياسياً أكثر منه دينياً. وقد قال إيدي دانييلز: «كان يعطينا الأمل في حين كان كل شيء جامداً كالصخر ولم نكن نرى أي مستقبل، لكن قوته كانت قوة الشخصية وليست قوة الدين».[45]

كانت مقدرة مانديلا على الصفح تذهل الزائرين. فقد ذعرت فاطمة مير عندما سأل عن أحوال أحد الزملاء القدامى في دوربان، الذي شجب مذ ذاك لكونه خائناً باع وطنه، فسألت وقد عيل صبرها: «لماذا تريد أن تعرف أحواله؟»، فذكرها مانديلا بأن الرجل قد أمن سيارة ذات مرة لينقل لوثولي إلى المطار. ففكرت فاطمة «هل ذاك ما غفر له؟».[46]

كثير من رفاق مانديلا في السجن كانوا يشاركونه تسامحه، وكانوا مصممين على تفادي المرارة والحزن على النفس. وقال بام: «إن السجن قد عالجني تماماً من الحزن على نفسي والتركيز على ذاتي».[47] كانوا دائماً يذكرون أن حالتهم كان من الممكن أن تكون أسوأ بكثير عندما ينضم إليهم سجناء أخضعوا للتعذيب، أو عندما يسمعون عن العديد من الأشخاص الذين ماتوا في المعتقل. كان كاثرادا يتذكر المثل الصيني الذي استشهد الأب هيو به: «لقد شكوت وتذمرت لأني لا أملك حذاء إلى أن التقيت برجل لا يملك قدماً».[48] لكن مانديلا هو الذي كان مثال الصبر والتحمل. وإذا كان لنزلاء جزيرة روبين ثقافة ونص مشترك، فإنه لم يكن الإنجيل أو القرآن وإنما شكسبير. «بشكل أو بآخر كان لدى شكسبير دائماً ما يقوله لنا» حسب ما قال كاثرادا، الذي حاول مرة أن يناقش بأن شكسبير كان عنصرياً، لكنه أسكت فوراً.[49] ويذكر نيفيل ألكساندر: «كنا نحفظ مقاطع طويلة طويلة من شكسبير، المقاطع

الأكثر نضالية عادة مثل كوريولانوس، ويوليوس قيصر، طبعاً، وهنري الخامس». [50] كان الشبه السياسي بين نصوص شكسبير وجنوب إفريقية السوداء واضحاً جداً فقد كان /يوليوس قيصر/ بمثابة نص يدرس النظرية الثورية. إلا أن فهمه الأعمق للشجاعة البشرية والمعاناة والتضحية أعادت الثقة إلى السجناء بأنهم جزء من دراما عالمية.

كان سوني فينكاتراثنام يحتفظ بنسخة من أعمال شكسبير على الرف عنده، يغطيها بصور دينية هندية. وقد قال فيما بعد: «أنا لست شخصاً متديناً، ولكني لن أتخلى عن هذه، لأنها أعطتنا مسرات وقراءات لا تحصى»، وقد أمرَّها إلى جميع السجناء في الزنزانات المفردة، لينقلوا المقاطع المفضلة لديهم، كما زودهم بمقتطفات أدبية فريدة للسجناء. وقد اختار كاثرادا من هنري الخامس: «مرة ثانية حتى الثغرة» فيما اختار ويلتون مكواي قول مالفوليو: «بعضهم يولدون عظماء» من مسرحية «الليلة الثانية عشرة». أما غوفان مبيكي فقد اختار الأبيات الأولى من المسرحية نفسها: «إذا كانت الموسيقى غذاء الحب». واختار نيلي نير أبياتاً كاليبان من مسرحية العاصفة «هذه الجزيرة ملكي باسم أمي سيكوراكس» وانتقى سيسولو أبيات شايلوك:

مازلت أحمله بصبر،

فالمعاناة شعار قبيلتنا كلها.

بينما أحب نيفيل ألكساندر القصيدة التي مطلعها:

مثلما الأمواج تتقدم نحو شاطئ الحصى

هكذا تتسارع دقائقنا نحو نهايتها

أندرو ماسوندو توقف عند أبيات مارك أنطونيو:

أواه! سامحيني، أيتها القطعة الدامية من الأرض

لأني ضعيف ولطيف مع هؤلاء الجزارين.

مانديلا أيضاً اختار مقطعاً من «يوليوس قيصر» ووقع عليه بتاريخ 16كانون الأول (ديسمبر) 1977 :

الجبناء يموتون مرات عديدة قبل موتهم،
والشجاع لا يذوق الموت إلا مرة واحدة.
من كل العجائب التي سمعت بها
لم أجد أغرب من أن الرجال تخاف،
فالموت نهاية ضرورية
ستأتي عندما تأتي(51)

اكتسبت الدراما الكلاسيكية زخماً جديداً في السجن حيث اعتبرت مسرحية أنتيغون لسوفوكليس ذات علاقة خاصة بالنضال. وقد كتب الكاتب المسرحي آثول فوغارد Athol Fugard مسرحية قصيرة بعنوان / الجزيرة/ اعتمد فيها على تقارير من السجن، مثلت في كيب تاون عام 1973، ثم في لندن وبرودواي، يمثل فيها سجينان نسخة مصغرة من أنتيغون. وفي الجزيرة الحقيقية مثل مانديلا دور كريون في إخراج كامل لمسرحية أنتيغون. حيث رأى في كريون قائداً كان في الأصل حكيماً ووطنياً، لكنه أظهر نفسه عنيداً لا يرحم إذ رفض السماح لأنتيغون بدفن أخيها المتوفى، في حين كانت أنتيغون مقاتلة من أجل الحرية «تحدت القانون لأنه جائر». (52)

وبالتدريج سمح للسجناء بأشكال أخرى من التسلية منها، بعد عام 1967 مباريات الركبي والكريكيت في الهواء الطلق، مع أنهم منعوا ثانية عام 1971، واعتبرتها قوانين المحكمة مزايا أكثر مما هي حقوق. (53) حتى إنهم كانوا يلعبون المونوبولي، التي علمت الرأسمالية للاشتراكيين. لم يكن مانديلا متفوقاً دائماً في هذه الألعاب. وقد قال لويني في كانون الثاني (يناير) 1975 إنه قد هزم في الشطرنج والداما والدومينو، وكذلك في كرة المضرب، وأضاف إنه لم يستطع أن يركز لأنه كان يفكر فيها. (54)

لكنه كان يلعب مباراة متمهلة في الشطرنج أو الداما، حتى أن فينكاتراثنام

قال: «لا أحد يريد أن يلعب الشطرنج مع نيلسون لأن المباراة الواحدة تستغرق ثلاثة أيام. لكن ذلك جزء من تكوين الإنسان. فهو يصبح أحياناً مبهماً، وبطيئاً، لكنه بالغ الذكاء والمهارة». [55] وفي إحدى دورات الشطرنج لعب مانديلا مباراة ضد طالب طب سابق شاب اسمه سليم، استمرت يومين أو ثلاثة أيام قبل أن يستسلم سليم من الإعياء. قال كاثرادا: إن تلك كانت حرب الاستنزاف بالنسبة لمانديلا. [56] وقد تذمر القائد الناميبي تويفو جا تويفو من أن مانديلا يستخدم (تكتيك) المحامي: «كان يجلس هناك طوال اليوم ولا يحرك سوى قطعة واحدة. وأنا رجل أحب الحركة». [57] وقال مانديلا عن (تكتيكه) في الداما: «كنت أفكر بحذر في عواقب كل خيار. وتلك طريقة العمل المفضلة لدي، ليس في الداما فحسب بل في السياسة». [58]

كانت أسعد أوقات الاسترخاء بالنسبة لمانديلا هي الحديقة الصغيرة التي سمح للسجناء بإنشائها في زاوية الباحة، بعد أن اقتلعوا الصخور التي تغطي التربة. كانت تعطيه إحساساً بالحرية والإبداع، وتعيده إلى أيام الطفولة في الترانسكي وتذكره بحديقة مدرسته التبشيرية في كلاركبوري، التي كان يعنى بها من أجل المدير الكاهن هاريس. وقد كتب كاثرادا في تشرين الثاني (نوفمبر) 1975: «هذه الأيام؛ الحديقة هي طفلة نيلسون، وهو مأخوذ بها. وكما هو متوقع فقد قرأ كل ما يقع تحت يده». وحصل مانديلا على البذار من السجانين. ومارس البستنة بإتقان، يساعده فريق من السجناء بزعامة لالوتشيبا. كان كاثرادا يراقبهم وهم يحتشدون صباح كل يوم بأدواتهم من مساطر وأقلام ولصاقات ويعنون بقياس الأبعاد وتسجيل الملاحظات «وأواخر 1975 كانوا قد زرعوا ألفي شتلة فليفلة وحوالي ألف شتلة بندورة، وقليلاً من الفجل والبصل والبطيخ الحلو وشتلتين من البطيخ الأحمر. كان انشغال مانديلا بإنتاج أفضل محصول ممكن متعباً حتى لزملائه (البساتنة). ولتأمين السماد كان يحرص على جمع العظام إثر كل وجبة لحم، وطلب من رفاقه أن يدقوها لتصبح مسحوقاً.

وأمام نقص المتطوعين أحياناً اقترح نوعاً أبسط من أنواع السماد، وهو البقايا البشرية. فقد حفر السجناء حفرة كبيرة في باحة السجن وكانوا كل صباح يقلبون دلاء مراحيضهم فيها. لكن الرائحة، كما أفاد كاثرادا، لم تحبب هذا الإجراء لأي منا وسرعان ما تم التخلي عنه.

الحدث الأكبر عام 1975 كان وصول حرباء أنثى أخذت تتنقل من الفليفلة والبندورة إلى الفجل والخس، عبثاً تحاول (كما لحظ كاثرادا) أن تغير لونها بما يتفق مع ما حولها. وضعت الحرباء ستة صغار وتركتهم فوراً! مما حرك (كما كتب كاثرادا) مشاعرنا الأبوية وخوفنا على اليتيم والصغير والذي لا حول له ولا قوة. وكل صباح وطول النهار كنت تجد جمهرة من الشباب يحيطون بأحد الصغار، وهم منهمكون في نقاش مفعم بالحيوية، ولكن أحداً لم يستطع أن يحل معضلة: أين الحرباء الأب؟[59]

رأى مانديلا في الحديقة بديلاً لرعاية علاقات إنسانية مع أصدقاء غائبين، من ضمنهم ويني، ولكن كان هناك شبه مع السياسة: فالقائد أيضاً «يزرع البذار ثم يرقبها ويعنى بها ويحصد النتائج». [60] وقد كتب لويني عن رعايته لنبتة بندورة كانت مصابة، ثم اجتثها عندما ماتت: رأت ويني في الأمر ما يشبه رعاية طفل وسط النضال، ليراه يسحق من قبل الشرطة. [61]

كانت فرصة متابعة الدراسة هي الأكثر أهمية بالنسبة للسجناء. وكان مانديلا قد حث المفوض في وقت سابق على السماح بأن يسود جو جامعة. لكن أواخر عقد الستين بدت ملامح ذلك الجو، حيث أصبح المقلع يشبه الحرم لما أصبح يعرف باسم: «جامعة جزيرة روبين»[62]، ورأى فيها الطلاب إنجازهم الخاص، برغم أن الصليب الأحمر أراد أن يفكر فيها «كجامعة الصليب الأحمر». [63] وكان أي شخص يحمل شهادة أو أية مؤهلات أخرى يدرس المادة، وكل صباح كانوا يخططون دوراتهم في المقلع، كانوا يجمعون التدريس مع الأشغال الشاقة. وقد قال ألكساندر: «كان الناس يقدمون دروساً حقيقية،

ومحاضرات، بينما كانوا يؤرجحون المعاول ليجرفوا الكلس»، ولكن في هجعة العمل، أو توقفه تماماً، كان التدريس يصبح أكثر تنظيماً، وكان بإمكانهم الوقوف جماعات، يرسمون مخططات في الرمل، ويذكر فيكيل بام: «كانت هناك حركة دائماً إذ تذهب إلى مكان العمل، حيث تنتظم جماعات صغيرة في أماكن مختلفة، فتعرف أن هناك صفوفاً تتقدم».[64]

درس مانديلا دورة في الاقتصاد السياسي، وراجع تطور المجتمعات من الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الاشتراكية؛ التي ما زال يعتبرها المرحلة الأكثر تقدماً. لكنه كان يفضل النقاش على التدريس، وكان دائماً يرحب بأسئلة تلاميذه، التي أجبرته على التفكير المتعمق في آرائه. وقد رأى في نظام جزيرة روبين أصول النظام السقراطي، الذي يستخدم الحوار لتوضيح الأفكار لكل من الأساتذة والتلاميذ.[65]

ويذكر مايكل دينغاك Michel Dingake المحارب من أجل الحرية البوتسواني الذي حاز على شهادتين في الجزيرة، يذكر أن مانديلا كان أكبر مشارك لا يعرف التعب في هذه النقاشات، ويطرح آراءه بصراحة شرسة قادرة على إثارة معارضيه: «وعندما يناقش شخصاً يطرح حقائق واهية، قد يكون نيلسون شريراً بتبني طريقة سقراطية معدلة. وقلما تجد شخصاً يحب أن يستجوب وينكشف جهله وضبابيته. وقد خرجت مراراً من نقاش مع ماديبا مجروحاً ومهاناً. إلا أنني كنت أجد تلك الخبرة مفيدة في المدى البعيد. لأنها علمتني أن أنظر إلى جانبي الموضوع وأحاول إعطاء جواب موضوعي وصادق».[66]

كان بعض السجناء أميين تماماً عندما أتوا إلى الجزيرة. وكان معظم تعليمهم. في البداية، شفهياً وعامياً. يذكر ألكساندر أنه كان «مجرد حديث من واحد لآخر، وتبادل أفكار حول ما نعرف في السياسة والتاريخ واللغة».[67] لكن بالنسبة لمعظم الأميين أصبح تعلم القراءة والكتابة يستحوذ اهتماماً كبيراً.

وقد قال غوفان مبيكي: «كنا نأخذ الناس من أخفض مستوى، وقد قدموا إلى الجزيرة أميين، وكان لا بد من تعليمهم. وعندما يأتي وقت مغادرتهم جزيرة روبين كانوا قادرين على كتابة رسائل لأهلهم.. كما كانوا يتحدثون الإنكليزية». [68] ديكغانغ موسينيكي Dikgang Moseneke وهو أحد الناشطين في المؤتمر الإفريقي العام أتى إلى الجزيرة غلاماً عام 1963 (أصبح فيما بعد رئيساً لشركة تيليكوم الجنوب إفريقية)، لحظ أن الجميع في قسمه استطاعوا القراءة والكتابة خلال بضع سنوات. [69] وكثير منهم تقدموا نحو دراسات رسمية عن طريق مدارس بالمراسلة، واكتسبوا الدافع والفرصة لمتابعة التعليم العالي الذي ما كان ليتاح لهم خارج السجن. والعديد ممن وصلوا بحد أدنى من التعليم غادروا بشهادة أو شهادتين.

وقد وصلت عدوى التعليم إلى بعض السجانين الشباب، ويذكر الكولونيل ويليمزي، رئيس السجن أن «كثيراً من المجندين تطوعوا من أجل الجزيرة، كانت جامعة للسجانين أيضاً». [70] ويذكر الرقيب أوبري دو توا Aubrey du Toit السجان الذي يدير دائرة دراسات السجناء أن مانديلا كان «حازماً جداً حيال دراسة الناس ليس السجناء فحسب وإنما السجانون»، وعندما قال لمانديلا إنه كان يدرس الأفريقانية العملية فقط. أجابه مانديلا: «أيها الرقيب يجدر بك أن تخجل من نفسك. أنا كزوسي وتعلمت الأفريقانية والندرلاندية». [71] وفيما بعد نصح أحد السجناء دوتوا أن يترك الخدمة في السجن ويلتحق بشركة سانلام للتأمين! وهذا ما فعله.

وقد ساعد جو التطوير الذاتي والتعليم السجناء السياسيين في التغلب على التوترات الجنسية والإحباطات التي كانت تسبب الهياج لدى السجناء الوضيعين، الذين كانوا يلجأون لعادات المثليين أو العنف. وقد لاحظ جورج بيزوس أن «الدافع الجنسي كان يصعد عن طريق السياسة». وقد حذر بيزوس من أن السجناء لا يحبون النكات القذرة. [72] وما من شك في أن كثيراً من

السجناء السياسيين الشباب كانوا يشعرون بالإحباط حيال الامتناع والتقشف المفروض عليهم، لكن النظام كان حاسماً. وقد مر مانديلا نفسه، كما شرح فيما بعد، بكثير من التقشف في مدارسه الداخلية التبشيرية، لكن زملاءه فوجئوا بجهله بالمثلية. وقد قال فيما بعد إنه مرة: «رد باشمئزاز ضد نظام الشذوذ كله». [73] ولكن عندما تجرأ أحد السجناء وطرح الموضوع، كان سعيداً بنقاشه. ويعتقد الدكتور موتلانا Motlana الذي رأى كثيراً من السجناء السابقين بعد إخلاء سبيلهم، أن الجسد يتأقلم مع التقشف برغم وجود مشاكل دائماً مع الزوجات والصديقات. وكان مانديلا يحذر السجناء قبل أن يغادروا من أنهم سيواجهون صعاباً في التوافق مع زوجاتهم. [74] وبقي الجو السائد تطهرياً ومنكراً للذات، وقد ساعد على ذلك الغياب الكامل للخمرة، التي كانت تضعف السجناء الأذكياء في السجون الأخرى.

أتاحت عزلة السجناء فرصة فريدة للدراسة المستمرة والمنظمة، المحمية من المقاطعة والانقطاع مما يسم حياة المدينة ـ من إعلانات ومجلات وأصوات موسيقى تشتت الذهن باستمرار في الأحوال العادية ـ أو ما أسماه كولريدج Coleridge «ما يخرب الذاكرة». [75] وأدى غياب النصوص المكتوبة إلى الاعتماد اعتماداً رئيساً على الذاكرة، واكتشف كثير من السجناء أن بإمكانهم استعادة أقوال أو أشعار كانوا يظنون أنهم قد نسوها. قال فيكيل بام: «المذهل هو أن الناس كانوا يتذكرون الأشياء. كانت تعود إليهم في منامهم». [76] حتى إن ليزلي فان دير هايدين Lesley Vander Heyden، وهو مدرس سابق للغة الإنكليزية كان يدرس في الجزيرة وجد عقله يستعيد أشعاراً منسية. [77] لقد أدت الحاجة إلى حفظ الحقائق عن ظهر قلب إلى استحضار الذاكرة. وقد قال سيسولو فيما بعد: «يجب أن تستمع لما يقولونه في الخارج من أن السمع يجب أن يكون حاداً. كنت مضطراً إلى الاعتماد على ذاكرتي، أما الآن فأنا أعتمد على ما أكتب». [78] ويذكر راكس سيكهو Raks Seakhoa، الذي أتى إلى الجزيرة

غلاماً لم يكن حصّل تعليماً يذكر، وغادرها كاتباً جدياً، قال: «شيء واحد يملكه السجين هو ذاكرته.. كانت ذاكرتي سليمة جداً / ليست كما هي الآن/ ، إذ أنسى الأشياء السخيفة والجدية على حد سواء». [79] وحتى نيفيل ألكساندر الذي وصل الجزيرة أكاديمياً عالي التعليم وجد أن ذاكرته تحسنت في الجزيرة لأنه لم يكن بإمكانه تدوين أي شيء. في الوقت الذي كان ذهنه يشحذ بالنقاش. فقد كان تحدي النقاش والتنافس مع أشخاص مثل نيلسون مهماً جداً كي يصبح الإنسان دقيقاً جداً ومنظماً». [80]

كان مانديلا يتمتع بذاكرة غير عادية، كما كان يعرف منذ أيام المدرسة، وبعد إذلاله في الجامعة كان قادراً على الدراسة بطريقة منهجية أكثر في زنزانته متابعاً شهادة الإجازة في الحقوق LLB، إلى أن حُرِمَ من تلك المزية. وكان يخشى أحياناً أن تخونه ذاكرته، لكن عقله الحقوقي كان يشحذ بتأسيس ممارسة غير رسمية للمهنة في الجزيرة، حيث كان يقدم النصح لجميع أنواع السجناء، كثير منهم كانوا أميين، في قضايا مثل كيف يستأنفون الحكم الذي صدر بحقهم، كما كان يساعد السجانين في مشاكلهم القانونية. [81] والأكثر أهمية هو أنه كان ينمي طاقاته الثقافية واهتمامه بالأفكار، وقد قال فيكيل بام إنه كان «يغير ويراجع آراءه عاماً إثر عام. ولم يكن لديه أي عمق أيديولوجي قبل أن يأتي إلى الجزيرة، لكنه اكتسب ذلك في السجن». [82]

أعطى مناخ النظام خريجي جزيرة روبين سلطة وثقة بالنفس لازمتهم دائماً. وكانت، على حد تعبير المؤرخين توم كاريس Tom Karis وغيل جيرهارت Gail Gerhart «ثقافة رفقة السلاح والتعاون والتعلم، ثقافة النقاش الحاد، إذ يجتمع إلى التحمل السياسي». [83] كان لتلك الثقافة المشتركة، التي يجسدها مانديلا، أهمية كبيرة أثناء الانتقال السلمي للسلطة بعد عشرين سنة.

لم يكن المقلع مجرد حرم، وإنما كان نادياً للمناقشة. فبعد العامين الأولين أصبح السجانون أقل صرامة في الإشراف على السجناء، وسمحوا لهم

بالكلام أثناء العمل. وكان مانديلا ينضم إلى مجموعاتهم الصغيرة في مناقشة جميع أنواع المواضيع. هل يجب أن يختتن الصبيان؟ هل هناك نمور في إفريقية؟ أيصح قبول الشذوذ الجنسي في السجن؟. لكن النقاشات السياسية هي التي كانت تواجه تحدياته الحقيقية. فقد كان في قسم العزل دائماً خلافات بين أربعة من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي الذين شكلوا / الجهاز الأعلى/ الأصلي. مانديلا وسيسولو، وكلاهما استرضائي من الترانسفال، كانا دائماً في خلاف مع غوفان مبيكي من الكيب الشرقية الذي كان ماركسياً قحاً لا يحتمل الإجماع في الرأي. لكن / الجهاز الأعلى/ كان يلاقي أكبر صعوبة مع هاري غوالا Harry Gwala - وهو شيوعي حاد المزاج من ناتال عرف باسم «أسد الأراضي الوسطى» - الذي كان في زنزانات جماعية للشيوعيين إلى أن أطلق سراحه عام 1973، ولكنه عاد بعد أربع سنوات. جمع غوالا معرفة عميقة بالنظرية الماركسية والتاريخ الماركسي إلى أسلوب صندوصابوني (الخطابة في الهواء الطلق) كان يلقى صدى لدى السجناء الشباب، ونظم محاضرات حول «نظرية القيمة في العمل».

بحلول عام 1975 كان اليساريون في الجزيرة، وخاصة أتباع غوالا، يقتربون من منافسة مانديلا على القيادة. وقد أحجموا عن الحديث عن ذلك فيما بعد. ولكن سجيناً مغفل الشخصية هرب مع دفتر مذكراته وثيقة من الجزيرة إلى لوزاكا رسمت صورة لـ «زنزانات ترويج الشائعات ومعسكرات الطعن البذيء»، كما تحدثت عن الشكاوى الحادة ضد الأعضاء الأربعة الأصليين في / الجهاز الأعلى/ لغياب «النقد الذاتي» لديهم ولـ «أخطائهم العارضة»، وإثارتهم نقاشات قديمة من فترة ما قبل السجن.[84] وقد ذكر فيكيل بام أن حوالي 70 بالمئة من القسم ب يدعمون مانديلا، برغم أنه لو أحصي عدد السجناء السياسيين في الزنزانات العامة لحصل على دعم الأقلية.[85] آخرون ظنوا أن دعم مانديلا كان أكبر بكثير. وبعد عام 1975 مرت الأزمة الفورية، حيث طرحت زعامة مانديلا

للاقتراع أمام أعضاء المؤتمرات الذين أكدوا دعمهم بإجماع الاقتراع. تلك البادرة التي اقترحها سيسولو وثنّى عليها كاثرادا، رسخته «الأول بين أنداده»، ولكن النقاشات هبت ثانية عندما عاد هاري غوالا إلى جزيرة روبين عام 1977.[86]

السؤال الأكثر قسوة؛ الذي أثار قلق مانديلا منذ عقد الخمسين كان السؤال الذي يعذب جميع الثوريين الذين يواجهون هيئات حكومية تحاول اختيار أعضاء من شعبهم. هل يجب أن يقاطعوا تلك الهيئات كليةً؟ ام يخترقوها ويحاولوا قلبها من الداخل. كان مانديلا بخاصة حيال الترانسكي، التي كانت حكومة فيروورد تحضرها لتكون نموذجاً «للتنمية المنفصلة»، الأولى بين البانتوستان. فبعد وقت قصير من دخوله السجن لأول مرة عام 1962 عقد المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمراً في لوباتسي في بيتشوانالاند، حيث اقترعوا مقاطعة انتخابات الترانسكي الوشيكة. عارض مانديلا ذلك القرار لاعتقاده أن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يستطيع فرض مقاطعة في كل الأحوال، وأن عليهم بدل ذلك دعم حزب المعارضة برئاسة الزعيم فيكتور بوتو Victor Poto، الذي كان يتحدى مرشح بريتورية المفضل، ابن أخت مانديلا قيصر ماتانزيما. رأى مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي، باستغلال الانتخابات يستطيع بالتدريج بناء منظمة جماهيرية، وبالتالي الفت في عضد نظام البانتوستان.[87]

هذا النقاش كان يفرض نفسه مرة أخرى في جزيرة روبين بعد عام 1969، عندما كان مانديلا على /خلافات حادة/ على حد تعبيره اللبق، مع غوفان مبيكي وأنصاره، تلك الخلافات التي أدت إلى أطول النقاشات وأكثرها دقة.[88] وتوترت العلاقات بين مانديلا ومبيكي بعض الوقت. وقال الشيوعيون الأكثر صرامة، والتروتسكيون من حركة الوحدة، إن الاشتراك في الانتخابات يعني التنازل عن كل شيء لصالح الأبارثيد وتحويل اهتمام الناس عن الكفاح المسلح. وأرادوا اتباع نهج البلشفيك الذين قاطعوا انتخابات مجلس الدوما الروسي قبل

الثورة عام 1917. أقر مانديلا بأن المشاركة قد تكون خطيرة، وربما تعيث الفوضى بين أوساط الشعب. لكنه أصر، كما فعل في عقد الخمسين، على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يبقى (براغماتياً)، وأن بإمكانهم استخدام عملية الانتخاب لحشد أتباع في المناطق الريفية. واستشهد بالمثل السوثي القائل: «النهر تملؤه جداول صغيرة».[89]

بقي مانديلا على رفضه أي حل وسط بالنسبة للموضوع الأساسي المتعلق بالأبارثيد. واستعرض قوته في كانون الأول (ديسمبر) 1974 عندما زاره على غير توقع وزير في الحكومة هو جيمي كروغر Jimmy Kruger، وزير العدل، وصف مانديلا كروغر في رسالة إلى ويني، راعى فيها وجود الرقابة، فقال عنه: «ودود ويشوش ويحب المرح». والواقع أنه وجده فجاً وجاهلاً وساذجاً بما يثير العجب. حاول كروغر أولاً إقناع مانديلا وبعض رفاقه بالتخلي عن الكفاح المسلح. رد مانديلا بأن شرح تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي وميثاق الحرية، الذي لم يسمع به كروغر من قبل. وما أثار دهشة مانديلا أنه لم يكن يعرف أي شيء عن الثوار الأفارقة في الحرب العالمية الأولى.[90] وقد علق ماك ماهاراج قائلاً: «كروغر حاول أن يضعنا على البساط. لكن نيلسون هو الذي وضعه على البساط». ومضى كروغر يسأل مانديلا، بإذعان واحترام غير متوقعين؛ أن يعترف بشرعية حكومة الترانسكي الخاضعة الآن لحكم استبدادي يمارسه ابن أخته ماتانزيما، وعرض إمكانية إطلاق سراحه سريعاً إذا ذهب ليعيش هناك. لم يكن لدى مانديلا، بدعم من رفاقه، أية شكوك حيال رده، لم يكن قادراً على دعم السياسة المخادعة بالتنمية المنفصلة. وأعطى الجواب نفسه عندما عاد كروغر بعد شهر. شك مانديلا في أن كروغر كان يمارس سياسة البيض، وقد تأكد هذا الشك بعد ذلك بفترة قصيرة عندما هاجم كروغر مانديلا في المجلس النيابي كونه شيوعياً يحمل بطاقة.[91]

أصبح لدى مانديلا الآن مزيد من الوقت للتأمل والتحليل، استطاع أن

يوجهه نحو كتابة سيرته الذاتية. كانت فكرة سيسولو وكاثرادا، وأقرها ماهاراج، الذي اقترح عام 1975 أن تنشر بمناسبة عيد ميلاده الستين عام 1978، لتشجيع حركة التحرير في الخارج.[92] استنفدت كتابة الكتاب كل ما لدى مانديلا من قوة استحضار الذاكرة، ولكن كان الأمر أسهل عندما كان السجانون أكثر هدوءاً. كان ينام جزءاً من النهار ويكتب بهمة أثناء الليل، فأنجز كتاباً طويلاً غنياً بالتفاصيل المعقدة، خلال أربعة أشهر. كتب بسلاسة، ولم يشطب إلا قليلاً. وقد عنون بعض المقاطع كرسائل إلى ابنته «حبيبتي زيني». وقد كتب في أحد الفصول: «أتمنى لو أستطيع أن أحدثك أكثر عن المجموعة الشجاعة من الزملاء، لكن سجاناً فضولياً يقطع الممر جيئة وذهاباً، ويطل علي بين وقت وآخر ليثرثر. أنا أعمل تحت ضغط ثقيل ولوقت محدد. فكل ورقة أنجزها يجب أن تغادر السجن يومياً دون أن أراها ثانية».[93]

كانت وثيقة مهمة وقد كتبت بعناية، في البداية كان يستعيد بحيوية طفولته في الترانسكي، ثم يصف التزامه السياسي من خلال الاجتياحات والاجتماعات والمحاكمات. وقيم وضع النضال تقييماً غير متحيز، من بعيد في السجن. وقال: «منذ أربعة عشر عاماً، عندما عدت من الخارج، كنا واثقين أن الحركة داخل البلاد ستكون أقوى بكثير مما هي حالياً، ونستطيع أن نمارس ضغطا كبيراً على العدو»، ولكنه استمد القوة من الجهود الدولية الهائلة لإطلاق سراحه. وقد أخذ رؤية تاريخية طويلة، فاستعرض الشجاعة الماضية للأفارقة في القتال من أجل استقلالهم ضد البريطانيين، ولكنه رآهم «أقلية من المضطهدين لا يُعدّون رقماً يذكر هنا في الداخل ومعزولين عن العالم كله»، والآن هم الإفريقيون الذين يقاتلون لاستعادة حريتهم الضائعة. لكنه كان حريصاً على تصحيح أي انطباع بأن النضال أتى وليد الانتقام.

> إن عجلة الحياة موجودة. والأبطال الوطنيون من أوتشوماو إلى لوثولي، في الواقع جميع أبناء شعبنا كانوا يعملون من أجلها لمدة تربو على ثلاثة

> قرون وهي عالقة بالشمع الجاف والصدأ، لكننا استطعنا أن نكسر جمودها وجعلناها تتحرك إلى الخلف وإلى الأمام، ونعيش على الأمل والثقة بأننا في يوم من الأيام. سنتمكن من تدويرها دورة كاملة ليتداعى من كان في الأعلى ويعلو المضطهدون. لا، وإنما كي يتمكن كل الناس، أهل القمة مع مضطهدي الأرض، أن يعيشوا أنداداً.[94]

كل يوم كان مانديلا يميِّز لماهاراج عشر صفحات من القطع الكبير، ولم يكن بإمكانه الإشارة إلى صفحات سابقة، ويذكر ماهاراج أنه: «كان مضطراً لأن يحفظ في ذهنه الأشياء التي كتبها، وتسلسل أفكاره». عند ذلك يختبئ ماهاراج تحت البطانية وينسخ عمل مانديلا بأحرف صغيرة جداً - لا يصل ارتفاعها إلى نصف الميليمتر - ويخفي الصفحات الصغيرة بين كتبه الدراسية. وكانت الصفحات الأصلية تعطى لكاثرادا وسيسولو لإبداء ملاحظاتهما الصريحة وتصحيحاتهما. ثم يخفي ماهاراج الصفحات الصغيرة بعد مراجعتها داخل غلاف كتاب الإحصاء، الذي كان يخطط لتهريبه إلى الخارج عندما ينهي حملته الأخيرة عام 1976. احتفظ كاثرادا بنص مانديلا الأصلي كبديل يمكن الرجوع إليه، بأن دفنه، بمساعدة زملائه، في ثلاث عبوات بلاستيكية تحت أرض الباحة. وكانت الطامة الكبرى عندما بدأ بعض السجناء يحفرون أساسات لجدار جديد في الموضع نفسه. تمكن مانديلا وأصدقاؤه من تدمير عبوتين، لكن الثالثة اكتشفت وأرسلت إلى الضابط المشرف.[95]

كتب مفوض السجون تقريراً سرياً إلى وزيره في 26 تشرين الأول (أكتوبر) 1977 - بعد تأخير طويل - شارحاً أن هذه / الكتابات غير المرغوبة/ قد وجدت، ووجد خبراء الخطوط لدى شرطة جنوب إفريقية أنها كتبت من قبل مانديلا مع إضافات من قبل ماهاراج وكاثرادا. ولخص الفصول العشرة مؤكِّداً على ما تأثر به مانديلا من شعر الشاعر مكواي وبرام فيشر، واجتماعاته بالقادة السود في إفريقية وملاحظات ينقد فيها رئيس الوزراء فورستر Vorster. واعتقد أن اتجاه الكتابة «مبررٌ كافٍ لإقامة دعوى جديدة ضد مانديلا»، الأمر الذي ربما

لن يفيد في شيء بما أنه يقضي عقوبة بالسجن مدى الحياة لانتهاكات مماثلة. وعرَض بما أن السجناء قد استخدموا ورقاً مخصصاً للدراسة، فإن مزية متابعة الدراسة ربما تحجب نهائياً. والواقع أن مانديلا وسيسولو و كاثرادا أوقفوا عن الدراسة لمدة أربع سنوات (بما أن مخطوطة مانديلا قد فحصت بدقة، فقد حفظت في سجلات السجن).[96]

كانت خسارة مزية الدراسة ثمناً باهظاً يدفع لقاء مغامرة أحبطت في النهاية. أما الصفحات المصغرة فقد هربت خارج السجن من قبل ماهاراج عام 1976. وقد أرسلت إلى لندن، حيث أعيدت طباعتها وقدمت لأوليفر تامبو. عدد قليل من الأشخاص رأوا النسخة المطبوعة، لكن جو سلوفو ويوسف دادو، الشيوعيين في المنفى، أوضحا لماهاراج أنهما يعتقدان أنها لا تعطي دور الشيوعيين في النضال حقه.[97] وبقيت المخطوطة غير منشورة واختفت عشرين سنة. وقد كتب كاثرادا من بولسمور: «أنا مذهول طبعاً، وخائب الأمل وحزين»، عندما علم عام 1989 أن المخطوطة لم تجد طريقها إلى النشر بعد.[98] ولم تستخدم المخطوطة أساساً للثلثين الأولين من سيرة مانديلا المنشورة تحت عنوان / مسيرة طويلة نحو الحرية/ قبل عام 1994.

في منتصف عقد السبعين كان معظم نزلاء جزيرة روبين قد تقبلوا نمطاً من التصرف والتعاون. قال عنه نيفيل ألكساندر: «إن المجابهات قد تم تفاديها ولم تعد تحرض أبداً، وأصبح الإصرار على التفاوض مع السلطات والنقاشات الصبورة والإقناع، هي الأساليب المفضلة مع الإصرار على الكياسة والكرامة، إلى جانب الانضباط الطوعي. في المقابل، لا يقبل أي ضرب من ضروب الخنوع والإذلال. وأصبحت الوقاحة تشجب بحزم لكن بتهذيب، قدر الإمكان».[99]

كانت شكاوى مانديلا إلى سلطات السجن قادرة على إثارة غضب العاملين. ففي تموز (يوليو) 1976 أرسل قائد الوحدة الكولونيل جي دو بريز

J. du preez رسالة من مانديلا إلى المفوض في بريتورية، مع ملاحظة غاضبة تقترح أن يخفض موقع مانديلا «وقد رفضها المفوض»:

إنه يتعمد وبطريقة منهجية ونفسية أن يضع القارئ تحت انطباع يوحي بأهميته الخاصة وتقديره لنفسه. والمستوى العالي جداً الذي يعامل من خلاله كسجين يخلق بوضوح الانطباع بأن السجانين، ورئيس السجن وحتى قائد الوحدة، ليست لهم أية أهمية في حل مشاكله.

وأنا أعتبر مانديلا والسجناء الآخرين في قسمه خطرين جداً ويتحدون موقعهم تحدياً خطيراً يجعلهم لا يترددون في الاعتراف أن ليس لديهم أية نية في تأهيل أنفسهم، وهدفهم الرئيس هو زرع أحاسيس التمرد والفساد والإساءة للسلطة..الخ. ضد الإدارة وأعضائها...[100]

بعد ثلاث سنوات كتب المفوض إلى الوزير مضمناً كتابه رسالة كتبها مانديلا وريموند مهلابا ـ يشتكيان فيها من التفرقة في الجزيرة: «في ضوء العجرفة الجلية في الرسالة نقترح أن يدون مضمونها وتصنف» ـ وكذلك كان.[101]

قدم مانديلا أنموذجاً للسجناء الآخرين، فاتخذ أسلوباً يتميز بالثقة والكرامة ارتفع فوق الإذلال والتوترات اليومية، وأعطاه مظهر من هو / سيد قدره/ بحق. قال ألكساندر: إن السجن يمكن أن يعطي التحرر الشخصي ـ من التقاليد والتفاهة أو الإحساس بالذات ـ وشعر مانديلا حقاً أنه متحرر بطرق كثيرة. ولاحظ أن السجناء قد تحرروا من الخوف من المتسلط والمضطهد الذي كثيراً ما شل الحركة: «بمجرد أن تخلص نفسك من الخوف من المتسلط وسجونه وشرطته وجيشه لا يبقى أمامهم ما يفعلونه، أنت متحرر.. أنت لا تريد أن تهاجم، ولا تريد أن تجرح، وأنت تشعر بالألم والإذلال. ولكنك تشعر أن هذا هو الثمن الذي لا بد لك من دفعه كي ترسخ آراءك وأفكارك».[102]

بعد أن أطلق سراح ماك ماهاراج في كانون الأول (ديسمبر) 1976 وصف حالة مانديلا الذهنية. اعتقد ماهاراج أن أقسى عقاب بالنسبة إليه بعد أن خرج من

أتون المعركة أن يكون خارج منطقة (تكتيك) القرار: «عليك الآن أن تقبل أنك، ضمن ذلك المفهوم أصبحت في الهامش، وعليك أن تثق برفاقك».
وكانت أفكار مانديلا عن (الاستراتيجية) الرئيسة تزداد قوة وحزماً: ورأى أن الكفاح المسلح أساسي من أجل التحرير لكنه شعر بأن العقوبات تلعب «دوراً رادفاً مهماً جداً» بحرمان النظام من دعم الاستثمار والتجارة الدوليين. رأى ماهاراج مانديلا / يراقب عدوه/ بحثاً عن أية تناقضات أو انقسامات في بريتورية، في الوقت الذي يحتاط من محاولة الحكومة تقسيم المؤتمر الوطني الإفريقي من خلال الذعر المعادي للشيوعية.

وقد اقتبس ماهاراج، مثل الآخرين، من معنويات مانديلا، لكن أسلوبه الحار والمرحب قد يكون مضللاً، وسرعان ما أدرك أن مانديلا يحتاج وقتاً طويلاً كي يصبح صديقاً حميماً، وحتى عند ذلك فإنه يحتفظ بخصوصيته. وقد استطاع أن يتحكم بغضبه تحكماً كاملاً، ووراء تصرفاته اللطيفة والمهذبة كان شخصه الصلب والمدعم. «وطوال وجوده في السجن كان غضبه وكراهيته للنظام يتناميان. إلا أن أوجه التعبير عن ذلك الغضب أصبحت أقل ظهوراً للآخر. فقد أصبحت أكثر قمعاً، وأكثر هدوءاً. أصبحت أكثر بروداً وأكثر ميلاً إلى التحليل في توكيدها على مساوئ النظام».[103]

أقر مانديلا بذلك التقييم. فقد نجح في إخماد عواطفه والحفاظ على تعقله وانطباعه الشخصي في مواجهة أكثر المجابهات تحريضاً. وقال: «عندما يواجه الإنسان ظروفاً كهذه عليه أن يفكر بوضوح. وما من شك في أنك تفكر بوضوح عندما تكون هادئاً، ومتماسكاً وغير مستفز، لأنك إذا أصبحت مستفزا ترتكب أخطاء فادحة».[104]

إلا أنه سيواجه تحديات أكثر إيلاماً داخل أسرته، ممن لا يستطيع أن يخفي مشاعره عنهم.

17

سيدة وسط المعمعة

1962 ـ 1976

كان مانديلا قادراً على التواصل مع رفاقه السجناء، وحتى مع سجانيه. لكن التواصل كان صعباً مع أسرته. فعندما كان يعمل في الخفاء، أو أثناء محاكمته، كان قد أصبح أكثر بعداً عن أطفاله، حيث امتصته حياته السياسية مثل كثير من القادة العظماء، وترك طلاقه كثيراً من التحفظات. لكنه في السجن دفع ضريبة أسرية باهظة. فقد انقطع عن أسرته الثانية الشابة في سنوات تكوينها. وراحت تكبر بعيداً عنه، وبدأت تراه أسطورة غير مشخصة.

كان مانديلا دائماً أباً متطلباً وطموحاً، رب أسرة فيكتوري، كان يشعر بثقل مسؤوليته كرأس للأسرة، وحدد أهدافاً تعليمية عالية لأولاده شعروا بأنهم لن يحققوها. وقد قال واحد منهم: «مع أسرته كان محافظاً وسلطوياً. كان يريد سلالة كسلالة آل كينيدي». [1] وقد ضاعفت عزلته في السجن المسافة والعقبات. وفي زياراتهم النادرة بدا الأطفال كالغرباء، لم يكن يستطيع لمسهم أو الإحساس بهم، ولم يكن بإمكانه متابعة مراهقتهم إذ مضوا كل في طريق مستقلة. وكانت رسائله العاطفية من السجن إلى زوجته وأولاده، بعكس رسائله السياسية المنضبطة، وتصريحاته، تعبر عن غضب رجل رأى أسرته تنزلق بعيداً عنه.

في أثناء سنواته الخمس الأولى في جزيرة روبين واجه مانديلا مأساتين عائليتين. فعام 1968 أحضرت أخته مابيل والدته العجوز من الترانسكي لتراه،

ومعهما ابنه الثاني ماكغاثو Makgatho وابنته ماكي. كانت مابيل متفهمة للزيارة، وخائفة أن تتأثر صحة والدتهما بالرحلة البحرية ومراقبة الشرطة، التي أخذت جميع صفاتها كأنما كانوا يتوقعون موتها.[2] وكانت آخر مرة رأى مانديلا والدته على عجل في محاكمة ريفونية، يومها كانت جسماً ضعيفاً، محنياً. وفي السجن سمعه السجان يهمس لمابيل إنه قلق لمنظر أمه المهزول المنهك. وبقي صامتاً على غير عادته بعد مغادرتها.[3] وبعد بضعة أسابيع وصلت برقية تخبره أنها ماتت. شعر مانديلا بتبكيت الضمير لإهماله السابق لها. لكونه ابنها الوحيد، طلب السماح له بدفنها في الترانسكي، إذ تذكر أن نهرو أخرج من السجن ليصطحب زوجه إلى عيادة لمرض السل في سويسرة. لكن الحكومة رفضت السماح له، خشية أن يحاول الهرب. وترك أمر ترتيب الجنازة لكبار القبيلة؛ الملك ساباتا والزعيم الأعلى قيصر ماتانزيما، فيما أرسل القائد الزولي الزعيم مانغوسوثو بوثيليزي Mangosuthu Buthelezi رسالة تعزية.[4]

حزن مانديلا لأنه لم يتلق أية زيارة من ابنه ثيمبي، برغم أنه كان يعيش في كيب تاون. وقد كان ثيمبي دائماً ابنه المفضل والألمع ذكاء. كان يعبد والده أيام العمل السري عام 1961، حتى أنه كان يلبس سترته ليشاركه مسؤولياته وأسراره. لكن ثيمبي حزن لطلاق والديه، وأصبح ممزقاً بين سياسة أبيه وتدين أمه. وكان في عامه السادس عشر عندما دخل مانديلا السجن وتألم والده لأنه لم يراسله، وتزوج في سن مبكرة جداً من ابنة أحد أصحاب المخازن في كيب تاون، وأنجبت له ابنتين. وعام 1969، عندما كانت الابنة الصغرى في الشهر السادس من عمرها وصلته برقية بأن ابنه ثيمبي قد قتل في حادث سيارة. انهار مانديلا ورقد في فراشه دون عشاء إلى أن أتى سيسولو وجثا قربه وأمسك بيده في تعاطف صامت. وفي الصباح التالي ظهر أمام رفاقه كما هو عادة. وأرسل رسالة تعزية إلى إيفيلين ـ كانت الاتصال الوحيد معها وهو في السجن ـ ولكن ما أثار حزنه الشديد أنه لم يسمح له بحضور الجنازة.[5]

شعر مانديلا أنه يزداد اعتماداً على ويني، لكنه كان يدرك تماماً أنها أصغر وأقل خبرة من زوجات معاصريه، وأنها تخضع لاضطهاد الشرطة. ولم يكن قد مضى على زواجهما سوى أربعة أعوام عندما سجن تاركاً زوجه مع ابنتين. وبدا في رسائله العاطفية ـ التي كانت في البداية محددة برسالتين في العام ثم رسالة واحدة في الشهر ـ يَعِدها مثالية، دون النظر إلى أخطائها ومواطن ضعفها.

كانت ويني واعية تماماً مسؤوليتها السياسية والاسم الذي تحمله. وقد قالت مرة: «كنت مستعدة لأنوب عن نيلسون. كان علي أن أفكر بحذر فيما أقول، لكوني أمثله».[6] كان لديها صديقات مقربات بينهن هيلين جوزيف المحنكة في محاكمات الخيانة. وفاطمة مير في دوربان، لكنها كانت متغطرسة تجاه نساء سياسيات كبيرات مثل ألبرتينا سيسولو، وكثيراً ما كانت تندفع فتطلب الدعم من أصدقاء جدد من الرجال.[7]

اعتقل معظم الناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي بعيد اعتقال مانديلا، وتاقت ويني إلى حلفاء سياسيين. وقد عبر جورج بيزوس عن ذلك بقوله: «كل من يظهر كياسة ولطفاً كان يؤخذ بما يظهره».[8] لكن ويني كانت بمثابة حقل ألغام اجتماعياً وسياسياً، حيث الجواسيس والمخبرون في كل مكان.. وكانت تربطها صداقة مميزة مع بريان سومانا. وهو صحفي طلقته زوجه بعد ذلك بفترة قصيرة، قائلة إن ويني زانية، فيما هي أنكرت ذلك. كان سومانا في البداية قريباً من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، ولكن بعد الاعتقال حولته الشرطة عنهم، فوشى برفاقه السابقين، وكان بعضهم يشك في أنه هو الذي كشف المخبأ في ريفونية.[9]

في هذه الحالة المضطربة قامت ويني بزيارتها الأولى لجزيرة روبين في آب (أغسطس) 1964 بثياب نظيفة وأنيقة، أتت بصحبة ألبرتينا سيسولو، التقت بمانديلا لنصف ساعة في سقيفة فارغة في الميناء، بعيداً عن مرأى الزنزانات.[10] ومنع من الحديث بالكزوسية أو الحديث مع أي شخص خارج

إطار الدائرة الأولى من العائلة. كانت هي ومانديلا يتصايحان عبر النافذة فيما السجانون على كلا الجانبين يراقبون ويستمعون، ويتدخلون مقاطعين عندما يسمعون اسماً غير مألوف. قلق مانديلا لأن ويني أصبحت ناحلة وواضحة التوتر، وحثها على ترك نظام الحمية الغذائية. وقالت ألبرتينا سيسولو وهما خارجتان: «إن رجالنا يذوبون هنا لكن أرواحهم قوية جداً». [11] عاد مانديلا إلى زنزانته محبطاً ومرتبكاً لعدم تبادل أي لمسة مع زوجه. وما كان ليستطيع التغلب على قلقه تجاه ويني، برغم أنه لم يكشف عن مشاعره لرفاقه.

في جوهانسبورغ كانت ويني محاطة بالجواسيس فقد سحقت الشرطة النشاط السياسي الأسود تماماً، ولكنهم رأوا فيها قناة سرية محتملة، إضافة إلى أنها وسيلة لإضعاف معنويات زوجها. وكانت دائرة /الحيل القذرة/ التي يديرها فان دان بيرغ رئيس الأمن السري، مصممة (كما أفاد عميله غوردون وينتر Gordon Winter) على «خنق الحياة السياسة في هذه المرأة المشاغبة». [12] ومنعت ويني من مغادرة جوهانسبورغ. مما حرمها من زيارة مدارس طفلتيها فادعت بأنها لم تلتق أياً من معلميهما، وقالت عن الطفلتين: «كانتا دائماً تفصلان بمجرد أن تعرف شخصيتاهما، ولكنهما طفلتان لا تعرفان شيئاً. لقد تحجر الناس». [13] وبالتالي أرسلت الطفلتان إلى مدرسة راهبات في سوازيلاند، إلى حيث لا تطالهم أيدي شرطة جنوب إفريقية. اعتقدت الطفلتان أن المدرسة تحمل اسماً مناسباً «سيدة الأحزان»، واشتكت زيندزي من أن أحداً لا يعنى بهما. [14]

مضت سنتان قبل أن يسمح لويني بزيارة أخرى إلى جزيرة روبين، تحت رقابة أشد صرامة، تتبعتها الشرطة من المطار إلى القارب. وراقبها السجان جيمس غريغوري وهي تحدث زوجها عبر الزجاج «مثل مشاهدة الحياة على شاشة تلفزيون أبيض وأسود يعود إلى عقد الخمسين». قال غريغوري: إن ويني

تصرفت بكل لباقة وكبرياء، لكنه ذهل لمرأى «امرأة ذات كبرياء شرسة كلبؤة، والدموع تغسل خديها».[15]

قلق مانديلا لمطاردة البنتين من مدرسة إلى أخرى، وفي هذه المقابلة وافقا بتأن على إرسالهما إلى مدرسة داخلية في ووترفود Waterford وهي مدرسة جديدة متعددة الأعراق في سوازيلاند، بمساعدة هيلين جوزيف وصديقة ويني الجديدة الينور بيرلي زوجه المدير السابق في إيتون.[16] قلق مانديلا لأن ويني يمكن أن تكون واثقة جداً، لكنه لم يسألها عن الأصدقاء الشبان، وقال: «ذلك سؤال يجب أن ينسخه المرء من ذهنه. ويجب على الفرد ألا يكون كثير الأسئلة، يكفي أن هذه امرأة مخلصة لي، وتدعمني، وتأتي لزيارتي، وتكتب إلي».[17]

لدى عودتها إلى جوهانسبورغ، اتهمت ويني اتهاماً تافهاً بأنها لم تراجع الشرطة في كيب تاون، وصدر بحقها حكم مع وقف التنفيذ بالسجن لمدة سنة، مما أدى إلى فقدان عملها الغالي كعاملة اجتماعية. كانت خاضعة لضغط دائم، وكانت قد بدأت بالالتفات إلى العنف. ففي أحد الأيام أغار (سيرجنت) في الشرطة على غرفة نومها في أورلاندو دون أن يستأذن، فألقته أرضاً (كما قال)، وسقط فوقه المشجب، وكاد يكسر عنقه. واتهمت بمقاومة الاعتقال. وتذكرت أن مانديلا حذرها مرة: «زامي أنت غير منضبطة أبداً وأنت بحاجة إلى كثير من الترويض!». والآن لم يعد الوقت يسمح بترويضها. وفي محاكمتها شدد محاميها جورج بيزوس أن عليها أن تتصرف تصرف سيدة وليس مقاتلة من الأمازون، وبرأها القاضي.[18]

وبقيت ويني ممنوعة من ممارسة أي نشاط سياسي، ولكنها لم تستطع الابتعاد عن السياسة. فكانت تساعد أسر نساء المؤتمر الوطني الإفريقي اللاتي أودعن السجن، ويتهور أشرفت على طباعة وتوزيع كتيبات لصالح المؤتمر الوطني الإفريقي بمساعدة صديقها موهال ماهانيل Mohale Mahanyele الذي

كان يعمل لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية. كانت الشرطة التي أصبح بيدها الآن قوة سلاح قانون الإرهاب لعام 1967، مصممة على إيقاع ويني. فنصبت أجهزة الشرطة لها فخاً موسعاً من خلال مخبريهم لتزويدها بشبكة من الأصدقاء المزيفين، كان بينهم محتال هندي اسمه موسى ديناث Moosa Dinath كان مانديلا قد أوصاها به دون أن يعرف سجله الإجرامي، وصديقته مود كاتزينيلينبوغن Maud Katzenellenbogen اللذان استخدما ويني لاختراق صندوق الدفاع والمساعدة في لندن، الذي كان يدعم المعتقلين. كما أتوا بمحام لويني هو مانديل ليفين Mandel Levin الذي تبين أنه من أنصار الحكومة وله ماض مشبوه. وفي 12 أيار (مايو) 1969 اعتقلت ويني مع واحد وعشرين آخرين كانت قد أقحمتهم بتهور في عملية توزيع الكتيبات التي قامت بها. وكان جاسوس الشرطة غوردون وينتر الذي صادقها قد رصد جميع اتصالاتهم.[19]

جاء الشرطة ويني في الفجر، وانتزعوها من طفلتيها. وتذكر عنهما: «كانتا تتمسكان بثوبي وتصرخان مامي، لا تتركينا! مامي، إلى أين أنت ذاهبة؟».[20] واحتجزت في سجن إفرادي في بريتورية في زنزانة صغيرة فيها دلو وزجاجة ماء بلاستيكية وإنجيل. وفيما بعد استجوبت مدة خمسة أيام بلياليها من قبل سوانبويل Swanepoel الذائع الصيت في التعذيب، حول اتصالاتها بالمؤتمر الوطني الإفريقي والشيوعيين، وحول صديقاتها النساء في السجن.[21] كانت الشرطة قد استخلصت اعترافات من سجناء آخرين، من ضمنهم موهال ماهانيل الذي قدم كشاهد للدولة. وقالت ويني فيما بعد: «لم أستطع أن أصدق خيانته التامة للقضية التي كنا نعمل معاً من أجلها».[22]

وسمح للمحامي اللامع جويل كارلسون، الذي طلبت ويني أن يمثلها، برؤيتها هي ورفاقها السجناء بعد أن أمضوا مئتي يوم في اعتقال إفرادي. لم يسمح لهم خلالها بالحمام أو الاغتسال، واحتجزوا في زنزانات بعرض خمس أقدام وطول عشر، أحياناً لم يكن يسمح لهم بأكثر من عشر دقائق في اليوم

للحركة قالوا: «إن الطعام كان لا يؤكل ولا يمكن أكله إلا بدافع الجوع». وضغطت الشرطة على ويني لتقدم تصريحاً إذاعياً تدعو فيه الشعب الأسود إلى التخلي عن الكفاح غير المشروع، والتعاون مع البيض، مقابل إطلاق سراح مانديلا إلى الترانسكي. فرفضت، وكتب كارلسون فيما بعد: «إن ويني كانت تتأرجح بين العقل والجنون. ولم تكن تعرف تماماً ما إذا كانت ستصمد حية في المدة الأولى للاعتقال».[23]

وأخيراً في كانون الأول (ديسمبر)، قدمت للمحاكمة مع الواحد والعشرين الآخرين في بريتورية، باتهامات عريضة بموجب قانون حظر الشيوعية، من ضمنها إحياء المؤتمر الوطني الإفريقي وتلقي تعليمات من مانديلا في جزيرة روبين.[24] وبعد شهرين سحب الادعاء، لكنهم اعتقلوا ثانية فوراً ووجهت إليهم الاتهامات ثانية في حزيران (يونيو) 1970 بموجب قانون الإرهاب. في ذلك الوقت كانت ويني في مستشفى السجن تعاني من سوء التغذية، ونزوفات في اللثة ونوبات إغماء. وفي تشرين الثاني (أكتوبر) قدمت هي والواحد والعشرون الآخرون للمحاكمة ثانية، لكن مستشارهم القانوني سيدني كينتريدج استطاع أن يثبت أن دليل الإدانة مماثل تماماً للدليل السابق، وسقطت الدعوى فيه.[25]

بعد ثلاثة عشر شهراً في السجن الإفرادي مازالت ويني بعيدة عن الانضباط. فقد بدت في الظاهر، لا مبالية ومفعمة بحيوية غير عادية. ويذكر جويل كارلسون الذي أقام حفلة بمناسبة إطلاق سراحها، يذكر عنها: «كثيرة الضحك والحماسة والمرح».[26] كانت نحيلة، لكن عينيها كبيرتان. وأصرت بأنها اكتسبت قوة من السجن. وكتبت فيما بعد: «أصبحت أكثر تحرراً في السجن. وأصبحت روحي أكثر نقاء في السجن من أي شيء آخر».[27] لكن تحررها كان له حدان. إذ قالت: «بعد تلك التجربة لم أعد أحترم أي شخص في السلطة. لقد أدركت عندها وحشية الأبارثيد ومدى استبداد الدولة بنا..

عرفت في تلك التجربة بأني لن أتردد في استخدام العنف لتحقيق مثلي». [28]

ظن بعض المعجبين السابقين أنها كانت مشوشة وقد قالت هيلين سوزمان: «لقد حولوها من إنسان دافئ القلب إلى مخلوق مجنون». [29]

في جزيرة روبين ترامى إلى مانديلا شيء عن سجن ويني من قصاصات صحف تعمد السجانون تركها في زنزانته. كانت أسوأ لحظاته تقريباً عندما سمع أنها هي أيضاً كانت في السجن، تعاني من ظروف أسوأ من ظروفه. لقد وجد سجنه الإفرادي القصير الأمد «الوجه الأكثر مقتاً في حياة السجن. . ليس هناك ما يحول اهتمامك عن تلك الأسئلة التي تقض مضجعك». وشعر بالذنب لعجزه عن أن يكون هناك للدفاع عن ويني. لكنه حاول الحفاظ على هدوئه وتذكر أنهما يدفعان ثمن التزامهما بالنضال. [30] واضطر هو وزملاؤه إلى الإعجاب بشجاعة ويني في إبقاء النضال حياً، برغم كل المخاطر. وقد قال بيزوس: «مهما كانت ويني متهورة فقد كانوا فخورين بها». [31]

منعت ويني ثانية، لمدة خمس سنوات، لكنها حصلت على إذن لزيارة مانديلا لمدة نصف ساعة فقط. وعادت إلى جوهانسبورغ بصحة ضعيفة، تعاني من التهاب شُعبي وارتفاع في ضغط الدم، لكنها ما زالت مضطهدة. غضب مانديلا عندما علم أن الشرطة ركلوا بابها الخارجي وألقوا حجارة على النافذة. الأشخاص البيض الذين تعاطفوا معها وصادقوها خضعوا لمضايقات بدورهم، وبعضهم أبعدته نوبات جنون العظمة التي كانت تنتاب ويني وأعمالها الطائشة. وغضب جويل كارلسون لكونها غير جديرة بالاعتماد عليها، وحذرها من أي تورط سياسي. وعندما تجاهلته أسقط في يده وسافر إلى أمريكة. وستبقى متهورة في انتقاء أصدقائها.

أحدهم، وهو الصحفي جون هوراك، ساعد في العناية بالطفلتين، لكن عمله الأكثر أهمية كان التجسس لصالح الشرطة (وادعى فيما بعد أن ويني حولته إلى عميل مزدوج يعمل لصالح المؤتمر الوطني الإفريقي). [32]

استمرت الشرطة في مضايقتها هي والطفلتين. وتذكرويني إن: «مرات عديدة عندما كانت الطفلتان تعودان من المدرسة كانتا تجدان البيت مقفلاً وكانتا تضطران إلى البحث في الصحف لتعرفا فيما إذا كانت موقوفة».[33] بعد عام 1970 تابع مانديلا الضغط كي يرفع عنها الحظر، وفي عام 1974 طلب أن تكبح الشرطة وأن يسمح لويني باقتناء سلاح ناري تدافع به عن نفسها. لم تستطع قيادة الشرطة أن توصي بمسدس لأن «السيدة مانديلا مشهورة بتهورها واندفاعها وميلها إلى فقدان سيطرتها على نفسها».[34]

اكتسبت ويني كثيراً من الدعم المعنوي من صديقها بيتر ماغوبان Peter Magubane مصور مجلة الدرام. لكنه هو أيضاً اضطهد، فقد وشى به غوردون وينتر واحتجز 586 يوماً، كثير منها في سجن إفرادي.[35] وبقي مخلصاً لويني. وفي أيار (مايو) 1973 جاء بزيني وزندزي لتقابلاها قرب مكتب المحامي حيث كانت تعمل. فرآهم رجال الشرطة واتهموا ويني بإجراء اتصالات غير قانونية. وحكم عليها بالسجن ستة أشهر في سجن كرونستادت، الذي كان أقل رعباً من سجنها الإفرادي، وكانت تتمتع بطعام جيد وبزيارات من الطفلتين في عطلة نهاية الأسبوع.[36]

في جزيرة روبين عانى مانديلا كثيراً عندما سمع عن هذا السجن الجديد. ولم يعد يستطيع استحضار ذهنه في الألعاب، فيما قال لها، لأنه كان يفكر بها سجينة. وقال لها فيما بعد: «على رغم أني دائماً أحاول أن ألبس قناعاً شجاعاً. لكني لم أستطع أبداً أن أقبل فكرة وجودك في السجن. ولن أنسى أبداً الأوقات اليائسة الحزينة التي عشناها من أيار (مايو) 1969 إلى أيلول (سبتمبر) 1970 والأشهر الستة التي قضيتها في كرونستادت» وأوصاها بما يعكس انضباطه الذاتي الصارم في السجن:

> «ربما تجدين أن الزنزانة مكان مثالي تتعلمين فيه معرفة ذاتك، حيث تراجعين بواقعية وانتظام تفاعلات عقلك ومشاعرك. فلدى تقييم تقدمنا

> كأفراد نجد أننا نميل إلى التوكيد على عوامل خارجية مثل موقع الفرد الاجتماعي، وتأثيره، وشعبيته، وثروته، ومستوى تعليمه. . إلا أن هناك عوامل داخلية ربما تكون أكثر أهمية في تقييم تطور الفرد كإنسان، مثل: الشرف والإخلاص والبساطة والتواضع، والنقاء، والكرم، وعدم التشوّف والاستعداد لمساعدة أبناء جنسك ـ وهي صفات تكون كل ذات ـ تلك هي أسس حياة الفرد الروحية. . وإذا لم يكن لأي غرض آخر فإن الزنزانة تعطيك الفرصة لتراجعي يومياً سلوكك الكامل لتتغلبي على السيئ وتنمي ما هو جيد فيك. فالتأمل المنتظم، حوالي 15 دقيقة في اليوم قبل النوم، قد يكون مفيداً جداً بهذا الخصوص ربما تجدين صعوبة في البداية في تحديد النقاط السلبية في حياتك، لكن المحاولة العاشرة قد تؤتي أكلها، ولا تنسي أبداً أن القديس هو خاطئ لا يمل المحاولة.(37)

حاول مانديلا ترتيب شؤون الأسرة من سجنه، بينما كانتويني في سجنها. كانت أختها نوبانتو منيكي Nobantu Mniki تعنى بالمنزل في أورلاندو. وقد طلب منها أن تبقى هناك إلى أن تعود ويني. وحذر ويني من أنها قد تعود إلى جو «أكثر برودة وكآبة»، وشجعها قائلاً: «الصعاب تحطم بعض الرجال لكنها تصنع رجالاً آخرين». واتفق مع نوبانتو أن تحضر عشاء من لسان وذيل الثور والزلابية والشمبانيا، لتغسل الأيام الصعبة في اليوم الذي تخرج فيه.(38)

وقال لويني وهو يتصور الاحتفال: «ليتني أستطيع أن أكون في البيت عندما تعودين. لكنت أودعتك سريرك وغنيت لك أغنية أو أغنيتين. وبعد ذلك أستمع إليك أياماً طويلة وأنت تروين ما حدث من 14 تشرين الأول (أكتوبر) حتى 13 نيسان (أبريل). سأعيدك إلى اليوم الأخير الذي رأيتك فيه كرجل حر في تموز (يوليو)»، وبدا مبتهجاً لمجرد التفكير في ذلك «أشعر كأنني شخص سيعيش مائة سنة أخرى».(39)

كانت الفتاتان مضطربتين. قالت ويني: «كان بيتنا امتداداً لمخفر

شرطة». [40] وعندما كانت ويني في السجن حذر مانديلا زيني من أن «المجرمين الأشرار الذين هاجموا والدتك مرات متكررة ودمروا صحتها قد يوكدون الآن عليك أنت وزندزي». [41] كان بعض الأصدقاء يعنون بهما، ومنهم بيتر ماغوبان ونونيا ميسو شقيقة ويني، وقد سجنا كل بدوره. وقدمت فاطمة مير في دوربان مساعدتها أيضاً مما أسعد مانديلا فقال لها: «كنت متأكداً من أنهما لن تصبحا يتيمتين طالما أنت حية»[42]، لكن فاطمة وجدت التعامل مع الفتاتين متعباً، وتذكر أنهما «نادراً ما كانتا تسعدان بالترتيبات المتخذة بشأنهما، وكانتا غالباً تتذمران أو تصبحان هدفاً لتذمر المشرفين عليهما». [43]

كانت الطفلتان تزدادان بعداً عن والدهما، لكنهما بقيتا مخلصتين لوالدتهما. وعندما كانت زيندزي في الثالثة عشرة فقط كتبت إلى اللجنة الخاصة بالأبارثيد التابعة للأمم المتحدة في نيويورك، طالبة الحماية: «تخشى أسرتي وأصدقاء والدتي أن الجو يمهد لشيء فظيع سيحدث لأمي». وعندما حكمت ويني بالسجن لمدة سنتين فيما بعد قالت زيني: «نحن الآن في سن تسمح بأن نشاركها محنتها ونحزن من أجلها». [44] وكتب مانديلا بحرارة إلى الفتاتين، لكنه كان صارماً إزاء التعليم، وخشي أن تفسدهما نماذج أولاد الأغنياء في ووتر فولد، فكتب إلى أحد الأصدقاء عام 1974: «فهمت من رسائل الفتاتين أن السفر إلى أوروبا وأمريكة أصبح صَرْعاً في مدرستهما. وأشعر بأن علي أن أذكرهما بأنهما ابنتاي، وهذه حقيقة قد تضع صعاباً جمة في طريقهما. لكن الحقائق الصعبة لا تتفق بالضرورة مع رغبات الناس، خاصة عندما يكون أولئك الناس أطفالاً». [45]

بعد إطلاق سراح ويني سمح لها بزيارة مانديلا ثانية، مع ابنتيهما، في كانون الأول (ديسمبر) 1975. [46] كانت زيندزي في الخامسة عشرة فقط ـ أصغر بسنة من الحد الأدنى لعمر الزوار ـ لكن ويني زورت وثيقة ولادتها. فمانديلا لم يرها منذ كانت في الثالثة، واستعد للمناسبة فارتدى قمصياً جديداً ومشط شعره

بعناية: «لم أشأ أن أبدو شيخاً في نظر ابنتي الصغرى». وسحره جمال زيندزي وشبهها بويني. وقال لها: «أتخيلك صغيرة تجلسين في حضني في البيت لتناول شواء الأحد مع الأسرة». واستعاد ذكرى طفولتها الأولى. بينما كانت تغالب دموعها من وراء الزجاج، لكنه لاحظ تحفظها مع أب «بدا لا يمت إليها بقدر ما يمت إلى الشعب». وشعر أنها «في أعماقها لا بد أن تشعر بالاستياء والغضب من أب كان غائباً طول فترة طفولتها ومراهقتها».[47] وسرعان ما أدرك أن ويني ربما تغار من حبه لابنتيه. عندما كتب إليها يتحدث عن الجمال الذي شبتا عليه. وقد ذكر لفاطمة أن ويني طار صوابها وكأنه يخونها. وأجابت: «أنا، لست أنت، الذي انشأ هاتين الطفلتين اللتين تفضلهما عليّ».[48]

وكان تواصله مع ولديه الأكبر ماكي وماكغاثو أصعب. فقد كانا يتنقلان بين والدتهما إيفيلين وزوج أبيهما / ماما ويني/ . ولم يكن يصل مانديلا من أخبارهما إلا القليل. وبدا واثقاً، بفضل ما يذكره عن زوجات أبيه، أنهم جميعاً جزء من الأسرة الإفريقية الموسعة وكان يذكرهما بأن ويني قد اعتنت بهما جيداً عندما كان هو يعمل في الخفاء، وعنفهما لقلة العرفان بالجميل.[49] لكن رأيهما كان مختلفاً حيث قالت ماكي: «إنه لم يدرك أن ويني لم تكن تفعل ما وعدته به. لقد كنا في حالة حرب مع ويني».[50]

وقام ماكغاثو بن مانديلا بزيارته في جزيرة روبين عندما كان في السادسة عشرة عام 1967. وبقي يزوره مرة أو مرتين في العام على مدى السنوات العشر، لكنه سرعان ما أصبح مخيباً لآمال والده بسجلات المدرسة، حيث طرد لتنظيمه إضراباً، وفشل عدة مرات في اجتياز امتحان دخول الجامعة. وشعر ماكغاثو بضغط والده من أجل نجاحه، أكثر فأكثر بعد وفاة شقيقه الأكبر ثيمبي عام 1969، ولكن في سن الرابعة والعشرين لم يكن بإمكانه مواجهة العودة إلى المدرسة. وقد كتب والده من السجن في تشرين الثاني (نوفمبر) 1974: «المشكلة الحقيقية هي أنه في هذه السن، في غيابي، سيجد صعوبة في مقاومة

مباهج حياة المدينة». [51] وتزوج رين موسيهلي Rayne Mosehle التي سرعان ما أثبتت أنها أكثر حرصاً على المتابعة من زوجها، وأكثر اهتماماً بالكتابة إلى مانديلا. وقد قال مانديلا لماكغاثو: «ليس سهلاً أن تكتب إلى شخص يكاد لا يجيب». [52] وقال لرين إن ابنه كان: «في معظم الأحوال شاباً لطيفاً. إلا أن إحدى نقاط ضعفه هي عجزه عن الكتابة حتى فيما يتعلق بمشاكل الأسرة الحقيقية». [53]

قامت ماكي ابنة مانديلا بزيارته عام 1970، عندما أصبحت في السادسة عشرة. كانت لها شخصية أقوى من ماكغاثو، وكانت أكثر صراحة وأكثر تأثراً بأمها إيفيلين، التي ربتها حسب إيمانها هي لتكون من شهود يهوه. وبعد عام 1972 كانت كثيراً ما تزور إيفيلن في الترانسكي، حيث فتح قيصر ماتانزيما، ابن أخت مانديلا، دكان بقالة لإيفيلين كي تعمل فيه في كوفيمفابا Cofimvaba. أما ماكي فقد تفوقت في المدرسة، لكنها رفضت متابعة الدراسة الجامعية وتزوجت كاماغو Camago وأنجبت منه طفلين قبل أن يتداعى زواجها بعد بضع سنوات. تفهم مانديلا الوضع وأبدى تعاطفه، وكانت ماكي سعيدة بمساعدته. لكن خاب أمله لأن أكبر طموحاتها كان أن تصبح ممرضة. فحذرها من أن: «أولئك الذين ليس لديهم طموح حقيقي ودافع قوي يقضون عمرهم كله في عمل مجهد وليس بذي شأن». [54]

بقيتويني المتنفس الوحيد لمشاعره، فكانت تخرج ما لديه من (رومانتيكية) يخفيها عن الآخرين. وقد كتب لها بعد زيارة قامت بها عام 1976: «لقد نجحت إلى حد ما في ارتداء قناع أخفيت وراءه توقاً شديداً إلى الأسرة، وحيداً، لا أندفع نحو البريد عندما يصل، وانتظر حتى ينادوا باسمي. كما أني لا ألبث في المكان بعد انتهاء الزيارات على الرغم من أن الحافز لأن أفعل يكون ساحقاً أحياناً، وأنا أناضل الآن لأكبح مشاعري وأنا أكتب هذه الرسالة». وبعد أن زارته في آب (أغسطس) 1975 كتب إليها: «قلت لنفسي: / هاهي

مسوثو تذهب كعصفور في اليد عاد إلى الأجمة، إلى الغاب المتوحش وإلى العالم الواسع/ وأنا لدي خطط وأمنيات وآمال. وأحلم وأبني قلاعاً». وكتب في الشهر التالي: «لكن على المرء أن يكون واقعياً. نحن مجرد أفراد في مجتمع تديره مؤسسات قوية، لها قوانينها وأحكامها وقيمها ومثلها ومواقفها».

شعر مانديلا بالحرمان عندما امتنعت ويني عن الكتابة لمدة تربو على الشهر «أيتها الساحرة ! كم من السبل لديك لتبقيني متعلقاً بك. لكن هذا سبيل جديد». واحتفل بعيد ميلادها في أيلول (سبتمبر) 1975: «بخمرة رائعة تليق بملك» قوامها أربع ملاعق من مسحوق الحليب وثلاث ملاعق من الميلو وملعقتين من السكر البني، وخلطت كلها في ماء ساخن. كان يمسح الغبار عن صورتها في زنزانته كل صباح «ألمس دائماً أنفك بأنفي لأسترجع التيار الكهربائي الذي كان يسري في دمي كلما فعلت». وصوَّر في خياله «شكل جبينك، كتفيك، أطرافك، والكلمات المحبة التي كانت تنهمر كل يوم، وتناسيك تلك التصورات العديدة التي كان يمكن أن تحبط أية امرأة أخرى». في الشهر التالي طمأنها «شهيتي حسنة وأنام جيداً وقبل كل شيء فإن القوة والتفاؤل الأقصى يجريان في دمي لأني أعرف أنك تحبينني وأني أستمتع بالأماني الطيبة لأفراد عائلتي التي لا تحصى عدداً». وكتب لها في تموز (يوليو): «أشتعل فور وصول رسالتك، وأشعر برغبة في التحليق حيث لا تصل النسور».[55]

وقد ساعد أصدقاء وأقرباء آخرون في إبقاء معنوياته عالية. فقد قال لنوبانتو، شقيقة ويني: «إنهم جعلوه يدرك أن هناك أشخاصاً كثراً آخرين يتمنون لي الخير والنجاح في كل ما أفعل».[56]

وقد كتب إلى باربارا لامب Barbara Lamb ابنة صديقه القديم ميشيل هارميل: «الأمل هو الحصان الذي تمتطين صهوته ليمضي بك إلى وجهتك ويصل إلى موقع الفوز. إن ثروتي الوحيدة في العالم هي أن لدي أصدقاء علموني هذه الأشياء، وكان بينهم والدك الحبيب».[57]

لكن ويني كانت المصدر الرئيسي لقوته ولمعلوماته السياسية. كانت تحمل إليه الأخبار بلغة مشفرة، ويجيب بإشارات عن آرائه الحقيقية. وقد قال لها عام 1976 إن: «عام 1975 بدأ بداية سيئة وكان عام كوارث من أوله إلى آخره. وكثير من خطوط التصدع التي تحملت الهجوم العاصف لقوى القدر التي لا ترحم قد استسلمت».[58] كما كانت ويني الرسول البالغ الأهمية الذي يحمل أخباراً سياسية للسجناء الآخرين. حتى أن كاثرادا قال عنها: «كانت أفضل مصدر. كان جميع السجناء الآخرين ينتظرون زيارتها».[59] وكانوا بعد كل زيارة ينتظرون قلقين إلى أن يكشف مانديلا لهم ما علمه، وكان أحياناً يؤخره، بضبط نفسي يثير الجنون.

وقال بيتر ماغوبان، الذي سيبقى صديقاً للاثنين: «إن نيلسون ما كان له أن يكون على ما هو عليه لولا ويني. فعندما كانت الصحف غير قادرة على الكتابة عنه، كانت تنشر أخبار متاعبه. ولولاها لأصبح المؤتمر الوطني الإفريقي طي النسيان. فقد كانت الشخص الوحيد الذي وقف إلى جانب المؤتمر الوطني الإفريقي وقالت: «من يجرؤ على إيقافي»، وكانت مستعدة للموت من أجله.[60]

كانت ويني تتحول، بكل أخطائها، إلى لاعب رئيس على المشهد السياسي بحكم حقها الشخصي، الذي استطاع إبقاء اسم مانديلا حياً داخل وخارج جنوب إفريقية. وعام 1976 عندما اندلعت المقاومة السوداء فجأة في حلة جديدة، كانت هي في خضم المعمعة.

18

حضور ظليل / باهت

1964 ـ 1976

يتوق السجناء إلى أخبار من الخارج. وعندما ضبط مع مانديلا جريدة وجدها على المقاعد حكم عليه بالسجن الانفرادي ثلاثة أيام، كان طعامه الوحيد فيها ماء الرز. فقد كانت الصحف هي أثمن المواد المهربة، كانت المادة الأولى للنضال، كما قال مانديلا فيما بعد. كان السجناء يفعلون المستحيل للحصول على صحيفة؛ فكانوا يرشون السجانين، أو يختلسون الصحف من الكهنة الزائرين، أو يستعيدون ورق الصحف الذي تلف به شطائر السجانين. حتى أن ماهاراج تزلف إلى أحد السجانين بأن حصل على بصمات أصابعه على علبة سجائر، كي يهرب إليه صحيفة كل يوم، ثم يقوم بتلخيص ما جاء فيها بكتابة صغيرة جداً ليتداولها بقية السجناء.[1] وقد تمكن من الحصول على مجلة الإيكونوميست برغم الرقباء، بحجة أنه كان يدرس الاقتصاد، لكنها كانت غالباً تخضع لرقابة صارمة، وقد حجبت بعض الوقت عام 1967[2]، وكتب مانديلا فيما بعد: «كانت معرفتنا بالأحداث الجارية دائماً معرفة سطحية».[3] ولم تكن الأخبار التي تصلهم مشجعة. فمنذ قضية ريفونية والشرطة تمحو أية معارضة سوداء فاعلة، وقد كتب ستانلي أويز Stanley Uys في الأويزرفر فور الحكم على مانديلا: «لم يبق أي قائد سياسي إفريقي ذي شأن ليس في السجن، أو في المنفى أو محدود الحركة. لقد أصبحت الشرطة السرية ماهرة جداً، بمساعدة واضحة من شبكة مخبرين واسعة، ولا يبدو أن أية جماعة سرية كانت قادرة

على إقامة أي تنظيم». [4] وتظهر التصريحات التي أدلى بها بعد الاستجواب ناشطون من المؤتمر الوطني الإفريقي مثل بارثولوميو هلوباني Bartholomeow Hlopane ومايكل دينغاك Michael Dingake (الذي أرسل فيما بعد إلى جزيرة روبين) تظهر إلى أي مدى استطاعت الشرطة اختراق المنظمة. وقد قال هلوباني في شهادة خطية بقسم في تشرين الأول(أكتوبر) 1964: «إن قوة المؤتمر الوطني الإفريقي الحالية ضعيفة جداً. وأعتقد أنه لم يبق أكثر من خمسين عضواً حالياً في سويتو». [5]

وسرعان ما علم مانديلا بالإقفار من المخربين والفدائيين المقاتلين الذين أوقفوا وألحقوا بالجزيرة.

تجلى اليأس في مقاومة الأبارثيد في شخص برام فيشر صديق مانديلا. فقد اعتقل بعد وقت قصير من زيارته مانديلا في الجزيرة عام 1964 ووجهت إليه تهمة ترويج الشيوعية وسمح، له بالكفالة، ولجأ إلى الاختفاء. وقال للمحكمة فيما بعد إنه: «مدين للسجناء السياسيين بأنه لم يبق متفرجاً وإنما أصبح يعمل». [6] وبعد أقل من سنة أمسك به، وحكم عليه في عام 1966 بالسجن مدى الحياة. سأله جورج بيزوس: هل كان الأمر يستحق فعلاً أن يتخلى عن أسرته وعن مهنته؟ فأجاب بحدة: «هل سألت نيلسون؟»، لكن فيشر دفع ثمناً رهيباً. ففي سجنه الأبيض كاملاً حرم كرامته الإنسانية. كما قال مانديلا: «بكل وسيلة كان سجانوه قادرين على تخيلها». وبعد إصابة فيشر بالسرطان عام 1974 التمس مانديلا لدى وزير العدل جيمي كروغز أن يسمح له برؤيته، عبثاً. ومات فيشر في العام التالي، وبقي مانديلا نادماً أبداً لأنه لم يعبر له عن مشاعره الحقيقية. [7]

كان السجناء قلقين دائماً خشية أن يغيبوا عن ضمير العالم. وفيما بعد كتب مانديلا: «منذ البداية حاولت إدارة السجن أن تدفننا أحياء بأن قطعتنا تماماً عن العالم الخارجي». [8] وقال كاثرادا: «في ريفونية قيل لنا: لن يعرف أحد

اسم مانديلا بعد خمس سنوات. كان هناك فقدان ذاكرة جماعي؛ لم يكن يسمح للعالم بمعرفة أي شيء عنا، والعكس بالعكس». [9] وكتب جورج بيزوس إليّ بعد محاكمة ريفونية: «إننا نأمل من كل قلوبنا ألا يصبحوا رجالاً منسيين». [10] ولكن السجناء سرعان ما أصبحوا طي النسيان في صحافة بريطانية وأمريكة. فعام 1964 أشارت صحيفة التايمز اللندنية إلى مانديلا ثمان وخمسين مرة. وعام 1965 ذكرته مرتين، وعام 1966 لم تذكره أبداً. وعام 1967 ذكرته أربع مرات، وعام 1968 لم تذكره أبداً، وعام 1969 ذكرته مرتين. أما النيويورك تايمز فقد أشارت إليه أربعاً وعشرين مرة عام 1964، ولم تذكره أبداً عامي 1965 و1966، ومرة واحدة عام 1967 ـ ذكرت ويني فقط وليس لنيلسون ـ ولم تذكره أبداً عام 1987 ولولا ويني لبقي مانديلا في غياهب النسيان.

داخل جنوب إفريقية كان اسم مانديلا قد طمس طمساً تاماً من خلال قوانين حظرت أي ذكر للمؤتمر الوطني الإفريقي أو قادته. وبدا أن الناشطين قد اختفوا، وحوّر الشاعر أوزوالد متشالي Oswald Mtshali أغنية الهيبيين:

> أين ذهب جميع الشباب الغاضبين؟ ذهبوا إلى جزيرة الندم من أجل شاربفيل..

وازداد الإحباط في ضوء المقارنة مع التحرير البادي لبقية أجزاء إفريقية. وقد قال المؤرخان كاريس وجيرهارت Karis and Gerhart: «إن عام 1964 هو العام الذي كان أفضل الأوقات بالنسبة لمعظم أجزاء شرق وغرب إفريقية المستقلة حديثاً، كانت أسوأ الأوقات في المناطق الجنوبية من القارة حيث لم ينحسر بعد المد الإمبريالي». [11]

في أيلول (سبتمبر) 1966 همس أحد المجرمين العاديين في المقلع: «مات فيروورد»، وأعطى الخبر السجناء السياسيين شعاعاً مفاجئاً من الأمل. بقي مانديلا غامضاً عندما علم أن فيروورد قد قتل على يد مراسل أبيض مخبول في المجلس النيابي، فالاغتيال ليس من سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي. لكنه

عقد بعض الآمال على بالثازار جون فورستر Balthazar John Vorster خليفة فيروورد، فقد كان يشعر ببعض الأشياء المشتركة مع فورستر، فكتب من سجنه، كرجل سجن بتهمة الخيانة أثناء الحرب: «رجل يحمل معتقدات قوية وهو مستعد للقتال من أجلها»، وعده «يستحق مراتب الشرف العليا في مجال سياسات البيض المحافظة». [12]

إلا أن أول تصرفات فورستر لم تدع مجالاً كبيراً للتفاؤل. فقد دفع قانون الإرهاب الجديد لعام 1967، الذي أعطى الشرطة سلطات أكثر إثارة للرعب، وعام 1969 أحدث فرع أمن سري جديد لا يعرف الرحمة هو مكتب أمن الدولة (Boss) بإمرة رفيقه أثناء الحرب الجنرال هنريك فان دين بيرغ. وشدد وزير دفاعه بي. دبليو. بوثا قبضة المؤسسة العسكرية أكثر فأكثر. وجد السجناء تلك الأخبار قاتمة تماماً، وقال مانديلا فيما بعد إن: «السنوات القليلة الأولى في الجزيرة كانت أوقاتاً عصيبة بالنسبة للمنظمة في الخارج ولنا نحن داخل السجن». [13] وقال سيسولو: «إن أسوأ الأوقات كان في عقد الستين. لكني لم أفقد الأمل فأنا متفائل». [14]

تابع مانديلا أخبار البلاد بإحباط متنام، مدركاً أنه عاجز عن التأثير في الأحداث. وقد اتفق السجناء منذ البداية على أنهم لن يحاولوا التدخل في قرارات المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، لكن مانديلا كانت له اتصالات متقطعة مع شريكه السابق أوليفر تامبو، عن طريق رسائل مشفرة وجدت طريقها إلى النور منذ ذلك الحين. [15] وعبر كل ضغوط الفراق بقيت ثقته بتامبو التي ستكون مفتاحاً لوحدة المؤتمر الوطني الإفريقي ونجاحه النهائي.

كان هم مانديلا الأول هو الكفاح المسلح، وقد بعثت الآمال في تشرين الأول (أكتوبر) 1967 عندما علم السجناء من مجلة الإيكونوميست أن جنود جنوب إفريقية السود كانوا يقاتلون على خط الحدود بين روديسية وزامبية.

وقالت المجلة: «برغم أن الإرهاب قد ضبط بسهولة إلا أن الحكومة تبدي قلقاً غير عادي حياله».[16]

وتكشف أن مقاتلي المؤتمر الوطني الإفريقي في كتيبة لوثولي ـ القوة المتقدمة لسهم الأمة (إم. كي) ـ قد عبرت الزامبيزي من زامبية إلى روديسية، بإشراف تامبو شخصياً، والتحقت بالفدائيين الزامبيين، وقد قاتلوا بشجاعة الجيش الروديسي الأبيض في تدريب الاحتياط في وانكي.

وأعلن تامبو متفائلاً يوم 19 آب (أغسطس) أنهم: «يشقون طريقهم حرباً نحو البوار في جنوب إفريقية». لكن قوة الثوار سرعان ما واجهت تعزيزات من جيش جنوب إفريقية، وفي النهاية قتلوا أو أمسك بهم بعد الانسحاب إلى بوتسوانا. لم يعرف مانديلا التفاصيل إلى أن وصل أحد قادتهم، هو جاستيس مبانزا Justice Mpanza إلى جزيرة روبين.[17]

واجه تامبو نقداً حاداً حيال الحملة الفاشلة عندما عقد المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمراً حاسماً في موروغورو Morogoro، مقر قيادتهم في تانزانيا، سنة 1969. أعاد المؤتمر الوطني الإفريقي تنظيم القيادة العليا، ووافق على إدخال غير الإفريقيين لأول مرة، من ضمنهم جو سلوفو، الذي أصبح قائد سهم الأمة (إم. كي). وقد تشجع نزلاء جزيرة روبين بهذا التطور. حيث قال سيسولو: «كان له أثر هائل على قضية جنوب إفريقية والثورة برمتها».[18] لكن البنية الجديدة للمؤتمر الوطني الإفريقي تسببت ببعض المتاعب لتامبو بأن أعادت تحريك الشكوك بأن الشيوعيين البيض يستولون على المنظمة.

بقي تامبو قائداً متأنيا. وقد عين نائباً لرئيس المؤتمر الوطني الإفريقي بعد وفاة لوثولي سنة 1967، لكنه قاوم أن يصبح رئيساً. وأصر على أن العالم يفترض أن مانديلا كان الرئيس الحقيقي، لكنه أدرك أن مانديلا لا يمكن أن يسأل عن توجيه الكفاح المسلح في حين لم يكن قادراً على اتخاذ قرارات حاسمة. كما أنه لو اعترف به رسمياً كرئيس لضعفت إمكانية إطلاق سراحه.

وانتخب التنفيذي القومي تامبو رئيساً في غيابه، الأمر الذي احتج عليه تامبو ولكن احتجاجه رفض بالإجماع. وكان قلقاً لأنه «الرئيس الأول والوحيد للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي انتخب من قبل اللجنة التنفيذية الوطنية NCE دون تفويض من العضوية المتوفرة».[19] وما زال يسمي نفسه نائب الرئيس، وغالباً ما يشير إلى مانديلا بلفظة القائد الأعلى للقوات المسلحة.[20] ولم يصل القرار إلى القادة في جزيرة روبين قبل حلول سنة 1977، الذين رسخوا تامبو رئيساً، إلا أنه أصر على تفادي اللقب.[21] كان تامبو يرى بعين عقله أن مانديلا بلا شك هو الرئيس المنتظر الذي سيذعن له.

أصبحت حملة تامبو ضد الأبارثيد أكثر صعوبة في منتصف عقد الستين، عندما كانت جنوب إفريقية تعيش فترة رخاء اقتصادي ملحوظ. قد انقلب هروب رأس المال الأجنبي بعد شاربفيل في سنة 1960. وبحلول سنة 1965 كان الاستثمار الذي يدخل البلاد أكبر مما كان قبل المجزرة. وكانت نسبة النمو في جنوب إفريقية خلال عقد الستين حوالي 6 بالمئة في العام، متجاوزة جميع الدول الغربية تقريباً، بمعدل عائدات لرأس المال تقدر بـ15 بالمئة، وتلك نسبة أعلى من أوروبا بكثير. وزادت كبريات شركات صناعة السيارات وسواها من الشركات المتعددة الجنسيات حضورها، فيما أصبحت ألمانية مستثمراً جديداً رئيساً.[22] وامتدت الفرص المالية لشركات ما وراء البحار بزيادة هائلة في نفقات الدفاع، أتى الازدهار بمزيد من السود إلى المعامل والمدن، مما تحدى مبدأ الأبارثيد. وكان فورستر أكثر إصراراً عل المضي في خطط فيروورد «للأبارثيد الأعظم» الذي سيعطي استقلالاً اسمياً للبانتستان الجديد في الوقت الذي يعامل السود كغرباء لا حقوق لهم.

أخذت آمال تامبو بالمساعدة من جنوب إفريقية تتلاشى بسرعة، فالضربة الاقتصادية والعسكرية لحكومة فورستر مكنتها من التنمر على الدول السوداء

الجديدة الفقيرة إلى الشمال، التي تعتمد عليها في التجارة والنقل وفرص عمل المهاجرين، أو كانت تلجأ إلى إغوائها. وكان تامبو يتوقع دعماً متزايداً من جيران أصدقاء إذ يخرجون من كونهم مستعمرات إلى الاستقلال، وخاصة عندما حققت المحميات البريطانية السابقة الثلاث - باسوتولاند وسوازيلاند وبيتشوانا لاند - استقلالها في عامي 1966 و1967.

فاضت الأمم المتحدة بأعضاء إفريقيين جدد. وقد قطعت الوحدة الإفريقية، التي انبثقت عام 1963، على نفسها عهوداً بالمقاطعة والمساعدة وأصبحت زامبية وتانزانيا من دعاة تحرر السود. ولكن لدى نهاية العقد كانت الحقائق القاسية للاتكال الاقتصادي ترسخ نفسها، وعندما اجتمع أربعة عشر رئيس دولة إفريقية في زامبية في أيار (مايو) 1969 أعلنوا /بيان لوزاكا/ الذي وضع دون استشارة المؤتمر الوطني الإفريقي، والذي وكد على الحاجة إلى التسوية مع جنوب إفريقية، وحط من شأن الكفاح المسلح. وفي مؤتمر موروغورو للمؤتمر الوطني الإفريقي بعد ذلك بأسبوع حذر تامبو من /هجوم معاكس قوي ومشؤوم/ ضد الدول المستقلة حديثاً وضد حركات التحرر.[23]

لم تستطع الحكومات الغربية مقاومة إغراء ازدهار جنوب إفريقية، وأحب رجال أعمال جنوب إفريقية، بقيادة أكبر شركاتهم، الأنغلو أمريكية، أن يقولوا إن جنوب إفريقية تمر في مرحلة جديدة من الإقلاع الاقتصادي، مثل بريطانية عام 1850، حيث أدى الرفاه آلياً إلى رفض الإصلاحات. هذا الرأي تبنته مجلة الإيكونوميست في حزيران (يونيو) 1968 في دراسة طويلة مؤثرة عن جنوب إفريقية كتبها نورمان ماك راي Norman Macrae. الذي قال إن البيض سيصبحون أكثر تحرراً إذ يشعرون أنهم أكثر أمناً: «وكلما ازداد الغنى والأمان فإن ذلك عادة يعني مزيداً من اليسار».

وشرح بأن العسكريين يطبقون إطباقاً كاملاً على أي اضطراب للسود: «بضعة مجانين شجعان يتسربون أحياناً عبر الحدود بنية التخريب، عندها تمسك

بهم شرطة جنوب إفريقية التي لديها مخبرون في كل واحد من هذه المعسكرات المقاتلة من أجل الحرية». [24]

بدا الوضع من جزيرة روبين قاتماً. وقد قال ماهاراج: «كان ذلك أسوأ وقت. وازداد سوءاً مع ازدياد أعداد المقاتلين الذين يقعون في أيدي السلطات أو لا يتمكنون من الدخول». [25] بحلول 1970 كان مستقبل الوضع في جنوب إفريقية يبدو أكثر قتامة. عندما لم تظهر الانتخابات العامة البيضاء أي مؤشر بالتحرر الموعود. فالحزب المتحد، بزعامة فيلليرس غراف Villiers Graaff هزم هزيمة منكرة أمام حزب فورستر الوطني والجناح اليميني الجديد للحزب الأفريقاني الحزب الوطني الهيرستيغي.

كان جورج بيزوس الذي يزور الجزيرة بين وقت وآخر يصدم دائماً بتقلب المعنويات حسب نشاط السود في الخارج: وقد وجد مانديلا الآن في أسوأ أحواله، قلقاً حيال نقص المعارضة. [26]

فقد بدا كأن المعارضة داخل جنوب إفريقية قد اختفت أو كادت. وأصبح ذكر الأحرف الأولى للمؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام من المحظورات. وكل من توجد بحوزته إحدى وثائق الكونغرس كان يتعرض للاعتقال المديد، وحظر نشر أية كلمة يقولها مانديلا أو تامبو.

وكان المراقبون والحكومات الغربية قد شطبوا المؤتمر الوطني الإفريقي كياناً، وقد جاء في تقرير استخباراتي أمريكي سري في تشرين الأول (أكتوبر) 1969 أن محاولات عدة لاختراق جنوب إفريقية لم تكلل بالنجاح. فالتنظيم السياسي ضمن الجمهورية ضعيف ومخترق من قبل عملاء الحكومة». [27] وبحلول أواخر عقد الستين كتب المؤرخ الأمريكي توماس كاريس Thomas Karis: «المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن له أكثر من حضور ظليل». [28] وعندما أتى جيم هوغلاند Jim Hoagland مراسل الواشنطن بوست إلى جنوب إفريقية عام 1970 وجد أن أسماء لوثولي ومانديلا وسيسيولو لم يعد لها كبير

أثر، كأنما هي تنتمي إلى زمن آخر، في ماض سحيق، وقد ضاع أثره منذ زمن». [29]

واعترف مانديلا في السجن بأنه: «إبان الأيام القاسية التي مرت في أوائل عقد السبعين عندما بدا المؤتمر الوطني الإفريقي وكأنه يغرق في الظلال، كان علينا أن نجبر أنفسنا على عدم الاستسلام لليأس». [30] وقد أقرت مسودة وثيقة من وثائق المؤتمر الوطني الإفريقي في تشرين الثاني (نوفمبر) 1970: «بأن منظمتهم داخل البلاد كانت / شبه ميتة/ ». [31] وعندما زرت أصدقاءاً سوداً في سويتو في ذلك العام وجدتهم أكثر تحفظاً مما كانوا قبل ست سنوات. وقال ابن الصحفي هنري نكزومالو Henry Nxumalo: «أنا لا أجرؤ أن أخبر أخي بم أفكر». كان المخبرون في كل مكان، وكان صغار التسوتسي (قطاع الطرق) يدفع لهم مقابل إعطاء أخبار عن المخربين والفدائيين. وقد سأل مانديلا صديقاً هندياً قديماً هو يوسف كاتشاليا: «إذاً أتيت لتلتقط الخيوط القديمة؟ فإنها مقطوعة». [32]

أصبح تامبو يعتقد الآن بأن إراقة الدماء أمر وشيك لا بد منه. ففي 25 آذار (مارس) 1970 كتب إلى صديقه رونالد سيغال Ronald Segal، الذي ساعده منذ عشر سنوات على الهرب من جنوب إفريقية، بأنه يستطيع أن يرى كيف يدفع فورستر والبيض في جنوب إفريقية إلى القتل والتعذيب بدافع الخوف من المجهول «أستطيع أن أفهم حتمية إراقة الدماء بوحشية في جنوب إفريقية التي أغفلتها تطورات السنوات العشر الماضية إغفالاً لا يمكن إصلاحه. إن عقد السبعين سيكون مغرقاً بالدماء، دماء الأبرياء أكثر مما هي دماء المذنبين لسوء الحظ». فكر تامبو كم ستكون روايته مختلفة لو أن سيغال لم يلقه وراء الحدود في آذار (مارس) 1960: «فالتاريخ يبنى من أحداث هي بحد ذاتها غير مهمة أبداً». وربما كان السجل اليوم كما يلي: «رونالد سيغال يقضي حكماً بالسجن مدى الحياة في سجن بريتورية، وأوليفر تامبو - شنق في بريتورية عام 1967، إثر

إدانتهما بموجب قانون الإرهاب، وجون فورستر اغتيل. ونيلسون مانديلا قائد جيش فدائي كبير يعمل في أجزاء مختلفة من جنوب إفريقية». [33]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي ما زال يعلق آمالاً على النشاط العسكري، يدرب مزيداً من الفدائيين في معسكرات خارج جنوب إفريقية، ويهرب الدعاية على شكل مناشير أو رسائل إذاعية عبر «راديو الحرية» من زامبية أو تانزانيا. لكن الجماعات الصغيرة الباقية من ناشطي الداخل الشجعان سرعان ما ألقي القبض عليهم بمساعدة المخبرين والتعذيب.

وقد تلقى نزلاء جزيرة روبين دعماً قوياً لمعنوياتهم في نيسان (أبريل) 1974 من حدث لم يكن في الحسبان، وهو انقلاب عسكري في البرتغال، أطاح بحكومة مارسيلو كيتانو. أعقب الانقلاب وعد بالاستقلال للمستعمرتين البرتغاليتين في جنوب إفريقية «أنغولا وموزامبيق». وقد ظهر أن هذا سيقلل من شأن استراتيجية بريتورية باستخدام / دولة عازلة/ تحميها من التسلل العسكري. ورأى المؤتمر الوطني الإفريقي الآن ما يوحي بقواعد عسكرية في موزامبيق، على طول خط الحدود مع جنوب إفريقية، تدعمها الحكومة الثورية الجديدة في البلاد، فريليمو FRELIMO. وصول حكومات ماركسية إلى موازمبيق وأنغولا أثلج صدور المناضلين الشباب السود في جنوب إفريقية، الذين بدؤوا يطلقون شعارات مثل /تعيش فريليمو/ أو / لا لونا كونتينوال/ . وفي جزيرة روبين شعر مانديلا بالثقة بأن «المد يتجه نحونا». وأسعده أن يسمع أن تامبو قد حضر حفلاً حكومياً في موزامبيق. [34]

ولكن مع كل هذه الآمال بالمستقبل بقيت سهم الأمة (إم. كي) غير فاعلة داخل جنوب إفريقية. وبحلول عام 1976 لم تكن قد أطلقت طلقة واحدة داخل حدود البلاد. [35] كان مانديلا في عزلته واقعياً أكثر من معظم المنفيين حول التوقعات الفورية، إلا أنه بقي مستبشراً بالمدى البعيد، وكما كتب في السجن في ورقته المشهورة التي لم تنشر حول التحرير الوطني أوائل عام 1976:

> مرت أربعة عشر عاماً على إرسال أول فوج من المجندين في الـ ام كي إلى الخارج، ولم يبدأ الكفاح المسلح داخل جنوب إفريقية. وحتى استقلال موزامبيق وأنغولا لا يشكل ضمانة بأن مشاكلنا بهذا الخصوص قد حلت. فالدول المستقلة حديثاً لديها مشاكل كثيرة لتخوضها. وربما وجدت من الصعوبة بمكان أن تفعل ما تريد، فالمبادرة ما زالت في أيدي العدو. والمهمة الأكثر إلحاحاً، بعد مسألة الوحدة، هي انتزاع تلك المبادرة من العدو. وأنا واثق بأن هذه اللحظة التاريخية ستأتي، وأن النتائج ستعوض عذاب لحظات التوتر التي شهدتها الحركة لأكثر من عقد كامل. . . لا يمكننا أن نقاوم التفاؤل بأن تباشير مرحلة جديدة قد أشرقت باستقلال موزامبيق وأنغولا. . إنها مسألة وقت قبل أن يأتي الظرف الملائم الذي تستطيع الحركة استغلاله لتطبق على عنق آخر نظام عنصري في قارتنا. . . عندما تأتي تلك اللحظة ربما يجد العدو نفسه مضطراً للقتال على جبهات كثيرة.[36]

لكن رئيس وزراء جنوب إفريقية جون فورستر كان مرناً مرونة مكنته من التفاهم مع الحكومة السوداء الجديدة في موزامبيق، واستمر في استخدام موانئ البلاد لتأمين فرص عمل للعمال المهاجرين مقابل كبح النشاط العسكري. بحلول هذا الوقت كان الازدهار الاقتصادي قد همد، وكان رجال أعمال جنوب إفريقية بأمس الحاجة إلى أسواق في بقية إفريقية. وتوصل فورستر إلى اتفاقيات سرية مع بلدان الشمال، وصلت أوجها في زيارة سرية لساحل العاج وليبرية. كما مارس الضغط على إيان سميث للتفاوض مع الحركات الثورية السوداء في روديسية. وفي الأمم المتحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1974 قدم وزير خارجية فورستر بيك بوثا Pik Botha شرحاً جريئاً بأن بلاده مصممة على الإصلاح: «سنبذل قصارى جهدنا لنبتعد عن التمييز سواء من مطلق العرق أو اللون». وبعد بضعة أيام قال فورستر لإفريقية السوداء: «إذا أعطيتم جنوب إفريقية فرصة ستفاجؤون بموقفنا».[37] لم يكن لدى مانديلا أوهام كثيرة عندما

سمع عن خطاب فورستر: لقد رأى كيف تجاهلت الحكومة فرصاً سابقة لتفادي خطر ثورة مسلحة، وكان مقتنعاً بأن أية تغييرات أساسية لن تحدث.

بقي مانديلا منشغلاً بالحفاظ على الوحدة، سواء داخل المؤتمر الوطني الإفريقي أو مع شركائه. لكن التوترات كانت تتنامى في المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، بين الشيوعيين والوطنيين، وبحلول عام 1975 كان تامبو يواجه انشقاقاً وشيكاً. وكان السبب المباشر هو الموت المبكر في عام 1973 لروبرت ريشا عن ثلاث وخمسين سنة، وهو الوطني المتحمس من صوفيا تاون الذي أصبح ممثل المؤتمر الوطني الإفريقي في لندن، والذي كان كثيراً ما ينقد الشيوعيين، وخاصة بعد إبعاده عن التنفيذي الوطني، كان مانديلا معجباً بريشا، وكتب رسالة طويلة مؤثرة لأرملته ماغي مشبهاً إياه بإبطاله الراحلين الآخرين مثل لوثولي وزد. كي. ماثيوز وجي. بي. ماركس «لقد نذرنا أنفسنا معاً بكل صراحة، وكانت بيننا أسرارا حميمة، عانينا نكسات مشتركة وقطفنا ثمار النصر».[38] لكن القداس الذي أقيم لروح ريشا في لندن تحول إلى معركة عندما أقدم أمبروس ماكيواني Ambrose Makiwane الوطني الشاب من الأسرة الترانسكية الكبيرة التي كان يعرفها مانديلا عندما كان طفلاً، على إلقاء خطبة لاذعة انتقد فيها / العصبة الصغيرة/ التي اختطفت المؤتمر الوطني الإفريقي: «الإفريقيون يكرهون هيمنة الحزب الشيوعي».[39] وبعد ذلك بمدة قصيرة تشكلت مجموعة من ثمانية من أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي الثوار، كان بينهم أمبروس ماكيواني وابن عمه تينيسون. واجه تامبو حملة / حقودة/ ضد نفسه، عندما كتب إلى مانديلا، لجأت إلى «إطلاق العنان ضد الشيوعية والعنصرية»، مستخدماً اللهجة نفسها التي يستخدمها الطغاة البيض.[40] حاول تامبو إبقاء الثوار المعادين للشيوعية داخل المجموعة، ولكن في أيلول (سبتمبر) 1975 اتفق التنفيذي الوطني على طرد / عصبة الثمانية/ ، كما أطلق عليهم. وقد

كتب ألفريد نزو Alfred Nzo الأمين العام للمؤتمر الوطني الإفريقي: «الفصيل الخائن قد تعمد الانطلاق علناً في محاولة لإثارة القلقلة والفرقة بين أبناء شعبنا».[41]

حزن مانديلا كثيراً لهذا الانشقاق، بما له من ماض وطني خاص، كان يتعاطف مع الثوار، وأمل أن يتبنى المؤتمر الوطني الإفريقي «موقفاً ألطف وأقل تشدداً»، لكنه أدرك أنهم قد استفزوا القيادة استفزازاً عميقاً. وقد فات أوان تدخله.[42] أسس الثوار كيانهم الخاص، وأسموه تحدياً ANC (مؤتمر الوطنيين الإفريقيين). ونادوا بمانديلا زعيماً حقيقياً لهم، لكن مانديلا نفسه لم يترك مجالاً للشك في أن تامبو هو قائده هو. وكتب في رسالة مهربة: «هناك مؤتمر وطني إفريقي واحد. وهو المؤتمر الوطني الإفريقي الذي يتخذ من لوزاكا مقراً رئيساً، والذي رئيسه هو أو. ت».[43] وفي النهاية سيعود معظم الثوار إلى الانضمام إلى المؤتمر الوطني الإفريقي وسيرحب أمبروس ماكيواني بعودة تامبو إلى جنوب إفريقية عام 1990. لكن ابن عمه تينيسون انضم إلى حكومة الترانسكي بإمرة قيصر ماتانزيما، وقتل في تموز(يوليو) 1980 على يد قاتل حامت الشكوك حول أنه من مسلحي المؤتمر الوطني الإفريقي.[44]

تعرض تامبو لنيران ثقيلة، فهو جم لقيادته المملة وغير الإبداعية، وقلق حيال مزيد من الانشقاقات، إذ كتب لمانديلا مستخدماً رمزاً يصف الفصائل بأنها «نواد رياضية» والمؤتمر الوطني الإفريقي بأنه / الاتحاد/ : «نشأت سلسلة من النوادي، لكنها ليست معنية برياضة مربحة ما لم تنظم وتقبل في الاتحاد الرياضي». لكنه كان واثقاً من أن أعضاء في الاتحاد «سينظمون مباريات ثنائية غير رسمية، خاصة مع نواد جديدة».[45] ومازال يتطلع إلى نزلاء جزيرة روبين في شؤون القيادة فقد كتب إلى مانديلا عام 1975: «إن الهواء يردد أصوات شبابنا ينشدون في مديح قادتنا المسجونين. أي إسهام رائع تقدمه لوحدة شعبنا».[46]

ما زالت توقعات نجاح المؤتمر الوطني الإفريقي في الوطن الأم تبدو ضعيفة، ولكن في الوقت الذي كان السجناء يتابعون تأرجح الكفاح المسلح بين ارتفاع وانخفاض، لم يكونوا على إطلاع بالتغيير الاجتماعي الذي نما تلقائياً وسريعاً في جنوب إفريقية التي كانت تضعف ببطء البنى الحديدية للأبارثيد وتوسع المعارضة لها. وكانت المعامل مراكز الاضطراب الأكثر وضوحاً. حيث حرض الكساد والتضخم أوائل عقد السبعين العمال السود على طلب أجور أعلى، كانت الإضرابات خروجاً على القانون، لكن العمال السود أضربوا في دوربان أوائل عام 1973، وبعد ذلك في إيست لندن.

كانت حركة واسعة، وغير متوقعة، وبلا قادة رسميين يمكن اعتقالهم أو جعلهم كبش فداء. هؤلاء العمال المتوسطو المهارة لم يكن من السهل استبدالهم، لذلك فقد كسبوا بسرعة زيادة الأجور. وجعلهم هذا النجاح أكثر اهتماماً بالنقابات. وقد توخوا الحذر سياسياً، وربطوا أنفسهم بنقابات يقودها البيض، كان المؤتمر الوطني الإفريقي قد شجبها. لكن كما توقع المؤتمر الوطني الإفريقي فقد بدأت الآن «الفترة الأكثر عنفاً في الاضطرابات السياسية والصناعية». [47]

قدر مانديلا في سجنه أهمية الإضرابات، والدور الذي لعبه هاري غوالا ورفاقه في التحريض عليها. [48] فكتب أوائل عام 1976: «لم يكن هناك أي دليل تقريباً يشير إلى أن العمال يتطلعون الآن إلى ما وراء آفاق محددة بالمصالح المحلية الصرفة ويحصرون اهتمامهم في هزيمة الأبارثيد عموماً. إلا أن السرعة التي صعدت فيها الإضرابات، والتصميم والتضامن بين العمال، وموقفهم المتحدي، أظهر أنهم في معاملهم المختلفة لم يعد لديهم أي استعداد لتحمل أي نوع من التفرقة».

كما تشجع مانديلا من المعارضة للأبارثيد التي أبداها الليبراليون البيض ورجال الكنيسة والطلاب. وأمل أن الحزب التقدمي الجديد، الذي كان فيه ستة

نواب في المجلس النيابي انتخبوا في انتخابات عام 1974، سيساعد في توعية البيض بمساوئ التفرقة العنصرية. وأبدى اهتماماً خاصاً بالطلاب السود والبيض، الذين كانوا يدافعون عن الحريات المدنية. ويطالبون بإطلاق سراح السجناء السياسيين. ولاحظ مانديلا أن القادة المسيحيين يزدادون جرأة في نقد الأبارثيد. فحث زملاءه في المنفى على الاتصال بكل صديق ممكن، وكتب في صحيفة التحرير الوطني عام 1976: «إن المشاكل التي تواجهنا تبدو عصية فقط عندما نحاول حلها من خلال حركة تحرير منقسمة على ذاتها ولا تستطيع أن تجمع الناس على رص جميع إمكانياتهم من أجل هزيمة العدو المشترك».

كان مانديلا مصمماً على فتح خطوط على الأفارقة الأكثر ليبرالية، وخاصة بعد اتصالاته بالسجانين. وحذر رفاقه من مغبة رفض أي تعامل مع الأفارقة، أو أن «يضللهم» ما هو معروف من «عداء وازدراء الإنكليز لهذه الجماعة». في الصحيفة نفسها كان يتكهن بالفرصة التي ستتاح بعد خمسة عشر عاماً:

> لا يحتكر السياسيون الأفارقة شعبهم، تماماً كما نحن لا نحتكر شعبنا. علينا أن نتحدث مباشرة مع الأفارقة ونشرح موقفنا كاملاً. فهناك رجال شرفاء على طرفي خط اللون، والأفريقاني ليس استثناء. نحن أصحاب قضية قوية والقادة الأفارقة سيلقون دعماً بلا منازع طالما أن شعبهم يجهل القضايا المعنية.. أصبح الصدام العنيف أمراً لا بد منه. وبعد أن نخوضه ونحيل هذا البلد رماداً سنبقى مضطرين إلى الجلوس معاً والحديث عن مشاكل إعادة البناء، الرجل الأسود والرجل الأبيض، الإفريقي والأفريقاني.[49]

خلال جميع نكسات عقد الستين والسبعين بقي مانديلا يتطلع إلى دعم القوى الغربية ورأى في العقوبات الاقتصادية السلاح المستقبلي الأساسي ضد الأبارثيد. لكن لا الحكومة البريطانية ولا الحكومة الأمريكية أبدتا ما يشجع. وعندما وصل تامبو إلى لندن أول مرة أمضى وقتاً طويلاً يسعى إلى دعم حكومة

المحافظين، أولاً بزعامة هارولد ماك ميلان، ثم أليك دوغلاس هوم، وطال انتظاره لمقابلات في وزارة الخارجية، وقد قالت زوجه أديلايد عنه: «لم يتوقف عن قرع الأبواب». [50] لكن الدبلوماسيين كانوا حذرين. حتى أن واحداً منهم، وهو أي. جي. أم. ساثرلاند I.J.M. Sutherland اكتشف أنه يسكن قبالة منزل تامبو في هاي غيت عام 1962، وطلب من الخارجية البريطانية معلومات عنه، ولم يكن لديهم سوى قليل من المعلومات لكنهم كانوا على استعداد للقائه «إذا كان لديه أي شيء مهم يقوله عن جنوب إفريقية». [51] وجد تامبو شكوكاً عميقة في لندن حول ارتباطات المؤتمر الوطني الإفريقي بالشيوعيين، كما وجد كثيراً من الدعم للمؤتمر الإفريقي العام المعادي للشيوعية. وفي أوروبة الغربية لم يلق مساعدة سوى من حكومتي ألمانية واسكندنافية، وسيحفظ لهما مانديلا الامتنان دائماً. شعر تامبو أنه مضطر للبحث عن المساعدة في موسكو، حيث تلقى وعوداً بالتدريب العسكري والسلاح بلا مقابل. [52] مما أكد وجهة نظر بريتورية بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يميل نحو الجانب الشيوعي في الحرب الباردة.

وعندما تولى حزب العمل السلطة في بريطانية في تشرين الأول (أكتوبر) 1964، لم تصل الأخبار كاملة إلى سجناء جزيرة روبين إلا بعد مرور بعض الوقت. فالرسالة التي ذكر فيها شقيق كاثرادا الخبر، عرضا وبشكل مختصر، تأخرت في البريد ولم تصل قبل ثمانية عشر شهراً. [53] كان مانديلا وتامبو قد علقا آمالاً كبيرة على أن تحمل بريطانية موضوع العقوبات محمل الجد، وأصدر رئيس الوزراء الجديد هارولدويلسون أوامره فجأة «بوقف جميع شحنات الأسلحة إلى جنوب إفريقية حالاً». [54] لكن وثائق أفرج عنها مؤخراً أظهرت أية كفاءة أبدتها الحكومة البريطانية في عرقلة المزيد من العقوبات. فقد كان جورج براون George Brown، وزير الاقتصاد، قلقاً حيال التبعات المالية لحظر الأسلحة، ووزير المستعمرات أنطوني غرينوود Anthony Greenwood كان يخشى أن تنتقم بريتورية بالتحرك ضد المحميات البريطانية الثلاث على

حدودها. وقال غرينوود: «إذا قرر الدكتور فيروورد أن ينفس عن غضبه عن طريق الأراضي فإنه يستطيع أن يلحق بها أضراراً جسيمة». [55] وقد كان اللورد كارادون Lord Caradon ممثل بريطانية في مجموعة خبراء الأمم المتحدة حول جنوب إفريقية، يطالب بإلحاح بفرض العقوبات، إلا أن وزير الخارجية باتريك غوردون ووكر Patrick Gordon Walker طلب من رئيس الوزراء أن يعنّفه، فقال كارادون عندها إن الحكومة تعارض العقوبات الاقتصادية. مع أنه قال لوزارة الخارجية: «يجب ألا نرفع تهديد العقوبات عن الجنوب إفريقيين تحت أي ظرف». وأضاف: «إن سيف ديموكليس، مع أنه مثبت تماماً في السقف لكن وجوده ضروري». [56] ربما ساعد السيف الوهمي في استرضاء اليسار العمالي، إلا أنه لم يضلل بريتورية.

أما واشنطن إبان حكم الرئيس ليندون جونسون فقد بدا أنها تضغط باتجاه مزيد من العقوبات الجدية، مما أثار قلق وزارة الخارجية في لندن. إذ طرحت وزارة الخارجية الأمريكية ورقة عمل جاء فيها إن بعض العقوبات المختارة «ستكون طريقة فعالة وغير مؤلمة نسبياً لإخضاع جنوب إفريقية للضغط». وسارع الدبلوماسيون البريطانيون إلى الرد بأن العقوبات لن يكون لها أي أثر، في الوقت الذي أخفوا مخاوفهم المادية الحقيقية. وجاء في مسودة سرية إن: «بريطانية ستعاني أكثر بكثير، في ضوء مدى تجارة الاستيراد والتصدير مع جنوب إفريقية». [57]

في كل الأحوال سرعان ما انشغل هارولد ويلسون بأزمة أكثر إلحاحاً في جنوب إفريقية. ففي تشرين الثاني (نوفمبر) 1965 تحدت حكومة أيان سميث البيضاء في مستعمرة روديسية المتاخمة جميع الضغوط البريطانية لإقامة انتخابات ديمقراطية، وأعلنت الاستقلال من جانب واحد. استبعد ويلسون استخدام القوة، ففرض العقوبات، ومن ضمنها حظر النفط الذي يفرض بحصار بحري، لكنه أشاح بوجهه عن تدفق النفط إلى روديسية عبر جنوب إفريقية من

شركات بريطانية.[58] لم يتأثر تامبو، وقال عام 1969: «إن حكومة العمال البريطانية قد شجعت الأقلية البيضاء وسمحت لها بالاستيلاء على السلطة السياسية واحتكارها».[59]

لم يكن لدى حكومة ويلسون وقت كاف للتفكير في جنوب إفريقية، ولا سيما في سجناء جزيرة روبين. وعام 1967 لم يبق لدى بريتورية من الأسباب ما يدفعها إلى تصديق «سيف ديموكليس» خاصة عندما أعاد وزير الدفاع البريطاني فتح مسألة تزويد جنوب إفريقية ببعض الأسلحة. وقد ألغى ويلسون تلك الخطوة، ولكن ليس قبل أن يثير مزيداً من الشكوك حول موقف الوزارة الأخلاقي من الأبارثيد.[60] وبعد ثلاث سنوات، أذعن هيلي للمؤتمر الوطني الإفريقي بعد زيارته مانديلا في جزيرة روبين «الآن أعتقد أنني كنت مخطئاً حتى في دعم النظر في الموضوع». لكنه لم يكن يشغل منصبه إذ ذاك.

كان الأمريكيون أقل حضوراً. فقد كانوا منشغلين بفيتنام وغير مهتمين بروديسية، فدخلوا مرحلة /إهمال لطيف/ لجنوب إفريقية، على حد تعبير السيناتور تشارلز بيرسي Charles Percy.[61] وعشية حملة الحقوق المدنية أعرب الأمريكيون السود عن امتعاض وشنوا حملة خطابية ضد الأبارثيد، واتخذ بعض السياسيين البيض، ومن ضمنهم الأخوة كينيدي، موقفاً راديكالياً. وقام بوبي كينيدي بزيارة لجنوب إفريقية عام 1966 لقيت تغطية واسعة، قال بعدها: «لو أنني كنت أعيش في هذا البلد لجمعت كل ما لدي، وخرجت منه الآن».[62]

لكن الكلام شيء والفعل شيء آخر! إذ قال روجر موريس: Roger Morris من مكتب الأمن القومي الأمريكي: «خلال عقد الستين كان الوجه المعلن لإدارتي كينيدي وجونسون هو التخلي عن الأنظمة العرقية شيئاً فشيئاً في الأمم المتحدة وأماكن أخرى، وفي الوقت نفسه التعامل التجاري السري معهم».[63]

بحلول عقد الستين كان التدخل الغربي يبدو أكثر بعداً، وكانت عودة حكومة المحافظين إلى بريطانية عام 1970 نكسة جديدة. وقد صدم رئيس الوزراء الجديد تيد هيث Ted Heath بوحشية الأبارثيد عندما زار جنوب إفريقية لأول مرة عام 1954، لكنه كان يعتقد أن وجود القاعدة البحرية البريطانية في سيمونزتاون قرب كيب تاون أمر بالغ الأهمية بالنسبة لدفاعات الغرب ضد القوى الشيوعية. وكان قد طلب معاودة بيع الأسلحة.[64] بدا أولاً أن بريتورية لا تريد أكثر من بضع طائرات هليوكوبتر، بما أن جنوب إفريقية اصبح لديها صناعة أسلحة متنامية، فقد ازدادت أهتماماً بمقاتلات ميراج من فرنسة. إلا أنها كانت تحتاج أيضاً تكنولوجيا اتصالات متقدمة من بريطانية وأمريكة، أبدت شركات كثيرة سرورها لتزويدها بها. رأى المؤتمر الوطني الإفريقي أن الغرب يدعم اقتصاد الأبارثيد وصناعته العسكرية المعقدة. وأعطت عودة حكومة هارولد ويلسون العمالية عام 1974 أملاً جديداً لنزلاء جزيرة روبين. إلا أن ويلسون غاص مرة أخرى في الورطة الروديسية، ولم يبق لديه مزيد من الوقت من أجل جنوب إفريقية. فقال تامبو في الذكرى الستين لتأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي عام 1972: «لولا دعم الدول الإمبريالية لكانت جنوب إفريقية قد أفلست منذ زمن بعيد، حتى عندما كنا نقاتل بأيدينا العزلاء».[65]

اتخذ الأمريكيون موقفاً أكثر استرضاء تجاه حكومات الأبارثيد بعد وصول إدارة ريتشارد نيكسون الجمهوري إلى سدة الحكم عام 1969، وكان مستشاره هنري كيسنجر قد مل من جنوب إفريقية، التي لم يذكرها في المجلدين الأولين من مذكراته، وكان، غريزياً، يفضل الوضع الراهن، وقد أمر بإعداد مراجعة للسياسة السرية (NSSM39) قال تامبو بعد إعلانها في نيسان (أبريل) 1972 إنها وثيقة مشينة؛ تحابي الأنظمة البيضاء في جنوب إفريقية، واستخلص أن «جنوب إفريقية ستكون قادرة في المستقبل المنظور، على حفظ الاستقرار الداخلي ومواجهة العصيان بكفاءة».

واختار كيسينجر واحداً من خمسة خيارات طرحت لتخفيف الضغوط الأمريكية ورفع حظر الأسلحة، إضافة إلى زيادة الإعانة لإفريقية السوداء. وجاء في الوثيقة أن الأمريكيين ربما يشجعون الإصلاح بفتح الأبواب على بريتورية، لكن أول النتائج كان طمأنة فورستر. [66] بعد التحول السياسي بمدة قصيرة خرج السفير الأمريكي يصطاد طائر التدرج مع قادة حكوميين في جزيرة روبين. [67] أطلق الأمريكيون على سياسة كيسنجر اسم «خيار طفل القطران» لأن واشنطن كانت ملتصقة بأصدقائها الجدد في بريتورية. واستمرت في ظل رئاسة جيرالد فورد. [68]

نادراً ما كانت وزارة الخارجية الأمريكية إذ ذاك تذكر مانديلا ورفاقه السجناء. وعندما عقد السيناتور الليبرالي ديك كلارك Dick Clark جلسات استماع عن جنوب إفريقية لمدة ثمانية أيام عام 1976، ملأت كتاباً من 792 صفحة، لم يذكر اسم مانديلا ولا مرة واحدة. وترك لأندرو يونغ عضو الكونغرس الأسود من ولاية أطلانطا ليبرز أنه «إذا كان هناك من حل عقلاني لمشاكل جنوب إفريقية فإنها ستعالج مع أولئك الرجال المسجونين أو المعتقلين ويجري تدميرهم الآن». [69] مازال نزلاء جزيرة روبين يعلقون مزيداً من الآمال على الشرق، واستمر الاتحاد السوفيتي وأوربة الشرقية بالترحاب بقادة المؤتمر الوطني الإفريقي، وتزويدهم بالمال والسلاح من أجل كفاحهم المسلح، وتعليم مبعدي المؤتمر الوطني الإفريقي في جامعاتهم. كان دعم الألمان الشرقيين متميزاً، وقاموا بطباعة مجلة المؤتمر الوطني الإفريقي سيشابا Sechaba التي كانت تنضح بالدعاية السوفيتية والتهجم على القوى الإمبريالية. أبعد تامبو نفسه عن أي نفوذ شيوعي، وأدهشه أن موسكو لم تحاول التأثير في سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي! وكان مقتنعاً، شخصياً، بأن الإفريقيين لن يرتموا في أحضان الشيوعية عندما يحين الوقت. [70] إلا أن سيسولو وسواه من نزلاء جزيرة روبين بقوا مستبشرين بأن خلاصهم سيأتي من العالم الاشتراكي. وكان مانديلا أكثر

(براغماتية)، إذ كان يعتقد بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يعمل مع أي صديق يمكنه أن يجده في وقت الحاجة. وكثيراً من كان يتذكر أن تشرشل عمل مع ستالين في الحرب العالمية الثانية. وبقي شغله الشاغل هو توحيد المعارضة للأبارثيد. وعزلته في السجن أعطته منظاراً واضح الرؤية للتحدي، كما شرح أوائل عام 1976، واستطاع من موقعه البعيد في السجن أن يرى التحديات بوضوح، كما قال في أوائل عام 1976:

إن ظروفي الحالية تعطيني مزايا نادراً ما يحظى بها رفاقي خارج السجن. فهنا الماضي يندفع إلى الذاكرة، وهناك متسع من الوقت للتفكير. يستطيع الفرد أن يرجع بذاكرته إلى الوراء لينظر إلى الحركة بمجملها من بعيد، والدروس القاسية التي يتعلمها في السجن تجبره على المثابرة ليكسب تعاون جميع زملائه السجناء، ليتعلم كيف يرى المشاكل من زاوية الآخرين أيضاً. وأن يتعامل بسهولة مع مدارس الفكر الأخرى في الحركة. لقد جمعتنا مصائرنا ولا خيار لنا سوى أن ننسى خلافاتنا في مواجهة الأزمة، ونتحدث عن مشاربنا وآمالنا وتطلعاتنا، وعن منظماتنا والطيف الواسع من الخبرات في مجال النضال.[71]

19

الوعي الأسود

1976 ـ 1978

كانت ويني، بلغتها المشفرة في زيارة للجزيرة، هي أول من أخبر مانديلا بالجيل الجديد من الثوار السود ذوي الميول القتالية الذين يشقون طريقهم ويبرزون في جنوب إفريقية، ونصحته بأن يحملهم محمل الجد، لأنهم يغيرون طبيعة النضال.[1] وكانت في موقع العارف، لأنها كانت مشدودة إلى أفكارهم وإلى قادتهم الشباب المكتملي الرجولة.

بدأت حركة /الوعي الأسود/ عام 1969 عندما انقلب ستيف بيكو، وهو طالب طب شجاع في جامعة ناتال، ضد القيادة البيضاء للاتحاد الوطني لطلبة جنوب إفريقية، وأسس منظمة الطلبة الجنوب إفريقيين السوداء (SASO) التي سرعان ما أصبحت دار الحضانة التي يترعرع فيها حزب جديد هو ميثاق الشعب الأسود (BPC). شعر بيكو أنه مسحوق تحت ثقل الرعاية الأبوية لليبراليين البيض، وأقسم أن الرجل الأسود يجب أن يتخلص من إحساسه بالنقص وأن يرى نفسه «حيث يضع نفسه، لا حيث يضعه الآخرون». بدا في كلامه ما يذكر بثورة رابطة الشباب منذ خمس وعشرين سنة، أو المؤتمر الإفريقي العام قبل ذلك بعشر سنوات. لكن بيكو اكتسب عمقاً ثقافياً وثقة أكثر من روبرت سوبوكوي، إذ شجعه استقلال إفريقية السوداء، وانتصارات الحقوق المدنية في أمريكة والكتابات المتزايدة عن القوة السوداء، خاصة كتاب فرانتز فانون Frantz Fanon /البؤساء في الأرض/. وقد عبر عن الثقة بالافتخار بكلمة /أسود/،

الأمر الذي سيتبناه الهنود والملونون المتعاطفون، وبعد ذلك الصحافة: حيث استخدمت الراند ديلي ميل الكلمة لأول مرة في تموز (يوليو) 1972.[2] كان الجو العام متأثراً لأقصى درجة بالعالم الخارجي وخاصة أمريكة. وقد كتب باتريك ليكوتا أحد أتباع بيكو الذي أصبح يعرف باسم /الإرهاب/ في ملعب كرة القدم: «ببالغ المشقة اكتشفنا أصوات الاحتجاج القديمة. وجدنا فرانتز فانون ودافيد ديون وايميه سيسير من حركة نيغريتيود Negritude بعضنا نبش دبليو. أي. بي. دوبوا وجوليوس نيريري وكوامي نيكروما. أما الأصوات الشابة مثل ستوكلي كارميشيل وإيلدريدج كليفر. وجورج جاكسون فقد وصلتنا».[3]

كان بيكو مصمماً على إيقاظ شعبه من «السكوت الكبير» الذي ميز عقد الستين، وأن يعطيهم احتراماً ذاتياً في قلب الاضطهاد. وقد كتب عام 1970: «لقد أصبح الرجل الأسود، جملة وتفصيلاً، مجرد صدفة، ظل رجل، مهزوماً تماماً، يغرق في بؤسه، عبداً وثوراً يحمل نير الاضطهاد بوداعة الحمل». وسرعان ما حرض جيلاً جديداً مناهضاً من أطفال المدارس السود الذين رأوا آباءهم بهذه الصورة المذلة، وصمموا على النجاة منها. وبحلول عام 1973 كان الوعي الأسود يكتسح مجمعات السود. وحظرت الحكومة ثمانية من قادتها، من ضمنهم بيكو وملازمه بارني بيتيانا Barney Pityana. لكن استقلال موزامبيق وأنغولا حمل موجة جديدة من الأمل. وعام 1974 نظم حزب «ميثاق الشعب الأسود BPC» مسيرات دعم للحكومة السوداء الجديدة في موزامبيق. ردت الحكومة باتهام تسعة من قادته، على رأسهم ساث كوبر Saths Cooper (الذي سيرسل فيما بعد إلى جزيرة روبين)، بإثارة الفوضى بموجب قانون الإرهاب.[4] كان حزب المؤتمر الوطني الإفريقي الأثري الذي يعمل في الخفاء داخل جنوب إفريقية قد ضاق ذرعاً بحركة بيكو، وما تردده من أصداء المؤتمر الإفريقي العام، في الوقت الذي كان كثير من أتباع بيكو ينظرون بازدراء إلى

جمود ومحافظة المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن ويني مانديلا الممنوعة من ممارسة النشاط السياسي، أثار حماستها غضب وثقة وتأكيد الثوار الشباب، وتذكر عن ذلك: «كان هناك فراغ كامل، ولو لم يأت بيكو إلى الحياة لخفت من التبعات التاريخية. كان التعامل مع ذلك الرجل تجربة منعشة، وكنت إذ ذاك الصوت الوحيد الذي وجد شجاعة كافية لأن يفعل». وشاركت في الافتخار الجديد بالسواد: «كنت تشعر أن دمك يغلي إذ تقف وتشعر بالفخر لأنك أسود. . وذلك هو الشعور الذي نقله ستيف إلي».[5]

بارني بيتيانا اصطحب بيكو لمقابلة ويني، التي استجابت بحرارة، يذكر بيتيانا أن: «ويني لم تشك أو تتردد، وفتحت قلبها لنا. وكان ستيف دائماً يذهب للقياها عندما كان في جوهانسبورغ».[6]

وبعد أن انتهى الحظر المفروض على ويني عام 1975 أدلت بمقابلات وألقت خطابات تحذر من موجة غضب بين أوساط السود الشباب.[7] ولكن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن له علاقة كبيرة بتنامي تلك الموجة، وعندما طلب الناشطان الشابان توكيوسيكسويل Tokyo Sexwale ونالدي تزيكي Naledi Tsiki من ويني أن تصلهما بالمؤتمر الوطني الإفريقي قالت إن صلاتها به قد /انقطعت/ .[8]

قابل مانديلا ورفاقه خبر /الوعي الأسود/ بالشك، لأن الأفارقة رحبوا في الأصل بالحركة مؤشراً على أن السود «يتطورون وفق خطوطهم الخاصة»، في الاستمرار مع الأبارثيد، ورأى مقالات متعاطفة كتبها بروفيسور أفريقاني في مجلة المرأة الافريقانية ويسجينوت Huisgenoot.[9] إلا أن إصرار الحكومة على تعليم اللغة الأفرقانية كان القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لأطفال المدارس السود. وقد فوجئ الجميع تقريباً بعنف الثورة التي اندلعت في حزيران (يونيو) .1976 عندما أعلن الطلاب في سويتو الإضراب ضد تعليم الأفريقانية، وسار عشرة آلاف من الشباب السود تعبيراً عن دعمهم، أطلقت

الشرطة النار عليهم، فقتل صبي في الثالثة عشرة هو هيكتور بيترسن Hector Pieterson وانطلق الأطفال متجاوزين جميع الحدود، فقتلوا اثنين من البيض. وأصبحت سويتو ساحة معركة دامية، اجتاحتها عربات مدرعة وطائرات عمودية. وفي الأيام التالية امتدت الإضرابات وأعمال الشغب إلى الكيب، وأواخر العام كان عدد القتلى بين خمسمئة وألف، وأنحى تقرير الحكومة فيما بعد باللائمة على المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام والشيوعيين، لكن المحرض الحقيقي كان بيكو وقادة طلاب المدارس أنفسهم، الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً يذكر عن المؤتمر الوطني الإفريقي.[10] قالت ويني: «لم نكن نستحق كل ذلك الشرف، ولكنا لا نبالي أبداً».[11] وشعرت بأنها شخصياً معنية، إذ كانت موجودة عندما قتل هيكتور: «كنت جزءاً من تلك الثورة.. وبفضل ما قام به أولئك الأطفال وصلنا إلى ما نحن عليه الآن».[12]

سرت ثورة سويتو حول العالم (قال مانديلا فيما بعد) إنها أطلقت صرخة أشد من مجزرة شاربفيل.[13] لكن في جزيرة روبين كان أول مؤشر بوجود أزمة هو أن الأنباء نضب معينها تماماً.[14] وعندما بدأت القصص تتسرب بالتدريج، كتب مانديلا بياناً سرب إلى الخارج بواسطة ماك ماهاراج عندما غادر الجزيرة بعد ذلك بمدة قصيرة. أظهر البيان أول دعم نضالي يعرب عنه مانديلا للثورة، مركزاً على الحاجة إلى الوحدة والعمل في آن. بدأ البيان بعبارة: «لقد لعبت البندقية دوراً مهماً في تاريخنا..». واختتم بهذه الكلمات:

«نحن المحتجزون داخل الجدران الرمادية لسجون نظام بريتورية نمد أيدينا إلى شعبنا. ومعكم نحصي عدد أولئك الذين ذهبوا ضحية البندقية وحبل المشنقة.. نواجه المستقبل بثقة. لأن البنادق التي تخدم الأبارثيد لا تستطيع أن تجعله لا يقهر. وأولئك الذين يعيشون بالبندقية سيموتون بالبندقية. اتحدوا! عبئوا طاقاتكم! تابعوا القتال! فبين سندان العمل الجماعي الموحد ومطرقة الكفاح المسلح سنسحق الأبارثيد وحكم الأقلية العنصرية البيضاء!».[15]

وصلت أول أنباء مفصلة إلى السجناء في آب (أغسطس) 1976 من أريك مولوبي Eric Molobi، أحد ثوار الوعي الأسود الشباب الذي وصل إلى الجزيرة بعد سنتين في السجن، عذب فيهما حتى أوشك على الموت. كان حاداً في نقده للمؤتمر الوطني الإفريقي، وعندما أخبرهم عن الثورة أول مرة ما كانوا ليصدقوا.[16] لكن سرعان ما وصل فيض من الثوار الشباب إلى الجزيرة، يحملون تحديهم وعدوانيتهم. بعضهم هرب من جنوب إفريقية لينضم إلى معسكرات تدريب المؤتمر الوطني الإفريقي ثم عاد مقاتلاً في سهم الأمة (إم. كي) وقبض عليه. قال تيرور ليكوتا Terror Lekota: «تدفقنا داخل المكان محملين في شاحنات من كل مكان، كما لو أننا سقاطة هائلة من طرح الريح».[17] كثير من الرفاق رأوا الجزيرة مكاناً عالي الشأن، وقد قال سيفيزو بوثيليزي Sifiso Buthelezi: «هناك كان يحتجز أبطالنا. لقد كانت جزيرة روبين بالنسبة لنا تعادل الحرية».[18] لكن كانت هناك بعض الخيبات بقادتهم. حيث قال ليكوتا:

> وجدنا السجناء السياسيين صامدين في قتالهم، بتصميم متحدٍ، لكن معنوياتهم كانت مهزوزة، ولم يكن بإمكانهم رؤية الآفاق. كانوا محرومين من الأخبار ويعتقدون أن كل شيء قد مات.. حتى أنهم لم يعلموا بإضرابات دوربان في عام 1973. ونحن أمددناهم بالأمل وبررنا تصميمهم، ولكن أيضاً متاعبهم؛ كثير منا كان يحمل كدمات عاطفية إثر التعذيب. فنحن لم نكن سياسيين مرفهين، وإنما مجرد مادة أولية. كثير من الرفاق كانوا يظنون جماعة ريفونية محافظين قدامى، وأن المؤتمر الإفريقي العام كان أكثر إغراء بالشعار الذي يطلقه: إفريقية للإفريقيين.[19]

أُعجب مانديلا بمدى ثورة سويتو، وبيقظة الاحتجاج بعد /عقد الستين الصامت/ وسرّه أن تعليم البانتو لم يجعل السود يستسلمون لفوقية البيض، وإنما حرض رداً حاداً و«ارتد السحر على الساحر».[20] كان مأخوذا بسوية الثوار الشباب، الذين كشفوا عن أوجه جديدة لجنوب إفريقية السوداء «تشعر

بأنك قد اغتنيت، وتوسعت آفاقك وتعمقت جذورك في بلادك. وأدرك أن المؤتمر الوطني الإفريقي يخضع لتحدي اللحاق بالركب».[21] كثير من الشباب عذبوا من قبل الشرطة، ويحملون آثار التعذيب، وقد تأثر مانديلا، الذي لم يعذب أبداً، بقوتهم ومنعتهم.

لكن مدى الهوة بين الأجيال صدمته هو والسجناء الأوائل. وقد كتب موسيبودي مانجينا، الذي وصل إلى الجزيرة قبل سويتو بثلاثة أعوام: «مع أن بعضنا كانوا شباباً إلا أننا وجدنا أنفسنا نظهر شيوخاً ومعتدلين».[22]

وحتى هاري غوالا اعتقد أن «تصرفات الشباب أحياناً تكون أقرب إلى الفوضى».[23] حتى أن بعضهم أنكروا آباءهم وعدُّوهم جبناء. وقد كانوا ميالين إلى التحدي والمجابهة ميلاً لا هوادة فيه، وبعضهم /عامل الثقل/ ، لم يكونوا متطرفين سياسيين أبداً، وإنما من صغار قطاع الطرق أو التسوتسي.[24] وقد قال ماك كزيغو Mike Xego الناشط في الوعي الأسود، الذي انضم فيما بعد إلى المؤتمر الوطني الإفريقي: «إذا لمسنا السجانون فإننا نرد بلكمة سريعة».[25] وقال أريك مولوبي: «لقد عبثنا بالنظام كله، ورفضنا الدراسة. كنا غاضبين جداً، واستغرق تغيرنا قرابة سنتين».[26] تنبأ مانديلا ببروز جيل أكثر راديكالية. وقد حذر أثناء محاكمة ريفونية من أن الحكومة ستواجه عصيانات أشد شراسة، تجعلها تترحم على أيام قادة المؤتمر الوطني الإفريقي القدامى. لكنه صدم إذ وجد أن هؤلاء الثوار كانوا يبدون من الشك في المؤتمر الوطني الإفريقي ما يبدونه تجاه الحكومة. وقد قال توكيو سيكسويل وهو من مقاتلي المؤتمر الوطني الإفريقي وقد أتى إلى الجزيرة عام 1978: «قبل أن نذهب إلى الجزيرة قيل لنا إن مانديلا خائن وإنه يؤمن بسيطرة الكزوسا».[27]

قال مانديلا: «إن تعتبر معتدلاً ولد شعوراً فيه جدة لكنه لم يكن شعوراً مريحاً».[28] وأدرك أن عليه أن يحاول التفاهم مع الثوار الشباب، وطلب من بعضهم، ومنهم ساث كوبر من حزب ميثاق الشعب الأسود، وستريني مودلي

من منظمة طلبة جنوب إفريقية إعطاء محاضرات للسجناء الأكبر سناً. وأصبح أكثر إدراكاً لشعبية /الوعي الأسود/ ، مما ذكره بتجربته الخاصة في رابطة الشباب، واعتقد بأن الشباب سرعان ما يهتمون بالسياسات الأوسع للمؤتمر الوطني الإفريقي. وحاول تصور تأثيراتهم، فكتب للزعيم بوثيليزي Buthelezi: «إن الأطفال الذين تركتهم يدرجون بخطى متعثرة قد أصبحوا كباراً ذوي عقول راجحة.. يعيشون وسط تغيرات سريعة وتطور في العلم والتكنولوجيا، ربما ساعد التعليم وتأثير الصحافة في ردم الهوة بين الأجيال. لذلك، فإن علينا أن نسمح بما قد يبدو شطط الشباب». لقد قال وورد ثورث بإيجاز بارع: «الطفل هو والد الرجل».[29]

لكن مانديلا واجه أكبر اختبار لمهاراته السياسية في محاولة الارتباط بهؤلاء الشبان الشجعان الغاضبين المتعجلين الذين لم يجر معهم أي اتصال سابق، لكنه يحتاج لإدخالهم في الحركة الأوسع. وكانت له بعض الارتباطات المهمة مع قادتهم، وأجاب بحرارة عن رسالة ودية من هلاكو رشيدي Hlaku Rachidi، رئيس حزب ميثاق الشعب الأسود، الذي كان في السجن في مادر فونتين.[30] لكن وجد أن كثيراً من الثوار الشباب طائفيين وغير ناضجين في انشغالهم بالسود واستبعادهم للبيض.[31]

وحرص على ألا يستجيب للأسود الصغار بالعدوان مما يحرضهم على الرد بالقتال. ولم يقم بالدعاية للمؤتمر الوطني الإفريقي أو يحاول تجنيد أتباع من المنظمة الجديدة. وإنما لجأ إلى طرح أكثر ليناً يعتمد الإقناع التدريجي. وكان دائماً يذكر حكاية تعلمها إذ كان صغيراً، عن الريح والشمس إذ تحديا بعضهما في من يستطيع أن يجعل رجلاً يخلع ثيابه. في البداية عصفت الريح بين جنباته فتمسك بثيابه وشدها إليه بقوة. ثم سلطت الشمس أشعتها نحوه إلى أن خلع كل ثيابه.[32]

وانطلق مانديلا ورفاقه في محاولة تحويل الرفاق الشباب نحو سياسات

أكثر اعتدالاً. وقد قال مايك كزيغو: «لم يكن النظام وإنما المؤتمر الوطني الإفريقي هو الذي كسرنا. واحداً إثر واحد. لقد حاول التنظيم السري للمؤتمر الوطني الإفريقي في جزيرة روبين إقناعنا ـ كأفراد ـ فكانوا يحادثوننا ويسربون ملاحظات إلينا».[33] أصبح معظم الرفاق الشباب يعجبون بمجرد عناد المحاربين القدماء. وقد قال دان مونتسيسي الذي أتى إلى الجزيرة عام 1979: «كان يذهلنا أنهم على رغم كل هذه السنين التي قضوها في الجزيرة استطاعوا الاحتفاظ بشجاعتهم، وصفاء ذهنهم وتصميمهم على متابعة القتال. لقد نمت بيننا روح رفاقية عميقة من خلال مناقشات وفهم المشاكل التي تواجهنا في جنوب إفريقية. كما كنا نشعر تجاههم باحترام كبير فقد كانوا مثل آباء لنا».[34]

وقد قال سيث مازيبوكو: «كم تغيرت! لمجرد أني اجتمعت بنلسون مانديلا، وتعلمت منه ومن الآخرين. لقد نشأت على فكرة أن مانديلا حيوان. كان آباؤنا يقولون: «لا تدخلوا في السياسة لأنكم ستصبحون إرهابيين وتودعون في السجن مثل مانديلا..». ولما سمعت صوته القوي العميق يقول: «أيكم سيث ومورفي ودان؟». رفعت رأسي فرأيت مانديلا أمامي. في تلك اللحظة بدأت أناقش بعض معتقدات الوعي الأسود. فها هو قائدنا ينادي بالوحدة واللاعنصرية».[35]

كان الموقف من السجانين موضوعاً أساسياً فقد كان كثير من الثوار الشباب مصممين على تحديهم انطلاقاً من مبدأ استفزاز الحراس ليطلقوا الكلاب على السجناء. وقد أفاد مفتشو الصليب الأحمر الذين قاموا بزيارة في آذار (مارس) 1977 أن النزلاء الجدد: «حملوا إلى السجن توكيداً جديداً على كرامة السجناء الإنسانية. وكثيراً ما كانوا يدخلون في نزاع مع سلطات السجن ليس لمجرد أنهم يريدون إثارة المشاكل مهما كلف ذلك، وإنما لأنهم لم يكونوا مستعدين لتحمل معاملة عنصرية مهينة قالوا إنهم يلقونها على أيدي سجانيهم».[36]

كان بعض السجناء يعدون مانديلا خائناً لأنه توصل مع السجانين إلى تفاهمات، وساعد في حفظ النظام. إلا أنهم بدؤوا بالتدريج ينصتون إلى الكبار. كان إيريك مولوبي يستشيط غضباً من أحد السجانين الذي كان دائماً يشتمه ويضحك منه عندما يرد الشتيمة، إلى أن سأله سيسولو: «لماذا تعتقد أنه يضحك منك؟ السجانون هم حثالة الأفارقة. وهو يحب أن يراك تنزل إلى مستواهم، لماذا لا تحاول ألا ترد الشتيمة؟» في المرة التالية؛ ضبط مولوبي نفسه واكتفى بالنظر إلى السجان، الذي سرعان ما فقد اهتمامه به. فقال مولوبي: «ولكني ما زلت أشعر بعدم الرضى، لأن الوعي الأسود علمني أن أرد الصاع صاعين».

وبالتدريج أصبح الرفاق يرون في كثير من السجانين الوجه البشري الذي يلين بخاصة أمام المرح. ولدى اكتشافهم ذلك بدؤوا يستمتعون بالنكات القذرة، وكانوا يجعلون أفضل راو للنكات يسير بجوارهم ويجعلهم يضحكون. وقد قال مولوبي: «لقد تداعى الجدار فيما بيننا، وغير معظمهم آراءهم أخيراً، وقدموا لنا المساعدة. مما غير نظرتنا إلى النظام القاسي».[37]

وقال توكيو سيكسويل: «كنا جميعا مدانين، سجيناً وسجاناً.. مربوطون واحدنا إلى الآخر». ولاحظ أن بعض السجانين دُهش إذ وجد أن هناك سجيناً كاثوليكياً يريد أن يرى كاهنه، أو سجيناً يتحدث باللغة الأفريقانية «كانوا يظنون أننا نتحدث بالروسية أو الكوبية. وبالتالي وجدنا أرضية مشتركة ونمت بيننا صداقات قوية».[38]

سرعان ما تبين تيرور ليكوتا أن معظم السجانين غير متعلمين، وأن كثيراً منهم نشأوا في مياتم، وعانوا ظروفاً قاسية «وهم أيضاً أرادوا أن يفهموا لماذا نحن في السجن. وكم كان رائعاً ومنعشاً أن ترى أولئك الأشخاص العاديين يقدرون قضيتنا. تلك التجربة جعلتني أعتقد أن جنوب إفريقية أمامها مستقبل واعد».

لم يمض وقت طويل قبل أن يظهر تأثير المحاربين القدماء على الجدد بالتدريج. وقد قال تيرور ليكوتا: «بعد أربعة إلى ستة أشهر خبت جذوة الحماسة. فدخلوا في حوارات طويلة وبدأت آراؤهم تتغير». [39] فقبل أن يأتي ليكوتا إلى جزيرة روبين لم يكن يعرف عن المؤتمر الوطني الإفريقي إلا النزر اليسير: فقد قرأ خطاب مانديلا في ريفونية، ولكنه لم يسمع باسمه إلا همساً. وعندما وصل دس رسالة صغيرة إلى مانديلا يسأله فيها بعض الأسئلة السياسية. وكان مانديلا قد سمع عن شجاعته. فكتب له ثلاث صفحات عن تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي شرح فيها محاولاته الطويلة الأمد في الإقناع السلمي قبل أن يلتفت إلى أساليب غير قانونية. ويذكر ليكوتا: «قرأت الرسالة مراراً وتكراراً إلى أن حفظتها عن ظهر قلب. وعرفت أني سأنضم إلى المؤتمر الوطني الإفريقي». فتأثر مانديلا بهذا القائد الشاب الواضح القوي. ونصحه ألا يترك منظمته (SASO) منظمة طلاب جنوب إفريقية. لكن ليكوتا كان مصمماً على الانضمام إلى المؤتمر الوطني الإفريقي. [40] وقد قال دولا عمر Dollah Omar وهو محام من الكيب تحدث مع كثير من أعضاء /الوعي الأسود/ في الجزيرة: «كان تقييماً مؤلماً للذات. بدا بسيطاً ولكنه لم يكن كذلك». [41]

حرض تحول ليكوتا هجوماً تردد صداه في كامل الجزيرة. فقد حاول إقناع رفاقه في /الوعي الأسود/ في زنزانته بمزايا المؤتمر الوطني الإفريقي اللاعرقية. لكن بعضهم خطط لانتقام ضارٍ. فبينما كانوا يعزفون الموسيقى وعينهم على السجانين هجم واحد منهم على ليكوتا بمذراة (أداة زراعية) ضرب بها رأسه «شعرت أني قرميدة، وكدت أموت»، وما زال رأسه يحمل أثر تلك الضربة. اتهمت سلطات السجن المجرمين بالهجوم، ولكن مانديلا وسيسولو أرادا تفادي شقاق علني، وطلبا من ليكوتا ألا يقدم شكوى. فرفض ليكوتا أن يشهد، مما خفف التهمة وقربه من كل من مانديلا والشباب في الوقت نفسه. وسرعان ما لحق كثير من الرفاق الشباب الآخرين ليكوتا إلى المؤتمر الوطني

الإفريقي، ومن ضمنهم الشاب الذي هاجمه. بعد ذلك فوراً نقل ليكوتا إلى القسم ب، حيث كان أقرب إلى مانديلا و/ الكبار/ . كان أحياناً يعيل صبره ببطئهم، ومباريات التنس التي يقضون فيها أوقات فراغهم، لكنه تأثر تأثراً عميقاً بأفكارهم.[42]

كانت الرياضة محفزاً أساسياً في عملية التوحيد. وقد سمح بها لأول مرة، عام 1967، وتطور نظام موسع من الفرق والمباريات الدورية وفق أسس دقيقة وسجلات بإشراف ستيف شويت Steve Tshwete رئيس رابطة الرياضيين الهواة في جزيرة روبين، إلى أن غادر عام. 1979 ساعدت الرياضة في فرض النظام، كما تكشف في دقائق تفاصيل اللقاءات. وقد جاء في تقرير شباط (فبراير) 1972: «تمت مناقشة التصرف الذي أظهره بعض الأعضاء، الذي لا يليق برياضي ولا بشخص مهذب. فقد غادر السيد ايه سوز الملعب في منتصف المباراة دون إعلام مدربه».[43] وتوسعت منظمة الرياضة لتشمل مجموعات موسيقا وغناء جماعي وأفلام وحفلات راقصة. وقد شكر رئيس نادي السجناء مايكل كاهلا Michael Kahla الأعضاء في تقريره السنوي لعام 1974: «لقد علمتموني الإدارة والصبر والفهم تعليماً ما كان لأي مدرسة رسمية أن تعلمني إياه».[44] وقال راكس سيخوا Raks Seakhoa الذي أتى إلى الجزيرة صبياً قروياً فجاً: «تعلمت كيف أنظم الأشياء وأضعها موضع التنفيذ. فأسلوب حياتنا في جزيرة روبين يجعل الفرد متعدد البراعات».[45]

كان أبرز ما يراه مانديلا في الرياضة هو أنها طريقة للتغلب على التنافسات السياسية. فقد قسمت الفرق أصلاً إلى فريق المؤتمر الوطني الإفريقي، وفريق المؤتمر الإفريقي العام، ومنظمات أخرى. تشرف عليها لجنة مشتركة. إلا أن الجميع تداخلوا فيما بعد، واستطاعت الرياضة والثقافة تفادي الورطات السياسية: «كان عادياً أن تجد مجموعة من المؤتمر الوطني الإفريقي تجلس مع

المؤتمر الإفريقي العام، ويتحدثون بحماسة، ويتبادلون النكات حول كل شيء ما عدا السياسة». [46]

لكن كثيراً من سجناء /الوعي الأسود/ استمروا بالصدام مع المؤتمر الوطني الإفريقي، وكثيراً ما كانوا ينسجمون مع المؤتمر الإفريقي العام. ووصل التوتر إلى ذروته عندما تعرض عدة أعضاء من المؤتمر الوطني الإفريقي للضرب المبرح في الزنزانات العامة. وجهت سلطات السجن الاتهامات ثانية، هذه المرة ضد رجال المؤتمر الوطني الإفريقي، للتسبب في القتال. وكل المتهمون محامياً من البر الرئيسي وطلبوا من مانديلا إعطاءهم شهادة شخصية، لكنه كان محرجاً، يخشى شقاقاً جديداً مع /الوعي الأسود/. وقرر ألا يشهد، الأمر الذي أحبط بعض أنصار المؤتمر الوطني الإفريقي، لكنه ترك انطباعاً لدى /الوعي الأسود/ بتصميمه على تحقيق الوحدة. [47]

بقي مانديلا قلقاً حيال شقاقات سجناء «الوعي الأسود» الذين ما زالوا يهاجمون التعددية العرقية لدى المؤتمر الوطني الإفريقي وتأثيراته الشيوعية. وبعد عامين على ثورة سويتو كتب مقالة واضحة وجلية من خمس وخمسين صفحة، لم تنشر بعد، حلل فيها جذور وأهمية حركة «الوعي الأسود». وكان يدرك تماماً أنه قد قطع عن أحداث مهمة، إلا أنه كان يلحظ الجانب المسرحي وأهمية الصور والأداء، كما أوضح في مقطع حيوي في المقدمة، ألقى بعض الضوء على رأيه الخاص في السياسة:

> يجدر بالمرء دائماً ألا يصف الأحداث، وإنما أن يضع القارئ في جو تجري أحداثه الدرامية كلها داخل المسرح، كي يرى بأم عينه المسرح الحقيقي، وجميع الممثلين وأزياءهم. ويتابع حركاتهم، ويستمع إلى ما يقولونه ويعنونه، ويدرس تعابير الوجه ورد الفعل العفوي للجمهور إذ تتكشف أحداث الدراما. ومع أن هذه المزية لا تطالها يد السجين فإن المسألة مهمة خاصة بالنسبة لنا لأن نغامر وندخل إلى حيث يتردد الأشخاص الأكثر حذراً.

حاول مانديلا في مقالته أن يخرج بحكم متوازن بين الآراء المتطرفة للوعي الأسود، سواء كانت رجعية عنصرية أم كانت الحركة السوداء الثورية الحقيقة الوحيدة في جنوب إفريقية، إلا أنه قدم نقداً لاذعاً، إذ أرجع نمو الكبرياء الأسود إلى القرن الثامن عشر، عندما كان الإفريقيون يدافعون عن حريتهم أمام البيض. بالمقابل كان طلاب الوعي الأسود متأثرين تأثراً بالغاً بثورة الطلاب العالمية في عقد الستين وبالحملات الأمريكية ضد حرب فيتنام. وشعر بأن أفكارهم مستوردة من أمريكة / وابتلعت كاملة/ دون أي فهم للظروف المختلفة في جنوب إفريقية، حيث انضم البيض إلى حركة التحرير. بتبنيها المفهوم الأمريكي للقوة السوداء «اتخذت حركة «الوعي الأسود» شخصية مذهب عنصري يربط، عشوائياً، فصيلاً من القوى التقدمية بالعدو».

وعيل صبره بغرور بعض سجناء «الوعي الأسود»، إذ ألقى واحد منهم «خطاباً إلى الأمة» أمام جمهور من عشرة أشخاص. وأزعجه فوضى نظرياتهم وإيمانهم بالوجودية «وهي فلسفة الخرافة والفردية والفوضى». وخشي أن يصبحوا متواطئين في المستقبل، تدعمهم الإمبرياليات الغربية لمعارضة الشيوعية والليبرالية في السياسات السوداء.

وأكد إيمانه «بالاشتراكية العلمية»، وأصر على أن الدول الاشتراكية هي الصديق الأفضل بالنسبة لأولئك الذين قاتلوا من أجل التحرر الوطني. ولكنه قال إن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يستطيع الدفاع عن سياساته الخاصة وحريته في الحركة. وقد أشرف عليه، خلال تاريخه الطويل، قادة غير شيوعيين. وقال: «نستطيع أن نستأنس الراديكالي المفرط في اليسارية تماماً كما نستطيع أن نصد العناصر اليمينية التي تحذرنا عفوياً من الخطر الشيوعي والتي تتواطأ في الوقت نفسه مع أعدائنا». كان المؤتمر الوطني الإفريقي «شجرة سنديان السياسات الجنوب إفريقية».

إلا أن مانديلا قبل الأهمية التاريخية للوعي الأسود: «لقد وجد الطالب

الأسود موطئ قدمه، وخاطبت شعاراته عواطف الرجل الأسود، وامتدحت كبرياءه الوطني، وأوحت إليه بأن يؤكد هويته بالثقة». وبقي يأمل بأنه سيصبح جزءاً من حركة تحرير موحدة، وخلص إلى أن: «الواقعيين فيهم أدركوا أن العدو لن يهزم بالخطابات الملتهبة والحملات الجماعية والتلويح بالقبضات والحجارة وقنابل البترول، وأنه لا بد من تجنيد جيش حرية منضبط، تحت إمرة قيادة موحدة. ويستخدم أسلحة حديثة، ويدعمه شعب موحد، إذا أردنا أن نكلل بالغار». [48]

20

سحر السجن

1976 ـ 1980

في أواخر عقد السبعين بعد أن همد ثوار سويتو، أصبحت جزيرة روبين أكثر هدوءاً. والأوضاع فيها أقل قسوة مما كانت عليه لدى وصول سجناء ريفونية، واكتسب مانديلا سلطة هادئة على السجناء الأصغر سناً.

وقد أعطى السجين الصحفي ثامي خوانازي Mkhwanazi Thami، الذي أتى إلى الجزيرة عام 1980، وصفاً حياً لأسلوب مانديلا، فقال: إنه كان يمشي ببطء، يرتدي بنطال السجن وقميصاً أخضر، يتطلع أمامه كأنه غارق في تفكير عميق. أصبح له الآن إحديداب بسيط ومسحة من الشعر الرمادي لكن دون أي كرش. كان غالباً غارقاً في نقاش عميق يسدي النصيحة القانونية أو الشخصية للسجناء الآخرين، الذين ربما كانوا قد حصلوا على ذلك الموعد منذ فترة طويلة. كان يعالج مشاكلهم بمنتهى الجدية، وكان أحياناً يجهز ورقة مطولة كتبت بخط صغير جداً. وكان يتقن لهجة /الفلاي تال/ العامية الدارجة في النواحي بعبارات مثل /أوكاو بوي/ وقد قال مانديلا في خوانازي إنه: «جنتلمان بكل معنى الكلمة». لم يكن يبدو عليه الغضب أبداً، وكان يقنع السجناء الآخرين بالهدوء قبل أن ينفعلوا مع الأزمات. كان مسؤولو السجن ينادونه /مانديلا/، أو أحياناً /السيد مانديلا/، لكن زملاءه السجناء كانوا ينادونه باسمه القبلي /ماديبا/.

كانت زنزانته الصغيرة مرتبة دائماً وقد كدست الوثائق القانونية فوق

الخزانة فيما وضعت صناديق الكتب تحت السرير، وتمثال صنعه أحد السجناء، وصورة ملونة من مجلة «ناشينال جيوغرافيك» لامرأة من إحدى القبائل الإفريقية كان يقول مازحاً إنها ستثير غيرة ويني، وعندما كان السجناء الآخرون يأتون إلى زنزانته كان يقدم لهم «حلويات» من دكان السجن، بينما يكتفي هو بمضغ الخبز اليابس، كان يعرف الكثير عن السجناء الآخرين وقصص عائلاتهم، كما كان على اطلاع جيد بأحداث العالم التي تلت النضال في كوبة ونيكاراغوا وأماكن أخرى.[1]

ذهل مايكل دينغاك باهتمام مانديلا الدائم بحقوق الإنسان: «يوماً بيوم، بالإضافة إلى برامج منظمته، كانت لديه عدة مواعيد مع أفراد، ودائماً بمبادرة منه، لمناقشة العلاقات بين المنظمات، وشكاوى السجناء و(الاستراتيجيات) المشتركة ضد سلطات السجن، ومواضيع عامة».[2]

مازال مانديلا محافظاً على مسحة من التمرد العنيد والاستقلالية. وبمجرد أن همدت ثورات سويتو وأصبح جو السجن هادئاً نسبياً، اقترح مواجهة جديدة استفزازية. إذ قال إن سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتصرفوا بما يليق بقادة حركة؛ كأن يتحدوا أنظمة السجن، ويرفضوا الوقوف في حضرة السجانين أو أن يسمحوا لهم بمخاطبتهم بأسمائهم الأولى! فوجئ أصدقاؤه المقربون في القسم ب. ويذكر سيسولو أنه قال: «إن ذلك أمر غير مقبول وقد يؤدي إلى مجزرة»، كما عارضه كاثرادا أيضاً.[3] ولم يتفق مع مانديلا في الرأي سوى تويفو جاتويفو، قائد السوابو SWPO، وصديق مانديلا المخلص إيدي دانييلز، كما كان السجناء في الزنزانات العامة معارضين أيضاً حتى أن لالو تشيبا، الذي كان يحظى باحترام مانديلا، أعلن الإضراب عن الطعام احتجاجاً. وبعد أسبوع من النقاش الحاد، تخلى مانديلا عن الفكرة، مما أراح الجميع.[4]

في كل الأحوال كانت معاملة السجانين قد أصبحت أقل استفزازاً، فقد كانوا يبذلون جهوداً كبيرة بسبب عدد السجناء الجدد، وأصبحوا الآن أكثر

استرخاء. الغذاء أيضاً تحسن، وسمح للسجناء السياسيين بالعمل في المطابخ مما خفف تهريب الطعام. وسمح للإفريقيين الآن بالغذاء نفسه الذي يقدم للهنود والملونين، الذي تضمن ملعقة ونصف من السكر للإفطار. ما زالت تقارير الصليب الأحمر السرية تتضمن شكاوى كثيرة حول الغذاء، والرقابة، وعدم السماح بالاتصال بالمحامين، والسجانين المستفزين، والمعاملة التي لا تقيم وزناً لأحد، فقد كان السجناء الذين ليس لديهم أسنان غير قادرين على تناول وجبات الطعام، وأحد السجناء الذي رفض حلاقة ذقنه بسبب وجود حب الشباب قيد بسترة المجانين وحلقت ذقنه بالقوة.[5]

إلا أن الضغط الذي مارسه الصليب الأحمر وسواه بدأ يؤتي أكله. حيث أتيحت لكثير من السجناء فرصة الدراسة الجدية، وأصبحت جزيرة روبين تبدو أكثر شبهاً بجامعة صارمة ومتقشفة. وكان عشرات السجناء يتبعون دورات مع كلية المراسلة في جامعة جنوب إفريقية (UNISA)، وحصل بعضهم على عدة شهادات: فقد حاز كل من إيدي دانييلز وبيلي نير ومايكل دينغاك على شهادتين، فيما حاز كاثرادا على أربع شهادات. إلى جانب الدورات كان السجناء الكبار يقدمون حلقات بحث ومحاضرات، إضافة إلى التعليم الأساسي للمجندين الذي لديهم محو أمية فقط.

وقد اكتسب راكس سيخوا تعليمه كله في الجزيرة «كنا نكتب أبحاثاً عن أي شيء، ليس فقط في السياسة وإنما في الأدب والفن والرياضة والدين والفلسفة. وكانوا يستجيبون لأبحاثنا».[6] وقد قال مورفي موروبي إن الجزيرة «مرجل يغلي بالأفكار».[7]

كانوا يخرجون مسرحياتهم الخاصة. فقد حصلوا على نسخة من مسرحية بيكيت «بانتظار غودو» ومثلوها، متسائلين عن مقولتها بالنسبة لحركة التحرير. حيث تساءل مكاليبي، «هل يحاول المتشرد أن يقول لنا إن بإمكاننا أن نستمر في الأمل ضد الأمل؟».[8] وكان بإمكانهم مشاهدة أفلام قديمة غير سياسية مثل:

«الوصايا العشر، وأنا والملك، وكليوباترا» وأعجب مانديلا بإليزابيث تايلور في دور كليوباترا، برغم أن بعض الرفاق نقد كونها لا تشبه ملكة إفريقية. كما أحب مانديلا فيلم ماري ملكة الاسكتلنديين، حيث قامت فانيسا ريد غريف بدور ماري، وأدت غليندا جاكسون دور الملكة اليزابيث ورأى في الفيلم مدلولاً سياسياً فقال لابنته زيندزي: «إن الفيلم يلحظ نهاية عهد الإقطاع وبداية المرحلة الحالية من الإمبريالية».[9] وهناك فيلم آخر أدى إلى مزيد من النقاش السياسي هو فيلم«المتوحش» (الذي منع لفترة طويلة جداً في بريطانية) الذي يقوم مارلون براندو فيه بدور قائد لعصابة دراجات نارية غير قانونية. كان قادة المؤتمر الوطني الإفريقي ملتزمين جانب النظام والقانون، كما رأى كثير من الرفاق الشباب أصحاب الدراجات أشراراً، مثل عصابة الدراجات النارية في جنوب إفريقية البيضاء الذين كانوا يستمتعون بضرب السود.[10] لكن أحد الميالين إلى القتال في «الوعي الأسود»، وهو ستريني مودلي، أصر على أن أصحاب الدراجات كانوا يرمزون إلى روح التحدي في ثورة سويتو. لم يقتنع مانديلا بوجهة نظر أصحاب الدراجات، لكنه دافع عن رأي مودلي.[11]

وسمح لهم بشراء آلات موسيقية والعزف عليها. وقد قال توكيو سيكسويل الذي كان يعزف الغيتار الكلاسيكي إن السلطات لم تكن لتدرك أنها «بالسماح لنا بهذه الآلات إنما كانت تعطينا مجالاً آخر لمتابعة نضالنا. حيث كنا نغني أغاني ضد الأبارثيد». ويذكر خوانازي أنه استمع إلى غوفان مبيكي يعزف أغاني شعبية أفريقانية على الغيتار، وريف موثوبينغ يدندن لحناً لموزارت، ومانديلا يغني لهاندل «ولد لنا صبي» وهو يلوح بيديه مثل قائد أوركسترا.[12]

منع مانديلا من متابعة الدراسة رسمياً لمدة أربع سنوات. حتى عام 1980. ولكنه قبل ذلك، كان يمضي وقتاً أطول في المناقشة، وكتابة الرسائل، وتقديم النصح القانوني لزملائه، والعناية بحديقته، وقبل هذا وذاك القراءة

بنهم. كانت معظم الكتب الموجودة في مكتبة السجن تافهة، وعندما تبرع الصليب الأحمر بمبالغ لشراء ثلاثين كتاباً عام 1976، كان خمسة وعشرون من الكتب المشتراة من قبل سلطات السجن بقلم دافن دو مورييه.[13] لكن مانديلا وجد روايات أكثر جدية وسعت معرفته السياسية مثل روايات نادين غورديمر، ورواية «عناقيد الغضب» لشتاينبك، والكتاب الروس الكبار، الذين قدموا نظائر لجنوب إفريقية. وقد أعجب بروايات دوستويفسكي، لكنها خلفت لديه إحساساً بالكآبة، وفضل عليه تولستوي فقرأ الحرب والسلام، خلال ثلاثة أيام، وأرسل نسخة منها إلى ابنته زيني بمناسبة عيد ميلادها الحادي والعشرين. وأدرك أن تولستوي أكثر اهتماماً بالأرستقراطيين منه بعامة الناس، لكنه استمتع بهزئه بهم (الذي يقطر جواهر وسماً)، وشعر بشبه بينه وبين الجنرال كوتوزوف، الذي سمح لنابليون باحتلال موسكو، وبهذا حقق هزيمته، والذي كان يفهم الروح الروسية.[14]

كما قرأ مانديلا لكتاب أفارقة، كي يفهم لغتهم وحضارتهم. فاستمتع بشعر أوبرمان opperman وروايات لانجينهوفن Langenhoven. لكن قراءاته كانت بشكل رئيسي بالإنكليزية. وقد قرأ لديكنز والشعراء الإنكليز، ومن ضمنهم ووردثورث Wordthsworth وتينيسون Tennyson، وشيللي Shelley، مستعيداً ما تعلمه لدى البعثة التبشيرية، وقد كان قادراً على الاستشهاد بأبيات من قصيدة /إحياء لذكرى/ أو /النرجس البري/ . وأكثر ما كان يستمتع به هو المذكرات السياسية. وقد قال إريك مولوبي: «في الوقت الذي كان الرفاق يقرؤون /داس كابيتال/ (رأس المال) كان ماديبا يقرأ مذكرات الحرب لتشرشل، أو سيرة كينيدي أو فورستر». كان يحب مرح تشرشل وأسلوبه ـ الذي يشبه الموسيقى ـ. كما قرأ سيرة لينكولن وواشنطن وديزرائيلي وعدد من قادة حرب البوار ومنهم سموتز وكور دو لا ري Koos de la Rey، لكن الذي أثار إعجابه حقاً كان كريستيان دو ويت Christiaan de wet، الذي قاد ثورة

1914.[15] وفي الوقت الذي كانت فيه الحكومة الأفريقانية تتهم مانديلا بأنه شيوعي، لم يكن يقرأ لماركس وإنما لأبطال رجالها.

أصبح أكثر ارتياحاً للإنكليزية منه للكزوسية، مما أشعره بالأسف.[16] وكان يحتفظ بكتاب أوكسفورد للشعر الإنكليزي Oxford Book of English Verse قرب سريره، لكنه تشكى من أنه لم يكن لديه شيء للشعراء الكزوسيين «الذين عبروا عن تطلعاتي وأحلامي، والذين يحركون كبريائي الوطني، ويعطونني إحساساً بالمصير والمنجزات».[17] لكنه أكد أن «الثقافة الغربية لم تستطع أن تكشط انتمائي الإفريقي».[18]

بحلول عام 1977 شعرت الحكومة بالثقة بأن الجو مريح في الجزيرة إلى حد يسمح بدعوة خمسة وعشرين صحفياً من جنوب إفريقية لزيارتها، أملاً في أن ذلك سيسكت الشائعات حول المعاملة القاسية التي يتعرض لها السجناء السياسيون.[19] واصطحبهم الميجور جنرال جاني روكس Jannie Roux، نائب مدير السجون وهو طبيب نفسي متخصص في علم الجريمة. كان روكس دليلاً سياحياً مقنعاً، لكن السجناء كرهوا أن يطاردوا خلسة كما لو أنهم كبار الحيوانات في حديقة حيوان سياسية، وأخيراً لحظوا مانديلا يضع نظارة سوداء على عينيه ويعتمر قبعة عريضة لينة، ويحمل رفشاً يزيل به الأعشاب من ممر مفروش بالحصباء، لكنه اختبأ وراء أجمة لدى مرورهم. قال الجنرال روكس: «لقد حددنا لكم مكانه، لكنه لا يريد أن يراكم، ولن نجره إلى لقائكم». لاحقت الكاميرات مانديلا حول الأجمة، حيث (قالت جريدة الستار) «نظر إلى الدخلاء بوجه غير باسم، والرفش في يده، ثم انحنى ليقتلع عشبة». نظر مراسل رويترز داخل زنزانة مانديلا «حيث وجد كومة صغيرة من ثياب السجن مطوية بعناية قرب صورة لثلاثة أطفال صغار. وكان بين الكتب الإنجيل الإنكليزي الجديد New English Bible وتاريخ اقتصاد أوروبة، وقصص الرعب والألغاز».[20] تأثر الصحفيون بسهولة. حتى إن محرر ناتال ميركوري رأى أن

جزيرة روبين تدار «بطريقة إنسانية متنورة تضاهي أفضل المؤسسات القصاصية في العالم». [21] ولكن لم يسمح لأحد بالحديث مع أي من السجناء، ولم يكشف أحد أنه مضطر لأن يقدم تقريره إلى المفوض. [22] كان المراسلون الأجانب الذين لم يدعوا أكثر تشككاً. واحتج ماك ماهاراج، وهو في لندن الآن، إلى المجلس الصحفي البريطاني من سوء التغطية، وطلب من الصحافة أن تنشر وصفاً حقيقياً، ولكنه لم ينجح. [23]

بالرغم من جميع التحسينات فقد بقيت الظروف مثيرة للاشمئزاز وقد تسببت حياة الرهبنة، المنقطعة عن الزوجات والصديقات والأطفال بكثير من الضغوط النفسية. وقد قال سيسولو: «أنت تفتقد الأطفال أكثر من أي شيء آخر. فمجرد سماع صوت طفل يشعرك بالسعادة». [24] نيفيل ألكساندر مثلاً سمع صوت طفل مرة واحدة فقط خلال عشر سنوات: «وقفنا بلا حراك كلنا يرتقب اللحظة التي تقع فيها أعيننا على الطفل. ولكن ذلك لم يكن مسموحاً به طبعاً». [25] وقال ليكوتا: «أحياناً يخيم قلق مفاجئ بأن يموت واحدنا في جزيرة روبين دون أن يتاح له لمس طفل». [26] وكان كثير من السجناء القدامى، ومنهم مانديلا، يخشون أن أطفالهم لن يسامحوهم أبداً لغيابهم. وقد كتب ليكوتا إلى ابنته: «إن جل ما يخشونه هو أن يكبر أطفالهم وينظروا بمرارة واحتقار إلى نضال عزيز جداً على أنفسهم». [27]

وعام 1981 أضرب السجناء عن الطعام بإيحاء من بوبي ساندز من منظمة الايرا مطالبين، بين أشياء أخرى. أن يسمح بزيارات أطفالهم الصغار. حذرهم مانديلا من أن الواجب يفرض عليهم البقاء والحفاظ على ملكاتهم الذهنية وحماية السجناء الأكثر ضعفاً. [28] إلا أنه انضم إلى الإضراب، الذي استمر ستة أيام. وأخيراً تم التفاوض على اتفاق تضمن السماح للأطفال اعتباراً من عمر ثلاث سنوات بزيارة الجزيرة. [29]

أفسحت حياة الرهبنة المجال أمام التعليم المكثف والنقاش. فقد طور

كثير من القادة السياسيين الآخرين، من جواهرلال نهرو في الهند إلى روبرت موغابي في روديسية وحتى ثوار جيش إيرلندة الجمهوري في إيرلندة الشمالية، طوروا نظرياتهم السياسية في السجن. لكن جزيرة روبين، التي تزخر بمئات السجناء السياسيين الذين يقضون أحكاماً طويلة الأمد، أتاحت فرصة أكبر لشحذ أفكارهم السياسية بالمناقشة (الديالكتيكية) والجدل (البوليمي)، وأن يضعوا النضال ضمن مضمون أوسع. كان أشبه بدورة مديدة في جامعة يسارية نائية. وقد أدت العزلة والورطة المشتركة التي يعاني منها السجناء، حيث لا مجال للاستهلاك أو الإثراء أو الدهماوية (استغلال الاستياء الاجتماعي لاكتساب نفوذ سياسي. المترجمة) أدت إلى تشجيع المثالية والمساواتية، وطورت رهافة حس إنسانية ومواقف اشتراكية. لكن الجزيرة كانت لها محدوديتها كمدرسة للحكم العملي. كما حفظت كثيراً من براءة وسذاجة من لا حول له ولا قوة. وليس لديه سوى خبرة بسيطة بتعقيدات الإدارة، وعوائق (بيروقراطيات) الدولة أو أخطار الفساد، لقد شجعت النظرية أكثر من التطبيق. في هذا الجو الجامعي المتسائل، سرعان ما تعرض مانديلا لتحدٍّ، فقد كان كثير من الرفاق الشباب ماركسيين أقحاح عندما وصلوا، يغذيهم وصول حكومات شيوعية إلى سدة الحكم في موزامبيق وأنغولا، وبما يروى عن أوروبة الشرقية وكوبة والاتحاد السوفيتي. وقد كان بعضهم بريئاً وساذجاً إلى حد يثير الدهشة حتى أن كاثرادا سئل مرة: «أصحيح أن الناس يصابون بنزلات البرد في روسية؟». [30] إلا أنهم رأوا إيمانهم بالماركسية الثورية مبرراً في جنوب إفريقية بالحكومة الفاشية وبالتواطؤ الجلي بين الرأسماليين والأبارثيد، والتراث الطويل من الأبطال الشيوعيين من جميع الأعراق، من موسى كوتاني إلى يوسف دادو إلى برام فيشر. في الجزيرة كان يحركهم الستاليني العريق هاري غوالا الذي انضم، بعد أن أنهى فترة عقوبته عام 1973، إلى شبكة سرية لتجنيد مقاتلين في سهم الأمة (إم. كي). وتنظيم الإضرابات، فألقي القبض عليه ثانية عام 1975 وصدر بحقه

حكم بالسجن مدى الحياة في الجزيرة عام 1977. عاد أكثر عنفاً وتوهجاً من أي وقت مضى. واستقطب الرفاق الشباب بخطابته. وقد قال ثامي خوانازي: «كنا نحتشد يومياً في زنزانته الصغيرة، نحلل جميع النزاعات السياسية في العالم. وكلما كان غوالا يزأر كان الأسود الصغار يزأرون معه».[31] وقال بيلي نير: «كان كاتباً جيداً، وماركسياً جيداً يتمتع بذاكرة رائعة. لكنه كان متشدداً ويطرح الأمور من زاوية طائفية متعصبة. وقد حبب نفسه إلى الشباب. ولم يتردد في أن يضرب أحداً، أو أن يتهجم على ماديبا».[32] وقال إريك مولوبي إنه كان: «الرجل الأوسع اطلاعاً فيمن عرفت. كان يعرف جميع التفاصيل حول المؤتمرين الثاني والثالث للشيوعية الدولية. ولم يخف أنه يتحدى مانديلا».[33]

رأى غوالا في نفسه حامياً للشعلة الثورية الحقيقية من الإصلاحيين البرجوازيين. وقال فيما بعد:[34] «لم يكن هناك أي سبيل لتسوية الخلافات الأيديولوجية وكان مصمماً على تحقيق ديمقراطية عمالية حقيقية في جنوب إفريقية، تسيِّر وسائل الإنتاج، فعندما قال ميثاق الحرية: «إن الشعب هو الذي سيحكم» كان يعني أن العمال يجب أن يحكموا. وقال خوانازي «إنه كان يرقب بعين النسر قيادة قضية ريفونية غير الشيوعية. وكان مستعداً للنباح في وجه أية حركة تبدو بأنها تهدد حلمه».[35]

فيما بعد سيمدح مانديلا غوالا لكونه «نصير النضال»، إلا أن سيسولو سينتقده علناً لأنه «ستاليني حقيقي صاحب نظرة ضيقة. كان يحلل تحليلاً خاطئاً. وأكثر الشباب الذين انتحوا جهة اليسار المتطرف سيتبعونه».[36] رأى الماركسيون أن الجزيرة تقدم فرصة نادرة للتعليم السياسي. وقد قال غوالا: «كان هناك حاجة صارخة لنظرية تفسر العالم تفسيراً صحيحاً. هذه النظرية كانت نظرية العمل كما طرحها ماركس وأنغلز وطورها لينين».

في البداية لم يكن لدى المناهضين الشباب وقت «المخطوطات ماركس وأنغلز التي يعلوها الغبار»، كما تذمر غوفان مبيكي، ولم يكن لديهم معلومات

جيدة عن المؤتمر الوطني الإفريقي أو الحزب الشيوعي.[37] إلا أن مبيكي وغوالا وسواهما كانوا مصممين على تعليمهم. وكانت الدروس السياسية تُعْطَىٰ سراً، أحياناً بينما السجناء يسيرون في باحة الرياضة، وقد تمكنوا من اختلاس نسخة من /رأس المال/ من المكتبة، وقام فريق بنسخها أثناء الليل.[38] وكان /الناطق الأعلى/ قد جهز /المنهج آ/ الذي يضم تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي، ودورة مطالعة ذكر مبيكي بأنها ستستغرق ثلاث سنوات لتكتمل تماماً.[39] /المنهج ب/ كان يحتوي على تاريخ المجتمع الإنساني متأثراً تأثراً كبيراً بماركس وأنغلز.

أضرمت عودة غوالا إلى الجزيرة عام 1977 نار جولة جديدة حامية الوطيس من النقاش بين الماركسيين الأقحاح والوطنيين ـ كما كانوا يسمون جماعة مانديلا ـ لم تظهر تفاصيلها ووثائقها إلا مؤخراً. وضع غوالا مع المناهضين الشباب في القسم E، الذي سمي /قسم راجمي الحجارة/ وأصبح مرتعاً للماركسية وقال واحد منهم، وهو ناليدي تسيكي: «كان أشبه بالجمهورية السوفيتية في جنوب إفريقية».[40] وكان غوالا ينادي باستمرار «بالاستيلاء على السلطة» ـ نداء المعركة بالنسبة للمقاتلين الفدائيين ـ الذي يتطلب انتصاراً عسكرياً حاسماً، كما في كوبة. بالمقابل كان مانديلا دائماً يرى الكفاح المسلح وسيلة لإجبار الحكومة على الجلوس إلى طاولة المفاوضات.[41] كان نقاشاً غاضباً قال سيسولو: «إن الشباب أصبحوا أكثر حماسة حيال موضوع الاستيلاء على السلطة. وأية شكوك حول ذلك كانت تخلق المتاعب بالنسبة إليهم، برغم الاحترام الكبير الذي يكنونه للقيادة. ولأننا كنا حازمين، وفحصنا الوضع، فقد تمكنا من البقاء على خطنا. الخطر الأكبر كان في محاولة المستحيل، وأن نهزم تماماً، وأن تدمر البلاد».[42]

الموضوع الأكثر أهمية كان العلاقة بين المؤتمريين والماركسيين، الذي أعاد طرح جميع النقاشات التي ثارت حول ميثاق الحرية قبل عشرين سنة. كان

مانديلا دائماً يرى المؤتمر الوطني الإفريقي حزباً وطنياً محدداً، له تاريخه الفخور الخاص وسياساته التي «ترحب بكل من يسعى إلى الأهداف نفسها». [43] لكن غوالا وغوفان مبيكي كانا يعتبران الحزب الشيوعي قوة مهيمنة، تزداد اقتراباً من المؤتمر الوطني الإفريقي: حتى أن غوالا أراد أن يستبدل بالنشيد الرسمي للمؤتمر الوطني الإفريقي «نكوسي سيكيليل ايافريقية» «النشيد الدولي». كان إريك مولوبي يظن «أنه يرى المؤتمر الوطني الإفريقي راكباً سيغادر المركب قبل الثورة». [44]

لم تكن هناك مواجهة مباشرة بين الشيوعيين والمعادين للشيوعية، أو بين الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي والمؤتمر الوطني الإفريقي. ويعتقد كثير من الأعضاء الموالين سابقاً للحزب الشيوعي الجنوب إفريقي، مثل ماهاراج وكاثرادا بأولوية المؤتمر الوطني الإفريقي، فيما كان المؤتمر الوطني الإفريقي نسيجاً من خيوط مختلفة عديدة تتضمن المسيحيين والمسلمين والنقابات وصغار رجال الأعمال والأكاديميين. كما أنه لم يكن شقاً عرقياً فقد أدخل المؤتمر الوطني الإفريقي منذ 1969 شيوعيين غير إفريقيين مثل جو سلوفو (مما دفع بعض الإفريقيين الأقحاح إلى الانسحاب إلى المؤتمر الإفريقي العام، وميثاق الشعب الأسود BPC) في حين جعل وجود بعض القادة الملونين والهنود الشجعان في الجزيرة من الصعوبة بمكان متابعة النقاشات العرقية. فقد كان الموضوع الحقيقي هو تكاثف الماركسية حيث وقف الشيوعيون المتشددون ضد أي تخفيف لمبادئ الماركسية وسيطرة العمال.

ثار النقاش بين السجناء الثلاثين في القسم ب عند مانديلا، وتبادل المعسكران المتنافسان الوثائق أو / الجدل/ حيث حددت الوثيقة ب1 الموقف الذي يفضله مانديلا من أن ميثاق الحرية كان دائماً يتطلع إلى ترسيخ أسس «ديمقراطية برجوازية» يمكنها أن تكون مقدمة لدولة اشتراكية كما في أوروبة، ولكن في هذه الأثناء يترتب على الكونغرس أن يحارب على أوسع جبهة ممكنة

ضد الحواجز العرقية، قبل أن يحارب ضد الرأسمالية.[45] الوثيقة ب2 مضت إلى أبعد من ذلك، فوكدت على أن الكونغرس عبارة عن جبهة وطنية، وليس حزباً، ويجب أن يعمل جنباً إلى جنب مع جميع أعداء الفاشية، ومن ضمنهم المؤتمر الإفريقي العام والجماعات الجديدة التي تتضمن حركة الزولو انكاثا Inkatha والوعي الأسود. كتب المؤلف: «لا أعتقد أن بوسعنا تحمل التصنيف الميتافيزيقي المتكبر للأعداء الثابتين والأصدقاء الثابتين».[46] إلا أن الوثيقة ب3 من الجانب الماركسي، التي أظهرت التأثير الواضح لغوفان مبيكي، أصرت على أن ميثاق الحرية يمثل العمال المضطهدين في مواجهة الطبقة الرأسمالية البيضاء.[47]

كان مبيكي دائماً معارضاً حاداً لقيام جبهة واسعة ضد الأبارثيد، وأصر على أن الاضطهاد العرقي يولد من النزاع الطبقي وأن ما يسمى بالحلفاء مثل (الوعي الأسود) كانوا في الحقيقة مرتبطين «بقوى إمبريالية واسعة الانتشار»، وأنكر أن السود يمكن أن يستفيدوا من الرأسمالية، وعارض مفهوم مانديلا أيما معارضة في مقالته عام 1956 في (الليبريشين) التي أصبحت مشهورة الآن. بأن الاستثمار الحر في إفريقية بعد الانتصار «سيزدهر كما لم يكن في أي وقت مضى». وأراد أن يسمع آراء منافسة من أقسام أخرى، تبعاً لمبدأ ماو المعلن: «فلتتفتح ألف زهرة».[48] طرح القادة في قسم مانديلا آراءهم في وثيقة أعطيت رمز Inq-M حيث Inq (بمعنى أولاً) ترمز إلى حركة الكونغرس، وM (اختصاراً للماركسية) ترمز إلى الحزب الشيوعي، جاء فيها أن النضال المباشر كان ضد الاضطهاد العرقي، وليس ضد الرأسمالية، وأنه لم يكن يعتمد على ماركس وإنما على ميثاق الحرية، الذي وعد بنظام (ديموقراطي) يستطيع الشيوعيون من خلاله طرح سياساتهم الخاصة.[49]

عند ذلك وسعت / الهيئة العليا/ في قسم مانديلا النقاش إلى زنزانات أخرى. لم يكن يفترض فيهم اتصال بعضهم ببعض، لكن السجناء نسخوا

النصوص بخط صغير جداً على قصاصات من الورق، سربوها بين الزنزانات، وهم يراقبون السجانين كالنسور «إن لهم عدداً من العيون والآذان يفوق ما لدى سلطات السجن».[50]

كان كاثرادا، الذي عين أميناً للمكتبة، قادراً على التنقل بين الزنزانات حاملاً كتبه. وقد سألته مجموعة من المناهضين الشبان «ما هي الديمقراطية الشعبية؟». ساعد السؤال في إطلاق أشرس نقاش.[51] كانت الكتب هي الذخيرة في حرب الأفكار. وقد قال ميبكي: «إذا وضعنا أيدينا على أي كتاب، مهما كان سميكاً، كان ينسخ ويوزع على أعضائنا في الغرف المتعددة».[52]

انطلق النقاش عبر الزنزانات العامة، وقد ضخمه هاري غوالا، وتابعه رفاقه الشباب المناهضون، الذين لديهم خبرة بالأرض الأم أحدث مما لدى المحاربين القدماء، الذين سرعان ما شعروا بأن تلك المزية تنقصهم. وقد قال كاثرادا: «لم يكن لدينا ذخيرة كافية، كنا نقلب الأرض عن كل ما يمكن أن نجد».[53] وتذمر المناهضون من أن Inq-M كانت مضللة تماماً ولا علاقة لها بالوقت الحالي فقد تغيرت جنوب إفريقية كثيراً خلال العقد الماضي، بينما كان المحاربون القدماء في السجن. وقد أسهمت المخازن الكبيرة والأسواق الضخمة والمؤسسات السلسلية في طمس وجود المقاولين الصغار. وكانت الشركات الاحتكارية الكبيرة تتخلص من الطبقة الوسطى بشرائها، والصناعات تقلب الفلاحة إلى بروليتارية ريفية، وحتى البيض بدؤوا يزاحون عن ملكية الصناعات وبيوت المال. نتيجة لذلك، قال الماركسيون: إن معظم جنوب إفريقية قد اتجهت نحو اليسار السياسي، ورفضت الإمبريالية الآن، وفي أجزاء أخرى من إفريقية كانت الشيوعية تمتد وتسيطر على الحكومات في أنغولا وموزامبيق، وتحرض قوى الثورة في زيمبابوي وناميبيا. وقالوا: إن الأبارثيد حركة فاشية، داخل جنوب إفريقية، تهدد جميع القيم (الديمقراطية) لذلك يجب أن تواجه (بديمقراطية) شعبية، وليس (ديمقراطية بورجوازية). واقتبسوا

عن جريدة /سيشابا/ لسان حال المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، قولها عام 1969: «غداة الثورة الظافرة سينادى بجمهورية شعبية ديمقراطية».[54]

كان مانديلا قلقاً حيال الحدة المتنامية بين السجناء. وكان دائماً يشجع على الحوار لكن المناقشات كانت تزداد توتراً. وفي قسمه هو لم تكن علاقته مع مبيكي تسمح حتى بالكلام، وأحياناً سيسولو يقوم بدور صانع السلام.[55] وكان التوتر ينتشر في الزنزانات. حيث قال راكس سينخوا: «كثيراً ما يكون النقاش حاراً لكنه أحياناً يصبح بشعاً جداً. وفي المستويات المتدنية».[56] كان مانديلا دائماً يرى أن دوره في السجن هو التهيئة للوحدة سواء بين المجلسين أو بين الأحزاب وقد قال سيسولو عنه: «كان دائماً يحاول أن يكون بناء، فيبتعد عن التعبير عن مشاعره، وكان يفضل صورة متوازنة[57]، لكنه كان الآن بحاجة ماسة إلى الحفاظ على التوازن.

وأخيراً طلب إلى كاثرادا أن يكتب خلاصة للنقاشات ليحاول التوصل إلى إجماع. فقدم وثيقة متقنة الإعداد تتألف من إحدى وعشرين من الصفحات المحشوة. بدأت الوثيقة بالترحيب «بالثوار المتحمسين بين صفوفنا». وامتدحت جاهزية معرفة الرفاق واعترفت بتواضع أن Inq-M تضمنت أخطاء واضطراباً نجم عن عزلة السجناء في القسم ب. وأعادت الوثيقة التوكيد على أن المؤتمر (الكونغرس) كان يقود النضال الوطني، فيما يقود الحزب الشيوعي النضال الطبقي، وأن أساليب المؤتمر الوطني الإفريقي ستقررها الأحوال الواقعية داخل جنوب إفريقية، وأن ميثاق الحرية يستطيع في ظروف معنية أن يقدم «قفزة نوعية نحو الاشتراكية». ولكنه في هذه الأثناء يفسح المجال أمام المشاركة في السلطة بين جميع الطبقات والجماعات التي دعمت النضال، كما يسمح للإفريقيين بامتلاك الأرض والمصانع والتجارة، كما جاء في مقالة مانديلا في صحيفة (ليبريشين) التي، أكدت الوثيقة، أنها تعبر عن آراء هيئة العاملين في الصحيفة جميعاً.

حاولت وثيقة كاثرادا أن ترطب الآمال الأكثر ثورية للرفاق القادمين من ساحات المعارك. وحذرت الوثيقة من أن جنوب إفريقية لم تكن جاهزة بعد لإحلال دولة عمال محل الرأسمالية. كانت الطبقة الوسطى السوداء المتنامية تستثمر في الإيجارات الطويلة الأمد والسيارات، مما سيجعلهم أقرب إلى المحافظين وأبعد عن السياسة. وقد كان نضال جنوب إفريقية مختلفاً تماماً عن ثورات أوروبة الشرقية حيث أطاحت الأحزاب الشيوعية بالنازية بمساعدة الجيش الأحمر ولم يقل المؤتمران (الكونغرسان) إنهما يؤازران ديكتاتورية البروليتارية. وشجعت الوثيقة الرفاق على دراسة الثورات والماركسية، التي يمكنها (حسب قول مانديلا) أن تعمل كمصباح كهربائي قوي في نفق معتم، لكن الوثيقة أكدت أيضاً أنه «إذا أردنا استغلال وطنية الناس استغلالاً كاملاً علينا أولاً أن نتخلى عن أولوياتنا».

> أُمِرّت وثيقة كاثرادا إلى الأقسام الأخرى مرفقة بملاحظة خطت بيد مانديلا تقول: «هذه الوثيقة حظيت بالموافقة الجماعية للهيئة العليا، ونحن نرسلها إليكم الآن لتكون موضع اهتمامكم. كما أننا نعممها أيضاً على الأعضاء هنا. وفي حال وجود أية تعليقات إضافية، سنحضر ملحقاً ونوجهه إليكم في الوقت الملائم».
> أماندلا![58]

اعترض السجانون الوثيقة وهي في طريقها إلى زنزانة توكيوسيكسويل. والغريب أنه لم تفرض أية عقوبة! ولم يكن هناك أي تعليق عليها. إلا أن المصالحة العامة بين الجانبين خففت حدة التوتر، كما لاحظ سجناء في زنزانات أخرى. وقد قال سوني فينكاراثنام Sonny Venkatrathnam فجأة عام 1978 «كان نيلسون وغوفان يسيران ويتحدثان. وكان ذلك المنظر غريباً بالنسبة إلينا».[59] يصر غوفان مبيكي على أنه لم يكن هناك أي تحد لسلطة مانديلا. وقد كتب فيما بعد: «كان القرار قد اتخذ من قبل الهيئة العليا بأن نيلسون سيكون الناطق باسمنا. واستمر في ذلك الموقع إلى أن افترقنا عام 1982».[60]

برغم المناقشات الحادة كانت جزيرة روبين تكتسب روحاً خاصة من التحمل والانضباط. واكتسب كثير من الثوار الشباب عادة ضبط النفس من السجناء القدامى، كما اكتسبوا روح العمل الجماعي والنقاش المنطقي، الذي أصبح سمة مميزة لشاغلي جزيرة روبين الذين سيمارسون فيما بعد نفوذاً من ذلك القبيل في جنوب إفريقية الجديدة. أما من وجهة النظر الغربية فقد بدا كأن النظام العسكري وصحبة الحرس أو النقطة الغربية قد اجتمعت مع الواقع الثقافي لأوكسفورد أو بال والقناعة الأخلاقية للمقاومة الفرنسية إبان الحرب. كما كان هناك عامل إفريقي هو /الأوبونتو/ فيما يتعلق بالعلاقات الإنسانية: «الإنسان إنسان بفضل الناس الآخرين». وذاك رأي كانت تشارك فيه الأعراق الأخرى. ولطالما فكر كاثرادا بأبيات أوسكار وايلد:

أسوأ الأعشاب، كالأعشاب السامة

تنمو وتترعرع في جو السجن،

ولا شيء يذوي هناك

كما تذوي الطيبة في الإنسان.[61]

قال كاثرادا: «ذاك لم ينطبق على تجربتي بل على العكس لقد تعلمت كثيراً عن العلاقات الإنسانية عندما كنت في السجن. فالسجناء السياسيون عموماً لديهم طرح إيجابي ينجدهم».[62]

ستبقى روح الانضباط الذاتي والتحمل مزدهرة بعد أن غادر مانديلا الجزيرة عام 1982. وقد قال إريك مولوبي: «كنا نشترك في نظرتنا إلى التسامح، لأن مستوى النقاش، بالمنطق والأفكار، كان عالياً جداً. ولم أشهد ثانية الكثافة نفسها في النقاش».[63] لقد طور معاصرو مانديلا انضباطاً وصبراً مماثلين. لكن مانديلا نفسه كان النموذج الرئيسي مضيفاً سلطته الشخصية وإصراره إلى المصالحة، المبنية على القوة، فبعد كل تضحياته ومجابهاته الصريحة، كان يصعب أن تتخيله في لبوس الخائن.

سيحتفظ خريجو السجن بالروح نفسها، أوجلّها، بعد أن غادروا السجن. وعندما وجه تيرور ليكوتا بنكساته كمستجد في الحكومة كان يعود إلى الجزيرة ليستعيد جو التمعن والمصالحة.[64] وقد قال راكس سينخوا: «أستطيع أن أميز أهالي جزيرة روبين على بعد ميل. فعندما يجدون أنفسهم في نزاع فإنهم يتميزون بضبط الغضب ثم تفريغه. وأنا سعيد جداً بهذا. فقد كان له أثر واضح على حالات الصدام، بما فيها حياتي الأسرية».[65]

بقي مانديلا النموذج المثالي لضبط النفس هذا. وكان حضوره يشع سلطة. وما زالت بنيته الجسمانية رائعة وهو يقترب من عامه الستين بمساعدة تمارين الصباح الباكر المنشطة. وقد زاره طبيب أسرته نثاتو موتلانا عام 1976 في ظروف شاقة، وحُذر من أنه ممنوع من التطرق إلى السياسة، وعندما بدأ الحديث عن الملاكمة ومحمد علي، سارع السجان وأخبره أن الحديث يجب أن يكون عن العائلة فحسب. وقال موتلانا فيما بعد: «كانت أكثر ساعتين عشتهما بؤساً، وعندما انتهت الزيارة أعتقد أن السيد مانديلا كان سعيداً بالذهاب». لكنه وجد صحته جيدة جودة مذهلة، ونظامه الغذائي مع أنه كئيب، إلا أنه يؤمن المتطلبات الأساسية. ووصف مانديلا فيما بعد بأنه «قوي. . قوي. . لولا بضع شعرات رمادية لكان نيل نفسه الذي عرفته لسنوات طويلة. أبهة تامة، تليق بزعيم كزوسي كبير، وصحة رائعة، عقلياً وجسدياً».[66]

في العام التالي، أعجب بريسيللا جانا، محامي الأسرة، «ببنية مانديلا الرائعة» وتمكنه من القانون، «لم يمارس المحاماة منذ خمس عشرة سنة، ولكن لا بد لي من القول إنه يعلق على الوثائق كمحام. وهذا كان مذهلاً، دون أن يترك العاطفة تؤثر عليه مهما يكن». وبدل أن يسأل عن زوجه وأطفاله سأل عن: «شعبي» وطلب من جانا دون أن يسمع السجانون: «قل لهم إن الأمل موجود، ولن يطول الأمر، ويجب أن يعرفوا أني ما زلت معهم».[67]

ولكن كانت هناك إنذارات بين وقت وآخر حول صحة مانديلا. وقد رآه

مفتشو الصليب الأحمر أثناء زيارتهم السنوية في آذار (مارس) 1977، وكان معهم طبيب، أفاد بأنه: «بدا متوعكاً، بطيئاً في الحديث وفي جميع حركاته. ضغط دمه180/ 100، ونبضه 78/ دقيقة وبعد إعطائه 2 ملغ فاليوم تحت اللسان بدا بحالة أفضل وزالت الآلام». عاده الطبيب ثانية في اليوم التالي. وكان يبدو بحالة جيدة ويشعر بانتعاش أكبر. ولم يعد يعاني من أية آلام لكنه ما زال متعباً. خرج الصليب الأحمر بانطباع أن «السيد مانديلا لا يحب أن يشتكي من صحته ويجب إبقاءه تحت مراقبة دقيقة».[68]

كان مانديلا يستهين بالتوعكات البسيطة. وقد قال لاحقاً: «أنا لا أومن كثيراً بالطب». وأضاف أن طبيبه موتلانا كذلك أيضاً.[69] ولكنه أحياناً يكون رواقياً جداً (يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة. المترجمة). وذات مرة كان يقتلع الخيزران على الشاطئ فزلقت قدمه ووقع وأصيبت ركبته وتورمت. وقال له الطبيب الإخصائي ألا يسمح للألم أن يتغلب عليه، وقال: «امش عليها وهذا كل ما في الأمر». «بقي يعرج لفترة طويلة ثم اختفى الألم، لكن الركبة لم تشف تماماً، وستسبب له متاعب كبيرة بعد خمس وعشرين سنة».[70]

عام 1979 اكتشف أن فيروساً «كان يأكل عيني»، ولكنه اختفى بعد أن راجع إخصائياً. فقال لويني: «المخلوق المسكين ليست لديه أية فكرة عن قوة إرادة الحياة لدي». وفي العام نفسه، بينما كان يلعب كرة المضرب شعر بألم مفاجئ في عقبه، أعطي عناية طبية عاجلة. وعلق ساخراً أن سلطات السجن خشيت أن يموت في السجن. فنقل إلى كيب تاون، مكبَّل اليدين ومحاطاً بالسجانين في رحلة بحرية عاصفة (قال لويني): «بدت وكأن جيشاً من العفاريت كان في حالة هياج».[71] أزال جراح شاب شظية عظمية تعود إلى أيام فورت هير، وأصر على بقائه في المستشفى حتى اليوم التالي، حيث استمتع بعناية

الممرضات البيض وجو المساواة العرقية. وخلص إلى أن «العلم لا يتسع للعنصرية». [72]

في 18 تموز (يوليو) 1978 احتفل مانديلا بعيد ميلاده الستين، حيث ألقيت خطابات من قبل رفاق مثل سيسولو وكاثرادا. ولم يصله سوى ثماني رسائل من الأسرة والأصدقاء. واحدة من ابن غوفان مبيكي (ثابو)، لم يستطع أن يرد عليها بأمان، وأخرى من الزعيم مانغوسوثو بوثيليزي، الذي كتب له رداً دافئاً تذكر فيه لقاءاتهما الودية عام1960 وقال إنه يشعر كأن عمره ثلاثون عاماً. [73]

تردد صدى عيد ميلاد مانديلا في جميع أرجاء العالم. ولم يسمح لويني أن تزوره، إلا أنها كانت الناطق باسمه أكثر من أي وقت مضى، فقدمت صورة الزوج الملتزمة والناشطة التي طالت معاناتها. وقد قالت للنيويورك تايمز: «إنه منتصب القامة، وفخور كما كان يوم اعتقل، أوه. . إنه ملائكي». وتلقت أكواماً من رسائل التهنئة بعيد ميلاده من حكومات وأفراد في الخارج، كان وراءها إي. أس، ريدي E.S. Reddy من اللجنة الخاصة بالأبارثيد في الأمم المتحدة. الذي نادى بالاحتفال بالمناسبة. [74] من بريطانية أرسل دعاة الحملة ضد الأبارثيد عشرات الآلاف من بطاقات عيد الميلاد (لم يصل أي منها) «ونادت جريدة التايمز اللندنية بمانديلا رمزاً للقومية الإفريقية». [75]

عام 1980 سمح لمانديلا أخيراً بمتابعة دورة بكالوريوس في الحقوق (LLB) في جامعة لندن، بعد أن عُلقت قبل أربع سنوات. وقال لويني إنه ينوي أن يتناول فلسفة التشريع، والقانون الدولي، والقانون الإفريقي والقانون التجاري أو القانون العائلي، وقال إنه سيسجل الرقم القياسي للدراسات الطويلة الأمد. [76] ووصله تقدير غير متوقع من الجامعة نفسها في العام التالي عندما اقترحه الطلاب مرشحاً لرئاسة الجامعة. قال لويني إنه لا يتوقع أن يحصل على مئة صوت، لكنه في النهاية حصل على سبعة آلاف صوت. وخسر أمام الأميرة

آن، التي يدعمها الطلاب التقليديون والأكاديميون، بدفع من اللورد أنان نائب الرئيس. لكنه استمتع بالمنافسة الملكية الطويلة الأمد التي اعتقد أنها ستلهم ويني في بيتها الصغير في براد فورد «لتقلب الكوخ إلى قلعة، وتجعل غرفه الضيقة رحبة كقاعات ويندسور». [77]

صار مانديلا الآن يتلقى مزيداً من الأخبار عن العالم الخارجي، فبحلول شباط (فبراير) 1978 سمح للسجناء بسماع أشرطة تسجيل مختارة من أخبار إذاعة جنوب إفريقية، مع أنها ما زالت خاضعة لرقابة مشددة. وقد كتب مانديلا إلى أحد الأصدقاء بأن: «السياسة العامة المتبعة ما زالت تقضي بعزلنا جسداً وروحاً عن العالم الخارجي». [78] ولكنه، على الأقل، في أيلول (سبتمبر) 1980، استطاع أن يحصل على سلعته المهربة الأغلى ثمناً وهي الصحف. فقد سمح للسجناء بالحصول على جريدة كيب تايمز والجريدة الأفريقانية دي بيرغر، ثم فيما بعد على جوهانسبورغ ستار، وراند ديلي ميل والصنداي تايمز الجوهانسبورغية، لكن الصحف كانت مليئة بالثقوب التي قصها الرقيب فوجد التغطية الإخبارية ناقصة* وقد قال مانديلا للدكتور موتلانا: «لدي فكرة موجزة عما يحدث في البلاد وفي العالم. ففي بعض الأحيان تكون التغطية الصحفية جيدة جداً، وكانت بعض الافتتاحيات والمقالات الرئيسية موضوعية وجريئة لحد ما. ولكن في معظم الأحيان كانت أفضل الافتتاحيات والتحليلات تترك كثيراً من التساؤلات الوثيقة الصلة بالموضوع بلا جواب. فالجزء الأكبر والأكثر حسماً في عملنا السياسي يتم في الخفاء أو من وراء الستار. ووسائل الإعلام عموماً لا تدري به». [79]

كان مانديلا نفسه يتعلم دروساً أوسع في جامعة جزيرة روبين. ولما كان دائماً يقظاً إزاء السجناء الآخرين، فقد أصبح أرهف إحساساً لتحفظات الآخرين

(*) بعض الجماعات المتشددة كانت تفرض رقابتها الخاصة فقد منع هاري غوالا السجناء في =

وشعورهم بعدم الأمان؛ مثل مدير تجاري تعرض «للتدريب في رهافة الحس». امتد سنوات. فبدا أقل غروراً، ولم يعد الزعيم (الأوتوقراطي)، وإنما (الديمقراطي) المرن الذي يستطيع أن يستمع ويسجل ملاحظات عن رأي الأكثرية. وقال لماهاراج إن الأساس الوحيد لتركه سيكون التخلي عن النضال ضد الأبارثيد.[80] ولكنه كان دائماً يحاول الاتصال بجماعات أخرى ليجد أرضية مشتركة ضمن إطار الأمة.

كان يمد يده إلى الأفارقة قبل الجميع، إذ كان السجانون ـ وهم البيض الوحيدون في الجزيرة ـ يمثلون الهيمنة العنصرية في صورتها المطلقة. لكن مانديلا كان قادراً على أن يراهم أفراداً يستطيع التواصل معهم، ويستطيعون أن يعلموه ما هي الأفريقانية. وحث زملاءه على محاولة فهم الأفارقة، لغتهم، وثقافتهم. وفي مقالته التي لم تنشر بعد عن /الوعي الأسود/ التي كتبهاعام 1978 ذكرهم بأن جهل المؤتمر الوطني الإفريقي السابق بالأفارقة واحتقاره لهم أعطاهم ثقة كبيرة جداً. وحذر من أن «الرجال الإنكليز السود» بتعليمهم الليبرالي قد يكونون على استعداد للتأثر بالإنكليز «الذين لديهم أسبابهم الخاصة لاحتقار الأفارقة». وببعد نظر ملحوظ، تطلع، بعد سنتين من ثورة سويتو نحو مستقبل مختلف تماماً: «اليوم يوجد في جنوب إفريقية حوالي ثلاثة ملايين أفريقاني لن يكونوا طغاة بعد التحرير وإنما أقلية قوية من المواطنين العاديين، الذين ستدعو الحاجة إلى تعاونهم وحسن نيتهم من أجل إعادة بناء البلاد».[82]

كانت الحكومة الأفريقانية في بريتورية تتلقى تقارير سرية من سلطات السجن تعطي تقييماً لشخصية مانديلا . وفي حزيران (يونيو) 1980 تحدث جاني روكس Jannie Roux ـ نائب مفوض السجون الذي أجرى عدة محادثات مع مانديلا ـ معه لمدة ساعتين ونصف، باهتمام خاص بعد المطالبة بإطلاق

= قسمه من قراءة الصفحة الأخيرة النسائية في جريدة صنداي تايمز الجوهانسبورغية.[81]

سراحه. أفاد روكس بأن مانديلا اعترض بشدة على أنه «اعترف بأنه شيوعي» كما قال رئيس الوزراء بي. دبليو. بوثان برغم أنه يجهر بمعارضته للرأسمالية، والملكية الخاصة للأرض وسلطة رأس المال. وأنه متأثر بالتعليم السوفيتي. وبدا أنه يرى أن المكان يتسع للسكان البيض في جنوب إفريقية القادمة، دون أن يمسكوا بزمام السلطة السياسية. وهو يفكر بمرحلة انتقالية مدتها خمس سنوات يعتادون خلالها على انتقال السلطة. إلا أنه يفهم تحذير روكس من أن البيض لن يذعنوا ببساطة. وكتب روكس: «يبدو أن طريقة تفكيره صلبة نسبياً ويصعب إجباره على قبول وجهة نظر معارضة». أرسل روكس تقريراً سرياً إلى الوزير الذي علّق «هذا النوع من الحالات يجب أن يعرض علي فوراً».[83]

في شباط (فبراير) 1981 تلقت وزارة العدل ملخصاً بالأفريقانية عن خلفية مانديلا. جاء فيه أنه قد كيّف نفسه مع أنظمة السجن لدرجة أنه أعطى انطباعاً بأنه حسن التصرف، ولم تسجل ضده أية انتهاكات لأنظمة السجن حتى عام 1967:

> إنه يتخذ موقفاً ثابتاً بأن يقدم احتجاجات متكررة عن الأوضاع، ولكن بطريقة تحول دون اتخاذ أية إجراءات ضده. ولكن هذا يجب ألا يعتبر سلوكاً حسناً: فهو يعطي الأوامر ثم ينسحب ليراقب أعماله عن بعد. ويبقى مانديلا على مساره المختار ويؤثر في كل من معه كي لا يحيد عنه.. واضح أن مانديلا لم يغير موقفه في جميع الأحوال وأن السجن لم يترك حتى الآن أي أثر إيجابي عليه.[84]

طلب وزير العدل الجديد كوبي كوتسي Kobie Coetsee مزيداً من المعلومات، فأعطي تحليلاً أكثر تفصيلاً، أبرز إحدى عشرة نقطة محددة:

أ) إن مانديلا لديه حافز متميز ويثابر على طرح مثالي قوي.

ب) إنه يقيم علاقات شخصية متميزة، وهو مرح بخاصة ويتصرف دائماً باحترام وود تجاه أشخاص السلطة.

ج) إنه متلاعب إلا أنه لا يفتقر إلى (التكتيك) أو التحريض.
د) ليس هناك ما يشير إلى مرارة واضحة تجاه البيض، مع أن تلك قد تكون لعبة مخادعة من قبله.
هـ) إنه يعترف بنقاط ضعفه، لكنه مع ذلك يثق بنفسه.
و) إنه مفكر عملي و(براغماتي) يستطيع التوصل إلى حل عملي من منطلق فلسفي.
ز) لديه مقدرة على التفكير الإبداعي المتكامل.
ح) لديه ذاكرة لا تصدق في استحضار الأشياء بأدق التفاصيل.
ط) كان لديه إيمان راسخ بقضيته وبانتصار القومية الإفريقية في النهاية.
ي) إنه يَعد نفسه مرتهناً للمهمة وهذا يرفعه فوق سوية الرجل الأبيض المتوسط الذي يعتقد أنه فقد مثاليته.
ك) إنه يَعد الانضباط الذاتي والاستمرار في أخذ زمام المبادرة شرطان أساسيان للنجاح.

وتتابع الوثيقة أن «ليس هناك أدنى شك في أن مانديلا يملك جميع مواصفات القائد الأسود الذي يحتل المرتبة الأولى في جنوب إفريقية. وقد تسببت فترة بقائه في السجن في رفع موقعه النفسي ـ السياسي بدل خفضه، وبهذا اكتسب صفة سحر السجن لقائد تحرير معاصر».[85]

وكان ذلك تحليلاً دقيقاً وملفتاً لشخصية مانديلا وتفكيره، سيساعد في تغيير موقف الوزير تجاه سجينه. لكنه لم يعط جواباً حاسماً لسؤال: ماذا يفعل بهذا المعارض الرائع؟ وستمضي تسعة أعوام أخرى قبل أن يطلق كوتسي سراح هذا «القائد الأسود الذي يحتل المرتبة الأولى».

21

أسرة منفصلة

1977 ـ 1980

كانتويني أكثر من أي وقت مضى طريق مانديلا الحيوية إلى العالم الخارجي. قال لها: «أشعر أحياناً وكأنني شخص على الهامش. أفتقد الحياة ذاتها». لكنها كانت قادرة على وصله بالحياة. وكان يسألها خلال زياراتها وبشوق عن الأصدقاء القدامى. متجنباً أية تلميحات سياسية. وفي كل عام كان يحصي رسائلها بعناية وكذلك زياراتها، التي أصبحت الآن مسموحة بدرجة أكبر؛ وفي العام 1978 أبلغها أن لديه حصيلة تقدر بخمس عشرة زيارة وثلاث وأربعين رسالة. خمس عشرة رسالة منها بالذات.[1]

كان باستطاعتها أيضاً أن تعكس آراءه ـ حسبما فهمتها ـ إلى العالم الخارجي عن طريق الصحفيين الذين جاءوا لزيارتها. قال هاري غوالا: كانت ويني تزور نلسون ثم تبدأ بالنقاش. وإذا قلت إن نلسون يرى الأمور بهذه الطريقة «فهذا يعني أنها القاعدة، لأن اسمه كان مبجلاً. وبهذه الطريقة مارست روبن آيلاند النفوذ».[2] كانت دوماً متكلمة صريحة. ولقد أبلغت الكريستيان ساينس مونيتور في العام 1981 أن الرئيس ريغان «لم يكن صديقاً للشعب الأسود».

وكان بمقدورها أن تقدم لمانديلا صورة عن المناخ السياسي في البلاد بعد انتفاضة السوويتو بوصفها كانت في حمأتها. وبعد الاضطرابات الأولى مباشرة تم تأليف هيئة الآباء السود في سوويتو لإقامة صلة مع الأطفال،

والتحقتويني بالقسم التنفيذي بوصفها المرأة الوحيدة كعضو، وذلك مع السويتيين الآخرين البارزين بمن فيهم جارها الدكتور موتلانا.

كانت جنوب إفريقيا في حالة جيشان. فقد قتلت الشرطة المئات من الشبان السود كما فر الآلاف من البلاد. وتحدثت ويني بدون أي كبح: «إننا سنقاتل حتى اللحظة الأخيرة من أجل العدالة». هذا ما قالته في اجتماع احتجاج في سوويتو.[3] وموتلانا الذي بقي مخلصاً لها على الدوام كان مذهولاً بشجاعتها وقوتها الجسدية: «كانت لها حيوية من نوع لم يكن متوفراً لدي، كما لدى الكثيرين. كانت تقف أمام رجال البوليس الذين يحملون البنادق (الأتوماتيكية) وتقول لهم أن يذهبوا إلى الجحيم. إنها لم تكن تخشى شيئاً». لكنه كان معجباً أيضاً بقدرتها على ضبط نفسها: «إذ كانت تتصرف أحياناً مثل رجل إنكليزي، شفة عليا صلبة، رافضة جداً».[4]

وما زالت الشرطة تعتبرها العقل المدبر للمقاومة: فبعد شهرين من انتفاضة السوويتو سجنت في القلعة مع نساء أخريات بمن فيهن سالجا زوجة موتلانا. التي وجدت في ويني زعيماً قوياً عظيماً يتحدى السجّانين في حين يبث الثقة بالسجناء الآخرين. «كانت مستعدة على الدوام للاستماع والابتسام والتهدئة».[5] وقد أمضت ويني ما يقارب خمسة أشهر في القلعة دون توجيه أي اتهام، وفي حالة مزرية مع أنها لم تكن بالقسوة السابقة. وهذا ما أثار قلق مانديلا. وذلك قبل أن يطلق سراحها في كانون الأول (ديسمبر). وعادت إلى سوويتو كناشطة أكثر من أي وقت مضى بين أصدقائها من الشبان. مع أن الشرطة كانت تراقبها عن كثب.

وبعد خمسة شهور على إطلاق سراحها، في أيار (مايو) 1977، تم نفيها! وفي روبن آيلاند سمع أحمد كترارا من قس هندوسي أن البوليس قبض عليها وأبعدها مسافة 250 ميلاً إلى براندفورت، وهي بلدة إفريقية كئيبة في أورانج فري ستيت، حيث يتحدث معظم السود هناك لغة سوتو التي لم تكن ويني

تفهمها. وتم وضعها مع ابنتها زندزي التي كانت تبلغ ستة عشر عاماً مع أثاثها في بيت صغير خاوٍ في البلدة السوداء بدون تدفئة ولا ماء جارٍ. وقد كتبت لمانديلا: «عندما فتحت الباب الأمامي كانت هناك كومة من الأقذار في غرفة المعيشة. وكانت معظم النوافذ محطمة، والمرحاض في الخارج».[6] وفي براندفورت أبقيت ويني تحت المراقبة. ومنعت من الاجتماع مع أكثر من شخص واحد. ورأى مانديلا في هذا الإيعاز عملاً حقيراً وضعيفاً.[7] فقد كتب إلى زندزي: «لا أستطيع تصديق ذلك. لقد خسرت أمك كل شيء تقريباً. ولن تحصل على أي عمل هناك ربما فيما عدا خادمة، أو عاملة في مزرعة، أو غاسلة ملابس. وستمضي أيامها كلها في الفقر».[8] وكانت مقتنعة بأن الحكومة قد أرسلتها إلى تلك المنطقة الكئيبة لإجبارها على العودة إلى الترانسكي حيث ولدت، لتساعد في إضفاء الشرعية على (الوطن المستقل).[9] لكن ويني كانت تحتقر تلك الفكرة! «الوقاحة فيها. فإذا كان على أحد أن يغادر، فإنها حكومة المستوطنين».[10]

بقيت ويني في منزل براندفورت سبع سنوات وكانت تسميه «سجني المنفرد». وتم تحذير جيرانها بوجوب عدم الاختلاط معها، في حين كان رقيب في الشرطة يراقبها باستمرار. وعندما حاول رجل بيعها دجاجة بينما كانت تتحدث إلى أحد الجيران، اتهمت بأنها تحضر تجمعاً. قالت لصحيفة النيويورك تايمز: «في أي بلد آخر يعتبر ثمن الدجاجة دليلاً؟» «ربما كانوا يظنون أنني أشتري دجاج رود آيلاند الأحمر». قالت مازحة.[11] واستعادت بسرعة روحها القتالية، متحدية الشرطة، ومدافعة عن المظالم المحلية وباعثة الحيوية في البلدة بثيابها البراقة ـ بعضها بألوان المجلس الوطني الإفريقي كالأسود والأخضر والأصفر. ورفضت أن تدفع الإيجار والخدمات، على أساس أن المنزل ليس بيتها بل هو سجن.[12]

نفي ويني لم يقلل من شعبيتها الوطنية: فمن عام 1977 حتى 1979

أظهرت استفتاءات الرأي أنها أهم ناشط سياسي بعد زعيم الزولو الزعيم بوثيليزي.[13] وفي براندفورت اكتسبت بعض الأصدقاء ـ ليس بين جيرانها السود فحسب، بل أيضاً بين الجنوب إفريقيين من أصل أوربي. وصادقها طبيب من أصل أوربي، كريس هاتينغ لكنه قتل في حادث سيارة ـ حيث ارتاب بعضهم في أن الحادث متعمد ـ كما أن شقيقته التي صادقت زندزي كانت الشرطة تروعها.[14]

أصبحت ويني أيضاً تربطها صداقة مع بيي دي وول، المحامي الوحيد في براندفورت حيث كان صديقاً قديماً لعضو مجلس النواب الوطني كوبي كويتسي، الذي كان يملك مزرعة في الجوار. وعندما احتاجت ويني إلى محام كان دي وول متردداً في البداية بقبول القضية، لكن محاميها من جوهانسبورغ إسماعيل أيوب حذره بأنه مجبر أخلاقياً على تمثيلها، ما دامت لا تستطيع الخروج من براندفورت. ودي وول الذي كان مرتبكاً جداً تحدث عن «الموقف المحرج» الذي هو فيه إلى كويتسي وإلى وزير العدل جيمي كروغر، وحاول العمل على إبعادها إلى مكان آخر. لكن موقفه تغير تدريجياً؛ فعندما جاءت ويني أول مرة إلى مكتبه تشكى من الحشد الكبير في الخارج. لكن بينما كانت تقوم بالمزيد من الزيارات بدأ ينظر إليها كصديقة، كما فعلت زوجته أديل، التي تنحدر من أسرة معروفة من أصل أوربي. لقد كانا مذهولين بهذه المرأة الذكية المتقدة. ودافعا عنها أمام الشرطة.

أصبح دفاع بيي دي وول عن ويني أكثر أهمية في العام 1980، عندما أصبح كوبي كويتسي وزيراً للعدل. بدأ دي وول يحثه أولاً على إلغاء إدانة ويني ثم إعادة النظر بسجن مانديلا. وبدأ كويتسي بإعادة التفكير بموقفه من مانديلا. وقال فيما بعد: «يمكن القول إن القضية برمتها تبدأ هنا».[15] وفي أثناء ذلك لم تتوقف الشرطة عن اضطهاد ويني وزوجها من خلالها.

وعلى روبن آيلاند شعر مانديلا بالذنب أكثر فأكثر لكونه ليس إلى جانب

ويني. وكان على الدوام ممتناً للأشخاص الذين تجرؤوا على زيارتها في براندفورت، أمثال فاطمة مير وأميرة قشالية. ولعامين منذ 1976 كانت لديه أحلام قلقة بشأن ويني. وكان يلازمه كابوس معين يتكرر. حاول فيه الوصول إلى الوطن من جوهانسبورغ بدون جواز سفر، وكان عليه السير حتى سوويتو. وكان سيهرع إلى بيته، ليجد الباب مفتوحاً، ولا أحد في الداخل، ويقلق بيأس حول ما حدث لويني والأطفال.[16] وقد كتب بعد شهر من وصولها إلى براندفورت: «كنت آمل أن أبني لك ملاذاً مهما كان صغيراً، بحيث يصبح لنا مكان للراحة والمعيشة قبل حلول الأيام الحزينة الصعبة. وسقطت ولم أستطع القيام بهذه الأشياء. إنني كمن يبني قصوراً في الهواء». وأخبرها يوم عيد زواجهما في حزيران (يونيو) 1979: «لقد أمضيت واحداً وعشرين عاماً من أفضل أعوامك وأنت تسبحين في تيارات غادرة لبحر غير ودود». وكتب بعد زيارة: «أراك في كل مرة وأنت تحملين علائم واضحة من المعاناة. وأنا يعذبني شعور بالذنب والخزي».[17] ومن جانبها كانت ويني معجبة ببصيرة مانديلا وتهذيبه: «كان واحداً من أعظم علماء النفس». هذا ما كتبته: «إنه محام بكل معنى الكلمة. إنه في مرتبة الكمال دون أن يفرض نفسه. وهو يميل إلى الفلسفة إلى حد كبير. هذه هي نفسيته الطبيعية».[18]

لكن مانديلا كان يتوق للاتصال الفعلي. وقد صب عواطفه في رسائل كانت مختلفة جداً عن رسائله السياسية المدروسة. فقد كتب إلى ويني وهو في الستين: «في سني هذه أتوقع كل أحاسيس الشباب وقد تلاشت بعيداً. لكن يبدو أنها ليست كذلك. فمجرد رؤيتك، بل حتى التفكير فيك يلهب أشد النيران فيَّ». وكتب في حزيران (يونيو) 1980: «أمضيت وقتاً طويلاً هذا اليوم وأنا أفكر فيك. وفي كل مرة أفعل ذلك. أشعر بالتوهج وأتوق إلى عناقك وأشعر بالصدمات الكهربائية التي يبعثها جسدك فيَّ، وضربات قلبك». كان حساساً بشأن عمره: «أنا لست معتاداً على رؤية أجزاء من جسدي وقد انسابت

وارتخت، وكأنني في الثانية والستين»، هذا ما كتبه لويني في كانون الأول (ديسمبر) 1976: «تعلمين جيداً أنني في الخامسة والأربعين فقط، ولا يكاد أحد يستطيع تحدي هذا الوضع عندما أستأنف تماريني».[19] لكن ويني صارت أكثر قلقاً الآن لفارق العمر بينهما؛ وقد أخبرت الصحفي أليستر سباركس في العام 1982: «نلسون في الثالثة والستين الآن، وأنا مثل شابة ما تزال تتوق لتجربة الحياة الزوجية».[20]

وعلى الرغم من اكتفائه الذاتي الوضاح في السجن، بدا مانديلا معتمداً على دعم ويني. كتب قبل شهر: «لولا زياراتك ورسائلك الرائعة وحبك، لتمزقت منذ سنوات وسنوات». وبعد شهرين: «أوجد حبك وإخلاصك ديناً لن أتجرأ على الوفاء به». وشعر أنه محظوظ أكثر من بعض زملائه في السجن.

وكتب في شباط (فبراير) 1980: «لسنا كلنا محظوظين، لكنني أريد منك أن تعلمي أنك أفسدتني كثيراً، وأن طفلاً مفسداً من الصعب دوماً السيطرة عليه». «هناك صلابة أقل بكثير فيّ مما كنت أعتقد». هذا ما قاله لها في حزيران (يونيو) 1980: «المسافة وعقدان من الانفصال لم تعزز الصلابة بي بل زادت من قلقي بشأن الأسرة».

ويحب مانديلا أن يتذكر غيرة ويني العنيفة إضافة إلى حبها: «مثلها مثل بنلوب التي وضعت طهارتها قيد التساؤل»[21] وذكر لزندزي كيف أنه طلب منه في إحدى المرات أن يوصل امرأة جذابة إلى صوفيا تاون، وذهبت ويني إلى غرفة النوم وهي ترتجف من الغضب. أو عندما كان ينتظر في المكتب لرؤية سكرتيرة جميلة، واكتشفته وسحبته خارجاً. وتوقع بشكل سابق لأوانه «إننا اليوم لدينا راعية متسامحة وذات روح عالية جعلت مني رجلاً».[22] كان يعجب دوماً بالنساء القويات. وعندما كتبت له ويني عن العام 1979 بوصفه عام المرأة علّق على النساء الجميلات اللواتي يظهرن في شتى أنحاء العالم: سيمون فيل رئيسة البرلمان الأوربي وروز ألين كارتز والسيدة الأولى الأمريكية، اللواتي

يرتدين البنطال، هذا إذا لم يشر إلى مارغريت تاتشر. وتذكر الحكام السابقين من النساء مثل إليزابيث الأولى، وكاترين العظيمة، لكنه فضل النساء الحديثات اللواتي حزمن أنفسهن برباط الحذاء.[23]

بدت ويني ظاهرياً كأنها تجاوزت عزلة وقسوة براندفورت، حيث كانت رابطة الجأش مثل مانديلا. وفي أيار (مايو) 1979 وصفت بحيوية «سيبيريا الصغيرة» الخاصة بها لصديقتها ماري بنسون في لندن: «الأيام الطويلة الفارغة تجرجر نفسها، الواحد مثل الآخر، على الرغم من جهدي الكبير في الدراسة. إن الوحدة قاتلة، والكوخ الرمادي باق. إنني يائسة أتطلع بنظرات عديمة الحياة مثل ساكنيه الذين يشكلون سلسلة بشرية من الإحباط عندما يمرون أمام نافذتي منذ اللحظة التي تفتح فيها الحانة حتى إغلاقها في الثامنة مساء؛ إنهم سكارى حتى الشلل». وتابعت: «مهما بدا ذلك كئيباً، فهناك شيء يطهر النفس في المنفى. . . ما هو الأعظم من كونك جزءاً من قضية كهذه مهما كانت مساعدتنا ضئيلة.[24]

كانت ويني تستغل تجربتها كعامل اجتماعي للقيام بنشاطات عامة مثل دار للحضانة ومجموعة خياطة ومستشفى، تساعدها التبرعات التي تدفقت عندما بدأ الصحفيون والديبلوماسيون بزيارتها. وبدأت الدراسة لتحصل على درجة في العمل الاجتماعي بالمراسلة، لكنها واجهت العديد من العقبات. كتب إليها مانديلا: «أشعر بالخيبة، بل حتى بالقرف لأنني أعلم أن العمل الاجتماعي هو الطبيعة الثانية لك. وإن حصولك على الدرجة سيكون مجرد تعويض عما عانيته من قسوة خلال السنوات الاثنتين والعشرين الأخيرة».[25]

الزوار وجدوا ويني امرأة لا تقهر. «فوجئت بسرور وتأثر لمزاجها الدمث وهدوئها ورباطة جأشها الكاملة». قالت صديقتها القديمة إلين كوزوايو عندما قابلتها مجدداً في عام 1982: «جاذبيتها، ضحكتها الموسيقية، وجهها الذي لم

يتغير وعنفوانها الحاضر دوماً هي صفات ويني نوفرامو في عقد الخمسين عندما التقيتها أول مرة». [26]

لكن صورة ويني الشعبية كانت خادعة: إذ لم تكن البطلة المستقيمة الملتزمة التي بدت عليها أمام العالم؛ واعتقد بعض الأصدقاء أن الإبعاد إلى براندفورت، ومعاناتها في السجن، قد غيراها إلى حد كبير. فبعيداً عن المراسلين وبدون علم مانديلا، كانت تتصرف بتهور كبير متباهية بشهرتها في حوانيت البيض، وفجأة تنفجر بعنف، وتشرب كميات كبيرة. وعمدة براندفورت الذي كان يدير مخزناً للمشروبات قال: إنها تأتي إلى هنا لشراء أشياء: شمبانيا، سينزانو، أشياء كهذه. وكانت فواتيرها تصل كما يقال إلى حوالي 3000 روبي في الشهر. [27] واحتقارها المبرر للشرطة، مترافقاً مع التهليل الدولي لها منحا ويني شعوراً قوياً بأنها فوق أي قانون؛ وفي أسلحة المؤتمر الوطني الإفريقي كانت تصبح شيئاً فشيئاً كمدفع فقدت السيطرة عليه. كان من شأنه أن يطلق قريباً بعض المتفجرات الخطرة.

أما الأبناء فكانوا يعانون ظاهرياً بدرجة أقل، لكنهم كانوا مدعاة للقلق بالدرجة ذاتها. قال مانديلا لويني في العام 1979: «لا أتوقف أبداً عن التفكير بأن بعض الأبناء ليسوا قادرين على تحقيق أحلام حياتهم، لأنني لست هناك لمساعدتهم في حل مشكلاتهم الكثيرة»[28] كان منشغلاً بالتفكير بتعليمهم ـ كما لاحظت كاثرارا ـ إلى مرحلة الابتزاز: «عندما تبدو كارهة أو بطيئة في قبول نصائحه، فإنه كان يمنعها من الزيارة إلى أن ترضيه بالبرهان على أنها تدرس بجدية». [29]

كان أقل قلقاً بشأن زيني، ابنته الكبرى من ويني؛ بعد أن أصبحت مخطوبة للأمير ثامبوموزي، ابن ملك سوازي (سوبوزا) الذي التقته في مدرسة ووتر فورد. وكان مانديلا قلقاً من أن زيني كانت صغيرة جداً على الزواج في سن الثامنة عشرة، ومن أنها لم تنه المدرسة الثانوية. قال لها: «إن الأولوية

الأهم هي دراستك». [30] لكنه كان فخوراً بالارتباط إلى «واحدة من أشهر العائلات في جنوب إفريقية» كما قال لويني. وقد رأى في سوبوزا ملكاً شعبياً يدعم المؤتمر الوطني الإفريقي. [31] وطلب من محاميه جورج بيزوس ـ بإجراء وهمي إلى حد كبير ـ أن يطلب من الأمير بيان كيف سيعيل ابنته. وقال بيزوس إن مؤهلات ثامبوموزي كانت جيدة، وأنه واقع فعلاً في الحب.

رأى مانديلا أن هذا الزواج له علاقة بسلالة حاكمة، بين أمير سوازي وأميرة تيمبو. [32] وقد شعر بالإحباط إذ لم يكن باستطاعته تسليم ابنته في احتفال زواج تقليدي عام 1977، لكنه كان يهتز طرباً لمولد ابنتهما التي أصر على تسميتها زازيوي (الأمل): «لن نشعر بالسعادة ما لم تؤكدي لنا أنك قبلت الاسم». [33] «إذ عمل على أن تكون صديقته القديمة هيلين جوزف هي العرابة وكانت في الثالثة والسبعين، وفي صورة التعميد اكتشف على الفور سيدة طويلة كانت تقف وكأنها فيلد مارشال». [34] وكعراب آخر اختار ـ بتسامح ملحوظ ـ الدكتور جيمس موروكا البالغ من العمر واحد وتسعون عاماً ـ وهو الرئيس السابق للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي خانه والزعماء الآخرين في حملة التحدي في عام 1952 بتسميتهم بالشيوعيين.

إن وضع زيني الجديد كأميرة أجنبية منحها الميزة الديبلوماسية الثمينة بالسماح لها برؤية والدها في الغرفة ذاتها، وليس من وراء الزجاج. فعندما وصلت مع زوجها وابنتها الصغيرة إلى الجزيرة، كان بمقدور مانديلا أن يعانق زيني لأول مرة منذ سجنه، وأن يحمل الطفلة بسرور خلال فترة الزيارة. وكتب إنه ما زال قلقاً حول عدم تمتعها «بالطموح والدهاء». لكنه اطمأن إلى حد ما بعد مغادرتها مع أسرتها الصغيرة إلى أمريكا. واهتز طرباً لدى قدوم المزيد من الأحفاد. [35]

زندزي كانت مشكلة أكبر. فهي ـ ميل ويني ـ جريئة ولامعة الذكاء وسريعة الغضب. كانت قلقة جداً عندما زارته للمرة الأولى في السجن وهي في

السادسة عشرة، إلا أنها شعرت بالاطمئنان لدفئه. قال: «آه يا حبيبتي أستطيع رؤيتك الآن كطفلة في البيت تجلس في حضني... لقد بدأنا نحلم ونحلم ثم شعرت براحة كبيرة».[36] «لديها الكثير من النشاط في داخلها، وآمل أن تستخدمه كاملاً». هذا ما قاله فيما بعد لصديق.[37] لكنه قلق عليها في براندفورت، بعيدة عن أصدقائها، ووحيدة مع أمها المنهكة. فكتب إليها في عيد ميلادها السابع عشر عام 1977: «كيف تستطيع الأم المسكينة أن تظهر محبتها لمن ولد أخيراً في مكان غريب، حيث ليس لديها دخل، وحيث تواجه مشكلات كثيرة». «في ظروف كهذه هل من الصحيح فعلاً التحدث عن عيد ميلاد؟» كان قلقاً حتى الوسواس: فعندما كانت زندزي مرتبكة لتصورها حضور زفاف زيني بصدرٍ عارٍ، حسب العادة الملكية في سوازي طمأنها: «يجب أن يكون نهداك قاسيين كالتفاح، وخطرين كالمدافع». وكان مسروراً عندما أخبرته أنها تود أن تصبح كاتبة - والكتابة مهنة مميزة - فقد دعاها جيم بايلي صاحب «الدرم» لأن تصبح كاتبة عمود في مجلته النسائية الجديدة «الحب الحقيقي». وكانت قد بدأت أيضاً بكتابة الشعر.[38]

في العام التالي، 1978، نشرت كتاب شعر، سوداء كما أنا، بدأ بقصيدة عن والدها:

هناك شجرة قُطّعت إرباً إرباً

وتبعثرت الثمار

وأنا بكيت...[39]

ومنح الكتاب جائزة مقدارها 1000 دولار في أمريكا، وتم تنقيحه جيداً من قبل ألان باتون وآخرين. ووجد مانديلا أن لغته بسيطة وواضحة. لكنه نصح زندزي بوجوب صقل الحواشي غير المستساغة[40]، ولم يرحب بأنباء أنها تخطط للكتابة عن سيرة حياة أسرة؛ لقد شعر بالحزن للكتابة التي أثارت الجدل مؤخراً بقلم مارغريت ترودو، الزوجة المنفصلة لرئيس الوزراء الكندي،

وصوفيا لورين، الممثلة المفضلة لديه، وكان يفزع من الإثارة: «الأسرة السعيدة هي دعامة هامة جداً لأي شخصية عامة». [41]

أحب مانديلا زيارات زندزي لروبن آيلاند. فقد أخبرنا في آذار (مارس) 1979: «إنك تبدين صورة رائعة كلما رأيتك»، «لقد كنت رائعة جداً في سروالك» هذا ما كتبه بعد ستة أشهر. لكن وراء حيويتها كانت زندزي تعاني من التشوش والكآبة المتقطعة. كان عليها أن تراجع طبيباً نفسياً، ودراساتها بدأت بالتراجع. وحاول مانديلا طمأنتها أن الكآبة أمر شائع، وأنه يمكن إدراك كآبتها بسبب ظروفها، لقد امتدح ذهنها الفضولي، وشعورها المحبب بالمرح، وتعاطف معها في غضبها بسبب حياتها الممزقة. وحثها: «هناك القليل من المحن في هذا العالم التي لا تستطيعين تحويلها إلى انتصار إذا كانت لديك الإرادة الحديدية والبراعة اللازمة»[42] لكن زندزي لم تكن تتمتع بإرادة والدها الحديدية: لقد نضبت كتاباتها، وتراجعت عن الذهاب إلى جامعة ويتس. ووقعت في حب رجل يعمل بغير انتظام وهو أوبا سيكاميلا، حيث ولدت طفلة منه ـ زوليكا ـ ثم ولدت فيما بعد طفلاً قذافياً من رجل من راستافاريا اسمه مبويسيلو، كان يضربها. [43] وتركت ويني في براندفورت لتعود إلى منزل الأسرة في أورلاندو. كان مانديلا حامياً لها. إذ تفهم توق زندزي إلى العودة لمنزل الطفولة، لكنه لم يرغب في أن تعيش وحيدة، كان يأمل في أن تنضم إليها عمة مسنة أو زوجان صديقان، لكنه عرف أن الشرطة ستضايق أي شخص له علاقة مع المانديلانيين. [44]

شعر بالقلق أيضاً على ولديه الكبيرين من زوجته الأولى، إيفلين. قالت فاطمة مير التي بقيت على صداقة مع معظم أفراد الأسرة: «كان الأمر دوماً مدعاة لألم عميق، لأن أولئك الذين أحبهم. . . لم يحب بعضهم بعضاً كما كان يجب».

وماكفاتو ابن مانديلا الأكبر، كان ما يزال يدعو للخيبة. وبعد أن عادت

زوجته رين (رينيه) إلى الدراسة كان مانديلا يأمل بأنه سيدرك أنه «الجبان الوحيد في الأسرة». وطلب من ماكي شقيقة ماكفاتو حثه دوماً على التفكير بمستقبله. كتب مانديلا عام 1979: «عندما يدخل المدرسة فعلاً سأبذل قصارى جهدي لمساعدته، لكن ليس قبل ذلك بالتأكيد».[45] لكن ماكفاتو ظل يرفض التعلم الذي كان والده يقدره أكثر من أي شيء آخر.

لم تكن ماكي أفضل منه بكثير من حيث الصراحة. وهذا ما فاجأ مانديلا. وقد كتب لها بعد عيد ميلادها السادس عشر عام 1978 أنها يجب أن لا تولي أية أهمية لأشياء غير هامة مثل أعياد الميلاد وبطاقات ـ الكريسماس ـ عام 1978، بعد انهيار زواجها حثها على الطلاق بدون أي تأخير، «أنت ما تزالين يافعة ولك مستقبل باهر. إذا استطعت التخطيط بعناية منذ الآن وكنت مصممة فعلاً على السير قدماً».[46] وفي النهاية قررت أن «الحياة بدون مهنة عديمة الجدوى»، ودخلت فورت هير أواخر عام 1978، «من خلال مناورات أمي ويني». وأخبرته أن ذلك جعلها «أسعد فتاة».[47] وشعر بارتياح كبير، ونصحها بأن تقرأ صحيفتين على الأقل يومياً.

كان مانديلا يشعر بالقلق لأن كاماجو زوج ماكي لم يكن ينفق على الأطفال، وحذرها بشدة من صدمات الطلاق: «فالأطفال سيعذبهم ترعرعهم بدون أمان البيت حيث يعيش الأبوان معاً». وحث ماكي على أن تكون قوية: «ربما يدمر الطلاق بعض النساء لكن الشخصيات القوية لم تنج من آثاره فحسب بل تقدمت إلى الأمام».[48] وكانت ماكي في مجالات معينة أكثر أبناء مانديلا استقلالاً في التفكير، مستعدة دوماً للنقاش معه. كتب إليها في إحدى المرات بحزن: «لا تدعيني أشعر بالأسف لأنني هنا، لا أريد أن أصل إلى النقطة التي آسف فيها على ما أفعله، ما أنا بحاجة لأن أقوم به يُعد هاماً ليس لك ولبقية الأسرة فحسب بل أيضاً للشعب الأسود بأكمله».[49]

وفي وحدته في زنزانته كان مانديلا يشعر بالندم الشديد عندما يفكر

بالسنوات السابقة. قال فيما بعد: «أحد الأشياء التي كانت تعذبني هو كيف عاملت الناس الذين كانوا لطيفين جداً معي، لا سيما عندما كنت أواجه صعوبات، كانوا يبذلون قصارى جهدهم لجعلي سعيداً، بدون أي إكراه. وعندما أصبحت محامياً نسيت كل شيء عنهم». [50] لم يكن باستطاعته التخلص من ذلك الندم: «لم أظهر امتناناً كافياً لأولئك الذين كانوا لطيفين معي عندما كانت الأيام الصعبة تدق بابي». هذا ما قاله فيما بعد. [51]

كان يشعر بالقوة من التفكير بأبنائه والعدد المتزايد من الأحفاد. وكان يتحدث كثيراً عنهم لزملائه في السجن، ويحاول تصور حياتهم. كتب إلىويني: «أشعر أني بأفضل حال عندما تغيب الشمس وتغلق البوابات الكبيرة» «هذا هو وقت الاسترخاء عندما أختار أن أتجاوز مواطن ضعفي وأعد مواطن قوتي الواحد بعد الآخر». [52] «لكنه كان يفتقد إلى حد كبير الاتصال الملموس الذي ربما يعبر عن الحب الخالص بينه وبين أبنائه، ويلطف الجانب الأقسى من طموحاته الأبوية». سأل أصدقاءه: «كيف يمكن للطفل أن يترعرع بدون أن يلمس أباه؟» [53] إن التصميم السياسي الفولاذي الذي أصبح قاسياً أكثر في السجن، والذي كان الملهم لرفاقه، لم ينسجم بسهولة مع الجانب الأرق للأبوة؛ وهو يستمر في إلقاء اللوم على نفسه لكونه رب الأسرة الغائب، الذي ضحى بها من أجل هدفه السياسي. وعندما كان يعمل في السر عام 1961 عرف أنه يختار طريقاً من شأنه أن يفصله عن أية حياة أسرية مستقرة. لكن وحدته في السجن أبعدته عن أبنائه وعن ويني أكثر مما كان يتوهمه في ذلك الوقت.

22

سجن داخل سجن

1978 ـ 1982

من سجنه في الجزيرة، كان منديلا ينظر إلى البلاد بمعلومات ناقصة جداً، لكن بتفاؤل عنيد. كتب إلى صديقته شيلا وينبرغ عام 1978: «القليل الذي يرشح عبر هذه الجدران الكئيبة يثبت لنا أن قواتنا تحرز النجاح». «شعبنا يرد الهجوم بشجاعة بحيث أتساءل كثيراً ما إذا كان الذين يعانون بدرجة أكبر هم أولئك الذين داخل السجن أم خارجه».[1] «لقد أزعجنا كل آت جديد تقريباً إلى الجزيرة بخصوص المعلومات التي تخص الوضع السياسي، هذا ما قاله لرادي زوجة صديقه القديم الشيوعي من دوربان جي. إن. سينغ: «وقد سعينا على الدوام للحصول على معلومات عن الرجال والنساء الذين هم القوة الدافعة التي تقف وراء منظمتنا».[2]

وفي عمر عقد الستين، كان مانديلا يدرك جيداً أن عليه أن يتفق مع جيل جديد كلياً، ولا سيما بعد نقاشه مع ثوار سوويتو. كان بحاجة ماسة إلى إبقاء الصلة مع السياسيين في الخارج؛ ولا سيما مع رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي أوليفر تامبو، الذي كان مركزه الآن في لوساكا ولندن، حيث تعيش زوجته أديلايد وأولاده في ماسويل هيل. كان مانديلا قادراً أحياناً على تهريب رسائل سياسية عن طريق الزوار، أو السجناء المغادرين أو الوسطاء الآخرين الذين لم يُكشف عنهم. كتب إلى أديلايد (تحت اسم ماتلالا) كتغطية لتامبو (المدعو باسمه المتوسط، ريجينالد) وكشف المراقبون سريعاً هذه الحيلة، كما أبلغ

أديلايد عام 1980: «إن قسم السجناء يريد قطع جميع أنواع الاتصال بين ريغي وويني». لكن الرسائل استمرت في العبور.

كان قلق مانديلا الأول هو أن تامبو يجب أن لا يرهق نفسه، إذ إنه لم يكن قوياً. كتب إلى أديلايد في كانون الأول (ديسمبر) 1980: «ناشدته مرة أخرى أن يأخذ إجازة ولو لأسبوعين». وكان قلقاً أيضاً بشأن صحة أديلايد ذاتها، بعد سقطة تطلبت إجراء عدة عمليات، والتي ربما أودت بها إلى كرسي العجلات: «امرأة من فولاذ فقط يمكنها أن تتحمل تلك التجربة الرهيبة».[3]

لكن انشغال مانديلا الرئيسي، هو أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتماسك، ويتجنب المنافسات القاتلة التي دمرت العديد من حركات التحرر؛ ويجب أن يكون تامبو الزعيم بدون ريب. وعام 1978 كان بعض المنفيين يدّعون أن سجناء روبن آيلاند كانوا ينتقدون طريقة معالجة الصراع، وأرادوا أن يقودوه بأنفسهم؛ لكن مانديلا وريموند مهلابا كتبا إلى تامبو منكرين ذلك. واعترفا أن بعض السجناء اشتكوا من عدم فعالية من هم في الخارج، لكنهم يقدرون جيداً الظروف الصعبة جداً، وقد قبلوا أن الزعماء في المنفى يجب أن يتحركوا «بحذر وأناة». وكانوا واثقين من أن «المنظمة لم تكن بهذه القوة عبر تاريخها». وشجعهم «المستوى الرفيع للوعي السياسي من جانب أبناء الشعب الذين وضعوا في السجن، بمن فيهم الرجال في أوائل عقد العشرين من عمرهم».[4]

عرف مانديلا أن بريتوريا كانت تبذل جهدها لبث التفرقة بين الإفريقيين وأن تدخل زعماءهم في نظام التمييز العنصري.. وكان قلقاً بصورة خاصة بشأن الأراضي القبلية الجديدة، أو (البانتو ستانات)، التي هي مظاهر «للتمييز الكبير». والتي منحت «الاستقلال» تحت سيطرة بريتوريا، مع مكافآت سخية للمتعاونين. وراقب السجناء العملية بغضب وإحباط مؤلمين. كتب والتر سيسولو عام 1976 أنه مع (استقلال البانتو ستانات) «فإن الـ Nats البيض

المولودين هنا سيكونون قد قطعوا شوطاً بعيداً في تفريق شعبنا عبر خطوط عرقية، وفي زرع بذور من شأنها أن تصبح بالتأكيد قنبلة موقوتة ستنفجر بيننا، بعد وقت طويل من اختفاء البيض المولودين هنا وحكم الأقلية البيضاء». [5]

عانى مانديلا من تألم شخصي كبير في تشرين الأول (أكتوبر) 1976، بعد أربعة أشهر من انتفاضة سوويتو، فمنطقته بالذات وهي الترانسكي أصبحت ما يدعى الجمهورية المستقلة (مع أن الدول الأجنبية الوحيدة التي اعترفت بها كانت إسرائيل وتايوان)، وانتخب ابن أخته كايسر ماتانزيما الرئيس الأول لها، وبدأ يرسخ نفسه سريعاً ـ مع شقيقه جورج ـ كديكتاتور حقيقي، تدعمه بريتوريا، ورأى ماتانزيما في نفسه صديقاً للأفريقانيين (من أصل أوربي) واعتقد أن خاله مانديلا يستحق السجن لأنه اخترق القانون. [6] واستمر في حثه على قبول عرض بريتوريا إطلاق سراحه إلى الترانسكي. ولم تكن لدى مانديلا الآن أية أوهام حول ابن أخته، لكنه احتفظ مع ذلك بالصداقة العائلية. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1977 عندما طلب ماتانزيما زيارته على جزيرته ـ وسمحت بريتوريا بذلك بسرور ـ أغري مانديلا بالموافقة، معتقداً بتفاؤل أنه ربما استطاع إقناعه بالتحول نحو الديموقراطية إذا ما تحدثا وجهاً لوجه. واستشار رفاقه المقربين، لكن سيسولو وكاثرادا كانا ضد الزيارة، وكان مبيكي ومهلابا غير سعيدين أيضاً بشأنها، وكان معظم السجناء الآخرين معارضين لأي نوع من الصفقات مع خونة أمثال ماتانزيما. [7]

عام 1980 أظهر ماتانزيما قسوته الكاملة عندما أطاح بساباتا ملك تيمبو ـ الذي كان يتوقع من مانديلا الشاب أن يعمل كمستشار له، والذي أصبح مؤيداً أكثر فأكثر للمؤتمر الوطني الإفريقي. [8] وبعد طرد ساباتا جاءت مجموعة من زعماء تيمبو إلى روبن آيلاند طلباً لنصيحة مانديلا، وحثهم على دعم ساباتا ضد ماتانزيما وفر ساباتا بسرعة بعد ذلك، واتجه نحو لوساكا عاصمة زامبيا، حيث التحق رسمياً بالمؤتمر الوطني الإفريقي وأصبح معروفاً باسم «الملك الرفيق».

استمر مانديلا بالاتصال مع ماتانزيما، بل سعى وراء مساعدة مالية لابنة ماتانزيما، التي بعثت إليه برسائل حميمة في السجن.[9] لكنه كان واثقاً أن (البانتو ستانات) لن تحصل أبداً على الدعم الشعبي. كما كتب عام 1980:

> إن ما يسمى (البانتو ستانات) المستقلة ليست أكثر من احتياطي مبجل ليد عاملة رخيصة تشلها كثرة الصدأ، وتآكل التربة، والفقر. إنها ولايات زائفة احتقرتها وذلتها المجموعة الدولية، والتي لا يكاد يتوفر لديها أي أمل بالازدهار الاقتصادي. ولهذا السبب بالدرجة الأولى ترفض عدة (بانتو ستانات) الآن قبول الاستقلال.[10]

كانت لدى مانديلا أيضاً مشاعر متناقضة بشأن زعيم الزولو: مانغوسوزو باثيليزي الذي أصبح بحلول عقد السبعين الزعيم الأسود الأكثر بروزاً داخل جنوب إفريقية. كان باثيليزي أول زعيم للزولو - قبل ماتانزيما الذي كان أول زعيم للكسوزار يذهب إلى الجامعة، وقد أعجب به مانديلا منذ أن طرد من فورت هير لانتمائه إلى المؤتمر الوطني الإفريقي، وحيث إنه الآن سياسي داهية، يجمع سرعة الخاطر الذهنية مع الإدراك القبلي، فقد وافق عام 1970 على أن يصبح المنفذ الرئيسي للسلطة الإقليمية الجديدة للزولو، وهكذا تآمر مع سياسات (البانتوستانات) وكان غامضاً دوماً تجاه المؤتمر الوطني الإفريقي. وظل على اتصال بتامبو، وعام 1973 دعا إلى إطلاق سراح مانديلا، وذلك «لإيجاد مناخ كامل للحوار المفيد».[11]

كان باثيليزي يزدهر بسبب رعاية الحكومة والشهرة، في حين تم إسكات المؤتمر الوطني الإفريقي. عام 1975، وبتشجيع من تامبو أعاد إلى الحياة هيئة ثقافية سابقة للزولو، «إنكاثا»، كوسيلة لتعبئة جماهير الزولو، حيث تبنى علم ولباس المؤتمر الوطني الإفريقي[12]، لكن تامبو أسف لأن باثيليزي «بنى الإنكاثا كقاعدة سلطة شخصية، بعيدة جداً عن نوع المنظمة التي تصورناها».

لقد سيطر على كوارزولو كإقطاعية خاصة به، وقدم نفسه إلى الخارج

بوصفه الزعيم الأسود الرئيسي، حيث اجتمع إلى عدد من رؤساء الحكومات، بمن فيهم الرئيس الأميركي جيمي كارتر. وعام 1978 وجد فريق من الباحثين الألمان أن 44٪ من الإفريقيين المدينيين في ثلاث مدن رئيسية في جنوب إفريقية كانوا معجبين بباثيليزي أكثر من أي شخصية سياسية أخرى، بالمقارنة مع 19٪ فقط لمانديلا.[13] وبحلول عام 1980 كان بمقدور الإنكاثا الادعاء بأن لها 350,000 عضو في حوالي ألف فرع. لكن الشباب الناشطين من السود بدؤوا يرون باثيليزي مثل كوينزلينغ: ففي تشييع روبيرت سوبوكوي عام 1978 اضطر للفرار لأن الشباب كانوا ينادونه «دمية» و«خائن».[14]

بقي مانديلا صديقاً صداقة شخصية لباثيليزي، مثلما كان حالهُ مع ماتانزيما. وعندما أرسل إليه باثيليزي التمنيات بعيد ميلاده الستين، أجاب بود، مشيراً إلى أنه رأى صوره في منشورات الحكومة وأفلامها. ولإدراكه أن الرسالة كانت حساسة سياسياً، فقد عرضها على رفاقه المقربين، حيث اعترض اثنان منهم فقط عليها، ثم تم تهريبها إلى الخارج عن طريق تامبو تاركاً له أمر إيصالها أو عدمه إلى باثيليزي.[15]

استمر باثيليزي في ادعاء التأييد ممن هم في روبن آيلاند، قال في سوويتو في 21 تشرين الأول (أكتوبر) 1979: «من السجن أسمع رسالة من نلسون مانديلا ووالتر سيسولو يطلبان مني أن أستمر فيما أعمل فيه لصالح الملايين من الشعب الأسود». لكن بعد عشرة أيام فقط كان في صدام مباشر مع المؤتمر الوطني الإفريقي. وذهب إلى لندن للقاء سري مع تامبو، بدا ودياً، على الرغم من أن باثيليزي كان يعارض في الأساس الكفاح المسلح والعقوبات. لكن لدى عودته، سرب تفصيلات عن اللقاء إلى صحيفة الصنداي تايمز الصادرة في جوهانسبورغ، التي أعلنت أن «باثيليزي يخطط لجبهة سوداء» وجعلته يظهر على أنه الزعيم الأسود بلا منازع. وتحول بسرعة ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي تموز (يوليو) عام 1980، أعلن تامبو أن باثيليزي «وقف

إلى جانب العدو ضد الشعب». واحتفظ مانديلا بالصلة معه، كصديق قديم؛ لكن إنكاثا سيبقى على خلاف مع المؤتمر الوطني الإفريقي للسنوات الست عشرة القادمة، وكان يُعد العقبة الوحيدة الأكبر لمعارضة سوداء موحدة ضد نظام التمييز العنصري.

استطاع مانديلا أن يجد تشجيعاً أكبر في مكان آخر، ولا سيما من الكنائس، التي كانت حذرة جداً في معارضة التمييز العنصري في الوقت الذي ذهب فيه إلى السجن. والآن «أصبحت رياح التغيير تهب داخل الكنائس»، كما تنبأ الأب الكاثوليكي سمانغا ليزو مخاتشاوا عام 1968، وكان القساوسة السود يخرقون نموذج السيطرة البيضاء. وأصدر الكاثوليكيون «بيان القساوسة السود» مهاجمين التفرقة العنصرية ضمن كنائسهم، وأصبحوا أكثر صراحة ضد التمييز العنصري.(16)

وعين الأنكليكانيون رجل الدين الأسود اللامسؤول ديزموند توتو كعمدة جوهانسبورغ؛ وأصبح الأخير أمين سرٍ لمجلس الكنائس الجنوب إفريقي. وتوتو جار المانديلانيين في سوويتو، كان جريئاً في التكهن بحكم السود. قال في نيسان (أبريل) 1980: «نحن بحاجة إلى نلسون مانديلا لأنه سيكون بشكل شبه مؤكد رئيس الوزراء الأسود الأول»(17) وكتب مانديلا شاكراً توتو مذكّراً بأبطال أنكليكانيين آخرين - مايكل سكوت - تريغور هادلستون، وأمبروز ريغز، وملاحظاً «أن الكنائس تدمر عذر الحكومة بأنها تضطهد المناضلين من أجل الحرية كجزء من مؤامرة شيوعية عالمية. والغضب المتصاعد لرجال الكنائس ضد جميع أنواع القمع العنصري حرم الحكومة من سلاحها الدعائي الوحيد».(18)

كان مانديلا يصل إلى جميع الكنائس الرئيسية، بعين السياسي الذي يتطلع إلى أصدقاء المستقبل. فقد هنأ الدكتور غوبيول الذي أصبح رئيساً للكنيسة الميثودية، ملاحظاً أن أمين سره الجديد ستانلي موغوبا أصبح «مليئاً بالعزم».

والتصميم من خلال المعاناة في روبن آيلاند. وكان سعيداً لأن الميثوديين قد بدؤوا «بالمهمة الخطيرة جداً» في تنظيم بيتهم؛ وقد تذكر انتفاضة الميثوديين من جماعته بالذات، ورحب بالمؤتمر الأخير، الذي رأى أنه «يثبت المبادىء العظيمة التي بنى عليها الحواريون القدامى الكنيسة المسيحية».[19]

ورحب مانديلا ترحيباً خاصاً برياح التغيير ضمن كنيسة الإصلاح الهولندية التي هي أساس نظام التمييز العنصري. وقد تأثر بشجاعة الدكتور بييرز فود وهو واعظ أنيق كان والده مؤسس برويدر بوند، والذي ثار ضد كنيسته بالذات وأصبح المدير الأول للمؤسسة المسيحية الجديدة، حيث صادق العديد من الزعماء السود، بمن فيهم ستيف بيكو. وشعر بالسرور لتقرير مجلس كنيسة الإصلاح الهولندية الذي ندد بجميع أشكال القمع العنصري. وأدرك أن الكنيسة لا يمكن أن تعزل نفسها عن المشكلات الأخرى؛ وكتب إلى سام بوتي، وهو واعظ أسود ينتمي إلى كنيسة الإصلاح الهولندية وكان يعرف أباه جيداً، ليهنئه على المشاركة في مجلس الكنائس الجنوب إفريقية.[20]

كان مانديلا يوسع (ديبلوماسيته) أيضاً في الخارج، في رسائل مليئة بالتفهم والإطراء وعندما منح دكتوراه فخرية في ليثوذو قبلها «كتعبير ملموس للدعم الكامل والمستمر الذي تمتع به نضالنا على الدوام بين أبناء ليثوذو». وامتدح ملك باسوتو العظيم موشوي وي، الذي كان «من أوائل رجال الدولة السود الذين عبروا عن تقديرهم لمخاطر الانقسامات داخل شعبنا في نضاله ضد العدوان الامبريالي». «وتذكر أن ملك باسوتو غريفيتيس كان عضواً مؤسساً للمؤتمر الوطني الإفريقي عام 1912، وكيف أنه قابل ملكة باسوكو في جوهانسبورغ».[21]

وبعد وفاة سيريتسي خاما في المكتب وهو أول رئيس لبوتشوانا عام 1980، كتب مانديلا إلى خلفه مذكراً بصداقته مع السير سيريتسي ومهنئاً بوتشوانا بحكومتها؛ قال من الجدير بالذكر أنه في إفريقية «فإن الرجال الذين

ليست لهم تجارب سابقة مهما كان نوعها في الحكم، كما يحدث اليوم، يجب أن يكونوا قادرين على إدارة دول حديثة بنجاح كهذا». وكان ممتناً لبوتشوانا لضمانها الملاذ للاجئين من جنوب إفريقية الذين فروا من الاضطهاد السياسي.[22]

وأصبح مانديلا واثقاً أكثر بالمزيد من علائم الاعتراف في شتى أنحاء العالم. فعام 1979 منح جائزة نهرو السنوية حول التفاهم الدولي. ومن بين من منحت لهم في السابق الأم تيريزا ومارتن لوثركينغ وجوزيف تيتو. سافر تامبو إلى دلهي لتقديم كلمة قبول مانديلا، التي ذكر فيها كم أثر فيه نهرو، وكيف رفض نهرو في السجن الاستسلام للصعوبات الدنيوية، أو الذهن المغلق: «الجدران الأشد هولاً هي تلك التي تنمو في الذهن».[23] لم يكن يسمح لمانديلا ذاته حتى برؤية الألبوم الذي يحيي الاحتفال بالجائزة، لكن أحد الحراس هربه إلى زنزانته ليلاً.[24] قال لأديلايد تامبو: «يجب أن تعرفي هذا المكان جيداً لتقدري قيمة الصور بالنسبة إلى السجناء. إنها من بين تلك الأشياء التي تقلل بل حتى تزيل كلياً الشعور بالرفض والعزلة».[25]

في كانون الأول (ديسمبر) 1980 حرضت مدينة غلاسغو على نزاع سكوتلندي عاصف بمنحه الحق السياسي(*). شكر مانديلا بعمق الدكتور مايكل كيلين، لورد بروفوست، مادحاً السكوتلنديين، متذكراً كيف أنه تعلم في طفولته عن الوطنيين السكوتلنديين أمثال وليام والس، روبرت بروس، وإيرل أرجيل، وقدم صورة حية لتكهنه الحالي:

(*) عندما كتب رئيس المجلس البلدي لمدينة غلاسكو Glasgow رسالة إلى رئيس جنوب إفريقية، ونشرتها الصحف، يطلب فيها السماح لمانديلا الحضور إلى غلاسكو لاستلام جائزته، أرسل مجلس جنوب إفريقية في غلاسكو إلى بريتوريا بكل كبرياء يخبرهم أن ردة الفعل لتلك الرسالة لم تنل الموافقة (حتى من صحف حزب العمال) وكان الموقف منها الحياد أو العداء أو عدم الاهتمام.[29]

> أنا أعيش في سجن داخل سجن، في جزيرة رديئة، في بلاد سجن معظم شعبها من قبل أقلية من المهووسين العنصريين تشغلهم قضايا اللون والعقيدة؛ الحاكم القوي الوهمي الذي جعل من التحامل العنصري ديانة، في بلادي بالذات، وبسبب لون بشرتي، لم أتمتع بتاتاً بالحرية في الشوارع فكيف بالحرية في المدينة.[26]

كان مانديلا لا يظهر في رسائله أبداً كسجين لمدى الحياة، بل مثل رئيس حكومة أو (دولة) في المنفى منتظراً إيجاد دولة جديدة موحدة. كان لديه بعض السبب للشعور بالمزيد من التفاؤل بشأن الدعم الدولي. فقد غضب الرأي الحر الغربي بشدة لتعذيب وقتل زعيم الوعي الأسود ستيف بيكو في أيلول (سبتمبر) 1977، مما عكس كل وحشية دولة التمييز العنصري. وبعد شهرين فرضت الأمم المتحدة حظراً إلزامياً حول جميع مبيعات الأسلحة إلى جنوب إفريقية - وهو الأول في تاريخها.[27] وندد السفير الأمريكي الجديد إلى الأمم المتحدة عضو الكونغرس الأسود أندرو يونغ ندد بحكومة بريتوريا بوصفها «غير شرعية»، في حين حذر نائب الرئيس الأمريكي والتر مونديل بريتوريا من أن لا يكون لديها «أية أوهام بأن الولايات المتحدة ستتدخل في النهاية لإنقاذ جنوب إفريقيا».[28] وفي لندن كان وزير خارجية العمال الجديد ديڤيد أوين ينتقد باستمرار التمييز العنصري، «على الرغم من شعوره بالإحباط من الحكومة البريطانية التي وجدها معارضة بشدة لتطبيق أية عقوبات»، ومن قبل سفير بريطانيا إلى بريتوريا، ديڤيد سكوت، الذي أصبح فيما بعد نائب رئيس لوبي التجارة UKSATA.[30]

في جنوب إفريقية بالذات، بدت الحكومة وهي تتدمر من الداخل بسبب الفضائح المتعاظمة. فوزير الإعلام، كوني مولدر تواطأ مع مديره المتوهج إسكل رودي ورئيس الاستخبارات الجنرال فاندنبورغ لإنشاء شبكتهم بالذات الفاسدة للدعاية، والديبلوماسية السرية بميزانية سرية ضخمة. وبحلول عام 1978، كانت فضائح إنفوغيت تطول رئيس الوزراء ذاته، واضطر فورستر للاستقالة، ودفع إلى الأعلى ليصبح سريعاً رئيس الدولة.[31]

بدا أن آمال مانديلا بحدوث انقسام في صفوف الأفريقانيين قد تحققت في النهاية، وأن الأفريقانيين الأحرار ربما يبدؤون بتحطيم الجبهة الصلبة للتمييز العنصري. كتب عام 1978: «مع التخطيط الملائم والمعرفة الأفضل للإفريقيين عموماً، يمكننا التحدث مباشرة إلى جمهور أوسع وأن نكسب أمثال برام فيشرز وجاك سيمونسيس وبيت فوغلمسيس وبريتين برتينباخ.»[32] وتشجع هو وسيسولو من قبل كتاب أفريقانيين أمثال أندريه برينل وجان رابي، ممن كانوا يهاجمون القمع. كتب سيسولو عام 1976: «في حقل الأدب، بدا أن الكتّاب الأفريقانيين يظهرون أنهم أكثر إيجابية وصراحة حول مسائل القمع والتفرقة العنصرية من أمثالهم من المتحدثين بالإنكليزية الذين نقبوا بضعف إلى حد ما في مسائل كهذه عبر فترة أطول بكثير».[33]

لكن الحزب الوطني اختار بدل فورستر وزير الدفاع ب. دبليو. بوثا رئيساً للوزراء الذي برهن سريعاً على أنه معارض أشد قسوة. كان بوثا بطلاً قوياً لشعبه، ضخماً، متنحراً يقف وراءه جيش موالٍ، وقد رأى نفسه مقاتلاً ومصلحاً في آن واحد. شهد بسرعة إصلاحات هدفت إلى استرضاء وتهدئة رجال الأعمال المحليين والرأي العام العالمي، وإلى تأسيس طبقة وسطى سوداء راغبة في التعليم. سمح للسود في المناطق المدينية بشراء عقود إيجار طويلة، ووافق على إضفاء الشرعية على نقابات العمال السود. ومع هذه الإصلاحات، لاحظت وكالة الاستخبارات المركزية في منشورها بعنوان «استعراض إفريقية» أن: «فشل الحكومة في الاستجابة لمطالب اليد العاملة السوداء بالمساواة في مكان العمل من شأنه أن يدمر الآمال بالازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي».[34]

عزز بوثا أيضاً وبقوة آليته العسكرية في عهد وزير الدفاع الجديد مانغوس مالان. مصعداً الحملة لمحاربة «الذبح الجماعي» للقوى الشيوعية. وآثر سريعاً زعماء الأعمال وأدخلهم في النظام الأمني وصناعة الأسلحة المتنامية.

لم تكن لدى مانديلا الثقة بإصلاحات بوثا. «ليس هناك حتى مجرد همس حول حكم الأغلبية أو أي نوع من التمثيل المباشر للسود في برلمان البلاد» هذا ما قاله الدكتور كيلي في غلاسغو، وتذكر السنوات العشرين الأخيرة من الإبعاد والقتل والتعذيب: «كل جيشان ـ مثل مقاطعة المدارس والمظاهرات ـ يتم قمعه بعنف ويتحول إلى حمام دماء».[35]

صار المؤتمر الوطني الإفريقي الآن في المنفى يواجه قوة عسكرية ضخمة أكثر. لكن تامبو كسب القوة من انتفاضة السوويتو. كان أكثر تعاطفاً مع الثوار الشبان من مانديلا، متذكراً ماضيه في العصبة: «بدأنا بطريقة ما من الوعي الأسود أيضاً». كما كتب في مجلة المؤتمر الوطني الإفريقي ـ سيشابا ـ أواخر عام 1977[36] وعندما استطاع آلاف اللاجئين الشبان الفرار من جنوب إفريقية، جند المؤتمر الوطني الإفريقي أعداداً كبيرة في معسكرات تدريبه. وكان القلائل منهم قادرين على التغلغل مجدداً إلى داخل جنوب إفريقية، حيث كان العسكريون فعالين بدرجة متزايدة بمساعدة المخبرين والتعذيب، لكن منذ سوويتو، كان المؤتمر الوطني الإفريقي يعطي أهمية أكبر للتعبئة السياسية داخل جنوب إفريقية لدعم الكفاح المسلح. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1978 ترأس تامبو وفداً للمؤتمر الوطني الإفريقي، ضم جوي موريس، جوي سلوفور وثابو مبيكي، إلى ڤييتنام بعد إعادة توحيدها. وعند عودتهم أصدروا «كتاباً أخضر» عن الأولويات الجديدة التي تم قبولها إلى حد كبير من قبل المجلس التنفيذي الوطني. وتنبؤوا «بحرب شعبية طويلة الأمد» أكثر من العصيان الشعبي الواسع». وحددوا المهمة الرئيسية بأنها «التوكيد على التعبئة السياسية والتنظيم لإشادة قواعد ثورية سياسية عبر أنحاء البلاد».[37]

رأى مانديلا بريقاً من الأمل لنفسه في آذار (مارس) 1980 عندما قدم بيرسي كوبوزا محرر «الصنداي بوست» الصادرة في جوهانسبورغ التماساً لإطلاق سراحه تحت عنوان «أطلقوا سراح مانديلا». وكان هذا الالتماس بوحي

من المؤتمر الوطني الإفريقي في لوساكا الذي ابتعد عن تقليد تشجيع القيادة الجماعية، مع أن بعض من في روبن آيلاند كانوا قلقين بخصوص عبادة الشخص.[38] وكسبت الحملة الزخم بسرعة داخل جنوب إفريقية. ففي اجتماع في جامعة ويتس بعد عشرين عاماً على شاربفيل، شرحت زندزي ابنة مانديلا الهدف من الالتماس بأنه «مجرد القول إن هناك بديلاً لحمام الدم المحتوم».[39] وجاء الدعم من دوائر غربية: فالعديد من البيض وضعوا متظاهري «أطلقوا سراح مانديلا» في سياراتهم، بل إن الجنرال فاندنبورغ الذي طرد من الاستخبارات السرية بعد فضيحة «إنفوغيت»، قال الآن إن مانديلا يجب أن يطلق سراحه؛ قال لكيت كاتزين من الصنداي إكسبريس الصادرة في جوهانسبورغ: «أعرف جيداً تاريخ الرجل، وأتحدى أياً كان بأن يجيء بأي دليل يبرهن على أن مانديلا كان عضواً في الحزب الشيوعي».[40] لكن وزير الشرطة لويس دي غرانج، أصر على أن مانديلا «يبقى مجرد شيوعي عنيد كما كان خلال حياته كلها». وبوثا الذي انهالت عليه الأسئلة والتحديات من الطلاب الأفريقانيين كرر أنه لن يطلق سراح «الماركسي الماكر».[41]

أدت الحملة إلى تجدد المزاعم حول شيوعية مانديلا ضد الدليل. جاء في تقرير سري جداً من مجلس أمن الدولة في أيار (مايو) 1982: «هناك ـ مع ذلك ـ افتراضات قوية بأن مانديلا في الحقيقة هو عضو في الحزب الشيوعي». لكنهم اعتمدوا على التهم القديمة بأنه حضر اجتماعاً للجنة المركزية عام 1962، وعلى نسخته «كيف تكون شيوعياً جيداً» التي عرضت في محاكمة ريفونية.[42]

ترددت حملة «أطلقوا سراح مانديلا» في شتى أنحاء العالم. ففي نيويورك شارك مجلس الأمن الدولي بالدعوة إلى إطلاق سراحه، كوسيلة وحيدة لتحقيق «نقاش فعال لمستقبل البلاد».[43] وفي لندن ناشد تامبو أن يكون عام 1980 هو «عام الكفاح الجماهيري الموحد»، وأعاد نشر البيان الذي كتبه مانديلا بعد انتفاضة السويتو، بدعوته النضالية: «أولئك الذين يعيشون جنباً إلى جنب مع

البندقية يموتون بالبندقية. اتحدوا! تعبؤوا! استمروا في القتال». [44]

بدأ المؤتمر الوطني الإفريقي بالتسبب بالمزيد من التخريب الفعال. بالتماشي مع سياسته الجديدة «الدعاية المسلحة»، في حين يتجنب الأهداف المدنية والإرهاب. في حزيران (يونيو) 1980 وضع فدائيو المؤتمر الوطني الإفريقي القنابل في ثلاث منشآت رئيسية للبترول المستخرج من الفحم؛ وأضاءت الانفجارات السماء على بعد خمسين ميلاً. قالت صحيفة «راند دايلي ميل» إن جنوب إفريقية أصبحت الآن في «حالة حرب ثورية». [45] وكتب مانديلا إلى تامبو إن هجمات كهذه «عززت إلى حد كبير وضع المؤتمر الوطني الإفريقي وجعلتنا نرفع رؤوسنا عالياً. نحن دون ريب قوة يجب أن يحسب لها حساب».

لكن حكومة بوثا كانت مصممة على إبعاد قواعد المؤتمر الوطني الإفريقي إلى ما وراء حدود البلاد. ففي كانون الثاني (يناير) 1981 قامت قواتها بغزو موزامبيق، مهاجمة ثلاثة أبنية في العاصمة مابوتو، وقتلت ثلاثين من المؤيدين للمؤتمر الوطني الإفريقي. ورأى مانديلا أن ذلك مرتبط بوضوح بانتخابات نيسان (أبريل) المقبلة في جنوب إفريقية. «بي. دبليو. بوثا مستعد لخرق السلامة الإقليمية لدولة مستقلة». كما كتب إلى تامبو. وتابع «وقتل لاجئين عزّل من أجل البقاء في السلطة». كان يعتقد أن بوثا كان يحاول التقرب من إدارة ريغان في حملتها العنيفة ضد الشيوعية. لكن مانديلا بدا متفائلاً رغم ذلك: «ستكون ضربتنا المقبلة مدمرة لدرجة تجعل المزيد من مؤيدي الحكومة يدركون أن الـ Nats يقودون البلاد إلى كارثة تامة». [46]

بحلول عام 1981 كانت الهجمات والردود تتصاعد: جوي غابي مقال سابق من الـ MK وممثل المؤتمر الوطني الإفريقي في زيمبابوي تم قتله في هراري؛ وبعد ذلك مباشرة انفجرت قنبلة في مركز تسوق في بورت إليزابيث. وأعلن تامبو أن «أوضاع القتال» ربما تتصاعد مما يحتمل أن يعرض المدنيين للقتل. وخلال أربع سنوات ونصف كان هناك 112 هجوماً وانفجاراً. وكانت

حسب قول المؤرخ توم لودج في عام 1981، «كانت أكبر تمرد عنيف متعزز في التاريخ الجنوب إفريقي، وتشير جميع الدلائل إلى أنه سيستمر إلى حرب ثورية شاملة» .[47]

كان التمرد يصل إلى نوع من العصيان ضمن الدوائر الانتخابية. إلا أنه كان يتصاعد أيضاً ضد الحرب الباردة الكونية عندما كانت القوى الغربية تراقب جنوب إفريقية السوداء من خلال تليسكوبات مصبوغة بالأحمر.

حملة ب. . دبليو بوثا العنيفة ضد الشيوعية كانت تحظى بالمزيد من الدعم من الحكومات المحافظة الجديدة في لندن وواشنطن، ومن المنظمات اليمينية والشركات في أمريكا وأوربا. رأوا في مانديلا عدواً رئيسياً، بينما أَعَدُّوا بوثيليزي وبوثا أبطال المشاريع الحرة.

عندما جاءت مارغريت تاتشر إلى السلطة في بريطانيا عام 1979، كانت متعاطفة مع الجنوب إفريقيين البيض ـ حيث تأثرت بزوجها دينيس، الذي كان له أصدقاء جيدون في ناتال، وأصبحت معادية كلياً للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي رأت أنه عبارة عن إرهابيين شيوعيين، يهددون قبضته الرأسمالية. وقد نصحها صديقها الخفي الأفريقاني لورينز فان ديربوست أنه في حين أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان أفراده شيوعيين Xnosa فإن الزولو كانوا شعباً فخوراً منفصلاً بقيادة بوثيليزي، قال أمين سرها الخاص تشارلز بويل «لقد أنصتت إليه بنشوة وشفتاها مفتوحتان» .[48]

وفي واشنطن لم يكن رونالد ريغان «منغمساً جداً» بقضايا جنوب إفريقية (كما أشار إلى ذلك بدقة وزير خارجيته الجنرال ألكسندر هيغ). وأن تشيستر كروكر المكلف بإفريقية في وزارة الخارجية أخبر مراسلاً من جنوب إفريقية: «كل ما يعرفه ريغان عن جنوب إفريقية هو أنه إلى جانب البيض». مع ذلك، شرع كروكر بسياسة طموحة «لانغماس بناء» تهدف إلى إخراج الكوبيين من أنغولا، وإخراج الإفريقيين الجنوبيين من ناميبيا، وهذا يعني التعامل عن كثب

مع ب. دبليو بوثا ووزير خارجيته بيل بوثا، لكنه ترك المؤتمر الوطني الإفريقي جانباً كلياً؛ «كروكر لن يلتقي تامبو حتى عام 1986.[49] ومفاوضات كروكر الهادئة دمرها مدير السي، آي، إيه المتعنت وليام كيسي الذي كان يعمل مع مستشار ريغان المقرب بات بوكانان. كان كيسي يدعم المؤامرات السرية ضد الشيوعيين عبر القارة. وفي جنوب إفريقية صادق رؤساء الاستخبارات في بريتوريا وأيد ب. دبليو. بوثا ـ حيث قدم له نسخة موقعة من كتابه.[50]

لقد تحطمت آمال المؤتمر الوطني الإفريقي بالحصول على التأييد من الدول السوداء المستقلة بسبب الفشل المتواصل لحكوماتها، وبسبب الانقلابات المتتالية والانقلابات المضادة. فعبر عقدين من الزمن عانى ثمانية وعشرون بلداً إفريقياً من الانقلابات العسكرية، وتمت الإطاحة بخمسين حكومة، استولى على البعض منها ديكتاتوريون تجاهلوا جميع الحقوق الإنسانية، أمثال عيدي أمين في أوغندة.[51] وبحلول أوائل عقد الثمانين كانت نيجيريا فقط بعائدات نفطها الضخمة وحكومة مدنية جديدة كانت الوحيدة التي ظهرت بمظهر المُشجِعة اقتصادياً.

كان رجال الأعمال الغربيون يشطبون إفريقية السوداء، في حين صورت جنوب إفريقية البيضاء نفسها على أنها الجزء الوحيد من القارة القابل للحياة والازدهار. وكان الأكثر نضجاً في روبن آيلاند يتعلمون الدروس حول مشكلات الديموقراطية من الانقلابات، والحروب، والديكتاتوريون إلى الشمال. وقرروا عدم السير في الاتجاهات ذاتها.

لكن الحرب الباردة كانت تمزق الآن السياسات عبر إفريقية بأكملها، حيث أيد الاتحاد السوفييتي الأنظمة الماركسية في حين موّل الأمريكيون الزعماء المناوئين للشيوعية مثل موبوتو في زائير. وبذلك قدموا الأموال الكثيرة للفساد. ورأى الماركسيون في روبن آيلاند النكسات الإفريقية من خلال التدخل الأمريكي. وتطلعوا إلى الحكومة الشيوعية في الصومال ـ مثلاً ـ كشيء خيالي؛

فعندما أطاح الصوماليون بالروس عام 1977، وأتوا بالأمريكيين لم يمكنهم تصديق ذلك.[52] (شرح هاري غوالا أن الصوماليين لم يتبنوا فعلاً الماركسية ـ اللينينية، وكانت الديموقراقطية البورجوازية تمنعهم من ذلك).[53]

كان مانديلا يأمل في أن تتبخر الحرب الباردة بما أن النظامْين المتنافسيْن اضطرا للتعاون في الفضاء وأمكنة أخرى. قال لزندزي عام 1978: «الحرب الباردة تضمحل الآن».[54] لكنها أصبحت حامية أكثر حول أطراف جنوب إفريقية بعد أن أصبح في أنغولا وموزامبيق حكومات ماركسية. وبدت موزامبيق بسرعة وفي ظل الرئيس سامورا ميتشل حكماً اشتراكياً، لكن التكنولوجيين والمدراء البيض غادروا البلاد. وجعلت غارات الجنود المتمردين المناطق الكبيرة في حالة فوضى. وأصبحت أنغولا ساحة معركة للقوى العظمى المتنافسة: فالحكومة المركزية أتت بالقوات الكوبية في حين أيد الأمريكيون والجنوب إفريقيون جيش UNITA المتمرد التابع لجوناس سافيمبي. ومزقت أنغولا شر ممزق، كما أن المعركة من أجل البلاد استقطبت الطرفين.

معظم من في روبن آيلاند اعتبر أن السي. آي. إيه هم الأوغاد الرئيسيون، ورأى مانديلا في السي. آي. إيه عميلاً للامبريالية الأمريكية، «التي (حسبما كتب) تشجع العناصر اليمينية في كل البلدان، والتي تحاول تدمير وإطاحة الحكومات التقدمية المشروعة عن طريق العنف والتآمر والدولارات».[55] وظل يمتدح مع ذلك النظام الأمريكي الديموقراطي ـ كما جاء في كلمته في ريفونية، وعلم الرفاق الشبان عن الدستور الأمريكي وفصل القوى. لكن المناخ السائد فوق الجزيرة كان معادياً جداً للأمريكيين. قال إيريل مولوبي: «كانت أمريكا أكثر بلد مكروه، لم يتطلع أحد إلى المساعدة منهم». «كنا في إجماع في موقفنا السلبي إزاء الولايات المتحدة» قال كترارا.[56]

وبحلول آذار (مارس) 1982، كان مانديلا في السجن لما يقارب العشرين عاماً: وراقب من عزلته العالم الغربي وهو يتأرجح من اليمين إلى اليسار، ثم

إلى اليمين، منتهياً بريغان وتاتشر. معظم الحكومات نددت بالتمييز العنصري، لكن أياً منها لم تدعم بقوة السجناء أو المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى. وفي أثناء ذلك أظهر المقاتلون الشيوعيون في ڤييتنام وكوبا الطريق إلى الثورة المنتصرة، وكان الروس والألمان الشرقيون والماركسيون الآخرون يدربون فدائيي المؤتمر الوطني الإفريقي ويزودونهم بالأسلحة. واستمر المؤتمر الوطني الإفريقي في التطلع شرقاً أكثر من التطلع غرباً من أجل الخلاص؛ ذكرت الاستخبارات الروسية كي. جي. بي أن زعماء جنوب إفريقية السود يرون في الاتحاد السوڤييتي «القوة الرئيسية الوحيدة التي يمكن أن تساعدهم».[57]

لقد تحولت خارطة إفريقية عبر عقدين من الزمن بتراجع الامبراطوريات القديمة. كتب سيسولو عام 1976: «إن الثورة الإفريقية التي اجتاحت إفريقية طرقت أبواب جنوب إفريقية». «لكن الباب بقي موصداً».[58] وانفتح باب آخر عندما أصبحت زمبابوي مستقلة عام 1980، تاركة جنوب إفريقية ومستعمرتها ناميبيا فقط كبقية «للمعقل الأبيض» القديم. لكن الحكومات الجنوب إفريقية المتعاقبة ـ في ظل فيروورد، فورستر وبوثا ـ ردت بمزيد من البراعة والوحشية. ووجدت أصدقاء بين الدول الأخرى المنبوذة، ومجموعات اليمين في الديموقراطيات الغربية. ومع كل الاحتجاجات في شتى أنحاء العالم، كانت حكومة التمييز العنصري راسخة بقوة، والذين يعيشون في روبن آيلاند على الأقل لم يروا تصوراً سهلاً لانهيار الجدران.

23

عصيان مسلح

1982 ـ 1985

في نيسان (أبريل) عام 1982 جاء الضابط القائد لروبن آيلاند، البريغادير مونرو إلى زنزانة مانديلا ليخبره أن يجمع أغراضه لأنه نُقل من الجزيرة. رتب مانديلا المنذهل أشياءه المتكدسة في بضع علب كرتونية، ولم يكن لديه وقت ليقول الوداع. لقد نُقل مع ثلاثة آخرين هم والتر سيسولو، وريموند مهلابا، وأندرو ملانجيني ـ ليركبوا عبارة إلى كيبتاون. ونظروا إلى الوراء من مركبهم إلى الغسق على الجزيرة التي كانت موطنهم لثمانية عشر عاماً. وفي كيبتاون دُفعوا أمام حراس مسلحين إلى شاحنة ضخمة فوقها قفص تم إدخالهم إليه. وبعد إبقائهم وقوفاً لمدة ساعة من المسير، وصلوا إلى ضاحية توكاي الخضراء، المليئة بالكروم والحدائق. حيث أدخلوا إلى سجن بولسمور، وهو مجمّع ضخم بني ليتسع لـ 6,000 سجين من سجناء الصاري (المبني على العرف والعادة وليس المكتوب).[1] وبدا بولسمور من الخارج مشمساً وساراً. وفي الداخل كان عالماً تحتياً منغلقاً ذاتياً بممرات مظلمة وأبواب معدنية لها رنين تؤدي إلى صفوف من الزنزانات ذات القضبان المعدنية. وتم نقلهم إلى الطابق الأعلى، ليجدوا غرفة كبيرة بأربعة أسرة مع ملاءات ومناشف، ومرحاض خاص بهم. ومن هذه القلعة الحصينة سيراقب مانديلا قريباً بلاده وهي تندفع بسرعة إلى عنف أشد خطراً بكثير، حيث لم يكن باستطاعته السيطرة عليه.

كانت معاملة السجناء في بولسمور حضارية أكثر مما كانت عليه في روبن

آيلاند. كانت تقدم إليهم وجبات ملائمة من اللحم والخضار؛ وسمح لهم بالمزيد من الصحف والدوريات. بما فيها التايمز، والغارديان ويكلي؛ وكان هناك باحة طويلة على السطح، حيث يمكنهم الاسترخاء خلال النهار. وتمتعوا بآلات جديدة لم يروها قبلاً، بما فيها من تلفاز و(ڤيديو) ومذياع إف. إم.[2] وكان لمانديلا زنزانة منفصلة حيث بإمكانه القراءة وكتابة الرسائل.[3] وبالمقارنة مع الجزيرة بدا له وكأنه فندق بخمسة نجوم. لكنه أحس بالغربة والمزيد من العزلة. لقد فقد الرفقة والمناقشات، بل حتى قفر الجزيرة التي كانت أقرب إلى الطبيعة من هذا المجمع الإسمنتي.

عندما جاءت ويني لرؤيته بعد وقت قصير من وصوله وجدت أنه يبدو بحالة ظاهرية «جيدة جداً جداً». لقد أثر فيها البناء الأنيق للسجن، الذي يشبه مؤسسة تقنية حديثة، وتهذيب الحارس الذي كان مع مانديلا على الجزيرة وهو جيمس غريغوري. وقدّرت أيضاً الظروف الإنسانية بدرجة أكبر بالنسبة للزيارات. فهي ومانديلا يستطيع أحدهما رؤية وسماع الآخر بحال ملائمة. عبر زجاج نظيف ومكبرات صوت مسموعة. لكنها شعرت أنه بحالة معنوية أسوأ من السابق، لأنه انقطع عن أصدقائه وخضع «المضايقة الروح».[4] وتشكّى من البرد والرطوبة في الزنزانة وفقدان أي منظر طبيعي؛ لم يكن قد رأى ورقة عشب منذ وصوله، واعتقدت ويني أن بولسمور جعل الجزيرة تبدو وكأنها فردوس.

افترض السجناء الأربعة أنهم أبعدوا عمداً عن رفاقهم بوصفهم زعماء فتنة، وتعززت شكوكهم عندما التحق بهم كاثرادا بعد بضعة شهور، وهو عضو آخر في المجموعة العليا للمؤتمر الوطني الإفريقي (حيث لم يكن ملانجيني كذلك). وبقي غوفان مبيكي الغائب الأكثر شهرة: الماركسي الرئيسي. . في روبن آيلاند اعتقد الميجور هاردينغ أن الحكومة قررت أن «أولئك الشباب حصلوا على نفوذ كبير على الآخرين. الآن يجب أن نتخلص منهم، ونعزلهم عن الآخرين». لكنه شك في أنهم تصرفوا متأخرين جداً: إذا صدّقوا خرافاتهم

بالذات عن الاضطرابات التي سببتها مجموعة صغيرة من الزعماء.[5]

المحاربون القدماء الثلاثة ـ مانديلا، سيسولو، وكاثرادا كانوا ما يزالون معاً بعد أربعة عقود، حيث كانوا ضمن حملة التحدي، ومحاكمة الخيانة ومحاكمة ريفونية لقد عرفوا بعضهم بعضاً منذ القديم. كتب كاثرادا في حزيران (يونيو) عام 1985: «بعد كل الخلافات والتوترات، كنا قادرين دائماً على حل المشكلات بنجاح وإحسان».[6] وكاثرادا الأصغر بينهم وجد أحياناً أن «الغربيين القدامى» كما أسماهم، جديين أكثر من اللزوم. فهم لا يقرؤون آندي كاب أو هاغار أو بلوندي. . . ولا يستمعون إلى البيكر سونز أو مور كامبل ووايز أو ليلي توملين، جميع شخصياتي المفضلة. ومن الجيد أنهم يشاهدون ويستمتعون بعرض كوسبي على التلفاز». لكنهم كانوا يكبرون برشاقة: «حياة السجن ربما لم تعتقل عملية الكِبَر لكن يبدو بالتأكيد أنها أبطأتها».[7]

اشتكى مانديلا عدة مرات بشأن الأوضاع المقيتة، حيث يوجد ستة في الزنزانة، والماء يتسرب عبر الأرض الإسمنتية، إن هيلين سوزمان التي كانت قد قالت مؤخراً في التلفاز البريطاني إن مانديلا يعامل معاملة جيدة نقلت شكواه إلى كوبي كويتسي محذرة من أنها ربما تضطر إلى سحب تعليقها؛ وفيما بعد زارت بولسمور ووافقت على أن الزنزانات كانت كئيبة وأن أسباب الراحة أسوأ من روبن آيلاند.[8] واستمر مانديلا في شكاواه. وبعد عام كتب محاميه إسماعيل أيوب مذكرة من سبع عشرة صفحة إلى الوزير. وبعد خمس سنوات كان ما يزال محروماً من الخروج لوقت أكبر من زنزانته. واحتج مانديلا بشدة لرئيس السجن قائلاً: «إن قسم السجناء لم يعط القضية أية أهمية».[9]

إلا أنه تأقلم في النهاية مع المحيط الجديد. كتب إلى فاطمة مير في حزيران (يونيو) 1983: «أشعر أنني بحالة جيدة، وأصغر مما أنا بعشر سنوات. والاختلاف الوحيد هو أنني لست نشيطاً كما كنت في روبن آيلاند».[10] وكتب في شباط (فبراير) 1984: «المعنويات عالية وبينما أكتب هذه الرسالة فإن الجسد

يغلي بالتفاؤل والأمل». [11] كان على علاقة جيدة مع الضابط القائد في بولسمور، البريغادير مونرو، مع أنه حصل خلاف حول مسألة الملابس، عندما لم يسمح له باستخدام قلنسوة صوفية. ناشد مونرو «أن لا تجعل مني أضحوكة بإجباري على رؤية أسرتي والممثلين القانونيين بدون غطاء رأس مناسب». [12] سمح له مونرو بإقامة حديقة على السطح، وزوده بستة عشر برميلاً قسمت من منتصفها وملئت بالتربة الجيدة. . كان مانديلا يمضي ساعتين يومياً بقبعة من القش وقفازين محولاً السطح إلى مزرعة صغيرة. حيث نما في النهاية تسعمئة نبتة مع جميع أنواع الخضار بما فيها القرنبيط والجزر. [13] كان فخوراً «بحديقة في العلو» كما أخبر ليونيل نغاكين. [14] «كان لديه نوع من الهاجس مع حديقته» كما كتب كاثرادا. «لا يمكنك تصديق مدى الوقت والطاقة اللتين كان ينفقهما على النباتات». [15]

صار مانديلا الآن قادراً على تلقي وإرسال اثنتين وخمسين رسالة في العام، كتب بيده الممتلئة؛ بأسلوب منهجي شبه ڤيكتوري، مليء بالمجاملات والذكريات والتهاني إلى الأصدقاء والأطفال، الذين كان يتذكر أسماءهم على الدوام. وتطلع إلى حياته الماضية وحاول اللحاق بالحياة الجديدة. ومن زنزانته بدا أنه يصل إلى أي جمهور انتخابي ممكن، بما في ذلك الأحرار. وسأل عن الأعضاء الماضين في مؤسسة العلاقات العرقية، مثل صديقه من سوويتو وجاره بارني نغاكين؛ السيدة كوينتين وايت، التي علمته اللاتينية في هيلدتاون؛ وإلين هيلمان التي جمعت مبالغ من أجل محاكمة الخيانة. [16] لكنه كان مهتماً بالكنائس التي كانت تتحول إلى سياسية أكثر فأكثر. وهنأ ديزموند توتو على تعيينه أسقف جوهانسبورغ. وكتب إلى الميثودي بيتر ستوري متذكراً منبراً على جانب الطريق. رآه قبل أربعين عاماً خارج القاعة الميثودية المركزية قائلاً: «إن أعظم ما في الحياة ليس في عدم السقوط بتاتاً، بل في الوقوف بعد كل سقوط». وتذكر أيضاً كيف أن قسيساً في روبن آيلاند وصف قديساً بأنه

«خاطىء يستمر في المحاولة».[17] وكتب إلى ستيفن نايدو نائب الأسقف الكاثوليكي في كيبتاون، متذكراً لقاءه مع الأسقف كلايتون[18]، وكتب إلى الشيخ جابر الرئيس الناشط للمجلس القضائي الإسلامي عن كيفية تعريفه بالإسلام لأول مرة من قبل زعماء المؤتمر. وأدرك مدى أهميته الكاملة عندما تجول في إفريقية عام 1962. لقد قرأ القرآن بالإنكليزية في السجن، إضافة إلى كتب عن الإسلام.[19] وكتب إلى الأخت برنارد نكوبي وهي راهبة كاثوليكية سياسية كانت تسجن بين وقت وآخر. ذاكراً كيف أنه يتطلع إلى الفيلم القادم (الملك داود) وأنه مسرور لأن السير ريتشارد أتينبورو كان يصنع فيلماً عن غاندي.[20]

لقد تاق إلى المزيد من الرسائل. واشتكى ليكبو مكنتان صديقه في الترانسكي، من أنه لا يكاد يوجد رجال يستطيع التراسل معهم. والقلائل الذين ما زال من الممكن الاتصال بهم يبدون غير واعين بتاتاً لحقيقة أن الرسائل يجب أن يجاب عليها. وبالمقارنة، برهنت النساء على أنهن مراسلات أفضل بكثير، وأكثر إدراكاً لاحتياجات السجناء.[21] وكان سريع الغضب في وحدته؛ كتبت أمينة كشاليا واصفة كيف أن زوجها يوسف الرئيس السابق للمؤتمر كان ينجح في مجال الأعمال، وأجابها مانديلا بتعليق عن الـ ringing till الذي اعتبره يوسف توبيخاً، وكتبت أمينة مجدداً وبتفهم: «من الواضح أن جعبتك مليئة بالأخبار، وأن الرجل الشريف الذي بداخلك يضطرك لأن تكشفه لي». وترجمت شعراً بلغة الأوردو استشهد به يوسف:

راقب الشمس الطالعة

واشهد بريق نقائها الشفاف

المختفي وراء الستار

لكن مانديلا اشتكى بحزن من رسالة أمينة الباردة: «هناك كتلة جليدية في

داخلي لا يمكن أن تذيبها إلا رسالة منك». وأكد لها أنه يوافق على عمل يوسف: «حتى في المجتمعات التي لا يكون فيها هدف الاستفادة هو الموضوع السائد في النشاط الاقتصادي، فإن مدراء الأعمال يسعون مع ذلك ليوم عمل جيد». واختتم بحزن متمنياً لو كان معهم فقط، «لكنت عانقت ببساطة يوسف وقبلتك». كان هذا تذكيراً مؤثراً بالحاجة للاتصال الملموس في العلاقات. وبعد خمس سنوات كان مانديلا ما يزال يرجع إلى التوبيخ؛ لم يكن يجرؤ على السؤال عن «الحانوت»، كما كتب، «خيفة أن تحصل ضربة لسانية أخرى واستشهاد قاس لشاعر من الأوردو... في عزلة زنزانة السجن فإن التوبيخ من زوجين محبين ربما يكون مؤلماً كسهم يغرز في القلب».[22] لكنه أظهر وجهاً جريئاً مقداماً بعد عقدين في السجن، في رسائل عرف أن المراقب سيقرؤوها. أخبر كيبو مكينتين: «لو كنت مضطراً سأكون على استعداد لتمضية واحد وعشرين عاماً أخرى بدون أي أسف، فأنا روحياً أعيش بعيداً جداً خارج تلك الجدران، وأفكاري لا تكاد تكون في الزنزانة.[23] قال لبارني نغاكين: «كونك مسجوناً وراء القضبان لاثنين وعشرين عاماً هو بأي مقياس تجربة تمزيقية يفقد فيها المرء جميع مباهج كونه حياً... لكن كما تعلم، فإن الإنسان لديه قدرة مذهلة على التأقلم، والاعتياد، في الوقت المناسب، على بعض الأوضاع التي لا تصدق».[24] وقال لصديق آخر: «لو كان بإمكاني التكهن بكل ما حدث منذ ذلك الوقت، لاتخذت بالتأكيد القرار ذاته، لكن القرار الذي سيكون أرهب بكثير، وبعض المآسي التي تلت ذلك، ستذيب أي أثر من آثار القوة الفولاذية في داخلي».[25]

كانت زيارات ويني ورسائلها ما تزال الخط الحيوي الرئيسي لدى مانديلا. قال لها في آذار (مارس) 1983: «كنت تبدين جذابة بشكل ساحر حقاً في ثوبك خلال زيارتك الأخيرة. ورسائلك هي أكثر من منشّط. أشعر بأنني مختلف في كل مرة أسمع منك». حتى إنه كان يستمتع بمداعباتها «التي

أصبحت جزءاً من حياتنا، حبنا المتبادل، وسعادتنا». وقال لها بعد عامين: «هناك أشياء ثمينة تستحق العناء. وعلى رأسها بلادي المحبوبة وأمي الحبيبة».[26]

لكنه كان بحاجة إلى الأصدقاء أيضاً، قال لصديقته الهندية أديلايد جوزيف في لندن: «لتقدير قيمة الصداقة يجب أن يكون المرء في سجن، وبعيداً عن الزوجة المحبوبة والأبناء». وأضاف أنه عندما لم يستطع مساعدة أسرته في مشكلاتها «فإن الحياة أصبحت تعذيباً بكل ما في الكلمة من معنى».[27] وكتب إلى صديق أمريكي؛ آرثر غليكمان وهو في مزرعته في ماين: «في العد النهائي فإن مصادر المرء الداخلية، والثقة بأن له مليون صديق، هي التي تعطي الإيمان والتأكد بأنك تقوم بواجبك حتى وراء الجدران الكئيبة. أتمنى لو أكون في تلك المزرعة».[28] لقد استمد دوماً القوة من ذكريات نشوئه في بلده. «إن الفتى الريفيَّ بداخلي يرفض الموت، على الرغم من السنين الكثيرة من التعرض للحياة المدينية». كتب إلى إيفي شولتز عام 1986: «إن المرج المنبسط والأغصان والعشب والحياة الجسدية تجعل الحياة شيئاً ممتعاً حقاً».[29]

كان يندب موت الأصدقاء، لا سيما أمثال يوسف دادو وروث ڤيرست ممن ضحوا بأنفسهم في سبيل النضال. كتب إلى ابن بارني نغاكين وهو ليونيل في لندن: «العالم الذي عرفناه جيداً في وقت من الأوقات يبدو وهو يتداعى بسرعة. كنا مشغولين جداً خارج السجن، بحيث لا يكاد يتوفر لدينا الوقت للتفكير بجدية بالموت. لكن يجب أن تحبس في زنزانة سجن مدى الحياة لتقدر الحزن القاتل الذي يلفك عندما يدق الموت بابك».[30]

صار بإمكانه الآن أن يقرأ بغزارة أكثر. حيث هو أقل تقيداً بالمحتوى السياسي. كان لديه أربعة مجلدات من كتاب جي. دي. بيرنال: «العلم في التاريخ» وكتاب وشابيرا «الحكم والسياسات» وكتاب شورمان وشل «الصين الجمهورية» وكتاب سمير أمين «الاستعمار الجديد في إفريقية الغربية».[31] وفي

أيار (مايو) 1985 أخبر صديقاً له بأنه يقرأ «السياسات السوداء في جنوب إفريقية منذ 1945 لتوم لودجز. و«وقت أطول من الأصل» لإدي روكس. و«من الاحتجاج إلى التحدي» لكاريس وكارتر. وهي الكتب التي تم تهريبها إلى السجن من قبل كاثرادا.[32] وسره سماع أن ماردي بنسون كانت تكتب عن تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي: «ما نزال مسحورين بالأدب اليوناني للأزمنة القديمة. وعمل حول آ. جي. إل [الوثولي] أو تشيكيدي [خاما] ربما يثير اهتماماً مجدداً بعد أن تم إنقاذ ثمرة الجهد. . . قراءة الفجر أصبحت من ظواهر حياتنا، لا سيما خلال السنوات السبع والثلاثين الأخيرة، بحيث إن جهود جميع أولئك الذي اختصوا بهذا الموضوع لم تكن عبثاً».[33] كان بحاجة إلى الاسترخاء ـ كما قال لأديلايد جوزيف ـ «بصيغة روايات وسير ذاتية».[34] لكنه فضل الروايات السياسية. واستمتع برواية نادين غارديمر 1979 ابنة بيرغر، التي كانت قائمة جزئياً على صديقه برام فيشر، وكان مطمئناً لتورط غارديمر السياسي المتنامي: قال عن هيلين جوزيف: «لقد أصبحت مبلِّغة معلومات قوية وجريئة تصل رسائلها إلى ما وراء الآفاق المرئية، كم من الفتيات يعتبرون اليوم ثمينين مثلها[35]!».

لكن كلما ازداد مانديلا نهلاً من العالم الخارجي، كلما ازداد إحباطه لانقطاعه عن أي انغماس، وقد أصبحت بلاده أقرب إلى الحرب الأهلية: وازداد هذا الشعور منذ أن أصبح المؤتمر الوطني الإفريقي الآن يستعرض عضلاته أخيراً ويضع اسمه وزعامته موضع التنفيذ.

وحملة «أطلقوا سراح مانديلا» التي كانت قد بدأت في آذار (مارس) 1980 أصبحت تبرهن عن فعاليتها بنشر قضية المؤتمر الوطني الإفريقي. وكما قال غوفان مبيكي فيما بعد، كانت «الإشارة الواضحة إلى أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد عاد إلى مركز المرح السياسي بالذات». وأعلن تامبو عام 1980 عن «عام ميثاق الحرية».

بعد خمسة وعشرين عاماً على إعلانه ـ وبدأ كاتبوا الميثاق بالظهور

مجدداً، حيث التزموا بديموقراطية غير عنصرية. وفي العام التالي شُنت حملة «ضد الجمهورية» في الذكرى العشرين لقيام الجمهورية. وأصبح السجناء الذين أطلق سراحهم من روبن آيلاند يلعبون أدواراً رئيسية على أرض الوطن. وقبل اغتياله في هراري عام 1981، أسس جوي غابي «مجموعة دراسات» في سوويتو ضمت العديد من الناشطين السود الواعين من روبن آيلاند، ومن بينهم بوبو موليفي، إريك مولوبي وميرفي موروبي. وفي دوربان كان الشبان الهنود والإفريقيون يخططون لعمل جماعي يشجعهم ماك ماهاراج الذي أصبح الآن مسؤولاً عن «إعادة البناء السياسي» للمؤتمر الوطني الإفريقي في لوساكا. وجاءت روح التمرد إلى عقد الثمانين من المجموعات السياسية المنفصلة، بمن فيها من الشيوعيين السود الواعين ورجال الكنيسة. لكن تامبو في لوساكا صمم على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يضم أوسع جبهة ممكنة، وأن «يضع تحت مظلته الثورية جميع الحلفاء الفعليين والضمنيين، وأن ينشّط ويسيّر ويوجه ويقود الجميع في هجوم موحد ضد العدو».[36]

وحرض تحول خاطىء على المزيد من التمرد اتخذه ب. دبليو. بوثا عام 1982. بعد وقت قصير من وصول مانديلا إلى بولسمور. واقترح بوثا تغيير الدستور الجنوب إفريقي بحيث يسمح للهنود والملونين بانتخاب ممثليهم بالذات في البرلمان، لفصل البرلمانات التي لديها سلطة اقتراع على التعليم والإسكان والإنعاش. لكن الإصلاحات استبعدت الإفريقيين، الذين سيبقون بدون اقتراع. كانت حركة تهدف بوضوح لتقسيم الشعب غير الأبيض، لكن كانت لها النتيجة المعاكسة، مؤدية إلى دعوات جديدة لجبهة موحدة من جميع العروق والأحزاب، لا سيما من المؤتمر الوطني الإفريقي. وأعلن تامبو أن عام 1983 هو «عام العمل الموحد». ودعا إلى «جبهة واحدة للتحرير الوطني».

كان الملونون الموجودون في كيبتاون هم الذين قدموا الاحتجاج الجديد المفاجيء إلى حد كبير. إذ كانوا تقليدياً محافظين على الدوام، يتطلعون نحو



مانديلا يقابل أوليفر تامبو المنفي في مؤتمر في أثيوبية سنة 1962.

في القيادة العسكرية في الجزائر، التقى مانديلا وروبرت ريشا بالقادة الثوريين واستمع إلى نصائحهم حول حرب العصابات.

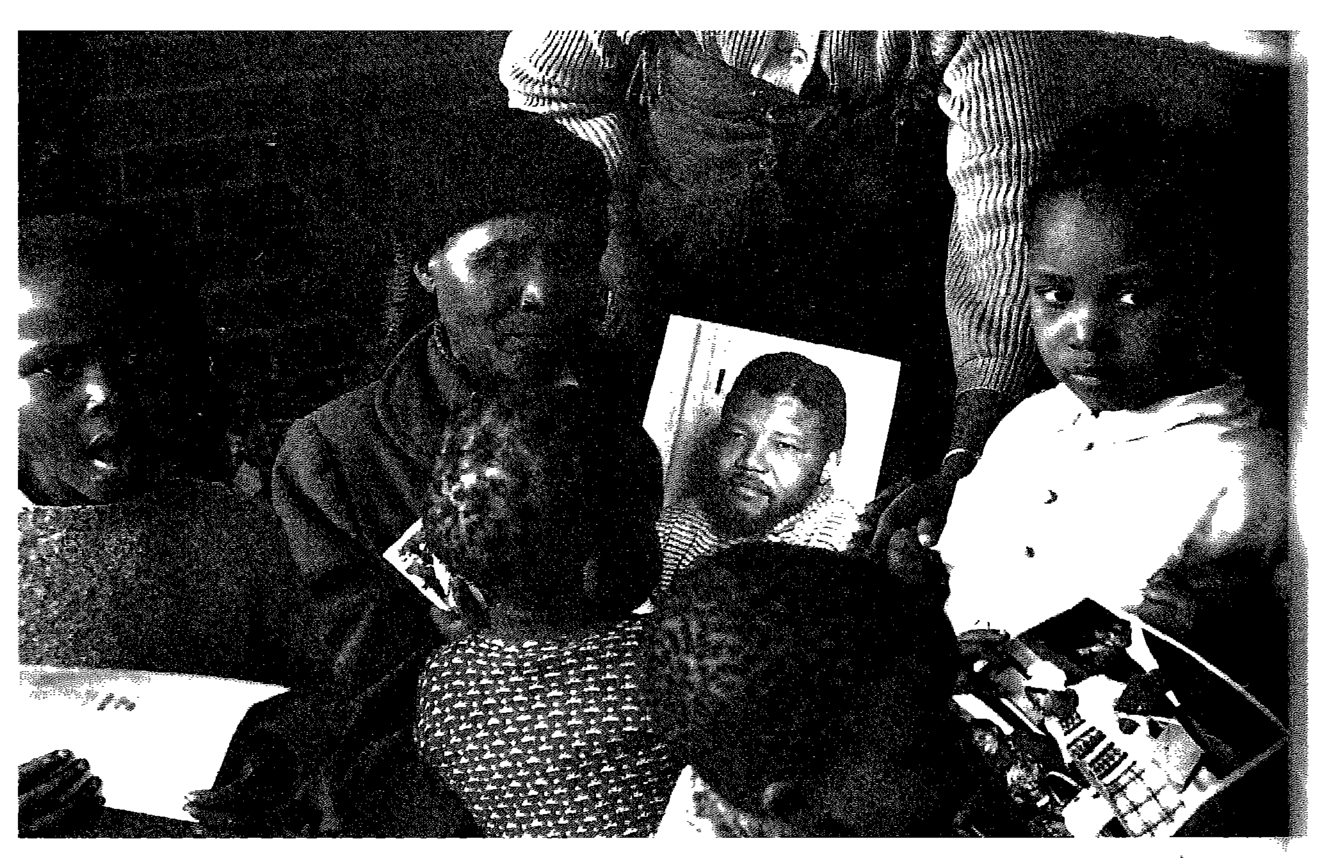




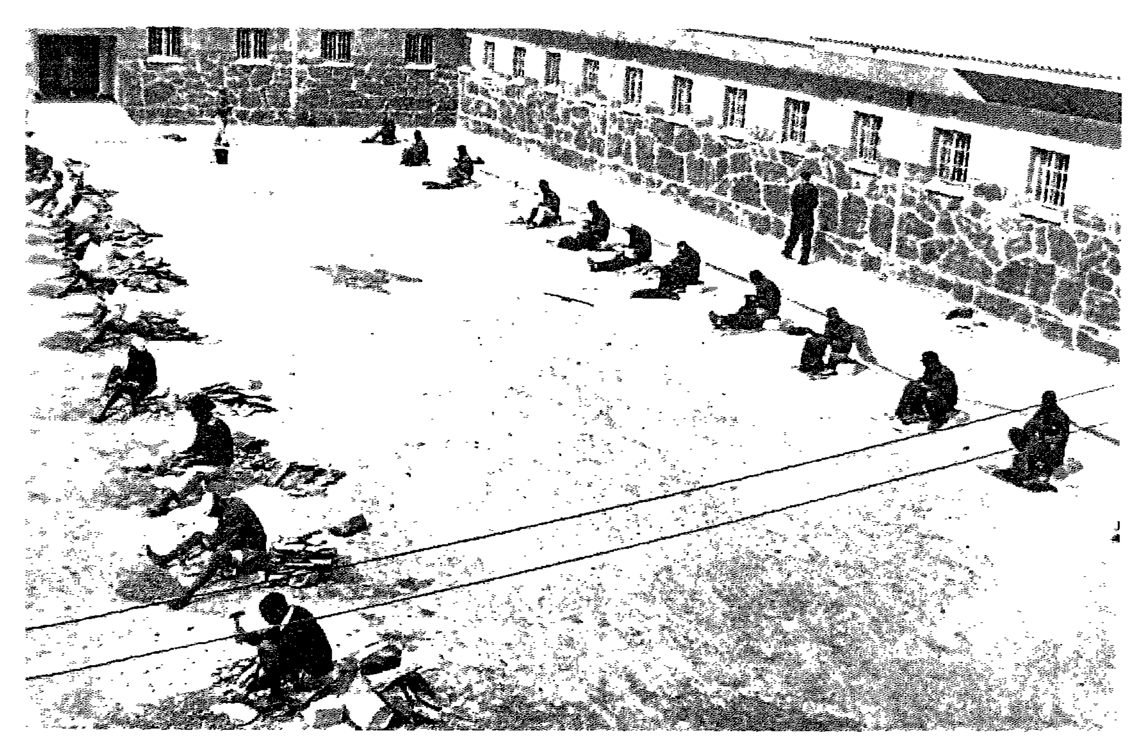
مانديلا في لندن في حزيران (يونيو) 1962.

الرجال الثمانية الذين صدر بحقهم حكم بالسجن المؤبد في قضية ريفونية سنة 1964.





أتت والدة مانديلا إلى بريتورية سنة 1964 لتحضر محاكمة ابنها، وشاهدته وهو يتلقى الحكم بالسجن مدى الحياة. وبعد ذلك بأربع سنوات زارته في جزيرة روبين، وماتت بعد ذلك ببضعة أسابيع.



سجناء من ضمنهم مانديلا في باحة السجن في جزيرة روبين سنة 1965.

مانديلا وسيسولو في جزيرة روبين.



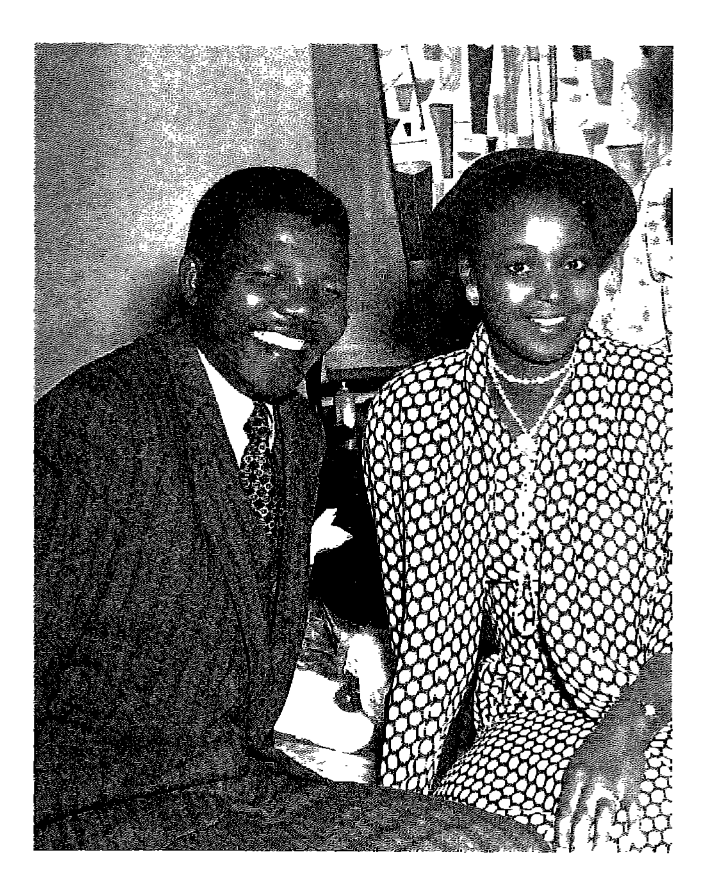


قيصر ماتانزيما، ابن أخت مانديلا الذي كان بطله في وقت مبكر، يزور ويني في سويتو.



مانديلا في الحديقة في جزيرة روبين سنة 1977 مع القائد الناميبي تويفو جا تويفو وجاستيس مبانزا.





زير النساء الوسيم مع زوجته الشابة الجميلة ويني.

كُزْبَرَةٌ الثعلب السوداء الملتحي.





الأمير الكزوسي يرتدي الزي القبلي لمحاكمته في سنة 1962.

تمثال نصفي (أوسع من الحياة) لمانديلا في الضفة الجنوبية للندن يكشف الستارة عنها أوليفر تامبو سنة 1985.





مانديلا يخرج من السجن وقد وضع يده بيد ويني.

أول لقاء بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة في أيار (مايو) سنة 1990.



البيض أكثر من السود؛ وأغري الكثير منهم بالدستور الجديد، لكن الزعماء السود ذوي البصيرة الأبعد صمموا على مقاومة تقسيم صفوف أعداء التمييز العنصري، والالتحاق بالإفريقيين وضموا عضواً جديداً مفاجئاً لم يكن مانديلا لينسى شجاعته.

أصبح الكاهن آلان بويساك، وهو واعظ في الفرع الملون لكنيسة الإصلاح الهولندية أصبح مؤخراً رئيس التحالف العالمي للكنائس الإصلاحية. وهو اللاهوتي في السابعة والثلاثين فقط، وذو الصوت المرتفع، سيتبين سريعاً أن لديه Expensive tastes، أخلاقية شكوكية خاصة؛ لكنه كان خطيباً لامعاً، يقارن كثيراً بمارتن لوثركينغ، وكان فصيحاً في الدفاع عن الحقوق الإنسانية. ودعا لأول مرة «لجبهة موحدة». في اجتماع كبير في جوهانسبورغ في كانون الثاني (يناير) عام 1983. الكلمة كانت بادىء الأمر على انفراد، إلا أنها أطلقت رداً فورياً من جانب الناشطين، الذين شكلوا لجنة توجيهية من جميع العروق ومجموعات كثيرة مختلفة بما فيها لجنة «أطلقوا سراح مانديلا». وبينما سارت حكومة ب. دبليو. بوثا حثيثاً في خططها من أجل البرلمان الـ trice a meral. فإنهم صعدوا احتجاجاتهم. وفي 20 آب (أغسطس) 1983، قبل بضعة أيام من مناقشة البرلمان الأبيض للمقترحات، كان لديهم اجتماع جماهيري في سهل ميتشل وهو الضاحية الملونة في كيبتاون لإنشاء منظمة جديدة: الجبهة الديموقراطية الموحدة. وكانت المتحدثة في الافتتاح عضواً قديماً في المؤتمر الوطني الإفريقي، فرانسيس بارد التي ذكرتهم بكلمة ماكميلان «رياح التغيير» قبل عشرين عاماً، قالت إنها تستطيع الآن أن تستنشم «هواء الحرية» وهو يكتسح إفريقية، وطالبت بإطلاق سراح «زعمائنا». [37] وقُرئت رسالة من مانديلا في بولسيمور، الذي سميّ أحد أنصار الحركة. لكن الكلمة المثيرة بدرجة كبيرة كانت من قبل بويساك الذي أكد «الحقوق التي منحها الله» للشعب؛ «نحن نريد جميع حقوقنا، نريدها هنا ونريدها الآن». [38] وسمع سيسولو عن الحدث

بسرور من ولده زويلاخي، الذي زاره في اليوم ذاته. «كان رابطاً بين المنفيين والشعب في البلاد».[39]

كانت مساعدة المؤتمر الوطني الإفريقي للجبهة الديموقراطية الموحدة تناقش في معظم الأجيال، لكن كان له نفوذ واضح على زعامة الحكومة».[40] فالرؤساء الثلاثة المشتركين كانوا من أبناء المؤتمر الوطني الإفريقي: ألبيرتينا سيسولو، زوجة والترز من جوهانسبورغ؛ أوسكار مفيشا، وقد أطلق سراحه من روبن آيلاند من الكاب الغربي. وآرشي غوميد من ناتال. ويوبو موليفي وتيرور ليكوتا اللذين أطلق سراحهما من روبن آيلاند عام 1982، انتقلا من الوعي الأسود إلى المؤتمر الوطني الإفريقي، وأصبحا أمين سرٍ عاماً وأمين سر للنشر قبل أن يعاد اعتقالهما.

وضعت الحكومة الدستور الـ «tricameral» الجديد أمام الاستفتاء للناخبين البيض في تشرين الثاني (نوفمبر) 1983. وعارضه زعماء الأعمال القلائل، بمن فيهم هاري أوبنهايمر «من الأنكلور أمريكان»، وبعض السياسيين التحرريين البيض بمن فيهم فان زيل سلابيرت من الحزب التقدمي، والذي تكهن بأنه سيعادي الإفريقيين. لكنه لقي التأييد من معظم رجال الأعمال، والصحف ذات النفوذ الصادرة بالإنكليزية وهي الصنداي تايمز والفانينشال ميل. وسعى السفيران البريطاني والأمريكي إيوين فيرغسون وهيرمان نيكل وراء «خطوة في الاتجاه الصحيح».[41] وفي أثناء ذلك اقترع 76٪ بقول نعم للدستور الجديد، وهذا نصر لبوثا.

كان قد عُين بوظيفة رئيس دولة، مشرفاً على البيض والهنود والملونين. في حين شعر الإفريقيون أنهم معزولون أكثر من السابق.

وبعد ذلك بوقت قصير حقق بوثا نصراً ديبلوماسياً على المؤتمر الوطني الإفريقي بتوقيعه معاهدة عدم اعتداء مع الرئيس سامورا ميتشل، في نكوماتي في موزامبيق المجاورة، وهذا ما عزل بالتالي قواعد المؤتمر الوطني الإفريقي.

وبدت صور ميتشل القصير إلى جانب بوثا الطويل وكأنها ترمز إلى انتصار القوة المتنحرة في بريتوريا، وتسدد ضربة قاصمة للكفاح المسلح الذي «أدهش العالم التقدمي» (كما عبر المؤتمر الوطني الإفريقي)؛ لكن المعاهدات ساعدت في تركيز جهود المؤتمر الوطني الإفريقي على التمرد الداخلي. قال عالما الاجتماع هيريبرت آدم وكوجيلا مودلي: «إن هزيمته الدبلوماسية في نكوماتي تحولت إلى نصر نفسي في الوطن».[42]

سمع مانديلا عن تلك النكسات مع كل إحباطات عزلته. ورأى أن بوثا يتظاهر بإصلاح التمييز العنصري في حين كان يوسعه فعلياً فصل الهنود والملونين عن الإفريقيين. ورأى في المجالس الجديدة «هواتف دمى» جديدة مثل المجلس التمثيلي للسكان الأصليين[43]، لكنه شعر بالارتياح بالنتيجة الصغيرة لغير البيض بالنسبة إلى انتخابات Tricameral في آب (أغسطس) 1984: فقط 31٪ من أصوات الملونين المؤهلين للانتخاب، و20٪ فقط من الهنود. وبدا البرلمان مسرعاً في توحيد الناشطين بدلاً من تفريقهم. وتعرض زعماء الجبهة الديموقراطية الموحدة إلى الاعتقالات والاحتجاز والاغتيالات، لكنهم وقفوا يداً واحدة، وأظهر بنيانهم غير المتماسك وغير المركزي مدى فائدته. لأنه في الوقت الذي أزيلت فيه الطبقات العليا، فإن المجموعات المحلية والنوادي الصغيرة كانت تقدم البديل باستمرار. وقال والتر سيسولو فيما بعد إن تأليف الجبهة الديموقراطية الموحدة «حوّل المد جذرياً ضد ما يحرزه نظام ب. دبليو. بوثا من تقدم».[44]

من عزلته في السجن، أصبح مانديلا قريباً أكثر من التطورات، لأنه سمح له بالمزيد من الزوار. وارتاب في أن بوثا ووزارته كانا يستخدمان أولئك الزوار «لاختبار المياه»، لكنه هو بالذات يستطيع استخدامهم لإظهار قوته وعقلانيته أمام جماهير مختلفة من الناخبين، كما بإمكانه اللحاق بما يحدث في العالم.

استطاع التواصل مع الصحفيين عندما زاره في آب (أغسطس) 1984

بنجامين بوغراند من الراند وايلي ميل (اعتبره مانديلا «مدير أعمال ملتصق بمكتب أنيق» في مين ستريت). لكن لم يسمح له بالإخبار عن الزيارة. لم ير بوغراند مانديلا منذ عشرين عاماً. وفوجىء لأنه وجد شعره مبيَضّاً، رمادياً كلياً، ووجهه مغضناً جداً. مع شقوق عميقة تمتد من أنفه إلى فمه. في حين بدت عيناه شبه مثبتتين. لكن ذهنه كان متوقداً جداً؛ كان مهتماً بكل شيء بدءاً من أرملة روبيرت سوبوكوي حتى نقل الصحف إلى الحاسوب. أغلق أصحاب صحيفة ميل تلك الصحيفة بعد وقت قصير، لكن مانديلا كتب إنه واثق من أن تراثها سيبقى حياً.[45]

استطاع التواصل مع المسيحيين، عندما زاره في تشرين الأول (أكتوبر) 1984 البروفسور هارفي فانديل ميروي، وهو صاحب من جامعة كيبتاون صادق ويني وكان ملتزماً بالمصالحة السياسية. وذهل فانديل ميروي بالشعور بالقوة الذي كان لدى مانديلا. والذي انعكس حتى عبر الزجاج السميك: «في عينيه، وملامحه والطريقة التي ينحني فيها قليلاً إلى الأمام وكأنه يبعث برسالته إلى الوطن، وصوته، ونغمته وميوله، واختياره للكلمات والدفء العميق - الابتسامة، التحيات، الامتنان المتكرر». وبعد أن امتدح البروفسور الرئيس كينيث كاوندا رئيس زامبيا امتداح مسيحي مخلص، سأل مانديلا بصراحة: «هل أنت مسيحي؟» أجاب: «بالتأكيد»؛ وأكد الحارس جيمس غريغوري أنه لم يكن يغيب عن وقت الصلاة. وغادر فانديل ميروي السجن وهو واثق من أن «هذا الرجل سيشارك في النهاية في حكم بلاده في المستقبل القريب. يجب أن نصلّي من أجل ذلك».[46]

كان بإمكانه التواصل مع المحافظين البريطانيين عندما زاره في كانون الثاني (يناير) 1985 اللورد بيثل، وهو نبيل جليل (ذكّر مانديلا بتشرشل). كانت الحكومة تأمل بوضوح بأنه سيكون متعاطفاً مع مواقفها. وفوجىء بيثل «عندما حضر إلى الغرفة برجل طويل بشعر فضي، وقميص أنيق أخضر بلون الزيتون، وبنطال مخطط جيداً بلون البحرية الأزرق، هز يدي وحياني بلغة إنكليزية

صحيحة وحضارية». كان يمكن له أن يكون جنرالاً بين موظفي السجن: «كان تصرفه بالتأكيد يبرهن على أنه الأكثر ثقة بنفسه بين الجميع. وكان أسود مع ذلك». وأكد له مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يكبح الكفاح المسلح، وأسف بعمق لقنبلة قتلت مدنيين أبرياء في بريتوريا قبل عامين. كان مهتماً بنجاح مارغريت تاتشر، وبنيل كينوك، زعيم العمال. وعرض لبيثل حديقته من الخضار ـ «مثل مالك الأرض الذي يريني مزرعته» ـ وامتدح أحد الضباط «كجنيناتي ممتاز فعلاً». وبعد لقائهما لساعتين من الزمن «شعر بيثل بالحزن لأنه حرم فجأة من صحبة الرجل الرائعة». وأخبر السيدة تاتشر إيجابياً، لكنها بقيت غير مؤيدة للدعوات لإطلاق سراح مانديلا بلا شروط. وكتب مانديلا إلى بيثل في نيسان (أبريل)، سائلاً عن ارتباطات السيدة تاتشر مع كل من غورباتشيف وريغان، لكن الرسالة لم تصل بتاتاً، وأُبلغ بيثل أن «كتاباً من السيد مانديلا ربما يلقى التأجيل».[47]

كان بإمكانه التواصل مع الأمريكيين عندما زاره بعد ذلك بفترة قصيرة البروفسور سام داش من جامعة جورجتاون الأمريكية. ودُهش داش أيضاً لنبله: «شعرت أنني بحضرة رئيس دولة وليس مقاتلاً فدائياً أو أيديولوجياً متصلباً». مانديلا، «بلهجة بريطانية لطيفة»، منتقد جداً وبصراحة الإصلاحات التي وعدت بها الحكومة، بما فيها إلغاء القانون الذي يمنع الزواج المختلط: «أنتم تتحدثون عن ملاحظة طفيفة. بصراحة أنا لا أطمح إلى الزواج بامرأة بيضاء أو السباحة في بركة بيضاء». أكد لداش أن المؤتمر الوطني الإفريقي قبل أن البيض ينتمون إلى جنوب إفريقية: «نريدهم أن يعيشوا هنا معنا، ويشاركوا في السلطة معنا».[48] كان تواقاً إلى المشاركة، وقلقاً (كما كتب لداش فيما بعد) بشأن الخسائر التي لم يسبق لها مثيل في الأرواح: «أنا على استعداد لأن ألعب دوري في السعي لتهدئة الوضع، والتفاوض حول ميكانيكية نقل السلطة إلى الإفريقيين الجنوبيين جميعاً».[49] لكن الشرطة الجنوب إفريقية كانت تراقب عن كثب مراسلي مانديلا: فحتى عندما كتب البروفسور داش رسائل شكر غير مؤذية إلى

هيلين سوزمان وجون دوغارد لكرمهما، فإنها أوقفت سراً (op'n deli Kate Wyré) من قبل فرع خاص وقُدمت إلى رئيس الوزراء مع مذكرة سرية جداً من المفوض، الجنرال وايليمس.[50]

صارت الاحتجاجات والعنف تتصاعد الآن يحثها شعور خاص بالتحدي. فإبعاد السود عن الانتخابات الـ Tricameral حرض على المقاومة في الدوائر الانتخابية ـ لا سيما ضد تعليم البانتو، ودفع الإيجارات. وتعززت الاحتجاجات من قبل الجبهة الديموقراطية الموحدة؛ لكن الانفجارات المحلية المزامنة للغضب كانت تنتشر عبر البلاد. والفكرة القديمة للمؤتمر الوطني الإفريقي ـ أبقوا بعيداً ـ تم إحياؤها مع بعض النجاح، ولا سيما في مثلث فال جنوب جوهانسبورغ. وبدت الحكومة وهي تفقد بسرعة أي تأييد أسود، واضطرت لاستدعاء القوات للسيطرة على الدوائر الانتخابية. قالت ويني مانديلا في السنة الجديدة: «إن الأمور تسير بسرعة، إنهم يفقدون السيطرة».[51] إلا أنها ستبرهن هي ذاتها على أنها أحد العناصر الأكثر فقداناً للسيطرة عليها. لم يستطع زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي تحمل التخلف وراء الجماهير ـ كما فعلوا في الماضي ـ وكانوا يراقبون التطورات عن كثب. وفي مطلع كانون الثاني (يناير) 1985، أصدر تامبو رسالة (دراماتيكية) بمناسبة رأس السنة: «اجعلوا جنوب إفريقية فاقدة للسيطرة». وادعى أن المؤتمر الوطني الإفريقي «قد اتخذ فعلاً اتجاهات مؤثرة» نحو هذا الهدف.[52] ووافق سجناء بولسيمور على رسالة تامبو، لكن كانت هناك مخاطر في سياسة كهذه بالنسبة لحزب ـ بدا الآن ـ أن عليه أن يحكم قبل مرور وقت طويل. وكما تذكر سيسولو: «لقد أقلقني ذلك، استراتيجية اللاقدرة على الحكم: المظهر السلبي ـ والناس أصبح لديهم أطواق(*)، وأشياء كهذه أعتقد أنها سلبية جداً وخطيرة... أعتقد أن ماديبا شارك في ذلك».

(*) «سلاسل العنق» Necklacing وهو تثبيت إطارات مملوءة بالنفط حول عنق الضحية وإضرام النار فيها، وهذا من خصائص أعمال العنف.

أثناء ذلك، لم ير السجناء أي بديل حقيقي لسياسة جعل جنوب إفريقية لا سبيل إلى السيطرة عليها. تذكر سيسولو: «كان الموقف دولياً مؤيداً لنا إلى حد كبير. فإذا لعبنا أوراقنا جيداً فلن يكون هناك سبب يجعلنا نخسر».[53] وانتقدت (استراتيجية) من قبل الأحرار البيض ورجال الأعمال. هاري أو بنهايمر الرئيس السابق للأنغلو ـ أمريكان، توصل إلى اعتبارها أخطر خطيئة يرتكبها المؤتمر الوطني الإفريقي.[54]

في تلك الأثناء، جمعت الحملة لإطلاق سراح منديلا الزخم. وشعر الرئيس بوثا أنه مضطر لرد ما، وانتهز الفرصة لعرض نفسه كصانع سلام. وبينما كان يتجول في أوربا شجعته مجموعة من الزعماء الألمان اليمينيين بمن فيهم فرانز جوزيف شتراوس ـ وهو صديق جيد للأفريقانيين ـ على عرض إطلاق سراح مانديلا شريطة أن يرفض جميع أنواع العنف. كان هذا حلاً لامعاً، كما أخبر مجلس الوزراء لدى عودته، «لأنه إذا رفض مانديلا ذلك فإن العالم بأكمله سيتفهم لماذا لم تطلق سراحه حكومة جنوب إفريقية». وحذره كوبي كويتسي ولويس لاغرانج وزيرا العدل والأمن والنظام من أن مانديلا ربما لا يستطيع التخلي عن أقوى ورقة مساومة لديه.[55]

في 31 كانون الثاني (يناير) 1985 أبلغ بوثا البرلمان أنه يعرض الحرية على مانديلا، شريطة «أن يرفض بدون قيد ولا شرط العنف كأداة سياسية». واستدعي مانديلا إلى المكتب في بولسيمور ليُعطى نسخة من هانسارد حول ذلك. كان مصمماً على تقديم رد علني، وفي المساء ذاته أعد بعناية كلمة رفضت العرض في حين أبقت الاختيار مفتوحاً أمام المفاوضات، واستبعدت أي إيحاء بحدوث انقسام داخل المؤتمر الوطني الإفريقي. أعطى الرد لويني عندما زارته بعد ذلك، وقرأته ابنته زندزي في 10 شباط (فبراير) في مدرج جوبيلاني الضخم في سوويتو، مبتدئة بكلمات: «أبي يقول...». أكدت الكلمة بشدة ولاء مانديلا للمؤتمر الوطني الإفريقي، وإلى تامبو «أعظم صديق

لي» وأصرت على أن بوثا هو الذي يجب أن يشجب العنف من خلال تفكيك نظام التمييز العنصري وإلغاء منع المؤتمر الوطني الإفريقي، وذلك قبل أن يقبل مانديلا بالحرية: «لا أستطيع ولن أستطيع تقديم أي تعهد في وقت عندما تكونون ـ أنتم الشعب ـ غير أحرار».[56]

كانت هذه المرة الأولى منذ أكثر من عقدين التي تُسمع فيها كلمات مانديلا علناً، رابطاً سياساته بالمؤتمر الوطني الإفريقي والجبهة الديموقراطية الموحدة. كان الحشد الضخم في ابتهاج غامر. وراقب تيرور ليكونا الذي أطلق لتوه من روبن آيلاند المشهد بتعجب: «أتذكر عدة مجموعات من المسنين جداً الذين يتكئون على العصي، يتجهون بتصميم إلى حافة المسرح المفتوح؛ هذا ما كتبه لابنته، وبعد أن تحدثت زندزي مضى العديد منهم بوجوه تبللها الدموع: «لقد سمعوا ما أرادوا سماعه».[57] وسُرّ تامبو للطريقة التي استقبلت بها الكلمة. وكتب إلى مانديلا عن طريق أديلايد بشيفرته مسمياً المؤتمر الوطني الإفريقي «الكنيسة» ومانديلا «أسقف ماديبين». وامتدح «الرسالة اللامعة والمحفزة التي انتشرت من حشد إلى آخر. . . كانت فيها لمسة توحيد قوية، وعكست درجة مثيرة من طبيعة الموقف إزاء الطريق المتغير دوماً لعالم المترددين على الكنيسة».[58]

بدا الأمر وكأنه ورطة تامة. لكن تبين أن بوثا لم يكن متصلباً مثلما ظهر في العلن. فبعد وقت قصير من كلمة زندزي استدعى وزير العدل كوبي كويتسي إلى مكتبه وأبلغه (حسب قول كويتسي): «تعلم أننا وضعنا أنفسنا في الزاوية. هل يمكنك إخراجنا؟».[59]

أثناء ذلك، كان مانديلا ما يزال في السجن. وقد تضاعف العنف ووصل إلى ذروة جديدة في آذار (مارس) 1985، في الذكرى الخامسة والعشرين لمذبحة شاربفيل، عندما قتلت الشرطة في يوتنهاج تسعة عشر من المحتجين. وفي مؤتمر المؤتمر الوطني الإفريقي في كابوي في زامبيا بعد ذلك بثلاثة أشهر

حذر تامبو من أن العنف سوف يتصاعد، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي سيلاقي صعوبة أكبر في التفريق بين «القاسي» و«اللين» من الأهداف. لم يدع إلى انتفاضة شاملة (كما شرح فيما بعد)، لأنه عرف أنه لن يمكنه تحقيق ذلك؛ لكنه حذر من أن رجال الشرطة السود يجب أن يستعدوا لتحويل بنادقهم ضد أسيادهم.[60]

أصبحت جنوب إفريقية فاقدة السيطرة أقرب بكثير إلى التصديق، لكنها خطيرة أيضاً على الطرفين. وتمت مواجهة إرهاب الشرطة والتعذيب من قبل الناشطين من الشباب السود بتوسيع إرهابهم المضاد ضد الشرطة السود والمخبرين المشبوهين. بما في ذلك استخدام «الطوق» الشهير برداءته. ووصفت بريتوريا العنف بأنه، «الأسود ضد الأسود»، لكن العديد من أسوأ الأعمال الوحشية ظهر فيما بعد أن عملاء الحكومة هم الذين خططوا له. فمثلاً ضربت شابة اسمها ماكي سكوزانا وأحرقت حتى الموت في تموز (يوليو) 1985، من قبل مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي كما قيل. وبعد مضي عدة سنوات ظهر أن قتلها كان جزءاً من عملية حكومية موسعة لاستخدام العصي القذرة، وجعلها مسؤولة عن المئات من الوفيات.[61]

كانت الحكومة أيضاً ما تزال تستخدم كايسر ماتانزيما لمحاولة إقناع مانديلا بأن يطلق سراحه إلى الترانسكي. ووجد مانديلا أن إلحاح ابن أخته «مدعاة إلى قلق كبير إن لم يكن استفزازياً». وحذره في كانون الأول (ديسمبر) 1984 من أنه إذا استمر في ذلك فإن ذلك سيؤدي إلى مواجهة غير سارة: «لن نقبل ضمن أية ظروف بإطلاق سراحنا إلى الترانسكي أو أي بانتوستات آخر»[62] وشعر مانديلا بالحزن للخلاف مع رجل اعتبره بطلاً في وقت من الأوقات. وأخبر فاطمة مير بعد ذلك بشهرين «ما نزال قريبين جداً أحدنا من الآخر. لكن شيئاً ما اشتعل في داخلي عندما تحول نحو الـ Nats. مما لا شك فيه أن السياسات مزقت العائلات، والبطل، والمتعبد».[63] عام 1985 رفض مانديلا

زيارة من قبل ماتانزيما، الذي اشتكى من أنه أهين إهانة فادحة. لكن مانديلا حذره مجدداً بوجوب عدم استخدام علاقتهما لجعل المؤتمر الوطني الإفريقي ينغمس في سياسات البانتوستات: «إن شخصية شهيرة «كثوري خطير» كما وصفتها أو مجرد زعيم بانتوستات يسمح بتشويه صورته إلى حد كبير عن طريق لغة الاتهام المضاد، وسوء الخلق والإفراط، لا يمكن أن يكون نموذجاً لموقفي بالذات من الشعب والمشكلات».[64] وبعد أربعة أشهر كتب ماتانزيما من جديد بخطه الضخم من المكان العظيم، كاماتا:

> يسعدني إخباركم أنه يسرني لقاؤكم ضمن شروط مشددة من السرية والثقة وسيسرني أيضاً عقد اللقاء بعيداً عن جدران سجنك.
>
> أفتقول، المخلص لك.[65]

بحلول تموز (يوليو) 1985 أصبح العديد من المراكز الانتخابية فاقد السيطرة إلى حد الخطر، كما قال تامبو. وأصبحت قريبة من مستوى الفوضى حول جوهانسبورغ. وفر العديد من الشرطة السود من بيوتهم في المناطق الانتخابية. وكانوا يعيشون في مخيمات في الضواحي. وحذرت الحكومة من أن المؤتمر الوطني الإفريقي يخطط إلى ثورة (كلاسيكية) على مرحلتين، تبلغ ذروتها بالاستيلاء على السلطة. «لقد انهار القانون والنظام كلياً» كما سجل مراسل البي بي سي غراهام ليتش، «مع عدم القدرة على التحقيق حتى في أبسط أنواع السرقة ما لم يدخل الضابط إلى الدائرة الانتخابية ترافقه ناقلة جنود مدرعة تحمل الشرطة والقوات».[66]

وفي 20 تموز (يوليو) أعلنت الحكومة حالة الطوارىء، سامحة للشرطة باحتجاز والتحقيق مع المشبوهين بدون أية قيود. لكن بدا أن المتمردين لم يكونوا خائفين. وبالتحدث مع الناشطين السود في سوويتو ـ بعد ذلك بشهر ـ شعرت بتحول كبير بطريقة التفكير: فتلاميذ المدارس وآباؤهم بدوا الآن واثقين من النصر، في حين شعر المتواطئون بالقلق من كونهم في الجانب الخاسر.

قال تامبو: «الطوارىء تعد لظروف صراع أكثر عنفاً، يتحرك نحو انفجار حقيقي». [67]

وتوقع زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي الثوريين بمن فيهم غوفان مبيكي في روبن آيلاند أن التمرد سيسبب «ثورة متدفقة» ستجعل الحكومة تركع على ركبتيها. إلا أن أخطر ضربة وُجهت إلى بريتوريا جاءت من دائرة هي الأقل توقعاً بالنسبة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي ـ من أصحاب البنوك الدولية والمستثمرين الدوليين. ومن النادر جداً بالنسبة إلى رأس المال العالمي أن يرتبط بحملة أخلاقية: «الأسواق ليست عاطفية» كما يقول المالي جورج سوروز عادة. لكن في هذه الحالة ـ كما اعترف ـ فإن الأسواق تحركت ضد التمييز العنصري، ولو بطريقة فضولية. [68]

جذبت المعارك في المراكز الانتخابية تغطية تلفازية واسعة في بريطانيا وأمريكا، دمرت تأكيدات بوثا عن استقرار البلاد، في حين كان المحتجون المناوئون للتمييز العنصري يحثون المودعين والزبائن في المصارف المتعددة الجنسية على سحب ودائعهم لإجبار المصارف على وقف القروض والاستثمار في جنوب إفريقية. وكان لهذا نتيجة فورية، بما أن بريتوريا كانت لسنتين خلتا تعتمد اعتماداً متلاحقاً على القروض الأجنبية القصيرة الأمد. وكان أحد أكبر المقدمين للقروض تشيز مانهاتن بانك من نيويورك بقروض تصل إلى 500 مليون دولار. وقبل خمسة وعشرين عاماً تم النظر إلى التشيز على أنه صديق للتمييز العنصري، وقد قدم قرضاً كبيراً إلى حكومة فيروورد بعد وقت قصير من مذبحة شاربفيل. لكن في 31 تموز (يوليو) 1985، بعد أحد عشر يوماً من إعلان بوثا حالة الطوارىء، قرر التشيز بهدوء وقف تدفق قروضه، وطلب ديونه بما أنها أصبحت مستحقة. لم يكن قراراً سياسياً: فمدير المصرف المخادع ويلارد بوتشر، كان لديه القليل من الاهتمام بجنوب إفريقية، وأراد فقط تهدئة الشكاوى من مستثمري ومودعي نيويورك. لكن هذا كان كارثة بالنسبة إلى

بريتوريا. وبدأت المصارف الأخرى بسحب اعتماداتها، وبدأت وحدة العملة في جنوب إفريقية بالانحدار، وتوجب على مصرف احتياطي جنوب إفريقية تجديد قروضه من المصارف السويسرية والألمانية بمعدلات فائدة أعلى بكثير.[69]

عندما سمع مانديلا بالأخبار في بولسيمور فوجىء وفرح. وقال بعد ذلك بخمس سنوات: «يجب أن أكون صريحاً: لم أكن أتوقع مثل هذا الدعم الهائل من أصحاب المصارف؛ وهذا تعبير عن التأثير الذي حققه المؤتمر الوطني الإفريقي والمنظمات السياسية الأخرى على المجموعة الدولية».[70] قال سيسولو: «إننا لم نقدّر أهمية المصرفيين حق قدرها. لقد أعطوا إشارة إلى جنوب إفريقية بوجوب أن تكون حذرة».[71] وفي لوساكا أعلن أوليفر تامبو إن «رفض المصارف الاستمرار في قروضها هو نصر هام في نضالنا».[72]

وكان بمقدور الرئيس بوثا أن يطمئن المصرفيين فقط بالقيام بتنازلات كبيرة، كان يتوقع إعلانها في مؤتمر الحزب الوطني، في دوربان في 15 آب (أغسطس): وكتب وزير خارجية بيك بوثا كلمة وعدت بالبدء بتفكيك التمييز العنصري وإطلاق سراح مانديلا. وضمت عبارة «اليوم عبرنا الروبيكون». (اتخذنا قراراً لا سبيل إلى الرجوع عنه). وطمأن بيك بوثا شخصياً الدبلوماسيين الأمريكيين بمن فيهم تشيستر كروكر - بأن رئيسه كان «على وشك القيام بإعلانات هامة جداً».[73] في داخل سجن بولسيمور، انتظر السجناء السياسيون الخمسة بترقب كلمة بوثا. وكانت ويني قد زارت مانديلا لتوها، والذي كرر أنه لن يقبل أية شروط لإطلاق سراحه، واقترح بأن بوثا يجب أن يزوره: كان بوثا «رجلاً ليس لديه أية مشكلات مهما كان نوعها بشأن رؤيته في بولسيمور».[74]

في تلك الأثناء كانت كلمة بوثا عبارة عن هبوط مفاجيء كلياً. فقد رفض اتخاذ ما أسماه «الطريق إلى التنازل والانتحار»، وألقى اللوم فيما يحدث من قلاقل في البلاد على المحرضين الشيوعيين البرابرة»، ورفع إصبعه بينما كان

يهدد: «لا تدفعونا بعيداً جداً». مانديلا كان شيوعياً، كما حذر، يجب أن يعد أنه لن يخطط ويحرض ويقترف أعمال عنف قبل إطلاق سراحه. وبالنسبة إلى العالم الذي كان في حالة ترقب كانت الكلمة عبارة عن «دلو من الماء المثلج في الوجه»(*). (75) كما قال بيك بوثا فيما بعد.

بدا لعدة أسابيع أن أي شيء يمكن أن يحدث. وأظهر استفتاء أشرف عليه موري في وسط آب (أغسطس) أن 70٪ من الجنوب إفريقيين السود و30٪ من البيض توقعوا حرباً أهلية. لكن غالبية من السود ونصف البيض ما زالوا يعتقدون أن بلادهم يمكن أن تحكمها حكومة مشتركة من السود والبيض. وأراد 90٪ من السود إطلاق سراح مانديلا بدون شروط، مع أن 57٪ من البيض لم يرغبوا في إطلاق سراحه ضمن أية شروط. (77) وكان هناك تكهن حتى بأن مانديلا ربما يشارك قريباً في السلطة مع بوثا؛ ففي 22 آب (أغسطس) ضمت «جوهانسبورغ ستار» المحافِظة خدعة ادعي أنها تعود إلى عام 1990 بعنوان «مانديلا يهدد بالانسحاب من الحكومة المؤقتة». (78)

وبالتلاعب على وسائل الإعلام، بذلت الحكومة ما في وسعها لتصوير مانديلا على أنه إرهابي عنيف. فبعد كلمة بوثا زار مانديلا صحفيَيْن أمريكيَّين يمينيَيْن من الواشنطن تايمز، وهما جون لوفتون وكال توماس، وكانا قد حضرا إلى جنوب إفريقية مع الواعظ من مذهب العصمة جيري فالويل. حاول مانديلا أن يشرح لهما لماذا ليس لديه بديل عن استخدام السلاح، وكيف أن المسيحي له «الحق باستخدام القوة ضد الشر». قال إن لدى أمريكا ديموقراطية راسخة بعمق. في حين ليس لدى الإفريقيين الجنوبيين السود حق الاقتراع، وأنهم تحكمهم «قوة استعمارية تتقدم ببطء على عكاز القرون الوسطى». وإثر ذلك

(*) لقد شاع فيما بعد أن دي كلارك خليفة بوثا قد قال له أن يشدّد من لهجة خطابه، رغم أنه أنكر ذلك بشدّة في حديثه إليّ. فقد أصر بوثا أنه كتب الخطاب بنفسه، مع بعض الأفكار التي أخذها من وزراء، وأنه عندما قرأ عليهم قبل إلقائه «لم يحتج أحد منهم». (76)

ادعت مقالة الواشنطن تايمز أن «مانديلا يحث على ثورة عنف»، وبدأ: «نيلسون مانديلا الإرهابي والثائر الجنوب إفريقي يرى أن [لا بديل] للثورة العنيفة».[79]

المستثمرون الغربيون الآن كانوا يفقدون الثقة ببوثا، وواجهوا صدمة جديدة بعد أسبوعين من كلمته. وكان من المتوقع أن يقود الواعظ الفصيح ألان بويساك مسيرة إلى بولسيمور تطالب بإطلاق سراح مانديلا والوعد «بقلب جنوب إفريقية رأساً على عقب». لكن بويساك اعتقل قبل المسيرة مباشرة، واندلع المزيد من أعمال الشغب. ففي بورصة جوهانسبورغ التي زرتها يوم «الثلاثاء الأسود» ذاك، انهارت الثقة الخارجية، وبدأت العملة الجنوب إفريقية (الرند) بالهبوط. وبإغلاق الأعمال هبط الرند إلى نصف قيمته مقابل الاسترليني بالمقارنة مع عام مضى. ورأى معظم سماسرة البورصة بمن فيهم من الأفريقانيين أن إطلاق سراح مانديلا هو الحل الوحيد. كان هذا تحالفاً استثنائياً: فرأس المال الدولي كان يقف الآن مع مانديلا، البعبع الشيوعي القديم.

والاقتصاد الجنوب إفريقي الذي اعتمد على الاستثمارات الخارجية والقروض بدأ يعتريه الشلل. وقامت مجموعة صغيرة من زعماء الأعمال يقودها غافين ريلي الرئيس الجديد للأنكلو ـ أمريكان، قامت باتخاذ الخطوة الجريئة بالسفر إلى زامبيا للقاء تامبو ورفاقه في المؤتمر الوطني الإفريقي. وشعر هاري أوبنهايمر، سلف ريلي «بالارتعاش» بشأن المغامرة، لكن رجال الأعمال فوجئوا براهفة حسه وذكاء زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي. قال طوني بلوم من مجموعة البريميير: «لا يمكن تخيل مجموعة أكثر جاذبية ولطفاً». وشرح تامبو أنه كره العنف والمعاناة ـ «حتى أنني أُخرج الحشرات من الحمام» ـ لكن على المؤتمر الوطني الإفريقي أن يجابه عنف الدولة. كان إطلاق سراح مانديلا الطريقة الوحيدة لبدء المفاوضات. لكن ريلي شعر بالرعب بعد وقت قصير من الزيارة عندما انفجرت قنبلة أخرى للمؤتمر الوطني الإفريقي. وشعر تامبو

بالحيرة لهذا الرد: «كان بسبب العنف الذي سببته زيارة ريلي لزامبيا».[80]

الأزمة المالية ساءت أكثر فأكثر. وزار حاكم مصرف الريزيرف جيرهارد دوكوك المصرفيين العالميين في محاولة لرفع قيمة القروض. لكنه عومل كمنبوذ. . ثم أحضر ب. دبليو. بوثا مفاوِضاً فرتيز لوتوايلر، الرئيس السابق للبنك الوطني السويسري، الذي حاول عقد صفقة مع المُقرضين، إلا أنه رفض لقاء مانديلا أو تامبو، قائلاً: «أنا أرفض مصافحة الأيدي مع شيوعي بدون أن أعدّ أصابعي بعد ذلك». في النهاية أقنع بوثا لوتوايلر أنه سيقوم بإصلاحات جديدة، وناقش لوتوايلر بشأن الديون التي ستستمر مؤقتاً. إلا أن المصرفيين الأجانب لن يستعيدوا أبداً ثقتهم بمستقبل جنوب إفريقية في ظل التمييز العنصري. واستمر المحافظون الغربيون في القول إن العقوبات لن تؤذي؛ إلا أن انسحاب المصرفيين سيمارس ضغطاً حاسماً على بريتوريا للتوصل إلى تسوية.[81]

وكان اللوبي المعادي للتمييز العنصري في أمريكا وأوربا قد صعد مطالبته بالعقوبات وبإطلاق سراح مانديلا، مستخدماً طريقة أعقد للضغط. وأجبر أصحاب الحملة الأمريكيون صناديق المنَح على سحب استثماراتهم في جنوب إفريقية، في حين كان البلاك كوكس Black Caucus في الكونغرس يعبىء لضربة سياسية. لكن الحكومتين الأمريكية والبريطانية قاومتا بضراوة الضغط الشعبي. وأبلغ الرئيس ريغان السيدة تاتشر أنه يكتفي بترك الأمر لها.[82] كانت لها قناعاتها الخاصة. كانت متأثرة باقتصاد جنوب إفريقية الحر المزدهر بالمقارنة مع الفوضى في الدول الماركسية السوداء في أمكنة أخرى في إفريقية؛ واستمرت في التحذير بأن مليون أبيض مؤهلون لأخذ جوازات سفر بريطانية، وأنهم سيغادرون جنوب إفريقية إذا انهارت البلاد، مثل البرتغاليين من أنغولا وموزامبيق.[83] واستمر مستشاروها اليمينيون بالتأكيد على الخطر الشيوعي

الآتي من المؤتمر الوطني الإفريقي والانقسامات القبلية بين السود الجنوب إفريقيين.

مع ذلك رفضت السيدة تاتشر العقوبات، وأصرت على أنها تستطيع التأثير على ب. دبليو. بوثا سراً، كصديقة متعاطفة. وكانا قد التقيا لأول مرة عندما زارت جنوب إفريقية كوزيرة للتعليم في مطلع عقد السبعين، عندما أخذها بوثا الذي كان وزيراً للدفاع في جولة حول كيب بوينت. والآن التقته مجدداً في حزيران (يونيو) 1984 عندما تناول الغداء في الـ Chequers، منزلها الريفي الرسمي مع وزير الخارجية جيوفري هاو. لم تشعر بالود نحوه، قالت: إن سكرتيرها الخاص تشارلز بوويل اعتقد أنه أفزعها. لكنها شعرت مع ذلك بأن لها نفوذاً خاصاً عليه. استمعت إليه بتعاطف قبل أن تخبره بوجوب إطلاق سراح مانديلا والتوقف توقفاً فعالاً عن إبعاد السود عن بيوتهم، وقصف الدول المجاورة. في أية حال، خرج بوثا مطمئناً: «عرفت من طريقة وداعها ووداع زوجها أنهما قد احترماني». وفوجيء لأنها لم تنكر أن مانديلا كان شيوعياً.[84]

عندما أعلن بوثا حالة الطوارىء بعد ذلك بعام. شعرت تاتشر بقلق شديد أكثر، وفي أيلول (سبتمبر) 1985 عقدت حلقة خاصة عن جنوب إفريقية؛ حضرها أكاديميون وديبلوماسيون وسياسيون، لكن لا أحد من المتعاطفين مع المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي الشهر التالي زار تامبو لندن ليتحدث لأول مرة إلى رجال الأعمال والمصرفيين وكذلك السياسيين ـ وهذا اختراق كبير.

لكن تاتشر منعت أياً من أعضاء حكومتها بالتحدث إليه أو إلى أي زعماء آخرين من المؤتمر الوطني الإفريقي، الذين ما زالت تصفهم على أنهم مجموعة من الإرهابيين الشيوعيين: قالت إن أي شخص يعتقد أن المؤتمر الوطني الإفريقي يمكن أن يؤلف حكومة إنما «يعيش في بلاد الواقواق المكفهرة». لم يكن من المفاجيء أن تكون السيدة تاتشر مرتابة بالشيوعيين: إذ كادت تُقتل بقنبلة للجيش الجمهوري الإيرلندي IRA في برايتون في العام الفائت. إلا أن

المؤتمر الوطني الإفريقي لم يلجأ أبداً إلى ذلك النوع من الإرهاب، وعلى العكس من الجيش الجمهوري الإيرلندي لم يكن لديه أصوات لتحقيق تغيير سلمي.

في تشرين الأول (أكتوبر) واجهت تاتشر أشد تحدٍ بشأن جنوب إفريقية، في مؤتمر للكومونولث في ناسو، الذي رأى فيه مانديلا حدثاً أساسياً. كانت مصممة على الوقوف في وجه «الاندفاع الـ gadarene» نحو العقوبات، ونجحت في تحديدها إلى «صغيرة جداً جداً» كما قالت بانتصار. وبتلك الكلمات الأربع القليلة، كما تشكس جيوفري هاو فيما بعد - «أهانت ثلاث دزينات من رؤساء الحكومات الآخرين، وقللت من قيمة السياسة التي اتفقوا لتوهم عليها، وقللت من شأنها هي بالذات». [85] لكنها وافقت فعلاً على فكرة أن مجموعة من «الشخصيات البارزة» يجب أن تزور جنوب إفريقية بحثاً عن تسوية؛ ووافق الرئيس بوثا بضغينة على دخولهم.

تم اختيار فريق من سبعة أشخاص، بمن فيهم اللورد باربر، المستشار السابق من بريطانية؛ مالكولم فريزر، رئيس الوزراء الأوسترالي السابق؛ والجنرال أوباسانجو الرئيس السابق لنيجيريا. كانوا مصممين على زيارة مانديلا في السجن، وأصبح السجين في بولسيمور الآن أكثر شهرة بكثير من أي وقت مضى، في جنوب إفريقية وعبر أنحاء العالم على حد سواء. كتب كاثرادا في أيلول (سبتمبر) 1985: «يجب أن تتساءلوا جميعاً ما معنى العيش مع [شخصية مشهورة] مثل العم مانديلا، فلا يمر يوم بلا شيء عنه في الصحف أو الإذاعة». لقد جعل لنا انطباعاً عظيماً لدى الشعب؛ شرح كاثرادا، ومع ذلك «فلديه الاهتمامات العادية والطبيعية والرغبات والآمال والحب والكره إلخ..». [86] ومع كل توقعات العالم المنصبة عليه بدا مانديلا في سيطرة تامة على عواطفه - مسبباً السخط أحياناً لزملائه المساجين. «مهما كان متأثراً أو منفعلاً بشأن حادث ما، أو حدث، فإن باستطاعته دوماً إظهار هدوء لا يُصدق». هذا ما قاله كاثرادا

فاطمة مير شهنيز في شباط 1986: «نحن واثقون (وقد أخبرناه) أنه إذا دعي إلى المكتب وأُبلغ أنه سيطلق سراحه غداً، فإنه سيعود إلى زنزانته ويخبرنا بذلك بعد ساعة أو أكثر... لا شيء في حديثه أو سلوكه يعطينا أبسط تلميح بأنه الرجل الذي يدور حوله مثل هذا الارتفاع المفاجيء في المشاعر عبر العالم بأكمله».(87)

أصبح من الصعب الآن تخيل أية تسوية لا تشمل مانديلا، كما أن بقاءه أصبح حاسماً. وبدا في السادسة والستين بصحة جيدة استثنائياً. لكن أواخر عام 1985 أظهر فحص طبي في مستشفى فولكس تضخماً في غدة البروستات وهذا مرض شائع بين الرجال في عقد الستين ـ حيث أصر طبيب البولية الدكتور وايلم لوبشر على أنها تتطلب عملية جراحية. وشعر الوزراء بالخشية من أنهم ربما يُلاموا إذا حدث أي خطأ: وحذر الضابط القائد في بولسمور البريغادير مونرو من أن حرباً أهلية ستندلع إذا مات مانديلا. وحضر ثلاثة أطباء آخرين إلى المستشفى لتقديم مشورتهم؛ نتاكو موتلانا، طبيب أسرة مانديلا، واثنان من الاختصاصيين من سويسرا وجوهانسبرغ. ووافقوا جميعاً على ضرورة العملية ـ لكن من يقوم بها؟ ودهش موتلانا عندما أصر مانديلا على طبيب كيبتاون الأفريقاني الدكتور لوبشر.(88)

وحضرت ويني لزيارته قبل يوم من العملية. وفي الطائرة ذاتها ـ مصادفة ـ كان وزير العدل، كوبي كويتسي، الذي كان يعرف الكثير عن ويني من خلال صديقه في براندفورت بيي دو وال. كان في قسم الدرجة الأولى، لكنه عرف ويني ووقف ليؤكد لها قلق حكومته على صحة مانديلا، وفيما بعد دخلت ويني بحزم إلى قسم الدرجة الأولى وجلست إلى جانبه، متحدثة معظم الساعتين من الطيران. كان مانديلا قد طلب في وقت سابق رؤية كويتسي، إلا أنه لم يتلق رداً. وبوصول الطائرة إلى كيبتاون، قرر كويتسي زيارته في المستشفى.

وصل كويتسي إلى جانب سرير مانديلا دون الإعلان عن ذلك. ودُهش

بتحية أظهرت كأن مانديلا هو المضيف الذي يرحب بصديق قديم. قال كويتسي فيما بعد: «لقد كان وكأنه رمز من رموز العالم القديم، مواطن روماني مسن بجلال ووقار واستقامة وبساطة». وتأثر كويتسي أيضاً باهتمام مانديلا بالإفريقيين والأفريقانيين. ووجد مانديلا أن كويتسي كان مهذباً أكثر بكثير من سابقه جيمي كروغر، وأدرك أنه كان يرسل من يجس النبض، وشك مانديلا في أنه ربما أراد صنع نوع ما من الصفقة، إلا أنه لم يفش ذلك. وطلب مساعدة كويتسي في السماح لويني بالعيش في جوهانسبورغ. ودعا كويتسي ويني إلى منزله الرسمي وعرض السماح لها بالعودة شريطة أن لا تكون فوضوية؛ لم تقدم ويني مثل هذا الوعد، لكنها عادت في أية حال إلى جوهانسبورغ، وهي ناشطة أكثر من أي وقت مضى.[89]

اهتم مانديلا اهتماماً كبيراً بعملية البروستات. كتب إلى صديق له: «لقد مزق الجراحون جوفي بلا رحمة. لقد فتحوا العظم العاني، وأزالوا غدة حيوية، وأحدثوا ثقباً عميقاً تحت السرة مباشرة وأدخلوا أنبوباً غليظاً. وكان هناك آخر من الأمام، كما أن إبرة طويلة وخطيرة مثل الرمح تم طمرها في الساعد». لكنه توصل إلى حب واحترام جميع الممرضات في تلك الوحدة. «لو كنت غنياً لتبنيتهن جميعاً كأطفال لي».[90] ولاحظ أن الممرضات في قسم العناية المشددة «يعاملن كل شخص وكأنه المريض الوحيد» وقال إنه إذا كان سيموت فإنه يفضل أن يكون في المرج المفتوح مُحاطاً بالأغصان والورود البرية؛ لكن إذا مات في المدينة، فإنه سيغادر بابتسامة عريضة بين ممرضات كأولئك».[91]

تسبب مرض مانديلا، والنشاط الرسمي المتدفق الناجم عن ذلك بموجة جديدة من الشائعات بأنه سيطلق سراحه قريباً، واحتشدت الجموع خارج السجن. وحثت جوهانسبورغ صنداي تايمز الرئيس بوثا على انتهاز فرصة مرض نلسون مانديلا - قبل أن يموت الرجل وتنفتح أبواب الجحيم - وترحيله إلى خارج البلاد ببطاقة ذات اتجاه واحد للعلاج الطبي في الخارج».[92] وأرجعت

وزارة الإعلام الشائعات إلى «حملة مستمرة لتشويه الإعلام من قبل خبراء الدعاية وراء الستار الحديدي».[93] لقد رأى السجناء ذاتهم ما يكفي من الآمال وهي تجيء وتروح. وذكّر مانديلا ويني بآمالهما عام 1964: «الوحيدان اللذان بقيا غير واثقين ولا مشوشين بهذا الهيجان هما نحن».[94] مع ذلك ما زال يتخيل عودته إلى بيته وتذكر وجبات ويني الشهية، محذراً إياها: «إذا لم أحصل على ذلك الصنف عند عودتي فإنني سأفكك الزواج في يوم ما بسبب ذلك». لكن بحلول نيسان (أبريل) 1986 كان يكتب إليها: «ليس هناك مخلوق حي في جنوب إفريقية اليوم، مهما كانت مرتبته عالية، يعلم متى سيطلق سراحنا».[95]

24

انفلات الزمام

1986 - 1988

منطقك يخيفني
بأي برودة احتقرت الخداع؟
«افتح يا سمسم» - وصد أعقدين على مفصلات الباب
يتقشر من لمسة عصا الساحر؟

وول سونيكا[1]

لم يتم إرجاع مانديلا بعد عمليته لينضم إلى رفاقه في الطابق الأعلى في بولسمور، بل إلى قسم منفصل في الطابق الأرضي. كان مكانه الجديد فسيحاً يضم ثلاث زنزانات كبيرة، إحداها للنوم، والثانية للتمارين الرياضية، وواحدة للدراسة؛ لكنها كانت رطبة ومظلمة وكئيبة، مع القليل من المناظر، وكان ما يزال هناك خمسة عشر باباً معدنياً مغلقاً بينه وبين المدخل.[2] لم يكن لديه الآن باحة على السطح ليقوم بممارسة الرياضة فيها، بل مجرد باحة محاطة بزنزانات السجن، حيث كان السجناء العاديون يصرخون شاتمين الرجل المسن بقبعته من القش - «يا كفير - لماذا تتجاهلنا؟» - إلى أن وضع الضابط القائد ستاراً على النوافذ.[3]

كان مانديلا وحده لأول مرة منذ بدء سنواته الخمس والعشرين في السجن، في حين أن الأزمة في الخارج كانت تندفع نحوه. وقد أصر على أنه لا يُعَدُّ نفسه الزعيم المختار، قال جورج بيزوس الذي كان يزوره أحياناً: «لم

يدع أبداً أنه رجل مصير، كان يتحدث دوماً بلغة الجمع. . . أعتقد أنني لم أسمعه أبداً يقول «فعلتُ ذلك». [4]

لكن الحكومة وضعته الآن في هذه العزلة المهيبة، وكان واثقاً من أن الوقت قد حان بالنسبة إليه ليلعب دوراً قيادياً. وعندما زارته صديقته أمينة كشاليا، شعرت أنه فوق ذروة جديدة: «كان لدي شعور بأن التغيير قد أتى أخيراً. وعليه أن يتحمل المسؤولية ويحاول إحداث اختراق. أدرك أنه سيخرج، وأنه بإمكانه صنع (ديموقراطية). لذلك اتخذ المبادرة». [5]

شعر مانديلا بالقلق بسبب تصاعد العنف في البلاد، حيث خشي من أنه ربما لا يستطيع أحد السيطرة عليه في وقت ما. قال: «إذا لم نستطع البدء بحوار قريباً. فإن الطرفين سينغمسان في ليل حالك من الظلم والعنف والحرب». ولقد احترم قوة الحكومة المسلحة: ولم يكن يعتقد ـ مثل العديد من السجناء الشباب ـ بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يستطيع الاستيلاء على السلطة عبر ثورة متدفقة أو نصر عسكري. لكنه اعتقد أن الأعداء بدؤوا يرون أنفسهم بوصفهم «على الجانب الخطأ من التاريخ». وبما أنه كان صبياً راعياً في وقت من الأوقات فقد اعتقد بأن «هناك أوقاتاً يجب أن يتحرك فيها الزعيم أمام القطيع»[6] لكن هل يتجرأ على التحرك بدون التشاور مع زملائه؟ كان هذا أصعب قرار بالنسبة إليه. قال لي: «أعلم أنني إذا طلبت موافقتهم، فإنهم سيقولون لا. فإذا استمرت فإنهم ربما يتحركون ويطردونني. لكنني كنت واثقاً من أن العدو ذاته يريد تراجعاً، عبر جسر فضي». [7]

بعد عدة أيام من التوحد والتفكير سُمح لمانديلا بالالتقاء مع السجناء الأربعة الآخرين من المؤتمر الوطني الإفريقي وعلى رأسهم سيسولو. كانوا قد خططوا للاحتجاج في اليوم الذي تم فصله عنهم، معتقدين بحق أن الحكومة كانت تحاول إبعاده عنهم وعن ثوار روبن آيلاند مثل هاري غوالا. «إنها (الستراتيجية) التي يستخدمها الحكام عبر العالم، فرّق، تسد». هذا ما قاله

سيسولو الذي افترض بحق أن جهاز الاستخبارات قد تنصت على محادثات السجناء في روبن آيلاند. لكن كانت لديه ثقة بمانديلا ـ كما قال فيما بعد «يجب أن تكون رجلاً قوياً جداً لتملي شروطك على نيلسون» ـ هذا في حين كان يعلم أنه يستطيع أن يتبرأ من مانديلا إذا أخطأ خطأ فادحاً. ولم يتشكك مانديلا ذاته بشأن عزله عن الباقين. أبلغ زملاءه القدامى بغموض متعمد أن الحكومة ستجد من الأسهل التقرب منه على انفراد ـ وليس أنه خطط للتقرب من الحكومة. قال لهم فقط: «ربما ينجم شيء جيد عن هذا».[8]

كان على مانديلا أولاً أن يطمئن تامبو، وهكذا جنّد جورج بيزوس ليقوم بالرحلة إلى لوساكا. وبيزوس الذي أبلغ أولاً كوبي كويتسي ـ الذي سأله بحذر عن مانديلا ـ قام بزيارتين ليخبر تامبو بشأن نقاش مانديلا مع كويتسي، مؤكداً له أن مانديلا لن يلتزم بشيء بدون موافقة المؤتمر الوطني الإفريقي. واستشار تامبو زملاءه، الذين وافقوا على مبدأ المحادثات التمهيدية، وأرسلوا الرسالة إلى مانديلا بالتنفيذ، ثم أخبر بيزوس مانديلا وكويتسي بعد ذلك بأن تامبو لا خلاف بينه وبين مانديلا. هذه لم تكن أخباراً جيدة بالنسبة إلى الحكومة. وبعد بضعة أسابيع كتب مانديلا إلى كويتسي لاقتراح «محادثات بشأن محادثات». لم يكن هناك جواب.[9]

لكن في أثناء ذلك حدث انفتاح جديد. ففي شباط (فبراير) 1986 قبل زيارة بيزوس الثانية مباشرة لتامبو، وصل إلى جنوب إفريقية ثلاثة من بين «الأشخاص السبعة» البارزين في الكومونولث في محاولة لإيجاد سبل البدء بحوار سياسي. ووجدوا دليلاً منتشراً إلى حد كبير عن تهديدات الشرطة واستفزازاتها، «لقد أتينا إلى بلد في حالة اهتياج» كما ذكروا فيما بعد.[10] لكن العضو النيجيري في المجموعة ـ الجنرال أوباسانجو ـ وهو زعيم ضخم ومنتفخ يرتدي أثواباً وخفاً مفتوحاً يهز فيه بأصابعه، كسب بسرعة ثقة وزير الخارجية بيك بوثا، الذي وجد فيه شخصاً واقعياً: كتب بيك بوثا فيما بعد أن أوباسانجو

وصف الصراع بأنه «بين قوميتين، كلاهما تريدان الأفضل لبلادهما، لكنهما يقاتل بعضهما بعضاً من أجل السلطة». سُمح للجنرال برؤية مانديلا في بولسيمور، وتأثر تأثراً كبيراً. وأكد لبيك بوثا أن مانديلا ليس شيوعياً، بل مجرد زعيم وطني إفريقي.[11]

بدا الرئيس بوثا الآن وهو أميل إلى المصالحة، كما بدا أنه يتطلع إلى طريقة لإطلاق سراح مانديلا. كان قد ألغى فعلاً حالة الطوارىء في الوقت الذي وصل فيه الأشخاص البارزون. وبعد ذلك بوقت قصير ألغت الحكومة قوانين المرور المكروهة، وهذا ما جعل واشنطن ترحب بذلك بوصفه «حدثاً هاماً».[12] «مانديلا نافع للمؤتمر الوطني الإفريقي داخل السجن أكثر مما هو خارجه» اعترف بوثا. «إذاً لماذا الإبقاء عليه في السجن؟» قالت هيلين سوزمات.[13] وأبلغ المحافظ البريطاني المتعاطف اللورد ويت ـ وهو صديق للسيدة تاتشر ـ أن لديه معلومات جيدة بأن مانديلا سيُقتل إذا أطلق سراحه، وأنه ـ بوثا ـ سيُلقى عليه اللوم.[14]

بتاريخ 12 آذار (مارس) سمح للأشخاص السبعة البارزين كلهم بزيارة مانديلا. وشعر كوبي كويتسي ـ الذي رافقهم ـ بالسرور لرؤية دهشتهم لأنهم وجدوا مانديلا بهذا الشكل القوي. «بالنسبة لي كانت لحظة تألق. شعرت أنني تفوقت عليهم: لقد توقعوا رؤية ذلك الشخص الهزيل، وهناك كان في حالة سيطرة تامة» ترك كويتسي بالذات الغرفة بحذر، على الرغم من توسلات مانديلا، تاركاً موظفاً ليكتب الملاحظات.[15]

وجد الأشخاص البارزون مانديلا «منعزلاً ومتوحداً»، لكنهم فوجئوا بمظهره النظيف وحضوره المسيطر. كان يرتدي لباساً رمادياً من ثلاث قطع pimotripo، كان الخياط قد صنعه له بسرعة، وحذاءً رمادياً مماثلاً. علق البريغادير مونرو مدير السجن: «أنت تبدو الآن مثل رئيس وزراء». وقال الأشخاص البارزون «إنه ينضح بالسلطة، ويتلقى احترام كل من حوله، بما في

ذلك سجّانوه». [16] وقد تأثر اللورد باربر أكثر الأعضاء محافظة في المجموعة بثقة مانديلا بنفسه ومرحه، وشعر بالسرور لأن واحداً من أول أسئلته كان عن (الكريكيت): «هل دون برادمان ما زال على قيد الحياة؟» (كان كذلك). وعد باربر بأن يرسل إلى مانديلا نسخة من كتابه عن الفرار من كولديتز خلال الحرب العالمية الثانية. [17] لكن ما أثر في الزوار أكثر من أي شيء آخر كان تحليل مانديلا الواضح الجلي للأزمة. فقد شرح: «أنه ليس هناك شيء مثل فترة طويلة في السجن لتركيز ذهنك، ولإيصالك إلى تقييم أكثر اتزاناً لحقائق مجتمعك». [18]

وذهل الأشخاص البارزون للعنف المتصاعد في جنوب إفريقية. إذ أن الإرهاب كان يقابل بإرهاب مضاد، وحكموا أن «الأحداث قد خرجت خروجاً متزايداً عن سيطرة الحكومة». بدا المؤتمر الوطني الإفريقي وهو يحقق هدفه لجعل جنوب إفريقية منفلتة الزمام، وهذا ما يشعل أكبر سلاح لهم ضد الحكومة؛ لكنه سلاح خطير وذو حدين. ساعد أوباسانجو في كتابة مسودة «فكرة عامة عن التفاوض» بحذر شديد في وضع الكلمات، فربط بين إطلاق سراح الحكومة للسجناء ووقف العنف من جانب المؤتمر الوطني الإفريقي. وقبل مانديلا ذلك بسرعة كنقطة بداية، بدون أن يتشاور مع زملائه (وهذا ما أثر في باربر) في حين شرح أنه يجب أن يقدموا موافقتهم. تشجع بيك بوثا بالفكرة التي جسدت (كما اعترف فيما بعد) جميع العناصر التي ستقبلها الحكومة بعد ذلك بأربع سنوات. لكن الصقور في الوزارة انزعجوا لأن المؤتمر الوطني الإفريقي وافق على وقف العنف فقط. وليس على وضع حد نهائي له: لقد خافوا (حسب قول بيك بوثا) من أن المؤتمر الوطني الإفريقي سيستخدم العنف كورقة مساومة: «استمروا في المحادثات... وإلا». [19]

يبدو أن خطر العنف الفاقد السيطرة كان يمثله شخص ويني مانديلا. فقد أظهرت الآن وجهين مختلفين جداً. فمن جهة كانت تبرز كبطلة دولية. «أم شعب» ـ وهو عنوان كتاب عنها عام 1985 [20] ـ بينما هي تصر الآن على أنها لم

تسم نفسها كذلك أبداً: «لا أستطيع الوقوف على المنبر والقول [لا تدعونني بهذا الاسم لأنني لست كذلك]». أنا لم أتنافس أبداً مع الأم ألبيرتينا [سيسولو] أو الأم ليليان [نغويي]». لكنها كانت واثقة من دورها الفذ كممثلة لمانديلا: «سأقول بفخر، إنني المؤتمر الوطني الإفريقي، لأنني كنت الصوت الوحيد وكان أفراد شعبي يُقتلون لمجرد التلميح بالاسم. . . ومن أجل إنقاذ نيلسون، ومن أجل أن يذكر اسمه على شفاه الأطفال على أثداء أمهاتهم، توجب عليّ أن أعرض نفسي عمداً لكل أنواع القسوة».[21]

صارت ويني الآن أكثر صراحة، مسيطرة على كل من رآها تقريباً. بدت وهي تبحر في عواصف خطيرة كسفينة في إبحار كامل، محلقة فوق أنصارها وأعدائها على السواء. وكانت تستطيع إظهار تقييم برؤية واضحة بشأن الأزمة المتفاعلة. عندما كلمتها بالهاتف في براندفورت خلال إبعادها. كانت تعلق بحدة على السياسيين الزائرين، بدءاً من تيدي كينيدي حتى مالكولم فريزر. كان انتقادها للحكومة شديداً: «الأفريقانيون يرتكبون الخطأ الفادح تلو الآخر»، كما قالت لي في أيلول (سبتمبر) 1985: «نحن نشكرهم لتوحيدنا، قال بوثا إنه عبر الطريق الذي لا رجعة منه؛ لكننا نحن الذين عبرناه». وقالت بعد ذلك بستة أشهر: «الحكومة الآن هي السجين، والسجناء هم السجانون».[22]

لكنها كانت تظهر ميلاً للعنف، كانت الشرطة تستطيع استغلاله والتلاعب فيه. وبدت أكثر قسوة عندما عادت إلى سوويتو عام 1984 بعد نفيها في براندفورت. كانت ترتدي اللباس العسكري من الخاكي، وحذاء الجنود وعَمرة. قالت زندزي مازحة: «أعتقد أنني سأحضر لها بندقية دمية وقِراب مسدس، لتتجول وتظهر في المحكمة بهذه الهيئة».[23] لكن مظهرها المحارب كان يصبح حقيقياً جداً. ففي 13 نيسان (أبريل) 1985، في مانسيفيل قرب جوهانسبورغ أدلت بأكبر تصريح استفزازي، والنار في عينيها: «ليس لدينا بنادق

ـ لدينا حجارة فقط، وصناديق كبريت وبترول. ويداً بيد معاً وبصناديقنا من الكبريت وأطواقنا سنحرر هذا البلد». [24]

كانتويني تحرض الجماهير على العنف تحريضاً واضحاً. وحتى ذكر مثل هذه الكلمات كان إهانة خطيرة في ظل قوانين الطوارىء، لكن بعد أن بث التلفاز والصحافة فيما وراء البحار كلمتها، كانت الحكومة مسرورة لنشر هذا المثال من وحشية المؤتمر الوطني الإفريقي. ثار غضب صحف جنوب إفريقية: ووصفت جوهانسبورغ ستار كلمات ويني بأنها «غير مسؤولة ومتطرفة» ـ على الرغم من أن معلق الصحيفة ريكس جيبسون شرح أنها في أوقات أخرى قالت أشياء كثيرة كانت «أفضل، وأكثر وداً، وأكثر فائدة». [25] شعر المؤتمر الوطني الإفريقي بالتردد في وجه عنف الحكومة بالذات، وكان أوليڤر تامبو كارهاً لانتقاد الكلمة علنياً. قال لمؤتمر قمة لدول عدم الانحياز في هراري: «لسنا مسرورين بالطوق إلا أننا لن نشجب الناس الذين دُفعوا إلى تبني التطرف». [26] كان تامبو مذهولاً في سره! وفي لندن طلب من جار وصديق ويني في سوويتو الدكتور ماتلانا أن يسكتها. [27]

خفضت ويني من لهجتها قليلاً، مدعية أن الكلمة خسرت لأنها بلا مضمون. لكنها لم تسحبها. والتصريح لم يكن بالضرورة موافقة على الأسلوب «كما تدعي الآن. كان يهدف إلى القول إننا معرضون الآن لظروف كهذه بسبب قسوة التمييز العنصري». كانت مدركة بأنها كانت تتحدى خط الحزب. «المؤتمر الوطني الإفريقي كان قد شرع في التحدث بلغة المصالحة، وأشخاص متطرفون أمثالي بدؤوا يصبحون إرباكاً لأولئك الذين كانوا يشدون الحبال، والآلية، محاولين تنفيذ عملية سامية. [28] وكما بدا فيما بعد، كانت هي ذاتها تقوم بمجازفات أكثر عنفاً مع حراسها.

وكما أخبر مانديلا محامييه جورج بيزوس وإسماعيل أيوب، شعر هو ذاته بالصدمة لأي تشجيع لاستخدام الطوق، وكذلك السجناء الآخرون في

بولسيمور: «نريد فقدان السيطرة لكن ليس التطويق». قال كاثرادا[29]: وعلى صعيد المعركة كان الخط أصعب من أن يُميز.

عندما عاد الأشخاص البارزون إلى جنوب إفريقية في أيار (مايو) صدمهم تصاعد العنف، ولا سيما بين اليقظين الذين كانوا يهاجمون ـ بتشجيع من الشرطة ـ مؤيدي الجبهة الديموقراطية الموحدة في كروس رودس، المخيم المُحتل خارج كيبتاون. وبدت الحاجة إلى اتفاق ملحة أكثر فأكثر: وبدا بيك بوثا متفائلاً. قال فيما بعد إن الأشخاص البارزين «يقتربون من النجاح أكثر مما يدرك معظم الناس».[30] وكانت هناك شائعات جديدة بأن مانديلا سيطلق سراحه. كتب مانديلا إلى صديق في 12 أيار (مايو): «التحدث عن الإطلاق المحتوم هو على شفاه الجميع. لكن الحقيقة الواضحة هي أننا ما زلنا هنا».[31]

في 16 أيار (مايو) زار الأشخاص البارزون مانديلا أيضاً، في بيت الضيافة المريح في السجن، حيث تُقدم المقبلات. سألهم ما إذا كان الرئيس بوثا يأخذ «فكرتهم عن التفاوض» مأخذ الجد. لم يكونوا متأكدين، وارتاب مانديلا بأن بوثا يريد مجرد تأخير المفاوضات. وأكد لهم أن بإمكانه السيطرة على العنف إذا ما أطلق سراحه؛ لكنه أراد التأكد من أن الحكومة ستسحب القوات من المناطق وستسمع له بالسفر بحرية.

تشجع الأشخاص البارزون، وطاروا إلى لوساكا ليخبروا تامبو عن الفكرة. وارتاب هو أيضاً بأن بوثا يطبق (تكتيكات) تأخير، وشك في حسن نيته؛ لكنه اعتقد أن الفكرة ستحصل على تأييد زملائه في المؤتمر الوطني الإفريقي. وعاد الزوار إلى كيبتاون في 19 أيار (مايو) ليطرحوا اقتراحاتهم أمام لجنة وزارية. وأصر الصقور مجدداً على وجوب أن يشجب المؤتمر الوطني الإفريقي العنف بكل أشكاله، وليس مجرد وقفه؛ إلا أن الأشخاص البارزين أجابوا أنهم لا يستطيعون أن يطلبوا طلباً معقولاً من المؤتمر الوطني الإفريقي

التخلي عن السلطة الوحيدة المتوفرة أمامه فيما إذا تخلت الحكومة عن طاولة المفاوضات.[32] كانت تلك ورطة من النوع (الكلاسيكي).

في أية حال، رأى مانديلا فرصة حقيقية للسلام. ففي ذلك الصباح ذاته طلب السماح برؤية زملائه لمناقشة الاقتراح، وتحدث فيما بعد إلى محاميه إسماعيل أيوب وإلى ويني. واحتار لأن جماعته كانوا مترددين، وشرح أيوب أنهم احتاجوا إلى الوقت للتشاور مع الآخرين، بما في ذلك مدير المؤتمر الوطني الإفريقي، والجبهة الديموقراطية الموحدة.[33]

لكن كوبي كويتسي اعتقد أن الرئيس بوثا كان ممزقاً الآن: فقد أدرك أن عليه أن يطلق سراح مانديلا سريعاً؛ لكنه لم يجرؤ على الظهور بمظهر الضعيف. وشعر بالتألم لأن البريطانيين والأمريكيين لم يقدروا مدى تنازلاته، وتشجعت عدوانيته بالضربة الجوية الأمريكية الأخيرة على ليبيا «ينسى كروكر أن بلاده بالذات قامت بهجمات عبر الحدود» قال لي مؤخراً. وفجأة تحول بوثا الآن إلى التصلب. فعندما اقترح وزير الدفاع ماغنوس مالان أن الجيش يجب أن يضرب قواعد المؤتمر الوطني الإفريقي في الدول المجاورة، وافق بوثا على الاقتراح بلا مناقشته سواء مع الوزارة أو مجلس أمن الدولة.[34]

وفي حين كان الأشخاص البارزون يتحادثون، كانت قوات جنوب إفريقية توجه ضربتها. بغارات على لوساكا وهراري وغابارون ـ وكل عواصم الكومونولث التي كان الأشخاص البارزون قد زاروها مؤخراً. وأكدت الغارات أسوأ هواجسهم بخصوص عدم قدرتهم على الثقة بحكومة جنوب إفريقية؛ واعترف بيك بوثا فيما بعد أنهم كانوا «استفزازاً واحداً مبالغاً فيه». وفي لندن رأت فيهم السيدة تاتشر «كارثة تامة». وفي واشنطن ذكر تشيستر كروكر أن الرئيس بوثا «تحول جذرياً باتجاه طريق القمع» وفي بولسيمور كان مانديلا واثقاً من أن الغارات «قد سممت المحادثات كلياً».[35]

استسلم الأشخاص البارزون. تناولوا الغداء مع ويني مانديلا، وطاروا

إلى الوطن في ذلك المساء، عارفين أن مهمتهم لأربعة أشهر قد انهارت. وبعد ذلك بعشرة أيام سمعوا من بيك بوثا أن الحكومة رفضت «التهديد بالعنف كوسيلة مساومة»، وأنها ليست «مهتمة بالتفاوض حول نقل السلطة» وأجابوا أنهم لم يروا أية ميزة في المزيد من المناقشات. وهيأت أمانة سر الكومونولث تقريراً صريحاً (وقعه اللورد باربر بكره شديد، مما أثار امتعاض السيدة تاتشر) مُختتماً بتحذير رزين: «إذا كانت الحكومة تجد نفسها غير قادرة مع رجال أمثال مانديلا وتامبو، فإن مستقبل جنوب إفريقية كالح بالتأكيد». [36]

كان الرئيس بوثا الآن مصمماً على اتخاذ إجراءات صارمة كلياً؛ وفي 12 حزيران (يونيو) فرض حالة طوارىء على مستوى الدولة بأكملها، مانحاً الشرطة سلطات قاسية أكبر، حاصروا المنافذ، وقطعوا الطرق الرئيسية، وفتشوا البيوت واحتجزوا 4000 من السود في ثلاثة أسابيع. حذر ب. دبليو بوثا من أنه لم يستخدم بعد عشر القوة المتوفرة لديه، لكن هذا كان كافياً لنشر الذعر. وعندما كنت أزور جوهانسبورغ في ذلك الوقت وجدت أن زعامة السود إما كانت مختبئة أو في السجن. والتجمعات الوحيدة المسموح بها كانت في الكنائس: قام أسقف جوهانسبورغ ديزموند توتو بإلقاء موعظة هي عبارة عن خطبة قتالية في الكاتدرائية، سائلاً وذراعاه ممدودتان، «لماذا نسمح لهذا البلد بالدمار؟»[37] يبدو أن جميع الآمال بالمحادثات قد سحقت.

في ذلك الوقت بالذات قرر مانديلا اتخاذ موقف جديد. لم يتم التخلص منه باستخدام بوثا للقوة الوحشية. أصر على «أن أكثر اللحظات إحباطاً هي التوقيت لشن مبادرة». وشجعه أن الأشخاص البارزين اعتقدوا بوجود أرضية مشتركة كافية للمفاوضات. [38] إن نيل بارنارد رئيس جهاز الاستخبارات الوطني سيفيد فيما بعد أنه أعد فعلاً الطريق للمحادثات، وأنه منذ مطلع عقد الثمانين نصح جهاز الأمن الوطني الحكومة بأنه «ليس هناك فائدة من حسم الأمر بالقتال». [39] لكن مانديلا هو الذي قام بالخطوة الأولى ـ كما كان يذكّر مناوئيه

دوماً.[40] طلب رؤية ناظر السجون، الجنرال ويليمز (القائد السابق لروبن آيلاند) «من أجل قضية ذات أهمية وطنية قصوى». وبعد أربعة أيام طار ويليمز من بريتوريا لملاقاته في منزله الرسمي في بولسيمور. أخبره مانديلا أنه يريد رؤية ب. دبليو. بوثا لبحث اجتماع بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة. وبدهشة اتصل ويليمز فوراً بكويتسي الذي عرض رؤيته على الفور.

نُقل مانديلا بسرعة إلى سافيرنيك، المقر الرسمي لوزير العدل في كيبتاون، حيث كان كويتسي بانتظاره. واستمع الوزير بدقة، وسأل أسئلة دقيقة لمدة ثلاث ساعات: هل يستطيع مانديلا التحدث باسم المؤتمر الوطني الإفريقي. ضمن أي شروط سيوقف المؤتمر النضال المسلح؟ هل يقدمون ضمانات دستورية بالنسبة للأقليات؟ ما هي الخطوة التالية؟ لم يكن هناك شك لدى مانديلا حول ذلك: يجب أن يرى الرئيس بوثا. وعد كويتسي بإيصال الطلب، وصافح بحرارة. وأعيد مانديلا إلى زنزانته. لم يخبر أحداً عن الاجتماع، لكنه استعد لمزيد من المحادثات، مع الثقة بأن زملاءه سيقبلون بالأمر الواقع. لكن لم يسمع شيئاً لشهور.

كانت هناك علائم تشير إلى أن الحكومة كانت تعده لمزيد من الحرية. فنائب قائد السجن، الليفتنانت كولونيل غاوي ماركس ـ عرض أن يتجول به عبر كيبتاون، حيث رأى أول ومضة للحياة العادية منذ اثنين وأربعين عاماً، شاعراً وكأنه سائح في بلد غريب. «كان من اللافت الآسر مراقبة النشاطات البسيطة للناس في العالم: الرجال المسنون يجلسون تحت الشمس، النساء يقمن بالتسوق، الناس يتنزهون مع كلابهم». لكنه لاحظ أيضاً أن البيض كانوا يتمتعون بحياة أكثر غنى ورفاهية بعد سجنه لربع قرن في حين كانت المناطق السوداء أفقر من أي وقت مضى. وعندما ترك ماركس مانديلا بعد وقت قصير في السيارة ليشتري كوكاكولا، أُغري بالفرار إلى الغابات، لكنه أدرك الخطر بسرعة.[41]

حارس مانديلا جيمس غريغوري اصطحبه أيضاً في عدة نزهات خارج كيبتاون، تتبعه سيارة شرطة مع أربعة حراس مسلحين ببنادق أوتوماتيكية. نظروا إلى حدائق كيرستنبوش من السيارة، وزاروا مدينة الملح في لانجيبان، بل حتى ساروا على طول الشاطىء قرب المدينة الساحلية باترنوستر، في حين كان الحراس يراقبون عبر الطريق. وبعد أن تبول مانديلا خلف الصخور، مرت به مجموعة من السياح الألمان. واستدعاه غريغوري قائلاً: «لقد فاتهم لتوهم نبأ القرن».[42] ظن مانديلا أن النزهات كانت تهدف إلى أقلمته ـ وربما لجعله يتوق إلى الحرية، وبالتالي يتطلع إلى تسوية. لكنه كان على استعداد للانتظار.

سمح له الآن بالمزيد من زيارات العائلة والأصدقاء ـ بل «زيارات وصل» استطاع من خلالها تقبيل ويني ومعانقة الأولاد. لكن لم يكن هناك تحديد مرن لمعرفة متى سيراهم من جديد. وأولاده الذين أصبحوا الآن آباء، كبروا بعيداً عنه بعد خمسة وعشرين عاماً. فابنه ماكغاثو (أو كغاثو) استغنى عن زيارته عام 1983، بما أنه آثر المدرسة والجامعة. وبعد انهيار زواجه من ريني تزوج مرة أخرى. ثم ذهب ليبقى مع أمه إيفلين في الترانسكي ـ التي أخذها إلى هناك كايسر ماتانزيما، حيث ساعدها في إدارة مخزن تجاري. مانديلا كان أكثر طموحاً بالنسبة إلى مانديلا، ابن ماكغاثو الأكبر، الذي كان ماهراً في المدرسة في سوازيلاند، اعتقد أن مانديلا يجب أن يذهب إلى جوهانسبورغ، «حيث بإمكانه دراسة اللغات بسهولة أكبر» والبقاء بعيداً عن التلقين الديني الذي ربما يثبط التفكير الصافي، الذي هو ضروري لنجاح المرء.[43] (هل كان يفكر بإيفلين جدة مانديلا؟).

كانت ابنة مانديلا الكبرى ماكي (ماكازيوي) قد تزوجت من مدير مدرسة في الترانسكي، إسحاق آمواه. الذي أحضرته إلى السجن عام 1985، بعد ذلك بوقت قصير غادر كلاهما إلى أمريكا للدراسة ما بعد التخرج. قالت للنيويورك تايمز[44]: «أنا قلقة، لكنني لست سياسية». كانت أكثر حزماً من شقيقها

ماكغاثو، وشعرت أن والدها لم يقدرها حق قدرها. كتبت إليه في كانون الثاني (يناير) 1987: «ما المشكلة، هل أثر عليك التقدم في السن، أم أن صحتك تخونك. بحيث أنك لست في موقف تكتب فيه إلى ابنتك المحبوبة؟» طلبت منه التعاطف مع أطفالها والدفاع عن الاستقلال الذاتي لشقيقها: «يجب أن تمنحه الفرصة ليمارس حقه ومكانته كأب». وتابعت في شباط (فبراير) 1988: «أشك في أن ماكغاثو يشعر بالإهمال عاطفياً من قبل أبويه معاً».[45] كانت علاقتهم معقدة بسبب ويني، التي تشكت من أن أولاد زوجها كانوا عاقين. سأل مانديلا ماكي[46]: «لماذا ليس لديك الكياسة لتشكري ماما ويني على الأموال؟» لكن ويني كانت زوجة أب صعبة أكثر مما عرف مانديلا في السجن.

شعر بالمزيد من الثقة بخصوص زيني، ابنته الكبرى من ويني والمتزوجة من الأمير السوازي، والتي أصبح لها الآن ثلاثة أطفال. بدأت زيني دراساتها مع زوجها في جامعة بوسطن عام 1987، حيث دبر ذلك الرئيس المحافظ الجديد سيلبر. ودهشت لجهل الأمريكيين بلادها: كتبت إلى والدها: «بعضهم يعتقد أنها في مكان ما في الكاريبي، وآخرون يعتقدون أنها موجودة في مكان ما قرب نيجيريا. أعتقد حقاً أنه من غير العدل أن نعرف الكثير عن أمريكا». كانت ما تزال نصف تواقة إلى أن لا يكون لها أب مشهور. «لو عاد الأمر إلي ربما كنت شخصاً عادياً جداً يعيش حياة عادية في مكان ما في أرض غير معروفة. كنت أحلم دوماً أن أكون عارضة أزياء ـ أعتقد أنه كانت ستصيبك نوبة».[47]

كان مانديلا قلقاً على زندزي التي كانت عنيدة ومندفعة مثل والدتها، والتي لم تستطع مواجهة الجامعة. كتب لها وهو في حالة إحباط في أيار (مايو) 1987: «كنت أكثر من خائب عندما أبلغتني أمك بأنك لم تذهبي إلى الجامعة. وهذا من بين الأخطاء التي لا يمكن التحدث عنها والتي ارتكبتها في حياتك» قال لها بعد ستة أشهر: «ما فعلته خلال الشهور التسعة الأخيرة هو الأكثر شؤماً».

كان لديه عطف أكبر تجاه الجيل التالي، بمن فيه ابنة زندزي وهي زازي

قال لزندزي في آذار (مارس) 1985: «من المعقول جداً بالنسبة إلى زازي أن تدهش لرفضي مغادرة السجن. لكنها ستكون قريباً قادرة على تقدير الأسباب». [48] ساعدت عائلته المتكاثرة على التعويض عن جحوده في حقول أخرى. كتب إلى ماري بنسون في لندن عن المحسن إليه داڤيد آستور: تبجح قائلاً: «لدي اثنا عشر حفيداً، بينما لديه هو وبريدجيت خمسة فقط». [49]. بعد ذلك بعام كان يخبر فاطمة مير عن حفيديه العظيمين: «أخيراً أصبح لدي شيء وضعني في مرتبة أعلى منك بكل معنى الكلمة». [50]

كانت آفاق مانديلا تنفتح أكثر فأكثر، عبر المزيد من الزيارات، والصحف والأفلام. وشعر بالسرور عندما زارته فريدا ماثيوز أرملة صاحب بيته زرك البالغة من العمر ثمانين سنة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1986 «بحرية تامة»؛ وشعرت في المقابلة بسرور لعدم شعوره بالمرارة أو الندم. كتبت إليه فيما بعد: «لم أستطع إلا التفكير بأن المسيح لا بد أنه كان له نفس الموقف بعد صلبه». [51]

كثيراً ما كان يتعزَّى بمشاهدة الأفلام، لم يكن يحب أفلام رعاة البقر كثيراً. حيث كانت تعرض بين وقت وآخر في السجن، لكن صار باستطاعته الآن أن يطلب الأفلام المفضلة لديه من الخارج. عام 1986، ضمت اختياراته: شاكا زولو، باليه البولشوي، جوقة أطفال ڤيينا، كأس العالم لكرة القدم في المكسيك، قراصنة بينزانسية. عام 1975، بطولة العالم للوزن الثقيل بين محمد علي وجوي فريزر. كان حريصاً بخاصة على مشاهدة الملحمة الصينية لبرناردو بارتولوشي، وهي الامبراطور الأخير، ومنح في النهاية نسخة 16 ملم من الفيلم من قبل السفير الإيطالي يوم عيد ميلاده. [52]

إلا أن الأفلام لم تكن بديلاً عن الواقع في الخارج، حيث يستمر الاضطراب. ظل الرئيس بوثا يجدد لمدة أربعة أعوام حالة الطوارىء، وأسس «رجال أمنه» دولة بوليسية متمكنة أكثر؛ مع تمركز الجنود الدائم في المناطق، تعززهم شرطة بلدية جديدة وسفاحون يقظون. وهكذا شُلَّت الجبهة

الديموقراطية الموحدة بشكل فعال بعد احتجاز 25,000 من أعضائها في ستة شهور، في حين أن 50,000 ناشط قيل إنهم كانوا مختبئين.[53] قال رئيس شرطة الأمن الجنرال فان ديرميروي للسفير البريطاني روبن رينويك «في هذه المرة اعتقلنا جميع الذين يجب اعتقالهم».[54]

برغم مستوى القمع، بقيت هناك مقاومة عنيفة. فالجبهة الديموقراطية الموحدة طرحت زعماء جدداً وخططت لاحتجاجات كان من الأصعب قمعها، بما في ذلك مقاطعة المحلات التجارية ودفع الإيجارات. والمؤتمر المنشأ حديثاً لنقابات عمال جنوب إفريقية كان يستعرض عضلاته: ففي آب (أغسطس) 1987 شن عمال المناجم برئاسة زعيمهم سيريل رامافوزا إضراباً لثلاثة أسابيع. كان عرضاً للقوة، على الرغم من فشله في تحقيق مطالبه. وكما قال رامافوزا بعد ذلك: «أحسسنا بالقوة تسري في عروقنا».[55] وفي الشهر ذاته أنشئت منظمة شباب ناشطين سميت سايكو، يقودها الناشط الشاب بيتر موكابا، وهو خريج روبن آيلاند. وأصبح رؤساء الكنائس معبرين أكثر فأكثر بزعامة ديزموند توتو، الذي أصبح أول أسقف أسود لكيبتاون عام 1986. وصار المقاتلون الفدائيون من المؤتمر الوطني الإفريقي يحققون الآن نجاحاً أكبر، حيث شنوا 231 هجوماً داخل جنوب إفريقية عام 1986 ـ 1987، حسب إحصائيات الشرطة.

لكن الجبهة الديموقراطية الموحدة ضعفت ضعفاً خطيراً بسبب الاعتقالات. ففي آب (أغسطس) 1987 تم اعتقال الناطق الرئيسي باسمها ميرفي موروبي بعد عام من الفرار. وفي شباط (فبراير) عام 1988 حُظرت الجبهة مع سبع عشرة منظمة أخرى.

ونشرت الحكومة عنف «الأسود على الأسود» لتظهر أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان مسؤولاً عن الفوضى. وقرر رجال الأعمال البيض الذين كانوا يخشون من جيشان كبير، قرروا بارتياح أن الحكومة كانت تسيطر أخيراً.

واعتقد الكثير من المراقبين بمن فيهم عالم السياسة المحترم توم لودج أن التمرد تم سحقه.[56]

وبدا المؤتمر الوطني الإفريقي الآن أيضاً وقد تحداه حزب باثيليزي من الزولو إنكاثا، وأدى التنافس بين المنظمتين إلى تصاعد القتل والأعمال الشريرة من الطرفين. وما زال باثيليزي يصور مانديلا صديقاً، ودعا صراحة إلى إطلاق سراحه، إلا أنه ندد بحملة «أطلقوا سراح مانديلا» بوصفها وسيلة للتحايل، وحذر الجيش في السر بأنه سيكون «عديم المسؤولية» في حال الإفراج عنه.[57] وعام 1986 أعلن باثيليزي أنه سُمِحَ له بزيارة مانديلا في بولسيمور. وأجاب مانديلا بلباقة ولكن بحزم عن طريق محاميه إسماعيل أيوب إنه من الأفضل أن يكون اللقاء بعد إطلاق سراحه.[58]

داخل إفريقية، تمت تهيئة باثيليزي منافساً خطيراً لمانديلا. سمح له بالوصول إلى التلفاز والصحافة، وكان حراً في السفر إلى الخارج. واستأجر مستشاري علاقات عامة، ودعا الصحفيين المحافظين لعاصمته يولوندي، وهي عاصمة الزولو؛ ورحب بالمؤيدين الأجانب الأغنياء. وأرسل مجلة مصقولة لامعة سميت دعوة كلاريون إلى شتى أنحاء العالم. ناشراً كلماته الطويلة. وأصبحت آلية انتشاره فعالة أكثر من تلك الخاصة بالمؤتمر الوطني الإفريقي، حيث كان يمكن لشخصياته الرسمية المحصنة في لوساكا أن تُغضب أكثر الصحفيين الأجانب تعاطفاً، الذين وجدوا من الصعب الوصول إليهم؛ حتى النيويورك تايمز أبقيت في إحدى المرات تنتظر في لوساكا لثلاثة أيام.[59] ومجلة المؤتمر الوطني الإفريقي ـ سيشابا ـ التي طبعت على ورق رديء في ألمانية الشرقية، كانت موجهة إلى اليسار فقط. والاتصالات المتقطعة للمؤتمر الوطني الإفريقي، أدت بالعديد من الصحفيين والسياسيين الأجانب إلى الاستخفاف بالدعم الشعبي الحقيقي له.

أصبح باثيليزي المفضل لدى المحافظين الغربيين. وتم الترحيب به في

أمريكة وألمانية كالبديل المرغوب به لتامبو ومانديلا، في حين أنه في شباط 1985 استقبله الرئيس ريغان. لكن مارغريت تاتشر، بعد لقائه مع ناصحها الخاص لورينز ڤان ديربوست، هي التي أصبحت أكبر حليف ذي نفوذ له فيما وراء البحار، مرحبة به كبطل للاستثمارات الحرة، ومشجعة رجال الأعمال على وضع آمالهم فيه. امتدحته «كمناوىء شجاع لانتفاضة العنف»، في حين اعتقد وزير خارجيتها جيوفري هاو أنه «واضح البصيرة إلى حد كبير لكنه مستقل بحزم». [60]

لم تتضح الحقيقة الكاملة إلا بعد سبع سنوات؛ وهي أن حكومة بريتوريا كانت تسلح قوات الزولو تسليحاً منظماً ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. ووجدت (بعثة الحقيقة والمصالحة عام 1998) أن باثيليزي قد تآمر مع الرئيس بوثا ووزير دفاعه مانغوس مالان «لإنشاء قوة شبه عسكرية هجومية وخارجة عن القانون لنشرها ضد المؤتمر الوطني الإفريقي». مطلع عام 1986، ظهر أن باثيليزي اختار مئتين من جنود الإنكاثا للتدريب السري قرب قطاع كابريفي في الجزء البعيد من ناميبيا، حيث علمهم جيش جنوب إفريقية كيفية استعمال الصواريخ ومدافع الهاون والقنابل اليدوية وترويع الجماعات: بما فيها كيفية مهاجمة البيوت بهدف قتل جميع الساكنين. [61] وبينما كانت الحكومة تأسف علنياً للعنف، كانت قواتها الأمنية بالذات هي التي تلهب النيران، بتسليح وتشجيع الزولو على مهاجمة مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي.

وفيما وراء الستار، كانت الحكومات الغربية والرئيس بوثا ذاته، يشرعون بقبول أنه ليس هناك حل دون التوصل إلى اتفاق مع المؤتمر الوطني الإفريقي - وإطلاق سراح مانديلا.

25

الزعيم الضائع

1987 ـ 1988

بينما أصبحت جنوب إفريقية أقرب إلى الحرب الأهلية من أي وقت مضى، فإن النداء لإطلاق سراح مانديلا تردد عبر العالم. كانت مقاطعة التمييز العنصري تنتشر، والحملات لعدم الاستثمار والعقوبات كانت تعمل بفعالية. وقضية جنوب إفريقية كانت تلقى انتشاراً أوسع، عبر برامج التلفاز والأفلام، وعروض المسارح، بما فيها فيلم ريتشارد أتينبورو عن ستيف بيكو «نادوا بالحرية (1987)» ومسرحية «اضربوا سارافينا» في برودواي (1988) عن فتاة طالبة كانت تعبد مانديلا.

كان مانديلا أكثر سجناء العالم شهرة، وورومانسية أكثر فأكثر، لأن أياً لم ير وجهه منذ ربع قرن: لم تنشر صورة جديدة له منذ عام 1965. وأيقونة مانديلا التي كانت حرة في التطور كرمز المقاومة البطولية للقمع، بعيدة جداً عن الحقيقة الفيزيولوجية. وأيقونته المعممة بدت وهي تتجاوز جميع المنافسات الطائفية والوطنية لإفريقية. وأصبحت تمثل الزعيم الأسود العالمي، آخر مقاتلي الحرية العظماء. وتمثلت الأيقونة بأكبر من التمثال النصفي الحي حيث أزاح الستار عنها أوليفر تامبو بجانب قاعة الاحتفالات الملكية في لندن عام 1985: فالشفاه الكبيرة والرأس الكثيف الشعر لا تشبه وجه مانديلا المرهف.. وأُبلغ جيل كامل من الأطفال عن مانديلا كالبطل المتوحد للحرية، المعروف بأسماء الشوارع والأغاني والحفلات الموسيقية. هم لم يعرفوا شيئاً عن الرجل الفعلي

في بولسيمور، ، الذي يتصارع مع حقائق معقدة، هل يمكن لمانديلا الحقيقي أن يعيش الأسطورة إذا ما ظهر في يوم من الأيام.

ساعدت الحملات ضد التمييز العنصري في الغرب، ولا سيما مقاطعة البنوك، ساعدت كثيراً في توسيع العقوبات. وكانت الحكومتان البريطانية والأمريكية ما تزالان ترفضان المعركة الفاصلة في بريتوريا، وتأثرتا جداً باللوبي المحافظ الذي استمر في شجب المؤتمر الوطني الإفريقي شجب إرهابيين أو شيوعيين. لكن الانقسامات بدأت تظهر.

في واشنطن، كان وزير الخارجية جورج شولتز وخبيره الإفريقي تشيستر كروكر يفقدان الصبر مع بريتوريا؛ إلا أنهما شعرا بالإحباط من البيت الأبيض لرونالد ريغان ورئيس الاستخبارات المركزية الأمريكية ـ السي. آي. إيه ـ ويليام كيسي، الذي كان على علاقة صداقة مع الرئيس بوثا، والذي عمل عن كثب مع استخبارات جنوب إفريقية. وعندما أعد كروكر كلمة شديدة اللهجة ضد التمييز العنصري لريغان في تموز (يوليو) 1986، أعيدت كتابتها من قبل مساعده اليميني بات بوكانان بحيث تؤكد على التضحيات التي قدمها الإفريقيون الجنوبيون البيض، وتلقي اللوم في إعلان الطوارىء على «الإرهاب المحسوب من قبل عناصر المؤتمر الوطني الإفريقي». لقد فقدت وزارة الخارجية وبشكل فعال السيطرة على الديبلوماسية الأمريكية. وأسماها كروكر «أكبر لصوصية للسياسة الخارجية للعام 1986»، وتوجب كبح شولتز عن الاستقالة.

لكن الكونغرس، ولي البيت الأبيض هو الذي كان يصنع السياسة الخارجية. بعد ذلك بوقت قصير. في آب (أغسطس) 1986، اقترع مجلس الشيوخ بنسبة 84 إلى 14 لقائمة عقوبات شاملة تفرض الحظر على قروض الاستثمارات الجديدة وحقوق الهبوط في المطارات، وتصدير النفط. كانت تلك ضربة حقيقية لبريتوريا، حيث أغلقت التجارة الدولية في المستقبل. وعندما رأى شولتز تامبو أخيراً ولأول مرة، في كانون الثاني (يناير) 1987، أبلغه

أنه لا يريد للمؤتمر الوطني الإفريقي أن يصبح معزولاً مثل منظمة التحرير الفلسطينية. وأكد له أن على بريتوريا في النهاية التعامل مع المؤتمر الوطني الإفريقي وحذره من أن السوڤييت كانوا «الخاسرين بالتأكيد» وطلب تامبو من شولتز عملاً مشتركاً من واشنطن وموسكو ضد بريتوريا.[1] وسببت أنباء اللقاء تشجيعاً إضافياً لمانديلا في السجن.

ووضع التشوش في واشنطن المزيد من التأكيد على دور السيدة تاتشر؛ فهي في موقف أقوى من ريغان للتأثير على بوثا، لكنها بقيت مصممة على مقاومة العقوبات. وعلى الرغم من «الكارثة الكاملة» لمهمة الأشخاص البارزين، في تموز (يوليو) 1986، فقد أصرت على إرسال وزير خارجيتها الرافض جيوفري هاو، ممثلاً المجموعة الأوربية إلى جنوب إفريقية لمحاولة المصالحة مرة أخرى. لكن المؤتمر الوطني الإفريقي، ومن ضمنه مانديلا وتوتو، رفض رؤيته؛ وكان الرئيس بوثا هجومياً وفي مزاج سيِّىء، حيث ألقى محاضرة على هاو بأنه «لن يجبر الجنوب إفريقيين على ارتكاب انتحار وطني». وعندما واجهت السيدة تاتشر في آب (أغسطس) عام 1986 اجتماعاً خاصاً للكومونولث في لندن كانت الورطة واضحة: «حكومة بوثا لم تقم حتى ذلك الوقت بالقفزة الصغرى التي نتطلع إليها جميعاً». هذا ما كتبه هاو فيما بعد». كان مانديلا وزملاؤه ما يزالون في السجن، والمؤتمر الوطني الإفريقي وما شابهه ضمن الحظر».[2]. والسيدة تاتشر ما زالت تقاوم العقوبات، متشجعة بغداء سابق مع لورينز ڤان ديربوست، وأصرت على أن التمييز العنصري «يموت بسرعة على الأقل إن لم يكن ميتاً».[3] لكن توجب عليها قبول سلسلة من العقوبات وافقت عليها المجموعة الأوربية ضمت حظراً على الاستثمارات الجديدة.

استمرت في حث بوثا على إطلاق سراح مانديلا، إلا أنها اعتبرت اعتقاله قضية منفصلة عن الاعتراف بالمؤتمر الوطني الإفريقي، وهذا ما رفضت القيام به حتى ذلك الوقت. ويحلول شباط (فبراير) 1986 فقط سُمح للدبلوماسي

البريطاني جون جونسون بالاجتماع إلى ثلاثة رسميين في المؤتمر الوطني الإفريقي (بمن فيهم ثابو مبيكي) في لوساكا.[4] ولم يسمح لجيوفري هاو بالتحدث إلى تامبو إلا بحلول أيلول (سبتمبر) 1987. وحدث اللقاء في تشيفيننغ المقر الريفي الرسمي لوزير الخارجية.

كان تامبو ـ بلباسه المخيط جيداً ـ مهذباً ومعتدلاً، لكنه كان حذراً جداً ومتشائماً بشأن أي تغيير، وقلقاً بشأن إزعاج حزب التوري (المحافظين). اتفقا بتهذيب على الاختلاف ـ بصفتهما محاميان ـ حول قضية العنف.[5]

في تموز (يوليو) 1987 عينت السيدة تاتشر سفيراً أكثر فعالية إلى بريتوريا؛ روبن رينويك الذي سيلعب دوراً معقداً خلال السنوات الأربع المقبلة. وبوصفه رجلاً حاذقاً وجذاباً وذا ابتسامة مبهمة، فقد كانت لديه معلومات جيدة عن إفريقية، حيث ساعد في التفاوض بشأن استقلال زيمبابوي عام 1979. وفي سره، كان يرى أن المؤتمر الوطني الإفريقي حاسماً بالنسبة لأية تسوية، وبقي على اتصال به سراً من خلال الوسطاء مثل إينوس مابوزا.[6] لكن تاتشر منعته من الاعتراف علناً بالمؤتمر الوطني الإفريقي ـ وسار قدماً مع تأييدها لبوثيليزي. وكانت مهمة رينويك الرئيسية ـ كما أبلغته تاتشر ـ هي حث الرئيس بوثا على الإصلاح، لكن لقاءه الأول لم يكن مشجعاً. وتم استقباله أخيراً، كما قال، «في مكتب للدراسة مضاء بمصباح المقعد فقط، مستحضراً صور ما كان يجب أن يكون، مثل زيارة هتلر في غرفته المحصنة تحت الأرض». ظهر بوثا وكأنه غير قلق بشأن العقوبات، لكنه خائف من فقدان السيطرة على البلاد: ليست لديه النية بإطلاق سراح مانديلا، كما قال، ما لم يكن مريضاً مرضاً خطيراً. اعتقد رينويك أن بوثا سيقاتل حتى النهاية، ورأى القليل من الفرصة في التأثير عليه.[7]

ما زالت السيدة تاتشر تقف ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. ففي قمة الكومونولث التي تلت، في فانكوفر في تشرين الأول (أكتوبر) 1987، استفزها ممثل المؤتمر الوطني الإفريقي جوفي ماكاتيني بسؤال، وردت «بأن المؤتمر

الوطني الإفريقي كان «منظمة إرهابية بكل معنى الكلمة». [8] وشعر الديبلوماسيون البريطانيون بالسخط من تفجرها. وتشكى جيوفري هاو بأنها «أرجعت الأمل بالحوار مجدداً إلى الوراء». وتوجب على رينويك أن يذكّر داوننغ ستريت بأنه يطور اتصالات سرية مع المؤتمر الوطني الإفريقي. ـ واستمر في القيام بها بهدوء ـ وكان عملاء الاستخبارات البريطانية في لوساكا يصادقون زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي. [9] كان تحويل تاتشر المؤتمر الوطني الإفريقي إلى شيطان قد ساعد دعاية بوثا، في حين أحبط المعتدلين في المؤتمر بمن فيهم تامبو، الذي أراد إقامة اتصالات أوثق مع المحافظين وزعماء الأعمال في الغرب. علق رئيس وزراء جامايكا المحافظ إدوارد سيغا بعد اجتماع فانكوڤر بقوله: «إذا استمرت في تسميتهم بالشيوعيين فهذا سيكون تحقيقاً للذات». [10]

في الحقيقة، إن الخطر السوڤييتي القديم في إفريقية ـ على حاله تلك ـ كان يتبخر بسرعة، «إن جنوب إفريقية ـ عملياً ـ هي خارج منطقة الاهتمام الرئيس للاتحاد السوڤييتي فهي في المرتبة الثانوية». هذا ما كتبه فرانك وايزنر، نائب المساعد لشؤون إفريقية في واشنطن في كانون الثاني (يناير) 1984. [11] وبعد أن جاء ميخائيل غورباتشيف إلى السلطة عام 1985 أدرك سريعاً أنه لم يعد بمقدور الاتحاد السوڤييتي تحمل مغامرات مكلفة في إفريقية. وأخبر ريغان في قمة ريكجافيك في تشرين الأول (أكتوبر) 1986 أنه يرغب في التراجع عن الصراعات الإقليمية. وعام 1986 اجتمع السفراء البريطانيون في إفريقية لأول مرة مع نظرائهم السوڤييت، ودهشوا للمناخ الجديد من الانفراج والابتعاد ـ وهذا ما برز سريعاً في التعاون الواعد باتجاه الاستقلال في ناميبيا. أما بالنسبة إلى جنوب إفريقية، فكانت موسكو تسحب دعمها السابق للثورة. «في الماضي كان من المفترض دوماً أنه ستكون هناك إطاحة ثورية (كلاسيكية) بنظام الأقلية البيضاء كما قال بوريس آسويان، نائب رئيس قسم جنوب إفريقية في موسكو عام 1988: «الآن نقبل أنه يجب أن تكون هناك تسوية سياسية». [12]

كان الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي ذاته يعيد النظر بسياساته الثورية. ففي ذكراه السنوية الخامسة والستين في لندن 1986، أذهل الرئيس جوي سلوفو رفاقه البريطانيين الثوريين بالتحذير من «فلسفة بول بوت»، التي تفيد أن باستطاعتكم «القفز إلى الاشتراكية والشيوعية في اليوم الذي يلي الإطاحة بالحكم الأبيض». وفي اليوم التالي شرح لي: «لم أؤمن أبداً أن مهمة الثوري هي صنع ثورة؛ بل قيادتها فقط. . . لم أستسغ أبداً تصاعد العنف».[13]

ومن سجنه، تابع مانديلا مظاهر الانفراج بآمال كبيرة. كان قد اعتقد منذ وقت طويل أن الحرب الباردة أشرفت على النهاية، كما قال لابنته زندزي عام 1978. وسره لقاء غورباتشيف الودي مع السيدة تاتشر في كانون الأول (ديسمبر) 1984 وبإمكانية لقائه مع ريغان، كما قال للورد بيثيل وسام داش. وعام 1987 استمتع ببرنامج تلفازي ناقش فيه بروفيسوران كانا يزوران جنوب إفريقية، روجر فيشر من هارفارد وجون أريكسون من إدنبورغ، ناقشا التغييرات داخل روسيا، مع أن أكاديمياً من جنوب إفريقية، ديرك كنيرت، من ويتس «بدا مثل شبح السيناتور مكارثي».[14]

كان تامبو قد تشجع في موسكو عام 1986، بمحادثة مع غورباتشيف، الذي وجد لديه معلومات جيدة، ووجده منفتحاً أمام النقاش؛ هو أقرب إلى كيسينجر منه إلى بريجينيف. لم يشعر تامبو أبداً بالضغط لاتباع سياسات ماركسية: قبل ذلك بعام علق أحد كبار الرسميين السوفييت لأول مرة على السياسة الاقتصادية للمؤتمر الوطني الإفريقي، بنصحه بممارسة توكيد أقل على التأميم ـ وهذا ما أدهشه جداً. لم يعتقد تامبو ذاته أبداً أن الإفريقيين الجنوبيين السود سيعتنقون الشيوعية. قال سراً في نيويورك في كانون الثاني (يناير) 1987 «شعبنا سيقرر وهو ليس مهتماً جداً بدولة اشتراكية. ويعلم الشيوعيون أنهم مجرد مجموعة بين الكثير من المجموعات».[15]

كان منطق بريتوريا عن «المذبحة الشيوعية الكاملة» يبدو فارغاً جداً. إلا أن ريغان وتاتشر استمرا في إبراز (البعبع) الشيوعي، حيث ساعد ذلك على تشجيع قسوة الرئيس بوثا وإفزاع رجال الأعمال والسياسيين الغربيين من أي اتصال مع المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان الخطر مأساوياً أكثر في ضوء حاجة المؤتمر الوطني الإفريقي الواضحة إلى الإدارة والمهارات المهنية، وهذه حاجة أصبحت أكثر إلحاحاً لدى مواجهتهم احتمال الوصول إلى السلطة. إن رغبة تامبو في ضمان التدريب والخبرة في العمل للشبان من المؤتمر الوطني الإفريقي، وتهيئتهم للحكومة والأعمال، أدت أواخر عام 1986 إلى قيام مشروع جنوب إفريقية للتعليم العالي. وتأسس هذا المشروع من قبل بعض المانحين من ذوي النظرة البعيدة، بمن فيهم مؤسسة الأخوة روكفلر، ديڤيد آستور وشل (كان من السخرية بمكان أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يقاطعهما) إلا أن الحكومتين البريطانية والأمريكية لم تقدما أية مساعدة.

في الواقع ـ عدم الاتصال الواضح بين المؤتمر الوطني الإفريقي والأفريقانيين لم يكن كاملاً كما كان يبدو. ففي حين استمر بوثا وتاتشر في هجومهما على الثوريين الشيوعيين. كانت بعض الهيئات غير الحكومية من أصحاب المشاريع تقيم جسوراً سرية وعدت بتغيير المشهد السياسي. كانت مؤسسة فورد في نيويورك برئاسة رئيسها الأسود فرانكلين توماس، كانت مسؤولة عن حدوث اختراق ملموس. ففي حزيران (يونيو) 1986 رتبت لقاء سرياً بين أفريقانيين ـ بمن فيهم بييتر دولانج رئيس جمعية برويدربوند ذات النفوذ ـ وزعماء من المؤتمر الوطني الإفريقي ضموا ثابومبيكي، مال ماهاراج، ومقاتل لاهب من أجل الحرية سيريتسي تشوبي. وعندما واجه تشوبي دولانج قفز على قدميه وصاح: «سوف أطلق النار عليك، برويدربوندر». طلب ماهاراج بلباقة من الأفريقانيين أن يتفهموا جذور غضب تشوبي؛ انتهى المؤتمر نهاية مؤثرة حيث اعتذر تشوبي وعانق دولانج. وتلاقى ثابو مبيكي بعد ذلك مع

دولانج في غداء خاص طويل، مما ترك الأفريقاني كما قال مبيكي: «برؤية طبيعية للمؤتمر الوطني الإفريقي بوصف أعضائه كائنات بشرية».[16]

تم بناء جسر آخر من قبل فريديريك ڤان زيل سلابيرت، الزعيم السابق للمعارضة الليبرالية، الذي غادر البرلمان في شباط (فبراير) 1986، وعندما دعا إلى تسوية تفاوضية، قال أمين السر العام للمؤتمر الوطني الإفريقي ألفريد نزو «لقد اختلف مع تقليد الأفريقاني والزعامة البيضاء الذي كرس العرقية». في آب (أغسطس) 1987 نظم سلابرت لقاء في داكار في السينغال حيث التقى خمسون من المفكرين الأفريقانيين بزعماء المؤتمر الوطني الإفريقي وأصدروا بياناً مشتركاً يدعو إلى تسوية بالتفاوض وإلغاء حظر المؤتمر الوطني الإفريقي. ورد الرئيس بوثا بغضب واضح: «المؤتمر الوطني الإفريقي يستعرض عضلاته أمام بساطة «البلهاء المفيدين». وفي الحقيقة فإن جهاز الاستخبارات الوطني ساند اللقاء سراً. وكما شرح فيما بعد مديره نيل بارنارد: «اعتقدنا أنه لن يكون هناك حل سياسي بدون المؤتمر الوطني الإفريقي». وشرح بوثا أنه سعيد من أجل «حرقهم أصابعهم».[17]

كانت بعض الشركات الكبرى تشعر أيضاً بالحاجة لترسيخ نفسها. فشركة المناجم القديمة العهد غولد فيلدز، سيسيل رودس، ما زالت تقف موقفاً رجعياً بزعامة رئيسها رودولف آغنيو في لندن: احتفلت بالذكرى المئوية عام 1987 بتاريخ من قبل المؤرخ اليميني بول جونسون، الذي أغضبه المؤتمر الوطني الإفريقي «للعنف المنظم».[18] لكن وراء هذا الغضب كان آغنيو قد وافق في حزيران (يونيو) 1986 على تحويل الاجتماعات السرية، التي نظمها مستشاره السياسي مايكل يونغ للتقريب بين الأفريقانيين والمؤتمر الوطني الإفريقي. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1987 التقى فريق من المفكرين الأفريقانيين مع مجموعة من المؤتمر الوطني الإفريقي في فندق كومبليت آنغلر في هينلي، في أوكسفور شاير.

وعبر السنتين التاليتين حدثت لقاءات أخرى أسست الثقة بين

المجموعات، ضمت سريعاً ثابو مبيكي.[19] وفي حين كانت تاتشر تندد بالمؤتمر الوطني الإفريقي بوصفه إرهابياً، كان الأفريقانيون العنيدون يتعلمون التعامل معه.

وحتى هجمات الرئيس بوثا على مانديلا لم تعد كما كانت تبدو. فعام 1987 استجاب وزير العدل كوبي كويتسي على الأقل لطلب مانديلا بإجراء محادثات، عن طريق دعوته إلى مقره الرسمي في كيبتاون. وأبقي اللقاء سراً عن السجناء الأربعة الآخرين في بولسيمور، إلا أن سجانهم الصديق كريستو براند لم يستطع مقاومة التحدث إلى كاثرادا، ملمحاً إلى حركات مانديلا السرية. «لا أستطيعع إخباركم من رأى مانديلا الليلة الفائتة»، لقد ضايقهم لكنه كشف في النهاية أنه كان وزير العدل.[20] كويتسي لم يكن موضع ثقة تامة من قبل الرئيس بوثا الذي قال عنه فيما بعد «كان رجلاً، صغيراً مضحكاً. كنت أشعر دوماً بعد الحديث معه أنها مسألة تشوش مقيتة».[21] لكن بوثا كان بحاجة إلى كويتسي لإخراجه من زاويته، ، حيث استمرا في الصلة بينهما.

وهكذا بدأت أطول مرحلة لمحنة مانديلا في البقاء وحده. ومن الشائع جداً في تاريخ العالم بالنسبة إلى رؤساء الحكومات أن يحافظوا على مواقف متصلبة واضحة تجاه أعدائهم في حين يعقدون محادثات سرية معهم؛ كما فعل نيكسون مع الفييتناميين، أو كما فعل جون ميجر بعد ذلك بوقت قصير مع الجيش الجمهوري الإيرلندي، إلا أن مانديلا خاصة كان في وضع مكشوف. . إذ كان يواجه الحكومة وحده، وهو عارف أنهم يحاولون تفريقه عن زملائه، الذين لم يستطع إقناعهم بآرائه. . ومن زنزانته، صار الآن منغمساً بمحادثات دقيقة، متقاطعة مع محادثات أخرى في بريتوريا، ولوساكا، وبريطانية، لم يكن من الملائم اطلاعهم عليها. فخطوة واحدة خاطئة يمكن أن تدمر زعامته.

صار كويتسي الآن يتطلع بوضوح إلى طريقة لإطلاق سجينه المشهور: وبين عامَيْ 1987 و1990 التقى اثنتي عشرة مرة بمانديلا في السجن.[22] وحثه

مانديلا على إطلاق سراح زملائه كخطوة أولى، بدءاً بـ غوفان مبيكي الذي كان يبلغ الآن السابعة والسبعين، وفي صحة سيئة في روبن آيلاند. والحكومة التي أقلقها احتمال موت مبيكي في السجن، أطلقت سراحه فيما بعد بدون شروط في تشرين الثاني (نوفمبر) 1987، «على أسس إنسانية» كما افترض، لكن كان ذلك أيضاً لاختبار رد الفعل العام. كان مانديلا قد نصح مبيكي أن يتصرف بضبط نفس، لكنه تم الترحاب به من قبل تجمعات كبيرة من الحشود المبتهجة، وقدم نفسه علناً كزعيم في المؤتمر الوطني الإفريقي. بعد ذلك بثلاثة أسابيع وضع تحت الإقامة الجبرية لمدة 12 ساعة، ونقل إلى بورت إليزابيث.

وتشكى آمر الشرطة من أنه كان يشجع الشبان على الاستمرار في النضال وتزويد المؤتمر الوطني الإفريقي بمنبر.[23] وفي لوساكا أدرك المؤتمر الوطني الإفريقي أن «شيئاً ما سار بطريق الخطأ» وأن النظام يشعر بالرعب، مما يحتمل أن يلغي إطلاق سراح مانديلا. لكن كما قال تامبو: «إذا أطلق سراح مانديلا، لا يمكن أن يوافق على أن لا يقول شيئاً».[24]

كانت الحكومة تأمل بوضوح أن إطلاق سراح مبيكي يمكن أن يحدث شرخاً بين الجناح الماركسي للمؤتمر الوطني الإفريقي والمعتدلين؛ وكان هناك توتر أكبر بالتأكيد. فقبل أن يغادر مبيكي روبن آيلاند كان مانديلا قد أخبره وحده أنه كان يتحادث مع الحكومة، بدون إعطاء أية تفصيلات[25]؛ وتبع إطلاق سراح مبيكي سريعاً موجة من الشائعات بأن مانديلا كان يخون رفاقه، حيث ترددت عبر العامين التاليين. وحتى تامبو في لوساكا بدا مذهولاً. لكن مانديلا استمر في التحادث مع الحكومة واثقاً من أن تامبو سيتفهم؛ وأبقى تامبو الحزب متماسكاً.

أواخر عام 1987 اقترح كويتسي أن مانديلا يجب أن يشرع في مناقشات أكثر جدية مع فريق من أربعة أشخاص يترأسه هو ويضم الرسميَّيْن الرئيسين ـ اللذين يمكن أن يتظاهرا بالتحدث عن ظروف السجن. لكن العضو الرئيسي

سيكون رئيس جهاز الاستخبارات الوطني الدكتور نيل بارنارد، البالغ السادسة والثلاثين فقط، والمقرب من الرئيس. . كان جهاز الاستخبارات الوطني قد قام فعلاً باتصال تجريبي مع المؤتمر الوطني الإفريقي في جنيف عام 1984. وبقي على اتصال متقطع بموافقة بوثا. وكان بارنارد واثقاً من أن صفقة يجب أن تتم مع المؤتمر الوطني الإفريقي «قبل أن تصبح ظهورنا إلى الحائط».[26]. عرف مانديلا أن اشتراك بارنارد في المحادثات سيزيد من المخاطر؛ إلا أنه لم يرغب في استعداء الرئيس، الذي كان هدفه النهائي. لذلك وافق على الاجتماع «بالفريق» كما هو في حين أصر على التشاور أولاً مع زملائه الأربعة في السجن في الطابق الأعلى. سألهم منفصلين الواحد بعد الآخر، عن رأيهم بشأن التحادث مع الحكومة، دون أن يلمح إلى بارنارد وفريقه. كان ريموند مهلابا وآندرو ملانجيني مسرورين: فقد رغبا في المحادثات منذ وقت طويل. وأراد سيسولو الانتظار حتى تقوم الحكومة بالخطوة الأولى، وارتاب بخطة ماكرة لاستخدام باثيليزي والآخرين ضد المؤتمر الوطني الإفريقي؛ أخبر مانديلا أنه يأمل في أن يعرف ماذا يجري. أما كاثرادا فكان أكثر قلقاً: اعتقد أن المؤتمر الوطني الإفريقي ربما يظهر وكأنه يستسلم. لكن مانديلا لم يفكر أبداً أنه يتحدث من موقف ضعف، وسار قدماً.[27]

لاقت رغبة مانديلا بالمحادثات صدى جزئياً من تفكير جديد من المؤتمر الوطني الإفريقي في لوساكا، ومن الحزب الشيوعي. قال جوي سلوفو في مقابلة عميقة في آذار (مارس) 1987، «اعتقد أن عملية الانتقال في جنوب إفريقية ستأتي عبر المفاوضات، إذا كان هناك أي احتمال لتسويتها سلمياً غداً، فسنكون أول من يقول دعونا نفعل ذلك».[28] لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان قلقاً من أن القوى الغربية وكذلك بريتوريا لديها جداول أعمال مخبأة، ورأى دلائل تشير إلى أن سياسيي أمريكة وبريطانية وألمانية يعدون خطتهم بالذات التي سيحاولون إجبار المؤتمر الوطني الإفريقي على قبولها؛ وتلقى أيضاً

زيارات من وسطاء غير معروفين في السابق، بمن فيهم ألان وينستين، وهو بروفسور محافظ من جامعة بوسطن (التي لها ارتباطات مع وكالة الاستخبارات المركزية) حيث اقترح محادثات غير رسمية مع وزارة بوثا. في تشرين الأول (أكتوبر) 1987 طرح المؤتمر الوطني الإفريقي وثيقته بالذات: «رد محتمل لمبادرة المفاوضات». كررت الوثيقة الهدف الأكبر: «هزم نظام التمييز العنصري وانتقال السلطة إلى جميع أفراد الشعب». لكنها أكدت أن عليهم أن «يستعدوا، في الوقت المناسب، للاحتمال الممكن للمفاوضات، التي تشرع بها قوى أخرى غيرنا».[29]

صار زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى يقومون الآن باتصالات أوثق مع زملائهم في الجبهة الديموقراطية الموحدة داخل جنوب إفريقية. في أيلول (سبتمبر) 1987 وفر «مؤتمر أطفال» في هراري، زيمبابوي، أول فرصة لتامبو وزعماء لوساكا، بمن فيهم جوي سلوفو، للالتقاء بناشطين طاروا من جنوب إفريقية. كان المناخ السائد مسيحياً أكثر من كونه شيوعياً: وأشرف على المؤتمر الأب هادلستون من لندن، مع ناشط الكنيسة اللامع فرانك تشيكين من جوهانسبورغ. توقع هادلستون أن يلفت المؤتمر الانتباه إلى معاناة الأطفال السود؛ لكنه وفر أيضاً اتصالات فذة بين الزعامة في الخارج والداخل. تحدث تامبو بتفاؤل، حيث شجعه الالتقاء مع الأفريقانيين في داكار، إلا أنه لم ير أية إشارات تحرك من جانب ب. دبليو. بوثا، الذي ما زال يصم المؤتمر الوطني الإفريقي بأن أعضاءه قتلة ماركسيون.[30]

وراء الستار أظهر تامبو الآن ولأول مرة قلقه بسبب ما يقوم به مانديلا. كان يعلم أنه يتمتع بثقة مانديلا الكاملة: فعندما جمعت زوجته أديلايد كتاباً عن خطابات تامبو هرّب مانديلا مقدمة مكتوبة بيده تمتدح «العرض الرائع» لسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي الذي قدمه تامبو في مقابلة مع طوني هيرد من صحيفة كيب تايمز، وتشرح كيف أن التزامه «ألهمنا بما يتجاوز الكلمات».[31] لكن

تامبو كان قلقاً للسماع عن محادثات مانديلا السرية، وهرّب رسالة إلى داخل السجن طالباً منه معرفة ما في ذهنه. تذكر مانديلا «اللهجة كانت معادية فعلاً، لذلك قررت أن أكون حازماً. . . قمت بإضافة جملة فقط: «اجتماع بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة؟!» قال لي مانديلا لاحقاً: «شعرت أن ذلك وصل إلى نقطة يتعين علينا من خلالها أن نكون أقوياء جداً». [32]

في أيار (مايو) 1988 التقى مانديلا بالفريق لأول مرة، في المحيط المريح لنادي الضباط ضمن مجمع بولسيمور. اجتمعوا مرة تقريباً في الأسبوع في الأشهر التالية، وفي بعض الأحيان لسبع ساعات. كان مانديلا يستعد بعناية لكل لقاء، محولاً زنزانته إلى مكتب مُرتجل. كان نيل بارنارد بوضوح العقل الموجه للحكومة، أقسى وأمهر من الآخرين وهو هادىء ولطيف. إلا أنه كان معجباً بخصمه، ثم أخذ لرؤية مانديلا وهو يتذوق الساندويش: «شعرت بشعور عميق من التعاطف تجاه هذا الرجل في ملابس السجن وحذائه. وكان نحيلاً». تأثر مانديلا «بالذكاء المنضبط والتهذيب الذاتي» لبارنارد إلا أنه فوجىء بأفكاره الخاطئة عن المؤتمر الوطني الإفريقي، المجمعة من السجلات المنحرفة للشرطة والاستخبارات». [33] كانت هناك أيضاً تقارير سلبية عن حالة مانديلا العقلية. في أيار (مايو) 1988 كتب الكولونيل جي. جي. لورينز أن حالته العاطفية بقيت مستقرة؛ مع عدم وجود دلائل على مرض عقلي. . إلا أن موقفه إزاء الحكومة الجنوب إفريقية ما زال ثابتاً ورافضاً. إنه لن يكون مستعداً للتخلي عن العنف. [34]

ردد مانديلا وبارنارد النقاشات القديمة، وكرر بارنارد أن الرئيس بوثا لا يستطيع لقاء مانديلا ما لم يوافق على التخلي عن العنف؛ وشرح مانديلا مرة أخرى أن الدولة هي التي بدأت العنف، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي سيرد بطريقة سلمية على الوسائل السلمية. وتشكى بارنارد من أن المؤتمر الوطني الإفريقي يريد تأميم كل شيء؛ واستشهد منديلا من جديد بمقالته عام 1956 في (اللبراسيون) التي تطلعت إلى ازدهار الأعمال الإفريقية أكثر من أي وقت

مضى. وأصر بارنارد على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يسيطر عليه الشيوعيون، وأن الحكومة لا يمكنها التفاوض ما لم يبتعد المؤتمر عنهم. وشرح مانديلا أن شيوعيي المؤتمر الوطني الإفريقي بعيدون عن أية «امبراطورية شريرة»، وأنه لا يقبل أن تسيّره أية هيئة خارجية. يجب على الفريق أن يدرك ـ كما اقترح ـ أنهم ما داموا قد فشلوا في تغيير تفكيره: «ماذا يجعلكم تظنون أن الشيوعيين سينجحون حيث فشلتم؟».[35]

عرف مانديلا أن بارنارد كان يواصل اتصالات أخرى مع المؤتمر الوطني الإفريقي قال له بارنارد: «سمعنا أن ثابو مبيكي هو شخص يريد المفاوضات. هل لديك أي اعتراض إذا ما تحدثنا معه؟» سأل مانديلا لماذا يُعَد هذا ضرورياً: «إنه شاب، قادر جداً، موهوب جداً ومخلص جداً؛ لكن إذا كنتم ستقومون بنقاش سري معه فإنه سيتسرب قبل أن يخبر جماعته وربما تتسببون في تدميره». كان يفضل أن يتحدث بارنارد إلى تامبو ذاته. لكن بارنارد سار قدماً باتصالاته مع ثابو.[36]

وهكذا أصبح ثابو لاعباً رئيسياً في اللعبة الدقيقة. شعر مانديلا أنه قادر على الثقة به، بما أنه قد راقبه أولاً عندما نظم الطلبة للإضراب ضد الجمهورية عام 1961. تعلم ثابو فن السياسة لأول مرة من والده غوفان، وفر إلى المنفى. وحصل على درجة في الاقتصاد من جامعة ساسيكس وقام بالتدريب العسكري في الاتحاد السوفييتي. ثم عمل عن قرب مع تامبو في لوساكا ولندن، حيث تطور ليصبح ديبلوماسياً كبيراً. وأصبح ماهراً في تطمين الأفريقانيين بأنه يتفهم مشكلاتهم؛ وتعلم ـ كما قال ـ «أن يبدأ من حيث هم». إنه يشرب معهم، وينفث دخان غليونه، ويستمع، ويشارك في نكاتهم، ويتفهم تاريخهم، ويزيل تدريجياً مخاوفهم بخصوص المتطرفين السود. إلا أنه لم يفقد أبداً رؤية الأهداف المحددة للمؤتمر الوطني الإفريقي. وعندما بدأ ثابو بالتحدث إلى

أصدقاء بارنارد، أدرك مانديلا «أنه كان ذكياً جداً وكان يخبر المنظمة. كان على الصواب إلى حد كبير». [37]

تعلم بارناد من جانبه، سريعاً أكثر عن أفكار ثابو من تقارير عن اجتماعات المؤتمر الوطني الإفريقي مع الأفريقانيين في إنكلترة التي رتبها غولد فيلدز - حيث أبقاه البروفسور ويلي استرهيوز من جامعة ستيلينبوش على علم بها، بمعرفة المؤتمر الوطني الإفريقي. في اللقاء الثاني في كينت، ترأس ثابو فريق المؤتمر الوطني الإفريقي في حين كان الأفريقانيون قد أضيف إليهم خبير دستوري ورجل أعمال. وفوجىء مبيكي بجهل الأفريقانيين: حاول دون جدوى طمأنتهم بأنهم لا يُعَدون قد خانوا شعبهم، وأن إطلاق سراح مانديلا سيفتح الباب أمام محادثات سلمية. [38] استطاع ثابو محاصرتهم - كما تذكر مايكل يونغ. «كان الأمر مربكاً، لم ير الأفريقانيون أي شخص مثله: فقد تحرك في الدوائر الدولية التي كانوا يتطلعون إليها». إلا أن الطرفين اقترب بعضهما من بعض. وقبل الأفريقانيون أن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يمكنه التخلي عن العنف من جانب واحد قبل التفاوض - وهي النقطة التي رفضها الرئيس بوثا أمام الأشخاص البارزين. وأكد لهم ثابو أنه عندما يطلق سراحهم فإن زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي - بمن فيهم والده غوفان، الذي أطلق سراحه لتوه - سيكبحون أتباعهم عن العنف. [39]

داخل جنوب إفريقية كان الناس لا يعلمون شيئاً عن المحادثات السرية، أو نشاطات مانديلا الحقيقي بالمقارنة مع الشيطان الأسطوري، أو البطل، لكن اسمه كان يزحف مجدداً إلى العناوين الرئيسية، كما أن حظر صوره قد أُبطل. وظهرت مجدداً صور قديمة من عقد الستين منذ عام 1986. عندما تحدثت «الويكلي ميل القانون» بنشرها من جديد صورة كانت قد ظهرت في كتيب دعاية للحكومة. [40]

وتعززت شهرة مانديلا الدولية في عيد ميلاده السبعين في تموز (يوليو)

1988. ففي لندن خططت البي بي سي لأن تنقل عبر التلفاز حفلة موسيقية كبيرة للروك في 11 حزيران (يونيو) دعيت «الحرية في السبعين» في ستاد ويمبلي، مع ممثلين نجوم من ضمنهم هاري بيلا فونت، ويتني هيوستون، روبيرتا فلاك، وستيفيووندر. بريتوريا كانت غاضبة جداً بحيث هددت البي بي سي بإخراجها من جنوب إفريقيا كلها؛ وهاجم أربعة وعشرون عضواً من حزب المحافظين في البرلمان البي بي سي لتشجيعها الإرهابيين؛ وكتب محرر عمود ويير لو وايت من حزب المحافظين في «أخبار العالم» أن مانديلا والمؤتمر الوطني الإفريقي كانا يحاولان إقامة «دكتاتورية سوداء على النمط الشيوعي». [41] لكن الحفلة الموسيقية سارت قدماً ـ مع رسالة مهربة من مانديلا ـ حيث شاهدها 72,000 مشاهد و200 مليون مشاهد على التلفاز في ستين بلداً. [42] كتب كاثرادا من بولسيمور إلى بول جوزيف: «هل خطر لك ـ فيما عدا ميلاد السيد المسيح ـ أن أي عيد ميلاد لم يحتفل به ـ بهذا الاتساع ـ كعيد ميلاد نيلسون السبعين». [43] علقت إذاعة جنوب إفريقية بأن الحملة لجعل نيلسون مانديلا فاتناً «قد تصاعدت إلى مستوى جديد من السخافة العاطفية التي غذّاها الجهل». [44]

وحتى صحف جنوب إفريقية المحافظة كانت تدعو إلى إطلاق سراحه عندما أصبحت انفجارات العنف أكثر شؤماً. وقبل عيد ميلاده مباشرة، انفجرت سيارة مفخخة خارج ستاد الركبي في إليس بارك في جوهانسبورغ، مما أدى إلى مقتل اثنين من البيض وجرح خمسة وثلاثين. [45] وحذرت جوهانسبورغ ستار من أنه إذا مات في السجن فإنه سيعامل معاملة القديسين، في حين «أنه متى أطلق سراحه فإن أسطورة مانديلا سيتم تحجيمها من خلال الحقائق السياسية». وحتى الصحيفة الأفريقانية اليوم الموالية للحكومة وهي بيلد قالت: لن يكون هناك وقت أفضل من الآن لإطلاق سراحه: لقد حصل على مكانة أكبر من الحياة، وسيجد من الصعب المحافظة عليها إذا ما أطلق سراحه. [46] وأجاب وزير الإعلام بأن الحكومة لا ترى أن طريقها الواضح هو في إطلاق سراح

مانديلا «في هذه المرحلة»، وأن أي محرر ليس لديه المعرفة الدقيقة للحكومة بالظروف.[47] وتبين أن الوزير كذلك لم تكن لديه.

الجنوب إفريقيون السود رأوا مانديلا الآن وبوضوح أكثر كزعيمهم الضائع الذي ينتظر في منطقة بعيدة. بعد عيد ميلاده مباشرة زاره يوسف وأمينة كشاليا، اللذان لم يرياه منذ ستة وعشرين عاماً؛ قال يوسف: «إنه يتذكر كل شيء وهو متيقظ كما كان دوماً. صحته جيدة وهو جذاب مثلما كان دوماً». قالت أمينة علناً: «يبدو نيلسون رائعاً كلياً، مع أن لديه الآن الكثير من الشعر الأشيب على رأسه». كانت قلقة أكثر في سرها، لأنه بدا نحيلاً وشاحباً، وقد افتقدت لخديه الممتلئين. لكنها كانت واثقة من «أن لديه قوة داخلية سيطرت على كل شيء». وأعطى آل كشاليا رسالة إلى مؤيديه: «أنا ممتن لكم جداً ولديّ أمل كبير جداً للمستقبل».[48] بعد ذلك بعدة أيام زارته الدكتورة مامغالا رامفيل، شريكة الزعيم الأسود المقتول ستيف بيكو وأم واحد من أبناء بيكو الاثنين. كانت مذهولة لرؤية السجانين يذعنون له، كما غمرها حضوره، «طلة راشحة ورشاقة ـ كانت مهاراته الاجتماعية الكبيرة ظاهرة في كل حركة ـ لقد أشعرني بالطمأنينة بدون أن يعاملني بتنازل».[49]

لكن مانديلا لم يكن في حالة جيدة: كان يسعل كثيراً، حيث ألقى اللوم في ذلك على زنزانته الرطبة. بعد ثلاثة أسابيع من عيد ميلاده، في 4 آب (أغسطس) سمح للسجناء الأربعة في بولسيمور بتمضية عدة ساعات معه. كان مرحاً، مليئاً بالأخبار عن الأصدقاء القدامى، وحازماً جداً. كتب كاثرادا فيما بعد: «المحامي بداخله كان متوقداً وحكيماً و(ديناميكياً) أكثر من أي وقت مضى». لكن كاثرادا شعر بالقلق لأول مرة بشأن صحة مانديلا: «إنه يسعل كثيراً وصوته أعلى من الهمس بقليل».[50] وكان إسماعيل أيوب قلقاً أكثر عندما تقيأ مانديلا فجأة. استدعى الحارس، غريغوري، الذي وصل (كما تذكر) ليجد

مانديلا يناضل من أجل الوقوف على قدميه، وهو يتعرق ويشير إلى الفوضى على الأرض التي أراد تنظيفها.[51]

بعد عدة أيام زار مانديلا طبيب، فحصه بسرعة، حيث سيق بعدها بحماية قافلة عسكرية، إلى مستشفى تايغربيرغ في ستيلينبوش، حيث أخلي طابق بكامله وأحيط بحراس مسلحين. فحصه طبيب شاب لطيف أكد له بعد عدة فحوصات أنه بلياقة تامة. لكن في الصباح التالي ظهر البروفسور دوكوك الفظ. دق على صدر مانديلا، ملاحظاً أن جانباً كان أكبر من الآخر، وقال إن هناك ماءً في الرئة. أدخل إبرة عبر أضلاع مانديلا وسحب بعض السائل المائل إلى البني. ثم أخذه فوراً إلى غرفة العمليات وهو تحت التخدير، وأزال المزيد من السائل لتنظيف الرئتين. وجد علائم مبكرة للسل، الذي اعتقد أن سببه يعود جزئياً إلى الرطوبة. بقي مانديلا في تايغربيرغ ستة أسابيع للعلاج واسترداد عافيته تحت إشراف دوكوك؛ كان واثقاً من أنه كان «بين يدي خبير». وعندما حان وقت مغادرته المستشفى رأى في دوكوك صديقاً وثيقاً.[52]

النشرة الطبية أعطت معلومات ضئيلة، شارحة أن مانديلا لديه «دفق يساري بغشاء الجنب»، أو سائل في الرئة اليسرى، بدون المزيد من التفصيلات. ووصف الأطباء حالته بأنها مُرضية. لكن ويني التي وصلت إلى المستشفى مع إسماعيل أيوب في اليوم التالي، أعطت صورة أكثر مدعاة للقلق، ملقية اللوم على السجن بإهماله. كان التكهن والقلق عميقين، وبدت الحكومة قلقة. ولم يجد وزير الإعلام سبباً يستدعي بقاء مانديلا في السجن. كان وزير العدل كويتسي «مشوشاً بعمق». وكان يعطي للقضية «اهتمامه الشخصي»: أتى بروفسور سويسري مختص بالرئة، وقال إن الفرصة في استرداد كامل للصحة كانت ممتازة. قالت الصنداي تايمز إن الحكومة أدركت بوضوح أن «الأكثر سوءاً من إطلاق سراح مانديلا هو مانديلا ميت».[53]

أعد تامبو في لوساكا خططاً لإطلاق سراح مانديلا الوشيك؛ لكن المؤتمر

الوطني الإفريقي ارتاب بأن الرئيس بوثا لديه جدول أعمال خفي، وناقشت لجنة العمل فيه: ذلك في اجتماع هام أواخر تشرين الثاني (نوفمبر). اعتقد المجتمعون أن «النظام ينوي تفجير إعادة تخطيط سياسي والشروع بممارسة مفاوضات عقيمة للتلاعب بالوقت». بريتوريا سوف تكيف الضغط على المؤتمر الوطني الإفريقي للعمل «بمسؤولية»، تدعمها السيدة تاتشر التي خططت لزيارة جنوب إفريقية بعد إطلاق سراح مانديلا، والتي كانت تصور البريطانيين كحَكَم من أجل صيغة دستورية جديدة.

شعر تامبو بالقلق خصوصاً بشأن دور باثيليزي. ومانديلا بعد إلغاء زيارة باثيليزي في عام 1986، بعث برسائل تفيد أنه يريد التحدث إليه.

عارض تامبو لقاء كهذا، لكنه أدرك أن مانديلا سيريد رؤية باثيليزي عندما يطلق سراحه. «يعتقد نيلسون مانديلا أن بإمكانه تعبئة الشعب في صفوفنا، وكان بمقدوره فعل ذلك في الماضي». هذا ما قاله تامبو للجنة العمل. شعر أن مانديلا يجب تحذيره بأن باثيليزي كان يتطلع إلى القبول قبل أن يسير في طريقه بالذات، وأضاف تامبو: «باثيليزي متعطش للسلطة ويريد استخدام نيلسون مانديلا ما دام ذلك يناسبه... مارغريت تاشتر ماكرة بما فيه الكفاية لإدراك أن العداء بين المؤتمر الوطني الإفريقي وباثيليزي سيستمر ما دام نيلسون مانديلا ليس هناك».

كان المؤتمر الوطني الإفريقي مصمماً على الاحتفاظ بقوته العسكرية. كان عليهم ضمان أن «طريق النضال لن يخرج عن مساره بإطلاق السراح». درسوا فكرة تنظيم حشد في سوويتو، «مرتبط بانفجارات في شتى أنحاء المكان». «ورأوا حاجة إلى خطة من أجل حالة عصيان منضبطة». يجب أن يتحدى مانديلا أية قيود. قال تامبو: «إن الكفاح المسلح يجب أن يتصاعد حتى قبل خروج نيلسون مانديلا بحيث لا يعود هناك أي تساؤل حول اشتراط إطلاق سراحه بالتخلي عن الكفاح المسلح». قالت لجنة العمل إن مانديلا يجب أن

يضع برنامج عمل واضح، بالتشاور مع الزعامة: «إن إجماع الآراء بينه وبين الحركة كلها ذو أهمية حاسمة». يجب أن يكون هناك ترحيب شعبي هائل بإطلاق سراحه، مع شعارات واضحة «أهلاً بصورة زعيم الشعب».[54]

لكن السجناء في بولسيمور كانوا مرتابين بشأن احتمال إطلاق سراحهم. «وهذا الشك الذي مرده تجربة سابقة، لا يوفر أي سبب للتفاؤل». كما قال كاثرادا لصديقه ج. إن. سينغ في 16 أيلول (سبتمبر).[55] وأدرك مانديلا سريعاً وهو في المستشفى أن الحكومة لديها خطط مختلفة. وبعد ستة أسابيع في تايغربيرغ تم نقله إلى مستشفى كونستانتيابيرغ الأكثر راحة، وأصبح المريض الوحيد الأسود في مؤسسة بيضاء مكلفة، تمت العناية به بشكل جيد جداً، ولاقى الإعجاب من الممرضات السود والبيض، حتى إنهن أقمن حفلة في غرفته وبقي بعضهن على اتصال معه فيما بعد. كتبت فيونا دنكان مذكرة إياه: «عزيزي السيد مانديلا، لا همبرغر ولا بيتزا ولا موس شوكولا».[56]

لكن مانديلا أدرك في كونستانتيابيرغ أنه لن يطلق سراحه. زاره كوبي كويتسي في يومه الأول، حيث بدأ بارنارد والفريق بعد ذلك باستئناف اجتماعاتهم معه. شرح كويتسي أنه سينقل مانديلا الآن إلى سجن آخر، حيث سيكون «في منتصف الطريق بين السجن والحرية».[57] كان يدخل في متاهة غريبة، على حافة الأحداث ومع ذلك في وسطها، عارفاً أنه يحمل السلام المستقبلي لبلاده في يديه.

26

شيء خاطئ بشكل مرعب

1987 ـ 1989

في زحمة مفاوضاته السياسية، واجه مانديلا أكثر المشكلات التي ليس لها حل من قبل زوجته ويني، التي ما زالت فاقدة السيطرة على نفسها. يبدو أن «أنثى ـ الفيل» توصل الانفلات الآن إلى أقصى حدوده، حيث انغمست في انفجارات عنف وقتل أدت إلى إعطاء صورة باروك (كابوس) لجنوب إفريقية بديلة. أدى تصرفها الجامح إلى حدوث أزمة سياسية كانت ستشمل زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي داخل البلاد وخارجها.

عرف مانديلا ومضة من لا مسؤولية ويني المالية بعد عيد ميلاده مباشرة في تموز (يوليو) 1988، عندما عقدت صفقة مع مقاول أمريكي مقبول ظاهرياً هو روبرت براون ـ الذي كانت له صلات مع جامعة بوسطن ـ لاستغلال اسم مانديلا، مقدمة إليه، كما أعلن بيانه الصحفي: «سلطة كاملة كمحام لأسرة مانديلا على مستوى العالم». كان براون قد زار مانديلا في بولسيمور مع ويني في 22 تموز (يوليو)، لكن مانديلا تم تحذيره من لندن بوجوب الابتعاد عنه. «رفض بشدة الاتفاق مع ويني وأبلغ براون بوجوب التعامل فقط مع تامبو، صديقه وزميله المقرب».[1]

واجه مانديلا مشكلة أساسية أكثر مع عنف ويني، كان من الأصعب مواجهتها. ففي سوويتو وجدت ويني نفسها في الواجهة في معركة الكفاح

المسلح. حيث عُدَّ بيتها معقلاً. كانت المناطق تقترب من الحرب الأهلية عندما حمل الشبان السلاح. وكما وصف المشكلة فيما بعد أزهر كشاليا أمين صندوق الجبهة الديموقراطية الموحدة»: بحلول أواسط عام 1985 رأى الآلاف من الشبان الذين لا انتماء لهم والذين ينقصهم التوجيه أو التماسك، والذين تأثر العديد منهم بتجربتهم في الاحتجاز، رأوا أنفسهم جنوداً في النضال من أجل التحرير». لقد ألفوا عصاباتهم المسلحة الخاصة بهم، معرضين للخطر الأقاليم والإقطاعيات والأراضي غير المسموح بالمرور بها. وادعى العديد من العصابات الارتباط بالكفاح المسلح والـ MK، لكن زعماء الجبهة الديموقراطية الموحدة، الذين دمرتهم الاعتقالات الجماعية والاحتجازات لم يستطيعوا ضبطهم. وكما قال كشاليا: «ارتباطاتنا مع مجموعات الشباب على الخصوص أصبحت ضعيفة».[2] وكان لدى الشرطة بوضوح جداولها الخاصة بها. كانت قد تغلغلت في بعض العصابات عن طريق الاستفزازيين من المخبرين والعملاء، حيث حرضت بعضاً ضد بعض، مثيرة الشك والخيانة والردود الانتقامية، مع عدم التدخل ضد ويني.[3]

كان زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي يراقبون ويني بقلق، والتي بدت منذ عودتها من براندفورت أكثر ضراوة وتهوراً. وأصبحت ميالة أكثر للقتال منذ كلمتها عن «الطوق» في نيسان (أبريل) 1986، وشنت حملاتها الخاصة بها ضد الحكومة. عُدَّت نفسها جندياً فدائياً، باللباس العسكري أحياناً، حيث كانت تؤوي لاجئي MK من الشمال، وتدعي أنها تتلقى الأوامر من كريس هاني، الذي كان يقود الـ MK فيما وراء حدود جنوب إفريقية.[4] رأت أن أعمال العنف ضرورية من أجل المعركة. قالت هيلين سوزمان التي ظلت معجبة بشجاعتها الكاملة: «كانت المرأة تعتقد بوضوح أنها تقاتل في حرب».[5]

تخلى الزعماء المحليون عن محاولة ضبط ويني، أو إبقائها ضمن بنيان

منظمتهم. بعد ذلك بتسع سنوات، لامتهم لجنة الحقيقة «لعدم إعادتها إلى المجموعة أو ضبطها عندما بدت الأمور وهي تسير في الطريق الخطأ».[6] لكنها كانت أقسى من أن تنضبط وكان لها أصدقاء أقوياء.

حذرها أصدقاؤها بوجوب حماية نفسها، وأحاطت نفسها منذ عام 1987 بعصابة من الفتيان تدعى «نادي مانديلا الموحد لكرة القدم»، عاشت خلف منزلها، الذي أسموه «لوساكا» أو «البرلمان».[7] كان الزوار يرون العصابات تركض هنا وهناك في الغرف الأمامية بألبسة كرة القدم. بدوا في البداية أنهم يدافعون حقاً عن ويني ضد المنافسين العنيفين. قالت جارتها السيدة دلاميني: «اعتادت أن تكون أماً، اعتادت أن تكون شخصاً محبوباً. أنت تذهب إلى ويني بآلامك، وستساعدك إذا استطاعت ذلك».[8] لكن جيرانها شكّوا بسرعة أن نادي كرة القدم كان يروّع سوويتيين آخرين أكثر من أن يروع الشرطة: كان لأعضائه أسماء خطيرة مثل نينجا، قاتل، عقرب، ضارب السكين، وكانوا يحملون البنادق في كثير من الأحيان. وكلمة كرة قدم بدت ذات معنى سطحي. «فمدربهم الرياضي» جيري ريتشارد سون غادر الجهة مؤخراً، حيث (اكتشف فيما بعد) أن الشرطة قد دفعت له مبلغ 10,000 رند ليصبح مخبراً: كما أدين عدة أعضاء لارتكابهم أعمال القتل أو الخطف. تم تحذير مانديلا في السجن بشأن وجود نادي ويني الخطير، وقال إن من الضروري حله.[9] لكن لم يحدث ذلك. كان نادي كرة القدم عصابة من بين العديد من عصابات اللجان الأهلية التي نمت في جنوب إفريقية، لكنها كانت الأشد خطراً.

بحلول مطلع 1987، كانت الغرفة الخلفية في منزل ويني قد ارتبطت بقصص مريعة عن التعذيب والقتل، والتي ربطها الجيران بويني ونادي كرة القدم. وكان من الواضح، كما ذكرت لجنة الحقيقة، أن «الفوضى الآتية من الباحة الخلفية لبيت آل مانديلا كان لها نتائج سياسية مفيدة للشرطة؛ حيث أوجدت خلافاً ضمن حركة التحرير، لم تكن السلطة ذاتها قادرة على

تحقيقه». [10] وبدت ويني الآن، بعد كل الاضطهاد السابق من الشرطة، بدت لا مشكلة لها معهم في الوقت الذي تجولت فيه مع عصابتها حول سوويتو بحافلتها الصغيرة بحصانة واضحة. قال كشاليا: «كنا نولي الأدبار، ونناضل لإبقاء منظماتنا على قيد الحياة. والسيدة مانديلا كانت تدفع هذا الكومبي Kombi حول سوويتو. نعم، كان ذلك غريباً». [11]

بحلول 1988 كان نادي كرة القدم قد انغمس في حرب مرج مع عصابة أخرى من مدرسة داليوونغا الثانوية المجاورة. وبعد القتال والضرب والاغتصاب، قامت غوغاء من مؤيدي داليوونغا تحمل صفائح النفط بالنزول إلى بيت مانديلا في تموز (يوليو) عام 1988 وأضرمت النار فيه. وقفت الشرطة وقسم الحريق وقفة المتفرج. وصلت ويني وهي شديدة الاضطراب لترى منزلها وقد دُمر، مع أوراق العائلة والرسائل وشريحة من كعكة زفافها. شعر رئيس الكنيسة الشاب فرانك تشيكين الذي كان يرقب المشهد، شعر بالقلق من احتمال انفجار المزيد من أعمال العنف، استدعى مجموعة من الزعماء بمن فيهم سيريل رامافوزا، سيدني موفاماوي؛ أوبري موكوينا، الأخت برنارد نكوبي والمبجل بييرز نودر الذين أصبحوا معروفين باسم «لجنة أزمة مانديلا». ارتابوا في أن «قوة ثالثة» شريرة كانت وراء إحراق المنزل، محاولة إبعاد الجماعة عن معركة التحرير ببث الانقسام بين أفرادها. [12] لكن هدفهم الأول كان إقناع ويني بحل نادي كرة القدم.

علم مانديلا سريعاً وهو في سجنه بالهجوم على بيته؛ وشعر بالخزي لفقدان كنوز الأسرة. كتب إلى ويني في 1 آب (أغسطس)[13]: «إن إتلاف البيت كان عملاً شريراً أمقته وأشجبه بشدة. لقد حرمني السجن من حريتي لكن ليس من ذكرياتي.. والآن أشعر أن بعض أعداء النضال حاولوا حرماني حتى منها». وأخبر محاميه إسماعيل أيوب أنه يريد إبلاغ الشرطة، بدون مقاضاة وبدون حملة ضد المنشقين «إنها قضية سيحلها شعب سوويتو». [14]

بينما كانت تتم إعادة بناء المنزل القديم انتقلت ويني إلى منزل مستأجر مترف أكثر في ديبكلوف، فيه جاكوزي دبره لها صديقها الأمريكي المقاول روبرت براون. وانتقلت معها عصابتها التي ازداد انفلات زمامها، حيث باشرت «عهد إرهاب» كما أسمته الجماعة خلال الشهور السبعة التي تلت. كان الناشط الشاب لولو سوتو ابن نيكو ديموس قد عمل مع ويني حيث ساعد مقاتلي الـ MK الذين أتوا من الشمال. وبعد أن قُتل أحدهم من قبل عصابة منافسة اتُهم لولو فجأة بأنه جاسوس: في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1988 حضرت ويني إلى منزله بحافلتها الصغيرة، حيث كان لولو في الداخل. وقد ضرب وجرح بشدة، وأبلغت والده أنه سيؤخذ بعيداً. توسل نيكو ديموس إليها، إلا أنها لم تكن «ويني التي عرفتها، كانت عدوانية جداً. وقد تغير وجهها كلياً». غادرت ويني المنزل، ولم تتم رؤية لولو بعد ذلك أبداً.[15] بعد خمسة أيام جاءت إلى المنزل جارة عائلة سوتو وهي نومزا تشابا لالا لتجد أن ابنها سيبونيزو، صديق عائلة لولو، قد تم أخذه أيضاً بعد أن كان بعض الشبان يبحثون عنه، حيث كتب اسمه على علبة كبريت. وهكذا لم يشاهد هو الآخر مرة أخرى.[16] اتهمت لجنة الحقيقة فيما بعد ويني باعتبارها مسؤولة عن اختفاء لولو وسيبونيزو.[17]

كانت ويني تسيطر على منطقتها، وقد رفضت نفوذ مقر البعثة الميثودية في أورلاندو الذي كان يديره قسيس مخلص، بول فيرين، والذي وفر ملاذاً للفتيان الإفريقيين المحليين. أواسط كانون الأول (ديسمبر) 1988 جاء فتى عمره أربعة عشر عاماً يعرف باسم «ستومبي» سيبيي إلى مقر البعثة: وبعد ذلك بوقت قصير غاب فيرين في إجازة تاركاً المكان في عهدة امرأة قوية، غسوليسوا فالاتي، التي نشرت الشائعات بأن فيرين كان شاذاً وكان يتدخل بشؤون الفتيان، وأن ستومبي أيضاً كان جاسوساً. بدأت باستجوابه، وفي 29 كانون الأول (ديسمبر) اختطف هو وثلاثة فتية آخرون من قبل نادي كرة القدم، ونُقلوا إلى الغرف الخلفية لبيت ويني في ديبكلوف حيث ضُربوا بعنف من قبل أعضاء

النادي ـ وعلى رأسهم جيري ريتشارد سون في حين كانت ويني تراقب المشهد. واختير ستومبي بوصفه المخبر وكان يُلقى إلى الأعلى والأسفل وهوجم بوحشية. بعد ذلك بعدة أيام وجدت جثته المتعفنة في قاع نهر في طرف سوويتو وهي مثخنة بالجراح؛ فقد طعن ثلاث مرات في الرقبة. وادعى أحد الفتية فيما بعد وهو كاتيزا سيبيخولو أنه رأى ويني ذاتها تطعنه مرتين في ضوء القمر.[18] لكن جيري ريتشارد سون ادعى أنه قطع حلق ستومبي بمجزة «وكأنه يذبح خرافاً». بناء على تعليمات من ويني كانت مامي صانع القرار الرئيسي. . . كان يطلب إليّ أن أقتل وكنت أفعل ما يطلب مني.[19]

قالت لجنة الحقيقة فيما بعد إن قتل ستومبي «كان إحدى أخطر الأزمات التي عانت منها حركة التحرير الداخلية والخارجية».[20] وقررت لجنة الأزمة وكذلك الأسقف الميثودي المحترم بيتر ستوري، كشف الحقيقة والدفاع عن الفتية الثلاثة الآخرين المخطوفين، الذين كانوا باقين في منزل ويني. في 11 كانون الثاني (يناير) 1989 ـ زاروا ويني، التي أكدت لهم أنها كانت تحمي الصبية فقط! لكن الزوار لاحظوا أن لديهم جروحاً طازجة. أرسلت اللجنة تقريراً نضالياً إلى تامبو في لوساكا، شارحة الدليل وعناد ويني: «بدت وهي تعتقد أنها فوق الجماعة! إنها تظهر احتقاراً كلياً للجنة الأزمة والجماعة في آن واحد». ناشدوا تامبو أن يتحرك، «لمواجهة هذه الحالة المروعة التي تتطور أمام أعيننا».[21] في 14 كانون الثاني (يناير) كتب فرانك تشيكين إلى مانديلا: «طُلب مني أن أناشد تدخلك. . . حتى حياة أعضاء لجنة الأزمة أصبحت في خطر». شعر مانديلا بقلق شديد؛ ارتاب في أن ويني هي المذنبة، لكنه اضطر إلى الوقوف إلى جانبها ـ بوصفه زوجها ـ ما لم تتم إدانتها.[22]

بحلول منتصف كانون الثاني (يناير) كانت سوويتو زاخرة بالقصص عن اختفاء ستومبي، في حين استمرت الهجمات وأعمال القتل. ذهب مئة وخمسون عضواً من زعماء الجماعة للاحتجاج ضد اعتداءات نادي مانديلا لكرة

القدم.[23] في 27 كانون الثاني (يناير) وجد طبيب معروف في سوويتو، أبو بكر أسفات وجد مقتولاً في حجرة العمليات الجراحية، حيث اكتشفته مساعدته ألبيرتينا سيسولو وهو في بركة من الدماء، وألبيرتينا هي زوجة والتر. كان اثنان من الشباب الإفريقيين العاطلين عن العمل قد أتيا إلى العيادة كمرضى، وشوهدا وهما يفرّان بعد القتل؛ وقد أدينا فيما بعد وحُكما. اقترحت ويني أن أسفات قتل لأنه وحده يستطيع البرهان على أن الصبية في منزل فيرين ربما كانوا قد اغتُصبوا.[24] في الحقيقة كان أسفات قد رأى في السابق جروح ستومبي ورفض أن يثبت الاغتصاب الشاذ.

كان على لجنة الأزمة أن تواجه مكاشفة مؤلمة بشأن مقتل ستومبي، حيث تواجه الزوجة الشهيرة لزعيمها الموقر. قال أزهر كشاليا: «كان علينا القيام بعمل جريء وخيالي. كان أحد أصعب القرارات التي اتخذتها. كان الناس في أقصى غضبهم» قال ميرفي موروبي أمين سر النشر للحركة الديموقراطية الجماهيرية التي حلت محل الجبهة الديموقراطية الموحدة. «الشيء الذي لم نستطع تحمله هو أن يقوم شعبنا بشيء على مسؤوليته». دعا موروبي إلى مؤتمر صحفي في 16 شباط (فبراير). ويني لن تغفر أبداً للعصبة «الهندية المتآمرة» كما أسمتها. مشيرة بسخرية إلى «ميرفي باتيل».[25] كان بيانهم مدمراً.

> لقد غضبنا جداً لاشتراك السيدة مانديلا في عملية خطف وقتل ستومبي مؤخراً. . . لو أن ستومبي وزملاءه الثلاثة لم يخطفهم «فريق كرة قدم» السيدة مانديلا لكان حياً اليوم. . . نحن لسنا على استعداد للبقاء صامتين بينما يقوم أولئك الذين يخرقون حقوق الإنسان بالادعاء بأنهم يفعلون ذلك باسم النضال ضد التمييز العنصري.[26]

سئل موروبي كيف سيؤثر ذلك على علاقة ويني بمانديلا فأجاب: «الرفيق نلسون، بالتشاور مع جميع الأطراف يجب أن يتخذ قراراً».[27] شاركت أسبوعية «الشعب الجديد» بالمطالبة بضبط ويني، ويحررها ابن والتر سيسولو

وهو زويلاخي: «إن أي إنسان يدعي تمثيل زعمائنا يجب أن يضع نفسه تحت سلطة الشعب».[28]

في لوساكا ذهل تامبو وقلق بشدة بخصوص مصير كاتيزا سيبيخولو الذي اختفى الآن. تكلم على الهاتف مع فرانك تشيكلين في جوهانسبورغ وأبلغه أن يزور ويني فوراً، ولا يغادر قبل أن تسلّم كاتيزا. بعد خمس ساعات مؤلمة مع ويني، اكتشف تشيكين مكان الصبي، ودبر عناية طبية فورية.[29]

أصدر تامبو انتقاده الخاص لويني، الذي كان ملطّفاً أكثر من انتقاد الحركة الديموقراطية الجماهيرية: «بشعور من الحزن الشديد نجد من الضروري التعبير عن تحفظاتنا تجاه رأي ويني مانديلا فيما يتعلق بنادي مانديلا لكرة القدم».. لقد فشلت في حل نادي كرة القدم ـ كما شرح ـ ولم تتعاون مع الحركة: «تركت حرة وعرضة لارتكاب أخطاء استغلها العدو». لكنه كان يأمل مع ذلك بأن ويني سيعاد دمجها داخل الحركة. بدت الآن وقد تمت السيطرة عليها إلى حد ما. قالت لصحيفة جوهانسبورغ صنداي تايمز: «الرفيق تامبو والرفيق مانديلا قررا أن أفضل شيء تقوم به العائلة هو في البقاء هادئة، من الآن فصاعداً ستوجهنا لوساكا». لكنها أخبرت التلفاز الهولندي في اليوم ذاته: «أنا واثقة أن ستومبي لم يُقتل».[30]

نصحها مانديلا بأن تكون صبورة ولا تجري أية مقابلات، وكتب إليها في 16 شباط (فبراير) طالباً منها أن تضع القضية كلياً بأيدي لجنة الأزمة: «يجب عدم استخدام لباس الميدان مرة أخرى تحت أي ظرف من الظروف». لكنه ألقى اللوم جزئياً على وسائل الإعلام المحافظة بخصوص التحريفات؛ «إن هدفها الحقيقي هو في تدمير الصور، وزرع الانقسامات بين أفراد الشعب، وأن توصل إلى الرند المذبحة التي أصابت مناطق معينة في ناتال منذ عدة سنوات، الآن يجب أن نكون يقظين إلى أقصى الحدود».[31]

تأثرت فاطمة مير التي رأت مانديلا في السجن «بمحنته وقدرته على تقييم

الوضع تقييماً موضوعياً وحبه الذي لا يلين لزوجته»[32]. عندما رأته أمينة كشاليا في شباط (فبراير) مع زوجها يوسف وجدته راغباً بشدة بالإيمان ببراءة ويني، وإعادتها إلى المسار.[33] قال ولا عمر الذي رآه في السجن: «كان وقتاً مؤلماً، كان مخلصاً لويني إخلاصاً مطلقاً، مهتماً بلا كلل برفاهيتها، على الرغم من ابتعاد الحركة عنها».[34]

في 23 شباط (فبراير) زار مانديلا القس الميثودي ستانلي موغوبا الذي كان على اتصال وثيق بأسقفه بيتر ستوري. حيث كان قد عرفه في روبن آيلاند. قبل مانديلا أن ويني كانت مخطئة. شرح موغوبا أن ستوري حاول لقاءها، وأنها هي التي خرقت صمت الصحافة. شكر مانديلا الكنيسة على كل ما فعلته: ووافق على «أنه وضع بشع». واقترح أن ويني ربما تطلب الصفح في مؤتمر صحفي، وتعد بالبدء من جديد؛ لكن موغوبا رأى أن الوقت ربما قد فات[35]. كان مانديلا ما زال يأمل بمساعدة ويني. إنها «فتاة رائعة؛ مثلك» هذا ما كتبه لصديقته في 28 شباط (فبراير)، وتابع «لذلك أحث على الصبر وأن تكوني داعمة مثلما كنت دائماً».[36]

لكن في لوساكا، كان تامبو قلقاً جداً الآن على ويني: قالت زوجته أديلايد: «عرفت أن الأمور سيئة عندما أخبرني». «يجب أن نصلي من أجلها».[37] بعد تقارير في الصنداي ستار والصنداي تايمز في جوهانسبورغ، سجل تامبو في دفتر مذكراته!

الصورة ممزقة ويني على المستوى الأعلى
صورة المؤتمر الوطني الإفريقي مدمرة
تحقيق الميجر جنرال جوبرت: كما يلي
«من الصعب جداً إيجاد شهود».
اللولب يسير إلى الأسفل
نيلسون يوازن طلب الطلاق
سفك دماء. . .

«ستومبي، اكتُشف»
اعترفت لجنة الأزمة أن عليها التعامل مع قضية فتى ميت.
البيان خطير، اتهامات ضدويني مانديلا.
العملية قُطعت بإعلان الشرطة
مانديلا يجب أن يتحرك لإنقاذ نفسه والمؤتمر الوطني الإفريقي.
يعتقد الناس أن الطلاق وشيك
ويني مانديلا تنكر التصدع
توترات في الزواج
غارات سياسية[38]

في نيسان (أبريل) زار مانديلا راعي الأبرشية بييرز نود ثم طار إلى لوساكا ليقدم تقريره إلى تامبو. حذره نود من أن ويني كانت «ميالة إلى اللاعقلانية». وأنها معادية للجنة الأزمة، وأن «تصرفها اللامسؤول أثار شكوكاً بأنها ربما هي متعاونة مع العدو». سأله تامبو: «هل يمكن للناس أن يظنوا فعلاً أنها تعمل مع النظام؟» أجاب نود إن البعض يظن ذلك، وإنهم غاضبون لأن ويني شرعت بالابتعاد عن منظمة النساء. كان تامبو ساخطاً، حيث أراد حل المجموعة الجديدة: «إن هذا هو ما حاولنا تجنبه ـ الانقسام».[39]

بحلول نيسان (أبريل) تراجعت أزمة ويني من العناوين الرئيسية، حيث تفوق عليها التكهن بخصوص إطلاق سراح مانديلا. استمرت الشرطة بالتحقيق بقضية ستومبي سيبيي، في حين استمر السوويتيون بمراقبة ويني بمشاعر مختلطة. كان العديد منهم يحتفظ بتعاطف كبير مع امرأة كانت شجاعة جداً. جارها الأسقف توتو الذي طلب منها أن تكون عرابة لحفيد من أحفاده. كان من بين المتعاطفين. قال بعد ذلك بتسع سنوات: «كانت مفيدة هائلة لنضالنا، أيقونة للتحرير»، مع ذلك «شيء ما سار بطريق الخطأ، سيراً مريعاً، وخاطئاً جداً».[40] لكن لجنة الحقيقة ستجد فيما بعد أن ويني «أصبحت منغمسة في جدال سبب دماراً لا يوصف لسمعتها»؛ ولا شك في أنها كانت «مسؤولة

سياسياً وأخلاقياً عن الانتهاكات الفادحة لحقوق الإنسان التي ارتكبها نادي مانديلا الموحد لكرة القدم». [41]

لم يستطع مانديلا ذاته أن ينسى كيف أن ويني أبقت النضال حياً خلال أسوأ الأيام. وأنها تحملت الوطأة العظمى لهجمات الحكومة أثناء غيابه. وأدرك أنها ارتكبت أخطاء خطيرة، وارتاب في أنها مذنبة، لكنه سيبقى مخلصاً، وتوقع من أصدقائه أن يكونوا مخلصين، إلى أن تتم إدانتها. إن مقتل ستومبي سيبيي، والوحشية اللاقانونية لنادي مانديلا الموحد لكرة القدم، سيخيمان على مفاوضاته السلمية في العقد القادم، مثل باروك (كابوس) بديل للعنف.

27

سجين مقابل رئيس

1989 ـ 1990

في 9 كانون الأول (ديسمبر) 1988 نُقل مانديلا من مستشفى كونستانتيابيرغ إلى بارل، بلدة الكروم التي تبعد خمسة وثلاثين ميلاً عن كيبتاون، إلى سجن ڤيكتور فيرستر الذي سمي باسم مدير سابق للسجون. ومثله مثل بولسيمور وروبن آيلاند كان سجناً ذا بيئة جميلة معذِّبة. ولم يؤخذ في هذه المرة إلى زنزانة ـ بل إلى بيت سجّان وهو كبير ومؤلف من طابق واحد أبيض اللون مع حديقة شاسعة وبركة سباحة. وعندما زاره زملاؤه الأربعة من بولسيمور بعد ذلك بأسبوعين دهشوا لأدوات الراحة الحديثة وكتب كاثرادا إلى ابن أخته: «البيت ذاته كبير ومفروش بترف، وفيه سجاد من الحائط إلى الحائط بأكمله. حتى غرف الضيوف كان لها حماماتها الخاصة. والمطبخ حديث فيه مدفأة ومايكروويف، وتجميد شديد، ومحمصة وراوُوق قهوة. . . وفيه أيضاً غسالة ونشافة».

كان السجانون الودودون هم الآن الذين يعتنون بمانديلا، بما في ذلك طباخ شخصي، وضابط كفيل هو جاك سوارت الذي كان يصنع له فطوره المفضل ـ فطيرة السمك، البيض المسلوق، والشاي مع الخبز المخبوز طازجاً ومن القمح الصافي، وكان يقدم غداء وعشاء كبيرين مع النبيذ للضيوف الزائرين. حافظ مانديلا على عاداته الصارمة: فهو يشرب قليلاً جداً، ويفضل النبيذ الأبيض الحلو من تيديربيرغ، كما وافق على كره منه على طلب نبيذ أبيض

غير حلو لضيوفه. وأصر على ترتيب سريره، وأراد غسل الصحون، وتجادل مع سوارت كما قال جيمس غريغوري، وكأنهما زوجان قديما العهد في الزواج. كان مانديلا محاطاً بالراحة، لكنه صار الآن بعيداً أكثر عن زملائه. وكما كتب كاثرادا: «الحقيقة غير المقبولة تبقى ـ أنه ما يزال سجيناً في سجنه المترف المتوحد. نحن أفضل منه في بعض الأمور». [1]

في عزلته ذات الامتياز، عرف مانديلا أنه كان يُعَد للحرية، إلا أن وضعه كان أصعب بكثير. كان مصمماً على الحفاظ على التحادث مع الحكومة، لكن كان لها جدولها الخاص في التفريق والسيادة، وربما تشوه حقائق وضعه بسهولة. كان باستطاعته التواصل فقط مع حلفائه داخل جنوب إفريقية وفي لوساكا؛ في حين لم يكن لديه اتصال مباشر مع الحكومات الغربية، التي كانت لها أهدافها الخاصة وسوء فهمها. كان كعنكبوت في وسط شبكة ممزقة. لكنه كان لأربعة عشر شهراً استثنائياً في وسط (الديبلوماسية) المعقدة ـ مع زملائه، ورئيسين وزعماء أجانب ـ والتي من شأنها تحويل بلاده.

استمرت محادثاته السرية الطويلة مع فريق الحكومة. وطلب منهم التوقف عن اعتباره جزءاً من المشكلة، وقبوله جزءاً من الحل. لكنهم بقوا خائفين من إطلاق سراحه، وظلوا متمسكين بثلاثة شروط ربما لا يمكنه قبولها: يجب أن يتخلى المؤتمر الوطني الإفريقي عن الكفاح المسلح. ويبعد عن الحزب الشيوعي، ويتخلى عن مبدأ حكم الأغلبية.

ما زال مانديلا يصر على وجوب التحادث مع الرئيس بوثا مباشرة، وأعد مذكرة دقيقة له، حيث ناقشها مع زملائه الأربعة من بولسيمور، ثم سلمها إلى فريق الحكومة. تم قبولها في آذار (مارس) 1989 «كورقة غير رسمية» أكثر من أن تكون وثيقة رسمية، وكتمهيد للمحادثات التالية. حذرت المذكرة من أن جنوب إفريقية انقسمت بين معسكرين متعاديين. حيث السود والبيض يذبح بعضهم بعضاً. وتابعت بتفسير اعتراضات مانديلا على شروط الحكومة الثلاثة:

1 ـ لا يستطيع المؤتمر الوطني الإفريقي التخلي عن العنف في حين أن الحكومة ليست مستعدة لاقتسام السلطة مع السود.

2 ـ إن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يسيطر عليه الحزب الشيوعي. المنظمة لم تتبن في أي وقت من الأوقات بل حتى لم تتعاون مع الشيوعية ذاتها ـ ولا تستطيع الابتعاد عنهم، «أي رجل شريف يتخلى عن صديق حياة كاملة بناء على إلحاح خصم مشترك ويستطيع مع ذلك الاحتفاظ بقدر من المصداقية مع شعبه؟».

3 ـ يتوجب على الحكومة أن تقبل مبدأ حكم الأغلبية. «حكم الأغلبية والسلام الداخلي هما مثل وجهين لعملة واحدة».

لكن مانديلا أنهى المذكرة بملاحظة إيجابية. اعترف أن الإفريقيين الجنوبيين البيض كانوا مهتمين بخصوص الطلب الأمامي للمؤتمر الوطني الإفريقي بحكم الأغلبية في دولة وحدوية. وعرض محادثات تمهيدية لإيجاد المناخ الملائم للمفاوضات. سيكون «الوقت الذي يسمو فيه جميع الزعماء فوق مستوى الشروط المسبقة ويصبحون بذاتهم جزءاً من نقاش كبير حول جنوب إفريقية جديدة».[2]

عبر فريق الحكومة عن خيبته «بالمنطق الثوري الذي أدار من خلاله المؤتمر الوطني الإفريقي دعايته على الدوام»، وادعى أن لديه «حقائق استخباراتية قاسية» بأنه منذ عام 1964 كان الحزب الشيوعي «قد عزز قبضته تدريجياً على المؤتمر الوطني الإفريقي». وتشجع أكثر بالجزء الأخير من الوثيقة، الذي أظهر «استعداداً لوضع المصالح الوطنية فوق المصالح المحلية» وتطبيع الوضع، ووافق أن على الجنوب إفريقيين «حل مشكلاتهم بدون تدخل أجنبي».[3] لكن لم يكن هناك تقدم باتجاه المحادثات.

في لوساكا، كان تامبو يشعر بالقلق أكثر فأكثر. وقد هرّب له مانديلا نسخة من مذكرته إلى ب. دبليو. بوثا؛ لكن تامبو لم يعرضها على الإدارة

التنفيذية الوطنية خوفاً من أن يساء فهمها. وقلق أيضاً من أن الالتزام بالسرية وضع مانديلا في موقف غير ملائم. قال: «في حين كان نيلسون مانديلا يحافظ على السرية، فإنهم لم يكونوا كذلك». حاول مانديلا طمأنته برسالة إلى لوساكا عن طريق بيير زنود، راعي الأبرشية الأفريقاني الموثوق. أبلغ تامبو أن البلاد تنحدر نحو حرب أهلية. لكن الحكومة كانت «في مشكلة كبيرة وتبحث عن مخرج». ومحادثات مانديلا بالذات إنما هي محاولة جلب الأطراف الرئيسية إلى الطاولة، والمؤتمر الوطني الإفريقي وحده هو الذي يستطيع معالجة المفاوضات، حيث ستكون «قضية حياة وموت». كان مانديلا قد اجتمع عشر مرات مع فريق الحكومة خلال السنة الفائتة، وشرح: الآن أعطاهم قائمة أشخاص، بعضٌ منهم في السجن، ممن يريد استشارتهم.[4]

بعد ذلك بوقت قصير قام بزيارة مانديلا محاميه إسماعيل أيوب وافترض الاثنان أنهما مراقبان. ذهب أيوب إلى لوساكا ليخبر تامبو «لجنة الرئيس». كانت هناك مناقشات مثيرة للقلق. اعتقد زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي الذين رأوا وثيقة مانديلا أنها ستقف في طريق حملاتهم، وكان تامبو ما زال قلقاً من أن يظهر مانديلا بمظهر الخائن، كما سجل المحضر: «ليس المطلوب منا نحن أن نفاوض. . . إننا سنظهر القبول بالضعف والاستسلام. . . أما الآن، فليس هناك أي دليل على أنهم يريدون التفاوض بجدية». كانت هناك مخاوف أيضاً من أهداف السيدة تاتشر. كان تامبو مرتاباً بأنها تحث الآن على المفاوضات في الوقت الذي تبدو فيه الحركة (بالنسبة إليها) في حالة تشتت. لكن جوي سلوفو لاحظ أنه حتى تاتشر ذاتها كانت ترفض زيارة جنوب إفريقية ما لم يطلق سراح مانديلا ويُلغى حظر المؤتمر الوطني الإفريقي.

كان المؤتمر الوطني الإفريقي قلقاً على الخصوص من قائمة مانديلا بالأشخاص الذين يريد استشارتهم، بمن فيهم «المتنفذين الرئيسيين» التي أعطاها للحكومة. اعتقد سلوفو أن هذه اللقاءات يمكن استخدامها لتمزيق

صفوف المؤتمر الوطني الإفريقي، وأن مانديلا ربما «يطاح به من المركز الذي هو فيه». وارتاب كريس هاني أيضاً بأن الحكومة كانت تحاول تدمير مانديلا، من خلال تسريب محادثاتها معه. بقي تامبو قلقاً بخصوص السرية لكنه ما زال يثق بمانديلا: «لندعه يستمر، إلا أن معالجته بأكملها بحاجة إلى تعديل».[5]

هل كان مانديلا يخون؟ كان المؤتمر الوطني الإفريقي داخل جنوب إفريقية قلقاً بخصوص ديبلوماسيته المتوحدة. قال ألان بويساك: «إنه لم يستشر، وليس هناك خطيئة أكبر من ذلك في الجبهة الديموقراطية الموحدة». أراد بعض الزعماء بمن فيهم غوفان مبيكي، زيارة الذين طلب مانديلا التحدث معهم، وإبلاغهم بوجوب عدم رؤيته. أمضى مبيكي عدة ساعات في مقر مانديلا، وشعر بالحزن: «ظهر إما أنه ليس لديه ثقة كافية بي ليخبرني القصة بأكملها، أو أن الطرف الآخر توصل إلى إجراء ما معه شعر أنه لا يستطيع التخلي عنه». أصر مبيكي على «أنه لا يمكن لأية مشاورات مفيدة أن تتم في ڤيكتور فورستر».[6] الشائعات حول صحة مانديلا ومرض السل عززت الشكوك بأنه قد ضعف نفسياً وتم التلاعب به. لم ير أحد صورة له منذ عام 1965. قال أحد المساعدين في لوساكا «عيناه بدتا ميتتين جداً، ظننا أنه ربما تغير فعلاً».[7]

لكن تامبو وجد الآن وسيلة لاختراق حواجز الاتصالات وتحقيق اتصال مباشر أكثر. عام 1988 أرسل ماك ماهاراج، الهندي المحنك من روبن آيلاند إلى جنوب إفريقية مع سيفيوي نياندا، وهو فدائي متمرس من الـ MK عرف باسم «غيبوزا»، لإقامة «عملية فيولا» وهي مهمة عسكرية فائقة السرية يمكن أن ترتبط بالناشطين في الداخل وتوفر «سياسة ضمان» إذا ما فشلت المفاوضات. أُرسل ماهاراج إلى موسكو وأمستردام، حيث حصل على جوازات سفر مزيفة وأسنان جديدة وفقد لحيته. وجُهز أيضاً بحاسوب محمول و(موديم) تم إحضارهما عن طريق مضيفة صديقة في شركة الطيران الهولندية، حيث بإمكانه - عن طريقهما - إرسال رسائل مشفرة عبر الهواتف. ويمكن لهذا النظام الذي

اخترعه اثنان من الخبراء في المؤتمر الوطني الإفريقي في إنكلترا وهما تيم جينكن وروني بريس، يمكن له أن يقيم اتصالاً - في السر - بين تامبو ومانديلا.

بحلول نيسان (أبريل) 1989، كان تامبو على استعداد للاتصال مباشرة مع مانديلا في منزله - السجن - رفض مانديلا الشروع بنشاطات سرية في غمرة محادثاته السرية الدقيقة؛ لكن ماهاراج أرسل رسالة شرح فيها كيف يستطيع إرسال مذكرات إلى تامبو مخبأة داخل أغلفة الكتب، والتي يمكن أن تصل إلى لوساكا عبر نظام حاسوب مُرَمَّز. في النهاية بدأت الرسائل من مانديلا تظهر ظهوراً خارقاً على الشاشة في لوساكا. قال تيم جينكن «الاثنان كانا يتحدثان الآن بثقة، لأول مرة منذ مطلع عقد الستين». ساعدت الرسائل في طمأنة تامبو مجدداً بشأن أهداف مانديلا؛ لكنه لم يستطع أن يشارك زملاءه بمصدر السر الفائق بدون «المخاطرة بالنظام». وما زالت لديه صعوبة كبيرة في إقناع جناحه اليساري بأن مانديلا لم يكن يخون.[8]

في 28 نيسان (أبريل) كان هناك اجتماع متوتر آخر «للجنة الرئيس» في لوساكا، مع المزيد من القلق حول مذكرة مانديلا. أوجز تامبو قائلاً: إن مانديلا على خطأ بإعطاء الحكومة أسماء الأشخاص الذين يريد رؤيتهم، وأمِل بأنه سيخرق سرية محادثاته؛ لكن «ليس لدينا سبب مُحِقٌّ للقول إنه يجب أن لا يستمر» وأضاف: «لا نستطيع كقضية سياسية القول فعلاً إنه لا يستطيع طلب شخص ما ليراه».[9]

وضع تامبو أفكاره الخاصة في يومياته؛

1 - نحن لسنا ضد التفاوض من حيث المبدأ، لكن الظروف لم تنضج بعد.

2 - مانديلا لا يفاوض بل يسهّل لاجتماع بين ممثل لجنوب إفريقية والمؤتمر الوطني الإفريقي، لتجنب حمام دماء، كما يراه. لقد جعل ذلك واضحاً.

3 - المشكلة بالنسبة إلينا، ليس فيما يخبر به الفريق عندما يزوره، ولكن

لأننا لا نعلم ما يقول أحدهم للآخر. هذه معلومات أساسية لا نستطيع بدونها ـ بأية حال ـ الاجتماع إلى النظام، لا سيما لأنهم سيكونون عارفين كلياً عن طبيعة ومحتوى المحادثات خلال تلك الشهور الكثيرة.

4 ـ لذلك نوافق على أنه يجب أن يستمر في الاتصال لكن يجب أن يخبرنا بشأن المناقشات معهم.[10]

القلق والارتباك في لوساكا لم يكونا مفاجئين. ففي كلمات بربارة ماسيكيلا التي كانت هناك في ذلك الوقت: «هناك دوماً جنون الارتياب في المنفى. أنت تعلم أنها على وشك الحدوث، لكنك لا تستطيع ضبط أعصابك. يجب أن تقوم بخطوة إلى الأمام ربما تكون خاطئة. هناك تخمين وتخمين ثان. الناس ضحوا بشبابهم بأكمله من أجل النضال، وهم يرفضون أن يقوموا بالقفزة: يستطيع بعض الناس أن يضعوا أنفسهم في الوضع الجديد، لكن بعضهم الآخر لا يستطيع».[11]

شكوكهم كان لها أساسها الصحيح. كانت الحكومة تأمل بالتأكيد أن تفصل مانديلا وتقسّم المؤتمر الوطني الإفريقي. وأن تضع صفقة منفصلة مع باثيليزي. لكنهم أخطؤوا في قراءة قدرة مانديلا وتماسكه. قال جورج بيزوس، الذي كان يرى مانديلا كثيراً في منزله (لاحظ أن حوض الزهور بالذات كان فيه جهاز تنصت) قال: «إنهم لم يتعاملوا مع أشخاص سود من هذا الوزن. اعتقدوا أن بإمكانهم إفساده، مثل ماتانزيما أو مانغوبي. إنه لم يخدعهم، كان خطؤهم في التقدير هو الذي أدى إلى إطلاق سراحه. وبما أنهم بدؤوا بالتفاوض، لم يعد بإمكانهم التراجع، بسبب انفلات الزمام. في ڤيكتور فيرستر كان مانديلا هو الذي يمسك بالوضع».[12]

سيسولو الذي كانت لديه اتصالات متقطعة مع مانديلا في بولسيمور شارك في ذلك الرأي: «لقد أساؤوا تقديره، لقد اعتبرونا أشخاصاً همجيين بمن

فيهم ماديبا. عندما رأوا لهجة معقولة، أخطؤوا في فهم الشخص. من السهل إساءة تقدير ماديبا عندما يكون لطيفاً بدون معرفة عناده في الموقف. . . لقد نظروا إلى لين الخط اللين: إنه ليس عدوانياً، إنه ليس همجياً. ثم أمكن تخيل الاحتمالات الموجودة هناك: الحصول على مانديلا، كان الحزب الوطني على استعداد للنقاش لأن الزعامة ستأتي منهم، وليس من المؤتمر الوطني الإفريقي.[13]

مهما كانت توقعات الحكومة، فقد وقعت جميعها في التشوش: لأنه في كانون الثاني (يناير) 1989 عانى ب. دبليو. بوثا من سكتة دماغية أقعدته لمدة شهر، في حين أن الوزير المتطرف العنيد كريس هينيس أصبح رئيساً بالوكالة، حيث بث المزيد من الكآبة بين الديبلوماسيين الأجانب. قال روبن رينويك: «بشاربه الحزين كان يذكرني دوماً بالفظ (حيوان ثديي شبيه بالفقمة)»[14] بعد شهر استقال بوثا من زعامة الحزب الوطني، مفترضاً بدون حكمة أن بإمكانه البقاء كرئيس دولة.

توجب على الحزب انتخاب زعيم جديد، ولم يختر المرشح المعتدل، وزير المالية الليبرالي باريند دو بليسيز، بل وزير التعليم المحافظ بوضوح إف. دبليو دوكليرك. كان يبدو بالنسبة إلى معظم الزعماء الأجانب عنيداً متصلباً، بمن فيهم تاتشر. وكما قال أمين سرها الخاص تشارلز بوويل[15]: اعتقدت أنه مجرد شخص دموي آخر من البوير، قاوم دوكليرك العديد من إصلاحات ب. دبليو. بوثا، أصيب بصدمة عندما قال وزير الخارجية بيك بوثا إنه على استعداد للعمل تحت إمرة رئيس أسود في المستقبل. لم يكن دوكليرك مهيباً، كما لاحظت مراسلة الفاينتشال تايمز باتي وولدمير: «رجل صغير، بجلد سيِّىء وذوق أسوأ في اللباس، إنه يتكلم الإنكليزية بطريقة سيئة، يدخن بشدة، ويبدو مراوغاً إلى حد ما». تشجع الديبلوماسيون البريطانيون لأنه استمع، وكان من السهل الوصول إليه، ولا ينتمي لأية «جهة». وكان المؤتمر الوطني الإفريقي

يأمل عندما وعد المؤتمر الحزبي للحزب الوطني «بقفزة كبيرة إلى الأمام»، وأصر على أن لديه تفويضاً بالتحدث إلى أي شخص.[16] لكنه أظهر القليل من الأمل بتغيير جريء في السياسة.

تطلع مانديلا وتامبو معاً إلى العالم الخارجي وبخاصة بريطانية لتجنب حمام دماء عن طريق ضغط العقوبات. لكن تامبو أصبح ساخطاً بسبب تصلب السيدة تاتشر، ولا سيما بعد أن وصفت المؤتمر الوطني الإفريقي بأنه إرهابي وذلك في قمة الكومونولث في فانكوفر في تشرين الأول (أكتوبر) 1987. أرادت أن تزور مانديلا في السجن، لكن تامبو عارض ذلك بشدة، خوفاً من أن تشرع في إبعاده عن المؤتمر الوطني الإفريقي: «لن نسمح بذلك» قال تامبو في كانون الأول (ديسمبر) 1988 وتابع: «يجب أن تخرجه من السجن». كان تامبو طائراً بخصوص المواقف البريطانية كما شرح في لندن في كانون الثاني (يناير) 1989: «لا أدري ما الذي سيغير المواقف الديبلوماسية في لندن، إنهم عديمو الحساسية إلى حد كبير. أعتقد أنها مذبحة رهيبة. من الصعب جداً إيجاد العذر للسيدة تاتشر بقولها إن المؤتمر الوطني الإفريقي عبارة عن إرهابيين، لأننا نحن الضحايا. إنها عمياء عمىً كاملاً: إنها تستطيع رؤية عنف المؤتمر الوطني الإفريقي فقط. بريطانية هي التي أوصلتنا إلى هذه العنصرية.

كان هناك المزيد من الشائعات بأن بريطانية تخطط لتقوم بدور الوسيط في مفاوضات لاحقة في لندن، حيث ستحث دول جنوب إفريقية المؤتمر الوطني الإفريقي على الاتفاق.[17] أواخر آذار (مارس) تجولت تاتشر في إفريقية لمدة أسبوع، منتهية في ناميبيا، التي كانت تتحرك نحو الاستقلال، وحيث حذرت بحدة بيك بوثا من القيام بهجوم معاكس على سوابو. لم تستطع زيارة جنوب إفريقية، كما قالت، ما لم يطلق سراح مانديلا. إلا أن موقفها لم يكن مشجعاً بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي. . تحدثت عن رجل واحد واقتراع واحد، لكن ليس بالضرورة ضمن دولة موحدة.[18] بحثت مع بائيليزي والزوار

الآخرين إمكانية إقامة دساتير فدرالية بديلة، مثل النظام السويسري للكانتونات. كانت هناك دلائل متزايدة لمبدأ «فرق تسد».

كان المؤتمر الوطني الإفريقي في حيرة أكثر فأكثر بعداء تاتشر في حين كان الكثيرون جداً من الأفريقانيين على صلة معه ويريدون أن يشرع دوكليرك بالمحادثات؛ كان من بينهم بيتر دولانج من البرودربوند، جوهان هينز، رئيس كنيسة الإصلاح الهولندية، ويلي إسترهيوز من جامعة ستيلينبوش والكاتب ويمبي دوكليرك، شقيق الرئيس. تساءل ثابو مبيكي: «لذلك لماذا تسير السيدة تاتشر في اتجاه مختلف، حيث قبلت بوضوح حقوق المجموعة ورفضت المحادثات مع المؤتمر الوطني الإفريقي؟». ما زال مبيكي يأمل بأن تلعب تاتشر دور صانع سلام. عند لقائه مجدداً بالأفريقانيين القياديين (بمن فيهم ويمبي دوكليرك) في مؤتمر في غولد فيلدز في نيسان (أبريل)، اعتقد أن السيدة تاتشر ربما تكون وسيطاً بين المؤتمر الوطني الإفريقي وحكومة جنوب إفريقية؛ لكنها قررت أن أي «محاولة للعب دور مباشر من الخارج ستلاقي عدم الترحيب».[19]

حقق المؤتمر الوطني الإفريقي اختراقاً جديداً في حزيران (يونيو) 1989 عند اجتماع مؤتمر للمحامين في أوكسفورد شاير، مولته مؤسسة فورد وترأسه المحامي ـ الفيلسوف رونالد دوركين. حول مفهوم القانون في جنوب إفريقية. حضره كبار القضاة في جنوب إفريقية ومحامو المؤتمر الوطني الإفريقي، ولورد بريطاني في القانون هو اللورد أوليفر ـ مع تامبو وثابو مبيكي بعيداً عن الأضواء. لكن تاتشر نأت عنه. والوزراء البريطانيون الآخرون بمن فيهم جيوفري هاو، كريس باتن، وليندا تشوكر أرادوا الاعتراف بالمؤتمر الوطني الإفريقي: «السيدة تاتشر وحدها التي توقفهم، إنها محافظة». قال أحد موظفيها.[20]

كان مانديلا رافضاً لانتقاد السيدة تاتشر علناً. لقد أعجب بالسيدة القوية التي كانت بإمكانها التعامل مع غورباتشيف، وأدرك أنها ربما يكون لها نفوذ فذ على بريتوريا. تأثر بتقارير سفيرها روبن رينويك، وفي آذار (مارس) 1988

أرسل رسالة عن طريق محاميه في كيبتاون هيمي برنات مرحباً بموقف السيدة تاتشر ضد التمييز العنصري. «على الرغم من الاختلاف في الرأي حول قضية العقوبات». [21] لكن بعد تسرب الرسالة تسرباً مضللاً كتب مانديلا إلى رينويك في 10 نيسان (أبريل) منكراً بشدة أنه كتب مباشرة إلى تاتشر: «كنت سأفضل فعل ذلك في مجال النقاش وجهاً لوجه معك في السجن». مع ذلك اختتم قائلاً: «يسعدني أن أطلب إليك إيصال أفضل تمنياتي لرئيس الوزراء». [22]

صار المؤتمر الوطني الإفريقي يعلق الآن آمالاً أكبر على الإدارة الأمريكية الجديدة برئاسة جورج بوش. وقد ألزم الرجل الجديد الموكل إليه شؤون إفريقية في وزارة الخارجية، هيرمان كوهين، ألزم نفسه سريعاً وعلناً بمنح الحقوق السياسية المتساوية لجميع الجنوب إفريقيين، ووصف التمييز العنصري «بأنه كارثة شائنة للحقوق الإنسانية». بحلول أيار (مايو) كان بوش يبعد نفسه عن بريتوريا بالتحدث إلى وفد من الجنوب إفريقيين السود برئاسة الأسقف توتو، وبدعوة ألبيرتينا سيسولو لتقديم تقرير عن حقوق الإنسان. [23]

أصبحت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أكثر تشككاً في وصف الجناح اليميني للمؤتمر الوطني الإفريقي بأنه شيوعي خطر. في آذار (مارس) 1988 عندما كان بوش نائباً للرئيس صدر تحليل سري للمؤتمر الوطني الإفريقي (حيث نشر جزئياً عام 1996) أظهر احتراماً واضحاً لزعامة تامبو. وفي حين كان سبعة عشر من بين سبعة وعشرين عضواً من الهيئة التنفيذية شيوعيين محتملين، ـ كما قال التقرير ـ فإن هناك حفنة من الأعضاء السود الملتزمين داخل جنوب إفريقية. وتامبو كان يعمل منذ وقت طويل على تحدي وتحديد نفوذ الحزب الشيوعي الجنوبي إفريقي: «إن النظام الإجماعي للمؤتمر الوطني الإفريقي كما قالت السي آي إيه، قام بعمل جيد جداً؛ وأصبح المؤتمر الوطني الإفريقي أقل مناصرة للجبهة الديموقراطية الموحدة، والمعارضة الداخلية. ومن المحتمل أن يستمر في «اتباع سياسته الثنائية المسار في الحفاظ على روابط وثيقة مع دول

الكتلة [السوفييتية] في حين يوسع الاتصالات في الغرب». بالإجمال إن المؤتمر الوطني الإفريقي واجه تحديات الأعوام القليلة الماضية «بالحفاظ على تماسك تنظيمي، والاحتفاظ بموقفه المسيطر في الحركة ضد التمييز العنصري، وتوسيع اتصالاته مع الغرب».[24] لكن بعد ذلك بعشرة شهور، في كانون الثاني (يناير) 1989، لاحظت السي آي إيه أن «الأزمة» في جنوب إفريقية لن تتوقف «مما يمنع تحولاً جذرياً. . . مثل الإطلاق غير المشروع ـ والمستبعد إلى حد كبير ـ لسراح زعيم المؤتمر الوطني الإفريقي السجين نيلسون مانديلا».[25]

بدت واشنطن ولندن وهما تلعبان لعبة مزدوجة بتعزيز الزعيم باثيليزي. ورأى المؤتمر الوطني الإفريقي في ذلك دعماً لسياسة دوكليرك بخصوص حقوق المجموعة التي من شأنها أن تجعله قادراً على إطلاق سراح مانديلا في حين يبث الانقسام في القبائل، وبذلك يحافظ على سيطرة الحكومة عليها. اعتقد سيسولو بعد ذلك أنه: «ليس تاتشر فحسب، أعتقد أن أمريكة وألمانية تعملان أيضاً ضمن خطة محددة لتعزيز باثيليزي بكل طريقة ممكنة، وتلقي تقارير عن رد فعل مانديلا».[26] بدا مانديلا وهو أكثر ثقة بباثيليزي؛ بعد تلقي تحياته في عيد ميلاده السبعين، شكره بحرارة وتمنى استئناف علاقته الودية مع تامبو. مؤكداً الحاجة الملحة للوحدة: إن أي عمل أو تصريح يزيد من الانقسام ـ كما حذر ـ سيكون خطأً قاتلاً.[27] لكن تامبو الذي خانه باثيليزي في إحدى المرات، خشي من أن زعيم الزولو سيستغل الصداقة مع مانديلا.

ماذا كان يخطط دوكليرك؟ في أيار (مايو) حاول تامبو أن يقيّمه بخطه الدقيق في دفتر ملاحظاته:

- سياسي نموذجي للحزب الوطني ـ محافظ ـ مختلف عن ب. دبليو حيث يعتمد على الجدل والمنطق بدلاً من استخدام أصبعه وإسكات النقاش.
- لذلك هو قادر على أن تقنعه الحقيقة.

إلا أنه اعتقد أيضاً أن دوكليرك كان «حازماً بشأن حقوق المجموعة - ليست قابلة للتفاوض»؛ وأن «حكم الأغلبية غير مقبول بتاتاً»، بالنسبة إليه. كان الزملاء قد نصحوا تامبو بوجوب أن يكون «حذراً وواعياً ولا يهرع إلى المفاوضات «كن حريصاً بخصوص ما تتخلى عنه الآن، ربما تتمنى لو أنك لم تفعل ذلك إذا ما تحول توازن القوة لصالحك في المستقبل».[28]

استمرت ارتباطات دوكليرك مع الحكومة البريطانية بإقلاق المؤتمر الوطني الإفريقي. في حزيران (يونيو)، تجول في أوربا ليطمئن الزعماء في الخارج، بمن فيهم السيدة تاتشر، التي قالت فيما بعد: «هناك مناخ جديد في جنوب إفريقية». لكن المؤتمر الوطني الإفريقي صار قلقاً الآن من أنها أرادت حلاً يقوم على «حماية المجموعة»، يدعمه باثيليزي، كما شُرح في «تقرير عن المشاورات» في 6 حزيران (يونيو). قال ديبلوماسي المؤتمر الوطني الإفريقي عزيز باهاد: «لا يمكننا أن نرى كيف ستكون حَكَماً شريفاً، في الوقت الذي ترتبط فيه ارتباطاً وثيقاً بالنظام».[29]

في جنوب إفريقية صار دوكليرك يسيطر الآن على الحكومة. فقد أشرف على مؤتمر حزبه الفدرالي وكشف خطة لخمس سنوات من العمل استعداداً للانتخابات في أيلول (سبتمبر) 1989. وعدت الخطة بوضع حد للتمييز وإدخال دستور ديموقراطي، لكنها وضعت المزيد من التأكيد على «حقوق المجموعة» التي من شأنها في النهاية أن تقسّم السكان غير البيض. كان الرئيس بوثا قد وضع على الهامش بجلاء، ورد بشدة برفض حضور مأدبة احتفال على شرفه.

كان التمرد الأسود الداخلي يظهر الآن علائم إحياء قوي بعد الإجراءات الصارمة المدمرة. وأعلن تامبو أن 1989 «هي سنة العمل الجماهيري من أجل سلطة الشعب»، وتبعت دعوته موجة جديدة من الاحتجاج. في كانون الثاني (يناير) شرع السجناء في روبن آيلاند بإضراب طويل الأمد عن الطعام، مما أقنع

الحكومة في النهاية بإطلاق سراح تسعمئة متهم، بمن فيهم زعماء رئيسيون في الجبهة الديموقراطية الموحدة. في شباط (فبراير) تجمعت هذه الجبهة من جديد، بالتحالف مع نقابات العمال في كوساتو COSATU في «حركة ديموقراطية جماهيرية» شنت سريعاً حملة تحد ضد المؤسسات المعزولة عنصرياً، بدءاً من عمليات وصول مرضى سود إلى مستشفيات البيض ـ حيث وافق الأطباء والممرضات على علاجهم. الكنائس كانت تتحول إلى ناشطة أكثر فأكثر، مع وجود الأسقف توتو في الطليعة. وأصبح الكفاح المسلح فعالاً أكثر، مع هجمات على رجال الشرطة وأبنية الحكومة، بلغت الذروة في هجوم ناجح بمدافع الهاون على محطة رادار في أيار (مايو). كتب توم لودج: «كانت تحسناً ملحوظاً في قَدَر الحركة». في حين أن الحكومة الجديدة، التي كانت تواجه الانتقاد الدولي والأزمة الاقتصادية المستمرة، بدت وهي تفتقد المصادر والحزم من أجل المزيد من القمع العسكري الذي لا يرحم.[30]

كان ب. دبليو بوثا ما يزال رئيس دولة، على الرغم من ضعفه سياسياً؛ وفي فترته الانتقالية القلقة بالذات تلقى مانديلا دعوة كان ينتظرها منذ سنتين. بوثا كان يسأل في معظم الأحيان (كما قال لي) رئيس استخباراته نيل بارنارد: «متى سيأتي مانديلا لرؤيتي؟» ليتم إخباره أن الوقت لم يحن بعد. لكن أواسط 1989 قال بارنارد إن مانديلا أراد التحدث إليه، وإن الوقت قد حان. ووافق بوثا على «نقاش عام».[31] في 4 تموز (يوليو) أخبر الجنرال ويلمز المهذب مانديلا بأنه سيرى الرئيس بوثا في «دعوة مجاملة» في الصباح الباكر من اليوم التالي. مانديلا الحريص دوماً على صورته كان مصمماً على أن يعطي الانطباع الصحيح؛ طلب لباساً جديداً، أعاد قراءة جميع ملاحظاته، وحفظ عن ظهر قلب ما سيقول.[32] كان الاختبار الأكبر لمنزلته، لتحدي رجل معروف بتنمره والتلويح بأصبعه: السجين يواجه الرئيس. قال أحد زملائه: «كان يشعر دوماً أن الحكومة عاملت السود كأطفال، كان مصمماً على لقاء الرئيس على أساس المساواة».[33]

نقل مانديلا أولاً لتناول الفطور مع الجنرال ويلمز ثم إلى المرآب تحت مكاتب الرئيس في توينهويز، بجوار البرلمان. ولدى دخوله سراً في المصعد، وجد كوبي كويتسي ونيل بارنارد وآخرين وهم ينتظرونه بقلق في حجرة الانتظار. قام الميجور ماريز، آمر السجن، بإعادة ربط رباط حذائه بعناية. تذكر مانديلا «كنت متوتراً لأنني كنت أتوقع شجاراً».[34]

لكن بوثا كان في ألطف أحواله. اتجه نحو السجين الشهير الذي لم يلقه أبداً، ويده ممدودة بود ولطف. جلسا إلى الطاولة مع كويتسي وبارنارد؛ في حين أن بوثا - ودهش مانديلا - صب الشاي بنفسه! تحدثا براحة لنصف ساعة عن تاريخ جنوب إفريقية وثقافتها: عن حرب البوير، والرؤساء الإفريقيين وماتانزيما في الترانسكي. واقترح مانديلا أن الأفريقانيين كانوا فعلاً «أول مقاتلي الحرية». وقارن نضاله بالذات (كما فعل ذلك كثيراً) بالتمرد الأفريقاني ضد الحكومة في الحرب العالمية الأولى. وشرح كيف أنه كان يعرف الأفريقانيين أفضل في السجن. قال بوثا إن بإمكان مانديلا المساعدة للتوصل إلى حل سلمي؛ لكن يجب أن لا ينسى ما يمكن أن يقدمه الأفريقانيون من مساعدة. في النهاية، طلب مانديلا - بتوتر أكثر - إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، حيث رفض بوثا ذلك بتهذيب. لكنهما اتفقا حول الحاجة إلى السلام. وأعدا بياناً مقتضباً، وافترقا بلطف. تذكر مانديلا: «كانت من ألطف المقابلات بالنسبة إليّ، لقد عاملني باحترام، وبأسلوب صحيح جداً. تلك هي الصورة التي أخذتها عنه».[35] اعتقد نيل بارنارد أن المناخ كان مرحاً إلى الدرجة التي جعلت المسألة «مسألة وقت فقط» قبل إطلاق سراح مانديلا. لكن كان هناك بعض التوتر عندما تناول مانديلا موضوع إطلاق سراح سيسولو فوراً. بدا بوثا متعاطفاً، لكن توجب على بارنارد أن يبلغ مانديلا في طريق العودة إلى السجن أن هناك حاجة للوقت لإقناع البيروقراطية، وهذا ما أثار غضب مانديلا بشدة؛ صوّر اللقاء أحد المساعدين، مسجّلاً مشهداً لطيفاً غير رسمي. كذلك سجله

على المسجلة موظفو بوثا، لكن بارنارد أتلف الشريط فيما بعد «مما أثار غضب بوثا، الذي ادعى أن بارنارد (طعنني في الظهر)». [36]

رأى مانديلا أن بوثا يعبر (الروبيكون) الذي ابتعد عنه قبل ثلاث سنوات. وعلاقته مع «المتباكي» برهنت على أنها راسخة رسوخاً غريباً. وصف البيان الرسمي بلطف اللقاء بأنه «زيارة ودية غير رسمية» استفاد فيها الرجلان من الفرصة لتأكيد دعمهما للتطورات السلمية في جنوب إفريقية». وافق مانديلا عليه، في حين شرح أنه أظهر «عدم التحول عن الموقف الذي اتخذته خلال السنوات الثماني والعشرين الماضية». وهو أن الحوار وحده مع المؤتمر الوطني الإفريقي من شأنه إحلال السلام في البلاد. [37] لكن الوعد بدعم التطورات السلمية لم يكن فارغاً: سوف يثق مانديلا وبوثا أحدهما بالآخر أكثر من أن يثق أي منهما بـ دوكليرك؛ وإن العديد من زملاء بوثا، بمن فيهم بارنارد سيصرون على أن بوثا فعل لتحقيق المصالحة أكثر بكثير مما فعله دوكليرك. [38]

معظم الصحفيين والسياسيين افترضوا أن الرئيس بوثا تحدث مع مانديلا بهدف سلب دوكليرك فرصة الظهور. إذا كان الأمر كذلك، فهو من غير طائل. بعد ستة أسابيع استقال بوثا في كلمة غاضبة على شاشة التلفاز، متشكياً من أنه: «تم تجاهلي من قبل وزراء يخدمون في وزارتي» وخلفه ـ رغم إرادته ـ دوكليرك.

الرئيس الجديد لم يظهر حتى ذلك الوقت أية رغبة في إحداث تغيير أساسي للتوجه. كان قلقاً (كما قال شقيقه ويمبي) بشأن السياسة اللاعملية للتمييز العنصري وليس لا أخلاقيتها. [39] لكنه كان عملياً ذا بصيرة واضحة وكان مدركاً جداً للأزمة الاقتصادية. وأدرك بسرعة كم كانت خياراته مقيدة: كل الطرق تؤدي إلى مانديلا.

في سجنه في المنزل كان مانديلا أكثر قدرة على الاتصال: العائلة والأصدقاء. في تموز (يوليو) احتفل بعيد ميلاده الواحد والسبعين، حيث

أمضى أربع ساعات مع ويني وخمسة عشر عضواً آخرين من العائلة، بمن فيهم الأولاد والأحفاد. كما أُحضر زملاؤه الأربعة أيضاً من بولسيمور لرؤيته ـ لأول مرة منذ كانون الأول (ديسمبر) سُمح لكاثرادا بلباس جديد تماماً لهذه المناسبة. كتب: «هناك عناء كبير في تعزيز الشخصية الإنسانية، والأهم من ذلك هي القدرة على اختيار شيء. . . إن ذلك يعطي للمرء شعوراً جميلاً حتى بالقدرة على تحديد لون ربطة العنق، أو نموذج اللباس». شجع وصول الألبسة الشائعات حول إطلاق السراح، مع أن كاثرادا بقي مرتاباً كما هي الحال دوماً. «ليس هناك أي شيء إطلاقاً يشير إلى أن شيئاً سيحدث في المستقبل القريب» هذا ما قاله لإدي دانيلز.[40] كان هناك توقع خاص بأن سيسولو سيطلق سراحه. منذ 15 آذار (مارس) أصبح في زنزانات مانديلا القديمة في بولسيمور، منفصلاً عن الثلاثة الآخرين. مازحه كاثرادا قائلاً: «انتبه إلى Ides آذار (مارس)». لكن الحكومة ما زالت قلقة بشأن إطلاق سراح سيسولو قبل الانتخابات الوشيكة: طلب الفريق من مانديلا عدة مرات تحذير سيسولو من افتعال أية مشكلات.[41] لكنه لم يطلق سراحه.

اهتاجت الحكومة. في 19 آب (أغسطس) التقى مانديلا مجدداً بالفريق، ، الذي ترأسه كما في السابق كويتسي وبارنارد، اللذين نظما وثيقتهما الخاصة أو «الورقة غير الرسمية» رداً على مذكرته إلى بوثا. اعترفت الوثيقة أن الطرفين لديهما نقاط اتصال بشأن «مرحلة ما قبل التفاوض»، في حين رفضت العديد من أقوال مانديلا: لكنها اقترحت مناقشات بعد الانتخابات في أيلول (سبتمبر).[42]

هناك في لوساكا، صار تابو معرضاً الآن لضغط أكبر، محاولاً جمع المؤتمر الوطني الإفريقي وحلفائه معاً. بقي موالياً كلياً لمانديلا. ما زال يصر على تسمية نفسه رئيساً بالوكالة، مبقياً الرئاسة فارغة من أجل (صديقه). قالت باربارة ماسيكيلا: «أعترف بأن مانديلا لا بد وأن يكون عملاقاً، لو كان تابو يريد أن يصبح رئيساً لاعتنى أكثر بنفسه».[43] لقد أصبح الآن مرهقاً بوضوح في

الوقت الذي طار فيه باستمرار بين زامبية وأوربة وأمريكة مناضلاً من أجل الاعتراف والدعم. كان أطباؤه يحذرونه باستمرار بوجوب الراحة. وهو بنفس عمر مانديلا، لكن الضغوط خارج السجن كانت أكبر، كما تكهن مانديلا. وواجه تامبو أصعب مهماته في جعل المؤتمر الوطني الإفريقي يقف وراء الالتزام بالمحادثات، التي كان مانديلا قد شرع بها.

من أجل فتح الطريق أمام المفاوضات، توجب على تامبو أن يجمع المؤتمر الوطني الإفريقي مع دول خط المواجهة ببيان محدد. في 21 آب (أغسطس) اجتمعت منظمة الوحدة الإفريقية في زيمبابوي وصادقت على وثيقة أعدها تامبو بعناية وعُرضت على مانديلا بمسودتها. كان «إعلان هراري» تصالحياً واضحاً في اللهجة والمحتوى في آن واحد؛ ففي حين ظل يدعم الكفاح المسلح، أكد على أن العداءات يمكن وقفها بعد إطلاق سراح السجناء السياسيين، وإلغاء حظر المؤتمر الوطني الإفريقي، وإبعاد القوات عن المناطق. وقد أبعد الإعلان نفسه بوضوح عن الجناح الثوري الذي يؤمن «بالاستيلاء على السلطة». وجاء فيه أن الزعماء الأفارقة «عبروا باستمرار عن تفضيلنا لحل يتم التوصل إليه بالوسائل السلمية». في الحقيقة كان الكفاح المسلح عديم الفعالية؛ ففدائيو MK كانوا يتدفقون عبر الحدود إلى جنوب إفريقية ليقعوا فقط في الكمائن، أو يُلقى القبض عليهم ويعذبون في الوقت الذي شدد فيه جيش جنوب إفريقية من استخباراته عن طريق المخبرين والاستجوابات.[44] كان المؤتمر الوطني الإفريقي يتطلع إلى العقوبات، أكثر من تطلعه إلى الحرب للضغط على بريتوريا لتقبل بالتفاوض.

رأى مانديلا في إعلان هراري اختراقاً حاسماً، واضعاً المسؤولية على بريتوريا لتوفير الشروط اللازمة للمحادثات، في حين تكهن بإطار سلمي من أجل إطلاق سراحه.[45] ورحب العالم به. علقت الفانينشال تايمز «إنه يوفر المناخ والإطار معاً للمفاوضات حيث يتوقع أن يلعب فيها دوراً رئيسياً».[46] كان ذلك نصراً شخصياً لتامبو، لكنه كاد يقتله. فقبل عدة أيام من الاجتماع

انهار بسبب سكتة دماغية خطيرة، وتم نقله بالطائرة إلى مستشفى لندن، حيث بدأ «السيد ريجينالد» علاجه الطويل وفترة النقاهة، والتعلم مجدداً وتدريجياً كيف يتكلم ويمشي. حُرم مانديلا من أوثق اتصال لديه مع العالم الخارجي.

كان دوكليرك يتحرك الآن بسرعة أكبر. ففي الانتخابات العامة في 6 أيلول (سبتمبر) حقق الحزب الوطني نصراً غير مؤكد، بنسبة 48٪ من الناخبين، في حين أن الحزب المحافظ اليميني، والحزب الديموقراطي الأكثر تحرراً حققا مكاسب. لكن دوكليرك رأى في النتيجة تفويضاً بإحداث تغيير. ثم الضغط عليه من جميع الأطراف لإطلاق سراح مانديلا ـ من قبل المصرف المركزي، والحكومات الغربية، والمثقفين الأفريقانيين الذين ضموا شقيقه بالذات ويمبي، الذي كان يجتمع مع المؤتمر الوطني الإفريقي في بريطانية. كان ويمبي في حالة توتر مراقباً تحول دكليرك خطوة خطوة: «لم أستطع تصديق أذنيّ عند سماعي بعض الأشياء التي قالها في السر».[47] كان دوكليرك يظهر نفسه بسرعة على أنه أكثر واقعية وعقلانية من بوثا. قال لروين رينويك: «لقد تعلمت درس روديسيا، لا تتأخر جداً في التفاوض مع الزعماء الحقيقيين».[48] في تلك الأثناء كان الأفريقانيون ينعزلون أكثر من أي وقت مضى، بوصفهم أكباش فداء العالم؛ ففي فيلم عن قنبلة شديدة الانفجار عام 1989 بعنوان «لاح مميت» كان الأوغاد ذوي لهجات أفريقانية.

كانت المحادثات بين المؤتمر الوطني الإفريقي والرسميين في الحكومة مستمرة ضمن زخمها بالذات، حيث قال بارنارد العقل الموجه، وبدون إعلام كامل لـ دوكليرك. وصلت الاتصالات إلى تقارب جديد بعد أسبوع من الانتخابات في لقاء مثير في سويسرا. فقد التقى نائب بارنارد لرئاسة الاستخبارات مايك لو وجاسوسه الأكبر مارتيز سبار ووكر، التقيا سراً في غرفة في فندق بالاس في لوكيرن مع ثابو مبيكي وزميله في المؤتمر الوطني الإفريقي جاكوب زوما. قال مبيكي مازحاً عند اللقاء: «حسناً، ها نحن هنا، الإرهابيون

الدمويون ـ والشيوعيون كذلك». تحدث هو ولو خلال الليل، معربان بوضوح عن استعدادهما للتفاوض. أَمَرَّ لو رسالة إلى دوكليرك شخصياً في تاينهيوز. شعر دوكليرك بالصدمة في البداية لدى سماعه عن الاختراق: من أعطى لو السماح بالتفاوض؟ لكن عندما أبرز لو تفويضه ـ بالتحقيق وليس التفاوض ـ استمع دوكليرك بشوق (لاحظ لو) وأخذ الكرة وهرب بها».[49]

عرف دوكليرك أن عليه إطلاق سراح زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن مانديلا كانت تسلط عليه معظم الأضواء، كما أظهر المراسلون السريون. بعد أسبوع من الانتخابات اجتمع مانديلا بكويتسي من جديد، وأبلغه أن على دوكليرك أن يؤكد على إطلاق سراح عشرة سجناء سياسيين، بمن فيهم سيسولو وكاثرادا ـ حيث سيكون تصرفهم السياسي «مكبوحاً»، في حين حث السجناء على عدم إثارة الحشود مثلما فعل غوفان مبيكي وهاري غوالا.[50]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي داخل وخارج جنوب إفريقية قلقاً بشأن الموقف المكبوح. إذ أراد أعضاؤه توليد «نشاط قوي». في 9 تشرين الأول (أكتوبر) أصدرت الزعامة في لوساكا خطتها الخاصة للعمل، التي أكدت على أن الزعماء الذين يطلق سراحهم يجب أن يعيدوا تأكيد التزامهم ويعبئوا الدعم لإعلان هراري. وعندما ناقشته لجنة العمل، اعتقد ثابو مبيكي أن الزعماء الطليقين يجب «أن يأخذوا مكانهم في قمة النضال». وأصر كريس هاني على أن الرفاق «لا يمكنهم تحمل تشتيت روح الشعب». وحذر جاكوب زوما من أن الحكومة قد أربكت عمداً مانديلا وهاري غوالا. واعتقد جوي سلوفو أن مانديلا سيطلق سراحه فقط نتيجة «للنشاط المكثف».[51]

لكن بينما كان المؤتمر الوطني الإفريقي يتحدث، أعلنت الحكومة في 10 تشرين الأول (أكتوبر) أنها ستطلق قريباً سراح سبعة سجناء، بمن فيهم سيسولو وكاثرادا، بلا شرط. «رفض كاثرادا تصديق ذلك ما لم يره معلناً على التلفاز».[52] لكن أطلق سراحهم، ضمن أجواء كانت بعيدة عن الكبح.

فالمؤيدون ساروا عبر المدن، والأعلام الممنوعة للمؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي أعيد نشرها. ووعد سيسولو أن مستقبل البلاد السياسي «ستقرره زعامة الحركة»، ودعا إلى تكثيف العقوبات الاقتصادية.[53] بقي المؤتمر الوطني الإفريقي حذراً جداً بشأن أهداف الحكومة وراء إطلاق السراح. قالت «الدولة الجديدة» إنها تمثل مناورة سياسية نفذت ببرودة أعصاب «وهي محاولة يائسة لأخذ المبادرة من الشعب». لكن إذا كان الأمر كذلك، فإن المناورة لم تظهر أية علامة من علامات النجاح؛ ولم يظهر أي من السجناء الثمانية الذين أطلق سراحهم أي ضعف في التصميم. قال أندرو ملانجيني: «إذا كان من الضروري بالنسبة إليّ العودة إلى السجن، فسوف أذهب غداً».[54]

لقد واجهوا بعض الصعوبة في التأقلم مع الحياة الطبيعية بعد ربع قرن في السجن: لم يعد بإمكان سيسولو أبداً النوم في الظلام بعد أن اعتاد المصباح الكهربائي في زنزانته. ولم يستطع كاثرادا القيادة عبر شبكة طرق السيارات التي تمتد في جوهانسبورغ طولاً وعرضاً.[55] لكنهم فوجئوا أيضاً بانعدام التغييرات. عاد سيسولو إلى المنزل الصغير ذاته الذي عاش فيه دوماً مع زوجته ألبيرتينا، حيث بقي كما هو عند مغادرته(*).

«معظم سوويتو لم يتغير منذ أتيت لأول مرة للعيش هنا في عقد الثلاثين ومع بعض الاستثناءات فإن البيوت كعلب الكبريت هي كما كانت، هذا ما قاله سيسولو. إن الحكومة التي لا تعالج القضية الأساسية للإسكان اللائق لا تكون ملتزمة جدياً بالتغيير السياسي».[56]

حريتهم فتحت أمامهم اتصالات جديدة مع الغرب: حتى الرئيس بوش كتب إلى سيسولو ليهنئه. أراد مانديلا أن يسافر سيسولو وزملاؤه إلى لندن لرؤية

(*) لقد نبهني كي أُحْكِمَ إقفال سيارتي عندما زرته بعد ست وعشرين سنة، فقال «تذكر كيف سُرِقَ معطف باتريك دَنْكَنْ هناك».

السيدة تاتشر، لكنهم قاوموا، لاستمرار ارتيابهم بجدول أعمالهم، ولهم بعض الحق في ذلك.[57] بقيت تاتشر معارضة كلية للعقوبات. . ففي قمة الكومونولث في كوالا لامبور في تشرين الأول (أكتوبر) أصدرت بيانها الخاص المنفصل الذي ترك وزير خارجيتها الجديد جون ميجر (حسب أقوال موظفيه) وقد «تلقى صفعة» و«هو مذهول».[58] وقبل إطلاق سراح سيسولو مباشرة، رحبت تاتشر من جديد عمداً بباثيليزي، كحليف لها ضد العقوبات.

مع أنه بقي في كوازولو ـ ناتال إلى حد كبير فإن حزب باثيليزي (الإنكاثا) أصبح يشكل تهديداً أكبر في الوقت الذي اقترب فيه المؤتمر الوطني الإفريقي من الاعتراف. في 19 تشرين الثاني (نوفمبر) احتفل حشد من 70,000 من الزولو في دوربان بالسنة العشرين لحكم ملكهم. والملك الذي هو ابن أخت باثيليزي دعا إلى محادثات مع المؤتمر الوطني الإفريقي؛ لكن الهجمات المميتة على مؤيدي هذا المؤتمر استمرت. واستمرت السيدة تاتشر في تصوير الإنكاثا كقوة مستقلة عن بريتوريا، لكن الاستخبارات الأمريكية كانت مدركة لروابطها مع الحكومة وتطور «قوة ثالثة». كانت السيدة تاتشر تدعم باثيليزي علناً، في حين كان معروفاً بأنه يتآمر سراً مع بريتوريا بإشاعة عدم الاستقرار في البلاد.

جاء في تقرير للسي آي إيه «أفريكا ريفيو» في كانون الثاني (يناير) 1990 :

> نعتقد أن قوات أمن جنوب إفريقية قد دربت وسلحت مجموعات إنكاثا شبه العسكرية. ومن خلال مصادر متنوعة هناك دلالة على أن قوات أمن الحكومة ساعدت ـ في أدنى الحدود ـ الإنكاثا باختيار السماح باستمرار العنف.[59]

صار مانديلا الآن هو الزعيم المعارض الرئيسي الباقي في السجن. وهذا عزز سلطته وزعامته الفذتين. . كان من الصعب على أي كان اتهامه بخيانة شعبه، بما أنه أمضى في السجن مدة أكثر من أي شخص آخر. وبقي يحث على المفاوضات. وأراد العديد من المتشددين والمتهورين ضمن المؤتمر

الوطني الإفريقي، أرادوا تكثيف الكفاح المسلح لتحقيق «الاستيلاء على السلطة»، ورأوا في استمرار العنف بداية «الثورة المتدفقة». لكن مانديلا حذر جميع زائريه بشأن مخاطر الحرب الأهلية، قال لألبيرتينا سيسولو: «في أي بلد، حتى لو كانت هناك حرب، يبقى هناك وقت للمفاوضات».[60]

كان مانديلا يراقب الرئيس دوكليرك بعين الصقر. لقد تأثر لتنازلاته. وسمح دوكليرك بمسيرة احتجاج كبيرة في كيبتاون في 13 أيلول (سبتمبر)، يقودها توتو ويويساك دون أن تتدخل الشرطة. وفي الشهور التالية ألغى العديد من قيود «التمييز العنصري التافه»؛ بما فيها الشواطىء، والحدائق، والمغاسل والمطاعم المنفصلة وحل الشبكة شبه العسكرية، نظام إدارة الأمن الوطني، التي سيطرت سراً على المناطق. في خطاب توليه في 20 أيلول (سبتمبر) كان دوكليرك قد وعد بالتحدث إلى أية مجموعة ملتزمة بالسلام، وطلب مانديلا لقاءه فوراً، حيث كتب له مؤكداً أن الوقت قد حان «للتفاوض حول تسوية سياسية فعالة»، في حين أكد على أنه لا يستطيع التشاور مع المؤتمر الوطني الإفريقي، ورفض إلغاء روابط المؤتمر الوطني الإفريقي مع الحزب الشيوعي[61] «ليس هناك مقاتل من أجل الحرية يحترم نفسه يتلقى الأوامر من الحكومة. . . حول من يجب أن يكون حلفاؤه في النضال من أجل الحرية».[62] في تلك الأثناء استمر مانديلا في التحدث إلى فريق الحكومة، الذي أضيف إليه الآن وزير دوكليرك للشؤون الدستورية جيريت فيلجيون، في حين انتظر رد الرئيس ووسّع اتصالاته بالذات.

صار باستطاعة مانديلا الآن الترحيب بأصدقائه في بيته ـ السجن بطريقة مريحة أكثر بكثير ـ لقد دهشت فاطمة مير ـ التي كانت تراجع سيرة حياته التي كتبتها ـ من البيئة السلمية؛ حيث لاقاها غريغوري هي وإسماعيل أمام البوابة الرئيسية بثياب عادية. وحيث مرا على صفوف أكواخ الموظفين وصولاً إلى البيت المؤلف من طابق واحد حيث عانقهما مانديلا. بدا أفضل لياقة مما كان

عليه عندما رأته لآخر مرة، إذ كان شاحباً، في روبن آيلاند قبل سبعة عشر عاماً. «طويل، مبتهج بدون أي علامة للسمن على شكله النحيل. وشعره مرقش باللون الرمادي، ووجهه ليس فيه تغضن: وهو يبتسم كثيراً وبسرعة، وعيناه تدوران في الزوايا؛ وضحكته عميقة وعفوية». وفي بيته «فإن كل شيء يوحي بالراحة».

سألت فاطمة نفسها: «ماذا يعني ذلك كله؟ يبدو لي أنه ليس فقط المحرومون من حقوقهم في جنوب إفريقية يرون آمالهم تنعكس فيه فحسب، بل إن الحكومة أيضاً كانت تأمل بحل مشكلاتها عن طريقه». كان مانديلا قلقاً ـ كما أخبرها ـ من أن الشعب يتوقع الكثير جداً بعد إطلاق سراحه؛ لكن «إذا أمكن التغلب على كل هذه التوقعات الهائلة، فإن باستطاعتي العمل جيداً».[63]

صار بإمكانه استئناف لقاء الأصدقاء من كل مستوى في حياته. وأحدهم كان أول صاحب عمل استخدمه عام 1941، وهو المحامي لازار سايدلسكي. قدمه مانديلا لسجانه بوصفه «الرجل الأبيض الوحيد الذي هو معلمي». ولاحظ سايدلسكي أن مانديلا كان يعطي الأوامر لسجّان أبيض. وذكّر مانديلا كيف حذره قبل خمسين عاماً من أنه إذا بدأ بالعمل السياسي فسوف يجد نفسه في السجن: «انظر إلى أين انتهيت!».[64]

أحضرت صديقة مانديلا الجديدة ما مامفالا رامفيل ولديها (بناء على إلحاحه) حيث تحدث معهما عن (التنس) و(التلفاز). اتفقت هي ومانديلا حول معظم الموضوعات. لكنها جادلت ضد سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي في إحياء الزعماء القدامى من خلال مؤتمر الزعماء التقليديين، حيث اعتقدت أن ذلك كان Sexist وضد الديموقراطية. شعر مانديلا بالانزعاج، ودافع عن تلك السياسة في زيارتها التالية، شارحاً كيف أن المؤتمر الوطني الإفريقي بحاجة إلى إحضار الزعماء ضمن إطار سياسة التحرير.[65]

زاره إيدي دانييلز، صديقه القديم من روبن آيلاند، والذي أصبح الآن

مدرساً وتزوج من امرأة سكوتلندية؛ تجمعت مدرسة دانييلز بكاملها لتعطيه رسائل إلى مانديلا وذلك قبل زيارته. قال دانييلز: «ذهبت إلى هناك لرفع معنوياته، ولإبعاد ذهنه عن مسؤولياته الضخمة». وقرأ قصيدة «Invictus» (أنا سيد مصيري)؛ عانق كل منهما الآخر وأنشدا «ماري من آرجيل». وجد دانييلز وجه مانديلا أكثر توتراً نتيجة القلق بخصوص قراراته الوحيدة، في ظل توتر وضغط هائلين: «لكن بقي نيلسون ذاته رغم ذلك». (66)

كان لدى مانديلا بعض المخاوف من أن لا يميز جنوب إفريقية التي تركها قبل ثلاثة عقود. «أخشى أحياناً أنه في وقت عودتي، سيكون العالم قد اختفى». كتب ذلك إلى مالكي مطعم كابيتانز، الذي كان يلازمه في عقد الخمسين. لقد سمع أن الكابيتانز قد تم إغلاقه: هناك الكثير من حراشف النباتات وال tummies داخل وخارج البلاد التي ستغضبها الأخبار المشؤومة». (المطعم بقي، ورسالته وجدت موضوعة على الحائط). (67)

عرف دوكليرك الآن أن عليه أن يطلق سراح مانديلا، ويعترف بالمؤتمر الوطني الإفريقي لكن عليه إقناع وزارته بذلك. في مطلع كانون الأول (ديسمبر) جمعهم لمدة يومين في مكان للصيد قرب بوتشوانا من أجل bos beraad أو مؤتمر أدغال. جادل بعض الوزراء بعناد ضد الخطة، وبخاصة ماغنوس مالان، وزير الدفاع الصقر الذي عارض إضفاء الشرعية على الحزب الشيوعي الذي حاربه منذ فترة طويلة. لكن الخطر الأحمر، لم يَعُدْ كما كان سابقاً. فقد انهار جدار برلين في الشهر الفائت، مما أعطى دوكليرك دافعاً جديداً للعمل. قال لشقيقه ويمبي بعد ذلك بوقت قصير: «بدا وكأن الله قد ساعد، هناك تحول جديد في تاريخ العالم. يجب علينا أن ننتهز الفرصة. وخطر أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يستخدم كحصان طرواده من قبل قوة عظمى قد تضاءل تضاؤلاً جذرياً». (68)

بعد مؤتمر الأدغال مباشرة وافق دوكليرك على طلب مانديلا بعقد

اجتماع. وأعد مانديلا أيضاً مذكرة بعناية جعلها عصرية أكثر من المذكرة السابقة إلى بوثا. مرحباً بدعوة دوكليرك للمصالحة والتزامه بالسلام. لكنه كان قلقاً من أن الحكومة كانت مستمرة في التمييز العنصري بوسائل أخرى، عن طريق التآمر مع الوطنيين السود واختيار زعمائهم. قال مانديلا إن الصراع العنيف كان يستنزف قوام حياة البلاد، ويمكن تحقيق السلام فقط عبر المحادثات مع المؤتمر الوطني الإفريقي بدون شروط مسبقة. وفي مرحلة أولى، وطبقاً لإعلان هراري، دعا دوكليرك لوضع حد لحالة الطوارىء، وإلغاء الحظر وإبعاد القوات عن المناطق.[69]

في 13 كانون الأول (ديسمبر) تم نقله أيضاً إلى تيونهيوز لرؤية الرئيس - مع كويتسي وبارنارد من جديد. كان المناخ أكثر راحة مما كان عليه مع بوثا. كان دوكليرك قد درس الخلفيات النفسية لشخصية مانديلا، لذلك لم يفاجأ (كما أخبرني) بكياسته وشهامته؛ وما أثر فيه كان معرفته بتاريخ ومعاناة الأفريقاني؛ كمماثل لأبناء شعبه.[70] عرف مانديلا شيئاً عن تاريخ دوكليرك السياسي، وسمع من أصدقاء سود أن لديه سمعة جيدة كمحام مبجل. حاول رؤية المشكلات من خلال وجهة نظر دوكليرك، وفوجىء لإصغاء دوكليرك إليه وتجاوبه معه. انتقد مانديلا التزام الحزب الوطني بـ «حقوق المجموعة» التي يراها العالم بحق كتوسيع للتمييز العنصري. شرح دوكليرك أنه كان يحاول تهدئة مخاوف البيض من سيطرة السود. وهذا ما قاله مانديلا لـ ب. دبليو. بوثا والمؤتمر الوطني الإفريقي إن من الواجب فعله. أصر مانديلا على أن «حقوق المجموعة» من شأنها أن تصعد فقط مخاوف السود، قال دوكليرك، في هذه الحال «علينا تغييرها».

كرر مانديلا آنذاك أنه لا يستطيع قبول أية شروط، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب إلغاء حظره. دوكليرك لم يقدم أية وعود، لكن مانديلا غادر الاجتماع وهو مطمئن. اعتقد (كما أبلغ لوساكا) أن دوكليرك كان بعيداً فعلاً عن سابقيه، حيث بإمكانه القيام بعمل معه.[71] ومن جهته بدا دوكليرك كأنه لم يتأثر

بمن واجهه ـ حسب قول مساعده ـ لكنه أخبر شقيقه ويمبي أن مانديلا «كان رجلاً ذا نموذج هائل. . . إنه سياسي يمكن الاعتماد عليه». [72]

سمح لمانديلا الآن برؤية كل أنواع السياسيين من بيته ـ السجن ـ فيما عدا الديبلوماسيين والصحفيين، لأن بريتوريا كانت تخشى من أن تحاول الأمم المتحدة أو الحكومات الأجنبية التدخل. تجمع سجناء روبن آيلاند الذين ما زالوا يقضون فترة سجنهم، وزعماء الحركة الديموقراطية الجماهيرية، والمحامون، والموظفون، وأعضاء نقابات العمال، والأكاديميون وزعماء الشباب. تجمعوا كلهم عند بيت مانديلا، إنه لم يعد يشابه السجن، كما قال محاميه جورج بيزوس، بل المكتب الذي يسيّر منه رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي أعماله. قال صديقه القديم الدكتور موتلانا: «كان يعقد الاجتماع وكأنه بطرس الأعظم في روسيا». [73] أمضى مانديلا وقتاً طويلاً مع محاميه من كيبتاون، دولا عمر، وهو مسلم ذو عينين كبيرتين مفعمتين بالعاطفة عمل في تفصيلات إطلاق سراحه المحتمل.

سبب مانديلا بعض الذعر ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي عندما استقبل ريتشارد مابونيا في تشرين الثاني (نوفمبر)، وهو رجل أعمال أسود غني ومالك لخيل السباق كان قد اتهم بالتواطؤ مع الحكومة. لكن مانديلا تذكر بامتنان كيف أن مابونيا أقام حفلة له ولأصدقائه عام 1960[74] أخبره مانديلا (كما ذكر مابونيا) أنه قلق بشأن مشكلات إدارة عمل كبير، واقترح أن التأميم لم يكن الطريق الأفضل لمنح السلطة للسود. إن جنوب إفريقية مستقلة ويجب أن لا تصبح مفلسة اقتصادياً ـ مثل بعض جيرانها[75] ـ. هذا أزعج الكثيرين من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي، الذين رأوا أن ميثاق الحرية قد تمت خيانته. لكن بعد شهرين أصدر مانديلا بياناً أكد فيه التزام المؤتمر الوطني الإفريقي بتأميم المناجم، والبنوك، وصناعات الاحتكارات. تلك بقيت السياسة الرسمية، لكن تامبو وآخرين في لوساكا كانوا يدرسون أفكاراً حول اقتصاد مختلط؛ ومثل

الفقرة الرابعة القديمة لحزب العمال البريطاني، فإن التأميم لن يتخذ حرفياً جداً. (عندما سأل رجال الأعمال تامبو عن ذلك، أجاب أن سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي كانت مشابهة لسياسات روبيرت موغابي في زيمبابوي؛ وفي حين أن موغابي كان يعظ بملكية الدولة، فإنه لم يؤمم شيئاً). على أية حال لم يكن رجال الأعمال قلقين. في أواخر كانون الثاني (يناير) 1990، كانت بورصة جوهانسبورغ تسجل أعلى ارتفاع لها.[76]

سمح لمانديلا حتى الاتصال بالهاتف إلى لوساكا والتحدث مباشرة إلى الأصدقاء المحظورين الذين أصبحوا الآن بعد حوالي ثلاثين عاماً على اتصال أوثق بالبلاد. منح سيسولو وزملاؤه الآخرون الذين أطلق سراحهم جوازات سفر للطيران إلى لوساكا، حيث استقبلوا بحماسة. عانق سيسولو ابنه ماكس بعد سبعة وثلاثين عاماً، وتم لم شمل غوفان مبيكي مع ابنه ثابو.[77] إن الفروع الثلاثة للنضال التي كانت منفصلة بعضها عن بعض لما يقارب ثلاثة عقود ـ من منفيين وسجناء وناشطين داخليين، بدأت تنضفر.

لكن الزعماء المتصلبين، داخل وخارج جنوب إفريقية، ما زالوا يصرون على أن مانديلا ربما يخون ويخدع الثورة. وعندما زاره ثمانية عشر ناشطاً داخلياً أواخر عام 1989 ـ بعضهم كان قد رآه لآخر مرة في ثياب السجن في روبن آيلاند، ذهلوا للباسه النظيف ومحافظته على شكله، ومديحه لـ دوكليرك. قال إريك مولوبي لنفسه: «هذا الرجل قد انتهى». كان المقاتلون الفدائيون ضمن الـ MK قلقين أكثر حتى قبل أن يشرعوا بمعاركهم الحقيقية، فإن مفاوضات مانديلا من شأنها أن تحبط «استيلاءهم على السلطة».[78] كانت المناقشات (الأيديولوجية) ضمن جنوب إفريقية تنتشر إلى العلن، في وقت خففت فيه الحكومة من سيطرتها على الاحتجاجات والأعلام الحمراء؛ وبرزت النقاشات القديمة في روبن آيلاند من جديد إلى العلن في الوقت الذي أصبح فيه مفهوم السلطة أكثر واقعية. كان غوفان مبيكي يعمل مع «جماعة» ماركسية

في الكاب الشرقي، حيث أصبح أكثر صراحة، وبقي عنيداً متصلباً. ذكّر مبيكي أتباعه في مطلع كانون الأول (ديسمبر) أن «هدف الطبقة العاملة هو أخذ قيمة الفائض الذي أوجدته بأكملها». [79]

لكن مانديلا اهتم بتسريب نسخة من مذكرته إلى دوكليرك المؤلفة من عشر صفحات إلى لوساكا، وإيضاح أنه لا يلزم نفسه بأي شيء. قال ناطق باسم المؤتمر الوطني الإفريقي: «إنه لا يفاوض، إنه يسهل العملية أمام الحكومة لتجلس مع المؤتمر الوطني الإفريقي». وكان مانديلا يستخدم عزلته الرائعة ليوحد أكثر من أن يفرّق.

قال كاثرادا أمامه: «هناك مؤتمر وطني إفريقي واحد، وهو موجود منذ عام 1912 وما يزال موجوداً اليوم» [80] معظم زوار مانديلا رأوا فيه مُصالحاً وصانع سلام، يسعى إلى وضع حد للخصومات القديمة. وهو يبقى - فوق كل شيء - العضو المخلص للمؤتمر الوطني الإفريقي، مصمماً على الحفاظ على وحدة الحزب، كما أوضحت ذلك كل بياناته وكلماته.

زادت الآمال بإطلاق سراح مانديلا، ثم تراجعت خلال السنة الجديدة لعام 1990. في 8 كانون الثاني (يناير)، وبعد أن زارتهويني لثلاث ساعات خرجت لتقول: «لا أظن أننا نتحدث عن شهور.. هذا هو الشيء الحقيقي». لكن بعد ثلاثة أسابيع كان هناك المزيد من المشكلات - حسب شرحها - بخصوص إلغاء حظر المؤتمر الوطني الإفريقي «إن ثمن إطلاق سراحه هو تغيير التاريخ في هذا البلد». [81]

يتوقف مستقبل البلاد الآن على رجلين. بقي الرئيس دوكليرك منفرداً بنفسه خلال عطلة عيد الميلاد في الصيف، وهو يستعد للقرار الذي لا يستطيع تجنبه. كانت الضغوط من الخارج ما تزال تتصاعد والأزمة الاقتصادية تزداد حِدَّة. أخبر دوكليرك شقيقه ويمبي فيما بعد: «على الصعيد الدولي إننا نتأرجح على حافة الهاوية». [82] وعدت السيدة تاتشر، عن طريق سفيرها روبن رينويك -

وعدت دوكليرك أنه عندما يطلق سراح مانديلا فإنها سترد على ذلك بإلغاء العقوبات، بما فيها الحظر على الاستثمارات الجديدة.[83] بحلول منتصف كانون الثاني (يناير)، كان دوكليرك يكتب باليد الكلمة التي سيلقيها لدى افتتاح البرلمان في 2 شباط (فبراير). استشار مستشاريه المقربين فقط، وليس مؤتمر حزبه أو زوجته ماريك ـ وهي أفريقانية متمسكة بالأعراف تشوشت بسبب صحته وسياساته، وهي التي قارنت مانديلا بالسجين النازي رودولف هيس[84] ـ عندما هنأته الوزيرة البريطانية لشؤون التطوير فيما وراء البحار ليندا تشوكر لشجاعته، أجاب أنه يعاني مشكلة في إقناع «امرأة أخرى»؛ تبين فيما بعد أن الزواج كان في الحقيقة يعاني من مشكلات.[85] وفي اليوم الذي سبق كلمته تخاصم دوكليرك أيضاً مع وزير دفاعه ماغنوس مالان حول إضفاء الشرعية على الحزب الشيوعي؛ لكن دوكليرك أصر على أن الإبقاء على الحظر سيجعل الحملات السياسية تستمر إلى الأبد. في منتصف ليلة 1 شباط (فبراير) أرسل إلى السيدة تاتشر رسالة بأنها لن تخيبها كلمته[86](*). في النهاية اجتمع البرلمان لسماع الكلمة. ورغم كل التكهنات، فإنها أذهلت كل شخص تقريباً. ففي بضع دقائق نقض دوكليرك سياسات سابقيه كلهم تقريباً خلال العقود الثلاثة الماضية. «جميع المنظمات السياسية، بما فيها المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي لجنوب إفريقية ستصبح شرعية. جميع السجناء السياسيين غير المحكومين بجرائم عنف سيتم إطلاق سراحهم. جميع الإعدامات ستتوقف. والحكومة اتخذت قراراً حازماً بإطلاق سراح مانديلا بدون قيد ولا شرط».[88]

لقد انتصر مانديلا، في حين كان حريصاً على إرجاع ذلك لشعبه. قرأت ويني رسالة منه إلى حشد في جوهانسبورغ: «أنتم الذين جعلتم الحكومة

(*) هناك من ادّعى فيما بعد أن مسوّدة خطاب دي كلارك قد تم التفاوض عليها مع الحكومة البريطانية، وهذا ما يُنْكِرُهُ رنويك Renwick بشدّة.[87]

تستسلم لضغطكم. . . وليس الرئيس دوكليرك». لكنه أضاف: «إن المجموعة الدولية هي التي فرضت جزئياً هذه التنازلات». تحول موقف المؤتمر الوطني الإفريقي على الفور. فأصدر بياناً من ستوكهولم (حيث كان تامبو يسترد عافيته) قائلاً إن كلمة دوكليرك ذهبت «شوطاً بعيداً نحو إيجاد مناخ يوصل إلى المفاوضات».[89]

أصبحت جنوب إفريقية فجأة بلداً جديداً. فالسري أصبح علنياً، الأشخاص المحظورون أبرزوا أنفسهم، رفرفت الأعلام الحمراء وأعلام المؤتمر الوطني الإفريقي، ونشرت الصحف صوراً لمانديلا. كل شخص تساءل عن صحته وقدراته، ومتى سيطلق سراحه. كانت هناك شائعات أنه يؤخر ذلك بنفسه، لكنه أخبر بيزوس: «افتح الباب، وسترى في أي طريق أسير». داخل بيته؛ السجن، كان يقوم بآخر استعداداته لمواجهة الجموع والصحافة. صديقه المصور بيتر ماغوبان أعطاه كتيباً نشرته مجلة تايم عن كيفية التعامل مع وسائل الإعلام.[90]

بعد أسبوع من إلقاء الكلمة استدعى دوكليرك مانديلا إلى مكتبه وأبلغه أنه سيطير إلى جوهانسبورغ ليطلق سراحه في اليوم التالي. تبع ذلك جدل متوتر. أراد مانديلا أسبوعاً آخر ليعد المؤتمر الوطني الإفريقي الاستقبال (كان هذا له ما يبرره كما أصبح واضحاً)، لكن قوى الأمن خشيت من أن ذلك سيخلق «توترات لا يمكن ضبطها». في الحقيقة كان نيل بارنارد رئيس الاستخبارات قلقاً جداً من أن ينظم المؤتمر الوطني الإفريقي مظاهرات جماهيرية من شأنها بث الفوضى في البلاد بأكملها، مثل أتباع آية الله خميني عندما عاد إلى إيران عام 1979.[91] أصر مانديلا أيضاً على أنه يجب أن يسير خارج بوابات السجن، إلى جانب ويني، ويتحدث إلى شعب كيبتاون. كان دوكليرك رافضاً بشدة لأي تأجيل: كان خائفاً من أن المظاهرات ستثيرها مواضيع الأخبار مثل العنوان الرئيسي في كيبتايمز ذلك الصباح: «مانديلا يطلق إطلاق السراح من بارل».[92]

تشاور مرتين مع زملائه، الذين قالوا إن التأجيل فات أوانه، إلا أنه وافق على إطلاق سراح مانديلا عند بوابة السجن. عندما عاد مانديلا إلى السجن اعتقد سجانه غريغوري أن فمه أصبح أكثر قسوة وعيناه أكثر برودة. لقد قرر أن يطلق سراحه بجلال ووقار؛ وكما لاحظ كوبي كويتسي «الجلال هي كلمة حاسمة بالنسبة إلى مانديلا».[93]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي قد عين لجنة استقبال لتضع الخطط؛ وفي تلك الليلة أتوا إلى بيته للقيام بالتغييرات النهائية على كلمته. كتب مانديلا على لوح الكتابة الجلدي ـ المقلَّد الذي صنعه السجناء له ـ لكن الكلمة كانت العمل الجماعي للمؤتمر الوطني الإفريقي، كما أنها كانت واضحة جداً من خلال أسلوبها. أمضى محاميه من كيبتاون دولا عمر ساعتين معه، ووجده مكباً، هادئاً، عميقاً في التفكير. «لقد عرف كل شيء كان يحدث».

في الصباح التالي استيقظ مانديلا في الرابعة والنصف. وبعد الفطور وفحص طبي اجتمع مجدداً مع زملائه من المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم سيريل رامافوزا وتريغور مانيوويل لوضع اللمسات النهائية على الكلمة. حزم كتبه وأوراقه، المتكدسة خلال السنوات في بولسيمور، في اثني عشر صندوقاً، وودع حراسه، كانت اللحظة الأكثر إثارة في حياته كما أخبر عمر الذي لاحظ أنه «لم يظهر أية عاطفة، كان متماسكاً جداً».[94] كان مانديلا منشغلاً بالتفاصيل ـ كما شرح ـ أكثر من أن يدرك كم كانت المناسبة هامة.

خطط وفد من المؤتمر الوطني الإفريقي يضم ويني وولتر سيسولو للمجيء بالطائرة من جوهانسبورغ في طائرتين مستأجرتين؛ ويني ستلاقي زوجها في السجن، وتسير معه خارجاً في الساعة الثالثة. لكن الطائرة الثانية وصلت متأخرة، ولم يخرج مع ويني من بوابة السجن حتى ما بعد الرابعة، ليواجه مشهداً فاجأه كلياً.[95] ففي سن الواحد والسبعين، بعدما يزيد عن عشرة آلاف يوم في السجن، كان ينضم إلى بلاد كانت قد نمت وترعرعت بدونه.

الجزء الثالث

1990 ـ 1999

28

الأسطورة والرجل

إني اتجول بين عالمين، أحدهما ميت
والآخر عاجز عن أن يولد
وليس هناك مكان حتى الآن أريح عليه رأسي
ماثيو آرنولد «الشرتروزيه الأعظم»

سار مانديلا خارج بوابات السجن بتاريخ 11 شباط (فبراير) 1990، ويده بيد ويني. كانت أقوى صورة في ذلك الحين، حتى في عهد الأبطال الجذابين الذين يتغلبون على المستبدين في أورية الشرقية وروسية: غورباتشيف ـ فاليسا، هافل، وسقوط جدار برلين، لأن مانديلا جسد أسطورة ذات طابع جوهري وعالمي أكبر، مثل الأوبرا الثورية أو الأوديسة، مصورة انتصار الروح الإنسانية، وعودة الزعيم الضائع. وقد سمحت عزلته الطويلة للأسطورة أن تنطلق من الرجل، تاركة كل شيء للخيال؛ مخطط تمهيدي منقط يستطيع كل شخص أن يملأ من خلاله صورته الخاصة المفصلة للبطل. والقليل فقط من المحامين والزوار عرفوا ما هو شكله. وعُرضت مبالغ كبيرة لتهريب صورته إلى الخارج؛ وأعيد نشر الصور القديمة إلى مالانهاية، حيث تحولت إلى رموز معلنة. كانت أول صورة معاصرة قد نشرت قبل يومين فقط، وتظهر مانديلا وهو يقف بثبات ويبتسم بلطف إلى جانب دوكليرك. وبقي الصحفيون وفرق التلفاز العالمية

الذين تجمعوا خارج السجن، بقوا حتى ذلك الوقت غير عارفين من سيتوقعون.

عندما ظهر أخيراً على شاشات التلفاز، أظهروا مشاهد من التشوش. فالإبلاغ القصير المتعمد، يرافقه الوصول المتأخر لويني سبب تشوشاً. الحشود كانت تتحرك في غير انتظام حول مدخل السجن - وتتسلق الأشجار، وتتعلق بالأسلاك وتقف على رؤوس الأصابع، منتظرة خروجه الذي طال تأخيره. حاولت فرق التلفاز بعصبية أن تعرف مكانه. قال ديڤيد ديميلباي الهادىء عادة: «لو أننا نستطيع فقط تحديد موضع السيد مانديلا . . .». أخيراً ظهر شكله الضبابي، غير مبتسم إلى جانب ويني الفرحة، كان يرتدي لباساً رمادياً فاتحاً، ويبدو متوتراً وكئيباً. اعترف فيما بعد قائلاً: «عندما شاهدت الحشد فقط أدركت أنني لم أفكر بعناية كافية بأحداث هذا اليوم».[1] رأى أحد المراسلين، جون باترزباي من الكريستيان سانيس مونيتور الذي كان ينتظر داخل أرض السجن. رأى فجأة مانديلا يلوح أمامه، وحرك رأسه. تذكّر قائلاً: «فقدت كل إحساس بالذات، رأيت التاريخ والأسطورة يمتزجان مع الحقيقة»[2] خارج البوابات استرد مانديلا قدرته على المشي ورفع قبضته المشدودة إلى الحشد. لكن بعد دقيقتين كان قد اختفى في سيارة تويوتا كانت بانتظاره. كانت ومضة معذِّبة بالنسبة إلى الملايين الذين كانوا ينتظرون عبر أنحاء العالم؛ لكن الرمزية بقيت قوية وكأنه خرج بنصر منظم. كتب روجر ويلكينز في واشنطن: «لقد صفقنا وفرحنا وصرخنا لرؤية ملك، ابن عمنا الملك، يسير تحت أشعة الشمس».[3]

سار موكب التويوتا إلى خارج كيبتاون، وعلى طول الطريق كان المشاهدون، من بيض وسود، يلوحون أو يشدون قبضاتهم على طريقة تحية المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي إحدى المرات أوقف مانديلا السيارة ليخرج ويتحدث إلى زوجين من البيض وطفليهما على جانب الطريق. لكن العملية

تحولت إلى فوضى في المدينة. بقي مانديلا محبوساً داخل سيارته بسبب الحشود المهتاجة؛ أصيب السائق بالذعر، وأضاع طريقه، وعاد ليلتجيء إلى ضاحية روندبوش. حاولت المجموعة الترحيبية في قاعدة المدينة تهدئة الحشود المنتظرة التي ملأت الساحة، لكنها كانت فاقدة الصبر. انطلقت رصاصة، وبدأ قطاع الطرق بنهب المحلات وسرقة المشاهدين. رأى بعض البيض في ذلك إنذاراً بالفوضى السوداء؛ كتب كيف أوين في الكيبتايمز: «إنه مثل مبكر لسياسة الاستيلاء على ممتلكات الآخرين. حيث أعطى مانديلا فوراً تأييده لذلك».[4]

وصل مانديلا في النهاية إلى قاعة المدينة عند الفجر، ليلقي أول كلمة علنية له منذ بيانه المطول من رصيف السفن عام 1964. لكن كانت أيضاً هبوطاً مفاجئاً، قرئت بأسلوب جامد بدون زخرفة بلاغية، وكأنه لم ير النص قبل ذلك. كانت خيبة شديدة للسياسيين والديبلوماسيين البيض. لكن دوكليرك وتاتشر توقعا أن يتماسك مانديلا بعيداً عن المؤتمر الوطني الإفريقي، وأن يبعد نفسه عن الكفاح المسلح والشيوعيين. لكنه أصر على أنه ملتزم كلياً مع المؤتمر الوطني الإفريقي:

> أقف أمامكم ليس كنبي بل كخادم متواضع لكم، أنتم الشعب. إن تضحياتكم البطولية التي لم تتوقف جعلت من الممكن بالنسبة إليّ أن أكون هنا اليوم. لذلك أضع ما تبقى من سنوات عمري في أيديكم.

شكر الكثيرين من البيض الليبراليين، بمن فيهم حركة «الوشاح الأسود» النسائية، مما خيب الزملاء المقربين، وحيّا دوكليرك بوصفه «رجل التمامية». لكنه قدم نفسه: «عضو مخلص ومنظم للمؤتمر الوطني الإفريقي». وقدم شكراً عميقاً إلى المؤتمر الوطني الإفريقي، والحزب الشيوعي، وجنود أومخونتو وأسيزوي. لم يكن يفاوض في السجن، كما أكد لمستمعيه، بل يحث على الاجتماع مع الحكومة يجب أن يستمر المؤتمر الوطني الإفريقي في الكفاح المسلح: «ليس أمامنا خيار سوى الاستمرار».

الالتزام التام بالمؤتمر الوطني الإفريقي والكفاح المسلح أزعج السياسيين والديبلوماسيين. وقد ذُهل دوكليرك من تضامن مانديلا مع الشيوعيين، واعتقد أن كلمته كتبها أيديولوجيون متصلبون: «هذه المرة، فشل مانديلا كلياً في الارتقاء إلى مستوى المناسبة».[5] اعتقد السفير البريطاني في روبن رينويك أن الكلمة كتبها المؤتمر الوطني الإفريقي، وشعرت السيدة تاتشر بالرعب من «العبارات الشعائرية القديمة»، وألقت بياناً كانت ستصدره.[6] وقال مستشارها الأفريقاني لورينز ڤان ديربوست، الذي كان بالذات أسير حرب سابق - قال إنه شعر بالخيبة لأن مانديلا لم يتعلم من «مدرسة المعاناة».[7]

الخيبة التي نجمت عن الكلمة عكست الجهل بخصوص علاقة مانديلا بالمؤتمر الوطني الإفريقي، وأهميته السياسية الحقيقية: سيكون عديم القوة إذا لم يستطع أن يحمل حركته معه، وقد جعلته محادثاته السرية في السجن مصمماً بدرجة أكبر على إظهار تضامنه مع المؤتمر الوطني الإفريقي الآن. وبوصفه جوّالاً وحيداً سيجبر قريباً جداً على الخروج من المسرح السياسي، مثل غورباتشيف، لكن بوصفه زعيم الأغلبية السوداء المعترف به، فإن باستطاعته استخدام سلطته بأكملها من أجل تسوية سلمية. لم يستطع حتى ذلك الوقت التخلي عن الكفاح المسلح والعقوبات، التي تشكل أكبر سلاح ضغط فعال لديه.

أظهر مانديلا مظهراً أكثر تصالحاً وتودداً في اليوم التالي في مؤتمره الصحفي الأول. عقد المؤتمر في حديقة بيشوبسكورت، وهي عزبة الأسقف توتو الكبيرة في كيبتاون، حيث كان يقول: إنه كان قلقاً من ارتباطاتها بالفخامة البيضاء، لكن تم التأكيد له أنها أصبحت الآن «مركزاً شعبياً» لسود المناطق. دخل وهو يمسك بيد ويني، وبدا متوتراً وفمه إلى الأسفل، وجلس على عرش ليواجه وابلاً من المراسلين وكاميرات التلفاز. لقد تمت مقابلته تلفازياً مرة واحدة قبل ذلك عام 1961. والآن كان مذهولاً بالأسطوانات المكسوة بالفراء

التي لم يميز أنها كانت مكبرات صوت، وليست لديه خبرة بالكابح الصوتي المتكرر أو فرص التصوير. لكن الصحفيين فوجئوا إذ وجدوه غير قلق من الكاميرات، ويتكلم بِمَوَدَّة أكثر مما كان عليه في كلمته الجافة بقاعة المدينة. تحدث بجُمل كاملة كما قال أحد المراسلين «وكأنه أمضى ستة وسبعين عاماً وهو يتمرن على مخاطبة المؤتمرات الصحفية».(8)

عرف أسماء المراسلين من خلال سطور في رأس المقالات تشير إلى كاتبها. وشكر الصحافة بوصفها كانت «جيدة» معه في السجن، مبقية اسمه حياً: «كان هم الحكومة هو أن يتم نسياننا. لكن الصحافة هي التي لم تنسنا أبداً». أصر على أن الكفاح المسلح كان مجرد سلاح دفاعي. وكرر أن دوكليرك كان رجل وحدة تمامية، ولو أن ذلك تضمن تحذيراً: «يبدو أنه مدرك كلياً لمخاطر أن تتعهد شخصية عامة بالقيام بأشياء ثم تفشل في الالتزام بها». أهم شيء، كما أكد، هو عدم شعوره هو بالمرارة.

> ليس من اللطيف بالنسبة إلى رجل أن يرى أسرته وهي تناضل بدون أمن، بدون أن يكون رأس الأسرة موجوداً بجلاله ووقاره. لكن على الرغم من الأوقات العصيبة التي عشناها في السجن، توفرت لدينا الفرصة أيضاً للتفكير ببرامج... وفي السجن كان هناك رجال جيدون جداً في مجال أنهم تفهموا وجهة نظرنا، وفعلوا كل شيء لجعلنا سعيدين قدر الإمكان. وهذا ما أزال أي شعور بالمرارة ربما يشعر به الرجل.

قالت الفانينشال تايمز «إنها كانت أول إشارة إلى أن تبجيل جنوب إفريقية لمانديلا ـ والثقة به كزعيم ـ ربما كانا في محلهما».(9)

طار بعد بضعة أيام إلى جوهانسبورغ ليخطب في حشد من 100,000 في ملعب كرة القدم في مدرج سوويتو. كان اختباراً صعباً لقدرة المؤتمر الوطني الإفريقي على السيطرة على الجموع، حيث جلبوا مئة من القيّمين على ذلك، لأنهم لن يتحملوا وجود الشرطة. قدم والتر سيسولو مانديلا إلى التصفيق

المدوي: «هذا رجل ضحّى بحياته». تحدث مانديلا كمعلم أكثر من أن يتحدث كزعيم دهماوي؛ «إنها سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي التي جعلت النظام التعليمي بأكمله مركزاً للنضال. جميع الطلاب يجب أن يعودوا إلى المدرسة ويتعلموا». وقد أسف لإحصائيات الجريمة «إن مستوى الجريمة في بلادنا يجب أن يتم التخلص منه». الجموع استمعت وهي مفتونة، بدون أي انفجار للعنف، ثم تفرقت بهدوء.

غادر مانديلا بطائرة مروحية لتفادي الجموع. ونزل من الجو بالقرب من منزله القديم «علبة الكبريت» في 8115 شارع ڤيلاكازي في سوويتو، حيث كان ينتظره الصحفيون العالميون وعربات التلفزة، التي سدت الشارع في الخارج. كان ملصق المؤتمر الوطني الإفريقي أمام المنزل وهو: «مانديلا آتٍ». وبعد ذلك «سوويتو ليست حديقة حيوانات للسياح البيض العنصريين». كان الأمر وكأنه عودة إلى القرية الوطن. بدا وكأنه تأهل بسعادة، حيث إن ويني هي مدبرة المنزل المخلصة. وقد استقبلا معاً عدداً لا ينتهي من الزوار الذين كانوا ينتظرون دورهم في الحديقة الصغيرة حيث رفرف علم المؤتمر الوطني الإفريقي فوقها، وحيث كانت لجنة استقبال تضم زويلاخي وميرفي ميروبي تشرف على ذلك الاستقبال. هيأت ويني الوجبات في المطبخ، وردت على قرع الباب، وعانقت الأصدقاء القدامى قبل أن تقودهم إلى الداخل؛ وكان صديقها المصور بيتر ماغوبين يلتقط الصور. بدا مانديلا رسمياً كأنه رئيس دولة، في لباس رمادي ذي طبقتين، شاعراً بالراحة في هذا البيت الصغير، يحيي الأصدقاء بطريقة المؤتمر الوطني الإفريقي بالقبضة المشدودة، ويجلس في غرفة الجلوس الصغيرة ويداه الكبيرتان كيدي الملاكم على الطاولة. كان مطيعاً لجدوله الزمني الدقيق «(هل رتبت الأمر مع زملائي؟)»؛ كان خياطه يوسف سورتي وحده الذي كان بمقدوره أن يتجاوز الصف، حيث وصل ومعه بنطال معلق على عليقة. بدا حديث مانديلا فيه ارتياح ومَوَدَّة. كما بدت ذاكرته حادة؛ يبدو أن العقود الثلاثة

في السجن قد مرت إلى غير رجعة. قال لزوجتي سالي: «أتذكر طوني شاباً لامعاً. لم يخبرني عنك. لقد أخفى عني الأشياء».

وبالنسبة إلى الأصدقاء القدامى، بدا مرتاحاً مع نفسه أكثر مما كان في السنوات الثلاثين الماضية. من غير أن يكون متغطرساً أو في موقع دفاعي. بدا ألطف وأرق، مع ابتسامة دافئة مرحة بدلاً من التكشيرة المتوهجة. قالت أمينة كشاليا[10]: «لقد أينع ضمن شخصية مختلفة، إنه ودود مع كل شخص». لقد عرف بالضبط من هو كما قال إسماعيل مير «لقد اخترق تلك الفترة اللاهبة وطهّر نفسه وخرج شخصاً بإمكانه الأمل بإحداث تغيير في هذه البلاد».[11] خشي العديد من مؤيديه من أن يخذلهم: فملصق ـ بطل ـ الذي احتفل فيه في شتى أنحاء العالم ربما تحول ليصبح رجلاً مُسناً ضعيفاً ومرتبكاً. لكن لم يبد أنه قد وقع في شرك الماضي. إذ أصبح بسرعة (كما وصفت نادين غورديمير) «تجسيداً للمستقبل».[12]

كان أكثر تجانساً وإنسانية من شعار السجن. قال شيريل كارولاس الذي أصبح فيما بعد المفوض السامي في لندن: «كنا قلقين من كيفية خروج مانديلا وتأقلمه مع الصورة التي تشبه القديس، ثم أظهر أن لديه أخلاقية وتمامية وقيمة للحياة الإنسانية».[13] ومثله مثل رونالد ريغان، كانت لديه جاذبية مريحة تجعل كل إنسان يشعر بأنه أفضل بعد لقائه؛ لكن شهامته وفقدان القسوة لديه عكسا جدية أخلاقية، لا سيما بالنسبة إلى الجنوب إفريقيين البيض وكأنه قسيس في غرفة الاعتراف، يصفح عن الخطايا ويعطي مباركته.

لم يكن يصفح وحده، إذ شرح: «كل الرفاق الذين كنت معهم في السجن خرجوا بدون أي شعور بالقسوة أو المرارة». لو كنتم في مكاننا فإنكم لن تجدوا الوقت لتصبحوا قساة، لأنكم تنظرون إلى المشكلات.[14] قال سيسولو فيما بعد[15]: «إن القسوة تناقض السياسة بأكملها التي نذرت حياتي لها». لكن مانديلا سار شوطاً أبعد من أيٍّ من زملائه في السجن، وكان يغلق

بعضهم فمه عندما كان يبسط يده لأكثر مضطهديه السابقين قسوة.

كان لدى مانديلا شعوره الخاص بالذنب لإهماله أولئك الذين ساعدوه خلال صعوده، وسعى الآن لرؤيتهم لتقديم الشكر - بدءاً من أول معلم أبيض له لازار سايدلسكي إلى الأصدقاء الذين ساعدوه في السجن. شرح قائلاً: «مما يريح ضميري أن أكون قادراً على القول: هل تتذكر أن ذلك ما فعلته من أجلي؟»[16] لكنه بدا بعد السجن وقد أثارته كل أنواع الوجوه الجديدة، مثل ميراندا في «العاصفة»: «أيها العالم الجديد الشجاع، الذي فيه أناس كهؤلاء!» وكان في معظم الأحيان حريصاً على لقاء الأعداء أكثر من الأصدقاء. تطلع إلى التأييد من السياسيين والديبلوماسيين ورجال الأعمال البيض المستبعد تأييدهم. وعندما قدم روبن رينويك، الذي كان يبني الجسور البريطانية مع المؤتمر الوطني الإفريقي عندما قدم الغداء لمانديلا في المطعم الأنيق لينغر لونغر، كان خائفاً بخصوص رجال الأعمال البيض الذين يتناولون طعام الغداء. لكن مانديلا أظهر براعة في التجول في غرفة الطعام ومصافحتهم واختيارهم كزملاء له في قضيته. قال رينويك «كان ذلك أداء بارعاً متسماً بالثقة بالنفس».[17]

بدا مانديلا وكأنه يشعر داخلياً بقوة صورته: فهو بإمكانه توفير «تعبير رمزي للرغبات المشوشة للشعب»[18] لكنه ابتعد عن عبادة الشخص التي أفسدت الكثير من الدول الإفريقية؛ كان حريصاً على تجنب كلمة «أنا» وأدرك، كما حذر فرانز فانون: «إن الأيدي السحرية هي فقط أيدي الشعب».[19] كان يؤكد على الدوام أنه خادم للمؤتمر الوطني الإفريقي، «ربما يقولون: حسناً إنك رجل في الواحد والسبعين، إنك تستحق التقاعد؛ أو، انظر، إننا لا نحب وجهك، ارحل نرجوك. إنني سأطيعهم»[20] وكما قال ماك ماهاراج: «لم تكن حياته أبداً هي الكفاح، كلمة (أنا) لم تحل محل المنظمة».[21]

انطلق مانديلا برحلاته وهو يحمل تلك الصورة المتوهجة. كان ينفق في الخارج وقتاً أكثر مما كان ينفقه في الوطن خلال نصف السنة التالية. لكن كان

لديه هدف ملح: جمع التأييد والأموال للمؤتمر الوطني الإفريقي، حيث يترجم سمعته إلى دفع نقدي، ويحافظ على العقوبات إلى أن تكتمل المفاوضات. كان أيضاً رجلاً مسناً في عجالة من أمره لرؤية العالم. ذهب إلى خارج جنوب إفريقية مرة واحدة فقط قبل ذلك؛ قبيل سجنه مباشرة. عندما حثه بوب هيوز العضو البريطاني من حزب العمال البريطاني على اتخاذ المزيد من الراحة، أجاب: «يجب أن أعوض سبعة وعشرين عاماً»[22] وهو الآن في وسط عالم ذي سرعة عالية لم يرها قبلاً، عصر نفاثات (الجمبو)، والحواسيب (الكومبيوترات)، والهواتف التي تعمل ذاتياً، والتلفاز العالمي، وهذا يؤدي إلى متطلبات مستمرة. وكان يتعين عليه أن يكون في كل مكان على مستوى أسطورة وسائل الإعلام لربط الأسطورة بالرجل.

كان يفتح أيضاً جنوب إفريقية أمام العالم، الذي عاملها لسنوات كدولة منبوذة. كان بإمكان مانديلا أن يرسم خريطته الخاصة لأصدقائه عبر الكون ـ مبتدئاً بإفريقية. بعد أسبوعين من إطلاق سراحه طار إلى لوساكا في زامبيا، للقاء زملائه في المنفى من المؤتمر الوطني الإفريقي، في حين تجمع رؤساء دول مجاورة وزعماء آخرون هناك لملاقاة بطلهم. عانق ياسر عرفات، الذي قبّله على وجنتيه وقارن الكفاح الفلسطيني بكفاح المؤتمر الوطني الإفريقي. كما تمت تحيته بحماسة بالغة من الجماهير الكبيرة والأصدقاء القدامى، وكرر أنه مجرد خادم للمؤتمر الوطني الإفريقي: «إذا طلبتم مني أن أكنس الشوارع، فسأفعل ذلك». كانت لقاءاته الأولى مع المنفيين من المؤتمر الوطني الإفريقي شائكة، لأن الكثيرين كانوا ما يزالون مرتابين بأنه يخونهم في محادثاته مع الحكومة. لكنه عزز زعامته من جديد وبسرعة وألزم نفسه مجدداً بالكفاح المسلح، على الرغم من أقوال رئيس زامبيا كينيث كاوندا.[23] كان تامبو الذي ما زال رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي رسمياً، كان يتعافى ببطء من سكتته الدماغية في السويد، وكان ألفريد نزو أمين السر العام المحارب قد تم انتخابه

رئيساً بالوكالة. وأصبح مانديلا ذاته نائباً للرئيس؛ لكن بالنسبة إلى معظم أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي، كان هو الزعيم الواضح.

قام بزيارة زيمبابوي، حيث تحدث في 4 آذار (مارس) في مدرج الرياضة الوطني، وقدمه روبيرت موغابي الذي أصبح رئيساً للبلاد قبل عشر سنوات، في مناخ مماثل من المصالحة والتوقعات. لكن بدا الزعيمان وهما مختلفان أصلاً. قدم موغابي مانديلا بخطبة متغطرسة تخدمه ذاتياً حيث ندد بمنافسيه، في حين أن مانديلا، كما وصفه أحد المراسلين، «تحدث بالثقة الهادئة الجليلة لزعيم عظيم وظهر ـ متعمداً ـ هادئاً إلى جانب موغابي المرتعش المبلل بالعرق».[24]

قام بزيارة دول أخرى، بما فيها ناميبيا الحديثة جداً، حيث شارك في الاحتفالات بالاستقلال بتاريخ 21 آذار (مارس)، والتقى بزعماء العالم. كانت حكومة ناميبيا السوداء بزعامة سام نيوجوما إشارة إضافية للضغط الراسخ من أجل جنوب إفريقية ديموقراطية. الزائر النجم كان مانديلا، الذي أظهر كل مهاراته الديبلوماسية، وعندما قيل إنه ازدرى وزير الخارجية البريطاني دوغلاس هيرد أرسل بسرعة رسالة ليؤكد له أنه لم يكن بنيته ذلك.[25]

زار الجزائر مرة أخرى، حيث كان هناك قبل وقت قصير من اعتقاله عام 1962؛ زار أحد الوزراء الذي كان يريد رؤيته آنذاك معتذراً لتأخره ثمانية وعشرين عاماً. وانتهى إلى زيارة السويد حليف المؤتمر الوطني الإفريقي الطويل الأمد، حيث بقي في القصر الملكي الصغير الجميل في هاغا خارج ستوكهولم، محاطاً بالزوار من جميع أنحاء أوربة. كان لديه اجتماع شمل مؤثر مع تامبو، حيث اعتقد أنه عانى وحقق ما هو أكثر مما حققه هو، والذي ما زال يتحدث بتقطع بعد سكتته الدماغية. أدرك مانديلا أنه ربما لا يشفى كلياً وهو في سن الثانية والسبعين. توسل تامبو إليه ليأخذ مكانه كرئيس للمؤتمر الوطني الإفريقي، لكن مانديلا رفض: اعتقد أن ذلك سيساء فهمه، بالنسبة إلى زعيم يستلم رئاسته بعد خروجه لتوه من السجن.[26]

بعد ذلك بعدة أسابيع ذهب إلى لندن. كانت السيدة تاتشر قد أرسلت دعوة، لكن زملاءه نصحوه بعدم رؤيتها، وأعطى الأولوية بدلاً من ذلك للأصدقاء المخلصين للمؤتمر الوطني الإفريقي. أقام سوني رامفال أمين سر الكومونولث حفل استقبال في ماي فير، حيث شغل هو وويني الغرف مثل الملوك، مصافحين بالأيدي، في حين حاول جيسي جاكسون سرقة الأضواء. ألقى مانديلا خطبة أيضاً في لقاء حاشد للمؤتمر الوطني الإفريقي، حيث شكر وأطلع العاملين في الحرب قائلاً لهم: «في حين كنا نجلس براحة في السجن، كنتم أنتم في خط المواجهة». وحذر من أن جنوب إفريقية ستشهد - إن لم تتحقق تسوية - «حريقاً هائلاً لم يشاهد مثله في إفريقية». لقد سيطر على الاجتماع، لكنه قال من جديد إنه خادمهم فقط: «لقد التقيت رؤساء لي هنا اليوم. ولديّ ملاحظة أرسلت إلي: (انتظرناك وقتاً طويلاً)».[27]

كان الموعد البريطاني الرئيسي لديه هو حفلة موسيقية ضخمة في مدرج ويمبلي في 16 نيسان (أبريل) ليقدم شكره لمن قاموا بالحملات ضد التمييز العنصري الذين احتفلوا بعيد ميلاده السبعين في الحفلة الموسيقية السابقة. إن مزيج موسيقى البوب والسياسات المتصلبة تم نقله تلفازياً من جديد من قبل الإذاعة البريطانية بي بي سي. حذرتهم حكومة تاتشر بوجوب تجنب الدعاية أو جمع النقود للمؤتمر الوطني الإفريقي. وتوجب على المشرف على القناة الثانية في البي بي سي وهو ألان ينتوب ممارسة «تحفظ كبير»، وهو يراقب بحرص كلمات نجوم البوب.[28] ملأ المدرج خمسة وسبعون ألفاً من الشباب، وهم يغنون ويتمايلون بأمواج مكسيكية. قدم النجوم الدوليون برنامجهم بحرية - بمن فيهم الإخوة مانهاتن - أصدقاء مانديلا في سوويتو في عقد الخمسين - وشاهدهم بما يقدر بمليار مشاهد من شتى أنحاء العالم. وفي غرفة استقبال حاشدة استقبل مانديلا أصحاب الحملات القدامى، الذين لقيتهم ويني بلباقة، لكنه بدا أكثر استثارة بمغني البوب منه بالزعماء السياسيين أمثال نيل كينوك. في الختام سار

مانديلا إلى أعلى وأسفل المنصة بقبضة مشدودة أمام الهتافات الهادرة وقدم تحياته إلى تامبو والأب فدلستون رئيس الحركة ضد العنصرية. أبلغ مانديلا الحشد: «أنتم اخترتم أن لا تنسوا أنه حتى ضمن جدران السجن الثخينة... سمعنا أصواتكم وأنتم تطالبون بحريتنا».

عاد إلى الأرض لدى عودته إلى جنوب إفريقية، حيث زار مجدداً قريته الأصلية في كوتوفي الترانسكي. وصل بلباس قاتم ومرسيدس سوداء إلى مشهد مناقض كلياً لمشهد لندن، بضعة أكواخ مدورة من القش في الريف الأجرد، بدت حتى أفقر مما كانت عليه قبل ذهابه إلى السجن، وأصبحت الآن مشوهة بقطع بلاستيكية عديمة الترتيب معلقة بالسياج. سره أن يرى الأطفال وقد تم تسييسهم وهم ينشدون أغنيات عن تامبو، لكنه شعر بالحزن لأن «الاعتزاز في المجموعة بدا وكأنه قد تلاشى».[29] زار قبر والدته، وهو ما زال نادماً لأنه لم يهتم بها اهتماماً لائقاً، وتم الترحيب به في مأدبة، حيث قام أحد أبناء عمومته بذبح ثور ثمين. تم الترحيب به من قبل الزعماء المحليين وأقرباء مانديلا بمن فيهم شقيقته مابل. استرخى مع أحد الأحفاد، وهو يغير ملامحه بطريقة مضحكة. وألقى كلمة في كزوسا ترجمها إلى الإنكليزية: «قلبي حزين بالتأكيد بسبب مشاهد الفقر». شارك في الاحتفال إلى أن نزلت طائرة مروحية لأخذه بعيداً أمام دهشة الجميع.[30]

بعد ذلك بعدة أسابيع، كان في الخارج من جديد، إلى أوربة وشمال أمريكة. كان في مهمة خطيرة للحفاظ على العقوبات وجمع الأموال للمؤتمر الوطني الإفريقي، لكنه بدا كقديس، وراقبته سفارات جنوب إفريقية عن كثب بما أنه بز رئيس دولتهم بالذات دوكليرك. في فرنسة استقبله الرئيس ميتيران بطريقة ملكية وكانت زوجته دانييل قد دعمت اجتماع داكار الحاسم عام 1987. وفي روما استقبله البابا، وسرب أحد الرسميين في الفاتيكان وهو المونسينيور مينيني تفصيلات سرية عن المقابلة إلى سفير جنوب إفريقية، مؤكداً له أن اللقاء

ليست له أهمية سياسية، لأن البابا يلتقي جميع الزوار السياسيين الكبار، حتى عرفات. قال: إن البابا لم يأخذ أية ملاحظات مثلما فعل مع زوار خطيرين بدرجة أكبر، ورفض طلب مانديلا المصادقة على العقوبات. كانت الشهرة الحقيقية، كما ادعى مينيني «دون توقعات [مانديلا]».[31]

توقف مانديلا ليومين في إنكلترة للقاء تامبو «في مكان آمن» في (كينت) جهزته الحكومة، وتحدث طويلاً على الهاتف في الصباح مع السيدة تاتشر، حاثاً إياها دون نجاح على الحفاظ على العقوبات. لكنه تأثر لقلقها على صحته وبرنامجه المكثف جداً، والذي قالت إنه ثقيل جداً على رجل بنصف عمره؛ وبختته قائلة: إذا استمريت بهذه الطريقة فلن تخرج حياً من أمريكة». أدرك أنها «سيدة قوية جداً. . . سيدة أود لو تكون حليفاً لا عدواً».[32]

في أمريكا زار مانديلا ثماني مدن وانتقل بين المضيفين المتنافسين من الإفريقيين ـ الأمريكيين إلى الكنائس إلى العمل الفني. وفي نيويورك تمت مقارنته بموسى أكثر منها بمارتن لوثركينغ. امتطى سيارة بزجاج ضد الرصاص في موكب مؤلف من أربعين سيارة إلى برودواي: طباعات الحاسوب، وخمسون كيلومتراً من أشرطة التلغراف ـ اعتقد أنها قياسية ـ انهمرت من ناطحات السحاب، مع مئات الآلاف من المتفرجين الذين اكتظت بهم الشوارع الضيقة. وفي المساء أضيء مبنى الأمباير ستيت بألوان المؤتمر الوطني الإفريقي الخضراء، والسوداء والذهبية. قال حاكم نيويورك ماريو كوومو: «لقد رأيت تجمعات كبيرة وعروضاً وحشوداً ضخمة، لكن هذا كان شيئاً لم أره قبل الآن». ألقى مانديلا كلمة في الأمم المتحدة شاكراً إياها على الإعلان المتعلق بجنوب إفريقية قبل ذلك بعام. لكنه حذر في كل كلمة من أن «جدار العقوبات» ربما يتداعى قريباً جداً. وفي هارلم خاطب دائرة إفريقية مغلقة، محذراً من أن سرطان العنصرية ما زال حياً. قالت النيويورك تايمز إن زيارة مانديلا «المست ونشّطت الأمريكيين السود إلى درجة كبيرة كأي شيء آخر منذ أوج عهد الحقوق

المدنية». [33] كان وقاره الهادىء الواثق ينظر إليه كمناقض ـ مرحب به ـ للمنطق العدواني للعديد من السياسيين الإفريقيين ـ الأمريكيين، وتمت تحيته بوصفه قدم نوع الزعامة التي مست إليها الحاجة. لكن كان لديه ضمان أغلبية سوداء تقف وراءه، وهذا ما لم يتوفر بتاتاً للأمريكيين السود.

في واشنطن، رحب به الرئيس بوش، الذي كان أول رئيس دولة يهنئه على إطلاق سراحه، انتقد بوش استخدام المؤتمر الوطني الإفريقي للعنف ضد نظام التمييز العنصري، ورد مانديلا أنه خلال التاريخ كان الظالمون هم الذين قرروا طريقة العمل السياسي: إذا استخدموا القوة الوحشية لقمع جميع تطلعات الشعب، ورفضوا كل حوار، فإنهم بذلك يرسلون رسالة إلى المضطهدين بأن عليهم اللجوء إلى القوة إذا أرادوا التحرير. [34] تأثر بوش ووزير خارجيته جيمس بيكر باستعداد مانديلا للمصالحة والتفاوض بجدية. بعد ذلك بيومين أكد بوش لـ دوكليرك عن طريق الهاتف أن مانديلا لم يكن يحاول توجيه ضربة إليه؛ لكن عندما زار دوكليرك واشنطن بعد ذلك بثلاثة أشهر، كان حريصاً على إظهار أنه أكثر أهمية من مانديلا. [35]

في واشنطن خاطب مانديلا أيضاً جلسة مشتركة لمجلس الكونغرس. سبقها ثلاث دقائق من الترحيب وقوفاً. امتدح الأبطال السود مثل ماركوس غارفي، مارتن لوثركينغ، ودبليو. إي. بي دوبوا إلى جانب واشنطن، لنكولن وجيفرسون: «ربما لا يكون بعيداً اليوم الذي نستعير فيه كلمات توماس جيفرسون ونتحدث عن إرادة شعب جنوب إفريقية». وقد أزعج اليمين بالدفاع عن العقوبات. إلا أنهم لم ينسحبوا كما هددوا بذلك، وتلقى ترحيباً آخر وقوفاً، في حين أجل بفعالية وقف العقوبات. واستمر المحافظون في التشكي من تأييده لكوبا وليبيا، لكن بعضهم قبل أنه كان عليه إيجاد أصدقاء أينما كان في وقت الحاجة. وكما كتب تشارلز كروثامر: «نحن الأمريكيون، الذين عقدنا

تحالفاً في وقت من الأوقات مع ستالين، يجب أن لا يصعب علينا تفهم ذلك»[36].

كان مانديلا يشاهد أحياناً وهو مرهق من برنامجه المكثف، وتضايق من الحراس الشخصيين الذين منعوه من التحدث إلى عامة الناس. عندما بقي مع عمدة نيويورك، ديڤيد دينكينز في عزبة غراسي حاول العدو وحده في الصباح الباكر، لكن الحراس أصروا على مرافقته.[37] ثم شعر بالنشاط مجدداً في كاليفورنيا وفي حشد أخير في مدرج أوكلاند، المزخرف بأعلام المؤتمر الوطني الإفريقي، قال: «أشعر وكأنني شاب في الخامسة والثلاثين، أشعر كأنني بطارية قديمة أعيد شحنها، إن النضال ضد التمييز العنصري هو القضية التي توحد الناس ذوي الآراء السياسية المختلفة في الولايات المتحدة وعبر العالم بأكمله».

وضع مانديلا وبسرعة جنوب إفريقية في مركز المسرح الأمريكي. قالت النيويورك تايمز: «لقد تحول إلى بطل شعبي تحييه الملايين التي ربما كانت تعطي اهتماماً طفيفاً للتمييز العنصري في جنوب إفريقية قبل بضعة أشهر»[38]. ووصفته مجلة تايم «بأنه بطل كلاسيكي» برز من انبعاث رمزي وقور، وأصبح عظيماً، ومليئاً بقوة خلاقة... إن نيلسون مانديلا بالنسبة إلى إفريقية هو مثل بوليڤارا بالنسبة إلى أمريكا الجنوبية، ولنكولن بالنسبة إلى أمريكا: المحرر»[39]. لكنه أنكر الأسطورة: أنا آسف إذا تم النظر إليّ على أنني نصف إله... أنا وتد تُربط إليه جميع تطلعات المؤتمر الوطني الإفريقي»[40].

سافر من أمريكا إلى إيرلندة، حيث كان في المياه الساخنة بسرعة: لم يستطع تصديق أن مشكلات أولستر لا يمكن حلها سلمياً؛ أخبر مؤتمراً صحفياً في دوبلن أنه «ليس هناك شيء أفضل من جلوس المتخاصمين معاً لحل مشكلاتهم بطريقة سلمية». طار بعدها إلى لندن، لكن كلماته لحقت به. كتبت الغارديان[41]: كان هناك تكهن واضح وتافه بشأن الفوضى التي وقع فيها نيلسون

مانديلا يوم أمس في دوبلن، إنه سيضحك بسخرية عندما يجلس سين فين للتحدث مع الحكومة بعد ذلك بسبع سنوات.

في لندن التقى أعضاء البرلمان البريطاني في قاعة ويستمنستر، حيث قدمه إيفور ستانبروك المندفع من حزب المحافظين (الثوري) والذي طرح فوراً مسألة أولستر، إلا أنه واجه وابلاً من الأسئلة والتحديات من قبل أعضاء آخرين في البرلمان بمن فيهم دينيس سكينر مع صيحات وازدراءات بكلمة «هراء!» «نفاية». مما أدهش مانديلا: «إنه لمذهل ما يقولونه في مجلس العموم».[42] ذكر أعضاء البرلمان أن «المؤتمر الوطني الإفريقي كان منبوذاً بالأمس» وطلب منهم تأييد العقوبات و«أن يسيروا الميل الأخير معنا». ذهب إلى حفل غذاء صغير أقامه وزير الخارجية دوغلاس هيرد، ضم أشخاصاً كانوا قد ساعدوا مانديلا، أمثال أسقف كانتيربيري والأب هادلستون. سيطر مانديلا على الوضع بهدوء، وشرح قضية العقوبات، وشرب الماء وأكل تفاحة بدلاً من الحلويات الدسمة.[43]

لقد رأى السيدة تاتشر في هذه المرة. لقد نصحها روبن رينويك بأن مانديلا ظل ينتظر سبعة وعشرين عاماً لتقديم وجهات نظره، وتركته يتحدث لخمسين دقيقة بلا انقطاع، وهذا يقارب الرقم القياسي بالنسبة إليها. شكرها بودّ لتحسين علاقات الشرق والغرب، ولتحسين استقلال زيمبابوي ولحثها بريتوريا على إطلاق سراحه. وطلب دعمها لتحقيق تسوية بالتفاوض، وشرح الحاجة إلى العقوبات. أجابت لمدة نصف ساعة، في حين بقي مانديلا بلا حراك. حثته على التحدث إلى باثيليزي، والتخلي عن الكفاح المسلح وخططه الخاصة بالتأميم. ووعدت بأن تظل على صلة وثيقة. كان اللقاء قد خطط له ليستمر ساعة واحدة إلا أنه استمر ثلاث ساعات.[44]

أدرك مانديلا أنه لم يحقق حتى ذلك الوقت نقطة انطلاق حول العقوبات، إلا أنه فوجىء عندما وجد تاتشر ودودة وجذابة، في حين أنها «سيدة

حديدية» حقاً، ووجدته «دمثاً إلى أبعد الحدود مع نبل أصيل بطريقة مشيه» وبلا قسوة. حدثته بود لكنها وجدته ما يزال «ملتزماً بنوع من القاعدة الزمنية» وأقلقها أنه ربما يبرهن على أنه ماركسي آخر نصف ناضج، مثل موغابي في زيمبابوي.[45]

خارج داوننغ ستريت سأل أحد المراسلين مانديلا كيف استطاع إقناع نفسه بالتحدث إلى شخص ندد به كإرهابي. أجاب إنه يتعامل مع الإفريقيين الجنوبيين الذين فعلوا أشياء أسوأ بكثير. قال فيما بعد: «إنني لم ألمح حتى إلى المذابح».[46] أنهى رحلته في تموز (يوليو) في موزامبيق حيث قابل لأول مرة غراسا ميتشل أرملة الرئيس السابق ساموزا ميتشل.

في تشرين الأول (أكتوبر) ذهب من جديد في رحلة إلى آسية، مع صديقه إسماعيل مير من بين المجموعة. كانت الهند المحطة الأهم، بوصفها الحليف التقليدي للإفريقيين الجنوبيين السود، واستقبل هناك بموكب عظيم يحتفظ به عادة لرؤساء الدول، بما في ذلك التحية بإحدى وعشرين طلقة ومأدبة رسمية في دلهي. وعد الرئيس راماسوامي فينكا تارامان بالحث على استمرار العقوبات وبدعم المؤتمر الوطني الإفريقي، ساعد حزب المؤتمر فيما بعد المؤتمر الوطني الإفريقي على شراء شل هاوس مقر قيادته في جوهانسبورغ.[47] وفي كلكوتا خاطب مانديلا حشداً كبيراً وشكر الهند على إنشاء الكفاح الجنوب إفريقي بإرسال غاندي إليهم. شرب الماء المقدس من الغانج، وقلق قليلاً من رؤية جثث الأبقار الميتة وهي تطفو فوقه. استمتع بالطعام الهندي، وشكر علناً مير لأنه علمه أن يحب الكاري.[48]

كانت الدول الآسيوية الأخرى كريمة أيضاً، إلا أنها أكثر مثاراً للجدل على الصعيد السياسي. ففي أندونيسية استقبل مانديلا استقبالاً فخماً من قبل الرئيس سوهارتو لدرجة أنه طلب منه 10 ملايين دولار للمؤتمر الوطني الإفريقي، حيث تلقاها أمام وسائل الإعلام. لكن مانديلا بقي صامتاً بخصوص

حملة الأندونيسيين ضد التيمور الشرقيين، الذين اتهموه «بالنفاق والانتهازية». [49] وفي ماليزيا أعطاه الرئيس مهاثير ـ بعد أن شرح له باختصار التطور الاقتصادي، أعطاه 5 ملايين دولار نقداً. وفي أسترالية ـ حيث فشل في رؤية بطل الكريكيت المفضل لديه دونالد برادمان ـ خرج سليماً من النزاع بشأن سكان البلاد الأصليين وألغى زيارة إلى مجموعة من هؤلاء في سيدني (يدعون الأورميون)، مما أدى إلى المزيد من التهم بالنفاق. لكن الأورميين كانوا ما يزالون يدّعون وجود تحالف مع الشعب الأسود في جنوب إفريقية. [50]

لقد تضايق من تجربته في اليابان، حيث نُقل ـ قبيل وصوله مباشرة ـ عن لسان وزير العدل أنه أدلى بملاحظة عنصرية بشأن أمريكا، «حيث يذهب من في الجوار إلى الهلاك عندما يدخل السود». ذهل مانديلا لأن الوزير استمر في منصبه مما «أظهر كم بقيت اليابان فاترة في مقارعة العنصرية. لقي ترحيباً حماسياً شديداً في البرلمان الياباني. لكنه شعر بالخيبة عندما رفض رئيس الوزراء طلب تقديم 25 مليون دولار إلى المؤتمر الوطني الإفريقي. قال بعد ذلك «التناقض الذي أظهرته الحكومة اليابانية عديم الأهمية مطلقاً». [51]

كان هناك بلد لم يندرج في رحلات مانديلا في أعقاب الحرب الباردة: الاتحاد السوفييتي الذي دعم بإخلاص المؤتمر الوطني الإفريقي، وزوده بالسلاح والمال في الربع الأخير من القرن. كان غورباتشيف قد دعاه إلى موسكو في رسالة إلى لوساكا بعد إطلاق سراحه مباشرة؛ وكان لمانديلا لقاء ودي مع وزير الخارجية إدوارد شيفار نادزة أثناء احتفالات الاستقلال في ناميبيا في آذار (مارس). لكن الخطط ظلت تتأصل. في الحقيقة إن موسكو في حين كان يحتمل أن تحصد الجوائز من دعمها الطويل الأمد للمؤتمر الوطني الإفريقي، فإنها كانت تتقرب من دوكليرك. وحكومة غورباتشيف التي مزقتها الأزمات الاقتصادية، كانت بحاجة ماسة إلى فرص تجارية فورية عام 1990، وقعوا اتفاقية تسويق مباشر مع مجوهرات دوبيرز، وكان غورباتشيف بعد ذلك

بوقت قصير، وفي تخلٍ عن الوعود للمؤتمر الوطني الإفريقي ـ كان يُجري اتصالات مباشرة مع بريتوريا. كما توقف عن تأمين التدريب المجاني لمقاتلي المؤتمر الوطني الإفريقي. قام دوكليرك بزيارة رسمية إلى موسكو في حزيران (يونيو) 1992، عندما أكد له الرئيس الروسي الجديد بوريس يلتسين أنه لن يستقبل مانديلا بوصفه رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي، بل مجرد مقاتل دولي من أجل حقوق الإنسان. وراء تلك التغييرات السريعة (قال الخبير السوفييتي فلاديمير شوبين) كان يكمن لدى الروس رهاب طاغٍ من التمييز العنصري الذي كانوا يرون فيه أن الجنوب إفريقيين البيض هم ضحايا حكم الأغلبية السوداء. ولم تتحسن العلاقات مع موسكو حتى عام 1993، عندما أصبح المؤتمر الوطني الإفريقي أقرب إلى النصر.[52]

ما زال مانديلا يصادق أعداء للغرب مثل معمر القذافي، وعرفات، وصدام حسين. كان قد زار ليبيا في أيار (مايو) 1990، عندما أعطى تحذيراً مبكراً بأنه سيبقى مخلصاً للقذافي، في خيمته شكره لتزويده المؤتمر الوطني الإفريقي بالتدريب العسكري: «نحن نَعُدّ أنفسنا رفاقاً في السلاح». وعندما غزا العراق الكويت في آب (أغسطس) 1990 اتهم مانديلا الأوربيين بالنفاق: «إنهم لم يعترضوا على غزو الولايات المتحدة لغرينادا أو باناما». «لكن الغرب بأكمله يتنادى الآن ويرسل الجيوش بسبب غزو العراق للكويت». إنه لم يغفر عدوان العراق، لكنه أوحى أن العراقيين عوملوا معاملة مختلفة لأنهم ذوو «بشرة بنية اللون». وعندما شن الغرب أخيراً حرب الخليج، اتصل الرئيس بوش بتودد بمانديلا «الذي وافق على أن يكون مختلفاً».[53]

أظهر مانديلا اعتزازاً خاصاً بفيدل كاسترو، الذي كان قد ألهم المتصلبين في المؤتمر الوطني الإفريقي بثورته الجريئة عام 1959؛ لقد اهتز طرباً من روبن آيلاند لدى سماعه أن الكوبيين قد تدخلوا في أنغولا. زار كوبا في تموز (يوليو) 1991، وألقى كلمة حماسية شاكراً كوبا لمساعدتها المؤتمر الوطني الإفريقي،

ومتذكراً كيف أن القوات الكوبية ساعدت في هزم الغزاة الجنوب إفريقيين في أنغولا عام 1988. قال «إن تلك الهزيمة تساعدني في أن أكون هنا اليوم». رد كاسترو بتسمية مانديلا «واحداً من أكثر الرموز الاستثنائية في هذا العصر شارحاً أن «التمييز العنصري هو الرأسمالية والامبريالية بشكلهما الفاشي». تحدث كاسترو لثلاث ساعات بلا أية ورقة، مما أثار دهشة مانديلا، ولم يغادر أحد إلا للذهاب إلى المغاسل. وجد مانديلا كاسترو «رجلاً سعيداً جداً» عندما تجولا في هاڤانا «جلس فقط وطوى ذراعيه، وكنت أنا الذي يلوح للجماهير».[54]

على الرغم من الأصدقاء المربكين هؤلاء، فإن مانديلا تقبلته الحكومات الغربية بحماسة أذهلته بعد برودتها السابقة إزاء المؤتمر الوطني الإفريقي كان ذلك في جزء منه بالطبع بسبب التحول الجغرافي ـ السياسي: فالبعبع السوڤييتي الكوني قد تبخر، ولم يعد يتعين على الغرب الخوف من حكومة جنوب إفريقية سوداء معادية تدعهما موسكو، المحاربون الـ Cold الذين عززوا مانديلا كغول شيوعي تم نزع سلاحهم ـ مع غصة الشعور بالذنب ـ ليلاقوا الرجل المسن اللطيف بأسلوب محافظ واهتمام وثيق بالديموقراطيات الغربية. وشرعت الحكومات الغربية بالتنافس في وقت متأخر لمصادقة رئيس أسود محتمل.

إلا أن الترحيب الغامر لا يمكن شرحه بعلم السياسة. فالإعجاب بمانديلا لم يكن بوصفه رجل سلطة، بل كزعيم أخلاقي ذي مبادىء أساسية أعطى الأمل بالمستقبل لكل المسحوقين وكل الدول التي مزقتها الانقسامات العنصرية. إن وقاره ورغبته بالمصالحة منحتاه نفوذاً تجاوز السياسات العادية. وهذا ما كان مفاجئاً أكثر لأنه لم يكن متديناً. إنه لم يعرض نفسه أبداً كزعيم روحي ورفض لقب قديس: «أنا مجرد خاطىء يستمر في المحاولة». أنا لست متديناً أو روحياً بشكل خاطىء كما قال لبروفسور في اللاهوت هو تشارلز ڤيلا ـ فيسينسيو: «أنا مجرد رجل عادي يحاول أن يفهم أسرار الحياة».[55]

بدا أنه يستمتع ويتأقلم مع صورته الخاصة، في حين أنه لم ينخدع بها،

وكأنه يراقب لعبة هو البطل فيها. هو يحب رواية القصص عن إعادته إلى حجمه الطبيعي: عن سائح أمريكي في الباهاما عرفه ثم سأل: «لأي شيء أنت مشهور؟» أو عن المرأتين من البيض في جنوب إفريقية اللتين طلبتا توقيعه ثم قالتا: «بالمناسبة ما اسمك؟» سئم مساعدوه من الحكايات المتكررة، إلا أنها كانت جزءاً من تصميم مانديلا على البقاء رجلاً عادياً، وهذه الحكايات كانت تسر مستمعيه وبخاصة الأطفال. لقد أحب رواية القصص عن كيفية إذلال الأطفال له. سألته طفلة في الثالثة عشرة من عمرها: «هل تدري ما يقوله الأطفال في المدرسة عنك؟ يقولون إنك عندما كنت صغيراً كنت جميلاً. ويقولون إنك اليوم مسن وقبيح». وعندما سألته طفلة في الخامسة لماذا أمضى هذا الوقت الطويل في السجن، وشرح لها ذلك، أجابت «لا بد وأنك عجوز غبي جداً». مع الأطفال في كل مكان، على الرغم من أو بسبب مشكلاته العائلية الخاصة، كان بإمكانه النزول من صورته الضخمة ليكتشف من جديد نفسيته الخاصة الأكثر بساطة. ولكن في حين كان يبدو بريئاً في الخارج، فإن قدرته الغريزية على الاتصال بكل أنواع البشر جعلته معلماً في السياسة.

29

من الثورة إلى التعاون

كانت لدى مانديلا ميزة ساحقة بوصفه زعيماً سياسياً في الوطن، كأنما هبط من الغيوم! وبقيت مبادئه سليمة لم تمس، ولم يتلطخ بالمكائد والمناورات القذرة، ومن غير الشعور بأنه تسلق «العمود المشحّم». إن الفترة التي قضاها في السجن والتي لم يسبق لها مثيل حمته من الانتقادات والإساءات. وأكسبته مصداقيات لا يمكن لأحد أن يضعها موضع الشك، ولم يكن لديه منافس جدي بادٍ في الأفق.

لكن فيما بين جولاته الخارجية المنتصرة، كان يواجه بسرعة جمهوراً أكثر تشككاً في الوطن. ومثله مثل الكثير من أبطال العالم. مثل تشرشل وسماتس بعد الحرب العالمية الثانية، فإن التصفيق له على مستوى الكون لم يقدم المساعدة بالضرورة لشخصيته في الداخل. تشكّى العديد من الجنوب إفريقيين البيض من أنه كان منعزلاً جداً، ولا يمكنه السيطرة على عنف شعبه؛ في حين اعتقد القليل من السود أنه كان ينسى أصوله. وواجه مهمة ضخمة في قيادة غير المنظم نحو السلطة السياسية. لم يكن لديه حق الاقتراع، ولا أي وضع رسمي فيما عدا كونه زعيماً ثائراً. كانت ضغوطه الفعالة الوحيدة ضد الحكومة الأفريقانية هي العقوبات، التي اعتمدت على الدعم العالمي، والتهديد بالقوة المسلحة الذي يتطلب قوات فدائيين كانوا فاقدين للفعالية حتى ذلك الوقت. وفي حين اعتُرف به عبر العالم كله بوصفه المحرر العظيم، موسى الجديد أو

المسيح، لم تكن لديه سلطة ملموسة داخل بلده بالذات، ولا جيش تحرير مقنع.

كان دوكليرك ما يزال يسيطر على آلية عسكرية هائلة، وقوة شرطة ونظام مخابرات؛ ولم تكن لديه النية بإفساح المجال أمام أغلبية سوداء ما لم يُجبر على ذلك. قال مانديلا فيما بعد: «لا توجد حكومة في أي مكان في العالم تتنازل عن السلطة بدون ضغط هائل». [1] كان دوكليرك يجعل حكومته مقبولة من الغرب بسرعة. وشجعه الزعماء الغربيون بمن فيهم السيدة تاتشر في بريطانية وهيلموت كول في ألمانية. على البحث عن أنظمة فدرالية أو كونفدرالية بديلة من شأنها منع سيطرة أي حزب منفرد ـ أي المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان الأفريقانيون يتطلعون إلى أوربة منذ مدة طويلة بحثاً عن نماذج من التطوير المنفصل: عام 1984 كان الرئيس بوثا قد قال إن سويسرة ويوغلاسلافية قد «اكتشفتا مفتاح التعاون والانسجام». [2] وما زال دوكليرك متعلقاً بسياسة «حقوق المجموعة» التي ربما تتلاعب بالقبائل بعضها ضد بعض. كان مانديلا قد تجادل معه أصلاً قبل مغادرته السجن بأن حقوق المجموعة عنت في الحقيقة التمييز العنصري عبر الباب الخلفي. وأقنعه شقيق دوكليرك ويليم، من بين آخرين، بعد ذلك مباشرة أن «حقوق المجموعة القائمة على العرق واللون ليست مقبولة». لكن دوكليرك بقي مؤيداً «للحق غير القابل للتحويل لكل مجموعة ثقافية وذات لغة لتحقيق الاحتياجات الأساسية لهويتها». حق يمكن أن يتوسع بسهولة لتشجيع الانقسامات القبلية. [3]

أدرك مانديلا بسرعة أن دوكليرك ليس في عجلة من أمره للبدء بالمفاوضات. وارتاب في أنه يحاول كسب الوقت، أملاً في أن «يقع على وجهه». [4] وكان مرتاباً أولاً بدور الشرطة: في 26 آذار (مارس) 1990 هاجمت الشرطة حشداً من المتظاهرين من المؤتمر الوطني الإفريقي في سيوكينغ، جنوب جوهانسبورغ، وقتلت اثني عشر منهم. اشتكى بغضب إلى دوكليرك من

أن الرئيس لا يمكنه «التحدث عن المفاوضات من جهة وقتل شعبنا من جهة أخرى». وأجل المحادثات الأولى، اعتقد أن دوكليرك كان يتطلع إلى وسائل للمحافظة على اقتراع الأقلية، وإحباط الأكثرية.

كانت لدى ضباط الاستخبارات العسكرية الجنوب إفريقية خططهم السرية الخاصة لبث الانقسام بين السود. لقد فعلوا ذلك في ناميبيا، مستخدمين «الخدع القذرة» لإضعاف حزب الأغلبية السوداء سوابو، وإقامة إئتلاف حر من الأحزاب الإثنية، حلف تيرنهول الديموقراطي. والآن خططوا لإضعاف المؤتمر الوطني الإفريقي بالطريقة ذاتها. كانوا يأملون بتأخير الانتقال حتى يحين الوقت الذي يسمح للحكومة بعقد تحالف مع أحزاب سوداء أخرى، بما فيهم الإنكاثا، والتي ربما توجه ضربة للمؤتمر الوطني الإفريقي عند الاستفتاء.[5] لم يتم تسريح قوات الأمن الجنوب إفريقية في ناميبيا، بل أعيدت إلى جنوب إفريقية. ووجدت لجنة الحقائق فيما بعد أنه «برغم جميع النواب والأهداف آنذاك فإن جميع رجال المباحث والجنود تحركوا من مسرح حرب إلى آخر». وكان لدى العديد من أعضاء الاستخبارات العسكرية فكرة صريحة جداً عن دورهم بعد أن أضفيت الشرعية على المؤتمر الوطني الإفريقي. وكما قال أحدهم للجنة الحقائق: «اعتقدنا جميعاً: هذا هو الأمر، اقتلوا الكفيريين وأعضاء في مجموعة الشعوب الناطقة بلغة البانتو في جنوب إفريقية». لقد حان الوقت للتخلص منهم.[6]

كان مانديلا بحاجة ماسة لإعادة بناء وتوحيد المؤتمر الوطني الإفريقي بعد حظره لثلاثين عاماً، وجمع عناصره المشتتة في حزب منظم، من أجل البدء بالمفاوضات مع دوكليرك. كان الزعماء في المنفى قادرين على العودة بسرعة، بعد المحادثات مع الجهاز السري لضمان سلامتهم. وتوقع معظمهم الوصول إلى السلطة خلال خمس سنوات. لكنهم عرفوا أن المفاوضات ستكون شاقة، وشرعوا بانتقاء فريق من أجل المحادثات التمهيدية. كان مانديلا مصمماً على

إدخال صديقه القديم جوي سلوفو، أمين سر الحزب الشيوعي، الذي أصبح الآن لين العريكة وشعره أبيض: في البداية رفض ذلك دوكليرك رفضاً مطلقاً، لكنه وافق في النهاية على أن كل طرف يجب أن يكون حراً في اختيار أي شخص يريده.[7]

في 2 أيار (مايو) 1990 اجتمع فريق الحكومة مع فريق المؤتمر الوطني الإفريقي للبدء بمحادثات برلمانية في غروت شور المقر الرسمي لـ دوكليرك. كان تجمعاً فذاً: فكما قال ثابو مبيكي إن الزعماء السود ظلوا «يسعون لأكثر من قرن للجلوس والتحدث مع الحكومة» وقف مانديلا ودوكليرك في الحديقة أمام وفديهما البالغ عدد أعضاء كل منهما أحد عشر عضواً. لقد أظهر الوفدان تناقضاً عرقياً مدهشاً. كل أعضاء فريق الحكومة كانوا من البيض الأفريقانيين الذكور، في حين أن الأحد عشر عضواً من المؤتمر الوطني الإفريقي ضموا اثنين من البيض وواحداً هندياً وواحداً ملوناً إضافة إلى السبعة السود؛ وكان اثنان من الوفد من النساء.

أدلى الزعيمان بتصريحات لائقة وغير حزبية، وكان مانديلا يأمل في أن «ينخرطوا في ممارسة مقدسة بدون السعي وراء المنفعة لمنظمتهم السياسية على الخصوص. . . جميع الذين هم رهائن الماضي منا يجب أن يحولوا أنفسهم إلى رجال ونساء جدد سيصبحون أدوات مناسبة لإيجاد جنوب إفريقية الجديدة الرائعة التي من الممكن والضروري تحقيقها». تحدث بإيجاز بالأفريقانية وقدم معرفته الخاصة بالتاريخ الأفريقاني، مما ترك انطباعاً لدى وزير الخارجية بيك بوثا، الذي اجتمع إلى مانديلا لأول مرة.[8] تحدث دوكليرك عن «العملية التي لا يمكن التراجع عنها في التطبيع والتي بدأت فعلاً». وتبادل الفريقان الذكريات والنكات: كان من الواضح أن الوزراء الأفريقانيين قد فوجئوا بطلاقة ومعرفة الزعماء السود، وشعر الطرفان (كما قال ثابو مبيكي) بالحمق لأنهما لم يتناقشا قبل سنوات، كما فوجئوا لأن «أياً ممن كانوا في الغرفة لم يكن له قرون». كانوا

جميعاً في المركب ذاته، كما قال بيك بوثا لوفد من المؤتمر الوطني الإفريقي، محاطون «بسمك القرش عن يمين وعن يسار». تأثر دوكليرك لاكتشافه أن مانديلا كان مستمعاً جيداً ناقش قضيته وكأنه محام متدرب، مع أنه تشكى فيما بعد من أن مانديلا «قد لامنا بمنولوجات طويلة مفعمة بالاتهامات المضادة»؛ قرر أن مانديلا قد «روعته تجربته، وأنه ليس لديه رؤية حقيقية للمستقبل». [9]

بعد ثلاثة أيام من المحادثات وافق فريق الحكومة على إيجاد مناخ سلمي للمفاوضات من خلال إطلاق سراح سجناء سياسيين، وإلغاء قوانين القمع وحالة الطوارىء. هذه القرارات أعلنت في «محضر غروت شور». ودعاها دوكليرك «بالخطوة الكبيرة إلى الأمام»، وقال مانديلا إنها كانت «تحقيقاً للحلم». «لقد سرنا في هذه المناقشات على أنه يجب أن لا يكون هناك فائزون وخاسرون» قال مانديلا: «نحن جميعاً منتصرون - إن جنوب إفريقية منتصرة». لكن توجب عليه أن يذكر الحكومة أن التمييز العنصري ليس ميتاً. وأنه هو لا يتمتع حتى ذلك الوقت بحق الاقتراع.

استمر مانديلا وزعماء المؤتمر الوطني الإفريقي بالشعور بالحاجة إلى الحفاظ على قوة مسلحة في جنوب إفريقية كنوع من سياسة «الأمان» إذا ما انهارت المفاوضات. بقيت الوحدة العسكرية لـ «عملية فيولا» سليمة لم تمس. (انظر الصفحة 384) يرأسها ماك ماهاراج وسيفيوي نياندا (غيبوزا): كانا قد حافظا على الاتصال مع مانديلا في السجن، وبعد إضفاء الشرعية على المؤتمر الوطني الإفريقي انضمت إليهما روني كارسيلز المغامرة. لكن بعض الناشطين من الفيولا كانوا قد أصبحوا راضين منذ أن أصبح المؤتمر الوطني الإفريقي شرعياً، وكانوا يشعرون أن زعماءهم قد تجاهلوهم. أما الرفاق السريون في دوربان فكانوا عديمي الاهتمام بالأمن، حيث أبقوا السجلات السرية على أقراص الكومبيوتر. اعتقلت الشرطة اثنين منهم بمحض الصدفة، وانتزعت معلومات عن مكان اجتماع سري، حيث نصبت كمائن لآخرين، وأغارت

سريعاً على منازل فيولا في جوهانسبورغ. ولدى معرفة زعماء فيولا بالكارثة نقلوا أسلحتهم بسرعة وكذلك مخابئهم وتجهيزاتهم إلى أمكنة أكثر أمناً. لكن في 25 تموز (يوليو) اعتقلت الشرطة ماك ماهاراج وآخرين، متهمة إياهم بالتآمر للإطاحة بالحكومة. أدلوا بتفصيلات رهيبة، تذكر بمحاكمة ريفونيا، عن شبكة سرية تهدف إلى تجنيد، وتدريب وقيادة وتسليح جيش «شعبي» أو «ثوري»، لاستخدامه للاستيلاء على السلطة من الحكومة عن طريق العصيان المسلح.[10]

رأى دوكليرك في ذلك ذخيرة قوية ضد مانديلا، عارضاً الثوريين والشيوعيين بوصفهم ما زالوا قوة شريرة؛ وكان يأمل بدق إسفين بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي لجنوب إفريقية. قرأ تقارير البوليس لمانديلا، وأصر مجدداً على أن سلوفو يجب استبعاده من فريق المؤتمر الوطني الإفريقي، مدعياً أنه كان في اجتماع سري للحزب الشيوعي في تونغات في أيار (مايو). كان مانديلا عارفاً «بعملية فيولا» ـ التي وفرت في السابق روابط اتصاله مع تامبو، وكان قد التقى ماهاراج وجهاً لوجه في اجتماعات سرية. لكنه أخذ في البداية على حين غرة بمدى اتساع العمليات التي كشفها دوكليرك. كان سلوفو قادراً بسرعة على البرهان على أنه لم يكن حاضراً في اجتماع تونغات: أظهر جواز سفره أنه كان في لوساكا في ذلك الوقت. وال «جوي» الذي قيل إنه كان موجوداً لم يكن هو، بل سيفيوي نياندا. أصر مانديلا على أن يبقى سلوفو ضمن فريقه، وجادل بأن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يمكن نزع سلاحه في حين تنشر الحكومة وحداتها المسلحة الخاصة بها ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. استمرت الشرطة في التفتيش بحثاً عن مشبوهين آخرين من الفيولا بمن فيهم مكسريلز، الذي أُعلن أنه «مسلح وخطير». لكن مخابىء السلاح بقيت دون اكتشاف. في النهاية، في آذار (مارس) 1991، مُنح ماهاراج والآخرون العفو، وسقطت القضية ضدهم.[11]

أعطت القضية دوكليرك أيضاً معلومات حاسمة عن استراتيجية التفاوض

عند المؤتمر الوطني الإفريقي. فقبل اعتقال ماهاراج مباشرة، في 19 تموز (يوليو)، اقترح جوي سلوفو على الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي أن عليهم أن يعرضوا وقف الكفاح المسلح في الاجتماع المقبل مع الحكومة. كانت تسوية تاريخية - ولا سيما أنها أتت من زعيم الـ MK - تهدف إلى مفاجأة دوكليرك، وانتزاع تنازلات كبيرة. كان مانديلا مرتاباً في البداية، لكنه ناقش ذلك طوال الليل، وبعد الكثير من تحليل الذات وافق في الصباح، وحمل معه الهيئة التنفيذية بالإجماع. لكن الشرطة وجدت وثيقة مكتوبة بخط اليد في حقيبة ماهاراج تلخص الاستراتيجية، مما أعطى دوكليرك الوقت لتهيئة الرد.[12]

اجتمع مانديلا وفريق المؤتمر الوطني الإفريقي مع الحكومة في بريتوريا في 6 آب (أغسطس). ووعد مانديلا بوقف فوري لإطلاق النار. ومن جهته وعد دوكليرك بإطلاق سراح السجناء السياسيين والعفو عن المنفيين المتهمين بجرائم سياسية. وافق الطرفان على «محضر بريتوريا» الذي أعلن أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يوقف جميع الأعمال المسلحة فوراً. لكن دوكليرك - الذي حُذر مسبقاً بشأن استراتيجية المؤتمر الوطني الإفريقي، أدخل إشارة إلى «النشاطات ذات الصلة»، التي تمنحه فائدة في المفاوضات فيما بعد.[13] مع ذلك، حقق عرض المؤتمر الوطني الإفريقي مما كان يأمل به مانديلا وسلوفو: اختراقاً في المأزق.

لم يكن عرض المؤتمر الوطني الإفريقي بوقف إطلاق النار كريماً كما كان يبدو. ففي كانون الثاني (يناير) 1990، اعترف ألفريد نزو أمين السر العام علناً: «ليست لدينا القدرة داخل بلدنا لتعميق الكفاح المسلح بأية طريقة ذات معنى».[14] ومانديلا بوصفه القائد الأول للـ MK آمن بالأهمية الرمزية للكفاح المسلح، على الرغم من أنه اعتقد «أن له شعبية بغض النظر عما حققه على الأرض». قال فيما بعد: «لم يكن لدينا أي اعتقاد خاطىء بأن سيكون في مقدورنا تحقيق نصر عسكري ضد هذا النظام».[15] لكنه لن يستبعد النشاط

السري. وقد رسم تمييزاً مشوشاً بين «العمل» و«الكفاح»: «لقد أوقفنا العمل المسلح، كما شرح في تموز (يوليو) 1991»، «لكننا لم نضع حداً للكفاح المسلح، سواء أكان داخل بلادنا أم خارجها. وشرح سلوفو فيما بعد أن النشاطات السرية ستتم المحافظة عليها إلى أن يصبح التغيير لا رجعة عنه، وهذا شرط قبله دوكليرك سراً.[16]

غضب الرفاق الشباب الناشطون لوقف الكفاح المسلح مقابل تنازلات ضئيلة؛ وكانت مجموعة كبيرة ليست قابلة لفكرة المفاوضات بأكملها. وكان خمسة وعشرون سجيناً في روبن آيلاند ما زالوا رافضين العرض بالعفو، وأصروا على أنهم لن يغادروا قبل تحقيق انتصار على أرض المعركة. توجب على مانديلا العودة إلى الجزيرة في نيسان (أبريل) 1990 لإقناعهم بصعوبة بقبول عرض الحكومة.[17] وعلى البر الرئيسي بذل المؤتمر الوطني الإفريقي جهداً كبيراً لإقناع أعضائه الأكثر ثورية بالتحول من إطلاق النار إلى التحدث، وأعلنوا شعار «المفاوضات هي كفاح» على القمصان وواجهات السيارات، ونشروا إعلانات صحفية أعلنت أن الـ MK لم يتم حله.

أثار محضر بريتوريا موجة من التكهنات حول تواطؤ مانديلا الواضح مع دوكليرك، واعترف مانديلا على التلفاز «إننا شرعنا فعلاً بشكل من أشكال التحالف». ودارت الشائعات التي تفيد أنه سيشارك في الوزارة.[18] إلا أن التفاؤل كان قصير الأمد وغير ناضج إذ أصبح مانديلا عديم الثقة أكثر فأكثر بـ دوكليرك، الذي كانت له استراتيجيته الخاصة لإضعاف المعارضة السوداء، وكان بإمكانه التلاعب بمشكلات مانديلا الخطيرة مع حلفه بالذات، كان يتشكى من أن «المؤتمر الوطني الإفريقي لديه مقدرة محدودة جداً لضمان أن مؤيديه وكوادره تحترم التعهدات التي أعطاها».[19]

صار المؤتمر الوطني الإفريقي حزباً ثورياً إلى حد ما منذ ذلك الوقت. فهو ما زال متحالفاً مع الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية؛ الذي اعتبر مجدداً

حزباً شرعياً وذلك قبل اجتماع بريتوريا، وتم ذلك على مدرج سوويتو في 29 تموز (يوليو) بحشد بلغ حوالى 50,000. رأت الصحافة البيضاء في تلك الانطلاقة شؤماً أكبر في ضوء انكشاف عملية فيولا (التي اعتبرت مؤامرة شيوعية، مع أن فيولا كانت من اختراع المؤتمر الوطني الإفريقي وليس الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية). خطب مانديلا في الحشد، مرحباً بالحزب الشيوعي الجنوب إفريقي «كصديق يمكن الاعتماد عليه، وهو يحترم استقلال سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي»، وأصر على أن الحزب لم يسع أبداً من خلال تجربته «إلى فرض وجهات نظره على المؤتمر الوطني الإفريقي». كان انبعاثاً مشهدياً؛ في الشهور الخمسة عشر التالية سيصل عدد أعضاء الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية إلى 25,000 - في وقت كانت فيه الأحزاب الشيوعية عبر العالم في حالة انحسار. كان الالتزام الأيديولوجي للحزب الشيوعي لجنوب إفريقية غامضاً؛ أحدهم دعاه «الحزب الخجول فيما يتعلق بالشيوعية».[20] لكن كان لديهم سجل بطولي في مقارعة التمييز العنصري - كانوا يؤمنون بالتعددية العرقية إيماناً يفوق في أصالته أي حزب شيوعي آخر في العالم - في حين وفروا قضية ثورية للناشطين الشباب في المناطق. إن عودة ولادة الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية كحزب شعبي أوصلهم بشكل محتوم إلى التنافس مع المؤتمر الوطني الإفريقي، بعد نفوذهم ومبادلاتهم المتكتمة بدرجة أكبر في الماضي، وأصبح مانديلا بسرعة ناقداً لهم أكثر فأكثر. قال بن تيوورول المطّلع السابق في الحزب: «لقد ارتكبوا غلطة فادحة، في محاولتهم أن يصبحوا حزباً جماهيرياً».[21]

استمرت الحكومة، ومعظم الصحافة البيضاء، في إبراز الشر الشيوعي؛ لكن كان من الأصعب جداً الإيمان «بالهجوم الضاري» على مستوى العالم منذ انهيار الأنظمة الشيوعية في روسيا وأوربة الشرقية. وحذر مانديلا بريتوريا من أن تحاول إعاقة المفاوضات «عن طريق إثارة هيستيريا مضادة للشيوعية» في الحقيقة

كان من السذاجة مساواة الشيوعية في جنوب إفريقية بالمقاومة المتصلبة كما أظهر جوي سلوفو. قال مانديلا فيما بعد: «كان الشيوعيون هم الذين برزوا في النهاية بوصفهم الأكثر اعتدالاً».(22)

ما زال مانديلا يواجه مشكلات كبيرة في توحيد المؤتمر الوطني الإفريقي، وفي إقناع الجميع بالمفاوضات والمصالحة. بقيت زعامته الشخصية سالمة لم تهاجم ومرعبة؛ كان على أصدقائه تشجيع الأعضاء الأصغر على التحدث معه.(23) إلا أنه واجه أصعب مهمة له في محاولة تأليف حزب موحد من عدة فروع كان يفصلها عن بعضها الحظر المفروض عليها لمدة ثلاثين عاماً؛ وقد أمضى وقتاً طويلاً في تأسيس علاقته بالذات مع الهيئة التنفيذية الوطنية، بوصفه رجل دولة أكبر سناً أبقى مسافة بينه وبينهم، في حين تدخل في القضايا الحاسمة.

جميع الشكاوى بشأن اعتدال المؤتمر الوطني الإفريقي برزت إلى الواجهة عندما عقد «مؤتمراً استشارياً» حضره 1,600 عضو في جوهانسبورغ في كانون الأول (ديسمبر) 1990. كان تامبو قد عاد إلى جنوب إفريقية، حيث ما زال بحالة وهن بسبب السكتة الدماغية، ليفتتح رسمياً المؤتمر رئيساً. ألقى كلمة جريئة، وافقت عليها الهيئة التنفيذية الوطنية، قائلاً: إن على المؤتمر الوطني الإفريقي أن يخفف من تأييده العقوبات الشاملة؛ حذر من أن الدول الغربية كانت تتراجع أصلاً عن العقوبات، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يمكنه تحمل تحييده في الخارج. لكن الناشطين لم يقبلوا بذلك، وأصر المؤتمر على العقوبات، حتى ولو لم يتم فرضها.

حيَّا مانديلا زعامة تامبو للمؤتمر الوطني الإفريقي، خلال سنيه الحالكة، لكن تُرك له أن يجمع شمل المؤتمر. امتدح بلباقة جميع تشكيلاته المختلفة؛ فدائيّي الـ MK الذين ملأتهم بالعزم والتصميم سُنِيٌّ من الخبرة في المعارك والتضحيات، السجناء القديمي العهد، الذين تربوا على الصبر والمواظبة،

المنفيين «بمستواهم العالي من التدريب السياسي» والزعماء داخل البلاد، بتجربتهم في التعبئة الجماهيرية «الذين ربما كانوا الأكثر تساوقاً في المزاج الشعبي».[24] لكن التوترات كانت واضحة؛ إذ رفض الناشطون الداخليون الأصغر سيطرة المنفيين الأكبر سناً من لوساكا، في حين ادعى كل فريق شرف النصر.

كان مانديلا يظهر نفسه كزعيم محافظ ومعتدل أكثر مما توقعه الرفاق الشباب، فهو رجل مختلف جداً عن الثوري الفج الذي كان في السجن بوصفه زعيم جيش الفدائيين. وقد واجه انتقاداً صريحاً من المندوبين لفشله في التشاور معهم خلال محادثاته مع الحكومة. في كلمته الختامية وعد أن «الزعامة قد تبنت مبدأ أنهم خدم الشعب» لكنه تألم لأنه «لم تكد تكون هناك كلمة مديح» للهيئة التنفيذية الوطنية، وقد رفض انتقاد الذين اعتقدوا أنه يستطيع التفاوض بلا أية سرية قائلاً عنهم: «لا يفهمون طبيعة المفاوضات».[25]

بعد ذلك بستة أشهر، في 2 تموز (يوليو) تعرضت سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي لردود أكثر ضراوة في مؤتمرها الوطني الكامل في دوربان - وهو الأول داخل جنوب إفريقية منذ أكثر من ثلاثين عاماً - وبمندوبين فاق عددهم الألفين. كان هدف مانديلا الرئيسي هو إعداد الطريق أمام تسوية سلمية وحل وسط، وذلك لتوجيه طاقات الناشطين إلى المحادثات، وليس إلى الحرب. ووصف المفاوضات بأنها «استمرار للكفاح المؤدي إلى هدفنا المركزي؛ نقل السلطة إلى الشعب». وحذر من أن الفترة القادمة للنقل ستكون «من الفترات الأكثر صعوبة وتعقيداً وتحدياً في حياة منظمتنا بأكملها».

لكن بعض الأعضاء الأصغر كانوا فاقدي الصبر أمام رأيه المحافظ، أو شعروا أنه كان يخون الثورة. كما أنه لم يرحب دوماً بالانتقاد. عندما اقترح نسبة 30٪ من الهيئة التنفيذية للنساء، جادل تيرور ليكوتا، حليفه القديم في روبن آيلاند. جادل بقوة ضد «الرمزية». رد مانديلا بغضب، قائلاً إنه كان

بإمكانه بحث الموضوع في روبن آيلاند. قال ليكوتا فيما بعد: «علّمنا مانديلا أن الجدل لا يعتبر علامة لعدم الاحترام أو التحدي». [26]

توجب على مانديلا أن يتعامل مع حزب سياسي غير منظم. كان معرضاً للهجوم من جديد بسبب عدم كفاءته. تساءلت الجوهانسبورغ صنداي تايمز «هل يوجد المؤتمر الوطني الإفريقي ـ منظمةً ـ في غير مجال فن الخطابة والعناوين الرئيسية؟»[27] كما أن ألفريد نزو أمين السر المتقاعد أبلغ انتقاده المدمر بالذات والذي تم تسريبه بطريق الصدفة؛ إننا نفتقد إلى المشاريع والإبداع والمبادرة. نحن نبدو سعيدين جداً في البقاء مصنفين ضمن حدود فن البلاغة والرَّوْسَمْ (الكليشيه) الشعبيتين». [28] أصر مانديلا على أنهم يجب أن يكونوا «قاسين قساوة مطلقة» بخصوص مواطن ضعفهم، وكان قلقاً بصورة خاصة بشأن فقدان الاتصال الفعال بين المؤتمر الوطني الإفريقي ومجموعات الأقلية. لكنه وعد «ببناء منظمتنا كقوة عسكرية قوية ومجهزة جيداً». [29]

كان الرعيل القديم هو الذي ما يزال يسيطر على المؤتمر الوطني الإفريقي، بمن فيه مانديلا، وتامبو وسيسولو؛ كانت آخر انتخابات من أجل الهيئة التنفيذية الوطنية قد جرت عام 1985، لكن كان هناك ثلاثة متبارين أصغر يتنافسون على الزعامة المستقبلية، وكل منهم من مسرح منفصل للنضال؛ كريس هاني قائد الـ MK، ثابو مبيكي الذي كان مستشار تامبو الرئيسي في المنفى، وسيريل رامافوزا، رئيس اتحاد عمال المناجم. عندما اقترح المندوبون على أمين السر الذي سيخلف نزو فاجأوا الكثيرين من الناس باختيارهم رامافوزا، الذي كان قد انتقد ويني صراحة، والذي لم يكن مقرباً من مانديلا آنذاك: قبل إطلاق سراح مانديلا كان رامافوزا قد قال عن وضعه: «ليس مختلفاً عن وضع أي عضو آخر في المؤتمر الوطني الإفريقي». [30] وبوصفه من نقابات العمال فقد أظهر شجاعة ومهارة في آن واحد كمفاوض. كان بإمكانه أن يسحر معارضيه بصوته الرقيق، وعينيه الودودتين، وابتسامته العريضية في حين أنه لم

يغب هدفه عن ذهنه بتاتاً؛ وقد أوجد الحالة الدرامية الخاصة به - فقد أُلهم لأن يصبح نقابياً عمالياً برؤيته سيلفستر ستالون في فيلم إف. آي. أس. تي. اعتقد مانديلا أنه «جازم جداً لكنه ديبلوماسي بالولادة»؛ وبرهن على أنه لا غنى عنه في المفاوضات التي تلت.[31]

أعاد المؤتمر الوطني الإفريقي تأسيس نفسه، رغم كل تكهنات وسائل الإعلام عن الانقسامات. قال سيسولو: كانت «وحدة في الزعامة لم يسمع بمثلها في أي مكان، في أي جزء من العالم».[32] ضمت الهيئة التنفيذية الجديدة المؤلفة من خمسين شخصاً قسماً شاملاً من العروق، بمن فيهم الهنود، وسبعة ملونين وسبعة بيض. وتشكى الليبراليون البيض من أنهم استبعدوا وأن الأعضاء البيض كانوا جميعاً من الشيوعيين؛ لكن الشيوعيين وحدهم هم الذين وقفوا إلى جانب المؤتمر الوطني الإفريقي خلال مراحل النضال بأكملها.

انسحب تامبو من الرئاسة، وانتخب مانديلا خلفاً له بالإجماع. قال فيما بعد: «لم أنظر إلى نفسي كزعيم إلى أن تم انتخابي. والآن أصبح ذلك ما يجب القيام به».[33] في الحقيقة رأى معظم الناس أنه الزعيم الحقيقي. وكانت هناك مخاوف من أنه ربما يصبح أوتوقراطياً من غير وزن تامبو المقابل. لكن مانديلا عبر عن إجلال بليغ لتامبو بوصفه الموحد الحاسم للحزب؛ لقد «مهد الطريق إلى الأمام بالذهب، ذهب إنسانيته، ودفئه، وروحه الديموقراطية، وتحمله وفوق كل شيء ألمعيته الفكرية، التي فاقت دهاء العنصريين في النهاية في هذا البلد». وبقي مانديلا متأثراً بعمق بتراث تامبو بشأن المصالحة والإجماع.

كان مانديلا يشرف على منظمة أكبر بكثير مما حلم بها سابقوه أمثال لوثولي أو كزوما؛ ومنذ عام 1991 انتقل المؤتمر الوطني الإفريقي إلى شل هاوس، وهو مجموعة برجية في وسط جوهانسبورغ. وأصر مانديلا على أن يكون سيسولو وتامبو في الغرف المجاورة له. وكان السبعينيون الثلاثة ينتقلون بانتظام داخل وخارج مكاتب كل منهم، وهم قريب بعضهم من بعض كما كانوا

في حملة التحدي قبل أربعين عاماً. كان تامبو أكثر فلسفية من مانديلا بشأن سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، في حين ظل سيسولو يقيّم مانديلا كمعلم مع تلميذ («إنه يفعل أفضل مما كنت أتوقع»).[34] إلا أنهما كانا مستشارين خلفيين، في حين كان مانديلا نجم الأداء، وتجسيد السياسة. اختار ثلاث نساء قويات لإدارة مكتبه: «ليس من المفيد لزعيم أن يحيط نفسه برجال يقولون دوماً نعم».[35] ساعدت فرين جينوالا على إعادة تنظيم منظمته قبل أن تدير قسم الأبحاث، في حين أدارت باربارة ماسيكيلا مكتب الرئيس ومعها جيسي دوارت. لقد عملتا ضمن جدول أعمال قاسٍ. قال مانديلا مازحاً: «أعتقد أحياناً أنه كان لديّ حرية في السجن أكثر مما لدي في المكتب». وجد من الصعب العمل ضمن (بيروقراطية)، وعامل مكتبه وكأنه بيته، مع اعتبار موظفاته كبناته. كان يطلب طعام الغداء إلى المكتب في كثير من الأحيان، ويعد العملة بعناية، ويمضغ الذرة بسرور الأطفال. كان مثابراً على دقة المواعيد بعد نظامه في السجن، مصمماً على رفض النكات عن «الزمن الإفريقي»: لقد أصر على أن «التأخر هو إشارة عدم احترام للآخرين»[36] لكنه كان يتجنب أحياناً أمينات سره عند لقائه الأصدقاء القدامى في الممر ويستمر في الحديث، أو يعطي الزوار رقم هاتفه السري في المنزل؛ بعد سني العزلة التي قضاها، كان يستمتع بالوجوه الجديدة، وبدا أنه يعطي انتباهاً خاصاً لأولئك الذين لم يدفعوا بأنفسهم إلى الأمام؛ كان يسعى في الاجتماعات وراء الأشخاص الهادئين في الخلف.[37]

كان موظفوه أشد قلقاً بسبب تصميمه المستمر على رؤية الجانب الأحسن في كل شخص، كما كان الحال في السجن. فإذا حذروه من أن زائراً ما كان فاسداً لا سبيل إلى تقويمه، كان يشعر بتحدٍ أكبر للبرهان على عكس ذلك. واستمر الزملاء في الشكوى من أن «ماديبا كان لطيفاً أكثر من اللزوم». وربما يؤدي ذلك إلى الخطأ في حكمه على شخص ما، وأنه كان مسايراً جداً

للمستغلين المقبولين ظاهرياً والـ wheeler-dealers. لكن كرمه كان يجعل الآخر أكثر كرماً في كثير من الأحيان، وربما كان يحوّل العداء إلى ولاء. وكانت ثورات غضبه المفاجئة ـ سواء حقيقية أم مُتكلفة ـ تثير الذعر. كان يمكن أن ينفجر غضباً وكأن كرامته قد أسيء إليها، أو عندما يشعر أن أحداً ما يتفضل عليه. لكنه بقي سياسياً بارعاً وبعيد النظر. وذا أعصاب لا تقهر. ويبدا أن الأخبار السيئة لا تثنيه، فهو يصنع نكتة منها، كما لاحظ أمناء سره، ويبقى شامخاً.[38]

ثقته بنفسه بدت من غير الممكن مهاجمتها: فحتى عندما يكون مرهقاً أو مكتئباً فإنه يرتب نفسه بعناية للترحيب بزائر؛ وهو يبقى مدركاً غريزياً لصورته، مع مشيته الأرستقراطية ولباسه الأنيق. قال ماسيكيلا: «إن ثيابه لم تكن هامشية بالنسبة إليه بل مركزية بالنسبة لحياته السياسية». وما زال يشعر ـ كما كان الحال في عقد الخمسين ـ أن «الثياب تصنع الرجل». ذات مرة في أوسلو أراد قبعة من الفرو، ووُضع أمامه عدد منها ليختار، إلا أنه لم يوافق على أيةٍ منها. واختفى فيما بعد من فندقه ليعود باختياره بالذات، قبعة على النمط الروسي ما زال يلبسها عام 1999. ساعده غروره على الاستمرار. كان يسعى وراء المجاملات (أنا رجل عجوز بشع)، لكنه كان يعلم أن حضوره الأنيق ربما يفوق حضور معظم السياسيين في العالم.[39]

هل يتطور مانديلا ليصبح (أوتوقراطياً) إفريقياً آخر، جامعاً السلطة حول نفسه؟ راقب الجنوب إفريقيون والأجانب العلائم بقلق. من المؤكد أن تامبو لديه تواضع أصيل. كان مانديلا يفتقده، وكان أقرب إلى أن يكون قديساً. كان تامبو محبوباً أكثر ضمن الهيئة التنفيذية الوطنية، فهو رصين أكثر، وأكثر ميلاً للاستماع إلى كل شخص، ولا تغيظه معارضته أبداً. عبر عن ذلك ألبي ساكس بقوله: «كان تامبو ديموقراطياً بالطبيعة، يتعين على مانديلا أن يتعلم».[40]

كان أسلوب مانديلا يزعج بعض موظفيه، وفي آب (أغسطس) 1991،

بينما كان مسافراً في الخارج، قيل إن هناك مؤامرة لتقليص سلطاته ووضع رامافوزا مسؤولاً عن المفاوضات مع الحكومة. تم إعداد خطة تنظيمية متقنة، تضع رامافوزا في الذروة بوصفه أمين سرٍّ عاماً، ومانديلا بعده؛ لكنها كانت غلطة، كما شرح مانديلا، قامت على تشابه خاطىء بالأحزاب الشيوعية في الخارج، حيث كان أمين السر هو الزعيم الأكثر أهمية. في الحقيقة لم تكن هناك مؤامرة أو تهديد جدي، والقصة تعاظمت بسبب معلومات خاطئة متعمدة، استخف بها مانديلا فيما بعد. لكن الهيئة التنفيذية وجدته يقظاً أكثر.[41]

إن أسلوب مانديلا الضخم يعود إلى أوَّليته في الزعامة وطفولته في الترانسكي، حيث كان يراقب الملك وهو يقرأ الأحكام على مرؤوسيه. اعتقد مراسل الواشنطن بوست وهو ديفيد أوتاواي أن مانديلا «لديه استبدادية تطابق زعماء القبائل التقليديين، وأنه يخفي توقاً سرياً لأن يعامل كزعيم».[42] بدا بالتأكيد وفي كثير من الأحيان أنه يستجيب لحاجة نفسية في الآخرين إلى ملك؛ لاحظ عالما الاجتماع آدم ومودلي «مطالبة بالملكية»، عندما كرس عمال صناعة السيارات السود وقتاً إضافياً بلا مقابل لتصنيع سيارة مرسيدس مترفة لمانديلا.[43] إن الأسلوب الضخم كان يضلل في أحوال كثيرة، ربما يبدو مانديلا أوتوقراطياً، لكنه يؤمن بعمق بالديموقراطية لقد بقي «عضواً مخلصاً ومنتظماً» للمؤتمر الوطني الإفريقي، وعندما تحدث عن «رؤسائه» لم يكن يمزح بالضرورة. لقد أسكتته الهيئة التنفيذية بقسوة، وتصريحاته المتناقضة عكست تحولاتهم هم بالذات وليس تحولاته هو. شرح عام 1994: «أشعر أحياناً أنهم مخطئون جداً، لكن يتعين عليّ احترام الأغلبية، يجب أن أذهب إليهم واحداً بعد آخر لإقناعهم».[44] كان قوياً جداً في الإقناع: إذ كان على حق ويعناد حول قضية ذات أهمية قصوى ـ مثل تشرشل وديغول ـ عندما كان الكثيرون على خطأ، ولديهم السبب الذي يجعلهم يؤمنون بصحة رأيه.

لكن مانديلا واجه عدة تحولات مؤلمة، في الوقت الذي ابتعد فيه

المؤتمر الوطني الإفريقي عن السياسات الثورية باتجاه الاعتدال والتسوية. كانت أصعب المجادلات تدور حول الملكية العامة والتأميم. وناقش من كانوا في روبن آيلاند التأميم نظرياً لسنوات عديدة، إلا أن الهيئة التنفيذية الوطنية تعين عليها الآن الموافقة على السياسات العملية التي يمكن تطبيقها سريعاً. ما زال مانديلا ينظر إلى التأميم بوصفه الوسيلة الواضحة للتخفيف من عدم المساواة، ولمنح سلطة اقتصادية للسود. وقبل أن يذهب إلى السجن عام 1962، رأى كيف أن حزب العمال البريطاني تبنى الفقرة الرابعة من دستوره، وآمن بالاستيلاء «على أعلى المناصب» عن طريق ملكية الدولة. وعندما تناقش معه السفير البريطاني روبن رينويك عام 1990، ضد التأميم أجاب: «لقد كانت فكرتك. كانت (موضة) آنذاك».[45] لم يتعرض مانديلا في السجن خلال عقدي السبعين والثمانين إلى خيبة الأمل مع ملكية الدولة التي تم الشعور بها في شتى أنحاء العالم؛ وكان بإمكانه رؤية كيف أن النقابات الجنوب إفريقية كانت تعمل بالتحالف مع حكومات التمييز العنصري.

عند إطلاق سراحه عام 1990، كان مدركاً أن جنوب إفريقية بحاجة ماسة إلى الاستثمارات الأجنبية لضمان النمو الاقتصادي وإيجاد المزيد من فرص العمل، ووعد بأن يشن حملة طلباً للمستثمرين حالما يتم إلغاء العقوبات. قال في شباط (فبراير) 1990: «متى تمت تسوية الوضع فإن الاستثمار في البلاد هو التطور الطبيعي، وهو ما نريده».[46] لكنه ـ وكما اعترف فيما بعد ـ كان بطيئاً في رؤية أن التهديد بالتأميم سيفزع المستثمرين الطويلي الأمد. لقد ذكر رجال الأعمال كيف أن الحكومات الأفريقانية استخدمت الصناعات المؤممة، بما فيها السكك الحديدية والفولاذ، والخطوط الجوية الجنوب إفريقية، لتعزيز وإغناء مواطنيها بالذات. لماذا يُمنع السود الآن من الاستفادة من الفرصة ذاتها[47]؟ لكنه في كل مرة كان يدعو فيها إلى التأميم كانت بورصة جوهانسبورغ تنخفض: خطبة واحدة خفضت مؤشر الذهب بنسبة 5٪.[48]

لقد أصبح أكثر مرونة، اقترح أن الكتل العشر المختلطة التي تسيطر على البورصة هناك حاجة لتأميمها، لكن يمكن أن تتحطم بالقوانين المقاومة (للتروستات) الاحتكارية. رجع إلى تفسيره الخاص مجدداً لميثاق الحرية، الذي يسمح لمجالات العمل الإفريقية «بأن تزدهر بصورة لم تكن عليها في السابق». وأصبح صديقاً لزعماء الأعمال بمن فيهم هاري أوبنهايمر، الرأسمالي الرئيسي. وطلب من هيلين سوزمان صديقته القديمة منذ روبن آيلاند أن تنظم غداء مع ملوك المال (حيث لاحظت) أنه قد سحر معظمهم». [49] حذروه من أن التأميم لا يعتبر الوسيلة لتوفير الثروة، كما أن عدة زملاء من المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم ثابو مبيكي طلبوا إلغاء الفكرة. لكن زملاءه الماركسيين كانوا في وضع المراقب؛ واستمر الرفاق الشباب في المناطق بمساواة الرأسمالية بالقمع.

إن وجهات نظر مانديلا ربما تكون مشوشة. ويدا أنه مرتاح مع أصحاب المصارف أكثر من ارتياحه مع نقابات العمال، ولم يبد اشتراكياً أمام الزوار الأجانب. قال الكاتب المسرحي آرثر ميللر، الذي أمضى وقتاً معه أواخر عام 1990 «إنه واحد من أشد المحافظين الذين التقيتهم. ولو أنه ولد في مجتمع سلمي لأصبح قاضياً». [50] لكن مانديلا ما زال يؤمن بمجتمع بلا طبقات، في حين أنه «مدرك بألم» للاتجاه المعاكس. [51] تطلع إلى وسائل لتخفيف عدم المساواة. وفي أيلول (سبتمبر) 1991 أبلغ رجال الأعمال أن التأميم وحده من شأنه تخفيف عدم التوازن، رغم أنه يرحب بأي بديل. إن الإشارات المشوشة عكست جدالات ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي كانت أكثر تطرفاً من تلك التي عصفت داخل الأحزاب الاشتراكية لأوربة؛ لأن جنوب إفريقية كانت قضية متطرفة منذ وقت طويل، بالنسبة إلى عدم المساواة والاعتماد على رأس المال الدولي.

في شباط (فبراير) 1992 فقط تمكن مانديلا من الذهاب إلى السوق الاقتصادية العالمية في دافوس، سويسرة، حيث تحول أخيراً ضد التأميم. احتفي به من قبل المصرفيين والصناعيين العالميين في مآدب غداء وعشاء. وتجادل معهم بأن الدول الصناعية الأخرى بما فيها بريطانية وألمانية واليابان احتاجت إلى صناعات مؤممة لاستعادة اقتصادياتها بعد الحروب العالمية. وشرح قائلاً: «إننا نسير عبر تجربة رضّية للحرب ضد الشعب، ولذلك فإننا بحاجة إلى التأميم». لكنه ظهر، كما تشكى أحد الاقتصاديين، وكأنه اشتراكي قديم حذر، وقد بزه دوكليرك وباثيليزي اللذين عبرا عن رأيهما بالذات في المؤتمر بخصوص المشاريع الحرة.

وأخيراً غير رأيه بسبب ثلاثة مندوبين ودودين من اليسار. فوزيرة الصناعة الهولندية كانت محبة ومتفهمة، إلا أنها سحقت وجهة نظره. شرحت قائلة: «انظر، هذا ما أدركناه آنذاك، لكن اقتصاديات العالم أصبحت الآن معتمداً بعضها على بعض. وإن عملية العولمة بدأت جذورها، ولا يمكن لأي اقتصاد أن يتطور تطوراً منفصلاً عن اقتصاديات الدول الأخرى». وأخبره زعماء من الدول الاشتراكية الرئيسية ـ الصين وڤيتنام ـ كيف أنهم قبلوا المشاريع الخاصة، ولا سيما بعد انهيار الاتحاد السوڤييتي. قال مانديلا متذكراً «لقد غيروا رأيي كلياً. عدت إلى الوطن لأقول: «أيها الرجال، ليس أمامنا خيار. إما أن نحتفظ بالتأميم، ولا نحصل على استثمارات. أو نعدل من موقفنا بالذات ونحصل على استثمارات». [52]

ما زال يتعين عليه مواجهة معارك في الوطن. فعندما عقد المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمراً اقتصادياً بعد ذلك بوقت قصير، اقترح التخلي عن خيار التأميم، لكنه اتُهم بخيانة ميثاق الحرية، وتوجب عليه سحب الاقتراح؛ كانت الجدالات العاطفية القديمة ما تزال موجودة ضمن الهيئة التنفيذية والمناطق.

ولم يقبلوا بسياسة أكثر اعتدالاً في خصخصة بعض الصناعات واستبدال التأميم ببرنامج إعادة البناء والتطوير الجديد حتى عام 1993 عندما كان المؤتمر الوطني الإفريقي يتطلع نحو الانتخابات. بقي مانديلا مصراً على إيمانه بالمجتمع اللاطبقي، لكنه قبل مع حزبه بأن جنوب إفريقية لا تستطيع الخروج عن السوق العالمي، الذي بدا فيما بعد وهو أكثر قسوة مما كانوا يتوقعون.

30

قوة ثالثة

بينما كان مانديلا يحاول توحيد حزبه وبث الاعتدال فيه، وإعداده للسلطة، تدمرت مفاهيمه بتصعيد مخيف للعنف السياسي. . فموجة القتل في عقد الثمانين اندفعت بسرعة بعد إطلاق سراحه، وعدم قدرته على منعها جدياً دمر مصداقيته زعيماً للمستقبل. لكن جوهر العنف كان من المستحيل التغلغل إليه، كما أن مستويات الدليل على ذلك سيتم اكتشافها تدريجياً فقط؛ ولم تتضح الحقيقة أكثر إلا بعد ثماني سنوات.

في البداية كانت معظم أعمال القتل مركزة في زوازولو ـ ناتال، أي المنطقة المركزية الفقيرة لشعب الزولو، حيث بدت البشاعات أسوأ ما تكون عليه في المناطق الريفية المحيطة المسالمة. وبين تموز (يوليو) 1990 وحزيران (يونيو) 1993، مات ما يعادل 101 شخص شهرياً في «أحداث ذات صلة سياسية»، في كوازولو ـ ناتال. ووصل العدد إلى 3653 قتيلاً.[1] ونظر معظم البيض إلى العنف بوصفه صراعاً قبلياً صريحاً بين المحاربين من الزولو والمتطفلين من الكزوسا الذين سعوا إلى السيطرة على الشعب من خلال المؤتمر الوطني الإفريقي. وبدا أن مفتاح السلام يكمن مع الرئيس باثيليزي وحزبه الإنكاثا من الزولو، الذي كان يوسع سلطاته. وكان بإمكان الإنكاثا المحافظة على التوازن في المفاوضات المقبلة، لأن حزب دوكليرك الوطني كان يأمل بوضوح بأن يجلبه، مع مجموعات أخرى قبلية، إلى جانبه ليتفوق على المؤتمر الوطني الإفريقي في الاقتراع.

كان مانديلا حريصاً وهو في السجن على البقاء على علاقة جيدة مع باثيليزي، وقبل إطلاق سراحه، كان قد أرسل له رسالة أخرى مطولة، حاثاً إياه على لقاء تامبو في لندن، كتب: «من خلال شخصيتي السياسية بأكملها، كانت هناك أشياء قليلة أحزنتني [أكثر] من رؤية شعبنا يقتل الفرد منه الآخر كما يحدث الآن».[2] كان تامبو وسيسولو ـ مثلهم مثل الزعماء الآخرين في المؤتمر الوطني الإفريقي ـ محترسين جداً من باثيليزي بعد تحولاته الماضية، لكن مانديلا احتفظ بعلاقته الرئاسية معه؛ لقد دافع عن باثيليزي لمقاومته ضغط الحكومة لتحويل زوازولو إلى بانتوستان منفصل، واعتقد أن بمقدوره إقناعه بالتعاون مع المؤتمر الوطني الإفريقي. قال سيسولو فيما بعد: «لا أعتقد أنه كان هناك من هو أكثر إقناعاً لباثيليزي من مانديلا».[3]

كان مانديلا يأمل بحدوث تقارب شخصي مع باثيليزي، رئيساً مقابل رئيس. وكلمه بالهاتف بعد مغادرته السجن بأسبوع، شاكراً إياه لرفضه التفاوض مع بريتوريا إلى حين خروجه وطالباً زيارته؛ بعد ذلك بأسبوع، ذهب مانديلا بجرأة إلى عرين الأسد، إلى معقل الزولو في دوربان ليخاطب حشداً من 100,000 شخص. جميعهم تقريباً من الزولو، وذلك في كينغ بارك. أراد أن يشاركه باثيليزي منبره، لكن زملاءه عارضوه، مما أثار غضب باثيليزي، اقترح مانديلا اجتماعاً مشتركاً في المستقبل، لكن الحشد أعطى «عدم موافقة بهدير مشؤوم».[4] ناشدهم مانديلا قائلاً: «خذوا بنادقكم، وسكاكينكم والـ pongas وألقوا بها في البحر»! لكنه تأسف لأن مناشدته «لم تلق آذاناً صاغية».[5] وبعد ذلك بوقت قصير ـ كما تبين ـ قدمت الشرطة سراً منحة بقيمة 120,000 راند إلى الإنكاثا لتمويل اجتماع حشدها المضاد بالذات.[6]

كان مانديلا يأمل أيضاً بالتعامل مباشرة مع ملك الزولو، ابن عم باثيليزي وهو غودويل زويليذيني، الذي كانت له روابطه الخاصة معه بوصفه المحامي السابق للبيت الملكي للزولو؛ لكن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن ليرضى أن

يجتمع به بلا زملائه، كما أصر الملك، وأي لقاء مع باثيليزي كان يلاقي الڤيتو من قبل الزعماء المحليين للمؤتمر الوطني الإفريقي وعلى رأسهم هاري غوالا، الزولو القديم الستاليني من روبن آيلاند، الذي هو الآن نصف مشلول لكنه ما زال متصلباً. يتذكر مانديلا في كثير من الأحيان أن «المؤتمر الوطني الإفريقي أراد أن يخنقني عندما ألمحت إلى باثيليزي». [7]

كان دوكليرك ينتقد مانديلا على الدوام لعدم اجتماعه بباثيليزي، الذي يقول إن سببه هو «موقف مانديلا المستبد». [8] هل كان بإمكان الزعيمين وقف المذابح؟ قال باثيليزي فيما بعد: «لو أنه كان لمانديلا طريقه لأصبح التاريخ مختلفاً»[9] وجاكوب زوما وهو زعيم زولو من المؤتمر الإفريقي في ناتال (الذي كان أيضاً في روبن آيلاند) اعتقد أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يرتكب خطأً فادحاً: «كان من الضروري لباثيليزي أن يشعر بالترحيب والعناق وأنه جزء من العملية. . . ربما كنا شهدنا نهاية المشكلة»[10] لكن العنف على الأرض كان له زخمه أصلاً، واعتقد الكثيرون من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي أن الصراعات يمكن حلها فيما بعد. كان ثابو مبيكي يجري اتصالات سرية مع زعماء محليين من الإنكاثا، ممن قابلوا المؤتمر الوطني الإفريقي في أيلول (سبتمبر)، لأول مرة منذ الانفصال بين المجموعتين عام 1979. أصر مبيكي على عدم وجوب اجتماع مانديلا وباثيليزي ما لم يكونا جزءاً من العملية؛ وكان مبيكي هو الذي سيضع الاتفاق في النهاية.

كانت أعمال القتل ما تزال تتصاعد، وتقترب أكثر فأكثر من حرب أهلية. في حين أن الشرطة ظهرت ظهوراً غريباً وهي رافضة للتدخل. قال تقرير للجنة العفو الدولية: «كانت الهجمات تشن صارخةً في وضح النهار، وبوجود الشرطة في كثير من الأحيان، وبمشاركتها مشاركة فعالة في بعض الحالات». انتشرت الهجمات أكثر فأكثر في تموز (يوليو) 1990، عندما أنشأ باثيليزي حزب حرية

الإنكاثا، بهدف جلب حزب الزولو إلى المسرح الوطني. أعلن: «إننا لن نسمح للمؤتمر الوطني الإفريقي وشريكه الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي بسحق المعارضة بأكملها والخروج بوصفه الحزب الوحيد القابل للحياة» وادعى حزب حرية الإنكاثا أنه جنّد 300,000 عضو في شهوره القليلة الأولى، وأنه سيصبح لديه قريباً 1,8 مليون عضو.[11] بعد وقت قصير من ذلك التاريخ، انفجرت أعمال القتل السياسي في الترانسفال، لا سيما في المناطق المدينية التي تحميها بريتوريا، مثل ويتووكر سراند، وفيرينايجنغ: قُتل 4756 شخصاً في «عنف ذي صلة سياسية»، في منطق بي. دبليو. في السنوات الثلاث التالية، حسب تقرير لجنة الحقائق فيما بعد ـ وهذا يفوق ما حدث في كوازولو ـ ناتال.[12] وكان من الصعب عدم ربط العنف بالطموحات الوطنية لحزب حرية الإنكاثا.

كانت النُزُل للجنس الواحد للعمال من الزولو في المدن الصغيرة هي مراتع العنف، وقد وقعت مذبحة شنيعة في سيبوكينغ جنوب جوهانسبورغ في 22 تموز (يوليو)، عندما جُمع المئات من الزولو من النُزُل للقيام بمظاهرة جماهيرية. ولدى توقع المشكلات، حذّر المؤتمر الوطني الإفريقي وزير القانون والنظام أدريان ڤلوك، الذي لم يقم بأي عمل، وهكذا تركت المعركة الناتجة ثلاثين قتيلاً معظمهم من المؤتمر الوطني الإفريقي. زار مانديلا سيبوكينغ في اليوم التالي، وشاهد الأجساد الميتة في المشرحة، وقد قطعت إرباً إرباً وشوهت. ألقى اللوم على دوكليرك أكثر من أن يلقيه على باثيليزي، وتساءل لماذا لم يفعل شيئاً؛ لكنه لم يتلق الرد المعقول.[13]

كانت أعمال القتل مشؤومة على الخصوص لأنها بدت وكأنها مؤقتة لتشويش المفاوضات. بعد ثلاثة أيام من توقيع مانديلا محضر بريتوريا مع دوكليرك في آب (أغسطس) عمت موجة جديدة من العنف عبر مناطق الترانسفال، مؤدية إلى مقتل ألف من السود خلال شهر. وبينما كان مانديلا

كانت مصداقيته تتدمر بالمذابح التي لم يكن بمقدوره السيطرة عليها بالتأكيد، وكان البي الجنوب إفريقيون يشيرون إلى عنف الأسود على الأسود «كعلاقة تشير إلى أن المؤتمر الوطني الإفريقي غير قادر على الحكم. ويبدو أن خطط ضباط الاستخبارات العسكرية لبث الانقسام بين صفوف المعارضة السوداء يبدو أنها بدأت تنجح. الكثيرون من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي بدوا الآن وهم يعتبرون باثيليزي عدواً لهم أكثر من دوكليرك.

بدت الشرطة عديمة الفعالية أكثر الآن، عندما بدأت العصابات المسلحة بمهاجمة القطارات الحاشدة التي نقلت العمال السود الذين يعملون بين سوويتو وجوهانسبرغ وفي أكثر المعارك وحشية في 13 أيلول قامت عصبة من الرجال المسلحين بالتسلق عبر العربات، وقتلت ستة وعشرين شخصاً وجرحت مائة. بالإجمال فإن 572 شخصاً قتلوا في عنف القطارات في السنوات الثلاث التالية - حيث ألقت لجنة الحقائق اللوم فيما بعد على الإنكاثا، والشرطة والجيش.[14]

رد المؤتمر الوطني الإفريقي على العنف عن طريق تشكيل العُصَب شبه العسكرية الخاصة به والتي سميت «وحدات الدفاع عن النفس»، وادعوا أنها تقوم على مجموعات محلية استجابة لـ «مطالب جذرية بالحماية ضد المذابح». لكن المؤتمر الوطني الإفريقي شرَّع الإمداد بالأسلحة الذي نظمه روني كاسريلز، عضو الهيئة التنفيذية؛ وإن وحدات الدفاع عن النفس التي كان هدفها الدفاع عن النفس، لم تكن تُراقب عن كثب؛ شرح كاسريلز فيما بعد؛ كان الوضع صعباً جداً في أوقات مشوشة أشد التشوش». هذا وستلقي لجنة الحقائق فيما بعد اللوم جزئياً على المؤتمر الوطني الإفريقي «للمشاركة في دوامة عنف في البلاد من خلال تشكيل وتسليح وحدات الدفاع عن النفس».[15]

صار مانديلا الآن قد أقنعته استخبارات المؤتمر الوطني الإفريقي أن الهجمات لم تكن من عمل مؤيدي الإنكاثا بكل بساطة، بل حرضت عليها ما

أسماها «قوة ثالثة» ضمن أجهزة الأمن التي كانت تحاول عمداً منع المحادثات مع الحكومة(*). وصار أقل مَيْلاً إلى التخلي عن الكفاح المسلح؛ في أيلول (سبتمبر) أبلغ مؤتمراً صحفياً أن المؤتمر الوطني الإفريقي ربما يتعين عليه الشروع بالقتال من جديد. وفي تشرين الأول (أكتوبر) حذر دوكليرك من أن الناس يلاحظون أن «هناك قوى مقربة منك، أيها السيد الرئيس، لها جدول أعمال مزدوج». في الحقيقة كان دوكليرك قد تم تحذيره قبلاً في كانون الثاني (يناير) 1990، من قبل وزير الدفاع ماغنوس مالان، بخصوص منظمة سرية إجرامية ضمن قوات الدفاع، تحمل الاسم الأورويلي: مكتب التعاون المدني؛ طلب دوكليرك إجراء تحقيق من قبل القاضي لويس هارمز الذي قدم تقريره في تشرين الأول (أكتوبر) 1990: لكنه كان دليلاً مموهاً يرفض الدليل على وجود فرقة قتل مقرها ڤلاكبلاس خارج بريتوريا، وهذا ما تبين فيما بعد أنه صحيح جداً. وجد مانديلا أن تقريرها رمز لا يمكن تصديقه، واعتقد أن دوكليرك والآخرين في الحكومة «اختاروا النظر إلى اتجاه آخر أو تجاهل ما عرفوا أنه يجري تحت سمعهم وبصرهم». بحلول نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) كان يتهم وكالات الاستخبارات بتنظيم «ذبح شعبنا»، كانت الاستخبارات الغربية قلقة أيضاً: عندما زار دوكليرك البيت الأبيض في أيلول (سبتمبر) 1990، قال الرئيس بوش سريعاً: «أنا قلق بخصوص... الدليل على وجود قوة ثالثة».(16)

اتسع الصدع بين مانديلا ودوكليرك. استمر مانديلا في مكالمة دوكليرك بالهاتف بمزاعم جديدة، وغالباً ما كان لا يصدق التفسيرات التي قدمت له.

(*) إن مصطلح «القوة الثالثة» قد استعمله مجلس أمن الدولة في عهد الرئيس بوثا في نوڤمبر (تشرين الثاني) 1985، عندما ناقش المجلس تأسيس وحدات قوة منفصلة تقوم بفرض الأمن الداخلي. لم توافق قوى الأمن ولا الدفاع على مهام هذه الوحدات، فأنشأ كل منهما فيما بعد منظمات منفصلة عن بعضها قامت بالمهمة بشكل فعّال. وبذلك استطاع الوزراء أن يدّعوا أن ليس ثمّة «قوة ثالثة». بينما كان مانديلا يتحدث عن قوى أقل تنظيماً من الناحية الرسمية.

اتهم دوكليرك مانديلا بالنفاق. مشيراً إلى أن لدى المؤتمر الوطني الإفريقي عدداً من المشاغبين ورفض تقريع مانديلا قائلاً: «سيد مانديلا، أنا لم أهتف إليك لأتلقى إهانة. إلى اللقاء»[17] شعر مانديلا بغضب أكبر منذ أن دعا دوكليرك في وقت سابق بوصفه «رجل التمامية» رغم نصيحة سيسولو وآخرون، حيث انتقده الناشطون على ذلك. قال سيسولو: «عندما يشعر بالخيانة من المستحيل إنهاؤه ضمن ذلك الخط». كان سيسولو أقل مفاجأة بتصرف دوكليرك، لأنه نظر إليه دوماً على أنه جزء من مكائد الحزب الوطني، لكن مانديلا أعطى دوكليرك موافقته الشخصية، التي سحبها الآن. في الحقيقة لم يبجِّل دوكليرك في أي وقت من الأوقات، كما بَجَّل ب. دبليو. بوثا؛ والآن أصبح عديم الثقة به كلياً.

كان دوكليرك يأمل بدعم باثيليزي كوزن معاكس ضد المؤتمر الوطني الإفريقي، لكنه كان يجده حليفاً أخرق. «خليط من التناقضات» يمكن أن يكون «عنيداً بتشبث، ونكداً بإحباط».[18] كان وزراء دوكليرك أيضاً يجدون باثيليزي متصلباً في أحوال كثيرة. تذكر وزير المالية السابق باريند دو بليسيز قائلاً: «أردنا تحالفاً مع الإنكاثا، لكن كان من المستحيل التعامل معه. فهو يوافق في أسبوع ما على شيء ما، وفي الأسبوع التالي يحدث إخفاق تام». قال وزير الخارجية بيك بوثا «كان باثيليزي يسبب لنا الكثير من المشكلات، والأوربيون والأميركيون هم الذين عززوه».[19]

مما لا شك فيه أن طموحات باثيليزي كان يتم تشجيعها علناً بالمجموعات اليمينية فيما وراء البحار. ففي أمريكة كانت مؤسسة التراث ومجموعات أخرى معادية للشيوعية ما تزال ترحب به بوصفه الأداة التي تعاقب شيوعيي المؤتمر الوطني الإفريقي، في حين أنه كان مدعوماً في ألمانية بمؤسسة كونراد أديناور وبعض رجال الأعمال الأغنياء. لكن بريطانية هي التي وفرت له معظم مؤيديه المتحمسين في زياراته الكثيرة. رأته السيدة تاتشر مجدداً مطلع

عام 1990، وذلك ضد نصيحة وزارة الخارجية. وامتدحته بوصفه «مناوئاً شجاعاً لانتفاضة العنف في جنوب إفريقية في حين أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يصادق على الثورة الماركسية».[20] لكن السياسة البريطانية تجاه الزولو كانت مشوشة. ما زالت السيدة تاتشر تجادل لصالح نوع ما من الحل الكونفدرالي القبلي، يعطي المزيد من الاستقلال الذاتي للزولو والقبائل الأخرى، في حين أن أصدقاءها اليمينيين كانوا يشجعون بدرجة أكبر تحدياً شبيهاً بالحرب بدا أنه يهدف إلى الانفصال.

كان لقبلية الزولو جاذبية خاصة لدى مجموعة من الأغنياء البريطانيين اليمينيين بمن فيهم السير جيمس غولد سميث وصديقه جون أسبينال، صاحب الكازينو وحديقة الحيوانات والذي اشترى ممتلكات كبيرة خارج كيبتاون وسمّى نفسه «الزولو الأبيض». في تموز (يوليو) 1990 كان باثيليزي المتحدث الرئيسي في لندن في اجتماع لمركز دراسات السياسة، الذي يعتبر مركزاً فكرياً مفضلاً لدى السيدة تاتشر، حيث حذر من أن ثوريي المؤتمر الوطني الإفريقي مصممون «على إيصال أنفسهم إلى السلطة»، وأبلغ البريطانيين أن عليهم «القيام بمهمة لم تنته بعد في جنوب إفريقية».[21] كان المتحدثون البريطانيون متحمسين أكثر. وتشكى الصحفي المحافظ بروس أندرسون من أن الزولو لم يكونوا عنيفين بدرجة كافية. وفي حين قال أسبينال إن جنوب إفريقية يجب تقسيمها إلى ما يزيد عن ثلاثين جزءاً قبلياً! فإن باثيليزي عدَّ هذا مبالغاً فيه جداً.[22]

بعد أربعة أشهر أقام أسبينال مأدبة لباثيليزي في لندن، لبحث موضوع الحياة البرية، ظاهرياً، حضرها محافظون أثرياء بمن فيهم غولد سميث، وجاكوب روتشيلد ومارك غوردون من جبهة الحرية الدولية التي كانت تشجع سياسة باثيليزي.[23] استمر أسبينال في لعب دور الزولو الأبيض؛ في أيار (مايو) 1991 عندما خاطب ملك الزولو 40,000 شخص في سوويتو، ألقى أسبينال كلمة «حذر فيها المؤتمر الوطني الإفريقي من أنه أيقظ عملاق

الزولو». [24] كان باثيليزي قد أصبح جالب الحظ لليمين المتطرف في بريطانية وأمريكة، مثل جوناس سافيمبي في أنغولا؛ إلا أن حماته لم يسعوا إلى ضبطه، ولم تكن لديهم خطة مرئية لإحلال السلام في ميادين المعارك الدموية.

في جنوب إفريقية، التقى مانديلا أخيراً بباثيليزي شخصياً في 29 كانون الثاني (يناير) 1991 بعد عام من مغادرته السجن. حافظ باثيليزي على تبجيل رئاسي لمانديلا، واصفاً إياه بأنه شخص أكبر، في التقليد الإفريقي. [25] تحدثا في الرويال أوتيل في دوربان لثماني ساعات واتفقا على تعزيز السلام، ووقف «الحديث عن القتل» وتأليف لجنة مراقبة مشتركة؛ لكن مانديلا فكّر فيما بعد أن الإنكاثا «لم تبذل أي جهد لتطبيق الاتفاق». [26] وفي الشهور الثلاثة الأولى من عام 1991، قتل أربعمئة شخص، معظمهم بعد اجتماع دوربان. كانت هجمات الإنكاثا على المؤتمر الوطني الإفريقي تستدعي ردوداً دموية أكثر فأكثر، وكان الطرفان يردان بأعمال الثأر: اعتبرت لجنة الحقائق فيما بعد أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان مسؤولاً عما يزيد عن ألف عملية قتل في كوازولو - ناتال، ودولة الأورانج الحرة، في حين ألقي اللوم على الإنكاثا بمقتل ما يقارب الأربعة آلاف. [27]

كان لدى مانديلا وباثيليزي أشياء كثيرة مشتركة؛ فكلاهما ينحدران من أوّليّة فخورة في الزعامة، وكلاهما تلقيا علومهما في فورت هير، ولديهما جاذبية واضحة يمكن أن تسترضي الزوار البيض. لكن باثيليزي بقي الزعيم القبلي أكثر بكثير، الذي تشغله تقاليد الزولو وطريقة المخاطبة الرسمية؛ لم يتوجب عليه في أي وقت من الأوقات أن يستسلم لمبادىء ديموقراطية الحزب؛ في حين أن داعميه فيما وراء البحار شجعوا قبليته. كانت أطواره تصبح غريبة أكثر فأكثر مع علامات تشير إلى جنون الاضطهاد حيث كان يرد بغضب شديد على الناقدين، بما فيهم الصحفيون، الذين بدؤوا يتحولون ضده (ربما هو السياسي الأبغض - على القارة الإفريقية - كما حكم ديفيد أوتاواي من الواشنطن

بوست).[28] وكان مانديلا يفقد الصبر تجاه مزاج باثيليزي الصعب التكهن به: فبعد لقاء ودي رجل ـ لرجل، عاد إلى كوازولو ليقوم بهجوم ضارٍ بلباسه القبلي. وفسر مانديلا ذلك بأنه يعود إلى فقدان الشعور بالأمان عند باثيليزي: لقد حرم من حب الأبوين وعطفهما عندما كان طفلاً، كما شرح، لذلك أصبح غير واثق من أنك ستبقى صديقه بعد مغادرته.[29] والآن جاء دور الزملاء مثل سيسولو لإقناع مانديلا بالاسترضاء.

في 1 نيسان (أبريل) 1991 التقى مانديلا بباثيليزي من جديد. وحذره من أن لدى الحكومة جدول أعمال خفي لبث الانقسام بين السود. لكن باثيليزي رفض الفكرة، كما شرح في رسالة سرية إلى مانديلا بعد ذلك بيومين: «أنا لا أصدق قط أن السيد دوكليرك يشرف على مادة تآمرية في توظيف قوات الأمن من أجل أن يزيد فرصة الرجل الأبيض في الاستمرار في السيادة علينا... هل أنت غير واثق حقاً بالسيد إف. دبليو. دوكليرك وحكومة جنوب إفريقية؟».[30]

لكن مانديلا كان عديم الثقة بـ دوكليرك فعلاً، وله بعض الحق في ذلك. في 5 نيسان (أبريل) بعد أن حذر مانديلا الهيئة التنفيذية، كتب المؤتمر الوطني الإفريقي إلى دوكليرك مهدداً بالانسحاب من المحادثات ما لم تطرد الحكومة الوزراء ورؤساء الشرطة المسؤولين عن العنف. قال مانديلا في مؤتمر صحفي: «في أي بلد آخر لا تُبقي الحكومة على الوزراء الذين كانت مكاتبهم مسؤولة عن مقتل الآلاف من الناس». وعندما رفض دوكليرك أعلن المؤتمر الوطني الإفريقي أنه سيلغي المحادثات ليشرع في عمل جماهيري، يبلغ ذروته في إضراب عام. آنذاك نظم دوكليرك مؤتمراً حول العنف رفض مانديلا حضوره قائلاً: إن دوكليرك يعرف أصلاً كيف يضع حداً للعنف. تشكّى دوكليرك فيما بعد بقوله: «إنه ما يزال يعمل ضمن الرؤية التي غذاها الكثيرون جداً من الثوريين، وهي أن امتلاك فعاليات الحكومة يساعد أولئك الموجودين في السلطة على تحقيق أية أهداف يريدونها».[31]

لقد لحق الأذى الآن بصورة مانديلا في الوطن والخارج وبدرجة خطيرة، إذ إنه ظهر وهو غير قادر على السيطرة على عنف «الأسود ضد الأسود». كتب الصحفي الليبرالي شون جونسون في أيلول (سبتمبر) 1990: «إن صورة المحرر العظيم قد تلاشت، ربما إلى الأبد». [32] «إن ما يقوله هذا الرجل المسكين يفسر في أسوأ ضوء ممكن». كما كتبت بيزنس داي «بلا أدنى اعتبار للخط السياسي الجيد الذي رسمه أو الضعف الموروث في موقفه». وعلى العكس من ذلك، فإن دوكليرك اعتبر في الخارج رجل دولة ذا سلطة متعاظمة اعتقد العالم السياسي ستيفن إليس فيما بعد أن «موقف دوكليرك الدولي كان أعلى من موقف رئيس أية حكومة أخرى في جنوب إفريقية منذ خمسين عاماً». [33] بدا وهو في سيطرة تامة، وفي نيسان (أبريل) 1991 قام بجولة أوربية ناجحة، مدعياً أن حكومته قد دخلت مجدداً إلى العالم المتحضر من خلال تفكيك التمييز العنصري، ومناشدة رجال الأعمال بالشروع باستثماراتهم من جديد؛ في لندن - كما قال - فإن السيدة تاتشر «فعلت كل ما بوسعها لدعمي». [34] وفي مأدبة غداء في داوتنغ ستريت أعجب وزير الخارجية دوغلاس هيرد «برجل حكيم وشجاع بدرجة مدهشة بعد أن فقد كل أوراقه الرابحة تقريباً». [35] وكتب هوغو يونغ في الغارديان: «إن ما يحتاجه السود هو زعيم كفؤ مثل دوكليرك». [36]

لكن كانت هناك روايات متزايدة في «الصحافة البديلة» الأكثر جسارة في جنوب إفريقية عن مؤامرات سرية، وبخاصة في الأسبوعية الأفريقانية فري ويكبلاد. وفي حزيران (يونيو) 1991 ادعى ضابط استخبارات عسكرية سابق تحرر من الوهم وهو الكابتن نيكو باسون، ادعى أن رؤساءه السابقين خططوا لزعزعة المعارضة السوداء بالعنف والخدع القذرة مثلما فعلوا في ناميبيا، وعلى رأسهم قائد قوات الدفاع كات ليبنبرغ. [37]

لا يمكن البرهان على صحة ادعاءات باسون، لكن في تموز (يوليو) 1991 كان هناك اختراق رائع. فقد حصل مراسل الغارديان في جنوب إفريقية

ديفيد بيريسفورد على بعض الوثائق السرية جداً من ضابط سابق في قوى الأمن أظهرت بوضوح أن الشرطة كانت تمد الإنكاثا بالمال، عن طريق حساب مصرفي سري في دوربان، وذلك بمعرفة باثيليزي. نشرت الغارديان القصة مع الـ ويكلي ميل في جوهانسبورغ التي أبرزتها في 18 تموز (يوليو): «الشرطة تدفع للإنكاثا لإحباط المؤتمر الوطني الإفريقي». نادراً ما كان لأية قصة إخبارية أخرى مثل هذا الوضع على حكومة ما. أجبر وزير الشرطة أدريان ڤلوك على الاعتراف بالدفعات، وبعد ذلك بعشرة أيام أزاح دوكليرك ڤلوك وماغنوس مالان وزير الدفاع من وظائفهما، مع احتفاظه بهما في وزارته. وفي الأسابيع التي تلت أظهرت الـ ويكلي ميل مفاجآت مدمرة أكثر عن تدريب القوات الدفاعية السري لقتلة لصالح الإنكاثا.[38]

هذه الفضائح بررت جميع شكوك مانديلا بخصوص وجود قوة ثالثة. ضعفت سلطة دوكليرك واعترف قائلاً: «مصداقيتنا قد تدمرت تدمراً خطيراً». وفي وقت متأخر «بدأ بالشك في أن بعض العناصر في قوى الأمن ربما كانت تستخدم نفوذها».[39] بعد ذلك بأسبوعين عين لجنة جديدة بإشراف القاضي ريتشارد غولدستون، كشفت بعد بداية بطيئة مؤامرات خطيرة بدرجة أكبر. أراد المؤتمر الوطني الإفريقي أن يدفع بفرصته إلى داخل الوطن عن طريق تصعيد العمل الجماعي. لكن مانديلا كان راغباً بالتفاوض برغم كل شيء، في حين نادى زعماء الكنائس ورجال الأعمال بالاسترضاء.

في أيلول (سبتمبر) 1991 عقد مؤتمر سلام وطني في فندق الكارلتون في جوهانسبورغ، حضرته أربع وعشرون هيئة سياسية وضم الزعماء الثلاثة الرئيسيين: دوكليرك، مانديلا، وباثيليزي. وقبل ذلك بثلاثة أيام عقد دوكليرك اجتماعاً عاصفاً مع مانديلا، حيث اتهمه بالقيام بهجمات علنية عنيفة، وتشكى من أن «عملية فيولا» ما تزال تسرب السلاح، كان المناخ مشؤوماً في اجتماع الكارلتون حيث كان المئات من مؤيدي الإنكاثا مسلحين «بالأسلحة التقليدية»

وهم يتظاهرون في الخارج دون أن تتدخل الشرطة. كانوا يضربون بأقدامهم ويتمنطقون بدروعهم. في نهاية المؤتمر اتفقت جميع الأطراف على عقد «اتفاق سلام وطني»، وعد «بالمساعدة بفعالية لإيجاد مناخ من التسامح الديموقراطي والامتناع عن التخويف والاتفاق على عدم حيازة. . . أي سلاح، محمولاً كان أم معروضاً أمام أي اجتماع سياسي». لكن الجموع المولعة بالحرب في الخارج لم تكن مشجِعة. وفي مؤتمر صحفي نقل عبر التلفاز فيما بعد، ندد مانديلا بعنف بـ دوكليرك لعدم تفريق الجموع، في حين رفض باثيليزي المشاركة في مصالحة ثلاثية مع الآخرين.[40] استمرت أعمال القتل مع إطلاق نار شامل بعد ذلك عدة أيام. واستمر مانديلا بالتحدث سراً مع دوكليرك لكنه صار الآن أقل ثقة به بكثير. في قمة الكومونولث في هراري في تشرين الأول (أكتوبر) 1991 قال إن دوكليرك: «أصبح رجلاً مختلفاً جداً عما كان عليه في البداية» واعترف «باحتمال وجود بعض السذاجة من جانبنا».[41]

خلال العام الذي تلا، برز الدليل أكثر فأكثر على وجود مؤامرات سرية وفرق قتل. ففي تشرين الثاني (نوفمبر) 1992 كشف القاضي غولدستون تفصيلات إضافية عن أعمال غير مشروعة قامت بها قوى الأمن، وفي الشهر التالي قدم الجنرال بيير ستين تقريراً إلى دوكليرك يفيد أن وحدات من الجيش عملت في السر لمهاجمة وتمزيق المؤتمر الوطني الإفريقي، وأنها ربما كانت متورطة في مذابح القطارات. ورد دوكليرك بإحالة ستة ضباط كبار إلى التقاعد، ثم عين ثلاثة جنرالات للتحقيق كانوا هم أنفسهم قد اتهموا بالتورط من قبل، وهذا عمل أسمته لجنة الحقائق فيما بعد «خطأ شنيع في الرأي».[42]

برز المزيد من الدلائل على وجود قوة ثالثة فيما بعد، مظهراً كيف أن الجيش درب القتلة سراً لصالح الإنكاثا، وكيف أن الشرطة شجعت المذابح من سيبوكينغ وأثارت المعارك القبلية. لكن القصة الكاملة لم تظهر أبداً. وكما جاء في تقرير لجنة الحقائق عام 1998 «فإن اللجنة لم تحرز تقدماً هاماً في كشف

القوى التي كانت تقف وراء العنف في عقد التسعين». رأت القليل من الدلائل على وجود قوة ثالثة موجهة مركزياً ومتماسكة أو مشكلة رسمياً. لكنها وجدت أن:

> شبكة من العاملين والعاملين السابقين في الأمن، والذين عملوا في أحيان كثيرة بالاتحاد مع عناصر يمينية و/أو قطاعات من حزب الحرية للإنكاثا - كانت متورطة في انتهاكات جسيمة للحقوق الإنسانية - بما فيها أعمال القتل العشوائية والمنظمة.[43]

كان من الواضح أن مجموعات من ضباط الجيش والشرطة كانت لهم برامجهم الخاصة للتحريض على العنف، مستخدمين في أحوال كثيرة التكتيكات المميتة ذاتها التي طبقوها في زعزعة استقرار دول مجاورة في عقد الثمانين، بهدف بث الانقسام بين المعارضة السوداء وإضعاف المؤتمر الوطني الإفريقي. وبعد عام 1992، عندما أصبحت الحكومة أكثر صرامة وجِديَّةً معهم، عمل الكثير منهم في أعمال خاصة في النهاية، حيث موّلوا أنفسهم عن طريق بيع الأسلحة أو المخدرات، وكانوا يعملون أحياناً مع عصابات إجرامية. وبينما بدأت الأحزاب الرئيسة بالتفاوض حول تسوية سلمية. كانت المجموعات السرية تؤسس شبكتها الخاصة بالفساد، والتي أصبحت مرتعاً للنشاط الإجرامي، وستكون أكبر مشكلة يواجهها مانديلا في السنوات التالية.

31

خروج ويني

خلال العامين الأولين من نيل حريته، وجّه مانديلا العديد من الضربات القاسية، في الوقت الذي ظهر فيه وهو عديم القدرة على السيطرة على العنف، الذي تسبب في موتٍ أكثر من أية سنة من سني التمييز العنصري. وكان يبدو أحياناً حذراً لدرجة تمنعه من إيصال البلاد إلى عصر جديد. وفي الوقت ذاته كان يواجه أزمة داخلية ضاغطة انكشفت انكشافاً مؤلماً.

بدا مانديلا خلال جميع لقاءاته العامة وأسفاره في شتى أنحاء العالم، أنه يتمتع بانسجام مثالي. وكانت ويني ما تزال جميلة جداً مع أنها في عقد الخمسين، بعينيها القويتين ذاتهما وحضورها الدافىء. وبالنسبة إلى الكثيرين كانت تتمتع بمصداقيات متساوية تقريباً مع زوجها في الكفاح، على الرغم من الاتهامات بخصوص مقتل ستومبي سيبي؛ هذا في حين أنه كان بمقدورها الوصول إلى أكثر مما كان في مقدور مانديلا الوصول إليه بالنسبة إلى النفوس الأصغر والأكثر راديكالية، وإلى المشردين والذين لا زعيم لهم على أطراف المجتمع. بدا الزوجان الشهيران وهما يدعم أحدهما الآخر بالتبادل؛ ويني بإمكانها أن تقود مانديلا بلباقة إلى الأصدقاء السياسيين، في حين كان هو حريصاً على تأمين احتياجاتها. وما زال يشعر بالذنب لأنها حملت الوطأة العظمى من أعباء الأسرة والاضطهاد السياسي. وكانت ممتنة لكل من وقف إلى جانبها.

القلائل جداً من الأصدقاء هم الذين رأوا الحقيقة وراء المظهر الكاذب الذي كشفه عام 1996 عندما أبلغ قاضي الطلاق أنه منذ مغادرته السجن: «فإنها لم تدخل غرفة نومي ولا مرة واحدة عندما أكون مستيقظاً». كان يحب أن يتناقشا في أكثر مشكلاتهما خصوصية وشخصية، كما أخبر القاضي، «لكنها كانت ترفض على الدوام. إنها من نوع الأشخاص الذين يخشون المواجهة».[1] أكدت ابنتهما زندزي: «إنهما لم يستطيعا أبداً مناقشة أمورهما، فمنذ اليوم الذي أصبح فيه والدي حراً، كان علينا أن نتقاسمه مع باقي العالم».[2]

إن ويني مانديلا المثالية (أو زامي كما دعاها) كانت مفعمة بالضياء من خلال رسائله في السجن، إلا أن ذلك المثل الأعلى تلاشى سريعاً في الحياة الواقعية. في حين بدت صورته العامة مختلفة جداً في الوطن. وكما قال هو ذاته «زامي تزوجت الرجل الذي تركها بسرعة، وأصبح هذا الرجل أسطورة؛ ثم عادت الأسطورة إلى الوطن وبرهنت على أنها رجل فوق كل شيء».[3] وكما أوضحت فاطمة مير: «في حين كانا معاً خلال انفصالهما، فقد بدءا لدى اجتماعهما باكتشاف كم أصبحا بعيدين أحدهما عن الآخر».[4]

كان مانديلا يبدو أنه ما زال مسحوراً بويني؛ إذ كان ينظر إليها دوماً، وعندما يكون بعيداً كان يهتف لها في كثير من الأحيان. كان الزائرون لبيتهما يروهما معاً، وهما يلهوان مع أحفادهما فوق السرير الواسع جداً. قالت فاطمة: «إن مانديلا كان بحاجة ماسة إلى ويني لتكون معه، ليحبها ويكون محبوباً من قبلها، ولتكون في البيت عند وصوله، أي بالمختصر لتكون زوجة بالمعنى المألوف».[5] لكن ويني لم تكن لديها النية بالهدوء والاستقرار في حياة عائلية هادئة، أو التخلي عن علاقاتها الوثيقة برجال آخرين.

كان عدم إخلاص ويني واضحاً جداً للصحافة. تساءلت صحيفة الستار بعد أسبوع من إطلاق سراح مانديلا: «كم سيطول بقاء صورة ويني المحتشمة؟» عندما أجرت مراسلة من صحيفة الدايلي ميرور اللندية مقابلة مع مانديلا في

نيسان (أبريل) 1990 في سوويتو عرفت كم كان محباً لويني، وكم كانت ويني عديمة الاستجابة وعديمة الصبر تجاهه. لكن صحيفة الميرور نشرت جزءاً مثالياً من حياتهما معاً.[6] لقد عاشت ويني في محيط مختلف جداً عن مانديلا، الذي لم يستطع الاستغناء عن عادته في السجن في الاستيقاظ باكراً جداً والنوم مبكراً؛ في ليلتهما الأولى بالذات معاً في سوويتو، لاحظ أحد الأصدقاء أن ويني تركت المنزل في الساعة العاشرة ليلاً، وعادت في ساعات الصباح الأولى. وما زالت ويني تفتح البيت أمام الشبان، الذين كانوا يهرعون بصورة مستمرة إلى الداخل والخارج. حاول مانديلا إبعادها عن ارتباطاتها مع المقاتلين الفدائيين والـ MK مدركاً أن معظم اتصالاتها كانت مشبوهة. لكنه لم يستطع السيطرة على نشاطاتها.[7]

لم يكن مانديلا على علاقات متوترة مع ويني فحسب. فوراء سهولة الوصول إليه، بنى حول شخصيته الخاصة جدراناً عالية عندما كان في السجن؛ وبدا وكأنه نوع من القضية المتطرفة لزعيم شعبي ترك حياته الخاصة وراءه: «لقد جمع بين الحماسة المتطرفة والحذر الذي لا يمكن اختراقه (كما وصف آرثر شليزينغر فرانكلين روزفلت).[8] وجد من الصعب الالتزام بالأصدقاء القدامى والأسرة في وقت كان فيه برنامجه المكثف يترك له القليل من الوقت للتأقلم والهدوء. قالت أمينة كشالية «لقد نسي كيفية التواصل، فقد تحدث إليّ في البداية وكأنه سجّان».[9]

أبناؤه وجدوه منعزلاً، وكانت ابنتاه الأصغر أقرب بكثير إلى أمهما. تذكرت ويني ما قالته لها زندزي بعد أسبوع من إطلاق سراح مانديلا: «مامي، تعلمين أننا كنا في حال أفضل عندما كان أبي في السجن، كان يمكننا الوصول إليه، والتحدث إليه كأب، والآن انتهى ذلك كله». وبعد ست سنوات كانت ويني ما تزال تتشكى؛ ما زال أولادي ينتظرون عودة أبيهم. إنه لم يعد أبداً،

حتى عاطفياً». لم يعد باستطاعته التواصل مع الأسرة كأسرة. «كان يتواصل مع الكفاح الذي كان حياته كلها». [10]

لم يصبح ولدا مانديلا الأكبران من زوجته الأولى إيڤلين، لم يصبحا أبداً قريبين من زوجة أبيهما. فابنه ماكغاثو، الذي هو في الناتال، ما زال يعاني صعوبة في الدراسة، في عقد الأربعين من عمره، وكان يرى والده في أحوال نادرة. وابنته الكبرى ماكي كانت تشعر بمرارة لأنه ليس لها والد، وأخبرت الواشنطن بوست في مقابلة قبل إطلاق سراح مانديلا مباشرة: أوحت أنه اختار عمداً أن يعتقل عام 1962[11]، ولم تشعر أن كوابحه قد تلاشت إلا بعد أن زارته في السجن في عيد ميلاده الواحد والسبعين، و«لأول مرة انفتح أمامي كأب». كانت ماكي تعيش في بوسطن عام 1990، وكانت متألمة بحق عندما زار مانديلا المدينة وطلب رؤية أحفاده، ولم يطلب رؤيتها؛ مع أنها تلقي اللوم في ذلك على ويني. وبعد عوة ماكي إلى جنوب إفريقية في تشرين الأول (أكتوبر) 1990، كانت ترى والدها بين حين وآخر، لكنها شعرت أنه لا يعرف كيف يتحدث إليها. قالت «كان الحال أفضل عن طريق الرسائل». مع أن رسائلهما كانت متكلفة أيضاً.[12] كان مانديلا يتذكر جيليان ابنة جوي سلوفو - التي عانت أيضاً من التزام والدها بالكفاح - وكيف أنه حاول عناق ماكي التي فرت بعيداً عنه. قالت لمانديلا: «أنت أب لشعبنا كله، لكن لم يتح لك الوقت أبداً لتكون أباً لي». [13]

بعد مضي بضعة شهور في المنزل الذي يشبه علبة الكبريت انتقل مانديلا وويني إلى المنزل الكبير في «بيفرلي هيلز» - وهو حي واسع جداً في سوويتو - الذي كانت ويني قد بنته خصيصاً لهم، حيث فيه سبع غرف نوم وغرفة اجتماعات ومائدة في غرفة الطعام تتسع لخمسة وعشرين شخصاً. قالت ويني: «هل ترون كم هو في مكانه الصحيح في هذا المنزل، وقد بنته له زوجته. بنته كله بنفسها». [14] لكن مانديلا كان يشعر دوماً بعدم الارتياح بخصوص ترف

المنزل، ويرهنت المحافظة عليه ـ بسرعة ـ أنها تشكل عبئاً مالياً ـ ولا سيما بعد تشرين الأول (أكتوبر) 1990 ـ عندما توقف أحد المانحين عن الدفع.[15]

عشية السنة الجديدة، نظمت ويني «ضربة السنة» في المنزل، بحضور خمسمئة من الضيوف كان من بينهم سيسولو وتوتو وسلوفو؛ إلا أن مانديلا ظهر وهو غير مرتاح، وألغى كلمة غير مناسبة للعيد، ناصحاً طلاب المدارس بوجوب العودة إلى المدرسة بعد العطلة. كانت ويني تحب أن تصور المنزل على أنه عش ـ حب أسري للأبناء ولستة عشر من الأحفاد ـ لكن القصص بدأت تظهر عن بيتها المتعثر فيما يخص العلاقة الزوجية بينها وبين مانديلا. كانت وسائل الإعلام قد بدأت بتصوير الزوجين الشهيرين بوصفهما ميلودراما وطنية. قالت فاطمة مير: تساءلت وسائل الإعلام «كيف يمكن لبطل يشبه القديس أن يعيش مع زوجة تشبه الساحرة؟» قال جون كارلن من صحيفة الأندبندنت اللندنية: «مانديلا كان معمياً بالحب مثل شمشون، وقد تم إغراؤه مثل ماكبث ليخون طبيعته الأفضل».[16]

واجه المؤتمر الوطني الإفريقي معضلة متعاظمة: كان الجميع مدركين لصورة ويني السياسية، ولا سيما بالنسبة إلى الشباب. أدرك مانديلا أنها تملك بريقاً شعبياً كان يفتقده. ورأى فيها تامبو صلة حاسمة مع الشباب والعاطلين عن العمل: أدرك أن البعض من أصدقاء ويني الناشطين كانت لهم ارتباطات مشبوهة؛ لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان بحاجة إليهم لضمهم داخل خيمته. كما أن دعم ويني والمثيرين للحماسة كان مهماً للزعماء الطموحين بمن فيهم ثابو مبيكي. ورأت فاطمة مير أن زواج آل مانديلا كان مهدداً بسبب الصراع على السلطة في المؤتمر الوطني الإفريقي أكثر مما هو بسبب العلاقات الشخصية.[17]

كان للمشاركة السياسية حماستها الخاصة. قال أحد مساعديه: «إن تناول طعام الغداء مع آل مانديلا يجعلك تشعر أن هناك حلفاً حقيقياً بينهما. لقد بدا

وهو هائم بها ومسحور بهذا الهاجس». [18] لكن ويني رفضت التزام مانديلا التام بالحركة. وقد تشككت فيما بعد قائلة: «إن المؤتمر الوطني الإفريقي يشغله كلياً، إنه مُكيَّف مثل كلب بافلوف للاستجابة فقط لنداء المنظمة». كانت مصدومة منذ البداية لأن مانديلا كان يسمي دوكليرك «رجل التمامية»، وادعت أنها تجادلت معه حول ذلك في أول رحلة لهما إلى الخارج؛ كان دوكليرك «قاتلاً بنفس درجة بي. دبليو. بوثا»، وعندما طلب مانديلا من مؤيديه في دوربان أن يلقوا سلاحهم، انفجرت غضباً، وقالت متذكرة «إنني ألقي سلاحي، لا يمكنك أن تدعو المؤتمر الوطني الإفريقي لإلقاء رماحه في البحر في حين يقتله العدو، وفي حين يموت أبناء شعبنا بالمئات». [19] وفي حين أراد مانديلا وضع حد للكفاح المسلح، رغبت ويني في أن ترتدي نوعاً من لباس الـ MK. وتحدثت عن «شق طريقنا إلى الحرية». وهددت بالعودة بنفسها مجدداً إلى الغابات لتقاتل الرجل الأبيض. لكن مانديلا بقي استرضائياً بالنسبة إليها؛ شرح قائلاً إن الناس خارج الهيئة التنفيذية الوطنية لم يجدوا من السهل تفهم القرارات. [20]

«الفيل الأنثى» كما كانت تدعى ويني، كان يفلت زمامه أكثر فأكثر. فإن المؤتمر الوطني الإفريقي يأمل بكبحها بإحضارها إلى داخل المنظمة، وفي أيلول (سبتمبر) 1990 ـ سلمها المؤتمر ـ بلا حكمة ـ شؤون الخدمة الاجتماعية. لقد خيب ذلك الكثير من المانحين الكبار بمن فيهم الأسقف تريغور هادلستون، رئيس الحركة المناوئة للتمييز العنصري في لندن، والذي اعتقد أن ويني لا يمكن الاعتماد عليها في التعامل مع مبالغ كبيرة من المال. دافع مانديلا عنها قائلاً إن معارضي التعيين «يمكن عدّهم على أصابع اليد الواحدة». [21]

لكن كان لويني ضغائنها الخاصة ضد الكثيرين من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي، ولا سيما أولئك الذين نددوا بها علناً بعد مقتل ستومبي سيبي عام 1988. لقد هاجمت سيريل رامافوزا، وهزئت بميرفي موروبي بوصفه صديقاً للهنود: قالت لمانديلا «إما موروبي وإما أنا». رأت مؤامرة تحاول إذلال مانديلا

وتفكيك الزواج. شرحت فيما بعد: «لقد بذلوا ما في وسعهم لتدمير ذلك الارتباط مع الأسرة، لأنهم أرادوا مانديلا مثلما هو عليه اليوم، لقد كنت متطرفة، متطرفة جداً».[22]

كان من المفترض أن تمثل ويني للمحاكمة مطلع عام 1991، لقتل ستومبي وخمسة آخرين في كانون الأول (ديسمبر) 1988 (انظر الفصل 26). أثارت الاستعدادات تكهنات عميقة، بقصص عن اختفاء شهود أو مغادرتهم البلاد. وشعر بعض السياسيين والديبلوماسيين أن مقاضاة ويني من شأنها أن تدمر معنويات مانديلا، وأشيع أن دوكليرك كان يحاول الضغط على المدعي العام لإلغائها. لكن مانديلا رحب علناً بمحاكمة لتسوية هذا الأمر، واتهم الحكومة بالتملص منها عمداً، في حين حكمت عليها الصحافة بدلاً من ذلك.[23] عندما اتهمت في النهاية - بالخطف والاعتداء أكثر من القتل - ردت ويني على هذا رداً متوقعاً؛ بأن ذلك كان جزءاً من نموذج الشرطة في المضايقات، والذي «لم يكن أبداً مفاجئاً لأسرة مانديلا أو لي أو المسحوقين من جنوب إفريقية. أنا أعلم أنني كنت شخصياً مقياسهم الذي يستطيعون من خلاله قياس مدى غضب الشعب».[24] ندد ألفريد نزو أمين السر العام للمؤتمر الوطني الإفريقي بذلك بوصفها محاكمة سياسية خرقت روح الاتفاقات مع الحكومة.

كان مانديلا يريد أن تحصل ويني على أفضل دفاع ممكن. وطلب من جورج بيزوس أن يتولى ذلك، وتوقع أن تُدفع النفقات من قبل منظمة الدفاع والمساعدة الدولية، التي كان السويديون يمولونها إلى حد بعيد. لكن السويديين ورئيس المنظمة ثريفور هادلستون كانوا يشكّون في أن قضيتها كانت مؤهلة للنجاح. في تشرين الأول (أكتوبر) هتف مانديلا إلى مدير منظمة الدفاع والمساعدة الدولية هورست كلينشميت في لندن، وهو قلق قلقاً واضحاً لأن المبالغ تم رفضها. شعر كلينشميت - كما ذكر للمنظمة - بإحراج وانعدام لباقة يفوقان الوصف «وشرح أن المنظمة ربما يتم حلها قريباً على أية حال. في

النهاية تم إقناع السويديين بدفع جزء كبير من التكاليف الباهظة للمحاكمة، في حين تم دفع جزء من قبل الرئيس القذافي رئيس ليبيا. لكن النقاش ـ على حدّ قول دينيس هيربستين المؤرخ ـ في منظمة الدفاع والمساعدة الدولية «دق إسفيناً بين المؤتمر الوطني الإفريقي ومجلس المنظمة مما أفسد العلاقات مرة واحدة وإلى الأبد». [25] وتألم أعضاء منظمة الدفاع والمساعدة الدولية لأن مانديلا لم يشر إليهم في كتابه عن سيرة حياته.

عندما مثلت ويني أخيراً للمحاكمة في شباط (فبراير) 1991، قدم لها مانديلا أكبر دعم ممكن، رأى أنه من واجبه زوجاً، وحث أصدقاءه على حضورها؛ في يوم الافتتاح ضم الحضور جوي سلوفو، ألفريد نزو، كريس هاني، وفاطمة مير. ولم يرفض إلا القلائل؛ قالت أمينة كشاليا: «لقد تأثرت بإخلاصه لها، لكنها لم تكن تستحق ذلك». [26] ومن لندن أرسل آل تامبو رسالة تضامن، كتب أوليفر إلى ويني: «نحن نعلم أنك قلت الحقيقة سواء حكمت المحكمة لصالحنا أو ضدنا، ستبقين حائزة على ثقتنا وحبنا». [27]

كانت للمحاكمة التي استمرت أربعة أشهر الدراما الخاصة بها مع اختفاء الشهود وتغيير الشهادة. حاولت ويني أن تبعد نفسها عن نادي مانديلا الموحد لكرة القدم، وأن تشدد على أنها كانت غير موجودة في مكان وقوع الجريمة، أي إنها عادت إلى براندفورت ليلة ضرب ستومبي. شعر محامو الدفاع بالحيرة للارتباك الجلي للمدعين العامين. شهد مساعد المدعي العام ڤان ڤورين بعد سبع سنوات قائلاً: «أحدهم حاول تخريب القضية فشرطة الأمن لم تقدم لنا الدليل بالوضوح الذي كان يجب أن يكون متوافراً لتدمير قولها إنها لم تكن في مكان الجريمة». [28] بعد الجريمة مباشرة كان لدى الشرطة ما يكفي من الدليل لاعتقال ويني ـ كما أظهرت سجلات السجن. لكن هل كانوا يخفونه لحماية سيدة أولى محتملة، أم يحتفظون بالذخيرة من أجل قصف مستقبلي؟

أمضت ويني ذاتها خمسة أيام في مقصورة الشهادة ـ حيث حافظت على

تماسكها وعلى وجه فاقد التعبير ـ كما لاحظ القاضي، في حين أظهرت أنها «هادئة ورابطة الجأش ومتأنية وكاذبة لا تخجل». قبل القاضي بادعائها التواجد في مكان آخر عند وقوع الجريمة، في حين وجدها مذنبة بالتستر على الاعتداء. «مع غياب كامل للشفقة على الضحايا». حكم عليها بالسجن ست سنوات. بدت غير مرتبكة عندما غادرت المحكمة بقبضة مطبقة. بدا مانديلا مرتبكاً أكثر وهو يستمع إلى الحكم في المحكمة، إلا أنه لم يشك في الحكم؛ متى تم هناك استئناف، «فمن الملائم ترك القضية بين يدي المحكمة». استمرت ويني في الإصرار على أن القاضي «لم يكن يحاكمني كفرد. بل كان يحاكم المؤتمر الوطني الإفريقي؛ مجرّماً هذا المؤتمر ومحاولاً إبعادي عنه».[29]

استأنفت ويني ضد الحكم، وفي حزيران (يونيو) 1993 قدمت محكمة الاستئناف حكمها: إنها تؤكد قناعتها بالنسبة إلى الخطف، لكنها قررت أن ويني لم تشارك في الاعتداءات. وبعد دراسة دقيقة ومتلهفة «خففت المحكمة الحكم إلى السجن عامين مع وقف التنفيذ، وغرامة بمقدار 15,000 رند (حوالى 3000 دولار). العقوبة كانت متساهلة تساهلاً ملفتاً للنظر. لكن الحكم (بما فيه قبول عدم وجود ويني في مكان الجريمة أثناء وقوعها) لن يتعزز بما وجدته لجنة الحقائق بعد خمس سنوات. إن قضية قتل ستومبي لن تذهب أدراج الرياح.[30]

كانت ويني تفقد بعض أتباعها السياسيين. وفي مؤتمر المؤتمر الوطني الإفريقي في دوربان بعد المحاكمة، انتخبت للهيئة التنفيذية الوطنية؛ وحاولت أن تصبح رئيسة عصبة النساء، على عكس نصيحة مانديلا، الذي اعتقد أنها ستفشل، وهذا ما حصل. في آب (أغسطس) أعاد المؤتمر الوطني الإفريقي تنظيم قسم الخدمة الاجتماعية ليحد من سلطاتها. ومع ذلك بقيت ويني متحدية بعناد، منسجمة مع عشيقها المحامي الشاب، دالي مبوفو، وبصراحة أهانت مانديلا. وعندما خططت للذهاب إلى أمريكة فيما يفترض أنها رحلة رسمية طلب منها عدم الذهاب؛ إنها لم تكتف بعدم إطاعته. بل أخذت مبوفو معها؛

وعندما هتف لها مانديلا وهي في نيويورك كان مبوفو هو الذي رد. [31]

واجه مانديلا أزمة جديدة عندما تحولت ويني فجأة ضد كزوليسوا فالاتي ـ حليفتها القديمة ضد بول فيرين في قضية ستومبي ـ ورمتها خارج بيتها في سوويتو. توسلت فالاتي إلى مانديلا، الذي اعتقد أن ويني كانت غير منصفة لها؛ ووصل إلى البيت ليجد مراسلاً من صحيفة سوويتان، مع مصور يصوران فالاتي وهي تمنع من الدخول إلى المنزل. حاول مانديلا إقناع المراسل بالاستغناء عن القصة، ثم طلب من المحرر الليلي للسوويتان وهو مويغسين ويليامز (أصبح فيما بعد محرر كيب آرغوس) طلب منه رؤيته في المنزل الكبير. وصل ويليامز ليجد ويني تستضيف حفلة كبيرة احتفالاً بخطوبة ابنتها زندزي إلى زوليبانزي هلونغوين، وهو رجل أعمال من سوويتو، حيث كانت سدّادات (الشمبانيا) تندفع إلى الأعلى، في حين جلس مانديلا بحزن في مكتبه، وهو مذهول. توسل إلى ويليامز أن يوقف القصة، التي اعتقد أنها ربما تدمر فرص ويني في الاستئناف. اضطرب ويليامز بعمق لكنه لم يستطع وقفها. وفي يوم الإثنين 30 آذار (مارس) 1992 نشرت السوويتان بتعابير فنية قصة تصرف ويني العنيف، مثيرة موجة جديدة من التكهنات حول زواج مانديلا. [32]

نالت فالاتي ثأرها من ويني بالتراجع عن دليلها المساعد في المحاكمة: ادعت الآن أن ويني لم تتواطأ فقط في تعذيب ستومبي، بل أمرت أيضاً بقتل أعداء آخرين. بمن فيهم أبو بكر أسفات، الطبيب الهندي في سوويتو الذي كان بإمكانه تكذيب دليلها بخصوص مقتل ستومبي. وقام سائق ويني الآن أيضاً ـ وهو جون مورغان ـ بمناقضة دليله بالذات بالادعاء أن ويني قد ترأست الهجوم على ستومبي. [33]

لم يعد بإمكان مانديلا الآن تجاهل إساءات ويني. ففي 13 نيسان (أبريل) دعا إلى مؤتمر صحفي، وكان صديقاه القديمان تامبو وسيسولو (اللذان لم يحاولا التأثير عليه) عن يمينه ويساره، وهناك أمام كاميرات التلفاز عبر عن

تقديره لشجاعة ويني ومساهمتها في الكفاح، لكنه أتبع ذلك بإعلان أنه بسبب خلافاتهما وتوتراتهما «وافقنا على أن الانفصال سيكون الأفضل بالنسبة لكل منا»، وأضاف: «إنني أبتعد عن زوجتي بلا أية اتهامات مضادة. إنني أعانقها بكل الحب والعاطفة اللذين غذيتهما لها داخل وخارج السجن منذ اللحظة الأولى التي التقيت بها». وقف ليغادر بنظرة أسى كلي: «سيداتي وسادتي، آمل أن تقدروا الألم الذي عانيته». كانت آخر مرة عبر فيها علناً عن مأساته الخاصة.

بدا لوقت ما وكأنه فقد ثقته. فقد وجده مراسل البي بي سي فيرجال كيهن، رجلاً متغيراً بعد ذلك بأسبوع، يتحدث بحزن حول اضطراره الاختيار بين الكفاح وزوجته.[34] بدأ حياة جديدة، وانتقل إلى منزل تم شراؤه له من قبل رئيس دولة إفريقية صديقة، حيث أعدته له بعناية مساعدته باربارة ماسيكيلا آملة في أن «يخفي ألمه».[35] كان بيتاً واسعاً في الضاحية لكنه باهت، ويقع في الضاحية البيضاء في هوتون، وله حديقة كبيرة وحراس في بيت عند البوابة، لكن كان يبدو وكأنه لم يسكن من قبل. بدا مانديلا منعزلاً، في حين كان أصدقاؤه المقربون «مغلقة أفواههم ومتوترين».[36] كان يبدو أحياناً أنه قادر على التحدث إلى حراسه فقط، أو الجيران البيض الذين كان يزورهم أحياناً زيارات غير متوقعة. قال أحد الأصدقاء «كان في بحر من العزلة». كان يشعر بالعزاء بوجود الأحفاد، الذين كان يستطيع أن يمرح معهم أو يسترخي. مع أن حبهم لم يكن نزيهاً دائماً: فقد شرح: «عند حلول عيد الميلاد تقريباً يتذكرون أن لهم جداً. فهم يركضون حولي ويخبرونني كم يحبونني. . . وأعلم ما هو السؤال التالي. . . ماذا ستعطينا[37]؟».

ما زالت ويني تأمل بالمصالحة، وتوسلت إلى فاطمة مير، التي بقيت صديقة للطرفين بأن تقنع مانديلا بتغيير رأيه. لكن ويني صارت الآن مخاصمة زوجها والمؤتمر الوطني الإفريقي الذي أصر على وجوب استقالتها من مركزها الرسمي، كانت هناك حماية زمنية أخذت تتلاشى وتؤدي في النهاية إلى وضع

حد بعلاقتها مع مانديلا. ففي أيار (مايو) بدأ المحققون في المؤتمر الوطني الإفريقي يتفحصون مبالغ مختلسة تخص عشيق ويني دالي مبوفو عندما كان نائبها في قسم الخدمات الاجتماعية. وقد وجدوا بالصدفة رسالة عاطفية من أربع صفحات كتبتها له ويني في آذار (مارس). وكانت غاضبة جداً من مبوفو لعلاقته مع امرأة أخرى: «إنك تركض وراء أتفه الأعذار العاطفية. وقبل أن أتركك سوف أعلمك القليل من الأمانة والإخلاص وستعرف ماذا تعني خيانة الثقة بالنسبة إلى المرأة!» منذ خمسة شهور لم تكن تتكلم مع «تاتا» (مانديلا)، وقالت في الرسالة «إن الوضع يتدهور في البيت». لكن ما كان مدمراً أكثر على الصعيد السياسي هو إشارتها إلى شيكات كانت قد صرفتها لمبوفو باسم قسم الخدمة الاجتماعية. وطلب مانديلا أن يتم التحقيق فيها.

كان ذلك هبة لأعدائها. فقد أرسلت نسخة من الرسالة إلى صحيفتي جوهانسبورغ صنداي وصنداي تايمز، اللتين أكدتا أن الخط خطها. حاولت ويني يائسة استرجاع الرسالة، مقابل وثيقة أخرى. لكن كان قد تم إطلاع مانديلا بالذات عليها، الذي أدرك أنها «متعارضة مع علاقة الزواج». وقد نشرت دون حذف شيء منها في الصنداي تايمز في 6 أيلول (سبتمبر) 1992، إلى جانب صورة ويني مع مبوفو. بعد ذلك بأربعة أيام استقالت من مناصبها في المؤتمر الوطني الإفريقي «من أجل زوجي العزيز وأسرتي المحبوبة»، في حين ألقت اللوم على «حملة مشؤومة وشيطانية ضدي».(38)

بدا أن مانديلا قد وجد القشة الأخيرة في الرسالة، خيانة وإهانة لا يمكن له تجاهلهما؛ شعر بعض الأصدقاء المقربين بالقلق من أنه ربما ينهار. بدا وهو كئيب وهامد جسدياً، رافضاً النهوض من الفراش. مرت عدة أيام قبل أن يستعيد توازنه بمساعدة برنامج مكثف لم يكد يترك له وقتاً للبقاء وحده. لقد أبقى على شيء من مظاهر الحياة الأسرية الطبيعية. في تشرين الأول (أكتوبر) 1992، بعد شهر من نشر الرسالة، نظمت ويني حفل زفاف لزندزي وعريسها

هلونغوين، بحضور 850 من الضيوف في قاعة فندق كارلتون في جوهانسبورغ. ظهر مانديلا من غير أن يقول كلمة لويني. وعندما جلس مقطباً إلى طاولته أرسلت إليه هيلين سوزمان ملاحظة عبر الغرفة مخبرة إياه بأنه كان يبدو مثل جون فورستر، رئيس الوزراء السابق، ويجب أن يبتسم. وهذا ما فعله سريعاً.[39] في نهاية الحفلة ألقى كلمة معبرة. وصف كيف أن خيطاً واحداً مر عبر سني حياة كل المقاتلين من أجل الحرية: «لقد تزعزعت حياتهم الخاصة مع أسرهم زعزعةً كاملةً».

راقبنا أطفالنا وهم يكبرون بلا توجيهنا، وعندما خرجنا، قال أبنائي مثلاً: «اعتقدنا أن لدينا أباً وأنه سيعود في يوم من الأيام، لكن ما أثار خيبتنا أن أبانا قد عاد، وهو يتركنا وحدنا كل يوم تقريباً لأنه أصبح الآن أباً للشعب!

يتساءل المرء من جديد ما إذا كان الأمر يستحق ذلك. لكن عندما تأتي تلك الشكوك فأنت تقرر مع ذلك وللمرة Umpleenth أنه على الرغم من كل المشكلات فإنه كان ـ وما يزال ـ القرار الصحيح الذي يجب أن نلزم أنفسنا به.[40]

32

التفاوض

للتاريخ الكثير من الطرق الماكرة، والدهاليز المخترعة
ت. إس. إليوت، «جيرونشن»، 1920

شهد مانديلا بعد حوالى عامين من إطلاق سراحه، افتتاح المفاوضات التي عمل من أجلها. ففي 21 كانون الأول (ديسمبر) 1991، وسط عطلة عيد الميلاد منتصف الصيف، انعقد المؤتمر من أجل جنوب إفريقية ديموقراطية في مركز التجارة العالمي، وهو مبنى مستقبلي مثل مستودع قرب مطار جوهانسبورغ. قالت هيلين سوزمان: «من المدهش أن الأشخاص الذين كانوا في السجن منذ فترة قصيرة يتفاوضون مع الذين وضعوهم هناك؛ لكنهم سيقررون حول جنوب إفريقية جديدة.[1] كان العديد من مندوبي المؤتمر الوطني الإفريقي ما زالوا مدهوشين لجلوسهم ضمن شروط متساوية مع الذين اضطهدوهم». «لقد شاهدت اثني عشر من رجال الشرطة الذين كانوا يحرسونني في السجن». هذا ما قاله ميرفي ميروبي الذي سيدير المؤتمر فيما بعد. «الآن يرونني وأنا أتحدث بود مع وزير الدفاع وقائد الشرطة».[2]

تجمع مئتان وثمانية وعشرون مندوباً من تسعة عشر حزباً سياسياً؛ كان التجمع الأكثر أهمية - كما قال مانديلا - منذ مؤتمر عام 1909، الذي أوجد اتحاد جنوب إفريقية؛ لكن المندوبين كانوا كلهم من البيض آنذاك، في حين أن معظمهم الآن من السود. كان هناك غائبون خطيرون بمن فيهم الأحزاب

الأفريقانية اليمينية والرئيس باثيليزي الذي طالب بدون حق بثلاثة وفود منفصلة للزولو. لكن المفتاح الأول للسلام كان التوصل إلى نوع ما من التفاهم بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة.

كان هناك تناقض يدعو إلى القلق بين المناخ السلمي الممل في كثير من الأحيان داخل مركز المؤتمر، والمذابح التي كانت تحتدم في أنحاء جنوب إفريقية في الخارج. لكنه لم يكن تناقضاً؛ لأن الكثير من العنف كان في النتيجة إظهاراً للقوة الذي كان جزءاً من عملية المساومة. وكما كتب عالم السياسة ستيفن إليس فيما بعد: إن جنوب إفريقية ليست البلد الوحيد في العالم الذي تترافق فيه أعمال النضال الثوري في مراحل مختلفة مع المفاوضات المكثفة.[3] أراد المتطرفون أن لا تكون هناك تسوية في غيابهم؛ في حين احتاج المؤتمر الوطني الإفريقي إلى سلاح العمل الجماهيري كمقابل للقوة العسكرية الساحقة للحكومة. تم نصح دوكليرك من قبل فيليب غونزاليس، رئيس الوزراء الإسباني، بأن يتوقع أن مناوئيه سيلجأون إلى العمل الجماهيري والاحتجاج، وأنهم سيقولون شيئاً حول فائدة المؤتمر، وآخر مختلفاً تماماً أمام الناس في اليوم التالي، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع حركات المقاومة من خلالها تمهيد ميدان اللعب ضد سلطة الدولة.[4]

لكن مانديلا ودوكليرك قبلا المنطق الأساسي وراء أية محادثات سلام؛ أي إنهما لا يستطيعان أن يكسبا بقوة السلاح بلا خسائر لا تحتمل في الأرواح. ما زال مانديلا مقتنعاً ـ كما كان في السجن ـ بأن «نصراً عسكرياً كان حلماً بعيداً إن لم يكن مستحيلاً». حذر الناشطين من المؤتمر الوطني الإفريقي من أنه ليس باستطاعتهم انتظار سقوط الحكومة، ومن أن المفاوضات تتطلب تنازلات رئيسية.[5] وأخبر دوكليرك الديبلوماسيين أنه يعتقد أن باستطاعته الاحتفاظ بالسلطة لعشر سنوات إذا دعت الضرورة، لكن الإصابات ستكون كبيرة جداً.[6] لقد نظر كلاهما إلى داخل الهاوية، وواجه مانديلا أكبر مهمة مطلوبة

بالنسبة لمركزه ـ أي التفاوض حول ثورة سلمية بلا رد فعل عنيف من اليمين الأبيض أو اليسار الأسود.

تم النظر بحق إلى المفاوضات بوصفها صراعاً (دراماتيكياً) بين مانديلا ودوكليرك، وكلاهما سيدان في مجال السياسة ضمن تكهنات منعزلة، وتبين أن كلاهما يتحملان أزمات زوجية: ففي حين انفصل مانديلا عن ويني، كان دوكليرك يقع في حب زوجة صديقه اليوناني طوني جورجيا دس.[7] لقد انحدر مانديلا ودوكليرك من أصول متعارضة كلياً، السجين السابق مقابل السجّان السابق، وشكوكهما المتبادلة أعطت نكهة خاصة للمناقشات. لكنهما كانا يتناقشان لمعظم الوقت مع أحزابهما الخاصة أكثر من نقاشهما أحدهما مع الآخر. تعين على دوكليرك أن يحول المتطرفين والجنرالات لديه عن المواجهة التي كانت هدفهم الرئيسي لأربعين عاماً؛ في حين توجب على مانديلا أن يكبح الرفاق الذين كانت الثورة المسلحة بالنسبة إليهم هي طموح حياتهم.

كانت تلك من بين أكثر المفاوضات إثارة في التاريخ، وراقبتها الحكومات الغربية بافتتان.. ففي حين استمر القتال في شمال إيرلندة، ويوغوسلافية، والشرق الأوسط، تم النظر إلى جنوب إفريقية «كعاصمة التفاوض في العالم»، واجتمع الأكاديميون والصحفيون والديبلوماسيون لمراقبتها. لكن في النهاية، فإن الجنوب إفريقيين على العكس من الناميبيين والزيمبابويين لم يحتاجوا إلى دول أخرى لتصنع لهم سلامهم، وهم دوماً فخورون أن لديهم ليعلّموا العالم أكثر مما لدى العالم ليعلّمهم.

افتتح الزعيمان المؤتمر بكلمات متلفزة أعدت بعناية. أكد دوكليرك الحاجة إلى حكومة انتقالية ذات ديموقراطية «مشاركة في السلطة». وقدم مانديلا نظرة مستقبلية تدعو إلى الأمل مع أقسام من الأفريقانيين والزولو الذين يتطلعون إلى عام 1992 ليحقق أول انتخابات ديموقراطية بشروط طبيعية.

إن عملية التحرك نحو الديموقراطية لا يمكن وقفها، التاريخ يمنحنا جميعاً

فرصة فريدة. وإن مبادلة تلك الفرصة مقابل وعاء من حساء العدس من الماضي والتبجح السلبي بالشجاعة، إنما هو نكران للمستقبل.

معظم الأطراف وافقت آنذاك على إعلان النوايا، «أي تحقيق جنوب إفريقية غير مقسمة، بشعب واحد يشترك في مواطنية ووطنية وإخلاص واحد». وافق الفريقان الرئيسيان على قبول القرار «بإجماع كاف» - وهذه فقرة غامضة متعمدة. وقد فسرها مانديلا كاتفاق بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة، ومعظم الأطراف الأخرى، لكن المفاوض الرئيسي من المؤتمر الوطني الإفريقي - سيريل رامافوزا - فسر ذلك تفسيراً أكثر فظاظة: «ذلك يعني أنه إذا وافقنا نحن والحزب الوطني، فإن الآخرين كلهم سيشعرون أنهم مجمّدون». [8]

اختير رامافوزا - أمين السر العام الجديد - ليترأس فريق المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد حقق انطباعاً سريعاً لدى الأفريقانيين، الذين كانوا غير مستعدين لمثل هذا الذكاء من رجل أسود. كانت عيناه تمعنان ببرود، كما رآهما دوكليرك، وتبدوان «أنهما تبحثان باستمرار عن أضعف نقطة من دفاعات مناوئية». [9] كان مدعوماً بفريق قوي بمن فيه جوي سلوفو، وماك ماهاراج، وفالي موزا، الذين عملوا سريعاً وبكثافة في مكاتبهم التي تقع إلى جوار فريق الحكومة، في حين كان تامبو مبيكي متواجداً في أحيان كثيرة. لكنهم أوضحوا أن مانديلا ذاته، «كان دوماً على بعد مكالمة هاتفية». استمروا في التفكير. «ماذا سيقول الرجل المسن؟»، وقد ذهبوا إلى بيته في وقت الأزمات ليجدوا الجواب. [10]

انتهى اليوم الأول لمؤتمر جنوب إفريقية ديموقراطية نهاية مشؤومة، بحدوث انفجار بين الزعيمين. ادعى دوكليرك أنه أَمَرَّ رسالة إلى مانديلا قبلاً محذراً إياه من أنه سيكون ناقداً حاداً للمؤتمر الوطني الإفريقي لمحافظته على جيش الـ MK الخاص به. لكن مانديلا أصر على أن دوكليرك «لم يشر أبداً ولو مجرد إشارة» إلى أنه سيقوم بمثل هذا الهجوم. [11] مما لا شك فيه أن المؤتمر

الوطني الإفريقي أخذ على حين غرة بكلمة دوكليرك الختامية، والتي ألقت اللوم عليه للاحتفاظ سراً بمخابىء الأسلحة، ولخرق الاتفاق الذي تم التوصل إليه قبل ثلاثة أشهر. غضب مانديلا لأن دوكليرك استغل فرصته لكونه المتحدث الأخير ليؤنبه «مثل معلم المدرسة الذي يعاقب طفلاً غير مطيع». إضافة إلى أنه توصل إلى تفاهم سري مع دوكليرك في شباط (فبراير) 1991 ـ انتقد من قبل معظم الزملاء ـ بالسماح للـ MK بالبقاء دون المساس بهم إلى فترة الانتقال.[12] بعد انتهاء دوكليرك سار مانديلا ـ بتوتر وغضب مكبوت ـ إلى المنصة، أمام مشهد كامل لكاميرات التلفاز، ليسحقه بلغة الشخص الثالث ـ حتى إنه لم ينظر إليه ـ بمقطع ممتاز من الذم والقدح:

> حتى رئيس نظام أقلية غير شرعي وفاقد للمصداقية كنظامه، لديه أخلاقيات معينة ليتمسك بها. . . إذا استطاع رجل من طبيعته الحضور إلى مؤتمر ولعب نوع السياسات كما في ورقته ـ فالقلائل جداً من الناس يرغبون في التعامل مع رجل كهذا.

أصر مانديلا على أن المؤتمر الوطني الإفريقي سيسلم أسلحته فقط إذا أصبح جزءاً من الحكومة التي تجمع تلك الأسلحة، واتهم دوكليرك مجدداً بالتمويل السري للمنظمات العنيفة بما فيها الإنكاثا: إذا كان رجل في موقع دوكليرك لا يعرف عن ذلك ـ كما قال ـ «إذاً فهو ليس مؤهلاً ليكون رئيس حكومة». لكن كان ما يزال مستعداً للعمل معه برغم كل أخطائه.

دُهش زملاء مانديلا في المؤتمر الوطني الإفريقي. قالت باربارة ماسيكيلا: «لقد كان يرتعش، يمكنك أن ترى كل تلك السنين في السجن وهي تبرز». «لم يهاجم رئيس دولة علناً بهذه الطريقة في أي وقت من الأوقات». قالت فرين جينوالا التي كانت تعمل في كتبه: «لكن مهما كان غضب مانديلا الشخصي ـ فإن انفجاره خدم هدفاً سياسياً حاسماً، إذ جعل من الواضح بقوة أن المؤتمر الوطني الإفريقي موجود هناك»، كما قال كاثرادا: «ليس كحزب مهزوم

بل كمشارك فخور». ورأى بعض الصحفيين أن عبير السلطة قد تحول فعلاً إلى المؤتمر الوطني الإفريقي.[13]

كان دوكليرك غاضباً بهدوء، يأخذ الملاحظات على عجل ويهمس. قال لي فيما بعد: «لقد اضطررت للسيطرة على نفسي، لكن لحسن الحظ أنني تلقيت النعمة للحفاظ على قبضة».[14] قدم جواباً قصيراً، شارحاً أنه ما لم يتم حل قضية الأسلحة، «فإننا سيكون لدينا حزب يحمل القلم بيد في حين يدعي الحق بحيازة السلاح باليد الأخرى».

في الصباح التالي كان الطرفان بحالة استرضاء حذرة؛ قال بيك بوثا: «إننا مثل حمار الوحش، لا يهم ما إذا وضعت الرصاصة في الخط الأبيض منه أو الأسود. إذا رميت الحيوان فإنه سيموت». صافح مانديلا يد دوكليرك ووعد بالعمل معه، مما أراح الأفريقانيين الآخرين. لكن دوكليرك اعتقد فيما بعد «أن هجوم مانديلا المشؤوم الذي لا مبرر له أوجد صدعاً بيننا لن يشفى كلياً أبداً».[15] انفض المؤتمر مع بعض التشاؤم، تاركاً خمس مجموعات متفاوضة لإنجاز اتفاقية مفصلة قبل الاجتماع الكامل التالي في أيار (مايو).

تلقى دوكليرك سريعاً هزيمة مذلة من الناخبين البيض. عندما انهزم حزبه الوطني في شباط (فبراير) 1992 في انتخابات فرعية في بوتشيفستروم، أحد معاقله، من قبل الحزب المحافظ، الذي عارض أية محادثات مع المؤتمر الوطني الإفريقي. ثم اتخذ قراراً جريئاً بعد ذلك: الإعلان عن استفتاء لجميع الناخبين البيض حول القضية البسيطة في التفاوض بشأن دستور جديد. رأى الكثيرون من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي في ذلك تحولاً ساخراً عن المحادثات الفعلية، فيما انغمست الحكومة بأسلوب حملة. ومع أن مانديلا لم يكن في مقدوره الموافقة على أي انتخاب أبيض بكليته، فإنه قدم دعماً سرياً إلى دوكليرك. في 17 آذار (مارس) أحرز دوكليرك انتصاراً ساحقاً ـ 68,7٪ من الأصوات، مع نتيجة بنسبة 86٪. أعلن: «أن الشعب ارتفع فوق مستواه». رأى

الليبراليون البيض أن تلك كانت لحظته الأفضل. لكن مانديلا عرف أنه ليس اقتراعاً لصالح حكم الأغلبية السوداء. وأنه يعزز مركز دوكليرك.[16] لم يصبح دوكليرك قوياً بهذه الدرجة فيما بعد أبداً، لكنه بدا أنه ما يزال يلعب ورقة الزمن.

بتاريخ 15 أيار (مايو) 1992 انعقد الاجتماع الثاني الكامل لمؤتمر جنوب إفريقية ديموقراطية في مركز التجارة العالمي. بدا دوكليرك وفريقه مبتهجين بعد الاستفتاء الأبيض، وكانوا يصرون على أغلبية أصوات بنسبة ثلاثة أرباع لإمْرار النقاط الرئيسية في الدستور. ارتاب مانديلا في أن دوكليرك كان ينسحب بكل بساطة من المحادثات، لإحباط حكم الأغلبية؛ تشكى من عدم حدوث أي تقدم خلال الشهور الخمسة الأخيرة. كان مدركاً للانتقاد من اليسار بأن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يتنازل عن الكثير جداً مقابل القليل جداً. وكانت المجموعة العاملة بخصوص الدستور تصل الآن إلى مرحلة المأزق. كان دوكليرك ما يزال يتطلع إلى النماذج السويسرية أو الألمانية، مع صيغة «للمشاركة في السلطة». بما في ذلك جعل الرئاسة بالتناوب، وتعيين مجلس شيوخ من الممثلين الأقليميين لحماية الأقليات. كان ذلك يهدف إلى تجنب سيطرة أغلبية واضحة، أو «أن الفائز يحصل على كل شيء»؛ رأى مانديلا أن ذلك يؤبد الحكم الأبيض عن طريق تقسيم السود. وارتاب في أن دوكليرك كان يأمل بإبقاء الحزب الوطني في السلطة حتى بعد أن يكون قد خسر الانتخابات، وكان قد دعا ذلك بسياسة «الخاسر يأخذ كل شيء».[17]

في نهاية اليوم الأول لمؤتمر كوديسة الثاني التقى مانديلا ودوكليرك لتجنب الوقوع في طريق مسدود. قال مانديلا: «إن جنوب إفريقية والعالم بأكمله ينظران إليك وإليّ. دعنا نترك الباب مفتوحاً ونقول إننا أحرزنا تقدماً». وافق دوكليرك على أن المفاوضات يجب أن تبقى جارية، وأدلى كلاهما بتصريحات تدعو إلى الأمل؛ لكن دوكليرك كان مقتنعاً بأن المؤتمر الوطني الإفريقي كان

يحاول وضع حد للمحادثات. انفض المؤتمر بمأزق. قال مانديلا في السويد بعد ذلك بخمس سنوات: «إن جوهر المشكلة لم يكن بخصوص النسبة أو علم الحساب. بل في أن الحزب الوطني يحاول التمسك بالسلطة بأي ثمن كان».[18] لكن دوكليرك أصر على أن الشيوعيين والناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي قد تسلموا مقاليد الأمور الآن، وأنهم سيرفضون التنازلات: «إنهم ما زالوا يفضلون الطرد الثوري للحكومة والاستيلاء على السلطة من قبل الشعب».[19] في الحقيقة كانت الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي منقسمة في اجتماعها التالي حول استمرار المفاوضات. واحتج آلبي ساكس بأنه لما كانت الحكومة غير جادة فإن على المؤتمر الوطني الإفريقي إيقاف المحادثات إلى أن توافق على الشروط الرئيسية. أقنع مانديلا ساكس أن لا يطرح ذلك للاقتراع.[20]

لكن بعد بضعة أيام، في 17 حزيران (يونيو)، غزت عصبة من مؤيدي الإنكاثا المسلحة بقوة منطقة ڤال في بويباتونغ وقتلت خمسة وأربعين شخصاً. وشارك في الهجوم رجال بيض بوجوه مصبوغة بالأسود، وتواطأت الشرطة بوضوح (كما أكدت لجنة الحقائق فيما بعد)[21] زار مانديلا المنطقة المهجورة وهو يكاد يتميز من الغيظ، مقتنعاً أن الحكومة قد تسترت على المذبحة، مقارناً التمييز العنصري بالنازية والإبادة الجماعية. لقد قوبل بشعارات تقول: «مانديلا، أعطنا بنادق».[22] قال أثناء تشييع الضحايا: «لم يعد بإمكاني أن أشرح لشعبي لماذا نستمر في التحادث مع نظام يقتل شعبنا». كتب إلى دوكليرك، واضعاً حداً للمفاوضات، ومكرراً المطالب الدستورية للمؤتمر الوطني الإفريقي ومصراً على أن المتهمين بالمذبحة يجب أن يحالوا إلى المحاكمة. طلب دوكليرك الاجتماع به، لكن مانديلا لم ير فائدة في ذلك، متهماً إياه «بأخطاء حقيقية وتشويهات، ودعاية حزبية سياسية صاخبة».[23] انكشف فقدان دوكليرك للسيطرة عندما زار بويباتونغ في مرسيدس مدرعة. لتتم تحيته بصرخات «اقتل البويرا». تعين عليه العودة. وتم إبلاغه أن أحد

الجنرالات الأفريقانيين في السيارة التالية قال: «الآن يمكنه أن يرى ما هي عليه جنوب إفريقية الجديدة الخاصة به».[24]

عادت المفاوضات كما يبدو إلى النقطة الأولى، في حين ظهرت البلاد كلها وهي على حافة الفوضى، مع استمرار للعنف والأزمة الاقتصادية. أصبح كل زعيم يتساءل الآن عن مدى سيطرة الآخر على حزبه بالذات. وتشكى دوكليرك من أن عليه التعامل مع مؤتمريْن وطنيّيْن إفريقيّيْن مختلفين.[25] اعتقد مانديلا أن الأفريقانيين اليمينيين كانوا يفرضون سياساتهم الخاصة ـ ولا سيما بعد بروز المزيد من الأدلة على القوة الثالثة. وعندما سأل دوكليرك لماذا لم يوقف عنف الزولو أجاب: «سيد مانديلا، عندما تشترك معي ستدرك لماذا ليست لدي السلطة التي تعتقد أنني أملكها». لكن مانديلا اعتقد أن دوكليرك قد انشل؛ كانت لديه القدرة على وضع حد للعنف».[26]

شعر مانديلا بالقلق، وقد أبلغ سكان بويباتونغ أن «المجموعة الدولية هادئة جداً بخصوص المذابح الجارية» وأنه يتطلع الآن إلى الخارج طلباً للدعم. طلب من الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور بطرس بطرس غالي دعوة جلسة خاصة لمجلس الأمن. وطار إلى السنيغال لحضور اجتماع منظمة الوحدة الإفريقية، التي وافقت على الطلب. ناقش مانديلا الوضع مع بطرس غالي، واقترح قوة حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة. وفي لندن سعت الحركة المناوئة للتمييز العنصري برئاسة تريفور هادلستون سعت لدى الحكومة البريطانية لتضغط من أجل تدخل الأمم المتحدة.

في 15 و 16 تموز (يوليو) اجتمع مجلس الأمن في نيويورك لسماع ممثلين عن مختلف الأطراف في جنوب إفريقية، بمن فيهم بيك بوثا من الحكومة وباثيليزي من الإنكاثا. ألقى مانديلا كلمة عدوانية محذراً الأعضاء من الكلمات «التي لها صدى جميل» من الحكومة التي «أعلن مجلس الأمن أن دستورها باطل». وأصر مجدداً على أن «هذا العنف منظم ومنسق. وهو موجه بالتحديد إلى

الحركة الديموقراطية. . . وهي تشكل سياسة لا ترحم من إرهاب الدولة»[27].

أصدرت الأمم المتحدة قراراً يدعو لإحضار مرتكبي مذابح بوياتونغ إلى العدالة. وعينت ممثلاً خاصاً ـ كان مانديلا قد طلبه. أرسلت سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكية السابق الذي حث الأطراف كلها على استئناف محادثاتها. كان ذلك تذكيراً لـ دوكليرك بسمعة مانديلا الدولية، وحاجته بالذات للقبول الدولي؛ لكن الأمم المتحدة لم تلعب أبداً دوراً حاسماً في المفاوضات.

الأزمة منحت المزيد من الفسحة للناشطين أو «التمرديين»، ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي الذين كانوا يناقشون العودة إلى الكفاح المسلح. ومما يدعو إلى «السخرية أن الكثيرين من الشيوعيين أيدوا الآن «خيار لايبزيغ» الذي سمي كذلك على اسم المتمردين الألمان الذين قاموا بمظاهرات جماهيرية في شوارع لايبزيغ قبل ثلاث سنوات مما ساعد على الإطاحة بالدكتاتورية الشيوعية. لكن في حين ألقى دوكليرك اللوم على الشيوعيين، كان هناك الكثيرون من غير الشيوعيين في المؤتمر الوطني الإفريقي ممن كانوا ناشطين بنفس الدرجة. واجهت مانديلا عملية توازن حاسمة كما شرحت صديقته فاطمة مير: «لقد وازن بحذر بين المفاوضات والتعبئة الجماهيرية وهو عارف تماماً أن مسؤولية الاثنتين تقع على عاتقه»[28] حقق حلاً وسطاً: «برنامج لتجنيد «العمل الجماعي» لحث الحكومة على التراجع. شرع مانديلا بذلك بنفسه في 16 حزيران (يونيو) في ذكرى انتفاضة السوويتو، مخاطباً مدرج سوويتو الممتلىء وهو يرتدي قبعة البيسبول. بلغ البرنامج ذروته في 3 آب (أغسطس) بإضراب عام ـ الأكبر في تاريخ البلاد ـ عندما أضرب ما يزيد على أربعة ملايين عامل، وهذا مناقض رائع لإضراب مانديلا الفاشل قبل ثلاثين عاماً والذي أدى فشله إلى تبني الكفاح المسلح. قاد في هذه المرة مسيرة ما بين 50,000 و100,000 شخص إلى مبنى الاتحاد في بريتوريا، حيث أبلغ الحشد الضخم أن المظاهرة يجب أن لا تتحول إلى عنف أو «تسمح لأي منا بأن يصبح مخدراً بالنجاح».

أراد الناشطون الآن توسيع الحملة إلى أرض الوطن، التي كانت تقنياً

خارج جنوب إفريقية، لتجميع مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي. سمحت الهيئة التنفيذية الوطنية بمسيرة إلى بيشو، عاصمة جمهورية سيسكي الفاسدة، في حين أرسل دوكليرك رسائل إلى مانديلا يناشده فيها ضبط النفس.[29] في 7 أيلول (سبتمبر) عبرت مسيرة الـ 70,000 من المؤتمر الإفريقي الحدود ودخلت إلى المدرج خارج بيشو. كان الحاكم المحلي قد أمرهم بعدم التقدم أكثر من ذلك، إلا أن المغامر روني كاسريلز قاد مجموعة عبر فجوة في السياج وتوجه نحو العاصمة. لم يكن قراراً حكيماً. (كما حكمت لجنة الحقائق فيما بعد) لأنه «ساعد الوضع المتفجر والذي لا يمكن التكهن به».[30] فتح جنود سيسكي النار بدون تحذير وقتلوا ثمانية وعشرين من الزاحفين، ثم قتل العديد منهم وهم يفرون هاربين.

بدا مانديلا غاضباً، من دوكليرك وناشطيه بالذات، لكنه دافع عن كاسريلز أمام النقاد، قال فيما بعد: «لقد كان ينفذ قرار المنظمة بالضبط».[31] أدرك مدى الإحباط: «إن شعبي بدأ يقول لي: ما قيمة ذلك؟ دعونا نتخلى عن المفاوضات؛ إنهم لن يكونوا قادرين أبداً على إيصالنا إلى هدفنا». إلا أنه اعتقد أن المواجهة في بيشو قد جلبت الطرفين بدرجة أقرب إلى الكارثة، ودمرت صورة المؤتمر الوطني الإفريقي لدى الأصدقاء في الوطن وخارجه. وألقي اللوم على كل من المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة «لشروعهما في حملة انتخابية في الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات».[32] أدت مذبحة بيشو إلى إعادة تقييم مؤلمة، كما فحص الشيوعي الإفريقي مجدداً فكرة لايبزيغ. سأل المحرر جيريمي كرونين: «ما هو مدى الواقعية في هذا الخيار؟ يجب أن نكون حذرين في عدم التقديس الأعمى للعصيان الجماهيري، أو النظر إليه كوسيلة ثورية وحيدة ممكنة».[33]

عززت المذبحة موقف مانديلا لاستئناف المفاوضات، ورأى دوكليرك في بيشو نقطة تحول، عززت موقف المعتدلين في المؤتمر الوطني الإفريقي. صارت هناك الآن حركة تدعو إلى الأمل نوعاً ما من وراء الستار. كان سيريل

رامافوزا يعمل عن كثب مع نظيره الأفريقاني رويلوف ماير، عبر «قناتهما الخلفية» للتوصل إلى اتفاقات في أربعين اجتماعاً بين حزيران (يونيو) وأيلول (سبتمبر). كان لدى رامافوزا مبادئه الخاصة الحازمة عن المفاوضات ـ كما أبلغ الإيرلنديين الشماليين في بلفاست بعد ذلك بثلاث سنوات. يجب أن تحتفظوا بالتهديد بالكفاح المسلح، لا أن تستخدموه، في حين يجب أن تقيموا ثقة شخصية مع أعدائكم[34] ـ. ورامافوزا ـ مثل مانديلا ـ يمكنه أن يعتنق مع الأفريقانيين، مع ماضيهم بالذات بمعاناتهم في ظل مضطهديهم البريطانيين، في حين تفهم ماير مظالم السود أفضل بكثير من دوكليرك. إن الذكرى المشتركة في الاضطهاد ساعدت في تقريب الرجلين من بعضهما بعضاً بصورة أوثق.

كان موقف دوكليرك المساوم يضعف بعد (تكتيكاته) في التأجيل. وقد ارتكب نوع الأخطاء ذاتها مثل غورباتشيف في روسية أو إيان سميث في روديسية ـ مع أنه حُذر عام 1990 بالتحديد من قصر نظر سميث.[35] كانت وزارته قد ضعفت أصلاً. وأُجبر اليمينيان ماغنوس مالان وأدريان ڤلوك على الاستقالة. وتراجع المفاوض الرئيسي الأصلي جيريت ڤيلجيون. وغادر وزير الإعلام ستوفل ڤان ديرميروي الموالي لـ دوكليرك. كما أن وزيره للمال بارنيد دو بليسيز كان قد استقال بعد فضيحة مالية. أما ب. دبليو بوثا، الرئيس السابق، الذي كان ما يزال لديه بعض الحلفاء، فقد راقب من التقاعد بازدراء، مخبراً دوكليرك: «أنت تركت جنوب إفريقية تترنح».[36] كان العديد من زملاء دوكليرك قد تحرروا من الوهم بخصوصه. تذكر باريند دو بليسيز: «كانت لديه ثقة كاملة في قدرته على السيطرة على الوضع، لكن لم تكن لديه استراتيجية حقيقية». «لقد أخطأ قراءة وضع مانديلا كاملاً». هذا ما قاله ليون ويسيلز نائب وزير الخارجية الشاب. «اعتقد أنه كان بإمكانه الاحتفاظ بسلطته والمشاركة بقوته. عندما فشل ذلك، لم يكن لديه موقع يتقهقر إليه. إنه لم يفهم فن السياسة عند السود».[37]

وبالمقارنة، فإن هدف مانديلا كان واضحاً كل الوضوح وثابتاً تماماً، في حين كان فريقه متحداً بعضه مع بعض. لقد شرح في تموز (يوليو) 1992: «إنني سياسي، والسياسة هي الحكومة».[38]

أراد شخصاً واحداً، واقتراعاً واحداً في نظام وحدوي، وبقي بعيداً عن المفاوضات التفصيلية. تاركاً إياها للخبراء؛ لكن متى طلبوا استشارته، فإنهم يجدونه برجاً من القوة. قال رامافوزا بعد ذلك: «لقد كرس ذهنه للقيام بشيء، وأصبح لا يتزعزع، لم يكن بمقدورنا أبداً التفاوض حول انتهاء التميز العنصري بلا مانديلا»[39] وتعلم ماك ماهاراج المفاوض الرئيسي تعلم عن ظهر قلب الجُمل الحاسمة في رسالة مانديلا الأصلية إلى ب. دبليو بوثا عام 1989. التي أصر فيها على مبدأ حكم الأغلبية، في حين كان يهدىء من مخاوف الأقلية البيضاء. تذكر ماهاراج: «إن خطوطه المتعرجة كانت تؤدي دوماً إلى الهدف ذاته. عندما ذهبت لرؤيته سأل: إلى أين يأخذنا ذلك باتجاه حكم الأغلبية؟ كم من الوقت سيستغرق ذلك؟» «لقد كان يوصلني من خلال المحادثات بأكملها إلى Nats لم يكن لديهم بوصلة؛ وفي النهاية أصبحوا منشغلين بمصالحهم الأنانية».[40]

تم الضغط الآن على الطرفين لاستئناف المحادثات. بحلول أيلول (سبتمبر) 1992 كانت جنوب إفريقية مرهقة بالعنف المستمر. والأزمة الاقتصادية المتعاظمة. ووراء الستار كان الخبراء الدستوريون واللجان يحاولون حل التوترات بين الأنظمة المركزية والفدرالية، تحت إشراف حركة العمل الدستوري، التي تشاورت مع الأحزاب السياسية وزعماء الأعمال. تم إقناع مانديلا بأن الأزمة ربما تدمر الاقتصاد، مما يجعل من الصعب على أية حكومة مستقبلية أن تنجح. لكن دوكليرك كان يتعرض لضغط أكبر، اعتقد مانديلا أن «دوكليرك احتاج إلينا أكثر مما احتجنا إليه، كان بحاجة ماسة إلى تلك القمة».[41] كانت استراتيجية دوكليرك السابقة قد اعتمدت على حلف مع

باثيليزي، لكن زعيم الزولو كان يبرهن على أنه من المستحيل التعامل معه؛ في حين أن الاكتشافات بخصوص قوة ثالثة قد حطت من شأن العلاقة. بدأ رويلوف ماير بإحراز بعض النجاح في إقناع دوكليرك أن الأفريقانيين بإمكانهم العيش مع حكم الأغلبية، شريطة أن يشاركوا ببعض السلطة.[42] وأدرك دوكليرك أنه اعتمد على المؤتمر الوطني الإفريقي من أجل السلام.

بقي مانديلا مفتاح أي حل، فكما قال أحد مندوبي المؤتمر الوطني الإفريقي: «البحث عن العودة مجدداً إلى المسار، كان يؤدي إلى ماديبا». ادعى دوكليرك أنه دعا مانديلا للاجتماع معه. لكن مانديلا قال إنه قام بالمبادرة بالتكلم هاتفياً مع دوكليرك. كان دور مانديلا بأن يصبح متفضلاً. «لقد بدا متنازلاً قليلاً» كما شرح بعد يومين في مقابلة «غصن الزيتون» مع صحيفة «ستار» وهذا ما نظر إليه بعضهم كنقطة تحول. «إنه رجل شجاع جداً، كما تعلم، لامع جداً وواثق، وهذا ما يدعو إلى القلق». أصر دوكليرك على أن مانديلا كان يهبط، لذلك «أستطيع تحمل أن أكون رحب الصدر».[43]

في 26 أيلول (سبتمبر) عقد مانديلا ودوكليرك قمتهما في مركز التجارة العالمي، مما أدى إلى صراع (دراماتيكي) آخر. اعتقد مانديلا أن دوكليرك لا يمكنه تحمل انهيار المفاوضات من جديد. بقي مصراً على ثلاثة شروط مسبقة لاستئناف المحادثات، كان أكثرها إثارة للنزاع إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين. رفض دوكليرك إطلاق سراح بعضهم بمن فيهم روبيرت ماكبرايد المخرب الخارج عن جماعته الذي كان باقياً في زنزانة موت لقصفه بارماغو في دوربان في حزيران (يونيو) 1986 مما أدى إلى مقتل ثلاث نساء من البيض. كان المفاوضون من المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم رامافوزا وماهاراج كانوا على استعداد للتنازل عن هذه النقطة. لكن مانديلا شعر بإخلاص خاص لماكبرايد، الذي كان قد زاره في السجن في أيار (مايو) 1990 ليطمئنه أنه يطالب بإطلاق سراح السجناء. كان مانديلا قد تزود بمعلومات سرية تفيد أن الحكومة

منقسمة على نفسها حول هذه القضية، وأبلغ دوكليرك أنه لن يكون هناك اجتماع ما لم يطلق سراح ماكيرايد. حذّر ماهاراج من أن ذلك ربما يعرض المفاوضات للخطر، إلا أن مانديلا ضحك بينه وبين نفسه، كما يتذكر ماهاراج، وأبلغ زملاءه بوجوب عدم فقدان أعصابهم. كان رافضاً لـ دوكليرك: «هذا الرجل، لديّ ما يكفي منه، إننا نمسك بالخط الفاصل هنا اليوم».[44] أراد دوكليرك أن يرفض مانديلا رفضاً قاطعاً، وقد استاء من «تكتيكاته المتنمرة والصاخبة». لكنه أدرك أن زملاءه الآن يفضلون تسوية بعيدة المدى، ووافق على شروط مانديلا.[45] تأثر فريق المؤتمر الوطني الإفريقي إلى حد بعيد، تذكر رامافوزا: «لدى مانديلا أعصاب من فولاذ، كان بإمكانه أن يصبح متوحشاً بطريقة هادئة ومتماسكة».[46]

كان من المتوقع للشرطين المسبقين الباقيين للمؤتمر الوطني الإفريقي - إزالة السياج عن نُزُل الزولو ومنع الأسلحة التقليدية للزولو، كان من المتوقع لهما أن يثيرا عداء باثيليزي. لكن دوكليرك تم الضغط عليه لوضع حد لعنف الزولو من قبل آخرين بمن فيهم سايروس فانس والقاضي غولدستون، وشعر أنه مجبر على الموافقة. انتهى لقاء القمة بتوقيع مانديلا ودوكليرك محضر تفاهم تم فيه قبول الشروط المسبقة الثلاثة؛ لكن الأهم أنه وافق على مجلس دستوري وحكومة انتقالية لوحدة وطنية. رأى دوكليرك في ذلك انتصاراً على الناشطين من المؤتمر الوطني الإفريقي، في حين رأى فريق المؤتمر الوطني الإفريقي فيه خطاً فاصلاً باتجاه الديموقراطية. قال ماهاراج: «إنه مهد الطريق لرجل واحد واقتراع واحد، وأعطى مانديلا الهيمنة».[47] كان مانديلا ذاته مبتهجاً: «هذا ما يريده شعبنا، وهذا ما يحتاجه اقتصادنا، وهذا ما تتوق إليه بلادنا».[48]

لكن باثيليزي كان يتفجر غضباً، نظراً لأنه رأى نفسه وقد استبعد من الصفقة، وأعلن أنه سينسحب من المحادثات. قاد مسيرة احتجاج عبر مركز جوهانسبورغ، وفي الشهر التالي دخل في ائتلاف غريب مع الأحزاب الأفريقانية

اليمينية واثنين من زعماء الوطن، سمي مجموعة الجنوب إفريقيين القلقين، وتعهد بإلغاء مؤتمر جنوب إفريقية ديموقراطية. أثمر محضر التفاهم، حقيقة، في إعادة تخطيط أساسي. إذ لم يضع حداً لتحالف دوكليرك السياسي مع باثيليزي فحسب، بل خفف أيضاً وبسرعة من العنف السياسي خارج كوازولو - ناتال، بما في ذلك الهجمات على القطارات، وفرق القتل والمذابح. هذا وستكتشف لجنة الحقائق فيما بعد دليلاً عرضياً على أن «توقيع محضر التفاهم أدى إلى انخفاض في معدل الهجمات العشوائية والمجهولة المرتبطة بعنف «القوة الثالثة». [49] هذا أوحى بوضوح أنه كان بمقدور دوكليرك وضع حد للعنف عند رغبته بذلك.

من جانبه قام المؤتمر الوطني الإفريقي بتنازل تاريخي - كما ميز دوكليرك: لقد وافقوا على «Sunset chauses» تضمن وظائف الموظفين المدنيين البيض، وتسمح بتأليف حكومة ائتلاف بين الوطني الأفريقاني ووزراء المؤتمر الوطني الإفريقي. الفكرة لم تكن جديدة؛ فقد سربها ثابو مبيكي بهدوء داخل المناقشات قبل بعض الوقت. [50] لكن تم طرحها مجدداً طرحاً مفاجئاً من قبل الشيوعي جوي سلوفو في «الشيوعي الإفريقي» لشهر آب (أغسطس). جادل سلوفو جدلاً مقنعاً «إننا لا نتعامل مع عدو مهزوم». وإن الجنود والموظفين المدنيين البيض ما زال بمقدورهم زعزعة حكومة ديموقراطية - لذلك يتعين على المؤتمر الوطني الإفريقي أن يجلبهم إلى جانبه عن طريق عرض الضمانات والمشاركة في السلطة، وكما قال دوكليرك: «فإنها أكثر إقناعاً لأنها تأتي من شيوعي ذي أوراق ثورية لا خطأ فيها». [51] كان يبدو من غير العادي لليسار أن يقترح الجلوس في الوزارة ذاتها عدوّاً. وبدا ذلك خيانة بالنسبة إلى الكثير من الرفاق الشيوعيين؛ وقيل: «إن الشيء الوحيد الأحمر في سلوفو هو جوربه». اتهم الماركسي بالو جوردان سلوفو «بأنه جاهل بتاريخ القرن العشرين جهلاً ساحراً» وخشي روني كاسريلز وله بعض الحق من أن هذه السياسة

ستسمح للجنرالات الأفريقانيين بترسيخ أنفسهم.[52] كان مانديلا يشك بالخطة في البداية. إلا أنه اقتنع بها. وأصبح قلقاً أكثر بخصوص «الحركة الأولية المضادة أصلاً للثورة». ورأى في الائتلاف وسيلة لإبقاء البلاد متماسكة، ولتجنب التحديات المميتة مثل تحديات سافيمبي في أنغولا.[53]

في تشرين الثاني (نوفمبر) ناقشت الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي Sunset chauses لمدة يومين، وتحدث اثنان وستون من الأعضاء الثمانين، مع شعور كبير بخصوص الجذور لكن مانديلا ناقش بقوة أن جميع الأحزاب الديموقراطية يجب أن يكون لها دورها في الحكومة، وأن الائتلاف من شأنه نزع فتيل التهديد بحرب أهلية.[54] في 18 تشرين الثاني (نوفمبر) صادق المؤتمر الوطني الإفريقي على مقترحات سلوفو. كان هناك ناقدون عنيفون. قالت ويني مانديلا: «إن النخبة في الحزب الوطني تذهب إلى الفراش مع المؤتمر الوطني الإفريقي من أجل الحفاظ على ملاءاتها الحريرية». ولم يقبل هاري غوالا «التحول المتطرف عما عرفنا دوماً أن المؤتمر الوطني الإفريقي يناضل من أجله».[55] من المؤكد أن القيود والتسويات للـ Sunset Chauses ستبرهن على أنها مكلفة أكثر بكثير مما أدركه المؤيدون لها لأن البيروقراطيين الأفريقانيين، وضباط الجيش وسخوا أنفسهم. إلا أن التنازل الهائل أدار المفتاح باتجاه تسوية ديموقراطية.

بحلول كانون الأول (ديسمبر) 1992 كان المؤتمر الوطني الإفريقي يتناقش مع الحكومة في مناخ أكثر مدعاة للأمل، بلغ الذروة في خمسة أيام من مؤتمرات ـ غابات ـ حيث عمل الزعماء السود والبيض واسترضوا معاً. كان دوكليرك يمنح الفرصة لفكرة حكم الأغلبية بكل بساطة، التي حاول مانديلا تلطيفها بوعده دوكليرك بدور مستمر في الحكومة. شرح مانديلا في أسلوبه الأكثر استرضائية «ستلاحظ أن هناك اتزاناً ورصانة من جانب السياسيين، جميعنا ارتكبنا أخطاء في الماضي».[56] بحلول شباط (فبراير) 1993 كان الطرفان قد وافقا من حيث المبدأ

على أن يتبع الانتخابات حكومة وحدة وطنية لخمس سنوات، يضم أعضاؤها جميع الأحزاب التي تقترع بنسبة أكثر من 5٪ من الاقتراع الكلي. وفي آذار (مارس) عقد مجلس مفاوضات مع أربعة وعشرين حزباً آخر لإعداد التفصيلات.

في 23 آذار (مارس) قام دوكليرك بإعلان (دراماتيكي)، بدا بالنسبة للكثيرين من المؤتمر الوطني الإفريقي موحياً بالتخلي عن سيطرة البيض. أبلغ البرلمان أنه خلال السنوات التسع الماضية طورت الحكومة سراً سبع قنابل نووية، مماثلة لقنبلة هيروشيما، لضمان ردع موثوق؛ لكن هذه القنابل تم تفكيكها وتدميرها الآن تدميراً فعالاً. قال دوكليرك: إن جنوب إفريقية كانت البلد الأول الذي يرفض ويتخلى عن أسلحته النووية.[57] لكن السبب القاطع لذلك بالنسبة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي كان واضحاً؛ منع هذه القنابل من الوصول إلى أيدي السود.

في 20 نيسان (أبريل) أصبحت عملية التفاوض كلها مهددة. إن كريس هاني أمين السر العام للحزب الشيوعي والقائد السابق للـ MK الذي نُظر إليه عموماً بوصفه الزعيم الشعبي الأسود الثاني، قُتل في بوكسبورغ، قرب جوهانسبورغ. وبمصادفة مدهشة لاحظت امرأة أفريقانية رقم سيارة القاتل. وأبلغت ذلك إلى الشرطة فوراً. وبعد خمس عشرة دقيقة أوقفت الشرطة السيارة، التي كان يقودها مهاجر بولندي وكانت ما تزال لديه البندقية التي يخرج منها الدخان. بدت الجريمة كأنها تهدف إلى إثارة اضطرابات عرقية وإعاقة أية محادثات. أصدر دوكليرك ـ وهو في عطلة في صحراء كارو ـ أصدر بيان تعزية، لكنه عرف أن مانديلا وحده بإمكانه تهدئة شعبه، كما كتب فيما بعد: «تلك كانت لحظة مانديلا وليست لحظتي».[58] في جوهانسبورغ ذهب توكيو سيكسويل إلى مؤتمر غابات جنوب إفريقية مع بريغادير في الشرطة مطالباً بأن ينشر بيان كان يعده بالتلفاز.[59] وطار مانديلا عائداً من الترانسكي ليلقي أكثر الكلمات حسماً خلال مجرى حياته. ثم حذفت أشياء منها من قبل مؤتمر غابات

جنوب إفريقية، لكن أعيد نشرها كاملة فيما بعد بناء على إصرار مانديلا. بدأت:

> رجل أبيض مفعم بالتحامل والكراهية، جاء إلى بلدنا واقترف عملاً شنيعاً لدرجة جعلت شعبنا بأكمله يترنح على حافة الكارثة. امرأة بيضاء، من أصل أفريقاني خاطرت بحياتها بحيث جعلتنا نعرف هذا القاتل ونقدمه للعدالة.

كلمة مانديلا التي تشبه كلمة رئيس دولة، مقابل صمت دوكليرك أوحت أنه في الحقيقة هو الزعيم الحقيقي، وحامي السلام.

كان هناك انفجار للاضطرابات وأعمال النهب في الكاب وناتال، خلّف سبعين قتيلاً. ومن خلال الهلع السائد رسم المئات من البيض الخطط لمغادرة البلاد. ناشدهم مانديلا بالبقاء. إلا أن حمام الدم لم يحدث. قال مانديلا بعد ذلك بعامين خلال إزاحة الستار عن بلاطة ضريح هاني: «عند موت كريس فإن رسل القدر المشؤوم تنبؤوا بأن بلادنا ستضطرم باللهيب، قالوا إن زعامة شعبنا لن تستطيع ضبط «الناشطين الشباب»؛ إن النضج السياسي لشعبنا برهن على خطئهم.[60]

كان الوقت موحشاً بالنسبة إلى مانديلا، فبعد أسبوعين من جريمة قتل هاني مات صديقه الأقرب أوليفر تامبو بسكتة دماغية أخرى. قال مانديلا إنه «يحتفظ بحديث على مدى الحياة معه في رأسه» والآن شعر مجدداً، «بأنه الرجل الأكثر شعوراً بالوحشة في العالم». أقام المؤتمر الوطني الإفريقي جنازة دولة من النوع الخاص به، بحشد ضخم في سوويتو. اغتبط مانديلا لوجود وفود خارجية على مستوى عال؛ لكن السفير البريطاني كان غائباً غياباً ملحوظاً؛ كان في لندن مرافقاً باثيليزي في زيارة لجون ميجر رئيس الوزراء.[61]

قال أحد المراقبين الأجانب: إن مانديلا ودوكليرك ظهرا الآن مثل «اثنين مرهقين من ملاكمي الوزن الثقيل في نهاية شوط طويل على البطولة، كلاهما مدمّى ومرضوض رضاً سيئاً».[62] لكن مانديلا كان أكثر أماناً في داخل حزبه بالذات. كتب ديفيد أوتاواي في الواشنطن بوست: «لقد تم رفعه إلى منصب

جديد رفيع، يتجاوز المخاوف الإدارية اليومية والخصومات الداخلية للهيئة التنفيذية الوطنية. هو الآن رجل الدولة الأكبر المميز للحركة».[63] كان المؤتمر الوطني الإفريقي قد صمم على دفع فرصته إلى الأمام. قال رامافوزا: «بعد أن مات كريس هاني، اتجهنا إلى طريق القتل»[64] عندما اجتمعت الأحزاب مجدداً في مركز التجارة العالمي في أواخر نيسان (أبريل). أصر مانديلا على تحديد توقيت للانتخابات، حتى قبل الموافقة على الدستور المؤقت. فوجىء دوكليرك! لكن مانديلا أدرك أن زملاءه الأفريقانيين صاروا يتخاصمون الآن علناً فيما بينهم. عبأ مانديلا كل سلطته، في الوطن وخارجه. أوائل أيار (مايو) خاطب أعضاء البرلمان البريطاني في لندن، طالباً منهم استخدام نفوذهم مع الأفريقانيين «لإقناعهم بالتخلي عن مواقفهم الأنانية والتعصبية». قال: «إن التاريخ يطلب منكم أن تساعدونا»[65] بحلول 3 حزيران (يونيو) كانت معظم الأحزاب قد وافقت على إجراء أول انتخابات ديموقراطية تامة في جنوب إفريقية في 27 نيسان (أبريل) 1994. شاهد مانديلا الإشارة التي كان ينتظرها. أبلغ الأمريكيين السود في الولايات المتحدة بعد ذلك بشهر «إن العد التنازلي لنقل ديموقراطي للسلطة إلى الشعب قد بدأ».[66]

لكن كانت هناك عقبات ما تزال قائمة، إذ إن حزبين تمزيقيين بقيا خارج المفاوضات. الحزب المحافظ ومعظمه من الأفريقانيين كان يهدد دوكليرك، في حين كان حزب الإنكاثا التابع لباثيليزي يهدد مانديلا. في كوازولو ـ ناتال كانت عصابات الزولو ما تزال ترتكب أعمال القتل، محرضة على ردود انتقامية دموية من مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي؛ وقبل مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي لا بد وأن يُلقى عليه اللوم إلى حد ما. عندما ذبح عشرون شخصاً، بمن فيهم ستة من تلاميذ المدارس، قرب جبل تابل في آذار (مارس) 1993، اعترف مانديلا أن جميع الأحزاب ارتكبت أخطاء. وندد بأولئك المسؤولين عن المذابح الجماعية فقال: «سواء كانوا أعضاء في المؤتمر الوطني الإفريقي أم في

حزب الحرية للإنكاثا أم أعضاء في أجهزة أمن الدولة. فإنهم لم يعودوا من الكائنات البشرية. إنهم حيوانات. أنا لن ألوم حزب الحرية للإنكاثا والحكومة لوحدهما»، قال في مايلودي في نيسان (أبريل)، «يجب أن نكتشف الحقيقة، إن شعبنا منغمس في العنف».(67) كان مانديلا على استعداد لتعريض زعامته للخطر بخصوص موضوع التحدث إلى حزب حرية الإنكاثا. «هل تريدون مني أن أكون زعيماً أم تريدون مني الاستقالة؟» هذا ما قاله. عندما قالوا كلا، أجاب: «يجب أن تصغوا إليّ وأن تتحدثوا مع حزب الحرية للإنكاثا. إذا لم توافقوا على ذلك فباستطاعتكم أن تطلبوا مني الاستقالة! فإنني سأفعل ذلك».(68)

لكن مانديلا رأى باثيليزي الآن وهو يتحرك نحو استقلال ذاتي أقليمي واحتمال انفصال، لا يمكنه قبولهما: «أي تهديد لفرض قرارات بالقوة على أعناقنا، سنرفضه بلا تحفظ».(69) كان دوكليرك أيضاً يشعر بقلق متزايد إزاء خطط باثيليزي لإقامة دولة منفصلة. حاول مانديلا مجدداً أن يقوم بمناشدة شخصية لباثيليزي؛ في حزيران (يونيو) 1993 التقى به لأول مرة خلال عامين. بقي باثيليزي متصلباً، في حين كان ما يزال مدعوماً بالأصدقاء المحافظين في الغرب؛ في الشهر الذي تلا زيارته لجون ميجر في لندن كان ضيف الأمير تشارلز في منزله الريفي، هايغروف.(70) استمر الصحفيون اليمينيون في تعزيز باثيليزي؛ «استعداداً لحرب أهلية»، هذا ما جاء في العناوين الرئيسية لصحيفة التايمز فوق مقالة كتبها ويليام ريسموغ في تشرين الأول (أكتوبر) «إن دولة وحدوية ربما تعني حرباً أهلية. سيقاتل شعب الزولو من أجل استقلاله، ربما بنجاح».(71)

لكن الموعد النهائي للانتخابات استحث المحادثات لتسوية الدستور، في حين أن المناقشات التقنية المعقدة ساعدت في إخفاء المضامين العنيفة لنقل السلطة. كان المفاوضون من الطرفين يجدون في معظم الأحيان أنه من الأصعب إقناع زملائهم بالذات وليس مناوئيهم؛ وكما قالت فرين غوالا: «إن صداقة مميتة تتطور عندما ينظر إلى جمهورك من الناخبين بوصفهم أعداء،

والعدو هو حليفك». لاحظ ڤان زيل سلابيرت، أنه في النهاية «كان مفاوضو دوكليرك في الواقع جزءاً من فريق مانديلا في تسهيل الانتقال إلى حكم الأغلبية». (72)

بينما اقتربت التسوية أكثر فأكثر، أصبح المتطرفون على الطرفين أكثر عنفاً. في 25 حزيران (يونيو) تجمع ثلاثة آلاف أفريقاني في مركز التجارة العالمي، وهم يحملون أعلاماً عليها شعار مثل الصليب المعقوف لـ إي. دبليو. بي Afeu hamer weer stands Beweging. ويقودهم زعيمهم كبير البطن يوجين تيري بلانش. اندفعت سيارة مدرعة بعنف عبر المدخل ذي النوافذ الكبيرة الزجاجية، يتبعها حشد مشاكس تدفق إلى داخل المبنى صارخاً بإساءات ضد الكفيريين (الشعوب الناطقة بلغة البانتو في جنوب إفريقية) ومبوّلاً في غرفة المؤتمر. حاول الجنرال كونستاند ڤيلجيون زعيم حزب جبهة الحرية اليميني الجديد، حاول يائساً كبحهم. وبعد أن ألقى تيري بلانش كلمة لاهبة، تراجع الغزاة إلى الخارج ليشعلوا الشواء ويشربوا البيرة.

بعد ذلك بشهر كان هناك غضب أكثر شراسة، ففي 23 تموز (يوليو) اندفع خمسة رجال سود مقنّعين إلى كنيسة سانت جيمس في كيبتاون وأطلقوا النار على جماعة المصلين فقتلوا سبعة وشوهوا آخرين كثيرين. أُلقي اللوم في المذبحة على الفرع المحلي لل APLA الجناح العسكري لل PAC الذين تبجحوا بقتل البيض سابقاً؛ حكم فيما بعد على عضو في الثامنة عشرة من عمره من APLA بثلاثة وعشرين عاماً لمشاركته في ذلك. هذه الجرائم وجرائم أخرى حرضت المزيد من الهلع بين البيض؛ لكنها حثت أكثر فأكثر على التسوية.

كان مانديلا ودوكليرك ما يزالان على مستوى البنود الشفهية في حين كان فريقاهما يتفاوضان. كانا في أمريكة في تموز (يوليو) 1993، حيث استقبل كلاً منهما على حدة الرئيس كلينتون، لكن دوكليرك وجد نفسه مُرافَقاً إلى خارج البيت الأبيض بطريق ملتوٍ لتجنب لقاء مانديلا الذي كان في طريقه إلى

دخوله.[73] في اليوم التالي في فيلاديلفيا قدمت لكليهما ميدالية الحرية؛ عامل مانديلا دوكليرك بالتالي بازدراء في مؤتمر صحفي؛ نحن لا نَعدّه رئيس جنوب إفريقية بل زعيماً وُضع هناك من قبل 15٪ من السكان.

لكن المفاوضات تقدمت، وبحلول أوائل أيلول (سبتمبر) كان دوكليرك يقدم المزيد من التنازل: وافق على تأليف «مجلس تنفيذ انتقالي» ليعد العدة للانتخابات. وجاء دور مانديلا ليوافق أخيراً على إلغاء العقوبات. طار إلى الأمم المتحدة في نيويورك ليلقي كلمة تاريخية أمام الجمعية العامة، بوجه جامد خلو من التعبير. حذر من أن جنوب إفريقية ليست ناجية من الخطر حتى الآن، بل «إن نسيج المجتمع بالذات تهدده عملية تفكيك». إلا أن الانتقال إلى الديموقراطية أصبح الآن محتفظاً به في القانون، وطلب من الأمم المتحدة: «اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لإنهاء العقوبات الاقتصادية التي فرضتموها».[74]

وافق المتفاوضون على دستور مؤقت رأى فيه الكثيرون وثيقة نموذجية، تجسد فصلاً حازماً للسلطات، لائحة حقوق على النسق الأميركي، ومحكمة دستورية أيضاً. لكنها تقدم تنازلات ستبرهن على أنها مكلفة جداً؛ سيكون هناك ما يزيد على أربعمئة عضو في البرلمان؛ ويتم تشكيل تسع مقاطعات، لكل منها رئيس وزرائها وموظفوها. إحداها ستكون الكاب الشرقي، التي تضم اثنتين من أكثر الأراضي السابقة فساداً، السيسكي والترانسكي. إن تشكيل تسع مقاطعات بدلاً من الأربع السابقة كان تنازلاً لصالح الفيديراليين، إلا أنهم سيوترون الإدارة المستقبلية فوق الحدود القصوى.

كانت الفقرة الحاسمة أكثر من غيرها هي الأخيرة، حول اقتراع الأغلبية وحماية الأقليات. تجادل مانديلا ودوكليرك خلال الليلة الأخيرة لـ 17 ـ 18 تشرين الثاني (نوفمبر). كان دوكليرك مصراً على أن الحزب الفائز يجب أن تكون له أغلبية الثلثين بخصوص القضايا الحاسمة لكن مانديلا جادل «بأنه لا يستطيع أن يحكم في أية حال بلا دعم دوكليرك (سواء كنت أحبه أم لا، فهذا لا

صلة له بالموضوع. إنني بحاجة إليه)».[75] كان بعض المفاوضين من المؤتمر الوطني الإفريقي على استعداد لمنح أغلبية 60٪، لكن مانديلا بقي حازماً أكثر من الجميع؛ أبلغ دوكليرك أنه لا يستطيع أن يرأس وزارة بلا أغلبية تبلغ 50٪. لكن دوكليرك صار الآن أكثر استعداداً من أي من زملائه لقبول حكم الأغلبية بكل بساطة، وأفسح في المجال واضعاً آماله على «روح السعي للإجماع» التي أشير إليها في الدستور. قال جوي سلوفو: «إنه شيء اعتقدت أننا لن نفوز به». قال مانديلا «إن حكم الأغلبية سيُطبق. يجب أن نأمل أن لا يتوجب علينا استخدامه أبداً».[76]

في اليوم التالي كان زملاء دوكليرك في الوزارة يقتربون من العصيان. «لقد تخليت عن جنوب إفريقية». قال له المفاوض تيرتيوس ديلبورت سلفاً.[77] لكن دوكليرك أقنعهم في النهاية بالقبول، وعند منتصف الليل أصدر الجانبان الدستور الجديد. احتفل المؤتمر الوطني الإفريقي في الساعات الأولى، كان يوم عيد ميلاد رامافوزا أيضاً. لكن بقي هناك غائبون مشؤومون عن الاحتفال، بمن فيهم الإنكاثا والحزب المحافظ، الذي لن يعترف بالاتفاق.

مما لا شك فيه أن الاتفاق سجل تراجعاً رئيسياً من قبل دوكليرك. قال في لندن بعد ثلاث سنوات: «إن القرار بتسليم الحق في السيادة الوطنية هو أحد أكثر القرارات إيلاماً التي يتخذها زعيم... توجب علينا قبول ضرورة التخلي عن المثل الأعلى الذي تغذينا به».[78] لكن كان باستطاعته الادعاء أن ذلك سجل تراجعاً مماثلاً تقريباً للناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي الذين بدوا في البداية وهم يسيطرون على حزبهم. كتب آدم وسلابيرت ومودلي: «في مجالٍ ما تخلى مانديلا ومفاوضوه عن (الثورة الديموقراطية الوطنية) في حين تخلى دوكليرك ومفاوضوه عن هيمنة الأقلية الأفريقانية. الأول ضحّى بالصفاء الأيديولوجي والمتفق مع العرف والتقاليد والثاني بالسلطة السياسية».[79]

ابتعد المؤتمر الوطني الإفريقي بالتأكيد عن السياسات الاقتصادية

الراديكالية التي اقترحها عام 1990، واحتفظ بالآمال بتخطيط دولة طموح. أسس مجموعة ماركو للبحث الاقتصادي بإشراف مستشاره الاقتصادي ڤيلا بيلاي - مع دعم قوي من نقابات العمال والشيوعيين - الذي وضع خططاً جريئة للتوسع. لكن بيلاي شعر سريعاً بضغوط غير مرئية. زار زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم تريفور مايفوويل وتيتو مبوويني صندوق النقد الدولي في واشنطن؛ والتقى زعماء أقوياء من «مجموعة برينتهيرست» - التي أنشأها مانديلا أول مرة مع أصدقائه من رجال الأعمال - التقوا مع المؤتمر الوطني الإفريقي لمناقشة المشكلات الاقتصادية؛ في حين استمر السفراء البريطانيون والأمريكيون بالسؤال عن خطط مجموعة ماركو للبحث الاقتصادي. تحرر الكثيرون من الشيوعيين السابقين في المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم جوي سلوفو، تحرروا من الأوهام بخصوص الاقتصاديات الماركسية بعد مراقبة انهيار الاتحاد السوڤييتي. وعندما واجه زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي الأول مسؤولية الاضطلاع بالسلطة، شعروا بالقلق حول اتفاق الدولة برغم التضخم المالي المتسارع والعجز المتنامي في ظل حكومة دوكليرك. في الوقت الذي طرح فيه بيلاي وثيقة مجموعة ماركو للبحث الاقتصادي «جعل الديموقراطية تعمل». في تشرين الثاني (نوفمبر) 1993 كان مانديلا قد سحب عرضه لكتابة المقدمة - تماماً في الوقت الذي كان فيه المفاوضون من المؤتمر الوطني الإفريقي يوافقون في مركز التجارة العالمي على «رسالة نوايا» سرية تلزمهم بتخفيض العجز، ورفع معدلات الفائدة، وباقتصاد مفتوح، مقابل الوصول إلى قرض من صندوق النقد الدولي بقيمة 850 مليون دولار، إذا طُلب.[80] إن التسوية مع الرأسمالية الدولية كانت مهمة تقريباً بقدر التسوية مع دوكليرك. «وبينما رأى المؤتمر الوطني الإفريقي أن السلطة في قبضته» كما كتب الصحفي جون مايتسون الذي حلل التغييرات «فإن العولمة كانت تأخذ بعيداً جزءاً من سيادة جميع الحكومات».[81]

امتُدح مانديلا ودوكليرك في أنحاء العالم لتجنبهما الكارثة وصنع السلام في وقت كانت تستمر فيه أعمال القتل في إيرلندة الشمالية والبوسنة - سُئل أين مانديلا الخاص بتلك الدول أو دوكليرك؟ - لذلك لم يكن من المفاجىء نهاية عام 1993 الإعلان عن أنهما فائزان مشتركان بجائزة نوبل للسلام. وضعت الجائزة مانديلا ضمن تقليد لوثولي وتوتو - حيث تكلل كلاهما بالغار فيما سبق. لكن بعض الناشطين كانوا غاضبين؛ قالت ويني مانديلا فيما بعد: «من الإهانة بمكان تقديم الجائزة له ولسجّانه في آن واحد. إنها رشوة - جزء من مؤامرة عملاقة لجعله أداة للسلام بالنسبة إلى الرجل الأبيض».[82]

لم يكشف احتفال نوبل في أوسلو في كانون الأول (ديسمبر) عن الكثير من التوافق بين الزعيمين. أخبر دوكليرك المجلس النرويجي أن السود والبيض معاً «ندموا» على الماضي لكنه لم يقدم اعتذاراً لنفسه، في حين اعترضت زوجته ماريك على جلوس مانديلا إلى جانب رئيس الوزراء النرويجي. وعندما ظهر الحائزان على الجائزة على شرفة الفندق، كان حشد من النرويجيين قد تجمع في الأسفل، وهم يحملون الشموع حسب التقاليد. لكن دوكليرك ارتبك عندما سمع شعارات المؤتمر الوطني الإفريقي وصيحات «اقتلوا البويرا»، وعندما غنّى الحشد Nkosi Silsaclal'i Africa التفت للتحدث إلى زوجته، وانسحب بسرعة من الشرفة.[83] وصف مانديلا المناسبة بأنها «حدث هام بالنسبة إلى عدوين سابقين يبنيان جنوب إفريقية جديدة». لكنهما ما زالا يبدوان كعدوين. فعندما سئل مانديلا على شاشة التلفاز النرويجي حول ما إذا كان دوكليرك مجرم سياسي أجاب «كل شخص تقريباً في حكومة هو مجرم سياسي». وبعد ذلك بوقت قصير في ستوكهولم ألقى مانديلا كلمة قتالية مرتجلة ألقى فيها اللوم على دوكليرك لتورطه في استمرار العنف. احتفظ دوكليرك على لسانه - كما تذكر فيما بعد «بأكبر قدر من ضبط النفس».[84]

في كيبتاون كان دوكليرك ما يزال غاضباً من «التعابير الازدرائية للمؤتمر

الوطني الإفريقي»، قال إن هذه التعابير تظهر أن «المؤتمر الوطني الإفريقي ليست لديه رسالة سياسية بشأن المستقبل». شرح مانديلا لماذا كانت علاقاته متوترة مع دوكليرك؛ لقد سمح دوكليرك «بذبح الأبرياء لأنهم سود وهذه ستبقى وصمة ضده». لاحظ دوكليرك سخرية الأقدار لكونهما تلقيا أعلى وسام في العالم كصانعيْ سلام في حين كانت علاقتهما «مميزة بالكثير من الارتياب والنقد اللاذع».[85]

كان دوكليرك واثقاً من أن مانديلا كان مسؤولاً مسؤولية كاملة عن النقد اللاذع. أو شعر بالسخط للتناقض بين جاذبية مانديلا العالمية كرجل السلام والغفران والهجمات اللامتسامحة عليه وعلى حزبه. من المؤكد أن مانديلا كان يبدو قاسياً في معظم الأحيان مع دوكليرك. زوجته ماريك (التي طلقها فيما بعد) كانت «مصعوقة» بالإهانات: «كلما هاتفه نيلسون مانديلا ليقول إنه تم اكتشاف الدليل على وجود قوة ثالثة، أو أن الشرطة اكتشفت بعض النشاطات الشريرة أو شيء آخر، كان يتوجب عليه أن يقر: هل هذا سبب كاف لوضع حد للمفاوضات؟»[86] لكن مانديلا توجب عليه أن يكون «رجلاً من فولاذ» خلال المفاوضات؛ فكلما قام بتنازلات وتراجع عن الكفاح المسلح، كلما توجب عليه أن يظهر لأتباعه الناشطين بأنه كان قاسياً مع العدو. والأهم من ذلك، أنه ما زال يشعر بأن دوكليرك خانه شخصياً. وكلما برزت حقائق عن القوة الثالثة ومؤامرات الشرطة السرية، كلما وجد تأكيدات دوكليرك عن عدم معرفته بذلك أقل إقناعاً: هذا في حين كانت النتائج المميتة تظهر بوضوح أكثر فأكثر.

من يستحق أكبر مفخرة بخصوص التسوية؟ النقاش ما زال مستمراً. دوكليرك الذي ورث العملية التي بدأها ب. دبليو. بوثا، رأى الضرورة التاريخية، وتبعها إلى النهاية، معرضاً نفسه للخطر دون أن يفقد أعصابه، ومبقياً بشكل ضيق حزبه المتفكك بعضه عن بعض. كان لدى مانديلا قادة أكثر مقدرة، وهدف أوضح لتوحيد حركته. لكن كان من المشكوك فيه ما إذا كان

أي شخص ـ غير مانديلا ـ بأوراقه الفذة وتاريخه في التضحية، قادراً على إقناع الثوريين بالتخلي عن الكفاح المسلح، و«الاستيلاء على السلطة» بلا ارتجاعات سياسية عنيفة. قال جوي سلوفو عام 1994، على الرغم من ارتيابه الماركسي بدور أي فرد في التاريخ: «بدون مانديلا فإن تاريخ جنوب إفريقية كان سيتخذ منحى مختلفاً كلياً».

> وهذا ليس بسبب جاذبيته أو منزلته فحسب بل بسبب قيادته ومبادرته من روبن آيلاند أولاً. إنها حقيقة أنه هو الذي أطلق المفاوضات. . . تامبو كان من الصعب استبداله بغيره؛ فقد أبقى المنظمة في حالة استمرار، وأبقى الناس بعضهم مع بعض. لكن عندما حان الوقت لمواجهة فترة ما بعد عام 1990، كان دور مانديلا فذاً بشكل مطلق.[87]

33

الانتخاب

خاض مانديلا معركة أول انتخابات عامة له عام 1994 وهو في سن الخامسة والسبعين، أي أكبر بعامين من رونالد ريغان خلال حملته الرئاسية الثانية في الولايات المتحدة عام 1984؛ ويعمر ويليام غلادستون في حملاته الأخيرة بوصفه رئيساً لوزراء بريطانية عام 1894 و1895. كانا في نهاية محاولاتهما لإنجاح حزبيهما؛ مانديلا كان في البداية. لكن الفرصة لتحقيق حقوق سياسية متساوية كانت مطلبه الرئيسي في السنوات الخمس الماضية، حيث ضحى بالكثير من حياته. ومنزلته كلها كانت تقود إلى هذه الانتخابات.

شن المؤتمر الوطني الإفريقي حملة متقنة عبر مئة مكتب، نظمها ثلاثة من المحاربين القدماء في حملات الجبهة الديموقراطية الموحدة في عقد الثمانين، بوبو موليف، تيرو ليكوتا، وخيتسو غوردهان. استأجروا ستانلي غرينبرغ الخبير الأمريكي الذي يتحدث بسرعة وذا الشارب المضحك، والذي عمل في حملة بيل كلينتون عام 1992. نصحهم بالاتصالات مع الجذور وإنشاء منابر شعبية في شتى أنحاء البلاد.[1] لكن الجميع عرفوا أن مانديلا بالذات كان مصدر قوتهم المسيطر، حيث جسد حزبه، وحيث إن الهالة البراقة المحيطة به قد شفيت من جميع الضربات في الأعوام الأربعة الأخيرة.

إن صوره السابقة المتنوعة ـ مانديلا الزعيم، رجل الاستعراض، الثوري، زعيم الفدائيين، السجين، رجل الدولة، صنفت الآن من قبل مانديلا في

إجراءات حملة انتخابية، حيث لعب دوراً مختلفاً أمام كل جمهور. كان يخاطب أحياناً أربعة منابر شعبية في اليوم الواحد؛ لقد ذكّروه باجتماعات الزعيم التي راقبها عندما كان فتى. وما زال يستمتع برؤية وجوه جديدة بعد سنوات سجنه، ولا سيما الوجوه الشابة. كان يقول المرة تلو المرة: «أنا في الخامسة والسبعين، لكنني أشعر وأنا بينكم كأنني شاب في السادسة عشرة». وكان يكرر: «أنتم الذين ألهمتموني كل يوم من حياتي».

كان لمانديلا فريقه الخاص الذي يسافر معه، بمن فيه باربارة ماسيكيلا، جويل نيتشتنز، التي كتبت معظم أفضل كلماته؛ وكارل نيهوس الذي كان يهتم بوسائل الإعلام. كانت الحملة مرهقة ومنعزلة في معظم الأحيان. قال أحد أفراد الفريق: «كانت اللقاءات الخاصة رهيبة، مع القليل من الصدق بشأنها، كان كل شخص يريد الشيء القليل منه». لكن مانديلا أظهر في العلن الاحترام لجميع أنواع الناس: عندما كان المشاهدون يضحكون من مجموعة من زعماء غريكوا الذين كانوا ينشدون أغاني قبلية، كان يستشيط غضباً. قال كارل نيهوس: «كان لديه شعور بصورته بالذات، لكن الصورة في الحياة العامة لم تبد أبداً منفصلة عن الكائن البشري، ماديبا كان هو الحملة».[2]

كان حديث مانديلا العام بعيداً عن الإثارة: حكمت عليه باتي وولدمير من الفانينشال تايمز بأنه «أحد أكثر المتحدثين مدعاة للملل في جنوب إفريقية. عندما ينتهي من حديثه يكون قد فقد نصف الحشد المتجمع». كان يبدو أحياناً كناظر المدرسة الذي يؤنب الفتيان. أخبر حشداً من ستة آلاف في منطقة من مناطق كيبتاون: «إنني أرتب سريري كل يوم، وأستطيع طهي وجبة محترمة، كما أستطيع تلميع الأرض. لماذا لا يمكنكم فعل ذلك؟».[3] لكن متى التحم مع الجمهور وتحدث إلى الأفراد، ولا سيما الأطفال، فإنه يعرض كل الجاذبية المنظمة لسياسي بالولادة. إن ذاكرته التي هي مثل فهرس بطاقات يمكنها تحديد أسماء ووجوه رآها لآخر مرة قبل قرن من الزمن، لكنه يبدو مثله مثل الزعماء

الآخرين الذين يشعرون بالعزلة، يبدو وهو يكسب الود من الجموع، ذلك الود الذي فقده في البيت. تساءلت مساعدته باربارة ماسيكيلا: «هل هي مشاعر إنسانية حقيقية، أم إنها PR لامعة؟ لن تعلم أبداً؛ لكن هل يهم ذلك؟»[4] بدا مانديلا وهو مرتاح أكثر بكثير من وقت خروجه من السجن في البداية: «إنه غالباً ما يترك بزاته ليسترخي في قمصان واسعة ذات ألوان زاهية، عرفه عليها الرئيس سوهارتو لأول مرة في أندونيسيا، عندما قدم له ستة منها. وعندما سأله طفل لماذا يلبسها؟ أجاب: يجب أن تتذكر أنني كنت في السجن لسبعة وعشرين عاماً. أريد أن أشعر بالحرية».[5]

أدت به إلفته للشبان إلى حملة رجل واحد عنيد لتخفيض سن الاقتراع من الثامنة عشرة إلى السادسة عشرة؛ بل حتى الرابعة عشرة. قال في أيار (مايو) 1993 «يقولون إن الشخص تحت سن الثامنة عشرة لا يمكنه التفكير تفكيراً صحيحاً والقيام باختيار حكم، إننا نرفض ذلك، ونطالب أن يكون سن الاقتراع من الرابعة عشرة». «إنني سأناضل وسأكسب هذه المعركة» هذا ما قاله بعد ذلك بشهرين. أعطى هذا ذخيرة مفيدة إلى منتقديه «زعيم أسود تحرري مسن وغريب الأطوار»، هذا ما دعته الصنداي تايمز اللندنية في حين أن رسماً كاريكاتورياً في إحدى الصحف أظهر طفلاً صغيراً في الـ nappies وهو يضع ورقة الاقتراع في الصندوق ـ وهذا ما سر مانديلا كثيراً[6] ـ ورفضت الهيئة التنفيذية في المؤتمر الوطني الإفريقي المصادقة على الاقتراح. هناك ستة عشر بلداً فقط منحت حق الاقتراع لمن بلغوا السادسة عشرة كما أشار ألبي ساكس ـ بمن فيها ألبانية وكورية الشمالية، اللتان لم يكن هناك أسوأ منهما.[7] «تذكر ماهاراج أن المنظمة رفضت رفضاً قاطعاً، ولم تتم إثارة القضية مرة أخرى».[8]

لكن معظم حدس مانديلا الانتخابي كان ذكياً، وكان قادراً مقدرة فذة على حشد الناشطين السود، في حين يطمئن أيضاً الناخبين البيض. استمر في حث الشبان البيض على البقاء في جنوب إفريقية حيث الحاجة إليهم هناك: في

حين حذر المستمعين السود من أنهم ليس باستطاعتهم العمل من غير البيض. أخبر حشداً في بلدة خايليتشا ذات الأكواخ: «أولئك الذين لا يعرفون مدى فائدة البيض لا يعرفون شيئاً عن بلادهم بالذات». كان يبذل جهداً عظيماً في كلماته باللغة الأفريقانية، والتي تمرن عليها مع مساعده كارل نيهوس، مع إنه ما زال يتكلم بلهجة الكزوسا القوية. كان بعيداً عن أن يكون (ديماغوجياً)، وكان يُهزم بسهولة من قبل الشبان الشعبيين الغاضبين ـ ولا سيما ويني التي عادت مجدداً لدخول السياسة عندما انتخبت رئيسة لجمعية النساء التابعة للمؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1993. كانت تقوم بحملة بلا كلل، حيث تزور الناخبين الفقراء البعيدين الذين تجاهلهم السياسيون الآخرون، وتخبرهم أنها ستضمن أن يفي المؤتمر الوطني الإفريقي بوعوده، إلا أن معظم المتحدثين باسم المؤتمر الوطني الإفريقي تجنبوا (الديماغوجية) الفجة، وما زال مانديلا من غير الممكن تحديه جدياً بطلاً للشعب.

كان مانديلا مصمماً على إظهار أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان حزباً مسؤولاً، مستعداً للحكم. وقد حذر زملاءه بوجوب أن يكونوا واعين في صنعهم للسياسة، قال في أيار (مايو) 1992: «إن العالم الثالث مشوش ببقايا حركات التحرر التي حررت بنجاح بلدانها من عبودية الظلم الاستعماري، لتنهزم فقط في الاقتراعات في الانتخابات الأولى ما بعد الاستعمار». أوجد المؤتمر الوطني الإفريقي برنامجاً طموحاً لإعادة البناء والتطوير ووعدد «بحياة أفضل للجميع». والبرنامج الذي كان يهدف إلى بناء مليون منزل خلال السنوات الخمس التالية، وتوسيع شبكتي الكهرباء والمياه، وضمان التعليم المجاني للجيمع، تمت مناقشته مع ملوك الصناعة بمن فيهم هاري أوبنهايمر. شرح مانديلا أنه لا يحوي «أية إلماحة إلى التأميم... ولا أي شعار يربطنا مع أية أيديولوجية ماركسية».[9]

عرف مانديلا أنه يعتمد بقوة على وسائل الإعلام، وقد تعلم الكثير عن التعامل مع الصحفيين بعد ابتعاده عنهم لثلاثة عقود من الزمن. عرف كيف

يتأقلم مع كل مادة، ومتى يكون متكتماً أو غير متكتم، إلى حَدٍّ أنه يضع يده أمام آلة التسجيل. لقد اعترف وروى للصحفيين كأفراد - ولا سيما النساء الجميلات - عن قدرته على الإطراء، أو «xhosalisation». قال مراسل البي بي سي فيرغال كين إنه كان من الصعب على الصحفيين عند كتابتهم عن مانديلا «ممارسة أي شيء يلمح التجرد الحقيقي». واعترف جون كارلين من صحيفة الأندبندنت اللندنية «إننا مسحورون بمانديلا سحراً كاملاً وميؤساً منه».[10]

لكن المحررين والمالكين البيض الجنوب إفريقيين لم يتم إغراؤهم؛ فالصحيفة الصادرة باللغة الإنكليزية وهي مجموعة آرغوس (فيما عدا جوهانسبورغ ستار) وكذلك جوهانسبورغ صنداي تايمز، وبيزنس داي أيدت الحزب الديموقراطي الأبيض الصغير. وأيدت معظم الصحف الأفريقانية حزب دوكليرك وهو الحزب الوطني؛ وكانت الويكلي ميل ونيوتيشن الوحيدتين اللتين أيدتا المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد ازدهرت الصحافة المحافظة؛ بسبب توكيدها على أخبار يوم الصدام المنتظر الذي ستراق فيه الدماء بين المؤتمر الوطني الإفريقي من جهة والزولو والأفريقانيين اليمينيين من جهة أخرى. تلك الأخبار التي تناقلتها وسائل الإعلام المحافظة في ما وراء البحار. في لندن تنافست الدايلي ميل والصنداي تايمز بقصص الرعب، وتشجعت من قبل لوبي الزولو بمن فيه جون أسبينال ولورينز ڤان دير بوست: «لا بد للدم أن يراق عندما يتحدث الزولو عن الحرب»، هذا ما أعلنته الصنداي تايمز في كانون الأول (ديسمبر)»، الفوضى تلوح في الأفق، قال «الزولو الأبيض» جاء ذلك في عنوان رئيسي في شباط (فبراير) فوق مقابلة مع أسبينال (كل شيء سينهار. «ثم تكون هناك كونفيدرالية حرة مثل سويسرة وستعمل جيداً جداً»).

ونقلت كلام ڤان دير بوست («وهو صديق حميم لرؤساء الوزراء والملكية»). حيث يقول: «العالم أصبح مُنوّماً مغناطيسياً بالشخصية الأسطورية لمانديلا، حتى في الوقت الذي تنحدر فيه جنوب إفريقية نحو الفوضى»[11]

جمع المؤتمر الوطني الإفريقي تقريره الخاص عن قصص الصنداي تايمز. لن ينسى مانديلا أبداً «رسل القدر الذين اعتقدوا أنه لن تكون هناك تغييرات بتاتاً في هذا البلد بدون إراقة الدماء».[12]

كان مانديلا ثميناً بشكل خاص بالنسبة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي كجامع للأموال، مظهراً مثابرة جشعة أدهشت زملاءه. لم يكن شديد الحساسية بخصوص اتصالاته مع رجال أعمال أمثال صول كيرزنير ملك القمار في صن سيتي، والذي كان يتوقع الاستفادة بالمقابل. بدا وهو يستمتع باستخلاص المال من المؤيدين القديمين للتمييز العنصري، مثل الرئيس الذي يتوقع الإجلال والتقدير، ولم يكن لديه وخز للضمير بخصوص رفض الهبات غير الكافية. وبعد أن أعطت إحدى الشركات الكبيرة التي لها سجل في مناصرة التمييز العنصري المؤتمر الوطني الإفريقي 250,000 رند، فإنها دعت مانديلا لتناول «الغداء». وفي أثناء الدعوة أخرج (الشيك) الذي قدمته وأبلغ داعيه أنه عبارة عن إهانة؛ إنه توقع سبعة حسابات.

كان يجمع الأموال للمؤتمر الوطني الإفريقي فيما وراء البحار منذ أولى رحلاته، إلا أنه زاد السرعة الآن. في تموز (يوليو) 1993 تجول في الولايات المتحدة مدة عشرة أيام، ناشداً تقديم المال في كل مدينة. نقل عنه قوله: أريد (شيكات) بسبعة حسابات وأريدها الآن.

في بريطانية أيده الحلفاء القدماء للمؤتمر الوطني الإفريقي مثل ريتشارد أتينبورو مدير «نادوا بالحرية»، وديفيد بوكر مؤسس حواسيب زيون، لكنه وصل أيضاً إلى المحافظين المتشددين، وهذا ما كدّر الكثيرين من الناشطين ضد التمييز العنصري. وفي أيار (مايو) 1993 رحب بملوك المال في استقبال لجمع الأموال في فندق دورشتسر، بما فيهم المناوئون القدماء للمؤتمر الوطني الإفريقي مثل اللورد كينغ من الخطوط الجوية البريطانية واللورد وينستوك من جنرال إليكتريك الذي سارع الآن لمصافحته. شعر صديق مانديلا القديم تريفور

هادلستون الذي آمن بـ«الغضب المقدس» شعر بالخيبة وهو يراقبه متسامحاً مع الرجال الذين عارضوا العقوبات وتواطؤوا مع التمييز العنصري. جمع مانديلا مبالغ كبيرة من أوربة وأمريكة وآسية، حيث شرّف الرؤساء الذين التقاهم خلال أسفاره. كان دوكليرك الذي كان حزبه الوطني قد جمع الكثير من رجال الأعمال الإفريقيين في الماضي، كان مغتاظاً من «ميزانية الانتخابات الهائلة» للمؤتمر الوطني الإفريقي.(13)

بدأت الحملة رسمياً في 12 شباط (فبراير) 1994، لم يشك أحد في أن المؤتمر الوطني الإفريقي سيحرز أصواتاً أكثر من حزب دوكليرك الوطني. قال مانديلا: «إننا نتعامل مع فأر، نحن في المؤتمر الوطني الإفريقي مثل الفيل». لكن السؤال الجاد بدرجة أكبر كان ما إذا كانوا سيفوزون بأغلبية الثلثين مما يسمح لهم بإعادة النظر في الدستور. لكن هل ستتم الانتخابات أصلاً؟ هناك حزبان رئيسيان لم يسجلا: إنكاثا باثيليزي وحزب فولكسفرونت الأفريقاني. وكان بإمكانهما معاً أن يمزقا جنوب إفريقية. وبرهنت ملاطفة هاتين القوتين الخطيرتين على أنها أكثر المهمات دقة وخطورة بالنسبة إلى مانديلا وراء مشاهد حملة الانتخابات.

كان مانديلا ينظر دوماً إلى الأفريقانيين اليمينيين بوصفهم الأعداء المرعبين. وحتى لو لم يكن باستطاعتهم إثارة تمرد مسلح، فإن بمقدورهم نشر مؤيديهم الكثيرين في الجيش والخدمات المدنية لتجميد حكومة سوداء. جاءت المقاومة الأكثر علانية من الـ AWB بقيادة يوجين تير بلانش الذي أصبح في العناوين الرئيسية عندما غزوا مركز التجارة العالمي. وقد تظاهروا بخيولهم وصلبانهم المعقوفة المزيفة ومنطقهم المخيف أمام كاميرات التلفاز مذكّرين بحرب البوير. لكن جيشهم ـ المرحلي ـ من قطاع الطرق الكثيرين لم يعرض للخطر حياتهم بالذات، وكان لديهم القليل من الشجاعة أو الدهاء اللذين كانا لدى الفدائيين الشجعان النحيلين الذين تحدوا البريطانيين قبل تسعين عاماً.

جاء الخطر الأكثر جدية من (الفولكسفرونت)، وهي التحالف الواسع للمجموعات اليمينية في أيار (مايو) 1993، والذي ضم الـ AWB كما ضم الحزب المحافظ أيضاً بزعامة زعيمه الجديد فيردي هارتزينبرغ، وهو مزارع أفريقاني متصلب. وكان يرأس الفونكسفرونت الجنرال كونستاند فيلجوين وهو جندي أنيق ذو شعر أبيض، أحيل مؤخراً إلى التقاعد بعد أن كان قائداً للقوات الدفاعية. وهو ذو شعبية أكبر بكثير من هارتزينبرغ. لم يؤمن فيلجوين بديموقراطية متعددة العروق؛ فقد اعتقد أنها اختراع مصطنع، مثل القهوة السريعة، «قليل من القهوة، قليل من الحليب، قليل من السكر البني».[14] طالب بدولة أفريقانية منفصلة أو «فولكستات»، وكان مستعداً للدفاع عن شعبه بالذات ضد الشرطة. وأعلن مرتين أمام الجماهير أنه يجب على أي أفريقاني أن لا يقتل أفريقانياً آخر. اعتبره مانديلا خطراً حقيقياً على القانون والنظام، لأن «الأفريقانيين هم مثل الزولو؛ مخلصون جداً لزعمائهم».[15]

أقلقت فولكسفرونت التابعة لفيلجوين مانديلا بدرجة أكبر بعد تشرين الأول (أكتوبر) 1993، عندما تحالفت مع باثيليزي والوطنييْن بوبهو ثاتسوانا والسيسكي، اللذين كانا يقاطعان الانتخابات أيضاً، وذلك في تحالف غريب COSAG. رأى مانديلا في هذا التجمع «خطراً شديداً» على عملية التفاوض، وأبلغ رجال الأعمال أن اليمين الأفريقاني يمكن أن يلحق ضرراً أكبر من الكفاح المسلح في عقد الثمانين، عن طريق مؤيديه في الخدمات المدنية والجيش والشرطة. فإذا طبقوا تهديدهم بالحرب الأهلية ـ كما حذر ـ «فإن الآلاف من البيض ربما يموتون»[16] اعتقد في سره أنه إذا كان فيلجوين جزءاً من مؤامرة، فسيصبح من الصعب على حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي الاستفادة من الجيش.[17]

لكن كان مانديلا يكن تقديراً لبعض المحافظين الأفريقانيين، الذين نظر إليهم بوصفهم أكثر استقامة وصراحة من دوكليرك. التقى أولاً الجنرال فيلجوين

في آب (أغسطس) 1993، عبر وساطة شقيقه التوأم برام. الذي كان ودوداً إزاء المؤتمر الوطني الإفريقي. قال مانديلا لفيلجوين: «أيها الجنرال، ربما يمكنك هزمنا، لكن إذا اتخذت طريق العنف، فإنك ستتدمر وشعبك في يوم من الأيام».[18] وميّز فيلجوين زعيماً حقيقياً للرجال: «كان رجلاً شعبياً جداً، لأنه كان بسيطاً، وحتى الأرض، وديّناً وشريفاً».[19] شرع تابومبيكي وجاكوب زوما بسلسلة من المحادثات الودية مع فيلجوين، الذي قال سريعاً وعلناً إنه يحقق المزيد من النجاح مع المؤتمر الوطني الإفريقي، الأكثر إخلاصاً من دوكليرك. تعرض مانديلا للهجوم من قِبل هيئته التنفيذية بالذات لتحدثه إلى اليمين الأفريقاني، لكنه أصر على الاستمرار في التحدث لمنع تدهور الأزمة. تألم دوكليرك لأن فيلجوين الذي عرفه جيداً فضل التعامل مع مانديلا؛ رأى في قاعدة قوة فيلجوين أنها عنصرية في الأساس، وتذكر كيف أن أتباعه عدّوا مانديلا إرهابياً شيوعياً.[20] لكن مانديلا أقام علاقة خاصة مع الجنرال أصبحت مفتاح الانتخابات السلمية. لكن قضية الدولة الشعبية «فولكستات» الحلم الأفريقاني القديم بقيت مثيرة للنزاع. ترك مانديلا الطريق مفتوحاً أمام استفتاء عام؛ مع أن ذلك لن يُلزمه رئيساً. اعتقد فيلجوين أن هذا بمثابة جواب مشرف يستطيع نقله إلى شعبه. لكن هارتزنبرغ من الحزب المحافظ لم يكن راضياً عن التزام مانديلا غير المؤكد، وأبلغه صراحة أنه سيعد العدة لوقف الانتخابات بالقوة.[21] في الحقيقة لم يعتقد المؤتمر الوطني الإفريقي أن (فولكستات) عملية قائمة في ظل ظروف ديموقراطية، لأن مؤيديها مبعثرون في أنحاء البلاد، حيث لا تتوافر أغلبيته في أي مكان؛ وصار من الصعب الآن تحديد الأفريقاني الذي له الحق في العيش هناك. قال أحد وزراء المستقبل: «إنها ليست دولة بل حالة ذهنية».

كان مانديلا يمد يده إلى زعماء أفريقانيين آخرين ليتجنب المكاشفة. التقى ثلاث مرات مع بيك بوثا، وزير الخارجية المحارب القديم الذي وجده أكثر رجل إيجابي في الحكومة تجاه المؤتمر الوطني الإفريقي.[22] كان بيك بوثا

متشككاً بخصوص المتمردين الأفريقانيين: اعتقد أنهم ربما يسيطرون على بضع بلدات، لكن مقاومتهم لن تستمر. إلا أنه كان حريصاً على أن يكون مساعداً: كان قد قال قبل ثماني سنوات إن بإمكانه العمل في ظل رئيس أسود. مما أثار غضب الرئيس بوثا؛ واعتاد الآن أن يدعو مانديلا باسم «السيد الرئيس».

كانت أجرأ خطوة قام بها مانديلا هي زيارة الرئيس السابق بوثا ذاته، «التمساح الكبير» الذي أبقاه في السجن لمدة طويلة جداً. في 12 شباط (فبراير)، عندما افتُتحت الحملة الانتخابية، ذهب مانديلا إلى ويلدرنس وهي منتجع هادىء على شط البحر في خليج الكاب حيث اعتزل بوثا. كان مانديلا يَكنُّ تقديراً عجيباً للرجل العجوز الذي كان يكبره بعامين وكان طويلاً مثله؛ وشك أنه ربما يمكنه التفاوض معه بفعالية أكثر مما مع دوكليرك بوصفه رجلاً يمكن الوثوق به. كان يبدو أنه يعتبر بوثا زعيماً أبيض: ففي إحدى المرات، عندما حطت طائرته في هبوط اضطراري قرب ويلدرنس، طلب من بيك بوثا رقم هاتف ب. دبليو بوثا، شارحاً بمزاح: «من عادة الإفريقيين أن يبلغ زعيم زعيماً آخر عندما يكون مسافراً في منطقته».[23] وهنا ظن أن بإمكان ب. دبليو بوثا ممارسة نفوذ كابح على اليمين الأفريقاني والعسكر.

استقبله ب. دبليو بوثا في مكتب كئيب يجاور منزله. ما زال ينظر إلى جنوب إفريقية ضمن مجال الحرب الباردة، وإلى مانديلا بوصفه شيوعياً؛ لكنه عَدَّه أيضاً رجلاً مهذباً وزعيماً، مثل ابن أخته ماتانزيما. تذكر مانديلا كيف التزما معاً بالسلام عند لقائهما في تيوزهيوز، وعبر عن قلقه بخصوص العنف: «إذا تأجل توقيت الانتخابات فإن الشعب سيذبحنا». كان مستعداً للتنازل حول تقرير المصير، وطلب من بوثا مساعدته لإقناع الزعماء الأفريقانيين.

أجاب بوثا بأن جنوب إفريقية كانت في وضع خطير، يقترب من الفوضى؛ يتعين على مانديلا (السير ببطء)؛ وإلا «فإن الأمور سيصبح من الصعب جداً التكهن بها». لكن يتوجب على العالم أن يترك الجنوب إفريقيين

وشأنهم لحل مشكلاتهم الخاصة بهم. أكد مانديلا: «إن الجوهر الحقيقي للمشكلة هو بين الفولكسفرونت والحكومة والمؤتمر الوطني الإفريقي؛ أود أن أُشرك هؤلاء الناس». اقترح بوثا أن يقنع مانديلا جميع الزعماء الأفريقانيين بالاجتماع معه، بمن فيهم دوكليرك (وليس تيري بلانش الذي كان يريد مانديلا إشراكه). افترقا بود، بعد أن قدم بوثا لمانديلا نسخة من كتاب يضم خطبه، «مقاتل ومصلح» كتب مانديلا في سجل الزوار: «أجريتُ مناقشة بناءة ومثمرة مع الرئيس السابق ب. دبليو بوثا. نيلسون مانديلا، 51 شارع بلين».[24]

لم يستطع مانديلا إقناع دوكليرك بالتعاون في اللقاء المقترح ـ «كان عاطفياً يعارض لتدخل ب. دبليو بوثا» ـ ولا في غيره مطلقاً. في الحقيقة لم يكن بوثا مفيداً جداً من ناحيته هو؛ إذ لم يحث فيلجوين الذي كان «شخصاً مستقلاً جداً». لكن مانديلا بقي ممتناً جداً لبوثا «لمحاولته تحقيق السلام في بلدنا».[25]

بقي الجنرالات الأفريقانيون هم مفتاح الانتخابات السلمية، والفترة الانتقالية بعد ذلك. بقي ولاؤهم المستقبلي موضع شك؛ فقد شنوا حرباً على المؤتمر الوطني الإفريقي مدة ثلاثين عاماً، وشعر الكثيرون منهم بأن دوكليرك قد خانهم بصنعه السلام. ألقى الجنرال ميرينغ، قائد القوات الدفاعية كلمة قاسية عام 1992 ندد فيها بكل من موديس، كاسريلز، وهاني. وخشي كاسريلز ـ الذي أصبح قريباً وزيراً للدفاع ـ خشي من أن المؤتمر الوطني الإفريقي ربما شعر أنه قد نصب له كمين «مثل بيت ريتيف في دينغانز كارل». ثم تم تطمينهم مجدداً من قبل بعض القادة العسكريين الكبار؛ وعد قائد القوى الجوية أن يستخدم طائراته لقصف القوات المتمردة إذا دعت الضرورة. لكن المؤتمر الوطني الإفريقي رأى استمرار احتمال قيام انقلاب عسكري ضمن التقليد الإفريقي أو الأمريكي اللاتيني.[26]

استخدم مانديلا سلطته كلها إضافة إلى التملق لطمأنة زعماء الجيش وقوى الأمن. إذ زار قبل وقت يسير من الانتخابات مفوض الشرطة الجنرال

جوهان ڤان دير ميروي في مكتبه ليسأله إن كان بمقدوره أن يعمل تحت سلطته، قال ڤان دير ميروي إنه قد خدم أكثر من مدة عقده الأصلي. وزار مانديلا أيضاً الجنرال ميرينغ، الذي أجاب بالإيجاب بلا تلكؤ، ووعد أن يكون شديداً لا يرحم مع كل من يحاول التدخل بالانتخابات.[27]

اعتقد بعض الزملاء أنه كان واثقاً أكثر من اللزوم بميرينغ والآخرين. لكنه كان مصمماً على استرضاء الأعداء السابقين، مهما كانت إساءاتهم الماضية.

بحلول آذار (مارس)، كانت الحرب الأهلية تبدو أقرب، عندما قاطع الأفريقانيون اليمينيون وحزب باثيليزي الانتخابات، إضافة إلى الوطنييْن الأصلييْن، سيسكي وبوبهو تاتسوانا أو «بوب». أصبح شعب بوب الآن في خط المواجهة. وكانوا قد منحوا المواطنية الجنوب إفريقية ليتمكنوا من الاقتراع، لكن ديكتاتورهم، لوكاس مانغوبي، ما زال رافضاً للانتخابات، في حين كان شعبه في حالة تمرد تام ضده. قرر مانغوبي دعوة فولكسفرونت الأفريقانية للدفاع عنه. وافق الجنرال فيلجوين بتسرع، وعبأ جيشه الخاص الصغير للتحرك إلى «بوب» لدعم قوات مانغوبي الخاصة. لكن جيش فيلجوين فاقته القوات الأكثر شراسة من الـ AWB ـ بقيادة تير بلانش ـ الذي اقتحم ممباتو العاصمة، شاهراً المدافع اليدوية والمسدسات والبنادق، ومطلقاً النار على السود في الشوارع. ثار غضب جيش بوب من هذا الغزو الأبيض، وتمرد فوراً على مانغوبي وأطلق النار على الغزاة. انسحب جيش فيلجوين بهدوء، واستمر الـ AWB في الاهتياج إلى أن اضطر للتراجع بطريقة التبعثر. التقطت كاميرات التلفزة الرعب بأكمله عندما كان ثلاثة أفريقانيين بسيارة مرسيدس زرقاء يطلقون النار من نافذة السيارة، تم إيقافهم بنيران البنادق ثم واجهتهم شرطة بوب، حيث قتلهم أحد رجال الشرطة بوحشية. كان صورة مدمرة؛ كتب أليستر سباركس: «وهم المغامرة والتشريع البطولي المتجدد لأساطير البوير التاريخي تحطما في يوم من الدم والإذلال».[28]

كان هناك المزيد من الحديث عن إراقة الدماء. كتبت الصنداي تايمز اللندنية: «جنوب إفريقية ورطت نفسها بحرب عرقية يوم أمس». وذلك تحت عنوان «البوير يصرخون الثأر من الكفير»[29]، لكن الإخفاق التام «المعركة بوب» برهنت سريعاً على أنها هبة سياسية لمانديلا ـ والسلام. تمت الإطاحة بمانغوبي؛ وأصبح بإمكان المؤتمر الوطني الإفريقي العمل بحرية في البوب؛ في حين لحق الخزي بالمتمردين العسكريين الأفريقانيين. رُوِّع الجنرال فيلجوين بالإخفاق التام، وقرر في اللحظة الأخيرة في 16 آذار (مارس)، أن يترك بقية الفولكسفرونت وينافس في الانتخابات من خلال حزبه بالذات، جبهة الحرية. كان مانديلا شاعراً دوماً بالامتنان للجنرال. قال فيما بعد: «عندما انسحب، عرفت أن قضية الجناح اليميني كانت للشرطة فقط». [30] لكنها كانت عملية إنقاذ سريعة. كان دوكليرك سيواجه وضعاً خطيراً، كما قال فيما بعد، لو أن فيلجوين تدخل بنجاح لاسترداد سلطة مانغوبي غير الشرعية في البوب. هل كان دوكليرك سيرسل الجيش الجنوب إفريقي للعمل ضد فيلجوين وهل كان سيطلق النار ضد قائده السابق؟ لقد ترك السؤال بلا جواب. ومما يدعو للسخرية أن قطاع الطرق في الـ AWB هم الذين أنقذوا الموقف، من خلال تشويه سمعة الحملة بأكملها ونظام حكم مانغوبي، مع النظام الذي أوجدها. كتب دوكليرك فيما بعد: «بإزاحته من السلطة، انسحقت انسحاقاً تاماً البقايا الأخيرة لصرح فيروورد المحكم للتمييز العنصري المهيب». [31]

بقي هناك الخطر الفعلي للمقاومة من جانب اليمين الأبيض، وبقيت العقبة الكبيرة الأخرى أمام الانتقال السلمي؛ باثيليزي، الذي بقي ثابتاً ضد الانتخابات والدستور الجديد، الذي رأى فيه تقليلاً من شأن مملكة الزولو، قال في مؤتمر للإنكاثا في كانون الثاني (يناير): «لن تدخلها قوات أجنبية لتحكمنا». كان يؤيده الملك غودويل، ملك الزولو الضعيف. الذي أراد الآن أن يحكم مملكة ذات سيادة أوسع تشمل الناتال بأكمله كما كان الحال عام 1830.

تضاءلت الآمال بالتسوية بجولة جديدة لأعمال القتل، وأرسلت الحكومة الانتقالية القوات إلى ناتال لمحاولة تقييد العنف. بدت المذابح مشؤومة أكثر فأكثر بعد أن أبلغ القاضي غولدستون في 18 آذار (مارس) عن: «شبكة رهيبة للنشاطات الإجرامية» تربط الإنكاثا بالشرطة الجنوب إفريقية. اعترف دوكليرك فيما بعد أنه «بدا في النهاية أنها تحقق الشكوك التي كانت منذ وقت طويل، فيما يتعلق بوجود قوة ثالثة شريرة ضمن قوى الأمن».[32]

حاول مانديلا الاسترضاء، قال أمام حشد: «إنني سأركع على ركبتيّ لأتوسل لأولئك الذين يريدون جر بلادنا إلى إراقة الدماء». ذهب إلى دوربان لمحاولة جذب باثيليزي، وناقش إمكانية مجيء وسطاء دوليين. إلا أن الأزمة استمرت وبقي الملك قريباً من باثيليزي، الذي ما زال يقاطع الانتخابات حتى اليوم الأخير، 11 آذار (مارس)، عندما قرر فيلجوين المشاركة في الحملة.

دبَّر باثيليزي آنذاك مظاهرة استفزازية في 28 آذار (مارس) وسط جوهانسبورغ. وفي اليوم السابق، كان مانديلا قد حذر دوكليرك، الذي حذر بدوره رؤساء الشرطة الذين لم يقوموا بأية إجراءات مسبقة مرئية. عندما وصل الزاحفون إلى شل هاوس، مقر قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي، أعطى مانديلا الأوامر لحراس الأمن: «يجب أن تحموا المقر حتى لو توجب عليكم قتل الناس».[33] أطلق بعض المتظاهرين النيران داخل المبنى؛ اختفت الشرطة، وخشي المؤتمر الوطني الإفريقي من أن يغزوه الزاحفون. استهدف حراس المؤتمر الوطني الإفريقي - بعد إطلاق النار في الهواء - استهدفوا الحشد بالضبط، فقتلوا ثمانية أشخاص بمن فيهم من أصيبوا في ظهورهم أثناء فرارهم. رأى أحد الصحفيين داخل البناء في ذلك «هجوماً دموياً معاكساً من أولئك الذين كانوا محاصرين في المبنى».[34] هاتف دوكليرك مانديلا ووافق على أن الشرطة يجب أن لا تفتش عن الأسلحة داخل شل هاوس؛ في اليوم التالي منع مانديلا شخصياً الشرطة من الدخول إلى المبنى. لكن تشكى دوكليرك آنذاك من أن

مانديلا تراجع عن وعد بالتعاون كلياً مع تحقيقات الشرطة.[35] استمر اللوم قيد النقاش بشدة. واعتقد مانديلا أن دوكليرك سمح عمداً بالزحف، مثلما سمح بالمذبحة في سيبوكينغ في تموز (يوليو) 1990. وبعد أربع سنوات وجد القاضي في محكمة عليا للتحقيق أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان مخطئاً بادعائه أن الإنكاثا تآمرت للهجوم عليه؛ لكنه ألقى اللوم أيضاً على الشرطة والإنكاثا.[36]

تبع «مذبحة شل هاوس» المزيد من أعمال القتل وقصص عن الهلع. قالت الدايلي ميل اللندنية بتاريخ 3 نيسان (أبريل): «رسمت خطط الطوارىء لنقل حوالى 350,000 من البريطانيين بالطائرات إلى خارج جنوب إفريقية، هل تنحدر البلاد إلى الفوضى بعد الانتخابات في هذا الشهر». بدا باثيليزي عنيداً لا يعرف الصفح؛ وحذر قائلاً: «دخلنا الآن كفاحاً أخيراً حتى النهاية، بين المؤتمر الوطني الإفريقي وشعب الزولو».[37] في 8 نيسان (أبريل) التقى مانديلا ودوكليرك باثيليزي وملك الزولو في محمية حديقة كروغر الوطنية حيث (قال دوكليرك) إن مانديلا «تحدث بطريقة حذرة ومدروسة». وعد الملك «بسلطة أكثر من ملكة إنكلترة»، في حين أصر على أن الانتخابات لا يمكن تأجيلها. لكن باثيليزي والملك كانا متصلبيْن، وانتهت القمة من غير حدوث أي اختراق. قالت الصنداي تايمز اللندنية: «استعدت جنوب إفريقية لحرب أهلية يوم أمس».[38]

بدا حمام الدم المتوقع رهيباً أكثر فأكثر في ضوء المذابح في رواندا في ذلك الوقت؛ وكانت قوى الأمن تحذر سراً من أن جنوب إفريقية ربما تشهد مليوناً من الوفيات.[39] لكن كان هناك أمل أخير. ففي القمة وافق باثيليزي على دعوة وسطاء دوليين، وهذا ما وافق عليه مانديلا مع أن زعماء آخرين في المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا حذرين. وصل فريق من سبعة أشخاص وعلى رأسه هنري كيسينجر ووزير الخارجية البريطاني السابق اللورد كارينغتون وضم بروفسوراً كينياً ضخماً هو واشنطن أوكومو. بقوا ثلاثة أيام في فندق الكارلتون في جوهانسبورغ محاولين التوفيق بين الأطراف. اجتمع كيسينجر مع مانديلا

وسيريل رامافوزا، الذي أصر على أن يسمح الوسطاء الآن بالتأجيل. كان المؤتمر الوطني الإفريقي والإنكاثا يلعبان لعبة (بوكر) خطيرة، كما بدا بالنسبة إلى كولن كولمان أحد أفراد فريق الوسطاء»؛ إننا ننظر من خلال ألسنة اللهيب».[40] غادر كيسينجر وكارينغتون بعد عدم تحقيق أي نجاح. قال كيسينجر فيما بعد: «لو أننا بقينا لأصبحنا جزءاً من المشكلة. وفشلنا حقق نجاحاً بطريقة ما».[41]

صار باثيليزي الآن معزولاً بدرجة أكبر. فقد أرسل الحلفاء القدماء بمن فيهم الجنرال أوباسانجو والسيدة تاتشر، أرسلوا رسائل ينصحونه فيها بالمشاركة في الانتخابات.[42] استسلم الوطني الأخير ـ السيسكي. وكان ملك الزولو قد تم إبعاده عن عمه باثيليزي عن طريق مانديلا، في حين شعر موظفو الخدمات المدنية للزولو بالقلق بخصوص من سيدفع لهم رواتبهم في ظل حكومة منفصلة.

قبل أن يغادر باثيليزي جوهانسبورغ، التقاه البروفسور أوكومو في المطار ليقوم بمناشدة أخيرة، محذراً إياه من أن الانتخابات ستتركه خارجاً. وأن النتيجة ستكون دموية. عند ذلك اقترح باثيليزي احتمال مشاركته، ضمن ثلاثة شروط: إذا لم تتم معاملة الإنكاثا من خلال تمييز عنصري، وإذا تم إدخال مملكة الزولو ضمن الدستور، وإذا استؤنفت الوساطة الدولية بعد الانتخابات. أكد عرضه في اليوم التالي. صُنعت مسودة مذكرة تفاهم بسرعة ووافق عليها باثيليزي. ثم طار أوكومو بعد ذلك إلى كيبتاون ومعه كولمان واثنين تنفيذيين من الأنكلو ـ أمريكيين لتقديمها إلى مانديلا في فندق كيب صن. كان مانديلا قد عاد لتوه وهو مضطرب جداً بسبب حشد انهار فيه سياج وقتل شخصان، إلا أنه وافق بسرعة على الخطوط الرئيسية وهاتف دوكليرك الذي اتفق معه في الرأي مع بعض التحفظات.[43] في 19 نيسان (أبريل) التقى مانديلا ودوكليرك في بريتوريا مع أوكومو وباثيليزي، واتفقوا على البنود العامة، في حين أعد الخبراء نصاً منقحاً

لتهدئة مخاوف باثيليزي. كان ذلك قبل أسبوع فقط من الانتخابات. وكانت قد تمت طباعة أوراق الاقتراع مقدماً؛ لكن اللجنة الانتخابية كانت ما تزال قادرة ـ وبحالة مدهشة ـ على طباعة أوراق مصمغة تضاف إلى الصفحات تحمل اسم الإنكاثا؛ في حين وافق دوكليرك بكرم على أن حزبه الوطني سيخسر مكانه الخاص في أسفل ورقة الاقتراع.[44] شعر زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي براحة عميقة لكنهم ما زالوا غير عارفين ما الذي غير تفكير باثيليزي.[45]

تم النظر إلى الأسبوع النهائي للحملة الانتخابية على أنه نوع من التنافس بين مانديلا ودوكليرك، حيث كان كلاهما يتمتعان بشعبية عالمية براقة. كان دوكليرك قد أساء إساءة خطيرة في فهم مهارات المؤتمر الوطني الإفريقي في التقديم. كان بإمكانه ضمان حفنة من الناطقين المقنعين بالإنكليزية على شاشة التلفاز، في حين عرض المؤتمر الوطني الإفريقي اختياراً واسعاً. وأظهر مانديلا جميع براعاته مصلحاً يستطيع تكييف صورته حسب المشاهدين والسائلين. قال أحد أفراد فريق دوكليرك: «كانت هناك مغالاة في تقديره رجل دولة، وتقليل في اعتباره سياسياً». كان يغيّر ثيابه أحياناً ثلاث أو أربع مرات في اليوم، من لباس يصلح لفطور عمل، إلى قميص مفتوح من أجل حشد في قرية، إلى سترة صوفية لزيارة الأشخاص المسنين. لقد ظهر حتى في لباس ميدان مموّه جنباً إلى جنب مع جوي موديس، ليروق للناخبين من الفدائيين. «لكن دوكليرك كان يرتدي معطف الغولف ذاته» كما تشكى أحد المساعدين.[46] وكان لدى دوكليرك عائق محتوم من محاولة أن يروق للسود. اعتقد المستشار السياسي الأمريكي ستانلي غرينبيرغ أن رصيد مانديلا كان يرتفع في كل مرة يحاول دوكليرك إضعافه؛ قال غرينبيرغ «عندما يهاجم حزب المضطهِدين فإنك تحصل من المضطهَدين على رد فعل يحميك».[47] توجب على دوكليرك أن يكبح نفسه عن الهجمات الصريحة على المؤتمر الوطني الإفريقي حزباً لا يليق به أن يحكم، لأنه يتعين عليه العمل إلى جانب مانديلا في ائتلاف بعد الانتخابات ـ

على الرغم من أنه لم يدرك هذه الفكرة.[48] كانت الانتخابات في النهاية انتخابات صامتة، حيث لم يقل فيها أي من الطرفين ما يفكر به.

كان المؤتمر الوطني الإفريقي هو المنتصر بوضوح في معظم المقاطعات التسع، إلا أنه تم تحديه جدِّيًا في الكاب الغربي، معقل الناخبين الملونين. كان زعيمهم المحلي ألان بويساك ـ الواعظ الذي ساعد في تأسيس الجبهة الديموقراطية الموحدة ـ قد فقد الكثير من أتباعه بعد طلاقه زوجته ليتزوج امرأة بيضاء، وتركه كنيسة الإصلاح الهولندية، ووجد الكثيرون من ناشطي المؤتمر الوطني الإفريقي أنه مزهو جداً ومغرم بالحياة الأرستقراطية. بقي مانديلا مخلصاً بعناد لبويساك، وأصر على أن يبقى زعيم المؤتمر الوطني الإفريقي، إلا أن الكثيرين من الناخبين الملونين كانوا منزعجين من احتمال قيام حكومة سوداء، وفضلوا الاقتراع لدوكليرك ولزعيم الحزب الوطني المحلي هيرنوس كريل. قال مراقب أمريكي واسع الاطلاع هو ويليام فينيغان: «لم أعد أذكر عدد الذين أبلغوني أنهم لن يصوتوا لكفيري، أو يدعوا رجلاً أسود باسم Baas».[49] كانت نكسات المؤتمر الوطني الإفريقي في الكاب الغربي صفعة قوية لمفهومه عن التعددية العرقية.

قبل عشرة أيام من الانتخابات، ناقش مانديلا مع دوكليرك، على التلفاز، الأسلوب الأمريكي. كان مانديلا قد دربه مستشار سابق آخر لكلينتون هو فرانك غرير، حيث كان أول تعليماته: «كن رئاسياً». علَّمه غرير أن يتحدث أسرع وأن لا يلوح بأصبعه، مما يذكر المشاهدين بـ ب. دبليو. بوثا ـ وأن يستمر في الابتسام.[50] تمرن مانديلا في اليوم السابق مع دوكليرك الذي قام بدوره الصحفي أليستر سباركس الذي كان قلقاً من أن يتخطى مانديلا حصته لدقيقتين في الكلام: «إنه سيستمر لثلاثين دقيقة إذا ترك وشأنه».[51]

في النقاش الفصلي، بدأ مانديلا بحديث طويل لثلاث دقائق بوجه جامد دون ابتسام وهذا ما اختصره المُرسل، وشعر دوكليرك سريعاً أنه كان يكسب في

النقاط. إلا أن مانديلا فاجأ دوكليرك في النهاية عندما مد له يده بعفوية صريحة، لكنه كان قد تمرن عليها بعناية لإرباك دوكليرك. قال أحد مستشاري مانديلا: «عرفنا أن لغته الجسدية لم تبد جيدة».[52] واعترف دوكليرك فيما بعد: «ما كان يُعَدّ بعض نقاط النصر تحول فجأة إلى تراجع، كانت ضربة بارعة».[53] اختتم مانديلا حديثه بأسلوب استرضائي امتاز به. قال لدوكليرك: «أظن أننا مثال وضاء للعالم بأكمله، على أشخاص من مجموعات عرقية مختلفة لديهم ولاء مشترك، وحب مشترك، لبلدهما المشترك». قال غرير فيما بعد: «كان له كل التفوق، كان قاسياً بما يكفي لتنشيط قاعدته، لكنه كان قادراً أيضاً آنذاك على الوصول والمناشدة بالمصالحة».[54]

معظم الأسبوع الأخير قبل يوم الاستفتاء، بدا المناخ سلمياً معجِباً. عندما عقد مانديلا لقاءه الأخير الحاشد في جوهانسبورغ، في المدرج خارج سوويتو، كان الجو العام يسوده الاحتفال، فقد تجمع ستون ألفاً من مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي ضمن فرق، وهم يلوحون بالأعلام والشعارات، لينصتوا إلى المغنين الذين كانوا يصرخون عبر المكبرات التي تصم الآذان، وليشاهدوا الراقصين وضاربي الطبول والبهلوانيين. ثم حلقت طائرة مروحية فوق الرؤوس وهبطت خارجاً، في حين استمر قرع الطبول، وقادت الفتيات بالقلبق الفرو استعراضاً حول المدرج، وكان في نهايته القامة الفارعة التي لا يمكن لأحد أن يخطئها؛ إنها قامة مانديلا المشرق في قميص أحمر، يصافح الأيدي، ثم يجلس بين الأطفال الصغار، وهو يبتسم ويصفق معهم. حمّس تابو مبيكي الجمهور وقدّم مانديلا أمام تصفيق هادر. مد مانديلا يده لجميع أنواع المؤيدين ـ من جميع الأديان والأعمار ـ وتم نقل كلماته إلى الكزوسا من قبل كوكيو سيكسويل مضيفاً مشاعره ومرحه بصوته الجميل. اختفى المرح فجأة عندما أطلقت عيارات نارية من مكان ما في المدرج: وبخ مانديلا الجمهور بعنف ـ «يجب أن لا يأتي أحد إلى اجتماع وهو مسلح» ـ. وأصر على إلقاء القبض على

الفاعلين وإبعادهم. إلا أن الأمر انتهى بتآلف وانسجام؛ وبدا وكأنه رئيس دولة فعلاً عندما أُقل بعيداً في سيارته، في حين أوقف حراس الأمن أي شخص يحاول الوصول من النافذة ليصافحه.

في 26 نيسان (أبريل)، اليوم السابق للانتخابات، عقد مانديلا المؤتمر الصحفي الأخير له في جوهانسبورغ. بقي متكتماً بخصوص مشاعره - «بعض الأمور لا يمكن التعبير عنها بالكلمات» وأصر على «أنه لا يمكن لفرد وحده أن يرتفع فوق الآخرين». لكنه اعترف أنها «لحظة مثيرة جداً»، وتمنى لو أنه يوقظ الأبطال الميتين مثل ثابو وهاني ليتمتعوا بثمار أعمالهم. بعد ذلك، تحدث بفخر عن توحيد المؤتمر الوطني الإفريقي: «كان هناك دوماً ستة وعشرون حزباً يعملون في اتجاهات مختلفة»، كما قال يوم الانتخابات «والآن ستكون لدينا حكومة وحدة».[55]

في الأيام القليلة الأخيرة انفجرت عدة قنابل في جوهانسبورغ وبالقرب منها، بما فيها سيارة مفخخة انفجرت خارج المكتب الإقليمي للمؤتمر الوطني الإفريقي. بلغ مجموع الضحايا بالأرواح عشرين شخصاً[56]! تبين أن جميع القنابل وضعتها خلية تابعة للـ AWB تهدف إلى تخويف الناخبين وإبعادهم عن صناديق الاقتراع. لكن الناخبين السود لم يمنعهم ذلك، وصمموا على المشاركة لأول مرة في ديموقراطيتهم التي حصلوا عليها بصعوبة. وقبل فجر يوم 27 نيسان (أبريل) بدؤوا يقفون بالصف في مراكز الاستفتاء، وينتظرون أحياناً خمس ساعات قبل الاقتراع. قال أحدهم: «بعد حوالي 350 سنة فإن 350 دقيقة ليست شيئاً». أبدى الناخبون الصبورون والمترقبون من الثقة، في العملية الديمقراطية، أكثر مما أبداه الناخبون اللامبالون في أمريكة أو أوربة؛ وقد اختفى تقريباً العنف في ذلك الصباح الحار، وكأن العملية الديموقراطية قد صفّته. لكنهم أظهروا بعض علائم التوقعات غير الواقعية: عندما طلب من مراسل البي بي سي إحضار نماذج صوتية من الناخبين الذين كانوا يتوقعون

السيارات والبيوت بعد الانتخابات لم يجد أحداً يتفضل عليه بذلك. لم يكن المال بغيتهم بل الاقتراع الذي حرموا منه لمدة طويلة هو الذي كانوا ينتظرونه صفوفاً.

أمضى والتر سيسولو المعلم القديم لمانديلا، أمضى اليوم مع الناخبين في سوويتو؛ شعر أن حياته بأكملها تتجه نحو هذا النصر للسلام على الحرب الأهلية. «ما يجعل ثورتنا واحدة من أعظم الثورات» قال فيما بعد هو أن «الشعب كان مصمماً على شيء واحد فقط، أن يقوم بالعبور».[57] استمتع مانديلا خاصة برؤية المزارعين الأفريقانيين يقفون إلى جانب عمالهم الإفريقيين: «يمكنك أن ترى أن جنوب إفريقية جديدة قد بدأت». لقد نزل بنفسه إلى دوربان ليقترع في مدرسة أوهلانج الثانوية، قرب قبر جون ديوب - المؤسس الآخر للمؤتمر الوطني الإفريقي عام 1912 - حيث اختير المكان بعناية مميزة من أجل الرمزية، لتذكّر الأبطال الذين ماتوا والذين جعلوه قادراً الآن على الاقتراع لأول مرة: «كنا وكأننا شعب وُلد من جديد».[58]

راقب العالم الانتخابات بتوتر. لم تراقب أية انتخابات عن كثب مثل هذه؛ كان ما يقدر بـ 200,999 من الموظفين الرسميين والمتطوعين يراقبون الناخبين البالغ عددهم 23 مليوناً. أشرف المبعوث الخاص من الأمم المتحدة وهو الجزائري المهذب الأخضر الإبراهيمي، أشرف على جيش من المتطوعين من الأمم المتحدة بأربطة أيديهم أو قبعاتهم الزرقاء وهم مبعثرون حول المناطق. مع ذلك كانت هناك فوضى في العديد من حجيرات الاقتراع. لم تصل الأوراق، والحبر، والاستمارات. تدفقت التقارير ولا سيما من كوازولو التي لم يكن لديها سوى أسبوع للاستعداد - تدفقت عن ارتباكات، أو لغط وبطاقات انتخابية مضاعفة أو مفقودة. كان مانديلا سريعاً في رؤية مؤامرة: «من الواضح لي أنه حدث هناك تخريب كبير غير مقبول بتاتاً». قال على شاشة التلفاز يوم الانتخابات. خشي المنظمون من أن يحتاجوا إلى يوم ثالث من

الاقتراع. وارتعد دوكليرك خشية أن تبدو جنوب إفريقية مثل «أي بلد إفريقي آخر».[59]

لكن الرأي الواسع كان واضحاً. قال الإبراهيمي: «كل حزب ألزم نفسه بالتغيير، والنتيجة ستكون مجرد ما يمكنهم توقعه».[60] صنعت الأحزاب السياسية في النهاية نتيجة جاهزة وغير مصقولة وفرت تسوية مقبولة. قال دوكليرك: «كانت انتخابات انطباعية». أحرز حزب دوكليرك الوطني أغلبيته 53٪ من الكاب الغربي - حيث اقترع له 69٪ من الملونين هناك. وكان لدى إنكاثا باثيليزي أغلبية 51٪ من كوازولو - ناتال. وفي المقاطعات السبع الأخرى كان لدى المؤتمر الوطني الإفريقي أغلبية، وعبر البلاد بأكملها كان لديه 62٪ من الأصوات الانتخابية، مما أعطاه 252 مقعداً من بين أربعمائة في البرلمان الجديد. وحصل الـ PAC الذي كان منافساً هائلاً في وقت من الأوقات، حصل على 1,25٪. وصل المؤتمر الوطني الإفريقي إلى أقل بقليل من أغلبية الثلثين مما يسمح له بتغيير الدستور: لكن بدا مانديلا مرتاحاً فعلاً لأنه «لا يستطيع أن يفعل ما يريد». قال فيما بعد: إن نصراً ساحقاً كهذا «سيخلق مشكلات هائلة: سيلجأ دوكليرك إلى المحكمة لإعلان أن النتيجة باطلة». وقد شعر بالقلق من ردود الأفعال بعد الانتخابات. قال للغارديان: «يجب أن نكون حذرين جداً خوفاً من أن الأغلبية ستُستخدم بهدف إكراه الأقليات».[61] أذعن دوكليرك بشهامة أمام الهزيمة في بريتوريا، مادحاً مانديلا بوصفه رجل القَدَر الذي عرف أن وراء هذه التلة تكمن تلة أخرى وأخرى: «المرحلة لا تنتهي أبداً. فبينما نتطلع إلى التلة الأخرى، فإنني أمد يدي إلى السيد مانديلا بصداقة وتعاون». بعد ثلاث ساعات في جوهانسبورغ فيما بعد حضر مانديلا المرهق بالانفلونزا إلى احتفال انتصار المؤتمر الوطني الإفريقي الذي أقيم في فندق الكارلتون، ورد التحية. هنأ دوكليرك على «المعركة الجيدة»، ووصف كيف أنه ما يزال بإمكانهما حتى بعد الكلمات القاسية «المصافحة بالأيدي والجلوس معاً لتناول

القهوة». واختتم قائلاً: لقد حان الوقت لشرب نخب «المعجزة الصغيرة». ما زال العالم يردد«المعجزة الجنوب إفريقية»، لكن الجملة كانت مضللة. وكما قال ألبي ساكس فيما بعد، في الحقيقة كانت «الحدث الأكثر توقعاً والذي تم العمل بشأنه بضمير وعقلانية، أكثر مما توقع أي شخص، وهو بالتأكيد أبعد شيء عن المعجزة».(62)

واجه مانديلا اختيارات فورية وصعبة. فبوصفه رئيساً سيكون له نائبان، وضمن بنود الدستور سيكون دوكليرك أحدهما، بوصفه زعيم الحزب الثاني الأكبر. لكن توجب على مانديلا أن يختار الأكبر من ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي. الاختيار كان حاسماً، لأن مانديلا كان ينوي أن يخدم لفترة واحدة مدتها خمس سنوات، إلى أن يصبح في الثمانين. وسيكون نائبه في المكان الجيد ليخلفه، على الرغم من أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يوافق عليه. توجب على مانديلا أن يقرر بين منافسيْن قادرين من خلفيتين شبه متعارضتين. كان ثابو مبيكي في الواحدة والخمسين الوريث الأوضح بين «أرستقراطيي المنفى» المتمتعين بحماية أوليفر تامبو. ولقد أظهر نفسه كمفاوض ومسوّ بارع للنزاعات، مع التدريب في الاقتصاد والديبلوماسية الذي كان يفتقده مانديلا، ومع المرونة الفكرية للتحول من ثوري إلى إداري. وبما أنه ابن غوفان فقد كانت له روابطه مع الترانسكي والسياسات الراديكالية، إلا أنه لم يكن مقرباً من والده ـ الذي ترك تربيته للآخرين ـ وكان قد تخلى عن معتقداته الماركسية. وكان مثله الأعلى السياسي هو تامبو.

كان سيرسل رامافوزا أصغر بعشر سنوات، وهو ابن رجل شرطة من سوويتو؛ لكنه مر بمحن اختبارية ـ محامياً ـ وزعيماً لعمال المناجم، وأمين سر عاماً للمؤتمر الوطني الإفريقي، ومفاوضاً رئيسياً جلب المؤتمر الوطني الإفريقي إلى السلطة. كان يتمتع بالجاذبية والقسوة التي لا ترحم في آن واحد ليتغلب على مناوئيه المحنكين. لكنه كان خارج التيار الرئيسي للمؤتمر الوطني

الإفريقي: لقد بدأ مع حركة الوعي الأسود، وأتى من قبيلة فيندا الصغيرة نسبياً. كان منفصلاً عن الشبكات في الترانسكي، وعن المنفيين من لوساكا وفدائيي الـ MK.

كان اختياراً صعباً جداً، بدا مانديلا في معظم الأحيان وهو يفضل رامافوزا، ورأى الفائدة في وجود شخص من غير الكزوسا كنائب له، حيث يمكن أن يكون حيادياً بين قبائل ومجموعات المؤتمر الوطني الإفريقي. لكنه تشاور عن كثب مع كبار الزعماء في المؤتمر الوطني الإفريقي، ونقابات العمال عن طريق الـ COSATU ومع الحزب الشيوعي «من غير أن يعبر عن مشاعره». كان إجماعهم بوضوح على ثابو مبيكي.[63] وخرج رامافوزا ورفض منصباً في الوزارة، لكن بدا أنه ما يزال في مجال العمل ليأخذ في النهاية مكان مانديلا زعيماً. ولم يوضّح مانديلا لزملائه أن مبيكي كان خلفه الذي اختاره إلا بعد عامين.

في 10 أيار (مايو) تولى مانديلا الرئاسة في احتفال متألق خارج مباني الاتحاد في بريتوريا، نظمته الحكومة السابقة. تم تقديمه من قبل باربارة ماسيكيلا، وشاهده مايقدر بمليار مشاهد حول العالم. كانت مناسبة دولية احتفالاً بالنصر، على العكس من تولي دوكليرك الرئاسة قبل خمس سنوات. حيث حضر الاحتفال أربعة وفود «أجنبية» فقط - واحد من كل وطن جنوب إفريقي. في هذه المرة كان هناك أربعة آلاف من الضيوف، بعضهم متنافر مثل هيلاري كلينتون وفيدل كاسترو وياسر عرفات ورئيس إسرائيل هاييم هيرزوغ، والأمير فيليب وجوليو من نايريري وبعضهم أصدقاء قدماء أيضاً بمن فيهم الأسقف هادلستون وثلاثة من سجاني مانديلا. أكد مانديلا في كلمته الرئاسية على التجدد والتسوية: «من خلال تجربة لكارثة إنسانية استثنائية استمرت زمناً طويلاً، يجب أن يولد مجتمع ستفخر به الإنسانية بأكملها». وتابع ليعد: «لن

يعاني هذا البلد الجميل أبداً أبداً ظلم الواحد للآخر، أو يعاني المعاملة المهينة بوصفه الشخص البغيض من العالم».

حيَّا الجنرالات ورؤساء الشرطة فأعلنوا الموالاة: تذكر مانديلا أنه قبل بضع سنوات «لم يكونوا يحيونني بل يعتقلونني».[64] المقاتلات النفاثة التي كانت أحضرت للدفاع عن البلاد ضد المتمردين السود هدرت فوق الرؤوس إجلالاً للرئيس الأسود على الرغم من أن بعض ضيوف المؤتمر الوطني الإفريقي بدوا وهم يجفلون وكأنهم توقعوا أن تطلق عليهم النار. لكن الأربعة آلاف من الشرطة المسلحة كانوا منشغلين بحماية مانديلا من الاغتيال (في الحقيقة اقترب رجل مسلح من الـ AWB لقتله إلا أنه تراجع) أنشد الجمهور النشيديْن الوطنييْن؛ «ولم تعرف أي من المجموعتين لحن النشيد الذي احتقرته في وقت من الأوقات» كما قال مانديلا مضيفاً «إنهم سيعرفون قريباً الكلمات عن ظهر قلب»[65](*). لكن بقي هناك شعور قوي بالشعب الجديد الذي يقف وراء الرئيس الجديد.

كان ذلك في الأساس إجلالاً لرجل واحد. قال ثابو مبيكي: «سنرى أنفسنا منعكسين في مجده، المجد الذي نشأ في تواضعه، وشعوره بالتسامح».[66] وكان مجداً وحيداً. رافقت مانديلا ابنته زيني، وهي تضع قبعة سوداء ضخمة، لكن ويني - التي كانت تضع قبعة خضراء أكبر - وُضعت بين الضيوف الأقل أهمية إلى أن اعترضت. وزوجة مانديلا الأولى إيفلين (التي لم تدل بصوتها) لم تكن مدعوة. وابنه الوحيد ماكغاثو كان غائباً، وهو يستعد لفحص المحاماة في دوربان. كان مانديلا مدركاً بألم أن التزامه السياسي «كان

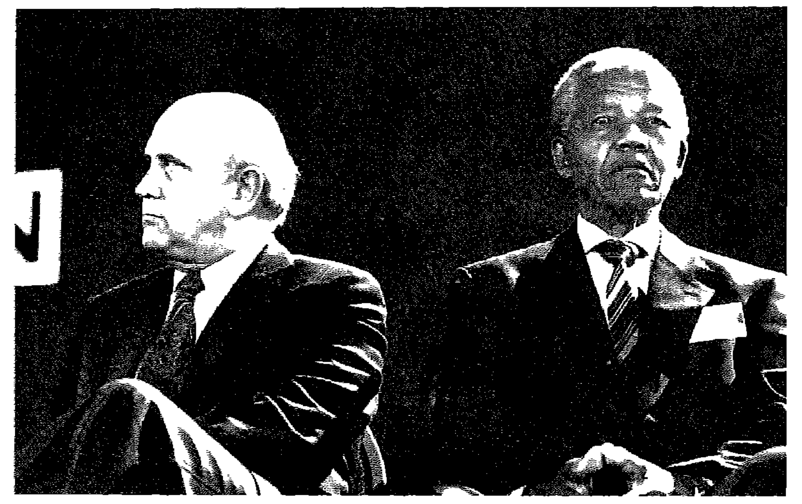
(*) كان على مانديلا أن ينتظر. فبعد أربع سنوات، وخلال احتفال تأبيني لـ تريڤور هدلستون Trevor Huddleston في كاتدرائية جوهانسبورغ، انتقد مانديلا الحضور في الكاتدرائية لأنهم لم يرتلوا كلمات «دي ستيرن» Die Stern وأصر على ترتيل النص الكامل.

على حساب الناس الذين عرفتهم جيداً وأحببتهم أكثر من أي شيء آخر». [67]

نقل العالم الخارجي التنصيب ببهجة رومانسية ـ بوصفه نصراً للديموقراطية ـ وكان كل بلد متأثراً بذكرياته الخاصة عن التحرير في الماضي. قالت النيويورك تايمز: «كان مثل كونك حياً في زمن لنكولن». وكان لذلك أهمية أعمق بكثير بالنسبة إلى إفريقية. فكما كتب دوكليرك: «كانت التظاهرة الأخيرة للحكم الأبيض ـ ليس فقط في جنوب إفريقية ـ بل في القارة بأكملها». [68] وعملية الاستعمار التي بدأت في الكاب عام 1652 انتهت أخيراً في إفريقية. كانت هناك تحذيرات قليلة متشككة عن الديموقراطية الإفريقية، متذكرة كيف أن العديد من الدول السوداء ذهبت أول مرة إلى الاقتراع بحماسة مماثلة وذلك خلال السنوات الأربعين الماضية. كتب بيريغرين وورثورن المحافظ في الصنداي تلغراف: «فجر الحرية، My Foot! إن حكم الأغلبية السوداء في جنوب إفريقية يجب أن يرسل رِعدة حول العالم». [69] لكن الشكوك غرقت في الارتياح السائد. والتكهنات بحرب أهلية وحمام دم برهنت على خطئها. وكان من الصعب عدم إعطاء مانديلا فضل تجنب الكارثة.



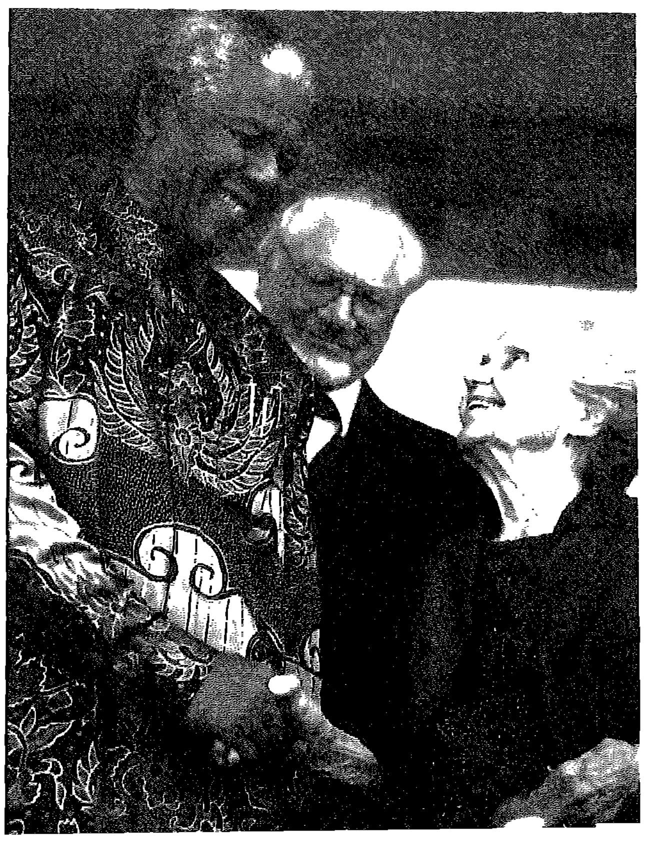
مانديلا وديكليرك في مؤتمر السلم الوطني في جوهانسبورغ في أيلول (سبتمبر) سنة 1991، يبتسمان... ويحملقان.



زعيم الزولو بوثيليزي يرفض مصافحة مانديلا وديكليرك في نهاية المؤتمر.







مانديلا وأرملة هيندريك فيروورد في الرابعة والتسعين من عمرها.

مانديلا يزور تمثال فيروورد.



مانديلا وبيرسي يوتار، الذي ساعد كمدَّعٍ عام في سجنه لمدة سبع وعشرين سنة.

مانديلا وبي. دبليو. بوثا.





مانديلا يقدم كأس العالم للركبي لسنة 1995
لفرانسوا بينار كابتن فريق سبرينغبول

مانديلا ويني مع المحامين إسماعيل أيوب وجورج
بيزوس أثناء محاكمة ويني سنة 1991 لاختطاف
ستومبي سيبي.





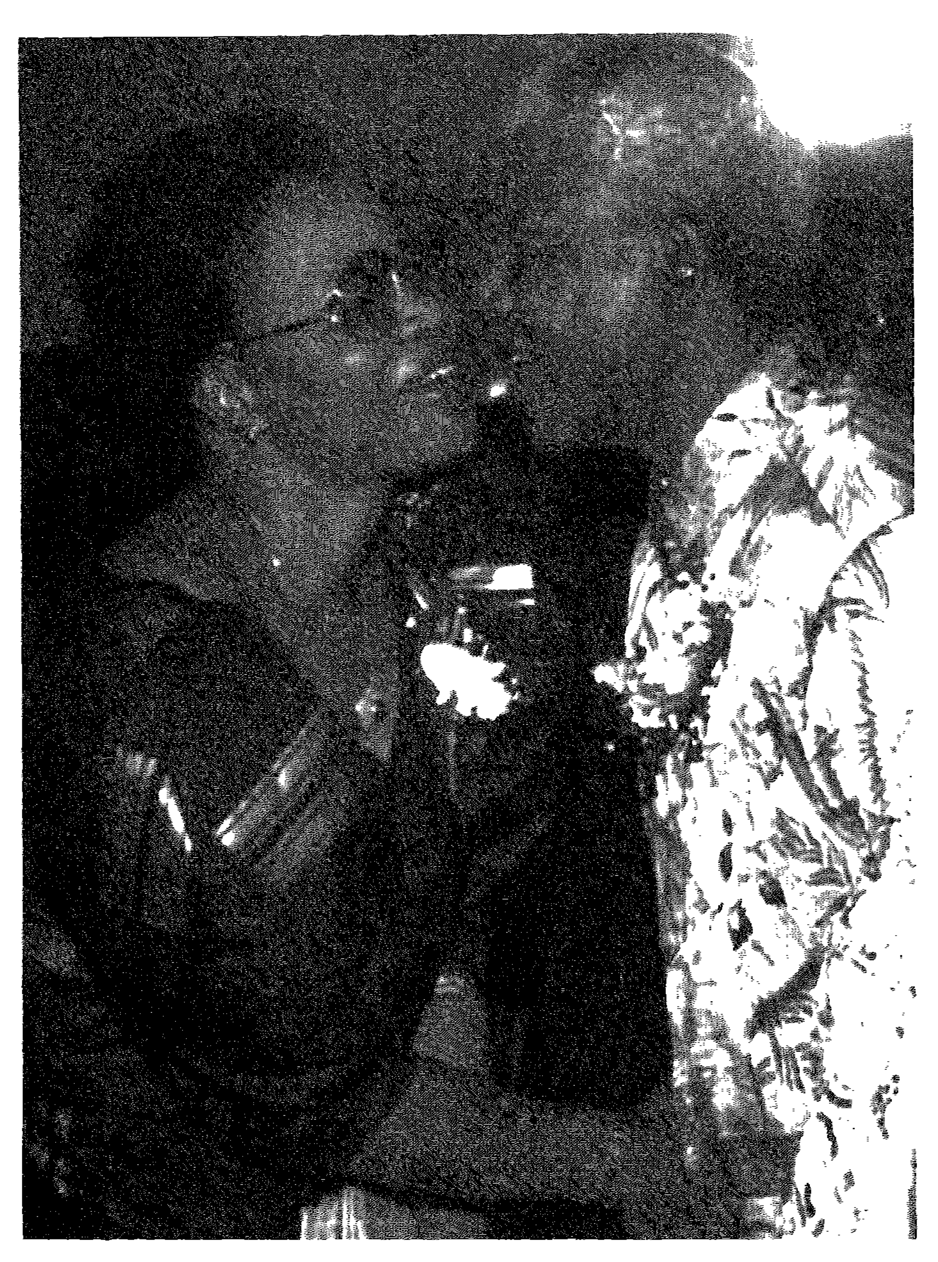
مانديلا يصطحب الرئيس كلينتون ليريه زنزانته القديمة في جزيرة روبين.

مانديلا والملكة أثناء زيارته الرسمية لبريطانية سنة 1996.



مانديلا مع ديانا أميرة ويلز.

مانديلا مع مجموعة من أحفاده.



مانديلا مع غراكا ماتشيل.



ثابومبيكي يخلف مانديلا في رئاسة المؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول.

حفل عيد ميلاد مانديلا الثمانين في تموز (يوليو) سنة 1998 أصبح أيضاً حفل زواجه من غراسا.

34

الحكم

ولى عهد الفروسية. وخلفه عهد السفسطائيين
والاقتصاديين والآلات الحاسبة.

إدموند بيرك، 1790

عندما أصبح مانديلا رئيساً لجنوب إفريقية، بعد أربع سنوات من مغادرة السجن، رأى العالم في ذلك نهاية القصة الخرافية. متطلباً منه أن يكون سعيداً على الدوام. في الحقيقة كان ذلك بداية قصة مختلفة تماماً، بوجود البيروقراطيين ومعدلات الصرف بدلاً من الأبطال والخونة، ومقابل خلفية كانت جديدة بالنسبة إلى مانديلا. كان قد أخبر النواب البريطانيين «ليست لدينا تجربة انتخابات، وممارسة نيابية، وإدارة دولة».[1] لقد أخذت مفاجأة السلطة معظم المؤتمر الوطني الإفريقي على حين غرة، قال مانديلا بعد أربع سنوات: «لقد جيء بنا من الغابات، أو من العمل السري خارج البلاد ـ أو من السجون، لنتولى الأمور. لقد أُلقينا فجأة وسط تلك المسؤولية الهائلة في حكم بلاد نامية جداً».[2]

لم يكن هناك جديد في إفريقية بخصوص وصول السجناء فجأة إلى السلطة: فمن نكروما في غانا وكينياتا في كينيا إلى موغابي في زيمبابوي، كلهم واجهوا مشكلات غير مألوفة. وما زال مانديلا يرى نفسه ضمن التقليد الإفريقي، فخوراً لأن شعبه قد حقق تحرير نفسه بنفسه، وهو مصمم على أن

يتطابق مع هذا الشعب. شرح فيما بعد: «لقد نضجت سياسياً ضمن صفوف حركة وزعامة كانتا حاسمتين في تشكيل وجهات نظري، أنا نتاج المستنقع الذي كان مجتمعنا طافياً فوقه. ولقد أخطأت أحياناً كحال الزعماء الآخرين؛ ولا يمكنني ادعاء التألق لوحدي على كرسي السلطة المبجل». كان مصمماً على إظهار أن الإفريقيين يمكنهم أن يحكموا بفعالية: «نعم، الإفريقيون مع فسادهم وعدم كفاءتهم المفترضيْن قد حققوا هذا العمل الفذ». وقد رفض التلميحات «بأنني لا أنتمي إلى تلك الجماهير الإفريقية وأنني لا أشاركها تطلعاتها».[3]

لكنه عرف أيضاً أنه يتولى شعباً متقدماً صناعياً أكثر من أي شعب آخر في إفريقية، وأنه سيمر بعض الوقت قبل أن يستطيع الجنوب إفريقيون السود أن يحكموا بلا دعم من المديرين، والتقنيين والمهنيين البيض. لقد رأى دولاً إفريقية أخرى دهمها الخروج المفاجىء للبيض ـ ولا سيما موزامبيق التي نصح رئيسها سامورا ميتشل رفاقه الإفريقيين بوجوب تجنب المصير ذاته. وكانت جنوب إفريقية معتمدة إلى حد كبير على خبرة البيض ـ واجه مانديلا منذ البداية عملية التوازن في تهدئة النخبة البيضاء بلا إغضاب الجماهير السوداء.

شغل مانديلا سريعاً منصب الرئاسة وكأنه ولد لذلك. انتقل إلى القصور والمكاتب الفخمة ـ «وهي الأماكن التي صنعت فيها السياسات الأكثر وحشية» ـ حيث شعر في البداية بعدم التأكد من كيفية استقبال البيروقراطيين البيض له. ولا بد له من أن يتذكر كيف وصل إلى مكتب الرئيس في بريتوريا. وأخذ يتشمم رائحة القهوة، التي استمتع بها عندما زار دوكليرك؛ أما الآن فهو لا يشم أية رائحة قهوة، ولا يجد أي موظفين حوله! في وقت متأخر من بعد الظهر استدعى موظفاً كبيراً وطلب منه أن يجمع الموظفين في الصباح التالي. صافحهم يداً بيد، وذكّرهم أن حكومة جديدة قد استلمت مقاليد الأمور، وطمأنهم أن أحداً منهم لن يُلقى في الشارع.[4] وأقام بسرعة علاقات ممتازة مع الموظفين البيض الذين أبقاهم. وأصبح كل أمين سر وموظف أفريقاني موالياً

تماماً للرجل المسن اللطيف الذي تذكر أسماءهم وأسماء عائلاتهم. قال مانديلا لأحد الزوار: «انظروا إلى السيدة التي أحضرت الشاي. شيء لا يصدق حقاً لقد تأقلموا مع وضعهم الجديد».[5] عندما اتهم دوكليرك لاحقاً المؤتمر الوطني الإفريقي بأنه طرد العشرات من الأفريقانيين من وظائفهم الحكومية، رد مانديلا بغضب أن لديه اثنتين من أمينات السر البيض من النظام السابق واللتين هما «Boeremeisies تماماً». وأنه احتفظ بضابط أفريقاني برتبة ميجور بين موظفيه على الرغم من أن جهاز الأمن حذره بأنه ساعد في قصف مبنى المؤتمر الوطني الإفريقي. أجاب: «ماذا إذاً؟ أنا أعمل في حكومة مع أشخاص فعلوا أشياء أسوأ من ذلك بكثير».[6]

في كيبتاون نزل مانديلا مكتب الرئيس في التيونهيوز القديم الأنيق، حيث صب له ب. دبليو. بوثا الشاي بوصفه سجيناً مزمناً عام 1989. قام بتغييرات طفيفة فيه، فوضع صور قرية أمه وصوره ملاكماً في عقد الخمسين. وانتقل إلى عزبة غروت شور المنعزلة، أسطورة سيسيل رودس ـ حيث عاش الوزراء الأفريقانيون لفترة طويلة في امتياز خاص؛ لكنه سمح لدوكليرك بالبقاء في المقر الرئاسي الرسمي، قصر غروت شور التاريخي، وشغل هو ذاته ويستبروك وهو قصر هولندي أنيق لكنه كئيب. سمي سريعاً باللغة الإفريقية «جينادينداال» (وادي الرحمة) وهو اسم بعثة مسيحية في الكاب. عمل في الغرفة الصغيرة والمبهجة «غرفة الفيل» مقابل غرفة نومه في نهاية ممر طويل إلى الأعلى، وكانت غرفة الماكياج للزائرات من النساء؛ كان بإمكانه الاسترخاء هناك رافعاً قدميه. وما زال يصحو في معظم الأحيان في الرابعة والنصف، ويرتب سريره ويتمشى قبل تناول فطوره.

في بريتوريا سبب مانديلا بعض الاستياء عندما قرر نزول ليبيرتاز، وهو القصر الرسمي حيث كان يعيش آل دوكليرك، في حين استخدم المؤتمر الوطني الإفريقي البريزيدينسي وهو المقر التقليدي الآخر للمناسبات الرسمية والمسلية.

كان دوكليرك مهتماً بمراقبة الرجل المسن الذي أمضى ثلاثة عقود في زنزانة صغيرة وهو «يُرشد عبر قاعات القصر المترامي الأطراف، التي تتردد فيها الأصداء». توجب على دوكليرك ذاته أن ينتقل إلى منزل رسمي ثالث، أوڤرڤال، حيث وجده مُبهجاً، لكن زوجته ماريك كانت مغتاظة من التحول والتغيير اللذين رأت فيهما «مسعى محسوباً من مانديلا لإذلالنا». اعتقد دوكليرك أن استياءها كان «عاملاً حقيقياً جداً سبَّبه التوتر المتعاظم بيني وبين مانديلا».

أدهش مانديلا الموظفين والخدم بمصافحته لهم والتحدث إليهم، بما في ذلك الجنائنيون. لاحظ دوكليرك: «لديه قدرة استثنائية على جعل كل من له صلة معه يشعر وكأنه المفضل لديه». [7] أصبح على علاقة ودية مع الحراس الشخصيين الأفريقانيين الذين يمكن رؤية ولائهم في وجوههم القلقة عند مراقبتهم تحركاته. قال أحدهم: «اعتدت أن أفعل ذلك من أجل المال، والآن أفعله من أجله. إنني أقبل بتلقي رصاصة من أجله». وعلى الطائرة أو المروحية الرئاسية كان يتجاذب أطراف الحديث مع الطاقم والطيار، ويهتم بوجباتهم وكل ما يؤمن الراحة لهم. وفي بريتوريا أظهر مودة جديدة للبيبرتاز، الذي أعيدت تسميته «ماهلاميا ندلوبفو» ويعني «تنظيف الفيل»، أو فجر عهد جديد، بلغة الشانغان. لكنه بقي يعيش في المنزل في هوتون حيث بإمكانه أن يكون وحده.

أدهشت بنية جسمه وقدرته على الاحتمال أطباءه، بمن فيهم طبيب العائلة القديم نثاتو موتلانا، الذي كان يحثه دوماً على المزيد من الهدوء. كانت لديه مشكلة في عينيه، لم تُشفَ برغم عملية جراحية لها عام 1994، ومُنع المصورون من استخدام الإضاءة عند تصويره. وشعر بالمزيد من الألم في ركبته، التي لم تشف من سقطة في روبن آيلاند، والتي لا يمكن إجراء عملية مأمونة فيها؛ لذلك لم يعد بإمكانه ارتقاء الدرج بلا مساعدة. وكان أحياناً يعاني من الإرهاق، وأصر أطباؤه على الراحة التامة. لكنه كان يتعافى بسرعة، وكان

يَعُدّ رحلاته الطويلة بالطائرة الرئاسية نوعاً من الراحة، وبدا أنه لا يتأثر بتلكؤ الطائرة. واتفق الأطباء على أنه في السادسة والسبعين مثل رجل يصغره بعشرين عاماً من حيث طاقته وحيويته.(8)

أظهر مانديلا خلال ممارسة مهامه المودة والسلطة والاقتراب والابتعاد في آن واحد. كان يحيي الزوار بالقفز من كرسيه أو من وراء مكتبه، وينظر إلى عيونهم، متذكراً من أين أتوا، ومتذكراً معهم الأصدقاء المشتركين. كان أسلوبه دوماً طبيعياً وغير مصقول في آن واحد، مثل رجل الأرياف، مع ابتسامة عريضة. تقول أمينة سره: «يريد أن يراك لأنه يحبك»، لكن بدا أنه يسعده أيضاً رؤية الوجوه الجديدة. كان يقوم بحركات (دراماتيكية)، إذ كان يرحب بالضيف وهو يسير إلى داخل الغرفة، مقيماً صلة فورية. ذات مرة كان فريق تلفازي بريطاني يقوم بتصويره، وقد خرّب المسافة بسيره مباشرة نحو المصور ليصافحه! وعندما وصل إلى 10 داوننغ ستريت فُتح الباب ـ كما هي الحال دوماً ـ من قبل شرطي في الداخل، صافحه على الفور، وتذكره عند عودته، سائلاً عن أسرته.

لم يفقد مانديلا أبداً كياسته أو ضبط الذات. «الرجل والقناع كانا شيئاً واحداً» كما قال ريتشارد ستينجل، الصحفي الأمريكي الذي شارك في كتابة سيرة حياته. كان الديبلوماسيون ينتظرون سقوط القناع، لكن ذلك لم يحدث أبداً، وبدت مشاعره الشخصية وهي مصنفة من خلال حياته السياسية؛ حيث كانت تولد الدفء والطاقة؛ ومثله مثل القسيس العازب بدا أنه يقيم علاقة أوثق مع الناس، نظراً لفقدانه دفء البيت. كان يفضل دوماً التعامل مع السياسة والديبلوماسية من خلال اتصالات مباشرة، متجاوزاً البيروقراطيات؛ وما زال يحب الهاتف البعيد المدى كدمية اكتشفت حديثاً، مستخدماً إياه لمفاجأة الأصدقاء على الجانب الآخر من العالم ـ كان أحياناً يوقظهم باكراً في الصباح. حاولت أمينة سره ماري مكسادانا وهي امرأة طويلة قوية كانت تقود جوقة

المنشدين في سوويتو، حاولت منعه من القيام بعمله كله شخصياً. قالت لأحد الزوار: «حاولت فقط وقفه عن النزول إلى الطابق السفلي ليبلغ شخصاً مطلوباً على الهاتف».

لكن أمينات سره كن يعلمن أن وراء الكياسة كان مانديلا متقلب المزاج كئيباً. وكما قالت إحداهن: «لم يكن سعيداً دوماً لرؤية الناس كما يقول». وقالت ماري مكسادانا إن أسلوبه الجسدي وتعبير وجهه يدلان على مزاجه المختلف. وهناك كلمات كانت تنتشر أحياناً في مكاتبه: «ماديبا اليوم في مزاج سيِّىء». ومتى أصبح وحيداً فإنه يعكس فجأة وجهاً أكثر حزناً. وقد أمضى أحد النحاتين الذي صنع تماثيل عديدة لزعماء في العالم، أمضى ساعات وهو يراقب تعبير وجهه. ووجده جذاباً بشكل فذ، لكن من الصعب أيضاً عكس تعابيره؛ فهو يشع برفقة كل زائر، في حين يبدو مرهقاً عندما يكون وحده، حيث تتحول ابتسامته الترحيبية إلى علامة اكتئاب. فأي شكل يتوجب على الفنان إظهاره؟[9]

كان مانديلا بصفته رئيساً بعيداً أكثر من أي وقت مضى عن صداقاته القديمة؛ فكلما ازدادت شهرته كلما ازدادت عزلته. قالت ابنته زندزي: «الشيء المحزن هو أن أي شخص لا يدرك أن أبي يشعر بالوحشة الشديدة».[10] كان يبدو مسناً أكثر من معظم زملائه. تامبو كان قد توفي، وسيسولو خارج الوزارة. «من الموجع رؤيته وهو يجلس وحيداً إلى طاولته في البيت»، كما قال أحد زملائه المقربين، الذي تذكر كيف أن مانديلا أخبره ذات مرة قائلاً: «ليس لديّ أصدقاء». ومضى مراقبه يقول: «إنه يبتعد عن الصداقات العاطفية، فإذا أثرت سؤالاً بلهجة عاطفية فإنه يبدو جامداً كالحجر؛ وتعلم أنك لن تستطيع الوصول إلى أي شيء. لقد جعل من كيانه كياناً سياسياً كلياً. إنه ثمن لا أريد دفعه، لكن ذلك منحه وقاراً رائعاً في الحياة السياسية».[11]

كان ذلك ـ في جزء منه ـ عبارة عن أسطورة السجن. فمعظم من كانوا في روبن آيلاند أصبحوا معتادين على التواصل مع أنفسهم. قال إريك مولوبي:

«وجدنا جميعاً فيما بعد أننا بحاجة إلى مسافة بين أنفسنا والآخرين، وذلك لنستعيد ونعكس أنفسنا، مما جعل الحياة صعبة بالنسبة إلى عائلاتنا».[12] لقد بقي مانديلا منفصلاً عن أسرته ما يزيد عن ربع قرن، وقد وجدوه الآن أقل وصولاً إلى نفوسهم بصفته رئيساً. كان مدركاً تماماً لخسارته، لكن لم يكن لديه الكثير ليفعله إزاء ذلك.

لم تلعب ويني أي دور في حياة مانديلا الاجتماعية لأنهما كانا منفصلين. قالت ابنتهما زندزي: «بدا وكأنهما لم يخلق أحدهما للآخر»[13] لكنها ما زالت تسبب مشكلات سياسية. فبعد حملتها القوية والناجحة مرشحةً عن المؤتمر الوطني الإفريقي في الانتخابات أصبحت عضواً بارزاً في المجلس النيابي. وقد عينها مانديلا ـ دون حكمة ـ كنائب لوزير الفنون، لكنها سرعان ما تورطت في فضائح مالية: صفقات مجوهرات مشبوهة، مشروع سياحي مريب للأمريكيين السود، وبرنامج لمكافحة الفقر، مما سمح لها بمصاريف ضخمة. لم يقم مانديلا بأية حركة إلى أن أصبحت خائنة خيانة صريحة، حيث اتهمت المؤتمر الوطني الإفريقي بأنه منشغل باسترضاء البيض، وتحدته بأن يُظهر أنه في السلطة.

وعندما أصر مانديلا على وجوب الاعتذار، وقعت ويني بغضب على اعتذار رسمي، لكنها تشكت بعد ذلك من أنها قامت بذلك تحت الإكراه، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يقيّد التحدث بحرية. ثم في آذار (مارس) 1995، بينما كانت في زيارة لغرب إفريقية ضد تعليمات مانديلا، تمت الإغارة على منزلها في سوويتو من قبل شرذمة احتيال، تدعمها الشرطة المسلحة التي استولت على الوثائق. وعند عودتها في اليوم التالي، انفجرت ويني ضدّ الثأر الوحشي من قبل «الدجالين والجبناء» وهاجمت الحكومة سريعاً أيضاً لتجاهلها الفقراء. قالت أمام جمهور إفريقي: «يبدو أن كفاحكم هو أسوأ مما كان قبلاً». في النهاية طردها مانديلا من الحكومة، مع أنه توجب إعادتها نتيجة خطأ قانوني

غير مقصود وذلك قبل أن يتم صرفها من الخدمة على نحو لائق. ما زالتويني تدعي أنها كانت على حق، وأن أعضاء آخرين في المجلس النيابي كانوا في أية حال أكثر فساداً منها. قال مانديلا بحزن: «يجب أن نتوقع الرد من الرفيقة ويني، لكن الوضع لدينا هو تحت السيطرة».[14]

كانت نهاية الزواج، وكانا قد افترقا شكلياً قبل ثلاث سنوات، وفي آب (أغسطس) 1995 بدأ مانديلا بإجراءات الطلاق، آملاً في تسوية ودية لتجنب الاتهامات العائلية المضادة. لكن ويني ألقت اللوم على أعدائها، بمن فيهم رامافوزا، بإيجاد الصدع، وأصرت أن من الممكن مصالحتهما من خلال العادات القبلية؛ حتى إنها طلبت التوسط من ابن أخت مانديلا ك. دي. ماتانزيما الذي ما زال الزعيم الأعظم لتيمبدلاند الغربية.

في آذار (مارس) 1996، ظهر الرئيس مانديلا في محكمة راند العليا، بعيداً بضعة أقدام فقط عن زوجته، ليطلب الطلاق؛ وهذا عرض علني فذ لحياته الخاصة المؤلمة. قال شارحاً إنه قد أخر الطلب لأنه لم يرغب في أن يرتبط طلبه بجريمة قتل ستومبي سيبي. ورفض أية وساطة من قبل ماتانزيما، الذي كان قد طلب يد ويني في وقت من الأوقات الأمر الذي عدَّه مانديلا «خيانة بالمعنى الحقيقي للكلمة». قال للقاضي: «هل أستطيع طرح الأمر ببساطة يا سيدي؟ إذا حاول الكون بأكمله إقناعي بالتصالح مع المدعى عليها فإنني لن أفعل ذلك، وآخر ما أقبل به هو من ماتانزيما... أنا مصمم على التخلص من هذا الزواج». وصف بؤسه بحزن عندما كانت ويني لا تشاركه غرفة نومه عندما يكون مستيقظاً: «كنت أكثر الرجال توحداً...».

من خلال محاميها، وصفت ويني معاناتها الماضية بالذات. قبل مانديلا بذلك، لكنه أصر على أن هناك آخرين، مثل ألبيرتينا سيسولو، ممن عانوا أكثر، وطلب من المحامي عدم إجباره على كشف «الأسباب الأكثر جدية التي جعلته يترك البيت». وعندما رفض القاضي طلباً من محامي ويني بالتأجيل لبضعة أيام

لجمع الشهود، صرفت ويني محاميها بطريقة (دراماتيكية). وانتظر مانديلا بعبوس عودة القاضي إلى غرفة المحكمة ليمنحه الطلاق، منهياً بذلك الزواج الذي بدا في وقت من الأوقات حاسماً جداً بالنسبة إلى معنوياته السياسية. لكن ويني ظلت تعتبر نفسها زوجته: «إن سماعه يقول في محكمة رجل أبيض إنني كنت أتظاهر بحبه كان أكبر خيانة شهدها القرن».(15)

بقي مانديلا وحيداً في «عليائه الرائعة» وكان يسعى وراء الاسترضاء مع أشخاص لا يمتون للسياسة بصلة وذلك خلال عطلة الأسبوع. قال أحد وزرائه «إن عطلته لا علاقة لنا بها، ومثله مثل السياسيين الكبار الآخرين ـ مثل جاك كينيدي وهارولد ويلسون ـ أدرك الرفقة المريحة لمن يعملون في حقل الفن أو الأغنياء». وبعد عزلته الكئيبة في السجن بدا مبهوراً بشخصيات هوليود مثل ووبي غولدبيرغ أو غريغوري بيك، غير مدرك أنه مشهور أكثر من أي من هذه الشخصيات. ومهما كان مشغولاً مع الحكومة، كان يصدم زملاءه الأكثر صرامة بتخصيصه وقتاً لزيارة نجوم البوب مثل مايكل جاكسون أو فتيات التوابل، حيث كان يأخذ الصور معهم ويحييهم بإطراء. قال عن ويتني هيوستون: «أنا هنا لتلميع حذائها». «ولن أغسل هذه اليد لفترة طويلة». هذا ما قاله بعد أن صافح بيتر أوستينوف الذي كان قد شاهده في فيلم عندما كان في السجن.

أقلق مانديلا اليسار من خلال استمتاعه برفقة الأغنياء جداً. كان هاري أوبنهايمر رأسمالياً غنياً من أصل إنكليزي ـ أمريكي، وكان قد قابل مانديلا مرة قبل دخوله السجن، وصار الآن مسروراً لاستضافته في قصره المترف في برينتثيرست، قرب منزل مانديلا في هوتون (مع إنه تم تذكير مانديلا بوجوب وضع ربطة عنق). وأصبح مانديلا مقرباً خاصة من كلايف مينيل، نائب رئيس مجموعة التعدين المنافسة «أنكلو ـ فال» الذي كان نصيراً للدراما السوداء بما فيها كينغ كونغ الموسيقية في عقد الخمسين. وقد أمضى أول عيد ميلاد بوصفه رئيساً في قصر كاب مينيل المنعزل في غليندريك في أسفل جبل تيبل. وعندما

كان مينيل يموت بسبب السرطان عام 1996، جلس مانديلا معه بصمت، ممسكاً بيده؛ وأثناء طقوس الجنازة قرأ تقدمة تعبيراً عن إجلاله لكرم الرجل الذي «ولد ضمن امتياز من نوع لا يعرفه إلا القليل من الناس». لكن مانديلا حافظ على نظامه الصارم؛ عندما جاء مينيل إلى غرفة نومه صباح أحد الأيام، وجد أن الرئيس قد رتب سريره وأنه كان يطوي بيجامته.[16]

لم يكن مانديلا شديد الحساسية في صداقاته. بعد أن أصبح منفصلاً عنويني بقي لبعض الوقت في العزبة الرائعة لديوستين، المتهور وأحد ملوك التأمين الذي صنع نفسه بنفسه؛ وقد تم تمويل شهر عسل ابنته زندزي جزئياً من قبل ملك الكازينوهات صول كيرزنر، الذي اتهم سريعاً بالرشوة. لكن مانديلا بقي بعيداً عن قيم الأغنياء. عندما كان مقيماً في مقاطعة مترفة في الباهاما حيث يحيط به المنفيون السابقون، ألقى كلمة في تلاميذ مدرسة سوداء مجاورة، مما أذهل جيرانه البيض بلهجتها النضالية. وفي بعض الأحيان كان يَعُدّ رجال الأعمال الناجحين رفاقاً له في الزعامة. وفي جوهانسبورغ فاجأ مجموعة منهم بقوله: «أنتم الزعماء القبليون التقليديون في هذه المنطقة».[17]

كان جزء منه ما يزال زعيماً إفريقياً؛ وكان يشعر أنه في بيته في منزله المبني حديثاً في كونو في الترانسكي، كان المنزل يوصف دوماً بأنه على نسق سجن ـ منزل حيث أمضى عامه الأخير في السجن ـ وكان كذلك فعلاً. لكنه لم يوح بأنه سجن. إنه منزل طويل مبهج من القرميد الأحمر ـ ليس له درجات تزعج ركبة مانديلا ـ وله أقواس مستديرة وسقف عريض منخفض، ويعيد عن الطريق الرئيسي من أومتاتا وتحيط به حديقة معتنى بها وأشجار لتوفير العزلة. كان يطل على المنظر الطبيعي الجميل للترانسكي مع القليل من الأكواخ الطينية التي يغطيها العشب، حيث كانت مألوفة جداً من أيام طفولته. الترانسكي أفقر من ذلك، وفيه كثافة سكانية أكبر الآن مما كان في عقد العشرين مع القليل جداً من الأشجار أو الطيور، وقد عانت البلدات من فساد أعوام البانتوستات. لكن

المناظر الطبيعية المفتوحة ما زالت تحتفظ بروعتها التي لا يبليها الزمن. يقول مانديلا: «هذا هو وطني الحقيقي حيث جذوري. وقد أصبح أكثر أهمية؛ فكلما أصبحت مسناً أكثر شعرت بالحنين إلى الأماكن التي لك فيها ذكريات جميلة».[18]

في كونو كان مانديلا يمشي أحياناً خمس ساعات في الصباح، مستعيداً ذكريات طفولته حول المكان الرائع في مكيكيزويني، حيث يحييه الأطفال في الطريق. كانت تؤلمه رؤية فقرهم وأسمالهم البالية وأجسادهم النحيلة، لكنه يتشجع بمرحهم. وكان يستمتع في منزله بكرم ضيافته للعائلات في الجوار. فقد أشرف في إحدى المرات على احتفال استمر يومين لستمائة من الضيوف. أعده صديقه بانتو هولوميزا، حيث كان هناك عشرة مراجل، وستة عشر خروفاً وثور بكامله ذبح من أجل المناسبة وبعد ذلك تم تقديم البراندي للكبار.

شعر الكثيرون من الزملاء بأنه يجب أن لا يترك وحده أبداً، وقد لاحظ سيسولو أنه يشعر بالارتياح أكثر عندما يكون محاطاً بالناس.

أحب مانديلا الانغماس بالسياسات القبلية في وطنه الأصلي، حيث كان يسوي النزاعات المحلية بخصوص الدجاج أو البقر. واهتم اهتماماً وثيقاً بشق الطرق، حل قضية النساء العاملات في شق الطرق، وأكب على ضرورة تحويل أحد الطرق إلى المنزل السابق للزعيم الأعظم، ساباتا. كان يرى أحياناً ابن أخته ماتانزيما ـ الذي تقاعد الآن بهدوء في «قصره العظيم» قرب كوينزتاون ـ دارة واسعة حديثة. ما زال مانديلا يرى أن ماتانزيما خائف، وتحدث ماتانزيما عن مانديلا بتعال بوصفه أليف السجون الذي خرق القانون مع أنه يشرح أن «نيلسون حر في المجيء إلى هنا في أي وقت».[19]

كان لمانديلا علاقة أكثر ارتياحاً مع بانتو هولوزيما، الجنرال الشاب الذي أطاح بماتانزيما، وهو ينحدر من أسرة زعيمة أخرى من الجوار، وقد ساعد في تنظيم منزل مانديلا في كونو. بدا أنه يرى هولوزيما تذكيراً بشبابه النابض

بالذات، قال له: «عندما كنت في عمرك، كنت فاقد الصبر مع الرجال المسنين».[20] إلا أن مشاعر مانديلا القبلية لم يبد أنها قد أثرت على رعايته للناس: إذ تشكى سكان أومتاتا، العاصمة السابقة للترانسكي على بعد أميال قليلة من منزله، تشكوا من أنه لم يفعل إلا القليل لمساعدتهم.[21] كان ولاؤه المهيمن ليس لجيرانه المتشامخين بل للمؤتمر الوطني الإفريقي، وتعلم هولوزيما من خلال تجربته أنه لا يمكنه تحدي المؤتمر الوطني الإفريقي من غير خسران ثقة مانديلا.

في تلك العوالم المختلفة بقي مانديلا مؤدياً لامعاً يمكنه أن يلعب كل الأدوار: الزعيم الإفريقي، الرئيس الغربي، الرياضي، الفيلسوف، المازح بـ«Madila Shuffle». ما زال يحب تغيير الملابس كما كان في عقد الخمسين، وهو يتحول الآن (دارماتيكياً) من بزة سوداء إلى قميص مشجَّر واسع، ثم إلى قميص صوفي للركبة إلى قميص قطني وقبعة بيسبول. كان يمكن تحويله بسرعة من رئيس الدولة العنيد إلى المفضل عند الشعب. وكان يغير أحياناً مواقفه على غير توقع؛ عندما تظاهرت نقابات العمال بغضب خارج مكتب الرئيس في كيبتاون، ظهر فجأة بينهم، مما أزعج زملاءه في الوزارة. قال أحدهم: «لكنني تعلمت أن لا أقلل من قدر مهاراته السياسية، ربما يعني هذا أنه سيوجه لهم قريباً ضربة أكثر قسوة».

بدا مانديلا وهو قادر على الانسجام مع أي جمهور للناخبين. كان يرد بقسوة معظم كلماته التي كتبها فريق متعدد العروق برئاسة جوويل نيتشيتينزه، وينظر من خلال نظارته من غير أن يحاول إقامة تواصل عيناً بعين مع مستمعيه لكنه ينزع نظارته في النهاية ويقول: «هذا ما قاله رؤسائي». الصحفيون ينظرون إلى الأعلى، والمستشارون يقطبون. وهو يأتي بأفكار بسيطة أو ذكريات. وهو يحب ترديد قصصه المفضلة، إما عن أنه انتُقد من قبل طفل، أو عن الناس الذين أخطؤوا وظنوا أنه نيلسون مانديلا، وذلك ليذكر مستمعيه أنه مجرد رجل

مسن وعرضة للخطأ، وأنه سجين سابق وجد نفسه بالصدفة في هذا المركز الغريب. كان بإمكانه التعامل مع جاذبيته من غير أن ينخدع.

في شهوره الأولى رئيساً، استمتع بشهر عسل رائع. لا سيما مع الجنوب أفريقيين البيض الذين شعروا مع هذا الرجل المسن المتسامح براحة مدهشة. لم يكن في عجلة من أمره ليعيد تسمية الشوارع والضواحي والمطارات التي كانت تخلد ذكرى أبطال أفريقانيين مثل بوثا، وستريجدوم أومالان، من الشخصيات القديمة المكروهة من الأغلبية السوداء، أو ليعيد تسمية بناء فيروورد، الذي كان يضم دوائر الحكومة في كيبتاون. لقد ولّد جواً من الاستقرار والحالة السوية بددت جميع الجاثومات (الكوابيس) البيضاء الماضية عن ثورة سوداء. في نهاية الأيام المئة الأولى في مركزه، لم يكن بمقدور الفانينشال تايمز إيجاد بيض يتكلمون عنه بالسوء.[22] كانت حالة سوية لها مخاطرها بالذات، لأن الناشطين رأوا أن الثورة قد تمت خيانتها؛ وعرف الزعماء الأصغر سناً في المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم ثابو مبيكي أن عليهم القيام سريعاً بإصلاحات من شأنها أن تزعج البيض. وتذكروا كيف أن روبيرت موغابي كان له شهر عسل مماثل بعد أن استلم السلطة في زيمبابوي عام 1980، ليكسب فقط عداء البيض عندما شرع بتغييرات جذرية بعد ذلك بخمسة عشر عاماً.

لكن مانديلا بدا الآن فوق السياسات. زعيم الحزب الذي يقوم بحملة، الرجل القاسي خلال المفاوضات، كل ذلك تحول إلى شخصية الأب الذي يمكنه التعاطف مع مشكلات كل شخص. في حفلات الكوكتيل التي كان يقيمها البيض كان يحرك الغرفة بأكملها. حيث يجعل كل شخص يشعر أنه مفضّل ولا سيما النساء. «الآن أعرف سر نجاح زوجك». كان يقول ذلك لزوجة شخصية بارزة ـ كانت تشعر أحياناً بالخيبة لسماعه يقول الشيء ذاته لامرأة أخرى بعد ذلك بعدة دقائق؛ قالت زوجة أحد المحررين: «لكنني ما زلت أشعر بالانجذاب حتى لو قال إن هناك قطعاً من السبانخ على أسناني».

كان معظم البيض يرفضون انتقاده، مهما كانت شكواهم بخصوص الحكومة السوداء، كانوا يستثنون مانديلا ويلقون اللوم على مرؤوسيه. ومثله مثل رونالد ريغان بدا أنه رجل «تيفلون»، حيث لا تستمر أية تهمة ضده؛ أو مثل ملك تقليدي حيث يُلقى اللوم في أخطائه على رجال بلاطه.

بدا مانديلا في معظم الأحيان كأنه ملك وليس سياسياً؛ وخاصة عندما استقبل ملكة بريطانية في زيارة رسمية في آذار (مارس) 1995، وأقام صداقة فاجأت حاشيتهما. وعندما كان طالباً قبل ثمانية وأربعين عاماً كان يراقبها عندما كان والدها الملك يقوم بزيارة رسمية. والآن رأى كلاهما التمييز العنصري وهو يأتي ويروح، في حين كانت الملكة متعاطفة مع الجنوب إفريقيين السود خلال سنوات تاتشر.[23] انسجم مانديلا انسجاماً طبيعياً، مع الاحتفالات الملكية الفخمة، وانتهز الفرصة لاسترضاء الزعامة الإفريقية بدعوته ثلاثة عشر ملكاً جنوب إفريقي إلى مأدبته الرسمية. منحته الملكة وسام الاستحقاق، وهو أكبر وسام بريطاني يُشتهى، ودعته إلى القيام بزيارة رسمية رداً على زيارتها؛ قالت: «أنت ضليع جداً بصنع التاريخ. لكنني آمل أن يكون مصلِحاً حتى بالنسبة إليك». بدا مانديلا أحياناً وكأنه يخطف البريق، لكن الملكة بدت مرتاحة على غير المألوف؛ وكانت تتذكر كثيراً فيما بعد استمتاعها بصحبة مانديلا. وقد قدّرت بخاصة حقيقة أنه أخّر طلاقه المحتوم لتفادي أن يلقي بظلاله على المناسبة.[24]

كان مانديلا يظهر أحياناً مثل الملك ـ الفيلسوف، وكأن جزءاً منه لم يغادر السجن بتاتاً، وما يزال ينظر إلى بلاده من زنزانته المنعزلة. قال زميله كاثرادا «يمكنهم أن يُخرجونا من روبن آيلاند، لكن لا يمكنهم أن يُخرجوا روبن آيلاند منا».[25] يحب مانديلا التحدث عن المبادىء الأولى ـ عن التسوية والكرامة الإنسانية والحب ـ وتجد أمينات سره أحياناً أنه ساذج فيما يتعلق بالشؤون الدولية، فهو يميل إلى رؤية الديبلوماسية في مجال الاتصال بين الأفراد، من

كلينتون إلى الملكة، وكأنه ما يزال في القرن التاسع عشر. لكن وجهة نظره البسيطة منحته نفاذ بصيرة. قال أحد الزملاء في الوزارة: «مثله مثل الرجال العظام الآخرين، فإنه لا يخشى من البساطة. وهو مستعد لأن يكون بسيطاً بدون التظاهر بذلك، ليرى ما وراء المستقبل الحالي».

أحب مانديلا أن يقول ـ للملكة من بين الآخرين ـ: «أنا مجرد فتى أرياف» وهناك بعض الحقيقة في ذلك. قال أحد مستشاريه المقربين: «لقد اكتشفت أنه ريفي جداً». وقد قارنه ديڤيد بيريسفورد من الغارديان بدور الجنائني البسيط الذي لعبه بيتر سيلرز في فيلم «كَوْني هناك» الذي يَعُدّه السياسيون حكيماً مطلقاً والذي دعوه ليصبح مرشحاً رئاسياً. قال بيريسفورد: إن عظمة مانديلا لا تكمن في مهاراته السياسية أو العسكرية بل في تطابقه البسيط مع بلاده: «إبداع الخيال الجماعي، تعبير عن التطابق الوطني المرغوب فيه بعمق في بلاد ممزقة بمرارة». وبدا بالنسبة إلى البيض والسود كأنه برز بوصفه رجل القدر، لإنقاذ شعبه من الكارثة: «جاءت الساعة، جاء الرجل». [26]

35

عرش القيادة

تمتع الرئيس مانديلا نظرياً بسلطات قوية في ظل الدستور الجنوب إفريقي؛ فبوصفه رئيساً للدولة ورئيساً للحكومة في آن واحد، كان مثل رئيس فرنسي، لكن بلا رئيس الوزراء الذي يختار بذاته أعضاء وزارته. وكان نائبه الأول ثابو مبيكي يتمتع بالسلطات التي اختار مانديلا منحها له، والتي يمكن أن تُسحب منه بسرعة. ويمكن للرئيس أن يكون متحفظاً في لحظة ثم يغرق بالتفاصيل في اللحظة التالية. كان يميل إلى التصرف الشخصي فهو لم يعمل أبداً بسهولة مع البيرقراطيات، وكره العمل الورقي. لقد ميز قدرته الشخصية، حيث منح الأصدقاء القدامى وظائف كبيرة مثل مناصب السفراء وراقب دهشتهم. وقد استغل إلى أبعد حد إمكانيته في الوصول إلى وسائل الإعلام، معبراً عن آرائه بقوة، وناسياً أحياناً أنه جزء من وزارة جماعية. وأصبح بعض المعلقين منزعجين، وقد اتهم بأنه «مقامر متهور» وأنه «Shooting from the hip».[1]

ما زال مانديلا يظهر بعض الميول السلطوية التي كانت تتناقض مع الضوابط الديمقراطية، وخشي بعض الناس من أنه ربما يظهر وكأنه إفريقي أوتوقراطي آخر، مثل نكروما أو موغابي، مستغلاً تقاليد الزعيم القبلي. انتظر أصدقاؤه القدامى ظهور علامات الأوتوقراطية. وبقي ولتر سيسولو يراقبه مثل المدرب الذي يراقب بطله. لكنه اطمأن سريعاً: «ليست لدي مخاوف من أن

يبرز منه ديكتاتور» هذا ما قاله عام 1993.[2] كان لدى مانديلا احترام كبير ـ ربما كبير جداً ـ للديموقراطية الإفريقية.

أدرك بسرعة ـ كما حذره دوكليرك ـ أن الرئيس لديه سلطة أقل مما يبدو. وبإمكانه أن يحكم بفعالية عن طريق زملائه وموظفيه فقط، الذين يجب أن يتم إقناعهم بصبر؛ ولا يمكنه فرض سياسته عبر الوزارة. لقد حذر أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي قبل أن يصبح رئيساً بعام قائلاً: «من السهل نسبياً. . . الفوز في الانتخابات. لكن عندما تنالون ذلك فإنكم تستلمون مكتباً سياسياً، وليس لديكم سلطة سياسية».[3] وما زال يتعين عليه أن يحمل معه المؤتمر الوطني الإفريقي عبر الانتقال من التمرد إلى الحكومة المسؤولة، وذلك في وجه الاتهامات بأنه كان يخون الثورة.

نهاية عام 1994 افتُتح المؤتمر التاسع والأربعون للمؤتمر الوطني الإفريقي في بلومغونتين. واعترف بمشكلات التسوية التاريخية لـ Sunset clauses التي رسخت البيروقراطيين الأفريقانيين من نظام الحكم السابق؛ وما زال قيد النقاش «ما إذا كنا نحصد اليوم زوبعة الخطأ الرهيب في التقدير». لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان فاقداً للتنظيم ـ كما شرح ـ بحيث «يحتمل أن يعرض الثورة للخطر». وقد سرّعت الزعامة من عملية الانتقال بقرار الاستيلاء أولاً على رؤوس الجسور الساحلية، ثم تعزيز القوات الخاصة بها. ويجب على المؤتمر الوطني الإفريقي أن لا يَعُدّ نفسه «ضعيفاً مقيداً من كل الجوانب ببعض الاتفاقيات الرهيبة».[4]

في كلمة الختام تشكى مجدداً من عدم كفاءة المؤتمر الوطني الإفريقي، كما كان قد فعل قبل أربعين عاماً؛ الأمر الآن أكثر جدية منذ أن وصل المؤتمر إلى السلطة. قال: «مما يدعو إلى السخرية أنه يجب على المؤتمر الوطني الإفريقي التحدث كحكومة عن النظام المالي، والهدر واللافعالية «في الوقت الذي ليس فيه نظام مالي للمؤتمر الوطني الإفريقي، وهناك هدر، توجد

اللافعالية». ناشد المندوبين على إنفاق المزيد من الوقت في التفكير، كما كان يفعل في السجن؛ مرحباً بالمعارضة، وتذكر أن السلطة تفسد وأن السلطة المطلقة تفسد مطلقاً». إلا أنه هنأ أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي لكونهم متحدين أكثر من أي وقت مضى، في حين أن المندوبين ولأول مرة في تاريخهم «ناقشوا إعادة البناء والتطوير وليس المقاومة».(5) انتخبوا هيئة تنفيذية وطنية من ستين شخصاً، وكانوا ناشطين نشاطاً واضحاً أكثر من سابقيهم، كان خمسة في القمة هم: بانتو هولوميزا، بالو جوردان، بيتر موكابا، ماك ماهاراج ووريني مانديلا. لكن مركز مانديلا بالذات بقي قوياً كما هو.

كان مانديلا باختياره حكومته بالذات، يأمل أولاً بإنشاء أوسع إئتلاف ممكن. وإدخال الحزب الديموقراطي، وجبهة الحرية والـ PAC: ناشد رئيس الـ PAC كلارينس ماكويتو أربع مرات بلا نجاح.(6) وبموجب بنود حكومة الوحدة الوطنية توجب عليه إدخال دوكليرك وحزبه الوطني. كان هناك اختلاف مرير إلى حد ما بخصوص المراكز الحكومية، واشتكى دوكليرك من أن مانديلا لم يتشاور معه بخصوص الوزراء من المؤتمر الوطني الإفريقي.(7) أراد دوكليرك أن يسيطر حزبه إما على الشرطة أو على الدفاع؛ لكن مانديلا أصر على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يسيطر على الإثنين، لأنه وحده يمكنه معالجة مسألة القوة الثالثة.(8) يتوجب على الحزب الوطني أن يرضى بمراكز أقل؛ رويلوف مير كوزير للشؤون الريفية والتطوير الدستوري؛ كراي ڤان نيكيرك للزراعة، داوي دوفيلييرز للبيئة، وبيك بوثا وزير الخارجية القديم، وزيراً للمعادن والطاقة.

ضم وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي أصدقاء قدماء لمانديلا من كل مرحلة من مراحل حياته تقريباً. جوي موديس، وزير الدفاع كان زميلاً في جوهانسبورغ في عقد الأربعين، ألفريد نزو وزير الخارجية كان زعيماً لمقاطعة الحافلات عام 1958؛ جوي سلوفو وزير الإسكان، كان إلى جانب مانديلا منذ

محاكمات الخيانة، ماك ماهاراج وزير النقل كان صديقه المخلص في روبن آيلاند، دولا عمر وزير العدل كان يزوره كثيراً في ولسيمور مستشاراً قانونياً له. وقد أتى اثنان من خلفية ذات زعامة: باثيليزي وزير شؤون الوطن الآن، وستيلا سيغكو ابنة ملك بوندولاند في الترانسكي، التي أصبحت وزيرة المشاريع العامة. لكن مانديلا التقى مؤخراً بالعديد من الوزراء الأصغر سناً، الذين جاؤوا من كل فرع من فروع الكفاح بما فيهم المنفيون مثل تيتو مبو ويني وزير العمل، وجيف راديبي وزير الأشغال العامة. كانت هناك شكاوى من أن المنفيين تم تفضيلهم على الزعماء الداخليين، لكن سيريل رامافوزا المؤهل أكثر من غيره للانتخاب رفض منصباً وزارياً، وكان العديد من الوزراء الجدد ناشطين داخليين بارزين في عقد الثمانين، من بينهم جاي نيدو، سيدني موفامادي، وتريفور مانيوويل. كان أكبر مظهر ملفت لحكومة المؤتمر الوطني الإفريقي هو مدى الخلفية والعرق، بما فيهم البيض والهنود، والملونون والمسلمون والمسيحيون والشيوعيون حيث جُمع بعضهم مع بعض نتيجة كفاح أربعين عاماً. ومديراً لمكتبه بالذات وأمين سر لمجلس الوزراء اختار مانديلا جيكس جيرويل الأكاديمي الملون البارز والفيلسوف والخبير بالأدب الأفريقاني الذي أيد «الوعي الأسود» قبل أن يصبح نائب مستشار لجامعة الكاب الغربي.

اعتمد مانديلا بقوة منذ البداية على نائبه الأول رئيساً وهو ثابو مبيكي، الذي كان أصغر منه بخمسة وعشرين عاماً، وهو المنفي الرئيسي. كانت لدى مبيكي مهمة صعبة؛ كان معتمداً على رئيسه مثل نائب الرئيس الأمريكي، لكن مع مسؤوليات أضخم بكثير. كان مانديلا يحصد مديح الانتصارات في حين كان مبيكي يُلام على الأخطاء. وقد طور أسلوباً شبه مناقض لأسلوب مانديلا، حيث كان يعمل من وراء ستار، وقد تعلم درسه من مصلحة تامبو، في حين قاد مانديلا من الواجهة. كان مبيكي ينفث دخان غليونه بغموض، ويثبت ويساوم من وراء الستار عبر مجموعة صغيرة من الموثوقين. حتى إن عاداتهما اليومية

كانت بلا انتظام. كان مانديلا يستيقظ باكراً ويذهب للنوم باكراً، وكان دقيقاً بصرامة. في حين كان مبيكي غير مبال بالمواعيد، ويحب السمر في الليل. لكن مهاراتهما كانت متكاملة؛ كان مبيكي حلاّل العقد؛ حيث يلتقط القطع المبعثرة ويملأ الثغرات. وكان يعاني دوماً من السؤال العالمي المتكرر: «بعد مانديلا»؟ لكن مثله مثل أي نائب زعيم قوي ـ مثل ترومان في عهد روزفلت أو بومبيدو في عهد ديغول ـ كان من المستحيل تقييمه في حين ما يزال تحت ظل الدوحة العظيمة.

أمضى وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي وقتاً قبل أن يعتادوا الجلوس في الوزارة جنباً إلى جنب مع أعدائهم السابقين: «ما زال من الواجب عليّ أن أضغط على نفسي لأتذكر أين أنا». قال قادر أسمل وزير المياه بعد ذلك بعام.[9] لكن بعض الثوريين السابقين برهنوا على أنهم من أكفأ الإداريين. جوي سلوفو أمين السر العام السابق للحزب الشيوعي ورئيس أركان الـ MK، أعاد تنظيم وزارته ـ الإسكان ـ حيث جلب المدير العام السابق لديه وناقش البنوك لتقديم قروض بشروط أسهل. تلقى مانديلا ضربة كبيرة عندما مات سلوفو بالسرطان في كانون الثاني (يناير) 1995، بعد ثمانية أشهر فقط في المنصب. أظهرت جنازته التناقضات الظاهرية للثورة السلمية: ندب الآلاف من السود الزعيم الأبيض؛ أعتى أعداء الأفريقانيين الذي اقترح منذ البداية ائتلافاً معهم، والمثالي الثوري الذي أصبح أكثر السياسيين مرونة وعملية. قال مانديلا أمام قبره إن سلوفو كان رجلاً «عرف متى يقاتل ومتى يفاوض».[10]

عندما أشرق مانديلا على وزارته المختلطة من سود وأفريقانيين، دهش لأنه وجد معظم المناقشات كانت غير مشايعة، والتزم الأفريقانيون بحق لجعل الائتلاف يعمل: «ستعتقد أنهم كانوا أعضاء في الحركة الديموقراطية».[11] «الجو لم يكن دافئاً لكنه لم يكن بارداً» قال بالوجوردان: «معظم السياسة كانت تتماشى مع ما أراد المؤتمر الوطني الإفريقي».[12] قال قادر أسمل عن الحزب

الوطني: «كانت لديه عين ضاربة بخصوص التفصيلات ربما برهنت على أنها مفيدة في مشاورات مجلس الوزراء، على الرغم من أن أداءه الشامل حول العديد من القضايا ذات الأهمية لم يكن مفيداً جداً». [13] وفوجىء الإفريقانيون من جهتم لسماع وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي وهم يتناقشون علناً بعضهم مع بعض، بلا وجود إشارة إلى أن مؤتمراً حزبياً قد وافق على سياستهم مسبقاً. شعر دوكليرك بالرضا حين وجد نفسه أحياناً وهو يحكم في النزاعات بينهم. [14] قال أحد المشاركين: «كانت هناك صداقة حميمة كمدرسة داخلية صبيانية، كانت جنوب إفريقية بالذات. 99٪ من النقاش لم يكن أيديولوجياً بل مملاً في معظم الأحيان إلى حد كبير؛ لا يمكنك القول إنهم أتوا من أحزاب مختلفة، وكانت الخلافات تعود في معظمها إلى أعمارهم، أكثر من أن تعود إلى أيديولوجيتهم». [15] وبقي الوصول إلى السلطة مبهجاً بالنسبة إلى وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد ذكّر قادر أسمل بأبيات سيموس هينيز:

ولكن مرة واحدة في العمر
يمكن أن ترتفع موجة مد العدالة
التي طال انتظارها
ويتناغم الأمل والتاريخ[16]

لم تكن العقيدة الماركسية تسير وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي كما تكهن مناوئوهم اليمينيون في معظم الأحيان، وأظهر الكثيرون من الأعضاء الماضين في الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية مثل ثابو مبيكي وماك ماهاراج أظهروا القليل من الاهتمام بالماركسية. ظهرت الآن القصص المرعبة عن استيلاء شيوعي، لا صلة لها بالموضوع، عندما جلس الوزراء من جميع الانتماءات السياسية معاً لحل المشكلات يوماً بعد يوم.

هيمن مانديلا على الوزارة بأكملها، ليس بصفته رئيساً فقط بل بصفته الأكبر سناً، حيث كان عمره يعادل ضعف عمر الكثيرين من الآخرين، ومع

خبرة وسمعة فريدتين. تحدثوا عنه بوصفه «الرجل المسن». وكانوا ينادونه باسم «ماديبا» صراحة أكثر من «السيد الرئيس». ولكن دوماً مع الاحترام. كان في نفس عمر تشرشل عندما عاد رئيساً للوزراء عام 1951 وهو في السادسة والسبعين، ليستقيل في الثمانين. ومثله مثل تشرشل فقد جسّد روحاً وطنية سيطرت على السياسات اليومية. كان يدير اجتماعات الحكومة إدارة متقطعة حيث كانت تنعقد كل أسبوعين، ولم يكن يقوم بتدخل استراتيجي إلا لماماً. قال ماك ماهاراج: «كان ينصت بهدوء، ويستوعب كل شيء ثم يتدخل».[17]

طلب مانديلا من جورج بيزوس أن يتحرى كيف استطاع رؤساء حكومات معالجة وزارات مختلطة. وجاء بيزوس بمثال كليمانصو في فرنسا من عام 1917 حتى 1920 ـ الذي كان يعطي رأيه بعد الاستماع لكل وجهات النظر ثم يسأل: «أية استقالات؟» كان مانديلا يتبنى أحياناً «حل كليمانصو» ولم يقدم أحد استقالته.[18] وكان فخوراً لأن أية قضية لم تصل إلى مستوى الاقتراع. أبعد نفسه عن معظم التفصيلات لكنه انغمس بعمق في لجان الوزارة حول الأمن والاستخبارات. قال أحد المشاركين: «كان يتابع ذلك باستحواذ، إذ ما زال العامل القديم في السر، المقاتل الفدائي». وفي الاجتماعات الأصغر كان يتدخل تدخلاً طفيفاً لكن بحزم. قال أحد الزملاء: «إن حزمه هو أكثر ما أحببته فيه، كانت المذكرات تستغرق عشرة دقائق فقط ثم يتخذ قراره».[19]

كان يعاني بعض الصعوبة مع عدوين قديمين، دوكليرك وباثيليزي. وبوصف دوكليرك النائب الثاني للرئيس، فقد كان يتناوب مع مبيكي في الإشراف على الوزارة عندما يكون مانديلا غائباً، أو عندما يقرر الانسحاب. كان النائبان يلتقيان كثيراً لتسوية المشكلات؛ حيث يُسمعان مصادفة وهما يضعان جداول الأعمال بطريقة حبية. كان من الصعب تذكر أنهما كانا عدوين لدودين. كان دوكليرك متأثراً بنفاذ بصيرة مبيكي وإدراكه «للحقائق الأساسية للحكومة الحديثة».[20] إلا أن وضعه كان أصعب مع مانديلا؛ فقد أدرك أن

مانديلا لا يثق به. وسأل الأصدقاء المشتركين لماذا كان الأمر كذلك؟ السبب كان واضحاً: ما زال مانديلا يشعر بالخيانة من تستر دوكليرك على القوة الثالثة. قالت إحدى أمينات السر «هناك شيء واحد لا يستطيع مانديلا أن يصفح عنه، وهو الطعن في الظهر». وما زال مانديلا ينظر إلى دوكليرك بوصفه يحاول بث الانقسام في المؤتمر الوطني الإفريقي: «(تكتيكه) هو في مدح الرئيس، ثم مهاجمة وإضعاف المؤتمر الوطني الإفريقي».[21] وقد رفض مانديلا على الدوام أن يعامله أحد وكأنه يتفضل عليه، قال أحد المستشارين: «إنه يغضب إلى أشد الدرجات عندما يشعر أن كرامته قد أسيء إليها».

انفجر التوتر كاملاً في كانون الثاني (يناير) 1995، خلال اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة مبيكي. كان مانديلا قد اكتشف أنه قبل الانتخابات مباشرة منح الأمان لـ 3500 من رجال الشرطة من المقاضاة لجرائم ارتكبت خلال سنوات التمييز العنصري، وشن حملة تقريع مطولة بشأن عفو دوكليرك بمكر، وعدم إخلاصه للحكومة الإئتلافية. امتدح وزراء أفريقانيين آخرين بمن فيهم رويلوف مير وبيك بوثا. مركزاً قوارصه على دوكليرك. قال أحد المراقبين: «كان هجوماً خشناً، لكن مع فقرات وجمل انتقيت بعناية». بدأ دوكليرك يتخلى عن أوراقه وقال إن عليه إعادة النظر بمنصبه. لكن زملاءه حثوه على البقاء في الحكومة. وفي صباح اليوم التالي التقى مانديلا «بنفسيته القديمة الساحرة». وبعد الظهر عقدا مؤتمراً صحفياً مشتركاً، وافقا فيه على توضيح موضوع الشرطة.[22]

كان دوكليرك كارهاً لتمزيق الائتلاف. قال لي بعد ذلك بخمسة أشهر: «إننا لن نقلب عربة التفاح، مع أن بعض التفاحات سوف تسقط».[23] اندفع مانديلا بعنف ضد دوكليرك عندما طلب العفو عن الجرائم السابقة للأفريقانيين. وعندما دافع دوكليرك في تشرين الثاني (نوفمبر) 1995 عن وزير دفاعه السابق ماغنوس مالان الذي اتهم بجريمة، قال مانديلا إن دوكليرك أصبح نكتة: «أنا رئيس هذه البلاد، وأنا سأقرر من يستحق العفو وليس هو»[24] كان دوكليرك

بدوره قد سئم من مانديلا: «إنه يعتقد أن بإمكانه التحليق دون تحري الحقائق، وحل المشكلات بالجاذبية والوعود». كتب فيما بعد: «إن زواجنا لم يكن أبداً زواجاً ناتجاً عن حب، والآن انتهى شهر العسل».[25]

كان باثيليزي ـ المشكلة القديمة الأخرى لمانديلا ـ قد عين وزيراً لشؤون الوطن، لكن ولاءه ما زال قيد التساؤل، وقد انتقد مانديلا لتراجعه عن وعده قبل الانتخابات بالسماح للوسطاء الدوليين بتسوية موضوع الاستقلال الذاتي لكوازولو ناتال؛ قال لاحقاً: «لقد أهان التزاماً مقدساً، إنه مثل قولك لزوجتك: «إلى أن يفرقنا الموت» ثم تسبب لك الخيبة».[26] أصبح باثيليزي تمزيقياً خطراً؛ فقد قاطع المحادثات الدستورية الأولى، ثم دعا الزولو لمقاومة الحكومة المركزية: «إن مسيرتنا إلى الحرية قد بدأت». رد مانديلا بمبالغة مهدداً بوقف الأموال عن كوازولو وفرض حالة الطوارىء؛ اعتقد دوكليرك أنه يريد سحق الإنكاثا بالقوة.[27] قام مانديلا وباثيليزي بمصالحة أخرى لكن صداماتهما الشخصية استمرت. وتُرك الأمر إلى ثابو مبيكي وجاكوب زوما لصنع السلام في النهاية مع الإنكاثا بأسلوبهما اللطيف.

كان مانديلا مهتماً اهتماماً بالغاً بالمشكلات الأوسع في نقل الدولة من حكم الأقلية البيضاء إلى الديموقراطية المتعددة العروق. وفر المجلس النيابي الأبهة المرئية «لدولة قوس قزح» حيث كان هناك أربعمئة عضو في المجلس النيابي من جميع الألوان يملأون القاعة، وقد تحول الثوريون إلى مشرّعين. شرح الأسقف توتو قائلاً: «إنني أحب هذا الحلم، أنت تجلس في الشرفة وتنظر إلى الأسفل وتعد جميع الإرهابيين. إنهم يجلسون هناك جميعاً ويصدرون القوانين. هذا لا يُصدّق».[28] إن أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي البالغ عددهم 252 شخصاً ـ حيث ارتدى العديد منهم الأثواب الملونة أو البراقة ـ، فاقوا بكثير أعضاء الحزب الوطني بملابسهم الوقورة. تم تغيير شكل الافتتاح السنوي للمجلس النيابي في شباط (فبراير) 1995. فالقوات ما زالت

تقوم باستعراض خارج المبنى، وقد وصل الرئيس مع حراس مسلحين، وأطلقت المدافع تحية له؛ وقامت جوقة سوداء بالغناء في المدخل، كما عُزفت «موسيقى سوويتو، في الشارع». وفي الداخل؛ كان الجنرالات قد خُفضت مراتبهم إلى الوراء في حين تقدم القضاة إلى الأمام. سار مانديلا عبر القاعة، وهو يصافح البيض والسود، وألقى كلمته رسمياً من نص مكتوب، مضيفاً بين الحين والآخر فقرة مرتجلة. وعندما توقف ليشرب بعض الماء انتظر الأعضاء بصمت كامل إلى أن رفع كأسه وقال «نخبكم».

أراد مانديلا أن يستخدم المجلس النيابي لتوحيد ديموقراطية غير عرقية، وكان يهمه أن «لا تهبط حكومة الوحدة الوطنية إلى الجذور»[29] وكانت تؤيده في ذلك الناطقة الجديدة، فرين جينوالا المحامية البارسية القوية التي خدمت في المؤتمر الوطني الإفريقي لثلاثين عاماً في تنزانيا ولوساكا ولندن. والتي أرادت الآن أن تعلم المؤتمر الوطني الإفريقي استخدام المجلس النيابي الذي اعتبره المؤتمر عدواً له منذ زمن بعيد.[30] رأت في الديموقراطية النيابية نبتة ضعيفة، محاطة بالتقاليد الاستبدادية، وحاولت العودة إلى المبادىء الأولى في التعلم من النماذج الأوروبية والأمريكية. كانت لمانديلا معاركه الودية الخاصة مع جينوالا؛ فقد قاومت الاستسلام للهيئة التنفيذية، وكانت ملتزمة بفصل السلطات. وعندما قبّلها على خديها قالت له: «أنا لست واثقة من أنه يسمح لك بتقبيل الناطق».[31]

كانت المهمة الأهم بالنسبة إلى المجلس النيابي هي المصادقة على دستور جيد ـ كان من الواجب تأكيده وتعزيزه من قبل محكمة دستورية ـ وعلى رأسه آرثر تشاسكالسون، المحامي الذي ساعد في الدفاع عن مانديلا في محاكمة ريفونية قبل ثلاثين عاماً. كان ذلك نقضاً حاداً للأدوار؛ عندما افتتح مانديلا المحكمة رسمياً في شباط (فبراير) 1995، ذكّر المحامين أن آخر مرة كان فيها في المحكمة كان يترقب فيما إذا كان سيحكم عليه بالموت. وكانت عقوبة

الموت هي التي وفرت أول جدال داخل المحكمة الدستورية. أراد مانديلا من المجلس النيابي أن يَبُتَّ فيما يتعلق بموضوع العقوبة القصوى؛ اعتقد أنها قضية أخلاقية، وآمن شخصياً أن أي بلاد متحضرة يجب أن لا تسمح بها. لكن مجلس الوزراء قرر إرسال المسألة إلى المحكمة التي أعطت حكمها بالذات، وهو أن عقوبة الموت ليست دستورية. كانت المحكمة ستؤكد بسرعة على استقلالها عن الرئيس؛ فعندما أصدر مانديلا بيانين يؤثران على الانتخابات في الكاب الغربي، لجأ رئيس الوزراء هيرنوس كريل إلى المحكمة التي وجدت أن الرئيس قد تجاوز سلطاته. وخلال ساعة قبل مانديلا بالحكم، كما يتذكر في كثير من الأحيان.[32]

الدستور الجديد الذي من شأنه أن يحل محل الاتفاقية المؤقتة تم تعديله ببطء من قبل رامافوزا وفريقه، وصولاً إلى تسويات تطمئن جميع الأحزاب، وتضمن ما يحمي لغة وثقافة الأفريقانيين. وبعد بعض الجدل طُرح أمام المجلس النيابي في تشرين الأول (أكتوبر) 1996، مع نسخ موزعة حرفياً وفورياً من قبل الصحافة. تشكى السياسيون من جميع الأحزاب؛ من الـ PAC حتى جبهة الحرية؛ حول مواطن الضعف فيه، لكنهم صادقوا عليه في النهاية. قال دوكليرك إنه يظهر أن الحكومة لا يمكنها أن تفعل ما يريدونه بكل بساطة. أما رامافوزا الذي كان يودع المجلس النيابي فقد هنأ الأحزاب على الارتقاء فوق مبادئها.[33] لكن المصادقة على الدستور لم تضع حداً للنقاشات، ولا سيما حول عقوبة الموت، التي نادى اليمينيون السود والبيض على حد سواء وبسرعة بوجوب إعادتها إلى الدستور.

وبينما كان المجلس النيابي يضم مختلف الأعراق والألوان، فإن المعارك الحقيقية لتحويل البلاد كانت تُشن داخل دوائر الحكومة. وأدرك المؤتمر الوطني الإفريقي سريعاً القيود الكاملة للـ «Sunset clauses». إنها تشكل رسماً

ساخراً لمشكلة أية حكومة راديكالية جديدة تحاول دفع الإصلاحات عن طريق الرسميين المحافظين. راقب وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي أشرطة ڤيديو للسلسلة البريطانية الساخرة، نعم أيها الوزير، حيث أعاق الموظفون الماكرون الإصلاحات التي كان يقوم بها أسيادهم السياسيون؛ لكن أساس طبقة الموظفين في جنوب إفريقية كانت زحزحته أصعب بكثير من وايت هول. ارتاب بعض الوزراء السود بأن موظفيهم الأفريقانيين يخوضون معارك الحرب العنصرية القديمة من جديد ولكن عن طريق القيام بأعمال القنص والكمائن داخل غرف تصنيف الوثائق وآلات الإتلاف. كان مانديلا مدركاً لوجود جيوب من المقاومة الأفريقانية اليمينيّة ـ في الشرطة والجيش والاستخبارات ـ تقف في وجه أية إصلاحات؛ لكنه اعتقد أن معظم الموظفين كانوا متعاونين.[34]

كانت هناك صدامات مقلقة بين الوزراء المصلحين الأكثر تصلباً ومديريهم العامين، حول ممارسة الإدارة أكثر من أن تكون حول الأيديولوجية في معظم الأحيان. فمدير وزارة الإسكان بيلي كوبيت استقال بعد أن تشكى من عقود غير نظامية قام بها وزيره سانكي مثيمو ـ نكوندو، الذي خلف جوي سلوفو. وكانت هناك مبالغة أحياناً بالعقبات السياسية من قبل الوزراء الذين لم يكونوا واثقين مما يريدون تحقيقه أو كيف يتم ذلك. قال موظف كبير أسود: «لدى الموظفين نضجهم وطريقتهم الخاصة، لكنهم مطيعون في الأساس، ينتظرون من يرشدهم كيف يعملون».[35] كان بإمكان الوزراء الأدهى من المؤتمر الوطني الإفريقي، مثل جوي سلوفو، كان بإمكانهم فرض سياساتهم بسرعة! دفع قادر أسمل قدماً الخطط لإيصال المياه النظيفة إلى المناطق الريفية. وكانت الاستراتيجية الأساسية للمؤتمر الوطني الإفريقي هي اقتلاع وتحييد كبار الموظفين الذين كانوا يعيقون بفعالية سير الأمور، لكن زحزحتهم تطلبت وقتاً، وهناك حاجة لوقت أطول لتدريب إداريين سود أكفاء ليحلوا محلهم. كان عدم وجود مديرين من

مرتبة متوسطة ذوي خبرة ولا سيما في الحكومات المؤقتة، هو العقبة الكبرى لتحوّل الحكومة؛ وهناك بالذات ظهر الثمن الكامل لسياسات التمييز العنصري ولا سيما في تعليم البانتو.

واجه المؤتمر الوطني الإفريقي أخطاراً في كل وزارة، حيث مهدت الأحلام الثورية الطريق أمام الميزانيات القاسية، لكن أرض المعركة المركزية كانت وزارة المالية. فالتدفق الكبير لرأس المال خلال الشهور الثمانية عشر السابقة ترك الاحتياطي منخفضاً انخفاضاً خطيراً، وتوجب على الحكومة تطمين المستثمرين الدوليين بسرعة، لم تكن لدى مانديلا تجربة في الاقتصاد، لكنه قبل حاجات عالم التجارة الدولي. تأثر دوكليرك لرؤية المؤتمر الوطني الإفريقي «يقبل إطاراً واسعاً من السياسات الاقتصادية المسؤولية».[36] أعاد مانديلا تعيين وزير مالية دوكليرك وهو ديريك كيز، وهو رجل أعمال هادىء أصبح من أكثر الرجال المحبوبين في مجلس الوزراء إلى أن استقال بعد ذلك ببضعة شهور، لأسباب عائلية. توجب على مانديلا أن يقنع مصرفياً تقليدياً، كريس ليبينبرغ ليحل محله، في حين كان يعدّ تريفور مانيوويل وزير التجارة من المؤتمر الوطني الإفريقي خليفةً له. ومانيوويل بماضيه النضالي كناشط في الجبهة الديموقراطية الموحدة، أفزع في البداية المصرفيين بالتحدث دون احترام عن عالم التجارة الدولي. لكنه برز سريعاً كأحد أعمدة الاستقامة وصحة الرأي في الأمور المالية.

في المصرف المركزي أعاد مانديلا تعيين كريس ستال المحافظ جداً - وهو عضو، سابق في الـ Broeder bond - حيث التزم بوضع حد للتضخم عن طريق معدلات عالية للفائدة. أصبح ستال ومانيوويل مطية لليسار، لكن وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي تعلموا التعايش مع القيود الحازمة التي فرضوها. استهلكت دفعات الفائدة على الديون التي جلبتها أنظمة التمييز العنصري السابقة، استهلكت خمس الميزانية الوطنية بأكملها. وكان مانديلا يأمل لبعض

الوقت بنوع ما من خطة مارشال، مثل المساعدة التي تلقتها أوربة من أمريكة بعد الحرب العالمية الثانية. قال لمجلة تايم في حزيران (يونيو) 1993: «ما نتوقعه هو أن يضمن العالم الغربي بقيادة الولايات المتحدة القيام بإجراءات كبرى لتقديم المساعدات إلى شعب جنوب إفريقية»[37] لكن المؤتمر الوطني الإفريقي أدرك سريعاً أن عليه توفير ما يلزمه من أموال. قال فرانك تشيكين، رجل الكنيسة الذي استلم فيما بعد قسم نائب الرئيس: «كان المؤتمر الوطني الإفريقي في كل بلد في إفريقية، مما أطلعنا عليه جوانب كثيرة غير مجدية. وعندما لم تأت المساعدة الدولية أدركنا أنه يجب علينا القيام بالعمل بأنفسنا».[38]

كان التراجع موجعاً. فخطة إعادة البناء والتطوير، التي علق عليها مانديلا الكثير من الأمل، برهنت سريعاً على أنها طموحة أكثر من اللازم. فهدف بناء مليون منزل في خمس سنوات لا يمكن التوصل إليه، والوعود بمزيد من الوظائف برهنت على أنها فارغة، لأن التكنولوجيات الجديدة تتطلب موظفين أقل، كما أنها وضعت مكافآت على المهارات التي كان معظم السود ما زالوا فاقدين لها. ولم يعد ينظر إلى التأميم كاختيار لإيجاد فرص عمل، كانت حبة دوار مُرة لوزراء المؤتمر الوطني الإفريقي الذين نشأوا على الإيمان بفوائد الملكية العامة ـ ليس من قبل الشيوعيين فحسب بل الحكومات الأفريقانية التي وفرت الآلاف من فرص العمل للأفريقانيين في الصناعات المؤممة التي فيها أعداد من العمال أكثر مما يلزم، مطورة نسختها الخاصة من العمل الإيجابي - والآن أبلغ العالم المؤتمر الوطني الإفريقي بوجوب خصخصة الصناعات، وفرز فرص العمل، ورفض العمل Afformatiqe والتخفيض السريع للعجز الذي مولت حكومات التمييز العنصري من خلاله تبذيرها واضطهادها.

واجه مانديلا نوعاً من التحرر من الوهم. فقد شهد كم كدس رجال الأعمال الأجانب من أموال أيام ازدهار التمييز العنصري في عقد الستين عندما كان في السجن، إذ كانت اليد العاملة رخيصة وكان سعر الذهب آخذاً

بالارتفاع. والآن أصبح سعر الذهب يهبط وأصبحت اليد العاملة غالية أكثر، كما أن إفريقية نأى عنها المستثمرون، الذين صاروا يتسابقون إلى الاقتصاديات المعجزة لجنوب شرق آسية. حاول جذب المستثمرين عن طريق تخفيض القيود على الصرف، والاستعداد للخصخصة ومواجهة الاتحادات؛ لكنهم وضعوا أموالهم في النهاية في أمكنة أخرى. شعر مانديلا بالسلطة الكاملة للدولة ـ الشعب ـ التي سجنته نصف سني سن الرشد من حياته؛ والآن تم إبلاغه أن الدول تفقد قدرتها على تحسين حياة الناس أو تصحيح الأخطاء الماضية.

كان قلق مانديلا الأكبر يتركز على وزارة الدفاع، باعتبارها الحد الفاصل للسلطة السياسية. واختار وزيراً لها جوي موديس ـ القائد السابق في الـ MK، مع روني كاسريلز ـ الذي عاداه الإفريقيون: «الرجل الأبيض ذو القلب الأسود» بوصفه نائباً له. سبب مانديلا مفاجأة بتعيينه قائد القوى الدفاعية في عهد دوكليرك وهو الجنرال ميرينغ ـ الذي هاجم بضراوة المؤتمر الوطني الإفريقي ـ ليستمر في منصبه لخمس سنوات أخرى؛ لكن ميرينغ بدا مفيداً لمانديلا قبل الانتخابات، والآن وعد بالولاء له (تباهى أمام أقرانه من ضباط الدفاع أن الرئيس تكلم معه على الهاتف لأربعين دقيقة).[39] وأعطى موديس وكاسريلز مزيداً من السلطة لأمين سر الدفاع الجديد المدني بيير ستين، وهو الجنرال السابق في القوى الجوية الذي كشف بفعالية نشاطات القوة الثالثة.

بقي الدفاع أكثر المجالات تضليلاً، فهو القاعدة الكامنة لأي انقلاب أو تمرد. وكان الكثير من الجنرالات الأفريقانيين ما يزالون يسيطرون على شبكات عسكرية قوية يمكنها حجب الحقائق الحاسمة عن العمليات السرية، وعن مبيعات الأسلحة أو قوائم المخبرين. في حين أن الفدائيين السابقين في المؤتمر الوطني الإفريقي بالذات كان من الصعب دمجهم مع الجيش الأفريقاني، وكانوا مقاومين لقبول نظام أكثر شدة. وتوجب على مانديلا أن يتدخل شخصياً عندما رفض ثلاثة آلاف جندي من الـ MK العودة من إجازاتهم في تشرين الأول

(أكتوبر) 1994، محذراً إياهم بأنهم سيحاكمون إذا لم يعودوا خلال أسبوع. أرسلت الحكومة البريطانية فريقاً عسكرياً صغيراً للاستشارة حول دمج القوات البيضاء والسوداء، حيث حذر فيما بعد من الإعاقة التي يقوم بها الأفريقانيون. رغب بعض السياسيين في المؤتمر الوطني الإفريقي لو أنهم ورطوا البريطانيين توريطاً، مثلما فعلت حكومة ناميبيا. أبقى مانديلا عينه مفتوحة على تقارير الاستخبارات، التي كانت هي نفسها عرضة للولاءات المتنافسة، بدا أنه ما زال واثقاً ـ ربما واثقاً جداً ـ من ولاء الجنرال ميرينغ.

كانت حكومة مانديلا مراقبة عن كثب من قبل رجال الأعمال والديبلوماسيين في العالم، وذلك لاكتشاف علائم فساد قبل كل شيء. لقد خافوا من أن تنحدر جنوب إفريقية في المستنقع الاقتصادي الذي أغرق العديد من الدول الإفريقية التي كانت مزدهرة ضمنياً مثل نيجيريا وكينيا. ورث مانديلا نظاماً فاسداً أكثر بكثير من أولئك الذين في الشمال، والذين استلموا السلطة من إداريين استعماريين شرفاء تقريباً. كانت الحكومات الأفريقانية رديئة السمعة لتلقيها الرشاوى منذ جمهورية كروغر في القرن التاسع عشر، وقال مانديلا بحق إن إدارات التمييز العنصري كانت «وطيدة بالفساد». احتاج المؤتمر الوطني الإفريقي تنظيف شبكات الرشاوى والمحاباة في بريتوريا، والحكومات البانتوستانية المسمومة التي عززها الديكتاتوريون السود؛ في حين كان المقاولون البيض يلوحون الآن بالرشاوى أمام السياسيين للحصول على مواطىء أقدام في مجالات الأعمال، ولا سيما الكازينوهات. في آب (أغسطس) 1997 اعتبرت جنوب إفريقية من قبل مسح دولي للفساد الدولة الثالثة والثلاثين من بين اثنتين وخمسين دولة تم مسحها، حيث كانت الدانمارك في القمة ونيجيريا في الوهد.[40]

كان مانديلا ناكراً لذاته بوضوح، فقد عاش ببساطة وقدم ثلث راتبه الرئاسي إلى صندوق الأطفال، الذي كان مشروعه الخيري الخاص. ووعد

خلال الانتخابات بوضع حد للكسب غير المشروع السياسي: «نحن لن نعيش مثل القطاط السمان»؛ لكن أعضاء المجلس النيابي تعرضوا للانتقاد سريعاً لقبولهم زيادات كبيرة في الرواتب. كان من بين المنتقدين الأسقف توتو، الذي أبدى أقسى ملاحظة: «أوقفت الحكومة قطار الكسب غير المشروع بما يكفي لتركبه». رد مانديلا علناً ضد «تصرف توتو اللامسؤول»، وأبلغه أنه كان من الواجب إثارة القضية في السر. أجاب توتو إنه فعل ذلك وأن مانديلا طعن في استقامته. لكن الرجلين سرعان ما سويا خصامهما. هاتف مانديلا توتو متشكياً لماذا صرخت بي أمام الناس؟ لكنه كان يضحك سريعاً. بعد بضعة شهور أعلن مانديلا عن تخفيض في رواتب أعضاء المجلس النيابي والرئيس. استمر إعجاب توتو العميق بزعامة مانديلا. «لو أن هذا الرجل لم يكن هناك، فإن البلاد بأكملها كانت ستشتعل ناراً». [41]

الأشياء الأخطر كانت الاتهامات بتمجيد شخص معين والاختلاس. لقد تدمر المؤتمر الوطني الإفريقي خاصة بالتهم ضد ألان بويساك زعيمه السابق في الكاب الغربي والذي كان المؤسس الآخر البطولي للجبهة الديموقراطية الموحدة. بعد فضيحة بويساك الزوجية وقف مانديلا إلى جانبه خلال الانتخابات، وذلك بعكس نصيحة عدة زملاء، وعينه بعد ذلك سفيراً إلى الأمم المتحدة في جنيف. ثم اشتكت وكالة مساعدة دانماركية من أن المبالغ التي أرسلت عن طريق بويساك لم تصل إلى مكانها وطلبت من شركة قانونية في جوهانسبورغ إجراء تحقيق. وجدت الشركة أن بويساك «قد أثرى نفسه بقوة»، بشراء منزل ودفع تكاليف زفافه الثاني. وجد تقرير حكومي أن الاتهامات غير ثابتة، وأصر مانديلا على أن بويساك كان بريئاً. لكن القانون أخذ مجراه رغم ذلك، واتهم بويساك ـ وهو في أمريكة ـ بالاختلاس.

عندما عاد، رحب به في المطار بكلمة تأييد وزير العدل دولا عمر ـ الذي كان أيضاً رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في الكاب الغربي. اشتكت المعارضة

من أن مانديلا كان يضع الولاء للحزب فوق الاستقامة العامة، لكن المحاكمة ظلت مستمرة، وفي آذار (مارس) 1999 وُجد أن بويساك مذنب بأربعة اتهامات بالاحتيال والسرقة، وحكم عليه بالسجن ست سنوات.[42]

بحلول نهاية السنة الأولى لمانديلا رئيساً، كان شهر العسل قد انتهى. كان الجنوب إفريقيون البيض يشتكون بمرارة من موجة الجريمة، والرند يتابع انخفاض قيمته، وفضائح الفساد، والجيشانات في المستشفيات والمدارس. وكان الليبراليون قد تحرروا من وهم أن الحكومة السوداء تتجاهل نصائحهم. في حين عدَّ آخرون من البيض أن ذلك لم يكن ليفيد في أية حال. كانت جنوب إفريقية البيضاء مجتمعاً مميزاً تميزاً فذّاً في ظل أنظمة الحكم السابقة، محمية من المنافسة السوداء وعالم التجارة في آن واحد وقد وجدت صعوبة في التأقلم مع ديموقراطية مفتوحة. قال قادر أسمل في شباط (فبراير) 1997: هناك تشاؤم غريب في الضواحي المورقة لما كان في السابق جنوب إفريقية البيضاء تحديداً، وهو تشاؤم فشل كلياً في تقدير قيمة الإجراءات المفيدة التي اتخذت من أجل البيض.[43]

كان لمعظم السود رأي أقل تشاؤماً بكثير، مع نظرة أبعد. فقد شهد الفقراء الريفيون توسيع العناية الصحية الأساسية ووصول حنفيات الماء؛ وفي المدن شهدت الطبقة الوسطى السوداء المزدهرة فرصاً متنامية في الصناعة والتجارة. لكن رأيهم أصبح يبدو أقل أملاً عندما ازدادت البطالة ولم تتحقق فرص العمل الجديدة. وشعر المستثمرون فيما وراء البحار بالإحباط، وكما كتبت الفاينشال تايمز في أيار (مايو) 1996: «الجريمة المتصاعدة والنمو البطيء للتوظيف والفشل في تحقيق الوعود بتخفيض أعمال الإسكان المتراكمة والهجرة غير المشروعة من الجيران الفقراء ساعدت كلها في تراجع الثقة بمجالات العمل».[44] بحلول تشرين الثاني (نوفمبر) 1996 توجب على المؤتمر الوطني الإفريقي الاعتراف بأخطاء خطيرة، «في مراجعة الأداء خلال نصف المدة

المحددة»: «لقد دخل المؤتمر الوطني الإفريقي الحكومة لأول مرة، ولدينا منعطف حاد في تعلّم شؤون الحكم. وعندما دخلنا الحكومة توقعنا مشكلات لكن ليس بالحجم الهائل الذي لدينا الآن».

كان مانديلا يتعلم منعطفه الخاص في التعلم. قال في كانون الثاني (يناير) 1996: «كان من الأصعب الدفاع عن الحرية التي كسبناها، بالمقاومة مع النضال أو القتال من أجل كسبها».[45] بحلول كانون الثاني (يناير) 1997 كان يعترف أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد ارتكب «بعض الأخطاء الأساسية والخطيرة بما في ذلك تجاوبه مع التمويل من صول كيرزنر والعاقبة المكلفة للسارافينا الموسيقية التي تهدف إلى التعريف بمرض الأيدز، والتي لم تثمر أبداً». وأضاف إنه من الضروري جداً الاعتراف بالأخطاء والتعلم منها. لكنه بقي موالياً موالاة تامة للزملاء القدامى في المؤتمر الوطني الإفريقي، فيما عدا الذين انتقدوا الزعامة علناً مثل زوجته السابقة أو بانتو هولوميزا، وقد ألقى جانباً بالدعوات لإعادة تنظيم الحكومة. قال عندما افتتح المجلس النيابي في شباط (فبراير) 1997: «اعتقدت أنني قد وجدت سبباً لتعديل وزارتي، رأيت بعض أعضاء الوزارة يغلبهم النعاس بينما كنت أتحدث.. لكن نظرت بعد ذلك إلى الرؤساء أمامي هنا بالضبط بالإضافة إلى الأعضاء في المعارضة، ورأيت الشيء ذاته يحدث هنا! اعتقدت أنني يجب أن أكون عادلاً وغير متحيز، لذلك لن يكون هناك تعديل».[46]

أغضبت ولاءات مانديلا العنيدة بعض الزملاء إضافة إلى المعارضة. وبدا وهو يتحمل عدم الكفاءة وإساءات استعمال السلطة. كان يشعر شخصياً بالصدمة والخيبة بالمزاج الجديد للطموح المالي والاعتداد بالشخصية من قبل الجيل السياسي الأكثر شباباً.[47] لكنه حافظ علنياً على قدرة مهيبة في التحمل. كانت أولويته هي بناء شعب جديد ـ والتسوية بين العدوَّين السابقين ـ اللذين رأى فيهما دوره التاريخي الأساسي.

36

الصفح

أصبح مانديلا مشهوراً فوق الجميع بوصفه الرجل الذي صفح عن الأعداء الذين سجنوه. وهذا دور غير واضح بالنسبة إليه ليلعبه. في سنوات ما قبل السجن كان عدوانياً تماماً، سواء في كونه ملاكماً أم في كلماته النضالية استمتع مانديلا الشاب بمجابهة الأعداء، سواء كانوا الرؤساء الأفريقانيين أو الامبرياليين الغربيين أو الخونة الإفريقيين؛ زميله تامبو هو الذي كان آنذاك الاسترضائي الواضح؛ قال تامبو لزميل له: «كنت عندما أريد المواجهة أطلب مانديلا». [1] تعلم مانديلا كيف يسترضي ولكن بالطريق الصعب، وذلك في سنوات سجنه: وعبر ذهنه ـ كما أوضح ـ وليس عبر دمه. غير موقفه من الأفريقانيين بمساعدة عدد قليل من السجّانين، وأدرك أن السلام المستقبلي لجنوب إفريقية سيعتمد على الصفح. كانت سيطرته على عدوانيته هي التي أعطت سياساته قوة خاصة؛ ومثله مثل جورج واشنطن (كما كتب أنتوني لويس)، كان «رجلاً ذا عواطف قوية أخمدها في سبيل إيجاد دولة». [2]

كان مانديلا مؤسس دولة جديدة، مثل واشنطن وغاريبالدي أو بوليڤار، لكنه لم يؤسسها عن طريق الإخضاع العسكري أو القوة الوحشية؛ وكان واعياً جداً للنتيجة؛ فكما قال: «في بناء الدول تحتاج أحياناً إلى «بلدوزر» وأحياناً إلى نفاضة ريش». [3] وكانت دولة جنوب إفريقية السابقة، التي هي أكبر من مانديلا بثماني سنوات، كانت نتيجة مصالحة أعلن عنها كثيراً بين الأعداء السابقين ـ

الأفريقانيين والبريطانيين الذين اجتمعوا معاً بعد حرب مريرة. لكن ثمن تلك التسوية كان إبعاد الإفريقيين عن الحكومة؛ وكانت فكرة جنوب إفريقية المتعددة العروق ما تزال ناشئة حديثاً وهشة.

ظل مانديلا يواجه نقاشات حول ماذا شكلت التعددية العرقية في الواقع. قبل فكرة «الدولة القوس قزح» حيث تضم جميع الألوان، والتي بسّطها توتو وآخرون؛ لكنه لم يؤمن أبداً «بلا عرقية وبلا ألوان»، كما نادى بها العديد من المنظرين اليساريين. وما زال يتذكر مناقشاته الطويلة في روبن آيلاند عن «المسألة الوطنية»، مع نيفيل ألكسندر الذي أصبح منذ ذلك الوقت بروفيسوراً في جامعة كيبتاون. وقد انتقل ألكسندر الآن بعيداً عن نموذج «المتمثل» المتطرف ـ الذي يفترض أن الاختلافات العرقية مصيرها الذوبان؛ وهو يفضل الآن مجاز النهر العظيم، الذي يستوعب الروافد من شتى أنحاء البلاد. لكنه مازال يقاوم التركيز على التعريفات العرقية.[4] ورأى مانديلا في توحيد جنوب إفريقية عملية تدريجية بدرجة أكبر مما فعله ألكسندر، في تقليد المؤتمر الوطني الإفريقي. وكما شرح ألبيرت لوثولي: «كان تاريخنا منذ البداية تاريخ توحيد متصاعد، أي كسر الحواجز القبلية والعرقية والـ Credal».[5] بقي مانديلا حساساً تجاه ثقافات العروق والقبائل المختلفة، ونصح المؤتمر الوطني الإفريقي بوجوب عدم نسيان الأقليات. قال في آذار (مارس) 1993: «خلال الفترة الانتقالية فإن الأقليات في كل مكان ستقول: إذا حدث التغيير، ماذا سيحدث لي، ولقريني ولأولادي وللمجموعة الوطنية التي أنتمي إليها، وللقيم التي أؤمن بها، ولممتلكاتي؟» كان يأمل بحكومة وحدة وطنية يمكن لكل شخص في ظلها أن يقول: «أنا لي تمثيل في تلك الحكومة».[6]

كان مهتماً خاصة بالتصالح مع الأقلية الأكبر خطراً، وهي الأفريقانيين الذين كان يتقاسم الحكومة معهم. وكما قال فإنه لم يستطع نسيان «كل أنواع الناس الذين كانت أيديهم مغموسة بالدماء». لكن توجب عليه إقامة سلام

معهم، وجعلهم يشعرون أنهم جزء من الدولة الجديدة: «يجب أن نكون واعين لحساسية المجموعة الأخرى التي فقدت السلطة الآن». ومن التناقض بمكان أن سنوات سجنه تركت لديه تسامحاً خاصاً تجاه الأفريقانيين، وإيماناً بأن في مقدورهم عكس ولاءاتهم، قال: «متى تغيروا فإنهم سيتحركون 180 درجة». كان الكثيرون من أصدقائه محتارين ومرتابين. قال أحدهم: «بدا فقط أنه مقتنع أن الإفريقيين هم شيء جيد».

لكن كانت لدى مانديلا أيضاً أسباب سياسية جيدة لمد يده إلى الأفريقانيين وليتعامل تعاملاً منفصلاً مع مجموعاتهم المتنوعة. وقد استطاع تخفيف حماسة بعض السياسيين اليمينيين بمن فيهم زعيم الحزب المحافظ، فريدي هارتزنبرغ. قال مانديلا عشية الانتخابات: «إنه سيدرك سريعاً أنه إما أن يتحدث إلينا أو يختفي في البراري».[7] بعد الانتخابات كانت لدى هارتزنبرغ محادثات ودية مع مانديلا، وقد اختفى تقريباً فيما بعد. أما الأكثر تطرفاً وهو يوجين تيربلانش من الـ AWB فقد تُرك وحيداً، وقد ساءت سمعته، وندد بهارتزنبرغ بوصفه خائناً.

بذل مانديلا جهداً خاصاً لاسترضاء أعدائه السابقين في سلسلة من الزيارات الرمزية التي تحمل شعوراً كبيراً بالدراما. ذهب لرؤية الرئيس السابق بوثا من جديد في ويلورنس في تشرين الثاني (نوفمبر) 1995. بدا بوثا كأنه ما يزال يقاتل في حرب باردة؛ أخبر مانديلا أنه بعد كونه سجيناً في السجن، فإنه أصبح الآن أسيراً في وزارته بالذات. محاطاً بعصبة من الهنود والشيوعيين: «إنهم سيدمرونك». وحذره من أنه إذا تمت إدانة جنرالات أفريقانيين لأعمال نفذوها في ظل نظام التميز العنصري فإن ذلك ربما يؤدي إلى كارثة. تذكر بوثا قائلاً: «لم يقل مانديلا شيئاً ونظر إليَّ في عينيّ تماماً وكأنه ماتانزيما»[8] لوّح بوثا بأصبعه أمام الكاميرات التي سجلت لقاءهما، في حين راقب مانديلا بتسامح مضحك؛ عرف أن التسامح القديم قد أصبح الآن بلا أسنان.

رحب مانديلا بالعديد من المناوئين السابقين منذ سنوات سجنه. فعندما تقاعد نيل بارنارد بصفته رئيساً للاستخبارات، أقام له مانديلا مأدبة غداء في بريتوريا، وكان بين الضيوف الجنرال ويلمز الآمر السابق لروين آيلاند. قال ويلمز بعد ذلك وقد تأثر كثيراً: «هذا لا يحدث في حياة كل شخص، إنها تجربة رائعة يعيش المرء خلالها».[9] وحقق مانديلا السلام مع الكنائس الأفريقانية، ففي يوم الأحد شارك جماعة من المصلين في كنيسة إصلاح هولندية في بريتوريا، حيث شعر بالسرور لاستقباله: «جميع الرجال أرادوا لمسي، وجميع النساء أردن تقبيلي، وجميع الأطفال أرادوا التعلق بساقيّ». قبل ذلك ببضع سنوات، كما تذكر، كان بحاجة إلى حراس لحمايته من أن يتم الاعتداء عليه: «هذه المرة، كانوا هناك لحمايتي من القتل بسبب الحب».[10]

وبمساعدة أمينة كشاليا، التقى أرامل وزوجات الزعماء السود والبيض على حد سواء، ليس فقط المحنكين في الكفاح مثل ألبيرتينا سيسولو وألبانيا موتوبينغ، بل أيضاً زوجات الزعماء الأفريقانيين «لجعلهن يشعرن بالراحة في النظام الجديد»[11] وفي آب (أغسطس) 1995 طارت معه أمينة إلى الجيب الأفريقاني الكئيب في أورانية في الكاب الشمالي ـ مما ذكرها بالمنطقة الهندية في ليناسيا، التي بناها المخططون في التمييز العنصري خارج جوهانسبورغ ـ وذلك لزيارة الأرملة البالغة من العمر الرابعة والتسعين أرملة الدكتور هيندريك فيروورد الذي كان قد اضطهده. قدمت الشاي لمانديلا وألقت حكمة قصيرة مناشدة بالحلم الأفريقاني القديم، وكانت تقرأ بفرح دون نظارات إلى أن لقنها مانديلا بالأفريقانية. وضعت أمامه تمثالاً غير مهيب لفيرورد: قال مانديلا «لقد جعلته صغيراً جداً». وتجادلت أمينة مع مانديلا أثناء عودتهما بأن الأفريقانيين لن يقبلوا أبداً بجنوب إفريقية جديدة؛ لكن مانديلا أصر: «سيقبلون، سيتجهون إلى الطريق الصحيح في النهاية».[12]

بعد ثلاثة شهور أقام مأدبة غداء في بريتورية لبيرسي يوتار البالغ من العمر

الرابعة والثمانين، وهو النائب العام في محاكمة ريفونية الذي أغضب المتهم بتقريعه الطويل الانتقامي والمتغطرس. أطرى مانديلا المحامي الصغير الضعيف - «ما تزال تبدو شاباً ونشطاً» - في حين تعجب بوتار من شهامته: «إنها تظهر التواضع العظيم لهذا الرجل الذي يشبه القديسين».[13] بدا مانديلا في سعيه وراء مضطهديه مثل المحكوم السابق الأسطوري الذي يصطاد جميع الناس الذين خانوه، لكن بدلاً من قتلهم فإنه يصفح عنهم.

غضب الكثيرون ممن كانوا في روبن آيلاند من تصرفاته المتطرفة جداً في الصفح، منها مثلاً تعيين الجنرال جاني روكس - رئيس السجن الذي كان قاسياً جداً في روبن آيلاند - سفيراً إلى النمسا. وشعروا بالحيرة بسبب تساهله تجاه سجانه السابق جيمس غريغوري عندما نشر كتابه: (الوداع، بافانا) والذي تعزز بمساعدة مانديلا برسالة يشكره فيها على «الساعات الرائعة التي قضيناها معاً». قال مانديلا في السر إن غريغوري قد «أصيب بالهلوسة» في العديد من رواياته، واعترف غريغوري ذاته أنه استخدم «ترخيص مؤلف»، والأكثر خطراً أنه أساء لدوره عن طريق كشف تفصيلات شخصية سرية. ثم حث مانديلا على مقاضاته، لكنه كان راضياً عندما أبعد قسم السجون نفسه عن الكتاب.[14]

بقي مانديلا صلباً عنيداً بشأن ضرورة استرضاء الأفريقانيين، الذي رأى فيه عملاً شجاعاً وليس نتيجة ضعف. قال لي عندما جادلته حول هذه النقطة: «لا حاجة بنا إلى تذكير أنفسنا بالشرور الماضية، الشجعان لا يخشون الصفح، من أجل السلام».[15] كانت المصالحة حاسمة بالتأكيد بالنسبة إلى استراتيجيته السياسية. فكلما أمكنه أن يمد يده إلى الأفريقانيين الأفراد، كلما استطاع بث الانقسام بينهم وتجريدهم من السلاح. كان الصفح مظهراً من مظاهر القوة، حيث يؤسس تفوقاً أخلاقياً يذكّر كل شخص أن ميزان القوة قد تحول. قال أحد زملاء مانديلا: «أنت لا تعرف تماماً أبداً ما إذا كان قديساً أم مكيافيلياً».

لكن مصالحته كانت أيضاً جزءاً من التفاؤل الأساسي حول الطبيعة

الإنسانية التي حملها مانديلا معه منذ شبابه، والتي تعززت في السجن بدلاً من أن تضعف. كان مستشاروه المقربون غاضبين في معظم الأحيان لاستعداده لدعم أصدقاء مشكوك بهم، ولرؤية الأفضل في المناوئين غير الجذابين، وللترحيب بالدجالين الواضحين. تعجب أحمد كاثرادا، الذي عمل في المكتب المجاور، إلى أي مدى رأى مانديلا من خلال مخادعات الأصدقاء المزيفين الذين جاءوا لرؤيته: «المعرفة الشخصية المصطنعة لعقود من الماضي وهي ترتقي فجأة إلى «صداقة حميمة»، والانتهازيين الذين يداهنونه من أجل تهريب جداول أعمالهم المريبة بل حتى الاحتيالية: والأصدقاء المخلصين في أيام الرخاء فقط الذين لم يظهروا في أي مكان عندما كانت هناك حاجة ماسة لصداقتهم؛ ارتاب كاثرادا بأن مانديلا كان منشغلاً جداً بكل بساطة بأولويات أخرى بحيث لم يلاحظ مكائدهم.[16]

كل هذه العلائم الدراماتيكية للصفح رحب بها البيض بمفاجأة وارتياح، في حين أثارت غضب وشكوك بعض النضاليين السود ممن رأوا رئيسهم في تحالف غير رسمي مع أعدائهم. أصر مانديلا دوماً على أن المصالحة يجب أن يرافقها التحول ـ وهي كلمة أساسية للمؤتمر الوطني الإفريقي ـ ليتمكن السود من المشاركة في القوة الاقتصادية وفرص العمل مع البيض؛ وأصبح فاقداً للصبر بغياب التنازلات المتبادلة من الجانب الأبيض. قال عند افتتاح المجلس النيابي في شباط (فبراير) 1996: «لا يمكننا الشفاء أو البناء مع الصفح فقط من قبل ضحايا الظلم الماضي واكتفاء المستفيدين بالامتنان فقط» ـ تبع ذلك تصفيق حاد من قبل السود والقليل من التصفيق من جانب البيض. وحذر من أن رجال الأعمال لا يمكنهم الاستمرار ببساطة في العمل كعادتهم وهم يعيشون في جُزر من الامتيازات: يجب أن يفكروا بما يناسب بقية الشعب.[17]

رأى مانديلا في الرياضة مجالاً حاسماً للمصالحة والتحويل في آن واحد، ومد يده إلى الرياضيين البيض الذين أثارتهم الفرص الجديدة؛ كانوا قد أبعدوا

عن المنافسة الدولية بسبب المقاطعات ضد التمييز العنصري، ورأوا الآن عالمهم وهو ينفتح من جديد. كانت الروكبي مرتبطة بالتمييز العنصري أكثر من أية لعبة أخرى، ومع إجرام أفريقاني تجاه السود: تذكر أحد الذين كانوا في روبن آيلاند تعذيب الشرطة له حيث كان يتم رفسه حول الزنزانة، قائلاً: «أصبحنا الآن نلعب الروكبي».[18] كان اسم فريق جنوب إفريقية وهو سبرنيغبوكس يرمز إلى الغطرسة البيضاء، وأراد الكثيرون من السود تغييره؛ لكن مانديلا أصر على إبقائه، وبذل جهداً خاصاً للتطابق مع فريق سبرنيغبوكس، الذي كان بأكمله من الأفريقانيين فيما عدا واحد ملوّن. في حزيران (يونيو) 1995 احتفل السبرنيغبوكس بعودة دخولهم إلى الركبي الدولي بالمباراة الظافرة ضد نيوزيلندة في نهاية كأس العالم في جوهانسبورغ. راقب مانديلا اللعبة النهائية باستيعاب، إذ قال بعد ذلك: «لقد كادت تمزق أعصابي».[19] وعندما فاز السبرنيغبوكس سار مانديلا إلى الملعب مرتدياً قميص السبرنيغبوكس الأخضر ليقدم الكأس لكابتن الفريق المذهول فرانسوا بيينار. ثارت حمية الجمهور الذي كان في المدرج - ومعظمه من الأفريقانيين - وبدأ ينشد «نيل - سون! نيل - سون!» وفي ذلك المساء كان الأفريقانيون الثملون يعانقون السود في الشوارع وفي الفنادق بترحيب عفوي. اعترف دوكليرك أن: «مانديلا فاز بقلوب الملايين من مشجعي الروكبي البيض».[20]

بدا ذلك وهو يعد بعهد جديد من الرياضة المتعددة العروق. حيث سيتم اختيار اللاعبين السود سريعاً للدخول في فريق السبرنيغبوكس. لكن البهجة كانت سابقة لأوانها. فرئيس اتحاد كرة قدم الروكبي لجنوب إفريقية لويس لوث - وهو رجل أعمال أفريقاني كان في واجهة المكائد القذرة للحكومة في عقد السبعين، وقف في وجه الضغط الأسود. وبعد ثلاث سنوات عندما سعى مجلس الرياضة الوطني لتسريع عملية الدمج، قاضاه لوث واستدعى القاضي مانديلا ذاته ليظهر في المحكمة. مانديلا نصحه محاموه بعدم الذهاب لكنه أصر

على الحضور ليظهر الاحترام لحكم القانون ـ وذلك ليسمع فقط القاضي وهو يقف إلى جانب لوث.[21] وعندما هدد مجلس الرياضة بإعادة المقاطعة الدولية لفرق جنوب إفريقية، ظل لوث على موقفه المتعنت إلى أن أجبره زملاؤه في النهاية على الاستقالة، في جو من القسوة العرقية التي ذكرت بعهد روكبي التمييز العنصري. إن بطء الهيئات الرياضية الأخرى في تشجيع اختيار اللاعبين السود في الفرق الوطنية استمر في إغضاب المؤتمر الوطني الإفريقي: تشكى لولو كزينغوانا رئيس اللجنة النيابية الرياضية، تشكى في كانون الأول (ديسمبر) 1998 من أن الحكومة كانت «متعبة من الاعتذار دولياً عن كل الفرق البيضاء التي من المفترض أن تمثل جنوب إفريقية».[22]

كانت هناك ثغرة واسعة وما تزال تتسع بين الإشارات الرمزية للمصالحة والامتنان في القمة، والحقائق في الأسفل. بقي معظم رجال الأعمال البيض مقاومين لأية تغييرات حقيقية في التوازن العرقي في مكاتبهم أو في التجديد أو الحياة اليومية، ورأوا في تعزيز السود انخفاضاً في المستوى ومخاطرة بالفساد.

كانت وسائل الإعلام أكثر حدود التحول انكشافاً ورؤية. إذ إن مانديلا رأى فيها نوافذ حاسمة يرى الجنوب إفريقيون من خلالها بعضهم بعضاً، وكانت كل وسائل الإعلام تقريباً قبل عام 1994 يسيطر عليها البيض. كان التلفاز يدار بإحكام من قبل الحكومات الأفريقانية منذ أن سمحت به في البلاد عام 1976. عين المؤتمر الوطني الإفريقي زواليخي سيسولو، ابن وولتر رئيساً لهيئة الإذاعة والتلفزة الجنوب إفريقية ولديه مهمة لتخفيضها وتحويلها، باعت الهيئة العديد من محطات الإذاعة وجلبت وجوهاً وآراء سوداء إلى الشاشة.

لكن معظم الصحف بقيت متملكة من قبل البيض، وقد راقب مانديلا الصحافة عن كثب أكثر من التلفاز. كان قد عرف في عقد الخمسين مدى اعتماد المؤتمر الوطني الإفريقي على الصحف للتعبير عن احتجاجاته، وحاول التأثير على المراسلين والمحررين آنذاك. عندما أطلق سراحه عام 1990 شكر بحرارة

الصحفيين الليبراليين الذين أبقوا قضية المؤتمر الوطني الإفريقي حية. «كانت الصحافة هي التي لم تنسنا أبداً»[23] كان مانديلا قد سعى لمصادقة الصحفيين وفتنهم خلال المفاوضات مع الحكومة الأفريقانية والحملة الانتخابية التي تبعت، حيث ساعد هؤلاء في تقديم صورة براقة كان معظم زعماء العالم الآخرين يحسدون مانديلا عليها. لكنه عندما أصبح في المنصب، ومثله مثل معظم السياسيين أصبح مانديلا حساساً إزاء انتقاد حكومته، وألقى اللوم سريعاً على الصحافة لرفضها تحويل نفسها، آراؤها ذات الأساس الأبيض، وتقاريرها التي لا تنتهي عن الفضائح والنكسات، ولا سيما تقاريرها حول الجريمة. فكر المؤتمر الوطني الإفريقي لبعض الوقت بالشروع بصحيفة يومية خاصة له لضمان تغطية نشاطاته، وناقش مانديلا موضوع التعاون مع ملك المال البريطاني «تيني» رولاند. لكن تم تحذيره من أن صحيفة كهذه ستتلقى ضربات من قبل المتنافسين والخصوم.[24]

كان مانديلا بليغاً في تفضيل صحافة حرة، في وقت كانت مهددة فيه في إفريقية بأكملها. قبل الانتخابات كان قد أبلغ مؤسسة الصحافة الدولية في كيتاون أن صحافة نقدية ومستقلة واستقصائية هي شريان الديموقراطية لكنه أشار أيضاً إلى النفوذ الساحق للمالكين والمحررين البيض: «فيما عدا السويتان فإن موظفي التحرير الكبار في جيمع صحف جنوب إفريقية اليومية ينحدرون من نفس المنبع العنصري إنهم، بيض، وذكور، ومن خلفية من الطبقة الوسطى، ويشاركون غالباً في تجربة واحدة في الحياة». أو كما قال ثابو مبيكي للمحررين «أنتم جميعاً أبناء أم واحدة».[25]

ظل مانديلا ينادي بحرية الصحافة بعد وصوله إلى السلطة. قال عام 1996: «لا أريد ناطقاً بلسان المؤتمر الوطني الإفريقي أو الحكومة، فالصحافة ستكون عديمة الفائدة آنذاك. أريد مرآة نستطيع من خلالها أن نرى أنفسنا». لكنه أصيب سريعاً بالإحباط بسبب انعدام التغيير، حذر المحررين في

تشرين الثاني (نوفمبر) 1996 قائلاً: «هناك ملاحظة بين أفراد الشعب وهي أن وسائل الإعلام يسيطر عليها قسم أقلية من الشعب، من غير المقبول مطلقاً وضع كهذا من خلال رؤيتنا. . يبدو أنني أشعر أن الصحافة المحافظة تحاول الحفاظ على الوضع الراهن بشكل أو بآخر».[26]

كانت أكبر مجموعة صحفية ـ وهي مجموعة آرغوس بزعامة جوهانسبورغ ستار ـ قد تم شراؤها بعد الانتخابات من قبل ملك المال الإيرلندي طوني أوريلي، بمباركة من مانديلا. وأعيدت تسميتها باسم المجموعة المستقلة. بدأ أوريلي والمالكون الآخرون بإدخال بعض المحررين السود تدريجياً إضافة إلى المزيد من الصحفيين السود. لكن مانديلا كان يرتاب بخصوص مثل هذه التغيرات: «ما دامت الصحف تملكها أقلية بيضاء محافظة، فإن تلك التشجيعات تعتبر رمزية بلا سلطة» هذا ما قاله بواسطة التلفاز في كانون الأول (ديسمبر) 1997.[27] لقد بدا غالباً وهو فاقد الصبر مع المحررين السود أكثر من البيض، بما في ذلك أولئك الذين في السوويتان ـ التي كان رئيسها الآن صديقه القديم نتاتو موتلانا الذي اشتكى له في معظم الأحيان من تحيز الصحيفة ضد المؤتمر الوطني الإفريقي[28]، ولم يكن راضياً أيضاً عندما سيطر موتلانا مع سيريل رامافوزا على مجموعة تي. إم. إل التي كانت تملك الصنداي تايمز ذات الشعبية. شرح عام 1997: «حتى لو كان رامافوزا وموتلانا لهما حصة في السيطرة فهناك العديد من المجالات التي ليس لهما سيطرة عليها».[29] ولقد ارتاب ـ وله بعض الحق في ذلك ـ بأن نسخة المراسلين السود ما زال تحريرها يتم إلى حد كبير من قبل المحررين الأصغر من البيض المحافظين. «كلنا يعرف ما يحدث في غرف الأخبار».[30] لكن كانت له أيضاً شكاوى عرضية ضد صحفيين سود فرديين. فمحرر العمود الخاص الشاب الصريح كايزر نياتسوويا اشتكى في صحيفة الستار في تشرين الأول (أكتوبر) 1996 من «غضب الرجل المسن»؛ الحقيقة أصبحت معروفة، وهي مخيفة، «إمبراطورنا القدسي ليس

عليه ثياب» انجرح مانديلا، واتهم رئيس اتصالاته جويل نيتشيتنزه نياتسومبا «بالانغماس بالذم والقدح».[31] واشتكى مانديلا عندما انتقده المحرر الأسود في سيتي برس وهو خولا سيبيبا بغير حق لتدخله في تعيين رئيس المحكمة. اجتمع فيما بعد بعشرين محرراً من السود بمن فيهم سيبيبا وساد السلام؛ أخبرهم أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يرغب في «صحافة الكلب الصغير الذي يوضع في الحضن»، لكن لا يمكنه توقع أن يعقد مانديلا يديه عندما يطعنون في استقامته.[32]

كان غاضباً عندما أذعن له محررون مثل برايان بوتينغر من الصنداي تايمز أو بيتر سوليفان من الستار، عندما أذعنوا له في السر ثم هاجموا المؤتمر الوطني الإفريقي بكتاباتهم كما تشكى: «يقولون إنهم متفقون معك ثم يقولون العكس فيما بعد، أنا رجل مسن، ولا أريد أن يهزأ بي الشباب». هذا ما قاله لسوليفان. «هل تذكر المقالة في الستار عندما قلت إن مانديلا لم يفعل شيئاً يستحق الذكر فيما عدا طرد زوجته؟»[33] (اعتذر مانديلا لاحقاً لسوليفان، بعد أن فشل في اقتفاء التعليق).

شعر الصحفيون بالقلق من أن مانديلا كان يسعى وراء كبت المعارضة، مثل الحكومات الإفريقية في أمكنة أخرى؛ لكنه حاول طمأنتهم: «من الخطأ أن بعض الدول المجاورة لنا سعت إلى سحق الأحزاب المعارضة. إذا فعلتم ذلك فإن عملية الانتقال بأكملها سوف تنزلق بعيداً».[34] لكنه رأى أنه مؤهل بذاته لحق الرد: «إذا شعرتم أنني على خطأ ـ فستقولون ذلك. . .» قال لجيم جونز محرر بيزنس داي «لكن أعطونا الحق بأن نقول ما نفتقده أيضاً»[35] اتهم وسائل الإعلام بالازدواجية في المقاييس ـ والدفاع عن حريتها الخاصة بالكلام في حين تَعُدّ أي هجوم مضاد من أية حكومة محاولة لقمعها.[36] في الحقيقة، بقي شخصياً كارهاً لإخضاع أي شيء للرقابة، بما في ذلك الكتابات أو الصور الداعرة. ولقد أربكت الطبعة غير الأخلاقية الجنوب إفريقية من مجلة هستلر،

أربكت موظفيه عام 1996 عندما أبرزت إحدى أمينات سره وهي تقف عارية؛ وأظهرتها مجدداً في عدد لاحق بوصفها «فتاة مانديلا، في السترة العسكرية. . . أمينة السر ذات القرون التي جعلت الرئاسة تتأرجح».[37] ثم في شباط (فبراير) 1998، صورت (هستلر) مانديلا تصويراً غير مهذب بأنه «Asshole of the Month». ندد ليندبوي سيسولو نائب وزير شؤون الوطن بالعدد بوصفه «خسيساً وشائناً وفاحشاً». وفكر بمنعه. إلا أن مانديلا تجنب إحراج هذه القضية بالضحك، وقال إنه يفضل أن تستخدم المجلة «شعورها الخاص بالقيم والأخلاق». وفاجأ أمين سره في مجلس الوزراء جيكس جيرويل بالسؤال: «هل رأيت عدد هستلر لهذا الشهر؟».[38]

استمر مانديلا في حذره حيال الصحافة الأكثر محافظة. ففي كانون الأول (ديسمبر) 1997 اتهمها بالتآمر مع القوى المضادة للثورة لتدمير الديموقراطية المتعددة العروق.[39] قال في المؤتمر الخمسين للمؤتمر الوطني الإفريقي في مافيكينغ: «إن معظم وسائل الإعلام في بلادنا قد جهزت نفسها كقوة مضادة للمؤتمر الوطني الإفريقي». قال هذا وصرخ الحاضرون «أخبرهم أنت أيها الرفيق» و«صحافة الفضائح Paprazzi!» «إن وسائل الإعلام تستخدم النظام الديموقراطي كأداة لحماية تراث العرقية». لكن اهتمامه الرئيسي كان في الدفاع عن مهمته في المصالحة. كان قاسياً بنفس الدرجة مع المحررين السود الذين اشتكوا من أنه كان يهمل الجماهير التي لا تتمتع بامتيازات وأنه كان منشغلاً جداً باسترضاء البيض. قال بعض المحررين في تشرين الثاني (نوفمبر) 1996: «يهاجمني كبار الصحفيين السود بشأن إعادة البناء والمصالحة، سيكون لدينا حمام دم ما لم نجعل ذلك ضمن السياسة الأساسية، إن هذه البلاد كانت ستحترق».[40]

لم تكن المصالحة عند مانديلا أبداً عبارة عن المسألة السهلة في الصفح، ولا يمكن أن يوافق عشرات الآلاف من ضحايا التعذيب وعائلات الرفاق الذين ماتوا، لا يمكن أن يوافقوا على إخفاء رعب الماضي تحت السجادة. اعتقد

ماندیلا أنه فیما عدا إبادة هتلر الجماعية لليهود «ليس هناك شر ندد به العالم بأكمله مثل التمييز العنصري». [41] توجب على المؤتمر الوطني الإفريقي إيجاد طريقة للصفح من غير النسيان. وكانت نتيجة ذلك شروع مانديلا في شباط (فبراير) 1996 بأكثر ابتكار مثير للجدل لحكومته ألا وهو: لجنة الحقائق والمصالحة.

بدأت لجنة الحقائق ـ كما نسي معظم ناقديه ـ جزءاً من المساومة الصعبة حول «الثورة عن طريق التفاوض». كان الرئيس دوكليرك وقوى أمنه قد أصروا باستمرار على عفو عام، بمصلحة ذاتية أغضبت مانديلا؛ لا يمكن للمؤتمر الوطني الإفريقي أن يسمح لنظام التمييز العنصري «بأن يمنح العفو لنفسه». [42] وبعد مناقشات حادة وافق دوكليرك مع مانديلا في النهاية على صيغة: لجنة تمنح عفواً فردياً شريطة أن يكشف المجرمون عن الحقيقة، ويستطيعوا إثبات أن أعمالهم كانت ذات مضامين سياسية. اعتقد الكثيرون من الناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي أن الصفقة كانت كريمة جداً. «الآن أعرف أن قتلة زوجتي سينالون الحرية»، هذا ما قاله جوي سلوفو الذي قتلت زوجته روث فيرست برسالة مفخخة. [43] كانت ابنته جيليان مذهولة عندما سمعت رجال الشرطة يشهدون بقسوة عن كيفية قتلهم لأمها، من أجل أن يحصلوا على العفو. لكن كما أدركت: «فإن لجنة الحقائق والمصالحة لم يفترض بها أن تكون بخصوص العدالة، إنها بخصوص الحقيقة». [44] أراد المؤتمر الوطني الإفريقي تجنب محاكمة «مجرمي الحرب» مثل محاكمات النازيين في نورمبرغ، مما يحتمل ظهور شهداء. تطلع محامو المؤتمر الوطني الإفريقي إلى نماذج أخرى في أوربة الشرقية، وتشيلي والأرجنتين وتوصلوا في النهاية إلى الحل الخاص بهم: «بين العفو وفقد الذاكرة». ولجنة الحقائق، على العكس من التحقيقات الأمريكية اللاتينية، ستكون لها سلطات شبه قضائية في منح عفو فردي، مع سلطة الاستدعاء للمثول أمام المحكمة والاستماع في العلن. لكن الذين يطلبون العفو كان يتعين عليهم أن يقولوا الحقيقة كاملة. وبذلك أصبحت لجنة الحقائق قادرة

على عكس صورة تفصيلية وأكثر مدعاة للصدق بخصوص أعمال التعذيب، والقتل والضحايا من أية تحقيقات سابقة في أي مكان في العالم. وقد حصلت أيضاً على ميزة دينية أكثر عندما عيّن مانديلا الأسقف توتو رئيساً لها، إضافة إلى واعظ ميثودي هو أليكس بورين نائباً له. رأى دوكليرك في بورين «متعصباً وفضولياً»، وبوصفه أيد سابقاً لجنة الحقائق، فإنه تناقش مع مانديلا بغضب بخصوص عضويتها.[45] لقد حولت رئاسة توتو جلسات الاستماع التي تلت إلى مسرحية خليط من المحاكمة والاعتراف والأخلاقية، مع بُعد إفريقي. كُتبت الـ Ubuntu فصلاً في الدستور الجنوب إفريقي «الحاجة إلى التفهم لكن ليس إلى الانتقام، الحاجة إلى الترميم وليس إلى الرد، الحاجة إلى Ubuntu ولكن ليس إلى الاحتيال».[46]

تم تكريس اللجنة في شباط (فبراير) 1996 في الكاتدرائية الأنكليكانية في كيبتاون أمام جمهور مختلط وملون بمن فيه ويني مانديلا. جاء في الشعار الذي كتبه وزير العدل دولا عمر: «إنني أدعوكم لتشاركوا في البحث عن الحقائق التي لن تتوافر أية مصالحة من غيرها». القساوسة من عدة عقائد دينيّة بمن فيهم اليهود والبوذيون رددوا مباركتهم وألقى مانديلا خطاباً ملطفاً مكرراً: «بإمكاننا أن نصفح، لكننا لن نستطيع أن ننسى أبداً» وواعداً أن اللجنة ستكون متحررة من أي تدخل سياسي. تحدث توتو بإيجاز غير مألوف. قال: في هذه المرة ليس لدى الأسقف كلمات كثيرة يقولها، الحمد لله». وهو سيبقى بعيداً إلى حد ما عن مانديلا والمؤتمر الوطني الإفريقي؛ بحلول تشرين الثاني (نوفمبر) 1996 كان يهدد بالاستقالة عندما قاوم المؤتمر الوطني الإفريقي السعي وراء العفو على أساس أن كفاحهم كان «كفاحاً عادلاً».[47] لكن دوكليرك ومعظم الأفريقانيين سيَعُدّون أكثر فأكثر أن لجنة الحقائق والمصالحة إنما هي ذراع لحكومة المؤتمر الوطني الإفريقي.

خلال السنتين التاليتين عكست الجلسات التي أعلن عنها كثيراً للجنة

الحقائق قصصاً أكثر رعباً مما تخيله معظم السياسيين بمن فيهم مانديلا، عندما وصف المجرمون والضحايا التفصيلات الرهيبة عن التعذيب والاغتيالات، التي نقلت عبر التلفزة والإذاعة والصحافة. كان للمؤتمر الوطني الإفريقية تاريخه القائم الخاص بخصوص الجرائم السياسية، وفي النهاية قدم تقريراً معترفاً فيه أن اثنين وعشرين عضواً تم إعدامهم في معسكرات في الخارج لإساءات شملت العصيان، الخيانة، الاغتصاب والقتل.[48] لكن معظم الأدلة كان حتماً على الفظاعات التي ارتكبتها قوى التمييز العنصري.

كان الرسميون والسياسيون الذين لم يطلبوا العفو يمكن إدانتهم عبر عمليات قضائية عادية. فوزير الدفاع السابق ماغنوس مالان اتهم مع آخرين بالتآمر لإحداث المذابح في كوازولو، وذلك في محاكمة مثيرة. واجه المؤتمر الوطني الإفريقي نكسة عندما تمت تبرئة مالان، لكن مانديلا قبل الحكم فوراً. وحققت لجنة الحقائق اختراقاً فيما بعد وبسرعة عندما بدأ الضباط الكبار في قوى الأمن في التمييز العنصري بتوريط الآخرين، بمن فيهم يوجين دوكوك المعروف باسم «الشيطان الرئيسي» الذي كان يدير معسكر فلاكبلاس الرديء السمعة، حيث كان يتم تنظيم فرق الموت؛ وقد أشار إلى دوكليرك بوصفه رئيسه المطلق. بعد ذلك بوقت قصير وفي موجة من الاعترافات كشفت الشرطة وضباط الجيش عن التعذيب والقتل المنظمين. كانت أجساد الضحايا تُقطّع أو تحرق حتى تصبح رماداً؛ وكانت الوثائق تدعو إلى «التخلص من»، و«التحييد» و«الإقصاء من المجتمع»، ووصف قتلة ستيف بيكو بتفصيلات رهيبة كيف قتلوه.[49]

حاول أعضاء اللجنة إرجاع المسؤولية إلى القمة، وإقناع السياسيين بالاعتراف بأخطائهم، قدم بعض الوزراء السابقين اعتذارات جزئية. اعترف بيك بوثا أن جميع الوزراء في المجلس ارتابوا على الأقل بأن الشرطة كانت تقتل أو

تعذب المناوئين، لكنهم فشلوا في اتخاذ خطوات ضد ذلك. «إنني آسف جداً لهذه اللامبالاة، ليسامحني الله». [50]

أما أدريان فلوك وزير الشرطة السابق، فقد اعترف في البداية فقط قائلاً: «نحن في القمة اتخذنا قرارات معينة واستخدمنا مصطلحات فنية من غير التفكير بها». [51] لكنه أوضح فيما بعد أن دوكليرك ذاته قد أصدر أوامر بذلك. بقي دوكليرك مراوغاً. قال: «إن الحزب الوطني على استعداد للاعتراف بأخطائه الكثيرة في الماضي وأنه نادم بصدق»؛ لكنه أصر على أن استراتيجيات الحكومة «غير العادية» «لم تشمل أبداً السماح بالاغتيال والقتل والتعذيب والاغتصاب والاعتداء وما شابه». [52] بعد المزيد من البوح ظل دوكليرك ينكر أن الحكومة قد أعطت قوى الأمن الرخصة بالقتل؛ أجاب توتو بتأثر أنه لا يمكنه تفهم نكرانه «في ضوء الكميات الهائلة من المعلومات». [53]

أُلقيت المسؤولية المطلقة في الكثير من الفظائع في عقد الثمانين على مجلس أمن الدولة الذي كان يرأسه ب. دبليو. بوثا؛ وأصرت اللجنة على وجوب الإدلاء بشهادته، لكن بوثا ندد بلجنة الحقائق والمصالحة بوصفها (سيركاً)، وهاجم أساسها الديني ورفض الظهور. نصح أصدقاء بوثا مانديلا بعدم ارتكاب الخطأ بتحويله إلى شهيد. مثلما كان قد حول مانديلا إلى شهيد في السجن. [54] حاول مانديلا وتوتو تجنب المواجهة؛ حتى إن مانديلا عرض مرافقة بوثا إلى الجلسات. ظل بوثا رافضاً بعد أن اتهم في المحكمة بتحدي الاستدعاءات. لكن اللجنة كشفت وثائق أظهرت كيف أن مجلس أمن الدولة بزعامة بوثا قد وجه التعليمات بأن المناوئين يجب «تحييدهم»، وأنه وضع قائمة بأولئك الذين ربما يتطلبون «وسائل غير السجن». [55] وجدت اللجنة في تقريرها النهائي بعد تعداد «الانتهاكات الفادحة» في ظل زعامته، وجدت أن «بوثا ساعد وسهل إيجاد الجو الذي يمكن لهذه الانتهاكات الفادحة لحقوق الإنسان أن تحدث من خلاله، ولذلك فهو مسؤول عن تلك الانتهاكات». [56]

أكملت لجنة الحقائق تقريرها في تشرين الأول (أكتوبر) 1998، مع خمسة مجلدات من التحقيقات الدقيقة والاكتشافات، والتي شملت اتهامات خطيرة ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. أثار التقرير ردود فعل غاضبة من الجانبين. دوكليرك الذي اتهم بتغطية أعمال القصف، تقدم بنجاح إلى محكمة الكاب العليا لوقف أحكام اللجنة عليه، التي تم التعتيم عليها في المجلدات المطبوعة.[57] والأكثر مدعاة للقلق أن المؤتمر الوطني الإفريقي الذي رأى جزءاً فقط من التقرير، طالب بجلسة خاصة للاستماع؛ أعضاء اللجنة كانوا منقسمين، واستخدم توتو الصوت المرجح ضد المؤتمر الوطني الإفريقي.[58] ثم قرر المؤتمر المضي إلى المحكمة في محاولته وقف العلانية، وذلك ضد نصيحة مانديلا، الذي أمضى ساعة وهو يتناقش مع أمين السر العام للحزب على الهاتف. لكن طلب المؤتمر الوطني الإفريقي تم رفضه، على العكس من طلب دوكليرك.[59] كان توتو غاضباً من «إساءة استعمال السلطة» من قبل المؤتمر الوطني الإفريقي وحذر من أن «مضطهدي الأمس ربما يصبحون بسهولة ظُلاّم اليوم... رأينا ذلك يحدث في شتى أنحاء العالم، ويجب أن لا نفاجأ إذا ما حدث هنا».[60] ربما كان توتو قد بالغ، لكن من المؤكد أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد أخطأ خطأ فادحاً خطيراً؛ عندما نشرت المجلدات الخمسة للتقرير في حينه أعطت تقارير الأخبار القليل من الفضل للمؤتمر الوطني الإفريقي لكونه قد بدأ بالتحقيق، ووكدت بدلاً من ذلك على محاولاته إخفاء اكتشافاته. قالت الواشنطن بوست: «بوضع غطاء على عملية الحقيقة والمصالحة، فإن الحزب ربما أثار المزيد من التساؤل حول مصداقيته بالذات، أكثر من التساؤل حول لجنة الحقيقة».[61]

كان ثابو مبيكي بصفته رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي مسؤولاً مسؤولية مطلقة، وادعى مكتبه بجرأة أن أي عضو في المؤتمر الوطني الإفريقي لا يمكنه أن يتفق مع «المحاولات البذيئة لتجريم النضال من أجل التحرير».[62] لكن

مانديلا لم يخف عدم موافقته: وافق على أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد ارتكب انتهاكات فادحة، واعتقد أن مبيكي كان متسرعاً جداً. قال: لو أنهم قرؤوا التقرير بأكمله «فإن استجابة المؤتمر الوطني الإفريقي ربما كانت مختلفة كلياً».[63] استمر مانديلا في تأييده التام للجنة الحقائق: «يجب أن نعتبر أن شفاء شعب جنوب إفريقية هو عملية وليس حدثاً». هذا ما قاله في الشهر التالي. قال عن لجنة الحقائق والمصالحة «ساعدتنا في التحرك بعيداً عن الماضي لنوكد على الحاضر والمستقبل».[64] وبوصفه رئيساً للدولة رأى أن لديه ولاءات تتجاوز المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي لم يعد رئيسه الآن. قال لي في كانون الثاني (يناير) 1999: «أنا رئيس البلاد، وأنا شكلت لجنة الحقائق والمصالحة. لقد قام أعضاؤها بعمل جدير بالإعجاب وإن لم يكن مثالياً، وأنا صادقت على كل ما فعلوه».[65]

في الفترة التي تلت ذلك كان هناك مزيد من النقاش حول منح عفو عام لإحباط المقاضاة المسببة للخلاف والشقاق، ولا سيما ضد أعضاء حزب الإنكاثا التابع لباثيليزي الذين صاروا الآن يتقربون أكثر من المؤتمر الوطني الإفريقي. لكن مانديلا عارض عفواً عاماً منذ أن عرض دوكليرك ذلك أولاً لشرطة الأمن عام 1994، وظل يصر على أن العفو يجب أن يُعطى فقط على أساس فردي: «ليس هناك قضية عفو عام حسب ما أرى، وأنا سأقاوم ذلك بكل قوة متوفرة لدي». هذا ما قاله في تشرين الثاني (نوفمبر) 1998.[66]

كان موقف مانديلا مذكراً بقدرته على تجاوز ضغوط الحزب قصيرة الأمد، وبإيمانه الراسخ بأن وحدة الشعب اعتمدت على الصفح ومواجهة الحقيقة على جميع الأطراف في آن واحد. وعلى الرغم من خطأ مبيكي الفادح، فإن موقف مانديلا شاركته فيه أعداد كبيرة من الإفريقيين، بمن فيهم العديد من أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي الذين تشكوا بخصوص محاولة كتمان التقرير.

كم كان الصفح مميزاً بالنسبة إلى مانديلا، وكم كان انعكاساً للشعب الإفريقي؟ إن أرملة سامورا ميتشل وهي غراكا التي هي الآن أقرب إلى مانديلا من أي شخص آخر، كانت لها تجربتها الخاصة من الفظاعات والمصالحة في موزامبيق. رأت أن الصفح الجنوب إفريقي قد انتشر سريعاً، وأنه جزء من نموذج عبر إفريقية: «إنه هناك في ثقافتنا. عندما نواجه تحدياً كهذا فإننا نستمد من تلك الثقافة التي هي عميقة جداً في نفوسنا». لكنها اعتقدت أيضاً أن المواقف كان يمكن أن تكون مختلفة جداً من غير زعامة مانديلا.

> إنه يرمز إلى صفح وتفهم واستمالة أوسع بكثير. لو أنه غادر السجن وبعث برسالة مختلفة «فإن بإمكاني أن أخبركم أن هذا البلد ربما شبت فيه ألسنة اللهيب». لذلك يجب عدم الإقلال من قيمة دوره أيضاً. لقد عرف بالضبط الطريقة التي أراد الظهور بها، وكذلك الطريقة التي خاطب الناس بها منذ البداية، مرسلاً رسالة بما اعتقد أنها أفضل طريقة لإنقاذ الأرواح في هذا البلد، أي تحقيق المصالحة . . . بعض الناس انتقدوه بأنه ذهب شوطاً بعيداً، ليس هناك شيء اسمه شوط بعيد إذا كنت تحاول إنقاذ هذا البلد من هذا النوع من المأساة.[67]

37

الانسحاب

كان التعاون بين مانديلا ودوكليرك في الحكومة ذاتها إنجازاً تاريخياً، وكانت حكومة الوحدة الوطنية تعمل بأفضل مما توقعه معظم الأعضاء. لكن الزعيمين لم يكونا مرتاحيْن أبداً مع بعضهما. إذ وجد دوكليرك من الصعب قبول أنه لم يعد رئيساً، وهذا ليس بالأمر المفاجىء، وشعر أن مانديلا قد ألحق به الذل عمداً. في حين وجد مانديلا دوكليرك استفزازياً في الوزارة بلا ضرورة، وكذلك كان بيك بوثا ورويلوف مير. كان غضب مانديلا يثور بحدة أحياناً، لكنه يحاول تسوية المسائل بود فيما بعد، كما يصر، وقدّر دور دوكليرك.[1]

انكشف التوتر بصورة علنية جداً في أيلول (سبتمبر) 1995، بعد أن ألقى مانديلا كلمة في جوهانسبورغ انتقد فيها الحزب الوطني. كان دوكليرك غاضباً، وحاول تجنب مانديلا، لكن مانديلا طلب رؤيته، ووجدا نفسيهما في النهاية وهما يتجادلان بعنف في الشارع، حيث كان كل منهما يلوح بأصبعه في وجه الآخر أمام الكاميرات. وذلك قبل أن يمضي مانديلا. كان مانديلا آسفاً لجدالهما في الشارع، كما قال لدوكليرك فيما بعد، لكنه لم يعتذر. شعر دوكليرك أن مانديلا أصبح أكثر قسوة وأكثر فزعاً ـ بسبب سني سجنه ـ مما أظهره علناً.[2]

عانى دوكليرك مشكلات مع مؤتمر حزبه بالذات، فقد اتُّهم بإهمال الحزب وهو يشكل جزءاً من الحكومة؛ ووصلت الشكاوى إلى الذروة في أيار

(مايو) 1996، عندما وافق المؤتمر الوطني الإفريقي وأحزاب أخرى على دستور جديد، لم ينص على مشاركة الحزب الوطني في السلطة على المستوى التنفيذي حتى عام 2004، كما كان يريد.[3] اعترض العديد من أعضاء اللجنة التنفيذية في الحزب، ولا سيما من الكاب الغربي، اعترضوا بقوة: وفي 9 أيار (مايو) أعلن دوكليرك أن الحزب الوطني سينسحب من حكومة الوحدة الوطنية. صُدم معظم زملائه الأفريقانيين الستة: إذ وجد بيك بوثا نفسه فجأة بدون منزل ومكتب وعمل وزاري بعد أن كان في الوزارة لتسعة عشر عاماً. وليون ويسلز، وهو وزير أكثر حداثة، اعتقد أن دوكليرك لم يبذل جهداً كافياً لجعل حكومة الوحدة الوطنية تعمل: «لقد تفاوض من أجلها، لكنه لم يعمل من أجلها»[4]، شعر رويلوف مبير الذي أصبح أمين سر عاماً للحزب في شباط (فبراير)، شعر بأنه قد تمت خيانته.[5]

وعد دوكليرك بمعارضة قوية جداً للحكومة. وأخبرني أنه أراد ضمان «ديمقراطية لائقة متعددة الأحزاب»، حيث إنه في حال عدم توفرها، «سيكون هناك خطر أن تنزلق جنوب إفريقية في النموذج الإفريقي لدول الحزب الواحد».[6] لكن خلال بضعة شهور كان الحزب الوطني في حالة فوضى متعاظمة: استقال رويلوف مبير ليؤلف حزبه الخاص، وتقاعد دوكليرك ذاته من السياسة سريعاً. وتبين فيما بعد أنه كان على علاقة عاطفية مع إليتا جورجيادس، زوجة صديق كبير! قال: «لأول مرة في حياتي، تسلَّم قلبي زمام السيطرة». وبعد وقت قصير من مغادرته الحكومة، طلّق زوجته ماريك وتزوج إليتا.[7]

أسف بعض وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي لتمزق الائتلاف. قال أحد أعضاء الوزارة: «كانت هناك رفقة تتطور، وتمزيقها كان من أكبر الأمور التي لم يخدم فيها دوكليرك البلاد». قال مانديلا في ذلك الوقت إنه كان يأمل في أن تستمر الشراكة وقتاً أطول. لكنه اعتقد أن نفوذ دوكليرك في الوزارة كان

يتضاءل، ورأى في التغيير «بلوغ سن الرشد». [8] من المؤكد أنه لم يفتقد وجود دوكليرك، لكنه يحيي مكان دوكليرك في التاريخ، و«عمله الرائع» في المساعدة على تحويل البلاد؛ قال عام 1999: «نحن ممتنون له وللآخرين لعملهم معاً إلى جانبنا لتجنب حرب أهلية دموية». [9]

بدا مانديلا واثقاً من أن المؤتمر الوطني الإفريقي يستطيع أن يحكم من غير الحزب الوطني. أبقى وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي في مناصبهم القائمة، وملأ الفراغات بمزيد من الرجال من المؤتمر الوطني الإفريقي. أصبح ثابو مبيكي الآن النائب الوحيد للرئيس، وكان يدير البلاد بتصميم أكثر منذ أن أصبح مانديلا يزداد بعداً عن الحكومة يوماً بعد يوم. كان مبيكي قلقاً من أن يفقد المؤتمر الوطني الإفريقي (ديناميكيته) في الائتلاف، ورأى في الخلاف مع الأفريقانيين شيئاً محتوماً ومفيداً. لم يشعر بالحاجة إلى الوزراء الأفريقانيين لضمان دعم الموظفين المدنيين! اعتقد أنهم سيكونون موالين لمن يدفع لهم. [10] وصار المؤتمر الوطني الإفريقي الآن أقل قلقاً بشأن التمرد الأفريقاني؛ قال ولتر سيسولو: «مضى الوقت الذي كان يشكل فيه الجناح اليميني خطراً، لقد لعبنا أوراقنا بدرجة ممتازة في هذه القضية».

«واليوم يمكننا أن نعمل مع الجناح اليميني بصورة أفضل مما كنا مع الوطنيين». [11]

كان دوكليرك يأمل أن يخرج باثيليزي وحزبه الإنكاثا من الحكومة مثله، «متى ستغادر؟» سأل باثيليزي في مكتبه بعد ذلك بوقت قصير. لكن باثيليزي أجاب بفظاظة إنه لن يغادر ما لم يطلب منه حزبه ذلك، وبقي كوزير للداخلية. [12] تحسنت علاقته مع مانديلا تحسناً ملحوظاً، وازدهرت عندما اضطر مانديلا لأن يكون خارج البلاد لفترة قصيرة في نفس الوقت الذي غاب فيه مبيكي أيضاً، وعين باثيليزي رئيساً بالوكالة. . «آمل أن يكون في مقدور الرئيس العودة»، هذا ما مزح به سياسي من الحزب الوطني. لكن بدا أن

باثيليزي قد هدأ بدوره المؤقت هذا، والذي تكرر عدة مرات فيما بعد، وكان مانديلا يناديه أحياناً «السيد الرئيس بالوكالة».

في عمر الثامنة والسبعين بدا مانديلا منفصلاً أكثر وبوضوح. قال أحد المستشارين «لقد تنازل فعلاً بعد تفكك حكومة الوحدة الوطنية». لقد استمتع بالإقلال من دوره، مشيراً إلى نفسه بوصفه مجرد زخرف، أو رئيس دولة رمزي. قال في سنغافورة في آذار (مارس) 1997: «لو أردت أن أرى تقدماً حقيقياً في بلادنا، لكان يجب أن أتنازل قبل ثلاثة أعوام. لدينا رجال ونساء ذوو مقدرة عالية».[13] من المؤكد أنه تصرف في كثير من الأحيان وكأنه ملك دستوري أكثر من أن يكون رئيساً تنفيذياً، في الوقت الذي كان يحيل فيه الكثير من المشكلات والزوار إلى نائبه ـ حتى رئيس البنك الدولي ـ وترك مبيكي ليشرف على اجتماعات مجلس الوزراء. لكنه بقي متمسكاً بالكثير من مفاصل السلطة، بما في ذلك الاستخدام والصرف من الخدمة، وكان بإمكانه السيطرة على زملائه إذا رغب بذلك. قال مراقب قريب: «ذكرني ذلك بقطاط المنزل في مزرعة حيث أمضيت طفولتي. كان أحد القطاط الكبار ينفق معظم يومه وهو جالس مع الباقين ـ من غير أن ينظر إليهم ـ لكن عندما يتحرك، فإنهم ينكمشون جميعاً».

كان مانديلا في ابتعاده مصمماً أكثر فأكثر على توحيد شعبه، والنظر إلى المدى البعيد. في تموز (يوليو) 1996، بعد وقت قصير من مغادرة دوكليرك الحكومة، أقام مانديلا حفل عيد ميلاده الثامن والسبعين في حدائق قصر الدولة في بريتوريا، من أجل «رفاق النضال». وألقى كلمة ارتجالية بلا نظارات، وبلا وسائل إعلام تنقلها. شرح قائلاً إنه خلال المفاوضات كان يقول على الدوام إنه يجب أن لا يكون هناك رابحون ولا خاسرون، الشعب الجنوب إفريقي كله يجب أن يكون الرابح «يجب أن لا تتنازلوا عن مبادئكم، لكن يجب أ لا تذلوا المعارضة. لا أحد أخطر مثل الذي تم إذلاله». لم يأسف لمغادرة دوكليرك، لكنه أراد أن يُدخل منافسيه السود الكبار، الإنكاثا والـ PAC (كان قد دعا أرملة

زعيم الـ PAC الراحل زيف موثوبينغ إلى مأدبة الغداء هذه).[14]

كان مانديلا ما يزال مدركاً بدقة كيف أن البلاد تجنبت الحرب الأهلية بصعوبة بالغة قبل عامين ماضيين، وبالمدى الذي كان يتمتع به صانعاً للسلام. كان حذراً من عبادة الشخصية، وارتاب بأن منتقدي المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يمتدحونه من أجل شجب الآخرين: «من غير المقبول وبخاصة أن يترافق هذا الأسلوب من (عبادة البطل) بجملة منهجية لتشويه سمعة الزعماء الآخرين في المؤتمر الوطني الإفريقي أمثال نائب الرئيس ثابو مبيكي». قال هذا قبل ذلك بخمسة أشهر. «إنها حملة تتجاوز أية مقاييس متحضرة في الخطابة ناهيك عن الموضوعية».[15]

تم حث مانديلا من قبل زملائه ووسائل الإعلام على تخفيف عبء عمله، والتخلي عن رئاسة المؤتمر الوطني الإفريقي، ولما حانَ موعد حفلة عيد الميلاد، كان قد قرر الانسحاب في الوقت المناسب من أجل المؤتمر التالي للمؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1997، في حين يبقى رئيس جنوب إفريقية إلى نهاية فترة الخمس سنوات عام 1999. سألته: ألا يضعف ذلك من نفوذه، رئيساً للدولة؟ أجاب بحزم «أنت لا تقود بمنصبك، بل بقوة أفكارك».[16]

عندما أعلن قراره صراحة في آب (أغسطس) 1997، ترك ذلك حتماً فراغاً سياسياً. كان من الواضح أن ثابو مبيكي سيخلفه رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي، لكن ذلك سيترك منصب نائب الرئيس فارغاً، وهذه خطوة حاسمة على طريق الوصول إلى القمة. لم يستطع مانديلا منع قيام صراع علني مربك على الزعامة.

بدا مركز مبيكي الآن وهو أكثر أماناً بكثير؛ فمنذ منتصف العام 1996 كان مانديلا يعامله كوريثه السياسي أكثر فأكثر. وكان منافسو مبيكي الرئيسون، بما فيهم أولئك الذين ظهروا محسوبين على مانديلا، صاروا الآن خارج السباق.

سيزمع رامافوزا بعد دفعه قدماً الدستور الجديد ترك المجلس النيابي ليصبح نائب رئيس أكبر مجموعة أعمال إفريقية وهي شركة إفريقية الجديدة المحدودة للاستثمارات. لقد أنكر حدوث صدام خطير مع مبيكي؛ «إننا نتفق اتفاقاً تاماً حول العديد من الأمور. وإذا اختلفنا، فإنه في مجال التشديد فقط».[17] لكنه أبلغ أصدقاء له أنه سيعود إلى مجال السياسة خلال عشر سنوات.[18] كان توكيو سيكسويل رئيس وزراء غويتنغ، منطقة جوهانسبورغ، قد رفع نفسه سابقاً إلى مجال المنافسة؛ فقد وضع في منزله صورة ساخرة تظهر مبيكي ورامافوزا وهما يتلاكمان في حين كان قادم جديد سمي «توكيو» يدخل إلى الحلبة. ما زال بمقدوره إبهار الجماهير بابتسامته العريضة البيضاء وفن الخطابة المليء بالحيوية، لكنه أخفق في تحقيق غايته بهجماته على مبيكي الذي دمره بهدوء. وبحلول أيار (مايو) 1997 كان قد قرر هو أيضاً ترك السياسة لصالح الأعمال.

بقي مانديلا يطالب بالولاء الكامل للمؤتمر الوطني الإفريقي، كما فعل منذ عقد الخمسين، واعتقد بعض الزملاء أنه بالغ في ذلك. وبدا لبعض الوقت أنه يفضل بانتو هولوميزا، صديقه الرئيسي في الترانسكي حيث أمضى معه عطلة عيد الميلاد، وحيث عينه نائب وزير البيئة. وكان هولوميزا بأسلوبه الصبياني المباشر، يتمتع بشعبية كبيرة عند الجماهير - وكان مقرباً من ويني - لكن في تموز (يوليو) 1996 أبلغ هولوميزا لجنة الحقائق أن زميلته في الوزارة ومنافسته ستيلاسيغكو قبلت رشوة من مالك الكازينو صول كيرزنر. طلب مانديلا من هولوميزا أن يعتذر، وعندما رفض طرده فوراً من الحكومة. رد هولوميزا قائلاً إن المؤتمر الوطني الإفريقي هو في جيب كيرزنر، وأن كيرزنر دفع مليوني رند من أجل صندوق الانتخابات. ورد المؤتمر الوطني الإفريقي بتسميته «الكذاب الوقح»؛ اعترف مانديلا بأن كيرزنر قد أعطاه سراً المال من أجل الصندوق، كان في الحقيقة واحداً من بين المانحين الكريمين العديدين.[19] وتوجب على مانديلا الاعتراف بأن المؤتمر الوطني الإفريقي قد أساء التعامل مع هذه القضية

بخطورة، لكنه لا يستطيع - رغم ذلك - الصفح عن خيانة هولوميزا. لم يجرؤ هولوميزا على مواجهة مانديلا وجهاً لوجه، وشكل في النهاية حزباً جديداً - الحركة الديموقراطية الموحدة - بالاشتراك مع رويلوف مير الوزير السابق من الحزب الوطني. فشل الحزب في أن يكون له تأثير وطني، لكنه سبب الكثير من المشكلات للمؤتمر الوطني الإفريقي.

لم يكن هناك مرشح واضح لمنصب نائب الرئيس، جويل نيتشيتنزه، مدير مكتب مانديلا للاتصالات، تم التحدث عنه، لكنه لم يكن منافساً أبداً. أيدت الهيئة التنفيذية جاكوب زوما، رئيس الحزب، وسجين سابق في روبن آيلاند ساعد في صنع السلام في كوازولو. أما رئيس وزراء مبومولانغا، ماثيو فوزا، وهو محام وشاعر، فقد تقدم عن طريق مقاطعته، قبل أن يتم إقناعه بالانسحاب لصالح زوما.

لكن كان هناك مرشح مثل الجاثوم (الكابوس) قد بدأ بالظهور؛ زوجة مانديلا السابقة التي تدعى الآن ويني ماديكيزيلا - مانديلا، عادت مجدداً إلى الواجهة السياسية. وخلال جميع أعمالها الشائنة بقيت بطلة بالنسبة إلى العديد من الأشخاص الفقراء العاديين، الذين أحبوا آراءها الجريئة وشجاعتها الفائقة بل حتى تهورها: ومثلها مثل إيفيتا بيرون في الأرجنتين وإيميلدا ماركوس في الفيليبين، فإنها قدمت مخرجاً من كآبة وقذارة المناطق. كانت تدافع عن الثورة وتنتقد الرضا الذاتي للزعامة، بلا حل وسط. «لم نعلم أن الانتقال سيكون قاسياً لهذه الدرجة، إن الديموقراطية ذات كلفة أبهظ بكثير مما كنا نعتقد». [20] هذا ما قالته عام 1997. بحلول نيسان (أبريل) 1997 كانت قد انتُخبت رئيسة عصبة النساء، التي عينتها فيما بعد نائب رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي. خلال اجتماعات الهيئة التنفيذية الوطنية كانت صامتة جداً، لكن في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) أعطت مقابلة طويلة واستفزازية لصديقها نيوتون كانهيما في الجوهانسبورغ ستار، حيث هاجمت زعامة المؤتمر الوطني الإفريقي. اشتكت من أن «المجرمين هم المسيطرون» وانتقدت

لجنة الحقائق - «مع ديزموند توتو الذي يعانق بيك بوثا» - وحثت على العودة إلى عقوبة الموت، التي كانت الزعامة رافضة إياها كلياً.[21]

ثار غضب المؤتمر الوطني الإفريقي. قال ستيف تشويت وزير الرياضة «لا يمكنني تذكر أي تحدٍ للحركة من قبل شخصية كبيرة كهذه» فيما عدا الناس الذين أصبحوا غير ملائمين. كتب تشويت جواباً مدمراً على مقابلة ويني في الستار بعد ثلاثة أيام، مهاجماً التفكير المشوش والانتقاد غير العملي من قِبَل الشعبيين الذين «ربما يظهرون بمظهر الراديكاليين لكنهم يمينيون في الواقع». دعا ويني باسم «الفرد الذي لا يحترم القوانين والأنظمة»، وتشكى من أنها كانت قد حاولت «تشويه سمعة الرئيس، بعد الألم الرهيب الذي سببته له». وكرر إعلان الحقائق الصعبة للحكومة: «لقد حققنا نصراً ذا قيود وتوترات كثيرة».[22]

عادت إلى الظهور اندفاعات ويني الماضية، وكان ذلك عن طريق لجنة الحقائق في هذه المرة، التي كانت تنظر في إساءات المؤتمر الوطني الإفريقي إضافة إلى إساءات الحكومة الماضية. برزت اتهامات جديدة بأن ويني ربما كانت مسؤولة عن مقتل أبي بكر أسفات، الطبيب من سوويتو الذي فحص ستومبي سيبي قبل موته عام 1988.

وفي أيلول (سبتمبر) 1997 ظهرت قصص رعب أخرى في برنامج تلفازي مثير، ظهر على الـ بي. بي. سي والـ إس. إيه. بي. سي، استهلته الليدي (إيما) نيكولسون السيدة البريطانية العنيفة، وأنتجه صحفي يميني هو فريد بريدجلاند. وكان يصاحب البرنامج كتاب «رحلة كاتيزا» القائم في معظمه على مقابلات مع كاتيزا سيبيخولو، وهو شاب عمل في الشرطة ثم دخل في نادي مانديلا الموحد لكرة القدم، وقدم شهادة عيان على هجوم ويني على ستومبي بسكين أو مقص قبل موته مباشرة: «رأيتها ترفع يدها وتطعن ستومبي مرتين»[23] ادعى البرنامج أيضاً، بلا دليل وبلا موافقة نيكولسون، أن مانديلا ذاته قد عمل شخصياً على نفي كاتيزا لاحقاً إلى لوساكا، حيث ذبل في السجن.[24] سبب

البرنامج والكتاب غضباً ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي؛ لكن حقيقة أنهما قد انطلقا من مصادر يمينية أجنبية بدت أنها تعزز صورة ويني الشعبية بدلاً من أن تدمرها. وصفت ويني كاتيزا بأنه «مجنون»، والليدي نيكولسون بأنها «بقرة مجنونة». (25)

كانت الأعين كلها تتركز الآن على لجنة الحقائق، التي بدأت أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) الاستماع إلى شهادة الشهود بخصوص جريمة قتل ستومبي سيبي وآخرين أمام كاميرات التلفزة والصحافة العالمية. أعيد تمثيل الأحداث الإجرامية في سوويتو قبل عشر سنوات، مع روايات دموية ومتناقضة عن أعمال الخطف والتعذيب والقتل مما ورط ويني وكذلك ابنتها زندزي أكثر فأكثر كشريكتين واضحتين، كان رئيس اللجنة الأسقف توتو يقاطع بين الحين والحين؛ أنصتت ويني بدون أن تتأثر. شعر مانديلا بالألم لهذا الدليل، لكنه لم يحاول التدخل.

في اليوم التاسع قدمت ويني نفسها الدليل، بوقاحة وتحدٍ. عندما سألها المحقق هانيف ڤالي من لجنة الحقائق والمصالحة بوجوب عدم التلاعب بالحقائق أجابت: «أنا لن أتحمل أن تتحدث معي بهذه الطريقة»، وآنذاك هدد توتو بإخلاء القاعة. أصرت ويني على «أن معظم الشهود الذين شهدوا هنا كانوا يكذبون». كان دليلها بالذات غامضاً مراوغاً، واشتكى توتو من أن إحدى الشهود تم تخويفها في مغسلة السيدات من قبل عصبة النساء في المؤتمر الوطني الإفريقي. عبرت ويني عن الأسف لكن ليس الندم بخصوص أعمال القتل.

أخيراً تجنب توتو الاستجواب باعتراض غاضب شارحاً كيف أنه عاش في الشارع ذاته مثل آل مانديلا، وأن ويني كانت عرابة إحدى حفيداته. كانت «نصيرة كفاحنا ورمزاً للتحرير . . . وقد تم فصل كل شيء سعياً وراء تحطيم تلك الروح». ناشدها أن تعتذر: «أنت شخصية عظيمة، ولا تدرين كم ستتعزز عظمتك إذ كنت ستقولين: آسفة، الأمور سارت سيراً خاطئاً، اصفحوا عني».
شكرت ويني توتو كأب، وقالت إنها آسفة جداً لوالدة ستومبي وعائلة الدكتور

أسفات ـ «صحيح أن الأمور كانت جائرة جوراً مخيفاً» ـ لكنها لم تقدم المزيد من الاعتذار.[26] أثار تعاطف توتو بعض الشكوك حول حياده، في حين أن موقفويني المتحدي لم يلغ تأهيلها الواضح نائباً محتملاً للرئيس.

كانت إزاحة ستار (دراماتيكية) للمؤتمر الخمسين للمؤتمر الوطني الإفريقي، الذي سينتخب موظفين رسميين جدداً، والذي اتخذ مكانه في مافيكينغ نهاية عام 1997، قرب الحدود مع بيتشوانا. أشرف مانديلا على حزبه لآخر مرة. وأكد مجدداً أو سلفاً أن انسحابه من المنصب لن يشهد تمزقاً مفاجئاً في الزعامة: «ثابو مبيكي هو رئيس البلاد بحكم الأمر الواقع، أنا أدفع إليه كل شيء، وإن تنازلي سيكون سهلاً جداً». هذا ما قاله على شاشة التلفاز، لكن ذلك كان حداً فاصلاً.

كان المؤتمر على نطاق أوسع بكثير من الاجتماع قبل ستة وأربعين عاماً، عندما تجمعت الوفود الإفريقية في قاعة جرداء في بلدة مغونتين للموافقة على حملة المقاومة السلبية التي بدأ بها الكفاح. والآن زُينت القاعة الكبيرة في الجامعة بالأزهار الصفراء، والشعارات الضخمة التي تقول: «كل السلطة للشعب» إضافة إلى صورة ملونة لمانديلا وأصابعه مقبوضة كما في الصلاة. اندفع المندوبون البالغ عددهم 3,500 إلى القاعة مرتدين القمصان الصفراء الخاصة بالمؤتمر الوطني الإفريقي والقبعات الخضراء الخاصة بالبيسبول ـ حيث كانوا ينشدون أغنيات المؤتمر الوطني الإفريقي. وعلى المنصة جلست الهيئة التنفيذية الوطنية، التي تضم جميع العروق، والقياسات والأجيال، بما فيها المحاربون القدماء الإفريقيون ـ غوفان مبيكي، ريموند مهلابا، أندرو ملانجيني ـ الذين كانوا في السجن مع مانديلا؛ وويني التي بدت شابة وهي ترتدي ثوباً قرمزياً، وكانت تتماوج مع الموسيقى.

دخل مغن بالثياب القبلية إلى القاعة منشداً مجاملات مبالغاً فيها مع

حروف لينة طويلة خمدت ببطء مثل صفارة الإنذار، وفي الصمت الذي تلا ذلك، ظهر الجسم النحيل لمانديلا بقميصه الأصفر، وهو يسير ببطء إلى المنصة. قام صف من القساوسة من الطوائف الدينية بمباركة المؤتمر، بما فيهم أبطال النضال مثل كارل نيهوس من كنيسة الإصلاح الهولندية والأب الكاثوليكي مخاكشوا الذي قال إن «المسيحيين والماركسيين ـ اللينينيين يتقاسمون القيم ذاتها». ثم قام الرئيس جاكوب زوما بتحميس القاعة ليقدم الرئيس.

فاجأت كلمة مانديلا كل شخص تقريباً. تحدث وهو واقف لمدة أربع ساعات ونصف في القاعة الخانقة، مع استراحة قصيرة لتناول طعام الغداء: «أنا الوحيد الذي يعرق»، قال ذلك بينما كان يمسح وجهه، لكنه بدا غير مرهق، انتقد كل شخص تقريباً، عدا منافسه القديم باثيليزي. وحذر حزبه بالذات ـ أمام تصفيق حاد ـ من مخاطر الفساد والجشع؛ وأشار إلى دول إفريقية أخرى ذات «نُخب نهّابة أثرت عن طريق نهب الثروة الوطنية»، ودعا إلى تجديد أخلاقي لتحقيق نهضة إفريقية. وحذر من استغلال السياسيين لمناصبهم من أجل جمع المال. وأبلغ المؤتمر الوطني الإفريقي بوجوب إنفاق المزيد من الوقت في جذب الناخبين البيض وليس تسليمهم إلى الأحزاب البيضاء. وانتقد رجال الأعمال البيض للبطء في التحويل ومنح السلطة للسود، التي بدأت لتوها. وألقى اللوم على وسائل الإعلام لتخليدها السلطات القديمة وإهمالها آراء السود. وانتقد المنظمات غير الحكومية التي كانت تعمل على «تآكل نفوذ الحركة». وحذر من أن «شبكة ثورية مضادة، يشرف عليها الأفريقانيون إلى حد كبير، كانت تحاول عمداً الإقلال من الثقة، وتخريب الاقتصاد واستخدام الجريمة لجعل جنوب إفريقية في حالة فوضى. وادعى أن الحزب الوطني كان يهدف إلى «الدمار الكامل لمنظمتنا»، في حين أن زعماء الحزب الديموقراطي الموحد الجديد، مبير وهولوميزا، يرجعون في أصولهم السياسية إلى أساس مشترك في التمييز العنصري».

كانت كلمة مذهلة وبعيدة المدى حملت علائم العديد من المساهمين، وعلى رأسهم ثابو مبيكي. كانت أبعد ما تكون عن التقريع السياسي المطول؛ فقد اقتبست من كبار الرأسماليين الأمريكيين جورج شورروز وديڤيد روكفلر وصف مخاطر عالم التجارة العالمي. لكنها قُدمت سريعاً من قبل وسائل الإعلام البيضاء على أنها هجوم على الأعداء البيض، وابتعاد واضح عن تسوية مانديلا السابقة. لقد دمرت الكلمة معظم التعاطف الذي بناه مانديلا منذ تسلمه السلطة، كما قالت «سيتيزن» المحافظة[27] وحذرت بزنس داي: «مانديلا ساذج، إذا اعتقد أن البيض سيتطوعون لتقديم نقطة من مقاييس المعيشة لمساعدة الفقراء».[28] شهدت الكلمة أقل علامة يأخذها مانديلا، كما قال الحزب الوطني.[29] نشرت الصحف البريطانية الهجوم داعية الكلمة بوصفها «تقريعاً مطولاً يدل على جنون ارتياب يائس» (الدايلي تلغراف) «عقيدة غير ذات معنى» و«بربرة عتيقة لكلام غير مفهوم» (الأندبندنت) حتى الأويزفر التي كانت حليف مانديلا منذ القدم، دعتها «هجوماً يدعو إلى الكآبة العميقة».[30] لم تكن الكلمة بالتأكيد منسجمة مع النظرة العامة السابقة لمانديلا في مجال كونه رجل دولة، لكنها لم تكن بياناً في السياسة. كانت تحليلاً لمشكلات ثلاث سنوات من الحكم، ودعوة عامة للانتخابات خلال ستة عشر شهراً.

في المساء قدم المؤتمر الوطني الإفريقي ثناء ثقافياً لمانديلا، الذي كان يرتاح بين المستمعين. قدم الطبالون العنيفون فرقة من الفتيات الراقصات الحديثات السن، اللواتي كن يؤرجحن قمصانهن الجلدية، وقام فريق من راقصي الحرب من الزولو، بحركات رشيقة وثياب من الفرو بضرب صدورهم بأرجلهم. وقرأ نائب الناطق قصيدة شعرية «دع الحياة تتدفق في بلادنا». وعزف الموسيقي عبد الله إبراهيم بثيابه السوداء الفضفاضة أغانيَ قديمة على البيانو، وقام جوناس غوانغوا الذي يعزف على آلة الترومبون، والذي هو محارب قديم

من عقد الخمسين، قام بعزف موسيقى الجاز الصاخبة. تقدم معظم أعضاء الوزارة إلى الأمام ليرقصوا على موسيقى السونيغ، مما أدهش الديبلوماسيين اليابانيين.

أثنى ثابو مبيكي على مانديلا وزملائه من المحاربين القدماء، بمن فهم والده غوفان، الذي كان متقاعداً الآن «حيث يقوم بزراعة وتأهيل أزهار المروج» اقتبس ما قال دبليو. ب. بيتس عن إيرلندة عام 1916، مضيفاً أن الزعماء الإفريقيين «رفضوا أن تجعل التضحية قلوبهم قاسية كالحجر».[31] قدم مبيكي تمثالاً إلى مانديلا، وأنشدت امرأة مغنية في امتداحه، فجاء من بين المستمعين إلى المسرح ليقول فقط: «كل ما أريد قوله موجود في أغنيتها». بدا وقد دمعت عيناه، وبدا المندوبون وقد أُخضعوا بينما كانوا يرون الرجال الكبار في السن وهم يمهدون الطريق أمام جيل أصغر.

في اليوم التالي، تعزز مبيكي بلا اعتراض بوصفه الرئيس الجديد للمؤتمر الوطني الإفريقي، في عمر الخامسة والخمسين، كان ممثل الجيل الجديد. ألقى كلمة قصيرة محذراً من أن «الثورة لم تكتمل بعد». لكن الإثارة الحقيقية لم تكن نيابة الرئاسة. تم ترشيح ويني من القاعة، لكن بعد حوالي عشرين من المندوبين؛ بالإجمال تلقت 127 صوتاً فقط من الـ 3500 من المندوبين. طلبت من مبيكي السماح لها بالتشاور مع «البنائين» لكنه رفض. ردت ويني بتحدٍ: «أيها الرفيق ثابو، أعتقد أنني أعي ما يحدث هنا. إنني أعتذر لأولئك الرفاق الذين رشحوا اسمي يجب أن أرفض». فرح المندوبون وصفّروا وغنوا ورقصوا. غادرت ويني المنصة بالعناق والقبلات من أعضاء الهيئة التنفيذية، يرافقها صديقها الشاب الناشط بيتر موكابا. قال: «ستبقى، إنها جندي حديدي قديم، لقد تنازلت لتحافظ على الوحدة ضمن المنظمة التي تحبها»[32]، انتخب المندوبون المرشح المفضل جاكوب زوما. وفيما بعد انتخبوا تيرور ليكوتا، أحد المحسوبين الآخرين على مانديلا في السجن، رئيساً للفريق.

المفاجأة الحقيقية كانت الاقتراع على الهيئة التنفيذية الوطنية. كان العديد من المعلقين قد تكهنوا بأن المؤتمر الوطني الإفريقي في ظل مبيكي سيصبح أكثر «أفرقة»، وأقل تسامحاً مع الحلفاء البيض والهنود؛ وكانت الأغلبية الساحقة من المندوبين من الإفريقيين. كانت الهيئة التنفيذية الحالية متعددة العروق تعدداً ملحوظاً وعرضة لهجمات الإفريقيين؛ كان هناك كثيرون من الهنود البارزين، والملونين والبيض البارزين أيضاً، بمن فيهم وزير الدفاع روني كاسريلز. قام هؤلاء جميعاً باتخاذ قرارات غير شعبية، مؤيدين سياسة الحكومة الاقتصادية المحافظة بما فيها من نظامٍ مالي سنوي قاسٍ ومن تخصيص، مما أدى إلى عداء النقابات والماركسيين. مع ذلك، عندما اقترع المندوبون في نهاية المؤتمر أظهروا ثقة بحكومة القوس قزح. وذهب الاقتراع الأكبر إلى سيريل رامافوزا، منافس مبيكي الرئيسي، الذي صار الآن رجل أعمال طموح. والمكان التالي ذهب إلى قادر أسمل، في حين أن مانيوويل وعمر وكاسريلز زادوا من اقتراعهم. كان هناك ثلاثة إفريقيين فقط بين العشرة الأوائل ـ وكانوا بعيدين عن الشعبية. وهبطت ويني من المكان الخامس في الانتخابات السابقة إلى الخامس عشر. والأكثر أهمية أن المندوبين وافقوا مع القليل من التغييرات على سياسة الحكومة الاقتصادية التقليدية التي تمت المصادقة عليها حتى من قبل الشيوعيين وأعضاء نقابات العمال. بدا أن الحركة الثورية ضد الرأسمالية تتحول إلى حزب حاكم قبل مبادىء عالم التجارة العالمي.

في اليوم الأخير من المؤتمر، عندما كانت معظم وسائل الإعلام قد غادرت، قام مانديلا بوداع مؤتمر الحزب الذي (أصر) على أنه قد صنعه:

> «في معظم الأحيان وليس في أقلها هناك فترة زمنية تلد وتربي الأفراد الذين يرتبطون بتحولاتها ومنعطفاتها؛ وهكذا يصبح الاسم رمزاً لعصر ما. وبينما نسلّم عصا القيادة، أجد من المناسب أن أشكر المؤتمر الوطني الإفريقي لجعلي أظهر رمزاً لما يمثله...
>
> نحن نغادر في حين يستطيع الجيل الكفؤ من المحامين وخبراء الحاسوب

والاقتصاديين والماليين والأطباء والصناعيين والمهندسين وفوق كل شيء جميع العمال العاديين والمزارعين، في حين يستطيع هذا الجيل الكفؤ إدخال المؤتمر الوطني الإفريقي إلى الألفية الجديدة. إنني أتطلع قُدماً إلى ذلك الحين الذي أستطيع فيه الاستيقاظ مع طلوع الشمس والسير فوق التلال والوديان في قريتي كونو بسلام وهدوء...».

أعرب عن تقديره لخلفه مبيكي، بتصوير جعل بعض السامعين يشعرون بعدم الارتياح؛ بدأ بطريقة المزاح قائلاً: «أنا قلق بالطبع لحقيقة أنه يجب أن يكون هناك ثوران في زريبة واحدة، على الرغم من أنني أتمتع بميزة أن أحدهما قصير». هنأ مبيكي على انتخابه بلا معارضة، لكنه حذر:

«هناك مسؤولية ثقيلة على عاتق الزعيم الذي انتُخب بلا معارضة. فهو ربما يستخدم هذا الموقع القوي لتسوية خلافات مع من هم أقل منه، ليحيدهم أو يتخلص منهم (تصفيق) ويحيط نفسه برجال ونساء يقولون نعم (تصفيق). إن أولى واجباته هي تهدئة مخاوف زملائه لجعلهم قادرين على النقاش بحرية بلا خوف ضمن البنيان الداخلي».

شرح قائلاً عن الزعيم: «يجب أن يحافظ على بقاء القوى بعضها مع بعض؛ لكن لا يمكنه فعل ذلك ما لم يسمح بالمعارضة... يجب أن يكون الناس قادرين على انتقاد الزعيم بلا خوف أو محاباة». وأسرع في تأكيد أن «رئيسنا يتفهم تلك القضايا. لقد قبل النقد بروح الرفيق. إنه ليس الرجل الذي سيحيِّد أي شخص (تصفيق)». وقد طلب من جمهور مستمعيه أن يلتمسوا عذراً لرجل مسن: إذا تشكى في المستقبل من الأشخاص الأصغر، «تذكروا فقط أنني كنت زميلكم في وقت من الأوقات» (ضحك). لكنه نبههم إلى أنه بوصفه عضواً عادياً في المؤتمر الوطني الإفريقي «فإنني سأتمتع بميزة أن أكون منتقداً قدر ما أستطيع».[33] وبذلك غادر مانديلا ليقضي عطلة عيد الميلاد في كونو مع بعض الكتب المفضلة: «الأخوة كرامازوف، الحرب والسلام، ورواية نادين غارديمير ابنة بيرغر، القائمة على شخصية صديقه برام فيشر.

كان مبيكي بالتأكيد نوعاً مختلفاً تماماً عن مانديلا زعيماً. كان انطوائياً من خلفية ذات ولع بالكتب، وبلا جذور ريفية عميقة؛ قال مانديلا: «لم يلعب أبداً في صغره»[34]، كان يحب الاستشهاد بشيكسبير وييتس، وكان يكتب الشعر بنفسه، ويتحدث غالباً حديثاً مبهماً؛ تشكى بعض الإفريقيين من أنه أمضى فترة طويلة جداً في إنكلترة. وبقي رافضاً للقيادة من الواجهة ـ على الأقل خلال وجود مانديلا هناك ـ وكان يحمل بعض علائم الزعيم السري الذي يستطيع أن يثق بخلية صغيرة فقط ـ وكان يلعب أوراقه وهي قريبة من صدره. بعد ماضيه العالمي وصداقاته فيما وراء البحار شعر أكثر بالحاجة لأن يظهر نفسه إفريقياً حقيقياً. أبقى مسافة بينه وبين رجال الأعمال والصحفيين البيض، واتخذ الكثير من المستشارين السود الواعين الذين فسروا أحياناً «نهضته الإفريقية» كحملة إفريقية بالذات. شعر الزملاء الهنود والبيض بالقلق من أن يلعب ورقة العروق، ومن أن الرؤية التعددية العرقية لجنوب إفريقية ستضمحل، مثلما حدث في دول إفريقية أخرى.

لكن مبيكي ينتمي في العديد من المجالات انتماءً أوثق من مانديلا إلى تقاليد المؤتمر الوطني الإفريقي. فقد بقي متأثراً بعمق بمعلمه تامبو؛ كان يتحدث ويسير ويعمل مثله، وينصت بصبر ويسعى وراء الإجماع بأسلوب غير قهري. كان حساساً دوماً تجاه التيارات المتضاربة في حزبه، وكان بارعاً في نزع فتيل الأنانية الخطيرة والتوترات، مثلما فعل مع باثيليزي. كان يعلم أنه لن يكون في مقدوره أبداً لعب الدور البطولي الذي قام به مانديلا خلال السنوات التسع الأخيرة. مانديلا، مثل تشرشل، قد استُدعي من قبل حزبه ليواجه التحدي الأشد خطورة، كان مخلصاً لحزبه، لكنه بقي فوقه. كان مبيكي في حقيقته من صنع المؤتمر الوطني الإفريقي، وقد عرف أن عصر الأبطال قد مضى. وعرف أيضاً أنه سيواجه ناخبين غاضبين وخائبين. سأل وهو يقتبس من الشاعر الأمريكي الأسود لانغستون هيوز «ماذا يحدث لحلم مؤجل؟ إنه سينفجر».[35]

38

غراكا

بدا مانديلا ـ رئيساً للدولة ـ معزولاً شخصياً أكثر مما كان قبل الآن. كان عنده صديقات مخلصات وقويات مثل فاطمة مير، أمينة كشاليا، باربارة ماسيكيلا، لكن كان من الصعب عليهن اختراق حواجز الحكومة. لم تر فاطمة أي شخص في منزله في هوتون ممن كانوا جزءاً من حياته السابقة، ووجدته مقاوماً للابتعاد عن السياسة وأخبار التلفاز.[1] لقد أصبح معتاداً على الخطو السريع المحموم للحكومة كما شرح، لكن ذلك «يدمر الحياة العائلية».[2] كان أحفاده يتواجدون معظم الوقت في منزله، لكن اتصالاته مع أبنائه كانت متقطعة. كان ابنه مالغاثو يدرس القانون من جديد، في دوربان، لكنه نادراً ما كان يرى والده. وظلت ابنته الكبرى ماكي تشعر أنه مرتبك غير مستقر، وهي قلقة من أنها ربما تطلق العنان لشكاوى عن الماضي. وكانت ابنتاه من ويني وهما زندزي وزيني ممزقتين بين أبويهما بعد الطلاق، على الرغم من اقترابهما أكثر من والدهما. وقد تمت العناية بمانديلا في هوتون ولبعض الوقت من قبل حفيدته الفاتنة روشيل متيرارا، لكنها بدأت تعاني صعوبة في الدراسة هناك، وغادرت. شرح مانديلا: «الناس كانوا يتصلون بها دوماً ليصلوا إليّ، لم تكن لها حياتها المستقلة».[3]

كان مانديلا قادراً على مغازلة امرأة جذابة. فبعد أسبوع من طلاق ويني كان يرحب بالرئيسة الإيرلندية ماري روبنسون في مطار كيبتاون عندما لاحظ

صحفية إيرلندية جميلة ـ نيكولا بيرن ـ، التي كان قد رآها قبلاً، وسألها إن كانت متزوجة. وعندما قالت لا، ابتسم: «حسناً إذا كنت ستطلبين مني أن أتزوجك فإنني سأدرس الطلب دراسةً إيجابيةً جداً». قالت بيرن لاحقاً: «إنه بطلي، إنني سأتزوجه غداً».[4] لكن «العرض» بدا أقل إطراء عندما بدا فيما بعد أن مانديلا قد أخطأ بمراسلة أخرى هي ألكسندرا زافيس من الأسوشيتد برس بدلاً من بيرن.[5]

في تموز (يوليو) 1990 بالذات، زار موزامبيق بعد ستة أشهر من إطلاق سراحه، حيث قابل مانديلا غراكا ميتشل أرملة الرئيس الراحل سامورا ميتشل. كان ميتشل قد توفي في حادث تحطم طائرة غامض عام 1986، حيث أرسل مانديلا إلى غراكا بعد ذلك رسالة تعزية. وردت غراكا على رسالة مانديلا: «من قلب سجنك الكبير، جلبت بصيصاً من الضوء في ساعة ظلمتي»[6] وكتبت إلى ويني: «أولئك الذين سجنوا زوجك هم مثل أولئك الذين قتلوا زوجي. ظنوا أنهم بقطعهم أطول الأشجار إنما يستطيعون تدمير الغابة».[7] كانت غراكا أصلاً ترى في مانديلا بطلها، وعندما جاء إلى موزامبيق زارته مع عائلتها في قصر ضيافة للحكومة. كان متأثراً، لكنها كانت ما تزال حزينة على زوجها المتوفى، ولم يكن الحاصل حباً من أول نظرة. مضى عامان قبل أن يلتقيا من جديد، بعد وقت قصير من انفصال مانديلا عن ويني، عندما جاءت غراكا إلى كيبتاون لتتسلم دكتوراه شرف. لم يميزها في الصف من بين الآخرين، وعندما تم تذكيره رجع ليتحدث إليها، وقد تأثر بحساسيتها وحنانها. التقيا بعد ذلك بوقت قصير ـ وشعر مانديلا بالانجذاب جسدياً إليها ـ بعد ذلك كان يراها كلما استطاع. كان أوليفر تامبو القيّم على أولاد ميتشل الستة، وبعد موته استلم مانديلا المسؤولية مما أعطاه المزيد من الفرص لرؤية غراكا.

كانت آنذاك في السادسة والأربعين، أي أصغر من مانديلا بسبعة وعشرين عاماً، وذات ابتسامة عريضة وضحكة تنفذ إلى القلب وعينين كبيرتين وراء

النظارة. كانت شخصية قوية، لكن ليست مسيطرة مثل ويني. وكانت تنحدر من عائلة ريفية بسيطة، وهي الأصغر من بين ستة أبناء: كان والدها مزارعاً علمه الميثوديون القراءة والكتابة بعد أن صار راشداً. وقد توفي قبل مولدها مباشرة، إلا أنه كان قد طلب من أولاده الأكبر مساعدتها في المدرسة، وفازت بالنتيجة بمنحة ميثودية إلى جامعة ليشبونة، حيث أصبحت ناشطة سياسياً ضد القوة الاستعمارية البرتغالية. بعد نيلها درجتها، تم تدريبها مقاتلة من أجل الحرية لحركة تحرير فريليمو في تانزانيا، وأصبحت قريبة من زعيمها سامورا ميتشل الذي كانت زوجته قد توفيت. وعندما حصلت موزامبيق على استقلالها عن البرتغال عام 1975 أصبحت فريليمو هي الحكومة، وعينت غراكا وزيرة للتعليم في عمر التاسعة والعشرين، بعد ذلك بوقت قصير تزوجت الرئيس ميتشل وكانت ترعى أولاده الستة. وصارت الآن في قلب بلد فتي فرقه جيش رينامو المتمرد والخروج الجماعي للبيض، وتزعزع استقراره بسبب حكومة جنوب إفريقية، التي ارتابت بأنها متورطة في موت زوجها. ظلت حزينة عليه بالسواد لأربع سنوات، وهي تشعر بالفراغ والوحدة، ومصممة على إكمال عمله. أصبحت تعمل في مشاريع رعاية الأطفال، وكتبت فيما بعد تقريراً إلى الأمم المتحدة حول نتائج الحرب على الأطفال. ظل هذا اهتماماً مركزياً، وربطها بصندوق مانديلا للأطفال.

أواسط عام 1995، بينما كان مانديلا يطلّق ويني، بدأ بإطلاق إلماحات علنية عن حبه الجديد. شوهدت غراكا معه في مأدبة في باريس، ومرة أخرى في حفل زفاف الرئيس موغابي في زيمبابوي - حيث شوهدت هي ومانديلا يتبادلان القبل. قال الأسقف توتو الذي كان قد يئس من المصالحة مع ويني: «ماديبا بحاجة إلى من يناوله خفه، وإلى من يستطيع البكاء على كتفه».

صار من الواضح أن مانديلا كان مفتوناً بغراكا، فقد استمتع بدفئها، ورشاقتها وحبها للأطفال. كان يتصل بها بالهاتف كل يوم. وتقدم رسمياً

لخطبتها لكنها كانت قلقة بخصوص التزاماتها تجاه عائلتها وبلادها: «أنا أنتمي إلى موزامبيق» كما أصرت «سأكون دوماً زوجة سامورا ميتشل». توجب على مانديلا أن يذعن: «لقد أدلت بتصريح واضح بأنها لن تتزوج رئيس جنوب إفريقية - لا أستطيع إجبارها». في النهاية، اتفقا على صفقة غير مألوفة: أن تمضي معه أسبوعين كل شهر في جوهانسبورغ.

أصبحت صداقتهما الآن معروفة علنياً، وكانت قصة الحب تنكشف على نحو متكلف. في أيلول (سبتمبر) 1996 التقطت صورة لمانديلا بعد ظهر يوم أحد وهو يسير قرب منزله في هوتون وذراعه حول غراكا، ضاحكاً بسعادة، قالت غراكا لبرنامج إذاعي: «من الرائع أننا وجد أحدنا الآخر في النهاية، وبإمكاننا المشاركة في الحياة معاً»[8] كانتويني تهزأ بشأن «خليلة» مانديلا، أو «المرأة البرتغالية». قالت إن ذلك نكتة كبيرة، مدعية أنها ما تزال زوجة مانديلا ضمن العادات الإفريقية[9] وحذرت من أن زواجاً آخر سيدمر الأولاد - على الرغم من أنهم صاروا الآن جميعاً في سن الرشد الكامل - كما أشار مانديلا. وادعت زوجة مانديلا الأولى إيفلين التي كان قد طلقها قبل حوالي أربعين عاماً، ادعت أيضاً أنه ما زال زوجها أمام الله؛ مع أنها كانت ستتزوج من جديد بعد ذلك بعام وعمرها سبعة وسبعون! اشتكى بعض رجال الدين بخصوص نصف وقت، نصف زواج الرئيس، وحثوه على حل المشكلة. اعترف مانديلا أن «أشخاصاً مثل الأسقف توتو يجعلون حياتي صعبة جداً، لأنهم يشعرون أنني لا أقدم مثالاً جيداً للشباب». لكن بدت غراكا راضية: «أعتقد أننا على ما يرام بهذه الحال... نحن شخصان راشدان يحب أحدهما الآخر».[10]

بحلول عام 1997، كانت غراكا قد أصبحت رفيقة الرئيس بوضوح. كانت ترافقه رسمياً في جولته في جنوب شرق آسية: عندما سأل صحفي شاب في الفيليبين مانديلا عما إذا كانا سيتزوجان أجابه بتوبيخ مبطّن: «إن أَوَّلِيَّتي الثقافية لا تسمح لي بالإجابة على أسئلة كهذه من شخص أصغر من أحفادي».[11]

حاول مانديلا أيضاً التلاؤم مع خطط غراكا للسفر، «لاعباً دوراً ثانوياً». عندما قُدمت لها درجة شرف من جامعة إيسكس قبل بتسرع دعوة من المركز الإسلامي في أوكسفورد لزيارة بريطانية (ليكون في صحبة غراكا)، وكان تسرعه هذا موضع استغراب من المركز واستهجان من جامعة أوكسفورد التي كانت قد حاولت دعوته في وقت سابق.

عكست غراكا خبرتها بالذات وحساسيتها في الجولات الخارجية. ملاحظةً أصدقاء مانديلا ـ ومراقبة صحته ومزاجه، ومتذكرة الأشخاص من رحلاتها السابقة الخاصة. لكنها أبقت لنفسها قاعدة حازمة في موزامبيق، حيث عاشت في منزل واسع جداً ذي أرض رخامية في الحي الديبلوماسي في مابوتو، يطل على المحيط الهندي. كانت ما تزال تتمتع بشعبية كبيرة هناك، حتى إنها كانت توصف أحياناً بالزعيم التالي. وكانت تُعامل بحذر من الرئيس جوكويم تشيزانو. كان الموزامبيقيون الآخرون مترددين بخصوص صداقتها مع مانديلا. اعتقدت قائلة: «ربما هو الشخص الوحيد الذي سيقبلونه في مكان سامورا، لكن الآخرين قلقون فعلاً كأن شيئاً قد سُرق منهم».[12]

في البيت، كان أصدقاء مانديلا يرون رجلاً مرتاحاً ومبتهجاً أكثر. قال أحد الزملاء: «تلك هي المعجزة الحقيقية لجنوب إفريقية». كان مانديلا فخوراً بوضوح بأنه جذب امرأة مرموقة كتلك، وكانت له محادثات طويلة وغرامية معها على الهاتف، حيث لم يهتم بتنصت الأصدقاء. بدأ يتحدث علناً كمحب شاب عن تحوله هو بالذات. قال في مقابلة تلفازية في شباط (فبراير) 1998: «أنا واقع في حب سيدة رائعة، وأنا لست آسفاً للانعكاسات والنكسات، لأنني أتفتح كزهرة وأنا في هذا الوقت المتأخر من حياتي بسبب الحب والدعم اللذين قدمتهما لي. . . إنها الزعيم. عندما أكون وحدي، أنا ضعيف جداً».[13]

كانا يظهران في المناسبات العامة وهما محبان بلا ارتباك. عندما مُنحت غراكا جائزة دولية في جوهانسبورغ في شباط (فبراير) 1998 كانت قد بدأت

كلمة قبولها بـ«ماديبا» ـ أمام تصفيق طويل. بعد ذلك همس في أذنها ممسكاً يدها. وقبل المغادرة قال رئيس الاحتفال أندرو يونغ: «كلنا كنا إرهابيين، والآن كلنا محبون».[14]

لاقت غراكا بعض الصعوبة في التأقلم مع أسلوب حياة مانديلا، لا سيما استيقاظه باكراً ونومه باكراً: «عندما تحب شخصاً ما، عليك أن تتخلى فعلاً عن أشياء معينة. أنا لا أستيقظ باكراً ـ لكنني بدأت أعتاد ذلك». بذلت جهدها لمنعه من الاتصال بالهاتف مع الناس من المنزل في كل ساعات النهار والليل، قالت في آذار (مارس) 1998: «أنا أحاول عندما أكون هنا التأكد من أنه لن يفعل ذلك. عطل نهاية الأسبوع أصبحت أفضل منذ العام الماضي. الآن هو يحاول فعلاً التخفيف». تطلعت قُدماً لتقاعده، ومددت عطلهما: أمضت عيد الميلاد عام 1997 معه في كونو، وأمضى رأس السنة معها في مابوتو. قالت: «أريد مساعدته ليفعل أشياء يحبها إنساناً، وليس ما يتوقع منه أن يفعله».[15]

كان بإمكانها أن تسهل علاقاته مع أسرته بالذات، من خلال تجربتها كزوجة أب: «أنا من ذلك النوع من النساء الذي لم يعرف أبداً كيف يبدأ أسرة. تزوجت وكنت أماً لستة مباشرة». كان ابناها الاثنان يدرسان في كيبتاون؛ وكان لدى ابنتها جوزينا شقة في قصر الرئيس جينا ديندال، حيث كانت ترافق مانديلا وحيث رافقته أحياناً في زيارات.

كانت غراكا مدركة لمشكلات الآباء الأبطال مثل آل نيريري في تانزانيا أو آل كاوندا في زامبيا، الذين عرفتهم جيداً. عرفت كم تاق أبناء مانديلا ليكون لديهم أب يلمسونه ويتحدثون إليه، وكيف كرهوا مشاركة الشعب لهم فيه: «أعتقد أنهم تأقلموا؛ هم يعلمون ما بإمكانهم توقعه، وهو يحاول الآن أيضاً أن يوفر لهم وقتاً». كانت تستمتع بأحفاده: «هذه أسرة طبيعية ذات أطفال يركضون هنا وهناك ويصنعون ضجة»، هذا ما شرحته في منزلهما في هوتون بينما كان الأطفال يركضون ويصرخون في الخارج. قالت للصبية الستة عندما تركتهم

يدخلون غرفة الاستقبال «الآن يمكنكم الاستلام» «هتفوا ـ في حين ابتسمت ابتسامة عريضة ـ إنا نستلم، إننا نستلم العالم».[16]

شعرت غراكا أنها اخترقت الدفاعات والتحفظات الكبيرة التي عززها مانديلا في السجن، لتدعه يعبر عن مشاعره الحقيقية: «يستطيع أن يحب بعمق كبير، لكنه يحاول كبح ذلك كبحاً ممتازاً في ظهوره العلني. وعندما يكون وحده فإنه يسمح لنفسه بأن يكون إنساناً، وهو يحب أن يعرف الناس أنه سعيد. وعندما يكون تعيساً يتركك تعرف. . . إنه شخص بسيط جداً، رقيق جداً. . . متواضع حتى الأرض. حتى على الصعيد السياسي، إذا راقبته أحياناً يمكنك أن تشعر أن هناك بعض السذاجة».

رأته أخيراً وهو قادر على الاسترخاء والابتعاد عن توترات العمل، ولم يشعر بعد ذلك بالسلبية بخصوص ما لا يستطيع تحقيقه: «أنت تصل إلى النقطة التي تعرف فيها من أنت، وتعرف المدى الذي تستطيع أن تتحرك فيه. تمد يدك إلى الآخرين. تشعر أنك في أمان تام. يتعين عليك أن تجعل حياتك العاطفية متوازنة».[17]

بحلول منتصف عام 1998 بدا أن الإثنين قد ترسخا. انتقلا إلى منزل أكبر وأحدث في هوتون، يبعد مسافة شارع واحد عن بيت مانديلا السابق، وله درج متعرج تحت صورة كبيرة لمانديلا، وغرف كبيرة منفصل بعضها عن بعض بأبواب زجاجية منزلقة. تم تجديده حسب رغبتهما ـ من قبل حرفيين إفريقيين حسبما هو ممكن ـ وجُهز بمصعد بحيث يستطيع مانديلا تجنب صعود الدرج، حيث أصبح صعوده مؤلماً لركبته الجريحة.

كان أصدقاء مانديلا ما زالوا يحثونه على الزواج، لكن غراكا استمرت بالمقاومة. وكان مانديلا يخطط للاحتفال بعيد ميلاده الثمانين في 18 تموز (يوليو)، وقبل ذلك ببضعة أيام دارت شائعات بأن قاضياً وقساوسة كانوا يستعدون لتزويجه وغراكا. تم إنكار ذلك بشدة، لكن كان مانديلا في الحقيقة

قد سوى ذلك مع غراكا قبل شهرين. ومع شعوره المعتاد بالتوقيت رتب ذلك لعيد ميلاده.

تزوجا في المنزل الجديد، كان مانديلا يرتدي قميصاً مفتوحاً مزيناً بالذهب، في حين كانت غراكا ترتدي ثوباً أبيض طويلاً بأكمام عريضة منفوخة، على النمط الإليزابيثي. تمت مباركتهما سلفاً من قبل الحبر الرئيسي؛ وكذلك الشيخ المسلم ناظم محمد والسيدة ناناهشين الهندوسية. زوجهما أسقف ميثودي ـ مفوم دندالا ـ إذ إنهما قد تربيا ميثوديين ـ وساعده ديزموند توتو، الذي تقاعد الآن بوصفه أسقف الأنكليكان. كانت أسرة مانديلا وستة عشر صديقاً حاضرين، بمن فيهم أحمد كاثرادا، وآل سيسولو ـ ومصور عزب، سيفيوي سيبيكو من المجلة السوداء أنتربرايز. قال توتو بعد ذلك: «لقد جعلت منه رجلاً لطيفاً». قال مانديلا: «الآن لن تصرخ في وجهي»[18]، كان من بين الضيوف سجّان مانديلا السابق كريستو براند، الذي كان يدير الآن مخزن روبن آيلاند للتذكارات في كيبتاون، والذي تم نقله بالطائرة إلى جوهانسبورغ لأول مرة في حياته. قدم لمانديلا بعض زيت الشعر «بانتين» المفضل لديه. الذي كان براند قد اشتراه له حين كان في سجن بولسيمور. والآن أمكنه الحصول على زجاجة ـ بصعوبة كبيرة ـ من ألمانية ـ وتم تقديمها للرئيس مع نسخة كرتونية ضخمة مطابقة للزجاجة.[19]

في اليوم التالي، تم تحويل مركز غالاهير للاجتماعات، بين جوهانسبورغ وبريتوريا، إلى قاعة مأدبة للاحتفال بعيد الميلاد الثمانين. الذي صار الآن حفلة زفاف أيضاً. تمت دعوة ألفين من الضيوف، النخبة المتعددة العروق لجنوب إفريقية. مع القليل من الغائبين من البارزين، مثل إف. دبليو. دوكليرك، وويني ماديكيزيلا ـ مانديلا. كان الرئيس قد وجه الدعوة إلى شخصيات أجنبية بمن فيها الرئيس السابق كاوندا رئيس زامبيا، الأمير بندر من العربية السعودية، الجنرال أوباسانجو الذي كان قد أطلق سراحه لتوه من

الاحتجاز في نيجيريا؛ لكن الجو كان مفعماً بالعمل الفني بوجود أكبر نجوم جنوب إفريقية الذين بزهم الزوار الإفريقيون ـ الأمريكيون بمن فيهم مايكل جاكسون، داني غلوفر وستيفي ووندر. بعد القسم الأول من الاحتفال وانفجار الموسيقى، ألقى ـ مانديلا ـ حفيد مانديلا كلمة قصيرة يمتدح فيها جده، تبعه ثابو مبيكي ـ الذي استخدم شكسبير ـ كما هي عادته ـ للتعبير عن عواطفه. تخيل مانديلا وهو يتقاعد مثلما كان يأمل الملك لير.

ولسرد الحكايات القديمة، والضحك
على الفراشات المطلية بالذهب، وسماع المتشردين البؤساء
وهم يتحدثون عن أخبار البلاط؛ ونحن نتحدث إليهم أيضاً ـ عمن هو
الرابح ومن هو الخاسر، ومن دخل، ومن خرج.

شعر بعض الضيوف بالحيرة للمقارنة مع ملك عجوز مجنون، لكن مبيكي أكد على تضحيات لير التي ألقى فوقها «الآلهة أنفسهم البخور».

كان مانديلا نفسه قد أعد كلمة عيد ميلاد رسمية، طالباً من الجنوب إفريقيين «إعادة تكريس أنفسهم لأرض أحلامهم». لكنه اكتفى بكلمات قليلة من الشكر، قائلاً: «زوجتي وأنا» ـ حيث انفجر الضحك. ثم بدأ بالرقص مع غراكا في رقصة قصيرة «على نمط رقص ماديبا غير المتقن». وشاركهما باقي الضيوف في حين صدحت الموسيقى. في الصباح التالي طار العروسان لزيارة الأرجنتين والبرازيل، عائديْن إلى جوهانسبورغ بعد خمسة أيام، من أجل حفل موسيقى لعيد ميلاده، قبل أن يعودا إلى كونو في شهر عسل خاص.

كان احتفالاً إفريقياً، مع الخليط المتقطع من المهرجانات والمواكب والموسيقى والتسالي. تشكى بعض المحافظين البيض من أن الاحتفالات كانت غير ملائمة في وقت الأزمة الاقتصادية. وكان آخرون منتقدون جداً لأن مانديلا أمر بإطلاق سراح تسعة آلاف سجين. حيث قالوا إن ذلك سيشجع الجريمة. وتشكى قلائل مما يقارب عبادة الشخص. ويذكر بأجزاء أخرى من إفريقية.

لكن التجمع كان احتفالاً لا علاقة له بالسلطة، أو الخوف؛ كان أقرب ما يكون إلى شعب يعيد تحديد صورة ذاته.

وغراكا، بوصفها وفرت نهاية سعيدة، يمكنها ربط الصورة بالشخص العادي. لقد رأت مانديلا في الدورين، مثل زوجها السابق ميتشل؛ وقد عرفت أخطاءه: «أحياناً لا يكون صبوراً جداً في مناقشة أمور هامة جداً - فمتى قرر أمراً فإنه يصبح عنيداً جداً. ولا يقبل أنه مخطىء». لكنها أدركت أيضاً أهمية قيمه الأساسية والشعور بالكرامة الإنسانية، ومدى تأثيرهما على الناس العاديين:

> العالم بحاجة إلى رموز، ربما الآن أكثر مما مضى. إنه رمز، وهو جيد في عرض ما يمثله، إنها قيمه. لكن يجب أن تنظر إليه في نفس الوقت إنساناً له نقاط قوته ونقاط ضعفه. أنا أريده إنساناً. إنه رمز، هذا صحيح، لكنه ليس قديساً. مهما يحدث له، فإنها علاقة تحرير الشعب الإفريقي، لا سيما شعب جنوب إفريقية. ولقد أكد على أنه يجب أن يُعامل بإجلال لأنه مدرك إدراكاً مطلقاً لما يمثله.[20]

39

عالم مانديلا

على الرغم من مشكلاته في الوطن، سافر مانديلا إلى الخارج وهو يحمل سمعة طنانة؛ مثل الأبطال العالميين السابقين أمثال تشرشل وأيزنهاور، بدا أن نفوذه في الخارج لم يتأثر بالنكسات الداخلية. وسلطته الأخلاقية صانع سلام بدت فذة في الوقت الذي كانت فيه دول أخرى تدمرها الصراعات العرقية، كان بإمكانه أن يجعل كل شخص يشعر بأنه أحسن، اليسار أو اليمين، الأسود أو الأبيض. وبرزت ابتسامته الساحرة في المجلات الفنية أو الإعلانات عن فنادق هيلتون إضافة إلى النيويورك تايمز، في حين أن قصته المميزة لم تكد تتلطخ بسنوات سجنه. عندما وصل بالطائرة النفاثة الرئاسية، وتفقد حرس الشرف كان باستطاعته الظهور بمظهر الرجل العادي الذي يمكن لأي شخص أن يماثله ـ مثل غاري كوبر، أو جيمس ستيوارت مجسداً قيماً بسيطة في عالم ساخر مؤلف من التقنيين والمتلاعبين؛ دعا ذلك الشاعر النيجيري وول سونيكا: «ثمرة اللاوعي الذاتي لإنسانية متراكمة».[1]

وجد مانديلا متعة خاصة في الديبلوماسية الشخصية، حيث كان يتواصل مباشرة مع رؤساء آخرين ورؤساء وزراء آخرين أيضاً، وكان يتصل بهم وكأن البيروقراطيات والسفارات ليست موجودة: كانت المحادثة في مكتبه عرضة دوماً لأن تقاطعها مكالمة هاتفية دولية: «سيدي الرئيس! كيف حالك؟» وكان مانديلا يذهل السفراء بسؤاله: «كيف حال فيدل؟» أو «كيف حال بيل؟» وكتب إلى

ملكة إنكلترة بـ«عزيزتي إليزابيث». وكان هو ذاته يبدو كملك من عصر سابق، شاعراً بالراحة شعوراً طبيعياً إزاء الملكية الخارجية. في مأدبة في أوكسفورد جلس إلى جانب الأمير تشارلز والأمير بندر من العربية السعودية ـ الذي كان يبيت تلك الليلة في منزله ـ وحيث قدم له مجاملات متقنة؛ لكنه بدا فخماً أكثر من أي منهما. كان أسلوبه صحيحاً، أقرب إلى أسلوب ملك بلمسة عادية منه إلى سياسي. كانت جنوب إفريقية تتمتع بميزة وجود رئيس دولة يستطيع التعبير عن القيم الوطنية والسياسات بإقناع وعظمة! لكن كانت هناك أخطار كامنة في اللانضوج الديبلوماسي.

لم يجد مانديلا صعوبة في تجسيد بلاده التي كان يفتحها أمام العالم بعد استبعادها الطويل دولة منبوذة. كان بإمكانه التبجح بحق أنه: «بعد عام 1994 ـ ما عليك إلا أن تقول «أنا جنوب إفريقي». سواء كنت أسود أم أبيض، وستفتح أمامك أبواب العالم على مصراعيها».[2] كان بعض الأجانب يعرفون اسمه أكثر من أن يعرفوا اسم بلاده: دهش أحد رجال الأعمال الجنوب إفريقيين الذي زار تايلاند، دهش عندما وجد الناس هناك يعرفون عن مانديلا، لكنهم لم يسمعوا بجنوب إفريقية: كانت «بلاد مانديلا» بالنسبة إليهم.

وضع مانديلا طابعه الخاص على ديبلوماسية جنوب إفريقية، اختار العديد من الأصدقاء القدامى، والزملاء السابقين ليصبحوا سفراء. ميندي مسيمانغ الذي كان يعمل كاتباً في شركته القانونية في عقد الخمسين، ذهب إلى لندن، روث مومباتي التي كانت أمينة سره في الشركة، ذهبت إلى سويسرة، باربارة ماسيكيلا التي كانت تدير مكتبه في المؤتمر الوطني الإفريقي، ذهبت إلى باريس، كارل نيهوس الذي كان المدير الخاص الصحفي له خلال الانتخابات، ذهب إلى هولندة، أبلغهم مانديلا بوجوب إيصال سياسته الاسترضائية إلى الخارج، وأن يمدوا يدهم لكسب أصدقاء لبلادهم، وكذلك لإقناع الأعداء بالتحدث بعضهم إلى بعض. كان يكرر مبدأه بأن النزاعات يجب تسويتها

«بالعقل وليس بالدم». رأى في فن صنع السلام والإقناع في العالم الأوسع، الكثير مما رآه مع السجانين والسجناء في السجن؛ ولم ير أي اختلاف حقيقي بين المصالحة في الوطن أو في الخارج؛ قال لي عام 1997 : «يدرك الناس أهمية مناقشة القضايا وإيجاد حلول لها، لذلك لم أجد مصالحة الناس في الخارج أكثر صعوبة». [(3)]

لكنه وقف بسرعة ضد توترات الديبلوماسية والمعاهدات المتعددة الجوانب. في حين استطاع ديبلوماسيوه البيض وضع العقبات. كان قسم الشؤون الخارجية عبارة عن وزارة لم تتم إعادة بنائها، فما زال مليئاً بالأفريقانيين الذين يسيرون العمل بالأفريقانية، وفي ظل مدير عام محافظ، رستي إيفانز. وكانت السفارات مليئة بالأفريقانيين من العهود القديمة الذين اعتادوا محاصرة الديبلوماسية بدلاً من كسب الأصدقاء أو إدارة مفاوضات معقدة، هذا في حين وجد السفراء من المؤتمر الوطني الإفريقي أنفسهم في معظم الأحيان وهم يقدمون تقاريرهم إلى الأفريقانيين في بريتوريا الذين رفضوا سياساتهم. كان هناك القليل من الديبلوماسيين الإفريقيين المحنكين، وقد أتى بعضهم من حكومات البانتوستات السابقة، التي أعطتهم النوع الخاطىء من التجربة. ولم يستطع مانديلا تعيين مدير عام إفريقي، جاكي سيليبي إلا عام 1998. حيث كان بإمكانه وضع ثقة تامة بها، وذلك في قسم الشؤون الخارجية.

كان مانديلا يخلق أحياناً تشويشاته الخاصة. عندما كان يتصل برؤساء آخرين، لم يكن يخبر زملاءه دوماً بما قاله هو أو قالوه. كان وزير الخارجية ألفريد نزو، رفيق مانديلا الناشط في عقد الخمسين كان داهية بما فيه الكفاية، لكن كان لديه أسلوب بطيء ومنوِّم، كان يسمى «نززززز». كان المنفِّذ الحقيقي للسياسة الخارجية هو ثابو مبيكي في معظم الأحيان، الذي كان ـ بوصفه نائباً للرئيس ـ يُقنع ويُفاوض باستمرار من وراء الستار. كانت العمليات المختلفة غير

منسقة: تشكى أحد السفراء قائلاً: «في الحقيقة لدينا ثلاث سياسات خارجية، وعندما أريد لأمر أن يتحقق فإنني أتصل بماديبا».

كان مانديلا هو الذي وضع اتجاه وأولويات الديبلوماسية الجنوب إفريقية. كانت عنده مُثُل قوية: «علاقات جنوب إفريقية الخارجية في المستقبل»، كما قال للمجلة الأمريكية «فورين أفيرز» قبل وقت قصير من وصوله إلى السلطة. «ستكون قائمة على إيماننا بأن الحقوق الإنسانية يجب أن تكون جوهر العلاقات الدولية، ونحن على استعداد للعب دور في تعزيز السلام والازدهار في العالم».[4] كان مصمماً على أن يكون مخلصاً للقوى الصديقة، إضافة إلى الناس. قال عام 1998: «إن سياستي الخارجية يحددها الماضي، العلاقات التي كانت لي مع البلد، المساعدات التي قدمها لنضالنا».[5] كان الولاء يتعارض أحياناً مع الحقوق الإنسانية - مثلاً في أندونيسيا، والعربية السعودية، أو ليبيا - لكن مانديلا رأى أن له مهمة أخلاقية في نشر السلام والتسامح حول العالم. وكان مقتنعاً بأن جنوب إفريقية لديها دروس تقدمها لدول أخرى. وقد رفض الحسابات المتشككة بدرجة أكبر للسياسة الواقعية.

لم يكن بمقدوره تجاهل جيرانه الإفريقيين - إن لم يكن لسبب فلأن الفقر وعدم الاستقرار فيما وراء حدود جنوب إفريقية كانا يحثان الملايين من المهاجرين على المجيء إليها. أصر مانديلا على أن الإفريقيين يجب أن يكونوا قيّمين على مصيرهم؛ قال أمام برلمان زيمبابوي في أيار (مايو) 1997: «حان الوقت الذي تتحمل فيه إفريقية المسؤولية الكاملة لمشكلاتها. وتستخدم الحكمة الجماعية الهائلة التي تملكها لتحقيق فكرة النهضة الإفريقية».[6] كانت «النهضة» قد بسّطها أصلاً ثابو مبيكي، الذي أصر على أن إفريقية يجب أن تواجه كوارثها الماضية. تطلع مبيكي إلى «العقد الضائع» عقد الثمانين، عندما جرّب السياسيون الإفريقيون دولة الحزب الواحد، والحكومات العسكرية، والسياسات الاقتصادية الباهظة، حيث لم تكن أي منها ذات فائدة؛ وكما قال

في شباط (فبراير) 1997: «الآن، أؤمن أن هناك جيلاً جديداً على القارة، يقول إننا على استعداد لقلب الأمور رأساً على عقب».[7] تسلّم مانديلا هذا الموضوع؛ وبشعوره القوي بالكرامة والإيمان بالديموقراطية، وفر رمزاً ملائماً لقارة تسعى وراء التخلص من ماضيها الاستعماري وتراث الحرب الباردة. وتسعى لأن تطور أنظمة مستقرة للحكومة. كانت جنوب إفريقية التي هي أغنى بلاد جنوب الصحارى حتى الآن كانت في مركز جيد لتقديم زعامة للنهضة. بقي رجال الأعمال الغربيون مع ذلك متشككين نظراً لـ«التشاؤم الإفريقي»؛ كانوا يخشون من أن تنجر جنوب إفريقية إلى المستنقع الإفريقي للفساد والفوضى.

كانت أصعب قضية بالنسبة إلى مانديلا هي نيجيرية، أكثر الدول الإفريقية كثافة في السكان، وقد استولى عليها الديكتاتور الفاسد ساني أباشا، الذي سجن أسلافه ومنتقديه الديموقراطيين، بمن فيهم الشاعر ـ المحرض المشهور كن سارو ـ ويوا. كان مانديلا يمارس ضغطاً من وراء الستار، متبعاً (كما شرح لاحقاً) الطرف الذي يقبله القانون الدولي، وذلك لوقف انتهاك حقوق الإنسان.[8] سيطرت قضية نيجيرية على قمة الكومونولث في نيوزيلاندة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1995، حيث كان أول اجتماع لماندلا رئيساً، وحيث جدد إعجابه بالملكة. دعا بعض الأعضاء إلى فرض عقوبات على نيجيرية، لكن مانديلا ظل يفضل «الدبلوماسية الهادئة»، مؤمناً أن أباشا سيستسلم للضغوط؛ لكن خلال القمة تم إعدام كن سارو ـ ويوا. ثار غضب مانديلا وشعر أنه تمت خيانته شخصياً، وتعرض سريعاً للهجوم بوصفه ليناً جداً، كتب إليه أحد محامي سارو ـ ويوا «لو أن الديبلوماسية الهادئة اتُبعت في جنوب إفريقية فإنني أشك في أنك ستبقى على قيد الحياة اليوم».[9] في نيوزيلندة استخدم مانديلا سلطته الأخلاقية بكاملها للدعوة إلى فرض عقوبات فورية ضد نيجيرية، لكنه شعر بالخيبة بسبب حذر رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور.[10] في جنوب إفريقية أعلن أنه «جُرح وغضب لما قام به ديكتاتور فَزِع وعديم الإحساس». «إذا امتنعت

إفريقية عن اتخاذ عمل صارم ضد نيجيرية، فإن الحديث عن النهضة في إفريقية سيصبح فارغاً، فارغاً». وحذر من أن أباشا، كان «يجلس فوق بركان وأنا سأفجر هذا البركان تحته».[11] قال الصحفي كاميرون دودو الذي قابله: كانت المرة الأولى «التي يخرق فيها رئيس دولة إفريقية قوانين نقابات العمال ويهين مثيلاً له في حمل البطاقة».[12]

كانت صراحة مانديلا تبعث على الانتعاش، لكن خططه لفرض العقوبات عن طريق مجلس الأمن الدولي كانت غير واقعية. فقد أراد توريط الصين، بوصفها عضواً في المجلس؛ لكن بريتورية لم تكن تعترف ببكين آنذاك. وكان الأعضاء الآخرون بما فيهم بريطانية مهتمون جداً بالنفط النيجيري بحيث لا يمكنهم تأييد العقوبات، وسرعان ما وجدت جنوب إفريقية نفسها منعزلة. تم وقف عضوية نيجيرية فيما بعد في الكومونولث، لكن الاستبداد فيها لم ينته إلا بعد موت أباشا عام 1998 ـ حيث تبع ذلك خطوات واعدة باتجاه الديموقراطية. في تلك الأثناء كان مانديلا قد اختبر حدود السلطة الأخلاقية كسلاح ديبلوماسي.

كانت أوثق تعاملات مانديلا الإفريقية مع إحدى عشرة دولة مجاورة متجمعة تحت لواء: المجموعة الجنوب إفريقية للإنماء، والتي كانت تعتمد بقوة على التجارة والاستثمار من جنوب إفريقية. عندما أصبح مانديلا رئيس المجموعة الجنوب إفريقية للإنماء عام 1996 جلب معه إخلاصاً مرحباً به لمحاضر جلساتها؛ انتقد الرضا الذاتي السائد، بل حتى اقترح عقوبات ضد دول مثل زامبيا وسوازيلاند التي كانت تقاوم الضغط باتجاه الديموقراطية، سأل المجموعة الجنوب إفريقية للإنماء في أيلول (سبتمبر) 1997: «هل يمكننا الاستمرار في تقديم الراحة للدول الأعضاء التي تُعَدّ أعمالها مطلقاً ضد القيم والمبادىء التي نحملها بحماسة؟»[13] لكنه واجه استياء متعاظماً، ولا سيما من قبل روبيرت موغابي رئيس زيمبابوي، الذي كان سابقاً مسيطراً على

المجموعة، كما تحطمت آمال مانديلا بنهضة سلمية بسرعة، بسبب الفوضى في زائير، التي قُبلت بتسرع عضواً في المجموعة.

كان ديكتاتور زائير موبوتو قد دعمه الأمريكيون خلال الحرب الباردة، لكن عام 1997 هدده الجيش المتمرد للورينت كابيلا، الذي كانت تدعمه أوغندة ورواندة. حاول مانديلا جمع موبوتو وكابيلا معاً، مجهزاً سفينة حربية جنوب إفريقية متوقفة في أول نهر الكونغو ـ كمكان اجتماع محايد، حيث انتظر فيها بصبر لكن الطرفين كانا متصلبين، ولم يحضر كابيلا في موعد ثانٍ. لم يساعد مانديلا في إقناع موبوتو بمغادرة زائير، مما يجنب البلاد المزيد من إراقة الدماء؛ لكن كابيلا فشل في تعزيز نصره أو ضبط حدوده. تحولت أوغندة ورواندة ضده، وأرسلتا جيوشهما في حين جاءت زيمبابوي وأنغولا لنصرته. هددت مأساة زائير ـ التي تسمى الآن جمهورية الكونغو الديموقراطية ـ هددت بتوريط جميع جيرانها في حرب إفريقية منفردة. حاول مانديلا مجدداً تهدئة الأمور، محرضاً الرؤساء على عدم إرسال القوات، لكن كل دولة كانت لها مصالحها الخاصة المتضاربة في البلد المتفكك. بدت الكونغو مجدداً وكأنها «قلب الظلام» الذي ربما تنتقل عدواه إلى الجيران، مع انعدام سيادة القانون، في حين أن أنغولا ـ التي كانت على الحدود ـ والتي كانت تمزقها منافسات الـ Cold Worriors، قد عادت مجدداً إلى الحرب الأهلية.

انجر مانديلا أيضاً إلى مشكلات ليسوتو، المملكة الجبلية المحاطة بجنوب إفريقية. عام 1998 طلب رئيس وزرائها باكاليثا موسيسيلي مساعدة بريتورية لوقف التهديد بالتمرد، كان باثيليزي آنذاك رئيساً بالوكالة، حيث تشاور مع كل من مانديلا ومبيكي (اللذين كانا مسافرين في الخارج) واللذين وافقا على التدخل؛ لكن الجيش الجنوب إفريقي ـ الذي كانت تنقصه الاستخبارات إلى درجة خطيرة، أرسل قوة غير كافية من ستمئة رجل، ولزمهم عدة أيام لفرض النظام، ودمروا خلال تلك العملية معظم العاصمة، ماسيرو، في حين أفرغ

النهابون المحلات. كانت هناك صرخة عالية من السخط، واعترف الوزراء والعسكريون بصراحة خلال جلسات المجلس النيابي بأخطاء أساسية في التقدير. أصر مانديلا على أن التدخل قد حقق هدفه. إذ قال في كانون الثاني (يناير) 1999: «لقد عالجنا الموضوع معالجة جيدة جداً، وربما لم يتم تنظيم المظاهر العسكرية الملائمة، لكننا حصلنا على السلام في البلاد».[14] إلا أن العملية غير المتقنة جعلت جنوب إفريقية تظهر بمظهر المتنمر الأخرق، ودمرت صورة مانديلا صانع سلام.

كان التفاؤل بخصوص نهضة إفريقية يتلاشى بينما اندلعت حروب أهلية من جديد عبر القارة، وتم النظر إلى جنوب إفريقية من الخارج على أنها جزء من القارة المتدهورة. حذر مبيكي في تموز (يوليو) 1998 قائلاً: «عندما تضيء الصور عبر شاشات التلفاز عن الجوع والفقر والدمار والاعتماد على الإحسان، فإنهم لا يقولون إن ذلك يحدث في جمهورية كالاهوتا، بل يقولون إن ذلك يحدث في إفريقية».[15]

ظل مانديلا محافظاً على سمعته الفذة، ليس في إفريقية فحسب، بل أيضاً في معظم الدول النامية، وكانت جنوب إفريقية جسراً ضمنياً إلى الدول الأغنى. توفرت لديها الفرصة للعب دورها الجديد عندما عقدت حركة عدم الانحياز ـ التي تضم ما يزيد عن مئة دولة نامية ـ قمتها الثانية عشرة في دوربان في أيلول (سبتمبر) 1998، برئاسة جنوب إفريقية. رحب مانديلا بتجمع غريب جداً، ضم فيدل كاسترو، وياسر عرفات، وألقى كلمة افتتاح فيها تحدٍ. تساءل عن «المشاكلة التقليدية» لسوق التجارة العالمي، بلغة عجز الميزانيات السائدة في السوق، وحركات رأس المال وأسواق العمل المرنة، وحذر من أن الناس ربما ينتهون إلى تحدي الأساليب حتى النهاية»، وينسون أن الهدف الحقيقي للإنماء هو في تحسين «الحياة المادية والروحية لكل مواطن». أكد لهم على استقلاله، وانتقد أيضاً «المصالح الضيقة والشوفينية للإدارة الحالية في إسرائيل» لإعاقتها

الأمل بسلام دائم في الشرق الأوسط. وحث الهند وباكستان على حل نزاعهما المرير حول كشمير عبر مفاوضات سلمية، عارضاً مساعدته.[16] اشتكت الحكومة الإسرائيلية بسرعة بخصوص «ملاحظات مانديلا غير السارة وغير المفيدة»، في حين حذر رئيس الوزراء الهندي فاجبايي الأطراف الثالثة بوجوب البقاء خارج نزاع كشمير. لكن مانديلا تلقى مديحاً من باكستان والفلسطينيين، ولعب فيما بعد دور المضيف لزيارة رسمية لعرفات ـ الذي يعاني الآن من مرض باركنسون في الارتجاف والضعف ـ.

قالت جاكي سيليبي، المدير العام الجديد في وزارة الخارجية: «يتعين على جنوب إفريقية أن تكون قادرة على قول إن شخصاً أو حكومة تفعل شيئاً خاطئاً، بلا إقحام أسواق البورصة».[17]

كان مانديلا يعيد رسم الخريطة الاقتصادية للعالم من وجهة نظر جنوب إفريقية عن طريق تأليف تحالفات جديدة. وفي البداية كان أكثر أصدقائه الماليين الواعدين في الاقتصاديات المزدهرة بسرعة في آسية، الذين قدموا هبات كريمة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي (انظر الفصل 28). لكن كان هناك الكثير من التعقيدات. فتايوان التي كانت قد قدمت للمؤتمر الوطني الإفريقي مبلغ 10 ملايين دولار عام 1993، برهنت على أنها حليف مربك عندما سعت حكومة مانديلا إلى الاعتراف بالبر الرئيسي الصيني. أصر مانديلا على أنه لن يطعن صديقته القديمة تايوان في الظهر، مما سبب شكوى من طوني ليون من الحزب الديموقراطي تقول «سياستنا الخارجية بأكملها تقوم على الديون الانتخابية للمؤتمر الوطني الإفريقي». لكن بريتورية سرعان ما غيرت اتجاهها، وكانت قادرة على الاعتراف بالصين من غير أن تكسب عداء تايوان كلياً.[18]

كان لدى مانديلا ما هو أكثر من الأسباب السياسية الحزبية لتطوير روابطه مع آسية، في وقت كان فيه أصحاب المصارف والمستثمرون الدوليون يكيلون المديح للاقتصاديات العجيبة «النمور» الشرق. تطلع إلى إعادة اختراع «إطار

المحيط الهندي» حيث لعب ذلك الإطار دوره في التاريخ الماضي لجنوب إفريقية عندما استوطنت مجموعات هندية وماليزية وصينية على شواطئها. أشار مانديلا في سنغافورة عام 1997 إلى أنه «قبل سنوات كثيرة، فإن التجارة والعلاقات كانت موجودة بين آسية وإفريقية الجنوبية، علاقات بدأنا لتونا الآن بتقديرها تقديراً كاملاً».[19] وكانت له روابط مفيدة مع الدول المسلمة. كان هناك ثلاثة هنود مسلمين في وزارته، إضافة إلى اثنين من الهندوس. أبلغ مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام 1998 أن «جنوب إفريقية الديموقراطية، على العكس من سابقاتها، تمنح الإسلام وضعاً دستورياً مماثلاً لباقي الأديان الأخرى».[20] احتفي بمانديلا في أندونيسية حيث امتدح الرئيس سوهارتو بوصفه «زعيماً قادراً وصبوراً ومصقولاً». ورفض علناً التنديد بإساءات سوهارتو للحقوق الإنسانية. لكنه أثار معه في السر قضية تيمور الشرقية، التي ضمتها أندونيسية عام 1975 رغم احتجاجات عالمية كبيرة، وعام 1997 أقنع سوهارتو بالسماح له برؤية جوزيه كزانانا غوسماو، الزعيم المسجون لحركة تحرير تيمور الشرقية، الذي كانت محنته متشابهة إلى حد ما مع محنة مانديلا، ناشد سوهارتو إطلاق سراحه بحديثه المألوف: «أوقف الحبس، أطلق السراح، فاوض».[21] الذي أثبت صحته بعد سقوط سوهارتو.

طورت ماليزية علاقة تجارية أوثق مع جنوب إفريقية، فقد تأثر مانديلا برئيس الوزراء مهاتير محمد عندما زار الأخير جنوب إفريقية عام 1990، ومرة أخرى في مؤتمر الكومونولث عام 1991؛ وانجذب أيضاً إلى الفكرة الماليزية «باميبوتيرا» أو «أبناء التربة»، التي سعت لإعطاء ماليزية حصة أكبر في ملكية الصناعة، وتأسيس طبقة وسطى ماليزية مزدهرة لتتنافس مع الأقلية الصينية، وهذه حالة لها ما يشابهها بالنسبة إلى الجنوب إفريقيين السود. عندما زار مانديلا ماليزيا عام 1996 امتدح البلاد نموذجاً للتدريب، وإعادة البناء ومنح السلطة. وشجع (مهاتير) في مجالات الأعمال الماليزية لتصل عبر المحيط

الهندي، متماشية مع سياسة «الجنوب ـ الجنوب». بعد انتخابات عام 1994 دخلت الشركات الماليزية في صناعة الأخشاب والملكية وصناعات أخرى في جنوب إفريقية، وبلغت الذروة في شراء ثلث شركة إنجن للطاقة، وحصة كبيرة في شركة تلكوم العملاقة للاتصالات. وقيل إن ماليزية كانت تأخذ مكان كوبة في الجغرافية الثقافية للمؤتمر الوطني الإفريقي.[22]

إلا أن نمور جنوب شرق آسية شلتهم الأزمات الاقتصادية أواخر عام 1997. حيث انهارت العملات، وضعفت المصارف، وانهارت الشركات إلى مرحلة الإفلاس. وتمت الإطاحة بالرئيس سوهارتو. وادعى الاقتصاديون الغربيون الذين كانوا قد كالوا المديح للدول الآسيوية المعجزة، ادعوا الآن أن تلك الدول كانت متصدعة دوماً بالفساد و«الرأسمالية الحميمة». بدت جنوب إفريقية لبعض الوقت، وبنظامها المصرفي الأفضل، بدت أقل هشاشة بكثير؛ لكن الانهيارات في أندونيسية وماليزية وتايلاند أفزعت المستثمرين الغربيين وجعلتهم يبتعدون عن كل الأسواق الناشئة وسحبوا الأموال من جنوب إفريقية، متوقعين هبوطاً جديداً للرند، في حين بدت الانفتاحات نحو الشرق الآن وهي تعد بفرص أقل. لم تستطع جنوب إفريقية التخلص من اعتمادها الأساسي على الغرب، سواء في مجال الاستثمار أم الديبلوماسية.

كانت لمانديلا علاقة مترددة مع الولايات المتحدة، فمنذ جولته الأولى الظافرة عام 1990 تشجع باحتياطي النية الحسنة الأمريكية. وأحب زيارات نجوم الأفلام، ومغني البوب والسياسيين الودودين. كان الرئيسان بوش وكلينتون فخورين بروابطهما الشخصية معه. وقد تم غفران الخطيئات الماضية لوكالة الاستخبارات المركزية، وأرادت وزارة الخارجية استخدام بريتورية كقوة بديلة في إفريقية. لكن مانديلا كان مقاوماً للغطرسة الأمريكية، ورد بعنف على المواقف التفضيلية أو الإهانات للكرامة الإفريقية. كان واحداً من بين الزعماء القلائل الذين كان بمقدورهم انتقاد واشنطن علناً بلا عقاب؛ وكما قال أحد

السفراء: «يريد التخلص من فكرة أن أمريكا لا يمكن تحديها». وكان يعرف أن معظم العالم النامي يقف وراءه.[23] تكلم مانديلا جهاراً ضد كلينتون في تشرين الثاني (نوفمبر) 1996، عندما عارض الأخير إعادة تعيين أمين عام الأمم المتحدة بطرس بطرس غالي، الذي كان مدعوماً من قبل معظم الأعضاء في الأمم المتحدة، وحذر من أنه إذا تحدت أمريكا الإجماع «فإننا ربما نغرق في الفوضى لأن ـ بعد هذه السابقة ـ أية دولة لن تحترم قرارات الأغلبية في الهيئة الدولية».[24]

اطمأن مانديلا جزئياً بتعيين أمين عام إفريقي، كوفي عنان من غانة، لكنه استمر في الاعتراض على المعاملة الفوقية لواشنطن تجاه الأمم المتحدة.

امتعض مانديلا أيضاً من محاولات واشنطن وضع قيود على مشتريات الأسلحة لبريتورية ـ حيث كان على أساس أخلاقي أكثر تأرجحاً. كانت حكومات التمييز العنصري قد عززت صناعة أسلحة مفرطة عوضت عنها ببيع الأسلحة للخارج أينما توفر لها ذلك؛ وبعد وصول المؤتمر الوطني الإفريقي إلى السلطة، استمرت شركة الأسلحة التابعة للدولة وهي آرمزكور في عقد صفقات مع زبائن مشبوهين. ثار غضب وزارة الخارجية الأمريكية مطلع عام 1997، عندما علمت أن بريتورية تخطط لبيع دبابات بقيمة 650 مليون دولار إلى سوريا عدو إسرائيل المرير. وحذر الأمريكيون من أن عملاً كهذا سيكون «خطيراً جداً»، وهدد النواب بقطع المساعدة عن جنوب إفريقية. رد مانديلا بغضب: «إننا سنفقد اتفاقات مع أي بلد سواء كانت له شعبية في الغرب أم لا . . . إن أعداء دول الغرب ليسوا أعداءنا».[25]

لكن تحدي مانديلا الرئيسي لواشنطن كان تأييد (البعبعين) الأمريكيين، القذافي وكاسترو. لقد أعاد تأكيد صداقته معهما في شباط (فبراير) 1996 عندما كان يزور روبن آيلاند مع غرو برندلاند، رئيس وزراء النرويج. كانت لحظة (دراماتيكية) فبينما كان يتحدث ارتجالياً في مقلع للحجارة الكلسية، أثنى مانديلا على النرويج لدعمها المؤتمر الوطني الإفريقي عندما كان المؤتمر بدون

أصدقاء تقريباً، وبسرور جَلِيّ أعلن أنه سيدعو كلاً من كاسترو والقذافي إلى جنوب إفريقية؛ وتشكى من أن الرئيس بوش قد نصحه بعدم تأييدهما، لكنه قال: «إننا لن نتخلى أبداً عن أصدقائنا».[26]

قام كاسترو بزيارة رسمية مسرحية إلى جنوب إفريقية عام 1998، بعد حضوره قمة عدم الانحياز في دوربان، حيث حذر من «أزمة اقتصادية عميقة ولا يمكن تجنبها» كانت تهدد العالم بأكمله. خاطب جلسة مشتركة في المجلس النيابي ملقياً كلمة عاطفية، «مثل رسالة الحب التي تكتبها حبيبة تشعر بشوق كبير». قاطع الحزب الديموقراطي كاسترو بوصفه «عدواً للديموقراطية»، لكن الجنوب إفريقيين السود صفقوا له وهم ينادون «كوبا! كوبا!» وتحدث فيما بعد لساعتين في سوويتو من غير أن يأخذ حتى رشفة ماء.[27]

لم يزر القذافي جنوب إفريقية أبداً. لكن مانديلا استمر في تأييده كحليف قديم ساعد المؤتمر الوطني الإفريقي في الأيام السوداء من عقد الستين (على الرغم من أنه ساعد أيضاً الـ PAC المنافس). كان الغرب ما يزال يعتبر القذافي شيطاناً بعد تفجير الطائرة الأمريكية فوق لوكربي في سكوتلندة في كانون الأول (ديسمبر) 1988، التي ألقي اللوم في تفجيرها على عملاء ليبيين. لكن مانديلا زار ليبيا عدة مرات بدءاً من عام 1990، ليجمع أموالاً للمؤتمر الوطني الإفريقي جزئياً. وعندما طلب الغرب تسليم المشبوهين ومحاكمتهم تجادل مانديلا مع الرئيس بوش وأصر على وجوب محاكمتهم في بلد محايد.[28] وازداد الغضب الأمريكي في تشرين الأول (أكتوبر) 1997 عندما كان مانديلا يستعد للقيام بزيارة رسمية إلى ليبيا. قالت وزارة الخارجية الأمريكية، «إنهم سيكونون شاعرين بالخيبة» إذا تحققت الزيارة. رد مانديلا بغضب في مأدبة في جوهانسبورغ:

> «كيف يمكن لهم أن يملوا علينا بهذه الغطرسة من يجب أن يكونوا أصدقاءنا؟... هل يمكنكم تخيل ما سيقولونه إذا قلت إن بوريس يلتسين يجب أن لا يزور ألبانيا؟ سيقولون إنني أكبر رجل أسود متغطرس...

على الرغم من التغييرات في العالم، فإن احتقار السود ما زال عميقاً».

أنهى كلمته بقصيدته المفضلة حول روبن آيلاند: «أنا سيد مصيري». وسار قدماً بتحديه بزيارته ليبيا. عانقه القذافي وقبّله ورفع يده متضامناً، وأراه القصر الرئاسي الذي تدمر بالقصف الأمريكي. انتقد مانديلا «الدول التي تلعب دور الشرطي المسؤول عن العالم»، وقال: «أولئك الذين اعترضوا على زيارتي لليبيا ليس لديهم أخلاق. . . السياسي يجب أن لا يفقد أخلاقه، وأن يكون مستعداً للمعاناة، وهذا هو السبب الذي جعلني أبقى سبعة وعشرين عاماً في السجن».[29]

طار مانديلا من ليبيا إلى أدنبورغ لحضور قمة الكومونولث التي استضافها طوني بلير، ووضع موضوع ليبيا في المقدمة، مجادلاً من جديد أن المشبوهين بالتفجير يجب محاكمتهم في بلد محايد؛ قال: من الخطأ لأي بلد أن يكون «المشتكي، والنائب العام، والقاضي في الوقت ذاته». كسب التأييد من الأسر البريطانية لضحايا لوكربي، الذين رفضوا الخط المتصلب الأمريكي. في طريق عودته، توقف مجدداً في ليبيا، حيث قلد القذافي وسام Order of Good Hope، ونصحه «بوجوب تفهم أهمية اللغة المعتدلة».[30]

أزعج دفاع مانديلا عن القذافي العديد من الغربيين: قالت صحيفة الغارديان إن قديس روبن آيلاند، بدا أنه في تحالف غير رسمي مع كلب طرابلس المسعور.[31] وقد سبب هجومه على الأخلاقية الأمريكية سخط الأمريكيين المحافظين؛ قالت النيوريبيليك: إنه لمقرف، «وإنه مثال الاستبدادية الأخلاقية في أسوأ صورها».[32] وثار غضب الجنوب إفريقيين البيض أيضاً لتحديه السياسة الأمريكية. لكن مانديلا عَدَّ النقد عرقياً في حقيقته. قال: «لم يضع أي إفريقي أو ملون أو هندي ذهابي إلى ليبيا موضع التساؤل، لكنهم يعتقدون مصالح البيض هي مصالح البلاد: أي إنك لا تستطيع تحدي الولايات

المتحدة لأن مصالح البلاد سيلحق بها الأذى. لم يقل ذلك أي رجل أسود؛ الأحزاب البيضاء فقط». [33]

بقي مانديلا على صلة مع القذافي عن طريق جيكس جيرويل أمين سر وزارته البعيد عن الأضواء، والذي كانت له تجربة تفاوض ما لا يمكن تفاوضه. في حين كان مانديلا يتصل ببلير وكلينتون مباشرة، مما أثار حفيظة ديبلوماسييهما. كان مانديلا قادراً على طمأنة القذافي ـ الذي كان يثق به أكثر من ثقته بالأمم المتحدة. وفي آذار (مارس) 1999 طار إلى طرابلس لحسم الصفقة: القذافي سيقوم بتسليم المشبوهيْن مقابل إلغاء عقوبات الأمم المتحدة. كان ذلك (كما اعترفت وسائل الإعلام المحافظة) إثباتاً لديبلوماسية مانديلا الشخصية، وعلاقاته الودية مع ليبيا. [34]

تأييد مانديلا لليبيا لم يلحق الضرر بصداقته المتنامية مع الرئيس كلينتون التي كانت قائمة على الإعجاب المتبادل. تذكر كلينتون دوماً كيف راقب إطلاق سراح مانديلا على شاشة التلفاز في أركانساس مع زوجته هيلاري وابنته تشيلزي (التي أصبحت مسحورة بقصة مانديلا). [35] وجد مانديلا كلينتون «لامعاً» عندما التقيا أول مرة، ورآه بعد ذلك بوقت قصير كصديق للأقليات. قال لي: «فعل كلينتون شيئاً لم يتم فعله أبداً في الولايات المتحدة، لقد جذب السود، والنساء، والمعوقين وقد حصل على دعم صلب من السود» [36] كان مانديلا يتصل بكلينتون في معظم الأحيان، ولم يتذكر أنه رفض له أي طلب(*).

في آذار (مارس) 1998 قام كلينتون بزيارة رسمية إلى جنوب إفريقية كانت ذروة جولة أمريكية، أكدت الأهمية الخاصة لدور بريتورية. قال السفير

(*) طلب مرة من كلينتون مساعدة الصحفي الجنوب إفريقي فيليب فان نيكيرك الذي كان في وضع خطير خلال الحرب الأهلية في ليبيريا. فاستلم الصحفي على الفور رسالة تطلب إليه الذهاب إلى السفارة الأمريكية، ومن هناك نقل جواً مع موظفين أمريكيين بطائرات الهليكوبتر.

الأمريكي جيمس جوزيف «إن علاقة جنوب إفريقية مع باقي القارة هي مماثلة جداً لعلاقتنا مع باقي العالم. كلانا قوة سائدة»[37] أثناء مخاطبته المجلس النيابي أثنى كلينتون على شجاعة وحنكة جنوب إفريقية الجديدة، وأصر على أن الأمريكيين يجب أن يتوقفوا عن سؤال ماذا يمكنهم فعله من أجل إفريقية، ويسألوا بدلاً من ذلك ماذا يمكنهم فعله مع إفريقية، وهذه نقطة سرّ لها مانديلا.[38] لكن سرعان ما طرح مانديلا التبادل المألوف للمجاملات: ففي مؤتمر صحفي في حديقة التيونهيوز انتقد الضغوط الأمريكية وأكد مجدداً استقلاله بخصوص ليبيا، وإيران، وكوبا. بدا كلينتون غير منزعج، وسرّه مانديلا بإبلاغه منتقديه بالذات في جنوب إفريقية «بالقفز في البركة». وفيما بعد أثار غضب مساعدي كلينتون بشدة بإصراره على الديبلوماسية السرية جداً: تحدث أولاً وعلى انفراد مع الرئيس، ثم دعا صديقه السعودي الأمير بندر، الذي كان ينتظر للحاق بهما.[39]

كان بإمكان مانديلا أن يقدم إلى كلينتون نوع التأييد الأخلاقي الذي هو بأمس الحاجة إليه. كما أظهر في واشنطن بعد ذلك بستة أشهر، عندما كان كلينتون يشعر باللهيب الكامل لمضطهديه، الذين كانوا يهددونه بالعزل. في حفل استقبال في البيت الأبيض للزعماء الدينيين أثنى كلينتون ثناء عاطفياً على ضيفه: «في كل مرة يسير فيها نيلسون مانديلا إلى أية غرفة، نشعر أننا جميعاً أكبر بقليل، نريد كلنا أن نقف وأن نحيي، لأننا نحب أن نكون هو في أفضل أيامنا».

رد مانديلا ـ مشيراً إشارة غير مباشرة إلى الدعوة إلى عزل الرئيس ـ وأصر قائلاً: «إنه ليس من شأننا التدخل في هذه القضية»، واستمر ليمتدح كلينتون «صديقاً لجنوب إفريقية وإفريقية» وليعد بالإخلاص له، مثلما فعل بالنسبة إلى القذافي: «لقد قلنا كثيراً إن أخلاقيتنا لا تسمح لنا بالتخلي عن أصدقائنا. ويجب أن نقول هذه الليلة: إننا نفكر فيك في هذا الوقت العصيب والمتقلب في حياتك».[40]

مانديلا ـ الذي هو الآن في الثمانين ـ لم يفقد المتعة بالسفر إلى الخارج. ففي شهوره الأخيرة رئيساً، غطّى معظم العالم مع زوجته غراكا. ليقول الوداع لأصدقائه. تشكى بعض الجنوب إفريقيين البيض أو استهزؤوا بخصوص غيابه المتكرر. (في هذا الأسبوع، يقوم الرئيس مانديلا بزيارة إلى جنوب إفريقية). لكنه أوضح أنه لا يدير البلاد الآن. إن الهالة الدولية التي يتمتع بها لم تتلطخ في سنواته في العمل. ورؤساء الحكومات غير الآمنين كانوا يشعرون بالثقة والمجد لدى ظهورهم معه. وكان بإمكانه بث الطمأنينة في زعماء من اليسار إلى اليمين في آن واحد. في بريطانية قدّرت الملكة تقديراً واضحاً زياراته في وقت كانت فيه أسرتها بالذات تتعرض للانتقاد، في حين استطاع طوني بلير تحسين صورته اليسارية بالقيام بزيارة سريعة إلى مانديلا في كانون الثاني (يناير) 1999.

إلى أي مدى تُرجمت تلك الترحيبات الحارة إلى مساعدة عملية؟ هل يستطيع مانديلا الاعتماد على جاذبيته؟ حاول السفراء الجنوب إفريقيون جاهدين استخدام زيارات رئيسهم لجذب المستثمرين أو لتحسين شؤون التجارة. لكن صورة مانديلا القديس لم تكن مساعدة بالضرورة في عالم التجارة، لأنها تضمنت أنه فوق الشؤون الدنيوية، مثل الأم تيريزا، أو الدالاي لاما. «القديس نيلسون يريد مالنا»، هذا ما حذرت به صحيفة التايمز اللندنية فوق مقالة عن زيارة مانديلا الرسمية عام 1996، كتبها المحرر المحافظ سيمون جينكنز، الذي خفض من قيمته رئيساً جدِّياً لحكومة»؛ الدولة يمكن تمثيلها من قبل قديس، لكن لا يمكن أن يحكمها قديس». [41]

في القارة بالذات، كانت هناك ثغرة أوسع بين المديح الأخلاقي والدعم الاقتصادي. فعندما أصبح مانديلا رئيساً عام 1994 كان الاتحاد الأوربي مفعماً بالنية الحسنة تجاه جنوب إفريقية مزدهرة ومستقرة، ووعد بفتح منطقة تجارة حرة تكون نموذجاً لسياسة التطوير المنورة. لكن المفاوضين في بروكسل سرعان ما وقفوا ضد مزارعي البطاطا الألمان، ومنتجي النبيذ الإيطاليين،

وزارعي الورود الهولنديين؛ وبعد أربع سنوات وأربعين جولة من المحادثات فإنهم لم يحترموا حتى الآن وعدهم الأصلي لمانديلا. البريطانيون وهم الأقل شعوراً بالتهديد اقتصادياً، كانوا أكبر الداعمين لجنوب إفريقية، وعام 1998 دعا طوني بلير مانديلا إلى القمة الأوربية في كارديف، آملاً في أن وجوده ربما يخجل الأوربيين فيجعلهم يفتحون أسواقهم. رحب به رؤساء الحكومات الغربية وعلى رأسهم هيلموت كول وجاك شيراك بتصفيق هادر. وهمس المبعوث البريطاني إلى المجموعة الأوربية نيل كينوك لمانديلا للحث على الوفاء بالالتزام، لكن مانديلا أجاب ساخراً: «لا يوجد حبر في أقلامهم». وعد الأوربيون باتفاقية بحلول الخريف، ثم أجلوها من جديد. أخيراً في 26 آذار (مارس) 1999، وافق رؤساء الحكومات الأوربية على اتفاقية رحبت بها بريتورية «بمثابة تصريح كبير بالثقة» ـ وذلك قبل ساعات قليلة من كلمة مانديلا الأخيرة أمام المجلس النيابي.[42]

كانت الحكومات الغربية سعيدة لاستخدام وجود مانديلا لصقل صورها أو تحسين علاقاتها العرقية؛ لكن المفاوضين المتشددين شعروا بالقليل من الالتزام للقيام بتنازلات مقابل ديموقراطية شابة هشة. لم يكن هناك مكان في حسابات عالم التجارة العالمي للقضايا الإنسانية. وبقي هناك صدع بين عبادة صورة مانديلا ومساعدة الناس الذين يمثلهم.

لكن مانديلا بقي متفائلاً بأن العالم يصبح أقل عنصرية. ولقد شعر دوماً بأن البريطانيين كانوا أكثر إنصافاً من المستعمرين من أصل بريطاني في إفريقية. تذكر قوله بوصفه مناضلاً من أجل الحرية: «أفضل طريقة لتلقي الحماية ضد المستوطنين البريطانيين في أية مستعمرة هي الذهاب إلى لندن». صار الآن واثقاً مجدداً من أن أمريكة في عهد كلينتون كانت تبتعد أيضاً عن العنصرية: «تظهر قضية الولايات المتحدة إظهاراً جيداً جداً ما هو الاتجاه، صانعو القرار في كل بلد يبتعدون عن ذلك». هذا ما قاله في كانون الثاني (يناير) 1991.[43]

كان كلينتون سعيداً بالعودة إلى المجاملة، وذلك بثناء بليغ على نفوذ مانديلا عندما رحب به في واشنطن عام 1998:

«في كل وضع مشوه ومعقد وممزق في العالم، حيث يُمنع الناس من أن يصبحوا أفضل ما يمكن، هناك تمييز عنصري في الصميم. وإذا احترمنا حقاً هذه التضحية المذهلة لسبعة وعشرين عاماً، وإذا ابتهجنا حقاً بالعدالة المطلقة لهذا الرجل الذي تزوج بسعادة في خريف حياته، وإذا كنا نسعى حقاً وراء بعض الحكمة المندفقة إلى الأمام من قوة مثاله، فمعنى ذلك أن نفعل ما بوسعنا، وبأية طريقة ممكنة، وأينما كنا لإخراج التمييز العنصري من داخلنا ومن داخل الآخرين».[44]

40

بلاد مانديلا

إلى أي مدى تحولت جنوب إفريقية سلمياً وبخاصة خلال السنوات الخمس من حكم مانديلا؟ في شباط (فبراير) 1999 ألقى مانديلا كلمته السنوية الأخيرة أمام المجلس النيابي حول وضع الدولة. نظر إلى الماضي قبل عشر سنوات إلى الوقت الذي كتب فيه «سجين متواضع» من السجن إلى الرئيس مقترحاً المفاوضات، ومعالجة قضيتين مركزيتين: مطلب السود بحكم الأغلبية في دولة وحدوية، ومخاوف البيض بخصوص هذا المطلب. وتذكر تحذيره حول احتمال أن تصبح جنوب إفريقية «منقسمة إلى معسكرين متعاديين»، وعكس بشيء من الفخر التغييرات الاستثنائية منذ أن أصبح ذلك السجين المتواضع رئيساً: «أمور مثل المساواة، وحق الاقتراع في انتخابات حرة وعادلة، وحرية الرأي، كل هذه الأمور أصبحت مفروغاً منها الآن».

لكن مانديلا ظل يرى انقسامات مقلقة بين السود والبيض: «إننا يذبح بعضنا بعضاً في عقولنا وفي انعدام الثقة التي تراوح في رؤوسنا، كما أن تعابير الكراهية تتدفق من شفاهنا». وأكد من جديد على أن المصالحة مستحيلة بلا «تفكيك ما تبقى من ممارسات ومواقف التمييز العنصري».[1]

من المؤكد أن معظم الجنوب إفريقيين البيض كانت لهم وجهة نظر سلبية أكثر بكثير من السود بخصوص تحول البلاد. وقد تبع شعورهم بالنشاط بعد الانتخابات عام 1994، شكاوى بشأن الاقتصاد، والفساد والجريمة، والآمال

المتلاشية للبيض؛ وكان معظم الصحفيين والزوار الغربيين الذين كانت لهم روابط اجتماعية قليلة مع الطبقة الوسطى السوداء، كانوا يأخذون ملاحظاتهم من البيض، وتوقع العديد من البيض أن أساليب حياتهم لن تتأثر بالجيشان السياسي عام 1994. لكنهم لم يعودوا ينتمون إلى مجتمع منفصل تماماً له ميزاته وقوانينه، أي ملحقٍ بالعالم الثري في الغرب، صاروا الآن جزءاً من بلاد نامية في حالة تغير مستمر، مثل البرازيل أو مكسيكو، معرضين لجميع مشكلات ومخاطر سكان فقراء ومتزايدين في العدد يندفعون إلى المدن. كانت حكومة مانديلا قد واجهت سلسلة من الأزمات التي بدت وكأنها صور ساخرة لمشكلات العالم النامي، في ميادين العرق، والهجرة، والأموال، والصحة والتعليم.

جعل انشغال البيض بمشكلاتهم بالذات، جعل مانديلا فاقداً للصبر تجاه معظم سياسييهم و«تشاؤمهم غير العملي». قال لي في كانون الثاني (يناير) 1999: «ما تزال أحزاب المعارضة في هذا البلد مهتمة بتحسين مصالح أقلية بيضاء، تستطيع أخذ الكثير من الأمثلة لتقول: أنتم لستم مخلصين لهذا البلد، أنتم مخلصون لمصلحة أقلية بيضاء».[2] هاجم أحزاب «ميكي ماوس» البيضاء - حيث رد طوني ليون من الحزب الديموقراطي بأن مانديلا كان «يدير حكومة غوفي». (بعد ذلك ببضعة أسابيع كان مانديلا يزور مستشفى حيث كان ليون يتعافى من عملية. ونادى من وراء الستار: «ميكي ماوس، أنا غوفي»).

من المؤكد أن المستقبل بدا وردياً بالنسبة إلى الطبقة الوسطى السوداء المزدهرة التي ضمت معظم زعامة المؤتمر الوطني الإفريقي. فالمناضلون القساة من أجل الحرية، الذين كانوا يقودون سيارات «نضال» معطوبة في المناطق، تحولوا إلى موظفين يرتدون ثياباً لائقة ويقودون سيارات الـ بي. أم. دبليو، ويعيشون في الضواحي البيضاء، في حين تكيف المديرون السود مع أسلوب حياة الأعمال الضخمة.

كان انتقالاً سريعاً من سني الصعوبات والتضحية الذاتية، وهذا ما صدم

بعض المراقبين. «العديد من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي تسابقوا ليلحقوا بالأذواق الأفضل للأسياد السابقين». هذا ما كتبه عالما الاجتماع آدم سلابيرت ومودلي في كتابهما المثير للجدل «رفاق في الأعمال» عام 1997. «أي شيء يقل عن أسلوب حياة بورجوازية بيضاء سيبدو عديم المساواة».[3] أبلغ فوملايز ملامبو ـ نغوكا، نائب وزير التجارة، أبلغ رجال الأعمال السود أن لا يخجلوا من أن يصبحوا «أثرياء قذرين». منع ثابو مبيكي هذه العبارة لكنها ظلت تتردد بين أصحاب الميزات الأقل.[4] وصار السياسيون أنفسهم ينفصلون أكثر عن ناخبيهم. وصلت رواتب أعضاء المجلس النيابي ـ كما يعتقد ـ إلى ثلاثين ضعفاً من الدخل الوسطي، في حين أن أعضاء الوزارة وكبار الموظفين المدنيين (كما قال عالم السياسة توم لودج) كان «يدفع لهم بإفراط بالنسبة إلى بلد فقير نسبياً».[5]

بدت الطبقة الوسطى وهي تعتنق الرأسمالية بحماسة لم يكن يتخيلها أحد قبل عشرين عاماً. من الصحيح أن الآمال «بسلطة سوداء» سريعة في مجالات الأعمال كانت مخيبة، سواء بسبب مقاومة البيض أو النقصان الشديد في المدراء والمحاسبين السود المتدربين، أو بسبب النتائج المعطِلة لتعليم البانتو. أصر الليبراليون البيض على أن الانتقال، مثلما حدث مع الأفريقانيين ـ سيستغرق وقتاً، قال ماريوس سكون، الأفريقاني المؤيد للمؤتمر الوطني الإفريقي في بنك (الإنمائي): «إن منح السلطة والعمل الإيجابي للأفريقانيين بدأ في عقد العشرين. ولم يتوصل الأفريقانيون إلى القبض الفعلي على زمام الاقتصاد الجنوب الإفريقي إلا في أواسط عقد الستين. من الجنون توقع نتائج سريعة».[6] لكن قلائل من المقاولين السود حققوا سلطة اقتصادية مثل الرأسمالي المحنك الدكتور نثاتو موتلانا، الذي أصبح رئيساً لكتلة نيل NAIL (عندما أريد الوصول الآن إلى طبيبي القديم، يتعين عليّ أن أصل إلى سوق البورصة) كما مزح مانديلا.[7] كان يشاركه لبعض الوقت سيريل رامافوزا عندما

كان نائب رئيس. وذلك قبل أن يستقيل في شباط (فبراير) 1999 ليلحق بشؤون عمله الخاص.

كانت لمانديلا مخاوفه الخاصة بشأن تجاوزات الحماسة التجارية؛ فعندما كان في السجن ـ حين اجتاحت الاستهلاكية العالم بأكمله ـ كان يحزن في معظم الأحيان بسبب الاستهلاك الجلي للجيل الشاب. لكنه كان قد اقتنع أن مشاريع العمل والاستثمارات الخارجية كانت ضرورية من أجل فرص العمل والازدهار. رأى المال والصناعة ـ مثل المؤسسات الأخرى ـ ضمن مجالات الأفراد الذين يستطيع التواصل معهم شخصياً. كان يتصل باستمرار بزعماء الأعمال طلباً لدعمهم، لا سيما من أجل صندوق الأطفال الذي هو مشروعه الخيري المفضل، والذي جمع أموالاً ضخمة خلال رئاسته، لكن لأجل مخططات أخرى كذلك؛ لتوفير المدارس والمستشفيات والمنح للأطفال. وقد ثمّن استجابتهم، كما قال لي في كانون الثاني (يناير) 1999:

«منذ عام 1990 عندما خرجت من السجن ذهبت إلى مجالات العمل الضخم، ليس بصفتي عضواً في المؤتمر الوطني الإفريقي، أو رئيساً للبلاد، لكن بصفتي رجلاً مسناً: «أريد منك أن تقدم خدمات لشعبنا مستخدماً مصادرك الخاصة بالذات». . تطلب منهم القيام بأشياء معينة، وتحكم عليهم من خلال استجابتهم، ما إذا كانوا يشاركون في عملية الانتقال. . . إن كل شيء طلبته تقريباً من رجال الأعمال استجابوا له بإيجابية كبيرة». [8]

اعتقد الناقدون من الجناح اليساري أن مانديلا كان مرتاحاً جداً مع رجال الأعمال في الوقت الذي رحب فيه بهباتهم لمشاريعه المفضلة، في حين كان غير منتقد أبداً لسياساتهم؛ لكنه كان مقتنعاً أن على المؤتمر الوطني الإفريقي البقاء على علاقات ودية مع كبار رجال الأعمال إذا كان سَيَبْني اقتصاداً مزدهراً.

كان أكبر قلق للبيض بخصوص النشاط التجاري المفاجىء في جنوب إفريقية السوداء هو احتمال انتشار الفساد، الذي دمر العديد من الدول الإفريقية.

في الحقيقة لقد بدأ رجال الأعمال البيض بذلك إضافة إلى المتلقين السود، عندما سعى المقاولون الذين لا يرحمون وراء كسب العقود وتجاوز البيروقراطية عن طريق تقديم الرشاوى للوزراء والرسميين؛ لكن سلسلة من الفضائح كشفت سريعاً ضعف العديد من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي. صُدم مانديلا بسبب قابليتهم للرشوة. قال في كانون الثاني (يناير) 1999: «جئنا إلى الحكومة مع حماسة مجموعة من الناس الذين كان يتوقع منهم إزالة الفساد في الحكومة، من المخيب جداً ملاحظة أن أشخاصنا بالذات الذين هم هناك لإزالة الفساد أصبحوا هم أنفسهم فاسدين». لكنه أصر على أنه ومبيكي كانا يفعلان كل شيء ممكن لاقتلاع المشكلة من جذورها. بما في ذلك تعيين قاض قوي جداً - ويليم هيث - للتحقيق في جميع ادعاءات الفساد في الحكومة: «لا نستطيع التصرف بموجب اتهامات لم يتم التحقيق بها». أصر على أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان مختلفاً تماماً عن الحكومات السابقة، التي كان يظهر فسادها سريعاً للعلن - والتي «حاولت تلميع كل شيء تحت السجادة».[9]

من الصحيح أن الحكومات الأفريقانية كانت أكثر قابلية للرشوة مما ظهر علنياً؛ وسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي في التحويل مترافقة مع الحرية المتوفرة حديثاً للصحافة، كل ذلك أعطى انطباعاً غير عادل عن تدهور سريع في المقاييس. لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان متساهلاً جداً تجاه الوزراء الفاسدين، وبطيئاً جداً في شجب واقتلاع جذور الرشوة وانتهاكات السلطة. لا سيما في الحكومات المحلية، التي اعترف مانديلا بأنها كانت «كعب آخيل في الحكم الديموقراطي». كان مانديلا يتكلم بصراحة أكثر فأكثر، كما قال في شباط (فبراير) 1999:

> «من بين الكوادر الجديدة في المستويات المتنوعة للحكومة تجد أفراداً فاسدين - إن لم يكونوا أكثر من ذلك - مثل أولئك الذين وجدوهم في الحكومة. عندما يقوم زعيم في هيئة تشريعية محلية باستنزاف المصادر

المخصصة لتمويل خدمة يقوم بها المشرعون من أجل الناس؛ وعندما يقوم موظفو مؤسسة حكومية ـ وُجدوا لتعزيز أولئك الذين تم استبعادهم من قبل التمييز العنصري ـ بسلبها أموالها بالاحتيال ليغتنوا، آنذاك يجب أن نعترف أننا مجتمع مريض». [10]

خيب اعتناق المؤتمر الوطني الإفريقي لمجالات الأعمال الكبيرة العديد من اليساريين والمحاربين القدماء المسيحيين في الكفاح، الذين تطلعوا قدماً إلى بلد مثالي بلا حواجز طبقية أو جشع شخصي. بقي المثاليون والثوريون في الخارج ـ الذين تخيلوا جنوب إفريقية بأنها دنيا مثالية خاصة ـ بقوا أكثر تحرراً من الوهم؛ عبر الصحفي الأوسترالي المتشدد جون بيلجر عن غضبهم جميعاً في فيلم تلفازي عُرض في بريطانية وجنوب إفريقية في نيسان (أبريل) 1998. كتب بعد ذلك: «نخبة صغيرة ذات صلة بالمؤتمر الوطني الإفريقي انتهزت فرصة «السوق» في حين غرقت الأغلبية أكثر في البطالة والفقر». [11]

كسبت هجمات اليسار على عالم التجارة العالمي ذخيرة من الأزمات في «نمور» جنوب شرق آسية عام 1997. عندما انهارت اقتصادياتهم وعملاتهم بدت جنوب إفريقية غير متأثرة تأثراً ملفتاً، لكن الاحتياطات كانت منخفضة انخفاضاً خطيراً وبحلول أيار (مايو) 1998، وجد المتكهنون فرصة في المقامرة ضد العملة؛ خلال شهرين خسر الرند ربع قيمته مقابل الدولار الأمريكي، فارضاً تخفيضات جديدة على الحكومة ومشكلات خطيرة على الشركات التي أفرطت في القروض من الخارج. لا يمكن إلقاء اللوم في الانهيار على سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي بالدرجة الرئيسية: «إن خنق الرند هو عمل كلاسيكي في التنمر»، هذا ما علقت به الفاينانشال تايمز. «والخطيئة الرئيسية للضحية هي ضعفها» [12] لكن ضعف الثقة بخصوص العملة ازداد عندما أعلن ثابو مبيكي في تموز (يوليو) 1998 أن حاكم مصرف الاحتياط، كريس ستالز، سيخلفه خلال عام تيتو مبوويني، وزير العمل، الذي كان في السابق في نقابات العمال، الذي

هو صديق قديم لمبيكي. شعر رجال الأعمال البيض بالقلق من أن مصرف الاحتياط سيتم تسييسه وسيصبح عرضة للفساد ـ على الرغم من أن المصرف قد تم التحقيق فيه لدعمه المصارف التي يملكها الأفريقانيون والتي هي قريبة من الـBroeder bond، وكان مبوويني معروفاً باستقلاله الشديد. في الحقيقة تبع الإعلان بعض التجميع للدعم الدولي.[13]

دفع الاقتصاد الجنوب إفريقي ثمناً غالياً بسبب انعدام الثقة المتزايد في جميع الأسواق المنبثقة، لكنه نجا من الكوارث الأسوأ التي سيطرت على الدول الآسيوية. كان باستطاعة مانديلا الادعاء في شباط (فبراير) 1999: «أن جنوب إفريقية لم تمر بتجربة ما مر به الآخرون، لأن لدينا سياسات نقدية ومالية سنوية موثوقة ومعززة».[14]

مع ذلك كان لدى الجنوب إفريقيين السود بعض الأسباب ليتحرروا من الوهم بخصوص الرأسمالية العالمية بعد أن فشلت خمس سنوات في توفير المزيد من الاستثمار أو فرص العمل الجديدة، في حين ازدادت البطالة أكثر فأكثر. ربما كانت النكسات متوقعة بأن تعطي تشجيعاً جديداً لحلفاء المؤتمر الوطني الإفريقي من الشيوعيين. كما حدث، في حزيران (يونيو) 1998، بينما كان الرند ينخفض، كان الحزب الشيوعي يعقد مؤتمره العاشر، حيث دعي مانديلا إلى مخاطبته. وقبل أن يتحدث، كان الناشطون في مزاج استفزازي، مهاجمين سياسة الحكومة الاقتصادية، GEAR، وكان المندوبون يغنون «نحن لا نريد GEAR». «تلك الأغنية تجعل ضيفنا غاضباً» بهذا حذر نائب أمين سر الحزب ثينجيوي متينتسو. ألقى مانديلا بالطبع كلمة غاضبة، ملوحاً بأصبعه في وجه المستمعين. قال: «أنا سأضمن أن الحكومة ستستمر بتطبيق ما نعتقد أنه جيد لبلدنا». وأنذر الشيوعيين بأنهم إذا تركوا هياكل المؤتمر الوطني الإفريقي - فيجب أن يكونوا مدركين لمضامين ذلك. أصيب المندوبون بالذهول؛ اشتكى متينتسو من أن كلمة مانديلا كانت «غير مفوض بها»، وكان يأمل بأن مانديلا

«لن يمزق مؤتمره مثلما مزقتم اجتماعات الحزب الشيوعي في عقد الأربعين». لكن هجوم مانديلا كان مؤيداً كلياً في اليوم التالي من قبل ثابو مبيكي، الذي حذر المندوبين بعدم الاستهانة به بوصفه «تبجح رجل مسن». لم يستمر الشيوعيون في هجومهم: إذ كانوا مترددين في الانفصام عن المؤتمر الوطني الإفريقي، ولا سيما أن عدة أعضاء في الحزب كانوا في الحكومة.[15] بعد كل التخويفات بشأن الحزب الشيوعي منذ عودة ولادته عام 1990، أدرك أعضاؤه أنهم يعتمدون على المؤتمر الوطني الإفريقي في اقتسام السلطة.

بقي هناك خطر واضح من أن السود المعدمين، الذين لم يجنوا أية فوائد موعودة للتحرير أو الاستثمار أو إيجاد فرص العمل، ربما يتحدّون في النهاية زعامة المؤتمر الوطني الإفريقي المعتدلة ببرنامج متطرف محاط بالدعاية ضد البيض، لكن الشبح القديم للشيوعية الثورية، الذي لاح فوق مانديلا خلال الحرب الباردة، بدا وهو يفقد سحره.

ليس السياسيون هم الذين ظهروا الآن بل المجرمون؛ وهم يشكلون أكبر تهديد لسلام جنوب إفريقية مانديلا، فالعناوين الرئيسية المخيفة أعلنت عن الجرائم، والاغتصاب، وسرقات البنوك، وخطف السيارات، ووُصفت جوهانسبورغ بأنها عاصمة الجريمة في العالم، مشكلة رادعاً متعاظماً للاستثمارات الخارجية. دمرت موجات الجريمة دولاً أخرى منبثقة من الحكم الاستبدادي مثل روسيا والبرازيل، حيث استغل المجرمون الحريات الجديدة، وانساق الجنود غير المعبئين والذين يحملون البنادق وليس أمامهم فرص عمل، انساقوا جميعاً إلى الجريمة. لكن جنوب إفريقية كانت ضعيفة ضعفاً فذاً. عندما أطلق سراح مانديلا عام 1990 أدرك الخطر سريعاً. حذر في شباط (فبراير) 1991: «إننا نشهد اليوم موجة جريمة ذات أبعاد مخيفة، ومن شأنها إذا استمرت وتصاعدت أن ترجع جنوب إفريقية إلى كومة من الدمار»[16] بعد عام 1994،

تحركت النقابات الدولية وشبكات المخدرات تحركاً منهجياً عبر حدود البلاد النافذة، مستغلة حكومة لطيفة، ومستخدمة النظام المالي المعقد لغسل أموالها.[17] لم يكن هناك شيء جديد عن الجريمة في جوهانسبورغ السوداء. وكانت المناطق التي عرفها مانديلا في عقدي الأربعين والخمسين مليئة بالعصابات المسلحة، والمغتصبين واللصوص. كانت سوويتو في عقد الخمسين تحمل أعلى معدل جريمة في العالم؛ فواحد من كل ثلاثين من السكان السود في أقليم جوهانسبورغ كان يتوقع أن يتم قتله(*)؛ لكن الشرطة كانت منشغلة باعتقال السود لانتهاكات ضد قوانين المرور أكثر من ضمان الإدانات الكثيرة للجرائم الخطيرة، ولم تكد وسائل الإعلام البيضاء تلاحظ الجرائم أو السرقات السوداء. لم تصبح الجريمة معلناً عنها بتوسع إلا بعد أن بدأت تؤثر بفعالية على السكان البيض. فعندما تجرأ المجرمون على دخول الضواحي، هوجم أو قتل العديد من المواطنين البيض البارزين ورجال الأعمال الأجانب. خطف السيارات، وسرقة المنازل نبهت سريعاً الجميع إلى الخطر، وكان لدى السياح ورجال الأعمال الزائرين قصص عن السرقات والسيارات المسروقة. وفي بعض المناطق الريفية كان هناك فيض من جرائم القتل المخيفة للمزارعين البيض: فقد قتل أربعمئة منهم خلال أربع سنوات.[18]

تم إبلاغ مانديلا ـ بصفته رئيس البلاد ـ سريعاً بمخاوف البيض بشأن الجريمة من قبل جيرانه في هوتون، لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان بطيئاً في معالجة المشكلة. شرح وزير العدل دولا عمر قائلاً: «كنا نفكر دوماً بالحقوق الإنسانية ـ فكرنا بالقانون والنظام بوصفهما كانا جزءاً من نظام التمييز

(*) لقد كتبت هذا في مقال عن الجريمة في مجلة درَمْ Drum في تشرين الأول (أكتوبر) 1951. وناقشت المشكلة في كتابي درَمْ سنة 1956. ولقد أظهر تقرير العلاقات العرقية في جنوب إفريقية سنة 1957 ـ 1958 أن عدد الإدانات بين الإفريقيين سنة 1956 بلغت خمس مجموع السكان الأفارقة، وأن 4,7٪ من هذه الإدانات هي إدانات بجرائم خطيرة.

العنصري»[19] كان مانديلا متردداً بشأن التدخل مع وزيره لشؤون الأمن سيدني موفامادي، لكنه عين عام 1997 صناعياً بارزاً هو مييركان لإعادة تنظيم موارد الشرطة. حذر (كان) من أن العملية ستكون بطيئة، «مثل مغازلة فيل»[20] بحلول أيلول (سبتمبر) 1998 اعتقد أن «الوضع توقف عن التدهور». وكان واثقاً من أن مستويات مقبولة للجريمة سيتم التوصل إليها خلال ثلاثة أو أربعة أعوام.[21] في الحقيقة كان الرقم الإجمالي للجرائم ينخفض انخفاضاً ملحوظاً وباستمرار منذ انتخاب حكومة مانديلا عام 1994، لكن عدد السرقات الخطيرة ازداد فيما بعد[*]. كانت المشكلة الرئيسية هي الشرطة بقدر ما كانت المجرمين: كان رجال الشرطة فاسدين وغير أكفاء، مدربين على ملاحقة الأعداء السياسيين عن طريق المخبرين والتعذيب أكثر من ملاحقة المجرمين بصبر. وكانوا موزعين توزيعاً سيئاً، ولم يكن يرى منهم في الشوارع إلا القليل، وكان يُدفع لهم القليل، وكانت معنوياتهم ضعيفة. خلال أربع سنوات منذ عام 1994 تم قتل 874 رجل شرطة، في حين أن ثلاثمئة منهم انتحروا. عندما زار السير بول كوندون، مفوض شرطة العاصمة في لندن جنوب إفريقية في تشرين الأول (أكتوبر) 1998 اعتقد أن: «معدل القتل والعنف المرتكبين ضد الشرطة لم يسبق له مثيل في العالم».[22] ترك ربع الشرطة الخدمة في أربع سنوات.[23]

لم تكن موجة الجريمة تشكل تحدياً للشرطة فحسب، بل أيضاً لسياسة مانديلا التحررية القائمة على حقوق الإنسان؛ وقد نتج عنها سريعاً نداء للعودة إلى عقوبة الموت. من الطرفين البيض والسود (بمن فيهم زوجته السابقة). ومانديلا الذي له ذكرياته الحادة الخاصة عن عقوبة الموت، كان ضدها كلياً، إذ رأى فيها «انعكاساً لغريزة الحيوان الباقية في البشر». وأصر على أن ما يردع المجرم، ليس عقوبة الموت، بل معرفته «أنني إذا ارتكبت عملاً خاطئاً فإنني سأنتهي إلى السجن». واعتقد أن الأقلية البيضاء لديها فكرة في داخل أذهانها «بأن عقوبة الموت سيتم استخدامها ضد السود، وليس ضد البيض في

الواقع». [24] رفض أي ضغط لإعادتها، إذ أكد في شباط (فبراير) 1999 قائلاً: «إن هذه الحكومة ليست على وشك الاشتراك مع الجوقة التي تصرخ مطالبة بعقوبة الموت أو بنقض مكاسبنا في مجال حقوق الإنسان». [25]

بينما استمرت موجة الجريمة، تم النظر إليها بوصفها السبب الرئيسي للهجرة المتزايدة للبيض من جنوب إفريقية، وبيَّن استقصاء للرأي عام 1998 أن 96٪ من المهاجرين قالوا إن الجريمة هي سبب مغادرتهم، في حين أظهر استفتاء لاحق أن 74٪ من البيض المحنكين قالوا إنهم على استعداد لترك جنوب إفريقية بسبب الجريمة. [26] كان من الصعب جداً تحديد عدد المهاجرين لأن الكثيرين غادروا البلاد سياحاً، لكنهم لم يعودوا. وحسب الأرقام الرسمية في مكتب الإحصاء، فإن حوالي عشرة آلاف فقط تركوا جنوب إفريقية عام 1997؛ لكن الرقم الحقيقي كان أكبر بالتأكيد، وقد شمل الأطباء، والمحاسبين، وخبراء الحاسوب، الذين كانت هناك حاجة ماسة لمهاراتهم. [27]

رد مانديلا الذي كان يحث البيض دوماً على البقاء، رد بغضب على شكاوى المهاجرين المحتملين؛ في أيلول (سبتمبر) 1998 ألقى كلمة في موريشيوس موحياً أن أولئك الذين غادروا هم جبناء: «لقد تم فرز الجنوب إفريقيين الحقيقيين»؛ وادعى أن «الخوف بشأن الجريمة إنما هو هاجس البيض بالدرجة الأولى، حيث أثارته الصحافة التي يملكها البيض» [28] وافق بعض الإفريقيين البارزين على أن المهاجرين البيض أظهروا فقداناً للوطنية: «إذا كان خيارهم الأول عندما ووجهوا بوضع صعب هو مغادرة البلاد» قال ميرفي مورروبي: «فماذا يعني لنا ذلك بشأن التضحية التي قمنا بها؟» [29] لكن الكثيرين من البيض كانوا ساخطين: اتهم طوني ليون من الحزب الديموقراطي مانديلا بأنه مسبب للخلاف والشقاق عرقياً، وطلب منه أن (يسحب كلامه). وشرحت أرملة الروائي الليبرالي آلان باتون التي كانت تعاني من سرقات مخيفة، شرحت سبب عودتها إلى إنكلترة في مقالة في الصنداي تايمز اللندنية بعنوان «اترك البلد

المحبوب»: «لقد أشار الرئيس مانديلا إلينا نحن الذين نغادر بوصفنا «جبناء»، وقال إن البلد يمكنها العيش بلا وجودنا. فليكن. . . إننا نغادر لأن الجريمة تهتاج عبر البلاد». لكن ديڤيد بن باتون ناقض علناً ما قالته زوجة أبيه حول الصورة القذرة المضللة»، وألقى اللوم على حكومة التمييز العنصري.[30] بقي مانديلا فاقداً للصبر إزاء هاجس الجريمة في الصحف المحلية للجناح اليميني. قال في كانون الثاني (يناير) 1999: «الفكرة هي تخويف المستثمرين حتى لا يأتوا، إن هذا شيء متعمد مطلقاً».[31]

مما لا شك فيه أن احتجاجات البيض حول الجريمة أوصلت جميع الخلافات بين العروق إلى السطح: فهم لا يكادون يلمحون إلى السود الذين كانوا الأغلبية الساحقة للضحايا؛ وبعض الشكاوى بدت وكأنها تكرار لقصص الرعب لسني التمييز العنصري عن الحشود السوداء التي تسحق معاقل الحضارة البيضاء. وبالنسبة إلى مانديلا كما بالنسبة إلى الأغلبية الإفريقية، فإن مشكلة موجة الجريمة كانت متشابكة مع المشكلة الأساسية في عملية تحويل البلاد، وتعزيز الشرطة، والقوة الدفاعية، مع التزام مشترك وشعور بالوطنية، مما يعطي قيمة متساوية لحياة السود والبيض.

كان الأمن الأساسي للبلاد ما زال يعتمد على القوات المسلحة. بقي مانديلا قلقاً حول مدى إخلاص بعض الأفريقانيين في الجيش. أظهرت السرقات الخطيرة للأسلحة والمعدات في المستودعات العسكرية أنها أعمال من الداخل؛ كما أن موجة منظمة تنظيماً جيداً لسرقات البنوك والـ hiests زادت الشكوك بأن الجيش متورط في ذلك، مع بعض الفدائيين السابقين من الـ MK. قال لي مانديلا مطلع عام 1998: «لسنا ناجين من الخطر، لأن بعض الجنرالات الذين قادوا الجيش يقفون وراء النقابات الإجرامية».[32] بعد شهرين حذر ثابو مبيكي بأن هناك «أعداء للتغيير ما زالوا بيننا. . . بعض التنظيمات التي أقامتها الحكومة السابقة لتدمير الحركة بقيت سليمة دون أذى».[33] لم يستطع مانديلا

إعطاء وسائل الإعلام الدليل على تلك الادعاءات. لكن قصة غريبة كانت تتكشف من وراء الستار.

في 5 شباط (فبراير) 1998 تسلم مانديلا تقريراً استخبارياً من قبل الجنرال ميرينغ، قائد الدفاع، متجاوزاً وزير الدفاع جوي موديس. أوصى التقرير بأن الضباط السود الكبار كانوا غير مؤهلين للقيادة، بمن فيهم سايفو نياندا، المقاتل السابق من الـ MK الذي كان من المتوقع أن يخلف ميرينغ في السنة التالية؛ ووصف كيف أن مجموعة من الزعماء السود بمن فيهم بانتو هولوميزا وويني مانديلا كانوا يتآمرون مع روبيرت ماكبرايد، المخرب السابق الذي حكم عليه بالموت في عهد حكومة التمييز العنصري، لكن تم توظيفه منذ ذلك الوقت في وزارة الدفاع. ادعى التقرير أن المتآمرين كانوا يخططون لتشجيع الفوضى من أجل الاستيلاء على السلطة بعد الانتخابات التالية عام 1999. كان مانديلا مرتاباً جداً بخصوص التقرير، ولا سيما أنه أشار إلى جنود سود من حركة التحرير، وارتاب بأنه تضليل من الضباط القدماء الذين كانوا يدافعون عن الوضع الراهن.[34] لكنه انتظر فرصة ملائمة.

بعد ذلك بستة أسابيع تم اعتقال روبيرت ماكبرايد في موزامبيق واتهم بتهريب الأسلحة والذخائر: ادعت صفحة الاتهام أنه كان متورطاً بتزويد المتآمرين بمن فيهم ويني مانديدلا، بالقنابل والمسدسات والبنادق، قبل ذلك بثمانية عشر شهراً.[35] رفضت الحكومة التعليق في البداية، معلنة أنها لن تغذي «أصحاب النوايا السيئة والمسيئين». حقيقة اعتقد مانديلا في البداية أن اعتقال ماكبرايد يعطي مصداقية لتقرير ميرينغ، ثم بدأ يشك بأن ماكبرايد قد لفقت تهمة ضده.[36]

ثم في 27 آذار (مارس)، كشف مانديلا أنه كان قد تلقى التقرير قبل سبعة أسابيع، وأن التقرير يدور حول «نشاطات منظمة بهدف الإطاحة بالحكومة». طلب من ثلاثة قضاة، وعلى رأسهم رئيس المحكمة إسماعيل محمد، التحقيق حول كيفية إعداد التقرير والتثبت من صحته. قرر القضاة بعد استجواب ميرينغ

وآخرين، أن التقرير «كان بلا أساس من الصحة»، وأنه كان قائماً على مصدر وحيد غير موثوق؛ جاسوس تم اعتقاله مع ماكبرايد، وأنه لم يتم اختبار صحته أبداً.[37] طلب الجنرال ميرينغ إحالته مبكراً إلى التقاعد، حيث وافق مانديلا على أن ذلك «مناسب ومشرّف»، وبعد ذلك بوقت قصير، عين مانديلا الجنرال نياندا خليفة له.

اعتقد بعض الزملاء في المؤتمر الوطني الإفريقي، ممن لم يثقوا بتاتاً بميرينغ، اعتقدوا أنه كان على مانديلا التحرك ضده في وقت أبكر بكثير. لكن مانديلا عالج هذه الأزمة بدهاء وعلى نحو مميز. فبتركه القرار للقانون تجنب صداماً سياسياً مباشراً مع الحرس القديم الأفريقاني، وعن طريق تشويه سمعتهم فإنه سهّل مجيء القادة السود بدلاً منهم. كان انتقالاً جديراً بالإعجاب؛ قبل ثماني سنوات، كان نياندا مسؤولاً عن القوة العسكرية السرية، عملية فيولا؛ وهو الآن يرأس جميع القوات الدفاعية لجنوب إفريقية.

بقيت هناك تهديدات عسكرية خطيرة قائمة من دوائر أخرى. القتل السياسي انخفض بشدة ـ من 3794 في قمة عام 1993 إلى 470 عام 1997.[38] لكن كانت هناك تحالفات مشؤومة بين المجرمين، والسياسيين والمجموعات الدينية، وظل مانديلا يشك بأن قوة ثالثة متبقية كانت تعمل في بعض المناطق مزعزعة استقرار البلاد عن طريق تسليح القادة العسكريين المحليين، وبالتعاون مع مجموعات إجرامية تستطيع تمويلها. خلال عام 1998 أصبحت البلدة الريفية لريتشموند في كوازولو ـ ناتال، التي كان لها تاريخ طويل في النزاعات الحزبية، أصبحت ميدان معركة بين القادة العسكريين المتنافسين؛ وانفجر الاضطراب مجدداً في كانون الثاني (يناير) 1999. عندما أطلقت النار على القائد العسكري الرديء السمعة سيفيسو نكابنده في وسط النهار، وتبع ذلك سريعاً قتل أحد عشر شخصاً انتقاماً لمقتله. كان نكابنده أمين سر حزب بانتو هولوميزا ـ الحركة الديموقراطية الموحدة ـ وألقي اللوم في اغتياله على المؤتمر الوطني الإفريقي،

الذي كان ينتمي إليه سابقاً، لكن مانديلا ارتاب بأن «القوة الثالثة» كانت مهندسة القتل لزعزعة استقرار الإقليم. وأثار المزيد من جرائم قتل زعماء الحركة الديموقراطية الموحدة والمؤتمر الوطني الإفريقي الكاتب الغربي في آذار (مارس) عام 1999 أثار شكوكاً مماثلة.[39] من المؤكد أن تشجيع عنف «الأسود على الأسود» في ظل الحكومة السابقة أوجد تحالفات مهلكة بين المجرمين والسياسيين كان من الصعب طمسها.

كانت جنوب إفريقية ما تزال بعيدة عن أن تكون في حالة سلام، بالمقارنة مع معظم الدول الأوروبية أو الأمريكية الشمالية. لكن بالمقارنة مع تكهنات حمامات الدم قبل خمس سنوات، كما يتذكر مانديلا في معظم الأحيان، فإن الانتقال من حكم الأقلية إلى حكم الأغلبية كان غير مؤلم نسبياً.

بعد كل مجادلاته الحادة، ما زال بإمكان مانديلا الارتقاء فوق سياسات الحزب، بوصفه أباً لديموقراطية بلاده. في 29 آذار (مارس) 1999، ألقى كلمته الوداعية أمام المجلس النيابي، قبل أن ينفض استعداداً للانتخابات في 2 حزيران (يونيو). صوّر نفسه واحداً من الجيل «الذي كان تحقيق الديموقراطية بالنسبة إليه هو التحدي الواضح»، وتذكر كيف أن الجنوب إفريقيين «اختاروا أخيراً طريقاً شرعياً عميقاً لثورتهم». وانتهى إلى القول: «المسيرة الطويلة مستمرة».[40] امتدحه ثابو مبيكي بوصفه «أقرب وألمع نجم ليهدينا في طريقنا».

لكن مناوئي مانديلا تسابقوا أيضاً للثناء عليه. دعاه مارتينوس ڤان شولكويك خليفة دوكليرك زعيماً للحزب الوطني، دعاه بأنه «رئيس كل شخص»، ووعد بأن يكون الوطنيون شركاء في بناء الدولة الجديدة. قال كونستاند فيلجيون من جبهة الحرية إن «مانديلا تصرف دوماً بمثابة قائد بالنسبة إليّ». رأى طوني ليون من الحزب الديموقراطي وهو أكبر منتقدي مانديلا فظاظة، رأى فيه زعيماً مثل غاندي أو الدالاي لاما: «مولود بنوع خاص من السمو، حيث بدا أنه فوق سياسات زمنه».

41

الصورة والحقيقة

كم هو مستمر وعميق إنجاز مانديلا، وراء صورته المتألقة؟ لا يمكن لكاتب سيرة معاصر أن يأمل بتقديم حكم تاريخي نهائي: باستطاعته فقط محاولة استغلال معظم المصادر المتوفرة، وتصوير موضوعه مقابل خلفية زمنه بالذات. من السهل المبالغة بتقدير أهمية بطل حي ذي جاذبية عالمية، على مسرح يمكن لأضوائه البراقة أن تتلاشى سريعاً بعد ذلك. شهدت إفريقية العديد من المخلّصين الذين عاشوا فترات قصيرة، والذين تمت الإطاحة بهم فيما بعد من قبل قواعدهم بالذات، في حين أن مكانة مانديلا من الأصعب تقييمها عندما يشعر العالم بحاجة ماسة إلى رجال عظام يعجب بهم.

مانديلا، مثل معظم الزعماء العظام، كان دوماً سيد الصور الذي يعرف كيف يعرض نفسه، سواء عضواً في حملة تحدي، أو «عشبة سوداء» [ذات أزهار قرمزية أو أرجوانية أو بيضاء تنطبق حين تسوء الأحوال الجوية]، أو زعيم فدائيين. ومناسباته العظيمة، مثل كلمته المطولة في محاكمة ريفونية أو تدشينه رئيساً ـ كانت شبيهة بالأوبرا إلى حد كبير. ووراء الستار كان يدين بالكثير لزملاء متواضعين؛ تحرير شعبه، كما أشار هو نفسه، تحقق بينما كان في السجن. إذاً إلى أي مدى ترتبط الصورة بحقيقة زعامة مانديلا؟

من المؤكد أن عليه تأسيس أسطورته بالذات جزءاً من تحديه لنظام حكم

عرقي؛ إذ كان يواجه أساطير قوية ـ عن مركب النقص عند السود، والقدرة التي لا تقهر للبيض. وعدم الانسجام بين العروق ـ كان عليه تقديم الثقة لشعب كتب عليه الاستسلام، وتجسيد الكرامة الإفريقية واحترام الذات. وقد فعل ذلك وهو يرتدي البناش [حزمة زينية من ريش إلخ . . . تكون على خوذة]؛ عندما واجه محكمة بيضاء بكاملها، ودعمه بكل أبهة القانون، لقد ارتدى عمداً اللباس القبلي: «أحمل على ظهري تاريخ وثقافة وتراث شعبي»[1].

بهذا النوع من الاستعراض المسرحي بدا مانديلا في البداية وهو يتبع أسلوب الزعماء الوطنيين الإفريقيين الآخرين لما بعد الحرب مثل كوامي نكروما أو جومو كينياتا، الذين وضعوا في السجن قبل استلامهم السلطة ببريق التألق والفخر، وقدموا أنفسهم بوصفهم المخلّصين أو الآباء لشعبهم. كان عقد الخمسين هو سنوات التفاؤل المتهور والأوهام، قبل أن يتوجب على إفريقية مواجهة الحقائق الصعبة في الحكومة والاقتصاديات؛ وكان العديد من المراقبين الأجانب وكذلك الجنوب إفريقيين السود كانوا قد توقعوا انهيار حكومة التمييز العنصري سريعاً في وجه التنديد الأخلاقي والتراجع السائد للامبراطوريات الأوربية.

لزم مانديلا، مثل زملائه، بعض الوقت لإدراك أنه يواجه نضالاً اختبارياً أكبر بكثير من سابقيه، ومناوئين أشد قسوة من المستعمرين البريطانيين إلى الشمال. لم يكن مضطهدوه الأفريقانيون منفيين مؤقتين، بل مالكي أرض راسخين أنشؤوا بنياناً عسكرياً واقتصادياً قوياً، بدعم من الـ Cold Worriors الغربيين، وكانوا مصممين على اقتلاع المعارضة السوداء. وبإدراك متأخر لم يكن مانديلا قائداً عسكرياً واقعياً جداً؛ فقد قلل من أهمية قوة عدوه تقليلاً خطيراً، كما أوضحت كتاباته السياسية، وارتكب أخطاء غير مدروسة أدت إلى اعتقاله بالذات. لكن قلة براعته كانت جزءاً من التفاؤل الزائف لذلك الزمن.

حكم بعض الناقدين الحديثين على شخصية مانديلا في البداية بقسوة أكبر. فقد اتهمه المعلق التلفازي البريطاني برايان والدن، اتهمه عام 1998 بأنه انخدع في البداية بالشيوعيين الذين أقام تحالفاً شخصياً معهم، ثم شرع بحملة عسكرية «غير بارعة وعقيمة لدرجة لا تصدق»، وقاد «أكثر جيوش الفدائيين انعداماً في الفائدة والكفاءة في العالم». قال والدن إن مانديلا كانت تنقصه قسوة الزعيم العظيم مثل تشرشل، وأن التمييز العنصري تم إسقاطه في النهاية ليس من قبل المؤتمر الوطني الإفريقي، بل من قِبَل ملوك المال الأفريقانيين الذين أدركوا أنه مسيء بالنسبة لمجالات الأعمال.[2]

هذا الانتقاد لا يستند إلى دليل تاريخي. فمانديلا، مثل معظم السياسيين الدهاة، كان دوماً عملياً أكثر من مظهره. احتاج إلى الشيوعيين في وقت ما عندما كانوا الحلفاء الوحيدين المتوفرين، وعندما ابتعد الليبراليون البيض والحكومات الغربية ـ خوفاً ـ عن المؤتمر الوطني الإفريقي. كانت الرسائل السرية للديبلوماسيين البريطانيين تظهر كيف كان أعضاء المؤتمر يتم إفزاعهم وخداعهم من قبل حكومات التمييز العنصري لمشاركتها في حملتها ضد الشيوعيين، في حين أن مانديلا استخدم في النهاية الشيوعيين كما تكهن أكثر مما استخدموه.

لم يستطع مانديلا أن يجنب نفسه الالتزام بالكفاح المسلح من غير أن يفقد دعم السود، عندما كان كل طريق للاحتجاج مغلقاً إغلاقاً تاماً. لكنه لم يؤمن أبداً أنه يمكن للاحتجاج فقط أن يحرر جنوب إفريقية. عرف أن حملة عسكرية لا ترحم حقاً من الإرهاب المديني يمكن لها أن تدمر بلاده كما كادت تدمر الجزائر؛ وعندما رأى ـ من سجنه ـ جنوب إفريقية وهي تواجه الفوضى. فكر بالتفاوض؛ في حين تطلع إلى الضغط الدولي والعقوبات للإطاحة بالتمييز العنصري، وهذا ما حصل. إن الاعتقاد بأن السياسيين ورجال الأعمال البيض

سيضعون حداً للتمييز العنصري بلا تهديد بالعنف لا تثبته الحقائق. فبسبب العنف فقط - كما أدرك أوليڤر تامبو - أصبح رجال الأعمال قلقون جداً: «والدعاية المسلحة» المحدودة جداً التي تدعمها العقوبات، كانت فعالة بلا مواجهة مسلحة كبيرة. وقاوم مانديلا طلب المناضلين الاستيلاء على السلطة. فانعدام القسوة العسكرية لديه كان مفتاح الانتقال إلى الديموقراطية بلا حمام دم.

من المؤكد أن مانديلا كانت له وجهة نظر مبالغة في التفاؤل بخصوص الكفاح قبل أن يذهب إلى السجن عام 1962؛ لكن محنته في السجن حولته إلى نوع الزعيم الأكثر تأملاً وتأثيراً، كما حاول إظهاره هذا الكتاب. كان منقطعاً عن جماهير المستمعين، والصور العامة، والتلفاز وأجهزة التصوير، حيث اقتصر على زعامة رجل - إلى رجل، وإلى الأساسيات في العلاقات البشرية، بعيداً عن مكائد السلطة. تعلم عن الحساسيات الإنسانية وكيفية معالجة المخاوف وفقدان الأمان عند الآخرين، بما في ذلك سجانوه الأفريقانيون. كان قد أصبح ذا حساسية نتيجة شعوره الخاص بالذنب، بخصوص أسرته وأصدقائه الذين استخدمهم خلال مسيرته السياسية، لكنه كان يكسب ثقة أعمق، ويشعر أنه «أنا سيد مصيري» مثل بطل كلاسيكي. وعلى العكس من معظم السياسيين، في أواسط مهنتهم، كان لديه الوقت الكافي ليصبح مفكراً ومتسائلاً بدرجة أكبر، حيث كان يقرأ السير الذاتية والتاريخ. وقد عمّق اهتمامه بالقانون، حيث أدرك - رغم أن القانون هو الذي وضعه في السجن - أنه يوفر الأساس الوحيد لتسوية دائمة؛ القانون وليس الحرب هو أساس آماله بالنسبة إلى مستقبل بلاده.

أظهرت مقالات وكتابات مانديلا غير المنشورة من السجن - في حين كان يراقب المسرح الجنوب إفريقي كمتفرج - أظهرت عمقاً ثقافياً وأصالة أكثر بكثير من رواسمه (كليشيهاته) السابقة المعادية للاستعمار؛ وكان ملحاً في الحصول

على الحقيقة مهما كان ذلك لا يدعو إلى الراحة. ظل يتفهم أهمية صورته بالذات عندما كتب سيرة حياته في السجن ـ آملاً في أن تلهم الآخرين ـ على الرغم من أنها منعت من قبل زملائه في الخارج. رأى صورته الأيقونية بالذات وهي تتعزز في شتى أنحاء العالم، بعيداً عن نفسه. لكنه لم ينخدع بها، وكان مدركاً جداً لمخاطر عبادة الشخصية التي أضلت دولاً إفريقية أخرى. تحدث بدرجة أقل عن «أنا» وبدرجة أكبر عن «نحن»، «وكان مصمماً على أن يُنظر إليه كإنسان عادي». [3]

إن ثبات ومرونة سجناء روبن آيلاند كانتا إنجازاً عاماً. وربما لم يكن مانديلا ليحصل على قوته بلا زملائه. فقد عزز أصدقاؤه المقربون أمثال وولتر سيسولو وأحمد كاثرادا عززوا شجاعته والتزامه بالمصالحة والصفح. لكن زعامته الشخصية كانت الحاسمة في النهاية. عندما اتخذ أخطر قراراته ـ اقتراح المحادثات مع الحكومة ـ اتخذه لوحده. وربما كان جوي سلوفو محقاً في الحكم عندما قال: «بلا مانديلا فإن تاريخ جنوب إفريقية كان سيتخذ منحى آخر». [4] لقد ظهر ميله للاسترضاء من تطوره الشخصي؛ فقد تعلم كيف يسيطر على عدوانيته، وأن يفكر «بعقله وليس بدمه»، وأن يسوق طاقته نحو هدف نصر عن طريق التفاوض. أصبح سياسياً هائلاً بدرجة أكبر عن طريق إخضاع عواطفه ومشاعره لهدفه المركزي؛ حتى إن زميله المقرب كاثرادا وجد أنه غير ممكن الوصول إلى داخله، لقد أصبح «فولاذياً وقاسياً»، كما لاحظ ماك ماهاراج، وكانت قسوته الضمنية أساسية لنجاح المفاوضات التي تلت.

لكن مانديلا الذي برز خارج السجن فاجأ معظم الناس الذين عرفوه في السابق (وأنا من بينهم)، ليس بدهائه السياسي بقدر ما هو بإنسانيته وبساطته. كان قد فقد غطرسته وموقفه الدفاعي عندما أصبح أكثر ثقة بإمكاناته، وبدا مرتاحاً مع نفسه، مع دفء وروح مرحة أعطياه ألفة فورية مع جميع أنواع الناس

ـ وبخاصة الأطفال ـ حيث كانت إلفته أكثر جاذبية بالتناقض مع الصور الفوق بشرية التي كانت له في العالم الخارجي. كان يُظهر أحياناً ما يقارب براءة الطفولة عندما كان يصر على التحدث بما في ذهنه. لم يظهر أية علائم للعيوب المألوفة للسلطة: الغرور، التباهي، جنون الارتياب، التي أصابت العديد من الزعماء في العالم النامي. جاءت أخطاؤه من الاتجاه المعاكس؛ من كونه يثق جداً بالآخرين، ويرى الأفضل في كل شخص، مهما كان لا يستحق ذلك. لكن كان بمقدوره أيضاً استخراج الأفضل من أشخاص لا يتوقع منهم ذلك، وقدرته على تحويل أعدائه السابقين برهنت على أنها أساسية في سياسته في المصالحة.

كان مانديلا يحب تذكيري بقوله: «أنا لست ملاكاً». ووراء تصرفاته في الصفح والشهامة، بقي سياسياً حتى رؤوس أصابعه. إذ ما زال لديه شعور رائع بالاستعراض والتوقيت، وكان بإمكانه الظهور بمظهر الزعيم ما بعد العصري المطلق، سيد التخيلات والآراء، وكان يظهر بقميص رياضي من نوع Spring bolk في ملعب الروكبي، أو أنه يتفوق على دوكليرك بالإمساك بيده في نهاية نقاش تلفازي. لقد عرف بالغريزة كيف يجد متسعاً، أو يتملق صحفياً؛ كان سيد انتهاز فرصة التصوير، والصوت المؤثر، والمصافحة الحميمة، والابتسامة الجذلة. كان يمزج السياسة بعالم الفن بحماسة كبيرة، مثلما فضل فتيات التوابل أو مايكل جاكسون على رئيس دولة زائر.

لكن كانت له سلطة أخلاقية، واهتمام بالحقيقة، لم ينافسه فيهما إلا القلائل، وهو صخرة استمرارية في عالم غير مستمر. خلال عقوده الثلاثة في السجن، بقي صادقاً مع مبادئه ومعتقداته في وجه كل الضغوط والمغريات. في وقت كان فيه السياسيون في معظم الدول يصبحون أكثر انتهازية وقابلية للتغيير، وكان الأبطال والقضايا العظيمة يتلاشون في التاريخ. كان على حق في قضية

واحدة كبيرة عندما كان الكثيرون على خطأ. كان لثباته أو إصراره جانب سلبي: إذ ربما كان عنيداً جداً في الاعتقاد أنه على حق بخصوص كل شيء، في حين كان مخلصاً أحياناً لحلفاء مشكوك بهم، وهؤلاء سببوا له الكثير من الانتقاد. لكن وفاءه لمبادئه الخاصة وأصدقائه أعطاه ميزة على زعماء العالم الآخرين ممن نسوا ما كانوا يناضلون من أجله.

لم يكن مانديلا عصرياً جداً بقدر ما كان يعيش فيما قبل عصره. فهو ينتمي إلى التقليد القبلي الأكثر قدماً حيث تربى فيه، تقليد الزعيم الذي يمثل شعبه، ويمكنه الوصول إليه. ما زال يتذكر الفتى مانديلا الجالس عند قدمي وصيه الحاكم، حيث كان يراقبه وهو يسمع الانتقادات الحادة لرجال قبيلته، ويسوي نزاعاتهم بكياسة دقيقة، جاعلاً الجميع يشعرون أنهم جزء من المجتمع ذاته. بقيت أصوله الريفية مقوماً حكماً في تكوين شخصيته: كان من الملاحظ أنه كتب أفضل ما كتب عن منطقته الأم. وما زال يرى نفسه بوصفه «الفتى الريفي» الذي لديه شعور بانتمائه بالذات و ubuntu، وبقيمه الريفية الخاصة؛ ليس من المصادفة أن تنتهي حياته كما كانت قد بدأت في قريته كونو القبلية. لكن مانديلا لم يكن فتى ريفياً عادياً: بقي ابن زعيم. وأسلوبه الأميري ربما يتماشى مع الجنوب إفريقيين البيض كما هو مع السود. كما أنه ساعد في تطمين الملكة في بريطانية. كان بإمكانه التذكير بعصر سابق عندما كان الملوك يتطابقون مع شعوبهم ولم يكن هناك تمييز بين شخصيتَيْ الملك الحقيقية والخيالية. كان لغرائز مانديلا الملكية بعض السلبيات في إدارة دولة صناعية معقدة تحدق بها مشكلات اقتصادية، وبحاجة ماسة لإدارة حديثة. كان صريحاً إلى درجة رهيبة بشأن أخطاء حكومته، لكنه بدا في غير عجلة لإصلاحها. وفي ابتعاده عن البيروقراطيات وتعقيدات الديبلوماسية وعن الاقتصاديين والمديرين، بدا مانديلا أحياناً وهو ينتمي إلى القرن التاسع عشر أكثر من انتمائه إلى القرن

الواحد والعشرين. لكن شعوره بالزعامة تجاوز القرون، ومثّل بلداً يتطلع نحو المستقبل.

في الحقيقة، ولمعظم فترة رئاسته كما قال في معظم الأحيان، فإن مانديلا رأى نفسه بمثابة رئيس دولة شعائري أكثر من رئيس تنفيذي. كان أقرب إلى الملك الدستوري، مقدماً نفسه بشعور قوي بالواجب تجاه مبادىء ديموقراطية الحزب عبر الوزارة أو الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي. لم يكن مطيعاً دائماً، وكان يتدخل في معظم الأحيان، مثل الملكة ڤيكتوريا أكثر من أن يكون مثل الملكة إليزابيث الثانية؛ وكان ممزقاً في أحوال كثيرة بين كونه الديموقراطي والأوتوقراطي. لكنه كان ملتزماً كلياً بالديموقراطية، وكان مصمماً ـ على العكس من معظم الزعماء الإفريقيين ـ كان مصمماً على تعيين خلف مُنتخب ديموقراطياً؛ وكما شرح، فقد سمح لنائبه ثابو مبيكي بأن يتم اختياره من قبل زعماء الحزب وحلفائهم، من غير أن يكشف عما يفضله هو؛ وكان مبيكي بالنتيجة يدير البلاد خلال معظم رئاسة مانديلا. وبخصوص بعض القضايا الخطيرة، ولا سيما حول الجريمة والفساد، انتُقد مانديلا بشدة لعدم تدخله تدخلاً حاسماً أكثر. لكن كان هناك تناقض مبيت بين الأدوار المتوقعة منه: استخدام سلطته الشخصية إلى الحد الأقصى، ولكن أيضاً تأسيس تقليد ديموقراطي لا يستطيع أي زعيم بمفرده أن يسيطر عليه.

بوصفه رئيس دولة رأى أولوية واضحة: دمج الشعب الجديد، وجعله يتماسك بعضه مع بعض، وتحويله إلى ديموقراطية متعددة العروق يعيش فيها جميع المواطنين في سلام. ولقد عرف أنه بلا ذلك السلام فإن آلية الحكومة والاقتصاد ستكون عديمة الفائدة؛ وقد قدمت الحروب الأهلية الرهيبة التي كانت تندلع مجدداً في دول مجاورة مثل أنغولا والكونغو، قدمت إنذارات مخيفة. كان مناسباً مناسبة فذة لمهمة بناء ـ الشعب بعد رحلته غير العادية عبر بلاده.

كان بإمكانه الوصول شخصياً إلى مجتمعات مختلفة جداً، كان قد تحرك عبرها خلال عقوده الثمانية من العمر: إلى رجال القبائل الريفيين، وعمال المناجم، وسكان المدن المخادعين والوطنيين الإفريقيين ومقاتلي الحرية والرفاق والهنود والبيض، والسجانين الأفريقانيين. ورجال الأعمال الدوليين أو رؤساء الدول.

تعلم مانديلا الطريق الصعب بخصوص مصاعب المصالحات وشهد كيف أن البلاد تجنبت ـ بشق النفس ـ حمام دم. لم يؤمن ـ مثل الكثيرين من المثاليين اليساريين ـ بأن الناس من عروق مختلفة سيتخلون فوراً عن ولاءاتهم الطائفية ليصبحوا أعضاء في مجتمع عديم اللون وغير عرقي. لكنه تقدم من وطنيته الإفريقية البحتة السابقة ليعمل عن كثب مع زملاء بيض وهنود ـ وليثق بهم كلياً؛ وكان قد رأى في السجن كيف يمكن للأفريقانيين أن يتغيروا بنسبة 180 درجة كما شرح، وكيف أن الأشخاص ذاتهم الذين لم يكونوا يتحملون لمس بشرة سوداء، كيف كان يمكن تطمينهم بمصافحة اليد؛ ومع كل هذه التجربة الشخصية كان قادراً مقدرة فذة على إقامة «وزارة قوس قزح» التي كانت واحدة من بين القلائل من الحكومات المتعددة العروق، المتأصلة في العالم؛ في حين لم يعط أي تلميح عن أفضلياته العرقية الخاصة.

أصبحت قصة حياة مانديلا مركزية بالنسبة إلى قصة شعبه. لقد ترعرع مع قصص إذلال قبيلته بالذات، قبل أن تتأسس دولة جنوب إفريقية قبل ثماني سنوات من مولده ـ وهي الاتحاد بين الناطقين بالأفريقانية والإنكليزية ـ حيث تم إيجاد ديموقراطية استبعد منها الإفريقيون. لقد عاش خلال ظهور وسقوط التمييز العنصري، ورأى كيف أن ذلك التمييز سيطر على مواقف الناس وحياتهم. وفي رئاسته، شهد إصرار المواقف التمييزية العنصرية، وعرف كم بقي من معاقل العرقية في الجيش، وفي مجالات الأعمال، وفي وسائل

الإعلام. لكن تجربته أقنعته أن المصالحة يمكن تحقيقها. كان يعيد تأسيس شعب، ويمهره بفكرة التسامح العرقي والتعاون مثلما مهره سابقوه بعدم التسامح والعزل العرقي.

بقي مانديلا سيد الصور الرمزية، لكنها أصبحت جزءاً من شخصيته وتاريخه بالذات، وهي تكسب المزيد من الإعجاب العالمي في الوقت الذي تقاعد فيه عن السياسة ليصبح رجلاً مسناً عادياً. لقد نجا من أخطر تحد لسمعته عندما غادر السجن، ليتلاءم مع صورته الأيقونية العالمية الجارفة؛ وقد فضل ذلك بتقديم نفسه إنساناً لا معصوماً. تقترب سيرة حياته في النهاية من أسطورته؛ وكانت استقامته الأساسية ـ أكثر من أسطورة ما فوق البشر ـ هي التي أعطت قصته الإعجاب عبر العالم بأكمله.

الهوامش

الفصل 1

الفتى الريفي 1918 ـ 1934

1 . آر.أس. كونكو رسالة إلى مانديلا 27/ 7/ 1987.
2 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل، 1994.
3 . مابيل مانديلا، مقابلة مع جو مينيل وأنغوس جيبسون، مانديلا(فيلم)، 1994.
4 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
5 . مابيل مانديلا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم). فاطمة مير، أعلى من الأمل ص4.
6 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 8/ 8/ 1997.
7 . مانديلا، مذكرات السجن (لم تنشر).
8 . مابيل مانديلا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
9 . مذكرات السجن.
10 . مير، المصدر نفسه، ص7.
11 . مابيل مانديلا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم)، هيدي هولاند، الصراع: تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي ص13 ـ 114.
12 . مابيل مانديلا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
13 . مذكرات السجن.
14 . كليف مينيل، مذكرات (غير منشور).
15 . الأسقف ديزموند توتو (الناشر جون آلان) شعب القوس قزح الرباني ص122.
16 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 8/ 8/ 1997.
17 . مانديلا، مسيرة طويلة إلى الحرية، ص27.
18 . مانديلا، النضال هو حياتي ص141.
19 . فرانك ويلش، تاريخ جنوب إفريقية ص74–5، 503.
20 . نويل موستيرت، الحدود، ص203، 716.
21 . جي. بي. بييرز، بيت فالو، ص166.
22 . موستيرت، المصدر نفسه، ص1222، 1254، 1237.
23 . مانديلا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
24 . جي. أية فرود، اللورد بيكونسفيلد.
25. زد. كي. مايشوز، حرية شعبي، ص58.
26 . مانديلا، رسالة إلى مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).

الفصل2

صبي البعثة التبشيرية 1934 ـ 1940

1 . مسيرة طويلة ص31 ـ2.
2 . مانديلا، رسالة إلى مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
3 . مسيرة طويلة ص34 ـ 5.
4 . مذكرات السجن.
5 . الكاهن آوثر جي. ليونارد، تاريخ مختصر لكلاركبوري.
6 . نوسيفو ماجيكي، دور التبشيريين في الفتح ص34 ـ 5.

7 . ليونارد ثومبسون، تاريخ جنوب إفريقية ص172.
8 . الإندبندنت 29 نيسان 1993.
9 . مانديلا، خطاب أمام مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية 11/ 7/ 1997.
10 . فيكيل بام، مقابلة مع المؤلف، 30/ 7/ 1997.
11 . مذكرات السجن.
12 . الوصي هـ مز نيالي، كلاركبوري، مقابلة مع المؤلف، 11/ 3/ 1997.
13 . مذكرات السجن.
14 . مانديلا، رسالة إلى مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
15 . مافيس نايب، مقابلة مع المؤلف 2/ 2/ 1998.
16 . مانديلا، رسالة إلى م. نايب، غير مؤرخة.
17 . مانديلا، خطاب في كلاركبوري، 19/ 11/ 1993.
18 . مذكرات السجن.
19 . مسيرة طويلة ص42.
20 . هيلد تاون 1855 ـ 1955 الكتيب المئوي.
21 . فيليس نتانتالا، فيسفساء حياة، ص66؛ جاك دوغار، «شظايا من أسطولي» (غير منشور).
22 . أينايد ويستر، مقابلة مع المؤلف 19/ 2/ 1998؛ ليزلي هيوسون، «هيلد تاون» (أطروحة غير منشورة).
23 . الكاهن أية زأية ويلينغتون، رسالة إلى الكاهن جورج أيار (لندن) 5/ 2/ 1963 (الأرشيف الميثودي، مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقين، جامعة لندن).
24 . دوغار، المصدر نفسه.
25 . مانديلا، رسالة إلى الدكتور مايكل كيلي 1980.
26 . مانديلا، رسالة إلى كيبو مكينتاني 25/ 2/ 1987.
27 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
28 . مذكرات السجن.
29 . نتانتالا، المصدر نفسه ص67.
30 . دوغار، المصدر نفسه.
31 . نتانتالا، المصدر نفسه ص66.
32 . مذكرات السجن.
33 . دوغار، المصدر نفسه.
34 . مانديلا، رسالة إلى مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
35 . دوغار، المصدر نفسه.
36 . مكايا (ترجمة روبرت كافانا) «أمير بريطانية» (1925) في صناعة خادم وقصائد أخرى ص14 ـ 16.
37 . مير، المصدر نفسه ص9.
38 . مارجيري بيرهام، فهم إفريقي ص44.
39 . ألكساندر كير، فورت هير، 1915 ـ 1948 ص217.
40 . زد. كي. ماثيوز، المصدر نفسه ص62.
41 . تاريخ مختصر مصور لكلية الجامعة في فورت هير، 1916 ـ 1959.
42 . زد. كي. ماثيوز، المصدر نفسه ص82.
43 . كير، المصدر نفسه، ص31/ زد. كي. ماثيوز، المصدر نفسه ص119 ـ 21.
44 . مانديلا، رسالة إلى مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
45 . نوني جابافو، شعب الأوكر، ص21 ـ 8.
46 . زد. كي. ماثيوز، المصدر نفسه ص230، 54، إشارة إلى مانديلا، رسالة إلى فريدا ماثيوز، 1/ 10/ 1970.
47 . ألفريد تينيسون (الناشر كريستوفر ريكس) ص 861 ـ 2.
48 . رالف بانش (الناشر روبرت د. أدغار). أمريكي إفريقي في جنوب إفريقية، ملاحظات سفر لرالف جي. بانش ص126.
49 . قيصر ماتانزيما، مقابلة مع المؤلف 12/ 3/ 1997.
50 . مير، المصدر نفسه، ص9.
51 . ماتانزيما، مقابلة مع المؤلف 12/ 3/ 1997.
52 . مانديلا، رسالة إلى فاطمة مير 25/ 2/ 1985.
53 . جو ماثيوز، مقابلة مع المؤلف، 5/ 8/ 1997.

54 . مانديلا، رسالة إلى ف. ماثيوز 1985، فريدا ماثيوز، ذكريات، ص100.
55 . مانديلا، رسالة إلى ويني مانديلا، 2/ 9/ 1979.
56 . جابافو، المصدر نفسه، ص90.
57 . مسيرة طويلة، ص55، غودفوي بيتجي، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
58 . مذكرات السجن.
59 . كلية جنوب إفريقية الأهلية، «تقرير المجلس الإداري للعام الذي ينتهي في 31/ 12/ 1940».
60 . غوفان مبيكي، السياسات الطلابية في فورت هير، 1916 ـ 1917.
61 . مسيرة طويلة، ص58.
62 . ماري سواميز، محادثة مع المؤلف، 25/ 7/ 1997.
63 . مذكرات السجن.
64 . مانديلا، رسالة إلى مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
65 . مسيرة طويلة، ص64.
66 . مير، المصدر نفسه ص9.
67 . جيمس كانتور خطر الصحة ص145، مسيرة طويلة ص64.
68. مذكرات السجن.

الفصل3

المدينة الكبيرة 1941 ـ 1945

1 . آلان باتون، ابك يا بلدي الحبيب؛ بيتر ديفيس، في أحلك هوليود: اكتشاف غاب سينما جنوب إفريقية، ص21 ـ 31، 38 ـ 47.
2 . و. ك. هانكون، سموتز: مجالات القوة 1919 ـ 1950 ص479، 475–6، 488، أقوال سموتز، حديث إلى معهد العلاقات العرقية، كيب تاون شباط 1942.
3 . مسيرة طويلة ص74 ـ 75.
4 . أنطوني سامبسون، درام ص32 ـ 3.
5 . ماري بنسون، جنوب إفريقية: النضال من أجل حق الولادة ص97 ـ 8.
6 . مانديلا إلى ريتشاد ستينجيل.
7 . وولتر سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 29/ 11/ 1995.
8 . مير، المصدر نفسه ص29.
9 . وولتر سيسولو، مقابلة مع جورج هاوسر، وهير برت شور، أيلول ـ تشرين الأول 1995.
10 . سامبسون، قفص الخيانة ص156 ـ 9.
11 . سيسولو، مقابلة مع هاوسر وشور، المصدر نفسه.
12 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 29/ 11/ 1995
13 . كنتور، المصدر نفسه ص145.
14 . لازار سايدلسكاي، مقابلة مع المؤلف، 23/ 11/ 1996، الاستشهاد بمانديلا، كتابة في كتاب (14/ 1/ 1995).
15 . مارتين ميريديث، مانديلا: سيرة ذاتية، ص36.
16 . توم لودج، السياسات السوداء في جنوب إفريقية منذ 1945، ص19.
17 . مذكرات السجن.
18 . تي. دانبار مودي، «الاقتصاد الأخلاقي لإضراب عمال المناجم السود عام 1946» مجلة دراسات جنوب إفريقية، الجزء 13. رقم1، تشرين الأول 1986، ص15.
19 . مايكل دينغاك، كفاحي ضد الأبارثيد، ص65.
20 . مذكرات السجن.
21 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
22 . مانديلا، رسالة إلى زيندي مانديلا 1/ 3/ 1981.
23 . مذكرات السجن.
24 . مسيرة طويلة، ص103، 89، 104.
25 . فرانك دياموند، صورة مانديلا (فيلم) 1980(IDAF).
26 . جو سلوفو، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
27 . إسماعيل مير، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
28 . الصنداي تايمز الجوهانسبورغية 10/ 11/ 1996.
29 . بروس مواري، ويتز: السنوات المفتوحة ص54 ـ 56.
30 . جورج بيزوس، مقابلة مع المؤلف، 22/ 10/ 1996.

31 . صنداي تايمز الجوهانسبورغية 10/ 11/ 1996.
32 . مسيرة طويلة ص105.
33 . صنداي تايمز الجوهانسبورغية 10/ 11/ 1996.
34 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995.
35 . سيسولو، رسالة إلى المؤلف 7/ 10/ 1957.
36 . إلبرتينا سيسولو، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
37 . حزقيال مفاهليل، محادثة مع المؤلف 16آذار 1997.
38 . مير، المصدر نفسه ص40.
39 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
40 . أيفيلن مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997.
41 . ليبي بيليزو، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
42 . فيليس. بي. جوردان (نتانتالا) رسالة إلى فاطمة مير 1989.
43 . أديلايد تامبو، مقابلة مع المؤلف 13/ 2/ 1997.
44 . مير، المصدر نفسه ص41
45 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995
46 . مسيرة طويلة ص100.
47 . قفص الخيانة ص46.
48 . سجلات محاكمة الخيانة، ص15، 766.
49 . قفص الخيانة ص68.
50 . الدكتور كزوما، مقاطع من «السيرة الذاتية» إفريقية، كانون الأول 1945.
51 . قفص الخيانة ص71.
52 . مسيرة طويلة ص111.
53 . سامبسون، السود والذهب، ملوك المال. والثوار والأبارثيد، ص75.
54 . قفص الخيانة ص75.
55 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
56 . أيه. بي. مدا، مقابلة مع غيل جيرهارت 1/ 12/ 1970.
57 . مارتين جيليرت، الساعة المثلى: وينستون أس. تشرشل 1939، 1941، ص163.
58 . قفص الخيانة ص160.
59 . توماس كاريس وغويندولين م. كارتر، من الاحتجاج إلى التحدي، المجلد 2: الأمل والتحدي، 1935 ـ 1952. بقلم توماس كاريس ص212.
60 . مير، المصدر نفسه ص32 ـ 3.
61 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص104.
62 . قفص الخيانة ص76.
63 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص301 ـ 9.
64 . سجلات محاكمة الخيانة ص15. 762 ـ 15. 764.
65 . لودج، المصدر نفسه، ص28.
66 . الكفاح حياتي، ص196، خطاب ريفونية 20/ 4/ 1994.
67 . جيمس كالاتا، تعليقات على قفص الخيانة في رسالة إلى المؤلف 21/ 7/ 1957.
68 . بريان بانتينغ موسى كوتاني ص138 ـ 9.
69 . مدا، مقابلة مع جيرهارت، المصدر نفسه.
70 . غوفان مبيكي، مقابلة مع المؤلف، 15/ 2/ 1996.
71 . أيريك هوبسبون، محادثة مع المؤلف 28/ 4/ 1997.

الفصل4

الأفارقة ضد الإفريقيين 1946 ـ 1949

1 . مودي، المصدر نفسه، لودج، المصدر نفسه ص19 ـ 20.
2 . بنسون، جنوب إفريقية ص99 ـ 100.
3 . قفص الخيانة ص78.
4 . مسيرة طويلة ص118.
5 . هانكوك، المصدر نفسه، ص845.
6 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص236، 243، 253 ـ 5.

7 . من أجل دراسة شاملة عن الهنود في ناتال انظر بيل فروند، أصيلون ودخلاء: الطبقة العاملة الهندية في دوربان، 1910 ـ 1990.
8 . مانديلا، رسالة إلى ف. مير 29/ 1/ 1983.
9 . إسماعيل مير، محادثة مع المؤلف 6/ 10/ 1997.
10 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 8/ 8/ 1997.
11 . مذكرات السجن.
12 . كارد أسمال، محادثة مع المؤلف 19/ 3/ 1997.
13 . النضال هو حياتي، ص169؛ خطاب ريفونية 20/ 4/ 1964.
14 . لودج، المصدر نفسه ص20.
15 . اينوغا ريدي وفاطمة مير، المقاومة السلبية 1964: وثائق مختارة ص27.
16 . مانديلا، رسالة إلى السيد بهالا (المجلس الهندي للعلاقات الثقافية)، 3/ 8/ 1980. في حاشية للرسالة يشير مانديلا أنه خلال كانون الاول 1980اكتشف أن إدارة السجون لم ترسل الرسالة بسبب مضمونها. ويضيف «لهذا السبب قررت أن استخدم قنواتي الخاصة للاتصال بك».
17 . مير، المصدر نفسه ص43.
18 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
19 . مدا، مقابلة مع جيرهارت، المصدر نفسه.
20 . مير، المصدر نفسه ص43.
21 . د. هـ دارلينغ رسالة إلى أوليفر تامبو 27/ 5/ 1948.
22 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص 323.
23 . ت. ر. هـ وايت «زد. كي. ماثيوز وتشكيل رابطة الشباب في المؤتمر الوطني الإفريقي، كليو رقم XX711، 1995.
24 . بريان لابينغ، الأبارثيد: تاريخ فيلم تلفزيوني وثائقي، 1986، إخراج (جون بلاك).
25 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص329.
26 . مسيرة طويلة ص124.
27 . بانتينغ، المصدر نفسه، ص153 ـ 6.
28 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995.
29 . بانتينغ، المصدر نفسه، ص138 ـ 9.
30 . مانديلا، خطاب أمام المؤتمر الوطني الإفريقي، مافيكينغ 20/ 12/ 1997.
31 . مسيرة طويلة ص126.
32 . مذكرات السجن.
33 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص362.
34 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
35 . مذكرات السجن.
36 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص368.
37 . مذكرات السجن.
38 . بن بيملوت، الملكة ص111.
39 . ميريديث، المصدر نفسه 67.
40 . تشارلز دوغلاس هيون أيفيلن بارينغ: نائب القنصل الأخير ص153؛ مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 4/ 1997.
41 . الغارديان (كيب تاون) 20/ 2/ 1947.
42 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997.
43 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه، ص274.
44 . اسمه ماتشيكيزا، محادثة مع المؤلف 10/ 10/ 1996.
45 . دان أوميرا، أربعون عاماً ضائعة: دولة الأبارثيد وسياسة الحزب الوطني، 1948 ـ 1994، ص40 ـ 57، سامبسون، ماكميلان: دراسة في الغموض ص186.
46 . مانديلا، نيلسون مانديلا يتحدث: صنع جنوب إفريقية ديمقراطية لا عرقية ص76.
47 . دوغلاس ـ هوم، المصدر نفسه ص160.
48 . الإيكونوميست 5/ 6/ 1948.
49 . مسيرة طويلة، ص128.

50 . النضال هو حياتي ص87 ـ 88، شهادة قضية الخيانة، 1960.
51 . كاريس وكارتر، المجلد 6، المصدر نفسه ص370 ـ 6.
52 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
53 . مانديلا، رسالة إلى ماري نايكر 1978.
54 . أحمد كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 27/ 11/ 1995.
55 . مدا، مقابلة مع جيرهارت، المصدر نفسه.
56 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
57 . مسيرة طويلة ص131 ـ 2.
58 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص337.
59 . مير، المصدر نفسه ص48.
60 . [بلومفونتين] صديق 17/ 12/ 1949.
61 . مير، المصدر نفسه، ص48.
62. عالم بانتو 1 نيسان 1950.
63 . بنسون، جنوب إفريقية: النضال من أجل حق البكورية، ص129.
64 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995
65 . سجلات قضية الخيانة، ص775.15.
66 . ف. ماثيوز، المصدر نفسه ص46.

الفصل 5

الوطنيون
في مواجهة الشيوعيين 1950 ـ 1951

1 . ليس سويتزر(ناشر)، صحافة جنوب إفريقية البديلة: أصوات الاحتجاج والمقاومة 1880 ـ 1960، ص254، انظر أيضاً يتم كوزينز، الإفريقي الجديد: دراسة عن حياة وعمل هـ أي. أي. دلومو.
2 . كان ثيمبا (الناشر ايسوب باتيل) عالم كان ثيمبا؛ نات ناكاسا (الناشر أيسوب باتيل) عالم نات ناكاسا؛ حزقيال مفاهليل أسفل الشارع الثاني، بلوك موديسان، لوموني في التاريخ، كاسي «كيد» موتسيسي (الناشر موثوبي موتلوتسي). كاسي وشركاه؛ بيتر أبراهامز، العودة إلى غولي، تود ماتشيكيزا، شوكولا لزوجتي دون ماتيرا، الذاكرة هي السلاح.
3 . انظر درام، المصدر نفسه، كوزينز، المصدر نفسه.
4 . س. و. دوكويويت، تحليل بؤس جنوب إفريقية ص37.
5 . لويس نكوسي، الوطن والمنفى ص25.
6 . درام، المصدر نفسه ص233.
7 . جو ماتثيوز، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
8 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 7/ 2/ 1997.
9 . نثاتو موتلانا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
10 . ج. ماتثيوز، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
11 . دكان الطباعة هو موضوع قصة قصيرة بقلم نادين غورديمار، «أية مرحلة جديدة ستكون تلك؟»، في ست أقدام في البلاد 1958.
12 . صنداي تايمز الجوهانسبورغية 29/ 11/ 1992.
13 . مسيرة طويلة ص207
14 . بنسون، نيلسون مانديلا ص25.
15 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص452 ـ 8.
16 . بنسون، جنوب إفريقية ص130.
17 . جو سلوفو، السيرة الذاتية غير التامة ص52.
18 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 7/ 2/ 1997.
19 . راستي بيرنشتاين، «ذاكرة ضد النسيان» (مخطوطة غير منشورة).
20 . مانديلا، خطاب أمام برلمان جنوب إفريقية 7/ 2/ 1997.
21 . مسيرة طويلة ص134، كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص454.
22 . بنسون، نيلسون مانديلا ص25 ـ 6.
23 . مذكرات السجن.

24 . مسيرة طويلة ص134 ـ 5، مذكرات السجن.
25 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص409.
26 . مسيرة طويلة ص135.
27 . موديسان، المصدر نفسه ص141 ـ 4.
28 . جاك وراي سيمونز، الطبقة واللون في جنوب إفريقية، 1850 ـ 1960، ص606.
29 . سلوفو، المصدر نفسه ص51.
30. راستي بيرنشتاين، مقابلة مع المؤلف 29/ 9/ 1996.
31 . سايمونز، المصدر نفسه ص609.
32 . بريان بانتنغ، مقابلة مع المؤلف 15/ 10/ 1996.
33 . ر. بيرنشتاين، مقابلة مع المؤلف 18/ 8/ 1996.
34 . مدا، مقابلة مع جيرهارت، المصدر نفسه.
35 . ج. ماثيوز، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
36 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 11/ 2/ 1997.
37 . مذكرات السجن.

الفصل6

التحدي 1952

1 . درام، المصدر نفسه ص104 ـ 5.
2 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص471.
3 . مسيرة طويلة ص142.
4 . بانتينغ، المصدر نفسه ص182.
5 . درام، المصدر نفسه ص106.
6 . سلوفو، المصدر نفسه ص87.
7 . ايه. ليرومو، خمسون سنة قتال: الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية 1912 ـ 1971 ص96.
8 . مدا، مقابلة مع جيرهارت، المصدر نفسه.
9 . فاطمة مير، مقابلة مع المؤلف 27/ 7/ 1996.
10 . مسيرة طويلة ص147، مذكرات السجن.
11 . وثائق قضية الخيانة، ص16 ـ 47.
12 . سلوفو، المصدر نفسه ص88.
13 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص482.
14 . بنسون، المجلد 2، المصدر نفسه ص482.
15 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص418.
16 . ج. ماثيوز، مقابلة مع المؤلف 18 ـ 19/ 8/ 1996.
17 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص418.
18 . مذكرات السجن.
19 . سجلات قضية الخيانة، ص15 ـ 871.
20 . مسيرة طويلة ص153 ـ 4.
21 . لودج، المصدر نفسه ص55 كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص420.
22 . مانديلا، «نحن نتحدى» درام آب1952 ص35 ـ 7.
23 . مسيرة طويلة ص155، 159.
24 . مذكرات السجن.
25 . سجلات قضية الخيانة، ص15 ـ 993، 16 ـ 88 ـ 9.
26 . نابوث موكغاتل، السيرة الذاتية لجنوب إفريقي مجهول ص307.
27 . أمينة كاتشاليا، مقابلات مع المؤلف 29آب، 2/ 9/ 1996.
28 . درام، المصدر نفسه ص108.
29 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
30 . مسيرة طويلة، ص158؛ مذكرات السجن؛ هيلين جوزيف، جنباً إلى جنب ص220.
31 . درام، المصدر نفسه ص108.
32 . ج. مبيكي، السياسة الطلابية في فورت هير، المصدر نفسه.
33 . مانديلا، رسالة إلى ليونيل نغاكان 1/ 4/ 1985.
34 . النضال هو حياتي ص35.
35 . ج. ماثيوز، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).

36 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص485 ـ 6.
37 . سجلات قضية الخيانة ص16 ـ 54.
38 . النضال هو حياتي، ص36.
39 . درام، المصدر نفسه ص110.
40 . سي. جي. درايفر، باتريك دانكان: إفريقية وعموم إفريقية.
41 . مسيرة طويلة ص160.
42 . سجلات قضية الخيانة، ص15 ـ 789.
43 . مسيرة طويلة ص161.
44 . ألبيرت لوثولي، ملاحظات على قفص الخيانة في رسالة إلى المؤلف 1957.
45 . كاريس وكارتر، المجلد 2، المصدر نفسه ص486.
46 . درام، المصدر نفسه ص113.
47 . رسالة ممثل أكستراكت يونيون 13/ 5/ 1952 (PRO:Do35/3259).
48 . ج. هـ لو روجيتيل، المفوض السامي البريطاني، رسالة إلى السير بيرسيفال ليشينغ 2/ 7/ 1952 (PRO:Do35/3137) لوروجيتيل، «اضطرابات جنوب إفريقية العرقية» 18/ 11/ 1952؛ رسالة غير موقعة إلى ن. بريتشارد، مسؤول علاقات الكومنويلث 24/ 9/ 1952.(PRO:Do35/3259).
49 . مذكرة رئيس الوزراء الشخصية إلى وزير الدولة لشؤون علاقات الكومنويلث 16/ 10/ 1952 (PRO:Do35/3259).
50 . تي. دبليو. أل. ماكديرموت، المفوض السامي الكندي في كيب تاون، تقرير وزير الدولة للشؤون الخارجية، كندا 10/ 2/ 1953، (PRO:Do35/10575).

الفصل7

محام وثوري 1952 ـ 1954

1 . فيليس بي. جوردان (نتانتالا) رسالة إلى فاطمة مير، 1989..
2 . جون كولينز، إيمان تحت النار، ص205 ـ 6.
3 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
4 . إيفيلين مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997.
5 . مفاهليل، محادثة مع المؤلف 16/ 3/ 1997.
6 . بيليزو، مقابلة مع ميتيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
7 . جورج بيزوس، ملاحظات لذكره (غير منشور).
8 . إيه. تامبو، مقابلة مع المؤلف 20/ 10/ 1996، 13/ 2/ 1997.
9 . جو موغوتسي، مقابلة مع المؤلف 7/ 1/ 1997.
10 . أوليفر تامبو، مقدمة إلى مسيرة طويلة ص IX-X.
11 . ميندي سيمانغ، مقابلة مع المؤلف 30/ 10/ 1997.
12 . بيتجي، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
13 . روث مومباتي، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم) 26/ 10/ 1996.
14 . بيزوس، المصدر نفسه.
15 . بيتجي، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
16 . مير، المصدر نفسه ص61.
17 . بيزوس، المصدر نفسه.
18 . مسيرة طويلة، ص190.
19 . بيزوس، المصدر نفسه.
20 . الميل والغارديان 5/ 12/ 1996.
21 . بيزوس، المصدر نفسه.
22 . نيلسون مانديلا يتحدث ص83.
23 . مذكرات السجن.
24 . مسيرة طويلة ص186 ـ 7.
25 . النضال هو حياتي ص148، بيان المحاكمة 1962.
26 . مذكرات السجن.

27 . مسيرة طويلة ص166 ـ 8، مذكرات السجن.
28 . سجلات قضية الخيانة ص1.800.15.
29 . النضال هو حياتي ص40.
30 . مذكرات السجن.
31 . لودج، المصدر نفسه ص75.
32 . بنسون، نيلسون مانديلا ص76.
33 . سجلات قضية الخيانة ص16 ـ 175.
34 . مسيرة طويلة ص183.
35 . سجلات قضية الخيانة ص16 ـ 174.
36 . درام، المصدر نفسه ص135.
37 . تريفور هادلستون، لا شيء لراحتك ص133.
38 . تريفور هادلستون، محادثة مع المؤلف، 27/ 9/ 1996.
39 . مذكرات السجن.
40 . ماتيرا، المصدر نفسه ص140.
41 . مذكرات السجن.
42 . سيمون، مفكرة، 12/ 2/ 1955.
43 . مسيرة طويلة ص193 ـ 4.
44 . وولتر سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 25/ 1/ 1996.
45 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل: مسيرة طويلة ص184.
46 . سجلات قضية الخيانة ص791.15، النضال هو حياتي ص34 ـ 5.
47 . النضال هو حياتي ص42.
48 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 8/ 8/ 1997.
49 . سجلات قضية الخيانة ص5.503.8.10.105.16، 022.16.8.807.15؛ مانديلا «إفريقية والسلام العالمي»، صحيفة ليبراشن كانون الأول 1953.

الفصل 8

معنى الحرية 1953 ـ 1956.

1 . قفص الخيانة ص127.
2 . مير، المصدر نفسه ص54 ـ 6
3 . زد. كي. ماثيوز، المصدر نفسه ص169.
4 . ف. ماثيوز، المصدر نفسه ص55.
5 . توماس كاريس وغويندولين م. كارتر، من الاحتجاج إلى التحدي، المجلد 3، التحدي والعنف 1953 ـ 1964، ص105.
6 . زد. كي. ماثيوز، المصدر نفسه ص175.
7 . مذكرات السجن.
8 . مسيرة طويلة ص199.
9 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص115.
10 . مسيرة طويلة ص200؛ كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص19 ـ 20.
11 . سلوفو، المصدر نفسه ص89.
12 . مذكرات السجن: مير، المصدر نفسه ص72.
13 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
14 . ديانا كولينز، شركاء في الاحتجاج: حياتي مع كانون كولينز، ص205 ـ 6.
15 . آلان باتون، متابعة الرحلة: سيرة ذاتية ص680.
16 . سجلات قضية الخيانة، ص829.15، 041.16.
17 . مانديلا «ضوء كاشف على الحزب الليبرالي» ليبراشن حزيران 1935 ص7 ـ 8.
18 . راندولف فيغن، ليبراليون في مواجهة الأبارثيد: تاريخ للحزب الليبرالي في جنوب إفريقية 1953 ـ 68 ص24، 48، 51. قول دافيد أيفرات، و«بصراحة ملعور»: الحزب الليبرالي ومجلس الشعب، غير مؤرخ.
19 . سلوفو، المصدر نفسه ص89.
20 . سيدني كينتريدج، مقابلة مع المؤلف 2/ 10/ 1996.
21 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
22 . مذكرات السجن.
23 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص128.
24 . سامبسون، مذكرات، 22/ 7/ 1954.
25 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص22، 135.

26 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه .
27 . مذكرات السجن.
28 . ليرومو، المصدر نفسه ص100.
29 . النضال هو حياتي ص50.
30 . قفص الخيانة ص106.
31 . مير، المصدر نفسه ص74.
32 . مسيرة طويلة ص2003، قفص الخيانة ص107.
33 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه.
34 . تقرير شعاعي عن إفريقية، أيلول 1956، ص9.
35 . لودج، المصدر نفسه 74.
36 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص71، 242، 210.
37 . مير، المصدر نفسه، ص76: إفريقية تقرير أشعة تشرين الثاني 1956.
38 . ألبرت لوثولي، رسالة إلى ماري لويز هاوبر تموز 1956.
39 . قفص الخيانة ص113.
40 . النضال هو حياتي ص54.
41 . كاثرادا، خلاصة آراء متفاوتة (غير منشور) 1977.
42 . النضال هو حياتي ص55.
43 . كاريس وكارتر، المجلد 3، ص247.
44 . النسخة الأصلية من مقالة مانديلا، «في فترة حياتنا». (ليبراشن حزيران 1956 ص4 ـ 8) أعيدت طباعتها تحت عنوان «الحرية في فترة حياتنا»، في كتاب الطريق ليس سهلاً إلى الحرية (1965، ص55 ـ 60 الناشر روث فيرست)، الأسطر الناقصة حذفت أيضاً من النضال هو حياتي 1978. انظر أيضاً انهضوا!! توكاني: مجلة الشباب الناشط، المجلد1 رقم5 أيلول ـ تشرين الأول 1985، ص5 ـ 7 الذي يحلل الأسطر الناقصة على إنها. . . إنكار أن الميثاق يتضمن الإطاحة بالرأسمالية والحقيقة أنه فسر بشكل إيجابي على أنه برنامج لإصلاح الرأسمالية، كما حذفت المجموعة عدداً من الجمل المهمة من مقالة مانديلا «ضوء كاشف على الحزب الليبرالي» (ليبراشن كانون الثاني 1953، ص7 ـ 8) قبل إعادة طباعته بعنوان «رمال الوهم المتحركة» (ليست مسيرة سهلة، ص33 ـ 5) قالت روث فيرست للقراء في ملاحظة الناشر «المقالات نشرت هنا تقريباً كما كتبت تماماً، مع قليل من التحوير هنا وهناك تفادياً للتكرار أو الرموز المحلية» (ليست مسيرة سهلة) ص(XIV) ملاحظة الناشر لم ترد في النضال هو حياتي .
45 . مانديلا «مؤامرة فيروود الدنيئة» ليبراشن أيار 1959، ص7 ـ 17.
46 . النضال هو حياتي ص67.
47 . مذكرات السجن.
48 . مسيرة طويلة ص212.
49 . مذكرات السجن.
50 . مانديلا، «خداع البنغا داخل الأبارثيد»، حديث القتال، تموز 1955 ص6 ـ 7.
51 . ماتانزيما، مقابلة مع المؤلف 12/ 5/ 1997.
52 . مذكرات السجن.
53 . أليستار سباركس، عقل جنوب إفريقية، ص196 إدراج مناقشات المجلس التشريعي 1953، العمود 3576.
54 . مذكرات السجن.
55 . مسيرة طويلة ص196.
56 . النضال هو حياتي ص86
57 . ويلش، المصدر نفسه ص447.
58 . مذكرات السجن.
59 . النضال هو حياتي ص65.
60 . دوغار، المصدر نفسه.
61 . مسيرة طويلة ص224.
62 . مذكرات السجن.
63 . مانديلا، رسالة إلى وزير العدل 13/4/1956، جي. جي. ماريس، معاون وزير العدل، رسالة إلى مانديلا 13/ 7/ 1956 (أرشيف العدل).

الفصل 9

الخيانة ووبني 1956 ـ 1957

1 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص259.
2 . درام، كانون الأول 1956، كانون الثاني 1957، ليونيل موريسون، مقابلة مع المؤلف 1/ 11/ 1996.
3 . مسيرة طويلة ص232.
4 . مذكرات السجن؛ مسيرة طويلة ص234.
5 . قفص الخيانة ص202.
6 . درام، كانون الثاني 1957.
7 . مذكرات السجن.
8 . مسيرة طويلة ص237.
9 . سلوفو، المصدر نفسه ص93 ـ 4.
10 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 7/ 1997.
11 . مذكرات السجن.
12 . نيود أيدج 9/ 5/ 1957.
13 . موريسون، مقابلة مع المؤلف 1/ 11/ 1996.
14 . ألبرت لوثولي، أطلقوا شعبي: سيرة ذاتية ص157.
15 . قفص الخيانة ص207 ـ 14، النضال هو حياتي ص68.
16 . ماري بنسون، الغارديان 16/ 8/ 1962.
17 . كيتريدج، مقابلة مع المؤلف 2/ 10/ 1996.
18 . ف. ماتثيوز، المصدر نفسه ص151، 137، 134، أقوال زد. كي. ماثيوز، رسائل إلى ف. ماتثيوز 5و10/ 5/ 1957.
19 . لوثولي، المصدر نفسه ص170.
20 . بول جوزيف، مقابلة مع المؤلف 6/ 12/ 1996.
21 . سامبسون، يوميات آب 1957.
22 . مانديلا، رسالة إلى السيدة بيرلمان 5/ 9/ 1983.
23 . لوثولي/ المصدر نفسه ص172.
24 . معلومات خاصة.
25 . مسيرة طويلة ص237.
26 . مذكرات السجن.
27 . نيو أيدج 17/ 7/ 1957.
28 . انظر مثلاً أي. جي. ايميري، رسالة إلى آر. جي. برتين 19/ 1/ 1959 بناء على تقارير الصحف (وهي كل ما لدينا حتى الآن).. PRO:Do35/3259.
29 . إليانور ايميري، مقابلة مع جيمس ساندرز، 12/ 12/ 1996.
30 . صنداي تلغراف 25/ 2/ 1990؛ مانديلا ملاحظات على نص.
31 . مسيرة طويلة ص242؛ مير، المصدر نفسه ص82.
32 . جوزيف، المصدر نفسه ص209.
33 . مير، المصدر نفسه ص94.
34 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
35 . مير، المصدر نفسه ص104.
36 . ويني مانديلا مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
37 . إيما جيلبي، السيدة: حياة وأوقات ويني مانديلا، ص26.
38 . أيلين كوزدايو، نادني امرأة ص159.
39 . صنداي أندبندنت 8/ 9/ 1996.
40 . ايه. تامبو، مقابلة مع المؤلف 13/ 2/ 1997.
41 . جي. ماثيوز، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
42 . مسيرة طويلة ص250.
43 . أديلايد جوزيف، مقابلة مع المؤلف 6/ 12/ 1996. أمينة كاتشاليا، مقابلة مع المؤلف 29/ 8/ 1996. آر. بيرنشتاين، مقابلة مع المؤلف 18/ 8/ 1996.
44 . ويني مانديلا، جزء من روحي ص66.
45 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
46 . مسيرة طويلة ص252.
47 . مانديلا، رسالة إلى و. مانديلا 2/ 6/ 1986.

48 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 25/ 1/ 1996.
49 . و. مانديلا، المصدر نفسه ص65.
50 . مير، المصدر نفسه ص132.
51 . كوزوايو، المصدر نفسه ص160.
52 . ايه جوزيف، مقابلة مع المؤلف 6/ 12/ 1996.
53 . لودج، المصدر نفسه ص145.
54 . بيزوس، المصدر نفسه
55 . مسيرة طويلة ص259 ـ 60، 591، جويل كارسون، لا أرض حيادية ص106 ـ 7.
56 . مسيرة طويلة ص591.

الفصل10

مناضل متألق 1957 ـ 1959

1 . مسيرة طويلة ص248.
2 . جيل أم. جيرهارت، القوة السوداء في جنوب إفريقية، ص174، إدراج بريد المدينة الذهبية، 2/ 3/ 1956.
3 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
4 . بنجامين بوغروند: كيف يستطيع الإنسان أن يموت أفضل سوبووي والأبارثيد ص118، جيرهارت، المصدر نفسه ص116.
5 . سلوفو، المصدر نفسه ص113.
6 . بيتجي، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
7 . بيتر رابوروكو، جير 9/ 9/ 1968.
8 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
9 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص284، 308.
10 . جيرهارت، المصدر نفسه ص284، 178.
11 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997.
12 . نثاتو موتلانا، مقابلة مع المؤلف 3/ 2/ 1997، بوغراند، كيف يستطيع الإنسان أن يموت أفضل، المصدر نفسه ص85.
13 . موتلانا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
14 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997.
15 . مدا، مقابلة مع جيرهارت، المصدر نفسه.
16 . مانديلا، رسالة إلى مومازوما فينكا، آب 1974.
17 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص314.
18 . بوغراند، كيف يستطيع الإنسان أن يموت أفضل، المصدر نفسه ص37، 62.
19 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص508.
20 . لويس نكوسو، «روبرت سوبوكوي: تقييم» تقرير إفريقية، نيسان 1962.
21 . مسيرة طويلة ص268.
22 . أي. جي. أيميري في كيب تاون، تقرير إلى آر. جي. بريتين في لندن، 25/ 5/ 1959. (PRO:Do119/1200).
23 . مفوض شرطة جنوب إفريقية، تقرير إلى السيد جي، المفوض السامي البريطاني 17/ 8/ 1959.
24 . سامبسون، مذكرات، تشرين الأول1958
25 . مسيرة طويلة ص101.
26 . مير، المصدر نفسه ص142.
27 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997
28 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل..
29 . مانديلا، «أول محاضرة تذكارية عن برام فيشر» 9/ 6/ 1995.
30 . أي. ماتشيكيزا، محادثة مع المؤلف 10/ 10/ 1996.
31 . أي. جي. أيميري، تقرير إلى آر. جي. بريتين في لندن4/ 6 / 1959 .(PRO:Do35/10575) .
32 . النيويورك تايمز 28/ 5/ 1959؛ كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص293.
33 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995.
34 . «قائد ممنوع»، «مشاكل في التنظيم في المؤتمر الوطني الإفريقي»، ليبراشن تشرين الثاني 1955 ص8.
35 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 11/ 2/ 1997،

مارتين لايتون، مقابلة مع جيمس ساندرز، كانون الثاني 1998.

36 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص463، 453، 484 .

37 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 11/ 4/ 1997.

38 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص445، 472.

39 . سامبسون، يوميات، تموز 1957.

40 . مسيرة طويلة، ص299.

41 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه، ص292، 473؛ سامبسون، يوميات 30/ 3/ 1960.

42 . النضال هو حياتي ص85.

43 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص 475، 546.

44 . أوليفر تامبو، تأبين في جناز دومانوكوي 22/ 1/ 1978.

45 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص475، 546.

46 . جيرهارت، المصدر نفسه ص229.

47 . سلوفو، المصدر نفسه ص114.

الفصل 11

الثورة التي لم تكن 1960

1 . نص ص76 ـ 7.

2 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه، ص464.

3 . سامبسون، يوميات شباط 1960 .

4 . الأويزرفر 20 ـ 10/ 1959.

5 . هارولد ماكميلان، محادثة مع المؤلف 31/ 12/ 1959؛ ريتشارد كوكيت، دافيد آستور والمراقب، ص201 (PRO:Co1027/143).

6 . أليستير هورن، ماكميلان، 1957 ـ 1986 : المجلد II من السيرة الرسمية، ص189، 194. من أجل تطور الخطاب انظر (PRO:Co1027/143).

7 . هارولد ايفانز، مفكرة داونتغ ستريت: سنوات ماكميلان 1957 ـ 1963، ص102.

8 . هورن، المصدر نفسه، ص195 ـ 6 انظر أيضاً سامبسون أويزرفر 7/ 2/ 1960.

9 . سامبسون، ماكميلان، ص189.

10 . درايفر، المصدر نفسه، ص172.

11 . سير دافيد هانت، في الموقع ص119.

12 . سامبسون، يوميات، شباط 1960؛ سامبسون، ماكميلان ص189.

13 . مانديلا، خطاب أمام البرلمان البريطاني، 11/ 7/ 1996.

14 . سامبسون، ماكميلان ص190.

15 . مذكرات السجن.

16 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص564، 332.

17 . مسيرة طويلة ص 279 ـ 80.

18 . لودج، المصدر نفسه ص207.

19 . ويلش، المصدر نفسه ص454.

20 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص336.

21 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997.

22 . سامبسون، أويزرفر 24/ 4/ 1960.

23 . مسيرة طويلة ص281.

24 . سلوفو، المصدر نفسه ص115 ـ 16.

25 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه.

26 . مذكرات السجن.

27 . سامبسون، يوميات، 30/ 3/ 1960.

28 . سامبسون، أويزرفر 3/ 4/ 1960.

29 . بوغراند، كيف يستطيع الإنسان أن يموت بشكل أفضل، المصدر نفسه ص144.

30 . جوزيف ليليفيلد، حرك ظلك؛ جنوب إفريقية، السود والبيض . ص315 ـ 47؛ كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص329 ـ 44.

31 . كاثرادا، تعليق على النص.

32 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه.

33 . جوزيف، المصدر نفسه ص83.
34 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص343.
35 . سامبسون، الأويزرفر 24/ 4/ 4960.
36 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
37 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص344.
38 . مسيرة طويلة ص294، 296.
39 . كينتريدج، مقابلة مع المؤلف 2/ 10/ 1996.
40 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
41 . سجلات قضية الخيانة ص987.15، 5.983.15، 002.16، 012.16، 919.13، 138.16، 977.15، 118.116، 959.15 .
42 . جوزيف، المصدر نفسه ص95؛ سجلات قضية الخيانة ص864.15.
43 . سجلات قضية الخيانة ص143.16، 149.16، 13_112.16، 772.15 .
44 . كينتريدج، مقابلة مع المؤلف 2/ 10/ 1996.
45 . بن توروك، مقابلة مع المؤلف 26/ 7/ 1998.
46 . آر .بيرنشتاين، مقابلة مع المؤلف 29/ 9/ 1996.
47 . دي. بي. ويلكوكس، المصفي، وزارة العدل، رسالة إلى مانديلا 1/ 7/ 1966، مانديلا رسالة إلى المصفي 15/ 8/ 1966، ويلكوكس رسالة إلى مانديلا 15/ 12/ 1966، (أرشيف العدل).
48 . أي. مير، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
49 . مسيرة طويلة ص139.
50 . مذكرات السجن
51 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
52 . مذكرات السجن
53 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص341، 572–6.
54 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه.
55 . رونالد سيغال، في المنفى، ص278 ـ 81.
56 . مسيرة طويلة ص289.
57 . كاثرادا، تعليقات على نص.
58 . مذكرات السجن.
59 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص359.

الفصل 12

العنف 1961

1 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
2 . و. مانديلا، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
3 . لودج، المصدر نفسه ص233.
4 . بانتينغ، المصدر نفسه ص266.
5 . بي. أم. فوستر، تقرير إلى ايه.آي. أم دافي، مكتب علاقات الكومنويلث 23/ 5/ 1961. (PRO:Do180/6)؛ كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص355.
6 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997.
7 . هاري أوبنهايمر، محادثة مع المؤلف 8/ 8/ 1997.
8 . كونتاكت 4/ 5/ 1961؛ نيويورك تايمز 27/ 3/ 1961، راند ديلي ميل 27/ 3/ 1961.
9 . لودج، المصدر نفسه ص232.
10 . دينغاك، المصدر نفسه ص65.
11 . نيويورك تايمز 27/ 3/ 1961.
12 . نيو أيدج 30/ 3/ 1961؛ الأويزرفر 26/ 3/ 1961.
13 . أندرو ويلسون، محادثة مع المؤلف 25/ 5/ 1997.
14 . كونتاكت 6/ 4/ 1961.
15 . بنجاين بو غراند، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
16 . دينيس غولدبيرغ، مقابلة مع المؤلف 13/ 12/ 1996.
17 . النضال هو حياتي، ص21.
18 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص348.
19 . مسيرة طويلة ص309 ـ 10.
20 . المصدر نفسه ص304.

21 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995.
22 . بنسون، نيلسون مانديلا ص78.
23 . مذكرات السجن، جون سائرلاند، مقابلة مع المؤلف 15/ 3/ 1997؛ طوني هيرد، مقابلة مع المؤلف 6/ 2/ 1997.
24 . بي. أم. فوستر، تقرير إلى آر. جي . بريتين، مكتب علاقات الكومنويلث 20/ 4/ 1961 (PRO:Do180/8).
25 . درايفر، المصدر نفسه ص195.
26 . راندولف فيغن، مقابلة مع المؤلف 29/ 10/ 1997؛ فيغن، المصدر نفسه ص143 ـ 4؛ مذكرات السجن.
27 . بي. أم. فوستر، تقرير إلى ايه. آي. أم دافي، مكتب علاقات الكومنويلث 23/ 5/ 1961. أيار 1961 (PRO:Do180/6).
28 . بي. أم. فوستر، تقرير إلى دبليو. أس. باتس، مكتب علاقات الكومنويلث 30/ 1/ 1960 (PRO:Do180/6).
29 . بي. أم. فوستر، تقرير إلى ايه. آي. ام دافي، مكتب علاقات الكومنويلث 23/ 5/ 1961، (PRO:Do180/6).
30 . هورن، المصدر نفسه ص392 ـ 3.
31 . أوليفر تامبو، محادثة مع المؤلف، 26/ 12/ 1987.
32 . بي. أم. فوستر، مذكرة إلى و. هـ يونغ، بريتورية 21/ 12/ 1962، إدراج رسالة السفير السياسة رقم 17، كانون الثاني 1961 (PRO:Fo371/161906).
33 . معلومات خاصة.
34 . مناقشات المجلس النيابي 23/ 5/ 1961 العمود 6497.
35 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص636؛ سير دوفيليبيرغراف، دايف ينظر إلى الوراء.
36 . نيويورك تايمز12/ 5/ 1961.
37 . مذكرات السجن.
38 . باروخ هيرسون، ثورات في حياتي ص302.
39 . مير، المصدر نفسه ص165.
40 . دينغاك، المصدر نفسه ص66.
41 . ستار، 12/ 5/ 1961.
42 . غارديان 27، 29/ 5/ 1961.
43 . مسيرة طويلة ص318.
44 . ستار27/ 5/ 1961.
45 . النضال هو حياتي ص104 ـ 6.
46 . بنجامين بوغراند، «قتل الرسول» (غير منشور)؛ بوغراند، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
47 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه
48 . لودج، المصدر نفسه ص232.
49 . راند ديلي ميل 3/ 6/ 1961.
50 . بريان وايدليك، مقابلة مع جيميس ساندرز كانون الثاني 1997.
51 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه
52 . بنسون، صرخة بعيدة: تكوين الجنوب إفريقي ص129.
53 . مسيرة طويلة ص320.
54 . ستانلي أويس، محادثة مع المؤلف 30/ 4/ 1998.
55 . روبرت أوكشوت، محادثة مع المؤلف 6/ 1/ 1997؛ بنسون، نيلسون مانديلا ص87.
56 . أويزرفر 4/ 6/ 1961.
57 . ايه. آي. أم. دافي ملاحظة 7/ 6/ 1961. (PRO:Do180/6).
58 . مذكرات السجن.
59 . فرانسيس ميلي، جنوب إفريقية لنا: تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي ص144.
60 . توم لودج، بيل ناسون، ستيفلين مافسون خيهلا شوبان ونوكواندا سيثول، الكل، هنا والآن: سياسات السود في جنوب إفريقية في الثمانينات ص307.
61 . مسيرة طويلة ص322.

62 . آر. بيرنشتاين، مقابلة مع المؤلف 18/ 8/ 1996.
63 . سلوفو، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
64 . آر. بيرنشتاين، مقابلة مع المؤلف 18/ 8/ 1996.
65 . مسيرة طويلة ص320 ـ 3.
66 . مذكرات السجن.
67 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 25/ 1/ 1996.
68 . أبولون دافيدسون، مقابلة مع المؤلف 15/ 10/ 1996.
69 . سلوفو، المصدر نفسه 151 ـ 2.
70 . مذكرات السجن: راند ديلي ميل 29/ 5/ 1961.
71 . سلوفو، المصدر نفسه ص147، 150 .
72 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص701.
73 . النضال هو حياتي ص148 ـ 9 بيان القضية 1962.
74 . وولفي كوديش، مقابلة مع المؤلف 13/ 10/ 1996.
75 . مذكرات السجن
76 . سلوفو، المصدر نفسه ص147.
77 . مذكرات السجن
78 . كوديش، مقابلة مع المؤلف 13/ 10/ 1996.
79 . مسيرة طويلة ص329.
80 . كوديش، مقابلة مع المؤلف 13/ 10/ 1996.
81 . مير، المصدر نفسه، إدراج شهادة قضية ريفونية.
82 . مانديلا، خطاب في قداس بذكرى جو سلوفو 23/ 11/ 1995.
83 . سلوفو، المصدر نفسه ص150 ـ 153.
84 . كوديش، مقابلة مع المؤلف 13/ 10/ 1996.
85 . مير، المصدر نفسه ص288، 164، إدراج شهادة قضية ريفونية .
86 . مانديلا، رسالة إلى ايفي شولتز 10/ 3/ 1986.
87 . مير، المصدر نفسه ص248، إدراج شهادة قضية ريفونية، آر. بي بيرنشتاين، المصدر نفسه.
88 . هولاند، المصدر نفسه ص135.
89 . كاثرادا، ستار 17/ 7/ 1998.
90 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه.
91 . بي وايه جوزيف، مقابلة مع المؤلف 6/ 12/ 1996.
92 . غولدبيرغ، مقابلة مع المؤلف 13/ 12/ 1996.
93 . مير، المصدر نفسه ص165، 251.
94 . بنسون، صرخة بعيدة ص131.
95 . فيغن، المصدر نفسه ص202، سلوفو، المصدر نفسه ص152.
96 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه.
97 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص656.
98 . سلوفو، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم) .
99 . كاريس وكارتر، المجلد 3، المصدر نفسه ص716 ـ 17.
100 .آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه.
101 .مذكرات السجن.
102 .مسيرة طويلة ص388.
103 .جي. جي. هولي، السفير، السفارة الكندية، بريتورية «محادثة مع الزعيم ألبرت جي. لوثولي» 23/ 11/ 1961 (PRO:Fo371/155546) .
104 .مسيرة طويلة ص337.
105 .أي. بي. بوثبابي، زيارة الزعيم لوثولي مذكرة 11/ 12/ 1961 (PRO:Fo371/155546) .
106 .آر. بيرنشتاين، مقابلة مع المؤلف 18/ 8/ 1996.
107 .آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه

الفصل 13

الاندفاع الأخير 1962

1 . معقل البيض (وثيقة سرية لدى وزارة الخارجية الأمريكية) 6/ 6/ 1962 .
2 . مانديلا، يوميات إفريقية (غير منشور) 9ـ11/ 1/ 1962.

3 . مانديلا، رسالة إلى ماري بنسون 6/ 6/ 1987.
4 . مذكرات السجن.
5 . المفوض السامي، كيب تاون، برقية إلى وزير الخارجية لشؤون المستعمرات 22/ 1/ 1962 .(PRO:Do119/1478).
6 . مذكرات السجن.
7 . «النشاط السري والعلني لشرطة جنوب إفريقية داخل أراضي المفوض السامي» جي. ايه. ستيوارد، كيب تاون، رسالة إلى في. جيليت، ماسيرو 26/ 4/ 1961 (PRO:Do119/1222).
8 . جون لونغريغ، مقابلة مع جيمس ساندرز نيسان 1997.
9 . في. جي. جي. ماثيوز: مصدر الأموال ـ تلكس المفوض السامي 10/ 8/ 1962 /PRO:Do119) . 1229)
10 . مذكرات السجن
11 . فرين جينوالا، مقابلة مع المؤلف 11/ 10/ 1996.
12 . مذكرات السجن.
13 . مسيرة طويلة ص347.
14 . مذكرات السجن
15 . النضال هو حياتي ص116 ـ 24.
16 . ستار 3/ 2/ 1962. انظر أيضاً تصريح مانديلا للستار 3/ 2/ 1962. المؤتمر الوطني الإفريقي يزداد قوة يوماً إثر يوم.
17 . أويزرفر 4/ 2/ 1962: الغارديان 7/ 2/ 1962.
18 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه.
19 . مير، المصدر نفسه، ص177 ـ 80؛ مذكرات السجن
20 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
21 . مذكرات السجن.
22 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه
23 . دليل قضية ريفونية R13.
24 . مانديلا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم) 24/ 2/ 1997.
25 . دليل قضية ريفونية R13.
26 . مير، المصدر نفسه ص246، حول شهادة قضية ريفونية.
27 . مسيرة طويلة ص355.
28 . مذكرات السجن.
29 . يوميات إفريقية 25/ 3/ 1962.
30 . مذكرات السجن .
31 . نيفيل ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996.
32 . يوميات إفريقية، 7، 30/ 4/ ، 3 ـ 4، 17/ 5/ 1962.
33 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 11/ 2/ 1997.
34 . ايه. تامبو، مقابلة مع المؤلف 13/ 4/ 1997.
35 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 21/ 2/ 1997.
36 . ايه. تامبو، مقابلة مع المؤلف 20/ 10/ 1996.
37 . بنسون، صرخة بعيدة ص144.
38 . دينيس هيلي، أسعد وقت في حياتي ص358؛ مانديلا مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997، هيلي، محادثة مع المؤلف، 15/ 7/ 1997.
39 . مذكرات السجن: دافيد أستور، محادثة مانديلا 1/ 5/ 1996.
40 . يوميات إفريقية 15/ 6/ 1962.
41 . أستور، محادثة مع المؤلف 1/ 5/ 1996.
42 . كولين ليغوم، مقابلة مع المؤلف 6/ 1/ 1997.
43 . بنسون، صرخة بعيدة ص144.
44 . أي. ماتشيكيزا، محادثة مع المؤلف 10/ 10/ 1996.
45 . فيلا بيلاي، مقابلة مع المؤلف 3/ 12/ 1996.
46 . مذكرات السجن.
47 . يوميات إفريقية 29/ 6/ 1962.
48 . مير، المصدر نفسه ص199.
49 . سامبسون، يوميات، تموز 1962.
50 . مسيرة طويلة ص363 ـ 4.
51 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 6/ 10/ 1996؛ مسيرة طويلة ص965.

52 . دليل قضية ريفونية R14.
53 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 16/ 10/ 1996.
54 . ف.مير، مقابلة مع المؤلف 27/ 7/ 1996.
55 . مسيرة طويلة ص370 ـ 1.
56 . روني كاسريلز، مسلح وخطير: كفاحي السري ضد الأبارثيد ص50.
57 . بيلي نير، مقابلة مع المؤلف 20/ 2/ 1997.
58 . برونو متولو، الطريق إلى اليسار ص40.
59 . مسيرة طويلة ص371؛ نير، مقابلة مع المؤلف 20/ 2/ 1997.
60 . مانديلا، خطاب في غداء قبل أن يستلم ـ حرية هويك ـ 12/ 12/ 1996.
61 . راند ديلي ميل، 8/ 8/ 1962؛ صنداي تايمز الجوهانسبورغية 12/ 8/ 1962.
62 . سلوفو، المصدر نفسه ص159.
63 . نيويورك تايمز 13/ 10/ 1986؛ انظر أيضاً ستار 14/ 7/ 1986؛ دستور ومجلة أتلنتا 10/ 6/ 1990.
64 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 16/ 10/ 1996.
65 . مسيرة طويلة ص379.
66 . كوديش، مقابلة مع المؤلف 13/ 10/ 1996
67 . مسيرة طويلة ص375–6.
68 . غارديان 11/ 6/ 1964.
69 . جوزيف، المصدر نفسه ص127.
70 . دافيد أستور، رسالة إلى السيد جون مود، 10/ 8/ 1962؛ مود، رسالة إلى آستور 20/ 8/ 1962، مانديلا، رسالة إلى مود 14/ 9/ 1962. الكتب الأخرى كانت جي. أم. كينز، مقالات في السيرة وثيودور هـ وايت، صناعة الرئيس (PRO:Do119/1478).
71 . لورد دانروسيل، تقرير إلى رئيس الوزراء فورستر، 7/ 12/ 1962 (PRO:Fo371/161887).
72 . و.مانديلا، رسالة إلى ايه. تامبو 5/ 3/ 1962.
73 . آر. بيرنشتاين، مقابلة مع المؤلف 18/ 1/ 1996.
74 . كتيب أصدرته لجنة مانديلا الحر1962.
75 . «أفرجوا عن نيلسون مانديلا، الشيوعي الإفريقي»، تشرين الأول ـ كانون الأول 1962.
76 . سلوفو، المصدر نفسه ص159ـ6.
77 . مسيرة طويلة ص385ـ6.
78 . لورد دانروسيل، رسالة إلى بيتر فوستر 23/ 10/ 1962 (PRO:Fo371/161901)
79 . مسيرة طويلة ص387ـ95؛ مذكرات السجن، المسودة الأولى من خطاب مانديلا تحتفظ بها مكتبة كولين، جامعة ويتووترسراند.
80 . دوغلاس هوم، المصدر نفسه، ص247ـ8.
81 . مذكرات السجن؛ قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة: سياسات الأبارثيد لحكومة جنوب إفريقية(6/11/1962 (A/Res/1761XVII)، الأمم المتحدة والأبارثيد 1948ـ1994، ص251.
82 . سير جون مود، ملاحظة للسجل 23/ 10/ 1962. (PRO:Fo371/161886). سجل لقاء عقد السير روجر ستيفانز في 6/ 6، السياسة المستقبلية تجاه جنوب إفريقية 1963 /PRO:Fo371) 161884)
83 . جي. بي. آر. مقابلة وداعية مع الدكتور فيروورد 29/ 4/ 1963. (PRO:Fo371/167504).
84 . سجل لقاء عقد السير روجر ستيفانز في 6/ 6، السياسة المستقبلية تجاه جنوب إفريقية 1962 (PRO:Fo371/161884)
85 . تي. و. آستون، ملاحظات حول لقاء مع بول أيكيل 23/ 1/ 1959.(PRO:Do119/1209) .
86 . ر. و. هـ. دو بولاي، رسالة إلى رئيس الوزراء فوستر 14/ 1/ 1963.(PRO:Fo371/67503) .
87 . جوزيف ساترثويت، «خطة الدفاع الداخلي للبلاد» (وثيقة لوزارة الخارجية الأمريكية لم تعد سرية) 18/ 12/ 1962.
88 . ماركوس إدواردز، ملاحظة من محادثة 5/ 12/ 1962.(PRO:Fo371/161887) .
89 . ملاحظة من محادثة مع جو ماثيوز 5/ 10/ 1962 (PRO:Fo371/161887).

90 . بي. أم. فوستر، رسالة إلى هيلاري يونغ، 21/ 12/ 1962 (PRO:Fo371/161906) .

91 . دونالد غوردن (إلى هيلاري يونغ)، رسالة إلى بي. أم. فوستر 29/ 12/ 1962، /PRO:Fo371) 161906) .

92 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997.

الفصل 14

الجريمة والعقاب 1963 ـ 1964

1 . جواهر لآل نهرو، مهاتما غاندي، ص42.

2 . مسيرة طويلة ص396ـ7.

3 . بوغراند، كيف يستطيع الإنسان أن يموت بشكل أفضل، المصدر نفسه، ص176.

4 . مسيرة طويلة ص398.

5 . جورجين شادبيرغ، أصوات من جزيرة روبين، ص13ـ7؛ مسيرة طويلة ص404.

6 . نيفيل ألكساندر، ملف جزيرة روبين 1964ـ1974 ص20.

7 . مانديلا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم)

8 . مسيرة طويلة ص408.

9 . الكتاب نفسه ص413.

10 . جوزيف، المصدر نفسه ص154.

11 . هيلدا بيرنشتاين، العالم الذي كان لنا: قصة محاكمات ريفونية، ص54.

12 . هولاند، المصدر نفسه ص145.

13 . متولو، المصدر نفسه ص72ـ7.

14 . دليل قضية ريفونية R14 .

15 . و. مانديلا، رسالة إلى ايه تامبو 16/ 4/ 1963 .

16 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه؛ كاثرادا ملاحظات على نص.

17 . سلوفو، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم)

18 . هـ. بيرنشتاين، المصدر نفسه ص55.

19 . مانديلا، ملاحظات على نص.

20 . ستيفين كلينغمان، برام فيشر: الثوري الأفريقاني، ص302ـ313.

21 . جويل جوف، قصة ريفونية ص7، 19.

22 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف، 3/ 8/ 1998.

23 . مذكرات السجن.

24 . مسيرة طويلة ص416.

25 . هـ. بيرنشتاين، المصدر نفسه ص108.

26 . جوف، المصدر نفسه ص37.

27 . غارديان 24/ 11/ 1995.

28 . جوف، المصدر نفسه ص190.

29 . السير جون مود، تقرير وداعي إلى اللورد هوم 14/ 5/ 1963 (PRO:CAB129/114) .

30 . اللورد هوم، رسالة إلى السير هيو ستيفنسون 12/ 6/ 1963 (PRO:CAB129/114) .

31 . معلومات خاصة

32 . قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة: الإفراج عن السجناء السياسيين، (/XVIII]1881/RES] A 11/10/1963)، الأمم المتحدة والأبارثيد، المصدر نفسه ص267.

33 . كلينغمان، المصدر نفسه ص319.

34 . جون ويلسون «محاكمة نيلسون مانديلا في جنوب إفريقية» 5/ 5/ 1963/PRO:FO371) - 177036). رسالة إلى السير جيوفري هاريسون 20/ 12/ 1963.

35 . ليزلي ماينفورد، تقرير إلى اللورد دانروسيل 13/ 12/ 1963 (PRO:FO371/167542) .

36 . مسيرة طويلة ص422.

37 . جوف، المصدر نفسه ص61ـ2.

38 . آر. بيرنشتاين، مقابلة مع المؤلف 29/ 9/ 1996.

39 . دليل قضية ريفونية، تي29، تي 14/ 16، تي25؛ مانديلا، تعليقات على نص.

40 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 21/ 7/ 1996.

41 . دليل محاكمة ريفونية، آر12، آر15، آر18ـ19، آر89ـ90، آر 20ـ23.

42 . جويل جوف، مقابلة مع المؤلف 23/ 1/ 1997.

43 . آر. بيرنشتاين، المصدر نفسه.

44 . مذكرات السجن.

45 . جوف، المصدر نفسه ص72.

46 . مذكرات السجن

47 . جوف، المصدر نفسه ص76ـ7، 88ـ9 91، 125.

48 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 17/ 7/ 1998.

49 . جوف، مقابلة مع المؤلف 23/ 1/ 1997؛ جوف، المصدر نفسه ص127، 122، 124.

50 . ماك ماهاراج، مقابلة مع المؤلف 19/ 2/ 1997.

51 . مذكرات السجن احتوت وصفاً لهذه الحادثة.

52 . جورج بيزوس، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم)

53 . النضال هو حياتي، ص 155ـ75.

54 . جوف، المصدر نفسه ص133.

55 . جون ويلسون، مذكرة إلى جون أور (دائرة الأبحاث الإعلامية) 22/ 5/ 1964؛ أور، مذكرة إلى ويلسون 25/ 5/ 1964 /PRO:Fo371) 1277122).

56 . جوف، المصدر نفسه ص190.

57 . دافيد أستور، رسالة إلى آر. ايه. بتلر 2/ 4/ 1964 (PRO:Fo371/177036).

58 . آر. ايه. بتلر، رسالة إلى دافيد آستور 8/ 4/ 1964 (PRO:Fo371/177036).

59 . ليون بريتان، رسالة إلى بيتر توماس 24/ 4/ 1964 (PRO:Fo371/177035).

60 . سجل اجتماع بين وزير الدولة ووفد من الحركة المضادة للأبارثيد عقد في وزارة الخارجية في 19/ 5/ 1964 (PRO:Fo371/177036).

61 . جون رايت، مسودة رسالة 14/ 5/ 1964 (PRO:Fo371/177122).

62 . بي. دبليو . جي باكستون، ملاحظة 13/ 5/ 1964 (PRO:Fo371/177065).

63 . هيلاري يونغ، كيب تاون، تقرير إلى غاي ميلارد، لندن 20/ 5/ 1964 /PRO:Fo371) 177122).

64 . كلينغمان، المصدر نفسه ص320.

65 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 17/ 7/ 1998.

66 . جوف، المصدر نفسه ص151، 144.

67 . ستار 22/ 4/ 1984.

68 . جوف، المصدر نفسه ص203ـ4.

69 . مسيرة طويلة ص450، 445.

70 . مانديلا، ملاحظات مختصرة في حال الحكم بالإعدام (معهد دراسات الكومنويلث، جامعة لندن).

71 . مسيرة طويلة ص444، كاثرادا، تعليقات على نص.

72 . ميلي، المصدر نفسه ص158، إدراج برام فيشر، رسالة 24/ 5/ 1964.

73 . باتون، رحلة، المصدر نفسه ص250.

74 . مذكرات السجن.

75 . كلينغمان، المصدر نفسه ص322.

76 . مسيرة طويلة ص448ـ9.

77 . ديلي تلغراف 12/ 6/ 1964؛ 12/ 6/ 1964؛ غارديان 13/ 6/ 1964؛ التايمز 12/ 6/ 1964.

78 . صنداي تايمز الجوهانسبورغية 14/ 6/ 1964.

79 . ستار 13/ 6/ 1964.

80 . سير هيو ستيفنسون، برقية إلى وزارة الخارجية 12/ 6/ 1964 (PRO:Fo371/177123).

81 . آر. ايه بتلر، ملاحظة 3/ 7/ 1964 (PRO:Fo371/177124).

82 . دونالد ماك دي .غوردون، رسالة إلى جون ويلسون 1/ 7/ 1964 (PRO:Fo371/177124).

83 . سير هيو سيتفنسون، تقرير إلى آر. ايه. بتلر 8/ 9/ 1964 (PRO:Fo371/177124).

الفصل 15

سيد قدري 1964ـ1971

1 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 25/ 7/ 1996.

2 . مذكرات السجن، مسيرة طويلة ص453.

3 . ألكساندر، المصدر نفسه ص21.

4 . مسيرة طويلة ص460، 464.

الهوامش

5 . مذكرات السجن.
6 . مانديلا، رسالة إلى السفير البريطاني 4/ 5/ 1964 (سجلات السجن).
7 . ماك ماهاراج، في النضال هو حياتي ص182ـ3، 192 ؛ مذكرات السجن.
8 . كلينغمان، المصدر نفسه ص328.
9 . كاثرادا، تعليقات على نص.
10 . مانديلا، رسالة إلى كوني نجونغو 12/ 5/ 1986.
11 . مسيرة طويلة ص460.
12 . مانديلا، خطاب أمام مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية، 11/ 7/ 1997.
13 . مسيرة طويلة ص475؛ من أجل الأمثلة انظر سجلات السجن.
14 . كلوديا شادبرغ، أصوات من جزيرة روبين (فيلم 1994، إخراج آدم لو).
15 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 25/ 7/ 1996.
16 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 11/ 2/ 1996.
17 . مذكرات السجن.
18. ماهاراج، في النضال هو حياتي ص191.
19 . مسيرة طويلة ص461؛ كاثرادا، تعليقات على نص.
20 . كلينغمان، المصدر نفسه ص328.
21 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 3/ 8/ 1997.
22 . ألكساندر، المصدر نفسه ص32.
23 . جيمس غريغوري، وداعاً يا بافانا، ص108.
24 . كث، تعليقات على نص.
25 . ماهاراج، تعليقات على نص، غريغوري المصدر نفسه ص108.
26 . مسيرة طويلة ص464.
27 . إيدي دانييلز، مقابلة مع المؤلف 9/ 2/ 1996.
28 . لودج وناسون، المصدر نفسه ص299؛ بام، مقابلة مع المؤلف 30/ 7/ 1997.
29 . مذكرات السجن.
30 . بام، مقابلة مع المؤلف 30/ 4/ 1997.
31 . مذكرات السجن.
32 . غوفان مبيكي، المتعلم من جزيرة روبين: كتابات السجن، صix.
33 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 25/ 1/ 1996.
34 . مذكرات السجن.
35 . كث، مقابلة مع المؤلف 31/ 10/ 1996.
36 . نير، مقابلة مع المؤلف 20/ 2/ 1997.
37 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف 19/ 2/ 1997.
38 . جنرال ويليمزي، مقابلة مع المؤلف 21/ 10/ 1996.
39 . فران ليزا بانتمان، سياسة الإقناع: مقاومة السجين السياسي في جزيرة روبين، 1962ـ1991(رسالة دكتوراه غير منشورة).
40 . مسيرة طويلة ص463.
41 . لودج وناسون، المصدر نفسه ص298ـ9.
42 . مسيرة طويلة ص523.
43 . كاثرادا، رسالة إلى سيلفيا نيمي، كانون الثاني 1971.
44 . مسيرة طويلة ص523ـ4.
45 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 25/ 11/ 1996.
46 . كاثرادا، رسالة إلى سيلفيا نيمي، كانون الثاني 1971.
47 . ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996، مذكرات السجن.
48 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 25/ 7/ 1996.
49 . ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996.
50 . مسيرة طويلة، ص523؛ مذكرات السجن.
51 . ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996.
52 . غوفان مبيكي، مقابلة مع المؤلف 151/ 2/ 1996.
53 . بام، مقابلة مع المؤلف 30/ 7/ 1997.
54 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 25/ 1/ 1996.
55 . مسيرة طويلة ص522.
56 . إندريس نايدو وألبي ساش، سجين 885/ 63: جزيرة بالسلاسل ـ عشر سنوات في جزيرة روبين كما رواها أندريس نايدو لألبي ساش

ص15ـ214؛ انظر أيضاً مسيرة طويلة ص551.

57 . مذكرات السجن.

58 . مسيرة طويلة ص525ـ7.

59 . جي. شاديبرغ، المصدر نفسه ص51.

60 . توماس جي. كاريس وغيل م. جيرهارت، من الاحتجاج إلى التحدي، المجلد 5 نادير والولادة الجديدة 1964ـ1979، ص32؛ كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 7/ 2/ 1997.

61 . ايدي دانييلز؛ مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم) ايدي دانييلز، هناك وعودة: جزيرة روبين 1964ـ1979، ص199.

62 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 21/ 2/ 1997.

63 . دبليو. أي. هنلي، «انفيكتوس» 1875.

64 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.

65 . مذكرات السجن.

66 . جي. شانديبرغ، المصدر نفسه ص41.

67 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 21/ 7/ 1996.

68 . دينغاك، المصدر نفسه ص218،

69 . بام، مقابلة مع المؤلف 30/ 4/ 1997.

70 . جي. شانديبرغ، المصدر نفسه ص17/ 19.

71 . سي شانديبرغ، أصوات من جزيرة روبين (فيلم)؛ ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996.

72 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف 12/ 7/ 1996 أنانا سينغ، سجناء الأمل: جمع شمل جزيرة روبين (فيديو 1995، إخراج داني شيشتر).

73 . سيسولو، مقابلة مع هاوزر وشور، المصدر نفسه.

74 . غريغوري، المصدر نفسه

75 . مسيرة طويلة، ص614.

76 . غريغوري، المصدر نفسه ص84، 95؛ جيمس غريغوري، مقابلة مع المؤلف 26/ 7/ 1998.

77 . كريستو براند، مقابلة مع المؤلف 16/ 10/ 1996. ماهاراج، تعليقات على نص.

78 . ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996.

79 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 7/ 2/ 1997.

80 . دينغاك، المصدر نفسه ص222.

81 . مسيرة طويلة ص563ـ4.

82 . جي. شانديبرغ، المصدر نفسه ص23.

83 . التايمز 14/ 8/ 1964؛ بيرنارد نيومان، رحلة جنوب إفريقية ص 160ـ7.

84 . مانديلا، رسالة إلى قائد الوحدة 21/ 9/ 1964(سجلات السجن). يبدو أنه لم تنشر أية مقالات عن زيارة لجزيرة روبين في الديلي أو الصنداي تلغراف.

85 . مانديلا، رسالة إلى مفوض السجون، 14/ 3/ 1965؛ قائد الفرقة، رسالة إلى المفوض عن السجون19/ 3/ 1965(سجلات السجن).

86 . صنداي تايمز 25/ 4/ 1965؛ راند ديلي ميل 29/ 4/ 1965.

87 . دينغاك، المصدر نفسه ص218؛ انظر أيضاً رحلة طويلة ص271ـ2 ألكساندر، المصدر نفسه ص90: «القاضي هانينغ، رئيس تحرير مجلة المحامي الدولية الذي قدم دليلاً لجنوب إفريقية في الـ Hague في جلسة سماع الشهادات حول جنوب ـ غرب إفريقية، كان وقحاً، ومنحازاً، وربما تسبب بالحرج حتى لمضيفيه.

88 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.

89 . دي.بي .ويلكوكس، المصفي، وزارة العدل. رسالة إلى مانديلا 1/ 7/ 1966؛ رسالة مانديلا إلى المصفي 15/ 8/ 1996؛ رسالة ويلكوكس لمانديلا 15/ 12/ 1966 (أرشيف وزارة العدل).

90 . تصريحات فريد كارنيسون وبايت بايليفيلد متضمنة في ملفات نيلسون مانديلا (أرشيف وزارة العدل).

91 . دي. بي. ويلكوكس، رسالة إلى مفوض الشرطة 2/ 7/ 1970(سجلات السجن).

92 . دوريس ليسينغ، تحت جلدي، ص368.

93 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 20/ 7/ 1998.

94 . هيلين سوزمان، مقابلة مع المؤلف 15/ 5/ 1996.
95 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل ؛ مسيرة طويلة ص518ـ20.
96 . سوزمان، مقابلة مع المؤلف 15/ 5/ 1996.
97 . ألكساندر، المصدر نفسه، ص88، 34.
98 . النضال هو حياتي، ص200؛ انظر أيضاً مانديلا، رسالة إلى وزير السجون 22/ 4/ 1969.
99 . هيلين سوزمان، رسالة إلى المؤلف 20/ 11/ 1997.
100 .هيلي، المصدر نفسه ص336، 355، 358.
101 .ألكساندر، المصدر نفسه ص14.
102 .فيليب زوغر والدكتور رونالد مارت، تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر حول زيارة جزيرة روبين 24ـ29/ 11/ 1970.
103 .دينغاك، المصدر نفسه ص216.
104 .مانديلا، رسالة إلى الجنرال ستين كانون الثاني 1970.
105 .ألكساندر، المصدر نفسه ص30.
106 .كاثرادا، رسالة على سيلفيا نيمي، كانون الثاني 1971.
107 .مسيرة طويلة ص544.
108 .ألكساندر، المصدر نفسه ص23، 96.
109 .مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل؛ لودج وناسون، المصدر نفسه، ص309؛ دينغاك المصدر نفسه، ص 219.
110 .كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 16/ 10/ 1996.
111 .جي. شانديبرغ، المصدر نفسه ص27.
112 .دي. أم زويلونكي، جزيرة روبين ص 63.
113 .ماهاراج، مقابلة مع المؤلف 18/ 2/ 1997.
114 .دانييلز، مقابلة مع المؤلف 9/ 2/ 1996.
115 .مسيرة طويلة ص548.
116 .مانديلا، خطاب بمناسبة تقاعد الزعيم جاستيس كوربيت 11/ 12/ 1996.
117 .مسيرة طويلة ص549.
118 .ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996.

الفصل 16

صلب ومقوى1971 ـ 1976

1 . موسى دلاميني، حفرة جهنم، جزيرة روبين: ذكريات سجين سياسي.
2 . أورلاندو فيغز، مأساة شعب: الثورة الروسية 1891ـ1924، ص123، 204.
3 . بانتمان، المصدر نفسه، ص289؛ ويلمزي، مقابلة مع المؤلف 21/ 10/ 1996.
4 . ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996.
5 . جورج موريون، دومينيك، دوفور، نيكولاس دو روجمونت والدكتور أندرياس فيشر، تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر حول مقابلة مفوض السجون 5/ 6/ 1974.
6 . مسيرة طويلة ص536.
7 . كاثرادا، رسالة إلى سيلفيا نيمي، كانون الثاني 1971.
8 . ويلمزي، مقابلة مع المؤلف 21/ 10/ 1996.
9 . موريون والبقية، تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر حول مقابلة مع مفوض السجون 5/ 6/ 1974؛ جاك موريون، مقابلة مع المؤلف 30/ 11/ 1997.
10 . ماهاراج في نص ص182ـ4.
11 . هيلي، المصدر نفسه ص358.
12 . ألكساندر، المصدر نفسه ص26.
13 . كاثرادا، رسالة إلى سيلفيا نيمي، كانون الثاني 1971.
14 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 21/ 7/ 1996.
15 . نير، مقابلة مع المؤلف 20/ 2/ 1997.
16 . بام، مقابلة مع المؤلف 20/ 7/ 1997.
17 . هيلدا بيرنشتاين «جنوب إفريقيان من الجزيرة» التايمز 18/ 7/ 1978.
18 . باتي والدماير، تحليل معجزة : نهاية الأبارثيد وولادة جنوب إفريقية الجديدة ص16.

19 . كاثرادا، رسالة إلى نافي 3/ 10/ 1989.
20 . روني كاسريلز، مقابلة مع المؤلف 12/ 2/ 1997.
21 . سوني فيكاتراثنام، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
22 . كاثرادا، رسالة إلى سيلفيا نيمي، كانون الثاني 1971.
23 . بام، مقابلة مع المؤلف 30/ 7/ 1997.
24 . مذكرات السجن.
25 . ف. مير، مقابلة مع المؤلف 27/ 7/ 1996.
26 . دافيد ماك نيكول، أوبزرفر 22/ 4/ 1973.
27 . ألكساندر، المصدر نفسه ص90.
28 . ماهاراج، في النضال هو حياتي ص191ـ2؛ نايدو وساش، المصدر نفسه ص245ـ6.
29 . مير، المصدر نفسه ص62؛ غوردون بروس، مقابلة مع جيمس ساندرز، تموز 1998.
30 . غوردون وينتر، داخل BOSS: الشرطة السرية في جنوب إفريقية، ص274ـ6؛ غوردون بروس (تشارلز ميترلينك)، رسالة إلى غوردون وينتر (فلوري) 16/ 4/ 1970.
31 . التايمز 18/ 3/ 1969، وينتر، المصدر نفسه ص264، 275.
32 . غوردون وينتر، «داخل BOSS وما بعد» لوبستر، رقم 18، 1989: بروس مقابلة مع جيمس ساندرز تموز 1998.
33 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف 18/ 2/ 1997؛ مسيرة طويلة ص565.
34 . دينغاك، المصدر نفسه ص191ـ2.
35 . مانديلا، خطاب أمام مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية 11/ 7/ 1997.
36 . أيدي دانييلز، ويكلي ميل 21/ 3/ 1986؛ مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
37 . صنداي تايمز الجوهانسبورغية 30/ 10/ 1994.
38 . مسيرة طويلة ص53.
39 . دينغاك، المصدر نفسه ص192.
40 . كاثرادا، رسالة إلى سيلفيا نيمي، كانون الثاني1971.
41 . دينغاك، المصدر نفسه ص192؛ مسيرة طويلة ص536–7.
42 . لودج وناسون، المصدر نفسه ص297.
43 . فريدان ماتثيوز، رسالة إلى مانديلا 24/ 11/ 1986.
44 . بام، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم) 30/ 7/ 1997؛ ماجيكي، المصدر نفسه.
45 . دانييلز، مقابلة مع المؤلف 9/ 2/ 1996.
46 . ف. مير، مقابلة مع المؤلف 27/ 7/ 1996.
47 . لودج وناسون، المصدر نفسه ص295.
48 . كاثرادا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
49 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 7/ 2/ 1997.
50 . ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996.
51 . فينكاتراثنام، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم)؛ النسخة الأصلية من شكسبير، مع حواشي تفسيرية من سجناء جزيرة روبين، محفوظة لدى فينكاتراثنام في دوربان.
52 . مسيرة طويلة ص540–1 ؛ ماري بنسون، آثول فوغارد وبارني سايمون، مسرح خاو، حوافر قليلة، مسرح عظيم،ص 101، 154؛ بنسون، صرخة بعيدة، ص194ـ5.
53 . ألكساندر، المصدر نفسه ص85.
54 . مانديلا، رسالة إلى و. مانديلا 1/ 1/ 1975.
55 . فينكاتراثنام، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
56 . كاثرادا، ستار 17/ 7/ 1998.
57 . ايه. سينغ، سجناء الأمل (فيديو).
58 . مسيرة طويلة ص539.
59 . أحمد كاثرادا، رسالة إلى تون 22/ 11/ 1975؛ كاثرادا، ستار17/ 7/ 1998.
60 . مسيرة طويلة ص583.
61 . و.مانديلا، المصدر نفسه ص86.

62 . ألكساندر، المصدر نفسه ص50.
63 . موريون، مقابلة مع المؤلف 30/ 11/ 1997.
64 . لودج وناسون، المصدر نفسه ص301.
65 . مسيرة طويلة ص556ـ7.
66 . دينغاك، ص215.
67 . لودج وناسون، المصدر نفسه ص300.
68 . جي.ميبكي، التعلم من جزيرة روبين، المصدر نفسه صxx .
69 . كاريس وجيرهارت، المجلد 5، المصدر نفسه ص33.
70 . ويلمسي، مقابلة مع المؤلف 21/ 10/ 1996.
71 . جي. شانديبرغ، المصدر نفسه ص47.
72 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 3/ 8/ 1997.
73 . جينيفر كرويس ويليامز (ناشر)، بكلمات نيلسون مانديلا ص36.
74 . موتلانا، مقابلة مع المؤلف 26/ 6/ 1997.
75 . كولريدج، بيوغرافيا ليتراريا.
76 . بام، مقابلة مع المؤلف 30/ 7/ 1997.
77 . لودج وناسون، المصدر نفسه ص300.
78 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 25/ 1/ 1996، 25/ 7/ 1996.
79 . راكس سيخوا، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995.
80 . ألكساندر، مقابلة مع المؤلف 14/ 10/ 1996.
81 . مذكرات السجن.
82 . بام، مقابلة مع المؤلف 30/ 7/ 1997.
83 . كاريس وجيرهارت، المجلد 5، المصدر نفسه ص34.
84 . ماهاراج، تعليقات على نص؛ ثامي مكاوينازي، ويكلي ميل 23/ 8/ 1978؛ مسيرة طويلة ص509ـ11؛ كاريس وجيرهارهات، المجلد 5، المصدر نفسه ص 406ـ11.
85 . بام، مقابلة مع المؤلف 30/ 7/ 1997.
86 . كاثرادا، تعليقات على نص.
87 . مذكرات السجن .
88 . مسيرة طويلة ص605؛ غوفان مبيكي، رسالة إلى ت. كاريس 4/ 9/ 1995.
89 . مذكرات السجن.
90 . مانديلا، رسالة إلى و. مانديلا، غير مؤرخة؛ مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
91 . ماهاراج، في نص ص199؛ مسيرة طويلة ص573ـ4.
92 . صنداي إنديبندنت 25/ 6/ 1995؛ مسيرة طويلة ص567.
93 . مذكرات السجن، نسخة مسودة (سجلات السجن).
94 . مذكرات السجن.
95 . صنداي إنديبندنت 25/ 6/ 1995. مسيرة طويلة ص568ـ72.
96 . مفوض السجون، رسالة إلى وزير السجون 26/ 10/ 1997. مذيلة بالأحرف الأولى من اسم الوزير 30/ 10/ 1977 (سجلات السجن).
97 . ماك ماهاراج، ملاحظات على نص .
98 . كاثرادا، رسالة إلى بوب ونافي 25/ 5/ 1989.
99 . ألكساندر، المصدر نفسه ص91.
100 .جي. دوبريز، رسالة إلى مفوض السجون27/ 7/ 1976 (سجلات السجن).
101 .مفوض السجون، رسالة إلى وزير السجون 9/ 10/ 1979 (سجلات السجن).
102 .مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل .
103 .ماهاراج، في النضال هو حياتي، ص195، 199، 201.
104 .مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.

الفصل17

من سيدة إلى أمازونية 1962 ـ 1976

1 . ماكي مانديلا، مقابلة مع المؤلف 21/ 3/ 1997.
2 . مابيل مانديلا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
3 . غريغوري، المصدر نفسه ص138ـ9.

4 . مسيرة طويلة ص529؛ مذكرات السجن.
5 . مسيرة طويلة ص531؛ مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
6 . و. مانديلا، المصدر نفسه ص87.
7 . جيلبي، المصدر نفسه ص9ـ68.
8 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 3/ 8/ 1997.
9 . كارلسون، المصدر نفسه ص298؛ جيلبي، المصدر نفسه ص70ـ69.
10 . غريغوري، المصدر نفسه ص30ـ129.
11 . مسيرة طويلة ص8ـ477؛ بنسون، نيلسون مانديلاص147.
12 . وينتر، المصدر نفسه ص237.
13 . و. مانديلا، المصدر نفسه ص89.
14 . صنداي ستار، 27/ 5/ 1980 جيلبي، المصدر نفسه ص99.
15 . غريغوري، المصدر نفسه ص1ـ130.
16 . و.مانديلا، المصدر نفسه ص89
17 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
18 . و. مانديلا، المصدر نفسه ص88.
19 . جيلبي، المصدر نفسه ص3ـ72؛ كارلسون، المصدر نفسه ص7ـ263؛ وينتر، المصدر نفسه ص32ـ229.
20 . و. مانديلا، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
21 . بنسون، نيلسون مانديلا ص3ـ152؛ كارلسون، المصدر نفسه ص4ـ293.
22 . و.مانديلا، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
23 . كارلسون، المصدر نفسه ص291، 295.
24 . بنسون، نيلسون مانديلا ص154.
25 . جيلبي، المصدر نفسه ص90.
26 . كارلسون، المصدر نفسه ص255.
27 . و.مانديلا، المصدر نفسه ص105.
28 . و.مانديلا، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
29 . سوزمان، مقابلة مع المؤلف 15/ 5/ 1996.
30 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل، مسيرة طويلة ص494.
31 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 3/ 8/ 1997.
32 . جيلبي، المصدر نفسه، ص3ـ92، 8ـ97؛ جون هوراك، مقابلة مع المؤلف 10/ 7/ 1996.
33 . و. مانديلا، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
34 . مانديلا، رسالة إلى و. مانديلا 18/ 8/ 1974؛ تقرير شرطة جنوب إفريقية، بريتورية، تشرين الأول 1974(سجلات السجن).
35 . وينتر، المصدر نفسه ص230.
36 . جيلبي، المصدر نفسه ص1ـ100.
37 . مانديلا، رسائل إلى و. مانديلا 1/ 1/ 1975، 1/ 2/ 1975، 11/ 3/ 1981.
38 . مانديلا، رسالة إلى زينتدزي مانديلا 1/ 2/ 1974.
39 . مانديلا، رسالة إلى و. مانديلا 1/ 12/ 1974.
40 . و. مانديلا، المصدر نفسه ص90.
41 . مانديلا، رسالة إلى زيني مانديلا 1/ 12/ 1974.
42 . مانديلا، رسالة إلى ف. مير 1/ 11/ 1974.
43 . فاطمة مير. المصدر نفسه ص377.
44 . المصدر نفسه.
45 . مانديلا، رسالة إلى صديق 1974.
46 . ف. مير، المصدر نفسه ص383.
47 . غريغوري، المصدر نفسه ص165، مسيرة طويلة ص1ـ560؛ بنسون، نيلسون مانديلا ص161.
48 . مانديلا، رسالة إلى فاطمة مير 30/ 7/ 1987.
49 . مانديلا، رسالة إلى ماكي مانديلا 31/ 12/ 1997.
50 . ماكي مانديلا، مقابلة مع المؤلف 21/ 3/ 1997
51 . مانديلا، رسالة إلى صديق 1/ 11/ 1974.
52 . مانديلا، رسالة إلى ماكغاثو مانديلا 1/ 9/ 1974.
53 . مانديلا، رسالة إلى ريان مانديلا 1/ 12/ 1974.
54 . مانديلا، رسائل إلى ماكي مانديلا 8/ 6/ 1976، 6/ 11/ 1978.
55 . مانديلا، رسائل إلى و. مانديلا 26/ 10/ 1976، 1/ 10/ 1975، 1/ 9/ 1975، 15/ 4/ 1976، 24/ 5/ 1976، 19/ 7/ 1976.
56 . مانديلا، رسالة إلى السيدة ميبكي 1/ 12/ 1974.

57 . مانديلا، رسالة إلى باربرا لامب 1/ 10/ 1974.
58 . مانديلا، رسالة إلى ويني مانديلا 12/ 11/ 1976.
59 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 31/ 1/ 1996.
60 . بيتر ماغوبان، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.

الفصل18

حضور ظليل 1964 ـ 1976

1 . مسيرة طويلة ص509.4،492.
2 . ماهاراج، تعليقات على نص.
3 . مسيرة طويلة ص575.
4 . أويزرفر 14/ 6/ 1964.
5 . بارثولوميو مورو هلابان، ذكر البانتو، 46 سنة، الإقامة 3037موقع موروكا جوهانسبورغ، تصريح 1/ 10/ 1964؛ مايكل ديتسو دينغاك، ذكر تسوانا، قرية بوبولوغ، بتشوانا لاند، تصريح تحت القسم 25/ 1/ 1965.
6 . كلينغمان، المصدر نفسه ص413.
7 . مانديلا، «أول محاضرة تذكارية عن برام فيشر»، 9/ 6/ 1995.
8 . مانديلا، رسالة إلى شيلا واينبرغ 1978.
9 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 11/ 2/ 1996.
10 . جورج بيزوس، رسالة إلى المؤلف 16/ 6/ 1964.
11 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص358، 6، إدراج أوزوالد متشالي، «هذا الفتى ليس ماعزاً»، 1969.
12 . مذكرات السجن.
13 . مسيرة طويلة ص521.
14 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 9/ 2/ 1990.
15 . مسيرة طويلة ص525.
16 . إيكونوميست 28/ 10/ 1967.
17 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص375، 30؛ مسيرة طويلة ص522.
18 . سيسولو، مقابلة مع هاوزر وشور، المصدر نفسه.
19 . أو.تامبو، رسالة إلى مانديلا 1975.
20 . آلبي ساش، مقابلة مع المؤلف 21/ 7/ 1996.
21 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص299.
22 . الأسود والذهب ص87.
23 . أوليفر تامبو، الاستعداد للسلطة: أوليفر تامبو يتحدث، تقديم أديلايد تامبو، ص79؛ كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص5.34.
24 . «شجرة الخليج الأخضر» الإيكونوميست 29/ 6/ 1968.
25 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف 19/ 2/ 1997.
26 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف 28/ 11/ 1995.
27 . دراسة كيستجر عن جنوب إفريقية ص111.
28 . توماس جي .كاريس، «ثورة قيد الإعداد، سياسة السود في جنوب إفريقية»، فورين أفيرز، شتاء 1983ـ84، ص383.
29 . جين هوغلاند، جنوب إفريقية: صراع حضارات، ص78.
30 . مسيرة طويلة ص603.
31 . كاريس وكارتر، المجلد 3، ص51.
32 . الأسود والذهب ص105.
33 . أو. تابمو، رسالة إلى آر. سيغال 25/ 3/ 1970.
34 . مسيرة طويلة ص596؛ بيزوس، مقابلة مع المؤلف 28/ 11/ 1995.
35 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص7.
36 . مانديلا، «التحرير الوطني» (مقالة غير منشورة) 1977.
37 . ر. و. جونسون، إلى متى ستبقى جنوب إفريقية؟ ص114ـ15، 121ـ2.
38 . ماغي ريشا، حياتي في النضال ص239.
39 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص1.400.
40 . لولي كالينيكوس، ملاحظات من أجل سيرة حياة أوليفر تامبو (غير منشورة).

41 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص43، ستيفن أليس وتسيبو سيشابا، رفاق ضد الأبارثيد، المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي الجنوب إفريقي في المنفى ص64؛ الفرد نزو، رسالة إلى جوناس دي. ماتلو 4/ 10/ 1975.
42 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
43 . كالينيكوس، المصدر نفسه؛ مانديلا مقابلة مع المؤلف 28/ 4/ 1994.
44 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص44.
45 . كالينيكوس، المصدر نفسه.
46 . ايه. تامبو، رسالة إلى مانديلا 1975.
47 . سيشابا، آذار 1973.
48 . مانديلا «حركة الوعي الأسود» (مقالة غير منشورة) 1978
49 . مانديلا، «التحرر الوطني»، المصدر نفسه.
50 . ايه. تامبو، مقابلة مع المؤلف 13/ 2/ 1997.
51 . أي. جي. أم ساثرلاند، مذكرة ورد، تشرين الأول – تشرين الثاني 1964 (PRO:Fo371/ 177122).
52 . ايه. تابمو، مقابلة مع المؤلف 13/ 2/ 1997؛ الأسود والذهب ص83.
53 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 11/ 2/ 1996.
54 . أوليفر رايت، مذكرة إلى بي. و. كاري (هيئة التجارة) 17/ 10/ 1964 /PRO:PREM13) 092).
55 . جورج برادن، رسالة إلى رئيس الوزراء 19/ 10/ 1964 (PRO:PREM13/092)؛ أنتوني غرينوود، رسالة إلى رئيس الوزراء 19/ 11/ 1964 (PRO:PREM13/092).
56 . باتريك غوردون ووكر، رسالة إلى رئيس الوزراء، «زيارة اللورد كارادون» 18/ 11/ 1964 (PRO:PREM13/092)؛ جون ويلسون، تقرير إلى ر. و. جاكلينغ (نيويورك) 19/ 11/ 1964 (PRO:FO371/177071).
57 . السفارة البريطانية، واشنطن، مسودة سرية «عقوبات ضد جنوب إفريقية» كانون الأول 1964 (PRO:FO371/177071).
58 . مارتين بيلي، أويل غيت فضيحة العقوبات ص128ـ44.
59 . تامبو، المصدر نفسه ص85.
60 . سيشابا، كانون الثاني 1971.
61 . شهادات مجلس الشيوخ الأمريكي أمام اللجنة الفرعية للشؤون الإفريقية في لجنة العلاقات الخارجية، الكونغرس 94، الجلسة الثانية حول جنوب إفريقية، جنوب إفريقية: سياسة الولايات المتحدة ودور الشركات الأمريكية ص142.
62 . أرثر سكليسينجر الابن، روبرت كينيدي وأيامه ص748.
63 . روجر موريس، «دبلوماسية الحرب العرقية: جنوب إفريقية لا تذكر» نيوريبابليك 26/ 6/ 1976.
64 . إدوارد هيث، مجرى حياتي: سيرتي الذاتية ص619ـ21، 477ـ8.
65 . سيشابا، نيسان 1972.
66 . تامبو، المصدر نفسه ص105، دراسة كيسنجر، المصدر نفسه ص81، 66/ 70.
67 . الأسود والذهب ص119.
68 . أنتوني ليك، «صبي القطران» أويشين ص129.
69 . جنوب إفريقية: سياسة الولايات المتحدة ودور الشركات الأمريكية، المصدر نفسه ص142.
70 . ايه. تامبو، محادثة مع المؤلف 21/ 1/ 1987.
71 . مانديلا، «التحرر الوطني» المصدر نفسه.

الفصل19

الوعي الأسود 1976 ـ 1978

1 . مسيرة طويلة ص576.
2 . جيرهارت، المصدر نفسه 272، 178.
3 . باتريك (تيرور) ليكوتا، رسائل السجن إلى ابنه ص140.

4 . جيرهارت، المصدر نفسه ص286، 298.
5 . و.مانديلا، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
6 . الأسود والذهبي، ص108 .
7 . بنسون، نيلسون مانديلا ص164.
8 . هوارد باريل، «مجندون لعصرهم استراتيجية المؤتمر الوطني الإفريقي العملياتية 1976ـ1986» (رسالة دكتوراه غير مطبوعة) ص114.
9 . مانديلا، «حركة الوعي الأسود»، المصدر نفسه.
10 . حول ثورة سويتو، انظر جون كين بيرمان، جنوب إفريقية: الطريقة في الجنون، آلان بروكس وجيريمي بريكهيل، زوبعة قبل العاصفة: أصول وتطور الثورة في سويتو وبقية جنوب إفريقية من حزيران إلى كانون الأول 1976.
11 . الأسود والذهب ص111ـ12.
12 . و. مانديلا، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
13 . مانديلا، «حركة الوعي الأسود»، المصدر نفسه.
14 . سي. شادبيرغ، أصوات من جزيرة روبين (فيلم).
15 . مانديلا، «اتحدوا، تعبؤوا، تابعوا القتال! بين سندان العمل الجماعي الموحد ومطرقة الكفاح المسلح سنسحق الأبارثيد» في كتاب شيريدان جونز وآر. هانب ديفيس الابن (ناشر)، مانديلا، تامبو والمؤتمر الوطني الإفريقي: النضال ضد الأبارثيد، 1948 ـ 1990، مسح موثق، ص211ـ13.
16 . اريك مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 6/ 1997.
17 . تيرور ليكوتا، مقابلة مع المؤلف 8/ 2/ 1997.
18 . سي. شادبيرغ، أصوات من جزيرة روبين (فيلم).
19 . ليكوتا، مقابلة مع المؤلف 8/ 2/ 1997.
20 . مسيرة طويلة ص576.
21 . سي. شادبيرغ، أصوات من جزيرة روبين (فيلم) / مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
22 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص298.
23 . بانتمان، المصدر نفسه 158.
24 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص298.
25 . بانتمان، المصدر نفسه 171.
26 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 6/ 1997.
27 . توكيوسيكسويل، مقابلة مع المؤلف 22/ 10/ 1996.
28 . مسيرة طويلة ص 577.
29 . مانديلا، رسالة إلى الزعيم بوثيليزي 1978.
30 . مانديلا، رسالة إلى هلاكو رشيدي 1978.
31 . مسيرة طويلة ص578.
32 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
33 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص298.
34 . ويكلي ميل 13/ 6/ 1986.
35 . نيوزويك 23/ 6/ 1986.
36 . فرانك شميدت..، تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر حول زيارة جزيرة روبين، 29/ 3، 2/ 4/ 1977.
37 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 6/ 1997.
38 . جي. شادبيرغ، المصدر نفسه ص34، 45.
39 . ليكوتا، مقابلة مع المؤلف 8/ 2/ 1997.
40 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل؛ ليكوتا، مقابلة مع المؤلف 8/ 2/ 1997.
41 . دولاء عمر، مقابلة مع المؤلف 12/ 2/ 1987.
42 . ليكوتا، مقابلة مع المؤلف 8/ 2/ 1997.
43 . بونتمان، المصدر نفسه ص113.
44 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص296.
45 . سيخوا، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995 .
46 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص295، إشارة إلى أندريس نايدو .

47 . مسيرة طويلة ص580.
48 . مانديلا «حركة الوعي الأسود»، المصدر نفسه.

الفصل20

سحر السجن 1976 ـ 1982

1 . مكاواناوزي، ويكلي ميل 23/ 8/ 1987
2 . دينغكاك، المصدر نفسه ص214.
3 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 21/ 2/ 1997.
4 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 24/ 2/ 1997؛ كاثرادا ستار 17/ 7/ 1998.
5 . فرانك شميدت.. تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر حول زيارة جزيرة روبين 25ـ29/ 9/ 1978.
6 . سيخوا، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995.
7 . مورفي موروبي، مقابلة مع المؤلف 7/ 2/ 1997.
8 . سي. شادبيرغ، أصوات من جزيرة روبين (فيلم).
9 . مانديلا، رسالة إلى زيندزي مانديلا 10/ 7/ 1978.
10 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 6/ 1997.
11 . مسيرة طويلة ص597.
12 . جي. شادبيرغ، المصدر نفسه ص35؛ مكاواناوزي، ويكلي ميل 23/ 8/ 1987؛ ايروين مانويم (ناشر) لقد حدث من قبل: السنوات العشر الأولى من الميل والغارديان، ص90.
13 . ماهاراج، المصدر نفسه ص186ـ7.
14 . مسيرة طويلة ص585؛ مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل؛ مانديلا مقابلة مع المؤلف 11/ 2/ 1997.
15 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 6/ 1997؛ مانديلا، مقابلة مع المؤلف 11/ 2/ 1998.
16 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
17 . مانديلا، رسالة إلى آماندا كوادي، أورلاندو 12/ 5/ 1986.
18 . مذكرات السجن.
19 . SAIRR، عرض للعلاقات العرقية في جنوب إفريقية 1977، ص119.
20 . ستار 26/ 4/ 1977؛ نيويورك تايمز، 27/ 4/ 1997.
21 . بانوراما جنوب إفريقية، تموز 1977.
22 . العفو الدولية، الاعتقال السياسي في جنوب إفريقية، ص83؛ التايمز 26/ 4/ 1997.
23 . التايمز 26/ 4/ 1977؛ ماهاراج يعلق على نص.
24 . جي شادبيرغ، المصدر نفسه ص27.
25 . لودج وناسون، المصدر نفسه ص308.
26 . ليكوتا، مقابلة مع المؤلف 8/ 2/ 1997.
27 . ليكوتا، المصدر نفسه صII.
28 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 6/ 1997.
29 . جي. شادبيرغ، المصدر نفسه ص45.
30 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 26/ 1/ 1996.
31 . صنداي إندبندنت 25/ 6/ 1995.
32 . نير، مقابلة مع المؤلف 20/ 2/ 1997.
33 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 6/ 1997.
34 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص297.
35 . صنداي إندبندنت 25/ 6/ 1995.
36 . مانديلا، «رسالة بمناسبة وفاة ثيمبا هاري غوالا» 20/ 6/ 1995؛ سيسولو، مقابلة مع المؤلف 25/ 11/ 1996.
37 . جي. مبيكي، التعليم في جزيرة روبين، المصدر نفسه صVII، XXI.
38 . موروبي، مقابلة مع المؤلف 7/ 2/ 1997.
39 . جي. مبيكي، التعليم في جزيرة روبين، المصدر نفسه صXXIII.
40 . باتنمان، المصدر نفسه ص187.
41 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 27/ 11/ 1995.
42 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 25/ 1/ 1996.
43 . مسيرة طويلة ص510.
44 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 6/ 1997.

45 . كاثرادا، المصدر نفسه؛ جي.مبيكي، التعليم في جزيرة روبين، المصدر نفسه ص178ـ80.
46 . كاثرادا، المصدر نفسه
47 . جي. مبيكي، التعليم في جزيرة روبين، المصدر نفسه ص 178ـ87.
48 . المصدر نفسه، ص187ـ196.
49 . كاثرادا، المصدر نفسه .
50 . جي. مبيكي، التعليم في جزيرة روبين، المصدر نفسه صXXIII.
51 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 31/ 1/ 1996.
52 . جي. مبيكي، التعليم في جزيرة روبين، المصدر نفسه ص XXIII.
53 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف 7/ 2/ 1997.
54 . كاثرادا، المصدر نفسه، سيشابا، تموز 1969.
55 . مسيرة طويلة ص580؛ مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 6/ 1997.
56 . سيخوا، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995.
57 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف 25/ 1/ 1996.
58 . كاثرادا، المصدر نفسه؛ مانديلا، مذكرة تغطية لكاثرادا، خلاصة.
59 . فينكاتراثنام، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
60 . كاريس وجيرهارت، المجلد5، المصدر نفسه، ص57.
61 . أوسكار وايلد «قصيدة هدف القراءة» 1898.
62 . ويكلي ميل 20/ 10/ 1989؛ كاثرادا، رسالة إلى ايدي دانييلز 22/ 7/ 1989.
63 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف 27/ 7/ 1997.
64 . ليكوتا، مقابلة مع المؤلف 8/ 2/ 1997.
65 . سيخوا، مقابلة مع المؤلف 29/ 11/ 1995.
66 . موتلانا، مقابلة مع مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم) ؛ موتلانا، مقابلة مع المؤلف 26/ 6/ 1997؛ و. مانديلا، المصدر نفسه ص130.
67 . و. مانديلا، المصدر نفسه ص131.
68 . فرانك شميدت..، تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر حول زيارة لجزيرة روبين 29/ 3، 2/ 4/ 1977.
69 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
70 . موتلانا، مقابلة مع المؤلف 19/ 10/ 1996.
71 . مانديلا، رسائل إلى و. مانديلا 27/ 5/ 1979، 2/ 9/ 1979.
72 . مسيرة طويلة ص601.
73 . مانديلا، رسالة إلى شيلا وينبرغ 1978؛ مانديلا، رسالة إلى «عزيزنا ريجي» (تامبو) 1978.
74 . نيويورك تايمز 19/ 7/ 1978؛ مركز الأمم المتحدة ضد الأبارتيد ملاحظات ووثائق، والاحتفال بعيد ميلاد السيد نيلسون آر. مانديلا الستين، آب1978.
75 . التايمز 19/ 7/ 1978.
76 . مانديلا، رسالة إلى و. مانديلا 1/ 1/ 1980؛ مسيرة طويلة ص585.
77 . مانديلا، رسالة إلى و. مانديلا 1/ 3/ 1981.
78 . مسيرة طويلة ص595؛ مانديلا، رسالة إلى شيلا وينبرغ 1978.
79 . مانديلا، رسالة إلى ثاتو موتلانا 1980.
80 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف 16/ 3/ 1999.
81 . صنداي إندبندنت 25/ 6/ 1995،
82 . مانديلا، «حركة الوعي الأسود»، المصدر نفسه.
83 . جاني روكس، رسالة إلى وزير السجون 12/ 6/ 1980 (سجلات السجن).
84 . «سجين آمني نيلسون مانديلا: خلفية» 12/ 2/ 1981 (أرشيف العدل).
85 . هـ ج. ويتسي، «نيلسون مانديلا» 23/ 3/ 1981 (أرشيف العدل).

الفصل 21

أسرة منفصلة 1977 ـ 1980

1 . مانديلا، رسائل إلىويني مانديلا بلا تاريخ و21 كانون الثاني 1979.

2 . باتمان، المصدر نفسه، ص 247.
3 . بنسون، نلسون مانديلا، ص 187 و165.
4 . ويني مانديلا، المصدر ذاته، ص 116؛ موتلانا مقابلة دميتيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
5 . ويني مانديلا، المصدر نفسه، ص 116 ـ 17.
6 . كاثرادا، تعليقات على النص؛ غريغوري، المصدر نفسه، ص 170 ـ 1.
7 . المسيرة الطويلة، ص 586.
8 . مانديلا، رسائل إلى زندزي مانديلا، 4 أيلول 1977.
9 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجل.
10 . ويني مانديلا، المصدر نفسه، ص 127.
11 . بنسون، نيلسون مانديلا، ص 170.
12 . في نفس المكان، ص 68 ـ 9.
13 . مير، المصدر نفسه، ص 306.
14 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجل.
15 . أليستر سباركس ـ غداً بلد آخر: القصة الداخلية للثورة عن طريق التفاوض لجنوب إفريقية، ص 17 ـ 20.
16 . مانديلا مقابلة لميتيل وجيبسون، مانديلا (فيلم) المسيرة الطويلة، ص 590.
17 . مانديلا، رسائل إلى ويني مانديلا، 26 حزيران 1977، 10 حزيران 1979 1 تشرين الأول 1979.
18 . ويني مانديلا، المصدر نفسه، ص 137.
19 . مانديلا، رسائل إلى ويني مانديلا، 21 كانون الثاني 1979، 29 حزيران 1980، 1 كانون الأول 1976.
20 . الأويزرفر، كانون الثاني 1982.
21 . مانديلا، رسائل إلى ويني مانديلا، 6 أيار 1979، 21 تموز 1979، 3 شباط 1980، 28 حزيران 1980، 15 نيسان 1980.
22 . مانديلا، رسالة إلى زندزي مانديلا، 4 أيلول 1977.
23 . مانديلا، رسالة إلى ويني مانديلا، 2 أيلول 1979.
24 . بنسون، نيلسون مانديلا، ص 185 ـ 6.
25 . مانديلا، رسالة إلى ويني مانديلا، 1 حزيران.
26 . كوزاويو، المصدر نفسه، ص 247.
27 . الأويزرفر، كانون الثاني 1982، جيلبي، المصدر نفسه، ص 134.
28 . مانديلا، رسالة إلى ويني مانديلا، 9 أيلول 1979.
29 . كاثرادا ـ ستار، 17 تموز 1998.
30 . مانديلا، رسالة إلى زندزي مانديلا، 4 أيلول 1977.
31 . مانديلا، رسالة إلى ويني مانديلا، 29 تموز 1979.
32 . المسيرة الطويلة، ص 588.
33 . مانديلا، رسالة إلى زيني مانديلا، 30 تشرين الأول 1977، المسيرة الطويلة، ص 589.
34 . مانديلا، رسالة إلى هيلين جوزيف 15 تشرين الأول 1978.
35 . مانديلا، رسالة إلى ويني مانديلا، 26 أيلول 1979.
36 . ويني مانديلا، المصدر نفسه، ص 136.
37 . مانديلا، رسالة إلى صديق، 1 كانون الثاني 1976.
38 . مانديلا، رسائل إلى زندزي مانديلا، 30 تشرين الأول 1977، 5 آذار 1978، 4 أيلول 1977.
39 . زندزي مانديلا، سوداء كما أنا، ص 14.
40 . مانديلا، رسالة إلى زندزي مانديلا، 27 كانون الثاني 1980.
41 . مانديلا، رسالة إلى ويني مانديلا، 6 أيار 1979.
42 . مانديلا، رسائل إلى زندزي مانديلا، كانون الأول 1979، 3 شباط 1979، 25 آذار 1979.
43 . الإندبندنت يوم الأحد، 3 كانون الثاني 1993.
44 . مانديلا، رسائل إلى ويني مانديلا، 10 شباط 1980، 1 حزيران 1980.
45 . مير، المصدر نفسه، ص 371.
46 . مانديلا، رسائل إلى ماكي مانديلا، 31 كانون

الأول 1978، شباط 1979، 8 حزيران 1978.

47 . مانديلا، رسائل إلى ويني مانديلا، 19 تشرين الثاني 1978.

48 . مانديلا، رسائل إلى ماكي مانديلا، 31 كانون الأول 1978، 26 تشرين الثاني 1978، 8 حزيران 1978.

49 . التايمز، 3 تشرين الثاني 1998.

50 . مانديلا، مقابلة لمينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).

51 . في نفس المكان.

52 . مانديلا، رسائل إلى ويني مانديلا، بلا تاريخ.

53 . مكاوانازي، ويكلي ميل، 23 آب 1987.

الفصل 22

سجن داخل سجن 1978 ـ 1982

1 . مانديلا، رسالة إلى شيلا وينبرغ، 1978.

2 . مانديلا، رسالة إلى رادي سينغ، 1979.

3 . مانديلا، رسالة إلى أ. تامبو، 7 كانون الأول 1980.

4 . مانديلا، رسالة إلى و. تامبو، 1978.

5 . سيسولو «التحرير الوطني» (مقالة لم تنشر)، 1977.

6 . مانديلا وريموند مهلابا، رسالة إلى «ريفي» (و. تامبو)، 1978.

7 . المسيرة الطويلة، ص 484؛ فينكا تراثنام مقابلة لمينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).

8 . كاريس وجيرهارت، المجلد 5، المصدر نفسه، ص 256.

9 . مانديلا، رسالة إلى أ. تامبو، 1 كانون الأول 1980.

10 . مانديلا، رسالة إلى الدكتور مايكل كيلي، 1980.

11 . كاريس وجيرهارت، المجلد 5، المصدر نفسه، ص 675.

12 . لودج، المصدر نفسه، ص 351.

13 . كاريس وجيرهارت، المجلد 5، المصدر نفسه، ص 256، 264 ـ 5.

14 . لودج، المصدر نفسه، ص 352.

15 . مانديلا، رسالة للزعيم باثيليزي، 1978، مانديلا وريموند مهلابا، رسالة إلى «ريفي» (و. تامبو)، 1978.

16 . كاريس وجيرهارت، المجلد 5، المصدر نفسه، ص 257، 273 ـ 4، 79 ـ 80.

17 . [جوهانسبورغ] صنداي بوست، 30 نيسان 1980.

18 . مانديلا، رسالة إلى الأسقف توتو، 1980.

19 . مانديلا، رسالة إلى الدكتور غوبيول، 1980.

20 . مانديلا، رسالة إلى سام بوتي، 1980.

21 . مانديلا، رسالة إلى موريناكا، 1980.

22 . مانديلا، رسالة إلى الدكتور ماساير، تموز 1980.

23 . مانديلا، رسالة إلى السيدة بالا، 3 آب 1980.

24 . تامبو، المصدر نفسه، ص 197، دينغيك، المصدر نفسه، ص 170.

25 . مانديلا، رسالة إلى أ. تامبو، 1980.

26 . مانديلا، رسالة إلى الدكتور مايكل كيلي، 1980.

27 . الأمم المتحدة والتمييز العنصري، المصدر نفسه، ص 39، 347، (قرار مجلس الأمن؛ مسألة جنوب إفريقية (S/RES/) 417 [1977])، 31 تشرين الأول 1977.

28 . بلاك وغولد، ص 125.

29 . القنصل العام لجنوب إفريقية، غلاسكو، تقرير، «نيلسون مانديلا؛ حرية مدينة غلاسكو»، إلى المدير العام للشؤون الخارجية، والإعلام، بريتوريا، 8 شباط 1981 (أرشيف العدالة).

30 . ديفيد أوين، واجهوا المستقبل، ص 144؛ ديفيد سكوت، سفير بالأسود والأبيض، ثلاثون عاماً من إفريقية المتغيرة، ص 195.

31 . و ـ ميرا ـ، المصدر نفسه، ص 229 ـ 49.

32 . مانديلا «التحرير الوطني»، المصدر نفسه.

33 . سيسولو «التحرير الوطني»، المصدر نفسه.
34 . «مشكلة اليد العاملة السوداء»: كعب آخيل جنوب إفريقية «وثيقة غير سرية للاستخبارات المركزية الأمريكية» إفريقية ريفيو، 2 أيلول 1980.
35 . مانديلا، رسالة إلى الدكتور مايكل كيلي، 1980.
36 . سيشابا، الربع الرابع، 1977.
37 . كاريس وجيرهارت، المجلد 5، المصدر نفسه، ص 302، 304 ـ 5، 724.
38 . [جوهانسبورغ] صنداي بوست 9 آذار 1980؛ المسيرة الطويلة، ص 602 ـ 3.
39 . بنسون، نيلسون مانديلا، ص 182.
40 . [جوهانسبورغ] صنداي اكسبريس، 20 نيسان 1980.
41 . بنسون، نيلسون مانديلا، ص 184.
42 . تقرير عن مانديلا وقعه أمين مجلس أمن الدولة، 18 أيار 1982؛ انظر أيضاً الملف عن حملة «إطلاق سراح مانديلا» (سجلات السجن).
43 . بنسون، نيلسون مانديلا، ص 183.
44 . الغارديان، 11 حزيران 1980؛ مورنينغ ستار، 11 حزيران 1980.
45 . كاريس وجيرهارت، المجلد 5، المصدر نفسه، ص 305.
46 . مانديلا، رسائل إلى و. تامبو، 1980، 1981.
47 . لودج، المصدر نفسه، ص 339 ـ 40.
48 . السير تشارلز بوويل، محادثة مع المؤلف، 3 تشرين الأول 1996.
49 . تشيستر كروكر، منتصف الليل في جنوب إفريقية صنع السلام في بيئة قاسية، ص 328، 66؛ جاكوب هيلبرون «معتذرون بلا ندم؛ المحافظون الأمريكيون حول جنوب إفريقية» نظرة عامة أمريكية، كانون الثاني ـ شباط 1998.
50 . ب. دبليو. بوثا، مقابلة مع المؤلف، 2 آذار 1998.
51 . ديفيد لامب، الإفريقيون، ص 109.
52 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف، 31 كانون الثاني 1996.
53 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف، 27 كانون الثاني 1997.
54 . مانديلا، رسالة إلى زنلدزي مانديلا، 10 تموز 1978.
55 . مذكرات السجن.
56 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف، 27 حزيران 1997؛ كاثرادا، تعليقات على النص.
57 . ديفيد سون، مقابلة مع المؤلف، 15 تشرين الأول 1996.
58 . سيسولو «التحرير الوطني»، المصدر نفسه.

الفصل 23

عصيان مسلح 1982 ـ 1985

1 . ويني مانديلا، المصدر نفسه، ص 142.
2 . كاثرادا، رسالة إلى جينكيز (طلب إدي دانيلز)، 22 تموز 1989.
3 . المسيرة الطويلة، ص 613.
4 . ويني مانديلا، المصدر نفسه، ص 141 ـ 2.
5 . بانتمان. المصدر نفسه، ص 319.
6 . كاثرادا، رسالة إلى إيسوب جاسات، 2 حزيران 1985.
7 . كاثرادا، رسالة إلى صونيا بنتينغ، بلا تاريخ.
8 . هيلين سوزمان، رسالة إلى كوبي كويتسي، 4 تموز 1982 (سجلات السجن).
9 . إسماعيل أيوب، رسالة إلى وزير السجون، 16 آب 1983؛ مانديلا، رسالة إلى رئيس السجن، 2 شباط 1988 (سجلات السجن).
10 . مانديلا، رسالة إلى فاطمة مير، حزيران 1983.
11 . مانديلا، رسالة إلى لويزي فينتيلا، 6 شباط 1984.
12 . مانديلا، رسالة إلى البريغادير مونرو، 25 شباط 1983.

13 . المسيرة الطويلة، ص 614 ـ 15.
14 . مانديلا، رسالة إلى ليونيل نغاكين، 11 حزيران 1984.
15 . كاثرادا، رسالة إلى زوهرا، أيلول 1985.
16 . مانديلا، رسائل إلى السيدة بيرلمان، 5 أيلول 1983.
17 . مانديلا، رسالة إلى بيتر ستوري، 11 حزيران 1984.
18 . مانديلا، رسالة إلى ستيفن نايدو، 4 آذار 1985.
19 . مانديلا، رسالة إلى الشيخ جابر، 4 آذار 1985، أحمد كاثرادا، تعليقات على النص.
20 . مانديلا، رسالة إلى الأخت بيرنارد نكوبي، بلا تاريخ.
21 . مانديلا، رسالة إلى كيبو مكينتين، 25 شباط 1987.
22 . أمينة كشاليا، رسالة إلى مانديلا، بلا تاريخ، مانديلا، رسائل إلى أمينة كشاليا، 29 أيار 1983، 1 آذار 1988.
23 . مانديلا، رسالة إلى كيبو مكينتين، 24 نيسان 1984.
24 . مانديلا، رسالة إلى بارني نغاكين، 11 حزيران 1984.
25 . مانديلا، رسالة إلى جوي، 17 شباط 1986.
26 . مانديلا، رسائل إلى ويني مانديلا، 31 آذار 1983، 13 أيار 1985.
27 . مانديلا، رسالة إلى أديلايد جوزيف، 25 شباط 1985.
28 . مانديلا، رسالة إلى آرثر غليكمان، 31 كانون الثاني 1985.
29 . مانديلا، رسالة إلى إفي شولتز، 1 نيسان 1985.
30 . مانديلا، رسالة إلى ليونيل نغاكين، 11 حزيران 1984.
31 . مانديلا، رسالة إلى صديق، 17 أيار 1983.
32 . مانديلا، رسالة إلى كوني نجونغوي، 14 أيار 1984.
33 . مانديلا، رسالة إلى ماري بنسون، أيار 1985.
34 . مانديلا، رسالة إلى آدي جوزيف، 25 شباط 1985.
35 . مانديلا، رسالة إلى هيلين جوزيف، 1 نيسان 1987.
36 . ج. مبيكي، غروب في وسط النهار، ص 50؛ بانتمان، المصدر نفسه، ص 247.
37 . جيريمي سيكينغر «ماذا كانت الجبهة الديمقراطية الموحدة؟» (ورقة حلقة بحث غير منشورة)، 1994، انظر أيضاً جيريمي سيكينغز «الجبهة الهشة: الجبهة الديموقراطية الموحدة وقضية الاستفتاء»، 1983 ـ 84 (ورقة حلقة بحث غير منشورة)، 1993.
38 . لودج وينسون، المصدر نفسه، ص 51.
39 . سيسولو، مقابلة مع هاوزر وشور، المصدر نفسه.
40 . مبيكي، غروب في وسط النهار، ص 54.
41 . أسود وذهب، ص 151 ـ 2.
42 . سيشابا، أيار 1984، هيريبرت آدم وكوجيلا مودلي، جنوب إفريقية من غير التمييز العنصري؛ تفكيك السيطرة العرقية، ص 250.
43 . المسيرة الطويلة، ص 618.
44 . سيلينغز «ماذا كانت الجبهة الديموقراطية الموحدة؟»، المصدر نفسه.
45 . مانديلا، رسائل إلى بنجامين بوغرند، 30 كانون الثاني 1984، 22 تشرين الأول 1985؛ بوغرند، مقابلة مع المؤلف، 22 تشرين الأول 1996.
46 . إتش، دبليو ڤان ديرمبروي، تقرير عن زيارة لنيلسون مانديلا، 11 تشرين الأول 1984 (أرشيف جامعة كيتاون).
47 . نيكولاس بيثيل، البريد يوم الأحد، 27 كانون الثاني 1985؛ نيكولاس بيثيل، جواسيس وأسرار أخرى، ص 211 ـ 15، 218، 220.
48 . صامويل داش، نيويورك تايمز، 17 تموز 1985.
49 . مانديلا، رسالة إلى صامويل داش، 12 أيار 1986.

50 . الجنرال ويلمز، مذكرة إلى وزير السجون، نيسان ـ أيار 1985 (سجلات السجن).
51 . بلاك وغولد، ص 160.
52 . رسالة الهيئة التنفيذية الوطنية للمؤتمر الوطني الإفريقي، 8 كانون الثاني 1985.
53 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 25 كانون الثاني 1996.
54 . هاري أوبنهايمر، محادثة مع المؤلف 8 آب 1997.
55 . سباركس، المصدر نفسه، ص 49 ـ 50.
56 . مانديلا «أنا لست مستعداً للتخلي عن حق المولد للشعب بأن يكون حراً»، 10 شباط 1985، في جونز وهنت ديفيز، المصدر نفسه، ص 214 ـ 5.
57 . ليكوتا، المصدر نفسه، ص 194.
58 . أوليفر تامبو، رسالة إلى مانديلا، بلا تاريخ.
59 . أليستر سباركس، موت التمييز العنصري (فيلم، 1994، أخرجه ميك غولد).
60 . بلاك وغولد، ص 161.
61 . ميل والغارديان، 2 شباط 1996.
62 . مانديلا، رسالة إلى كايزر ماتانزيما، 26 كانون الأول 1984.
63 . مانديلا، رسالة إلى فاطمة مير، 25 شباط 1985.
64 . مانديلا، رسالة إلى كايزر ماتانزيما، 19 أيار 1986.
65 . كايزر ماتانزيما، رسالة إلى مانديلا 19 أيلول 1986.
66 . ليتش، جنوب إفريقية، لا عبور سهلاً إلى السلام، ص 174.
67 . بلاك وغولد، ص 178.
68 . جورج سوروز، محادثة مع المؤلف، 30 حزيران 1998.
69 . بلاك وغولد، ص 32.
70 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 شباط 1990.
71 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 9 شباط 1990.
72 . رسالة سامبسون، 4 شباط 1986.
73 . كروكر، المصدر نفسه، ص 275.
74 . نيويورك تايمز، 16 آب 1995.
75 . رويلوف إف. (بيك) بوثا «صلته الجنوب إفريقية». في هانز دوروفيل (طبعة)، الزعامة من أجل إفريقية: على شرف أولو سيغون أوباسانجو بمناسبة عيد ميلاده الستين، ص 57؛ بلاك وغولد، ص 32.
76 . إف. دبليو، دوكليرك، ، رسالة إلى المؤلف، 9 كانون الأول 1996؛ ب. دبليو، بوثا، مقابلة مع المؤلف، 2 آذار 1998.
77 . الرأي العام، آب 1985.
78 . 78 ستار، 22 آب 1985.
79 . واشنطن تايمز، 22 آب 1985.
80 . بلاك وغولد، ص 33، 193 ـ 5، 198 ـ 200.
81 . في نفس المكان، ص 40.
82 . بويل، محادثة مع المؤلف، 3 تشرين الأول 1996.
83 . انظر أيضاً جيوفري هاو، صراع الولاء، ص 479.
84 . مارغريت تاتشر، سنوات داوننغ ستريت، ص 515؛ بويل، محادثة مع المؤلف، 7 كانون الثاني 1997؛ ب. دبليو. بوثا، مقابلة مع المؤلف، 2 آذار 1998.
85 . سباركس، المصدر نفسه، ص 33؛ هاو، المصدر نفسه، ص 483.
86 . كاثرادا، رسالة إلى زوهرا، 28 أيلول 1985.
87 . كاثرادا، رسالة إلى شهنليز مير، 23 شباط 1986.
88 . غريغوري، المصدر نفسه، ص 250 ـ 156؛ مونتانا، مقابلة مع المؤلف، 27 حزيران 1996.
89 . سباركس، المصدر نفسه، ص 21، 24 ـ 25، 32.
90 . مانديلا، رسالة إلى عائشة، 19 آذار 1996.

91 . مانديلا، رسالة إلى كون نجونغوي، 12 أيار 1986.
92 . آدم ومودلي، المصدر نفسه، ص 282.
93 . ويكي ميل، 6 كانون الأول 1985، 7 ـ 14 شباط 1986.
94 . كاثرادا، رسالة إلى شهنيز مير، 23 شباط 1986.
95 . مانديلا، رسائل إلى ويني مانديلا، ، 2 شباط 1986 ـ 4 نيسان 1986.

الفصل 24

انفلات الزمام 1986 ـ 1988

1 . «منطقك أفزعني»، وول سوينكا، أرض مانديلا وأشعار أخر، ص 3.
2 . المسيرة الطويلة، ص 633.
3 . غريغوري، المصدر نفسه، ص 265.
4 . بيزوس، مقابلة لمينيل وجيبسون مانديلا (فيلم).
5 . أمينة كشاليا، مقابلة مع المؤلف، 23 تموز 1996.
6 . المسيرة الطويلة، ص 626 ـ 7.
7 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 24 شباط 1997.
8 . سيسولو، مقابلة مع هاوزروشو، المصدر نفسه.
9 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف، 22 كانون الثاني 1999؛ سباركس، المصدر نفسه، ص 29 ـ 31.
10 . مجموعة الأشخاص البارزين في الكومنولث بخصوص جنوب إفريقية، مهمة إلى جنوب إفريقية؛ تقرير الكومنولث، ص 56 ـ 62.
11 . بيك بوثا، في دورفيل، المصدر نفسه، ص 64.
12 . كروكر، المصدر نفسه، ص 315.
13 . رسالة سامبسون، 4 شباط 1986.
14 . ودور وايت (طبعة سارة كيرتيس)، مجلات وودرو وايت، المجلد 1، ص 95.
15 . وولدمير، المصدر نفسه، ص 95 ـ 6.
16 . مهمة إلى جنوب إفريقية، المصدر نفسه، ص 67 ـ 8.
17 . هاو، المصدر نفسه، ص 484؛ أنطوني باربر، ركب الحد، ص 164 ـ 73.
18 . وولدمير، المصدر نفسه، ص 96.
19 . مهمة إلى جنوب إفريقية، المصدر نفسه، ص 63؛ باربر، المصدر نفسه؛ بيك بوثا، في دورفيل، المصدر نفسه، ص 67.
20 . نانسي هاريسون، ويني مانديلا: أم شعب.
21 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 تشرين الأول 1996.
22 . رسالة سامبسون، 10 أيلول 1985، 4 آذار 1986.
23 . ويني مانديلا، المصدر نفسه، ص 92.
24 . جيلبي، المصدر نفسه، ص 145.
25 . ستار، 16، 19 نيسان 1986.
26 . انظر أيضاً جيلبي، المصدر نفسه، ص 146.
27 . معلومات خاصة.
28 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 تشرين الأول 1996.
29 . إسماعيل أيوب، محادثة مع المؤلف، 19 تموز 1998؛ كاثرادا، مقابلة مع المؤلف، 24 شباط 1997.
30 . مهمة إلى جنوب إفريقية، المصدر نفسه، ص 61، بيك بوثا، في دورفيل، المصدر نفسه، ص 61.
31 . مانديلا، رسالة إلى كوني نجونغوي، 12 أيار 1986.
32 . مهمة إلى جنوب إفريقية، المصدر نفسه، ص 112، 114 ـ 16، 19.
33 . مذكرة حول تشاور مع ن. ر مانديلا في سجن بولسمور، 19 أيار 1986 (مركز رامابيبوي).
34 . سباركس، المصدر نفسه، ص 32، 35؛ كروكر، المصدر نفسه، ص 315؛ ب. دبليو. بوثا، مقابلة مع المؤلف، 2 آذار 1998.
35 . بيك بوثا، في دورفيل، المصدر نفسه، ص 67؛ تاتشر، المصدر نفسه، ص 519؛ هاو،

المصدر نفسه، ص 485؛ كروكر، المصدر نفسه، ص 316؛ المسيرة الطويلة، ص 630.

36 . مهمة إلى جنوب إفريقية، المصدر نفسه، ص 135؛ معلومات خاصة.

37 . رسالة سامبسون، 1 تموز 1986.

38 . المسيرة الطويلة، ص 631؛ سباركس، المصدر نفسه.

39 . نيل بارنارد، مقابلة مع المؤلف، 5 شباط 1998.

40 . نلسون مانديلا يتحدث، ص 154.

41 . المسيرة الطويلة، ص 631 ـ 5.

42 . غريغوري، المصدر نفسه، ص 380.

43 . مانديلا، رسالة إلى راين مانديلا، بلا تاريخ.

44 . نيويورك تايمز، 22 كانون الثاني 1986.

45 . ماكي مانديلا، رسائل إلى مانديلا، 23 كانون الثاني 1987، 18 شباط 1988.

46 . مانديلا، رسالة إلى ماكي مانديلا، 18 شباط 1987.

47 . زيني مانديلا، رسالة إلى مانديلا، 25 أيار 1987، مانديلا، رسالة إلى الرئيس سيلبر (جامعة بوسطن)، 30 كانون الثاني 1987 (سجلات السجن).

48 . مانديلا، رسائل إلى زنلزي مانديلا، 18 أيار 1987، 23 تشرين الثاني 1987، آذار 1985.

49 . مانديلا، رسالة إلى ماري بنسون، 6 أيار 1987.

50 . مانديلا، رسالة إلى فاطمة مير، 1 آذار 1988.

51 . مانديلا، رسالة إلى كيبو مكينتين، 25 شباط 1987؛ فريدا ماثيوز، رسالة إلى مانديلا، 24 تشرين الثاني، 1986.

52 . مانديلا، رسالة إلى صديق، بلا تاريخ؛ كاثرادا، تعليق على النص.

53 . لودج وناسون، المصدر نفسه، ص 88.

54 . روبن رينويك، دبلوماسية غير تقليدية في جنوب إفريقية، ص 113.

55 . روبيرت هارفي «الهجرة الجماعية البيضاء الكبيرة: تاريخ القبيلة الأفريقانية من ڤان ريبيك إلى سقوط التمييز العنصري» غير منشور.

56 . لسش

ودج وناسون، المصدر نفسه، ص 103، 109، 114.

57 . صنداي أندنبدنت، 21 نيسان 1996.

58 . فاينتشال ميل، 20 حزيران 1986.

59 . ليليفيلد، المصدر نفسه، ص 356.

60 . تاتشر، المصدر نفسه، ص 532؛ هاو، المصدر نفسه، ص 490.

61 . لجنة الحقائق والمصالحة، لجنة الحقائق والمصالحة لتقرير جنوب إفريقية، المجلد 2، ص 464.

الفصل 25

القائد المفقود 1983 ـ 1988

1 . كروكر، المصدر نفسه، ص 321ـ 4؛ George Shultz, *Turmoil and Triumph: My Years as Secratary of state*, P. 1123; معلومات خاصة.

2 . هاو، المصدر نفسه، ص 489 ـ 91، 497.

3 . تاتشر، المصدر نفسه، ص 521 ـ 2.

4 . *Financial Times* 5 فبراير 1986.

5 . لورد رينويك، مقابلة مع المؤلف، 3 أكتوبر 1996؛ أو. تامبو، حوار مع المؤلف، 29 مايو 1987.

6 . اينوس مابوزا، مقابلة مع المؤلف، 24 يوليو 1996.

7 . رينويك، المصدر ذاته، ص 113 ـ 14؛ معلومات خاصة.

8 . انظر الغارديان، 19 أكتوبر 1987.

9 . هاو، المصدر نفسه، ص 489؛ رينويك، مقابلة مع المؤلف، 2 أكتوبر 1996.

10 . إدوارد سيغا، مقابلة مع المؤلف 6 نوفمبر 1987.

11 . آدم ومودلي، المصدر نفسه، ص 120.

12 . والدمير، المصدر نفسه، ص 71؛ سير باتريك

فيرويلدر، مقابلة مع المؤلف، 3 أكتوبر 1997؛ أويزرفر 25 سبتمبر 1988.

13. *Blach and Gold*، ص 246.
14. مانديلا، رسالة إلى إيفي شولتز، 1 أبريل 1987.
15. أو. تامبو، حوار مع الكاتب، 21 يناير 1987.
16. والدمير، المصدر نفسه، ص 63 ـ 4، 69.
17. *Blach and Gold* ص 228 ـ 9؛ Crhis Alden, *Apartheid's Last Stand: the Rise and Fall of the Thouth African Security State,* p. 267, Citing Niēl Barnard, *Dic Beeld,* 19 Feb. 1992; Dr. Daan Prinsloo, *Stem uit dic wilderness: 'n Biografie oor ond - pres. P. W. Botha,* P. 280. بي. دبليو، بوتا، مقابلة مع المؤلف، 2 مارس 1998.
18. Paul Johnson, Gold Fields: A Centenary Portrait, P. 94.
19. مايكل يونغ، مقابلة مع المؤلف، 12 أبريل 1995.
20. كاثرادا، مقابلة مع المؤلف، 24 يوليو 1996.
21. بي. دبليو. بوثا، مقابلة مع المؤلف، 2 مارس 1998.
22. جواب من كوبي كوتسي إلى المحامي اس. سي. جاكوبس في البرلمان، 19 أبريل 1990 (سجلات السجن).
23. مبيكي، *Sunset at Midday*، ص 86.
24. أو. تامبو، حوار مع الكاتب، 26 ديسمبر 1987.
25. سباركس، المصدر نفسه، ص 60.
26. آلدين، المصدر نفسه، ص 267: الاستشهاد بـ *Dic Beeld*، 19 فبراير 1992.
27. سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 25 يناير 1996؛ *Long Walk* ص 638.
28. *observer* 1 مارس 1987.
29. مبيكي، *Sunset at Midday* ص 103 ـ 4.
30. سامبسون، يوميات، 23. 27 سبتمبر 1987.
31. مانديلا، مقدمة لتامبو، المرجع نفسه ص xi.
32. مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 24 فبراير 1997.
33. *Long Walk* ص 640؛ ولدمير، المصدر نفسه ص 101.
34. الكولونيل جي. جي. لورينز، تقرير عن مانديلا، 14 مايو 1988 (سجلات السجن).
35. *Long Walk* ص 640، 2.
36. مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 24 فبراير 1997.
37. والدمير، المصدر نفسه، ص 67؛ مانديلا، مقابلة مع المؤلف 24 فبراير 1997.
38. ثابو مبيكي، مقابلة مع المؤلف، 19 أكتوبر 1996.
39. يونغ، مقابلة مع المؤلف، 12 أبريل 1995.
40. مانويم، المصدر نفسه، ص 86.
41. الغارديان 30 أبريل 1994.
42. *ANC News Briefing* 12 يونيو 1988.
43. كاثرادا، رسالة إلى بول جوزيف، 26 أغسطس 1988.
44. SABC *Comment: The Mandela Campaign,* 14 June. 1988.
45. جوهانسبورغ صنداي، تايمز 10 يوليو 1988.
46. *Star*، 14 يونيو 1988؛ *Sowetan*، 19 يوليو 1988، اقتباس *Dle Beeld*، 18 يوليو 1988.
47. *ANC News Briefing,* 24 Jul. 1988.
48. أمينة كاشاليا، مقابلة مع المؤلف، 31 يوليو 1997 *Sunday Star* 24 يوليو 1988.
49. Mamphela Ramphele, *Alife,* PP. 200 - 1.
50. كاثرادا، رسالة إلى جي. إن. سينغ، 16 سبتمبر 1988.
51. غريغوري، المصدر نفسه ص 287.
52. *Long Walk*، ص 645 ـ 6؛ مانديلا، تعليقات على النص.
53. *Sunday Times* 14، 21 أغسطس 1988.
54. اجتماع طارىء للجنة العاملة الوطنية، 28 أكتوبر 1988، «احتمال إطلاق سراح نيلسون مانديلا:

قرارات اللجنة العاملة الوطنية؛ 28 أكتوبر 1988 (مركز ميبوري، كيب تاون).

55 . كاثرادا، رسالة إلى جي. إن. سينغ، 16 سبتمبر 1988.

56 . فيونا دانكان، رسالة إلى مانديلا، نوفمبر 1989 (سجلات السجن).

57 . *Long Walk*، ص 650.

الفصل 26

«خطأ فادح»: 1987 ـ 1989

1 . إسماعيل ثايوب، بيان صحفي باسم نيلسون مانديلا، 29 يوليو 1988.

2 . أزهار كاشاليا، تصريح إلى TRC نوفمبر 1997.

3 . تقرير الـ TRC، المجلد 2، ص 578 . 9.

4 . دبليو. ماديكيزيلا ـ مانديلا، إفادة إلى TRC ديسمبر 1997.

5 . Sunday Independent، 30 نوفمبر 1997.

6 . تقرير TRC، المجلد 2، ص 582.

7 . أمنية كاشاليا، مقابلة مع المؤلف، 19 أغسطس 1996.

8 . اللجان الفرعية لـ TRC; أسئلة وأجوبة، 25 يوليو 1996.

9 . دبليو. ماديكيزيلا ـ مانديلا، إفادة لـ TRC ديسمبر 1997.

10 . تقرير TRC، المجلد 2، ص 579، 582.

11 . Sunday Independent، 30 نوفمبر 1997.

12 . خضوع لجنة أزمة مانديلا إلى الـ TRC.

13 . مانديلا، رسالة إلى و . مانديلا، 1 أغسطس 1988 (سجلات السجن).

14 . *Long Walk* ص 645؛ Independent، 30 يوليو 1988.

15 . خضوع الـ TRC: أسئلة وأجوبة 25 يوليو 1996.

16 . دليل الـ TRC.

17 . تقرير الـ TRC، المجلد 2، ص 565 .7.

18 . Fred Bridgland, *Katiza's Journey: Beneath the surface of South Africans Shames*, P. 69; تقرير TRC، المجلد 2، ص 567 . 8.

19 . Business Day، 25 نوفمبر 1997، Daily Telegraph، 4 ديسمبر 1997.

20 . تقرير TRC، المجلد 2، ص 567.

21 . لجنة أزمة مانديلا، تقرير إلى أوليفر تامبو، يناير 1989؛ *Mail, Gnardian*، 12 سبتمبر، 1997.

22 . فرانك تشيكاني، رسالة إلى مانديلا، 14 يناير 1989 (سجلات السجن)؛ مانديلا، ملاحظات على النص.

23 . مانويم، المصدر نفسه، ص 122. 3.

24 . بريدج لاند، المصدر نفسه، ص 100.

25 . أزهار كاشاليا. إفادة إلى TRC؛ *Sunday Independent*، 30 نوفمبر 1997، دبليو. ماديكيزيلا ـ مانديلا، شهادة أمام TRC ديسمبر 1997.

26 . بيان صحفي لـ MDM حول ويني مانديلا والـ MUFC، 16 فبراير 1989.

27 . بريدج لاند، المصدر نفسه، ص 119.

28 . *New Nation*، 16 فبراير 1989.

29 . إذعان لجنة أزمة مانديلا لـ TRC؛ فرانك تشيكاني، تقرير إلى SACTU/ANC، 18 فبراير 1989.

30 . [جوهانسبورغ] Sunday Times، 19 فبراير 1989، بريدج لاند، المصدر نفسه، ص 120.

31 . مانديلا، رسالة إلى و . مانديلا، 16 فبراير 1989 (سجلات السجن).

32 . مير، المصدر نفسه، ص 322.

33 . أمينة كاشاليا، مقابلة مع المؤلف، 29 أغسطس 1996.

34 . دولا عمر، مقابلة مع المؤلف، 12 فبراير 1997.

35 . سجل زيارة ستانلي موغاب لنيلسون مانديلا، 23 فبراير 1989 (من تقرير عملي قدم لبيتر ستوري بعد الزيارة).

36 . مانديلا، رسالة إلى صديق، 28 فبراير 1989.
37 . سامبسون، يوميات، 6 مارس 1989.
38 . «أوليفر تامبو»، ملاحظات (أرشيف تامبو، فورت هاري).
39 . تقرير عن اجتماع لجنة الرئيس مع بايرز نودي، 25 أبريل 1989 (مركز ماي بوي).
40 . دبليو. ماديكيزيلا. مانديلا، إفادة أمام الـ TRC، ديسمبر 1997.
41 . تقرير TRC، المجلد 2، ص 581 .2.

الفصل 27

سجين مقابل رئيس: 1989 . 1990

1 . أحمد كاثرادا، رسالة إلى زوهرا، 25 يناير 1989؛ غريغوري، المصدر نفسه ص 310 .12.
2 . *Long Walk*، ص 653 . 4؛ وثيقة فريق الحكومة، 1 سبتمبر 1989 (مركز مايبوي).
3 . وثيقة فريق الحكومة، 1 سبتمبر 1989 (مركز مايبوي).
4 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف، 12 فبراير 1998؛ تقرير عن لقاء لجنة الرئيس مع بايرز نودي، 25 أبريل 1989 (مركز ماي بوي).
5 . تقرير عن اجتماع لجنة الرئيس مع إسماعيل أيوب، غير مؤرخ مركز (ماي بوي).
6 . سباركس، المصدر نفسه، ص 60 . 1.
7 . باربارة ماسيكيلا، مقابلة مع المؤلف، 26 أكتوبر 1997.
8 . تيم جينكين، «حوار مع ڤولا: قصة شبكة الاتصالات السريَّة لعملية ڤولا» ماي بوي، مايو . أكتوبر 1995؛ سباركس.
9 . تقرير عن اجتماع لجنة الرئيس، 28 أبريل 1989 (مركز ماي بوي).
10 . أو. تامبو، ملاحظات، غير مؤرخة (أرشيف تامبو، فورت هير).
11 . باربارة ماسيكيلا، مقابلة مع المؤلف، 26 أكتوبر 1997.
12 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف، 21 فبراير 1998.
13 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 27 نوفمبر 1995.
14 . [جوهانسبورغ] صنداي تايمز، 16 نوفمبر 1997.
15 . باويل، حوارات مع المؤلف. 12 فبراير 1989، 3 أكتوبر 1996.
16 . والدمير، المصدر نفسه، ص 109 . 10؛ فيرويثر، مقابلة مع المؤلف، 3 أكتوبر 1997.
17 . سامبسون، يوميات، 26 ديسمبر 1988، 24، 26 يناير 1989.
18 . رينويك، المصدر نفسه، ص 133؛ *Daily Telegraph*، 25 مارس 1989.
19 . ثابو مبيكي، مقابلة مع المؤلف، 25 أبريل 1988؛ هارفي، المصدر نفسه.
20 . *Guardian*، 24 يونيو 1989؛ سامبسون، مذكرات، 8 يونيو 1989.
21 . هايمان بيرنادت، مقابلة مع المؤلف، 12 أكتوبر 1996.
22 . مانديلا، رسالة إلى روبين رينويك، 10 أبريل 1989؛ *Weekly Mail*، 14 أبريل 1989.
23 . *South*، مايو 1989.
24 . المؤتمر الوطني الإفريقي لـ «جنوب إفريقية»: «تحديات ذاوية» (ورقة بحث سرية للسي آي إيه) مارس 1988.
25 . «جنوب إفريقية تدخل عقد التسعينات» (وثيقة سرية للسي آي إيه)، *Africa Review*، عدد خاص، 20 يناير 1989.
26 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 25 يناير 1996.
27 . *Weebly Mail*، 21 أبريل 1989.
28 . أو. تامبو، ملاحظات، مايو 1989 (أرشيف تامبو، فورت هير).
29 . *Weekly Mail*، 21 يوليو 1989؛ *Independent*، 23 يونيو 1989.
30 . لودج وناسون، المصدر نفسه، ص 110 . 15.
31 . بي. دبليو. بوثا، مقابلة مع المؤلف، 20

مارس 1998؛ برينسلو، المصدر نفسه، ص 285.
32. Long Walk، ص 657.
33. فريني غينوالا، مقابلة مع المؤلف، 11 أكتوبر 1996.
34. مانديلا، تعليقات على نص: مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 24 فبراير 1997.
35. سباركس The Death of Aparth eids (فيلم)؛ برينسلو، المصدر نفسه، ص 287. 7؛ Long Walk ص 659؛ مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 24 فبراير 1997.
36. آلدين، المصدر نفسه، ص 271، يستشهد Dic Beeld، 19 فبراير 1992؛ بارنارد، مقابلة مع المؤلف، 5 فبراير 1998؛ Cape Times، 18، 25، نوفمبر 1991؛ بي. دبليو. بوتا، المصدر نفسه، ص 43 4؛ من أجل صورة الاجتماع، انظر آلبريخت هاجمان، Nelson Mandela، ص 116.
37. Long Walk ص 659؛ observer، 9 يوليو 1989، Star، 13 يوليو 1989.
38. بارنارد، مقابلة مع المؤلف، 5 فبراير 1998.
39. روبين رينويك، المصدر نفسه، ص 137؛ Willem dcklerk, *F. W. dcklerk: The Man in this Time* p. 61.
40. كاثرادا، رسالة إلى أيدي دانييل، 22 يوليو 1989.
41. كاثرادا، مقابلة مع المؤلف، 7 فبراير 1997؛ سيسولو، مقابلة مع هاوسر وشور، المصدر نفسه.
42. وثيقة فريق الحكومة، 1 سبتمبر 1989 (مركز ماي بوي).
43. باربارة ماسيكيلا، مقابلة مع المؤلف، 26 أكتوبر 1996.
44. ماهاراج، تعليقات على نص؛ Financial Times، 22 أغسطس 1989.
45. Long Walk، ص 663.
46. Financial Times، 24 أغسطس 1989.
47. دبليو. دوكليرك، المصدر نفسه، ص 22.
48. روبين رينويك، مقابلة مع المؤلف، 2 أكتوبر 1996.
49. سباركس، المصدر نفسه، ص 110. 14.
50. سيسولو، مقابلة مع هاوسر وشور، المصدر نفسه.
51. خطة العمل بعد إطلاق سراح السجناء السياسيين: لوساكا، زامبيا، 9 أكتوبر 1989 (مركز ماي بوي).
52. كاثرادا، مقابلة مع المؤلف، 26 يناير 1996.
53. Daily Telegraph، 18 أكتوبر 1989.
54. New Nation، 13، 20 أكتوبر 1989.
55. سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 25 يناير، 1996. كاثرادا، مقابلة مع المؤلف، 27 نوفمبر 1995.
56. South، 19 أكتوبر 1989.
57. Weekly Mail، 20 أكتوبر 1989.
58. Anthony Seldon, Major: a Political Life, P. 97.
59. «جنوب إفريقية: العنف السياسي في كوازولو ـ ناتال» (وثيقة سرية للسي آي إيه) Africa Review. 19 يناير 1990.
60. Independent، 13 أكتوبر 1989.
61. Long Walk، ص 662، 660.
62. Guardian، 16 أكتوبر 1995.
63. مير، المصدر نفسه، ص XVIII؛ مير، «حاشية سابقة» لـ Higher than Hope (غير منشور بالإنكليزية).
64. سايلد سكاي، مقابلة مع المؤلف، 23 أكتوبر 1996.
65. رامفيلي، المصدر نفسه، ص 203.
66. داينيلز، مقابلة مع مينيل وجيبسون، Mandela. فيلم.
67. مانديلا، رسالة إلى مطعم كابيتانز، 25 سبتمبر 1989.

68 . سباركس، المصدر نفسه، ص 105 . 6؛ والدمير، المصدر نفسه، ص 136. 7.

69 . Long Walk، ص 663.

70 . اف. دبليو. دوكليرك، رسالة إلى المؤلف، ديسمبر 1996.

71 . والدمير، المصدر نفسه، ص 147؛ Long Walk ص 664. 5.

72 . والدمير، المصدر نفسه، ص 147، دبليو. دوكليك، المصدر نفسه، ص 80.

73 . Business Day، 5 فبراير 1990؛ سباركس The Death of Apartheid (فيلم)؛ موتلانا، مقابلة لـ مينيل وجيبسون Mandela (فيلم).

74 . مانديلا، رسالة إلى ريتشارد مابوينا، 28 يونيو 1989.

75 . Independent، 24 نوفمبر 1989.

76 . Black and Gobl ص 197؛ Financial Times 27 يناير 1990.

77 . Citizen، 16 يناير 1990.

78 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف، 27 يونيو 1997.

79 . New Nation، 8 ديسمبر 1989.

80 . South، 11 ديسمبر 1989.

81 . Gnardian، 9 يناير 1990 Independent as Sunday، 28 يناير 1990.

82 . دبليو. دوكليرك، المصدر نفسه، ص 5.

83 . رينويك، المصدر نفسه، ص 142.

84 . ماريكه دوكليرك، *Marike: a Journey Through Summer and Winter*, P. 153; والدمير، المصدر نفسه، ص 148.

85 . ليندا تشوكر، مقابلة مع المؤلف، 31 أكتوبر 1997.

86 . رينويك، المصدر نفسه، ص 142.

87 . R. W. Johnson and Lawrence Schlemmer (eds.), *Launching Democracy in South Africa*, p. 6, citing'private Communication'; رينويك، رسالة إلى المؤلف، 1998.

88 . Jhon Dugarde (ed), *The Last Years of Apartheid: civil Liberties in South Africa*, p. 152.

89 . Independent on Sunday، 4 فبراير 1990؛ Independent، 3 فبراير 1990.

90 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف، 5 فبراير 1990؛ ماغوباني، مقابلة مع المؤلف، 22 أكتوبر 1996.

91 . Long Walk، ص 666. 8؛ بارنارد، مقابلة مع المؤلف، 5 فبراير 1998.

92 . دبليو. اتش. ويليمزي، رسالة إلى مانديلا، 10 فبراير 1990 (سجلات السجن).

93 . Long Walk، ص 667 . 8؛ غريغوري، المصدر نفسه، ص 357؛ كوبي كويتسي، Cape Times، 1 فبراير 1991.

94 . دولا عمر، مقابلة مع المؤلف، 13 فبراير 1990، 12 فبراير 1997.

95 . Long Walk ص 671 . 3.

الفصل 28

الأسطورة والرجل

1 . Ottaway, *chained Together*, p. 47.

2 . باترسبي، حوار مع المؤلف، 16 نوفمبر 1998.

3 . International Merald Tribun، 23 فبراير 1990.

4 . Cape Times، 19 فبراير 1990.

5 . اف. دبليو. دوكليرك، F. W. Deklerk, *The Last Treck: a New Beginning - The Auto - bsography*, p. 169.

6 . تاتشر، المصدر نفسه، 532.

7 . فان ديربوست، خطاب في نادي الصحفيين في كيب تاون، 29 نوفمبر 1990.

8 . Financial Times، 13 فبراير 1990.

9 . المصدر نفسه.

10 . أمينة كاشاليا، مقابلة مع المؤلف، 29 أغسطس 1996.

11 . مير، مقابلة لصالح مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
12 . غورديمر، رسالة إلى المؤلف، 19 ديسمبر 1993.
13 . تشيريل كارولوس، حديث في لندن، 9 مارس 1998.
14 . مانديلا، مقابلة لصالح مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
15 . سيسولو، مقابلة مع هاوسر وشور، المصدر نفسه.
16 . مانديلا، مقابلة لصالح مينيل وجيبسون، مانديلا (فيلم).
17 . رينويك، المصدر نفسه، ص 149.
18 . نهرو، المصدر نفسه، ص 42.
19 . نيكسون، Nixon, *Home lands, Harlem and Hollywood*، ص 182.
20 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 فبراير 1990.
21 . ماك ماهاراج، ماي بوي. ديسمبر 1997.
22 . لورد هيوز، حوار مع المؤلف، 12 يونيو 1996.
23 . *Long Walk* ص 685.
24 . Graham Boyntan, *Last Days in Cloud Cuchoo Land*, p. 168.
25 . معلومة خاصة.
26 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 28 أبريل 1994.
27 . تسجيل فيديو لزيارة مانديلا للندن عام 1990 (مركز ماي بوي).
28 . *Independent*، 12 أبريل 1990.
29 . *Long Walk*، ص 696.
30 . *Guardian*، 27 أبريل 1990.
31 . تقرير سري من سفير جنوب إفريقية في روما، 28 يونيو 1990 (أرشيف العدل).
32 . مانديلا، تعليقات على نص؛ *Guardian*، 16 أبريل 1990، 30 يونيو 1990.
33 . *New York Times*، 1 يوليو 1990.
34 . مانديلا، تعليقات على نص.
35 . مذكرة وزارة الخارجية الأمريكية إلى السفارة الأمريكية في بريتورية، 2 يوليو 1992.
36 . كروثامر، International Merald Tribune، يوليو 1990.
37 . داڤيد دينكينز، حوار مع المؤلف، 16 فبراير 1998.
38 . *New York Times*، 7 يوليو، 1990.
39 . *Time*، 7 يوليو 1990.
40 . انظر أيضاً نيكسون، المصدر نفسه، ص 189.
41 . *Guardian*، 3 يوليو 1990.
42 . مانديلا إلى ريتشارد ستينجيل.
43 . سامبسون، يوميات، 3 يوليو 1993.
44 . سير تشارلز باول واللورد رينويك، مقابلات مع المؤلف، 1996؛ مانديلا يعلّق على نص.
45 . تاتشر، المصدر نفسه، ص 533: رينويك، مقابلة مع المؤلف، 1996.
46 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 11 فبراير 1997.
47 . كاثرادا، يعلق على نص.
48 . إ. مير، مقابلة مع المؤلف، 6 أكتوبر 1997.
49 . انظر: Dale Mckinley, The ANC and the Liberation Struggle, p. 112.
50 . Independent، 25 أكتوبر 1990؛ Citizen، 27 أكتوبر 1990.
51 . International Merald Tribune، 31 أكتوبر 1990.
52 . فلاديمير شوبيه، في *African Affairs*، 1996.
53 . مانديلا لريتشارد ستينجل.
54 . الكتاب نفسه.
55 . أوتاواي، المصدر نفسه، ص 50؛ مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 25 يوليو 1996.

الفصل 29

من الثورة إلى التعاون

1 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 228.

2 . P. W. Botha, *Fighter an Reformer*, P. 50.
3 . دوكليرك، رسالة إلى المؤلف، ديسمبر 1996.
4 . *Long Walk*، ص 692.
5 . سباركس، المصدر نفسه، ص 153 . 4.
6 . تقرير TRC المجلد 2، ص 69.
7 . سباركس، المصدر نفسه، ص 119.
8 . بي. دبليو. بوتا، مقابلة مع المؤلف، 21 مارس 1998.
9 . دوكليرك، إذاعة البي بي سي، لندن، 15 سبتمبر 1998.
10 . جينكين، المصدر نفسه، ص 21.
11 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف، 5 نوفمبر 1998.
12 . ماهاراج، تعليقات على نص.
13 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف، 21 نوفمبر 1998.
14 . والدمير، المصدر نفسه، ص 137.
15 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 226.
16 . انظر أيضاً Mkhondo, *Reporting South Africa* p. 42.
17 . *Long Walk* ص 696.
18 . [جوهانسبورغ] *Sunday star*، 12 أغسطس 1990.
19 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 188.
20 . نيكسون، المصدر نفسه، ص 219. 21.
21 . توروك، مقابلة مع المؤلف، 26 يوليو، 1998.
22 . Mandela interview, *prisoners of Hope* (video) Anant Singh.
23 . كاثرادا، مقابلة مع المؤلف، 21 نوفمبر، 1998.
24 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 53 ff.
25 . المصدر نفسه، ص 68 ff.
26 . ليكوتا، مقابلة مع المؤلف، 8 فبراير 1997.
27 . جوهانسبورغ صنداي تايمز، 26 أغسطس 1990.
28 . والدمير، المصدر نفسه، ص 197.
29 . مانديلا، الخطاب الختامي للمؤتمر الوطني الإفريقي، 7 يوليو 1991.
30 . مجلة *Leader ship*، كيب تاون، نوفمبر 1989.
31 . والدمير، المصدر نفسه، ص 210.
32 . سيسولو، مقابلة مع هاوسر وشور، المصدر نفسه.
33 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 28 أبريل 1994.
34 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف، 29 نوفمبر 1995.
35 . *Sunday Independent*، 24 نوفمبر 1996.
36 . *observer*، 17 أكتوبر 1993.
37 . ماسيكيلا، مقابلة مع المؤلف، 26 أكتوبر 1997.
38 . مقابلات المؤلف مع طاقم مانديلا، 1997.
39 . المصدر نفسه.
40 . ساش، مقابلة مع المؤلف، 21 يوليو 1996.
41 . أوتاواي، المصدر نفسه، ص 158؛ مانديلا، ملاحظات على نص.
42 . آدم ومودلي، المصدر نفسه، ص 96.
43 . مانديلا، لريتشارد ستينجل.
44 . رينويك، المصدر نفسه، ص 146.
45 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 فبراير 1990.
46 . مانديلا، خطاب أمام رجال الأعمال، 23 مايو 1990.
47 . *Citizen*، 15 فبراير 1990.
48 . هيلين سوزمان، مقابلة مع المؤلف، 16 مايو 1996.
49 . *Cape Times*، 8 ديسمبر 1990.
50 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 8 أغسطس 1997.
51 . المصدر نفسه.

الفصل 30

القوة الثالثة

1 . تقرير TRC، المجلد 2، ص 585.
2 . مخوندو، المصدر نفسه، ص 67.
3 . سيسولو، مقابلة مع هاوسر وشور، المصدر نفسه.
4 . مير، «حاشية سابقة»، المصدر نفسه.

5 . *Long Walk*، ص 690.
6 . *Weebly Mail*، 19 يوليو 1991.
7 . من مانديلا إلى ريتشارد ستينجل.
8 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 199.
9 . بوثيليزي، مقابلة مع المؤلف، 10 فبراير 1998.
10 . والدمير، المصدر نفسه، ص 175.
11 . ميبكي، إيجاز في لندن، 20 سبتمبر 1990.
12 . مخوندو، المصدر نفسه، ص 68.
13 . تقرير TRC، المجلد 2، ص 585.
14 . *Long Walk*، ص 704.
15 . تقرير *TRC*، المجلد 2، ص 708.
16 . المصدر نفسه، ص 681 . 4.
17 . مذكرة حوار، البيت الأبيض، 24 سبتمبر 1990 (رفع الحظر عن تداولها في 22 أغسطس 1995).
18 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 200.
19 . المصدر نفسه، ص 196.
20 . بيك بوتا، مقابلة مع المؤلف، 21 ديسمبر 1997.
21 . تاتشر، المصدر نفسه، ص 532.
22 . *The Times*، 18 يوليو 1990؛ ذكريات خاصة.
23 . بوثيليزي، مقابلة مع المؤلف، 10 فبراير 1998.
24 . *Independent on sunday*، 11 نوفمبر 1990.
25 . *Guardian*، 27 مايو 1991.
26 . مانديلا، تعليقات على نص.
27 . *Long Walk*، ص 708.
28 . تقرير TRC، المجلد 3، ص 326.
29 . أوتاواي، المصدر نفسه، ص 114.
30 . مانديلا، مقابلة مع بيل كلير، *New York Times*، 12 سبتمبر 1994.
31 . بوثيليزي، رسالة إلى مانديلا، أبريل 1991 (أرشيف المؤتمر الوطني الإفريقي، جوهانسبورغ).
32 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 206.
33 . *Business Day*، 18 سبتمبر 1990؛ ستيفن إليس «الأهمية التاريخية للقوة الثالثة في جنوب إفريقية» يونيو 1998، ص 288 *Journal of African Studies*.
34 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 184.
35 . مارك ستوارت، Mark Stuart, *Douglas Hurd: The public servant*, p. 281.
36 . *Guardian*، 25 أبريل 1991.
37 . سباركس، المصدر نفسه، ص 153.
38 . مانويم، المصدر نفسه، ص 143 . 53.
39 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 211.
40 . مخوندو، المصدر نفسه، ص 93 . 4؛ انظر أيضاً الصورة.
41 . أوتاواي، المصدر نفسه، ص 169.
42 . تقرير TRC، المجلد 2، ص 707.
43 . المصدر نفسه ص 709.

الفصل 31

خروج ويني

1 . *Daily Telegraph*، 19 مارس 1996.
2 . *Independent*، 8 مارس 1995.
3 . *Long Walk*، ص 719.
4 . مير، «حاشية سابقة»، المصدر نفسه.
5 . المصدر نفسه.
6 . نورين تيلور، مقابلة مع المؤلف، 27 يونيو 1998.
7 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف، 21 نوفمبر 1998.
8 . آثر شليسينجر، حوار مع المؤلف، 10 نوفمبر 1997.
9 . أمينة كاشاليا، مقابلة مع المؤلف، 29 أغسطس 1996.
10 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 أكتوبر 1996.
11 . *Cape Times*، 25 يناير 1990.
12 . ماكي مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 مارس 1997.

13 . Gillian Slovo, Every Secret Thing, P. 210.

14 . مير، «حاشية سابقة»، المصدر نفسه.

15 . مذكرة IDAF، 14 أكتوبر 1994 (أرشيف IDAF).

16 . *Independent*، 17 فبراير 1991.

17 . مير، «حاشية سابقة»، المصدر نفسه.

18 . مساعد مانديلا، مقابلة مع المؤلف.

19 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 أكتوبر 1996.

20 . Sowetan، 26 سبتمبر 1990.

21 . أوتاواي، المصدر نفسه، ص 153.

22 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 أكتوبر 1996.

23 . *Guardian*، 22 مايو 1990.

24 . *Star*، 20 سبتمبر 1990.

25 . دينيس هيربشتاين، IDAF: The History (غير منشور).

26 . أمينة كاشاليا، مقابلة مع المؤلف، 29 أغسطس 1996.

27 . أرشيف تامبو، مكتبة كولين، جامعة ويتووترسراند C 3121.

28 . جلسات استماع TRC، 23 يناير 1998.

29 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 أكتوبر 1996.

30 . انظر الفصل 37، ص 539 ـ 40.

31 . جيلبي، المصدر نفسه، ص 272.

32 . *Sowetan*، 30 مارس 1992؛ مويفسين ويليامز، مقابلة مع المؤلف، 17 فبراير 1997؛ مانديلا، تعليقات على نص.

33 . انظر جيلبي، المصدر نفسه، ص 278 . 80.

34 . Fergal Keane, *The Bondage offear: a Journey Through the Last White Empire*, p. 217.

35 . ماسيكيلا، مقابلة مع المؤلف، 26 أكتوبر 1997.

36 . مير، حاشية سابقة، المصدر نفسه.

37 . *Sowetan*، 16 يوليو 1993.

38 . جوهانسبورغ *Sunday Times*، 6 سبتمبر 1992.

39 . سوزمان، مقابلة مع المؤلف، 15 مايو 1996.

40 . جوهانسبورغ *Sunday Times*، 1 نوفمبر 1992.

الفصل 32

التفاوض

1 . سوزمان، مقابلة مع المؤلف، 16 مايو 1996.

2 . مخونلو، المصدر نفسه، ص 3.

3 . إليس، المصدر نفسه، ص 286.

4 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 185.

5 . *Long Walk*، ص 626؛ فيديو لزيارة مانديلا للندن عام 1990 (مركز ماي بوي).

6 . رينويك، مقابلة مع المؤلف، 2 أكتوبر 1996.

7 . دوكليرك، المصدر نفسه، 365 ـ 7.

8 . *Long Walk*، ص 588، والدمير، المصدر نفسه، ص 241.

9 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 238.

10 . ماك ماهاراج، مقابلة مع المؤلف، يوليو 1998؛ ماهاراج، تعليقات على نص.

11 . *Nelson Mandela speaks*، ص 154؛ دوكليرك، المصدر نفسه، ص 220.

12 . فرين غينوالا، مقابلة مع المؤلف، 11 أكتوبر 1996؛ آلبي ساتش، مقابلة مع المؤلف، 21 يوليو 1996.

13 . انظر والدمير، المصدر نفسه، ص 191.

14 . دوكليرك، رسالة إلى المؤلف، ديسمبر 1996.

15 . بيك بوتا، انظر مخونلو، المصدر نفسه، ص 12؛ دوكليرك، المصدر نفسه، ص 224.

16 . *Long Walk*، ص 717.

17 . المصدر نفسه، ص 692.

18 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 164 ـ 5.

19 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 239.

20 . آلبي ساتش، مقابلة مع المؤلف، 27 فبراير 1998.

21 . تقرير TRC المجلد 3، ص 698.
22 . مير (ناشر) *The CODESA FILE*، ص 109.
23 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 181.
24 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 242.
25 . رينويك، مقابلة مع المؤلف، 2 أكتوبر 1996.
26 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 210.
27 . المصدر نفسه، ص 191.
28 . مير (ناشر) *RECODESA FILE*، ص 108 . 9.
29 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 245.
30 . تقرير TRC، المجلد 3، ص 144.
31 . كاسريلز، مقابلة مع المؤلف، 31 يوليو 1997؛ مانديلا، تعليقات على نص.
32 . *Star*، 15 سبتمبر 1992؛ *Nelson Mandela Speaks*، ص 205.
33 . أوتاواي، المصدر نفسه، ص 224.
34 . سيريل رامافوسا، حوار مع المؤلف، 28 يونيو 1996.
35 . أوتاواي، المصدر نفسه، ص 250.
36 . تيم دو بليسيس، مقابلة مع المؤلف، 26 فبراير 1998.
37 . ليون ويسيلز، مقابلة مع المؤلف، 27 فبراير 1998.
38 . مانديلا، مقابلة مع البروفسور ڤيلا . فيسينسيو. انظر Cape Times، 1 أغسطس 1992.
39 . فيديو تاريخ الإذاعة البريطانية.
40 . ماهاراج، *Mayibuye*، ديسمبر 1997؛ ماهاراج، مقابلة مع المؤلف، 21 نوفمبر 1998.
41 . مانديلا، اقتباس في والدمير، المصدر نفسه، ص 41.
42 . والدمير، المصدر نفسه، ص 215؛ سباركس، المصدر نفسه، ص 80.
43 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 248.
44 . والدمير، المصدر نفسه، ص 217 . 18؛ ماهاراج، مقابلة مع المؤلف، 21 نوفمبر 1998؛ ماهاراج، تعليقات على نص.
45 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 252.
46 . والدمير، المصدر نفسه، ص 218.
47 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف، 21 نوفمبر 1998.
48 . سباركس، المصدر نفسه، ص 184.
49 . تقرير TRC المجلد 2، ص 718.
50 . جيريمي كروين، حوار مع المؤلف، 20 نوفمبر 1998.
51 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 257.
52 . مخوندو، المصدر نفسه، ص 163؛ كاسريلز، مقابلة مع المؤلف، 12 فبراير 1997.
53 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 230.
54 . آلبي ساتش، مقابلة مع المؤلف، 27 فبراير 1998.
55 . *Independent*، 18 فبراير 1993.
56 . *Long Walk*، ص 727.
57 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 274.
58 . المصدر نفسه، ص 276.
59 . *Star*، 14 أبريل 1993.
60 . مانديلا، خطاب، 14 أبريل 1995.
61 . *Long Walk*، ص 731.
62 . مانديلا، خطاب أمام البرلماني البريطاني، 5 مايو 1993؛ *Nelson Mandela Speaks* ص 256؛ أنطوني تامبسون، observeer، 9 مايو 1993.
63 . أوتاواي، المصدر نفسه، ص 249.
64 . *observer*، 24 أبريل 1994.
65 . *The Times*، 6 مايو 1993.
66 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 261.
67 . المصدر نفسه، ص 220؛ كان . بيرمان، المصدر نفسه، ص 79. 83.
68 . مانديلا يعلّق على نص.
69 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 231.
70 . *Independent*، 24 يونيو 1993.
71 . *The Times*، 21 أكتوبر، 1993.

72 . والدمير، المصدر نفسه، ص 227؛ Slabeert (reviewing Walmeir), *Sunday Independent*, 25 May 1997.

73 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 280.

74 . مانديلا، خطاب في الأمم المتحدة، 24 سبتمبر 1993.

75 . والدمير، المصدر نفسه، ص 231.

76 . المصدر نفسه، ص 232.

77 . المصدر نفسه.

78 . جوهانسبورغ *Sunday Times*، 16 فبراير 1997.

79 . آدم والبقية، *Comrades in Business*، ص 61.

80 . ڤيلا بيلاي، حوار مع المؤلف، 7 يناير 1999.

81 . *Mail* and *Guardian*، 6 نوفمبر 1998.

82 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 أكتوبر 1996.

83 . نادين غورديمر، رسالة إلى المؤلف، 19 ديسمبر 1993؛ دوكليرك، المصدر نفسه، ص 299.

84 . دوكليرك، رسالة إلى المؤلف، ديسمبر 1996.

85 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 300.

86 . ماريكة دوكليرك، المصدر نفسه، ص 200.

87 . سلوفو، مقابلة لـ مينيل وجيبسون، *Mandela* (فيلم).

الفصل 33

الانتخاب

1 . *Long Walk*، ص 735.

2 . كارل نيهوس، مقابلة مع المؤلف، 30 أبريل 1998.

3 . *Citizen*، 21 مارس 1994.

4 . ماسيكيلا، مقابلة مع المؤلف، 26 أكتوبر 1996.

5 . باتمان، المصدر نفسه، ص 127 (تضمين نقابة صحافة جنوب إفريقية، 27 سبتمبر 1996).

6 . مانديلا، يعلق على نص.

7 . آلبي ساتش، مقابلة مع المؤلف، 21 يوليو 1996.

8 . ماهاراج، في ماي بوي، ديسمبر 1997.

9 . مانديلا، مقابلة مع كين أوين، جوهانسبورغ صنداي تايمز، 1 مايو 1994.

10 . *Independent*، 29 أبريل 1994.

11 . *Sunday Times*، 19 ديسمبر 1993.

12 . مانديلا، خطاب في قاعة مدينة جوهانسبورغ Johannesburg City Hall، 20 فبراير 1998.

13 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 330.

14 . والدمير، المصدر نفسه، ص 238.

15 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 11 فبراير 1998.

16 . *Star*، 10 أكتوبر و26 نوفمبر 1993.

17 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 11 فبراير 1998.

18 . مانديلا، مقابلة مع أنطوني لويس، *New York Times*، 23 مارس 1997.

19 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 11 فبراير 1998.

20 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 311.

21 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 11 فبراير 1998.

22 . مانديلا، يعلق على نص.

23 . بيك بوتا، مقابلة مع المؤلف، 21 ديسمبر 1997؛ مانديلا يعلق على نص.

24 . بي. دبليو. بوتا، مقابلة مع المؤلف، 2 مارس 1998.

25 . *observer*، 18 ديسمبر 1994؛ بي. دبليو. بوتا، مقابلة مع المؤلف، 2 مارس 1998.

26 . كاسريلز، مقابلات مع المؤلف، 12 فبراير 1997، 31 يوليو 1997.

27 . مانديلا، يعلق على نص؛ *Star*، 25 أبريل 1994.

28 . سباركس، المصدر نفسه، ص 214.

29 . *Sunday Times*، 13 مارس 1994.

30 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 11 فبراير 1998.

31 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 315.

32 . المصدر نفسه، ص 318.

33 . مانديلا، خطاب إلى الشيوخ، *Star*، 2 أبريل 1995.

34 . *Mail & Guardian*، 9 يونيو 1995.
35 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 322.
36 . *Guardian*، 9 ديسمبر 1997.
37 . ميريدث، المصدر نفسه، ص 514.
38 . *Sunday Times*، 10 أبريل 1994.
39 . كولين كولمان، مقابلة مع المؤلف، 30 يونيو 1998.
40 . المصدر نفسه.
41 . كيسنجر، مقابلة مع إيفان فالون، *S.A. Times*, *Star*، 13 نوفمبر 1996.
42 . معلومة خاصة.
43 . كولين كولمان، مقابلة مع المؤلف، 30 يونيو 1998.
44 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 326.
45 . ثابو مبيكي، حوار مع المؤلف، 23 أبريل 1994.
46 . حوار المؤلف مع عضو في فريق دوكليرك الانتخابي، 15 يونيو 1990.
47 . *International Herald Tribune*، 16 أبريل 1994.
48 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 301.
49 . *New York Review of Books*، 20 أكتوبر 1994.
50 . *Star*، 25 أبريل 1994.
51 . أنانت سينغ، *Count down to Freedom* (فيديو، 1994).
52 . نيهوس، مقابلة مع المؤلف، 30 أبريل 1998.
53 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 332.
54 . *International Herald Tribune*، 16 أبريل 1994.
55 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 28 أبريل 1994.
56 . تقرير TRC، المجلد 2، ص 662.
57 . سيسولو، مقابلة مع هاوسر وشور، المصدر نفسه.
58 . *Long Walk*، ص 743.
59 . [Johanns borg] *Sunday Times*، 1 مايو 1994؛ حوار الكاتب مع أعضاء فريق دوكليرك الانتخابي، 15 يونيو 1990.
60 . لاخدار براهيمي، حوار مع المؤلف، 28 أبريل 1994.
61 . *Guardian*، 29 أبريل 1994.
62 . André Brink (ed.), *27 April: One Year Later*.
63 . مانديلا، يعلق على نص.
64 . *Long Walk*، ص 747.
65 . المصدر نفسه.
66 . *Time*، 13 أبريل 1998.
67 . *Long Walk*، ص 750.
68 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 340.
69 . *Sunday Telegraph*، 1 مايو 1994.

الفصل 34

الحكم

1 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 252.
2 . *Star & S. A. Times*، 1 أبريل 1998.
3 . [Johannsburg] *Sunday Times*، 25 فبراير 1996.
4 . مانديلا، تعليق على نص.
5 . مانديلا، مقابلة مع جون كارين، *Independent*، 8 يونيو 1994.
6 . هانسارد، جنوب إفريقية، 12 فبراير 1997.
7 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 338 ـ 9، 346.
8 . أخبار الإذاعة البريطانية، 31 أكتوبر 1997.
9 . جون دوبلداي، محادثة تلفونية مع المؤلف، 10 فبراير 1996.
10 . *Independent*، 8 مارس 1995.
11 . مقابلة المؤلف مع أحد أعضاء الحكومة.
12 . مولوبي، مقابلة مع المؤلف، 26 يونيو 1998.
13 . *Independent*، 8 مارس، 1995.
14 . المصدر نفسه، 7 مايو 1995.

15 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 أكتوبر 1996.
16 . سي. مينيل، المصدر نفسه.
17 . المصدر نفسه.
18 . انظر *Drum*، جوهانسبورغ، فبراير 1996.
19 . ماتانزيما، مقابلة مع المؤلف، 24 فبراير 1997.
20 . هولوميسا، مقابلة مع المؤلف، 19 يناير 1997.
21 . محادثات المؤلف مع أم تاتا، 4 فبراير 1996.
22 . *Financial Times*، 18 أغسطس 1994.
23 . في حفل الكومنويلث السنوي في لندن في مارس 1987 رحبت الملكة بحرارة بالأسقف توتو، الذي كان وقتها على خلاف مع حكومة السيدة تاتشر.
24 . معلومة خاصة.
25 . كاثرادا، *Star*، 17 يوليو 1998.
26 . *Mail & Guardian*، 7 نوفمبر 1997.

الفصل 35

مقام رفيع

1 . دافيد بيرسفورد، *observer*، 5 مايو 1996.
2 . سيسولو، مقابلة مع المؤلف، نوفمبر 1995.
3 . مانديلا، خطاب في بيتر ماريتزبورغ، 13 مارس 1993؛ *Nelson Mandela Speaks*، ص 229.
4 . مانديلا، خطاب افتتاح المؤتمر التاسع والأربعين للمؤتمر الوطني الإفريقي، بلو مغنتين، 17 ديسمبر 1994.
5 . مانديلا، الخطاب الختامي، المصدر السابق، 22 ديسمبر 1994.
6 . مانديلا، خطاب في حفل عيد ميلاده في بريتورية، 20 يوليو 1996.
7 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 342.
8 . مانديلا، مقابلة مع الـ *Time*، 16 مايو 1994.
9 . أسمال، مقابلة مع المؤلف، 26 يناير 1996.
10 . مانديلا، خطاب في تأبين جو سلوفو، 4 مايو 1996.
11 . مانديلا، مقابلة مع كلير، New York Times، 12 سبتمبر 1994.
12 . بالو جوردان، مقابلة مع المؤلف، 12 فبراير 1998.
13 . أسمال، مقابلة في [جوهانسبورغ] *Sunday Times*، 19 يوليو 1998.
14 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 344.
15 . مقابلة المؤلف مع عضو في الحكومة.
16 . أسمال، حوار مع المؤلف، 19 مارس 1997.
17 . ماهاراج، مقابلة مع المؤلف، 12 فبراير 1998.
18 . بيزوس، مقابلة مع المؤلف، 19 ديسمبر 1997.
19 . مقابلة المؤلف مع عضو في الحكومة.
20 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 244.
21 . *New York Times*، 12 سبتمبر 1994.
22 . مقابلة المؤلف مع عضو الحكومة؛ دوكليرك، المصدر نفسه ص 350.
23 . دوكليرك، حوار مع المؤلف، 19 يونيو 1995.
24 . [جوهانسبورغ] *Sunday Times*، 26 نوفمبر 1995.
25 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 352.
26 . بوثيليزي، مقابلة مع المؤلف، 10 فبراير 1998.
27 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 353.
28 . توتو، خطاب أمام نقابة صحافة الكومنويلث، كيب تاون، 15 أكتوبر 1996.
29 . New York Times، 12 سبتمبر 1994.
30 . فريق غينوالا، مقابلة مع المؤلف، 11 أكتوبر 1996.
31 . *New York Times*، 12 سبتمبر 1994.
32 . مانديلا، محاضرة أمام معهد دراسات جنوب شرق آسيا، في سينغافورة، 12 مايو 1987.
33 . دوكليرك ورامافوسا، خطابات للبرلمان، 10 أكتوبر 1996.
34 . مقابلة مانديلا مع المؤلف، 11 فبراير 1998.
35 . مقابلة المؤلف مع عضو في الحكومة.
36 . دوكليرك، المصدر نفسه ص 345.

37 . مانديلا، مقابلة في *Time*، 14 يونيو 1993.
38 . فرانك تشيكاني، خطاب لمحرري الكومنولث، كيب تاون، 10 أكتوبر 1996.
39 . *Independent*، يونيو 1994.
40 . [جوهانسبورغ] *Star*، 1 أغسطس 1997 تضمين Transparency International.
41 . توتو، حوار مع المؤلف، 17 فبراير 1998.
42 . *Independent*، 18 مارس 1999.
43 . *Cape Argus*، 7 فبراير 1997.
44 . *Financial Times*، 9 مايو 1996.
45 . Raymond Louw, Southern African Report، جوهانسبورغ، 12 يناير 1996.
46 . مانديلا، خطاب إلى البرلمان، 7 فبراير 1997.
47 . انظر مانديلا، خطاب أمام المؤتمر الوطني الإفريقي، 16 ديسمبر 1997،

الفصل 36

التسامح

1 . دينيس غولدبرغ، حوار مع المؤلف، 2 يناير 1999.
2 . أنطوني لويس، مجلة *New York Times*، 2 مارس 1997.
3 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 24 فبراير 1997.
4 . ألكساندر، مقابلة مع المؤلف، 14 أكتوبر 1996.
5 . Rich Mkhondo, *Reporting South Africa* ص 65.
6 . *Nelson Mandela Speaks*، ص 229.
7 . *Independent*، 18 أغسطس 1994.
8 . بي. دبليو. بوتا، مقابلة مع المؤلف، 2 مارس 1998.
9 . ويليمزي، مقابلة مع المؤلف، 21 أكتوبر 1996.
10 . سي. مينيل، المصدر نفسه.
11 . أمينة كاشاليا في *Madiba*، المصدر نفسه، ص 76.
12 . المصدر نفسه، ص 80.
13 . *Guardian*، 24 نوفمبر، 1995.
14 . غريغوري، مقابلة مع المؤلف، 26 يوليو 1998، كاثرادا، مقابلة، 16 أوكتوبر 1996.
15 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 28 أبريل 1994.
16 . *Star*، 17 يوليو 1998.
17 . مانديلا، خطاب للبرلمان، 9 فبراير 1996.
18 . نيلو وساتش، المصدر نفسه، ص 21.
19 . مانديلا، مقابلة مع أنطوني لويس، *New York Times* 2 مارس 1997.
20 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 346.
21 . *Mail & Guardian*، 14 أغسطس 1998.
22 . *Independent International*، 22 ديسمبر 1998.
23 . مانديلا، مؤتمر صحفي، كيب تاون، 12 فبراير 1990.
24 . محادثات المؤلف مع مسؤولي المؤتمر الوطني الإفريقي، 18 نوفمبر 1991.
25 . [جوهانسبورغ] *Star*، 15 فبراير 1994؛ تي. مبيكي، حوار مع المحررين، 17 فبراير 1998.
26 . مانديلا للمحررين الوطنيين، 1 نوفمبر 1996؛ Rhodes Journalism Review، غراهاستاون، ديسمبر 1996.
27 . *Star*، 20 ديسمبر 1997.
28 . موتلانا، حوار مع المؤلف، 2 فبراير 1996.
29 . *Business Day*، 19 ديسمبر 1997.
30 . مانديلا، حديث إلى المؤتمر الوطني الإفريقي، 16 ديسمبر 1997.
31 . Star & S. A. Times، 6 نوفمبر 1996.
32 . *Independent*، 1 أكتوبر 1996.
33 . *Rhodes Journalism Review*، نوفمبر 1997.
34 . تقرير بيتر سوليفان، 11 يونيو 1997.
35 . *Rhodes Journalism Review*، نوفمبر 1997.
36 . مانديلا، خطاب للمؤتمر الوطني الإفريقي، 16 ديسمبر 1997.

37 . مجلة *Mustler* [جنوب إفريقية] المجلد 4، رقم 1.
38 . *Cape Argus*، 6 فبراير 1998؛ جاكس جيرويل، حوار مع المؤلف، 13 فبراير 1998.
39 . مانديلا، حديث للمؤتمر الوطني الإفريقي. 16 ديسمبر 1997.
40 . *Rhodes Journalism Review*، ديسمبر 1996.
41 . *Sunday Independent*، 6 ديسمبر 1998.
42 . كادر أسمال والبقية، *Reconciliation Through Truth*، ص 18.
43 . إيثر واو، حوار مع المؤلف، 28 يوليو 1998.
44 . جيليان سلوفو، في الـ *Guardian*، 11 أكتوبر 1998.
45 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 369. 72.
46 . تقرير TRC، المجلد 1، ص 126.
47 . *Independent*، 5 نوفمبر 1996.
48 . *Guardian*، 13 مايو 1997.
49 . المصدر نفسه، 31 مارس 1998.
50 . المصدر نفسه، 15 أكتوبر 1997.
51 . المصدر نفسه، 16 أكتوبر 1997.
52 . *The Times*، 22 أغسطس 1996.
53 . *Star & S. A. Times*، 21 مايو 1997.
54 . معلومة خاصة.
55 . *Mail & Guardian*، 17 أبريل 1998.
56 . تقرير TRC، المجلد 5، ص 225.
57 . المصدر نفسه، ص 25ـ 6.
58 . *Sunday Independent*، 8 نوفمبر 1998.
59 . *Mail & Guardian*، 30 أكتوبر 1998.
60 . *Financial Times*، 31 أكتوبر 1998.
61 . *International Herald Tribune*، 2 نوفمبر 1998.
62 . *The Times*، 2 نوفمبر 1998.
63 . *Financial Times*، 4 ديسمبر 1998.
64 . مانديلا، مقابلة مع جون كارلين، *Sunday Independent*، 6 ديسمبر 1998.
65 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
66 . *Sunday Independent*، 6 ديسمبر 1998.
67 . غراسا ماتشل، مقابلة مع المؤلف، 22 فبراير 1998.

الفصل 37

الانسحاب

1 . مانديلا، تعليقات على نص.
2 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 355؛ مانديلا، تعليقات على نص.
3 . دوكليرك، رسالة إلى المؤلف، ديسمبر 1997.
4 . ليون ويسيلز، مقابلة مع المؤلف، 27 فبراير 1998.
5 . رويلوف ميار، حوار مع المؤلف، 17 فبراير 1998.
6 . دوكليرك، رسالة إلى المؤلف، ديسمبر 1996.
7 . دوكليرك، المصدر نفسه، ص 365.
8 . *Independent*، 10 مايو 1996؛ مانديلا، خطاب في بريتورية، 20 يوليو 1996.
9 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
10 . ثابو مبيكي، حوار مع المؤلف، 18 أكتوبر 1996 [ص 629].
11 . سيسولو، مقابلة مع هاوسر وشور، المصدر نفسه.
12 . بوثوليزي، مقابلة مع المؤلف، 10 فبراير 1998.
13 . مانديلا، محاضرة لمعهد دراسات جنوب شرق آسيا، سنغافورة، 12 مايو 1997.
14 . مانديلا، خطاب في حفل عيد ميلاد بريتورية، 20 يوليو 1996.
15 . [جوهانسبرغ] *Sunday Times*، 25 فبراير 1996.
16 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 25 يوليو 1996.
17 . *Mail & Guardian*، 11 أكتوبر 1996.
18 . رامافوسا، حوار مع المؤلف، 21 مايو 1996.

19 . مانديلا، تعليقات على نص.
20 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 أكتوبر 1996.
21 . *Star*، 17 نوفمبر 1997.
22 . المصدر نفسه، 20 نوفمبر 1997.
23 . بريد جلاند، المصدر نفسه، ص 69.
24 . إيليدي (إيما) نيكولسون، حوار مع المؤلف، 30 سبتمبر 1997.
25 . *Star*، 17 نوفمبر 1997.
26 . ويني مانديلا، الإفادة أمام TRC، 12 أبريل 1997، ص 2197، 2390، 2217، 2249، 2408 ـ 12.
27 . *Citizen*، 18 ديسمبر 1997.
28 . *Business Day*، 18 ديسمبر 1997.
29 . *Citizen*، 18 ديسمبر 1997.
30 . *Daily Telegraph*، 18 ديسمبر 1997؛ *Independent*، 18 ديسمبر 1997؛ *observer*، 21 ديسمبر 1997.
31 . ثابو مبيكي، خطاب أمام المؤتمر الوطني الإفريقي، 16 ديسمبر 1997.
32 . *Sowetan*، 18 ديسمبر 1997.
33 . مانديلا، خطاب أمام المؤتمر الوطني الإفريقي، مافيكينغ، 20 ديسمبر 1997.
34 . مانديلا، حديث أثناء الإفطار في مركز روكفلر في نيويورك، سبتمبر 1998.
35 . ثابو مبيكي، *Africa: the Time has Come*، ص 76.

الفصل 38

غراسا

1 . فاطمة مير، مقابلة مع المؤلف، 27 يوليو 1996.
2 . *Star*، 20 أغسطس 1995.
3 . المصدر نفسه.
4 . *Star & S. A. Times*، 3 أبريل 1996.
5 . كاثرادا في *Star*، 17 يوليو 1998.
6 . *Guardian*، 8 يوليو 1997.
7 . *observer*، 17 سبتمبر 1995.
8 . غراسا مانشيل، مقابلة مع المؤلف، 22 فبراير 1998.
9 . ويني مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 22 أكتوبر 1996.
10 . *Independent*، 14 يناير 1998.
11 . *Eastern Province Herald*، 3 مارس 1996.
12 . مارك جيفيس، في *Vogue*، أغسطس 1997.
13 . مانديلا، مقابلة تلفزيونية مع آليستار سباركس SABC، 8 فبراير 1998.
14 . أندرو يانغ، حديث في قاعة المدينة في جوهانسبورغ، 19 فبراير 1998.
15 . غراسا ماتشيل، مقابلة مع المؤلف، 22 فبراير 1998.
16 . المصدر نفسه.
17 . المصدر نفسه.
18 . [جوهانسبورغ] *Sunday Times*، 19 يوليو 1998.
19 . كاثرادا في *Star*، 17 يوليو 1998.
20 . غراسا مارتشيل، مقابلة مع المؤلف، 22 فبراير 1998.

الفصل 39

عالم مانديلا

1 . Wok Soyinka, *Times Higher Education Suppliment,*، 2 ديسمبر 1994.
2 . Mail & Guardian، 16 أكتوبر 1998.
3 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 8 أغسطس 1997.
4 . *Fureign Affairs*، نوفمبر 1993.
5 . مانديلا، مقابلة مع جون كارلين، *Sunday Independent*، 6 ديسمبر 1998.
6 . *Stark S. A. Times*، 21 مايو 1997.
7 . *Cape Times*، 24 فبراير 1997.

8 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
9 . *Independent*، 21 نوفمبر 1995.
10 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 27 نوفمبر 1995.
11 . *observer*، 26 نوفمبر 1995.
12 . دودو، *Mail & Guardian*، 13 نوفمبر 1998.
13 . *Sunday Independent*، 20 سبتمبر 1997.
14 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
15 . T. Mkeki, *Africa: The Time has come* ص 292.
16 . *Star & S. A. Times*، 16 سبتمبر 1998.
17 . *Sunday Independent*، 6 سبتمبر 1998؛ *Star & S. A. Times*، 16 سبتمبر 1998.
18 . *Mail & Gaurdian*، 8 سبتمبر 1995.
19 . مانديلا، محاضرة لمعهد دراسات جنوب شرق آسيا، سينغافورة، 12 مايو 1997.
20 . مانديلا، حديث لمركز أوكسفور للدراسات الإسلامية، 11 يوليو 1997.
21 . *Sunday Independent*، 3 أغسطس 1997.
22 . Sonathan Hyslop, «the African Renaissance Meets the Asian Renaissance? the Malaysian Impact on Contemporrary south Africa».
23 . باربارة ماسيكيلا، مقابلة مع المؤلف، 26 أكتوبر 1996.
24 . *Sunday Independent*، 24 نوفمبر 1996.
25 . *International Herald Tribune*، 16 يناير 1997.
26 . مانديلا، خطاب في جزيرة روبين، 11 فبراير 1996.
27 . *Star*، 5، 6 سبتمبر 1996.
28 . *Cape Times*، 23 يناير 1992.
29 . *Daily Telegraph*، 23 أكتوبر 1997؛ *The Times*، 23 أكتوبر 1997، *International Herald Tribune*، 24 أكتوبر 1997.
30 . *Guardian*، 30 أكتوبر 1997.
31 . *Guardian* 28 أكتوبر 1997.
32 . *New Republic*، 17 نوفمبر 1997.
33 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
34 . Daily Telegraph، 20 مارس 1999؛ معلومة خاصة.
35 . بيل كلينتون، تسجيل لحديث في البيت الأبيض، 22 سبتمبر 1998.
36 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
37 . *International Herald Tribune*، 27 مارس 1997.
38 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
39 . *International Herald Tribune*، 30 مارس 1998؛ معلومة خاصة.
40 . مانديلا وكليتون، خطابان في البيت الأبيض، 22 سبتمبر 1998؛ *Sunday Independent*. 27 سبتمبر 1998.
41 . *The Times*، 10 يوليو 1996.
42 . *Financial Times*، 9 نوفمبر 1998؛ غلينيس كينول، 24 نوفمبر 1998؛ *Financial Times* 26 مارس 1999.
43 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
44 . كلينتون، تسجيل لخطاب في البيت الأبيض، 22 سبتمبر 1998.

الفصل 40:

بلد مانديلا

1 . مانديلا، خطاب أمام البرلمان، 5 فبراير 1999.
2 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
3 . Adam et. al. *Comrades in Business*, pp. 165 - 6.
4 . المصدر نفسه، ص 201؛ انظر أيضاً: Stanley Uys, in Times Literary Supplement, *14 Nov. 1997.*
5 . توم لودج، في *Indicator*، جوهانسبورغ خريف 1995.

6 . *Guardian*، 30 يناير 1998.
7 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 24 فبراير 1997.
8 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
9 . المصدر نفسه.
10 . مانديلا، خطاب أمام البرلمان، 5 فبراير 1999.
11 . *Mail & Guardian*، 3 أبريل 1998.
12 . *Financial Times*، 27 يونيو 1998.
13 . انظر *International Herald Tribune*، 15 يوليو 1998.
14 . مانديلا، خطاب أمام البرلمان، 5 فبراير 1999.
15 . *Mail & Guardian*، 3 يوليو 1998؛ *Sunday Independent*، 5 يوليو 1998.
16 . مانديلا، خطاب أمام نادي الصحافة في جوهانسبورغ، 22 فبراير 1991؛ *Nelson Mandela Speaks*، ص 83.
17 . مقابلة مع روبرت جيفارد من وزارة الخارجية الأمريكية. *Star*، 7 أغسطس 1998.
18 . *International Herald Tribune*، 17 يوليو 1998.
19 . دولا عمر، مقابلة مع المؤلف، 12 فبراير 1997.
20 . *Star & S. A. Times*، 24 سبتمبر 1997.
21 . *Sunday Independent*، 13 سبتمبر 1998.
22 . *Star & S. A. Times*، 21 أكتوبر، 25 نوفمبر 1998.
23 . *Sunday Independent*، 6 ديسمبر 1998.
24 . المصدر نفسه، 13 سبتمبر 1998.
25 . مانديلا، خطاب أمام البرلمان، 5 فبراير 1999.
26 . *Economist*، 6 يناير 1996؛ *Sunday Independent*، 20 سبتمبر 1998.
27 . *Star & S. A. Times*، 23 سبتمبر 1998.
28 . *the Times*، 14 سبتمبر 1998.
29 . *Sunday Independent*، 20 سبتمبر 1998.
30 . *Sunday Times*، 22 نوفمبر 1998؛ ظهرت رسالة دافيد باتون في جوهانسبورغ *Sunday Independent*، 21 مارس 1999، لكن الـ Sunday Times لم تقبلها.
31 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
32 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 11 فبراير 1998.
33 . *Mail & Guardian*، 30 أبريل 1998.
34 . *Sunday Independent*، 29 مارس، 9 أبريل 1998؛ *Marl & Guardian*، 12 أبريل 1998.
35 . *Marl & Guardian*، 27 مارس 1998.
36 . المصدر نفسه، 9 أبريل 1998.
37 . *Guardian*، 7 أبريل 1997.
38 . معهد جنوب إفريقية للعلاقات العرقية *South African Survey* 1997 - 1998.
39 . *Guardian*، 15 مارس 1999.
40 . مانديلا، خطاب أمام البرلمان، 26 مارس 1999.

الفصل 41

الصورة والحقيقة

1 . *Long Walk*، ص 385.
2 . بريان والدين، تلفزيون البي بي سي، 3 فبراير1998؛ من أجل ردود فعل جنوب إفريقية انظر *Cape Argus*، 5 فبراير 1998.
3 . مانديلا، مقابلة مع المؤلف، 21 يناير 1999.
4 . سلوفو، مقابلة (لمينل وجيبسون)، مانديلا (فيلم).

المصادر والمراجع

Long Walk to Freedom (revised edition), Abacus, London, 1995
No Easy Walk to Freedom (ed. Ruth First), Heinemann, London, 1965
The Struggle is my Life, International Defence and Aid Fund for Southern Africa, London, 1978
Nelson Mandela Speaks: Forging a Democratic, Nonracial South Africa, David Philip, Johannesburg, 1994
'We Defy', *Drum*, Aug. 1952
Articles in *Liberation* and *Fighting Talk*, Johannesburg, 1953–59
Africa Diary (unpublished, Brenthurst Library), 1962
Trial speech, first draft, 1962 (Cullen Library, University of the Witwatersrand, Johannesburg)
Brief Notes in the Event of a Death Sentence, 1964 (Institute of Commonwealth Studies, University of London)
Jail Memoir (unpublished), 1975–76
'National Liberation' (unpublished essay), 1977
'Black Consciousness Movement' (unpublished essay), 1978
Conversations with Richard Stengel for *Long Walk to Freedom*, 1994
Interviews for Joe Menell and Angus Gibson for *Mandela* (film), 1994
Speeches and interviews, 1990–99, ANC, Johannesburg, and Office of the President, Pretoria

Drum: An African Adventure and Afterwards, Hodder & Stoughton, London, 1983 (originally published by Collins, London, 1956)
The Treason Cage, Heinemann, London, 1958
(with S. Pienaar) *South Africa: Two Views of Separate Development*, Oxford University Press, 1960
Macmillan: A Study in Ambiguity, Allen Lane, The Penguin Press, London, 1967
Black and Gold, Hodder & Stoughton, London, 1987
Diaries (unpublished), 1955–99
The Sampson Letter (fortnightly newsletter), Sept. 1984–Jul. 1986

* * *

Peter Abrahams, *Return to Goli*, Faber & Faber, London, 1953
Heribert Adam and Kogila Moodley, *South Africa Without Apartheid*, University of California Press, Berkeley, 1986
Heribert Adam, Frederik van Zyl Slabbert and Kogila Moodley, *Comrades in Business: Post-Liberation Politics in South Africa*, Tafelberg Publishers, Cape Town, 1997
Chris Alden, *Apartheid's Last Stand: The Rise and Fall of the South African Security State*, Macmillan, London, 1996
Neville Alexander, *Robben Island Dossier 1964–1974*, UCT Press, Cape Town, 1994
Amnesty International, *Political Imprisonment in South Africa*, Amnesty International, London, 1978
Kader Asmal, Louise Asmal and Ronald Suresh Roberts, *Reconciliation Through Truth*, David Philip, Johannesburg, 1996
Natoo Babenia, *Memoirs of a Saboteur*, Mayibuye, Cape Town, 1985
Martin Bailey, *Oilgate: The Sanctions Scandal*, Coronet, London, 1979
Pauline H. Baker, *The United States and South Africa: The Reagan Years*, Ford Foundation and Foreign Policy Association, New York, 1989
'Banned Leader', 'Problems of Organisation in the ANC', *Liberation*, Nov. 1955
Anthony Barber, *Taking the Tide*, Michael Russell, Norwich, 1996
Howard Barrell, *MK: The ANC's Armed Struggle*, Penguin, Harmondsworth, 1990
Howard Barrell, 'Conscripts to Their Age: ANC Operational Strategy, 1976–1986' (unpublished D.Phil thesis), University of Oxford, 1993
Mary Benson, *South Africa: The Struggle for a Birthright*, Penguin Africa Library, 1966
Mary Benson, *Nelson Mandela: The Man and the Movement*, Penguin, London, 1994
Mary Benson, *A Far Cry: The Making of a South African*, Viking, London, 1989
Mary Benson, Athol Fugard and Barney Simon, *Bare Stage, a Few Props, Great Theatre*, Ravan Press, Randburg, 1997
Hilda Bernstein, *The World that was Ours: The Story of the Rivonia Trials*, SA Writers, Robert Vicat, London, 1989
Rusty Bernstein, 'Memory Against Forgetting' (to be published in 1999)
Nicholas Bethell, *Spies and Other Secrets*, Viking, London, 1994
George Bizos, Notes for a Memoir (unpublished), 1996
Arthur Blaxall, *Suspended Sentence*, Hodder & Stoughton, London, 1965
Harry Bloom, *King Kong: An African Jazz Opera*, Collins, London, 1961
P.W. Botha, *Fighter and Reformer: Extracts from the Speeches of P.W. Botha* (compiled by J.J.J. Scholtz), Bureau of Information, Pretoria, 1989
Graham Boynton, *Last Days in Cloud Cuckoo Land*, Random House, New York, 1998

Fred Bridgland, *Katiza's Journey: Beneath the Surface of South Africa's Shame*, Sidgwick & Jackson, London, 1997
André Brink (ed.), *27 April: One Year Later*, Queillerie, Pretoria, 1995
André Brink, *Reinventing a Continent*, Secker & Warburg, London, 1996
Victoria Brittain, *Hidden Lives, Hidden Deaths*, Faber & Faber, London, 1988
Ralph J. Bunche (ed. Robert R. Edgar), *An African-American in South Africa: The Travel Notes of Ralph J. Bunche, 28 September 1937–1 January 1938*, Ohio University Press, Athens and Witwatersrand University Press, Johannesburg, 1992
Brian Bunting, *Moses Kotane*, Inkululeko Publications, London, 1975
Fran Lisa Buntman, 'The Politics of Conviction: Political Prisoner Resistance on Robben Island, 1962–1991' (unpublished PhD thesis), University of Texas at Austin, 1997
Alex Callinicos and John Rogers, *Southern Africa After Soweto*, Pluto Press, London, 1977
Luli Callinicos, 'Oliver Tambo and the Politics of Class, Race and Ethnicity in the ANC' (unpublished seminar paper), History Workshop, University of the Witwatersrand, 1997
Luli Callinicos, Notes for a Biography of Oliver Tambo (unpublished)
Joel Carlson, *No Neutral Ground*, Davis-Poynter Ltd, London, 1973
Stephen Clingman, *Bram Fischer: Afrikaner Revolutionary*, David Philip Publishers and Mayibuye Books, Belville, 1998
Richard Cockett, *David Astor and the Observer*, André Deutsch, London, 1991
Samuel Taylor Coleridge, *Biographia Literaria*, Cambridge University Press, 1920
Diana Collins, *Partners in Protest: My Life with Canon Collins*, Gollancz, London, 1992
John Collins, *Faith Under Fire*, Leslie Frewin, London, 1966
The Commonwealth Eminent Persons Group on Southern Africa, *Mission to South Africa: The Commonwealth Report*, Penguin, Middlesex, 1986
Tim Couzens, *The New African: A Study of the Life and Work of H.I.E. Dhlomo*, Ravan Press, Johannesburg, 1985
Chester Crocker, *High Noon in Southern Africa: Making Peace in a Rough Neighbourhood*, Jonathan Ball, Johannesburg, 1993
Jennifer Crwys-Williams (ed.), *In the Words of Nelson Mandela*, Penguin, London, 1997
Eddie Daniels, *There and Back: Robben Island, 1964–1979*, Mayibuye Books, University of the Western Cape, Belville, 1998
A.K. Datta, *South Africa*, Indian Council for Africa, New Delhi, 1960
Basil Davidson, *Report on Southern Africa*, Jonathan Cape, London, 1952
Peter Davis, *In Darkest Hollywood: Exploring the Jungle of Cinema's South Africa*, Ravan Press and Ohio University Press, Randburg and Athens, 1996

C.W. de Kiewiet, *The Anatomy of South African Misery*, Oxford University Press, 1957

F.W. de Klerk, *The Last Trek: A New Beginning – The Autobiography*, Macmillan, London, 1998

Marike de Klerk, *Marike: A Journey Through Summer and Winter* (as told by Maretha Maartens), Cape Diem Books, Vanderbijlpark, 1997

Willem de Klerk, *F.W. de Klerk: The Man in his Time*, Jonathan Ball, Johannesburg, 1991

Jacques Derrida and Mustapha Tlili (eds), *For Nelson Mandela*, Seaver Books, New York, 1987

H.H.W. de Villiers, *Rivonia: Operation Mayibuye*, Afrikaanse Pers-Boekhandel, Johannesburg, 1964

Hans d'Orville (ed.), *Leadership for Africa: In Honour of Olusegun Obasanjo on the Occasion of his 60th Birthday*, African Leadership Foundation, New York, 1995

Frank Diamond, *Portrait of Mandela* (film for IDAF, 1980)

Michael Dingake, *My Fight Against Apartheid*, Kliptown Books, London, 1987

Moses Dlamini, *Hell Hole, Robben Island: Reminiscences of a Political Prisoner*, Spokesman Books, Nottingham, 1984

Charles Douglas-Home, *Evelyn Baring: The Last Proconsul*, Collins, London, 1978

Peter Dreyer, *Martyrs and Fanatics*, Simon & Schuster, New York, 1980

C.J. Driver, *Patrick Duncan: South African and Pan-African*, Heinemann, London, 1980

Shirley Du Boulay, *Tutu: Voice of the Voiceless*, Hodder & Stoughton, London, 1988

Jack Dugard, 'Fragments of my Fleece' (unpublished), 1985

John Dugard (ed.), *The Last Years of Apartheid: Civil Liberties in South Africa*, Ford Foundation, New York, 1992

Stephen Ellis and Tsepo Sechaba, *Comrades Against Apartheid: The ANC and the South African Communist Party in Exile*, James Currey, London and Indiana University Press, Bloomington and Indianapolis, 1992

Stephen Ellis, 'South Africa's Third Force: Where did it come from? Where did it go?' (unpublished seminar paper), Institute of Commonwealth Studies, University of London, 1996

Stephen Ellis, 'The Historical Significance of South Africa's Third Force', *Journal of Southern African Studies*, Vol.24, No.2, Jun. 1998

Harold Evans, *Downing Street Diary: The Macmillan Years 1957–1963*, Hodder & Stoughton, London, 1981

Orlando Figes, *A People's Tragedy: The Russian Revolution 1891–1924*, Jonathan Cape, London, 1998

William Finnegan, *Dateline Soweto*, Harper & Row, New York, 1988

Foreign Policy Study Foundation, *South Africa: Time Running Out*, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1981
Lionel Forman and E.S. Sachs, *The South African Treason Trial*, John Calder, London, 1957
Sadie Forman and André Odendaal (eds), *Lionel Forman: A Trumpet from the Housetops*, Zed Books, London, 1992
Julie Frederikse, *The Unbreakable Thread*, Zed Books, London, 1990
Bill Freund, *Insiders and Outsiders: The Indian Working Class of Durban, 1910–1990*, Heinemann, James Currey Ltd and University of Natal Press, Portsmouth, New Hampshire, London and Pietermaritzburg, 1995
J.A Froude, *Lord Beaconsfield*, Sampson Low, London, 1890
Athol Fugard, *Statements: Two Workshop Productions Devised by Athol Fugard, John Kani and Winston Ntshona*, Oxford University Press, 1974
M.K. Gandhi, *An Autobiography, or The Story of my Experiments with Truth*, Penguin, London, 1982
Gail M. Gerhart, *Black Power in South Africa: The Evolution of an Ideology*, University of California Press, Berkeley, 1979
Mark Gevisser, *Portraits of Power*, David Philip Publishers, Cape Town, 1996
Martin Gilbert, *Finest Hour: Winston Churchill, 1939–1941*, Heinemann, London, 1983
Emma Gilbey, *The Lady: The Life and Times of Winnie Mandela*, Jonathan Cape, London, 1983
Nadine Gordimer, *Six Feet of the Country*, Gollancz, London, 1958
Sir de Villiers Graaff, *Div Looks Back: The Memoirs of Sir de Villiers Graaff*, Human & Rousseau, Cape Town, 1993
James Gregory, *Goodbye, Bafana: Nelson Mandela, My Prisoner, My Friend*, Headline, London, 1995
Albrecht Hagemann, *Nelson Mandela*, Fontein Books, Johannesburg, 1996
Peter Hain, *Sing the Beloved Country*, Pluto Press, London, 1996
W.K. Hancock, *Smuts: The Fields of Force, 1919–1950*, Cambridge University Press, 1968
Nancy Harrison, *Winnie Mandela: Mother of a Nation*, Gollancz, London, 1985
Robert Harvey, 'The Great White Trek: A History of the Afrikaner Tribe from van Riebeeck to the Fall of Apartheid' (unpublished manuscript), 1996
Healdtown, 1855–1955: Centenary Brochure, Lovedale Press, Lovedale, 1955
Denis Healey, *The Time of my Life*, Michael Joseph, London, 1989
Tony Heard, *The Cape of Storms: A Personal History of the Crisis in South Africa*, Ravan Press, Johannesburg, 1990
Edward Heath, *The Course of my Life: My Autobiography*, Hodder & Stoughton, London, 1998
Denis Herbstein, *White Man, We Want to Talk to You*, Penguin, London, 1978

Denis Herbstein, 'IDAF: The History' (unpublished manuscript), 1998
Leslie Arthur Hewson, 'Healdtown: A Study of a Methodist Experiment in African Education' (unpublished thesis), Rhodes University, Grahamstown, 1959
Baruch Hirson, *Revolutions in my Life*, Witwatersrand University Press, Johannesburg, 1995
Jim Hoagland, *South Africa: Civilizations in Conflict*, George Allen & Unwin, London, 1973
Heidi Holland, *The Struggle: A History of the African National Congress*, Grafton, London, 1989
Alistair Horne, *Macmillan, 1957–1986: Volume II of the Official Biography*, Macmillan, London, 1989
Geoffrey Howe, *Conflict of Loyalty*, Pan, London, 1995
Trevor Huddleston, *Naught for Your Comfort*, Collins, London, 1956
Trevor Huddleston, *Return to South Africa*, Fount, London, 1991
Sir David Hunt, *On the Spot*, Peter Davis, London, 1975
Jonathan Hyslop, 'The African Renaissance Meets the Asian Renaissance? The Malaysian Impact on Contemporary South Africa' (unpublished seminar paper), Institute of Commonwealth Studies, University of London, 1998
Duncan Innes, *Anglo: Anglo-American and the Rise of Modern South Africa*, Ravan Press, Johannesburg, 1984
Noni Jabavu, *The Ochre People*, John Murray, London, 1963
Tim Jenkin, 'Talking to Vula: The Story of the Secret Underground Communications Network of Operation Vula', *Mayibuye*, May–Oct. 1995
Sheridan Johns and R. Hunt Davis Jr (eds), *Mandela, Tambo and the African National Congress: The Struggle Against Apartheid, 1948–1990 – A Documentary Survey*, Oxford University Press, New York, 1991
Paul Johnson, *Gold Fields: A Centenary Portrait*, Weidenfeld & Nicolson, London, 1987
Phyllis Johnson and David Martin (eds), *Destructive Engagement: Southern Africa at War*, Zimbabwe Publishing House, Harare, 1986
R.W. Johnson, *How Long will South Africa Survive?*, Macmillan, London, 1977
R.W. Johnson and Lawrence Schlemmer (eds), *Launching Democracy in South Africa: The First Open Election, April 1994*, Yale University Press, New Haven and London, 1996
Shaun Johnson, *Strange Days Indeed: South Africa from Insurrection to Post-Election*, Bantam Press, Johannesburg, 1994
Joel Joffe, *The Rivonia Story*, Mayibuye Books, Cape Town, 1995
Helen Joseph, *If this be Treason*, André Deutsch, London, 1963
Helen Joseph, *Side by Side*, Zed Books, London, 1986
John Kane-Berman, *South Africa: The Method in the Madness*, Pluto Press, London, 1979

John Kane-Berman, *Political Violence in South Africa*, SAIIR, Johannesburg, 1993
James Kantor, *A Healthy Grave*, Hamish Hamilton, London, 1967
Thomas Karis and Gwendolen M. Carter, *From Protest to Challenge: A Documentary History of African Politics in South Africa, 1882–1964. Vol.2: Hope and Challenge, 1935–1982*, Hoover Institution Press, Stanford, 1977
Thomas Karis and Gwendolen M. Carter, *From Protest to Challenge: A Documentary History of African Politics in South Africa, 1882–1964. Vol.3: Challenge and Violence, 1953–1964*, Hoover Institution Press, Stanford, 1977
Thomas G. Karis and Gail M. Gerhart, *From Protest to Challenge: A Documentary History of African Politics in South Africa, 1882–1990. Vol.5: Nadir and Resurgence, 1964–1979*, Indiana University Press, Indianapolis, 1997
Thomas G. Karis, 'Revolution in the Making: Black Politics in South Africa', *Foreign Affairs*, Winter 1983–84
Ronnie Kasrils, *'Armed and Dangerous': My Undercover Struggle Against Apartheid*, Heinemann, London, 1993 (second edn, Mayibuye Books, Belville and Jonathan Ball, Johannesburg, 1998)
Ahmed Kathrada, 'Summary of Different Viewpoints' (unpublished), 1977
Fergal Keane, *The Bondage of Fear: A Journey Through the Last White Empire*, Viking, London, 1994
Alexander Kerr, *Fort Hare 1915–1948*, Shuter & Shooter, Pietermaritzburg, 1968
The Kissinger Study on Southern Africa, Spokesman Books, Nottingham, 1975
Moses Kotane, *The Great Crisis Ahead*, New Age Publications, Johannesburg, 1957
Alf Kumalo and Es'kia Mphahlele, *Mandela: Echoes of an Era*, Penguin, London, 1990
Ellen Kuzwayo, *Call me Woman*, Ravan Press, Johannesburg, 1985
Anthony Lake, *The 'Tar Baby' Option: American Policy Toward Southern Rhodesia*, Columbia University Press, New York, 1976
David Lamb, *The Africans*, Vintage, New York, 1985
Brian Lapping, *Apartheid: A History* (television documentary, 1986, directed by John Blake)
Brian Lapping, *Apartheid: A History*, Grafton, London, 1986
Graham Leach, *South Africa*, Routledge & Kegan Paul, London, 1986
Mosiuoa Patrick (Terror) Lekota, *Prison Letters to a Daughter*, Taurus, Pretoria, 1991
Joseph Lelyveld, *Move Your Shadow*, Times Books, New York, 1985
Rev. Arthur J. Leonard, *A Brief History of Clarkebury*, Cory Library, Rhodes University
'A. Lerumo' (Michael Harmel), *Fifty Fighting Years: The Communist Party of South Africa, 1921–1971*, Inkululeko Publications, London, 1971

Doris Lessing, *Under my Skin*, HarperCollins, London, 1994
Julius Lewin, *The Rise of Congress in South Africa*, Indian Opinion, Phoenix, 1953
Merle Lipton, *Capitalism and Apartheid*, Gower, Aldershot, 1985
Tom Lodge, *Black Politics in South Africa Since 1945*, Longman, London, 1983
Tom Lodge, Bill Nasson, Steven Mufson, Khehla Shubane and Nokwanda Sithole, *All, Here and Now: Black Politics in South Africa in the 1980s*, Ford Foundation, New York, 1991
Albert Luthuli, *Let my People Go: An Autobiography*, Collins, London, 1962
Dale T. McKinley, *The ANC and the Liberation Struggle: A Critical Political Biography*, Pluto Press, London, 1997
Nosipho Majeke, *The Role of the Missionaries in Conquest*, Society of Young Africa, Johannesburg, 1952
Miriam Makeba, *Makeba: My Story*, Bloomsbury, London, 1988
Sebastian Mallaby, *After Apartheid*, Faber & Faber, London, 1992
Winnie Mandela, *Part of my Soul*, Penguin, London, 1985
Zindzi Mandela, *Black as I am*, Sereti Sa Sechaba & Madiba, Durban, 1989
Irwin Manoim, *'You Have Been Warned': The First Ten Years of the Mail & Guardian*, Viking Penguin, London, 1996
Shula Marks and Stanley Trapido (eds), *The Politics of Race, Class and Nationalism in Twentieth-Century South Africa*, Longman, London, 1987
Todd Matshikiza, *Chocolates for my Wife*, Hodder & Stoughton, London, 1961
Don Mattera, *Memory is the Weapon*, Ravan Press, Johannesburg, 1987
Frieda Matthews, *Remembrances*, Mayibuye Books, Cape Town, 1995
Z.K. Matthews, *Freedom for my People*, David Philip, Cape Town, 1981
Govan Mbeki, *Learning from Robben Island: The Prison Writings*, David Philip, Cape Town, Ohio University Press, Athens, Ohio and James Currey, London, 1991
Govan Mbeki, *Sunset at Midday: Latshon'ilang'emni*, Nolwazi Educational Publishers, Braamfontein, 1996
Thabo Mbeki, *Africa: The Time has Come*, Tafelberg Publishers, Cape Town and Mafube Publishing, Johannesburg, 1998
Fatima Meer, *Higher than Hope*, Hamish Hamilton, London, 1990
Fatima Meer, 'Past-Postscript' to *Higher than Hope* (for Dutch edition; unpublished in English)
Fatima Meer (ed.), *The CODESA File: An Institute for Black Research Project*, Madiba Publishers, Durban, 1993
Francis Meli, *South Africa Belongs to us: A History of the ANC*, Zimbabwe Publishing House, Harare, 1988
Clive Menell, Memoir on Mandela (unpublished), 1995
Joe Menell and Angus Gibson, *Mandela* (film), 1995. Research interviews:

Mabel Mandela, Godfrey Pitje, Ismail Meer, Joe Slovo, Albertina Sisulu, Leabie Piliso, Joe Matthews, Nthato Motlana, Winnie Mandela, Eddie Daniels, Sonny Venkatrathnam, Ahmed Kathrada

Martin Meredith, *The First Dance of Freedom: Black Africa in the Post-War Era*, Hamish Hamilton, London, 1984

Martin Meredith, *Nelson Mandela: A Biography*, Hamish Hamilton, London, 1997

Christopher Merrett, *A Culture of Censorship*, David Philip Publishers, Cape Town, 1994

William Minter, *King Solomon's Mines Revisited*, Basic Books, New York, 1986

Rich Mkhondo, *Reporting South Africa*, James Currey, London, 1993

Bloke Modisane, *Blame me on History*, Thames & Hudson, London, 1963

Naboth Mokgatle, *The Autobiography of an Unknown South African*, University of California Press, Berkeley, 1971

Kenneth Mokoena (ed.), *South Africa and the United States: The Declassified History*, A National Security Archive Documents Reader, The New Press, New York, 1993

T. Dunbar Moodie, 'The Moral Economy of the Black Miners' Strike of 1946', *Journal of Southern African Studies*, Vol.13, No.1, Oct. 1986

Noel Mostert, *Frontiers*, Jonathan Cape, London, 1992

Casey 'Kid' Motsisi (ed. Mothobi Mutloatse), *Casey and Company: Selected Writings*, Ravan, Johannesburg, 1980

Ezekiel Mphahlele, *Down Second Avenue*, Faber & Faber, London, 1959

Mqhayi (trans. Robert Kavanagh), *The Making of a Servant and Other Poems*, Ophir, Pretoria, 1972

Bruno Mtolo, *The Road to the Left*, Drakensberg Press, Durban, 1966

Bruce Murray, *Wits: The Open Years*, Witwatersrand University Press, Johannesburg, 1997

James Mutambirwa, *South Africa: The Sanctions Mission*, Zed Books, London, 1989

Indres Naidoo and Albie Sachs, *Prisoner 885/63: Island in Chains: Ten Years on Robben Island*, Penguin, London, 1982

Nat Nakasa (ed. Essop Patel), *The World of Nat Nakasa*, Ravan Press, Johannesburg, 1975

Jawaharlal Nehru, *Mahatma Gandhi*, Asia Publishing House, Bombay, 1960

Bernard Newman, *South African Journey*, Herbert Jenkins, London, 1965

Matthew Nkoana, *Crisis in the Revolution: A Special Report on the Pan-Africanist Congress of South Africa*, Mufabe, London, 1969

Lewis Nkosi, *Home and Exile*, Longmans, Green & Co., London, 1975

Rob Nixon, *Homelands, Harlem and Hollywood: South African Culture and Beyond*, Routledge, New York, 1994

Phyllis Ntantala, *A Life's Mosaic*, David Philip (for Mayibuye Centre), Cape Town, 1992

Olusegan Obasanjo and Felix Mosha (eds), *Africa: Rise to Challenge*, Africa Leadership Forum, New York, 1993
Dan O'Meara, *Forty Lost Years: The Apartheid State and the Politics of the National Party 1948–1994*, Ravan Press, Randburg and Ohio University Press, Athens, 1996
David Ottaway, *Chained Together: Mandela, de Klerk and the Struggle to Remake South Africa*, Times Books, New York, 1993
David Owen, *Face the Future*, Oxford University Press, 1981
George Padmore, *Pan-Africanism or Communism? The Coming Struggle for Africa*, Dennis Dobson, London, 1956
Alan Paton, *Cry, the Beloved Country*, Jonathan Cape, London, 1948
Alan Paton, *Hope for South Africa*, Pall Mall Press, London, 1958
Alan Paton, *Journey Continued*, Oxford University Press, 1988
J.B. Peires, *The House of Phalo*, Ravan Press, Johannesburg, 1981
Joseph A.M. Peppeta, 'A Portrait of a School: Healdtown Missionary Institution Through the Eyes of Some of its Ex-Pupils' (unpublished MA thesis), Cory Library, Rhodes University, 1998
Margery Perham, *African Apprenticeship*, Faber & Faber, London, 1974
Ben Pimlott, *The Queen*, HarperCollins, London, 1996
William Plomer, *The South African Autobiography*, David Philip, Johannesburg, 1984
Benjamin Pogrund, *How can Man Die Better: Sobukwe and Apartheid*, Peter Halban, London, 1990
Benjamin Pogrund, 'Killing the Messenger: A History of the *Rand Daily Mail*' (unpublished), 1996
Dr Daan Prinsloo, *Stem uit die Wilderness: 'n Biografie oor oud-pres. P.W. Botha*, Vaandel-Uitgewers, Mosselbaai, 1997
Progressive Forum, *The Defiance Campaign: A Study in Opportunism*, Progressive Forum, Johannesburg, 1953
Mamphela Ramphele, *A Life*, David Philip, Johannesburg, 1995
Enuga Reddy and Fatima Meer (eds), *Passive Resistance 1946: A Selection of Documents*, Madiba Publishers/Institute for Black Research, Durban, 1996
Robin Renwick, *Unconventional Diplomacy in Southern Africa*, Macmillan, London, 1997
Maggie Resha, *My Life in the Struggle: 'Mangoana Tsoara Thipa Ka Bohaleng*, Congress of South African Writers, Johannesburg, 1991
Edward Roux, *S.P. Bunting: A Political Biography*, published by the author and distributed by the *African Bookman*, Cape Town, 1944
James Sanders, 'A Struggle for Representation: The International Media Treatment of South Africa, 1972–1979' (unpublished PhD thesis), University of London, 1997 (to be published in 1999)
Claudia Schadeberg, *Voices from Robben Island* (film, 1994, directed by Adam Low)

Jurgen Schadeberg, *Voices from Robben Island*, Ravan, Johannesburg, 1994
Arthur Schlesinger Jr, *Robert Kennedy and his Times*, André Deutsch, London, 1978
Martin Schneider (ed.), *Madiba: Nelson Rolihlahla Mandela: A Celebration*, Martin Schneider & Co. and Twidale Publishing, Johannesburg, 1997
David Scott, *Ambassador in Black and White: Thirty Years of Changing Africa*, Weidenfeld & Nicolson, London, 1981
Jeremy Seekings, 'The Fragile Front: The United Democratic Front and the Referendum Issue, 1983–84' (unpublished seminar paper), University of Cape Town, 1993
Jeremy Seekings, 'What was the United Democratic Front?' (unpublished seminar paper), Yale University, 1994
Ronald Segal, *Political Africa*, Stevens, London, 1961
Ronald Segal, *Into Exile*, Jonathan Cape, London, 1963
Anthony Seldon, *Major: A Political Life*, Phoenix, London, 1997
Mark Hugh Shaw, 'South Africa's Other War: Understanding and Resolving Political Violence in Kwazulu-Natal (1985 –) and the PWV (1990 –) ' (unpublished PhD thesis), University of the Witwatersrand, 1997
A Short Pictorial History of the University College of Fort Hare, 1916–1959, Lovedale Press, Lovedale, 1961
Vladimir Shubin, 'The Soviet Union/Russian Federation's Relations with South Africa, with Special Reference to the Period Since 1980', *African Affairs*, Vol.95, 1996
George P. Shultz, *Turmoil and Triumph: My Years as Secretary of State*, Scribners, New York, 1993
Jack and Ray Simons, *Class and Colour in South Africa 1850–1950*, International Defence and Aid Fund for Southern Africa, London, 1983
Anant Singh, *Countdown to Freedom: Ten Days that Changed South Africa* (video, 1994, directed by Danny Schechter)
Anant Singh, *Prisoners of Hope: Robben Island Reunion* (video, 1995, directed by Danny Schechter)
Walter Sisulu, 'National Liberation' (unpublished essay), 1977
Walter Sisulu, interview with George Houser and Herbert Shore, Sept.–Oct. 1995
Gillian Slovo, *Every Secret Thing*, Little, Brown, London, 1997
Joe Slovo, *The Unfinished Autobiography*, Ravan Press, Randburg and Hodder & Stoughton, London, 1995
South African Institute of Race Relations (SAIIR), *Surveys, 1957–1998*, SAIIR, Johannesburg
Wole Soyinka, *Mandela's Earth and Other Poems*, Random House, New York, 1988
Allister Sparks, *The Mind of South Africa*, Heinemann, London, 1990

Allister Sparks, *Tomorrow is Another Country: The Inside Story of South Africa's Negotiated Revolution*, Heinemann, London, 1995

Allister Sparks, *The Death of Apartheid* (film, 1994, directed by Mick Gold)

Mark Stuart, *Douglas Hurd: The Public Servant – An Authorised Biography*, Mainstream Publishing, Edinburgh, 1998

Aelred Stubbs (ed.), *Steve Biko: I Write What I Like*, Heinemann, London, 1978

Helen Suzman, *Memoirs: In no Uncertain Terms*, Sinclair-Stevenson, London, 1993

Les Switzer (ed.), *South Africa's Alternative Press: Voices of Protest and Resistance, 1880–1960*, Cambridge University Press, 1997

I.B. Tabata, *The All African Convention*, Johannesburg People's Press, Johannesburg, 1950

I.B. Tabata, *The Boycott as Weapon of Struggle*, All African Convention Committee, Cape Town, 1952

Oliver Tambo, *Preparing for Power: Oliver Tambo Speaks* (compiled by Adelaide Tambo), Heinemann Educational Books, London, 1987

Margaret Thatcher, *The Downing Street Years*, HarperCollins, London, 1993

Can Themba (ed. Essop Patel), *The World of Can Themba*, Ravan Press, Johannesburg, 1985

Leonard Thompson, *The Political Mythology of Apartheid*, Yale University Press, New Haven, 1985

Leonard Thompson, *A History of South Africa*, Yale University Press, New Haven and London, 1995

Truth and Reconciliation Commission, *Truth and Reconciliation Commission of South Africa Report*, Vols 1–5, TRC, Cape Town, 1998

Desmond Tutu (ed. John Allen), *The Rainbow People of God*, Doubleday, London, 1994

Humphrey Tyler, *Life in the Time of Sharpeville*, Kwela Books, Cape Town, 1995

United Nations Centre Against Apartheid Notes and Documents, 'Observance of Mr Nelson R. Mandela's Sixtieth Birthday', Aug. 1978

United Nations Department of Public Information, *The United Nations and Apartheid, 1948–1994*, New York, 1994

United States Senate Hearings Before the Subcommittee on African Affairs of the Committee on Foreign Relations, 94th Congress, Second Session on South Africa, *South Africa: US Policy and the Role of US Corporations*, US Government Printing Office, Washington DC, 1977

W.P. van Schoor, *The Origin and Development of Segregation in South Africa*, Teachers' League of South Africa, Cape Town, 1951

Frederik van Zyl Slabbert, *The Last White Parliament*, Sidgwick & Jackson, London, 1985

Randolph Vigne, *Liberals Against Apartheid: A History of the Liberal Party of South Africa, 1953–68*, Macmillan Press Ltd, Basingstoke, 1997
Patti Waldmeir, *Anatomy of a Miracle: The End of Apartheid and the Birth of the New South Africa*, Viking, London, 1997
Frank Welsh, *A History of South Africa*, HarperCollins, London, 1998
T.R.H. White, 'Z.K. Matthews and the Formation of the ANC Youth League', *Kleio*, No.XXVII, 1995
Quintin Whyte, *Behind the Racial Tensions in South Africa*, South African Institute of Race Relations, Johannesburg, 1953
Brian Willan (ed.), *Sol Plaatje: Selected Writings*, Witwatersrand University Press, Johannesburg, 1996
Gordon Winter, *Inside BOSS: South Africa's Secret Police*, Penguin, Middlesex, 1981
Gordon Winter, 'Inside BOSS and After', *Lobster*, No.18, 1989
Donald Woods, *Biko*, Paddington Press, New York and London, 1978
Bob Woodward, *Veil: The Secret Wars of the CIA 1981–1987*, Simon & Schuster, London, 1987
Woodrow Wyatt (ed. Sarah Curtis), *The Journals of Woodrow Wyatt, Vol.1*, Macmillan, London, 1998
D.M. Zwelonke (pseudonym), *Robben Island*, Heinemann African Writers Series, London, 1973

فهرس الأعلام
والأماكن والبلدان

حرف الألف

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الميم

حرف الهاء

حرف الواو

لقد شغف «أنطوني سامبسون» بشؤون جنوب إفريقية منذ سنة 1951. فبعد تخرّجه من جامعة أكسفورد، ذهب إلى جنوب إفريقية ليصبح محرراً للمجلة السوداء «درام» Drum في جوهانسبورغ. وفي تلك السنة قابل نلسون مانديلا في «سوويتو» بينما كان مانديلا يُحضِّرُ حملة تَحَدٍّ ضد نظام التمييز العنصري، التي غطتها مجلة «درام» تغطية شاملة.

وفي سنة 1956 نشر «أنطوني سامبسون» أول كتاب له (درام: مغامرة إفريقية Drum An African Adventure) وهو عمل كبير ممتع يغطي السنوات الأربع الأولى التي قضاها محرراً للمجلة. وبقي بعدها يتردد إلى جنوب إفريقية باستمرار. ثم نشر بعد ذلك كتاباً عن «محاكمات الخيانة» سنة 1958 وغطّى أخبار محاكمة مانديلا التي حُكم عليه في نهايتها بالسجن مدى الحياة سنة 1964.

وفي لندن، عمل «سامبسون» في جريدة الأبزرفر Observer ست سنوات قبل أن ينشر كتابه (التركيبة البنيوية البريطانية Anatomy of Britain) وهو الكتاب الذي أحدث ضَجّة كبيرة وكان من الكتب الأكثر مبيعاً. (وقد تمّت مراجعة الكتاب في أربع طبعات لاحقة، وقد قرأه مانديلا في سجنه). ثم نشر عدّة كتب عن الأعمال والتجارة الدولية.

وكان رئيساً لجمعية المؤلفين وعضواً في «سكُتْ ترَسْت Scott Trust» التي تمتلك جريدتي الغارديان Guardian والأبزرفر Observer.

• صورة الغلاف الأمامي © آني لايبوفيتز/ كونتاكت/ كولوريفيك 1993

ردمك: ISBN 9960-20-829-X



المؤلف مع نلسون مانديلا في لندن، تموز (يوليو) 1996



موقعنا على الإنترنت:
http://www.obeikanbooks.com